



السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة
(قراءة جديدة)

محمد الصوياني



المجلد الأول
(١ - ٢)

العبيكان
Obekan

السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

محمد الصوياني

الجزء الأول



ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني.-

ط٥.- الرياض، ١٤٣٤هـ

٤مج.

٢٦٨ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٢-٥٧١-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٥٧٢-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١- السيرة النبوية ٢- الحديث الصحيح أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٣٤ / ٩٥١٦

الطبعة الخامسة

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على أبل

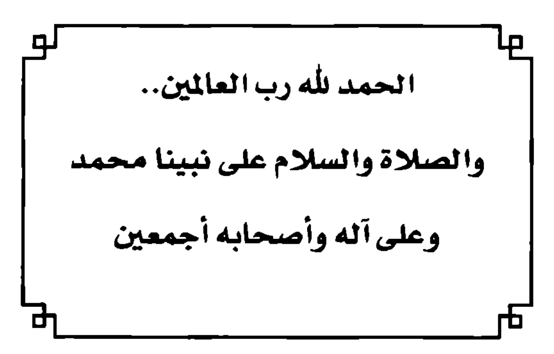
http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم


الحمد لله رب العالمين..
والصلاة والسلام على نبينا محمد
وعلى آله وأصحابه أجمعين

هذه القصة

قصة طفل طهور كالبرد.. ولد يتيماً.. واستمر اليتم يلاحقه ويلاحق طفولته في طرقات مكة ودروبها.. يذيقه المرارة.. يفجعه بأهله وأحبابه..

ويكبر محمد ﷺ وتكبر غربته.. ويكتشف في دروب الحياة يتماً أكبر من يتمه.. وهمّاً أثقل من همِّه.. فالأرض كلها يتم.. والبشرية تئن هماً وحزناً يعصر قلبها..

الجزيرة العربية كانت غابةً من الأصنام.. وأوديةً تسيل دماءً بريئة.. تسيل عادات بالية وتقاليد محيرة..

ماذا يفعل أمامها.. وماذا بيديه حيالها.. ماذا يفعل سوى الغربة مهرباً وملاذاً.. يناجي بها ربه ويعج إليه بالتوحيد والدعاء.. وفي غربته الشعورية تلك تهبط عليه الرسالة.. فيحمل الأمانة وينحدر بها نحو مكة.. نحو أمته فينطق بها بهجة وبشرى لهم.. وينتظر الإجابة.. وتأتي الإجابة على غير ما يتمنى ويحب.. تأتي الإجابة سياطاً وشتائم وتكذيباً له وهو الذي يلقب بالأمين.

فماذا فعل الأمين ﷺ مع هؤلاء؟

الإجابة كانت أكثر من خمسين عاماً من فنِّ التعامل مع الغير.. نقشها ﷺ في قلوب من حوله وقلوب غيرهم ممن دبَّ على هذه الأرض إلى قيام الساعة.

الإجابة سيرة لم تكن ماضياً أبداً.. بل شعلة توقد شموس الحياة.. ودماء تتدفق في عروق المستقبل والأجيال.

سيرته ﷺ في مكة هي واقع هذه الصحوة التي تهز أركان الأرض من أقصاها إلى أقصاها.. ولا بد لهذه الصحوة من أن تشرب من النبع الذي شربت منه في مكة.. لا بد لها من أن تتقد بشعلتها الخالدة وإلا تحولت إلى رماد تذروها الرياح والأهواء.

أحاول في هذه السيرة - القصة أن أبسط ما أمكن.. أن أجعل هذه الأحداث سهلة في متناول الجميع.. خاصة من لا يبحثون عن التعقيد أو التفريع.. لذلك صغتها وربطت بين أحاديثها الصحيحة، لتكون قصة لا روايات أحداث متفرقة فقط.

فالحمـــد لله حمداً يليق بجلاله وعظمته إن كنت قــد وفقت في ذلك.. فالتوفيق منه وحده.

وأرجوه الصفح والغفران إن كنت قد زللت..

محمد الصوياني

جده عبد المطلب

لا أدري من أين أتى..

ربما صعد جبلاً أو منه انحدر..

ربما هبط وادياً؛ أو كان يرعى الغنم..

لا أدري..

لكنه كان متعباً يقتلع خطاه..

يسحب جسده الثقيل نحو الكعبة..

حيث ألقى بذلك الجسد في الحجر..

وتردى في هوة سحيقة من النوم..

ليجد في قعرها هاتفاً يطالبه بعمق أكثر..

فيقول له: (احفر طيبة)[1].

لم يمهله عبد المطلب.. لقد عاجله قائلاً: وما طيبة؟

ولم تأت إجابة.. وأطبق الصمت، والهاتف اختفى ولم يرد. وفي الغد رجع عبد المطلب إلى مرقده ذلك عله يجد لذلك الحلم تفسيراً، وما إن غاص في سباته حتى سمع ذلك الصوت الخفي يناديه مرة أخرى: (احفر بره)[2].

(يقول عبد المطلب: قلت: وما بره؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه.. فجاءني فقال: احفر زمزم.

قلت: وما زمزم؟

قال: لا تنزف أبداً ولا تذم، تسقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل..

---

(١) اسم من أسماء زمزم.

(٢) اسم من أسماء زمزم.

فلمـــا بيّن لعبد المطلب شـــأنها، ودل على موضعها وعرف أنـــه قد صدق، غدا[1] بمِعْوَلِـه ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليـس لـه يومئذ وليد غيره.. فحفر فيها، فلمـــا بدا لعبد المطلـب الطي[2] كبَّر[3]. فعرفت قريش أنه قـد أدرك حاجته.. فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً.. أشركنا معك فيها.

فقـــال عبد المطلب: ما أنا بفاعـل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيتُه من بينكم.

فقالوا: أنْصفنا فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها.

قال عبد المطلب: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

قالوا: كاهنة بني سعد هذيم. قال عبد المطلب: نعم.

وكانت - هذه الكاهنة - بأشــراف الشــام. فركب عبد المطلب، ومعه نفر من بني أميــة، وركب من كل قبيلة من قريش نفــر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز[4]، حتى إذا كانوا ببعضها نفذ ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم، فأبوا عليهم. وقالوا: إنا بمفاوز.. وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القــوة، فكلما مات رجل، دفعه أصحابه في حفرته، ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً)[5]

لقد كان ذلك الرأي سقيماً.. إنه انتحار بطيء، سببه تلك الخصومة والضيق الذي لا مبرر لـه، إلا حب الرياسة والشرف عند أولئك القوم.

---

(١) انطلق في الصباح.

(٢) طي البئر وهو من الحجارة.

(٣) قال: الله أكبر.

(٤) أي أن الأرض صحراء مهلكة لا ماء فيها.

(٥) ما بين الأقواس خبر صحيح الإسناد إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر ما بعده.

صاح عبد المطلب بتلك الجثث الملقاة في اللُّحُود قائلا: (والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا؛ لَعَجْزٌ.. فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد: ارْتَحِلُوا.

فارتحلوا، حتى إذا بعث[1] عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا قبائل قريش، وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال. فقال: هلموا إلى الماء، فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا واستقوا كلهم. ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة[2] هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم)[3].

رجع عبد المطلب بفضل الله وحده لا بهمهمات الكاهنة وتمتماتها، وأرجع الله بذلك النبع الحياة إلى جثث التحفت بقبورها، وقادتهم ناقة عبد المطلب إلى مكة يحملون على عيسهم بعض الماء، ويحملون التسليم بحق عبد المطلب ببئر زمزم، إنه الآن يتولى سقاية بئر جده إسماعيل عليه السلام..

جده إسماعيل صاحب البئر الأول، وأول من شرب منها رغم أنه لم يحفرها، لكنها من أجله تفجرت..

جده إسماعيل هو أول من سكن مكة.. عندما وصل إليها كان طفلاً محمولاً.. كان رضيعاً، لكن مكة كانت أكثر طفولة...

كانت أرضاً عراء.. جدرانها جبال، كانت وادياً بلا شجر بلا حياة.. بلا بشر، تمر بها

---

(١) دفعها للنهوض.

(٢) الأرض التي لا ماء فيها.

(٣) ما بين الأقواس خبر صحيح عن علي رضي الله عنه وهولم يدرك جده، فهو مرسل ربما سمعه من أحد أعمامه أو غيرهم،. رواه ابن إسحاق دلائل النبوة ١-٩٣ : حدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن عبد الله بن زرير، أنه سمع علي قال: قال عبد المطلب بن هاشم: إني لنائم في الحجر، إذ أتاني آت فقال لي: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر المضنونة. قلت: وما المضنونة... إلخ يزيد ثقة التقريب ٦٠٠، ومرثد ثقة التهذيب ١٠-٨٢ وابن زرير تابعي ثقة رمي بالتشيع التقريب ٣٠٣.

القوافـل فلا تتوقف، والرياح أيضاً كانت تمر فلا تتوقـف، لكن رفقة طيبة توقفت، رفقة طاهـرة قادمة من البعيد البعيد، تعلو مع الدروب وتنخفض، تعبر الفيافي والقفار، وتعبر المفاوز والرمال، وتشق أمواج السراب.

امـرأة طاهرة.. اسـمها: هاجر.. جـاء بها زوجها الخليل عليه السـلام جاء بها إبراهيم وبابنها إسـماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت[1] عند دوحة[2] فوق زمـزم في أعلى المسـجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها مـاء، فوضعهما هنالك، ووضـع عندهما جراباً فيه تمر وسِـقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيـم منطلقاً، فتبعته أم إسـماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شـيء؟ فقالت لـه ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليهـا، فقالت لـه: الله أمرك بهذا؟ قال: نعـم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ثـم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه اسـتقبل بوجهـه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفـع يديه فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[3].

وجعلت أم إسـماعيل ترضع إسماعيل وتشـرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السـقاء عطشـت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه، يتلوى، يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظـر إليه فوجدت (الصفا)[4] أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم اسـتقبلت الـوادي تنظـر هل ترى أحـداً، فلم تر أحـداً. فهبطت من الصفا حتـى إذا بلغت بطن الوادي[5] رفعت درعها[6] ثم سـعت سعي الإنسـان المجهود، حتى جاوزت الوادي ثم أتت (المروة)[7] فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

---

(١) قبل أن يبنى. والمقصود هنا موقع البيت الحرام - الكعبة.
(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.
(٤) هو جبل الصفا الذي يبدأ الحاج منه السعي.
(٥) وهو ما بين العلامات الخضر الموجودة داخل المسعى الآن.
(٦) درع المرأة هو قميصها.
(٧) جبل آخر.

فلما أشـرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه.. فإذا هي بالملك عند موضع زمـزم، فبحث بعقبه - أو بجناحه- حتى ظهر المـاء، فجعلت تحوضه[1]، وتقول بيدها هكذا.. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسـماعيل، لو تركـت زمزم - لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً».

فشـربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيـت مرتفعاً مـن الأرض كالرابية، تأتيه السـيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رِفْقَةٌ من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم[2]، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطير ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسـلوا جرياً أو جريين[3]، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. وأم إسـماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لاحق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم.

قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسـماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسـلوا إلى أهليهـم فنزلـوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم» وشـب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسـماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بِشـرٍ، نحن في ضيق وشدة وشـكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شـيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسـألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد

---

(١) تجمعه.

(٢) جرهم حي من اليمن نزلوا مكة، تزوج فيها إسـماعيل، ومع مرور السـنين ألحدوا فأبادهم الله (لسـان العرب).

(٣) الجري هو الرسول.

وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيِّرْ عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبث عنهم إبراهيم ما شــاء اللــه، ثم أتاهم بعد فلم يجــده، فدخل على امرأته فســألها عنه: فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وســألها عن عيشهم وهيئتهم.. فقالت: نحن بخير وسَــعَة، وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: ما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه».

فهما لا يخلو عليهما[1] أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال إبراهيم عليه السلام: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه: يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه- فسألني عنك فأخبرته.. فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشــيء؟ قالت: نعم. وهو يقرأ عليك الســلام. ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شــاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإســماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبــاً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك به ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: «فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً.. وأشار إلى أكمة[2] مرتفعة على ما حولها».

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له.. فقام عليه وهو يبني.. وإســماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العلم»

---

(١) أي اللحم والماء.

(٢) الأكمة الموضع الذي هو أشد ارتفاعاً مما حوله.

فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»[1]

هذه هي قصة قدوم إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل عليهم الصلاة والسلام، وهذه هي بداية الكعبة المشرفة التي أمر الله ببنائها، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2].

وكان لإبراهيم وابنه إسـماعيل عليهما السـلام قصة أخرى.. ليس فيها بناء، بل فيها الصبر والدماء.

فقد رأى إبراهيم في منامه أنه يذبح ابنه، ورؤيا الأنبياء وحي من الله، فكانت هذه الأحداث التي يقول الله عنها: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

وكان هـذا الذبـح كبشـاً افتدى الله بـه نبيه إسـماعيل، وحفظ به نسـله من الانقطاع.

---

(١) رواه البخاري ٣ – ١٢٢٧ عن ابن عباس موقوفا مع وجود فقرات مرفوعة.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٢٥-١٢٩.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠٧.

سافر إبراهيم، وماتت هاجر، وبقي إسماعيل في مكة حتى مات ودفن هناك، ومرت الأيام على بيت الله وكعبته، وسلالة إسماعيل تحيط بها وتجلها وتحترمها، ولا تلوثها بالشرك والأصنام، وتحج بيته الحرام لا تشرك به شيئاً.

كانت مكة نقية.. طاهرة من الشرك، حتى خرج ذلك المخرب.. ذلك الشيطان المسمى بـ: "عمرو بن لحي"، فبدأ بغرس الشرك في أرض مكة وقلوب أهلها، فانحرف بهم وبغيرهم عن توحيد الله الذي من أجله بعثت كل الرسل، وأنزلت كل الكتب السماوية.. شيطان بشري اسمه: (عمرو بن لحي بن عامر الخزاعي، يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة)[1] والسوائب: شياه وبهائم تترك للآلهة، لا تُمَسُّ ولا تُحْلَب.

غصَّت مكة بالشرك والأصنام، وانحرف أهلها عن عبادة الواحد الأحد وهن ملة أبيهم إبراهيم، إلى عبادة أخشاب وأحجار يصنعونها بأيديهم.. كانت الكعبة تئن مما نصب على ظهرها، أما أهل مكة فتناسل الشرك في قلوبهم وعقولهم، وكان آخرهم حفيد إبراهيم عليه السلام: عبد المطلب الذي حاز الزعامة والشرف، وحاز بئر زمزم، ولكنه لم يحز حتى كل أحلامه، لقد كان يحلم وينذر.

كان يحلم بعشرة وذبيح

تَلَفَّت عبد المطلب فوجد الناس تنظر إليه.. تحبه وتجله، وتحمله في قلوبها، وتَلَفَّت ثانية وثالثة ونظر وراءه، فلم يجد خلفه إلا ابنه الحارث، فرفع رأسه إلى السماء يخاطب خالقها الكريم، الذي ساق له المجد أن يقر عينه بأخوةٍ للحارث، وظل يدعو ويدعو.. يخاطب الناس حوله.. يشهدهم ويقول لهم إنه: (قد نذر إن توافى له عشرة رهط[2] أن ينحر أحدهم.

فحقق الله له ما أراد، ولما توافى العشرة أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب - وكان أحب الناس إلى عبد المطلب.

فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل)[3]

---

(١)حديث صحيح رواه البخاري ٣ - ١٢٩٧ ومسلم ٤- ٢١٩٢.

(٢) أي إن رزقه الله عشرة أبناء.

(٣) إسناده حسن رواه الطبري في تاريخه ٢- ٢٣٩ حدثني يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنا =

إن الله يعطي بلا ثمن ويرزق من يشاء بغير حساب، وهو ليس بحاجة لدماء ذلك الطفل البريء، لكن والده شـدد، فشـدد الله عليه، فأصابه بأغلى ولده، فلم ينجه من ورطته إلا مائة من الإبل.. انتشـلت ذلك الصغير من السكين، ليعيش بقية عمرٍ قصيرٍ منقوشاً في التاريخ.. ما بقيت الجبال على ثباتها.

عاش ذلك الطفل وكبر ذلك حتى بلغ سن:

الزواج

تربـى عبـد الله ذلك الطفل الوديع فـي قلب عبد المطلب وتربـع فيه، وبلغ مبلغ الرجـال دون أن يعرفه قومه بطيش أو سـفه، كأني به هـادئ كثير الصمت والتأمل.. مليء بالانتظار.. ليس في حياته ما يثير، كان كالعالم من حوله ينتظر وينتظر، ويبحث عـن زوجة له في بيوتات مكة ويسـأل، فكانت فتاة يقـال لها "آمنة بنت وهب بن عبد مناف" هي الحبيبة وهي الإجابة.

تزوجا.. فـكان الحب، وامتلأ بيتهما الصغير بالبهجة، وبالشـباب الغض الحالم بحياة بيضاء فسيحة.. مليئة بالربيع والأطفال والجمال، ولم يكن هذا الشاب يدري أن القضاء أقوى منه، ومن فدية أبيه، لم يكن يدري أن تلك الأحلام الراقصة في مخيلته كانت لغيره..

إنها للعالم أجمع، أما هو فتوشـك أن تدلف بيته الصغير سـحابة سوداء مشبعة بالحـزن والدمـوع والنواح، فعبد الله الذي فر من الموت بمائة من الإبل.. يسـعى إلى حياضـه علـى واحد منها.. امتطى راحلتـه وتوجه نحو يثرب.. حيـث كان الموت في انتظاره، ليسكنه في أحد مقابرها.. بعيداً عن عبد المطلب بعيداً عن مكة.. بعيداً عن آمنـة الحزينة، التي كانت تحمـل أمانة عبد الله وأحلام عبد الله.. جنيناً تيتم قبل أن يرى هذه الدنيا.

كانت مكة تتساءل: أحقاً مات عبد الله؟

= يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب أنه أخبره أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة، يونس ثقة ، وشـيخه ثقة حافظ عابـد التقريب ٦١٣، وابن يزيد ثقة التقريـب ٦١٤، لكن في روايته عن الزهري وهماً قليلاً يجعل حديثه حسناً لذاته. انظر التهذيب ١١-٤٤٧.

كأني بعبد المطلب والفاجعة أفقدته صوابه.. يسأل القادمين من يثرب فرداً فرداً.. يعترض قوافلهم.. يتعلق بأزمة مطاياهم، علّه يسمع تكذيباً لما سمع، علّ أحد المسافرين يصيح بوجهه فيقول: أبشر فعبد الله لم يمت ما زال حياً، وهو قادم إليك.

لكن صمت القوافل كان يحمل أنفاس عبد الله الأخيرة تودع هذه الدنيا، وتودع عبد المطلب، لينثني ذلك الشيخ الكظيم طاوياً حرقته بين أضلاعه.. يحاول دفع ما به من حزن فتفضحه عيناه أمام آمنة المفجوعة، فتبكي حبيبها الذي قبض بعيداً عنها، وفارقها في وقت كانت تحترق لعودته وتشتاق لرجوعه محملاً بالحب والهدايا وحكايات السفر.

ملأت الحيرة والوجوم مكة لهفاً على عبد الله، لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد جاء:

الفيل يمزق السكون

لم يطل ذلك الوجوم في مكة، فسرعان ما تفجر الخوف من جبالها وانتفضت بطحاؤها هلعاً.. مكة اليوم تئن تحت أقدام فيل مخيف وحراب جيش ضخم زاحف لهدم بيت الله الحرام وكعبته، كان ذلك الجيش يرج مكة من أقصاها إلى أقصاها، ومن عبيدها إلى ساداتها، كأنما كان يدحرج أمامه جبال اليمن وسد مأرب، فتطاير أهل مكة فوق ذرى الجبال وتفرقوا بين الشعاب، فالأمر فوق ما يحتملون، ولكن سيد قريش عبد المطلب لم يهرب.. لقد ثبت لهم، وحمل روحه بين كفيه لمساءلتهم. فقال لملكهم[1]:

(ما جاء بك إلينا، ما عناك يا ربنا، ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت؟ فقال الملك: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا آمن، فجئت أخيف أهله. فقال عبد المطلب: إنا نأتيك بكل شيء فارجع. فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت. وأَهَلَّ ثم قال:

---

(١) لم ترد تسمية هذا الملك، ربما كان أبرهة كما جاء في بعض الروايات الضعيفة عند ابن إسحاق، وأبي نعيم في الدلائل (١٤٤) وغيرهما، وقيل: إن أبرهة بعث رجلاً اسمه سمبر مصفود على عشرين ألفاً... ليس لدي ما يرجح رواية على رواية.

اللهم إن لكل إله حلال فامنع حلالك
لا يغلبن محالهم أبداً محالك

اللهم فإن فعلت فأمر ما بدالك

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر، حتى أظلتهم طيرٌ أبابيل، التي قال الله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾[1]. فجعل الفيل يعج[2] عجاً.. فجعلهم.. كعصف[3] مأكول)[4].

كانت حجارة حقيقية لا تخطيء أهدافها، وكان عذاباً سماوياً مبيداً لطاغوت من الطواغيت.

أما في مكة فكان هناك من لم يستطع الهرب.. آمنة تعاني من آلام الوضع، ترى هل أقعدتها تلك الآلام.. هل تركها أهلها وحدها لتلد ابنها (في يوم الفيل)[5] وحيداً.. تفرق قومه ومات أبوه، والموت رعب وسيوف تحيط ببلده؟ لا أدري ربما.

لكن الذي حدث أنها ولدت طفلاً.. ولدت حياة للعالم، وموتاً للهمجية والضلال، وُلد محمد، ومات أصحاب الفيل، وعادت قريش لتجد البيت آمناً.. تحميه الملائكة.. وأسراب الطيور.. (ولدت آمنة هذا اليتيم بعدما توفي أبوه)[6][7]، وكانت ولادته

---

(١) حجارة من طين.

(٢) العج: رفع الصوت.

(٣) العصف هو الورق اليابس على ساق الزرع فيتفتت.

(٤) كما ذكرت وردت روايات ضعيفة لا تتسق مع منهج الكتاب، ولا أستطيع الجزم بصحتها، فاكتفيت بما كان قوي الإسناد كهذه الرواية، التي رواها الحاكم ٢-٥٣٥ من طريق إسحاق بن راهويه، أنبأنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: (أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم:... إسحاق ثقة حافظ التقريب ٩٩ وشيخه ثقة التهذيب ٢-٥٧ وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف رغم قول الحافظ: فيه لين، فجرحه غير مفسر، قال ابن معين: ثقة جايز الحديث إلا أن ابن أبي ليلى جلده الحد، وقال الساجي: ليس بثبت، يقدم علياً على عثمان، جاء إلى ابن أبي ليلى فشهد عليه عنده في قضية تحمل عليه ابن أبي ليلى فضربه. وهذا جرح غير قادح. وقال يعقوب: ثقة، وقال ابن عدي: لا بأس به، وقال العجلي: كوفي لا بأس به. وللخبر شواهد تقويه.

(٥) إسناده جيد رواه ابن سعد ١-١٠١ من طريق ابن معين أخبرنا حجاج، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل)، يونس حديثه حسن. الكاشف ٢-٣٠٢ وحجاج كذلك وسعيد وابن معين أعلام.

(٦) رواه مسلم (٣-١٣٩٢) وهذا الجزء من الحديث مرسل لكن له شواهد تقويه.

(٧) أما كم بين ولادته ووفاة والده فالأحاديث التي وصلت في ذلك ضعيفة الإسناد متضاربة فأعرضت عنها.

(يوم الاثنين)[1] أحد أيام (شـهر ربيع الأول)[2] مـن عـام الفيل، وذلك قبل الهجرة بـ (٥٣) عاماً.

أساطير ومولد

مولـد محمـد ﷺ حدث ما زال يهز الدنيا.. هو بشـرى للقلوب وفرحة للأرواح، وبداية الإنقاذ لهذه البشـرية من التيه والظلمة، وتحويل هذه الجموع العطشى وردها إلى النبع الذي أضاعته وفرطت فيه، لكن ذلك لا يعني أن تتشـقق المحبة في القلوب عن أساطير تتنامى وتتنامى، حتى تعمى الأبصار وتحطم العقول.

لقد أعمى الحب بعض السـذج، فصاروا يسـقون حدث المولود بأمطار الأكاذيب، فأنشأوا حوله الأساطير والخرافات، وجاءوا بالروايات الملفقة التي كادت تشوه سيرته الطاهرة[3].

كذبـوا فقالـوا: إن محمداً وهو طفل رضيع كان يناغي القمر، فحيثما أشـار إليه اتجـه، وكأنه يلعب به في مسـاحات الليل والفضاء، وكذب آخـرون فقالوا: إن النجوم دنـت من الأرض عند مولـده، ولفقوا فقالوا: أنه كان هناك لوح من الذهب كتبت عليها أشـعار عند رأس أمه يوم مولده. لقد أسـرف أولئك وتجنوا على الأجيال التي تنتظر الحقيقة.. تنتظر الحدث كما حدث. لكن تلك الغيوم الأسـطورية لم تستطع أن تحجب شـمس الحقيقة، فلقد بقيت الأحداث الحقيقية كما هي دون تحريف.. دون مسـاس، وكان منها:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (٢-٨١٩) حيث قال ﷺ: «ذاك يوم ولدت فيه»..

(٢) كونه ولد في شـهر ربيع الأول هو الصحيح، فقد ورد في ذلك حديثان يقوي بعضهما بعضاً، الأول: عند ابن أبي شيبة وفيه انقطاع (سيرة ابن كثير ١-١٩٩) والآخر: رواه مالك وعقيل ويونس وهو مرسل محمد ابـن جبيـر بن مطعم (ابن كثير ١-١٩٩) لكن تحديد أي يوم هل هو الثامن أو الثاني عشـر من ربيع، فلم أعثـر على خبر صحيـح لكن ابن كثير يقول: إن جمهور العلماء يرجحون يـوم (١٢) لكن ترجيحهم يبقى دون سند صحيح.

(٣) لولا فتح الله لعباقرة هذه الأمة وأساتذتها بمنهج النقد العلمي للروايات والأسانيد، فميزوا الصحيح من الضعيف. وقد حاولت جمع تلك الأساطير والأكاذيب في موسوعة السيرة.

هناك رآه بعض المنتظرين بشوق.. هناك في يثرب، حيث يرقد عبد الله تحت أطباق الثرى.. وقف رجل يتأمل السماء.. يتأمل النجوم. كان يهودياً، وربما كان فلكياً.

صرخ الرجل بقومه قائلاً: (يا معشر اليهود. فاجتمعوا إليه. قالوا: ويلك ما لك؟

قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة)[1].

كادت تلك الصرخة اليهودية أن تتلاشى بين النجوم.. كادت أن تختفي في سراديب اليهود المظلمة، لولا وجود طفل في السابعة أو الثامنة من عمره ساقه الله إليه وساقته أقدامه إلى موقع الحدث لينقله لنا بعد أن كبر وشاخ، غلام صغير من أهل يثرب اسمه حسان بن ثابت.

إذاً فاليهود كان لديهم علم بمخرج نبي، وكانوا يعرفون تاريخ مولده مقروناً بحدث فلكي يظهر في السماء، بل كانوا يعرفون مكان خروجه.. فقد أخبرتهم التوراة أنه سيسكن أرضاً ذات نخل في جزيرة العرب، وهي قريبة من جبال "فاران" كما في التوارة، وجبال فاران هي جبال مكة، لذا سكن اليهود كل أرض ذات نخل في جزيرة العرب ومنها: خيبر وهجر وتبوك، ولكن أكثرهم سكن يثرب، ومن القبائل التي سكنت يثرب: قريضة والنضير وقينقاع. وهذا الرجل الذي رأى النجم أحدهم.

لم يكن هذا اليهودي هو الوحيد الذي رأى هذا النجم، ففي مكة رجل حيران.. يقال له: زيد بن عمرو بن نفيل، كان يحدق في الأصنام.. يتأملها وهي منصوبة فوق بيت الله، فلا تزيده الأيام إلا اقتناعاً بتفاهتها، وتخلف عقول أتباعها وعابديها. إنها في نظره لا تعدو كونها حجارة صماء بكماء خرساء.. لا تقدم ولا تؤخر.

---

(١) حديث حسن، رواه ابن إسحاق ٦٢ سماعاً من صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت قال: (إني لغلام يفعه ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غدات...) وهو إسناد قابل للتحسين، فصالح ويحيى ثقتان، وابن إسحاق لم يدلس، والتابعون لم يتهموا وربما كانوا صحابة وللحديث شواهد تقويه منها ما رواه ابن إسحاق عن هشام عن أبيه عن عائشة لكن ابن إسحاق عنعن ومنها ما بعده وغيره أيضاً.

ضاقت بها مكة وضاق زيد بها، فبحث له عن فسحة بين الفيافي والبطاح يتنفس فيها الحرية والتوحيد.. يبحث عن الحقيقة.. يفتش عنها أديرة العباد، وصوامع الرهبان.. يسأل ويسأل، ولا يكف عن السؤال، حتى قذف به الطريق بين يدي حبر من أهل الشام، فأمره بالعودة إلى مكة وقال: (قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع وصدقه واتبعه)[1].

أما في يثرب فـ(كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي، وأنه لا نبي بعده، واسمه أحمد، مهاجره يثرب)[2].

كان اليهود يحملون علماً غزيراً وعظيماً،لكنهم لا يمررون منه إلا ما يخدمهم ويحكم قبضتهم، وما سوى ذلك يخفونه خلف ألف قفل وباب.

إذا فقد ولد محمد فمن سماه.

التسمية

قبل عبد الله، وقبل عبد المطلب، وقبل مئات السنين، كان هذا المولود حروفاً.. وعداً يتلفظ به الأنبياء ويبشرون، ويوصون أممهم به.. عيسى بن مريم جاء إلى خراف بني إسرائيل الضالة ليهديهم، ويقول لهم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[3].

كشف الله هذا الغيب وبشر به وذكر اسمه في الإنجيل، وفي التوراة من قبل الإنجيل، ولهذا يقول ﷺ: «سميت أحمد»[4]، ولا أدري من هو الذي حقق هذا الغيب

---

(١) إسناده حسن، رواه ابن حبان وأبو نعيم (ابن كثير ٢١٢/١) قالا: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن محمد عن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن عمرو. وهب ثقة التهذيب (١٥٩/١١) وخالد بن عبد الله الطحان ثقة، التهذيب (١٠٠/٣) وابن عمرو حسن الحديث، ويحيى تابعي ثقة وللحديث شاهد عند البيهقي في الدلائل (٩١/١) بسند جيد.

(٢) حسن بشواهده وسنده ضعيف رواه أبو نعيم (ابن كثير ١-٢١٤) من طريق النضر بن سلمة وهو ضعيف، عن إسماعيل بن قيس بن وهو ضعيف. اللسان (٤٢٩/١)، لكن يشهد له ما سبق، وما في دلائل البيهقي ٩١/١ وما عند البيهقي أيضاً (٨٩/١).

(٣) سورة الصف: الآية: ٦.

(٤) سنده حسن رواه ابن سعد ١-١٠٤ من طريق أبي عامر العقدي وهو ثقة اسمه: عبد الله بن عامر القيسي،=

ووفقه الله لهذا الأمر، أهو جده عبد المطلب، أم أمه آمنة بنت وهب؟ ربما كان هاتفاً من السماء هتف باسمه لأمه ربما، ولكنه في النهاية سمي محمداً، أما:

رضاعه وحضانته

فكانت أمه آمنة هي أول من أرضع ابنها اليتيم.. تشاركها حضانته امرأة تدعى (أم أيمن) واسمها (بركة بنت ثعلبة بن عمرو)، وهناك امرأة ثالثة شاركت في رضاعه، وهي أَمَةٌ لعمه أبي لهب، واسمها: ثويبة. وقد (أرضعت ثويبة رسول الله ﷺ، وأرضعت معه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي)[١].

هذا في بداية الأمر، وبعد فترة من الزمن غشيت مكة مجموعة من نساء البادية يلتمسن الرزق عن طريق إرضاع أطفال قريش، وكانت أقدامهن تتزاحم على أبواب من يبسط يديه بالعطاء الأكثر.

ربما كان باب عبد المطلب من الأبواب السخية التي تملأ الأكف بالدراهم، وربما كان فقيراً لا يستطيع منافسة غيره في الانتقاء والاختيار لحفيده من بين تلك المرضعات، وقد يكون بيت آمنة لا يغري المرضعات على التوجه نحوه، فيجتمع لهذا الصغير يتم مرير وفقر موجع[٢]. لم يدم الأمر فسرعان ما أصبح الطفل بعيداً عن آمنة.

محمد في هوازن

وأخيراً استقر محمد اليتيم في أحضان امرأة طيبة من هوازن اسمها (حليمة السعدية).. شغفها حباً، وحملته على راحلتها ليسترضع في مضارب (بني سعد بن

= وقد حدثه بهذا الحديث شيخه زهير بن محمد التميمي وهو حسن الحديث إذا روى عنه غير شامي. وهذه رواية بصري وهي مستقيمة كما قال الإمام أحمد. التهذيب (٣٤٨/٢) وشيخه عبد الله بن محمد ابن عقيل حسن الحديث، وشيخ هذا هو محمد بن علي بن أبي طالب، عن والده.

(١) متفق عليه بغير هذا اللفظ.

(٢) الذي يجعلني لا أجزم بفقر محمد ﷺ أو غناه هو تضارب الروايات بالإضافة إلى ضعف إسنادها، هناك رواية تقول: إن حليمة لم تجد طفلاً سوى محمد ﷺ، ولو عدنا إلى بعض إلى روايات الفيل الضعيفة لوجدنا عبد المطلب غنياً يملك قطيعاً من الإبل، كما مر معنا رواية صحيحة تقول: إن عبد المطلب ذبح مائة من الإبل فداءً لابنه عبد الله بعد أن وقع عليه النذر، فهل كانت تلك الإبل هي كل ما يملكه الله أعلم؟!

بكر)[1] قوم حليمة وأهلها، وفي تلك المضارب بدأ محمد الصغير بالحبو، ثم الوقوف على قدميه الصغيرتين، وبدأ يلثغ ببعض الحروف والكلمات، ويتعثر في بعضها بطريقة محبوبة، ثم صار يمشي ويتحدث ويرعى الغنم.

كان طفلاً طاهراً كأنفاس الصباح.. كحبات المطر. اعتاد الخروج مع أخيه يسوقان الغنمات ويمرحان ويلعبان، وعندما يقرصهما الجوع يُخرجان ما أعدته أمهما حليمة من زاد ليأكلانه، فيسكن ما بهما من جوع ويعاودان اللعب في مراتع البراءة.. كانت أياماً تشع بالبراءة والجمال والبهجة، لم يعكر صفوها سوى صراخ أخيه الصغير ذات صباح قائلاً:

إن محمداً قد قُتِل

فما الذي حدث، ولماذا يقتل طفل.. من الذي يقوى على اغتيال تلك البراءة في مرعى الغنم الأخضر؟

ما حدث هو أن الصباح أيقظ الطفلين، فخرجا من الخباء خلف أغنامهما، ولم يذكرا أنهما بلا زاد إلا عند وصولهما إلى المرعى، وهناك التفت محمد الصغير ﷺ إلى أخيه فقال: (يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم)[2].

لقد أصبح هذا اليتيم بين البهم وحيداً في المرعى فهل حدث له شيء؟

نعم شُقَّ صدره

لقد جرى لهذا اليتيم شيء لا يجري لغيره.

دعونا نستمع إليه وهو يحدثنا بنفسه فيقول: (فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني، ثم

---

(١) حديث حسن رواه أحمد ٤ - ١٨٤ حدثنا حيوة ويزيد بن عبد ربه قالا ثنا بقية حدثني بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد السلمي انه حدثهم. وعبدالرحمن مجهول لكن يشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة التي تخالف الصحيح، لكنه حسن بعمومه.

(٢) جزء من الحديث السابق ويشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة.

استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنني. فوزنتهم.

ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنني بمائة. فوزنتهم.

ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بألف. فوزنتهم.

فقال: دعه عنك، لو وزنته بأمته لوزنهم)[1].

لقد شُقَّ صدر هذا الصغير بين غنماته حقاً، كان ينظر ما يفعله الملكان به، ثم رأت أمه حليمة أثر الشق ورآه أصحابه، كانت الطريقة التي تمت بها هذه العملية معجزة لا تحدث للبشر. أحد أصحابه الذين رأوا أثر تلك العملية يقول: (إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره حليمة- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون)[2] أي متغير اللون . ويواصل حديثه مؤكداً ذلك: (وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ)[3].

نعم لقد رآه، ولقد صدق، ولقد حدث، وهذا ما جعل حليمة بعد سماعها للقصة تعيد محمداً ﷺ لأمه خوفاً عليه، لم يكن حلماً.. أتراها تعيده من أجل حلم أو رؤيا، ثم هؤلاء الصبية الذين أقبلوا يقولون: إن محمداً قد قتل.. هل كانوا في الحلم..؟![4].

---

(١) هذا الحديث صحيح وقد مر معنا، عند الحديث عن استرضاع رسول الله ﷺ في بني سعد بن بكر، وعند الحديث عن المولد والأساطير بصيغة أخرى وهي في الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١). هذا ما حدث لمحمد الصغير ﷺ .. ولقد ازداد إعجاب بعض الناس بهذه الحادثة فصاروا يلفقون حولها الأكاذيب ظناً منهم أنهم يحيطون نبيهم بشيء من التكريم والتعظيم.. مثل ما لفقه قاص ضعيف يدعى الفلابي. كما شطح على الطرف الآخر أناس تطرفوا فقالوا: إن هذا الشق كان حلماً وليس حقيقة، فبم يفسرون لنا قول أنس السابق: من أنه رأى أثر المخيط..؟

(٤) هناك أمثلة كثيرة طالما كذبها أناس من المستخفين بالسنة، منها حديث البخاري أنه ﷺ أرشد أن الذباب إذا وقع في شراب أحدكم فليغمسه كله في الشراب ثم يخرجه فيرميه لأن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، هرب بعض أبناء المسلمين من هذا الحديث وحاربوه واتهموا الإمام البخاري بالكذب، واستغل بعض الشيعة هداهم الله ذلك فصار يطعن في الأحاديث وفي السنة -وهم لا يؤمنون بالأحاديث التي =

عاد محمـــد الصغير إلى أحضان آمنـــة ترعاه وتحنو عليـــه.. تحدثه ويحدثها.. تلاعبه ويلاعبها، وتقص عليه وتملأ دنياه ويملأ دنياها، فأي براءة كانت تشع في عيني ذلك الطفل الطاهر.. المغسول بالثلج في مرابع حليمة. لا شيء كالأطفال براءة، فتخيل براءة محمد ﷺ وهو صغير.. يا لبهجة آمنة وسعادتها به، ويا لشقاءه بها وحزنه عليها، بعـد أن أخذته معها متجهة به نحـو أخواله في (يثرب)، حيث قضى وقتاً هناك يمرح في طرقاتها ويتأملها وكأنه يقول: انتظريني يا يثرب، فسأعود لأضع لك اسماً جميلاً خالداً كجمال التوحيد وخلوده.

وبعـد رحلة حميمـة زارا فيها أخواله الكـرام الطيبين بني النجـار رجعت آمنة بصغيرهـا إلى مكـة، تضمه بين أحضانهـا وتلاعبه وتقص عليه، وترد على أسـئلته التـي تعن له في الطريـق، وأحيانا يبكي فتلجأ لكل الحيل والألعاب لإرضائه.. تطعمه وتهدهده، وتعبث بشـعره الناعم بأناملهـا، فيغفوا بين ذراعيها كملاك صغير، وينهض في اليوم التالي فتغمره بقبلاتها، وتمرغ وجهها في صدره حتى تملأ ضحكاته الجميلة قلبهـا وأجواءها وطريقهـا، وفي مكان يقال لـه الأبواء بين مكة والمدينة شـعرت آمنة بأوجـاع مضنيـة، فتوقفت المطايا، ونزلت آمنة عن ظهـر الراحلة ونزل صغيرها وقد تعلقت عيناه بها، وهي تتوجع وتئن أمامه، ويشتد وجعها فلا يستطيع منحها ما يخفف ألمها، سـوى نظرات حائرة خائفة.. نظرات حزينة.. تزيد آلامها فيزيد أنينها ورحمتها بهذا الطفل البريء، ثم تضعف آمنة وتذبل وتموت وهو ملتصق بها، يبكيها ويناشـدها أن تفيق.. أن ترد عليه، لكنها لا ترد ولا تفيق، بل تؤخذ من بين يديه وهو يمسك بثيابها التي بللها بدموعه، وتدفن أمام عينيه الغارقتين بالدموع.. يمسحهما بيديه الصغيرتين وهـو ينظر إليها وإلى الرجال وهم يهيلـون التراب على قبرها.. بعيداً عن مكة، بعيداً عن عبد المطلب، بعيداً عن أعمامه.

تؤخذ آمنة منه وتوارى تحت أكوام التراب، فيعود باكياً وحيداً حزيناً على الراحلة، ينتبـه من نومه أثناء الطريق فلا يجد آمنة تحتضنه أو تقبله أو تسـأله هل هو جائع،

= نقلها الصحابة- فماذا كانت النتيجة؟ لقد جاءت الشهادة بصحة هذا الحديث من أرقى وأحدث المختبرات العلميـة فـي العالم وأكدوا صحة هذا الحديث علمياً ومخبريا، انظر كتـاب الدكتور خليل إبراهيم خاطر (الإصابة في صحة حديث الذبابة). ومن أراد الدهشة فليراجع موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الإنترنت، فستذهله معجزاته صلى الله عليه وسلم.

منظـره يذيب القلـب.. طفل صغير زائغ العينين، تتمايل بـه الراحلة والأقدار، ويصل مكـة وقد تيتم مـرة أخرى.. يعود إلى ذلك البيت الصغيـر، ويجول ببصره في أركانه الصامتة، هنا كانت ترقد آمنة، وهنا كان يخبيء ألعابه، وهنا كانت تعد لـه طعامه، أما هنا فكان يسـتحم بيديها، وهنا كانت تلاعبه وتسـعى لإضحاكه عندما تقوده خطواته الصغيرة إليها باكياً.

كان بيتا كالدموع.. تجول فيه الذكريات وبقايا آمنة الحبيبة.

بيت صامت كالحداد.. لم يعد فيه صوت.. لم يعد فيه أم.. لم تعد إليه آمنة، إنها ترقد هناك بالأبواء، فيا للوعته ولهفه ويا حر قلبه عليها.

ربمـا تنبه ليلة فلم يجدها بقربـه ففاضت عيناه بالدمع، وألجمه الحزن والحنين إليهـا، أو ربما كان يسـأل جده وأعمامه أو عماته عنهـا فيتجرعون الصمت، وتفيض أعينهم شفقة عليه وحزناً، فتتيه عنهم الإجابة.

إن للطفل أسـئلة ملحة ومحرجة، فكيف بأسئلة طفل مفجوع أصابه الدهر بأبيه وأمه.. يسـأل عنها إلى أين ذهبت ومتى سـتعود، وهل سـتتركه وحيداً أم سـيذهب إليها...؟ أسئلة كلها بث وانكسار متى ما حاصرتك خفضت رأسك وفاضت عيناك.

لقد تعلق بها رغم أنه لم يحظ بقربها إلا سنوات قليلة.. مر ذات يوم بقبرها فرئي لـه بكاء لم يبكه من قبل.

يقول أحد أصحابه: (انتهى النبي ﷺ إلى رسـم قبر فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسـه كالمخاطب، ثم بكى فاسـتقبله عمر بن الخطـاب رضي الله عنه، فقال: يا رسـول الله ما يبكيـك؟ فقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، اسـتأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واسـتأذنته في الاسـتغفار لها، فأبى عليها، وأدركتني رقتها فبكيت. فما رؤيت سـاعة أكثر باكياً من تلك الساعة)[1]. وذات مرة زار (قبر أمه فبكى وأبكى من حوله)[2].

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي ١-١٨٩من طرق عن سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد عن سليمان بريدة، عن أبيه. سليمان تابعي ثقة وعلقمة ثقة أيضاً التقريب ٢٥٠و٣٩٧، ورواه ابن حبان ٣-٢٦١وغيره بسند حسن لولا عنعنة ابن جريج فيه ويشهد له ما بعده.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٧١ .

وماذا يملك محمد لأمه سوى الدموع؟ إنه مجرد نبي مرسل، والأمر كله لله وحده فعليه الصبر والاحتساب، كما صبر في صغره على مرارة اليتم ووحشته، لكن ما قد يخفف بعض معاناته كونه الآن في:

في بيت عبد المطلب

بعد رحيل آمنة امتدت يد جده عبد المطلب تفيض حناناً، فحمله إلى بيته حيث تربى في كنفه.. في كنف هذا الرجل الكريم الطباع.. صاحب الشرف وساقي الحجيج، فكانت أولى خطواته في درب الرجولة. شب محمد اليتيم يتحمل المسؤولية، وكأن اليتم علمه أن الحياة قاسية، لكن لها جمالاً لا ينال إلا بالكفاح. لقد أحبه عبد المطلب وهو يرى الرجولة تشع من إهابه، فلم يرسله في حاجة إلا جاء بها، ولم يأمره بأمر إلا قام بتنفيذه على الوجه الأكمل، إلا في يوم من أيام الحج، حيث الأصابع تشير إلى عبد المطلب ساقي الحجيج، وزعيم قريش وسليل الأنبياء، لكن عبد المطلب وسط الزحام مشغول.. مذهول يهرول نحو بيت الله لا يلوي على شيء، وما أن أصبح بجوار الكعبة حتى رفع عقيرته يناجي ربه:

(ربي رد إلي راكبي محمداً   يا رب رده واصطنع عندي يداً[1]

شاهده أحد الحجاج الذين لا يعرفونه إلا بما تحمله الرواحل من أخبار.. لم يكن قد رآه من قبل، ولا يعرف من هو، لكن حالته كانت تثير التساؤل، فقال ذلك الغريب لمن حوله:

(من هذا؟ فقالوا له: عبد المطلب بن هاشم، ذهب إبل له فأرسل ابن ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها، وقد احتبس عليه، فما برحت حتى جاء محمد ﷺ، وجاء بالإبل، فقال عبد المطلب لمحمد: يا بني لقد حزنت عليك حزناً، لا تفارقني أبداً)[2].

---

(١) ما بين الأقواس حديث جيد، رواه البيهقي (٢-٢٠) من طرق عن خارجة ابن مصعب، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهذا إسناد حسن مشهور، لولا خارجة قال الحافظ: صدوق، وقد اعتمد على توثيق ابن حبان الذي سكت عنه في الثقات (٨-١٣٣) لذلك فحديثه جيد في المتابعات، وللحديث طريق أخرى تقويه، عند البيهقي أيضاً.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

لـم يفارق هذا الشـاب الصغير جده، ولـم تكن أيامهما كلها رخاء وسـعة، فلقد (تتابعت على قريش سـنون جدبـة[١] أقلحت[٢] الجلد وأرقـت[٣] العظم) وبات الناس في شـظف من العيش، بواد غير ذي زرع، كثير الحصى محاصر بالجبال، وفي أحد أيام تلك السـنين الشـاحبة.. كانت هناك طفلة صغيرة تسـوق غنماً لأهلها، فيجري لها أمر غريب، وتسـمع صوتا أغرب.. هاهي تتحدث عنـه فتقول: (بينا أنا ومعي صنوي[٤] أصغر مني، معنا بهمات[٥]لنا وربا، وأعبد، يردن على السـحق[٦]، فبينا أنا راقـدة - اللهم - أو مهمومة، إذا أنا بهاتف صيـت، يصرخ بصوت صحل[٧]، يقول: يا معشـر قريش، إن هذا النبي مبعوث منكم، وهذا أبان مخرجه[٨]، فحي هلا[٩] بالخير والخصـب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً، وعظاماً، أبيض بضاً[١٠]، أشـم العرنين[١١]، له فخر يكظم عليه[١٢]، وسـنة تهدي إليه، ألا فليخلص هو وولده، وليدلف[١٣] إليه من كل بطن رجلاً، ألا فليشـنوا[١٤] من الماء، وليمسـوا من الطيب إليه، وليستلموا الركن، وليطوفوا بالبيت سـبعاً، ثم ليرتقوا أبا قبيس[١٥]، فليستسق الرجل، وليؤمن القوم، ألا وفيهم الطاهر الطيب لذاته، ألا ففنمتم إذا ما شئتم وعشتم.

قالـت رقيقة: فأصبحت - علم الله - مفؤودة، مذعـورة، قد قف[١٦] جلدي، ووله

---

(١) أي سنون لم ينزل بها مطر.
(٢) القلح هو الوسخ، والصفرة في الأسنان لعدم تعاهدها.
(٣) جعلته ليناً.
(٤) الصنو: الأخ الشقيق.
(٥) البهمة ولد الضأن سواء كان ذكراً أم أنثى.
(٦) أي معها عبيد يلاحقن ما هرب من الغنم والسحق هو البعيد.
(٧) صوت فيه بحة أو ليس بحاد الصوت.
(٨) أي هذا وقت بعثته وخروجه.
(٩) أي أقبلوا مرحبا بكم لتنالوا الخير.
(١٠) البض من البشرة هي الرقيقة النضرة.
(١١) الشمم ارتفاع قصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها،كناية عن الرفعة والعلو والشرف.
(١٢) أي له،فخر لا يظهره ولا يبديه.
(١٣) يمشي.
(١٤) يصبوا والمراد الاغتسال به.
(١٥) جبل في مكة.
(١٦) اقشعر. والمفؤود المذعورة الخائفة المضطربة، ووله عقلي أي ذهل عقلي مما سمعت.

عقلـي، فاقتصصت رؤياي، فنمت في شـعاب مكة، فو الحرمـة والحرم، وإن بقي بها أبطحي، إلا قال: هذا شيبة.

وتنامت عنده قريش، وانفض[1] إليه من كل بطن رجل، فسنوا، وطيبوا، واستلموا، وطافـوا، ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يرفون حوله[2] ما إن يدرك سـعيهم مهله حتى قر لذروته[3]، ما سـتكفوا جنابيه، ومعهم رسـول الله - وهو يومئذ غلام قد يفع أو كـرب- فقام عبد المطلب فقال: اللهم سـاد الخلة[4] وكاشـف[5] الكربة، أنت عالم غير معلم، مسـول غير منحل[6]، وهذه عبداؤك، وإماؤك بعذرات حرمك - يعني أمنة حرمك- يشكون إليك سنتهم[7] التي أقلحت الظلف[8] والخف، فاسمعن اللهم وامطرن غيثـاً مريعاً مغدقاً. فما رامـوا البيت حتى انفجرت السـماء بمائها، وكظ[9] الوادي بثجيجه، فلسـمعت شـيخان قريش، وهي تقول لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء - هنيئاً.. أي بك عاش أهل البطحاء، وفي ذلك تقول رفيقة بنت صفي:

بشـيبة الحمـد أسـقى اللـه بلدتنا ... وقـد فقدنـا الحيـا واجلـوذ المطـر

فجـاء بالمـاء جونـي لـه سـبل ... ودان فعاشـت بـه الأمصار والشـجر

سـبيل مـن اللـه بالميمـون طائـرة ... وخيـر مـن بشـرت يومـاً بـه مضر

مبـارك الأمـر يستسـقى الغمـام به ... مـا في الأنـام له عـدل ولا خطر[10]

---

(١) انفض الجمع أي تفرقوا.

(٢) رف الطائر إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، ومعناه أحاطوا واحدقوا.

(٣) أي لم يمر وقت قصير حتى امتلأ المكان بالناس.

(٤) يقال للميت: اللهم اسدد خلته أي الثلمة التي ترك والفراغ الذي خلف.

(٥) مزيل.

(٦) أي أنك تعطي ولا يعطيك احد.

(٧) السِـنة، الجفاف والقحط وقد جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ تعريف دقيق وجدير بالانتباه للسِـنة حيث يقول عليه الصلاة والسـلام: «ليست السِـنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا... وتمطروا ولا تنبت الأرض شيئاً» رواه مسلم ٤-٢٢٢٨.

(٨) الظلف: الظفر المشقوق للبقرة والشاة والظبي وغيرها.

(٩) ضاق الوادي من كثرته.

(١٠) هذا الخبر ليس بحديث وهو حسن، رواه الطبراني ٢٤-٢٥٩ وابن أبي الدنيا في مجابوا الدعوة ٥٦ والبيهقي من طريقين: الأول: عبد الرحمن بن حميد الخلال، حدثنا يعقوب بن محمد بن عيسى، حدثنا عبد العزيز بن =

عادت الحياة خضراء في مكة، واهتزت الأرض وربت بفضل ربها، وضحك الربيع للجميع، لكن السعادة لم تدم لمحمد، فها هو بعد مدة ليست بالطويلة يبكي خلف سرير عبد المطلب بحرقة ومرارة، لقد مات عبد المطلب جده وآخر آبائه لينتقل ربما[1]:

إلى بيت أبي طالب

حن أبو طالب بن عبد المطلب على هذا الحزن القابع خلف السرير، ورق لحاله وكربه وبثه، ورعاه كأنه من صلبه.. ينسيه وحدته ويتمه بمعاملة تذوب رحمة وحناناً، فكان يلازمه ويرافقه في بعض الرحلات. وكانت رحلات قريش الشتوية تقصد اليمن، والصيفية تتجه نحو الشام، وللرحلتين أمن كأمن مكة، ذكره الله فقال سبحانه: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾[2]، وفي إحدى تلك الرحلات جرت قصة لمحمد وهو في طريقه نحو الشام بين:

بحيرى والقافلة

في صيف حار تحركت الركائب نحو الشام ومعها (خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب - وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت - فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم حتى جاء، فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا سيد العالمين.. هذا رسول رب العالمين.. هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

= عمران عن ابن حويصة، حدثني مخرمة بن نوفل، عن أمه رقيقة... والطريق الثاني: زكريا بن يحيى الطائي، حدثني زحر بن حصين عن جده حميد بن منهب، قال عمي عروة بن مضرس، يحدث عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت صيفي ..وفي الأول ابن عمران، اختلط ففحش غلطه، وهو غير متهم، والآخر يعقوب بن محمد؛ فيه ضعف يسير التقريب ٣٥٨و٦٠٨ وفي الثاني الطائي، وهو ضعيف، وشيخه زحر مجهول. المغني (٢٣٨/١) (٢٤٠/١). ورواه ابن سعد من طريق الكلبي، وتوبع الكلبي عند البلاذري -أنساب الأشراف ٨٢.

(١) أقول ربما لأنني لم أجد حديثا أو خبرا صحيحا يحدد عند أي أعمامه انتقل بعد وفاة جده.

(٢) سورة قريش.

فقال له أشـياخ من قريش: ما علمك؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شـجر ولا حجر إلا خر سـاجدا، ولا يسجد إلا لنبي، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع صنع لهم طعاما فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل - قال: أرسـلوا إليه. فأقبل وعليه غمامة تظله. قال: انظروا إليه عليه غمامة تظله. فلما دنا من القوم وجدهم قد سـبقوا إلى فيء الشـجرة عليه، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم: أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم لو رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه.

فالتفت فإذا هو بتسـعة نفر قد أقبلوا من الروم فاسـتقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالـوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشـهر فلم يبق فـي طريق إلا قد بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا. فقال لهم: ما خلفتم خلفكم أحداً هو خير منكم؟

قالـوا: لا، إنما أخبرنا خبره فبعثنا لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمرا أراد الله أن يقضيه، وهل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه.

وأقاموا معه، فأتاهم فقال: أنشدكم بالله أيكم وليه؟

قال أبو طالب: أنا. فلم يزل يناشـده حتى رده أبـو طالب)[1] إلى مكة خوفاً عليه بعـد أن تأكد من وجود صفة النبي المنتظر فيه، ليعود محمد إلى مكة، ويمارس عملا يرسخ به صفة أخرى فاق بها كل الناس.

الأمين والغنم

لم يكن محمد ﷺ شاباً خاملاً تتعثر به الحياة.. يقتات من نسبه ويتسول بشرفه. لقد كان حياة للحياة.. يحمل فأسـه لصخورها، ويشـق طريقه بذراع مفتول، وجبين مرفوع وشـباب متجدد. تعاملت معه قريش كلهـا حتى اقتطع منها لقباً طغى على كل

---

(١) ليس بحديث لكن إسـناد قوي، رواه ابن ابي شـيبة ٧ - ٣٢٧ وأبو نعيم - ١٢٩ والترمذي ٢- ٢٨٩ وغيره حدثنا قراد أبو نوح، حدثنا يونس بن ابي إسحاق، عن ابي بكر بن أبي موسى، عن أبيه قال: وكلهم ثقات إلا يونس حسن الحديث التهذيب (١١/٤٣٣).

اسـم هو له، ولم يكن ليحصل على ذلك اللقب لو كان قد رضي بالوقوف على أطلال آبائه وأجداده.. يُذكِّر من يمر بها ويكتفي. لقد دخل عليهم وهم مجتمعون حول الكعبة، فقالوا بصوت واحد: (أتاكم الأمين)[1].

(الأمين) هذا هو اللقب - الاسم.. انتزعه من قلوبهم قبل أن يبذلوه له بألسنتهم، لقد جربوه وخبروه، والأمانة لا توهب إلا بعد التجارب، وليس لدى محمد الشـاب ما يبذله من مال أو سـلطة ليرغمهم على قول ذلك، لا سـيما وهو من أصغرهم سناً، بل وربما كان أفقرهم.. ألجأه الفقر إلى أشـقى المهن وأبسـطها. كان يسـير طوال نهاره خلف الغنم (يرعاها على قراريط لأهل مكة)[2] .. مهنة شاقة تمارس بأجر بخس، لكن أول شرط لممارستها (الأمانة).

مهنة البسـطاء وقادة الأرض والعظماء، وهل هناك أعظم من نبي. ومع ذلك (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم)[3] ربما لأن صورة القطيع من الماشـية تشـبه سـير سواد الشـعوب في العالم، وهم يبحثون عن لقمة العيش، ومهمة الراعي تتطلب البحث عن أوفر المراعي عشـباً وكلأً، وإن شـق عليه ذلك، وليسـت وظيفته أن يبحث عن راحته ورفاهيته. كما تتطلب تلك المهنة حماية القطيع من أعدائه ومفترسيه، إن الرعي بقدر ما يولد من القسـوة والخشـونة في حياة الراعي.. يهب له قلبـاً عطوفاً على رعيته، والأنبياء قادة تتوفر فيهم هذه الصفات، فربما كان لهذه المهنة تأثيرها في ذلك.. ربما. لكن بعيداً عن مهنة الرعي القاسية.. حيث العواطف والغرائز والأحلام، ماذا عن:

الشباب والنساء

كان الأمين يخالط الشـباب ويعيش بينهم، ويسـمع بمغامراتهم في ارتياد كهوف البغاء، والقصف في الخمارات، لكنه كان يرتفع عما يسيء إلى اسمه ورجولته، ولو كان ذلك مما لا تحرمه أعراف قريش، والأمر عنده لا يتعدى دائرة حديث النفس والأماني، لا أكثر، يمر عليه مرور سحاب الصيف الذي يمر ولا يمطر، فهو شاب كغيره، لكن رقيه يحجز بينه وبين تلك الأشياء.

---

(١) حديث صحيح سيمر معنا تحت عنوان (يبني الكعبة ويضع الحجر).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٧٨٩ بلفظ: (كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٢- ٧٨٩

إنــه يتحدث عن تلك الأمور التي خطرت له عندما كان يمســك بعصاه يهش بها على غنمه فيقول: (ما هممت بشــيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء، إلا ليلتــين، كلتاهما عصمنــي الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعـض فتيان مكة - ونحن في رعاية غنم أهلنا - فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى.

فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، ســمعت عزفــاً بالغرابيل والمزامير. فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة.

فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً. ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أســمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي ســمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب اللــه على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشــمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء. ثم أخبرته الخبر.

فو الله ما هممت، ولا عدت بعدها لشيء حتى أكرمني الله بنبوته)[1].

إن شــبابا وشــيباً تعلوهم الغرائز وتلوي أعناقهم الشهوات، فيجهدون في الحصول عليها، دون أن يوقفهم نداء ناصح أو زجر زاجر، يبذلون الأموال كالخطوات، حتى يظفروا بسويعات حمراء وخيمة العواقب، فهل سيوقفهم صوت دف أو مزمار، لكن محمداً أوقفته حفلة عرس، وهدهدته حتى نام، لأنه مهذب أتعبته هموم العمل، والتزام الوظيفة.. تشققت قدماه من صخور الجبال، وأدمتها أشواك الصحاري، فأمسى مكدود البال منهك القوى.. يبحث عن ساعة يتنفس فيها بهجة ومرحاً، فلاحَ لـه من حديث رفاقه الشباب ما قد يهب لــه ذلــك، فلما مر بذلك الزفاف وجد فيه من اللهو البــريء ما أزاح ركام الهم عن قلبه،

---

(١) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ١-٣١٥ وابن حبان زوائده ٥١٥ وأبو نعيم ١٨٦: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده علي. قال ابن حجر: إســناده حســن متصل ورجاله ثقات. لكن أحد رجال هذا السند؛ هو ابن قيس من رجال الشــيخين؛ إلا أن الحافظ قال في التقريب: (مقبول) أي عند المتابعة، وله شاهد ذكره الذهبي في سيرته -٤١ من طريق مسعر بن كدام عن العباس بن ذريح عن زياد النخعي، حدثنا عمار بن ياسر. وفيه جهالة زياد سكت عنه في (الجرح والتعديل ٣- ٥٣٦ ولم يعرفه الدارقطني. المغني ٢- ٢٤٣

ليبقى مشرعاً للسرور والابتهاج، ومع ذلك لم تكن المرأة بعيدة عن خياله وأحاسيسه، فقد كان - كأي شاب سوي - بحاجة إلى فتاة تملأ بيته وحياته بالحب والعفاف، وتمسح عن جبينه هموماً تقذف بها يوميات مكة المتعبة، لكنه لم يجد فتاةً بل وجد:

خديجة

بنت خويلد بن أســد بن عبد العزى بن قصي.. امرأة ذات نسب وجمال، ولها من المال شيء وفير. سمعت بمحمد بن عبد الله فشدها ما سمعته: أمانة ورجولة واتزان، فتمنته زوجاً رغم كبر سنها بالنسبة إليه، ورغم زواجها من قبل، وتم لها ما أرادت، إلا أن أباها كان عقبة دون هذا الزواج الذي تتمناه كل فتاة، لكن حب خديجة وذكاءها كانا أكبر من تخريفات عجوز لا يدري ما يخرج من رأســه.. لقد ملك محمد شغاف قلبها، فأعدت لوالدها حلاً لا ثاني له، وفخاً لا يستطيع الفكاك منه.

يقول أحد أبناء عم النبي: (إن رسول الله ﷺ ذكر خديجة - وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه[1]، فصنعت طعاماً وشــراباً، فدعت أباها وزمراً من قريش، فطعموا وشربوا حتــى ثملوا، فقالــت خديجة لأبيها: إن محمــد بن عبد الله يخطبنــي فزوجني إياه. فزوجها إياه. فخلقته، وألبســته حلة - وكذلك كانوا يفعلون بالآباء - فلما ســرى عنه ســكره، نظر فإذا هو مخلق وعليه حلة، فقال: ما شــأني هذا؟ قالت خديجة: زوجتني محمد بن عبد الله.

قال: أُزَوِّج يتيم أبي طالب؟ لا لعمري، فقالت: أما تســتحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت ســكران، فلم تزل بــه حتى رضي)[2] وأذعن للأمر الواقع، أما محمد ﷺ فلم يكن صاحب شهوة عارمة، وإلا لكان له في صغيرات قريش ما يريد، لا ســيما وهو حلم كل فتيات مكة ، وسمعته تعطر الطرقات والأندية، كم من فتاة حسدت خديجة على فتاها...

---

(١) أي يرفض تزويجه.

(٢) سنده قوي رواه الإمام أحمد ١-٣١٢ من طريق الإمام الثقة حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار وحديثه حســن، انظــر التقريب (٤٨/١)، عن ابن عبــاس. وقد وردت أحاديث كثيرة وضعيفــة، تذكر أن خديجة كان عمرها في الأربعين وهو في الخامســة والعشــرين عند زواجهما، وذكرت أحداث أخرى تجدها في (موسوعة السيرة) لكنها ليست بصحيحة.

تزوج لأنه كان يريد بيتاً واستقراراً وحياة زوجية سعيدة.. تزوج محمد وواصل حياته يشارك قومه في نشاطاتهم، ومن أهمها:

بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود

لما بلغ محمد عليه السلام الخامسة والثلاثين من عمره، كانت الكعبة في هيئة تحتاج إلى ترميم وإصلاح، فقد كانت (مبنية بالرضم[١]، ليس فيها مدر[٢]، وكانت قدر ما يقتحمها العناق[٣]، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثياب عليها، ثم تسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها، بادياً، وكانت ذات ركنين، كهيئة هذه الحلقة[٤]، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قرباً من جدة انكسرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها، فأخذوا الخشب، أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا بالخشب، وقَدِمُوا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب بيت ربنا.

فلما أن أرادوا هدمه، إذا هُمْ بحية على سور البيت، مثل قطعة الجائز، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد من البيت ليهدمه، أو يأخذ من حجارته سعت إليه فاتحة فاها، فاجتمعت قريش عند الحرم، فعجوا[٥] إلى الله، وقالوا: ربنا لم نرع، أردنا تشريف بيتك وترتيبه، فإن كنت ترضى بذلك وإلا فما بدا لك فافعل. فسمعوا خواراً[٦] في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر.. أسود الظهر، وأبيض البطن والرجلين، فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق يجرها، وذَنَبُها أعظم من كذا، وكذا، ساقط حتى انطلق بها نحو أجياد، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة

---

(١) الحجارة يجعل بعضها على بعض.

(٢) المدر هو الطين اللزج.

(٣) أي أن جدارها قصير لدرجة أن العناق تستطيع اقتحامها، والعناق أنثى أولاد الماعز.

(٤) مثل حرف D.

(٥) رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله.

(٦) الخوار هو صوت البقر والغنم والظبا والسهام.

الوادي.. تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً)[1] وذلك بعد أن أخذوا الحجر الأسود، وكان محمد ﷺ يشاركهم في ذلك البناء، وكان ممن ينقل الحجارة من الوادي، عندما ناداه مناد لا يعرفه، ولا يستطيع أن يراه، وسبب النداء، أنه كان (يحمل حجارة من أجياد -وعليه نمرة[2]- إذ ضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه، فبدت عورته من صغر النمرة فنودي: يا محمد، خَمِّر[3] عورتك. فلم يُرَ عرياناً بعد ذلك) [4].. فهل كان هذا النداء هو:

النداء الأول لمحمد ﷺ

جاء ذلك في وصف الكعبة وبنائها بعد أن سمعت قريش (إن سفينة لروم أقبلت، حتى إذا كان بالشعيبة انكسرت، فسمعت بها قريش، فركبوا إليها، وأخذوا خشبها، وروميٍ يقال له: باقوم. نجار، بان[5]، فلما قدموا مكة قالوا: لو بنينا بيت ربنا عزوجل، واجتمعوا لذلك، ونقلوا الحجارة، من أجياد الضواحي، فبينا رسول الله ﷺ ينقل إذ انكشفت نمرته فنودي: يا محمد عورتك. فذلك أول ما نودي والله أعلم، فما رؤيت له عورة بعد)[6].

وكان الذي أشار عليه برفع إزاره هو عمه العباس، فقد قال له: (يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة. ففعل ذلك، فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك اليوم عرياناً)[7].

وقد شهد العباس هذه الحادثة، وكتمها، ولم يقصها إلا بعد زمن طويل على ابنه عبد الله فقال: (كنت أنا وابن أخي -محمد ﷺ- ننقل الحجارة على رقابنا، وأزرنا

---

(١) ما بين الأقواس ليس بحديث لكنه خبر صحيح الإسناد رواه عبد الرزاق ٥-١٠٢ عن معمر، عن عبد الله، عن أبي الطفيل. معمر أحد الأعلام الثقات، التهذيب ١٠-٢٤٣ وشيخه عبد الله بن خثيم، تابعي ثقة حجة،التهذيب ٥-٣١٤ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) النمرة هي: كساء فيه خطوط بيض وسود.

(٣) أي غط عورتك.

(٤) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-١٠٢ من الطريق السابق.

(٥) أي كان يعمل في النجارة والبناء.

(٦) سنده صحيح، رواه البيهقي (١-٣٢٦). من طرق عن داود بن عبد الرحمن العطار، وهو ثقة. التقريب (١-٢٢٣) عن ابن خثيم، وقد مر معناه، عن أبي الطفيل.

(٧) حديث صحيح. متفق عليه.

تحت الحجارة، فإذا غشـيـنا[1] الناس ائتزرنا، فبينا هو أمامي خر على وجهه منبطحاً، فجئت أسـعى إليه، وألقيت حجري - وهو ينظر إلى السـماء- فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره، وقال: نُهيت أن أمشي عرياناً. فكنت أكتمها مخافة أن يقولوا مجنون)[2].

ارتفعت الكعبة من جديد، وشمخت شموخ التوحيد.. تشير بوحدانية الله، وابتهجت قريش بصنيعها وترتيب بيت ربها، ولم يبق سوى رد الحجر الأسود إلى مكانه، ووضعه في زاويته من الكعبة، فمن سيعيده.. من سيضعه.. من الأحق بهذا الشرف؟

إن بناء الكعبة واسـع لدرجة اسـتيعاب الآلاف للمشـاركة فيه ونيل شرفه، لكن الحجر الأسود لا يحتمل أكثر من أذرع قليلة تحمله.

اختلفـت بطـون قريش وحق لها أن تختلف في مثل ذلـك الزمن المتكئ على تلك العقول المتصحرة، والتي لا تحل الأمور الصعبة إلا بأسـنَّة الرماح، وأنهار الدماء. ألم يحدثنا التاريخ عن حروب دامت عشرات السنين، وثار غبارها من أجل سنام جمل، أو مضمار خيل.. إنها أمة تعشق الدماء والسلب والنهب، وتهيم بالثأر، أما الثقافة المكتوبة والعلـم، فهما في كوكب، وهؤلاء في كوكب آخر.. إنهـا أمة لا تقرأ ولا تكتب.. أمة لم تؤلف كتاباً واحداً، ولم تبن مدرسة.. أمة ذات ثقافة شفهية تجيد عد الجماجم وسفك الدماء، والمفاخرة بصخور وأخشاب تسميها آلهة، لكنها تجمع على احترام هذه الكعبة وحجرها الأسود.

لذا فإن إبـل الأرض وخيلها وغنمها، والخصومة عليها، لا تطاول الخصومة على أقدس الأشـياء التي احتلت قلوب العرب قبل أراضيها: الكعبة والحجر الأسـود، فهل ستصبغ قريش كعبتها بدماء أبنائها.. هل هناك مخرج آخر لهذه الأزمة.. لهذه الكارثة التي تطل من موضع الحجر؟

كان الله رحيماً بهؤلاء العرب عندما قرروا تحكيم أول رجل يدخل عليهم المسجد، فكانت هذه القصة التي يرويها لنا شاهد عيان شارك وبنى، وحضر الخصومة.

---

(١) أي أقبلنا عليهم واختلطنا بهم.

(٢) حسـن، رواه يونـس بن بكير. ابن إسـحاق (٥٧) مـن طريق عمرو بن ثابت وهو ضعيف عن سـماك عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه. عكرمة ثقة وسماك قوي إلا عن عكرمة، لكن الحديث حسن انظر صحيح موسوعة السيرة. والقائل: كنت أكتمها هو العباس.

يقول هذا الرجل: كنت (فيمن يبني الكعبة في الجاهلية، ولي حجر أنا نحته بيدي أعبده من دون الله، فأجيء باللبن الخاثر، الذي أنفسه على نفسي، فأصبه عليه، فيجيء الكلب، فيلحسه، ثم يشغر[1] فيبول. فبنينا حتى بلغنا الحجر، وما يرى الحجر منا أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل، يكاد يترايا منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: بل نحن نضعه. حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف.

فقالوا: اجعلوا بينكم حكماً. قالوا: أول رجل يطلع من الفج[2] فجاء النبي ﷺ.

فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له. فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو)[3] وبيده الكريمة أوقف سيلاً من الدماء كاد أن ينفجر، وفرقة بين أهل مكة كادت أن تبيدهم.. ساقه الله إليهم، فلما لمحوه أشارت قلوبهم قبل أصابعهم: أتاكم الأمين. اسم انتزعه من مكة كلها.. من رجالها ونسائها وأطفالها.. من شوارعها وأزقتها.. من أبوابها وجدرانها.. من نسمات الهواء وحبات الرمل.. مكة كلها سمته الأمين.

سمته الأمين وهو يرعى أغنامها، وسمته الأمين وهو يبيع ويشتري يتعامل معها، ولعل أشد الناس تأثراً بأمانته وصدقه: صفيه وحبيبه وصديقه: عبد الله بن أبي قحافة الملقب بـ(أبي بكر) لقد تأثر الجميع بأمانته لا سيما بعد أن بدأ:

يشتغل بالتجارة

فلقد كبر محمد وكبرت أمانته، فترك رعي الأغنام ليدخل إلى عالم آخر.. عالم الاقتصاد، ليبيع ويشتري، ويربح، ويتنامى نشاطه وماله وعلاقاته.. إنه الآن يقيم شراكة مالية متينة بينه وبين رجل من قومه اسمه: السائب بن أبي السائب، وكان السائب ينافس أبا بكر في القرب منه ﷺ.

---

(١) أي يرفع إحدى رجليه ليبول.

(٢) الفج: الطريق الواسع البعيد.

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٣- ٤٢٥ وأبو نعيم في الدلائل من طرق عن ثابت بن يزيد، حدثنا هلال بن خباب عن مجاهد عن مولاه قال. وهؤلاء كلهم ثقات ثابت ثقة، وكذلك هلال بن خباب العبدي، التقريب- ١٣٢و٥٧٥، ومجاهد تابعي ثقة معروف.

يحدثنا عن ذلك السائب نفسه فيقول: (أتيت النبي ﷺ فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال رسول الله ﷺ: أنا أعلمكم يعني به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمي ﷺ مرحباً بأخي وشريكي)[1] كنت شريكي ﷺ في الجاهلية)[2] فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري)[3].

أصبح لدى محمد مال، فاشترى عبداً اسمه زيد بن حارثة[4] لكنه لم يعامله معاملة غيره لعبيدهم، بل لم يعمله معاملة الخادم.

لقد تبناه وسماه زيد بن محمد، وأحبه حبا شديدا كأنه من صلبه، ولم يشغله حب بناته عن حبه:

بنات محمد

أربع بنات كالزهرات: أكبرهن زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة أصغرهن سناً. ملأن حياته وحياة خديجة بالجمال والبراءة، وملأ حياتهن بالحب والعطف والدلال.. يساعدن أمهن في ترتيب بيتهن وتنظيفه، ويلعبن خارجه مع صديقاتهن بين بيوت مكة الصغيرة، فإذا ما رأينه تسابقن إليه، أيهن تحضى بالعناق الأول والقبلة الأولى.. أيهن تأخذ منه ما يحمله من مشتريات، كم تدللن وهن يطالبنه بشراء ثياب جديدة، وألعاب جديدة، وكم خاطت لهن خديجة الألعاب والملابس، وكم جاءت إحداهن تبكي وتشتكي أخذ أختها للعبها، كم مرة أخذتهن زينب خارج البيت، وكم صعدت رقية على أكتافه، وامتطت أم كلثوم ظهره، وكم أقبلت فاطمة تحبو نحوه وهي تلثغ بأحرف جميلة.. وخديجة تنظر إلى تلك المشاهد الساحرة وتبتسم، كم سرحت شعورهن وانتقت لهن الحلي والملابس، كم تشعر خديجة بالسعادة مع هذا الزوج الجميل الرائع، وكم هي سعادتها وهي ترزق بهن بعد سن الأربعين..

أما زوجها فقد أجلّه الجميع واحترمه وأحبه كل من عرفه، ولم يقتصر هذا الحب على احتلال القلوب. لقد انداح في كل اتجاه حتى لقد أحبته الأشجار والأحجار:

---

(١) زيادة عند الحاكم (٢١-٦١).

(٢) زيادة عند الحاكم (٢١-٦١).

(٣) سنده قوي رواه ابن أبي الدنيا في الصمت ١٠٧ حدثنا أحمد بن جميل أنبأنا عبد الله بن المبارك أنبأنا المسعودي حدثنا الأعمش عن مجاهد: حدثني مولاي عبد الله بن السائب. والمسعودي هو الثقة كما في الآحاد والمثاني ٢- ٣٢ واسمه عبد الملك بن معن.التقريب ٣٦٥

(٤) سيمر معنا بعد قليل حديث فيه إشارة إلى ذلك وستأتي أحاديث أخرى.

حجارة صماء في مكة كانت تسلم عليه إذا مر بها، فكان يحمل ذكراها في قلبه ويحدث بها أصحابه.. يحدثهم عن ذلك الحب فيقول: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث)[1].

إن للكون الصامت حولنا من التراتيل والصلوات بقدر ما نشهده من صمت وسكون، لكن الكون يريد قلباً.. يريد عقلاً ليكتشف ذلك المعبد فيه. وهب الله ذلك الحجر لغة الإنسان فكلم محمداً، أم وهب محمداً إدراكاً ليفهم لغة الحجر، فكان ذلك السلام، وكان ذلك الحب الذي بدأ بين محمد ﷺ ومكة، وانتهى بمحمد وما وراء مكة.

هذا السلام، وذلك الهاتف الذي أمره بتغطية عورته، والطائران اللذان شقا صدره في مرابع أمه حليمة ... أشياء غريبة تحدث لا يجد لها تفسيراً، فيلجأ إلى حبيبته خديجة، إلى قلبها الدافيء فيقول يا خديجة: (إني أرى ضوءاً، وأسمع صوتاً وإني أخشى أن يكون بي جنن - فتقول له: لم يكن ليفعل ذلك يا ابن عبد الله)[2]، ثم تستأذنه في الذهاب لابن عمها القس النصراني الطاعن في السن (ورقة بن نوفل) لتسأله، عله يجد جواباً في الكتاب المقدس لما يحدث لزوجها.

فيجيبها ورقة قائلا: (إن يكن صادقاً، فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزه وأنصره وأؤمن به)[3] حتى هذا القس كان يتوجس.. ينتظر، فالوضع على الأرض أكثر من سيئ، وبحاجة إلى منقذ يزيح هذه الأصنام والخرافات الجاثمة، ويرتقي بهذا الإنسان المرتكس في الوحل، أما محمد فكانت أقواله وسلوكياته تقول:

لا أصنام

كان محمد ﷺ يحس بتفاهة هذه الطقوس وتخلفها.. كان يحتقر أصنامهم، ويرفض كل ما يمت لها بصلة. ها هو مع ابنه بالتبني زيد بن حارثة.. أمام أحد الأصنام، وها هو

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٧٨٢.

(٢) سنده حسن رواه أحمد ١-٣١٢ من طريقين عن حماد: أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس. وأخبرنا عمار بن أبي عمار.. مرسلاً. والمسند أصح، لأن الراوي عن حماد في المرسل هو عفان ثقة ثبت. والرواة عن حماد في المسند فهما ثقتان، وهما: مظفر بن مدرك والحسن بن موسى الأشيب.

(٣) حديث حسن هو السابق.

زيد يحدثنا عما جرى فيقول: (كان صنم من نحاس يقال له إســاف، أو نائلة يتمسح به المشركون. إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ، وطفت معه، فلما مررت مسحت به. فقال رسول الله ﷺ: لا تمسه، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يكون. فمسحته.

فقال رســول الله ﷺ: ألم تُنَه؟ فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه)[1].

حتــى في الحج، وفي يوم الوقوف بعرفة.. يخالــف قومه الذين تطرفوا، فأرادوا منح أنفســهم امتيازاً على بقية الناس، وذلك بوقوفهم عشية ذلك اليوم بمكان يقال له مزدلفة. أما هو ﷺ فقد كان يخالفهم.. كان يقف بعرفة من بين قومه كلهم.

لقد (كانت قريش، ومن يدين دينها - وهم الحمس[2]- يقفون عشية عرفة بالمزدلفة ويقولون: نحن قطن البيت. وكان بقية الناس والعرب يقفون بعرفات)[3].

يقول أحد الذين رأوا محمدا يخالف تطرف قومه واسمه: جبير بن مطعم: (رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس "من بين قومــه" حتــى يدفع معهم توفيقاً من الله عز وجل لــه)[4]. ويقول جبير أيضاً: (أضللت بعيــراً لي يوم عرفة، فخرجت أطلبه، فرأيت النبي ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة. فقلت: هذا من الحمس، فما شأنه هاهنا)[5].

كان امتيــاز قريــش هنا زائفاً، ففر الصواب من بين جموعهم واســتقر على بعير محمد ﷺ. تلك هي الفطرة الســليمة التي تأبى الانحــراف، وتلك هي الغربة المريرة التي يعانيها أفذاذ من الـ:

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي من طرق عن الحسن بن علي بن عفان، وهو ثقة التهذيب ٢-٣٠٢ حدثنا حماد بن أسامة وهو ثقة ثبت، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث التهذيب ٩-٣٧٥ عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. وهما تابعيان ثقتان من رجال التقريب، عن أسامة بن زيد عن أبيه.

(٢) سموا كذلك لتشددهم في دينهم وقيل لأنهم كانوا لا يستظلون أيام منى.

(٣) متفق عليه.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد٤-٨٣: حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عثمان بن أبي ســليمان، عن نافع بن جبيــر بن مطعم عن أبيه. عبد الله وعثمان ونافع كلهم تابعون ثقات من رجال التقريب ٢٩٧و٣٨٤و٥٥٨.

(٥) متفق عليه.

غرباء

كان محمد ﷺ غريباً في أرض مكة، وجوه يعرفها وقلوب ينكرها. كان موحداً على دين أبيه إبراهيم.. يدرك أن الله أعظم شأناً من أن يصاغ من حديد أو نحاس، أو ينحت من الصخر أو الخشب. كان يدرك عظمة هذا الكون وعظمة خالقه، وفي الغربة نفسها يعيش أفراد قليلون جداً.. يتوجهون إلى خالقهم الأحد، ويعرضون عن هذه الأصنام التي زاحمت الناس على هذه الأرض بغير حق، فعبر الروابي والهضاب والصحاري.. يسيرون حثيثا بحثاً عن الحق..

زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل.. بعض هؤلاء الغرباء.. أصحاب عقول ناضجة، لم يستسيغوا تلك الحجارة الصماء البكماء الموضوعة فوق الكعبة، ولا ما ينسج حولها من أساطير وخرافات، فأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد (خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقى عالماً من اليهود فسأله عن دينهم. فقال: إني لعلى أن أدين دينكم فأخبرني؟ فقال: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله.

قال زيد: وما أفر إلا من غضب الله تعالى، ولا أحمل من غضب الله شيئاً، ولا أستطيعه فهل تدلني عليه؟ قال اليهودي: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً.

قال زيد: وما الحنيف؟ قال اليهودي: دين إبراهيم عليه السلام، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد، فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله.

قال زيد: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله. ولا من غضبه شيئاً أبداً، ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً.

قال زيد: وما الحنيف؟ قال النصراني: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم)[1].

---

(١)حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٩١.

ويعـود زيد إلى مكة غريباً كيوم غادرها.. يرمق مكة ويرمق جموعها.. أحقاً كانت هـذه الأرض أرض التوحيد؟!! ما بالهم يشـركون؟!! ينظر نظرة من ملأ قلبه الأسـى واللهف.. تشـاهده وتتعجب من حاله الطفلة أسماء بنت أبي بكر.. تراه (مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم)[١]. ثم يؤدي حركة غريبة كغربته.. حركة تتوهج شوقاً إلى الله، وشوقاً يعبر عما في قلبه من حرقة، تقول أسـماء: (ثم يسـجد على راحته، وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم)[٢].

لقد كان هذا الغريب إنسـاناً عظيماً، ولا يتفوق عليه في سـلامة الفطرة وصفاء الفكر إلا محمد ﷺ. لقد كان يرى الرجل يحمل ابنته الصغيرة على ذراعيه.. مسرعاً بها نحو حفرة تلتهب بالرمضاء، ليدسـها فيها، فينهض زيد مسرعاً ويعترض طريقه، ويتوسـل إليـه ألا يفعل، فإذا أصر (أن يقتل ابنته قـال: لا تقتلها أنا أكفيكها مؤونتها. فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها)[٣]. كان زيد يأخذ تلك البريئة الضعيفة.. يحملها إلى بيته يرعاها ويحنو عليها، لأنه يعرف أن الله أرحم من عباده، وأنه لم يخلقها لتدفن بعد مولدها.

أمـة وحـده زيد بن عمرو بن نفيـل.. رجل بمقاييس أمة.. هكـذا عاش، وهكذا سيبعث عندما تبعث الأمم (أمة وحده يوم القيامة)[٤].

عاد زيد إلى مكة، ولم تكن عودته ليأسـه مما ملأ الأرض من رموز الشـرك، بل عاد لينتظر، فلقد أرشده بعض الرهبان إلى قرب مخرج نبي مرسل في أرض الحجاز. زيد نفسـه يقول: (شاممت النصرانية، واليهودية فكرهتهما، فكنت بالشام، وما والاه،

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق ٩٦، حدثني هشـام بن عروة عن أبيه، عن أمه أسماء بنت أبي بكر. ابن إسحاق لم يدلس وشيخه ثقة معروف، ووالده أوثق منه.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٩١ .

(٤) سـنده قوي رواه الطبراني ٥-٨٦ من طريق أحمد حدثني حماد بن أسـامة وابو يعلى ١٣-١٣٧ من طريق آخـر كلاهما عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سـلمة و يحيى بـن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة عن أسـامة بن زيد عن زيد بن حارثة، وهو سـند حسـن رجاله ثقات إلا ابن علقمة فهو صدوق له أوهام التقريب ٤٩٩ أي حسن الحديث.

حتى أتيت راهباً في صومعة، فوقفت عليه، فذكرت له اغترابي عن قومي، وكراهتي عبادة الأوثان، واليهودية، والنصرانية. فقال له الراهب: أراك تريد دين إبراهيم، كان حنيفاً، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فالحق ببلدك، فإن نبياً يبعث من قومك في بلدك، يأتي بدين إبراهيم بالحنفية، وهو أكرم الخلق على الله)(١).

أما الرجل الآخر، والغريب الآخر فهو "ورقة بن نوفل" الذي انتظر ذلك الخروج كما انتظر زيد، وبقي ينتظر نزول الوحي الذي يبدو أنه ليس ببعيد، فهذه الأمور:

لا تحدث إلا لنبي

تتصاعد الأحداث حول محمد ﷺ، وتتحت في نفسه الوجوم والاستفهام.. أصوات وأضواء.. أسرار وأقفال، وماذا بعد..؟

الناس لن تصدق، والصمت مرير، وليس سوى خديجة من منصت. ربما لدى بعض الناس من تفسير، لكن من هذا البعض؟ ربما أخطأت أقدام السؤال طريقها، فتكون النتيجة كلمات كالحميم.. كلمات لا تطاق: محمد مجنون.

لكن للّيل نهاية، ولا بد أن لهذا النفق من مخرج. إن الله رحيم ولن يترك هذا العبد الحائر في حيرته، فها هو الوحي يبدأ خفيفاً كهواء البحر المنعش.. يبشر بحياة جديدة لمحمد، وللأرض كلها، فكان (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)(٢). أي أنها تتحقق وتحدث كما يتحقق الصبح ويأتي، ثم أصبح يفضل العزلة والتعبد في غار على قمة جبل يقال له حراء (حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العدد - قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)(٣)،

---

(١) حديث حسن رواه ابن سعد ١-١٦٢، أخبرنا علي بن محمد القرشي، عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه عن الشعبي، عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال زيد.. علي قال عنه ابن معين: ثقة، ثقة، ثقة، وإسماعيل صدوق يخطيء التقريب ١٠٩ أي حسن الحديث، وفي والده ضعف، ويشهد له حديث البخاري السابق، والطيالسي ٢-١٦١ وفيه جهالة نفيل.

(٢) حديث صحيح. متفق عليه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ١-٤.

ثم يعود لذلك الغار والذي يستغرق الصعود إليه أكثر من ساعة، ولم يكن ذلك طوال العام بل (في كل سنة شهراً يتحنث، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة)[١].

لم يكن يمارس العبادة فقط في ذلك الشهر، بل كان ينزل أحيانا ليقوم بأعمال جميلة ورائعة فـ (يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد، وذلك الشهر: رمضان، خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد به)[٢].

ليلة الحياة والقرآن

استمر محمد عليه السلام على ما كان عليه فـ (كان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد الليالي ذوات العدد- قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)[٣]، فكان نهاره على ذروة ذلك الشاهق.. تأمل.. سياحة في هذا الكون الصامت الناطق.. الناثر في الصدور المنشرحة نوراً يهمس: لا إله إلا الله، أما ليله، فتبتل وتضرع، وكأنه يغرف من الليل سكونه وخشوعه.. كأن رياحه الباردة وهي تمر بباب الغار.. تبشر بعودة محبوب طال انتظاره.

واستمر ذلك الحب وتلك المناجاة، حتى جاءت تلك الليلة من ليالي شهر رمضان، وفي لحظة سكون مهيبة، وبعد غياب طويل، هبط كبير الملائكة (جبريل عليه السلام) على قمة الجبل، هبط وتقدم نحو باب الغار، فشعر محمد بخوف وقشعريرة من هذا الغريب الذي يسد باب الغار..

ها هو يقص أحداث تلك الليلة وما حدث له فيقول أنه جاءه (الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ.

---

(١) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.

(٢) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣).

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني ثم أرسلني فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني.. زملوني.

فزملوه، حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة - وأخبرها الخبر-: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)[1].

إذاً فهذه هي النبوة، وتلك الكلمات هي أول ما نزل من القرآن العظيم.. كلام الله الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم.. يهمي مطراً ينعش وجه الأرض الشاحب بالشرك وأشواكه.. المحفور بالجهل والتخلف، والسحر والشعوذة، فيرويه حياة ونضارة، ليمسك الإنسان المؤمن من جديد بزمام الخلافة في الأرض، فيعمرها بالحب والعدل والسلام، فقد تعبت البشرية من ملاحقة الطواغيت والأشرار لها بأسلحة الظلم والضلال.

نزل القرآن فقام محمد ﷺ برسالة ربه، وأسلمت خديجة فكانت أول من أسلم على الإطلاق، وفرح ورقة وأسلم وبشر رسول الله ﷺ فكان أول من أسلم من الرجال،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

لكنه لم يعش إلا فترة قصيرة (ثم لم ينشب ورقة أن توفي)[1] بعد أن زفر بتلك الأمنية، وتمنى الشباب للكدح لا للمتعة، للبذل والفداء لرسالة جديدة، ولنبي يتربص له الاضطهاد خلف أشجار مكة، ويكمن له الظلم في طرقاتها. مات ورقة بعد أن حباه الله برؤية النبي الذي طالما ذرع الأرض بحثاً عنه، وقبع على قوارع المجهول ينتظره. هذا بعض ما حدث على الأرض، أما في السماء فهناك:

ثورة في السماء

فعندما نزل الوحي اشتعلت أرجاء السماء حمماً، ولهيباً وشرراً يفتك برؤوس الشرك ومصانع الخرافة والضلال.. شياطين الجن الذين أرهقوا بعض البشر ودحرجوهم للحضيض. شهب غريبة بدأت تقصفهم، وذلك عندما (يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فتكون باطلاً، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك.

فقال لهم إبليس: هذا لأمر قد حدث في الأرض. فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، فأتوه، فأخبروه. فقال: هذا الأمر الذي حدث في الأرض)[2].

إن الله قد وهب الجن قدرات لكن منهم شياطين أساؤوا استغلالها.. جعلوا يسترقون السمع، ثم يلقون ما استمعوه في بركة من الكذب، ثم يسقونها الكهان الذين يتصلون بهم ويتقربون إليهم، فزادوهم رهقاً وتخويفاً، وجعلوهم يرتكسون في الشرك والشعوذة، والجن قبائل.. منهم الصالحون ومنهم الفاسدون، و(فلما بعث النبي ﷺ دحروا بالنجوم، فكان أول من علم بها ثقيف، فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه، فيذبح كل يوم شاة، وذو الإبل فينحر كل يوم بعيراً، فأسرع الناس في أموالهم. فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا، فإن كانت النجوم التي يهتدون بها، وإلا فإنه لأمر حدث. فنظروا فإذا النجوم التي يهتدى بها كما هي لم يزل منها شيء، فكفوا، وصرف الله

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

(٢) سنده صحيح. رواه الطبراني في الكبير ١٢-٤٦، حدثنا عبد الله بن أبي مريم حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن ابن جبير عن ابن عباس، ورجاله ثقات ويشهد له ما بعده.

الجن، فسمعوا القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، وانطلقت الشياطين إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا حدثٌ حدثَ في الأرض، فأتوني من كل أرض بترية، فأتوه بترية، فقال: هاهنا الحدث)[1].

وهذه قصة أخرى يرويها ويروي مثلها رجل من رموز قريش وأقويائها اسمه: عمر بن الخطاب:

كاهن وجنية

في يوم بعثته ﷺ كان لأحد الكهان ارتباطه مع جنية، يتحدث الكاهن إلى رجل من أقوى رجالات قريش اسمه عمر بن الخطاب عن جنيته تلك، وعن فزعها في ذلك اليوم العظيم فيقول: (بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني، أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألـم تـر الجـن وإبـلاسـهـا
ويـأسـهـا مـن بـعـد إنـكـاسـهـا
ولحـوقـهـا بـالـقـلاص وإحـلاسـهـا

فقال عمر: صدق بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل، فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليلح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله.

فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله فقمت فما نشبنا[2] أن قيل: هذا نبي)[3]. لقد ثار الجن واضطربوا وحاروا، وضاقت الأرض بهم والسماء، وأمسى شبح المستقبل خلف دخان الشهب الحارقة، كالجريح يترنح بين آثار القنابل، فلقد أمسى مستقبل الشياطين مخيفاً مرعباً مجهولاً بعد نزول القرآن.. بعد بعثة هذا النبي ﷺ رغم:

---

(١) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة ٣٢٨/٧ وابن سعد ١٦٧/١ وغيرهم من طرق عن حماد وغيره عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذا سند صحيح لولا اختلاط عطاء في آخر عمره، لكن بعض العلماء قال: إن حماد بن سلمة سمع منه قديماً، وسواء كان ذلك أم خلافه فالحديث حسن بما قبله.

(٢) أي لم يمر وقت قصير حتى انتشر خبر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري. مناقب الأنصار ٣-٣-١٤٠٣.

توقف الوحي

أجـل لقد انقطـع جبريل فلم ينزل بعد تلك الليلة (وفتـر الوحي فترة حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1] وصار بعدها في حيرة لا يدري ما يفعل، ماذا بعد (اقرأ).. ما رسالته .. وما مهمته ..؟ ما المطلوب منه ؟

وللمرء أن يتصور أحاديث النفس ووحشتها في مثل ذلك الظرف. لكن الوحي عاد من جديد، وعادت معه الحياة.

عودة الوحي

يتحـدث ﷺ عن ذلك اليوم الذي عاد فيه الوحي، وعن تلك المفاجأة التي أخافته حتى وقع على الأرض فيقول: (فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء. فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي، فجئثـت منه فرقاً، حتـى صرت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلـت: زملوني.. زملوني.. فزملوني فأنـزل الله عز وجـل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾[2].

سـقط عليه السـلام على الأرض لهول مـا رأى، فهل رأى جبريـل على صورته الحقيقية الرهيبة المهيبة؟ ربما.

لكـن القرآن جعله يفيق: قم يا محمد، وأزح عنك هذه الأغطية، فما كان بالأمس حلمـاً جميلاً.. أصبح اليوم حملاً ثقيلاً، قم يا محمد، فالأرض مليئة بالقلوب المعتمة، والبطون الخاوية، والأصنام والشرك واستبداد الطواغيت.

ها قد قام محمد ﷺ يحمل سـطرين من القرآن.. سـطرين طالما بحثت عنهما أفكار البشـر، وصل من وصل وتعثر الملايين، فهل هناك حياة دون علم.. دون قراءة.. دون كتابة.. دون نظافة.. دون ترك للأوثان ووحل الخرافة؟ هل هناك حياة دون إقرار بأن هذا الخالق الكريم هو الإله العظيم الواحد الأحد، ولا معبود سواه؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٩٤.

(٢) سورة المدثر. والحديث صحيح متفق عليه.

قام محمد ﷺ بتنفيذ الأمر سـراً في البدايـة، فالأمر جد خطير، لأن للأصنام جيوش من الغضب مستعدة لنحر من يقترب منها، بل وتقديمه قرباناً لها، وقد تناسلت فـي عقول القوم، حتى أصبح الفرد يصنع صنماً يتبلغ به في سـفره، ولو اضطر إلى صنعـه مـن تمرات هي زاده الوحيد. فإذا ما عاث الجـوع ببطنه، قام يدس هذا الإله الرخيص في جوفه، لكي يطارد ذلك الجوع المحرق.

ترى هل علم أن جوعه قد مزق إلهه؟ لا أدري.

إن مـن بلغ بهـم الحمق هذه الدرجة يصعب انقيادهم لهـذا الدين الجديد، فقد عبثت الأهواء في عقولهم حتى أفسـدتها، والعلاج لا بد أن يبدأ بالعقل والفكر، وأمام رسول الله ﷺ ودعوته الجديدة ركام هائل من العادات والطقوس والتقاليد الموروثة.. يتداعى بعضها على بعض على مر السـنين، حتى أمست أساطيل من الأوثان والكهان، والناس لها عبيد ذليلة قد حنت ظهورها ركوعاً، فمن يريد رفع الرؤوس للسماء فعليه بالصبر والحذر الشـديدين، ولا بد من أن يُسِـرَّ دعوته ويخفي اتباعه حتى من أقرب الناس إليه إذا ما أحس بخوف منه، فهؤلاء القوم يفني بعضهم بعضاً من أجل ناقة أو حصان، فما الكوارث التي سيرتكبونها من أجل المساس بآلهة يذبحون لها آلاف النياق ليرضوها بزعمهم؟!!! فليكن الأمر:

سرِّيَّة

السـرية الشـديدة يجب أن تحيط كل عمل يقوم به هذا الرسول الأمين ﷺ، فعلى جدار التاريخ الطويل قد علقت رؤوس الأنبياء والمصلحين والدعاة، وأعواد المشانق لا تزال رطبة بدمائهم. ضريبة الإخلاص فادحة تكلف كثيراً، وكثيراً من الدماء، لكن لهذه الدماء الزكيـة روائح وأطياف تعيش.. تنعش الأجيال، وتبعـث الحياة فيهم للخلاص، والحق لا يخفـى.. يعرفه الجميع. عندما يرونه يقولون: هـذا هو الحق. ولا يحتاجون لتمييزه إلى غسل أعينهم ولا إلى عركها، فما سبب التأخر.. لماذا تثقل الخطى؟ السبب هو:

الوحوش

وحوش عملاقـة تمتد داخل كل فرد منا.. كأننا لهـا ثياب. وحوش تتصلب حتى تشـلنا، وتعجزنا حتى عن الحبو نحو الحق، وإذا كان الحق يرفضها أو يريد إخراجها

مــن ثيابها، فــأي مهمة أمام ابن عبد اللــه ﷺ، وأي حذر يجــب أن يتوخاه في ذلك العصر.. عصر الوحوش.. عصر العادات والتقاليد المخيفة؟

هذا ما فعله ﷺ عندما بدأ بدعوته، فقد أســلمت خديجة، وأسلم ورقة، فكتمت خديجة إســلامها ومات ورقة، فبقي الســر مكتوماً، ولما أمر ﷺ ببدء الدعوة والإنذار استمر يدعو داخل سراديب من الكتمان والتستر.. استمر يسير تحت الأرض.. يغرس في باطنها جذوراً قوية تؤتى ثمارها بعد حين، بعد أن ترتفع على سطح الأرض، عندها يستحيل انتزاعها أو إنكار وجودها. قد يقول قائل: هذه مبالغة.. فالرسول ﷺ معروف لدى قريش، وأصحابه معروفون، ولم تكن دعوته ســراً فــي يوم من الأيام، فأصحابه محميــون من قبل قبائلهم وأهلهم. فأين تلك الســراديب والخنــادق التي تزعم.. أين الدليل على ما تقول؟

الإجابة واضحة كشعر الشمس الذهبي.. الإجابة تكمن في مشكلة لم تحسم حتى الآن ألا وهي:

من أول من أسلم..؟

من أول من أســلم بعد خديجة: أبو بكر الصديق، أم علي، أم غيرهما رضي الله عنهم جميعاً؟ لماذا لم تحســم هذه الإشــكالية؟ دعونا أولاً نتوجه إلى إســلام كل فرد منهم:

إسلام أبي بكر الصديق

أبو بكر الصديق.. اســمه: عبد الله بن عثمان بن أبــي قحافة.. صديق الطفولة والشــباب.. ذهب إليه رســول الله ﷺ وحدثه أن الوحي قد جاءه في غار حراء، وأن دين الله يأمر بالتوحيد والعلم والنظافة والجمال وترك الأصنام، فما زاد أبو بكر على كلمة واحدة: صدقت. أما لماذا..؟ فلأنه لم يجرب على رسول الله ﷺ كذباً، وهو الذي عاشره منذ الطفولة. لقد عرفه عابداً خاشعاً تاركاً للأصنام، فهل سيكذب على ربه.

خلد التاريخ كلمة أبي بكر وحفظها لـه، ونال من رســول الله ﷺ شــهادة تتناقلها الأجيال.. ففي أحد الأيام كان الرسول ﷺ مع أصحابه، ولعل أحداً منهم تناول أبا بكر

فأغضبه، فغضب ﷺ لأبي بكر، وقالها ليس للصحابة فقط، بل للأمة كلها .. للأجيال كلها: (إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي)[1].

ولما حوصر أبو بكر ببعض الكلمات، أرغمه هذا الحصار على أن يزفر بهذه الكلمات: (ألست أحق الناس بها، ألست أول من أسلم، ألست صاحب كذا)[2].

ولما سئل أحد أبناء عم رسول الله ﷺ عن أول من أسلم، أرشد سائله إلى أبيات من الشعر قالها شاعر من الصحابة:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... خير البرية أتقاها وأَعْدَلها

الثاني التالي المحمود مشهده ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

بعد النبي وأوفاها بما حملا ... وأول الناس منهم صدق الرسلا[3]

هذه الأبيات الشجية ملأت القلوب بأيادي أبي بكر ومبادراته لخدمة الإسلام. لقد سمته الأمة بـ (الصديق)، وقدمت صفته على الاسم الذي سماه به أبوه، فإذا ما نطق أحد باسم (الصديق) لاحت تلك الأيادي البيض المبسوطة في الأذهان، وتذكر الناس صديق نبيهم وحبيبه فترحموا عليه.

إسلام علي

علي بن أبي طالب.. أحد فتيان الإسلام، وابن عم رسول الله ﷺ، وأحد السابقين إلى الإسلام. هناك من يقول: إنه أول من أسلم[4]. علي رضي الله عنه ليس منقطعاً

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٣٩

(٢) سنده صحيح، رواه الترمذي ٥-٦١١ وابن حبان ٥-٢٧٩ من طرق عن شعبة عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال أبو بكر. أبو نضرة المنذر بن مالك تابعي ثقة. التقريب٥٤٦ والجريري ثقة اختلط. التهذيب ٤-٧، وشعبة سمع منه قديماً فصح السند .

(٣) خبر ليس بحديث وهو حسن بطرقه، رواه الحاكم ٣-٦٤ وغيره عن مجالد بن سعيد عن الشعبي سألت ابن عباس، ومجالد ليس بالقوي لكن روى يعقوب بن سفيان (سيرة ابن كثير ١ - ٤٣٥) عن مالك بن مغول وهو ثقة عن رجل: سئل ابن عباس. وهذا الرجل إن لم يكن الشعبي فيقوي روايته السابقة.

(٤) لكونه تربى في بيت رسول الله ﷺ . لكنه ليس هناك حديث صحيح يدل على أنه تربى في بيته، فالذي ورد غير صحيح بل من قول ابن إسحاق ومجاهد. البيهقي ٢/ ١٦٠.

عن رسـول الله ﷺ، لكن أن يكون علي أول من أسـلم فهذا ليس بصحيح، لأن خديجة هي الأسبق.. هي أول إنسان قابله بعد انحداره من الجبل خائفاً.

قال أحد الصحابة: (أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي رضي الله عنه، أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب)(١). وقال آخر: (أول من صلى مع النبي ﷺ بعد خديجة علي. وقال مرة: إن أول من أسلم مع النبي ﷺ بعد خديجة علي)(٢).

وهناك آخرون غير أبي بكر.. غير علي، ظنوا أنهم أول من أسـلم. دعونا نسـتمع إلى أقوالهم.. دعونا نعرف أخبارهم، لنعرف بعدها سر ذلك الازدحام على الصدارة.

سابقون.. سابقون

لدينا سابق آخر هو: سعد بن أبي وقاص الذي يقول: (ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسـلمت فيه، ولقد مكثت سـبعة أيام، وإني لثلث الإسلام)(٣). ترى هل كان سعد رضي الله عنه ثلث الإسـلام؟ لا شك أنه يقصد أن خديجة ورسول الله ﷺ هما بقية أضلاع ذلك المثلث.. ثلثي الإسلام، وهو المكمل لهما.

حتـى ذلك الغريب القادم من ديار غفـار، والذي يطوي الأرض يبحث عن محمد ﷺ.. ذلك الغريب المسـمى (بأبي ذر) يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع، أتيت النبي ﷺ فقلت: السلام عليك يا رسول الله. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ)(٤).

---

(١) سنده صحيح خصائص النسائي ٢ عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة، سمعت زيد بن أرقم. عمرو ثقة التقريب ٤٢٧ وشيخه طلحة بن يزيد ثقة، اتهذيب ٥-٢٩.

(٢) سـند حسـن، رواه أحمد ١-٣٧٣ من طريق أبي عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس. عمـرو مخضرم ثقة عابد التقريب ٤٢٧ وأبو بلج حسـن الحديث. التهذيب ١٢-٤٧، وأبوعوانة هو وضاح بن عبد الله ثقة مشهور التقريب ٥٨٠.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٦٤.

(٤) حديث حسـن رواه الحاكم ٣-٣٤١: حدثنا الحسـين بن محمد بن زياد. ثقة حافظ ١٦٨ حدثنا عبد الله بن الرومي صدوق ٣٢٢، حدثنا النضر بن محمد الجرشي ثقة التهذيب ١٠-٤٤٤ حدثنا عكرمة بن عمار وهو حسـن الحديث عن أبي زميل سـماك بن الوليد الحنفي ليس به بأس ٢٥٦ عن مالك بن مرثد تابعي ثقة، وللحديث شاهد عند البخاري.

عمرو بن عبسة سابق آخر، يقول: (لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام)[1].

أما بلال بن رباح، فلا أعرف أنه قال عن نفسه ذلك، لكن غيره شهد له بالمسارعة للإسلام، فهذا: عمرو بن عبسة يشهد بأن بلالاً كان ثلث الإسلام، فقد قال عمرو للرسول ﷺ: (فمن تبعك على هذا..؟ قال: حر وعبد. يعني أبا بكر وبلال)[2].

وهناك غير بلال ممن هبوا لقبول الحق واعتناق الحقيقة، شهد لهم بذلك التاريخ، فهذا عبد الله بن مسعود يقول: (أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)[3] رضي الله عنهم جميعاً.

عمار أحد هؤلاء المستضعفين: (رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان، وأبو بكر)[4].

هذه الكلمات كلها صادقة، لكن لماذا يلوح التناقض في ألفاظها.. لماذا؟

للدعوة أسرارها

ماذا يُتَوقع من جيوش الأصنام: أصنام العادات والتقاليد، وشرف الآباء والأجداد، والثارات، وأصنام الحجارة المرصوفة على الأرفف وفي مداخل البيوت، وحتى في خِرج المسافر، وقبل ذلك كله فوق حجارة الكعبة.. تسال لها الدماء، ويحلف بها، وتستشار ويصلى لها، ويذاد عنها بالمال والبنين وزينة الحياة كلها؟

ماذا ينتظر أن تفعل كل هذه الأشياء بنبي يتيم..؟

ماذا يتوقع من قوم لا يقرأون ولا يكتبون ولا يحسبون، ولا يعرفون للثقافة كتابا أو مدرسة؟

---

(١) حديث حسن رواه الطيالسي ١٥٧ حدثنا الربيع بن صبيح قال حدثنا قيس بن سعد عن رجل من فقهاء أهل الشام عن عمرو بن عبسة. وفيه الربيع صدوق سيء الحفظ بالإضافة إلى جهل التابعي، لكن له شواهد كثيرة عند أحمد ٤-١١١ وغيره

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ١-٥٦٩

(٣) سنده حسن رواه أحمد ١-٤٠٤ عن زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود، وهو حسن من أجل عاصم وزائدة، وله شاهد من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسلاً - ابن كثير ١-٤٩٤ وبه يتقوى.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٣٨.

هــل بالإمكان تغيير هــؤلاء الوثنيين المغرقين في التخلف، الذيــن لم يؤلفوا كتابا واحداً، ولم يبنوا مدرسة ؟

ومــا الذي ســيمكن محمداً من تغيير هذه العقول المتحجرة، وهو لا يملك ســوى شهادة قومه بأنه: صادق أمين؟

مــاذا يُنتظر أن تفعل كل هذه الجيــوش بفرد أو أفراد يريدون أن يجتثوا الخرافة من القلوب، ويغسلوا الأرض والنفوس منها؟

إن مــن أشــعلوا أربعين عاماً بلهب الحروب، وتركوا جماجمهم تمتصها الشــمس والرمضاء، وخلفوا نســاءهم تنوح حتى أبكت الخيام، من أجل بعير أو حصان.. إن من ارتكبوا ذلك لعلى اســتعداد لارتكاب أشــرس من ذلك، من أجل عقيدتهم وأصنامهم وميراث أجدادهم، فهل يظن أحد أن يقدم محمد ﷺ قائمةً بأســماء الســابقين إلى دعوته، ويأمرهم بالمجاهرة بها أمام قريش.. هكذا وبكل سذاجة.؟!

إن هــذا النبي لــم يأتِ لمكة فقط.. مكة خطوة أولــى، والأرض كلها طريق. فهذا النبي جاء ليحيي أموات القلوب، لا ليقامر بحياتهم، لكن لماذا يخاف من إظهار دعوته، ويأمــر أتباعه بهذا الكتمان والتســتر مــع أن الله قد أنطق له الأحجــار، وأمال عليه الأشــجار وأظله بالسحاب، وشق صدره دون أن يمس بأدنى أذى؟ أليس الله بقادر أن يحميه وينجيه وينصره وأصحابه؟

بلى والله.. إنه على ذلك لقدير. لكن دين الإســلام جاء عقيدة وحياة للبشر، ولن تستقيم حياة البشر بالمعجزات ينتظرونها كلما أقعدهم الخمول على قوارع الطرقات. ستســتحيل الحياة انتظار، وانتظار، وعيون ترقب المجهول. لم يخلد نبي، ومحمد ﷺ سوف يموت، وبعده ترفع المعجزات.. عندها الأمة أيضاً سوف تموت.

لكن دين الإســلام لم يمت ولن يموت، لأنه نزل للبشــر، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، ولم يطالبهم بالمستحيلات، ولم يدعهم إلى مثاليات ليست بمقاييسهم.

لا يقول لهم: كونوا ملائكة. ولا يقول: أنتم شــياطين. بل يقول: كونوا بشراً، ولكن صالحين. وفي الطريق عثرات، لكن الصالحين بشر يعثرون وينهضون، والإسلام يرفع الإنسان من وهدة الحياة وحفرها، ولا يرتفع أو يتخلى عنه لأنه نزل من أجله، فبتوفيق

الله ثم بجهد رسـول الله ﷺ وأصحابه والمسلمين من بعدهم سوف يستمر الإسلام.. سوف ينتصر. ذلك هو ما أراده الله. وبضعفهم وتخاذلهم ينحسر، ويقبع في زاوية من الأرض منتظراً.

وهنا وفي بداية الدعوة نبي يتيم ودعوة مسـتهجنة، وأمة مجنونة بحب أصنامها، ومواجهتهـا تعني الموت، فلا بد للرسـول ﷺ من تطبيق منهج ربـه.. لا بد أن يحتاط ويتكتم.. يدعو سراً.. يطرق البيوت ليلاً.. يحمل النور إلى حجراتها، وهكذا فعل ﷺ.

لقد كان يحدث أبا بكر رضي الله عنه ثم يشـير بالكتمان، وإن دعا، ويحدث علياً رضي الله عنه ثم يشير بالكتمان، وإن دعا، وكذلك يفعل مع سعد.. مع عمار.. مع أبي ذر.. مع بلال.. مع صهيب.. مع عمرو بن عبسة مع غيرهم.. مع غيرهم.

إذاً فكيف سـيعرف أبو بكر أن غيره قد سـبقه..؟! وكيف سيعرف علي أن هناك من دخل في دين الإسـلام قبله؟! كيف يقول سـعد إن هناك من أسلم في اليوم الذي أسلم فيه؟ كيف سـيعلم البقية.. ورسول الإسلام ﷺ يشير عليهم بكتمان دينهم حتى عن أقرب الناس إليهم..؟! وما كان ﷺ يتصرف هذا التصرف من عنده لولا أنها أوامر الله..! إنه لا ينطق عن الهوى، فهل سيتصرف بدون أمر الله..! إنها سنة الله في عمل الأسـباب وجعل نتائجها على الله، ولعل في الممارسات الرائعة التالية بعض الإضاءات التي تكشف سريته ﷺ وخوفه على دعاة الإسلام.

حر وعبد

هذا عمرو بن عبسة السلمي.. يمتطي راحلته نحو مكة، فإذا ما احتضنته شعابها وجبالها.. جد قلبه وشـوقه في البحث عن محمد ﷺ وفي ذلك يقول: (كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسـوا على شـيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت: له ما أنت؟

قال: أنا نبي. فقلت: وما نبي ؟ قال: أرسلني الله. فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. قلت: له فمن معك على هذا ؟ قال: حر وعبد

(قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به)[1].

فقلت: إني متبعك. قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني. قال: فذهبت إلى أهلي)[2].

يـا الله.. رجـل غريب لا يضمر إلا خيراً.. جاء يبحث عـن الحق، فلا يرجع إلى ديار قومه إلا بما جاء يبحث عنه، ويريد أن يسـتزيد.. أن يعرف أسماء هؤلاء الأتباع، فلا يعطي أي اسـم رغم أنه مؤمن، كما أنه ليس مـن أهل مكة، مما يقلل من خطورة اعترافه لو قبض عليه.

عمرو بن عبسـة لا يشـكل خطرا على الدعوة الجديدة، ومع ذلك لا يعطيه النبي ﷺ أية أسماء، أو معلومات سوى التوحيد والنبوة. وعندما سأله عن أصحابه ورفاقه؟ أجابه إجابة مغلقة ولطيفة، ولكنها بالغة الذكاء والسـرية. قال ﷺ: (عبد وحر) فقط عبد وحر.. لم يقل: معي بلال.. لم يقل: معي أبو بكر. الذي قالها هو عمرو بن عبسة.. عرف ذلك فيما بعد.

إن كلمة عبد وحر صفات واسعة ومرنة، بحيث تتسع لتناسب كل أحرار مكة وعبيدها، لكن لا أحد يستطيع تحديد أنسب الأسماء لها. لذا قفل عمرو بن عبسة راجعاً إلى دياره وأهله ليس معه إلا دين الله. لم يعده ﷺ بانتصار دنيوي.. لم يعده بمنصب. وعده فقط بالجنة إن سـار على الحق، ولم يمكنه من شـيء من أمور الدنيا، حتى ولو كانت أسـماء أصحابه التي قد لا تعني له شيئاً، وعمرو بن عبسة لم يجد رسول الله قبل ذلك بسهولة، لقد وصفه بأنه كان مستخفياً.. كان متستراً لا يظهر نفسه، ولا يكشف أتباعه. إن قريشاً شرسة كالعاصفة، هادرة كالأمواج المجنونة، لكن محمداً ﷺ كان رباناً ماهراً.

الجهر بالدعوة

بعد فترة من الزمن لا أسـتطيع تحديدها[3] نـزل الوحي الكريم.. يأمره بالجهر بدعوته.. الجهر أمام أهله وعشـيرته بأنه نبي مرسل، لكنه لم يجهر بأسماء أصحابه

---

(١) القائل عمرو بن عبسة وليس رسول الله ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ١- ٥٦٩.

(٣) لأن الروايات فيها ضعيفة. يقال أنها مقدار ثلاث سنوات، قاله ابن إسحاق بلاغاً دون إسناد. ورواها ابن سعد (١٩٩/١) من طريق الواقدي - وهو ضعيف جدا - عن القاسم مرسلاً. وعن عروة مرسلاً أيضاً.

خوفاً عليهم، ولا كيف اتبعوه. لقد ظل ذلك مدفوناً عن الأعين، فهؤلاء الأتباع قلة ضعاف، ولو امتدت يد قريش إليهم لمزقتهم تعذيباً.

وقصة ذلك أنه عندما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[1]. قصد النبي عليه السلام مكاناً مرتفعاً وهو عبارة عن جبل صغير اسمه الصفا فـ(صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا محمد)[2] فـ(انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة من جبل، فعلا أعلاها حجراً. ثم نادى: يا بني عبد مناف، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربؤ أهله، فخشي أن يسبقوه، فهتف: يا صباحاه)[3]. شبه النبي عليه السلام نفسه لعشيرته برجل شاهد الأعداء قد أقبلوا فأسرع إلى قومه، ومن خوفه أن يسبقه الأعداء صار يقذف بصوته أمامه عله يصل قبله.. صار يصيح بصوت مرتفع، كي ينتبه قومه بكلمة يستخدمها العرب: يا صباحاه.

واصل ﷺ تحذيره فقال: (يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها)[4]. (يا معشر قريش.. اشتروا بأنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف.. لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب.. لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله.. لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد.. سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً)[5].

كانت مفاجأة لمعظم قريش.. ما الذي يحدث؛ ولم هذا التحذير؟ الكل مذهول.. الكل مأخوذ.. الكل ساكت إلا عم لرسول الله ﷺ اسمه عبد العزى، ويلقب بـ(أبي لهب)، والذي قرر أن يكون أول عار على قومه:

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.
(٢) حديث صحيح: رواه مسلم – الإيمان ١-١٩٣.
(٣) حديث صحيح: رواه مسلم – ١-١٩٣.
(٤) حديث صحيح: رواه مسلم أيضاً -١-١٩٣ الإيمان. اي ساصلكم لأنكم أقاربي.
(٥) حديث صحيح: رواه البخاري ٤-١٧٨٧.

أبو لهب.. أول مكذب

لقد جعل ﷺ (ينادي يا بني فهر، يا بني عدي: لبطون قريش)[1]. فسكتت بطون قريش كلها، فقد ألجمها هول ما يقوله الأمين ﷺ، إلا رجلاً ركب رأسه كما ركبته الأصنام.. ذلك الرجل هو: أبو لهب عم الرسول ﷺ.

يحدثنا أحد ابناء أخيه فيقول: (لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا. فهتف: يا صباحاه. قالوا: من هذا الذي يهتف؟

قالوا: محمد.

فاجتمعوا إليه. قال ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

قال أبو لهب: تباً لك.. أما جمعتنا إلا لهذا. ثم قام. فنزلت هذه السورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾[2].

وقف أبو لهب في أول الطريق، وفتح ألسنة من اللهب على ابن أخيه الأمين ﷺ، لكن هذه الألسنة أحرقته هو.

لقد بدأ أبو لهب المواجهة وبدأ التكذيب.. جحد تاريخ محمد الأبيض الذي شهد هو وقومه به قبل لحظات، عندما صاحت مكة بصوت كالرعد يتبعه المطر: ما جربنا عليك كذباً.

ولم يكن أبو لهب وحده في هذه الأولوية، لقد شاركته زوجته أم جميل التي داست على أنوثتها ونافست الرجال شراسة، لقد استحق هذان الاثنان تاريخاً أسود لا يزول أبداً، ولعنة تلوكهم بها ألسن الأجيال.. يحملها جبريل.. سورة تشهد تخلف ذلك الرجل وزوجته وهمجيتهما واستحقاقهما لنار ذات لهب.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٩٨.

(٢) سورة المسد. والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم - كتاب الإيمان ١-١٩٣.

لكـن أبا لهب ليس أهلا أن يعيق الإسـلام ولا نبيه.. هاهو ﷺ يتجاوز هراء أبي لهب متوجها بدعوة خاصة لـ:

دعوة بني عبد المطلب فقط

كان هـذا النداء لأعمامه بني عبد المطلب.. يعلن فيها رسـالة ربه بأعلى صوته، ويعلن بداية العزلة الشـعورية بينه وبينهـم إذا لم يتبعوه، ثم توجه بعد ذلك النداء إلى أقرب الناس إليه. ولكن قبل ذلك أقام لهم وليمة بسيطة حافلة بالبشاشة والمعجزات، يقصهـا علينا أحد الحاضرين وهو علي بـن أبي طالب فيقول: (جمع ﷺ أو دعا بني عبد المطلب، فيهم رهط[1] كلهم يأكل الجذعة[2]، ويشرب الفرق[3]، فصنع لهم مداً[4] من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر[5] فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب.

فقال ﷺ: يا بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون: أخي وصاحبي؟

فلـم يقم إليـه أحد، فقمت إليـه[6] – وكنت أصغر القوم– فقـال: اجلس –ثلاث مرات– كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: اجلس.

حتـى كان في الثالثة، ضرب بيده على يدي)[7] معلنـاً تفوق هذا الفتى على كافة رجال وشـيوخ أسـرة النبي ﷺ، ومسـارعته للحق وهو في بداية الشباب، في الوقت الذي تراجع فيه أعمامه وكبار السن من أسرته.. تخلفوا وترددوا، وعجيب أمر ترددهم وتخلفهم فالمعجزة أمامهم تغمرهم.. تلجمهم إلجاماً.

---

(١) رجال أقل من عشرة.

(٢) الجذعة ولد الشاة. له سنتان.

(٣) الفرق مكيال معروف بالمدينة يساوي (١٦) رطلاً.

(٤) المد مكيال يساوي (١,٥) رطل أو رطلين.

(٥) الغمر: القدح الصغير.

(٦) المتكلم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهو الذي روى لنا هذا الحديث.

(٧) سنده قوي رواه أحمد ١-١٥٩ حدثنا عفان حدثنا ابو عوانة وهما ثقتان عن عثمان بن المغير ثقة عن أبي صادق تابعي ثقة، عن ربيعة بن ناجذ، ثقة أيضاً، وقد بينت في الموسـوعة شـذوذ بعض الألفاظ. وسبب جرح الذهبي له وعلة الرواية التي قصدها الذهبي (٢٤).

هاهو الطعام لا ينقص، وشراب الفرد يكفي العشرات، وقبل ذلك صانع الطعام.. إنه محمد ﷺ الذي لم يجربوا عليه كذباً ولا غشاً، فكيف وقد أتى ببرهان صدقه المعجز؟!!

مدٌّ من الطعام لا يشبع فرداً واحداً.. يلتف حوله مجموعة من الرجال.. الفرد منهم يتربع أمام الجذع المطبوخ، فلا ينهض إلا وقد التهمه كله!! ما الذي حدث حتى تقوم كل هذه المجموعة من فُحول الرجال، وقد شبعت من طعام قليل، بل إنها لا تنقص منه شيئاً. تلك معجزة لا شك.. برهان على صدق ما سيقوله ﷺ لأسرته. ومع ذلك لا ينهض منهم مساند إلا فتى.. هو أصغر القوم.. إنهم ليل.. وعلي بينهم كالصباح نضارة.

إذاً فقد أعلن ﷺ أن إلهه هو:

الله وحده لا شريك له

لم تترك قريش محمداً يبوح بما كان يضمره في نفسه ونفوس أصحابه، دون أن تطرح عليه أسئلة ملحة عن طبيعة هذا الدين.. عن هذا الإله الذي يأمر بإفراده بالعبادة.. عن هذا الإله الذي يأمر بنسيان آلهة الآباء والأجداد وسحقها.

فقال لهم ﷺ وحياً ترتكز عليه كل الحقائق، وتنطلق منه أنوار تنير سراديب هذا الكون وأسراره، فيخشع الكون كله وهو يستمع لمحمد ﷺ يتلو حقيقة طالما أضاعها الإنسان فتاه في تلك السراديب: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1].

نداءان منه ﷺ في اجتماعين: الأول مع أهل مكة، والآخر مع أهله.. في الأول واجهه قومه وكذبه أقرب الناس إليه.. عمه أبو لهب، وفي اللقاء الآخر لم يواجهه أهله، لكنهم تخلوا عن الوقوف معه، ولم يرفع يده لنصرته إلا ابن عمه الشاب علي بن أبي طالب. عندها أدرك المؤمنون السابقون أن مهمتهم صعبة، وأن طريقهم شاق، وقد يدفعون أرواحهم ضريبة للسير فيه، لكن الجنة كانت هي الجائزة والحقيقة التي تنتظرهم. لذا هانت تلك الأرواح في سبيل الله.

---

(١) سورة الصمد.

ستة عمالقة فقط تحدوا قريشاً فجاهروا بإسلامهم، ولم يأبهوا بما قد يلاقون من عنت: (أبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)[1] وفتى صغير السن هو (علي بن أبي طالب) وضع يده بيد رسول الله ﷺ أمام أهله، وكفى بتلك مجاهرة. أما البقية فآثروا العمل بصمت وسرية، فالبطش القادم مخيف ومخيف جداً.

بدأ هؤلاء الأفذاذ يدعون لدين الله جهرة، فأسلم بإسلامهم خلق كثير، مما أقض مضاجع الوثنيين، فاتجهوا نحو رسول الله ﷺ يحملون في أيديهم ألواناً من الأذى والعذاب عله يتراجع، ويتراجع أصحابه معه.

يؤذون رسول الله

كانت البداية امرأة. امرأة تدعى أم جميل بنت حرب.. زوجة أبي لهب وأخت أبي سفيان، انتفضت لما سمعت قول الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ بدأت هذه الآيات تحرقها وتشعل اللهب بأعصابها، فخرجت كالمجنونة تولول وتبحث في الدور والطرقات، وتفتش في كل مكان عن انتقام يخمد هذا الجمر الذي يحشو قلبها، تلتقط حجارة من الطريق تبحث عن محمد ﷺ لتضربه بها، وترميه بسلاطة لسانها، بينما كان عليه السلام وصاحبه الصديق مشغولين بالتقاط القلوب.

أسرعت نحو المسجد الحرام فرأت أبا بكر الصديق، فأقبلت عليه وذلك (لما نزلت تبت يدا أبي لهب.. أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر[2] وهي تقول: مذمم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد، ثم قرأ قرآنا ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك. فقال رسول الله

---

(١) سنده حسن رواه أحمد ١-٤٠٤ عن زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود، وهو حسن من أجل عاصم وزائدة وله شاهد من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسلاً ابن كثير ١-٤٩٤ وقد مر معنا.

(٢) الفهر: الحجر.

ﷺ: إنهــا لن تراني. وقرأ قرآنا اعتصم بــه كما قال وقرأ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ فوقفــت على أبي بكر، ولم تر رســول اللــه ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت، أن صاحبك هجاني؟ فقال أبو بكر: لا، ورب هذا البيت، ما هجاك. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها)[1].

كانــت أم جميل جاهلة متهورة.. تظن تلك الآيات شــعراً، فقد قالت لأبي بكر: (يا ابن أبي قحافة، ما شــأن صاحبك ينشــد في الشــعر؟ فقال أبو بكر: والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر. فقالت: أليس قد قال: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾، فما يدريــه ما في جيدي..؟ فقال النبي ﷺ: قل لها: ترين عندي أحداً..؟ فإنها لن تراني.. جعل بيني وبينها حجاب. فسألها أبو بكر، فقالت: أتهزأ بي يا ابن أبي قحافة، والله ما أرى عندك أحداً)[2].

ثــم توجهت للطواف بالبيت حيث كانت (أم حكيم) عمة رســول الله ﷺ متواجدة هناك، فأبدت أم حكيم احتجاجها بأســلوب مؤدب على كلامها البذيء، وذلك عندما (تعثرت أم جميل وهي تطوف بالبيت في مرطها[3]، فقالت: تعس مذمم.

فقالــت أم حكيم ابنة عبد المطلــب: إني لحصان فما أكلم، وثقــاف[4] فما أعلم، فكلتانا من بني العم، وقريش بعد أعلم)[5].

عادت أم جميل إلى بيتها تحمل الفشل.. تحمل عارها، وتحمل المزيد من الحطب والشــوك تضعه في طريقه ﷺ، وتفتح الأبواب لسفهاء مكة ومراهقيها.. تخرجهم من منازلهم، ليؤذوا معها رســول الله ﷺ.. ليحملوا معها مزيداً من الشوك والحطب، ولما رأى صحابة رســول اللــه ﷺ ذلك حزنوا وتكدروا، وقرر بعضهــم الخروج من كتمانه والدفاع عن رسول الله ﷺ علانية، فبدأت قريش مشروع التنكيل و:

---

(١) حديث حسن بما بعده، رواه الحميدي ١-١٥٣، حدثنا الوليد بن كثير وهو ثقة من رجال الشيخين عن أبي الزبير عن أسماء، وأبو الزبير ثقة لكنه مدلس ولم يصرح بالسماع.

(٢) حديث حســن بما قبله رواه البيهقي ٢-١٩٦ من طرق عن الثقة علي بن مســهر، عن الثقة سعيد بن كثير بن عبيد عن أبيه عن أسماء، وحديث والده جيد في المتابعات وهذا منها.

(٣) ثوبها.

(٤) الحصان العفيفة، والثقاف هي الفطنة التي تفهم وتدرك .

(٥) جزء من حديث الحميدي.

يقول أحد الصحابة: (أول من ظهر إسـلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وعمار بن ياسـر، وأمه سـمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسـول اللـه ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سـائرهم، فأخذهم المشـركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد)(١).

وعندما سـئل أحد الصحابة ذات يوم: (أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب، ما يعذرون به في ترك دينهم؟) أجاب رضي الله عنه فقال: (نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شـدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سـألوه من الفتنة، حتـى يقولوا لـه: اللات والعزى إلهان من دون الله..؟ فيقول: نعم.. افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم)(٢).

لقـد افترش العذاب هذه الأجسـاد الطاهرة، وطاب لـه المقـام، فغرز أنيابه بلا رحمة.. بلا شفقة.. يشـرحها ويشرب من دمها، وقهقهات السكارى والطواغيت حول هذه الأجساد المطروحة لا تجد من يخرسها. حتى رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وكيف يفعل وهو لا يستطيع حماية نفسه من هؤلاء الأوغاد.

لقـد اضطر الصحابة إلى اتخاذ إجراء يحمون به رسـولهم، فكانوا يتناوبون في حراسته ليلاً ونهاراً، فالنهار لا يخلو من السفهاء والمتهورين، والليل يخفي سفر الخناجر الغادرة يحملها المتلثمون.

ياسر وزوجته سمية وابنهما عمار.. أسرة ضعيفة فقيرة، لكنها حرة، ولما رفع ياسر الشـيخ الكبير حاجبيه المثقلين بالشيب والألم، لمح رسول الله ﷺ فرأى الحزن والدمع في وجهه، فهانت نفسـه، وهان العذاب أمام حزن رسـول الله ﷺ، وأحب أن يواسـي

---

(١) حديث حسن مر معنا تخريجه.

(٢) سنده جيد رواه ابن إسحاق /ابن هشام٢-١٦٢ حدثني حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير: قلت لعبد الله بن عباس.. حكيم فيه كلام حول تشـيعه، قال أبو زرعة: محله الصدق، وهذا الحديث ليس في المذهب، ثم إن ما قبله يشهد له فهو حسن لذاته أو لغيره.

رسول الله ﷺ قبل أن يواسيه، فقال: (يا رسول الله الدهر هكذا! فقال النبي ﷺ: اصبر. ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت)[1]... (أبشروا آل عمار، وآل ياسر فإن موعدكم الجنة)[2].. (اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة)[3].

كأن ذلك الشيخ الساخر بالعذاب.. يريد أن يطمئن رسول الله ﷺ أنه لا يخشى السياط، ولا يخشى القيود.. إنه يتزين بها للجنة، ويرجو أن يكون أول شهيد. لكن هناك من سبقه.

أول الشهداء امرأة

أول المسلمين كان امرأة، وأول اعتداء على رسول الله ﷺ كان امرأة، وكذلك أول شهيد في الإسلام امرأة.. امرأة طاعنة في السن.. اقتادها وثني شرس يقال له: أبو جهل. فاق أبا لهب قسوة وغلظة، فهاهو يجر هذه العجوز الضعيفة.. ترسف في قيودها نحو بطحاء مكة، ثم يرمي بها نحو الأرض، وبعد أن سلخ جلدها بالسياط، وحطم أضلاعها بالحجارة تناول رمحاً فطعنها به في موضع عفافها أمام زوجها وابنها، ثم تركها تتخبط بدمائها حتى لفظت أنفاسها وروحها.

"سمية بنت خياط" أم عمار بن ياسر هي تلك الشهيدة التي عجز الطاغوت أبو جهل قاتل النساء، وعجزت سياطه عن الظفر بكلمة ثناء على صنم من أصنامه، فليس لديها سوى كلمة التوحيد، رفضت أن تتنازل لأبي جهل عنها، حتى جن جنونه فطعنها بكل خسة. إنها كما قال أحد الصحابة: (يقتلوها فتأبى إلا الإسلام)[4].

---

(١) حديث حسن بما بعده، رواه أحمد ١-٦٢ ثنا عبد الصمد ثنا القاسم بن الفضيل عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن عثمان. وفيه انقطاع بين سالم وعثمان.

(٢) رواه الحاكم ٣-٤٣٨ والبيهقي ١-٢٨٢ والطبراني الأوسط ٢-١٤١ من طرق عن الثقة هشام الدستوائي، عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس، فيشهد له ما سبقه.

(٣) حسن بما قبله رواه الطبراني. الكبير ٢٤ - ٣٠٣ حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ثنا أسد بن خالد عن سليمان بن قرم عن الأعمش عن ابن أبي الزناد عن عبد الله بن الحارث عن عثمان بن عفان، وأسد ضعيف.

(٤) قطعة من حديث سابق هو حديث جابر، وهو حسن.

سمية الراحلة.. لها رفاق صامدون شامخون كأطواد مكة.. أرادتهم قريش عبيداً، فانتزعوا حريتهم بأيديهم. عذبوهم لكنهم رفضوا الخنوع لسياط الشرك، فعاشوا يتنفسون هواء الحرية الرحب حتى ماتوا.

أحد هؤلاء حر اسمه: خباب بن الأرت.. كان عبداً، فلما أسلم عذبه المشركون حتى تعبوا، لكنه لم يتعب.. سرقوا دراهمه، فصبر واحتسب، بينما انحط مستوى رجالات قريش ووجهائها إلى الحضيض. ها هو رجل من وجهائهم على الإطلاق ينحدر به الشرك عندما يواجه خباباً إلى مستوى الوضاعة، فينزل الله في ذلك قرآناً يخلد خباباً.. قرآناً تتلوه الأمة كلها.

يقول هذا الحر الأبي: (كنت رجلاً قيناً[1]، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أطلبه. فقال: والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: والله لا أكفر به أبداً حتى تموت ثم تبعث.

قال العاص: فإني إن بعثت، كان لي مال ثم مال وولد، فتأتيني فأقضيك. فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾[2].

ولما ازداد إصرار خباب على هذا الدين وتمسكه برسول الله ﷺ، أخذه هذا الجلف (فكان ممن يعذب في الله)[3] ليتراجع، فلا يتراجع.

فليذهب ماله.. إنه لا يهمه، فخباب كريم بكل شيء.. بجسده.. بدمه.. بصحته.. بكل ما يملك، لكنه شحيح بدينه كسمية بنت خياط فـ (لم يكن أحد إلا أعطى ما سألوه

---

(١) عبداً.

(٢) متفق عليه.

(٣) سنده صحيح رواه أبو نعيم في الحلية ١-١٤٣: حدثنا سعد بن محمد الصيرفي وثقهُ تلميذه أبو نعيم، تذكرة الحفاظ ٢-٦٦١، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعث وهو ثقة، حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام وهو أحد الأعلام الثقات. التهذيب ٨-٤٠٣ عن قيس بن مسلم وهو ثقة. عن طارق بن شهاب، وله رؤية.

يوم عذبهم المشركون، إلا خباباً، كانوا يضجعونه على الرضف[1]، فلم يستغبوا منه شيئاً)[2]. أي لم يحصلوا على شيء منه.

لقد كشف خباب يوماً ظهراً له تقلب في جمر العذاب، وتشقق من السياط، كشف خباب ظهره لأصحابه، فإذا آثار الكي وخرائط الألم تنتشر فيه، وبعد أن أراهم تلك الآثار المحزنة التفت إليهم ثم قال: (لم يكن لي أحد يمنعني، فلقد رأيتني يوماً أخذوني، وأوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري ما اتقيت الأرض أو برد الأرض إلا بظهري)[3].

وقال خباب مرة وهو يحكي مأساته مع مجرمي مكة: (أوقدوا لي ناراً، فما أطفأها إلا ودك[4] ظهري)[5].

كان خباب يقول ذلك لمن حوله.. يحمل شهادته ومعاناته على ظهره، وذلك عندما تحدث الجميع عن مأساة أخيه بلال، وتلك الخطوط التي رسمها بلال في طرقات مكة بجسده العاري، عندما كان سفلة قريش يسحبونه هنا وهناك، فلم يستطيعوا أن يسحبوا كلمة إذعان واحدة ترضي طواغيت مكة.

كان بلال المنحدر من شلالات أفريقيا وأنهارها شجاعاً كأُسُودِها، سخياً كسهولها.. ساق القدر أمه وأباه إلى مكة، فولد كالليل مليئاً بالأسرار والحزن والعبودية. هموم تملأ قلبه، وقيود تحز رقبته وآدميته. كانت حياة آسنة عكرة لا بشائر فيها حتى سمع برسول الله ﷺ، فوجده يحمل ما كان يبحث عنه.. الحرية والعدالة.

كم تشققت قدماه وهو يبحث عنها، فلم يجد عند قريش والعالم إلا سراب، ووجد الحقيقة والحلم عند محمد ﷺ، فماذا ينتظر..؟ لقد أدرك أسرار القوافل التي تمر

---

(١) الحجارة المحماة.

(٢) سنده صحيح رواه أبو نعيم في الحلية ١-١٤٤ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يونس ابن حبيب، وهما ثقتان، حدثنا أبو داود حدثنا شعبة، وهما إمامان معروفان، حدثنا أبو إسحاق وهو تابعي ثقة سمع من شيخه التابعي حارثة بن مضرب قال: قال خباب..

(٣) حسن رواه ابن سعد (٣-١٦٥) أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس، أخبرنا حبان بن علي عن مجالد عن الشعبي قال. وهذا الإسناد ظاهره الإرسال، لكن له شواهد كثيرة تقويه.

(٤) الودك هو الشحم.

(٥) رواه أبو نعيم (الحلية ١-٤٤) عن الشعبي قال: سأل عمر بلالاً. وظاهره الإرسال. ويشهد له ما سبق.

بهذه الدنيا ثم ترتحل، وأدرك أين تستقر. قدم له النبي ﷺ إجابات عجز الفلاسفة والحكماء عن الوصول إليها.. أدرك أن هذه الدنيا ليست سوى أيام وساعات تتبخر، ومهما طالت فلن تدوم، وأن الحياة هناك: خلف السحاب.. خلف السماء في مدائن الجمال والسحر والبهجة الخالدة.. في جنات فاتنة، أو في الجحيم وبين أودية الحميم وحفر النتن والعذاب المقيم والخيارله.

اختار بلال الرحمن، ولفظ الشيطان من حياته، وتصدى كجيش من حديد لتعذيب قريش (هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد)[1].

هذا هو بلال الجديد، الذي رفض أن يقضي حياته منحنياً لسوط أوحجر.. كان يرمي جسده وكأنه يقول: خذوه فهو لكم، لكنكم لن تنالوا من روحي وإرادتي شيئاً ما دمت مع الله، فالروح لها طريق لا تعرفه قريش ولا تلوثه أصنامها.. طريق فسيح لا تردمه الجبال.. طريق طاهر لا تمسه أيدي المشركين.

كانت مأساته مع قريش دامية مؤلمة، وكان منظره يذيب الصخر وهو يسحب في دروب مكة وشعابها.. يلعب به الصبيان والسفهاء، وهو يسقط المرة تلو المرة من الإعياء، ثم يضطر إلى الوقوف مرة أخرى من لسع السياط والعصي على رأسه وجسده.

كان المسلمون حوله يتحرقون، لكن ماذا بأيديهم وهم ليسوا بأحسن حال منه، حتى أشرقت شمس الحرية يوماً.. يحملها أبو بكر الصديق الحنون، فقد تقدم نحو مالك بلال.. نحو مالكه المجرم المدعو "أمية بن خلف"، فعرض عليه شراءه؟ فوافق الطاغية بعد أن كلت يداه وقدماه من الصفع والركل والضرب، فلم يظفر بشيء من ذلك العملاق المتلبط بين السياط، ودفع أبو بكر الثمن، وقبض المجرم، وتوجه أبو بكر نحو ساحة التعذيب يمد يده لينتشل أخاه.. لا عبده، فكيف كانت حال بلال، وعلى أي صورة وجده..؟

رجل مخضرم عاصر الجاهلية والإسلام اسمه قيس بن أبي حازم يروي آخر فصول المأساة البلالية فيقول: (اشترى أبو بكر بلالا بخمسة أواقي، وهو مدفون

---

(١) مر معنا وأنه حديث حسن.

بالحجارة. قالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه. فقال: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته)[1].

هذه هي منزلة بلال الإنسان عند هؤلاء الملحدين، وهذا هو مفهوم الحرية عند الطواغيت دائما: إما أن يختار ما اختاروه له فيكون كادحاً طوال الليل والنهار مهاناً ذليلاً، وإما أن يرفض إرادتهم ويسلك دروب الدعاة فيدفع الثمن باهظاً. كان النبي يقص على أصحابه المعذبين قصص الطغاة واساليبهم مع الدعاة دروساً تشحذ هممهم وتقوي عزائمهم، فهذا فرعون قد سبق قريشاً قولا وفعلا، الله سبحانه يقول عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[2].

موسى وهارون وما معهما من حقيقة وآيات مفسدون في نظر الطاغية فرعون، وهو لا يستحي من ترديد أكذوبته التي يقول فيها ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

ويتكرر المشهد، فهذه أكوام الحجارة تغطي جسد بلال المنهك، والشمسُ اللافحة تحمي عليه تلك الحجارة وتزيد في تعذيبه وإيلامه، لأنه يرفض أن يكون عبداً لحجر.

أما الإسلام، فالإسلام أعطى بلالاً الحرية الحقيقية، ومنحه أرقى أنواعها.. إنها تلك اللحظات التي يتحرر فيها الإنسان الضعيف من أقوى ضغوط السائد، ويتحرر فيها من الوهم الذي يسكن الملايين.. أن يقول للطاغوت المتجبر: لا. عندها يحصل على حريته الحقيقية، فلم يتمر الظلمة إلا لأن أحداً لم يقل لهم يوماً: لا. عندما يقولها بلال، أو أي مسلم، فإن مساحة من الظلم حول ذلك الطاغوت سوف تنحسر، لتفسح المجال لحياة رغيدة ولهواء نظيف يليق بالإنسان.

---

(١) سنده قوي، كما قال الإمام الذهبي، ورواه ابن أبي شيبة ٧ - ٢٣٧ حدثنا سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس. سفيان إمام ثقة معروف، أما أستاذه إسماعيل بن أبي خالد فهو ثقة ثبت. التهذيب (١/٦٨) وقد أكثر الرواية عن شيخه المخضرم: قيس بن أبي حازم البجلي، وهذا الأخير رحمه الله أدرك الإسلام والجاهلية، رأى رسول الله ﷺ، وهو ثقة. انظر التقريب (٢/١٢٦).

(٢) سورة غافر، وهي سورة مكية.

مد أبو بكر يده إلى هذا المسكين لتتفض عنه قريش والحجارة.. مد أبو بكر يده لأخيــه بلال لا لعبده بلال، فلقد اشـــتراه ليحرره من قيد العبوديــة والمهانة.. ليطلقه في البيداء وفي الســماء.. يشرب الماء عذباً.. يتنفس الهواء نقياً، ويعبد ربه أينما شاء متى ما شــاء، بعد أن كان يكد ويكدح طوال يومه دون مقابل.. دون أجر، أو حتى كلمة شكر.

لقد قدم بلال تضحيات وتضحيات، وها هو اليوم يعيش حراً وســيداً من سادات الإســلام.. بشــهادة أحد أعظم رجالات الإســلام حيث يقول: (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالا)[1].

أما لماذا..؟ فلأنه اختار طريق محمد ﷺ وصبر مع محمد ﷺ. لقد كان يجوع يوم يجوع رسول الله ﷺ، ويتألم عندما يتألم، ويجعل من جسده درعاً أمام الرماح الموجهة إلى نبيه، كان يخاف على رســول الله ﷺ أكثر مما يخاف على نفســه. إنه باختصار: يحبه أكثر من نفسه، وهذا ما جعل الدنيا كلها تحب بلالاً وتجله.

لقد كان رســول الله ﷺ يتحدث بنفســه عن بطولات بلال رضي الله عنه.. عن معاناتــه فيقول: (لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقــد أتــت على ثلاثون - من يوم وليلة -، وما لي ولبلال ما يأكل ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال)[2]. وذلك عندما حولت عقيدة الشــرك قريشاً القبيلة الجميلة الكريمة، إلى كتلة من العنف والحقد والبخل.. هكذا تعامل قريش ابنها البار، وابن ســيدها وســيد العرب الكريم، تحشد له الشوك والسياط والجوع والخوف، حتى يمر به الشهر حزيناً لا يحمل إليه ســوى لقمة يومية يشاطرها بلال، في وقت يتقلب فيه زبانية قريش في أنــواع الملذات، دون أن ينغص عليهم أنين المؤمنين تحت أقدامهم وســياطهم، أو حتى يحرك عواطفهم ونخوتهم.

---

(١) صحيح البخاري ٣ -١٣٧١ .

(٢) سنده صحيح. رواه أحمد ٣ -١٢٠ وغيره من طرق عن حماد، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، ورجال هذا الإسناد أئمة كبار، وحماد بن سلمة أوثق الناس في شيخه ثابت.

لقد كان معظمهم مجرمين

يحملون المال والجاه والحسب والنسب والسياط، لكن أيديهم وعقولهم خالية من الحجة والمنطق والحقيقة، فليس لديهم سوى أشياء ورثوها عن آبائهم.. فيها اختلط الحق بالباطل والجميل بالقبيح دونما تمييز، أما محمد ﷺ فقد جمع الحق كله، ورفض الشر كله، فصادموه عندما أراد أن يطهرهم ويشدهم من مستنقعات الرذيلة التي يرتكسون فيها، وكان يقود ذلك الصدام مجرمون.. تفننوا في التعذيب والسحل والتنكيل. كان من هؤلاء عم رسول الله ﷺ: أبو لهب، وكان منهم أمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، لكن هناك من يتفوق على هؤلاء كلهم قسوة وشراسة: رجلان هما: عمرو بن هشام (أبو جهل) ورجل آخر، أما أبو جهل فكان جباراً شقياً يتلذذ بتعذيب المؤمنين، حتى بلغ من قسوته أن انحدر الشرك بمستواه الأخلاقي فاستأسد على العجوز الضعيفة أم عمار بن ياسر، فطعنها بحربة حتى لفظت أنفاسها.. طعنها وهي المرأة الضعيفة الرقيقة.. إنها لم تشتمه، ولم تسبه.. إنما قالت: لا إله إلا الله.

لقد علمنا التاريخ دروساً عديدة، وما زال يعلمنا أن للطغاة موقفاً من المؤمنين الدعاة عجيباً. هذا الموقف يقول: (من كان داعية فهو عدوي)، لأن الداعية المخلص يقدم دعوته ويتناسى نفسه، وهو عكس ما يمارسه المتسلطون الذين لا يملكون سوى تقديم أنفسهم، وقد يكون الطاغية مخيراً أو مسيراً أو ساذجاً، لكن هذا الموقف لا يتغير، ومن يعير سمعه وبصره للتاريخ والأيام.. يجد المشانق والزنازين تئن أمامه من رقاب الدعاة وأجسادهم الطاهرة.. حتى رياح الحرية التي تهب أحياناً على الشعوب، نراها تمر على الجميع وتستثنى الدعاة، فهم ينتزعونها انتزاعاً بدمائهم، ويمنحونها للجميع حرية للبشر للطير للشجر، ولم تكن سمية بنت خياط أول الشهداء ولا آخرهم، ولا كان أبو جهل أول المتسلطين ولا نهايتهم. كان هناك رجل يزاحمه ينافسه اسمه:

عمر بن الخطاب

لعلكم تذكرون ذلك الرجل العظيم: زيد بن عمرو بن نفيل، فهذا الرجل له ولد عظيم مثله اسمه سعيد بن زيد.. تزوج سعيد هذا من أخت رجل يقال له عمر ابن الخطاب، فكان من السابقين إلى الإسلام. سمع من رسول الله ﷺ فوجد الحقيقة

ووجد نفســه، ودعا زوجته -وهي فاطمة أخت عمر بن الخطاب- فآمنت بما آمن به، فكانت أســرة صغيرة ســعيدة بالحب والإيمان والبهجة، وبعد فترة تسرب الخبر إلى عمر بن الخطاب، فتطاير الشــرر من عينيه ويديه، وبدأ بتعذيب أخته وزوجها، فالذي يحدث في - نظره - عار، ولن يسمح عمر للعار أن يدخل بيته. لكن أدوات عمر فشلت، فالقلوب لا تدخلها السياط، والمبادئ لا يثنيها الحديد، وعمر لا يملك من أدوات الإقناع والحوار سوى بسطة في الجسم، وحفنة من السياط والعصي الغليظة.

أحضر الأغلال والحبال لأخته وزوجها، حتى قال ســعيد بن زيد رضي الله عنه: (واللــه لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإســلام)[1]. هكذا كان عمر، وهذا ما تفعله قريش بأطهر أبنائها، وليس لدى الضعيف المظلوم سوى الدعاء:

دعوة نبي مضطهد

أطــال ﷺ التأمل بين صحابته.. يفتش عن أحد، لكنه لم يجده. لقد وجد أتباعاً مضطهدين مغلوباً على أمرهــم.. يتحملون كثيراً ويعانون أكثر، لكن إلى متى..؟!! إلى متى وهم يتوارون ويخفي بعضهم بعضاً كأنما ارتكبوا جرماً..؟ كان عليه السلام يفتش عن شخص جبار تهابه قريش، فتتراجع أمامه قليلاً.. لعل فسحة من الحياة المشروعة تتســع له ولأصحابه، فيستمتعون بها كما يســتمتع غيرهم، ويعبدون الله وهم آمنون. لكــن الطغــاة لا يرحمون. إن البهائــم والطيور تطوف في مكة آمنــة، أما محمد ﷺ وصحبه المساكين ففي الشعاب هائمون، يأتي إليه خباب بن الأرت يحمل جلداً مسلوخاً وجروحاً نازفة وهماً كالجبال.. يأتي إليه خباب المســكين وقد لقي أشــد العذاب من المشــركين. فيقول: (يا رســول الله، ألا تدعو الله لنا..؟ فقعد ﷺ محمر وجهه، فقال: إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشــار على مفرق رأســه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه)[2].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٠٢.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٩٨.

ليس هناك سوى الصبر يا خباب.. هذه هي حياة الأنبياء وأصحابهم وأتباعهم. إن احمرار وجهه ﷺ لم يكن لعدم مشروعية الدعاء، بل كان لهباً يذهب ما قد يعلو في نفوس أصحابه من الملل والضيق. إن هذا الاحمرار يقول: إن كل ما يقدمه الداعية في سبيل الله من تضحية.. من مال.. من جهد.. كل ذلك رخيص.. رخيص في سبيل الله.

إنها الجنة يا خباب.. حيث لا سلطات ولا طغاة.. حيث لا أحقاد ولا تعاسة ولا ملل، وحيث المدن الساحرة والقصور الفارهة، والطرقات المرصوفة بالجواهر والمزينة بالزهور والورود والعطور، والمراكب المبحرة والطائرة، والأجساد الفاتنة التي لا تعرف القبح ولا الأمراض ولا التعب ولا العفن.. الأجساد الفواحة بالعطور، وحيث الدهشة التي لا تفيق منها إلا على أكثر منها، ألا تحب يا خباب أن تكون مع أول من يدخلها، وقد قال حبيبك ﷺ: (أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم فيها الذهب أمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك)[1].

إنها الجنة التي وعد بها الله ورسوله، فلا عجب أن مشط الأنبياء السابقون وأتباعهم بأمشاط الحديد، ونشروا بالمناشير، فقد كانت الجنة في قلوبهم. أما الدعاء فعبادة في الإسلام، كما قال ﷺ لأصحابه: (الدعاء هو العبادة، قال ربكم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾)[2].. حتى الأماني التي تجول في الخواطر تسيل عند الله في مجرى الدعاء الجميل المحبوب.. حتى الأماني الحلوة حَوَّلَها الإسلام إلى عبادة. يقول ﷺ: (إذا تمنى أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه)[3] وهاهو محمد ﷺ يسأل ربه، ويدعوه ويتضرع إليه أن يرزقهم ما يبحثون عنه.. رجلاً يعز الله به الإسلام. وكانت أمنيته ﷺ تحوم حول أقسى رجلين وأشرسهما في مكة كلها، فتوجه ﷺ إلى ربه ضارعاً وقال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١١٨٥.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود ١ - ٤٦٦ وغيره من طرق عن ذر عن يسيع الحضرمي عن النعمان بن بشير مرفوعا وذر ويسيع ثقتان.

(٣) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١ - ٤٣٤انا عبيد الله بن موسى عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقفه أصح.

بـن الخطاب)[1] فقد بخلت مكة وشـحت، وضاقت بأصحابه ﷺ فصارت من ضيقها تحصي أنفاسهم وخطاهم.. حتى بيت الله الحرام أصبح غير آمن.. يطوف به الوثنيون والمشركون وكل من شاء من أصحاب الملل، أما المسلمون الموحدون فلا!

ها هو الطاغية أبو جهل يهدد قائلا: (لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه) [2]. ويتمادى فيحلف بأخشابه وحجارته التي يعبدها فيقول (واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك، لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب)[3].

حبيـب اللـه ﷺ يهدده هذا الجعظ بـأن يطأ على عنقه الطاهـر، فماذا ينتظر البقية سـوى الموت..! أليس هناك سوى مكة.. وطواغيت مكة؟ نعم إن مكة أطهر بقعة على وجه الأرض وأعظمها، لكن هل البقاء فيها من أركان الإسـلام.؟ هل يتحتم على المسـلمين أن يربطوا مصيرهم بمكـة وقد ضاقت بهم وحاصرتهـم جبالها، وأظلمت وديانها وشعابها..؟ هل يتحتم على المؤمنين أن يبقوا فيها وقد نثر الشوك في وجوههم وأقدامهم، وكعبة ربهم تئن تحت أطنان الأصنام وترزح تحت طقوس الوثنية..؟

رسول الله ﷺ حمل الإجابة بيضاء نقية: الإسلام لا يرتبط بأرض ولا وطن، ولا يرتبط بشـخص ولا حتى أمة.. الإسلام عظيم فسيح.. فسيح.. إنه من السعة بحيث تسـتطيع أن تضـع هذا الكون كله في زاوية من زواياه، ومكـة جزء من هذا الكون.. الإسـلام لا يرتبط بمكة، ولا ببيت المقدس ولا ببقية أراضي الأنبياء ولا غيرها، فلا حـرج علـى هؤلاء الضعفاء من المغـادرة والهجرة من أكرم بقـاع الأرض إذا ضاقت وضاق أهلها، متى ما وجد المسـتضعفون أرضاً أرحب. لكن إلى أين سيلجأ أصحاب رسـول ﷺ ؟

إلى الحبشة

هذا ما تقوله أخت عمار بن ياسـر من الرضاعة، صحابية اسمها: (هند بنت أبي

---

(١) إسناده حسن رواه البيهقي (٢-٢١٥) وابن سعد (٣-٢٦٧) وغيرهم من طرق عن أبي عامر: عبد الملك بن عمرو القيس، وهو ثقة التقريب ٣٦٤ أخبرنا خارجة ابن عبد الله بن ثابت وهو حسـن الحديث (التهذيب ٣-٧٦) عن نافع عن ابن عمر قال. قال: رسول الله ﷺ .

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤ - ١٨٩٦.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤- ٢١٥٤.

أمية) وتلقب بـ(أم سلمة)، وقد أوذيت هي وزوجها أبو سلمة مع من أوذوا وعذبوا لأنهم يقولون: لا إله إلا الله.

تقول رضي الله عنها: (لما ضاقت مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلَم أحد عنده، فالحقوا ببلاده، يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظلماً)[1]. كان النجاشي ملك الحبشة نصرانياً يحمل الصليب على صدره لكنه كان عادلاً.

أرض بلال تجود، وشلالاتها تغسل دموع المؤمنين وأحزانهم، وتطهر جرحهم من أشواك قريش ورماحها.. لكن لماذا الحبشة؟

هل لأنها أرض النصارى، والنصارى أهل دين نزل من السماء كالإسلام تماماً..؟ ربما.. لا سيما وجزيرة العرب غابة من الأصنام، وأرض فارس تتأجج ناراً تحرق أهل فارس، وتحرق فطرتهم وتذيبها كلما ركعوا لها، أو تمسحوا برمادها وتمرغوا. ربما كان في هذا بعض الإجابة، لكن الإجابة المؤكدة هي في قول رسول الله ﷺ السابق: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده) إذاً فهو العدل، والعدل أول شرط من شروط الأمن والرخاء، وبدونه تتحول البلاد إلى غابة يرتع فيها المجرمون واللصوص والفاسدون والمتنفذون، حتى لوكان الحاكم وشعبه من أكثر الناس صلاة وصياما..

هاهو جبريل ينزل بآيات من القرآن تقول للدنيا.. للعالم.. أن العدل أحد مهمات الأنبياء. حيث يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[2] وقريش قد فرغت أيديها وعقولها وقلوبها من العدل.

ابتسم المتسلطون وهم يرون هؤلاء الفقراء يحملون أطفالهم ويودعون مكة الحبيبة..

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ١٩٤: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث، عن أم سلمة. ابن إسحاق سمع من الزهري، وشيخه تابعي ثقة التقريب ٦٢٣.

(٢) سورة الحديد ٢٥.

تبللهم الدموع، وتحترق أكبادهم وهم يغادرون بيوتهم ووطنهم ومراتع صباهم.. يتركون نبيهم ﷺ وإخوانهم يتلبطون بين السياط.

فرح الطغاة والمتسلطون كلهم، إلا واحداً كان يرقب المشهد بعمق.. يقف ملجماً بالحزن.. مثقلاً بالندم.. ينظر إلى ضحاياه، ويتأمل مطاياهم وهي تتمايل مغادرة مكة، فتنتزع من قلبه بعض قسوته وعروقه.

كان صامتاً يخاطبه الندم ويقول له: ماذا فعلت يابن الخطاب، وماذا جنت يداك..؟ ويحك يا عمر.. إنهم أهلك وجيرانك وأصحابك.. ألا ترحم.. ألا يلين قلبك لهذا المنظر؟

نساء حزانى، وشباب حيارى، وأطفال لا ذنب لهم، ورجال كرام أهنتهم وشردتهم وضيقت عليهم حتى ملوا الحياة، وهم الذين كانوا يكرمون الضيف، ويحنون على الضعيف.

إلى أين ألجأتهم يا عمر.. إلى بحر يتقلب بهم، أم إلى أرض لا يعرفون بها أحداً، ماذا سيكون مصيرهم..؟ أنت لا تعرف، وهم لا يعرفون. هل خلقت بلا قلب يا عمر؟ تقدم أيها القاسي وقل شيئاً يخفف من لوعتهم.

وتقدم عمر، وتحرك قلبه وتحركت شفتاه نحو هذا المشهد المعبر، الذي ترسمه لنا إحدى المغادرات كالحزن على تلك المراكب..

إنها امرأة تدعى أم عبد الله، وهي زوجة صحابي كريم اسمه عامر بن ربيعة. فتقول: (كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة.. جاءني عمر بن الخطاب وأنا على بعير نريد أن نتوجه فقال: أين يا أم عبد الله؟

فقلت له: آذيتمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله حيث لا نؤذى في عبادة الله ﷺ والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً)[1]. ﷺ ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه خروجنا رضي الله عنه. ثم ذهب، فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر ابن الخطاب فقال:

---

(١) هذه الألفاظ ما بين المعقوفين من رواية أخرى.

ترجين يسـلم؟ فقلت: نعم. قال: فوالله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب - وهذا من شدته على المسلمين-)[1].

وتحركـت المطايـا والقلوب تلوح لمكـة، وركب المعذبون البحـر، وارتفعوا مع الموج وانخفضوا، حتى قذفتهم المراكب على سواحل الحبشة، فرأوا الأمان وتلمسوه فعانقوه وارتاحت قلوبهم، واسـتراحت أبدانهم من شراسـة قريش. أما رسول الله ﷺ وبقية أصحابه فمكثوا في مكة يمشـون على الأشـواك، ويحثى عليهـم التراب، ويبصق في وجوههـم. لكنهم لا يتراجعـون.. يدعون ويدعون، ويكثـر أتباعهم كل يوم، فتضطرب قريش من هذا الدين الذي يشـتد عوده كلما اضطهد وعـذب أتباعه، كأنهم يقتاتون الشقاء والمعاناة.. يحتسون المرارة، فيزدادون صفاءً وتألقاً، كأن الشدائد تزيدهم صفاءً ونقاءً يوما فيوماً.

هذا شـاب يخفي إيمانه عن والده.. اسمه عبد الله بن عمرو بن العاص.. يحدث رجلاً، ويخبره عن أشـد المناظر التي رآها فظاعة.. أشـد مناظر قريش قسوة، وهي تنال من رسول الله ﷺ فيقول: (لقد رأيتهم -وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر-، فذكروا رسـول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من هذا الرجل قط.. سـفه أحلامنا[2]، وشـتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسـب آلهتنا، وصبرنا منه على أمر عظيم....

فبينا هم في ذلك، طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، فلما مر بهم طائفاً بالبيت، غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى، فلما مر بهم الثانية؛ غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه، فمضى ثم الثالثة، فغمزوه.

فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح.

فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسـه طائر[3] واقع،

---

(١) هـو خبر وليس بحديث رواه ابن إسـحاق ١٨١، حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه ليلى. وفيه ضعف يسير من أجل التابعي عبد العزيز فقد وثقه ابن حبان فقط (١١٥/٧) وسكت عنه ابن أبي حاتم (٣٨٥/٥) لكنني أوردته لأنه تابعي كبير ولأنه يروي هذه القصة عن أمه - جدته، ولأنه ليس بحديث.

(٢) سخر من عقولنا.

(٣) أي أنهم قد سكتوا وخيم السكون عليهم.

حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه[1] أحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم فما أنت بجهول.

فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينا هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا - لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول رسول الله ﷺ: نعم. أنا الذي أقول ذلك، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه يبكي دونه)[2].

وقد ذكر عبد الله اسم ذلك الجلف فقال: (أقبل عقبة بن أبي معيط -ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة - فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبيه، فدفعه عن رسول الله ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[3].

ووصف صحابي آخر مشهداً عنيفاً فقال: (ما تنول من رسول الله ﷺ شيء كان أشد من أن أطاف بالبيت - ضحى - فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع ردائه وقالوا: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا؟

فقال ﷺ: أنا ذاك. فقام أبو بكر رضي الله عنه فالتزمه من ردائه، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[4].

---

(١) يداريه.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ٢١٢حدثني يحيى بن عروة، عن أبيه قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته، وابن إسحاق لم يدلس، ويحيى تابعي ثقة. التقريب ٥٩٤.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٨١٤.

(٤) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٢٧٧ من طريق العباس بن محمد بن حاتم وهو ثقة حدثنا ابن مخلد وهو صدوق التهذيب ٥-١٢٩ و٣-١١٦ حدثنا سليمان بن بلال. ثقة التقريب ٢٥٠ حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله.. وهشام ووالده ثقتان مرا معنا كثيراً .

كل هذا ورسـول اللـه ﷺ يتجرع مرارة الأذى صابراً، فقد أُرسـل ليبعث الحياة في هذه النفوس المنهكة.. ليجمع أشـلاءها المبعثرة.. ليجعل من هؤلاء الجفاة شموس حضارة تمنح الضياء للعالم، والدرب طويل وشاق، وقد تكومت في قلوب هؤلاء الوثنين أسـباب النقمة وبين أيديهم سـبل الانتقام، ولن يتورعوا عن ارتكاب الحماقات مهما كانت كارثية، وسـيتلذذون بذلك، وسيشـربون الخمر بهجة بانتصار مزيف على جسد بلال أو عمار وغيرهما. لكن كل ذلك سيتلاشى مع الليالي والأيام والصبر والمصابرة، فالنصر قادم لا محالة، والإيمان مطر تنشره رياح الحرية في الأرض، فإذا قلوب البشر قد اهتزت وربت، وأزهرت فيها الحياة العذبة الجميلة.

ذات يوم يهرب رسول الله ﷺ من مكة، ويلوذ بالفرار معه أبو بكر الصديق.. تطاردهما جلافة قريش وسفهاؤها، فيجدان الأرض خارج مكة أدغالاً من الخوف والرعب.. عطش ورمضـاء وعرق، لكن محمداً وصاحبه كانا غيمتـان.. أمطرتا فإذا الربيع بحجم العالم.. ربيع من العلم والإيمان اسمه:

عبد الله بن مسعود

شـاب هذلي نحيل الجسم.. دقيق الساقين اسمه عبد الله بن مسعود. كان مجرد راع للغنم، وطموحه لا يتعدى البحث عن الكلأ، وقبض دراهم معدودة.. حوله الإسلام والتوحيد إلى شمس تضيء من حولها.

ها هو يتحدث عن تلك الشعلة التي فجرت طاقاته في مرعى الغنم، فيقول رضي اللـه عنه: (كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليَّ رسـول الله ﷺ وأبو بكر - وقد فرا - من المشركين فقالا: يا غلام، عندك لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولسـت بسـاقيكما، فقالا: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم. فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا... فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعرة، فحلب فيها، ثم شـرب هو وأبو بكر، ثم سقاني، ثم قال للضرع، اقلص. فقلص. فلما كان بعد أتيت رسـول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب - يعني القرآن - فقال رسول الله ﷺ: إنك غلام معلم، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد)[1].

---

(١) سنده حسن، رواه البيهقي ٢-١٧١ وأبوأحمد ١-٤٦٢ وغيرهما من طرق عن حماد بن سلمة وهو ثقة =

إنها لمعجزة أن يدر ذلك الضرع باللبن، ثم يقلص وينشف. كذلك الإسلام.. معجزة، فقد جعل من رويعي الغنم عالماً عظيماً، في وقت كان زبانية قريش ينتظرون خبر موت محمد وصاحبه خارج مكة. ولئن كانت مكة لا تأبه كثيراً لإسلام عبد الله بن مسعود، لأنه في نظرهم مجرد راعي غنم قصير القامة.. ضعيف البنية.. دقيق الساقين جداً. إذا كانت قريش لا تأبه لإسلامه ولا تشاهد فيه إلا جسدا ضئيلاً، فإن الإسلام يأبه ويحتفي كثيراً، ويرى فيه إنسانا عظيما.. يحتفي به كاحتفائه بـ:

إسلام حمزة

إذا كان ابن مسعود الضعيف قد أسلم خارج مكة ورسول الله ﷺ هارب من تعذيب أهلها له، فإنه قد قيل إن حمزة بن عبد المطلب ذلك الأسد الفاتك.. عم رسول الله ﷺ قد أسلم أيضاً، بعد عملية اضطهاد لرسول الله ﷺ (كان إسلام حمزة حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد فإذا رجع مر بمجلس قريش وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا، وصنعت كذا.. وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رمية ذات يوم فلقيته امرأة، فقالت: يا أبا عمارة، ماذا ألقي ابن أخيك من أبي جهل بن هشام: شتمه وتناوله، وفعل وفعل.

فقال: هل رآه أحد. قالت: أي والله لقد رآه ناس فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم، فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا.. وكذا وفعلت كذا.. وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله.

قالوا: يا أبا عمارة إنه سب آلهتنا وإن كنت أنت أفضل منه ما أقررناك وذاك، وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً)[1].

قد تكون هذه هي قصة إسلام حمزة، وقد يكون لإسلامه قصة أخرى.. الله أعلم،

= معروف، عن عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث. انظر التهذيب (٣٨/٥) عن الثقة المخضرم زر بن حبيش.

(١) أقول: قيل لأن الرواية لم تثبت عندي، فهي مرسلة عند الطبراني، معضلة عند ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، والطبراني، انظر مجمع الزوائد ٩-٢٦٧ والسيرة الشامية (٤٣/٢) فهي ضعيفة.

وسـواء كان ذلك الذي حدث أم لا، فإن إسـلام حمزة كان نصراً هز مكة من أقصاها إلى أقصاها، فالأمر أصبح خطيراً، والأقوياء الذين كانوا يخشـون زوال سمعتهم وما تجنيـه لهم تلك القوة من أضواء، بـدأوا ينضمون إلى صفوف المؤمنين ويزيدونها قوة، فقد أدركوا كم هم ضعفاء أمام قوة الإسـلام وحجتـه.. أمام قوة القوي الذي لا يقهر سبحانه، فهل من سبيل إلى خروج قريش من هذا المأزق.. قبل أن يجدوا أنفسهم غرباء داخل مكة.

المفاوضات بعد إسلام حمزة

لم يصدق عتبة بن ربيعة أن حمزة أصبح اليوم مع ابن أخيه.. درعاً يحميه، وسيفاً يشق به صفوف قريش.. كم يصعب الوصول إليه وحمزة معه. اغتاظ عتبة أحد أسياد مكة مما يحدث (فقال يوماً وهو جالس في نادي قريش - ورسول الله ﷺ في المسجد وحده -:

يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شـاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسـلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حين جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السـطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد.. أسمع.

قـال: يا ابـن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمـر مالاً.. جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شـرفاً سـودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه؟ أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه..

قال: لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال عتبة: افعل. فقال رسول الله ﷺ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى

ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾[1].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه. فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد..؟

(١) سورة فصلت: الآيات ٣٨١ والآيات التي ذكرت هي التي جاء في الحديث أنه قرأها.

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم)(١).

أدرك عقل عتبة إعجاز هذا القرآن، وبهرته آياته، لكن قلبه كان صخرة تثقله، والهوى يعمي ويصم.. كانت أنياب العادات والتقاليد وبقايا سمعته مغروزة فيه، وهو أضعف من أن يتخلص منها، فهو في ريبة يتردد.. لا يجد له استقراراً.. في نزاع بين ما هو مقنع وصحيح، وبين ما اعتاد عليه وتشربه قلبه، وأخيراً دحرجته جموع الكفر إلى الكفر.. دحرجت قلبه الصخري على عقله، فانطمس، أما محمد ﷺ فأعلنها:

لا تنازل

هذا هو مبدأ نبي الإسلام ﷺ وإمام القادة.. لا يقبل إطلاقاً أي تلفيق أو ترقيع في المنهج، فلا جسور في العقيدة بينه وبين الكفر إطلاقاً. من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، لكن لا وجود في الإسلام لعقيدة مشتركة مع الأصنام والأوثان.. لقد نثروا بين يديه خيارات مغرية:

الزعامة، والمال، والسيادة عليهم وهم سادة العرب، لكنه ﷺ رفض ذلك كله.. كان بإمكانه أن يتزعمهم، ثم ينقلب عليهم إذا اشتد عوده وكثر أتباعه.. كان بإمكانه أن يعقد هدنة معهم، ثم يأخذ من المال ما يتيح له أن يعد جيشاً من المرتزقة يكتسحهم به، لكنه الأمين، والأمين لا يخون، والأمين يقول: (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)(٢) ولن يخون ﷺ مسلماً ولا كافراً ولا مشركاً مهما كانت الأسباب، فالأمر

---

(١) حديث حسن، رواه ابن إسحاق ابن هشام ١-٢٦٢ بسند صحيح لولا خشية الإرسال: حدثني يزيد ابن زياد، عن محمد بن كعب القرظي: حدثت أن عتبة بن ربيعة.. يزيد ثقة. التهذيب ١١-٣٢٨ وابن كعب تابعي ثقة وروايته عن الصحابة، وروى عن تابعي أو اثنين، وله شاهدان عند: عبد بن حميد ٣٣٧ وفيه ضعف يسير من أجل الذيال بن حرملة فلم يوثقه الا ابن حبان. وشاهد قصير عند ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر. وفيه عنعنة ابن إسحاق.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي ٣ - ٥٦٤ وغيره عن أبي صالح عن أبي هريرة. وأبو داود ٣ - ٢٩٠ عن يوسف بن ماهك وهو تابعي ثقة عن أبيه مرفوعا وغيرهم

عقيدة، والقيادة عقيدة عند رسول الله ﷺ. فإما أن تكون لله، أو تكون للشيطان، ولن يشاطر الشيطان قيادةً ولا نهجاً.

لقد كان ﷺ يتنازل عن حقه.. يؤذى فيصبر.. يسـيل دمه فيمسحه، ثم يعود إلى بيته مكسور الخاطر صابراً حزيناً محتسباً.

كانوا يضعون النجاسـة على ظهره، وهو سـاجد لوجه ربـه وأمام كعبته، فيصبر أيضاً ويحتسب.

كان الصحابة يناشـدونه.. يبكون جراحهم.. يبحثون عن خلاص، فيطالبهم بالصبر، ثـم الصبر، ورغم ذلك كلـه، وبعد هذا العذاب كله، تجده يذهب إلى أنديتهم مبتسـماً.. يدعوهم ويدعوهم، ولا يمل من دعوتهم، وكانوا يأتونه في بيته رغم عداوتهم له.. يضعون أموالهم وودائعهم عنده، ويلقبونه بالأمين.

ما الذي يجري، وما تفسـيره..؟!!! سـياطهم على ظهره، وأموالهم ودائع محفوظة عنده!!لم يقل عليه السـلام: هؤلاء مشـركون نجسون، فمالهم حلال لي، ولا عهد لهم ولا ذمة ولا كرامة. لم ينتقم لنفسـه أبداً، لم يعاقب أحداً لأنه ضربه أو شتمه، بل كان يدعو لهم بالهداية.

هذا هو الفرق بين رسـول الله ﷺ وبين مسلمين أعاقوا الإسلام أكثر من أعدائه: منهم من يتنازل عن بعض مبادئ العقيدة من أجل مكسـب سياسي أو مادي، ومنهم من يرى أن السياسة رجس من عمل الشيطان يجب اجتنابه، ويتهم كل من يتعاطاها، مع أن الحكم والسياسة من توحيد الألوهية الذي هو حق لله سبحانه وحده، وهناك من تنحط أخلاقـه، فيجعل من حسـده - لتميز أخوانه الدعاة - موجِهـا لكل تصرفاته وأحكامه ومواقفه، بل يسفل لدرجة أن لا يرى في العالم أخطاء وهفوات سوى هفوات الدعاة.

وهناك من يحاسب الناس وكأنهم يعلمون كل شيء عما يحاسبهم عليه مثل علمه تماماً، وهناك من يدعو الناس وقد حرم على نفسـه الابتسـامة، ورسـم على وجهه كل أنواع العبوس والتكشـير.. كأنه خارج من معركة ضاع فيها الشـرف وسـالت فيها الدماء، وكأن رسـول الله ﷺ لم يكن أكثر الناس تبسـماً، وأكثر الناس تطيباً، وأزكى الناس رائحة.. كأن الرسول ﷺ لم يقل إن الله جميل يحب الجمال. وهناك من يعامل جيرانه من غير المسلمين وكأنهم كلهم يتعمدون الكفر بالإسلام، وكأن المسلم غير ملزم

بدعوتهم قبل بغضهم واضطرارهم إلى أضيق الدروب. ويغفل هؤلاء - وهم في غمرة حماسهم - ويتناسون:

ما حدث لركانة

مشرك قوي البنية.. لم يتمكن أحد من طرحه على الأرض، ويبدو أنه قد تميز عن أهل عصره بتلك البنية البدنية الجبارة.

هذا الرجل يرى في جسده كل ثروته وشهرته، أما رسول الله ﷺ فكان يرى في تلك العضلات المنحوتة أبواباً إلى عقل ركانة وروحه، فلا بأس من طرقها لعل الله أن يهديه للإسلام، فيقرر ﷺ ممارسة لهو مباح مع هذا المشرك، ولا أحد يستطيع أن ينكر أن ما قام به ﷺ ليس من اللهو، فماذا فعل ﷺ مع ركانة؟

لقد (كان عليه السلام بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة، أو ركانة بن يزيد، ومعه أعنز له فقال له: يا محمد هل لك أن تصارعني؟ فقال: ما تسبقني؟ قال: شاة من غنمي.

فصارعه فصرعه فأخذ شاة. قال ركانة: هل لك في العود؟ قال: ما تسبقني؟ قال: أخرى. ذكر ذلك مرارا.

فقال: يا محمد والله ما وضع أحد جنبي إلى الأرض، وما أنت الذي تصرعني. فأسلم ورد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم غنمه)[1].

هل هناك من يقول إن رسول الله ﷺ كان يمارس شيئاً غير اللهو المباح..؟ هل كان ﷺ بتلك المصارعة يتدارس معه علماً.. أدباً أو صلاة؟

بالطبع لا. لكن من المؤكد الذي لا شك فيه أن لرسول الله ﷺ هدفاً من تلك المصارعة أسمى من غنماته وعضلاته. كان ﷺ يسعى لإسلامه.. يفتش داخل هذا الجسد الصلب عن توحيد مكبل ليحرره.. كان ﷺ يقدم درساً لأمته يكشف فيه مدى حاجة هؤلاء

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل (سنن البيهقي الكبرى١٠ - ١٨) عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير ه، وهو مرسل وله شاهدان أحدهما عند الخطيب وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥٠١).

المشـــركين إلى التوحيد والإيمان، وأن هؤلاء المشركين مهما بلغت قسوتهم وطفح طغيانهم مساكين.. غرقى، بحاجة إلى من ينتشلهم من قلب الظلمة. من أجل ذلك قدم ﷺ درساً يبيح فيه الخوض في أبعاد الحلال وأعماقه من أجل إنقاذ إنسان كركانة.

ماذا يقول المرء وهناك من يتناســـى - باســـم الإسلام - فعله ﷺ ولهوه مع ركانة وهو ليس بمسلم..؟! ماذا يقول المرء وهناك من يرى أن اللين لا يجوز إلا مع الملتزمين المتمسكين بسنة رسول الله ﷺ، وأن الشدة والغلظة والعبوس أشياء مطلوبة مع من لا يظنهم كذلك؟! ويصنف الناس وينسى أثناء تصنيفه ما هو أهم.. ينسى أخوة الإسلام، ويحاول التملص من واجبات تلك الأخوة.

إنهـــا ميـــول مغلفة بطابع ديني، وما كان رســـول الله ﷺ يمرر شـــهوته من خلال الدين، لقد كان ﷺ يرســـم.. يطبق شرعاً في التعامل والقيادة.. كان سمحاً مبتسماً.. لا ينتقم لنفســـه أبداً، ولا يرصد الأخطاء على من ظلموه ليتشـــفى، بل كان يعفو.. كان يصل هؤلاء المشـــركين، ويعرف حق القرابة والرحم، رغـــم افتراقه عنهم في العقيدة، لأنه مكلف بتســـليمهم رســـائل ربهم فرداً فرداً، ومكلف بالصبر والانتظار، ولو تحولت الأرض كلها إلى كفر بالله.

هؤلاء يبذلون القليل وينتظرون الكثير، ويغضبون إن لم يظفروا بنتائج، أما رسول الله ﷺ فكان يكدح ويعمل ويبذل ويصبر، ولا ينتظر شيئاً من أحد.. كان ينتظر الجزاء من الله، فإن ظفر بنتائج وظفها كما وظف نفسه، وجعلها للأرض سلاماً ونورا للتائهين ولو طال الانتظار، فلا يأس مع الدعوة، ولا يأس مع الدعاء:

لا يأس مع الدعاء

كان ﷺ حزيناً لما يجري لصحابته وأتباعه من تعذيب وإيذاء، وتنكيل شـــديد على أيد طغاة قريش وزبانيتها، كانت الأحداث التي تعصف بهم تؤذيه وتعصر قلبه، فيتوجه بهذا الدعاء الحار إلى ربه: (اللهم أعز الإســـلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر بن الخطاب)[1] فقد كانا أشد من يسلخ ظهور المؤمنين ويعذبهم فوق

---

(١) سنده حسن رواه ابن سعد ٢٦٧/٣ وغيره وقد مر معنا عند الحديث عن التعذيب.

الرمضـــاء، وكان عمر أخف حدة، وقـــد لاح ذلك عندما وقف ممتلأ بالحزن وهو يودع الصحابة المغادرين إلى أرض الحبشة، لكن قسوته تغلبت على رقته.

بدأ ابن الخطاب يمارس دوره في التعذيب مع أقرب الناس إليه، وأقربهم وألينهم قلباً وجســداً.. أخته المســكينة، التي ليس لها ذنب ســوى أنها تقول: ربي الله. وعذب زوجها الصابر: ســعيد بن زيد رضي الله عنه الذي يقول: (والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر)[1].

حبال وســياط هــي أدوات الحــوار التي كان يجيدهــا عمر ويكثر مــن حملها، فالجاهلية التي كان يعتنقها لا تســتطيع البقاء إلا بالحبال والســياط، لكن القلوب لا تدخلها الســياط، والأفكار لا يثنيها الحديد، ولكن مهما كانت قسوة عمر، فإنه ما زال بشراً يحمل قلباً.. ما زال يحمل عقلاً.

عمر يلقي آخر السياط ويسلم

عمر بن الخطاب.. الرجل الحديدي يسلم، وتلك القوة التي كانت ترزح فوق أنفاس المســتضعفين انزاحت، فهل ستســتحيل بين أيديهم سلاحاً يشــقون به طريقهم وسط غابة الخناجر والســيوف، وأغصان من المشــانق والقيود، أم أن عمر سينضم إلى قافلة المستضعفين الذين لا يملكون حولاً ولا طولاً..؟

كل تلك التساؤلات.. أجاب عنها عمر، فهو لم ينتظر أن يسأله أحد: كيف أصبحت..؟

أراد أن يعلــن صباحــه الجديد على مكة.. أراد أن تشــرق شمســـه على جبال مكة وبيوتها، فلم ينتظر أن تزحف الأخبار إلى بيوت مكة بخبر إســلامه.. أرادها أن تطير.. أراد أن يقول إنه تخلص من شركه كما تتخلص الأشجار من أوراق الخريف الصفراء.. على الطرقات وفي البيوت، ويحملها الهواء في أجواء مكة، لتشعر قريش بالحاجة للمطر.

هاهو مع ابنه الصغير عبد الله.. يسأل من حوله.. يبحث عن رجل يحب النميمة ونشر الإشاعات، فيقول: (أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل لـه: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وقد مر معنا.

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلام أعقل كل ما رأيت -، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت، ودخلت في دين محمد ﷺ؟

فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعته أنا، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا إن ابن الخطاب قد صبأ.

فقال عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح[1] فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا.

فبينا هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة[2] وقميص موشى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟

فقالوا: صبأ عمر. فقال: فمه؟ رجل اختار لنفسه فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلوا عن الرجل.

يقول ابن عمر: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه، فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك بني "العاص بن وائل السهمي")[3].

يقول الطفل ابن عمر: (فتعجبت من عزه)[4].

---

(١) تعب.

(٢) ثوب من قطن أو كتان كان يصنع باليمن.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ١٦٠: حدثني نافع عن ابن عمر، وهو سند كالذهب نافع تابعي معروف ثقة ثبت مشهور، وابن إسحاق صرح بالسماع منه.

(٤) سنده قوي رواه في فضائل الصحابة ١ - ٢٨٢ حدثني محمد بن أبي عمر ثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن بن عمر. ورجاله أئمة ثقات وابن أبي عمر صدوق صنف المسند لازم بن عيينة تقريب التهذيب ٥١٣.

ولـم يكن عز هـذا الرجل بأعظم من إجابته المفحمـة لعصابة الكفر، إنه يرفض مبـدأ قريش في تكميم الأفواه وتقييد الحريات، فالرجال أحرار في اعتناق ما يرونه، وعمر حر في اعتناق ما رآه صواباً وحقيقة، فلماذا التبرم يا قريش؟!

صمتت قريش وانسـحبت، فهي لا تريد أن تفقد شـخصية بارزة وشـيخا مهيبا كالعاص، ولأنها تفتقر إلى أسلحة العقل والإقناع.

قريش لا تملك شـيئاً يبرر أصنامها وطقوسـها، لكنها تملـك صراخاً وضجيجاً تزاحم به أجواء الحوار الهادئة، فإذا ما ماجت السـاحة بالفوضى والغبار والضجيج، مَرَّرَت ما تريد وفرضت ما تشـتهي، وأبقـت الدعاة في أجواء الخوف والرعب، لعلهم يتراجعون عن رسـالتهم التي تخطف القلوب والعقول بهدوءٍ من صفوفها. لكن رسول الله ﷺ اسـتمر في هدوئه ودعوته.. يزداد سـكينة كلما ازدادوا شراسة، ويبشر كلما عسروا وشددوا، ويبتسم كلما كشروا عن أنياب دامية، ويلاطف الناس جميعاً بأسلوب سـاحر آسر.. مفعم بالحب والشـفقة.. كله ود وجمال.. كأنه خرير ماء.. كأنه ساحة من الزهور فسيحة.

هذا الأسلوب جعل معسـكر الكفر يفقد أعصابه وأفراده، فبالأمس كانت قريش تفقـد أفراداً ربما لم يكن لهم تأثير، أما اليوم فهـي تفقد أقوياء مفتولين كالحديد.. هاهو حمزة ينسـحب منهـم، ويتبعه عمر بن الخطاب، وهاهـم الضعفاء يقتربون من الكعبة.. يطوفون بها، بل يصلون عندها، وهاهو أحدهم.. راعي الغنم الفقير عبد الله بن مسعود يقول: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)[1].

كان إسـلامه فضاءً جديداً.. فسحة وجد فيها بعض المسلمين ساحة آمنة يركعون فيها ويسـجدون لله قرب الكعبة، حتى قال ابن مسـعود: (والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر)[2].

عمر اليوم سيف للإسلام لا يفل، ولا يحول بينه وبين رقاب الطغاة حائل، فأصبح لأقدام المسـتضعفين مكان في بيت الله الحرام، وجوار الكعبة.. يتجمهرون حول نبيهم

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٠٣.

(٢) حديث حسـن رواه الحاكم ٣ - ٩٠ وغيره من طرق عن القاسـم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله. والصواب: دون كلمة أبيه عند ابن سعد ٣-٢٧٠ وله عنده شاهد يقويه.

ﷺ عند الكعبة، ويسمع المهاجرون إلى الحبشة بتلك الأحداث المفرحة، فيركب بعضهم الأمواج والبهجة عائداً إلى رسول الله ﷺ.

وفي يوم من تلك الأيام التي يلتف بها الصحابة حول نبيهم ﷺ، وقد زاحمهم المشركون أيضاً تنغيصاً ومضايقةً.. في مجلس الأخلاط هذا كان ﷺ يتغنى بآيات من سورة النجم:

﴿ أَفَرَءَيْتَ[1] ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴾[2]. وبعد أن قرأ ﷺ هذه الآيات سجد (وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)[3] (غير شيخ أخذ كفاً من حصىً أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا)[4].

سجد الكفار المعاندون وسجد المؤمنون.. أخذتهم هذه الآيات، فساحت بهم في رحلة بدأت من الآخرة، حيث القبور الثائرة المبعثرة، وحيث الأموات يشقون أكوام التراب والغبار.. ينتفضون.. يخرجون يبحثون عن الداعي والمنادي نحو أرض المحشر، وتنتهي بهم الرحلة هناك بين الخرائب الصامتة.. خرائب عاد وثمود وقوم لوط.. إلى

---

(١) بدأت الآيات من هنا لأن الآيات التي قبلها تتحدث عن الإسراء والمعراج، فكأنها هناك.

(٢) سورة النجم.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ١-٤٠٥.

(٤) متفق عليه.

حيث الجثث منثورة متورمة من الماء.. جثث قوم نوح المتعفنة التي طوح بها الطوفان في كل مكان، وأثناء هذه الرحلة المخيفة يدخل المسافرون عالماً مدهشاً وعجيباً يقال له الإنسان.. بدايته حقيرة، لكنه يتمدد حتى يصبح عوالم تثير الدهشة والحيرة.. تحني الرقاب، وتخضع القلوب والجباه لقدرة الله واعترافاً بعظمته. رحلة تفتح القلب والعقل لأسئلة مصيرية جوابها في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1].

تأثر السامعون المسلمون والمشركون أيضاً، فسجدوا لله وحده لا لشيء آخر[2]، حتى ذلك الشيخ الوثني الحجري.. لم يستطع كبت شعوره نحو هذه الآيات وتأثره بها، فرفع ملء كفه من الحصى ووضعه على جبهته.

لحظات من الخضوع والخشوع كانت تطوف بالكعبة، وبالملتفين حول نبي الرحمة ﷺ، لكن تلك اللحظات لم تلبث طويلاً، لقد مرت بالمشركين يطاردها الشيطان.. عاد الشيطان من جديد يتمدد في الشرايين والقلوب.. يثير في نفوس زعماء المشركين، وفي كل زعماء الدنيا الرعب والخوف من المستقبل المجهول.. من محمد ﷺ وصحابته. يقول إنهم في طريقهم إلى السيطرة على مكة وغيرها، ولا بد من إيقاف ذلك الزحف المفزع.

---

(١) هذه الآيات العظيمات قرأها أحد كبار علماء الأجنة في كندا والعالم البروفيسور (كيث. إل. مور) فأذهلته، وأذهله إعجازها، فهي دقيقة ومعلوماتها لا يستطيع بشر في عصر النبي عليه السلام التوصل إليها، فدرس القرآن وأعلن إسلامه، وقال إن مراحل الخلق في القرآن أدق من تلك المراحل التي وضعها في كتابه وهي:١،٢،٣ إلى مراحل القرآن.. نطفة فعلقة فمضغة.. وهكذا، وهي آيات تثبت البعث يوم القيامة، فسبحان من حفظ هذا القرآن.

(٢) أقصد بالشيء الآخر تلك القصة الغريبة (قصة الغرانيق) المخالفة لصريح القرآن الضعيفة سنداً . انظر رسالة (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) للعلامة الألباني رحمه الله ولأستاذي الشيخ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي نقد علمي لها في (مغازي عروة).

نجح الشـيطان ورمى بقريش نحو التطرف من جديد، وها هو الشر يغلي برؤوس طواغيتهـا، فيقررون الإقدام على جريمة حمقـاء.. جريمة يرتكبها الطواغيت في كل زمان ومكان.. تمهيدا لاغتيال الحرية والعقل والإرادة: التصفية الجسدية.

محاولة قتل عمر

عمر بن الخطاب شجاع.. قوي، وليس من السهل النيل منه، لذا.. لا بد من حشد يحملون عليه حملة رجل واحد، فاتفقت قريش على هذا الأمر، وسارت مجموعة كبيرة لا قبل لعمر بها، فلزم بيته لا يغادره، لكن الخبر وصل للعاص بن وائل من جديد، فكان له كلمة أخرى وتصرف آخر، بعد أن رأى حشود الطواغيت يحاصرون عمر في منزله تمهيدا لاقتحامه والإجهاز عليه.

لحظـات تحبس الأنفاس يرويها طفل صغير كانت عيناه زائغتان ترتعشـان خلف ذلك الباب الذي يتعرض لصلف رجال تخلوا عن رجولتهم وعقولهم.

عبـد الله بن عمر ذلك الطفل المحاصر مع أبيـه، والذي يتلصص اليتم عليه من شـقوق البـاب.. يتحدث عن تلك اللحظـات التي غاب فيها العقـل، فحضرت ثقافة الأصنام وحشوده.!!

يقـول أن والده كان (فـي الدار خائفـاً إذ جاءه العاص بن وائل السـهمي، وعليـه حلة حبرة، وقميص مكفوف بحرير فقال: ما بك؟ قال عمر: زعم قومك أنهم سـيقتلونني لأنني أسلمت. قال: لا سبيل إليك أمنت. فخرج العاص فلقي الناس قد سـال بهم الوادي فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سـبيل إليه. فكر الناس وتصدعـوا[1]. عنه)[2] ورجعوا والغيـظ يملؤهم. رجعوا.. لا لعقولهم، ولكن ليحرموا رسـول الله ﷺ وأتباعه فرص التفرغ لمشـروعهم الدعوي، فمـا كانوا ليتركوا دقيقة صفاء إلا وحاولوا التسـلل لتعكيرها.. هاهم يجتمعون مرة أخرى فيقررون:

---

(١) تفرقوا عنه.

(٢) متفق عليه.

فكمـــا أن العاص قد أجار عمر، فإن أبـــا طالب يحمي ابن أخيه محمداً ﷺ، فلا بد من كسر الحماية..

لا بــد أن تكون تلك الحماية بشـــروطهم، ولا بد من الضغط عليه وعلى عمه عله يتراجـــع، وكان ذلــك التراجع هو الحلم لقريش عندما (جـــاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال لابنه: يا عقيل انطلق فأْتني بمحمد.

يقول عقيل: فانطلقت إليه، فاستخرجته من خيس[1] - بيت صغير - فجاء به في الظهيرة، في شدة الحر، فجعل يطلب الفيء [2]، يمشي فيه من شدة الحر الرحض[3]، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم.

فحلق[4] رســـول الله ﷺ ببصره إلى الســـماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة.

فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا)[5].

فرجعوا، لكن إلى ماذا؟ رجعوا لـ:

---

(١) ويعني أيضاً بيت الأسد.

(٢) الظل.

(٣) العرق.

(٤) أي رفع وأجال.

(٥) سنده جيد، رواه البخاري في تاريخه (٧/ ٥١) والبيهقي (٢/ ١٨٦) من طريق: يونس بن بكير، عن طلحة بن يحيى بن عبد الله، عن موسى بن طلحة: أخبرني عقيل بن أبي طالب. ويونس حديثه حسن: التقريب ٦١٢ وطلحة حسن الحديث من رجال مسلم، وموسى تابعي ثقة التقريب ٥٥١، وقد وردت هذه القصة بسند ضعيف ولفظ مختلف عند ابن إسحاق والبيهقي (٢/ ١٨٧) بلفظ: يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه، وراوي هذا الحديث هو يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس لم يذكر من هو شيخه بل قال: حدثت أن قريشاً قالت:... ثم إن فيه جهالة التابعي انظر التهذيب ١٣-١٩٢، فهو كما قال الإمام الألباني: من أتباع التابعين. وتعليق الألباني على فقه السيرة الغزالي (١٠١).

فقد سقط أمل كان يترنح لهم في الأفق، واتضحت الرؤية على أرض مكة.. إما الله، وإما الأصنام.. إما التوحيد، وإما الشرك.. لا جسور بينهما ولا اتصال.

سقط أحد الآمال التي كانت تحملها قريش، فأغضبها ذلك السقوط، فعزمت على العودة من جديد.. للتعذيب من جديد، وسيكون هذه المرة أقسى وأغلظ وأشد.. ستصل أنيابه إلى الجميع دون تفريق، لقد قررت قريش أن تملأ مكة بالدماء..

هاهم وقد أمسكوا برسول الله ﷺ يضربونه ضرباً شديداً حتى أسالوا دمه، فيهرب هائماً مغموماً كئيباً، فيأتيه جبريل عليه السلام (وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟

فقال ﷺ له: فعل بي هؤلاء.. وفعلوا. فقال جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم.

فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة.

فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. فقال جبريل: مرها فلترجع. فأمرها، فرجعت إلى مكانها.

فقال رسول الله ﷺ: حسبي)[1].

آية عظيمة، ومعجزة تسليه ﷺ.. تمسح عنه دماء نازفة، ودموعاً حارقة، فيعود لمكة مرة أخرى.. متخفياً عن أعين القوم وأيديهم، فيجد أتباعه يفترشون الرمضاء.. يلتحفون السياط.. يعجون إليه يطلبون الإذن بالهجرة من جديد؟ فيأذن لهم، وكانوا هذه المرة أكثر من ثمانين صحابياً معذباً.. يريدون أن يعبدوا الله بحرية، ويعمروا الدنيا بسلام، فأذن لهم ﷺ.

---

(١) إسناد صحيح: رواه الإمام أحمد ٣-١١٢، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك، والأعمش مدلس وقد عنعن، لكن يذهب شبهة تدليس كونه راوية شيخه التابعي الثقة: أبي سفيان، طلحة بن نافع القرشي، فقد جاء في التهذيب (٥/٢٦): روى عنه الأعمش وهو راويته، بالإضافة إلى أن وكيعا قال عن أبي معاوية: ما أدركنا أحداً كان أعلم بحديث الأعمش من أبي معاوية.

إحدى الشـابات المعذبات هي (هند) أم سلمة رضي الله عنها.. تحدثنا عن رحلة الآلام كاملة فتقول: (لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسـول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم[١]، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرسالاً، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار، وإلى خير جار، آمناً على ديننا ولم نخش منه ظلماً. فلما رأت قريش أنا قد أصبنا داراً وأمناً اجتمعوا على أن يبعثوا إليه[٢] فينا، فيخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم.

فبعثـوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة فجمعوا له هدايا، ولبطارقته[٣]، فلم يدعوا رجلاً منهم إلا هيأوا له هدية على حدة، قالوا لهما: ادفعوا إلى كل بَطْرِيق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا هداياه، وإن استطعتما أن يردهم عليكم قبل أن يكلمكم فافعلوا.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدموا إليه هديته، وكلموهم، فقالوا لهم: إنا قدمنا إلى هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه أن يفعل. فقالوا: نفعل.

ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، وكان من أحب ما يهدى إليه من مكة الأدم[٤]، فلما أدخلوا عليه هداياه، قالوا له: أيها الملك، إن فتية من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم، وأعمامهم، وقومهم لتردهم، فهم أعلاهم عيناً.

---

(١) مر معنا تخريج هذا الجزء.

(٢) أي إلى النجاشي.

(٣) البطريق أو البطريرك هو رئيس الأساقفة، والأسقف العالم النصراني وهو فوق القس والقس غالباً هو المتفرغ للعبادة وخدمة الكنيسة.

(٤) الجلود.

فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا أعلاهم عيناً، فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك.

فغضب، ثم قال: لا، لعمر الله لا أردهم إليهم حتى أدعوهم، فأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجأوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أخل ما بينهم وبينهم، ولم أنعمهم[1] عيناً.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم.

فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم، فقال: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا نقول!.. نقول والله ما نعرفه، وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان.

فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب، فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

فقال جعفر: أيها الملك، كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، نأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف وفاءه، وصدقه، وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي لله، ونصوم له، ولا نعبد غيره.

فقال النجاشي: فهل معك شيء مما جاء به - وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله - هلم فاتل علي ما جاء به.

فقرأ عليه صدراً من: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ

(١) نعمة العين أي قرتها، أي أقر أعينكم برجوعهم إليكم.

أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[1].

(١) ما بين الأقواس ليس في نص الحديث، لكن جعفراً قرأه بالتأكيد وقد ذكرته ليستشعر القارئ ذلك الموقف، ولم أكمل الآيات لأنه من المؤكد أنه لم يقرأ ما بعدها لأنها تتحدث عن وحدانية الله، وعن بشرية عيسى، ولو قرأها لما تكلم عمرو بن العاص فيما بعد.

فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته[1]، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة[2] التي جاء بها عيسى، انطلقوا راشدين، ولا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عيناً.

فخرجنا من عنده، وكان أبقى الرجلين فينا[3] عبد الله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم[4] إنهم يزعمون إن إلهه الذي يعبد عيسى بن مريم: عبد. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً، ولهم حقاً. فقال عمرو بن العاص: والله لأفعلن.

فلما كان من الغد دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم رسولاً فاسألهم عنه.

فبعث إليهم - ولم ينزل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقال: نقول والله الذي قال الله تعالى فيه، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه.

فدخلوا عليه، وعنده بطارقته، فقال: ماذا تقول في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر: نقول عبد الله ورسوله، وكلمته[5]، وروحه[6]، ألقاها إلى مريم العذراء البتول[7].

فدلى النجاشي يده إلى الأرض، وأخذ عويداً بين إصبعيه، فقال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العويد[8].

فتناخرت[9] بطارقته. فقال: وإن تناخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم في أرضي - والسيوم الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم - ثلاثاً

---

(١) تبللت بالدموع.
(٢) الكوة التي في الجدار يوضع فيها المصباح. أي أنه من المصدر نفسه.
(٣) أي أشفق وارحم.
(٤) أصلهم.
(٥) كلمة الله: أي قول الله كن فيكون، كما قال لآدم كن فكان بلا أب ولا أم.
(٦) روح الله، مثل قولك للكعبة إنها: بيت الله.
(٧) العذراء المنقطعة عن الزواج.
(٨) تصغير كلمة عود. أي أن عيسى هو كما وصفه القرآن الكريم.
(٩) أي أخرجوا أصواتا من أنوفهم، أو تنحنحوا استنكارا لقوله واحتجاجا.

- مـا أحب أن لي دبراً وأني آذيت رجلاً منكم - والدبر بلسـانهم: الذهب - والله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع النـاس فيه، ردوا عليهمـا هداياهما فلا حاجة لي بها، فاخرجـا من بلادي. فرجعا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به.

فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار، فلم ينشـب[1] أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعـه فـي ملكه، فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشـد منه فرقـاً من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرف، فجعلنا ندعو الله ونسـتغفره للنجاشـي، فخرج إليه سـائراً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض: من رجل يخرج فيحضر الوقعة حتى ينظر ما يكون، فقال الزبير - وكان من أحدثهم سناً: أنا.

فنفخـوا له قربة، فجعلها في صدره، ثم خرج يسـبح عليها في النيل، حتى خرج من شـقه الآخـر إلى حيث التقى الناس، فحضر الوقعة، فهـزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشـي، فجاءنا الزبير يليح علينا بردائه، ويقول: ألا أبشروا، فقد أظهر الله النجاشي.

فوالله ما علمنا فرحنا بشـيء قط فرحنا بظهور النجاشـي، ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة، وأقام من أقام)[2].

هذه هي قصة النجاشـي مع المهاجرين، فما قصة الرشوة التي تحدث عنها ذلك الملك الطيب.. هدية الحبشـة للإسـلام..؟ وما معنى قوله: (ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه)؟

ذلـك أمر حدث بين أنهار الحبشـة وأدغالها، تحدثنا عنه إحـدى بنات أبي بكر الصديـق فتقـول رضي الله عنها: (إن أباه[3] كان ملك قومه، وكان له أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، ولم يكن لأبي النجاشي ولد غير النجاشي، فأدارت الحبشة رأيها، فقالوا: إنا إن قتلنا أب النجاشي وملكنا أخاه، فإن له اثني عشر رجلاً من صلبه فتوارثوا الملك

---

(١) لم يمر زمن طويل حتى.

(٢) سيأتي تخريجه في نهاية الخبر التالي، فهو جزء منه.

(٣) أي والد النجاشي.

لبقيت الحبشة عليهم دهراً طويلاً لا يكون بينهم اختلاف، فعدوا عليه، فقتلوه، وملكوا أخاه، فدخل النجاشـي لعمه حتى غلب عليه[1]، فلا يدير أمره غيره، وكان لبيباً، فلما رأت الحبشـة مكانه من عمه قالوا: لقد غلب هـذا الغلام أمر عمه، فما نأمن من أن يملكه علينا وقد عرف أنا قد قتلنا أباه، فإن فعل لم يدع منا شـريفاً إلا قتله، فكلموه فيه، فلنقتله أو نخرجه من بلادنا.

فمشـوا إليه فقالوا: قد رأينا مكان هذا الفتى منك، وقد عرفت أنا قد قتلنا أباه، وجعلناك مكانه، وإنا لا نأمن أن تملكه علينا فيقتلنا، فإما أن تقتله، وإما أن تخرجه من بلادنا، فقال: ويحكم قتلتم أباه بالأمس، وأقتله اليوم، بل أخرجه من بلادكم.

فخرجـوا به، فوقفوه بالسـوق، فباعوه من تاجر من التجار، فقذفه في سـفينة بسـتمائة درهم، أو بسـبعمائة درهم، فانطلق به، فلما كان العشـي هاجت سـحابة الخريـف، فجعل عمه يتمطر تحتها، فأصابته صاعقة، فقتلته، ففزعوا إلى ولده، فإذا هـم محمقين[2] ليس فـي أحد منهم خير، فمرج على الحبشـة أمرهم، فقال بعضهم لبعـض: تعلمون والله أن ملككم الذي لا يصلـح أمركم غيره للذي[3] بعتم بالغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه قبل أن يذهب.

فخرجوا في طلبه حتى أدركوه، فردوه فعقدوا عليه تاجه، وأجلسـوه على سريره، وملكـوه، فقال التاجـر: ردوا علي مالي كما أخذتم مني غلامـي. فقالوا: لا نعطيك، فقال: إذاً والله أكلمه. فقالوا: وإن.

فمشى إليه فكلمه فقال: أيها الملك، إني ابتعت غلاماً فقبضوا مني الذي باعونيه ثمنه، ثم عدوا على غلامي فنزعوه من يدي، ولم يدروا علي مالي.

فـكان أول ما خبـر من صلابة حكمه وعدله أن قال: لتردن عليه ماله، أو ليجعلن غلامه في يده، فليذهبن به حيث شاء؟

فقالوا: بل نعطيه ماله. فأعطوه إياها.

---

(١) أي أن النجاشي بعد قتل أبيه تقرب من عمه ولازمه حتى أصبح أوثق الناس عنده.

(٢) أي حمقى: والحمق قلة العقل.

(٣) لا يصلح أمركم غير النجاشي الذي بعتم.

ولذلك يقول: ما أخذ الله مني الرشوة فآخذ الرشوة منه حيث رد علي ملكي، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه)[1].

ذلك هو النجاشي، وتلك قصة تتويجه.. تتويج العدالة الحبشية. ذلك الملك الأسمر نال شهادته من السماء بعد أن عدل بين شعبه.. نال شهادته قبل أن ينصف المسلمين. قال ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده) قبل أن يصل أصحابه، وقبل أن يسمعوا عنه. فلتهنأ الحبشة بسبقها، فلقد أنصفت المسلمين من براثن مشركي قريش، وآوتهم بعد أن ضاقت عليهم مكة، في حين كانت يد قريش تمتد في حقد عجيب.. في تسلط حقير لتكمم الأنوف والأفواه، وتمنع الهواء.

إنها تحسدهم على أرض يمشون عليها، وتحسدهم على حصير يلقون عليه أجسادهم التي أتعبها الترحال والشقاء!! ترى أي قلوب كانت تضمها أجساد المشركين حتى يركضوا خلف الراحلين، ويدفعوا الرشوة لطرد هؤلاء الضعفة المساكين..؟!

رجلان أرسلتهما قريش بتلك المهمة الوضيعة: عمرو بن العاص.. وعبد الله بن أبي ربيعة.

دعونا نستمع إلى أحدهما (عمرو بن العاص) وهو يقص علينا قصته، وأثرها في نفسه. بالطبع هي قصة الوجه البشع لرسول قريش في تلك الأزمنة العصيبة على الإسلام، فكيف كان يرى عمرو رحلته، وماذا تكشف له بعد أن سمع ورأى ما حدث.

يقول عمرو بن العاص: (لما رأيت جعفراً وأصحابه آمنين بأرض الحبشة. قلت: لأفعلن بهذا وأصحابه، فأتيت النجاشي، فقلت: ائذن لعمرو بن العاص. فأذن لي.

فدخلت. فقلت: إن بأرضنا ابن عم لهذا يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد، وإنا والله إن لمن ترحنا منه وأصحابه، لا أقطع إليك هذه النطفة[2] أبداً، ولا أحد من أصحابي. فقال: أين هو؟ فقال عمرو: إنه يجيء مع رسولك، إنه لا يجيء معي، فأرسل معي رسولاً.

---

(١) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢-٣٠١) وأحمد (١-٢٠١) حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة زوج النبي ﷺ . الزهري إمام ثقة ثبت معروف، وأبو بكر تابعي ثقة فقيه عابد التقريب ٦٢٣.

(٢) النطفة هي الماء الصافي، وربما أراد بها البحر.

فوجدنـــاه قاعداً بين أصحابه، فدعاه، فجاء، فلما أتيت الباب ناديت: ائذن لعمرو بن العاص. ونادى خلفي: ائذن لحزب الله عز وجل، فسمع صوته، فأذن لـه.

فدخل ودخلت، فإذا النجاشي على السرير، وجعلته خلف ظهري، وأقعدت بين كل رجلين من أصحابه رجلاً من أصحابي فســكت وسكتنا، وسكت وسكتنا، حتى قلت في نفسي: العن هذا العبد الحبشي ألا يتكلم.

ثــم تكلم، فقال: نجروا - أي تكلموا. فقلت: إن ابن عم هذا يزعم إنه ليس للناس إلا إلــه واحــد، وإنك والله إن لم تقتله لا أقطع إليك هذه النطفة أبداً، أنا ولا أحد من أصحابي.

فقال النجاشي: يا أصحاب عمرو ما تقولون؟ قالوا: نحن على ما قال عمرو. قال النجاشي: يا حزب الله نجر.

فتشهد جعفر - والله إنه لأول يوم سمعت فيه التشهد ليومئذ.

قال جعفر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال النجاشي: فأنــت فما تقــول؟ قال جعفر: أنا على دينه، فرفع يده ثم وضعها. ثم قال النجاشـــي: أناموسٌ كناموس موسى، ما يقول في عيسى؟

قال جعفر بن أبي طالب: قول: روح الله[1] وكلمته.

فأخذ النجاشـــي شــيئاً من الأرض ثم قـــال: ما أخطأ فيه مثل هـــذه، لولا ملكي لأتبعتكم. اذهب أنت يا عمرو، فوالله ما أبالي أن لا تأتيني أنت ولا أحد من أصحابك أبداً، واذهب أنت يا حزب الله. فأنت آمن.. من قتلك قتلته، من سبك غرمته.

وقـــال لآذنه: انظــر هذا فلا تحجبه عني إلا أن أكون مــع أهلي، فإن كنت مع أهلي فأخبره، فإن أبى إلا أن تأذن له فأذن له.)[2]. هذا ما حدث في الحبشة.

---

(١) كلمــة اللــه مثل معنى بيت الله، وأرض الله، وكلمته أي قول الله كن (فيكون) كما قال تعالى في آل عمران (٩٥) إن مثل عيســى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. فعيســى خلق من غير أب، وآدم خلق من غير أب ولا أم.

(٢) إسناده حسن، رواه البزار٤-١٣٤: حدثنا محمد بن المثنى: حدثنا معاذ، حدثنا ابن عون، حدثني عمير بن إســحاق، حدثني عمرو بن العاص. ابن المثنى ثقة ويعروف بالزمن التقريب ٥٠٥ ومعاذ بن معاذ بن نصر: ثقة متقن، وعبد الله بن عون بن أرطبان ثقة ثبت فاضل. وعمير بن إسحاق تابعي حسن الحديث والكلام فيه لا يضر ولا ينزله عن رتبة الحسن.

بعيداً عن الحبشـــة، خلف آلاف الأميال.. خلف البحار خلف الجبال ووسط لهب من الكفار.. كان ﷺ صامداً لا يذوب لا ينثني. قد أدرك أن قريشاً تعاند، فلا بد من البحث عن تربة خيراً من هذه التربة.. خيراً من هذه القلوب الصدئة. لا بد من البحث عن قبائل تحتضن الدعوة.. تسـاندها، وتدافع عنها وتجمع أشتاتها، فدعاتها هاربون دائماً.. هائمون دائماً، وغربتهم موحشة مضنية. قد أذابتهم الأحزان، وطوحتهم الأيام خلف الجبال والبحار، وبين اللحود.. يتلفتون كأنهم قد سرقوا الإيمان سرقة.. يتلفتون خشية أن يؤخذ منهم، ويفزعون عند سماعهم خشف نعال، أو طرق باب.. فزع المحكوم عليـه بالإعـدام، فهو في زنزانته ينتظـر الجلاّد، ويراه قادماً مـع كل حركة.. مع كل همسة. وكأن الموت يعد بقية أنفاسه، فهل من مخرج؟

رجل اسـمه (ربيعة الديلي) يروي مأسـاة النبي عليه السلام في أسواق الجاهلية ومنتدياتهـا، ومعاناته مع أقـرب الناس إليه. يروي إصراره علـى المضي والتوغل في صحارى التجاهل، فلا بد من نهر خلف تلك الصحاري، أو نبع ماء.

يقول ربيعة: (رأيت رسـول الله ﷺ بصر عيني بسـوق ذي المجـاز يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

ويدخل في فجاجها[1] والناس متقصفون[2] عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت.. يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا) أجل.. تفلحوا. إنه لا يريد أموالكم ولا ماعندكم، فما يريده هو العودة بهذا القطيع الشارد إلى موارد الماء والكلأ، بعد أن تاه في صحاري الشـرك الشاسـعة التي تقطع الأعناق باللهاث خلف سرابها، لكن قريشاً لا تدعه.. لا ترحمه، حتى وهو يخاطب من ليس منها لا تدعه.

يصف ربيعة ما رأى فيقول: (إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقـول: إنه صابئ كاذب. فقلـت: من هذا؟ قالوا: هذا محمد بـن عبد الله وهو يذكر النبوة. قلت: من هذا الذي يكذبه. قالوا: عمه أبو لهب)[3].

---

(١) الفجاج الطريق الواسع.

(٢) مجتمعون عليه.

(٣) حديث حسـن رواه أحمد ٤-٣٤١ من طريق ابن أبي الزناد، وقد سـاء حفظه عندما قدم بغداد وربما كان هذا منها، وبقية رجاله ثقات، وما بعده شاهد يقويه.

كأن السورة التي نزلت فيه وفي امرأته أضرمت بيته، فصار لا يقر له قرار وهو يرى عاره على كل لسان، وفي كل نظرة لهباً يشويه. إنه التشفي ومحاولة إطفاء متأخرة لما قد احترق منه.

إن إسلام المزيد من الناس يعني لأبي لهب المزيد من شتمه، والتقرب إلى الله ببغضه، فقام يمارس تحطيم كل بناء للنبي ﷺ، ويحاول الإبقاء على الظلام بإطفاء كل شمعة يشعلها عليه السلام، فهو يركض خلفه لا يطلب الراحة لنفسه، ولا لغيره، وكيف يجدها! وقد حشته تلك الآيات جمراً وصغاراً على كل لسان.

يقول ربيعة: (رأيت أبا لهب بعكاظ وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا أيها الناس إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم. ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان، كأني أنظر إليه أحول ذا غديرتين، أبيض الناس وأجملهم)[1] بل ومن أشرفهم نسباً، لكن ذلك كله لم يسعف رجلا حشرت في رأسه كل رموز التخلف، والشرك والهمجية.

لا شيء سوى كتلة متورمة من الأحقاد والضغائن تتدحرج خلف رسول الله ﷺ، الذي يتجاهله ويصوب بصره نحو الأمام.. نحو البناء.. يتبع القبائل كلها، ويقف أمامها كلها.. يتلمس خيامها في كل سنة تنصب فيه تلك الخيام، فيدلف كل خباء، باحثاً عن قلوب تتلمظ فيها الفطرة كالعطش، فيصغي إليها من سحاب التوحيد العذب والحياة مع الله ما يرويها ويذهب عطشها.

كان يغشى أسواقهم التي يقيمونها كل عام للتجارة والشعر والأدب.. يغشاها ينثر في دروبها عبير الإيمان، ويبحث عن أنصار، وكان بصحبته رفيق طفولته، وصدّيق نبوته أبو بكر الصديق، وشاب كله حياة.. هو ابن أخيه علي بن أبي طالب الذي يقول:

(لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه)[2].

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد ٣-٤٩٢، حدثنا مصعب بن الزبير، وهو عالم صدوق، حدثني عبد العزيز بن محمد الدراوردي وحديثه هنا حسن لأنه عن غير عبيد الله العمري، عن ابن أبي ذئب: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وهو ثقة فاضل فقيه، عن سعيد بن خالد القرظي، وهو تابعي صدوق. التهذيب ٤-٢٠. وهو شاهد لما قبله.

(٢) قطعة من حديث طويل صحيح سيمر معنا إن شاء الله. عند الحديث عن لقاء الأنصار.

لقد (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في كل سنة على القبائل من العرب أن يؤوه إلى قومهم، حتى يبلغ كلام الله عز وجل ورسالاته، ولهم الجنة)[1].

لقد (لبث عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم: مجنة، عكاظ ومنازلهم بمنى: من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة)[2] عشر سنوات يتلطف مع (بني حنيفة) و(كندة وكلب) يذهب إلى (بني عبس وهمدان) وله مع (بني عامر بن صعصعة) لقاءات.. عشر سنوات من الصبر والمكابدة (يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء[3] ذو جمَّة[4]، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة ويقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال الآخر من خلفه:

يا بني فلان إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الحي بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه)[5].

كانت أخباره تتنقل في كل اتجاه من جزيرة العرب، وذات يوم صادفت قلباً لرجل من غفار يدعى (أبو ذر):

إسلام أبي ذر الغفاري

لقد تعب أبو لهب من الركض خلف رسول الله ﷺ وأتعب يديه، وتعبت زوجته من هذا التراب.. ينثرونه فوق رأس رسول الله ﷺ، والشوك يغرزونه في طريقه. لقد

---

(١) حديث حسن رواه الطبراني وأبو نعيم (٢٩٢) لأنه من طريق عبد الله بن عمر بن حفص رجل صالح عابد صدوق في نفسه، لكن في حديثه بعض الاضطراب ويشهد له ما بعده.

(٢) سنده صحيح وسيمر معنا كاملاً عند الحديث عن لقاء الأنصار إن شاء الله.

(٣) حسن وجميل.

(٤) ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين.

(٥) إسناده قوي: رواه أحمد ٣-٤٩٢ حدثنا مسروق بن المرزبان، حدثنا ابن أبي زائدة قال ابن إسحاق حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس سمعت ربيعة الديلي يقول.. وقال أحمد: حدثنا سعيد بن أبي الربيع السمان، حدثني سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، حدثنا محمد بن المنكدر أنه سمع ربيعة الديلي يقول: رأيت رسول الله ﷺ ... من هذين الطريقين طريق ضعيف، وهو الإسناد الأول، لأنه من رواية حسين بن عبد الله، قال في التقريب ١٦٧: ضعيف لكن يشهد له ما بعده، فشيخ أحمد: السمان صدوق، قال ابن حبان: يعتبر حديثه من غير روايته عن أبيه. وهذه ليست منها. ذيل الكاشف ١١٨ وشيخه صدوق أيضاً التهذيب (٤١/٢) وشيخه محمد بن المنكدر ثقة فاضل قاله في التقريب ٥٠٨.

تعب أبو لهب وأتعب معه رسول الله ﷺ، لكن تلك السنوات من الصبر والعرق كانت كفيلة بانتشار عبير الإسلام، فأخبار رسول الله ﷺ تطايرت هنا وهناك، فصادفت قلوباً مفتوحة.. نفوساً فسيحة، فتعلقت بما سمعت وعشقته، وأتعبت مطاياها في البحث عنه.

قلب أبي ذر من تلك القلوب.. هاهو يحدث من حوله عن ذلك الحب.. عن ذلك الشوق فيقول: (كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج مكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل، كلمه، وائتني بخبره.

فانطلق، فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر. فقلت له: لم تشفني من الخبر.

فأخذت جراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد، فمر بي علي، فقال: كأن الرجل غريب؟ قلت: نعم. قال: فانطلق إلى المنزل.

فانطلقت معه لا يسألني عن شيء، ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، فمر بي علي. فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قلت: لا. قال: انطلق معي.

فقال علي: ما أمرك، وما أقدمك هذه البلدة؟ قلت له: إن كتمت علي أخبرتك. قال: فإني أفعل.

قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه.

فقال علي بن أبي طالب: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه، فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإن رأيت أحداً أخافه عليك. قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامضِ أنت، فمضى ومضيت معه، حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض علي الإسلام. فعرضه فأسلمت مكاني.

فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد، وقريش فيه.

فقال أبو ذر: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب علـي، ثم أقبل عليهم، فقـال: ويلكم، تقتلون رجلاً من غفـار، ومتجركم وممركم على غفار.

فأقلعـوا عني، فلما أصبحـت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلـت بالأمس. فقالوا: قومـوا إلى هذا الصابئ. فصنع مثل ما صنع بالأمـس، وأدركني العباس، فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس)[1].

كان الشـرك رعباً تطوف أشـباحه في دروب المسـلمين، فتتلصص على أبوابهم وأفواههم.. عليٌّ رضي الله عنه لا يستطيع التحدث بالأمر خوفاً على رسول الله ﷺ، وأبو ذر كذلك. ولما سأل عليٌّ ضيفه سؤالاً عادياً، فكان الجواب غير عادي.

لقد سأله علي فقال: (ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال أبو ذر: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنني فعلت. ففعل، فأخبره)[2].

إن على الكلمات رقيباً، وما لم تثق بمحدثك فإن الكلمات مجازفة بالحياة، والصمت أسلم. وحتى بعد أن أسلم أبو ذر.. لم يعطه ﷺ شيئاً غير الشهادتين، ولم يخبره عمن أسلم حتى أنه كان يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع)

ولا شـك أن هناك الكثير ممن أسلم قبله، وإلا فكيف وصل الخبر إلى غفار، كما أن النبي ﷺ لم يعده بنصر في الدنيا، بل أمره بالكتمان والسـرية والتكتم، وزاد على ذلك فأمره بالعودة إلى بلاده فوراً، ولما تصرف أبوذر من تلقاء نفسه، وخالف أمر النبي فأعلن إسلامه وصرخ بالشهادتين وسط قريش.. تعرض للضرب المبرح، وكاد أن يموت بين أيديهم.. لم يتدخل عليه السـلام إطلاقاً .. لقد أشـار عليه ﷺ بالكتمان وأمره بالرجوع إلى أهله.. لكن حماس أبي ذر طغى فنال من قريش ما نال.

أبو بكر الصديق يناله العذاب أيضاً. يؤذونه ويشتمونه، ويتعرضون له في الطرقات،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٩٤.

(٢) جزء من حديث البخاري السابق .

حتى أصبحت مكة أضيق من موضع قدميه. عندها قرر الهجرة إلى أرض يجد فيها شمساً وهواء وعبادة. بعيداً عن أرجاس الطغاة وسياطهم.

أبو بكر يهاجر

تقول ابنته الصغيرة الطاهرة عائشة رضي الله عنها: (لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة - وهو سيد القارة - فقال: أين تريد يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخرج، ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا جار لك، ارجع واعبد ربك ببلدك.

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش. فقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يخرج، أتُخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءاً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

فأتـى ابـن الدغنة إلى أبي بكر، فقـال: قد علمت الذي عاقـدت عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرتُ في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل)[1].

فقام ابن الدغنة، فقال: (يا معشـر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري، فشأنكم بصاحبكم)[2].

كانت قريش وسـفهاؤها بالانتظار، ولن يشـك أحد بهجوم أحد هؤلاء المجرمين فيضربـه رضي الله عنه، أو يدميـه، أو يحثو في وجهه التـراب، فليس له من نصير سـوى الله، وسـيتحمل في سـبيله كل ما يصادفه، أما رفاقه فشـاردون في الشعاب والأودية، هاربون من بطش قريش المفزع، أو متلبطون في قيودهم تحت السياط، وفوق الرمضاء، وأما نبيهم فقد نزف دمه وتفاقم جرحه وألمه.

دماء رسول الله

في أحد أيام المعاناة تلك.. أيام مكة الملتهبة.. (اشـتكى رسـول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: إني لأرجو أن يكون شـيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً)[3].

لـم تكن هذه المرأة الوثنية ترمي إلى أكثر من التشـفي، أما ما حدث فهو أنه قد رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه، فقال:

(هـل أنـت إلا أصـبـع دمـيـت | وفـي سـبـيـل الـلـه مـا لـقـيـت

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤١٧.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح (ابن هشام ١٦/٢) حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عروة عن عائشة، وعروة والزهري تابعيان إمامان ثقتان.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن أبي حاتم ١٢-٤٢٢ من طريق أبي أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، سـمع جندب يقول: رُمِيَ رسـول الله ﷺ .. الأسـود تابعي ثقة التقريب ١١١ وسـفيان الثوري إمام ثقة حافظ، وتلميذه حماد بن أسامة ثقة ثبت صرح بالسماع .

فمكث ﷺ ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت[1]: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ (٤) وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ (٥) أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ (١٠) وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾.

أيها النبي النازف، المتهم جورا وظلماً.. ها هو العظيم يقسم أنه ما تركك، وما تخلى عن نصرتك، فلا تستمع لهؤلاء المرتكسين.. لديك مهمة فأدها، وجزاؤك أبداً ليس في الدنيا.. إنه هناك في الجنة.. في الفردوس ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾.

لكن وأنت في زحمة الأذى وتداعي المصائب، ومحاولات التخذيل وأنت في هذا كله.. تذكر نعمة الله عليك، وإياك.. إياك أن تنسى ذلك المنكسر.. الذي تمتد يداه.. تحوم عيناه يبحث عن أبيه، فيجيبه اليتم بالنحيب.. كن له أباً. قد كنت يتيماً فتذكر مرارة اليتم، وكنت مسكيناً فلا تنهر مسكيناً، ولا ترد يده الممدودة لك، ولا تعرض عنه. حتى ولو كنت في درب مزدحم بالشواغل.. التفت إليه وواسه.

كم هي ثقيلة أمانة النبوة.. نبي كسير حسير.. يحتاج إلى مواساة، فيؤمر أن يواسي الأيتام والكادحين والفقراء وإلا عوتب، وإن كان نبياً.. لقد نزلت كلمات عتاب أخرى لرسول الله ﷺ بسبب غفلة بسيطة عن أحد المساكين، فما الذي حدث عندما:

عبس وتولى

نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾.

عتاب شديد أنزله الله سبحانه، عتاب موجه لنبيه.. ولو لم يكن محمد ﷺ نبياً لأخفى ذلك العتاب ومحاه، ولم يُطلع عليه أحداً. لكنها النبوة.. لكنه الأمين.

---

(١) إسناده صحيح، وهو من طريق الحديث السابق.

أما قصة ذلك العتاب فهي أن مسلماً مسكيناً ضرير البصر اسمه: عبد الله بن أم مكتوم (أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني - وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين -.

فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا)[1] فأنزل الله آياته تصحح الخطأ وتجبر الكسر.. ترى كم يساوي ذلك الأعمى المسكين عند الله!!

لقد استحق نزول آيات الجبار تعاتب نبيه فيه.. إنه في ميزان الإسلام: رجل مسلم.. اختار الله ورفض الأوثان، ولن يفرق الإسلام يوماً بين مسكين وثري، فالجميع بنيان متراص، وطاقات متناغمة.. تسير بالإنسانية نحو جمال الحياة وصفائها، وكما أن لهؤلاء المشركين حق الدعوة والتبشير، فإن لهذا المسكين ولكل المساكين حقوقاً. لقد أدب الله نبيه ﷺ فأحسن تأديبه، فهو يذرع الأرض امتثالاً ويقول: (اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين)[2].

إنه يقول: (آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد)[3]، ويقول ﷺ: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله[4]، (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)[5]، يعني متجاورين كالأصابع، فأين سيكون جار النبي ﷺ إن لم يكن في الفردوس حيث أعلى الجنة ومنتهى النعيم، وذلك لا يعني إغفال الأغنياء والسادة المطاعين، فإن إسلامهم نصر عظيم، والحياة تقوم على تكاتف الفقير مع الغني. لكن في أحوال السادة والوجهاء ميل إلى الاحتفاظ بما حولهم،

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن جرير ٣٠-٣٢، والواحدي ٢٩٧ وغيرهم من طرق عن سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، عن أبيه، عن هشام عن أبيه عروة عن عائشة، وسعيد ووالده ثقتان. التهذيب (٢١٢/١١) و (٩٨/٤) وهشام ووالده ثقتان معروفان.

(٢) حديث صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير (٣٩٨/١).

(٣) سنده صحيح، رواه إسحاق بن راهويه، ومن طريقه: البيهقي ٣-١٩٨ والحاكم ٢-٥٠٦ عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة أئمة ثقات أثبات. التقريب٥٤١ و١١٧.

(٤) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (١١/١) (٢٣/٢).

(٥) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير (١١/١) (٢٣/٢).

فالجديد وإن كان صواباً يزعج بعضهم.. يخشون أن يطمسهم، ويسلب ما بأيديهم، ويغير مواقعهم على الأرض، فهم على باب الجديد مترددون.. أولئك إرادتهم كالأوراق تنتظر الرياح.. أحد هؤلاء هو:

الوليد بن المغيرة
مؤمن فكافر

(فقد جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً. قال الوليد: لِمَ؟ قال أبو جهل: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله. قال الوليد: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال أبو جهل: فقل فيه قولاً، يبلِّغ قومك أنك منكر له.

قال الوليد: وماذا أقول، فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني أفكر فيه. فلما فكر، قال الوليد: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره.

فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ

﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴾[1].

إذا كان هذا وصفهم للقرآن، وإنه ليس من كلام البشر، ولا من كلام الجن، فما الذي يملكون سوى العناد، ومعه شيء آخر هو العناد. ولذلك سلكوا طرقاً عديدة.. يحاولون النفاذ من أحدها نحو نصر ما، وكان أحد هذه الطرق الملتوية: طلب المعجزات.

اجتمعوا يوماً حوله ﷺ ثم طالبوه بأن يقدم لهم معجزة، فأراهم:

انشقاق القمر

يا له من طلب غريب.. لا يراد منه سوى التعجيز، ليجدوا لأنفسهم عذراً للتكذيب، رفضوا كل ما على الأرض من حقائق وأدلة، واتجهوا للسماء مناكفة وتعجيزاً، ومع ذلك تحققت المعجزة، وأراها الله ورسوله ﷺ لهؤلاء، فهل غيَّرَ ذلك من موقفهم؟

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين)[2] (فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم، فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. فسُئل السفار - وقدموا من كل جهة. فقالوا: رأينا)[3]. وكانوا قد اعترفوا من قبل فقالوا: (محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)[4].

وكان الناس ينظرون إليه من مواقع مختلفة، فهناك من رأوا (القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما)[5]، وهناك من رأى (فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه)[6].

---

(١) سنده صحيح، رواه إسحاق بن راهويه، ومن طريقه: البيهقي ٢-١٩٨ والحاكم ٢-٥٠٦ عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة أئمة ثقات أثبات. التقريب ٥٤١ و١١٧. وقد مر معنا.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٤.

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود الطيالسي ٢-١٢٣ حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله:.. ورواه البيهقي من طريق أبي داود وهشيم. وهذا لفظ هشيم ورجاله ثقات، أبو الضحى مسلم بنُ صبيح تابعي ثقة التهذيب ٢٠-١٢٣ والمغيرة بن مقسم ثقة متقن لكنه ربما دلس وتابعه الأعمش عند أبي نعيم. سيرة ابن كثير ٢-١١٩.

(٤) هو جزء من الحديث السابق.

(٥) البخاري ٣-١٤٠٤.

(٦) صحيح مسلم ٤- ٢١٥٨

وسبب هذا الاختلاف في الوصف هو الاختلاف في مواقعهم التي يقفون فيها أثناء الحدث، فهذا أمام جبل، وهذا خلف جبل، وذاك هناك و.. ولا شك أن للمسافرين الذين قدموا وصفاً آخر. لكنهم أجمعوا على أن الشق قد حدث.

حدث الشق وخسرت قريش، وخرست أمام هذه المعجزة لتلجأ للاتهام مرة أخرى، فتقول كما قال الوليد عن القرآن: سحر مستمر.. سحر ذاهب ومضمحل. وفي ذلك أنزل الله سبحانه: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾[1].

وبعد هذا التكذيب وهذه المكابرة العارية المخيبة للآمال لم يترك الله نبيه ﷺ دون:

مواساة

بعد هذا التكذيب المفضوح.. يقص سبحانه على نبيه ﷺ قصصاً ماضية، لأقوام قد مرت ودمرت.. يا محمد لم يكن قومك أول من كذب وعاند، فلقد: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾[2] ثم يقص عليه كيف شرقوا بالماء وغرقوا..

كذلك ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾[3] و﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ﴾[4] ومثلهم ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾[5] ويختم هؤلاء الطغاة بأعتاهم إنهم آل فرعون: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾[6].

---

(١) ذكر الدكتور زغلول النجار أحد كبار علماء الجيولوجيا معجزة شق القمر، وأنها كانت سببا في إسلام الأستاذ البريطاني (ديفيد موسى بيدكوك) بعد حوار مع علماء ناسا الذين ذكروا اكتشافهم لهذه الحقيقة على سطح القمر.. حقيقة انشقاق القمر وأن آثارها لا زالت باقية حتى اليوم.

(٢) سورة القمر: الآية ٩.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٢٣.

(٤) سورة القمر: الآية ٢٣.

(٥) سورة القمر: الآية ٣٣.

(٦) سورة القمر: الآية ٤٢.

ثم يتوجه السياق من الماضي المدفون إلى الحاضر الحي.. إلى قومك أهل مكة المشركين، وإلى غيرهم ما دامت السماوات والأرض: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾[1]. لكن المشركين يدفنون الحق في أعماقهم، ويعترفون به لكنه اعتراف ك:

اعتراف أبي جهل بالحقيقة

حيث كان أحد دهاة العرب ودهاة الطائف المدعو (المغيرة بن شعبة) ولأول مرة يعرف صدقه ﷺ، لكن على لسان من؟

الإجابة مدهشة، لأنها تومض كالجمر على لسان طاغوت قريش أبي جهل.

يقول المغيرة: (إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ، أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلم إلى الله عز وجل، وإلى رسوله، أدعوك إلى الله.

قال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك.

فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل أبو جهل علي فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، لكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم. قالوا: فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم. قالوا: فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي... والله لا أفعل)[2].

---

(١) سورة القمر: الآيات ٤٣-٥٥.

(٢) حديث حسن. رواه البيهقي ٢-٢٠٧ من طريق الحاكم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس، عن =

طاغـوت مكـة لا ينكر النبوة، لكنه يرفضها لأنها لم تكـن في بيته.. يرفضها لأن محمداً ﷺ ليس من أهل بيته، ويرفض أن يكون تابعاً لمنافسه في الرياسة والشرف.. يسـتحث قريشـاً لمحاربة محمد ﷺ وصحبه لا لمصلحة قريش.. لا ولا حباً في قومه، إنما حباً لنفسه. فلتذهب مكة وقريش للجحيم من أجل إرضاء غروره.

هذا هو منطق الطغاة.. يخفونه بألسـنتهم، فتفضحه أعمالهم. ولم تقتصر التهم على تهمتي الكذب والسحر فـ:

الجنون تهمة جديدة

لابد من إلصاق تهمة جديدة تبعد الناس عنه.. لا سـيما عندما يسـيل الحجيج نحو مكة، ولا شيء يفر الناس منه مثلما يفرون من المجنون والمجذوم. فليكن محمد مجنوناً...

قالتهـا قريش دون حيـاء.. الأمين صيروه مجنوناً، وما يأتـي به من آيات كريمة مجـرد هراء.. يهذي به بلا وعـي. فرية صدَّقها الأغبياء، وصدَّقها العقلاء الذي حال بينهم وبين محمد ﷺ ضباب كثيف من التهم، والتحذير قبل أن يلقوه ويسـمعوا منه.. أحد هؤلاء العقلاء رجل من (أزدشـنوءة).. اسمه (ضماد) قدم مكة، وكان (أن ضمادا قدم مكة كان من (أزد شنوءة) وكان يرقي من هذه الريح[1]، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون.

فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهل لك؟

فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

= هشـام بن سـعد، عن زيد بن أسلم عن المغيرة، وهذا الإسناد جيد وأحمد بن عبد الجبار سماعه للسيرة صحيح، وهشام بن سعد حسن الحديث التهذيب ١١-٣٩. قال أبو داود: إنه أثبت الناس في زيد بن أسلم، وزيد بن أسلم كان يرسل لكن مع هذا الاحتمال له شواهد ما يقويه عند البيهقي، طريقان مرسلان، عن الزهري وأبي إسحاق.

(١) أي المس.

فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ثلاث مرات، فقال: لقد سـمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، ولقد بلغن ناعوس البحر[1]. فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي)[2].

كلمات حق كشـفت لهذا الطبيب كم هو مريض، وكشـفت له أي نبي صادق ماثل أمامه، وقد قال ﷺ له ذلك لأنه ليس له موطئ قدم بمكة، ولأن الإسـلام بحاجة إلى أمثاله من العقلاء ليتولوا نشر دين الله في أقوامهم.

وحيدٌ في حرة يثرب

لم يكن ضماد هو الوافد الوحيد الذي استمع إلى رسول الله ﷺ، فهناك الكثير.. الكثيـر. منهم من منعه الخوف من التَّفَوُّهِ فاكتفى بنظرات كلها حسـرة، وعاد بصمت إلى موطنه. ومنهم من كشـف عما يتردد في صدره لرسول الله ﷺ، ثم عاد إلى دياره بالطريقة التي تعجبه، لكن هناك من اسـتمع إلى الحق حتى فرغ رسول الله ﷺ، وهمَّ أن يبـوح بما في قلبه من إيمان.. ارتدت أنفاسـه الحارة جمـراً.. حمماً بين أضلاعه عندما عاجلته يد التسلط تحشو فمه بالتراب، وتلجمه بالصمت، فلم يتمكن من البوح إلا ساعة الممات.. ساعة لقاء ربه.

لكن يد الطغيان اكتوت بنار التجاهل واستحمت بمعركة من معارك الجاهلية التي لا طائل من ورائها سوى الحسر.. معركة اسمها:

معركة بعاث

كان بالإمكان تفاديها بين أهل (يثرب) لو استمع كبيرهم أبو الحيسر ومن معه إلى نـداء التوحيد، لكنهم من أجل الثأر أتوا، وبالكراهية عادوا، إلا واحداً ظل غريبا على أرض يثرب، وذلك لما (قدم أبو الحيسـر «أنس بن رافع» مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، وفيهم: «إياس بن معاذ»، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج،

---

(١) عمق البحر.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٥٣٩.

سـمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال ﷺ لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وماذا؟

قال ﷺ: أنا رسـول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي كتاب.

ثـم ذكر لهم الإسـلام، وتلا عليهـم القرآن. فقال إياس بن معـاذ - وكان غلاماً حدثاً -: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم به.

فأخذ أبو الحيسر «أنس بن رافع» حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس. وقام رسول الله ﷺ عنهـم، وانصرفوا إلى المدينة، وكان وقعة (بعاث) بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

قـال محمـود بن لبيد: فأخبرني من حضـره من قومه عند موتـه، أنهم لم يزالوا يسـمعونه يهلل الله تعالى ويكبره، ويحمده ويسـبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ)[1]. لكنه لم يجرؤ على الجهر بإيمانه وسـط قوم قد احتقنوا بالثأر، وتخلوا عن عقولهم من أجل خشـبة يسمونها إلهاً، فتحولت الأشـياء في أيديهم إلى عصي وسياط، وما لهم لا يفعلـون وهم يرون أبا لهب يتعقب ابن أخيه يسـفي عليه التراب.. يؤذيه ويكذبه، ويأمر الناس أن يؤذوه ويكذبوه. كأنه عار يريد التخلص منه، فكيف بشاب مستضعف كإياس.. غيرته كلمات الحق، فطواها في نفسه، ولما حل بحرة يثرب تماهت غربته بغوره.. تلتحم به ويلتحم بها، ولما حرره الموت.. أفضى بتلك الكلمات لمن حوله، فقد همَّ بالرحيل، وهَمَّ الخوف أيضاً بالرحيل. وما كان يقوى على إظهارها، وما كانوا ليطيعوه.

يا لغربة الموحدين.. يا لمعاناتهم لكن الله معهم.. يدافع عنهم دائماً كما دافع عن:

---

(١) إسناده جيد، رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٥٣/٢)، حدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو، عن محمود بن لبيد. ابن إسـحاق سـماع من شيخه الحصين وهو حسـن الحديث قاله أبو داود، فقول الحافظ في التقريـب (١٨٢/١): مقبول، غير مقبول، لأنه لم يجرح التهذيب ٢-٢٨١، بل قال الذهبي ثقة. الكاشـف ١-٢٣٧. ومحمود صحابي صغير.

فقد رفض سبحانه ذلك التعسف الطاغوتي، وتلك الأوامر العفنة التي انطلقت من أفواههم.

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله ﷺ، ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك، فلا يجترئون علينا - وكنت أنا وعبد الله بن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان قد نسيت اسمهما، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله، وحدث به نفسه[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[2]. لقد تعسف هؤلاء وتطرفوا في مطالبهم، وهم يرون كل شيء حولهم يدينهم ويلوي أعناقهم، هاهم في تخبطهم مرة أخرى يطلبون:

معجزة الذهب

فقد (قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يصبح لنا الصفا ذهبة، فإن أصبحت ذهبة اتبعناك وعرفنا أن ما قلت كما قلت.

فسأل ربه عز وجل، فأتاه جبريل فقال: إن شئت أصبحت لهم هذه الصفا ذهبة، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحنا لهم أبواب التوبة.

قال: يا رب لا، بل افتح لهم أبواب التوبة)[3].

يا لرحمته ﷺ بهؤلاء الذين آذوه وكذبوه ونالوا منه.. إنه يطلب لهم الرحمة

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وفضائل الصحابة والبيهقي واللفظ له (١/٣٥٣).

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٣) إسناده صحيح، رواه أحمد ١-٢٤٥ وحدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس، وعبد الرحمن هو ابن مهدي حافظ ثقة ثبت التهذيب ٦-٢٧٩ وسلمة تابعي ثقة التقريب ٢٤٨ وشيخه ثقة اسمه الصحيح: عمران بن الحارث السلمي وهو من رجال مسلم التهذيب ٨-١٢٤.

والتوبة.. إنه كما قال عن نفسه: (إنما أنا رحمة مهداة)[1] هذا هو محمد ﷺ، أما أولئك، فقد أنزل الله على نبيه سورة الأنعام، وفيها يصفهم.. يفصح عن نهجهم الذي ارتضوه لأنفسهم.. إنه العناد، والعناد فقط، فلا الآيات ولا المعجزات ولا غيرها تقنعهم. يقول سبحانه: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[2].

أما قومك يا محمد: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[3].

ثم يخبره سبحانه مرة أخرى عن حقيقة هؤلاء مسلياً نبيه.. طارداً ذلك الوجوم الذي يخيم عليه من تكذيب قومه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4].

ولو جمعهم سبحانه وأرغمهم على الهدى، لسلب منهم الحرية والإرادة، كما سلبها من البهائم وسائر المخلوقات. لكنه فضلهم وكرمهم بهذه الإرادة، فهم يختارون طريقهم، وسيحاسبون عليها، لأنهم حملوا الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال، وهي الإرادة.. هذه الحيوانات ستصير يوم القيامة تراباً، لأنها مسلوبة الإرادة.. إنها

---

(١) حديث صحيح. انظر (٢٨٤/٢) من صحيح الجامع الصغير.
(٢) سورة الأنعام: الآيات ٤-٦.
(٣) سورة الأنعام: الآيات ٧-١١.
(٤) سورة الأنعام: الآيات ٣٣-٣٥.

جزء من هذا الكون المسخر للإنسان.. المشكل لابن آدم يتصرف فيه كيف يشاء. ثم يحاسب في نهاية المطاف على تصرفه ذلك. وهنا تنتصب الحقيقة ماثلة أمام الجميع: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[1].

مجاعة في مكة

حالة واحدة تخضع فيها قريش للحق.. هي البطش، ونزع الحرية والاختيار منهم.. عندما يذوقون العذاب، وتتوه منهم إرادتهم. عندها ينحنون للحق معلنين التوبة والإنابة.

يقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2].

لقد حدث ذلك من قريش كما أخبر سبحانه.. تنازلوا عن كل شيء، ودسوا جباههم في التراب، وانحنوا جوعاً وخوفاً وهزالاً.

حدث ذلك عندما (دعا رسول الله ﷺ قريشاً إلى الإسلام فابطأوا عليه، فقال ﷺ: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف[3]. فأخذتهم سنة فحصت كل شيء، حتى أكلوا الميتة والجلود، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع.

قال الله عز وجل: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

فدعوا: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[5].

(فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى، فلما أصابتهم الرفاهية عادو إلى حالهم). ثم عادوا في كفرهم)[6].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٠.

(٣) أي السبع العجاف التي مرت بقوم يوسف.

(٤) سورة الدخان: ١٠-١١.

(٥) سورة الدخان: ١٢-١٥.

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ١٨٠٩/٤ و ١٨٢٣.

ما أسرع نسيان قريش.. ويحهم أما تعلقوا بأستار الكعبة يوم ولد رسول الله ﷺ هرباً من الفيل الحبشي وأصحابه، وهاهو القرآن ينشط ذاكرتهم، وتنزل كلمات الله سبحانه.. تنزل سورة الفيل تهز قريش، وترفع رأسها نحو السماء علها تفيق، وتدرك ما يحدث: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

وتنزل سورة أخرى على محمد ﷺ.. تهز ذاكرتهم وسباتهم مرة أخرى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[2].

لكنهم لا يفيقون. إنهم خشب مسندة.. حجارة تتدحرج فتحطم ما تحتها. إن كل محاولة للتذكير تعقبها سطوة من قريش وتنكيل، والنتيجة جراح ودموع وأنين تضج بها دور المستضعفين. ما الذي يرضي هؤلاء، وما الذي يريدون؟!

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[3].

قريش أهل فصاحة ومعرفة بلغة القرآن أكثر من غيرهم ممن جاءوا بعدهم.. لقد سحرهم هذا القرآن ببلاغته وبيانه، واعترفوا بعجزهم عن أن يأتوا بمثله، ورفضوا أن يكون هذا الكلام صادراً من بشر. وماذا بعد؟

لا شيء.. إصرار على الموقف، وحسد لمن اختاره الله نبياً، ومحاولة لتعجيزه ﷺ بكثرة الطلبات.

لكن الله سبحانه ينزل آياته قاطعاً دابر العبث القرشي، فالإيمان لا يحتاج إلى تلك المطالب الساذجة.. إنه فقط يحتاج قلباً مفتوحاً وفكراً سليماً.

---

(١) سورة الفيل.

(٢) سورة قريش.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

الرسول ﷺ والتعجيز

يقول سبحانه عن مطالب هؤلاء: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾[١].

ثم يذكر سبحانه مطالبهم لنبيه ﷺ لكي يؤمنوا: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ ﴾.

لكن الله يبين حقيقة رسوله ﷺ لهؤلاء الهمج.. إنه مجرد رسول.. بشر، وليس عليه سوى البلاغ: ﴿ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾[٢].

فتى قريش لا ييأس

مع كل هذا التعنت، ومحاولات الهروب من حصار الحقيقة يستمر ﷺ في دعوته بلا يأس.. بلا كلل. كلما ضاقت به مكة تلمس الأتباع حولها.. لقد (مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى، يقول: من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟ حتى أن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر... فيأتيه قومه فيقولون: أحذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع)[٣] والإشارات تختلف باختلاف المشيرين.. هناك المعجب، وهناك الساخر، وهناك المشفق، وهناك من قيده الخوف فهو يشير بقلبه، وتتلاشى تلك الإشارات ربما عند المساء.. دلالة على خلو الساحة من محمد ﷺ، فقد عاد إلى بيته وزوجته.. يناجي ربه وينام، ومع كل صباح ينهض.. يشرق شمسا من جديد.. ينهض للتبشير بدعوته، لينتشل من أمته ما يستطيع انتشاله، ومن يستطيع انتشاله، وطرقات مكة المؤدية لبيته الصغير لا تخلو من المتربصين له..

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

(٣) حديث صحيح مر معنا.

يحملون الأذى بأيديهم وألسنتهم.. يُسْمِعونه ما يكره، ويرونه ما يؤذيه.. حتى اسمه ﷺ قلبوه، فأصبحوا يقولون: (مذمماً) لا (محمداً) لكن ذلك لا يضره، فالله يصرف عنه الأذى واللعن.

يقول ﷺ: (انظروا قريشاً كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم، يشتمون «مذمماً» ويلعنون «مذمماً»، وأنا محمد)[١].

ما حصيلة قريش من الفكر؟ ماذا لديها من عقيدة حتى تعاند كل هذا العناد؟ ليس لديها سوى أكوام من الحجارة نصبتها فوق الكعبة، ثم بايعتها على الألوهية! فهل ستفيق قريش من غيبوبتها إذا رأتها نثاراً حول الكعبة؟ هل ستسأل نفسها: كيف تتحطم الآلهة أم أنها ستقول:

من حطم الأصنام؟

قريش تسأل غاضبة، ولدى فتى الإسلام علي بن أبي طالب الجواب، فيقول: (انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: اجلس، وصعد على منكبي، فذهبت لأنهض به، فرأى مني ضعفاً، فنزل وجلس نبي الله ﷺ، وقال: اصعد على منكبي. فصعدت على منكبه، فنهض بي، فإنه يخيل إلي لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تمثال صفر، أو نحاس، فجعلت أزاوله[٢] عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه قال رسول الله ﷺ: اقذف به.

فقذفت به، فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق، توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس)[٣].

---

(١) حدث صحيح. رواه البخاري كتاب المناقب.

(٢) أي باشره بيده ومارسه.

(٣) سنده جيد رواه أحمد ١-٨٤. حدثنا أسباط بن محمد حدثنا نعيم بن حكيم عن أبي مريم عن علي، أسباط بن محمد بن عبد الرحمن القرشي بالولاء، وهو ثقة، لكنه ضعيف في سفيان الثوري وروايته هذه ليست عن الثوري، أما شيخه نعيم فحسن الحديث إذا لم يخالف التقريب ٥٦٤ وأبو مريم قال النسائي: أبو الحنفي ثقة، وإن كان الثقفي فقد قال الذهبي في الكاشف: ثقة، والحديث رواه البزار وأبو يعلى. ثم وجدت أن أبا مريم ليس بالحنفي ولا بالثقفي بل الأسدي كما جاء عند الحاكم (٥/٢) فصح بذلك السند لأنه تابعي ثقة، وثقه العجلي والدارقطني وابن حبان (التهذيب ٥/٢٢١).

ولما استيقظت قريش وجدت آلهتها مسحوقة كالرمل.. كالرماد، فهل قالت قريش لنفسها: ما هذه الآلهة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها؟ كيف نعبد رملاً.. نعبد رماداً؟ لم نتلق رداً من قريش، لكنه الغضب لا شك.. لا بد أنهم أشاروا يتهمون محمداً ﷺ وأتباع محمد. لقد التهبت قريش واحمر حديدها وتوهج، فالحدث لا يمكن السكوت عليه، والقرار القادم لا بد أن يكون حاسماً ونهائياً.

اجتمعت قريش في مؤتمر محموم.. قرر فيه الجميع واتفقوا على أن السبيل الوحيد لدرء الخطر عنهم وعن أصنامهم.. هو بإزالة هذا المد الإسلامي، لا بإيقافه. ولن يتم ذلك إلا بالقضاء على قائده وقتله. فليقتل محمدٌ حتى يتلاشى دينه، ويشتت أصحابه.

الاتفاق على اغتيال النبي ﷺ

في اليوم الموعود لتنفيذ الجريمة.. لقتل آخر رسل الله، ومنقذ البشرية الأعظم (اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله.

فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تبكي، حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر، قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك.

فقال رسول الله ﷺ: يا بنية أدني وضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد. فلما رأوه، قالوا: هو هذا، فخفضوا أبصارهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم حصباً، وقال: شاهت الوجوه)[1]. وغادر المسجد، فأفاقوا.. تحسسوا، فإذا التراب يحشر أعينهم وأنوفهم.. يغطي وجوههم عاراً لا يغسل إلا بالدماء، وقد ملأ خبره أرجاء مكة.. محاولة اغتيال فاشلة أثارت الحمية في نفوس بني عبد المطلب، وكان أشدهم رأسهم أبو طالب، فقرروا حماية رسول الله ﷺ من

---

(١) إسناده حسن رواه أحمد ١-٣٦٨ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر، عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. رجاله أثبات وعبد الله بن عثمان بن خثيم صدوق، التقريب٣١٣.

قريش والدفاع عنه، فهو لا يزال من أبناء عبد المطلب زعيم قريش، ولم يفعل ما يستحق كل هذا الأذى والعذاب من قريش، فكيف تقرر قريش قتله! ذلك أمر مستحيل.

إن على قريش أن تزهق أرواح بني عبد المطلب فرداً فرداً قبل أن تصل إلى محمد ﷺ، لذلك فقد أعرضت عن هذه المؤامرة مؤقتاً، لكي تمارس قسوة لا تقل عن الاغتيال. فماذا فعلت قريش؟

حصار جماعي في الشعب

قرر طواغيت قريش ضرب حصار اقتصادي ومعنوي واجتماعي على المؤمنين، ومن يقف معهم من أقاربهم، فلا مصاهرة ولا بيع ولا شراء معهم بعد اليوم، حتى يتم تسليم محمد عليه الصلاة والسلام إليهم لقتله، والتخلص منه. لذلك لجأ أبو طالب ومن معه من أهل النبي ﷺ وعمومته، إلى مكان يقال له (شعب أبي طالب) أو (المحصب) حتى تسهل عملية الدفاع عنه ﷺ.

وعن هذا الحصار المرير، الذي لا أدري كم من الأعوام استمر.

يقول ﷺ وهو يواعد أصحابه في ذلك المكان الحزين: (نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر، يعني ذلك (المحصب)، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ)[1].

في مثل هؤه الظروف يقول ﷺ: (لقد أوذيت في عز وجل وما يؤذي أحد، وأخفت من الله وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثة من بين يوم وليلة ومالي ولعيالي (ولا لبلال) طعام يأكله ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال)[2]. ويقول صاحبه عتبة بن غزوان أحد السابقين: (ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى تقرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها)[3].

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٦.

(٢) سنده صحيح على شرط مسلم رواه أحمد ٣-١٢٠ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعاً. حماد إمام ثقة من رجال مسلم وثابت تابعي ثقة سمع من أنس.

(٣) صحيح مسلم ٤-٢٢٧٨.

وسعد بن مالك، هو سعد بن أبي وقاص الذي يقول: (كنا قوماً يصيبنا صلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترمنا لذلك، وصبرنا له، وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة مع أبويه، ثم لقد رأيته جهد في الإسلام جهداً شديداً، حتى لقد رأيت جلده يتحشف تحشف جلد الحية عنها، حتى أن كنا لنعرضه على قسينا فنحمله مما به من الجهد، وما يقصر عن شيء بلغناه)[1].

ويقول علي بن أبي طالب: (طلع علينا مصعب بن عمير، وما عليه إلا بردة له مرفوعة بفرو، فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة، وما هو فيه اليوم)[2].

هذه حال الرجال، فيا ترى ما حال النساء.. خديجة وفاطمة وزينب وأم كلثوم وأسماء؟ كيف كانت حالة الأطفال كابن عمر؟

يا صناديد قريش.. لماذا.. أي جرم قارفوه؟ أإذا ما أشرعوا الأبواب يوماً والنوافذ.. للهواء.. ولغيمات السماء.. لحداء الكون بالتوحيد سيقوا بالسلاسل، وعليهم تتراكم.. قاسيات كالجرائم.. تصنع للحزن عام.

عام الحزن

من شقاء لشقاء.. بعد عام الشعب والأحزان كالمطر الأسود.

هاهو رسول الله ﷺ والمرارة والكرب يلاحقانه في أهل بيته، إنه يلقى نظرات الوداع الحائرة، وعيناه تفيض دمعاً على حبيبته وزوجته، ورفيقة دربه الطيبة.. خديجة تضعف شيئاً فشيئاً حتى تذبل وتموت، وعند فراشها زينب تبكي وتبكي أخواتها الصغيرات فاطمة، وأم كلثوم. يبكين أمهن بحرقة.. يبكين خير نساء العالمين.

ربما كان لقريش وصلفها وقسوتها وحصارها سهم في سهام الموت التي أزهقت روحها، وربما كان السن وحده، الله أعلم.

---

(١) أثر رواه ابن إسحاق ومن طريقه هناد في الزهد ٢/٣٨٨ حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد وفيه جهالة شيخ صالح لكن يشهد له ما قبله وما بعده.

(٢) يشهد له ما قبله وقد رواه أبو يعلى ١/٣٨٧ وفي سنده جهالة التابعي.

لكنها غـادرت هذه الدنيا حزينة على زوجها ﷺ.. مشـفقة عليه.. غادرت وهي تناضل دونه، وتشده وتحنو عليه، فعاشت في قلبه متزينة بالحب. كان ينتقي لها أجمل غرفة في قلبه من بين كل النساء.. لم تحتل امرأة ما احتلته خديجة

قال ﷺ وحياً.. قال حباً.. قال وفاءً: (ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواسـتني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقنـي الله عـز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النسـاء)[1]. ويقول ﷺ: (خير نسـائها مريم، وخير نسائها خديجة)[2].

وتتحدث إحدى النسـاء القريبات إلى قلبه: (كان رسـول الله ﷺ إذا ذبح الشـاة فيقول: أرسـلوا بها إلى أصدقاء خديجة. قالت: فأغضبته يوما فقلت خديجة ؟ فقال رسول الله ﷺ: إني قد رزقت حبها)[3].

كيـف لا يحب خديجـة ويفي لذكراها وهي أول من أسـلم، وهي أول من صدق. خديجـة أول امرأة في الإسـلام. (آمنت بي إذ كفر بي النـاس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها)[4].

ترى كما بكاها من المسـلمين والكافرين؟ امـرأة تحمل هذا القدر من الإخلاص والوفـاء جديرة بالرثاء.. جديرة بالبكاء.. حمالة الحب لا حمالة الحطب.. ناءت بثقل فتت أكتاف رجال، فرحمها الله ورضي عنها وأرضاها، وهنيئاً لها (بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[5].

لقد سافرت لتنال وعد الله، أما زوجها ﷺ فتضاعفت مسؤوليته بعد أن انهد جدار كان يحميه، ولباس كان يقيه، ويد تمسح دمعه وتغسل جرحه، وشريكة تدفعه للأمام.

كانت خديجة تزاحمه ﷺ وتزاحـم قلبه بالذكريات الجميلة، تقول إحدى أمهات المؤمنـين: (مـا غرت على امرأة ما غـرت على خديجة من كثرة ذكر رسـول الله ﷺ

---

(١) حديث ضعيف الإسـناد عند أحمد ٦-١١٧، لكنه صحيح بدون لفظ ما أبدلني الله خيراً منها، شـواهده عند البخاري ورواية ذكرها الذهبي في سيرته (٢٣٨).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٨٨٦.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٨٨٦.

(٤) حسن مر معنا قبل قليل.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٢٨٠). والقصب نوع من اللؤلؤ.

إياهـــا)[1] (كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشـــاة ثم يقطعها أعضاءً، ثم يبعثها فـــي صدائق خديجة، فربما قلت لـه: كأنه لـــم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت)[2].

ليت شـــعري ما حال ابنتها رقيـــة التي غيب الكفر أخبارهـــا خلف ذاك البحر.. غريبة في بلاد الحبشة.. معذبة شريدة، وكيف تلقت خبر وفاة أمها الحنون، فيالحزنها على أم تموت بعيداً عن عينيها.. لم تشـــارك في تمريضها والعناية بها، ولم تئن قرب ســـريرها، ولم تمرغ وجهها ودموعها بكفيها، ولم تشارك في غسلها وتقبيلها وتكفينها، ولم تلق عليها نظرة وداع. كم هي قاســـية قريش.. كم هي قاسية أيام مكة على محمد وعلى آل محمد وعلى صحب محمد صلى الله عليهم جميعاً.

لم يلن قلب قريش.. اســـتمروا بالأذى، وتحولت جبال مكة مخازن أحزان لرسول اللـــه ﷺ، وآله الطاهريـــن، وصحبه الكرام.. يتدفق الكرب موجـــة إثر موجة.. موجة أخفت خديجة، وتلتها للحزن موجة أغرقت شيخاً كبيراً.. حامياً درعاً حصيناً اسمه:

أبو طالب

بطـــل من أبطال قريش، وســـيد من ســـادتها.. هدَّته قريش كما هدته الســـنون والأحزان. كان خلف رســـول الله ﷺ يحميه.. يدافع عنه.. رضي بالعيش في الســـجن معه، وقاسمه معاناته، لكنها الأيام لا ترحم، والأقدار إذا أقبلت فلا راد لها.

هوى أبو طالب مريضاً على فراشه، لكنه ما زال على كفره.. قد تشبع رأسه بعيب قريش، وخرافات قريش، والخوف من ألسنة قريش. كان يخشى النقيصة.. يخشى أن تعيره مكة بعد موته، بأنه قد ترك دين آبائه وأجداده.

اشـــتد به المرض، ولعل ســـجن الشعب من أســـبابه، ودنا الأجل (ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية. فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: «لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٧).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٨).

فلم يزل رســول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد تلك المقالة)[1] (قل: لا إله إلا الله، أشــهد لك بها يوم القيامة. قال أبو طالب: لــولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع. لأقررت بها عينك)[2].

كان ﷺ يعيدها، يكررها: (أي عم قل لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)[3] (فلم يزل رســول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: «هو على ملة عبد المطلب». وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال رســول الله ﷺ: «أما والله لأســتغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[4].

وأنزل الله تعالى في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[5].

بطل إلى النار

إنه كذلك.. بطلاً كان أبو طالب، لكنه رفض الحق.

جاء العباس أخوه، وعم رسول الله ﷺ يوماً إلى رسول الله.. يسأل عن مصير أخيه البطل ويقول: (يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك، ويغضب لك؟ قال: نعم. هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)[6]. (نعم وجدته في غمرات النار، فأخرجته إلى ضحضاح)[7] ويقول ﷺ متحدثاً عن مصير عمه المخيف: (أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه)[8].

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه وآخره يأتي بعد الحديثين التاليين.
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١-٥٥.
(٣) صحيح. رواه البخاري ٣-٩-١٤٠٩.
(٤) سورة التوبة: ١١٣.
(٥) متفق عليه وهو بقية الحديث الأول الذي مر معنا.
(٦) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم (١/١٩٤.١٩٥).
(٧) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم ١-١٩٤.١٩٥.
(٨) حديث صحيح. رواه مسلم ١-١٩٦.

هذه هي حدود رسول الله ﷺ، وهذا كل ما يستطيع فعله له. قال ﷺ لمن حوله والحسرة في صدره: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)[1].

لكن أين تذهب أعماله؟ أين جزاء هذا البطل؟ كيف تكون النار مصيره؟ لقد خدم الإسلام رغم كفره أكثر مما خدمه بعض المسلمين، وأحاط ابن أخيه ﷺ ودافع عنه، وواجه قريشاً وشراسة قريش من أجله، فلماذا ولماذا..؟

العواطف الجياشة تفجر أسئلة ذاهلة.. تفجر مذاهب.. تبعثر الصفوف.. تبحث عن إجابة.. إجابة عاطفية محمومة، لكنها ما سألت يوماً عن أبي طالب نفسه: هل كان إدراكه في مستوى حميته وشهامته؟ هل خدم نفسه كما خدم الإسلام؟ هل ارتقى بروحه كما ارتقى من يدافع عنهم سنوات وسنوات؟ هل فعل ذلك وهو مع رسول الله ﷺ.. يشرح له.. يوضح الحق له، ويؤكد له أن وعد الله صادق، ودين الله ماض سواء دافع عن أتباعه أبو طالب أو لم يدافع.. انضم أو غادر؟

كان أبو طالب يستمع إلى كلام الله، وكان كلام الله يسيل في أذنيه منذ أشرق الوحي.. في أندية مكة.. في بيت ابن أخيه.. في بيته هو.. في شعبه.. في فراش الموت.

لقد منحه الله فرصة.. لقد منحه الله حرية الاختيار، وفضله على سائر المخلوقات بالإرادة، لكنه خاف تعيير قريش وسبها له بعد موته. ذلك هو مستوى طموحه. هو لم يكن واثقاً من وعد الله، وإلا لما وقفت كلمات قريش الباهتة المحتملة عائقاً له عن الدخول في دين الله، وما كانت تلك الكلمات لتبقيه في وحل الشرك، لولا أنها وجدت إرادة ضعيفة، وثقة مزعزعة بوعد الله.

إن من يدَّعون أن الإسلام جعل أبا طالب كبش فداء يحترق.. لم يدركوا أن الإسلام لله، والتوحيد لله، وما محمد إلا رسول لله، وما محمد ﷺ إلا رجل تلقى رسالة الله، فأداها كما طلب منه.

---

(١) رواه البخاري ٣-٩-١٤٠٩.

مــن أجل محمد تحرك أبو طالب، وقاتل أبو طالــب.. فقط من أجل محمدٍ. أما الله، خالقه وخالق محمدٍ، فأين مكانه في قلب أبي طالب؟

لا شــيء.. لا مكان لله في قلب أبي طالب. إن أول شــرط في قبول أي عمل هو الاعتراف الكامل بوحدانية الله، وتفرده والإخلاص له، وأبو طالب رفض هذا الشرط.. رفض وحدانية الله.. رفض الإخلاص له.. رفض: لا إله إلا الله.

أبو طالب بطل. نعم بطل. هو شــهم، وشــجاع، وكريم، كعنترة.. كحاتم. والإسلام يشطره مثلهم، يؤيده في مواقف، ويشجبه في مواقف.

كــم تمنينا لو كان مســلماً، لكن مــاذا بأيدينا، ماذا يفعل حزننــا بالحقيقة؟ هل ســيغيرها. إن حبنا لعلي لا يجب أن يطغى علــى حبنا لله، فإن فعلنا ذلك فنحن نعبد علياً من دون الله.

أبو طالب مات بطلاً، لكن إلى النار. ونهايته مأساة حزينة، لكنه هو الذي اختارها. أما ابنه:

الفتى الحزين علي

علي بن أبي طالب.. أول من أســلم من الفتيان، فلا شــك أنه قد دعا يوماً أباه إلى الإسلام.. لا شك أنه يشعر بالأسى على أبيه.. يشعر بالمرارة لهذه الخاتمة السيئة. لقد مات أبوه دون أن يســره بكلمة التوحيد، فذهب يســحب خطاه نحو رسول الله ﷺ.. قد تشــبع بالحزن حتى أثقله، فيقول له وقلبه يعتصره الكمد: (إن عمك الشــيخ الضال قد مات فمن يواريه؟)[1]. ســؤال غاضب من إصرار هذا الشيخ على الشرك.. سؤال يبكي هذا الشيخ الضال. إنني أشعر بمرارتها في حلقه وهو يقول: الضال. كمن يقولها بعد أن استنفذ كل محاولات الإقناع لشخص متهور يريد الانتحار، فأبى إلا الانتحار.

الكلمات بعد ذلك تخرج مزيجاً من الغضب والحزن والأســى. لكن رسول الله ﷺ

---

(١) سنده صحيح. رواه الطيالسي ٢-٩٠. وغيره حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب، يقول: شهدت عليا. أبو إسحاق هو عمرو ابن عبد الله، تابعي ثقة عابد مكثر، صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة ناجية ابن كعب الأسدي. انظر التقريب ٥٥٧.

كان طبيباً للقلـوب.. طبيباً للنفوس. قال لعلي الحزين: (اذهب فوار أباك، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني.

يقـول علـي بن أبي طالب: فأتيته، فأمرني، فاغتسـلت، ثم دعـا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء)[1].

يا لعام الحزن هذا.. أبو طالب غاب، وخديجة مضت، فما الذي سـيحل برسـول الله ﷺ؟ وماذا ستفعل قريش المتوثبة؟

تقول إحدى بنات أبي بكر: (ما زالت قريش كاعة[2] حتى توفي أبو طالب)[3].

فلما توفي هجمت وسـلت، وازداد توحشـها، فهرب ﷺ منها عله يجد من يؤويه وينصره، لكن إلى أين؟

إلى الطائف

يشـق الأودية والجبال على قدميه الدامتـين المتعبتين، بلا راحلة.. فقيرٌ لا يملك ثمنهـا.. يحمله حزنـه.. يصعد به جبال الطائف يفتش عن أمـل.. يبحث عن معين.. يبحث عن يـد حانية تحمل هذا الدين برفق.. تقدمـه للتائهين.. للجائعين للمعدمين وحتى للمترفين.. يبحث عن بقية خير في قلوب خارج مكة وعن أقوام تتمرد على هذه الأصنام، والعادات والشرع الشركي الملوث.

يقول عبد الله بن جعفر: (لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشـياً على قدميه يدعوهم إلى الإسلام)[4]. و(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة: (عبد ياليل بن عمرو

---

(١) سنده صحيح. رواه أبو داود الطيالسي وهو الحديث السابق.

(٢) متراجعة جبانة.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٣٤٩: حدثنا الحاكم، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عقبة المجدر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي اللـه عنها: العباس حافظ ثقـة. التقريب ٢٩٤ وعقبة بن خالد المجدر صـدوق صاحب حديث، التقريب ٣٩٤والبقية أئمة.

(٤) حديث حسن بشواهده سيمر معنا.

بن عمير)، و(مسـعود بن عمرو بن عمير)، و(حبيب ابـن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف).

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسـلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسل.

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسـولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك كلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يئس من خير ثقيف)[1].

قام والحزن في كبده.. قام وحاله تتفطر لها القلوب.. جوع وعطش، وسير بالليل والنهـار، وأحزان تثيرها جدران مكة وطرقاتها.. تذكـره بخديجة وأبي طالب، ودعوة مطاردة، وأتباع تتخطفهم أيدي الطغاة.

قـام ﷺ فالتفت إلى هؤلاء القسـاة لعل بقية من الإنسـانية لا تـزال عالقة في قلوبهـم.. يرجوهـم كتمان أمره، حتى لا تشـمت به قريش، وتحملـه من الضيم ما لا يطيـق. قـال لهـم: (إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني - كره رسـول اللـه ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم[2] ذلك عليه - فلم يفعلوا، وأغروا به سـفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبه بن ربيعة، وشـيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة[3] من عنب، فجلس فيه - وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان مالقي من سـفهاء أهل الطائف - وقد لقي رسول الله ﷺ المرأة التي من بن جمح. فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك؟

فلما اطمأن رسـول الله ﷺ قال: «اللهم أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المسـتضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني: إلى

---

(١) سيأتي تخريجه.
(٢) يجعلهم يجترئون عليه.
(٣) الحبلة هي الكرم أو القضيب من الكرم.

بعيد يتهجمني. أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة، وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس. فقالا: خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ. ثم قال له: كل. فلما وضع رسول ﷺ فيه يده قال: «بسم الله» ثم أكل. فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد،

فقال رسول الله ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال عداس: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى[1]. فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي.

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ وقال عداس: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف)[2].

---

(١) مدينة في العراق.

(٢) حديث مرسل. رواه ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعبي القرظي. ويزيد ثقة والقرظي تابعي ثقة، لكنه لم يذكر من شيخه هنا. لكن الحديث روي مرسلاً أيضاً عن الزهري، وعن عروة بن الزبير -وهو الحديث الذي بعده.. ما عدا الدعاء في هذا الحديث، فشاهده عند الطبراني، وقد قال الهيثمي في المجمع (٦/٣٥) ورجاله ثقات وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، ثم وجدت الحديث عند الطبراني في الدعاء، وعند ابن عدي في الكامل وسنده هو: ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن.. وهذا السند ضعيف لأن ابن إسحاق مدلس وقد عنعن وإن كان هشام من أقرانه وشيوخه وقد ثبت لقاؤهما.. ولا يقوي هذا الطريق ما عند ابن إسحاق فقد رواه دون سند -أي روى الدعاء دون سند-. وقد أوردت الحديث لا لصحته، ولكن لأن سياقه ينسجم مع الحديث الصحيح الذي ذكر فيه النبي ﷺ أن أشد الأيام التي مرت عليه هي أيام الطائف ويدل على ذلك نزول ملك الجبال لينتقم منهم.

ترى كيف ستحمل هذا المكروب المسكين أقدامه، وهي لا تزال تنزف حزناً ودماً؟ كيف سيعود ولا أبا طالب بعد اليوم؟ من سيضمد جرحه وخديجة تحت الثرى؟ من يا ترى يكف أفواه قريش عن الشماتة؟

كانت أياماً لكن همومها أحالتها سنوات.. سألت بنت أبي بكر رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن أشد يوم مر به؟ فأشار إلى أيام الطائف وقال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كلال. فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب)[1].

إنه الهم الذي حمله ومشى به، حتى حنت عليه السحاب، وأشفقت لمنظره الحجارة وأغصان الشجر، واستعدت الرواسي الشم للانتقام له:

الجبال تنتقم

يقول ﷺ مواصلاً حديثه: (فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[2] فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[3].

صلى عليك الله يا نهر الرحمة.. في اليمين جبل وفي الشمال جبل. لو كنت ممن ينتقم لنفسه لكان دك الجبال يطحن تلك الجماجم، ولسالت من جبال الطائف دماء يراها أهل مكة، لكنه ما خرج لنفسه، ولا أحضر شيئاً من عنده.

رفض ﷺ الانتقام لأنه جاء ليجعل الحياة إيماناً وسعادة، وفي قلبه يهتز أمل يتلألأ.. يقول: إن في الأصلاب ربيعاً قادماً يتنفس الإسلام.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق) ومسلم.

(٢) جبلا مكة.

(٣) بقية حديث البخاري.

عاد ﷺ مطروداً.. جريحاً.. منكسـراً كما خرج، فانسـل إلى بيته الصغير، حيث ابنته وريحانته فاطمة. لا بد أنها بكت وارتفع نشيجها عندما رأت ذلك الشحوب على وجهه الكريم.. عندما رأت الدماء تتلألأ في جروحه، فسـارعت لمواسـاته ومواسـاة جراحـه، وربما دمعت عيناه ﷺ عندما رأى ابنتـه أم كلثوم، فذكرته بحبيبته خديجة، وذكره بيته بها، ففيه عاشـا سـوياً، وها هي الآن ذكريات عذبة لا تكف عن الحضور، وهاهو الآن شوق إليها.

محمد حزين اليوم، فهل لهذه الأحزان من نهاية؟

لم تكن هناك نهاية، لكن أمراً عظيماً حدث، وتسـلية مذهلة تمسح بعض أحزانه السابقة، وتخفف ما ألم به من وجع.. ضغطت لـه المسافات، حتى رأى في ليلة واحدة ما خلف الكواكب والنجوم، وما خلف السـموات.. جمع له الزمن حتى أصبح بين يديه ساعات يقلبها.. مراكب يبحر بها.

الإسراء والمعراج

يقول سـبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1]. متـى كان ذلك؟

سؤال لا يُعرف جوابه بالتحديد، لكنه بين أعطاف أيام مكة الحزينة قطعاً. أما في أي سنة كان ذلك؟ في أي شهر؟ في أي يوم؟

اللـه أعلم، فكل ذلك غير معروف بالتحديد[2] وكل ما نقطع به أنه حدث في ليلة مـن ليالي مكة، وما دام الأمر كذلك، فدعونا منه.. دعونا نتسـلل بهدوء من الضجيج المحيـط بتوقيته إلى أحداث الإسـراء والمعراج.. من بدايتها إلـى مواجهة قريش بما حدث، فكيف كانت البداية.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) ليس هناك حديث صحيح يبين أي يوم أو أي شـهر أو أي عام من أيام مكة حدث الإسـراء، لذا فتحديد ليلة معينة للإسراء رجم بالغيب يحتاج إلى سند علمي.

ليالي مكة واحدة تـكاد لا تتغير.. فيها يهدأ الجميع. الصحابة متعبون من الأذى والمطاردة، والمشـركون متعبون أيضاً، فقد أهـدروا طاقاتهم طوال النهار في التعذيب والمطاردة لرسـول الله ﷺ وأصحابه، الذين يتمتعون بإزاحة العناء بجعل ليلهم مناجاة لخالقهـم، وتهجداً وصفاء، مقاتلون مناضلون في النهار.. عباد في جوف الليل.. ذلك الليل الذي يغرفون منه هدوءه وتأمله..

فـي ليلة غريبة.. في ليلة لا كالليالي.. هبط جبريل عليه الصلاة والسـلام على رسـول الله ﷺ على غير عادته، وبطريقة استثنائية.. يتحدث عنها ﷺ فيقول: (فرج عن سـقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسـله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه)[١].

شق للسقف، وشق للصدر! لم؟ وأين تم ذلك الشق الآخر؟

كان ﷺ نائماً في بيته، ثم أُخِذَ للمسجد الحرام، وكان في المسجد نيام، أما رسول الله ﷺ فأخذ بين النائم واليقظان.. أُخِذَ بين الناس نحو بئر زمزم.

يقول ﷺ: (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان - وذكر يعني رجلاً بين رجلين- فأُتِيتُ بطست[٢] من ذهب مليء حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق[٣] البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيماناً)[٤].

شـق آخر للنبي ﷺ استعداداً لرحلة عجيبة مدهشة ومعجزة، لكن كم من الزمن ستستغرقه هذه الرحلة؟ ومن سيحمله فيها؟

البراق

جلب جبريل عليه السـلام حيواناً غريباً ليركبه ﷺ، فوصفه وقال: (وأُتِيتُ بدابة

---

(١) متفق عليه -البخاري كتاب الصلاة ومسلم - الإيمان - الإسراء.

(٢) الطست هو إناء نحاسي مستدير.

(٣) ما لانَ منه و رَقَّ أي المناطق الرقيقة من البطن.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق).

أبيض، دون البغل، وفوق الحمار «البراق»)[1] وبعد أن (أتي رسول الله ﷺ بالبراق ليلة أسري به، مسرجاً ملجماً، فاستصعب عليه. فقال له جبريل عليه السلام: ما حملك على هذا؟ والله ما ركبك خلق قط أكرم على الله عز وجل منه. فأرفض[2] عرقاً)[3].

أما سرعة هذا البراق، فيقول ﷺ عنها بأنه: (يضع حافره عند منتهى طرفه).. والله أعلم بمنتهى ما يصل إليه طرفه وبصره، لكنه يبدو بعيداً جداً.. يدل على ذلك أن زمن الرحلة كان قصيراً، بحيث يعجز الإنسان عن قياس سرعة ذلك المخلوق العجيب.

يقول حذيفة رضي الله عنه: (أتي ﷺ بالبراق - وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل - فلم يزايلا ظهره هو وجبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس)[4].

هذا ما جاء عن البراق.. البراق الذي نسج حوله الكذابون الأساطير. فقالوا: إن له رأس آدمي، وعرفاً من اللؤلؤ، وأذنين من الزمرد، وغير ذلك من الأكاذيب.

البراق باختصار: دابة أكبر من الحمار، وأصغر من البغل.. أبيض اللون، وخطوته تصل إلى أقصى نقطة يستطيع مشاهدتها، وقد ركبه ﷺ حتى أوصله إلى:

المسجد الأقصى

وفي طريقه ﷺ إلى المسجد الأقصى مر على موسى وهو يصلي في قبره[5] (فأوثق ﷺ الفرس - أو قال: الدابة في الخرابة)[6] وفي ذلك يقول ﷺ: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) سال عرقه.

(٣) سنده صحيح (الترمذي تفسير سورة الإسراء) والبيهقي (٢/٣٦٣) عن عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس، وقتادة ثقة مدلس، لكن هذا الشك زال بروايته للحديث قائلاً: حدثت عن رسول الله ﷺ، وللحديث شواهد ستمر معنا.

(٤) سنده حسن رواه الطيالسي ٢-٩١ واللفظ له، والترمذي والبيهقي ٢-٣٦٤ من طريق عاصم بن بهدلة، وهو حسن الحديث ثقة في نفسه لكن في حفظه بعض الشيء وشيخه زر بن حبيس تابعي ثقة مخضرم التهذيب ٥-٣٨ والتقريب ٢١٥.

(٥) رواه مسلم ٤-١٨٥٤بلفظ: (مررت ليلة أسري بي على موسى وهو يصلي في قبره، والصلاة هنا الدعاء، وحياة القبر تختلف تماما عن حياتنا المادية.

(٦) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٣٦١ وأبو يعلى (ت ابن كثير ٨/٥) عن معتمر بن سليمان عن أبيه، سمعت أنس. وهما ثقتان. التهذيب ١٠-٢٢٧ التقريب ٢٠٤ و٢٥٢.

فيـــه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه الســـلام بإناء مـــن خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال جبريل: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال جبريل: لقد بعث إليه.

ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، (قاعد، على يمينه أســودة[1]، وعلى يســاره أســودة، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمنه وشماله نسم[2] بنيه، فأهل اليمين منهم: أهل الجنة. والأســودة التي عن شــماله: أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)[3]، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى الســماء الثانية، فاســتفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من أنت؟ قـــال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال جبريل: قد بعث إليه.

ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيســى بن مــريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحبا، ودعوا لي بخير.

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومــن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن.

ثم عرج بنا إلى الســماء الرابعة، فاســتفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟. قـــال: جبريل. قـيل: ومــن معك؟ قـال: محمد. قيل: وقـد بعـــث إليه؟ قـال: قد بعث إليـــه، ففتح لنا، فإذا أنـــا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾.

---

(١) جمع من الناس.

(٢) يعني أرواح أبنائه.

(٣) هذه الزيادة عند البخاري ١-١٣٥.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير. (فلما جاوزت بكى. فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي)[1].

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. (فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها[2] كأنه قلال هجر، وورقها كأنها آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فسألت جبريل. فقال: أما الباطنان ففي الجنة. وأما الظاهران: النيل والفرات)[3]. (فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)[4] (وغشيتها ألوان لا أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[5].

(ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)[6].

فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى عليه السلام. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال:

---

(١) زيادة عند البخاري ٣-١١٧٣

(٢) النبق: حمل السدر.

(٣) رواه البخاري ٣-١١٧٣ معنى ذلك (عنصرهما) كما في البخاري. والحديث.

(٤) زيادة عند مسلم ١-١٤٥.

(٥) زيادة عند البخاري ١-١٣٥. ومسلم (الإسراء من كتاب الإيمان). واللفظ له.

(٦) البخاري ١-١٣٥.

ارجـع إلى ربك فاسـأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلـك، فإني قد بلوت[1] بني إسرائيل، وخبرتهم.

فرجعت إلى ربي. فقلت: يا رب خفف على أمتي. فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسـى. فقلت: حط عني خمساً. قال موسـى: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال ﷺ: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات، كل يوم وليلة، لكل صلاة عشـر، فذلك خمسون صلاة، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً. فإن عملها تكتب سيئة واحدة. قال ﷺ: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ - فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)[2].

ترتيب الأحداث

تلك هي قصة الإسراء والمعراج فلنرتبها مع إضافة بعض التفاصيل التي فاتتنا.

١- في بيت رسول الله:

ذلك عندما كان نائماً في بيته، فانشق سقف البيت ليدخل منه جبريل.

٢- في المسجد الحرام عند بئر زمزم:

عندمـا أخذ ﷺ من بين النيام.. وكان في حالة بين النائم والمسـتيقظ.. ثم أخذ إلى بئر زمزم ثم:

٣- شق صدره ﷺ:

فبعد إحضاره إلى بئر زمزم شـق صدره الشـريف للمرة الثالثة اسـتعداداً لهذه الرحلة العظيمة، وحشي إيماناً وحكمة، وكأن ذلك تحضير لتلك الرحلة الخارقة.

---

(١) جريت واختبرت.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ١-١٤٥ عن أنس.

٤- إحضار البراق:

وهـو دابـة حجمه فوق حجم الحمـار، وأصغر من حجم البغـل.. أبيض اللون.. خطوته عند مد بصره، وله سـرعة مذهلة لا يعلمهـا إلا الله (وكان البراق كلما صعد عقبةً استوت رجلاه مع يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه)[1].

٥- ركوب البراق:

وقد وجد ﷺ صعوبة في ركوبه أول الأمر، شـمس وامتنع البراق لكن جبريل قال لـه: (ما حملك على هذا، والله ما ركبك خلق قط أكرم على الله عز وجل منه فارفض عرقاً)[2] وما أن ركب رسول الله ﷺ حتى وصل بيت المقدس. وهذا يدل على سرعته، وعلى أنه قد سبق وأن ركبه غير رسول الله ﷺ.

٦- المرور بقبر موسى:

مر ﷺ بقبر موسـى وهو في طريقه نحو المسـجد الأقصى (وموسـى يصلي في قبره)[3] وصلاة موسـى تختلف عن صلاتنا على ظهر الأرض، لأن حياة القبر ليسـت كحيـاة الأرض (الدنيا)، إنها أشـبه بما يمـر بالنائم من رؤى. والصـلاة هنا معناها: الدعاء، وحتى الدعاء في القبر.. لا ندري كيفيته، وفي الكون مما لا يستطيع الإنسان إدراكه بحواسه، ما لو علمه لذهل وطار صوابه وتحير. والقبر في جميع الأحوال، إما حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة. كيف يكون ذلك..؟ الله أعلم.

٧- الوصول للمسجد الأقصى:

حيث ربـط الفرس أي البـراق بالخرابة.. وربطها ﷺ (بالحلقـة التي يربط به الأنبيـاء)[4] وهذا يـدل على أن البراق قد ركبه أنبياء آخـرون من قبل، مما يدل على أهمية فعل الأسباب مع التوكل وتفويض الأمر لله، وهذا هو التوكل الصحيح على الله،

---

(١) سنده جيد رواه الحسن بن عرفة في جزئه (تفسير ابن كثير ١٧/٣) حدثنا مروان بن معاوية وهو ثقة عن شيخه الصدوق قنان بن عبد الله النهمي عن شيخه الثقة أبي جناب.

(٢) مر معنا وإنه حديث صحيح الإسناد.

(٣) مر معنا وإنه قد رواه مسلم.

(٤) مر معنا وهو عند مسلم.

وإلا فالبــراق لن يهرب واللــه قد أحضره لنبيه ﷺ، ثم صلى النبي ﷺ في المســجد الأقصى ركعتين.

٨- الخمر واللبن:

وبعد أن صلى رســول الله ﷺ ركعتين خرج فاستقبله جبريل بإناءين.. في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر. وكان على رســول الله ﷺ أن يشرب أحدهما، فاختار اللبن فقال له جبريل عليه الصلاة والســلام: (اخترت الفطــرة)[1] ولم يتضح معنى هذه الكلمة في عصر كما اتضح في عصرنا هذا، فاسأل الأطباء. كما قال جبريل عليه الصلاة والسلام: (أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك)[2]. بعد ذلك ينتهي الإسراء، ويبدأ المعراج.

العروج للسماء الدنيا

حيث صعد جبريل عليه السلام بمحمد ﷺ آخذاً بيده إلى السماء.

يقول ﷺ: (ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل عليه السلام لخازن السماء الدنيا)[3] وفي هذا الحديث إشارة إلى وجود خازن من الملائكة للسماء الدنيا. كما أن في بقية الحوار بين جبريل وخازن السماء الدنيا ما يــدل على أن الملائكة لا تعلم الغيب، ولا تعلم ما يحدث على وجه الأرض، وذلك لأنهم يسألون جبريل في كل سماء فيقولون: وقد بعث إليه؟ أو: وقد أرسل إليه؟..

مَنْ مِنَ الأنبياء في السماء الدنيا

لقد شــاهد ﷺ أبانا آدم عليه الصلاة والســلام، فسلم عليه رسول الله ﷺ، ورد آدم عليه الســلام. كما شاهد ﷺ خلقاً كثيراً عن يمينه، وخلقاً كثيراً عن شماله، وكان آدم إذا نظر إلى يمينه ضحك مبتهجاً مسروراً، وإذا نظر إلى شماله بكى حزناً وأسى، فشــد ذلك السلوك نبينا محمد ﷺ فسأل عنه جبريل؟ فأجابه جبريل: (هذه الأسودة عن يمينه، وعن شماله نسيم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله

---

(١) حديث صحيح مر معنا.

(٢) حديث صحيح. متفق عليه.

(٣) حديث صحيح مر معنا.

أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)[1] ثم ودع آدم رسول الله ﷺ بعد أن رحب به ودعا له بخير

في السماء الثانية

جرى حوار كالحوار الأول بين جبريل عليه السلام وخازن هذه السماء، ثم صعد رسول الله ﷺ فوجد عيسى بن مريم وابن خالته يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فرحبا به، وقد وصف رسول الله ﷺ أخاه عيسى بن مريم عليه السلام فقال: (رأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس)[2]. (أحمر كأنما خرج من ديماس)[3].

السماء الثالثة

في هذه السماء شاهد رسول الله ﷺ أجمل خلق الله وجهاً.. شاهد يوسف بن يعقوب النبي الأمين عليه السلام، فوصفه ﷺ قائلاً: «إذا هو قد أعطي شطر الحسن»[4]. وقال مرة: (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن)[5] وقد رحب به يوسف ودعا له بخير.

في السماء الرابعة

حيث رأى من قال الله فيه: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[6] إنه إدريس عليه الصلاة والسلام.

وفي السماء الخامسة

شاهد رسول الله ﷺ أخاه هارون.. خليفة موسى في بني إسرائيل، ووزيره وأخوه صلى الله وسلم عليهم جميعاً. فرحب به ودعا له بخير.

---

(١) حديث صحيح مر معنا.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٣) حديث صحيح. متفق عليه. انظر صحيح الجامع (١٠٨/٥) والديماس هو الحمام.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٥) حديث صحيح. رواه الحاكم. انظر صحيح الجامع (٣٥١/١).

(٦) سورة مريم: الآية ٥٧.

وفي السماء السادسة

لقي ﷺ أخاه موسى عليه السلام، وقد وصفه ﷺ فقال: مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام: (رجل آدم، طوال، جعد[1]، كأنه من رجال شنوءة)[2]. (فسلمت فقال: مرحباً بك من أخ ونبي)[3]. لكن موسى عليه السلام بكى بعدما صعد رسول الله ﷺ إلى السماء السابعة، فقيل لموسى ﷺ، ما أبكاك. قال: (يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي)[4]. ولم يكن ذلك حسداً من موسى، فالحسد يموج هناك على وجه الأرض، لكنه كان يبكي متحسراً.. آسفاً لعناد أمته وتعنتها، وإلا فهو يحب أمة محمد ﷺ ويعطف عليها، يدلنا على ذلك حديث طويل جرى له مع رسول الله ﷺ حول عدد الصلوات المفروضة، والتي بسبب موسى عليه السلام خفف الله الصلاة عن أمة محمد من خمسين إلى خمس صلوات، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

في السماء السابعة

وهي آخر السموات، وفيها شاهد أباه إبراهيم مسنداً ظهره إلى «البيت المعمور» وهو: بيت يطوف به ويصلي سبعون ألف ملك كل يوم.. لا يعودون بعدها، ودخل ﷺ هذا البيت وسلم على والده إبراهيم فرحب به، وحمَّلَه وصية لأمته قال فيها: (يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التراب، عذبة الماء، وإنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[1].

أما وصف هيئة إبراهيم عليه السلام، فقد قال رسول الله ﷺ: (ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به)[2] ويقول: (ونظرت إلى إبراهيم، فلا أنظر إلى أرب من آرابه إلا نظرت إليه مني، كأنه صاحبكم)[3].

---

(١) ومعنى آدم أي يميل للسمرة، أما الجعد فمنثني الشعر.
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -الإسراء) وشنوءة قبيلة ومعنى آدم أي .
(٣) حديث صحيح مر معنا. البخاري. بدء الخلق؟
(٤) حديث صحيح مر معنا. البخاري. بدء الخلق؟
(٥) حديث حسن رواه الترمذي. انظر صحيح الجامع (٣٤/٥).
(٦) متفق عليه.
(٧) إسناده حسن، رواه أحمد من طريق هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس وهلال حسن الحديث. انظر المجموعة القصيمية (الإسراء والمعراج).

وهذه الشجرة الرائعة والسدرة العظيمة (إليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها)[1] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: (فراش من ذهب)[2]، ويصف ما حدث لها من تشكلات مذهلة فيقول: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)[3] جمال وألوان وثمار تقف لغات الدنيا ملجمة أمامها.. يحار العقل ويعجز الإبداع عن تجليتها ووصفها، أو التعبير عن معاناة الوقوف أمامها وأسرها.

هذا هو رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم يقول: فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فكيف يكون جمال الجنة يا ترى؟ كيف هي قصورها التي لم تبن بالحجارة أو الطين أو الإسمنت، بل من الذهب والفضة والذهب واللؤلؤ والألماس وما شئت من الأحجار الكريمة؟ كيف طرقات الجنة وهي ليست من تراب أو إسفلت، بل ترصف بالأحجار الكريمة التي لا حصر لأنواعها وألوانها وأشكالها هناك؟ كيف هي زهور الجنة الملايينية التي لا نهاية لألوانها وعبقها وعطورها؟ كيف هي أنهارها وأوديتها وبحارها التي لا تعرف التلوث أو الملوحة أو التغير، وقيعانها التي لم تعد من الطين والطمي والحصى، بل إن شئت فقل قيعان لؤلؤية ومرجانية ومسارب ألماسية.. كيف وكيف وكيف؟أطلق خيالك في سماء الأماني لن تبلغ بدايات الجنة وأدنى منازلها[4].

فلنعد لسدرة المنتهى.

وفي أصل هذه السدرة (أربعة أنهار، نهران باطنان، نهران ظاهران)[5]. (أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران: النيل والفرات)[6] أي (عنصرهما)[7] ، وليس معناه أن النيل والفرات الآن متصلان بها.

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١/١٥٧).
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١/١٥٧).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإيمان -الإسراء).
(٤) إن شئت سياحة في أمنيات الجنة فصاحبني في كتابي (الجنة حين أتمنى) جمعنا الله بها.
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق -ذكر الملائكة).
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق -ذكر الملائكة).
(٧) حديث صحيح. رواه البخاري ٦-٢٧٣٠.

ثم عرج به ﷺ لكن ماذا بعد السموات السبع.

صريف الأقلام

يقول ﷺ: (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)[1] وفي تلك الدرجة العليا من السمو يتساءل المرء عن حال جبريل رفيق المعراج.. كيف كانت هيأته وهو في الملأ الأعلى؟

شاهده النبي ﷺ فوصفه بقوله: (مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله)[2] كان جبريل كالثوب الرقيق.. قد ذاب من خشية الجبار سبحانه وتعالى.

فرض الصلوات

صعد ﷺ هناك.. أعلى من السحب.. أعلى من الشمس والنجوم والمجرات والكواكب. لقد اخترقها كلها.. إنه الآن فوق السموات السبع.. محمد ﷺ ينتظر شيئاً في هذه الأجواء الشفافة المتوهجة الطاهرة، وفي هذا العلو المقدس أوحى الله إلى محمد ما أوحى: خمسين صلاة في اليوم والليلة.

عاد بها ﷺ مطيعاً كعادته، ولكن وفي طريق النزول اعترضه موسى سائلاً عما حدث له؟ فأجابه بأن الله قد فرض عليه خمسين صلاة. فأرشده موسى إلى أن أمته تحتاج إلى تخفيف، فصعد إلى ربه يسأله التخفيف، وما زال يتردد بين المكان الذي يوحى إليه فيه، وبين موسى حتى جعلها الرحمن الرحيم خمس صلوات في اليوم والليلة، لكن لها أجر خمسين صلاة.. تفضلاً منه سبحانه وتعالى، وفي تلك الأجواء المهيبة أوحي إليه

آيات من تحت العرش

آيتان عظيمتان.. أعطاهما الله نبيه ﷺ من كنز تحت العرش، وفي ذلك يقول ﷺ

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (كتاب الصلاة -ومسلم كتاب الإيمان).

(٢) حديث حسن رواه الطبراني في الأوسط. انظر صحيح الجامع (٢٠٦/٥).

مغتبطاً بفضل الله عليه من بين الأنبياء: (أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كنز تحت العرش، لم يعطها نبي قبلي)[1].

والآيتين هما (خواتيم سورة البقرة)[2]. أي قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ولذلك يقول ﷺ: (من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه)[3].

تفضل آخر

ومن فضل الله على رسول الله ﷺ وعلى أمته أيضاً.. ذلك الفيض الغامر رحمة، عندما أبلغ رسوله ﷺ أنه قد: (غفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات)[4]. كل هذا الفضل.. العطاء.. كان وحياً، أم كان خطاباً يسمعه رسول الله ﷺ كما سمعه موسى يا ترى.

هل رأى ربه وسمعه

كما سمعه موسى عليه الصلاة والسلام، أما السماع، فقد مر معنا أنه قد أوحي إليه وحياً، وأما الرؤية، فقد كفانا أبو ذر مهمة حمل السؤال لرسول الله ﷺ حيث قال رضي الله عنه: (سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى[5] أراه»)[6]، (رأيت نوراً)[7]. لكنه رأى الجنة ودخلها، ووصفها فكيف وصف:

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد والطبراني والبيهقي. انظر صحيح الجامع (١/٣٥٠).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١/٢٥٧) قال عبد الله:... وأعطي خواتيم سورة البقرة.

(٣) أي تكفيه حديث صحيح رواه البخاري ٤/١٩١٤.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٥) أي كيف أراه.

(٦) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان/ باب نور أنى أراه)

(٧) حديث صحيح. المصدر السابق.

دخول الجنة

لقد قال ﷺ: (أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[1]. ثم جرى في طريق عودته

حوار بين الأنبياء

حوار حول الساعة، وأمرها ومتى تكون؟ يقول ﷺ: (لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم. فقال ﷺ: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى موسى عليه السلام. فقال: لا علم لي بها.

فردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام. فقال: أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله، ذلك وفيما عهد إلى ربي عز وجل: أن الدجال خارج، ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله، حتى إن الحجر، والشجر ليقول: يا مسلم.. إن تحتي كافر فتعال فاقتله، فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ثم يرجع الناس إلي، فيشكونهم، فأدعو الله فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوي الأرض من نتن ريحهم، فينزل الله عز وجل المطر، فتجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر)[2].

ففيما عهد إلى ربي عز وجل: أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتام التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً)[3].

المسيح الدجال

ذلك القائد اليهودي، الذي ذكره عيسى بن مريم ﷺ. هل رآه رسول الله ﷺ في رحلته العجيبة..؟

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم (كتاب الإيمان -الإسراء). والجنابذ هي القباب

(٢)حسن من أجل مؤثر بن عفازة ١-٣٧٥. انظر ما بعده.

(٣) إسناده جيد، رواه أحمد ١-٣٧٥ وغيره حدثنا هشيم، أخبرنا العوام، من جبلة بن سحيم، عن مؤثر عفارة، عن ابن مسعودة. العوام بن حوشب ثقة ثبت من رجال الشيخين، وجبلة بن سحيم تابعي ثقة. انظر الجرح والتعديل ٢-٥٠٨ وشيخه تابعي ثقة أيضاً. انظر ثقات العجلي (٤٤٣)، والحافظ لم ينقل توثيق العجلي وفي ذكر نسف الأرض نكارة.

لقد قال أحد الصحابة أنه (ذكر الدجال)[1] وأنه (رأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس مناماً قال ﷺ: رأيته فيلمانياً[2]، أقمر[3] هجاناً[4]، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة)[5].

خازن جهنم

ملَك رهيب اسمه مالك.. لا يبتسم، وصورته الحقيقية لا تسر، ولا يستطيع بشر مهما كان قوي القلب الصمود أمامها.. ملك مخيف جداً.. يتطاير الرعب من قسماته ونظراته.. لا يعرف الشفقة، ولا يرحم أحداً، وكيف يرحم وهو خازن جهنم، وممزق أعداء الله ومعذبهم. رآه ﷺ أثناء الإسراء والمعراج عندما (قال قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه. فالتفت إليه فبدأني بالسلام)[6].

ولم يرَ ﷺ خازن جهنم فقط، بل رأى جهنم نفسها، فجبريل عليه السلام أراه الجنة والنار (فنظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ورأى رجلاً أحمر أزرق، جعداً شعثاً إذا رأيته.

قال ﷺ: من هذا يا جبريل؟ قال عليه الصلاة والسلام: هذا عاقر الناقة)[7] التي جعلها الله آية لنبيه صالح عليه الصلاة والسلام، فكان بجريمته هذه أشقى قومه ثمود.

وقد قص سبحانه وتعالى قصته على رسوله ﷺ فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -الإسراء).
(٢) الفيلمان: العظيم.
(٣) الأقمر: الأبيض.
(٤) الهجان: الأبيض.
(٥) سنده حسن، رواه أحمد ١-٣٤٧ وإسحاق بن سليمان (سيرة الذهبي ٢٥١) عن هلال بن خباب وهو حسن الحديث، عن عكرمة عن ابن عباس، وليس في هلال كلام يضر.
(٦) حديث صحيح. رواه مسلم.
(٧) إسناده حسن. رواه أحمد ١-٢٥٧ حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس. عثمان هو العيسى ثقة، التهذيب ٧-١٤٩، وجرير بن عبد الحميد بن قرط ثقة صحيح الكتاب، وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف فجرحه غير مفسر أفرط ابن حبان في جرحه كعادته، ووالده تابعي ثقة اسمه حصين بن جندب الجنبي.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾[1].

ومر ﷺ بأقوام تركوا ألسنتهم تزحف.. أفاعي تنهش الغافلين.. تنهش المجتمع، لتواصل زحفها حتى تسحب أهلها إلى الجحيم، فقال: (مررت بأقوام لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال عليه السلام: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم)[2].

أما في الجنة

في عالم الجمال والأنوار والفتنة، والحب المتجدد في قلوب أهلها حول المياه والخضرة الساحرة، والقصور الفارهة، والطرقات الفسيحة، والبحيرات والشلالات والسفن واليخوت والمركبات والطائرات المترفة.. كان لبلال خشف هناك.. خشف لنعلي ذلك الشريد الذي تتقاذفه قبضات قريش، فتحتضنه تجاويف الجبال والخوف وغيرانها.. يرجف يصبغها بالدماء والبكاء.. بلال الأسود كان هناك كالملاك.

يقول ﷺ: (دخلت الجنة ليلة أسري بي، فسمعت في جانبها وجساً، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال)[3]. واستمر خشف بلال حتى بعد الإسراء، فقد قال عليه السلام له: (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة، فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة.

قال بلال: ما عملت عملا في الإسلام أرجى عندي منفعة، من إني لا أتطهر طهورا تاماً، في ساعة من ليل ولا نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي)[4].

بلال في الأرض.. في مكة سلعة تباع وتشترى، وتعرض في الأسواق. لا يملك بيتاً، ولا يملك نفسه، لكنّ في أعماقه بلال آخر.. بلال مسلم حر مزق الشرك والخضوع..

---

(١) سورة الشمس.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد وأبو داود. صحيح أبي داود (٣/٩٢٣).

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير.

(٤) صحيح مسلم ١٩١٠.

يتبختر في القصور هناك.. هناك في النعيم.. في الجنة.. سيداً من سادات الأرض والسماء والإسلام. سيداً في عالم الجنات حيث لا عين رأت مثل ذلك الحب والجمال والأنوار، ولا أذن سمعت، ولا خطر شيء من ذلك في خيال بشر.. مهما هام وأبدع وتألق، أو غاص عوالم الأحلام والأماني. أشرع الله أبوابها للموحدين، ونثر مفاتيحها في دروب الجميع، فمن تخلف فلا يلومن إلا نفسه.

وصية

قالتها الملائكة.. لرسول الله ﷺ: (ما مررت ليلة أسري بي بملأ من الملائكة إلا كلهم يقول لي عليك يا محمد بالحجامة)[1].

العودة للمسجد الأقصى

بعد هذه الرحلة الممتعة في عوالم الخلود العلوية.. عاد ﷺ إلى المسجد الأقصى، (فلما دخل النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت، ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه)[2].

ثم ركب البراق فإذا هو في مكة في زمن يخرس الأرقام.. محمد يعود والناس نيام، فماذا سيقول لهم غداً، وأي كفر ذلك الذي ستشهده شمس الصباح؟

رسول الله حزين معتزل

يقول رسول الله ﷺ: («لما كانت ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة، فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي، فقعد معتزلاً حزيناً»، فمر عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال: كالمستهزئ: هل من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو جهل: ما هو؟ قال ﷺ: «إنه أسري بي الليلة». قال أبو جهل: إلى أين؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إلى بيت المقدس». قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال ﷺ: «نعم».

---

(١) سنده حسن رواه أحمد ١-٣٥٤وغيره عن عبد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً، وعباد صدوق مدلس لكنه سمع من عكرمة عند الترمذي ٤-٢٩١

(٢) سنده حسن وقد مر معنا ويشهد له ما بعده. وهو حديث مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

فلم يُرَ[1] إنه يكذبه، مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه. قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

فقال أبو جهل: هيا يا معشر بني كعب بن لؤي.

فانتفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدِّث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة». قالوا: إلى أين؟ قال ﷺ: «إلى بيت المقدس». قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال ﷺ: «نعم». فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً)[2] (فقال ناس: نحن نصدق محمداً بما يقول؟ فارتدوا كفاراً، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل. وقال أبو جهل: يخوفنا محمد شجرة الزقزم، هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا)[3].

لكن أبا بكر لا يقول: كذبت

أبو بكر الصديق يعرف أكثر من غيره نبع الصدق.. أكثر من يعرف رسول الله ﷺ في صباه وشبابه، وبعد نبوته. سمع بالخبر فجاء لرسول الله ﷺ وقال له: (أشهد أنك رسول الله)[4].

قريش تطلب الدليل

للتعجيز.. لإثبات أن رسول الله ﷺ يكذب، ولو لمرة واحدة يلوثون بها تاريخه النقي كأنهار الجنة. طلبت قريش دليلاً على ما يقوله ﷺ، فأخبرهم بقافلتهم القادمة ووصفها لهم، لكن هذا الأمر يتطلب الانتظار، وقريش تريد التكذيب في الحال، لذا طالبته أن يصف بيت المقدس فهو لم يره من قبل.

---

(١) أي تظاهر أبو جهل بأنه يصدق ذلك الخبر، ظاناً أن تكذيبه في هذا الوقت سوف يجعل رسول الله ﷺ يتراجع عن قول الحقيقة إذا اجتمع القوم.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) حديث صحيح رواه البيهقي والبزار (١/٣٥) قال البيهقي: إسناده صحيح وليس كما قال، بل فيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وهو صدوق في نفسه إلا أن الحافظ قال: يهم كثيراً، التقريب ٩٩، وضعفه ليس بالشديد وله شاهد صحيح عند أبي يعلى ٧-١٢٦

يقول رسـول اللـه ﷺ: (لقد رأيتني في الحجر وقريش تسـألني عن مسـراي، فسـألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسـألوني عن شـيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء. فإذا موسـى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شـنوءة، وإذا عيسـى بن مريم عليه السـلام قائم يصلي، أقرب الناس به شـبهاً عروة بن مسـعود الثقفي. وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم «يعني نفسه» فحانت الصلاة فأممتهم)[1] ويقول ﷺ: (لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه)[2].

ويقول أحد الصحابة: (قالوا: هل تسـتطيع أن تنعت لنا المسجد - وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد؟

فقـال رسـول الله ﷺ: (فذهبت أنعـت، فما زلت أنعت حتـى التبس علي بعض النعت، فجيء بالمسـجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقيل، فنعته، وأنا أنظر إليه.. فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب)[3].

أما قافلة العير فساحت نحو بطحاء مكة.. تنشد الشعر والحداء.. محملة بأقوال تبشر بصدق معراجه وبصدق امتطاء البراق، فابتهجت قلوب المؤمنين، وتهللت وجوههم، وانصرف الشامتون يجرون خيبتهم، ويجترون جمراً.. إنهم لم يروا محمداً إلا متجدداً طاهراً نقياً لا شائبة فيه، أما هو فاتجه يبشر أصحابه بـ:

الصلاة المفروضة

كان ذلك بعد الإسـراء مباشـرة.. حيث نزل جبريل فعلم رسـول الله ﷺ أوقات الصلاة عند الكعبة مرتين.

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

(٢)حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

(٣) إسـناده صحيح. رواه أحمد ١-٣٠٩ وغيره عن عوف عـن زرارة بن أبي أوفى عن ابن عباس، وعوف ثقة كان يقال له: عوف الصدوق التهذيب ٨-١٦ وشـيخه زرارة بن أوفى العامري الحرشـي، تابعي ثقة عابد، مات فجأة وهو يصلي. التقريب ٢١٥.

يقول ﷺ: («أمني جبريل عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس[1]، وكانت قدر الشراك.

وصلى بي العصر حين كان ظله[2] مثله.

وصلى بي المغرب حين أفطر[3] الصائم.

وصلى بي العشاء حين غاب الشفق.

وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم[4].

فلما كان من الغد: صلى بي الظهر حين كان ظله مثله.

وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه.

وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم

وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل.

وصلى بي الفجر فأسفرت[5] ثم التفت إلي وقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين »[6])[7].

وكانت الصلاة بمكة (ركعتين.. ركعتين)[8]، كل صلاة ركعتان إلا المغرب فثلاث ركعات.

حملها ﷺ إلى أصحابه.. علَّمها إياهم زاداً مفروضاً يريحهم بها ساعات الضيق والضنك.. تعيد تنظيم أوقاتهم كما أعاد التوحيد نظام حياتهم، وكان ﷺ في بعض الأوقات يسير نحو الكعبة.. يعبد الله عندها، ويؤدي هذه الصلوات هناك، لكن ذلك لم يعجب طواغيت قريش.. لم يرق لهم ما يفعله هذا النبي الجريء.. الذي يتحدى بصلاته أصنامهم، وحجارتهم وأخشابهم التي يسمونها آلهة.

---

(١) تحركت الشمس من زاوية ٩٠ْ نحو الغروب.

(٢) مثله في الطول أى في زاوية (٤٥ْ).

(٣) وقت غروب الشمس.

(٤) فيه فائدة حول وقت السحور. وأنه عند بداية ظهور نور الفجر وكان ذلك في أول الأمر.

(٥) يقول ﷺ: «أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر». صحيح الجامع للألباني (٥/٢٣٧).

(٦) أي وقت كل صلاة ما بين الوقتين اللذين أداها بينهما.

(٧) حديث صحيح. انظر المصدر ما قبل السابق (٥/٤٦٣).

(٨) حديث صحيح. رواه البخاري (١/١٢٧) عن عائشة رضي الله عنها.

لقد أجج ذلك التحدي جحيم الانتقام الذي يغلي داخل صدور المشـركين، وجدد محاولاتهم السـابقة للإيذاء والتنكيل، بل والقتل. والذي سيتكفل بهذه المهمة اليوم هو طاغوت قريش وفرعون الأمة.

أبو جهل يمنع الصلاة

عندما نفخ صدره أمام أشباهه يوماً، ثم نفث سماً قائلاً: (لئن رأيت محمداً يصلي عنـد الكعبة، لأطأنَّ على عنقـه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعل، لأخذته الملائكة)[1]. ثم مشـى ﷺ إلى بيت الله واثقاً من وعده، وصلى وركع وسـجد ودعا وابتهل. فعلم أبو جهل، فجاء كالمسعور نحو رسول الله ﷺ فقال له: (ألم أنهك عن أن تصلي يا محمد؟! لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً مني.

فانتهره النبي ﷺ فقال جبريل: فليدع ناديه، سـندع الزبانية، والله لو دعا ناديه، لأخذته زبانية العذاب)[2].

لكـن أبا جهـل كان حاقداً على النبوة.. حاقداً علـى صاحبها، لأنه ليس من أهل بيته.. لأنها ليست فيهم، فليحطمها، وليحطم صاحبها. أبو جهل كان طافحاً بالعصبية الجاهلية.. حيث يغيب العقل وتموت الحكمة فلا يرى صاحبها غيره، وكأن محمداً ﷺ وأتباعه داخل صدره القاتم يمنعون عنه الهواء.

عقد أبو جهل حاجبيه واسـودت الدنيا أمامه (فأتى رسـول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، فما فجئهم[3] منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنـا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». وأنزل الله عز وجل[4]: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤/١٨٩٦).

(٢) سنده صحيح، رواه البيهقي (٢/١٩٢) وغيره من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. داود ثقة متقن التقريب ٢٠٠ وشيخه مولى ابن عباس تابعي ثقة معروف.

(٣) باغتهم دون توقع لهذا التصرف.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب المنافقين).

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩﴾[1].

فامتثل ﷺ وسجد رغم أنف أبي جهل وأنوف من معه.

لقــد كان ما حصل لأبي جهل رادعاً له، لــو كان له قلب.. لو كان يظن أن محمداً يكــذب. لكنه كان يشــرك بالله عن علم ودراية.. عناداً وتجبــراً، وغروراً بما لديه من نســب ومال وســلطة، ولهذا وأمثاله جزاء رادع.. في يوم لا تنفعه هذه الأشــياء، وفي أمثال هذا نزل الوحي من الســماء: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[2].

ولى أبوجهل مذعوراً، ومرت أيام، وعاد ليمارس هو وزبانيته نوعا قذراً من الأذى لا يليق إلا بالرعاع.. إلا بمن لا أخلاق لهم.

يضعون السلا على ظهره

شاهدهم عبد الله بن مسعود فلم يستطع فعل شيء.. كان محطم القلب واليدين، وهو يشاهد حبيبه ﷺ (يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور[3] بالأمس.

فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور «بني فلان» فيأخذه، فيضعه على كتفي محمد إذا سجد؟

فانبعث أشقى القوم، فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعــل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظر - لــو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رســول الله ﷺ - والنبي ســاجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنســان فأخبر فاطمة، فجاءت - وهي جويرية - فطرحت عنه.

---

(١) سورة العلق.

(٢) سورة الهمزة.

(٣) الجزور من الإبل يطلق على الذكر والأنثى والمراد به هنا سلا الأنثى من الإبل.

ثم أقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا، دعا ثلاثاً. وإذا سأل، سأل ثلاثاً، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش».

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال ﷺ: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وذكر السابع ولم أحفظه»)[1].

لقد استنفذ ﷺ - دون يأس - كل الوسائل فـ:

لم يبق إلا الدعاء

قريش أصبحت جداراً.. أم القرى لهيب نار.. اليوم صوتها رمضاء.. دروبها عماء.. دروبها حبال.. حصار فوقه حصار.. تلبد الحصار كالجبال كالمحال.. لكنه الإيمان.. نبض الموحدين يمضغ المحال.. وفي السماء قطرة ستغسل الجبال.. ستزرع الحياة في القلوب.. في كل حبة من الرمال..

البحث عن الأنصار

بعد أن أصبحت قريش جداراً من العناد والحصار.. جد ﷺ في البحث عن أنصار يحملون دين الله بقلوبهم.. يفتش عن أرض وصدور أرحب.. ولذلك: (انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث. فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث.

فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق (عكاظ)، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن،

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم الجهاد والسير، والبيهقي (٢/٢٨) واللفظ له.

تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم. فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً، وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[1].

إذاً فقد سمع الجن واستمعوا، ورسول الله ﷺ لا يدري باختلاط الجن من حوله واضطرابهم، ثم إنصاتهم وخشوعهم، فمع خيوط الفجر كانوا قد انحدروا، ومع طيوره وأنسامه كانوا قد (هبطوا على النبي ﷺ، وهو يقرأ القرآن (ببطن نخلة). فلما سمعوه قالوا[2]: أنصتوا، صه. وكانوا تسعة أحدهم (زوبعة) فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ

---

(١) سورة الجن.

(٢) الفتنة: الامتحان والابتلاء.

مُنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

هذه الآيات نزلت، ونزل غيرها فيما بعد.. تبشر رسول الله ﷺ بأن له أتباعاً لا يراهم ولا يسمعهم.. ليسوا من الملائكة ولا من البشر، بل هم من الجن: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[2].

ومحمد ﷺ نبي للإنس والجن، وقد أمره الله بأن يلتقي بوفد من الجن.. في ليلة بحث الصحابة فيها عن حبيبهم ﷺ، فلم يجدوه، ووجدوا الحزن والخوف في كل مكان يفتشونه.. في كل مكان يقصدونه، حتى ظنوا أن أيدي المشركين تخطفته وفتكت به.

تلك ليلة كالحداد.. تحدث عنها ابن مسعود فقال: (كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقيل: أستطير؟! اغتيل.

فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. فقلنا: فقدناك فطلبناك، فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن.

فانطلق ﷺ بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد.. فقال ﷺ: كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً[3]، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم..

قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بها، فإنهما طعام إخوانكم»[4]. هذه ليلة لم يحضرها أحد.. لم يشهد أحداثها سواه ﷺ، لكن هناك ليلة أخرى أحب ﷺ أن يكون له فيها رفيق من صحابته، فكان عبد الله بن مسعود الذي يقول: (قال رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الأحقاف: الآيات ٢٩-٣٢.

(٢) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ -٥٨.

(٣) أي إن العظام التي يذكر اسم الله عليها عند أكل لحمها تعود طعاماً للجن.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

لأصحابه وهو بمكة: من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل. فلم يحضر منهم أحد غيري.

فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطاً، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط.

ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني، فقال: ما فعل الرهط؟ قلت: هم أولئك يا رسول الله. فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم)[1].

هذه هي قصته ﷺ مع الجن. سمعوه وهو يصلي في طريقه إلى عكاظ، ثم التقى بهم مرة، وأخرى، وربما ثالثة ورابعة.

لقد أُمر ﷺ بإرشادهم.. بإنقاذهم من عوالم الشرك التي تموج ولا نراها، لكنه لم يؤمر بالاعتماد عليهم، ولا بإقامة علاقة بينهم وبين أصحابه، فكلٌ يدعو في مجاله، وكل يتوهج في ميدانه. هنا عالم للإنس، وهناك عالم للجن، وما يهمنا هو عالمنا، فماذا فعل ﷺ بعد أن فرغ من صلاته متجهاً نحو عكاظ؟

في عكاظ

وصل ﷺ إلى عكاظ.. تتبع القبائل.. دخل خيامهم، وبشرهم ودعاهم. كل القبائل دون استثناء.. بني عبس، وكندة، وتميم، وبكر بن وائل، وبني عامر بن صعصعة، وبني حنيفة، وغيرهم.

كانت بعض القبائل تصرفه بلطف، والبعض بعنف، وهناك من يشتمه ويسبه ويتهمه، وكان خلف ذلك الرفض أكوام الوصايا تحذر من فتى قريش ﷺ.

---

(١) حديث حسن، رواه ابن جرير تفسير ابن كثير ٤-١٦٤ من طرق عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري عن ابن عثمان بن شبة. والصحيح: ابن سنة كما قال الحافظ عن ابن مسعود، وله علتان، الأولى: رواية يونس عن الزهري، فهو ثقة إلا أن روايته عن ابن شهاب فيها وَهْمٌ قليل، وابن سنة لم يوثق، وله طريقان يرتقي بهما إلى درجة الحسن، هما: جرير عن قابوس عن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن مسعود، وهذا الطريق حسن لذاته وقد مر معنا تخريجه.. كذلك طريق آخر عند أبي نعيم. انظر تفسير ابن كثير (٤/١٦٤).

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (إن رسـول الله ﷺ لبث عشر سـنين، يتبع الحاج في منازلهم، في المواسـم: مجنة، وعكاظ ومنازلهم بمنى: من يؤويني وينصرني حتـى أبلغ رسـالات ربي وله الجنة. فلا يجد أحداً يؤويـه ولا ينصره، حتى إن الرجل يرحـل صاحبه من مصر، أو مـن اليمن، فيأتيه قومـه أو ذوو رحمه، فيقولون: احذر فتـى قريش لا يفتنك. يمشـي بين رحالهم، يدعوهم إلى الله عز وجل، يشـيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله عز وجل له من يثرب)[1].

عشـر من السـنين يرفع الخباء.. يشـع في الخيام كالشـموس كالضياء.. يحط كالأمطار كالربيع والظباء.. لينعم الجميع.

كان ﷺ لطيفاً ليناً في حديثه.. يحترم من أمامه، ويدعوه بأحب الأسماء إليه. ها هو في لقاء مع رجل من:

همدان

فبينما (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف، فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل؟

فاتـاه رجل من همدان، فقال الرسـول ﷺ: ممن أنت؟ فقال الرجل: من همدان. قال ﷺ: فهل عند قومك من منعة؟

قال الرجل: نعم.

ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: آتيهم فأخبرهم، ثـم آتيك من عـام قابل، قال ﷺ: نعـم. فانطلق)(٢).. ألهذه الدرجـة بلغ الخوف من القوم؟! ألهذه الدرجة صحراء العرب موحشـة وقاسـية على هـذا النبي ﷺ، وعلى أصحابه المساكين؟! كأنهم سيتحالفون مع الموت.. مع الفناء.. أما لهم عقول! أم تحولوا إلـى صخور؟ ومع ذلك، لا يأس.. يعود عليه السـلام ويداه خاليـة منهم، وهمُّ العالم

(١) هو قطعة من حديث صحيح سيمر معنا عند لقاء الأنصار.

(٢) سـنده صحيح. رواه أحمد ٣-٣٩٠ وغيره من طرق عن إسـرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سـالم بن أبي الجعد، عن جابر. وسـالم ثقة سـمع من جابر. جامع التحصيل ٢١٧ وعثمان ثقة. التهذيب ٧-١٥٥ وإسرائيل بن يونس ثقة معروف. التهذيب ١-٢٦١.

يدور برأسه.. يعود إلى بيته حيث لا خديجة.. لا زوجة تمسح الجراح.. تبادله الحب والحنان. يتذكر خديجة في بيته الذي يفتقدها.. يتذكر خمسة وعشرين عاماً من الحب عاشها معها، ولا يعرف من تلك الطاهرة إلا ما يثلج صدره ويبهجه. ما ذكر امرأة غيرها ولا طرق باباً للزواج بعدها! كأنها لم تمت، لكن إرادة الله كانت وحياً في المنام، ورؤيا الأنبياء وحي يستيقظ حقيقة على الأرض. فما الذي جرى في المنام؟

فتاة وحرير ليالي الحج

في ليلة من ليالي توافد الناس للحج، وقبل عامين من الهجرة كان ﷺ نائماً، فجاءه في المنام رجل مرتين.. يحمل ابنة صاحبه الصديق أبي بكر (عائشة) رضي الله عنها.. يحملها (في سرقة من حرير[1] فيقول: هذه امرأتك. فأكشفها فإذا هي أنت[2]. فأقول: إن كان هذا من عند الله يمضه)[3].

الزواج بعائشة وسودة

كانت هذه الرؤيا وحياً من الله.. مَنَّ به على رسول الله ﷺ فضلاً منه.. لم يسع إليه ﷺ، بل ساقه إليه.

تقول عائشة رضي الله عنها: (لما ماتت خديجة رضي الله عنها جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون. قالت: يا رسول الله، ألا تزوج؟ قال ﷺ: «من؟» قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال ﷺ: «فمن البكر؟» قالت: ابنة أحب خلق الله عز وجل إليك، عائشة بنت أبي بكر. قال رسول الله ﷺ: «ومن الثيب؟» قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول. قال ﷺ: «فاذهبي فاذكريها علي».

لكن عائشة مخطوبة

فدخلت بيت أبي بكر، فقالت: يا أم رومان[4] ماذا أدخل الله عليكم من الخير

(١) قطعة حسنة من الحرير.
(٢) يخاطب ﷺ في هذا الحديث زوجته عائشة رضي الله عنها.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (١٩٥٣/٥). ومعنى يمضه: أي يتمه.
(٤) هي أم عائشة رضي الله عنها.

والبركة. قالت أم رومان: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت أم رومان: انتظري أبا بكر حتى يأتي.

فجـاء أبو بكر. فقالت: يـا أبا بكر ماذا أدخل عليكم من الخير والبركة. قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قال أبو بكر: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه. فرجعت إلى رسـول اللـه ﷺ، فذكرت له ذلك. قال ﷺ: «ارجعي إليه فقولي لـه: أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي».

فرجعت فذكرت ذلك. قال أبو بكر: انتظري. وخرج.

قالـت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد وعداً قط فأخلفه لأبي بكر، فدخل أبو بكر رضي الله عنه على مطعم بن عدي، وعنده امرأته - أم الفتـى[1]- فقالت: يا ابن أبي قحافة، لعلك مصب[2] صاحبنا - مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟

قال أبو بكر للمطعم بن عدي: أقول هذه تقول؟ قال المطعم: إنها تقول ذلك[3].

فخرج من عنده، وقد أذهب الله عز وجل ما كان في نفسـه من عدته التي وعده. فرجع فقال: ادعي لي رسول الله ﷺ.

فدعته، فزوجها إياها - وعائشة يومئذ بنت ست سنين.

ثم خرجت، فدخلت على سودة بنت زمعة، فقالت: ماذا أدخل الله عز وجل عليك من الخير والبركة. قالت سودة: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه.

قالـت: - وودت - ادخلـي إلى أبي فاذكري ذاك لـه، وكان شـيخاً كبيراً قد أدركه السـن، قد تخلف عن الحج. فدخلت عليه، فحييته بتحية الجاهلية[4]. فقال: من هذه؟

---

(١) أي أم الفتى التي خطبت له عائشة.

(٢) الصابئ من ترك دينه وقد خافت أم الفتى ان يدخله ابو بكر في الإسلام بعد زواجه.

(٣) جـاء في رواية أن المطعم (أقبل علـى امرأته فقال لها: ما تقولين، فأقبلت على أبي بكر، فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليك تصبئه وتدخله في دينك؟ فأقبل عليه أبو بكر، فقال: ما تقول أنت؟ فقال المطعم: إنها لتقول ما تسمع. فقام أبو بكر وليس في نفسه من الموعد شيء. انظر سيرة الذهبي (٢٨١).

(٤) في رواية عند الذهبي: فقلت له: أنعم صباحاً.

قلت: خولة بنت حكيم. قال: فما شـأنك؟ قلت: أرسلني محمد بن عبد الله ﷺ أخطب عليه سودة. قال: كفء كريم. ماذا تقول صاحبتك؟ قلت: تحب ذاك. قال: ادعيها إلي.

فدعيتها. قال: أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم. أتحبين أن أزوجك به؟ قالت سودة: نعم. قال: ادعيه لي. فجاء رسول الله ﷺ إليه، فزوجها إياه. فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج، فجعل يحثي في رأسه التراب. فقال بعد أن أسلم: إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة)[1].

ودخلت سودة بنت زمعة بيت رسول الله ﷺ.. أول امرأة بعد خديجة، وكانت مثل خديجة، حيث سبق لها الزواج برجل قبل رسول الله ﷺ، وربما كانت أسن منه. أما عائشة الصغيرة، فالزواج في سنها كان معروفاً ومعتاداً، بل كانت مخطوبة لابن المطعم بن عدي، وها هي تحدثنا فتقول: (تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل مخرجه إلى المدينة بسنتين، وأنا بنت سبع سنين)[2].

دخل ﷺ على سودة، لكنه لم يدخل على عائشة في مكة أبداً، أما سودة فالتحقت ببيته ﷺ.. تصلح من شأنه، وترعاه وتزيح عنه الكدر والأذى الذي يلاحقه في شوارع مكة كظله.

عروس ولكن

أصبح ﷺ عروساً يبتهج بحياته الجديدة، كما تبتهج زوجته به، لكنهما عريسان للكفاح.. للنضال. يريدان جعل الأرض كلها أعراساً وأفراحاً.

حمل ﷺ ثياب عرسه واتجه نحو تجمعات القوم من جديد، فلن يكون للعرس لذة والناس محرومون من لذة الإيمان، فالتوحيد كالماء .. كالهواء. لا بد أن يدخل كل بيت،

---

(١) سنده حسن. رواه أحمد ٦-٢١٠ وغيره عن محمد بن عمرو بن علقمة حدثنا أبو سلمة ويحيى قالا: وظاهره الإرسال، لكنه جاء متصلاً كما في سيرة الذهبي حيث قال يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: قالت عائشة. وهو ممن روى عنها وهو حسن من أجل ابن علقمة فهو حسن الحديث. وقد جاء الحديث متصلاً عند الطبراني ٢٣-٢٤.

(٢) تزوجها في مكة لكنها لم تزف إليه ﷺ إلا في المدينة، والحديث رواه البخاري ومسلم.

ويعمـر كل قلب، وعلى حامله أن يحفر القناة بمعوله.. بيديه بأظفاره. فالناس عطاش والأرض جفـاف. اتجه ﷺ إلى قبائـل العرب.. يرافقه أبو بكـر الصديق وابن أخيه الشـاب علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فكانت هذه القصة المنسـوجة بالأشعار والأنساب:

في خيام ربيعة

يقول علي رضي الله عنه: (لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه علـى قبائل العرب، وأنا معه، وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم، أبو بكر وكان مقدماً في كل خير، وكان رجلاً نسـابة - فسـلم، وقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة.

قال أبو بكر: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامها، أي من لهازمها[1]؟

فقالوا: من الهامة العظمى.

فقـال أبو بكر رضي الله عنه: وأي هاماتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذهل الأكبر؟ قـال أبو بكر: منكـم عوف الذي يقال له: لا حر بوادي عـوف؟ قالوا: لا. قال: فمنكم جساس بن مرة، حامي الذمار[2] ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم بسطام بن قيس، أبـو اللواء، ومنتهـى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: فمنكم الحوفزان، قاتل الملوك، وسـالبها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف، صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: أخوال الملـوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: أصحاب الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال: فلسـتم من ذهل الأكبر، أنتم من ذهل الأصغر.

فقام إليه غلام من بني شيبان يقال له «دغفل» حين تبين وجهه فقال:

إن علـى سـائلنا أن نسـله   والـعـبـو لا نـعـرفـه أو نجـهـلـه

يا هذا.. قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئاً، فممن الرجل؟ قال أبو بكر: أنا من قريش.

---

(١) اللهزمة عظم في اللحى تحت الحنك. أي من أشرافها.
(٢) أي ما يحمي كالأهل والعرض والمال.

فقال الفتى: بخٍ.. بخٍ، أهل الشـرف والرياسـة. فمن أي القرشيين أنت؟ قال أبو بكر: ولد تيم بن مرةٍ.

فقال الفتى: أمكنت والله الرامي من سـواء الثغرة، أمنكـم قصي[1] الذي جمع القبائل من فهر، فكان يدعى في قريش مجمعاً؟ قال أبو بكر: لا. قال: فمنكم هشام[2] الذي هشـم الثريد لقومه، ورجال مكة مسـنتون عجاف؟ قال: لا. قال: فمنكم شـيبة الحمـد: عبد المطلب[3] مطعم طير السـماء، الذي كان وجهـه القمر يضيء في الليلة الداجيـة؟ قال أبو بكر: لا. قال: فمن أهل الإفاضة[4] بالناس أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الحجابة[5] أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل السـقاية[6] أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الندوة[7] أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الرفادة[8] أنت؟ قال: لا.

فاجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام الناقة، راجعاً إلى رسول الله ﷺ، فقال الغلام:

يهضبـه حينـاً وحينـاً يصدعـه   صـادف در السيل دراً يدفعه

أما والله لو ثبت لأخبرتك من قريش، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال علي: يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة. قال أبو بكر: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة، إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق)[9].

وعند مفروق وقومه

قـال علي رضي الله عنـه: (ثم دفعنا إلى مجلس آخر، عليهم السـكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، فسلم. فقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة.

---

(١) جد النبي ﷺ.

(٢) كل هؤلاء أجداد رسول الله ﷺ.

(٣) كل هؤلاء أجداد رسول الله ﷺ.

(٤) انصراف الحجاج من عرفات.

(٥) حجابة الكعبة.

(٦) السقاية: حياض لعبد قصي توضع بفناء الكعبة. يسقى فيها الماء العذب للجميع.

(٧) دار النـدوة كانـت قريش تقضي فيها أمورهـا، ولم يكن يدخلها من غير أولاد قصـي إلا من بلغ أربعين سنة.

(٨) الرفادة: أموال تخرجها قريش من أموالها في كل عام يصنع منه طعام للحجاج.

(٩) سنده قوي يأتي تخريجه في نهاية القصة.

فالتفت أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر الناس، فيهم مفروق بن عمرو، وهاني بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك.

وكان مفروق قد غلبهم جمالاً ولساناً، وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته[1]، وكان أدنى القوم مجلساً، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق بن عمرو: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة. فقال أبو بكر: كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال المفروق: إنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يدلنا[2] مرة، ويدلي علينا أخرى، لعلك أخا قريش؟ فقال أبو بكر: قد بلغكم أنه رسول الله؟ ألا هو ذا. فقال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذاك، فإلى ما تدعو يا أخا قريش؟

فتقدم رسول الله ﷺ، فجلس، وقام أبو بكر يظله بثوبه، فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وإلى أن تؤوني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله الغني الحميد». فقال مفروق ابن عمرو: وإلامَ تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ[3] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

فقال مفروق بن عمرو: وإلام تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾.

فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك[4] قوم كذبوك وظاهروا عليك. وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا.

---

(١) عظم الصدر.
(٢) أدل الإنسان بحجته: احتج بها وأحضرها.
(٣) الفقر.
(٤) كذب.

فقال هانئ بن قبيصة: لقد سمعت مقالتك يا أخا قريش، إني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا على دينك، لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، أنه زلل في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن يعقد عليهم عقداً، ولكن نرجع وترجع وننظر. وكأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى بن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى بن حارثة: سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب في جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتك على دينك، وإنا إنما نزلنا بين صريين اليمامة والسمامة، فقال رسول الله ﷺ: ما هذان الصريان. فقال المثنى: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه مغفور، وعنده مقبول، وإنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا قرشي مما يكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب. فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم. أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذلك.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1].

ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر وهو يقول: يا أبا بكر أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم.

قال علي رضي الله عنه: فدفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا، حتى بايعوا رسول الله ﷺ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ، وقد سر بما كان من أبي بكر ومعرفته بأنسابهم)[2].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

(٢) سنده قوي رواه البيهقي في الدلائل ٢-٤٢٢ واللفظ له، وأبو نعيم ٢٨٢ من طرق عن أبان بن =

ففي خيمة المفروق لا عطاء.. لكن مجلس المفروق كان آخر الأحزان.. لم يحث في الوجوه.. شتماً ولا تراب.. رطباً طرياً كان مجلس المفروق.. يوحي بأن في الصحراء.. قلباً وماءً.. نبعاً يرطب العروق.. يشدها نحو السماء.

لقاء الأنصار

دفع ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى خيام الأوس والخزرج.. القادمين من حرة يثرب، فكان لقاء الغرباء بالغرباء.. جدد الدنيا وحول التاريخ، وأعاد للإنسانية المطحونة مكانتها.

(لما لقيهم رسول الله ﷺ. قال لهم: ممن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال ﷺ: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانت الأوس والخزرج أهل شرك، وأصحاب أوثان، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالت اليهود: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم[1].

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله عز وجل، قال بعضهم لبعض: يا قوم اعلموا والله أن هذا الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه لمَّا دعاهم إلى الله عز وجل، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد

= تغلب، عن عكرمة، عن ابن عباس عن علي. وأبان بن تغلب الربعي ثقة وقال النسائي: ثقة، لكنه قد عرف بالتشيع. قال الحافظ: (التشيع في عرف المتقدمين: اعتقاد تفضيل علي على عثمان.. وأما التشيع في عرف المتأخرين فهو الرفض المحض، فلا تقبل رواية الرافض الغالي ولا كرامة) وهذا الرجل ليس من الرافضة، ولذلك قال الحافظ في التقريب ثقة تكلم فيه للتشيع. وعكرمة: ثقة مر معنا كثيراً. وقد تكلمت عن الحديث وطرقه بأطول من هذا في (تخريج أحاديث السيرة). وقد قال الحافظ في الفتح: وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن. انظر فتح الباري (٧١/١٥) وقول القسطلاني في المواهب: أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم بإسناد حسن.

(١) إرم: قوم منهم عاد، وقيل: مدينة لهم. وهذه العبارة موجودة في توراة اليهود حتى اليوم.

تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله عز وجل أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا)[1]. ولما وصلوا إلى يثرب.. تسللوا إلى قلوب بعض قومهم، فاستجابوا لهم وأسلموا، فصار في تلك الديار من يعبد الله وحده لا شريك له، ويصلي على رسول الله ﷺ. فلما كان موسم الحج التالي قدمت قوافل يثرب من المشركين تحج مكة، وكان بين الركب مطايا للموحدين.. مطايا للأنصار مشوا إلى رسول الله ﷺ بعد انقضاء شعائر الحج.. غسلوا أيديهم من دماء الثارات والعنف الجاهلي بماء زمزم الطاهر.. غسلوها ومدوها لرسول الله ﷺ طاهرة.. يبايعونه ليلاً، وعيون مكة نائمة عما يجري على أرض العقبة، أي على أرض منى، وفي ليلة من ليالي رمي الجمرات.

العقبة الأولى

وعندما رأى ﷺ أيديهم تصل إليه إذعاناً وامتثالاً لله ورسوله.. قال لهم: (تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا... ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)[2].

فبايعوه وشدت الأيدي للنهوض بالحق، وبذله للجميع.. لشعوب الأرض جميعاً. والرجال المبايعون في العقبة الأولى كانوا قلة. يقول أحدهم وهو عبادة بن الصامت: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً)[3].

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه رواه البيهقي ٢-٤٣٣ وأبو نعيم ٢٩٨ والطبراني. حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه: لما لقيهم، فالأشياخ هم الذين قابلوا رسول الله ﷺ، وعاصم بن عمر روى عن بعض الصحابة، وهو تابعي ثقة.

(٢) رواه البخاري، ٣-١٤١٣. وفي الفراغ كلمة ولا تزنوا.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ابن هشام ٢-٥٧ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني،=

بيعة حملها الأنصار وابتهجوا بها، وكانت فخرهم عندما يلوح الرجال بإنجازاتهم.

يقول أحدهم واسمه كعب بن مالك: (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها)[1].

وممن شهد العقبة: جابر بن عبد الله الأنصاري القائل: (أنا وأبي وخالي من أصحاب العقبة)[2] والقائل: (شهد بي خالاي العقبة)[3].

تلك بيعة حطمت جدراناً سوداء تحجب عن الدنيا أنواراً للآخرة.. بيعة توقظ.. بيعة تهز هذا الإنسان الرث الملتحف ببقايا السنين المظلمة.. تقول له: هذا ربك فاعبده وحده، وأنت خليفته وسيد كونه، فاجعله ربيعاً يبتسم. وهذا مالك منثور في كل مكان.. ابحث عنه والتقطه، ودع غيرك يبحث، ولا تمدن يديك إلى ما في أيدي الغير.. حتى تكون خليفة وسيداً للكون أيضاً. وتزوج فالحب أنفاس الحياة، فلا تلوثها برائحة البغايا المنتنة. إنها بيعة تلاحق ذلك الرجل المتجه كالغضب نحو المقابر.. تمسك به وتهز كتفيه وتصرخ في وجهه: ويحك قف ما هذا الذي تحمله على ظهرك قاصداً به نحو المقابر؟ ويحك.. قف، إنه ما زال حياً.. إنها ابنتك ونبض قلبك! ماذا جنت حتى تهيل التراب عليها؟ وهي شاخصة تبلل لحيتك وقبرها بدموع تناشدك شيئاً من حنان.

مبادئ عظيمة قبض عليها الأنصار بأيديهم، وحملوها إلى يثرب، فلما أروها بعض قومهم قدموا إلى مكة طمعاً في مثلها فكان: (يأتيه الرجل، فيؤمن به، فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام)[4]. ويبتهجون بتلك المبادئ التي غرسها في أعماقهم هذا

= عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابجي، عن عبادة بن الصامت، ابن إسحاق سمع من شيخه الثقة يزيد تهذيب ١١-٣١٨ ومرثد تابعي ثقة التهذيب ١٠-٨٢ وابن عسيلة رحمه الله رحل إلى رسول الله ﷺ فوجده قد مات، وقد وثقه العجلي التهذيب ٦-٢٢٩.

(١) حديث صحيح. (البخاري -مناقب الأنصار).

(٢) حديث صحيح. رواه (البخاري -مناقب الأنصار).

(٣) حديث صحيح. رواه (المصدر السابق).

(٤) سنده صحيح. رواه أحمد ٣-٢٢ وغيره من طريق: ابن خثيم عن أبي الزبير أن جابر حدثه: أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس ثقة وهو مدلس لكنه سمع من جابر هنا وعبد الله بن عثمان بن خثيم ثقة. قاله النسائي وابن سعد والعجلي وزاد ابن معين: حجه.

الدين المدهش.. حفظت لهم أعراضهم وأموالهم وأطفالهم، وأذابت ما بينهم من صدأ الجاهلية.. كحبات المطر يمتزجون سيلاً يغيث الصحراء. لا فرق بينهم، لكن أكرمهم عند الله أتقاهم، ومع ذلك كانوا بحاجة إلى معلم يقرأ عليهم كتاب الله، فكان:

مصعب بن عمير في يثرب

لقد (بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك، فيدعو الناس بكتاب الله، فإنه أدنى أن يتبع. فبعث إليهم رسول الله ﷺ «مصعب ابن عمير» أخا بني عبد الدار، فنزل في «بني غنم» على أسعد بن زرارة، فجعل يدعو الناس سراً، فيفشو الإسلام ويكثر أهله، وهم في ذلك مستخفين بدعائهم)[١].

غربة مصعب

لم تخل حياة هذا المعلم الغريب من المعاناة، فهو بعيد عن مكة.. بعيد عن رسول الله ﷺ. ظهره مكشوف للجميع ولا يملك شيئاً.. لا أهلاً، ولا مالاً، ولا سلاحاً.. كل ما يملكه رسالة ربه.. هي زاده وسلاحه.. يقتحم الأهوال بها.. لا يأبه إن ضرب أو مات، فما خرج من مكة يبحث عن حطام الدنيا، بل كان يتحسس حطام القلوب والأرواح، ليجمعها من جديد.. كان يحمل الحياة نحو هوة الموت ليردمها، ثم يزرعها للجميع.. خضراء أشرقت يثرب بمصعب بن عمير، لكن من يحملون في صدورهم غلا جاهلياً ساءتهم تلك البهجة وذلك الاخضرار، فأخبروا سيداً لهم ليضع للأمر حداً، ولمصعب ومن معه نهاية يقفون عندها، وكان اسم سيدهم هذا (سعد بن معاذ، فأتاهم في لأْمَتَه[٢] معه الرمح، حتى وقف عليهم فقال لأسعد بن زرارة: علام تأتينا في دورنا بهذا الوحيد الفريد الطريح الغريب، يسفه ضعفاءنا بالباطل، ويدعوكم إليه، ولا أراكم بعدها بشيء من جوارنا.

فرجعوا. ثم إنهم عادوا الثانية لبئر مرق[٣] أو قريباً، فأخبر بهم سعد بن معاذ، فتواعدهم توعداً دون الوعيد الأول.

---

(١) حديث حسن بالشواهد وتخريجه في الحديث الذي يليه فهو جزء منه.

(٢) عدة الحرب.

(٣) بئر من آبار المدينة، وبداية هذا الحديث عند هذا البئر كما جاء في أول القصة: إن أسعد ابن زرارة أقبل هو ومصعب بن عمير حتى أتيا بئر مرق، أو قريباً منه، فجلسا هناك، وبعثا إلى رهط من أهل الأرض، فأتوهم مستخفين، فبينا مصعب بن عمير يحدثهم ويقص عليهم، وأخبر بهم سعد بن معاذ، فأتاهم في لأمته، الرمح.. إلخ.

فلما رأى أسعد بن زرارة منه ليناً قال: يا ابن خالة، اسمع من قوله، فإن سمعت منكراً فاردده بأهدى منه، وإن سمعت حقاً فأجب إليه. فقال سعد: ماذا يقول؟ فقرأ عليه مصعب بن عمير: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقال سعد بن معاذ: ما أسمع إلا ما أعرف.

فرجع وقد هداه الله تعالى، ولم يظهر لهم الإسلام حتى رجع إلى قومه، فدعا بني الأشهل إلى الإسلام، وأظهر إسلامه، وقال: من شك فيه من صغير أو كبير، أو أنثى أو ذكر، فليأتنا بأهدى منه نأخذ به، فوالله لقد جاء أمر لتحزَّنَّ فيه الرقاب.

فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد بن معاذ ودعائه، إلا من لم يذكر، فكانت أول دور من دور الأنصار أسلمت بأسرهم، ثم إن بني النجار أخرجوا مصعب بن عمير واشتدوا على أسعد بن زرارة، فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ، فلم يزل عنده، ويهدي الله على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة، وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم، وكانت المسلمون أعز أهلها، وصلح أمرهم، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ)[1].

عاد المقرئ إلى معلمه ونبيه ﷺ.. يبشره بأن يثرب قد ملئت دروبها بحطام الأصنام.. يبشره بأن أبوابها مشرعة للشمس والهواء.. للقلوب المحبة المبتسمة، وللأيدي تصافح.. يبشره بأن التوحيد ينعش أجواء يثرب، فلقد عادت الحياة إليها من جديد.

أما قريش فقد كانت أسوأ مما تركها عليه.. لقد تحولت في وجه رسول الله وصحبه إلى سدود صلبة، وأقفال لا مفاتيح لها. كان المشركون صمتاً مخيفاً يفوح مكيدة وخبثاً، أما الموحدون فكانوا صمتاً متفائلاً ينتظرون لقاء الأنصار في العقبة الثانية.

---

(١) خبر ليس بحديث وسنده مرسل عند أبي نعيم ٣٠٦ وهو مرسل عروة، وروى مرسلاً عن الزهري، لكن للخبر شاهد عند ابن إسحاق (ابن هشام ٢/٦٠): حدثني عبد الله بن المغيرة بن معيقيب، وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وهذان تابعيان ثقتان ولبعض الخبر شواهد صحيحة مر بعضها.

حان موعد الحج، فتداعى الحجيج وسالوا من كل فج نحو بيت ربهم، لكن الكعبة لـم تكـن تنتظر إلا وفداً قادماً مـن حرة يثرب، فهم وحدهـم لا يحملون أصناماً، ولا يعلقون تمائم.. إنهم يحملون توحيداً تعشقه وطال شوقها إليه.

الشـاعر كعب بن مالك أحد هؤلاء الموحدين يحمل شعراً.. يحمل طهراً ويحدثنا فيقول: (خرجنا في الحجة التي بايعنا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومنا، ومعنا «البراء بن معرور» كبيرنا وسـيدنا، حتى إذا كنا بظاهر «البيداء» قال: يا هؤلاء تعلمون أني قد رايت رأياً، والله ما أدري توافقون عليه أم لا؟

فقلنـا: وما هو يا أبا بشـر؟ قال: إني قد أردت أن أصلي إلـى هذه البنية[1]، ولا أجعلها مني بظهر. فقلنا: لا والله لا تفعل، والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام. قال البراء بن معرور: فإني والله لمصل إليها.

فكان إذا حضرت الصلاة توجه إلى الكعبة، وتوجهنا إلى الشـام حتى قدمنا مكة، فقال لي البراء بن معرور: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسـول الله ﷺ حتى أسـأله عما صنعته في سفري هذا، فلقد وجدت في نفسي منه بخلافكم إياي.

فخرجنا نسأل عن رسول الله، فلقينا رجلاً بالأبطح. فقلنا: هل تدلنا على محمد بـن عبـد الله بن عبد المطلب؟ فقال: فهل تعرفانه إن رأيتماه؟ فقلنا: لا والله ما نعرفه - ولم نكن رأينا رسـول الله ﷺ - فقال: فهل تعرفـان العباس بن عبدالمطلب؟ فقلنا: نعم. وقد كنـا نعرفه، كان يختلف إلينا بالتجارة، فقال: فإذا دخلتما المسـجد فانظرا العباس، فهو الرجل الذي معه.

فدخلنا المسـجد فإذا رسـول الله ﷺ والعباس ناحية المسجد جالسين، فسلمنا، ثم جلسـنـا، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال العباس: نعم. هذا البراء بن معرور سـيد قومه، وهذا كعب بن مالك. فوالله ما أنسـى قول رسـول الله ﷺ: الشـاعر؟ قال العباس: نعم. فقال له البراء: يا رسـول الله إني قد كنت رأيت في سـفري هذا رأياً، وقد أحببت أن أسـألك عنه لتخبرني عما صنعت

(١) يعني يريد استقبال الكعبة عندما يصلي.

فيــه. قال ﷺ: «وما ذاك؟» قال البراء: رأيت أن أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها.

فقال له رســول اللــه ﷺ: قد كنت على قبلة. لو صبرت عليهــا. فرجع إلى قبلة رســول اللــه ﷺ)[1] ورجع هو ومن معه إلى رحال قومهــم. وفي أواخر أيام الحج هذه تجهز الأنصار لموعد رسول الله ﷺ السرِّي في ليلة رمي الجمرات:

العقبة الثانية

يقول كعب بن مالك: (وقد واعدنا رســول الله ﷺ العقبة أوســط أيام التشريق، ونحــن ســبعون رجلاً للبيعة، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حــرام «أبو جابر» وإنه لعلى شــركه، فأخذناه فقلنا: يا أبا جابر، والله إنــا لنرغب بك أن تموت على ما أنت عليه، فتكون لهذه النار غداً حطباً، وإن الله قد بعث رسولاً يأمر بتوحيده وعبادته، وقد أسلم رجال من قومك، وقد واعدنا رسول الله ﷺ للبيعة.

فأســلم وطهر ثيابه، وحضرها معنا، فكان نقيباً، فلمــا كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا، فلما استثقل الناس في النوم تسللنا من قريش تسلل القطا[2]، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة، فأتانا رسول الله ﷺ، وعمه العباس، ليــس معه غيره، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، فــكان أول متكلم، فقال العباس: إن محمــداً منا حيث قــد علمتم، وهو في منعة من قومه وبــلاده، وقد منعناه، ممن هو على مثل رأينا فيه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم تخشــون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه في قومه، فإنه في منعة من عشــيرته وقومه. فقلنا: قد سمعنا ما قلت. تكلم يا رسول الله.

فتكلم رســول الله ﷺ، ودعا إلى الله عز وجل، وتلا القرآن، ورغب في الإســلام، فأجبناه بالإيمان به والتصديق له، وقلنا له: يا رســول الله خذ لربك ولنفســك. فقال: إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم.

---

(١) انظر تخريجه في الحديث التالي فهو جزء منه.

(٢) نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.

فأجابه البراء بن معرور فقال: نعم، والذي بعثك بالحق ما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا أقواماً حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فقال رسول الله ﷺ: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم»

فقال البراء بن معرور: ابسط يدك يا رسول الله نبايعك.

فقال رسول الله ﷺ: «اخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً». فأخرجوهم له.

فكان نقيب بني النجار: أسعد بن زرارة.

وكان نقيب بن سلمة: البراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام.

وكان نقيب بني ساعدة: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو.

وكان نقيب بني زريق: رافع بن مالك بن العجلان.

وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع.

وكان نقيب القوافل بني عوف بن الخزرج: عبادة بن الصامت.

وفي الأوس من بني عبد الأشهل: أسيد بن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان.

ونقيب بن عمرو بن عوف: سعد بن خيثمة.

فكانوا اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا)[1] فامتزجت القلوب والأيدي في مهرجان حب وولاء، تلك الأيدي كانت في تمازجها تخنق مخلوقاً مخيفاً لا يُرى ولا يُسمع.. حشته بيعة العقبة الثانية جمراً محرقاً، فصرخ يدعو جيوشه المشركة لتطفئ ما به من حريق، لقد كان ذلك الصارخ هو عدو الإنسانية كلها:

---

(١) انظر تخريجه في نهاية هذا الخبر، وهو حديث صحيح.

الشيطان يصرخ

يحاول إيقاف غطيط المشركين علهم يتنبهون لما يجري حولهم. يقول كعب بن مالك: (فصرخ الشيطان على العقبة بأبعد - والله - صوت ما سمعته قط، فقال: يا أهل الجباجب[1]، هلاًّ لكم في مذمم[2] - ما يقول محمد- والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب[3] العقبة، هذا ابن أزيب، أما والله لأفرغن لك. ارفضوا[4] إلى رحالكم».

فقال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بني سالم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا إلى رحالكم».

فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلة من قريش، فيهم: الحارث بن هشام[5] فتى شاب وعليه نعلان جديدان، حتى جاءوا في رحالنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن ينشب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم؟

فانبعث من هناك من قومنا من المشركين، يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما فعلناه، وأنا أنظر إلى أبي جابر (عبد الله بن عمرو بن حرام) - وهو صامت - وأنا صامت.

فلما تثور القوم لينطلقوا، قلت كلمة كأني أشركهم في الكلام: يا أبا جابر أنت سيد من ساداتنا، وكهل من كهولنا، لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟

فسمعه الفتى، فخلع نعليه فرمى بهما إلي، وقال: والله لتلبسنهما. فقال أبو جابر: مهلاً أحفظت لعمر الله الرجل - يقول أخجلته - أردد عليه نعليه.

---

(١) أسماء منازل بمنى، وسميت به لأن كروش الأضاحي تلقى فيها أيام الحج. اللسان.

(٢) هكذا كان الحاقدون المشركون يسمونه ﷺ، فيقولون مذمماً بدلاً من محمد.

(٣) شيطان اسمه أزب العقبة.

(٤) ارفضوا، أي تفرقوا إلى رحالكم.

(٥) الحارث هذا هو أخو أبي جهل، وأبو جهل هو عمرو بن هشام.

فقلت: والله لا أردهما، فَأْلٌ صالح، والله إني لأرجو أن أسلبنه)[1].

أمـا جابر بن عبد الله الأنصاري فيقص أحداث العقبة الثانية فيقول: (بعثنا الله عـز وجل له ﷺ من يثرب، فيأتيه الرجل منا، فيؤمن بـه ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسـلمون بإسـلامه، حتى لم يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط من المسـلمين، يظهرون الإسـلام، ثم بعثنا الله عز وجل وائتمرنا واجتمعنا - سبعين رجلاً منا، فقلنا: حتى متى نذر رسـول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا شعب العقبة، فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين، حتى توافينا عنده، فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعك؟

قال ﷺ: «بايعوني على السـمع والطاعة في النشـاط والكسـل، وعلى النفقة في العسـر واليسـر، وعلى الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، وعلـى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين رجلاً سناً، فقال: رويداً يا أهل يثرب. إنا لم نضرب إليه أكباد المطايا إلا ونحن نعلم أنه رسـول الله. إن إخراجه اليوم: مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم[2] السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السـيوف إذا مسـتكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسـكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله عز وجل؟ فقلنا: أمط[3] يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها. فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة)[4].

---

(١) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٢-٤٤٤: حدثني معبد بن كعب ابن مالك بن القين، أخو بني سـلمة، عن أخيه عبد الله، عن أبيه كعب بن مالك. شـيخ ابن إسـحاق، ثقة من رجال الشيخين، وأخوه ثقة له رؤية. التقريب ٣١٩.

(٢) أي تضربكم وتشد عليكم.

(٣) أي ابعد.

(٤) إسناده صحيح. رواه أحمد (٣/٣٣٩) والبيهقي (٢/٤٤٢) من طرق عن: عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير: أنه حدثه جابر بن عبد الله.. ابن خثيم ثقة. انظر التقريب (١/٤٣٢) وأبو الزبير تابعي مدلس لكنه صرح بالسماع من جابر وهو محمد بن مسلم بن تدرس وحديثه صحيح.

شمس جديدة كالذهب، وصباح منعش كالمطر، ورواحل الأنصار تودع البطاح.. تحمل عهداً.. تحمل حباً لمحمد.. تنثر منه للتلال للكثبان.. تنعش به الأجواء.. تبشر به التائهين على صفحة الأرض كلها.

أما قريش فالأيام تزيد في جنونها، وطغاتها حارت بهم الدروب. كلما أغاروا على مسلم ضعيف لم يجدوه.. لم يجدوا في بيته سوى الجدران.. سوى الرياح تنوح داخله باكية تبحث عن أحبتها، فلا تجدهم، أما الأبواب فكانت تصطفق.. تضطرب كقلب عاشق مهجور، فلن تعانق بعد اليوم تلك الأيادي المتوهجة بالوضوء. ما الذي حدث يا مكة..؟ ماذا فعلت بك تلك الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ؟

رؤيا

رآها ﷺ، فأسر بها إلى أصحابه المثقلين بقيود قريش. قال لهم: (إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان[1].

فهاجر من هاجر قِبَلَ[2] المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة.

فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال ﷺ: «نعم».

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف[3] راحلتين كانتا عنده: ورق السمر[4] - وهو الخبط - أربعة أشهر)[5].

جاءت هذه الرؤيا تبعث الأمل من جديد، بعد أن ضاقت مكة واصطكت جبالها على الموحدين.. بعد أن أصبح الموت يتلصص عليهم، ويرقبهم في الزوايا والممرات متوثباً يريد الفتك بهم وبدينهم، فلم المكوث في هذا الاختناق؟

---

(١) الحرة أرض ذات حجارة سوداء كأنها أحرقت بالنار.

(٢) نحو..

(٣) أطعمها العلف.

(٤) شجرة الطلح.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

هجرة عمر بن الخطاب
وعياش وهشام

قصة نسج أحداثها وتضحياتها عمر وعياش وهشام رضي الله عنهم، وساهم في مآسيها أبو جهل وأخوه الحارث.

يقول عمر رضي الله عنه: (اتعدت لما اجتمعنا للهجرة أنا و «عياش بن أبي ربيعة» و «هشام ابن العاص»: الميضأة[١] - ميضأة بني غفار - فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحباه. فحبس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف[٢]، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما- حتى قدما علينا المدينة، فكلماه، فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك؟

فرق لها، فقلت له: يا عياش، والله إن يريدك القوم إلا عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت.

قال عياش: إن لي هناك مالاً فآخذه. قلت: والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

فأبى إلا أن يخرج معهما. فقلت له لما أبى علي: أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ذلول[٣] فالزم ظهرها، فإن رابك[٤] من القوم ريب فانج عليها. فخرج معهما عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطرق قال أبو جهل بن هشام: والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ قال عياش: بلى.

فلما أناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عديا عليه وأوثقاه، ثم أدخلاه مكة، وفتناه، فافتتن، فكنا نقول: والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً، ولا يقبل توبة. قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم، وكانوا يقولون ذلك

---

(١) أي تواعدنا في مكان يقال له (الميضاة).
(٢) أي أرض قباء.
(٣) سهلة الانقياد.
(٤) أصابك الشك.

لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم وفي قولنا لهم وقولهم لأنفسهم: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص. قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى، أصعد بها وأصوب[2] حتى فهمتها، فألقي في نفسي أنما نزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت، فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة)[3].

قصة كان عمر فيها بطلاً.. شهماً.. بعيد النظر.. يعرف من يكون طاغوت قريش الملقب بـ (أبي جهل) وألاعيبه، لذلك مد يديه مفتوحتين يتناثر منهما ماله وناقته.. يبذلها بسخاء افتداءً لأخيه من المجهول المخيف، لكنَّ أخاه كان رقيق القلب تجاه أمه، فنجحت التمثيلية ووقع عياش في الأسر والحزن، وحاصرته جبال مكة حتى اقتربت من أضلاعه، وطوته الأيام بالهموم حتى نزل الفرج من الله.. كلمات تشرح الصدور، وتغرس فيها الآمال من جديد. ولم يكن عياش وهشام وحدهما في المعاناة من الهجرة.

امرأة اسمها هند بنت أبي أمية (أم سلمة) كانت حزناً ينزف في طريق الهجرة.. أم سلمة كانت غريبة تبحث عن أرض كالحب.. كالأمان تجد نفسها بها وعليها.. مناضلة هامت على وجهها تبحث عن حياة حقيقية تليق بمسلمة مثلها.. لا ترضى بالذل ولا بالتخلف معها. ركبت البحر إلى الحبشة بصحبة زوجها العظيم (أبي سلمة رضي الله عنهما)، وركبته ثانية عائدة إلى مكة بعد أن لاح في الأفق أمل للحرية في أجواء مكة. عادت وزوجها فوجدا مكة أكثر ظلمة، وأكثر أنياباً، ولما سمعا بأن في حرة المدينة أذرعاً وقلوباً مفتوحة، وشمساً مشرقة.. التفتا إليها لعل هذا الهم ينفض عن قلبيهما، وسارا نحو مدينة الإسلام الجديدة.. لا يعلمان ماذا تخبئ الجبال خلفها، ولا أي حزن كانت تغطيه رمال الطريق.

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٢) صعد النظر أي نظر إلى أعلاه وصوبه أي خفضه.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٢.٤/٨٥) فقال: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال: اتعدت لما أردنا الهجرة.. وهذا الإسناد صحيح ورجاله ثقات أعلام معروفون، وابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه نافع.

تقول رضي الله عنها: (لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني «سلمة بن أبي سلمة» في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد «رهط أبي سلمة»[1] فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابني «سلمة» بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي: سنة أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها. فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

ورد بنو عبد الأسد - أي عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله.. أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان[2] بن طلحة بن أبي طلحة -أخا بني عبد الدار- فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. فقال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وابني هذا. قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت أستأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري، فقدمه فرحله ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي. حتى أقدمني

(١) أي قومه.
(٢) أسلم هذا الشهم فيما بعد.

المدينـة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو ابن عوف بـ (قباء) قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف.

فكانت أم سلمة رضي الله عنها تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم مـا أصاب أبا سـلمة، وما رأيت صاحبـاً قط كان أكرم من عثمان بـن طلحة)[1]. في غربة الدروب والأسـفار لا طفل لا حبيب.. لا ظل لا أشـجار.. عام بلا نهار.. عام بلا أقمـار.. في الأبطح المـزروع بالرماح والقضبان.. هند تموت.. في كل سـاعة تموت، والشرك شـرطة تحاصر الأنفاس.. وترفض العبور تقفل المكان، وتفسح الطريق عبر غابة الأكفان. للحزن والرمضاء والزمام.. عثمان يخطف الزمام.. وينقش الشـهادتين والوعود.. كي يعود.. لأنهر الحياة والإسلام.. لا بد أن يعود. فإن بين جوانح هذا الشهم إسـلاماً مكتوف اليدين.. يحتاج إلى شـرارة تحرق قيده، وتزيح ركام الجاهلية الجاثم على أنفاسه.

وعندما وصلت أم سلمة عرفت الناس بنفسها، فلم يصدقوا أن ابنة رجل بارز مثل أبيهـا تهاجر وحدها، حيث تقول رضي الله عنها: (أنها لما قدمت المدينة أخبرتهم أنها إبنة أبي أمية بن المغيرة، فكذبوها ويقولون: ما أكذب الغرائب. حتى أنشـأ ناس منهم إلـى الحج، فقالوا أتكتبـين إلى أهلك؟ فكتبت معهم. فرجعو إلـى المدينة يصدقونها، فازدادت عليهم كرامة)[2].

مأسـاة كانت أم سلمة.. مآسي كانت دروب الفرار من الاضطهاد إلى بلد الحرية المفتوح، لكن ماذا عن سـيد المهاجرين؟ هل سـيبقى وحيداً فـي مكة وبيوت أصحابه خالية إلا من بكاء الريح؟ ترى متى سيهاجر؟

---

(١) رواه ابن إسحاق ابن هشام ٢-٨٠ وقد صرح بالسماع من والده، عن سلمة بن عبد الله عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة: والد ابن إسحاق (يسار) ثقة. أما سلمة فهو تابعي وثقه ابن حبان فيحتاج إلى مزيد من التوثيق وقد أوردته لأن سلمة روى عنه عدد من ثقات التابعين وأعلامهم ومنهم: الثقة الثبت عمرو بن دينار، وعطاء بن أبي رباح وهو ثقة فقيه فاضل ووالد ابن إسـحاق. التهذيب ٤-١٤٨ ولأنه يروي هذا الخبر عن جدته.

(٢) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٦ - ٢٣٥ أخبرنا ابن جريج قال أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الحميد بن عبد الله بن أبي عمرو والقاسم بن محمد بن عبد الرحمن أخبراه أنهما سمعا أبا بكر بن عبد الرحمن يخبر أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته.

رسول الله يؤمر بالهجرة

قال أحد الصحابة: (كان رسول الله ﷺ بمكة، فأُمر بالهجرة، وأنزل عليه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾[1].

وبعـد نزول هــذا الأمر الكريم اتجه ﷺ نحو صاحبه أبي بكر في سـرية تامة.. متلثماً، وفي وقت يلوذ الناس ببيوتهم، وتخف وطأتهم على الطرقات والدروب لشـدة الحـر والرمضاء. في هــذا الوقت الذي يتجول فيه السـموم واللهـب وحدهما عبر الطرقات.. كان ﷺ يطرق باب أبي بكر الصديق بحذر شـديد، فتقول عائشــة رضي الله عنها: (فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً[2] - في ساعة لم يكن يأتينا فيها - فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعةإلا أمر. فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج من عندك».

فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسـول الله. قال ﷺ: «فإني قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: «الصحابة»[3] بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»)[4]. أى سأدفع قيمتها.

هذا ما كان يفعله رسـول الإسـلام ﷺ، أما أعداء الإسـلام والحياة.. طواغيت قـريـش، فكانوا في تلك الأيام في شـغل وهـم ومكـائد ينسـجون خيوطها في مكان يقال له:

---

(١) سنده حسن. رواه أحمد ١-٢٢٣ حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، وقد مر معنا تخريجه، وقال ابن كثير بعد أن ذكره: قال الترمذي: حسن صحيح. سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٦ - ٢٣٥ أخبرنا بن جريج قال أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الحميد بن عبد الله بن أبي عمرو والقاسـم بن محمد بن عبد الرحمن أخبراه أنهما سمعا أبا بكر بن عبد الرحمن يخبر أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته

(٢) متغطياً بثوب متخفياً عن أعين قريش.

(٣) أي أريد صحبتك في هذه الهجرة.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٥).

دار الندوة

حيث تحولت قريش في اجتماعاتها الحاسـمة إلى حمم من الغضب.. دار الندوة تحولت إلى بركان ثائر يريد رأس رسـول الله ﷺ بأي ثمن، فقد أيقنت قريش بأنه لا محالـة خارج إلى مدينة الإسـلام الجديدة متلحقاً بأصحابـه. فالوضع مخيف جداً، وقريش يخيفها مسـتقبلها المجهول إن انتصر عدوها، لذلك اجتمعت في يوم أسـمته (يـوم الزحمة) الذي تحدث عنه أحد الصحابة فقال: (لمـا اجتمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة، ويتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بت[1] له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سـمع بالذي اتعدتم لـه، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأي ونصح، قالوا: أجل، فادخل.

فدخـل معهم، وقد اجتمع فيها أشـراف قريش كلهم مـن كل قبيلة: من بني عبد شمس: شيبة وعتبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب.

ومـن بنـي نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي، وجبيـر بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل.

ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة.

ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام.

ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام.

ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج.

ومن بني جمح: أمية بن خلف. ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد كان، وما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا.

---

(١) البت: هو الكساء الغليظ.

ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهيراً، والنابغة، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه منه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره ثم تشاوروا.

فقال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا، فإذا خرج فوالله ما نبالي إلى أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. قال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه فنستريح، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، ورضوا منا بالعقل[1]. فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل. هذا الرأي لا رأي لكم غيره،

فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له)[2].

---

(١) أي الدية.

(٢) حديث حسن بطرقه، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه رواه الطبري ٢-٣٧٠ من عدة طرق، صرح فيها بالسماع. سمعه من الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا الطريق لا يفرح به لأن فيه الكلبي تالف، أما الطريق الثانية: الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة، عن مقسم، عن ابن عباس. والحسن هذا متروك، أما الطريق الثالثة فرجالها ثقات: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبير عن ابن عباس، ومجاهد إمام تابعي ثقة معروف وعبد الله بن أبي نجيح ثقة، لكنه ربما دلس أي أنه قليل التدليس، وللحديث شواهد تجعله حسناً لا شك، فقد رواه عبد الرزاق عن قتادة (٣٨٩/٥) مرسلاً وهذا شاهد يكفي، كذلك له شواهد عند الواقدي عن علي وعائشة وسراقة. والواقدي متروك.

ذلك ما أسفر عنه يوم الزحمة، أما بيت أبي بكر حيث تزحم الحكمة بالحماس بالتخطيط، فلم يكن أقل نشاطاً مما يحدث في دار الندوة، فالكتمان والصمت والعمل الدؤوب شعار للجميع.

تقول عائشة: (فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين)[1]، فتاتان من فتيات الإسلام يواجهن الموت ليل نهار.. يردن بذلك وجه الله، وينشرن أذرعهن طريقاً لمدينة الإسلام.. هاتان الفتاتان ليستا وحدهما من بين شباب الإسلام. كان هناك شاب عظيم طرح للموت جسداً باعه لله يفتدى به رسوله ﷺ ذلك هو:

علي بن أبي طالب على فراش الموت

فعندما اتفق الطغاة على تحديد ليلة ينكسون فيها سيوفهم في ذلك الجسد الطاهر.. ثمانية سيوف، وربما أكثر تتلمض.. تريد أن تستحم بدمائه ﷺ.. تريد إطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كان فوق كل حبة رمل سيف لأعدائه.

أرسل الجبار سبحانه وحياً يحمله جبريل (فأتى جبريل رسول الله ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فلما كان العتمة من الليل اجتمعوا على بابه، فترصدوه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي، واتشح[2] ببردي الحضرمي الأخضر، فنم فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام)[3]، فامتثل الشاب لأمر سيده ﷺ، واتشح بالبرد، وكان على استعداد ليتشح بالدماء، فقد علمه الإسلام كيف يبذل روحه لله وحده.. علمه كيف يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه. وخرج رسول الله ﷺ متسللاً، وبعد خروجه (جاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله، فقال: يا نبي الله. فقال علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري، وقد مر معنا أوله. ومعنى أحث الجهاز أي أسرعه، والجراب وعاء يوضع فيه الطعام والنطاق هو الحزام.

(٢) أي تغط.

(٣) جزء من حديث طويل مر معنا وهو عن اجتماع دار الندوة وهو حسن بالشواهد.

فانطلـق أبـو بكر فدخل معه الغار، وجعـل علي يُرْمَى بالحجارة كمـا كان يُرْمَى نبي الله ﷺ وهو يتضور[1]، قد لف رأســه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح، ثم كشـف رأسه، فقالوا: إنك للئيم، كان صاحبك نرميه فلا يتضور، وأنت تتضور، وقد استنكرنا ذلك)[2].

إذاً حدث تغيير بسـيط في خطة الهروب، فبعد أن علم ﷺ بالمؤامرة لم ينم على فراشـه، بل تسـلل ﷺ بعد تخطيط محكم وخدعة بارعة انطلت على جميع الأغبياء والأذكياء منهم.. على كل سـيف صلت قد سـل خلف بابه، ولم تكتشف أكداس الكفر خلـف الجدار ما حل بهـم، إلا بعد أن تنفس الصبح في وجوههم.. يوقظهم ليسـخر منهـم. علي بن أبي طالـب كان فتى يعدل أمـة، ويخدع طواغيتاً قـد ركمهم الحقد وحنطهم الغل حول الباب، بينما كان رسول الله ﷺ يأخذ بيد صاحبه أبي بكر عند بئر ميمون، ويواصلان المسـير على عجل.. يدفعان الجبال عنهما دفعاً. بالتأكيد لم يكونا في نزهة خارج مكة.. لقد كانا مسـرعين يقصدان جبلاً عيَّناه وحدداه، ورسماه ضمن خارطة الهجرة وخطة الهروب، وهما الآن يعجان إليه.

لكن أبا بكر الصديق لم يكن على عادته.. كان مرتبكاً.. طريقة سيره توحي بذلك، فهو يحمل روحه في إحدى يديه، ويحمل باليد الأخرى خمسـة آلاف درهم هي كل ما يملكـه من مال، لكن حركته واضطرابه لا توحي بأنه خائف على روحه، ولا على ثروته فمم كان يتوجس؟

ماذا دهاك يا أبا بكر

أتدرون ماذا كان يفعل (يكون أمام النبي ﷺ مرة، وخلفه مرة، فسـأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى[3] من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت

---

(١) يتلوى.

(٢) سـنده جيد، رواه أحمد ١-٣٣٠ من طريقين، عن أبـي عوانة، حدثنا أبو بلج، حدثنا عمرو بن ميمون عن ابن عباس. أبو عوانه اسمه: وضاح بن عبد الله اليشكري، ثقة ثبت. التقريب ٥٨٠ وشيخه يحيى بن سليم حديثه حسـن إذا لم يخالف، أما عمرو بن ميمون أبو عبد الله الأودي، فهو مخضرم مشـهور وثقة عابد. التقريب ٤٢٧.

(٣) أي تهاجم وتصاب.

أن تؤتى من خلفك)[1] واستمر أبو بكر في تصرفه حتى عندما لامست أقدامه صخور الجبل.. وعند الصعود فعل ذلك (حتى انتهى إلى الغار من ثور).

عندهــا فعل أبو بكر مــا لا يفعله غيره (قال أبو بكر: كما أنت[2]. حتى أدخل يدي فأحسه وأقصه فإذا كانت فيه دابة أصابتني قبلك)[3].

كان أبو بكر طيفاً من الحنان.. ســحابة حب تظل رســول الله ﷺ.. كأني به يود لو صنع من جسده درعاً يحمي به رسول الله ﷺ حتى يصل إلى أحبابه المنتظرين في حرة المدينة، وبين نخيلها، فلا عجب أبداً بعد هذا أن يحمر وجه عمر بن الخطاب غضباً على رجــال فضلوه على أبي بكر.. لقد كان يعرف من هو أبو بكر، فقد (ذكر رجال على عهد عمر فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر، فقال رضي الله عنه: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من عمر. لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشــي ســاعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن رســول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشــي ســاعة خلفي، وساعة بين يدي؟» فقال: يا رسول الله أذكر الطلب[4] فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد[5] فأمشي بين يديك. فقال رســول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان شــيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال رضي الله عنه: نعم. والذي بعثك بالحق.

فلمــا انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رســول الله حتى اســتبرئ، فدخل فاســتبرأ ثم قال: انزل يا رســول الله. فنزل ثم قال عمر رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر)[6].

---

(١) حديث حســن بالشــواهد: رواه البغوي (ســيرة ابن كثير ٢/٢٣٧) وابن هشام، حدثنا داود الضبي، حدثنا نافع بن عمر الجمحي، عن ابن أبي مليكة. داود الضبي ثقة التقريب ١٩٩ ونافع ثقة ثبت التقريب ، وابن أبي مليكة تابعي ثقة أدرك ثلاثين صحابياً واســمه عبد الله بن عبيد الله، إذاً فالنص مرســل، لكن يشهد له حديث عمر، وســند آخر جاء عن عمر. في دلائل البيهقي (٢/٤٧٧) وســنده مرســل عن الحسن رواه ابن هشام فالحديث حسن.

(٢) أي قف مكانك.

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

(٤) من يسيرون خلفه طلباً لدمه.

(٥) أي من يترصدون له في طريقه.

(٦) إسناده صحيح لولا الانقطاع، رواه البيهقي (٢/٤٧٦) أخبرنا موسى بن الحسن بن عباد، حدثنا عفان بن مســلم حدثنا الســري بن يحيى، حدثنا محمد بن ســيرين. وهؤلاء ثقات لكن الإمام ابن سيرين لم يدرك عمر، افلحديث حسن بما قبله، وبأحاديث ستأتي إن شاء الله.

ذاك جسـد لأبي بكر باعه لله، وتلك دماء تشـخب منه تنقش على جدران الغار حب الله وحب رسوله ﷺ: (لقد كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغار، فأصاب يده حجر، فقال:

إن أنـت إلا إصبـع دميـت وفـي سـبيل الله مـا لقيـت)[1]

ذاك جسد أبي بكر، أما مال أبي بكر.. كل ماله، فمنثور بين يدي رسول الله ﷺ فـي الغار.. حمله كله، وقدمه لرسـول الله ﷺ كله، حتى صـار بيت أبي بكر في مكة خالياً إلا من الإيمان، وفتيات رباهن الإسلام وأبو بكر.

هذه إحداهن.. الشابة المجاهدة العظيمة، التي هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثم عادت لتواصل جهادها.. لم يمنعها ثقل حملها بابنها البكر من المساهمة في أعظم رحلة غيرت وجه الأرض والعالم.. ذات النطاقين أسـماء بنت أبي بكر تقول: (لما خرج رسـول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسـة آلاف درهم أو سـتة آلاف -فانطلق بها معه، فدخل علينا جدي: أبو قحافة[2]- وقد ذهب بصره - فقال: والله إني لأراه قد فجعكم[3] بماله مع نفسـه. قلت: كلا يـا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة[4] في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليهـا ثوبـاً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هـذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان يترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا إبلاغ لكم، قالت أسماء رضي الله عنها: ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكن هذا الشيخ بذلك)[5].

إنهن بنات أبي بكر.. والدهن شـريد طريـد، مختبىء فوق أحد الجبال.. مختبئ بدينـه ونبيـه ﷺ، وهذه هي أحوال الدعاة بين مهاجر بعيد عن الأهل والمال، وأسـير تفتك به أظافر قريش، ومطارد لا يدري ما تطوى له التلال والدروب. أما قريش ف:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه عباد حدثه عن جدته أسماء. ويحيى وعباد ثقتان التهذيب ١١-٢٣٤ و٥-٩٨ وابن إسحاق لم يدلس .

(٢) اسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب التيمي، مات ابنه أبو بكر قبله وقد أسلم.

(٣) آلمكم وآذاكم، أي أنه لم يترك لكم لا نفسه ولا ماله.

(٤) الكوة: الخرق في الجدار.

(٥) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عن جدته أسماء. يحيى وعباد ثقتان التهذيب ١١-٢٣٤ و٥-٩٨ وابن إسحاق لم يدلس .

تفجرت كالشظايا في كل مكان.. بين الأودية والشعاب.. بين الجبال والدروب.. تقلب الصخور، وتفتح الأبواب وتهز أغصان الأشجار، وتسأل المسافرين وتستجوب الرعاة.. تتمنى لو تسأل الريح وحبات الرمال.. تبحث عنك يا رسول الله.. تتمنى لو وقعت في قبضتها ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[1].

يقول أحد الصحابة: (تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه.

فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً - يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه)[2].

وعن غضب قريش يحدثنا حفيد أبي بكر فيقول: (إن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج، وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة، وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين، فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ فإما أن يقتلوه، وإما أن يسجنوه، وإما أن يخرجوه، وإما أن يوثقوه، فأخبره الله عز وجل بمكرهم فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[3].

وبلغه ذلك اليوم الذي أتى فيه رسول الله ﷺ دار أبي بكر أنهم مبيتوه إذا أمسى على فراشه، وخرج من تحت الليل هو وأبو بكر قِبَل الغار بثور، وهو الغار الذي ذكره

---

(١) سورة الأنفال.

(٢) رواه أحمد (١-٣٤٨): حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس: قال ابن كثير: هذا إسناد حسن، وليس كما قال رحمه الله، ففي الإسناد: عثمان الجزري، وحديثه حسن بالشواهد فيحتاج إلى شاهد.. وهذا الشاهد جاء عن الحسن البصري مرسلاً ذكره ابن كثير في سيرته (٢/٢٣٩)، أما ذكر الحمامتين اللتين باضتا على فم الغار فلم أعثر له على سند قوي.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

اللــه عــز وجل في القرآن، وعمــد علي بن أبي طالب فرقد على فراشــه، يواري عنه العيون)[1]. وقد وصل المشــركون ورســول الله ﷺ نائم على فراشــه، وكانوا ينتظرون خروجــه، وللتأكــد كانوا يرمونه بالحجارة فلا يتحرك، ثم أمــر ﷺ علياً أن يرقد في فراشــه فكانت هذه القصة التي يرويها ابن عم رســول اللــه ﷺ وابن عم علي رضي الله عنهم حيث يقول: (شــرى عليٌّ نفســه، ولبس ثوب ا لنبي ﷺ ثم نام مكانه، وكان المشــركون يرمون رسول الله ﷺ وقد كان رســول الله ﷺ ألبسه بردة، وكانت قريش، تريد أن تقتل النبي صلى الله عليه وآله وســلم فجعلــوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده، وجعل علي رضي الله عنه يتضور، -فنظروا- فإذا هو علي فقالوا: إنك للئيم، إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور، ولقد استنكرناه منك)[2].

(فســألوه عن النبي ﷺ، فأخبرهم أنه لا علم له بــه، فعلموا عند ذلك أنه خرج، فركبــوا في كل وجه يطلبونه، وبعثــوا إلى أهل المياه يأمرونهــم، ويُجعلون لهم الجُعل العظيــم[3]. وأتــوا على ثور الذي فيه الغار، الذي فيه رســول الله ﷺ، وأبو بكر، حتى طلعوا فوقه، وســمع النبي ﷺ أصواتهم، فأشــفق[4] أبو بكر عند ذلك، أقبل على الهم والخــوف، فعنــد ذلك قال لـه النبي ﷺ: «لا تحزن إن اللــه معنا». ودعا، فنزلت عليه ســكينة من الله عز وجل: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5].

إذاً فقــد حامت الأقدام حــول فم الغار.. لحظات تحبــس الأنفاس وتتقلب فيها القلوب والأبصار، ويهجم الخوف والرعب من شــقوق الغار.. من سيوف الطغاة، ومن العيون التي تتطاير إجراماً وشرراً لكن:

---

(١) إســناد مرســل ويشهد له ماسبق، ويرفعه إلى درجة الحسن. انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢-٤٦٥)، وانظر كذلك مغازي عروة للعلامة الأعظمي (١٢٨).

(٢) ســنده حسن. رواه الحاكم ٣-٤ والطيالســي وأحمد (١١٨/٢٣) عن أبي عوانه عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس. أبو عوانة: الوضاح وهو ثقة ثبت التقريب ٢٩٠ وشيخه حسن الحديث فهو صدوق ربمــا أخطــأ وهو تابعي صغير مر معنا ، وابن ميمون فهو ثقة مخضرم مشــهور، وقد مر معنا قبل قليل.

(٣) أي جائزة عظيمة مقابل ذلك.

(٤) أي خاف، ومعروف خوف أبي بكر وأنه على رسول الله ﷺ أولاً وأخيراً كما مر معنا.

(٥) سورة التوبة. وما بعده وما قبله يقويه لأنه مرسل عروة عند البيهقي ٢-٤٧٨.

الله ثالثهما

يصف الصديق تلك اللحظات الحاسمة، ويحدث الجميع بما جرى من حوار هامس بينه وبين حبيبه ﷺ فيقول: (نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»)(١).

إذا كان الأمر كذلك، فوالله لو سار مع قريش كل الأحياء، وتشققت المقابر فخرج الأموات.. يسحبون أكفانهم خلف أبي جهل.. يقلبون معه حجارة الأرض، ويجتثون أشجارها، ويزحزحون جبالها ما قدروا على اثنين الله ثالثهما، فكيف تقدر قريش.. هذا أمر لن يحدث أبداً ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

وانحدرت قريش من ذلك الجبل تلهث وتلهث، وتتصبب عرقاً وهزيمة.. تدحرجت أمامها كبرياؤها وغطرستها، وأعلنت لمن حولها عن هزيمة قاسية تلقتها من محمد ﷺ، وأعلنت عجزها وضعفها، فبدأت بالاستجاد وطلب العون من أي شخص كان، عله ينجح في القبض على محمد ﷺ فهو:

مطلوب حياً أو ميتاً

وقد فتحت قريش صناديق الحلال والحرام، وعرضت الهدايا والهبات أمام الجميع.. تقدمها لمن يحضر رسول الله حياً، أو يسحبه ميتاً، أو يحمل رأسه ورأس صاحبه إليها.

أحد الذين سمعوا بالجائزة.. أحد الذين فركوا أيديهم طمعاً فيها رجل اسمه: سراقة بن مالك.. يحدثنا فيقول: (جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية، كل واحد منهما، من قتله أو أسره)(٣).

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٧١٢ ومسلم ٤-١٨٥٤ واللفظ له.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٣) جزء من حديث صحيح طويل سيمر معنا. رواه البخاري.

إذاً فقريش قد استنفرت رجالاتها وأموالها، وتوجهت إلى كل العرب ضد رسول الله ﷺ تستحثهم وتغريهم، لكن رسول الله ﷺ كان أذكى من الجميع، وقد أعد خطة محكمة لتذهب ضربات قريش في الهواء.. خطة تجعلها لا تجني من ركضها سوى الغبار والعرق، أما تنفيذ هذه الخطة فقد بدأ حالما انحدرت قريش من جبل ثور، فرسول الله ﷺ لم ينحدر بعدها. لقد قرر أن يمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام.. هذه الأيام الثلاثة ستكون محمومة بالبحث والتفتيش، وهي كفيلة بالفتِّ من عزيمة الكفار، وتسريب الإحباط إلى نفوسهم. لكن كيف سيعرف رسول الله ﷺ وصاحبه ما يجري؟

كان الجواب شاباً من أبناء أبي بكر الصديق أيضاً.. ملأه الإيمان حباً وحماساً وبذلاً.. اسمه: عبد الله بن أبي بكر.. يعيش مع قريش في وضح النهار.. يخالطهم.. يكلمهم.. يسمع منهم.. يلتقط أخبارهم ومشاريعهم، ثم يحملها إذا جن المساء، فيصعد بها الجبل. وفي الغار تكون أخبار قريش ومخططاتها وخرائطها بين يدي رسول الله ﷺ وصاحبه، وقبيل طلوع الشمس عند الفجر، وبعد أن يؤدي الصلاة مع رسول الله ﷺ ينحدر إلى مكة ثانية، ليقوم بمهمته من جديد. وعبد الله لم يكلف في هذه المرحلة إلا بمهمة واحدة.. هي حمل الأخبار فقط، حتى لا يثير شك من يصادفه في طريقه.

أما الطعام، فقد كلف به شاب تربى في بيت أبي بكر أيضاً.. إنه أحد رعاة الغنم، واسمه: عامر بن فهيرة.. كان يسوق غنماته ويسيح معها في نزهة خارج مكة، وهذا أمر طبيعي لا يلفت الانتباه أبداً، فهو راعي غنم ومهمته تقتضي أن يكون خارج المدينة، فكان يحمل الزاد إليهما بعد العشاء، ثم ينصرف عنهما قبل طلوع الشمس أيضاً.

تقول عائشة رضي الله عنها: (فَكَمِنا[1] فيه ثلاث ليال، ويبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر - وهو غلام شاب، ثقف[2]، لقن[3]- فيدلج[4] من عندهما بسحر[5]، فيصبح مع قريش بمكة كبائت[6]، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك

---

(١) اختفيا في الغار.
(٢)حاذقاً: خفيفاً.
(٣) ذكي.
(٤) الإدلاج: هو السير أول الليل، والمراد هنا إنه يسير من عندهما وقت السحر.
(٥) السحر: هو قبيل الصبح.
(٦) أي كأنه نائم في مكة.

حين يختلط الظلام. ويرعى عليهما عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر- منحة[1] من غنم، فيريحها[2] عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما[3]- حتى ينعق[4] عامر بن فهيرة بغلس[5]، يفعل ذلك في كل ليلة من الليالي الثلاث)[6].

إذاً هناك بطلان: أحدهما يكشف تفكير العدو، والآخر يحمل الطعام. لكن هل سيدوم الحال على هذا الوضع؟ لقد اشترى أبو بكر راحلتين فأين هما؟ أعند عبد الله، أم بين أغنام عامر بن فهيرة؟ وكيف سيحصلان عليهما وعيون قريش تدور.. تتلصص في كل مكان؟

لم تكن الإجابة صعبة على رسول الله ﷺ، فقد أعد لذلك خطةً محكمة.. هذه الخطة تقضي بألا تكون الراحلتان عند عبد الله بن أبي بكر، ولا عند عامر بن فهيرة، فلو كانتا عند أحدهما لارتبات قريش وزرعت شكها عيناً تلاحقهما حتى تظفر بما تريد، ورسول الله ﷺ يدرك ذلك كله، ويدرك ما هو أبعد من ذلك، لذلك استخدم كل الوسائل المباحة المتاحة في أرجاء الكون الفسيح له، فاسند لهذه المهمة رجلاً مشركاً، لكنه كان أميناً، واعده ﷺ الليلة الثالثة كي يحضر الراحلتين، وكان هذا الرجل من أعلم الناس بطبيعة الطريق ومسالكه.. يعرف كيف يتسلل بهما بعيداً عن حوافر الشرك ورماحه.

تقول عائشة: (واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل - وهو من بني عبد بن عدي - هادياً خريتاً. والخريت: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاصي بن وائل السهمي - وهو على دين كفار قريش- فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور، بعد ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهما طريق السواحل)[7].

---

(١) عطية.

(٢) المراح: هو ما تأوى إليه الإبل والغنم بالليل.

(٣) اللبن الذي رضفتْ فيه الحجارة المحماة بالنار لينعقد ويثخن وتزول رخاوته.

(٤) النعق: صوت الراعي بغنمه.

(٥) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٧) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

على دروب السـواحل.. الفجر سـار يناضل، والليل صار مخيفـاً، والخوف كان الرواحـل. فهذه الرحلة يحدد نجاحها قيام دولة للإسـلام في يثرب، أو موت حلم ثم البـدء من جديد، والبحث من جديد. يقـول الصديق رضي الله عنه: (أدلجنا من مكة ليلاً، فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا[1]، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل نأوي إليه، فإذا صخرة، فانتهيت إليها، فإذا بقية ظل لها، فسـويته، ثم فرشت لرسـول الله ﷺ فروة، ثم قلت: اضطجع يا رسـول الله فاضطجع، ثم ذهبت أنفض[2] ما حولي هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا براعي غنم يسـوق غنمه إلى الصخرة، يريد منهـا الـذي نريد - يعني الظل- فسـألته، فقلت: لمن أنت يا غـلام؟ فقال: لرجل من قريش فسـماه. فعرفته فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم.

فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب، ثم أمرته أن ينفـض كفيه - فقال هكذا، فضرب إحدى كفيـه على الأخرى - فحلب لي كثبة[3] من لبن، وقد رويت معي لرسـول الله ﷺ أداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن، حتى برد أسفله، فأتيت رسول الله ﷺ فوافقته وقد استيقظ فقلت: أتشرب يا رسول الله؟ فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله.

فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سـراقة بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله. قال: لا تحزن إن الله معنا. فلمـا أن دنا منا، وكان بيننا وبينـه قيد رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسـول الله - وبكيت. فقال ﷺ: «ما يبكيك؟» فقلت: أما والله ما على نفسـي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك.

فدعا عليه رسول الله ﷺ: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها.

---

(١) وقت الظهر.

(٢) أتحسس وأحرس وأراقب المكان.

(٣) قليل.

فوثب عنها. ثم قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجني مما أنا فيه: فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا .. وكذا ..، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلك وغنمك»، ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ)[1].

مَن سراقة هذا، وما الذي أتى به خلف رسول الله ﷺ؟ وكيف عرف أنهم يسلكون طريق السواحل؟

سراقة يتحدث

ويقص كيف علم بمسلك رسول الله ﷺ، بعدما أخبره رجل لمحهم يسيرون بقرب الساحل، وكان ذلك الحديث في مرابع بني مدلج (قوم سراقة) فيقول: (جاء رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر «دية» كل واحد منهما: من قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي - بني مدلج - أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه)[2].

سراقة يبحث عن الدماء والدية

فحالما سمع حديث الرجل تهادت في مخيلته (مائة من الإبل)[3] تدفعها قريش لمن ينثر على الساحل دم رسول الله ﷺ ودم صاحبه.. تخيل سراقة تلك الإبل المائة، وهي تسيل بين الأودية نحوه ليضمها ويلحقها بما يملكه من الأغنام والإبل المنتشرة في طريق المدينة. لذلك حاول إخراس ذلك المتكلم وتثبيط عزيمة السامعين من قومه حتى لا يلحقوا بالمهاجرين فيخسر الإبل الجائزة. لقد قال سراقة لذلك الرجل: (إنهم ليسوا بهم، ولكن رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، يبتغون ضالة لهم)[4].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦١٥) والبيهقي (٢-٤٨٣) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أى رأيت أشخاصاً قرب الساحل.

(٣) جاء ذلك في حديث صحيح الإسناد عند البيهقي (٤٨٧/٢).

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أى ذهبوا يبحثون عن شيء ضاع لنا.

ويواصل سراقة حديثه فيقول: (ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة[1]، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه[2] الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام[3]، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات. ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان[4] ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية.. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[5]، ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمن. فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ)[6] بعد أن أعطى الأمان لذلك الباحث الذي يريد قتله وحز رأسه. معجزة مخيفة ورادعة ما حدث لسراقة، كان يظن نفسه قادرا على بث الرعب في نفسيهما، فعاد يطلب منهما الأمان.

إذاً فرسول الله ﷺ في حصن حصين، ولن تصل إليه أيدي المشركين، فلماذا يقول لسراقة: أخف عنا. لماذا يقولها وهو محاط بهذا الحشدِ من الخوارق، والجنود التي لا يعلمها إلا الله؟

---

(١) الأكمة: هي التل.

(٢) الزج: هو الحديدة التي في أسفل الرمح.

(٣) جمع الزلم، وكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام، وكانوا يكتبون عليها الأمر أو النهي ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً دخل يده فيه وأخرج سهماً، (أي زلماً)، فإذا خرج ما فيه الأمر استمر في عمله، وإن خرج العكس رجع عنه.

(٤) هو الدخان أو الغبار.

(٥) أي لم يأخذا منه شيئاً.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).

إنه يقولها لأنه رسول جاء بمنهج من عند الله ملائم للبشر، وعلى البشر مهمة نشره هنا وهناك، فبجهدهم ينتشر، وعلى البشر أن يركضوا هنا وهناك بحثاً عن الأسباب الموصلة للنجاح، ورسول الله ﷺ في هجرته يرسم خطاً لا يمكن أن ينتشر الإسلام إلا بالسير عليه، ألا وهو فعل الأسباب مع عدم التوكل عليها، بل التوكل على الله وحده.

لقد هاجر ﷺ بعد أن خطط ورسم، وتكتم وتلثم، وسار في الليل والناس نيام، ثم جعل نتائج كل ذلك إلى الله سبحانه، إنه لم يتحدث لأبي بكر قبل الهجرة عن معجزات ستحصل في الطريق، لأنه فعل الأسباب كما طلب منه، ثم فوض أمره إلى الله، إن الهجرة تطبيق عملي لقوله ﷺ: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[1] فإذا أتقنه فقد انتهى دوره، وهذه طاقة البشر لا يكلفهم الله فوق طاقتهم. فإن قبض عليه المشركون وقبضوا على صاحبه، فقد أديا ما طلب منهما ولا شيء عليهما، وإن أكرمهم الله بمعجزة أو خارقة، فذلك فضل من الله. لكن المسلم يأثم إن لم يتقن عمله أملاً في حدوث معجزة أو كرامة تقلب الأوضاع، وعليه أن ينتظر النكسة في أية لحظة تطرق بابه. لقد استوعب رسول الله ﷺ وأصحابه المستضعفون هذه الحقيقة، فدعوا وأسروا واختفوا، ولاقوا ما لاقوا في سبيل ربهم، ولما أقفلت قريش أبواب مكة كلها في وجوههم.. تركوها لهم. غادروها وهي أحب البقاع إلى الله وإليهم. لقد وقف ﷺ يوماً (بالحزوراء في سوق مكة فقال: إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت وقال: علمت إنك خير أرض الله، وأحب أرض الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)[2].

غادرها ﷺ بعد أن ضاقت به، وغادرها الصحابة نحو مدينة مفتحة الأذرع والأبواب.. للهاربين للخلاص.. للحاملين سورة الإخلاص. غادروها إلى مدينة عطوف.. يحن فيها كل شيء.. حتى الجذع يحن إلى رسول الله ﷺ.. حتى الحجارة فيها بادلت الصحابة عشقاً. ألم يلتفت ﷺ إلى جبل أحد فيقول: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[3] إن الهجرة ترافق

---

(١) حديث حسن. انظر صحيح الجامع (٢/١٤٤).

(٢) إسناده صحيح. رواه البيهقي (٢/٥١٨،١٧) من طريق الزهري قال: أخبرني أبو سلمة ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزوراء في سوق مكة وهذا الإسناد صحيح وهو المحفوظ كما قال البيهقي.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري. ٤-١٤٩٨.

الشمس كل صباح.. تحيي الغرباء وتقول لهم: إذا أتقنتم أعمالكم تحولت مدن العالم إلى مدائن للحب والأنصار، وشغف الشجر والحجر بكم، كما شغف جبل أحد بأسلافكم.

واصل الرسول ﷺ وصاحبه المسير، وفي طريقهما شاهدا بعض الأغنام، وشاهدا بينهما الراعي، فطلبا منه السقيا؟

فقال: (ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء، وقد أخرجت، وما بقي لها لبن، فقال ﷺ: «ادع بها». فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب[1] وسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك قط؟

قال ﷺ: «أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟» قال: نعم. قال ﷺ: «فإني محمد رسول الله»، فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ. قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وإنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال ﷺ: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا»)[2].

هذا الراعي المسكين نشأ في الصحراء حتى صار قطعة منها، تهتز ربيعاً وجمالاً عندما يغشاها المطر، وقد اهتز إيماناً عندما رأى المعجزات وحسن الأخلاق تجتاح مشاعره وتفتح عقله، ليفيق من سبات الإشاعات التي نشرتها قريش وأوصلتها إلى مسامعه. هذه الماعز التي لم يكن في ضرعها سوى الجفاف درت حليباً وأنزلت، أما هذا الرجل المطارد المتهم، الذي حلبها فلم يشرب رغم عطشه. لقد أسرت هذا الراعي أخلاق لم يعهدها، يحلب وهو نبي الله، ويسقي منهم دونه، ثم يشرب آخرهم، وهو الذي لو أراد لأدار الله له هذه الأرض ينتقي منها ما يشاء.

أسلم الراعي وآمن، وقرر ترك الصحراء والغنم ما دام بصحبة نبي، لكن خلق النبي ﷺ الكريم، وخوفه على أتباعه من الاضطهاد جعله يريثه إلى أجل لا يعلمه إلا الله، حتى يسمع بقيام دولة الإسلام.

فامتثل الراعي وصبر رغم شوقه ولهفه. امتثل هذا الراعي الذي أظنه:

---

(١) الذي حلب هو رسول الله ﷺ ، ثم سقى الجميع ثم شرب آخرهم.

(٢) إسناده صحيح. رواه البيهقي وأبو يعلى، وانظر تخريج الذي بعده فهو هو.

أبو معبد

الـذي صادفه ﷺ في طريـق الهجرة، فإنه (لما انطلق رسـول الله ﷺ وأبو بكر يسـتخفيان نزلا بأبي معبد، فقال: والله ما لنا شـاة، وإن شاءنا لحوامل، فما بقي لنا لبن، فقال رسـول الله ﷺ: «فما تلك الشاة؟» فأتى بها. فدعى رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عسـاً[1] فسقاه، ثم شـربوا. فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك».

قال: أشـهد أن ما جئت به حق. ثم قال: أتبعك؟ قال رسـول الله ﷺ: «لا». حتى تسمع أنا قد ظهرنا)[2].

وتجاوز رسـول الله ﷺ غنمات أبي معبد، بعد أن ترك أبا معبد ظلاً.. تركه فيئاً يسـتظل به المتعبون.. ربيعاً بعد أن كان حقلاً من الجفاف.. تركه مرشـداً بعد أن كان يخبط في الظلام، وتحرك ﷺ لترحب به بعد مسافة ليست بالقصيرة:

خيمتا أم معبد

(أم معبـد الخزاعية، وكانت برزة جلدة[3] تحتبي[4] بفناء القبة ثم تسـقي وتطعم فسـألوها لحماً وتمراً ليشـتروا منها، فلم يصيبوا عندها شـيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين[5]، مسنتين[6]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة[7]، فقال: ما هذا الشاة يا أم معبد؟

قالت: شـاة خلفها الجهد عن الغنم. قال ﷺ: «بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال ﷺ: «أفتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: بأبي أنت وأمي، نعم. إن رأيت بها حلباً

---

(١) العس: هو القدح الكبير.

(٢) سـنده صحيح. رواه البزار كشـف الأسـتار ٢/٢٠١ وغيره عن عبيد الله بن إياد، حدثنا إياد، عن قيس. عبيد الله صدوق ووالده ثقة التقريب ٣٦٩ و١١٦ وقيس صحابي.

(٣) هي التي لا تحتجب كالشابات رغم عفافها، ومعنى جلدة أي قوية أو جزلة.

(٤) الاحتباء: هو الجلوس مع ضم الفخذين إلى البطن بواسطة الذراعين.

(٥) أي نفذ ما عندهم كأنهم لصقوا بالرمل.

(٦) أصابتهم سنة أي القحط.

(٧) أي جانب الخيمة.

فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها بيده، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شأنها، فتفاجت[1] عليه ودرت واجترت، فدعا بإناء يربض الرهط[2]، فحلب فيها ثجاً[3]، حتى علاه البهاء[4]، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم ﷺ ثم أراضوا[5]، ثم حلب ثانياً بعد حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها وبايعها، ثم ارتحلوا عنها)[6].

عودة أبي معبد

بعد رحيل هؤلاء الأطهار (ما لبثت إذ جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً[7]، يتساوكن هزلاً، مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: من أين هذا والشاة عازب حائل[8].. ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله: كذا.. و كذا. فقال: صفيه لي يا أم معبد.

قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة.. أبلج[9] الوجه، حسن الخلق لم تعبه ثجلة[10]، ولم تزر به صعلة[11]، وسيم قسيم، في عينه دعج[12]، وفي أشفاره عطف[13]، وفي صوته صهل[14]، وفي عنقه سطع[15]، وفي لحيته كثاثة[16]، أزج أقرن[17]. إن صمت فعليه الوقار

---

(١) أي فرجت ما بين رجليها للحلب.
(٢) يربض: أي يروي.
(٣) ثجاً: أي لبناً سائلاً كثيراً.
(٤) هو بريق رغوة الحليب.
(٥) أي شربوا عللاً بعد نهل أي الشرب الثاني.
(٦) انظر تخريجه في نهاية الخبر.
(٧) هزيلة.
(٨) أي لم تحمل.
(٩) مشرق الوجه مسفر.
(١٠) ضخامة البطن واسترخاؤه.
(١١) النحافة.
(١٢) اشتد سوادها وبياضها.
(١٣) الأشفار: طرف جفن العين التي ينبت منها الشعر، أي إنها طويلة حتى انعطفت.
(١٤) وقيل: صحل أي أنه حاد الصوت.
(١٥) سطع: أي طال عنقه.
(١٦) اجتماع وكثرة.
(١٧) أي لا قليل ولا كثير.

وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه من قريب، حلو المنطق.. فصل لا نذر ولا هذر، كأنه منطقه خرزات نظم تحدرن، ربعة[1].. لا بائن من طول، ولا تقتحمه عين من قصر[2]، غصن بين غصنين، هو أنظر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به.. إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود[3]، ولا عابس ولا معتد.

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره. ما ذكر بمكة «ولقد هممت بأن أصحبه» ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون ولا يدرون من صاحبه:

جزى الله رب البيت خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتي أم معبد

هما نزلاها بالهدى واهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد

فيال قصي ما زوى الله عنهم ... به من فعال لا تجازى وسؤدد

ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شائها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلبت ... عليه صريحاً صرة الشاة مزبد

فغادرها رهناً لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد

وأصبح صوت بالمدينة بين السماء والأرض يسمعون ولا يرون من يقوله)[4].

---

(1) وسيط القامة.

(2) أي لا تتجاوزه العين إلى غيره احتقاراً.

(3) مطاع في قومه يسرعون لخدمته.

(4) رواه أبو نعيم في الدلائل – واللفظ له – (1-337) والحاكم (3-9) والطبراني (مجمع الزوائد 6/58) وابن سعد (1/230). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو يعتبره صحيحاً لأسباب هي قوله: إن نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواتر في أخبار صحيحة ذوات عدد، وإن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان، وقد أخذوه لفظاً=

سمع شاعر الحياة الجديدة حسان بن ثابت تلك الأبيات وهو في يثرب، فهاجت شاعريته، وأطلق الشعر يخطف ما لدى كفار قريش من فضائل ويحملها أنواراً نحو مدينة الإسلام الجديدة:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقدس من يسرى إليه ويغتدي

ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد

هداهم به بعد الضلالة ربهم ... فأرشدهم من يتبع الحق يرشد

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا ... عمايتهم هاديه كل مهتدي

وقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد

نبي يرى ما يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مسجد

وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد

ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وبعد أن ودع ﷺ أم معبد أحث السير، وربما صادفه في مسيره آخرون، فكان يواجه كل شخص بأسلوب مناسب، فإن كان المار ممن يخشى منه تسرب الأخبار.. تكفل أبو بكر بالإجابة. ولذلك يقول أحد الصحابة: (أبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، مَن هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني

= بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد، ومنها انه له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة، ومنها إن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه، فأما الإسناد الذي رويناه بسياقه: الحديث عن الكعبين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة، وقد علونا في حديث الحر بن الصباح هذا ما قاله الحاكم رحمه الله. لكن هناك ملاحظات على قوله رحمه الله منها: أن الحديث حسن لكن ليس بهذا النص لشدة ضعف طرقه... خاصة حديث الحر بن الصباح ففي سنده متهم. ومنها: أن الشعر المذكور وأن قائله من الجن ضعيف ويحتاج إلى طرق أخرى تقويه. لكن القصة إجمالا قوية برواية البيهقي والبزار اللتين ذكرهما ابن كثير في السيرة (٢/٢٥٨) وهي رواية مختصرة.

ســبيل الخير)[1] الذي يصل الدنيا بالآخرة، ويحطم الأبواب بينهما، فتشع أنوار الجنة في قلوب المؤمنين ودروبهم.. أينما حلوا أو ارتحلوا.

محطات

مر ﷺ ورفقته بمحطات عديدة تذكرها عائشــة جيــداً فتقول رضي الله عنها وهــي تتحدث عن زوجها وأبيهــا بعد أيام الغار: (هدأت عنهمــا الأصوات، وأتاهما أن قد ســكت عنهما، جاءهما صاحبهما ببعيرهما، فانطلقا وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكر ويعقبه على رحله، ليس معهما إلا عامر بن فهيرة وأخو بني عدي يهديهما الطريق:

فأجاز بهما «في أســفل مكة»، ثم مضى بهما حتى «حاذى بهما الســاحل أســفل من عســفان» ثم اســتجاز بهما حتى عــارض الطريق بعدما جاوز «قديداً» ثم ســلك «الخــرار»، ثم أجاز على «ثنية المرة» ثم أخذ علــى طريق يقال لها «المدلجة بين طريق عمــق وطريق الروحاء» ثم توافوا طريق «العرج» وســلك ماء يقال له «الغابر عن يمين ركوبة» حتى يطلع على بطن «رئم» ثم جاء حتى قدم المدينة على «بني عمرو بن عوف» قبل القائلة)[2].

إذاً فنهايــة تلك المحطات هــي محطة بن عمرو بن عوف، لكن لماذا لم يذهب ﷺ إلى يثرب مباشرة.. لماذا مال إلى بلدة بني عمرو بن عوف المشهورة بـ (قباء). ما شعور الأنصار وهم ينتظرونه على مشــارف يثرب، فتأتيهم الأخبار أن نبيهم في قباء الآن.. أسئلة ملحة والإجابة عند نبي الله ﷺ الذي ودع مكة ولكن.

النبي ﷺ يودع مكة

وَدَّع حبيبتــه وهي لا ترد، ولو أجابت لأبكت من حولها.. ودع حبيبته.. تركها وهو كاره.. حالت الجاهلية بينه وبينها.. لم يستطع البقاء بين أبياتها وجدرانها، فحملها في

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. رواه البخاري (٣٩١١).

(٢) سنده صحيح رواه ابن جرير ٢-٣٧٥: حدثنا علي بن نصر وحدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قالا: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا أبان بن العطار، حدثنا هشــام بن عروة عن عروة عن عائشــة، وعلي وعبد الوارث ثقتان. وعبد الصمد صدوق ٣٥٦ وأبان ثقة ٨٧ وبقية الســند معروف وقد توبع هشــام ومن بعده عند الحاكم (٢-٨).

قلبه وارتحل، وتمر أيام وأعوام، ويكبر ذلك الحب، ويزداد به الشـوق، فيقسم بالله لها أنه ما زال يحبها: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أُخْرِجتُ منك ما خرجت)[١]. (ما أطيبك من بلدٍ وأحبَّكِ إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[٢].

لم يستبدل ﷺ حباً بحب، بل أضاف حباً إلى حب.. وهو في طريقه الآن إلى يثرب.. يثرب!! لا، إنها ليست يثرب، فلا يثرب بعد اليوم.. لقد وهبها قلبه، ووهبها اسماً جديداً.

اسم جديد

فما ذلك الاسم؟ يقول ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب! وهي «المدينة» تنفي الناس[٣] كما ينفي الكير خبث الحديد»[٤].

إذاً فهي منذ الآن ستدعى: (المدينة).. المدينة المنورة بالحب والأشواق والعناق، أما أهلها، فعلى طريق مكة يترددون.. ينتظرون (يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة)[٥].. فرحوا بأصحابه واستقبلوهم، وفتحوا لهم بيوتهم وصدورهم و(لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ، وتوكفوا[٦] قدومه، كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى الحرة ينتظرونه، حتى تغلبهم الشـمس على الظلال ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا، وذلك في أيام حارَّة)[٧].

هـذه هي المدينة المشـتاقة وهؤلاء هم أهلها، أما رسـول الله ﷺ، فقبل وصوله، وفي مسـيره ذلك يلتقي بشابٍ يحبه.. يلتقي بشاب من أبطال الإسلام، إنه زوج (ذات النطاقين) زوج أسـماء بنت أبي بكر الصديق واسمه: الزبير بن العوام، فهل كان قادماً

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد ٣-٣٠٥ وغيره من طرق عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه. أبو سلمة والزهري تابعيان ثقتان.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي وغيره. صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (٢/٩٧١).

(٣) أي تنفي الخبيث من الناس.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (١٨٧١) ومسلم ٢-١٠٠٦ والبيهقي (٢-٥١٩).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٦) أي توقعوه وسألوا عنه.

(٧) سنده قوي رواه ابن إسحاق (تاريخ الطبري ١-٥٧١) حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم بن سـاعدة عن رجال من الصحابة. ومحمد ثقة ٤٧١ وعبد الرحمن ولد على عهد النبي ﷺ وروايته عن الصحابة ويشهد له ما قبله.

من المدينة؟.. لا. لقد كان في الشام.. سافر مع قافلة من قوافل الصيف ثم عاد، وفي طريق عودته (لقي رسـول الله ﷺ في ركب من المسـلمين، كانوا تجاراً بالشام قافلين إلى مكة، فعارضوا رسول الله ﷺ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً)[1]. قبـل ﷺ الهدية من ابـن عمته الزبير، ولبس وصاحبه الثيـاب، وأقبلا على المدينة.. يختلط بياض ثيابهم ببياض السـراب، لكن بعد أن أحرقت الشمس المنتظرين، فعادوا بعد انتظار طويل لبيوتهم.

أقبـل رسـول الله ﷺ وأبو بكر، فلم يرهما أحد مـن الأنصار.. لم يرهما أحد من المهاجرين، ولا حتى من المشـركين عابدي الأوثان، لكـن يهودياً رآهما.. كان فوق حصن قومه، واليهود أناس لا يعيشون إلا في حصون أو حاراتٍ مغلقةٍ عليهم، وما زال جزء منهم كذلك إلى أيامنا هذه. ربما كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأن بقية البشـر لا يسـتحقون شرف الاتصال بهم. سندع اليهود وما يعتقدون لنتابع موقف ذلك اليهودي مما رأى وماذا فعل؟ وماذا جرى للأنصار بعد ذلك؟ وهل دخل ﷺ المدينة أم تريث أم..؟

ماذا حدث.. ماذا حدث

لم يتجه ﷺ إلى المدينة مباشـرة.. هل خاف من يهود؟ هل كان خائفاً من شـيء؟ لا، لكنه مال بخط سيره نحو مكان قريب من المدينة يسمى (قباء) ونزل على أناسٍ من الأنصار يقال لهم (بنو عمرو بن عوف) وهذه هي القصة:

(سـمع المسـلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلمـا أووا إلـى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أُطم[2] مـن آطامهم لأمر ينظر فيه، فبصر برسـول الله ﷺ وأصحابه مبيضين[3] يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب.. هذا جدكم[4] الذي تنتظرون.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

(١) الأطم: هو الحصن.

(٢) أي عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير.

(٣) أي حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه (السيرة الشامية ٣/٢٨٤).

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في «بني عمرو بن عوف» وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك)[١]. أما الأنصار، فقد تحولوا إلى مشاعر تحمل رسول الله ﷺ.. تقله تظله، وتتوهج من حوله، أما قباء فـ:

كيف كانت قباء

كانت تنعم بمحمد ﷺ.. تحتضنه كأمه.. تفخر به على من حولها حتى انتشر الخبر وشاع فوصل إلى يهودي آخر فلم يصبر، لقد أطلق قدميه للريح والفزع.. يتجه بهما نحو ابن عم له كان يجلس بين نخلٍ له فقال: (يا فلان، قاتل الله بني قيلة[٢]، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجلٍ قدم من مكة يزعمون أنه نبي)[٣].

لا أعرف ما حدث لليهودي، لكنني أعلم ما حدث لأحد عبيده.. كان عبده الكادح الحزين فوقه.. فوق نخلةٍ في رأس عذق يعمل.. يتصبب منه العرق والفزع.. سمع الخبر فأخذته رعدةٌ هزته وهزته حتى كاد يسقط من على العذق، لكنه تماسك حتى انحدر منها، وعندما لامست أقدامه الأرض توجه كالفرح نحو حامل الخبر فقال له: (ماذا تقول.. ماذا تقول..؟)[٤] صمت اليهودي الذي حمل الخبر ولم يجبه. لكن سيده أجابه عن هذا السؤال إجابةً يهوديةً.. أجابهُ لكمةً شديدة ثم قال له: (ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك)[٥]. تجرع العبد المسكين الآلام والقهر، وأخرج من صدره اعتذار المساكين وقال: (لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال)[٦].

وعندما خيم الليل على مرابع بني عمرو بن عوف وقباء.. كان شبح ذلك العبد المسكين يتسلل كالظلام في الظلام، وبين طرقاتها المظلمة متخفياً خائفاً.. يتسلل حتى

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).
(٢) قيلة: هو اسم الجدة الكبرى للأنصار.
(٣) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٤) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٥) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٦) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

ظفر بمجلس رسول الله ﷺ وأصحابه وأنصاره. كانت آثار العبودية والقيود والسفر والسنين تجلد وجهه وظهره، وتوشك أن ترتحل أو يرتحل.

دخل هذا الكادح على رسول الله ﷺ ثم قال: (إنه قد بلغني أنك رجلٌ صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا. وأمسك[1] يده فلم يأكل.

فقلت في نفسي: هذه واحدة)[2].

ثم انصرف ذلك الرجل الغريب بعد أن حصل على واحدة! عاد من حيث أتى.. عاد إلى سيده اليهودي. ترى هل أرسله سيده، أم أنه ذهب من تلقاء نفسه؟ وما معنى قوله: هذه واحدة؟ ولماذا انصرف بهذه السرعة؟ لغز محير هذا المسكين القادم من العبودية والمجهول، ولعل الأيام تكشف لنا مزيداً من أسراره.

ذهب المسكين، وذهب الليل وراءه، ومرت أيام (فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد، وصلى فيه رسول الله ﷺ)[3] وصلى فيه أصحابه، وبشر كل من يأتي إلى هذا المسجد ببشرى قالها فيما بعد: (صلاة في مسجد قباء كعمرة)[4].

وبقي ﷺ أربع عشرة ليلة في قباء بين قلوب أهلها الفسيحة، ولما تحرك قلبه نحو المدينة.. بعث رسولاً من أهل البادية إلى أخواله بني النجار يخبرهم بقدومه، فجاءوا متزينين بالفرح والسلاح.

يقول أحد الأنصار: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة، في حي يقال لهم: «بنو عمرو بن عوف» فأقام فيهم «أربع عشرة ليلة» ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا متقلدي سيوفهم وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله)[5].

---

(١) أي كف يده ولم يأكل ﷺ لأنه لا يأكل من الصدقة.

(٢) جزء من حديث طويل صحيح سيمر معنا.

(٣) حديث حسن عدا المحذوف رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٤) حديث صحيح رواه ابن ماجة ١-٤٥٣ من طريقين قويين عن أسيد وسهل.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٣٢) ومسلم.

ويقول رديفه على الناقة أبو بكر رضي الله عنه: (ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً، فتنازعه القوم: أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إني أنزل الليلة على بني النجار، أخوال بني عبد المطلب أكرمهم بذلك»، وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطريق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: جاء رسول الله ﷺ.. جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد.. جاء رسول الله ﷺ، فلما أصبح انطلق حيث أمر)[1] كانت أمسيةً صاخبةً بالهتاف للأضياف.. أمسية صاخبة فشمس محمد تجوب شوارع المدينة.. المدينة تعانق هذا النور المنساب من قباء.. المدينة كلها.. السلاح والرجال والنساء والأطفال... وللأطفال طريقتهم الخاصة في التعبير عن حبهم لمحمد ﷺ. أشرقت الشمس بعد أن نهض الجميع للصلاة.. أشرقت الشمس والأطفال بوجه محمد ﷺ حيث كان يتحرك نحو المكان الذي أمر به.. كان صباحاً منعشاً وجميلاً، وكان موكبه ﷺ يتهادى بين القلوب والبيوت...

الأطفال يركضون.. يقفزون.. يهتفون، وتلك العيون البريئة تبحث خلف الزحام عن صاحب الناقة.. كان الأطفال لوحة من مطر وبراءة.

أنس بن مالك أحد أولئك الأطفال.. يصف فرحته وشغفه وركضه معهم فيقول: (إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد..

وأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد..

فأسعى.. ولا أرى شيئاً.

حتى جاء النبي ﷺ وصاحبه، فكمنا في بعض جدر المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار. فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالوا: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة، حتى إن العواتق[2] لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟.. أيهم هو؟فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٥٠٦/٢).

(٢) أي الفتيات المراهقات.

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد ٣-٢٢٢ حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. هاشم يلقب بـ قيصر وهو ثقة التهذيب ١١-١٨ وسليمان ثقة، وثابت البناني تابعي ثقة. والحديث صححه الذهبي في سيرته ٣٣٣.

ويقول: (شهدت يوم دخل النبي ﷺ، فلم أرَ يوماً أحسن ولا أضوأ منه)[1]، وعبر أنس عن ذلك اليوم بحروف تنبض بالمشاعر فقال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء)[2].

مشاعر.. مشاعر

المدينة في تلك اللحظات كانت تتبختر بالمشاعر.. تتزين بالإسلام.. كانت مدينة منورة بلقاء الحبيب الذي طال الشوق إليه. أحقاً رسول الله ﷺ في المدينة.. يمشي في شوارعها وتصافحه قلوبها وأرواحها.. لحظات يتمنى كل مسلم أن يعيشها، وأن يسكب في حضرتها شيئاً من الدموع.

لقد كان الموكب يتحرك ببطء، فطريقه مزدحم بالقلوب والدموع، وابتسامات الأطفال والتفاتاتهم البريئة السعيدة. أبو بكر كان أسعد الناس وأحظى الناس بعد رسول الله ﷺ بهذا الحب والاحتفال.. يحدثنا فيقول: (ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة، وتلقاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأناجير[3]، واشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر جاء رسول الله.. جاء محمد)[4].

(جاء رسول الله.. جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد)[5].. أحد أطفال الأنصار المبتهجين يتحدث، واسمه البراء بن عازب يقول: (جاء رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء قط فرحهم به، حتى رأيت الولائد[6] والصبيان يسعون في الطرق يقولون: جاء رسول الله)[7].

وعبر الصحابة القادمون من أرض النجاشي عن فرحهم بمحمد ﷺ بأسلوبهم المميز. أنس بن مالك ذلك الطفل السعيد.. طاف المدينة، وطاف حول الموكب، وشاهد

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٥٠٨ وأحمد ٣-٢٤٠ من طريق حماد عن ثابت عن أنس.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح ابن ماجة (١-٢٧٣) للإمام الألباني.

(٣) السطوح.

(٤) حديث صحيح. متفق عليه ورواه أحمد ١-٢واللفظ له.

(٥) جزء من رواية البخاري ومسلم.

(٦) أي البنات.

(٧) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٨٦.

فرح أهلها، ووصف فرح الصحابة من أهل الحبشة فقال: (لما قدم رسول الله ﷺ لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه)[1] ولم يكن الرقص هو الأسلوب الوحيد في التعبير.. كان هناك الغناء بمحمد ﷺ، وبجوار محمد.

الغناء والدفوف والمشاعر شاهدها ﷺ فماذا فعل؟ وماذا قال ﷺ لتلك الفتيات؟

أنس بن مالك أيضاً يحدثنا عن ذلك فيقول: (مر رسول الله ﷺ بحي من بني النجار وإذا جوارٍ يضربن بالدفوف «ويتغنين ويقلن»:

نحن جوار من بني النجار   يا حبذا محمد من جار

فقال النبي ﷺ: «الله يعلم أن قلبي يحبكن»)[2] يا لهذا النبي ما أعظمه، وما أبسطه وأرق مشاعره التي يعلنها للصغير وللكبير.. في البيوت وعلى الطرقات، بل إنه يعلن حبه حتى على الجبال القاسية من حوله.. يمر ﷺ من عند جبل أُحد بالمدينة فيقول: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[3] نبي الله يحب المدينة وأهلها، والمدينة وأهلها.. أشجارها وجبالها يحبون الله ورسوله.. الكرم يسيل، و الدماء تسيل فرحاً به ﷺ، هذا أحدهم يقول: (لما قدم ﷺ المدينة نحرتُ جزوراً)[4].

---

(١) صحح إسناده الإمام الألباني في صحيح أبي داود ٣-٩٣٠) ورواه أحمد ٣-١٦١ من طريق عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس. ورجاله ثقات لكن فيه ضعفاً لأن رواية معمر عن ثابت ضعيفة كما قال ابن معين: إذا حدثك معمر عن العراقيين فخالفه إلا عن الزهري وابن طاوس. وقال مرة: حديث معمر عن ثابت وعاصم وهشام وهذا الضرب مضطرب كثير الأوهام. فإن لم يكن لدى الشيخ ناصر طريق أخرى فهو ضعيف.

(٢) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٥٠٨ وابن ماجة (الصحيح ١-٣٢٠) واللفظ للبيهقي عدا ما بين المعقوفتين فلابن ماجة... وسنده: عيسى بن يونس، عن عوف الأعرابي، عن ثمامة عن أنس.. وعيسى ثقة. انظر التقريب ٤٤١ وعوف بن أبي جميلة ثقة أيضاً. التقريب ٤٣٣ وثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك تابعي ثقة روى عن جده.

(٣) حديث رواه البخاري (٢٨٨٩).

(٤) سنده صحيح. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٩١) حدثنا وكيع، حدثنا شعبة عن محارب ابن دثار عن جابر... وهذا سند كالذهب كله أئمة ثقات لا يسأل عنهم وهو متصل.

ويواصل موكب الحب مسيره في شوارع المدينة وسط مهرجان من السعادة.. زحامٌ من البهجة يحيط برسول الله ﷺ.. اشتد الزحام (فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرقات ينادون: يا محمد.. يا رسول الله، يا محمد.. يا رسول الله)[1].

في المدينة كانت القلوب بيوتاً، وكانت البيوت قلوباً.. كانت الأيدي تمتد إلى الزمام، والعيون البراقة تحتضنه وتعانقه.. تحاول الارتواء منه، فتزداد عطشاً ولهفةً، وتواصل الركض والنداء حتى..

توقفت الناقة

(فقال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟»

فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله: هذه داري.. وهذا بابي.

فقال ﷺ: «اذهب فهيئ لنا مقيلاً».

فذهب فهيأ لهما مقيلاً، ثم جاء فقال: يا نبي الله، قد هيأت لكم مقيلاً.. قوما على بركة الله فقيلا)[2]. وحل ﷺ في دار أبي أيوب وقلب أبي أيوب.. الكل يغبطه.. المدينة كلها تغبطه.. تثمن الشرف الذي حل بين جدران منزله.. المدينة كلها إلا عيوناً كانت تتأمل من بعيد.. وقفت كما وقف عمر بن الخطاب وهو يرقب مشهد النازحين إلى أنهار الحبشة، لكن هذه العيون المتلصصة لم تكن حزينة كحزن عمر، ولا نادمة كندم عمر.. إنها منغمسة في دبق الأحقاد الأسود.. من بين هذه القلوب قلب رجل اسمه:

عبد الله بن أُبي بن سلول
من عبد الله هذا.. وما قصته..؟

كان بين الأوس والحروب حروب مريرة، وثارات أوشكت على إفنائهم، وكان بين تلك الحروب فترات من التعب، والهدنة والفتور.. تنطمر معها جمرة الحرب تحت رماد

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الزهد - حديث الهجرة).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ للبيهقي (٢/٥٢٨).

من التعقل أحياناً، والملل أحياناً، أو التحفز للانقضاض أحياناً أخرى. وكانت السنوات التي بايعوا فيها الرسول ﷺ سنوات من الركود.. كانت المدينة فيها ترقد على بركان هادئ من الثارات والدماء، وفي تلك السنوات تصالح الطرفان مبدئياً على تتويج رجل اسمه عبد الله بن أبي بن سلول، ليكون زعيماً ليثرب، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فرغم الاحتفاء بالهدنة وحقن الدماء، إلا أن المدينة كانت لا تتنفس ابن أبي سلول في هوائها، فهو مجرد هدنة هشةٍ، لا أكثر. وقد سئموا الهدن الهشة.

لقد كانت أجواء المدينة مشبعة بالقادم.. مرطبة بالانتظار.. المدينة وَثَنِيُّوها ويهودها يشعرون بغدٍ هابط لا يحمل على جناحه رجلاً مؤقتاً كابن سلول، أما اليهود فكانوا ينتظرون نبياً يفنون به العرب والوثنيين، ويخلصهم من هذا الشتات المخيف. تأثر بهم بعض الوثنيين من أهل المدينة فكانوا ينتظرونه، ويريدون أن يسبقوا اليهود إليه حتى ولو اضطروا إلى مزاحمة اليهود في حصونهم، وكان من هؤلاء المنتظرين ثلاثة من بني هذل هم:

أسد وأسيد وثعلبة

ثلاثة من الشباب ليسوا من اليهود، انصهروا مع اليهود ليفوزوا معهم بهذا النبي القادم كالصباح، ويحدثنا عنهم رجلٌ من يهود بني قريظة.. رجل عاش مع أسد وأسيد وثعلبة في حصون قريظة.. يحدثنا ويحدث رجلاً جالساً بقربه اسمه عاصم فيقول له: (هل تدري ما كان علامة إسلام ثعلبة بن سعنة، وأسيد بن سعنة، وأسد بن عبيد - نفرٌ من بني هذل ليسوا من بني قريظة ولا بني النضير؟ (كانوا فوق ذاك) نسبهم من بني (هذل) أتوا بني قريظة، كانوا معهم في الجاهلية ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قال عاصم: قلت: لا.

قال: فإن رجلاً من يهود أهل الشام يقال له: (ابن الهيبان)، قدم علينا قبل الإسلام بـ (سنتين) فحل بين أظهرنا، والله مارأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط المطر قلنا له: يا ابن الهيبان قم فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة. فيقولون: كم؟ فيقول: صاعاً تمراً، (أو مدين من شعير) عن كل إنسان. فنخرجها، فيخرج بنا إلى ظاهر حرتنا، فيستسقي

لنا، فوالله ما يبرح من مجلسه حتى يمر السحاب السراح سائلة، ونسقى به، ففعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً، ثم حضرته الوفاة، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض الجوع والبؤس؟ قلنا: الله أعلم. قال: فإني قدمت إلى هذا البلد لتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا يسبقنكم إليه يا معاشر اليهود أحدٌ)[1].

لكن الأنصار سبقوا اليهود فأسلموا، ودعوا رسول الله ﷺ إلى المدينة، واستقبلوه استقبالاً كالحلم، فانهارت أحلام عبد الله بن سلول بالزعامة، بعد أن أدرك أهل المدينة أن وحدتهم لن تدوم بزعامته، ولن تمتد تلك الزعامة في الأعماق والزمان إلا برسالة يخلع الجميع كل ما عليهم ليلبسوها، فتنحوا عنه، وامتدت الأيدي والقلوب إلى الله ورسوله. وكأني بابن سلول يتمنى لو لم يطل به العمر ليرى هذا الاحتفال الجميل، وموقف ابن سلول هذا موقف قاصر، فقد كان بإمكانه أن يصبح زعيماً وعظيماً وخالداً لو صافح رسول الله ﷺ، لكنه أبى وتولى. هذا هو ابن سلول فهل هناك من يشاركه هذا الشعور؟.

أجل.. هناك اليهود الذين تركوا أرض الخمر والخمير من أجله، فهم ينتظرونه منذ سنوات وسنوات، لكن ما الذي حدث؟ كيف ينتظرونه، فإذا رأوه وتحققوا أنه هو رفضوه وعادوه؟

طفلة بريئة لم تلوثها أحقاد اليهود اسمها (صفية بنت حيي بن أخطب) تحدثنا عن موقفهم وسبب عداوتهم، فوالدها زعيم من زعماء يهود، وعمها أيضاً زعيم، أما هي فكانت أحب أولادهم على الإطلاق.. يهشون للقائها.. يبشون في وجهها ويبتسمون، إلا في ذلك اليوم.. ذلك اليوم الذي تذكره صفية جيداً فتقول: (لم يكن من ولد أبي وعمي أحدٌ أحب إليهما مني.. لم ألقهما قط مع ولد لهما أهش إليهما إلا أخذاني دونه.

فلما قدم رسول الله ﷺ قباء، ونزل قرية بني عمرو بن عوف، غدا إليه أبي وعمي «أبو ياسر بن أخطب» مغلسين، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/ ٨٠) وابو نعيم في الدلائل (١/ ٨١) واللفظ له عدا ما بين المعقوفين. حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة. عاصم تابعي ثقة وعالم جليل.. التقريب ٢٨٦ وشيخه صحابي من بني قريظة.

كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى[1]، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم. والله. قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم والله. قال: فماذا في نفسك منه؟. قال: عداوته والله ما بقيت)[2].

ولكن لماذا هذه العداوة.. لماذا هذا الفتور والإحباط؟

إنها العنصرية، فهذا الرجلان يمثلان خطأ يسلكه معظم اليهود.. اليهود المغضوب عليهم، وقد غضب الله عليهم لأنهم يعرفون الحق وينكرونه. جاءهم عيسى فأنكروه، بل حاولوا قتله، وها هو محمد ﷺ بين أيديهم.. يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم يرفضونه، لأن محمداً عربي وليس من أبناء قبيلة (إسرائيل).. إذاً فهو مرفوض، وكما رفض حيي بن أخطب وأخوه الدخول في الإسلام، فقد عاند وكابر يهودي آخر مثلهما.. تنصل من كل وعوده السابقة لليهود ولأهل المدينة، فما هي وعوده السابقة؟ وكيف تنصل منها؟

تلك قصة حضرها طفل آخر مضطجع بفناء أهله، حفظها لنا ثم قصها علينا بعد قدوم رسول الله ﷺ للمدينة.

يوشع يرفض الإسلام

اسم هذا الطفل (سلمة بن سلام بن وقش) وهو يقول: (كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل.. فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل -وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً عليَّ فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي[3] - فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار.. فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان.. أو ترى هذا كائناً، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟

---

(١) مشيٌ فيه فتور وضعف.

(٢) في سنده ضعف، رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو نعيم والبيهقي (٢-٥٣٣) وفي سنده جهالة شيخ شيخ ابن إسحاق عبد الله بن أبي بكر وقد ورد اسم هذا الشيخ عند أبي نعيم وهو جد عبد الله بن أبي بكر... واسمه محمد بن عمرو بن حزم وله رؤية وليس له سماع إلا من الصحابة (التقريب ٢-١٩٥) وحفيده تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين (١-٤٠٥ التقريب) وله شاهد عن الزهري عند البيهقي (٢-٥٣٢).

(٣) المتكلم هو سلمة بن سلام.

قال: نعم.. والذي يحلف به، (لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه، ثم تقذفوني فيه ثم تطينون علي، وأني أنجو من النار غداً[1])[2].

قالوا: ويحك يا فلان فما آية ذلك؟ قال: نبيٌّ مبعوث من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن. قالوا: متى تراه؟

فنظر إليَّ وأنا أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا[3]، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً. فقلنا: ويحك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به (وكان يقال له يوشع)[4].

وطفل آخر اسمه (محمد بن سلمة) يروي حجم الكراهية اليهودية للآخرين، ورفض الحق إن لم يكن مصدره من بني إسرائيل فيقول: (لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد يقال له «يوشع» فسمعته - وإني لغلام في إزار يقول: قد أظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت. ثم أشار بيده إلى «بيت الله» فمن أدركه فليصدقه، فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا، وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغياً)[5] ولم يقتصر اليهود على ذلك، بل أنكروا أن يكون هو النبي المنتظر. قاموا بطمس أسمائه المكتوبة في التوراة، لكن بقيت كلمات حتى اليوم لا تنطبق إلا على محمدٍ عليه السلام، مثل هذه العبارة الموجودة الآن في التوراة المحرفة والتي تقول: (وحي يأتي من بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، قابلوا الهارب بخبزه، فهو قد هرب من السيوف والأقواس وشدة الاضطهاد. ويقول الرب أنه خلال سنة سوف يتحطم مجد عدنان جد العرب، وسوف يتلاشى بقية أبطال أبناء عدنان)[6].

---

(١) أي من شدة نار جهنم أعاذنا الله منها يتمنى أن يوضع في أعظم فرن في الدنيا ثم يطبق عليه ويحرق فيه أهون عليه من دخول نار جهنم.

(٢) ما بين المعقوفين لفظ البيهقي.

(٣) أي أن هذا اليهودي حي يرزق عند دخول رسول الله ﷺ المدينة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢-٧٨) حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن سلمة: صالح تابعي ثقة التقريب ٢٧١ ويشهد له ما بعده.

(٥) ذكره ابن كثير في سيرته (١-٢٩٣) فقال: وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم ابن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن محمد بن سلمة.. وهذا السند صحيح، ويشهد له ما قبله.

(٦) ص ٨٧٥ وانظر (محمد في الكتاب المقدس - ٣٢).

ظن اليهود أن هذا النبي القادم من أرض العرب الوعرة الشديدة الوعورة -وهي مكة -.. ظنوا أنه سوف يفني أبناء عدنان، وهم العرب على أيدي بني إسرائيل، فتهافتوا على جزيرة العرب ليشاركوا في ذلك. ولكنهم صدموا بنقل النبوة من قبيلتهم إلى أحد أبناء قيدار أي عدنان العربي، فحسدوه.

لكن لم يحسدونه؟ السبب موجود في هذه القصة

قصة إبراهيم وأبنائه

كان لإبراهيم ﷺ ولدان.. إسماعيل، وإسحاق، وإسماعيل هو الأكبر، وهما نبيان عليهما الصلاة والسلام. إسماعيل هو جد العرب، وإسحاق هو والد يعقوب جد اليهود، وليعقوب ﷺ اسم آخر هو (إسرائيل).

رزق يعقوب أو إسرائيل باثني عشر ولداً.. أحدهم نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام، وعندما صار يوسف عليه الصلاة والسلام وزيراً عند عزيز مصر انتقل والده وإخوته إلى هناك، فيوسف وإخوته هم أبناء إسرائيل، حيث تزوجزا، وتكاثروا، وتحول أحفادهم إلى اثنتي عشرة عائلة (قبيلة)، وتزايدت أعدادهم في مصر، حتى جاء زمن الطاغية فرعون. في تلك الأثناء ولد نبي اسمه (موسى) وأخوه (هارون) عليهما الصلاة والسلام، وقد بعثه الله نبياً بالتوحيد لإنقاذ بني إسرائيل من الشرك والاضطهاد، ثم تولى القيادة من بعد موته في سيناء تلميذه النبي: يوشع عليه الصلاة والسلام. ثم جاء أنبياء كثيرون من أبناء إسرائيل من بينهم داود، وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام، حتى جاء الزمن الذي بعث فيه عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو أيضاً من أبناء إسرائيل.

كل هؤلاء الأنبياء أرسلوا لإعادة قومهم إلى التوحيد، وترك الشرك والبدع والانحراف، ومع ذلك استمر انحراف أغلب اليهود - بني إسرائيل- حتى وصل بهم الإجرام الأمر إلى اغتيال وذبح بعض الأنبياء، كما حدث لنبي الله زكريا وابنه يحيى الذي هو ابن خالة عيسى بن مريم عليهم الصلاة والسلام. بل حاولوا اغتيال عيسى، ولما رفعه الله تعقبوا أتباعه بالقتل والتشريد، وكان من أشرس اليهود الذين فتكوا بأتباع عيسى ﷺ رجل اسمه «شاعول»[1] هذا الطاغوت أحس بأن الاضطهاد لا يفني

---

(١) واسمه الذي يشتهر به عند النصارى وفي الإنجيل المحرف هو: القديس (بولس أو بول).

الأديان، ولا يفني أتباعها، بل يزيدهم رسوخاً وثباتاً وتصفية. لذلك بحث هو وأشرار اليهود عن طريقة للقضاء على تعاليم الله لعيسى بن مريم، فاكتشف أن محاربة الدين من الداخل أجدى من محاربته من الخارج، فأظهر لأتباع عيسى بن مريم أنه قد تاب وندم على ما قام به من قتل وتعذيب، وأظهر لهم الرهبنة والتنسك، وبعد أن تأكد من اقتناع من حوله بتوبته، وبعد مرور زمن على ذلك بدأ بتنفيذ مخططه اليهودي الخبيث. فقد ادعى أنه رأى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في البرق بين السحاب، وأنه قد منحه حق النبوة، ثم جاء بالطامة الكبرى بعد مدة، فادعى أن عيسى بن مريم ظهر له مرة أخرى وأخبره بأنه ابن الله. ثم تحول إلى تعاليم عيسى ليفسدها، فنسخ كثيراً منها: كالختان والطلاق وأكل لحم الخنزير، وغير عطلة السبت لتكون يوم الأحد، وأدخل الوثنية إلى تعاليم نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام فأفسدها إلى اليوم. لذا فلا يمكن اليوم رؤية مسيحي واحد بقي على تعاليم المسيح حتى البابا نفسه[1].

فإذا كان اليهود قد فعلوا كل هذا وأكثر مع أنبياء من اليهود أنفسهم.. من إخوتهم، فهل يُتوقع أن يستقبلوا محمداً ﷺ بالأحضان والقلوب المبتسمة وهو ليس من أبناء اليهود؟

الإجابة معروفة. فاليهود ينتظرون نبياً منهم ليسحقوا به العرب وسائر الأمم، لا ليهدوا به العرب. فكيف يؤمنون بنبي قد يجعل من هؤلاء العرب سادة الدنيا وقادة العالم. حسدُ بني إسرائيل يقول: لا، وألف لا. لكن عالماً من يهود يقول عكس ذلك.

عبد الله بن سلام لا يقول: لا

رجل من بني إسرائيل.. من اليهود.. عالم، ومثقف كبقية علماء اليهود، لكن صدره أبيض كالثلج.. واسع كالمدى.. متلهف للحقيقة كالضياع كالعطش. عالم اسمه عبد الله بن سلام.. صادق اسمه عبد الله ابن سلام. كان يحدث من حوله فيقول: (لما أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وانجفل[2]) الناس قبله فقالوا: قدم رسول الله ﷺ. فجئت في

---

(١) ينفي أحد الكتاب المسيحيين أن يكون البابا يسير على خطى المسيح، فالمسيح متواضع يلبس ثيابا بسيطة ورثة، ويعيش مع الفقراء، بينما يلبس البابا الحرير والذهب ويسكن في قصر فيه أكثر من ثلاثة آلاف غرفة، قد تم تبليطه بأغلى أنواع الرخام، بل كان بعض الباباوات يحمل حملاً.

(٢) انطلق الناس نحو رسول الله ﷺ.

الناس لأنظر في وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال:

يا أيها الناس: أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[1].

كلمات قليلة تذوب فيها كل نظريات العدل والمساواة والإصلاح التي ينادي بها البشر. أي مجتمع سيولد في المدينة! مجتمع تفشو بين أهله التحايا والهدايا والسلام.. مجتمع يمد يديه للمحتاج، ويشق الطرقات بين الأقارب والأرحام، وعندما يهدأ النهار ويدلف إلى خبائه، وتسكن الطيور في الأوكار.. تحلق أرواحٌ مؤمنة إلى ربها تناجي، وتخاف وترجو بدموعها رحمة الرحيم.

إنه لم يطالب بشيء لنفسه حتى الآن.. إنه يطالب بأن يكون الإنسان بكليته لله، ثم يطالب هذا الإنسان رحمة لأخيه الإنسان.

أيقن ابن سلام أن هذا الرجل ليس بكذاب، ولا يأتي كذاب بمثل هذا الحب والسلام، لكن أين كان ابن سلام عندما قدم رسول الله ﷺ؟

أنس بن مالك ذلك الأنصاري الصغير يحدثنا عن مكانه وأنه كان في نخلٍ لأهله يخترف لهم الرطب، فجاء وأدوات الاختراف بيديه.. نسي أن يتركها من شدة ذهوله.

يقول أنس: (قيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ. فاستشرفوا نبي الله ينظرون إليه، ويقولون: جاء نبي الله. فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدِّث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف فيها، فجاء وهي معه، وسمع من نبي الله ﷺ ورجع إلى أهله.

وقال نبي الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي. قال ﷺ: «انطلق فهيئ لنا مقيلاً»، فذهب فهيأ، ثم جاء فقال: يا رسول الله ﷺ قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا)[2].

---

(١) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٥٣١ وغيره من طرق عن عوف بن أبي جميلة وهو ثقة عن زرارة بن أبي أوفى تابعي ثقة عابد التقريب ٤٣٢ و٢١٥.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٥٢٨/٢).

إذا فقد عاد عبد الله بن سـلام إلى حائط أهله بعد أن رأى وسـمع. فمتى أسلم وكيف أسلم؟

يكمـل أنس قصته فيقول: (فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سـلام فقال: أشهد أنك نبي الله حقاً، وأنك جئت بحق، ولقد علمت يهود أني سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم..، فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيَّ ما ليس فيَّ.

فأرسـل نبي الله ﷺ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم رسـول الله ﷺ: «يا معشـر اليهـود، ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسـول الله حقاً، وأني جئت بحق، أسلموا» فقالوا: ما نعلمه)[1]. ترى هل أسلم هذا العالم المثقف لمجرد رؤيته رسول الله ﷺ دون استفسار.. دون سؤال، أو حصول على علامة وبيان؟ هذا ما لا يفعله عادة المثقفون والعلماء، وعبد الله بن سلام منهم، فهو لم يسلم مباشرة. فبعد أن (سـمع عبد الله بن سـلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ... فأتى النبي ﷺ، فقال: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة[2]؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

وما ينزع الولد إلى أبيه وإلى أمه؟

قال ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفاً».. قال ابن سـلام: جبريل؟! قال ﷺ: «نعم». قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

ثم قرأ ﷺ هذه الآية: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾. أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب.

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت.

وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة نزعت الولد.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٥٢٨/٢).

(٢) علامات السـاعة، وعلامات السـاعة كثيرة.. منها بعثة رسـول الله ﷺ لكن لها علامات كبرى عجيبة مفاجئة للعالم هذه أولها ومنها خروج اليهودي المسيح الدجال ونزول المسيح عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من جهة المغرب..

قال ابن سـلام: أشـهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت[1]، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسلهم عني بهتوني.

فجـاءت اليهود إليه، قال ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سـلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا.

قال ﷺ: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج عبد الله، فقال: أشـهد أن لا إله إلا الله وأشـهد أن محمداً رسـول الله. قالوا: شرنا وابن شـرنا.. وتنقصوه[2]. قال ابن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله)[3].

هذا هو الفرق بين اليهود والنصارى، بل وغير النصارى غالباً، فالنصارى ضحايا اليهود فسماهم الله (الضالين)، أما اليهود فهم يعرفون الحق ويتركونه، ولذلك وصفهم اللـه بـ: (المغضـوب عليهم) والتاريخ يحدثنـا عن اليهود كثيراً، وعـن رفضهم وقتلهم الأنبياء والمصلحين، بل إنهم سبب ضلال النصارى[4] وبعدهم عن الحق، فلا غرابة ولا عجب أن رفضوا رسـالة الإسـلام، وغبي كل الغباء من يظن أنهم غير ذلك، والتاريخ شاهد والواقع على طرقاتنا يتلو علينا كل صباح مؤامراتهم.

فلننصرف عنهم كما انصرفوا عن رسول الله ﷺ، ولندخل مع رسول الله ﷺ إلى دار أبي أيوب، الذي أصبح مقراً مؤقتاً لرسـول الله ﷺ ريثما يجد له منزلاً مستقلاً.. له ولزوجته القادمة سودة رضي الله عنها.

فتحنا الباب فوجدنا أبا أيوب رجلاً من كرم.. رجلاً من شعور.. مهذب وحساس، ومحب لله ولرسـول الله ﷺ وللإسـلام أكثر من نفسـه.. كان صدره أفسح من بيته، وكانت يداه غيمتين.

جدران بيت أبي أيوب تحكي لنا هذه القصة.. تروي لنا كم كان أبو أيوب مسلماً.. كم كان عظيماً..

---

(١) أقوام يفترون ويكذبون ويلصقون في المرء ما ليس فيه.

(٢) عابوه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له ٢-٥٢٩.

(٤) كما معر معنا في قصة بولس أو شاءول.

يقول أبو أيوب: (لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو. فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره وأُعظِم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل.

فقال ﷺ: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت». فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حب[1] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده[2] فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً، فرده رسول الله ﷺ، فلم أر ليده فيه أثراً. فجئته فزعاً، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟

فقال ﷺ: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه. فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة»)[3].

وما دام ﷺ يكره رائحتها فأبو أيوب يكرهها كذلك، لقد قال لرسول الله ﷺ (فإني أكره ما تكره)[4] ومع ذلك لم تسكن نفس أبي أيوب.. لم يجد للراحة مكاناً، ولم يجد للراحة طعماً رغم شدة فرحه برسول الله ﷺ داخل بيته.. لماذا؟.. لماذا؟

أبو أيوب مُحرج

لو رأيته وهو يسير في منزله لأشفقت عليه، فهو لا يتحرك إلا في مساحة ضيقة من بيته.. كأن الجن والأشباح تنزل في البقية الباقية. لقد حدد له زاوية من المنزل

---

(١) وعاء يوضع فيه الماء كالزير والجرة.

(٢) أي بحثوا عن مواضع أصابعه وقصدوها.

(٣) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق سماعا من شيخه يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي رهم السماعي حدثني أبو أيوب، ويزيد ومرثد فقيهان ثقتان وأبو رهم هو الصحابي كلثوم بن الحصين رضي الله عنه. انظر سيرة ابن كثير ٢-٢٧٧.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي ٢-٥٠٩.

يتحـــرك فيهـــا وينتقل وينام، أما البقية الباقية فلا.. ذلك لأن الإســـلام صنع منه قلباً وحساً مرهفاً، فهو لا يريد أن يمشي فوق رأس رسول الله ﷺ.

(انتبه أبو أيوب فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!!

فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ يعني في ذلك؟

فقال ﷺ: "السفل أرفق بنا". فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل)[1].

لـــن تســـتغرب الدنيا ما قام به أبـــو أيوب رضي الله عنه، فهو ابن ســـحابة هتون تحوم في ســـماء الإيثار والكرم.. ابن سحابة اسمها الأنصار.. الأنصار الذين ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2].

هذه شهادة الله لهم تتنزل عليهم من فوق العرش.. تعبر السماوات سماءً سماءً.. يتغنّـــى بها الأنصـــار.. يتغنى بها بنو النجار أخوال رســـول اللـــه ﷺ. وأبو أيوب من الأنصـــار، وأبو أيوب من بني النجار، ولإن كانت (خير دور الأنصار بني النجار)[3] فإن (في كل دور الأنصار خير)[4]. فالله جعل (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصـــار)[5]. فـ (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهـــم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[6].

الأنصـــار الآن يتوافـــدون.. يتتابعون نحو رســـول الله ﷺ.. يســـلّمون.. يثلجون صدورهـــم بالقرب من حبيبهم.. كانوا يحملون الولاء والحب وشـــيئاً من الطعام.. كلٌّ حســـب ما يجد، لكـــن أحد الفقراء المعدمين الذين لا يملكـــون حتى ثيابهم.. كان على الباب ينتظر، وكانت هيئته رثةً تدمي القلب، وتدمع العين، ومع ذلك استطاع بعد جهد وعرق أن يحصل على شيء من طعام، لا ليأكله.. لا ليتصدق به، بل ليهديه.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم والبيهقي (٢/٥٠٩).
(٢) سورة الحشر: الآية ٩.
(٣) حديث صحيح. متفق عليه.
(٤) متفق عليه وهو آخر الحديث السابق.
(٥) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٤).
(٦) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٣).

فمن هذا الشخص الغريب؟

أتذكرون ذلك المسكين الذي قدم على رسول الله ﷺ وهو في (قباء) وقدم له صدقة من طعام، فأكل الصحابة منه، ولم يأكل رسول الله ﷺ.. قباء تذكره، وأنتم؟

ها هو يأتي مرة أخرى.. يحمل هدية من طعام تحملها يدان تشققتا من العبودية والكدح والشقاء، وتحمله أقدامه دامية.. عصفتها الدروب والثلوج والرمضاء والرياح، وما إن وقف ذلك المسكين أمام رسول الله ﷺ حتى قال له: (إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه)[1]. فقال ذلك المسكين في نفسه: (هاتان اثنتان)[2] ثم خرج من عند رسول الله ﷺ وهو أحر شوقاً مما كان عليه.. عاد لسيده اليهودي يكدح ويكدح، وينتظر النهار بين نخيل المدينة، فمن أجل النهار جاء.. جاء من مكان بعيد.. جاء سيداً.. جاء مبتسماً وباكياً.. جاء عبداً مقيداً، ولن تضيره أيام قليلة من الانتظار، فربما طلع النهار وانزاح ليله الدامي الطويل.

أما رسول الله ﷺ فمكث ما شاء الله له أن يمكث في ضيافة أبي أيوب، ولم يكن هناك من مسجد للصلاة فـ (كان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم)[3].

لكن المدينة اليوم عاصمة للإسلام، وهي تتسع كل يوم بالوافدين والمهاجرين، فكان لا بد لها من مسجد. حيث لمح رسول الله ﷺ قرب بيت أبي أيوب حائطاً لبني النجار.. لم يرَ رسول الله ﷺ أنسب منه مكاناً لمسجده، فكانت هذه القصة:

قصة بناء المسجد النبوي

لقد جاء الأمر (ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا..؟ فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله عز وجل)[4] و(كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور

---

(١) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.
(٢) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٢٨).
(٤) حديث صحيح. وهو بقية الحديث السابق.

المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع.

فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضاديته حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ يقول:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة   فانصر الأنصار والمهاجرة»[1]

لم يكن رسول الله ﷺ قاعداً.. يكحل عينيه بمشهد السواعد تشتد أمامه وتعرق، بل كان يعرق مثلهم، ويحمل مثلهم.

لقد ساهم ﷺ في بناء مسجده، وبناء مسجد قباء، كما ساهم وهو شاب في بناء الكعبة في مكة التي طرد منها، وفي المدينة كان الصحابة يتدفقون نشاطاً وبناءً.. هذا عمار بن ياسر رضي الله عنه يتميز عن بقية الصحابة.

يحدثنا عما قام به عمار شاب اسمه أبو سعيد الخدري فيقول: (كنا ننقل لبن المسجد لبنة.. لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين.. لبنتين. فمر به النبي ﷺ ومسح عن رأسه الغبار ينفض التراب عنه)[2].

ثم يقول ﷺ وحياً.. يقول غيباً.. يقول: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية.. يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار)[3] أما عمار فكان رغم استبشاره بهذه الشهادة.. يخشى على أمة الإسلام.. يخشى عليها فيقول: (أعوذ بالله من الفتن)[4] ثم ينصرف إلى عمله والصحابة حوله حركة نشطة. هذا أحدهم.. يغوص في الطين بمهارة، ويعالجه بطريقة مدهشة أعجبت النبي ﷺ، فقال لمن حوله ممتدحاً فعل ذلك الرجل الماهر بعمله، الوافد من اليمامة من أعماق نجد ليكتب الله له شرف المساهمة في بناء المسجد النبوي. يقول ﷺ: «قربوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم بناءً»[5].

---

(١) حديث صحيح. وهو بقية الحديث السابق.

(٢) البخاري ١-١٧٢و ٣-١٠٢٥ أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه ... والفئة المحقة هي علي رضي الله عنه وأصحابه.

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) جزء من الحديث السابقه.

(٥) سنده صحيح البيهقي ٢-٥٤٢ وغيره من طرق عن ملازم بن عمرو يمامي صدوق التقريب ٥٥٥ حدثنا =

وتم بناء المسـجد كما أراد ﷺ: (مبنياً باللبن، وسـقفه الجريد، وعمده من خشب النخل)[1].

لكن ما قصة هذا اليمامي

اسمه (طلق بن علي اليمامي) وهو يحكي قصته ويرويها بنفسه.. يفخر بها وحق له أن يفخر فيقول رضي الله عنه: (بنيت مع النبي ﷺ مسجد المدينة فكان يقول: مكنوا اليمامي من الطين فإنه من أحسـنكم له مساً)[2]. ويحكي هذا الصحابي قصة قدومه فيقول: (خرجنا وفداً إلى النبي ﷺ، فأخبرناه أن بأرضنا بيعة[3] لنا، واسـتوهبناه من فضـل طهوره، فدعا بمـاء فمضمض ثم صبه لنا في إداوة، وقـال: اذهبوا بهذا الماء، فإذا قدمتم بلدكم فاكسـروا بيعتكم[4]، وانضحوا مكانها من هذا الماء، واتخذوا مكانها مسجداً فقلنا: يا نبي الله.. إن البلد بعيد والماء ينشف. قال ﷺ: «فمدوه من الماء فإنه لا يزيده إلا طيباً»

فتشاححنا على حمل الإداوة أينا يحملها؟ فجعلناها نوباً بيننا لكل رجل يوم وليلة، فلمـا قدمنا بلدنا فعلنا الذي أمرنا، وراهبنا ذلك اليوم رجل من طي، فنادينا للصلاة، فقـال الراهب: دعوة حق ثم هرب فلم يرَ بعـد)[5] هذا ما حدث في أرض اليمامة أما في المدينة. فبعد أن تم بناء المسجد وعُمِّرَ بالصلاة والحياة وضع لرسول الله ﷺ جذع نخلـة يخطب عليها، لكن الوفود تكثر كل يوم، والمهاجـرون يزدادون، والناس تريد أن تسـتمع إلى خطب رسـول الله ﷺ.. إلى وحي ربها، فلا بد من بناء منبر مرتفع يمكن الحاضرين من الاستماع والرؤية. وافق ﷺ على هذا الاقتراح، لكن شيئاً حدث فأحزن من في المسجد وأبكاهم.. شيء غريب ومؤثرٌ حقاً.

= عبد الله بن بدر ثقة التقريب ٢٩٦ وشيخه قيس ابن الصحابي طلق تابعي ثقة التقريب ٤٥٧ وقصته عند الطبراني ٨-٣٩٩ وابن حبان ٣-٤٠٤ بالسند نفسه.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٥٤١.

(٢) سنده صحيح. وهو من السند قبل السابق.

(٣) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٤) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٥) هو باقي الحديث السابق الذي رواه النسائي والبيهقي وابن حبان وهو صحيح.

عند صنع المنبر

أحد الذين حضروا تلك الدموع.. صحابي اسمه: (سهل بن سعد) الساعدي رضي الله عنه يقول: (كان رسول الله ﷺ يقوم إذا خطب إلى خشبة كانت في المسجد، فلما ذاع الناس وكثروا قيل له: يا رسول الله لو جعلت منبراً تشرف على الناس منه؟

فبعث إلى النجار فانطلق، فانطلقت معه حتى أتى الغابة، فقطع منها أثلاً فعمله وهيأه، ثم أتينا نحمله، فكان «درجتين» والثالثة مقعد لرسول الله ﷺ. فوالله ما هو إلا أن قعد عليه رسول الله ﷺ فتكلم، وفقدته الخشبة، فخارت كخوار الثور لها حنين حتى فزع الناس، وكثر البكاء مما رأوا بها، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «سبحان الله ألا ترون إلى هذه الخشبة»)[1]. (فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت)[2] كأن هذا الجذع متفرع من جذور الحب.. كأنه أحد المهاجرين والأنصار.. كأنه مكة.. مكة التي تفتقد إلى وجه ابنها وحبيبها ﷺ.. كأنه تلك الحجارة في مكة التي كانت تسلم عليه ﷺ كلما مر بها، وتبادله حباً بحب، وشوقاً بشوق. هذا الجذع بكى لأن رسول الله ﷺ لن يخطب عليه بعد اليوم.. لن يحظى بدفء جسده بعد اليوم، وسوف يفتقد إلى ذكر الله يفوح عطراً وهدايةً من رسول الله ﷺ، لقد عبر عليه السلام عمًّا بأعماق هذه الشجرة عندما قال: (بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها)[3] إنها تغبط:

امرأة من الأنصار وغلامها تبرعا بالمنبر

فالأنصارية هي التي تطوعت وغلامها لبناء المنبر.. يحدثنا عن ذلك أحد كرام الأنصار: جابر بن عبد الله فيقول: (إن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، ألا أجعل لك منبراً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً؟ فقال ﷺ: «إن شئت».

---

(١) حديث حسن. رواه أبو نعيم في الدلائل (٤٠٣) حدثنا أبو يعلى حدثنا كامل بن طلحة حدثنا ابن لهيعة عن عمارة بن غزية أنه سمع عباس بن سهل يخبر عن أبيه وهذا سند صحيح لولا ابن لهيعة لكنه لم ينفرد فقد رواه البيهقي من طريقين عن أبي بكر بن أويس عن سعد بن سعيد بن قيس عن عباس عن أبيه ٢-٥٥٩ وعلته سعد بن سعيد وحديثه حسن بالشواهد فهو صدوق سيئ الحفظ.

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري والبيهقي ٢-٥٦٠.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٠).

فعملت له منبراً، فلما كان يوم الجمعة قعد على المنبر الذي صنع له، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها، فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت. قال ﷺ: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها»)[1] ثم عاد ﷺ إلى منبره.

فماذا صنع

يقول سهل الساعدي: إن المرأة أمرت غلامها (فعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها فأرسلته إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها فوضعت ههنا، ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها، وكبَّر وهو عليها، ثم ركع وهو عليها، ثم نزل القهقرى، فسجد في أصل المنبر، ثم عاد.

فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي، فعمل هذه الثلاث درجات»)[2].

إذاً فمنبر رسول الله ﷺ ثلاث درجات.. ثلاث درجات بسيطة لا أكثر، فهنيئاً لتلك الأنصارية.. هنيئاً لغلامها وهنيئاً لذلك المنبر، فمنبر الأثل لم يعد ينتمي إلى الأثل.. لم يعد ينتسب إلى الأرض. منبر الأنصارية صار:

منبراً من الجنة

فقد التفت ﷺ إلى منبره يوماً فقال: «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة»[3].

وأما ما بين المنبر وبيت رسول الله ﷺ فمساحة من الربيع الخالد والفيض الغامر الواعد بالنعيم. فقد قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[4].

أما المسجد فقد اكتمل بناؤه، واكتمل العقد بجوهرة ثالثة تزين صدر السفر.. محطة ثالثة لقوافل المؤمنين بناها ﷺ في المدينة.. يزيلون فيها العناء والذنوب،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٠).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي ٢-٥٥٥.

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح النسائي ١-١٥٠ والبيهقي ٢-٥٦٤.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ١-٣٩٩ ومسلم ١١٩٥.

وينهلون الأجر والثواب «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس»[1]. لا تشد الرحال من أجل العبادة إلى أي مسجد في الدنيا، إلا إلى هذه المساجد الثلاثة. فمن أتعب مطاياه إلى غيرها، فقد أتعبته البدعة والغلو، والإسلام نبع صافٍ ورقراق، والشيطان يحاول تلويث النية الصافية بالبدعة . لكن لم هذه المساجد بالتحديد هي مناخ المرتحل ومستراحه؟

الإجابة لا تأتي من الهواء.. لا تأتي من الهوى. الإجابة تتنزل وحياً، وتمطر أجراً عندما قال ﷺ: (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)[2].

فهم الصحابة ذلك، وأدركوا أن السفر من أجل العبادة والصلاة لا يجوز.. مهما كان ذلك المكان المنشود مقدساً، إلا إلى هذه المساجد الثلاثة، حتى ولو كان هذا المكان جبل الطور الذي كلم الله فيه موسى تكليماً، وأنزل عليه فيه التوراة.

هذه قصة حدثت بين صحابيين.. تشهد بتفاني الصحابة رضي الله عنهم من أجل بقاء الإسلام أبيض جديداً دون تشويه أو بدع وذلك عندما (لقي أبو بصرة الغفاري أبا هريرة وهو جاء من الطور، فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور،صليت فيه.

قال أبو بصرة: أما لو أدركتك قبل أن ترحل إليه ما رحلت إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»)[3] وبهذه التصفية والتربية يبقى الإسلام جديداً.. دون شوائب.. دون بدع، بل كما أنزل على محمد ﷺ.

إذاً فقد سعدت المدينة باحتضانها لمسجد يؤسسه رسول الله ﷺ على التقوى، كما سعدت مكة من قبل بتأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لبيت الله الحرام، وبعد ذلك بنى ﷺ له بيتاً ملاصقاً للمسجد عبارة عن حجرات صغيرة، فسودة قادمة قريباً من مكة، أما عائشة فربما كانت مع هذا الركب الذي يلوح بين السراب، وفيه

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع (٧١٤/٢).

(٣) حديث صحيح انظر إرواء الغليل (١٤٢/٤) وقول النبي ﷺ عند البخاري ومسلم.

امرأة شابة حامل.. شابة عظيمة تهاجر للمرة الثانية، وكانت تحمل الطعام إلى رسول الله ﷺ، وتقطع حزاماً لها نصفين ليستخدمه ﷺ في هجرته إلى المدينة، فيربط زاده وما يحتاجه.. إنها ذات التاريخ الأبيض.. ذات النطاقين.. أسماء بنت الصديق الأكبر، والصاحب الأبر (هاجرت إلى النبي ﷺ وهي حبلى)[1].

لم تبال بثقل حملها فمدينة الأنوار والحب تنتظرها، وهي لا تستطيع مقاومة ذلك الحب فيها، أما ذلك الجنين في بطنها فكان على موعد مع السبق والشرف، ليكون أولاً في سجلات الهجرة والإسلام.

أسماء الآن في قباء قد أثقلها الحمل والتعب.. لا تستطيع المشي، ولا تستطيع الوصول إلى المدينة، فآلام الوضع والولادة شديدة. إنها المرة الأولى التي تعاني فيها من هذه الآلام، فبقيت في قباء حتى تمت ولادتها بسلام، وطفلٍ كالورد.. تحدثنا عنه فتقول: (خرجت وأنا متم، فأتيت المدينة فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه. فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، فكان أول مولود في الإسلام)[2].

هذا الطفل هو عبد الله بن الزبير بن العوام، وتلك هي أمه، أما خالته عائشة التي عانت بعد وصولها من مرض تساقط منه شعرها، وأي شيء أهم عند الفتاة من شعرها ومظهرها.

تقول رضي الله عنها: (قدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمة)[3] أي أنها شفيت فعاد شعرها جميمة، وهو الشعر إذا سقط على المنكبين.

فرحت عائشة بجميمتها لا سيما وهي تنتظر...

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٩).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٢٢.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤١٤.

فهـي زوج رسـول الله ﷺ، لكنها كانت في بيت أبيها.. لم تنتقل بعد إلى بيت الزوجية والنبوة والحب الذي سينير حياتها وآخرتها، وتلك الحجرات الصغيرات كن يتلهفن عليها، حتى إذا جاء شهر شوال من تلك السنة. وشهر شوال محبب لدى عائشة.

إنها تقول عنه: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني، وكانت تستحب أن تدخل نساءها في شوال)[1].

ولزفاف عائشة قصة تحب أن ترويها لنا، فتقول: (أتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحةٍ ومعي صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يومئذٍ بنت تسع سنين)[2].

هذه قصة زفافها، وهكذا صار لها حجرة من تلك الحجرات المتواضعة، وصار لها نصيب في حياته ﷺ وقلبه.. يزداد مع الأيام حتى صارت أحب الناس إليه. يقول أحد الصحابة واسمه عبد الله بن شقيق: (قلت لعائشة: أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟

قالت: عائشة. قلت: فمن الرجال؟ قالت: أبوها)[3].

وصحابي آخر قدم على رسول الله ﷺ فجرى بينهما حوار عن الحب. يقول هذا الصحابي رضي الله عنه: (أتيته، قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة.

قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر)[4].

---

(١) صحيح مسلم ٢-١٠٣٩.

(٢) صحيح البخاري ٣٨٩٤.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٣٥٨.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤٣٥٨.

المرأة من جديد تقفز في المقدمة.. تتقدم فتسير أمام من يدخلون قلب رسول الله ﷺ، وقلب رسول الله ﷺ كان مدينةً منورةً أخرى للجميع.. سعدوا بدخولها، واطمأنوا بالعيش فيها، ومن آثار تلك الطمأنينة والحب بين المهاجرين والأنصار.. هذه الخطوات التي يخطوها حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وهو يتجه إلى أحد بيوت الأنصار.. إلى بيت قيس بن فهد.

حمزة يصاهر الأنصار

حمله حب مصاهرة الأنصار الكرام والتماهي بهم إلى يوم القيامة. خطب حمزة رضي الله عنه خولة بنت قيس، فوافقت، ووافق أبوها، وزفت إليه وسكنا معا في بيت تعمره السكينة والإيمان، فيزوره النبي ﷺ ليقضي فيه وقتا كأنسام البحر عند المساء.

خولة رضي الله عنها تتحدث عن تلك الزيارات التي كان يقوم بها النبي ﷺ لبيت عمه، وتتحدث عن عذوبته ﷺ في حديث ينقله أحد الصحابة فيقول: (أن حمزة بن عبد المطلب لما قدم المدينة تزوج خولة بنت قيس بن فهد الأنصارية من بني النجار، وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها، وكانت تحدث عنه ﷺ أحاديث قالت: جاءنا رسول الله ﷺ يوماً فقلت: يا رسول الله، بلغني عنك أنك تحدث أن لك يوم القيامة حوضاً ما بين كذا وكذا؟

قال: أجل، وأحب الناس إلى أن يروى منه قومك. قالت: فقدمت إليه برمة فيها خبزة أو حريرة، فوضع رسول الله ﷺ يده في البرمة ليأكل فاحترقت أصابعه، فقال: حس. ثم قال: ابن آدم إن أصابه البرد قال: حس.. وإن أصابه الحر قال: حس)[1].

وتقول رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ دخل على حمزة فتذاكر الدنيا فقال رسول الله ﷺ: إن الدنيا خضرة حلوة، فمن أخذها بحقها بورك له فيها. ورب متخوض في مال الله ومال رسوله له النار يوم يلقي الله)[2].

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٦-٤١٠ وغيره من طريق يحيى بن سعيد عن يحنس عنها ويحيى ويحنس ثقات التقريب ٥٨٧ وللحديث شواهد قوية عند الطبراني في الكبير ٢٤-٢٢٧.

(٢) سندة قوي رواه أحمد ٦-٣٦٤ وغيره عن يحيى بن سعيد أخبره عمر بن كثير بن أفلح سمع عبيد سنوطا عن خولة. عمر تابعي ثقة التقريب ٢-٦٢ وسنوطا وثقه العجلي ٢-١٢٢.

كان ﷺ يـزور أصحابـه أيضاً.. يتفقدهم ويتحســس معاناتهـم، ولأنهم جميعاً بين أضلاعه ﷺ فلا بد أن يدلف معهم شـيء من الأحزان.. يشـعر بها ويشـاركهم معاناتها..

كان يتقاسـم معهم الأحـزان والأفراح، فخلال تلك البهجـة.. خلال فرح المدينة بعرس محمد ﷺ وعائشـة.. خلال الفرح بالمهاجرين والإسـلام.. كانت قافلة الحياة الطويلة تمر.. تعبر لا تتوقف.. تحمل الفرح والأحزان والمفاجآت، وقافلة الحياة تحمل هذه المرة حزناً يتأهب لدخول بيت أحد أبطال العقبة والبيعة الخالدة:

بيت أسعد بن زرارة

الذي كان في أيامة الأخيرة يعاني من المرض، فيقول أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قد كوى أسعد بن زرارة في الشوكة)[1].

لكن سعداً مات رضي الله عنه.. مات فترك جرحاً في قلوب المسلمين، وترك دعاءً في قلب الشـاعر الأنصاري (كعب بن مالك) رضي اللـه عنه. كان كعب يدعو له كلما سمع صوت المؤذن ليوم الجمعة، فلماذا هذا النداء بالذات، وما هي ذكرياته؟

الإجابـة أخذها عبد الرحمن من والده كعب بن مالك، بعد أن بلغ كعب من الكبر عتياً وشاب رأسه وذهب بصره، فيقول عبد الرحمن: إن والده (كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة. فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة؟

قـال: لأنـه أول من جمَّع بنا في هزم النبيت[2] من حرة بني بياضة، في نقيع يقال له نقيع[3] الخضمات.. قلت: كم أنتم يومئذٍ؟ قال: أربعون)[4] رحم الله أسـعد بن زرارة

---

(١) سـنده صحيح. رواه أبو يعلى ٦- ٢٧٤ وغيره عن يزيد بن زريع، عن معمر عن الزهري عن أنس.. ويزيد ثقة ثبت. التقريب ٦٠١ والبقية أئمة ثقات أغنياء عن التعريف.

(٢) مكان منخفض.

(٣) يسمى هكذا لاجتماع الماء فيه.

(٤) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق ومن طريقه الحاكم (٣-١٨٧ : حدثني محمد بن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه أبي أمامة أن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أخبره. شـيخ ابن إسـحاق ثقة ووالده اسمه: أسـعد بن سهل بن حنيف له رؤية وهو معدود في الصحابة وشـيخه من كبار التابعين وثقاتهم وكلهم من رجال التقريب.

ورضي عنه.. ربما كان هو هذا الذي فوق الأعناق.. هاهم ينزلونه إلى قبره ويدفنونه، والنبي ﷺ حزين عند قبره، وهاهم الصحابة يلفهم الوجوم، ويتسلل الحزن بينهم، ويتسلل بينهم أيضاً رجل لم يعرف الحزن هذه اللحظة فقط، بل تشربته عروقه وشبابه، فأصبح من لحمه ودمه.. حزين تصرعه الدنيا وتشقيه وتحمله وترتحل به حتى أوصلته إلى هذا القبر.

فمن هذا المتسلل؟

من هذا المتأمل بين المقابر..؟ إنه ذلك الرقيق المتسلل ليلاً إلى قباء عندما وصل رسول الله ﷺ إلى هناك. هل تذكرون تلك الصدقة التي حملها.. قدمها لرسول الله، فلم يأكل ﷺ منها، وجعل أصحابه يأكلون؟ إنه الشخص نفسه الذي حمل هدية من طعام إلى رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري.. ذلك الشخص المحير.. ذلك الرقيق المليء بالأسرار، والعبودية والهموم.. هو هذا المتسلل الذي مشى إلى رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد.. قد تبع جنازة الصحابي الجليل، وعلى رسول الله ﷺ شملتان..

لن أستمر.. سأترككم معه.. يفتح لكم قلبه ودفاتره ودروبه، ليتحدث إليكم.

يقول رضي الله عنه: (جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد[١]، قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليه شملتان[٢]، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي،

فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم[٣] فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول».

فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي)[٤].

---

(١) بقيع الغرقد: هو مقبرة المدينة.

(٢) الشملة: كساء يتلفف به المرء.

(٣) خاتم النبوة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢٩٦/١) ومن طريقه رواه أحمد (٤٤١/٥) فقال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن محمود بن لبيد، عن عبد الله بن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي - من فيه - قال: كنت رجلاً فارسياً.... =

إذاً فهذا المسكين يبحث عن نبي، وقد وجده، لكن من هو، وما هي قصته وما هو حديثه...؟

الغريب يفتح لنا دفاتره ودروبه

مرة أخرى سأترككم معه.. يحدثكم كما حدث رسول الله ﷺ.. حديثاً مبللاً بالدموع والشقاء والدلال.. حديثاً طويلاً يقول فيه: (كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها (جيء) وكان أبي دهقان[1] قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته، كما تحبس الجارية -أي ملازم النار- واجتهدت في المجوسية[2] حتى كنت قطن[3] النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، وكانت لأبي ضيعة[4] عظيمة، فشغل في بنيانٍ له يوماً فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطّلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس - لحبس أبي إياي في بيته - فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي، وشغلته عن أمره كله، فلما جئت قال: أي بني، أي كنت؟ ألم أكن أعهد إليك ما عهدته؟ قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في

= وهذه السلسلة من الرجال كالذهب، عاصم بن عمر بن قتادة وهو تابعي ثقة وإمام في المغازي والبقية من الصحابة رضي الله عنهم. انظر التقريب ٢٨٦.

(١) الدهقان: هو رئيس القرية أو التاجر.

(٢) المجوسية: دين يعبد أهله النار.

(٣) أي خازن النار والمعتني بها.

(٤) بساتين وأشجار وكروم.

كنيســة لهم، فأعجبني مارأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قــال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير. دينك وديــن آبائك خير منه. قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا.

فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته. وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام - تجار من النصارى - فأخبروني بهم.

فقدم عليهم ركب الشام - تجار من النصارى- فجاءوني النصارى فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني.

فلمــا أرادوا الرجعــة إلى بلادهــم أخبروني بهم، فألقيت الحديــد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشــام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف[1] في الكنيسة. فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك فأصلي معك. قال: ادخل.

فدخلت معه، فكان رجل ســوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهــم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب ووَرِق[2]. وأبغضته بغضــاً شــديداً لمارأيته يصنع، ثم مات واجتمعت له النصــارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل ســوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفســه ولم يعط المســاكين منها شيئاً. فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ فقلت لهم: أنا أدلكم على كنزه. قالوا: فدلنا.

فأريتهم موضعه فاســتخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورِقاً، فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجــاءوا برجل آخر فوضعــوه مكانه، فما رأيت رجلاً لا يصلــي الخمس أرى أنه أفضل منه، وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً. فأحببته حباً لم أحب شــيئاً قبله مثله، فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة، فقلت له: إني قد كنت

---

(١) رتبة نصرانية فوق رتبة القس وتحت رتبة المطران.

(٢) الورق: الفضة.

معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه.. لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل[1] وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه فالحِقْ به.

فلمـا مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت: يا فلان، إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره. فقال لي: أقم عندي.

فأقمت عنده فوجدته خير رجلٍ على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفـاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصـى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبِمَ تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين، وهو فلان فالحق به.

فلمـا مـات وغيب لحقت بصاحـب نصيبـين[2]، فأخبرته خبري ومـا أمرني به صاحبـاي، فقـال: أقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته علـى أمر صاحبيه، فأقمت مع خيـر رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصـي بي وتأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه، إلا رجلاً بعمورية[2] من أرض الروم.. فإنه على مثل ما نحن عليه.. فإن أحببت فأته.. فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له: يافلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وبم تأمرني؟

---

(١) مدينة شمال العراق.

(١) مدينة من مدن الجزيرة.

(٢) مدينة بآسيا الصغرى (تركيا الآن).

قال: أي بني، والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين[1] بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

ثم مات وغيب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث،ثم مر بي نفر من (كلب) - تجار - فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم.

فأعطيتهموها وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها.

وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام، ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عذق[2] لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة[3]، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباءٍ على رجلٍ قدم من مكة، يزعم أنه نبي.

فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أني ساقط على سيدي، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول.. ماذا تقول؟

فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا!! أقبل على عملك. فقلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال. وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء)[4].

---

(١) الحرة: أرض ذات أحجار سوداء.

(٢) العَذق - بفتح العين - النخلة بحملها.

(٣) اسم جدة الأوس والخزرج.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢-٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١-٣٨٥).

إذاً فرسول الله ﷺ يعرف وجه هذا الغريب، ويتذكر قصته معه في قباء.. عندما قدم لرسول الله ﷺ صدقة من طعام، فلم يأكل منها. ولكنه أكل من هديته التي قدمها له في بيت أبي أيوب، وهاهو يرى خاتم النبوة على ظهره ﷺ بعد أن دفن صاحبه.

ثـــلاث علامات ذاق من أجلها ســـلمان ألوان المر والترحال، والتغرب والتشـــرد.. تشـــققت يداه من الكد والكدح، وهو ابن النعيم والدلال.. حياة طويلة ترسف في قيود الحديـــد والعبوديـــة والرق.. كان في غنى عنها، لكنه ليس فـــي غنى عن التوحيد، ولا البحث عن الحقيقة. لأنه إن عثر عليهما ســـيعثر على نفسه، التي لم يجدها بين رماد نار المجوس، ولا بين تصاليب النصارى، ولا وســـط أحقـــاد اليهود ولكماتهم.. وجدها بين يدي محمد ﷺ، فهدأت نفسه الثائرة، وارتاحت روحه المتعبة، ووجد الجدار الذي يسند إليه ظهره بعد طول العناء، والنبع الذي روى عطشه.. عثر على من يمسح دموعه وعرقه في طيبة الطيبة.. بين إخوة له في الشقاء والبحث والانتظار والوصول، فقص عليهم ما وجده وما عاناه (فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه)[1].

ولـــم يكتف ﷺ بإبداء الإعجاب والرضا والابتســـام، فالرجل ما زال يلهث، ويداه تنزفان وقدماه داميتان من صخور اليهود وأشواك حقولهم.

رَقَّ ﷺ لحاله وضياعه فقرر كســـر هذا الطوق الذي يخنق أنفاســـه، فالتفت ﷺ إليه وقال: «كاتب يا سلمان»[2] أي تعاقد مع سيدك اليهودي على شيء تقدمه له مقابل حريتك.

لم يكن لدى ســـلمان شيءٌ يقدمه، لكن كلمات النبي ﷺ كانت نوافذَ مفتوحةً على الحرية والحرية. نهض سلمان من بين المقابر، وتوجه إلى ذلك اليهودي.. نهض سلمان وقـــد انتزع القلوب من حوله، وغادر ونظرات الإشـــفاق والعطـــف تتابعه حتى اختفى، ونهض النبي ﷺ وأصحابه وقد أثقلهم الحزن على صاحبيهم. ولم يكتفِ ﷺ بالحزن على صاحبه الذي دفنه منذ قليل، فأســـعد بن زرارة ملء السمع والبصر، وعائلته من بعده أصبحت بين حناياه ﷺ.

---

(١) ســـنده صحيح. رواه ابن إســـحاق ٦٦ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيد عن بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي.

(٢) سنده صحيح. وهو الحديث السابق.

رحل أسعد بن زرارة وترك زهرتين صغيرتين.. هاهو ﷺ يمشي متوجهاً نحوهما في دار أبيهما أسعد. نبي الله ﷺ يحمل في يده هدية جميلة لهاتين الصغيرتين، إنها أقـراط ذهبية مرصعة باللؤلؤ، وليس هناك ما يدخل السـعادة على الفتاة مثل الحلي والزينة.

تحدثنا عن هذه الزيارة حفيدة لأسـعد بن زرارة اسمها زينب فتقول: (إن رسول الله ﷺ حلى أمها وخالتها - وكان أبوهما أسـعد بن زرارة - أوصى بهما إلى رسـول الله ﷺ، فحلاهما رعاثاً من تبر ذهب فيه لؤلؤ)[1].

لبسـت الفتاتان تلك الأقراط وتزينتا به، وبقي عندهمـا زمناً لدرجة تقول معها زينب: (وقد أدركت الحلي أو بعضه)[2].

هدية من نبي رقيق المشاعر.. يحاول تخفيف اليتم والحزن عن أهل بيت من بيوت الأنصار الكريمة التي تستحق الكثير.

غادر عليه السـلام بيت اليتيمتين، وبعد أيام عاد الغريب.. عاد سـلمان الفارسي إلى رسـول الله ﷺ ليقول له: (كاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة، أحييها له بالفقير وأربعين أوقية)[3].

فرح ﷺ بما سمع، وهتف بأصحابه من حوله وقال لهم: «أعينوا أخاكم»[4] فامتثل الصحابـة وتفرقوا يبحثون.. يفتشـون عن شـيء يزيلون به بقايا المعانـاة عن أخيهم الفارسـي، الذي تداولته السنون والشقاء و(تداوله بضعة عشر من رب إلى رب)[5] وقد آن الأوان أن يستريح بفيء الإسلام.

---

(١) سنده حسن. رواه الحاكم ٣-١٨٧ من طريق محمد بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن محمد بن عمارة، عن زينب بنت نبيط. وهي زوجة أنس بن مالك، التهذيب ٩-٣٥٩ وتلميذها صدوق يخطيء وحديثه حسن التقريب ٤٩٨ وحاتم حسن الحديث من رجالهما وقتيبة ثقة ثبت التقريب ٤٥٤ وتلميذ ثقة من شيوخ البخاري.

(٢) سنده حسن. رواه الحاكم (١٨٧/٣) وهو جزء من الحديث السابق.

(٣) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٤) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ٣٩٤٦.

الصحابــة اليوم حركة وعطاء إلا كبيرهم إلا أولهم.. إنه ليس في الســوق، وليس مع رســول الله ﷺ الذي يعود إلى بيته فيجد زوجته عائشة رضي الله عنها بانتظاره، وهي قلقة على أبيها.

كانت تنتظر زوجها ﷺ لتســتأذنه في الذهاب للاطمئنان على أبيها، فمالذي حدث للصديق الأكبر..؟ ماذا حدث لحبيبنا أبي بكر رضي الله عنه؟

ماذا حدث لأبي بكر

لم يكن أبو بكر وحده يحتاج إلى الرعاية والمواساة.. بلال بن رباح كان مثله، وعامر بن فهيرة أيضاً، فقد (كانوا في بيت واحد)[1].

وصل الخبر إلى عائشــة فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم، وعندما وصلت وجدت حمى المدينة الملتهبة تشــتعل في أجسادهم، وحمى المدينة شديدة فلقد (قدم رســول اللــه ﷺ المدينة وهي أوبــأ أرض الله)[2]، لكن الله يجعل مــن الضيق منافذاً وأبواباً، ويجعل من المعاناة بشــائراً ووعــوداً. قال ﷺ لأصحابه: «لا يصبر على لأواء المدينة وجهدها أحد، إلا كنت له شــفيعاً أو شــهيداً»[3]. ويقول لهم: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»[3] وما دامت الحمى من القدر، فعلاجها من القدر أيضاً، فالقدر يعالج بالقدر.

أرشد ﷺ أصحابه إلى الصبر، وأرشدهم أيضاً إلى العلاج فقال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»[3].. «الحمى كير من جهنم فنحوها عنكم بالماء البارد»[3].

هــذه هي حال الحمى فكيف كانت حال أبي بكر وصاحبيه رضي الله عنهم؟ لقد كانوا مزيجاً من:

---

(١) ســنده صحيح. رواه ابن إسحاق حدثني هشــام بن عروة وعمر بن عبد الله بن عروة عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها - انظر ما بعده.

(٢) سنده رواه البيهقي ٢-٥٦٧: الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. الأصم إمام وثقة معروف وسماع شيخه للسيرة صحيح، ويونس أحد رواه السيرة وهو حسن الحديث. والبقية أئمة ثقات.

(٣) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

الحمى والحنين.. والشعر والهذيان

وصلت عائشة فكان حوارها معهم حنيناً وشعراً وهذياناً.. عائشة رضي الله عنها تحكي ما جرى في تلك الزيارة فتقول: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه، فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال - موليا أبي بكر - في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم - وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب - وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبي بكر فقلت: كيف تجدك يا أبت؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ قال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه

فقلت: والله ما يدري ما يقول. وكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مِجنةً وهل يبدون لي شامة وطفيل)[1]

كان بلال يحترق من الحمى لكنه أشد احتراقاً بشوقه المستعر إلى مكة.. إلى سوق مجنة في أسفل مكة، وإلى جبلي شامة وطفيل، اللذين يطلان كالحب على ذلك السوق. كان يحن إلى مراتع الصبا بين تلك النبتات.. بين الإذخر والجليل، ثم يزفر بأنفاسه الملتهبة بالحمى فيقول والحسرة في صدره: (اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا إلى أرض الوباء)[2].

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وقد مر معنا، وقدر واه البخاري ٢٦٦٧.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٢-٦٦٧.

تأثر النبي ﷺ بهذا الشوق والحنين، وأخذته الشفقة بأصحابه، وبالمدينة التي تسكن قلبه.. عندما سمع شكوى حبيبته عائشة التي تقول: (ذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى.

فقال ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة[1]»[2].

وفي ليلة من تلك الليالي المحمومة.. كان ﷺ في فراشه وعيناه نائمتان.. في تلك الليلة رأى شيئاً مخيفاً ومفرحاً في منامه، فبشر به أصحابه وبشر به المدينة وقال: (رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة، فأولتها: أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة، وهي الجحفة)[3] وارتحل الوباء، وارتحلت الحمى عن أبي بكر وبلال، وعن عامر بن فهيرة، ليعودوا حول رسول الله ﷺ مع المهاجرين والأنصار، ويكحل عينيه بهم، لكن تلك المجالس الطيبة تفتقد إلى أحد عظماء الأنصار. ورسول الله ﷺ لا يعيش في أبراج بعيداً عن أصحابه.. إنه منهم وبينهم.. يصافحهم ويبتسم في وجوههم.. يمشي في أسواقهم، ويأكل من طعامهم، ويزورهم في منازلهم، ويسأل عن غائبهم، ويتفقد أحوالهم.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من الصحابة، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده، بين يديه فقال له النبي ﷺ: «تحبه؟»

فقال: يا رسول الله أحبك الله كما أحبه.

فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ فقال: «ما لي لا أرى فلاناً»؟ فقالوا: يا رسول الله، بنيه الذي رأيته هلك.

فلقيه النبي ﷺ فسأله عن بنيه، فأخبره بأنه هلك، فعزاه عليه ثم قال ﷺ: «يا فلان أيما كان أحب إليك: أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة

---

(١) الجحفة.

(٢) جزء من حديث ابن إسحاق السابق وهو حسن.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٥٦٨.

إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟» قال: يانبي الله، بل يسبقني إلى الجنة فيفتحها لي، لهو أحب إلي.

قال ﷺ: «فذاك لك». فقال رجل من الأنصار: يا رسـول الله جعلني الله فداءك، أله خاصة أو لكلنا؟ قال ﷺ: بل لكلكم)[1].

مـا أجمل الحب والبراءة فـي هذه القصة.. ما أجمل العـزاء النبوي.. ما أجمل الطفولة في مجلس النبي ﷺ، وما أجمل هذا النبي وهو يسـأل الرجل عن حبه، وما أروعه وهو يحرضه على البوح بشيء من أعماقه، وهو يعزيه، وهو يعده بعينين بريئتين تتلهفان له عند باب الجنة.

هذه البشرى ليست للرجال فقط، وهذه العناية ليست للرجال فقط. يحدثنا صحابي آخر فيقول: (كان ﷺ يتعهد الأنصار، ويعودهم، ويسأل عنهم، فبلغه عن امرأة من الأنصار مـات ابنها وليـس لها غيره، وأنها جزعت عليه جزعاً شـديداً، فأتاهـا النبي ﷺ ومعه أصحابه، فلما بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبي الله يريد أن يدخل: يعزيها. فدخل رسول اللـه ﷺ فقـال: «أما إنه بلغني أنـك جزعت على ابنك، فأمرها بتقـوى الله وبالصبر»، فقالـت: يا رسـول الله، ما لي لا أجزع وإني امرأة رقـوب لا ألد، ولم يكن لي غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «الرقوب: الذي يبقى ولدها». ثم قال: «ما من امرئ أو امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة أولاد يحتسـبهم إلا أدخله الله بهم الجنة»، فقال عمر وهو عن يمين النبي ﷺ: بأبي أنت وأمي، واثنين؟ قال ﷺ: «واثنين»)[2].

إذاً فالنبي ﷺ (كان يتعهد الأنصار، ويعودهم ويسـأل عنهـم)[3].. كان يتفقدهم رجالاً ونسـاءً.. أغنياء وفقراء.. كان يفرح معهم، ويواسـيهم في مصائبهم وأحزانهم.. كان يخفف عنهم بعض أعباء الحياة وهمومها.

هاهـو يتهيأ للخروج مـن منزله ليعود مريضاً، وهذه المـرة لم يكن المريض رجلاً عادياً. إنه أحد كبار الأنصار وأبطالهم، فقد سـمع ﷺ بأن (سـعد بن عبادة) طريح

---

(١) سـنده صحيح. رواه الطبراني ١٩-٣١ وغيره من طرق عن معاوية بن قرة عن أبيه، ومعاوية ثقة التقريب ٥٣٩ ووالده صحابي وصححه الإمام الألباني في الجنائز (١٦٢) .

(٢) سنده على شرط مسلم كما قال الإمام الألباني في الجنائز ١٦٤ رواه الحاكم ١-٥٤٠.

(٣) سنده حسن على شرط مسلم وهو الحديث السابق.

الفراش، فتحركت مشاعره نحو أخيه وحبيبه، وتحركت دابته نحو هذا الأنصاري الكريم.

دعونا نمشي خلف رسول الله ﷺ فسوف يصادف في طريقه.

شجرةُ غريبة

رآها ﷺ في المدينة.. نبتة مشوهة تظهر لأول مرة.. أثارها غبار دابة رسول الله ﷺ المتجهة تحمل حباً نحو سعد بن عبادة.. أثارها ذلك الغبار، فاهتزت وتطايرت أشواكها، فجرحت مشاعر رسول الله ﷺ.

ما هذه الشجرة، وهل وصل ﷺ إلى بيت سعد بن عبادة..؟

لا أحد يستطيع وصف ما حدث مثل الطفل الأسمر أسامة بن زيد، حبيب رسول الله ﷺ، فقد كان يركب خلف رسول الله ﷺ فوق تلك الدابة.. هاهو أسامة يحدثنا فيقول: (إن رسول الله ﷺ ركب حماراً عليه إكاف[1] على قطيفة فدكية[2]، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا بالمجلس أخلاط من المسلمين ومن المشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة[3]، خمَّر[4] ابن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا.

فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك.

---

(١) سرج الحمار.
(٢) نسبة إلى فدك وهي بلدة قريبة من المدينة المنورة.
(٣) غبارها.
(٤) غطى.

واستب المسلمون والمشـركون واليهود، حتى كادوا يتثاورون[1]، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا.

ثم ركب رسـول الله ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له رسول الله ﷺ: «أيا سـعد، ألم تسـمع ما قـال أبو حباب - يريد عبد الله بـن أبي؟» قال: كذا.. وكذا.

قال سـعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة[2] على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة[3]، فلما رد الله بالحق الذي أعطاك شـرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت.

فعفا عنه رسـول الله ﷺ، وكان وأصحابه يعفون عن المشـركين وأهل الكتاب كما أمـره الله عز وجل، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

وكان رسـول اللـه ﷺ يتأول في العفو مـا أمره الله عز وجل بـه..)[6]، لأنه ظل وارف للجميع.. حتى لهؤلاء المشركين واليهود، ولولا ذلك لما تجرأ أحد منهم حتى على الهمس، وفي هذا الظل المتاح للجميع تحول (ابن سلول) إلى كهفٍ للأصنام والمشركين، وجحر لليهود.. لقد تحول إلى كهفٍ لمشـروعٍ يحـاك في الظلام، لتقويض هذه الدولة الجديدة.

---

(١) يتواثبون للقتال.
(٢) أي القرية أي المدينة المنورة.
(٣) أي يجعلوه زعيماً للأوس والخزرج.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.
(٥) سورة البقرة.
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٥٦٦.

عبد الله بن أبي لم يتأذَ من غبار الدابة، ولم يخمر أنفه من أجل سلامة رئتيه، فهو ليس غريباً على الغبار، والغبار ليس بغريب عليه. لكنه خمر عقله وقلبه عن الحقيقة.. هو يضيق براكب الدابة، وبكل ما يفعله ويقوله. إنه يقرأ هزيمته في كل سعادة أدخلها نبي الله ﷺ على كل بيت.. إنه يرى نكسته في فرح الرجال والنساء، وابتسامات الأطفال وهم يلتصقون برسول الله ﷺ.

لا أدري ما مصير المدينة لو توج عبد الله بن أبي بن سلول أميراً عليها، وإلى أي قاع سوف يرسو بها؟ لكن من المؤكد أنها لن تكون المدينة المنورة التي تهفوا إليها الدنيا، بل ستظل يثرب.

إن زعامة عبد الله بن أبي ليست - في حالة نجاحها - سوى تأجيل لوقت انفجار قنبلة موقوتة، فالجاهلية هي الجاهلية، والثأر لا يطفئه سوى الثأر، ما دامت الأصنام رابضة في البيوت والأندية.

عبد الله بن أُبي بن سلول المشرك ضاق بهؤلاء الأضياف المهاجرين، وطار صوابه لهذا الكرم الأنصاري. لقد فقد صداقاته وزعامته، فقومه يحبون المهاجرين أكثر مما يحبونه، ويتماهون بهم وينفصلون عنه.. إنهم يلتقون في ذلك المسجد خمس مرات في اليوم. كيف ذلك؟ أليس من سبيل إلى استعادة أحد منهم؟ أو استعادة شيءٍ منهم؟ أليس من سبيل إلى إعادة هؤلاء المهاجرين وطردهم مع نبيهم من المدينة؟ أليس من سبيل إلى تشريدهم خلف جبال المدينة؟

المدينة تجيب.. تقول: لا يا ابن أبي بن سلول.. ليس هناك من سبيل، فلقد تغيّر أصحابك.. غيّرهم نبي الله، وغيّر نفوسهم، وغيّر بلدتك وغيّر اسمها، وإن لم تكن تحتمل هذا التغيير وهذا الحب الذي تكرهه، فاذهب إلى دار أنس بن مالك لتنظر مايفعله نبي الله ﷺ هناك.. ومايفعل معه المهاجرون والأنصار. اذهب إلى دار أنس بن مالك فهناك أمرٌ خطير لا أظنك سوف تحتمله.

ماذا يحدث في دار أنس

نبي الله ﷺ الآن في دار أنس، والمهاجرون والأنصار من حوله يتطلعون إليه.. ينتظرون كلماته والحماس يقفز في جوانحهم.. يتطلعون إلى هديةٍ للجميع.

هاهو أنس بن مالك بين المهاجرين والأنصار.. سألناه: ما الذي يحدث في داركم يا أنس؟ أخبرنا.

أجاب أنس إجابة كالعيد فقال: (حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا)[1] يا الله.. ما أروعه من خبر.. هنيئاً للدنيا.. هنيئاً لك يا أنس، وهنيئاً لداركم.

هاهم الصحابة يخرجون من الدار، وقد صاروا أخوة.. فوق أخوة الإسلام، فالمسلم أخو المسلم، لكن ميزة الأخوة في دار أنس أنها لم تحدث من قبل، ولن تحدث من بعد.

إنها غيمة وحي.. أمطرتهم حباً ثم ارتحلت، ولم تمطر أحداً سواهم.. هاهي الغيمة بين شفتي أحد الصحابة، وهو يحدثنا عنها فيقول: (كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم)[2].

لقد آخى ﷺ بين صحابته، فماهت الأرواح بالأرواح.. هاهو أبو عبيدة يمسك بيد أخيه. نسأل أنساً مرة أخرى؟ فيجيب أن رسول الله ﷺ قد (آخى بين أبي عبيدة بن الجراح، وبين أبي طلحة)[3].

ونسأل أنساً مرة ثالثة: من هذا الذي يلح ويلح على عبد الرحمن ابن عوف؟

فيقول رضي الله عنه: (إن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها.

فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق.

فدلوه، فذهب، فاشترى وباع فربح، فجاء بشيء من أقط وسمن. ثم لبث ما شاء الله أن يلبث، فجاء وعليه ودع زعفران، فقال رسول الله ﷺ: «مهيم؟» فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة.

قال ﷺ: «ما أصدقتها؟» قال: وزن نواة من ذهب.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وأحمد واللفظ لأحمد (١١١/٣).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٥٨٠.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٩٦٠ (مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه).

قال ﷺ: أَوْلِمْ ولو شاة. قال عبد الرحمن: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً، لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة)[1].

إن أخوة النسب تركض وتركض، وتلهث وتتعب فلا تستطيع الإمساك بما أمسكت به أخوة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع. لقد حولت دار أنس سعد بن الربيع ربيعاً يتقلب فيه عبد الرحمن بن عوف.. ربيعاً أنصارياً.. يتنقل فيه عبد الرحمن ويسافر فلا يجد له حدوداً.. يبحث عن أطرافه، فلا يرى سوى الربيع أينما حل.. أينما اتجه. وعندما يحاصره هذا الكرم يتوجه بقلبه المتيم المأخوذ إلى رسول الله ﷺ.. يشتكي من هذا الحب، ومن هذا الكرم.. يتوجه هو والمهاجرون، ويقول هو و (المهاجرون: يا رسول الله: يارسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير. لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله؟

قال ﷺ: «لا.. ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم»[2].

يحق للمهاجرين أن يشتكوا، ويحق لهم أن يحتاروا، فلقد تساءلت الدنيا: من لهؤلاء الهاربين الهائمين المشردين؟ من ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[3].

فأجابت طيبة، وأجابت الأنصار، وتسابقت الأيدي إلى أحبابها المهاجرين، وأشرعت الأبواب.

لم يكن هناك ازدحام من المهاجرين على أبواب إخوانهم الأنصار، لكن كان هناك ازدحام بين القلوب الأنصارية على أحبابهم المهاجرين. كانت الأنصار أمواجاً من الرحمة.. تغمر إخوانهم المهاجرين وتنعشهم، بعد طول مسير وطول حرمان وعذاب، حتى بلغ الحب أن (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[4].

---

(١) سنده صحيح. رواه أحمد ٣-٢٧١ حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وحميد عن أنس. عفان وحماد وحميد ثقات أثبات مروا معنا. وهو للبخاري دون آخر الحديث (٥٠٧٢).

(٢) سنده ثلاثي صحيح. رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس، يزيد بن هارون بن زاذان ثقة متقن عابد، وشيخه حميد ابن أبي حميد الطويل تابعي ثقة سمع من أنس .

(٣) سورة الحشر: الآية ٨.

(٤) البخاري ٢٦٢٥ ومعنى اقترعت أي قاموا بإجراء القرعة لشدة تنافسهم على إكرامهم.

أي طوفــان من الحب هذا؟! كانت أيدي الطواغيت في مكة تتخطفهم بالســياط واللكمات، وكانت ألســنتهم تعكر كل صباحاتهم، وهذه هي الأيدي الأنصارية المتوضئة تمســح آثار السياط وتمســح الدموع والجراح، وتحمل هؤلاء الغرباء إلى حيث الرحب والســعة.. كان الفقراء من الأنصار أســرع من الأغنياء.. ينافسونهم، ويطلبون القرعة أيضاً، فالحب والكرم في قاموس الأنصار ليس حكراً على أحد، والصدور أفســح من المنازل، والكلمات ألذ من أطايب الطعام، والشــهادة تنزل من فوق سبع سماوات شرفاً للأنصار يفخرون وأبناؤهم بحمله.. الشــهادة لهم لم تأت من بيت شعر مدفوع الثمن، أو خطبــة مــن فصيح يبتغي بها قربى.. الشــهادة جاءت من الكــريم الذي يعطي ولا يعطى.. من أكرم الأكرمــين.. من خالق الكرماء، ومعطي الأغنياء والملوك.. آيات تتلى إلى يوم القيامة ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو[1] ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]

المرء يُمدح إذا كان كريماً، ويُمدح أكثر إن كان يقدم للآخرين كل ما عنده، لكن أن يكون محتاجاً أشــد الحاجة فيقدم للآخرين حاجته الملحة، فذلك كرم انتزعه الأنصار وحدهم، وهذا أحدهم.. يشهد له الله.. يشهد له سراجه. وهذه امرأة أنصارية سخية يشهد لها الله، ويشهد لها سراجها.. في ليلة جاع رسول الله ﷺ فيها، وجاعت عائشة وجاعت ســودة، ولم يكن في تلك الحجرات الكريمة ســوى قطرات من الماء.. تعكس لمعان النجوم وكرم الأنصار مع ذلك القادم من بعيد. تلك الليلة تقول لنا: (إن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه؟

فقلن: ما معنا إلا الماء.

فقال رســول الله ﷺ: «مــن يضم، أو يضيف هذا؟» فقال رجــل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رســول اللــه ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيئي طعامك، وأصبحي[3] سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً.

---

(١) سكنوا.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

(٣) أي أوقدي مصباحك وأشعليه.

فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها، فأطفأته، فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين[1]. فلما أصبحا غدا إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ضحك الله الليلة، أو عجب[2] من فعالكما! فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ [3]﴾[4].

ضحك الله وعجب من بيت من بيوت الأنصار.. ليس فيه سوى طعام الصغار.. ليس فيه سوى الإيمان والكرم.. أي شيء حزته أيها الأنصاري أنت وزوجتك الكريمة! أي شيء فعلتماه بأخيكما وأي كرم كان هناك عندما ردد الأنصار: يا رسول الله: (اقسم بيننا وبينهم النخل)[5].

عرق السنين، وحصاد العمر والجهد يبذله الأنصار كالماء البارد.. كالبسمة العذبة لإخوانهم المهاجرين. من يلوم الدنيا في حب الأنصار.. من يلوم المهاجرين في حب الأنصار.. من يلومه ﷺ عندما يعلن حبه للأنصار على الطرقات.. على النساء، وعلى أطفال كالزهور؟

ذات يوم (جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ.. ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي... والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي»)[6].

يا طيبة.. يا عاشقة الأنبياء والمرسلين.. يا حاضنة الوحي والمهاجرين.. يا أرض الأناشيد والنخيل.. حاصرت القادمين بحبك حتى استسلموا، فأعلنوه من أعماقهم. ها هو ﷺ ذات يوم جميل جالسٌ على دروب أطفال الأنصار فلم يصبر.. قام معلناً

---

(١) جائعين.

(٢) ضحك الله وعجب ضحكاً وعجباً يليق بجلال الله وعظمته ليس كضحك المخلوق ولا كعجب المخلوق وليس كمثله شيء.. نؤمن به ونسلم كما جاء من عند الله ورسوله وصدق الله ورسوله... فالله ليس كمخلوقاته وصفاته ليست كصفات مخلوقاته.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٥)حديث صحيح. رواه البخاري ٣٧٨٦.

(٦)حديث صحيح. رواه البخاري ٣٧٨٥.

حبه.. حباً رآه أنس ورواه فقال: (رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين - حسبت أنه قال من عرس[1] - فقام النبي ﷺ ممثلاً[2] فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

اللهم أنتم من أحب الناس إلي»[3].

إن بهجة النساء والأطفال والسامعين بما قاله ﷺ تفوق بهجتهم بذلك العرس وأفراحه، وإنهم والله ليستحقون هذا الحب، فالذي فعلوه لم يفعله أحد قبلهم، ولم يفعله أحد بعدهم. لقد تمادى حب الأنصار وتجاوز الكرم.. لقد تمادوا إلى حد (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[4].

تألق الأنصار فأوقفوا شمس التاريخ ونقشوا عليها، ثم تركوها تنطلق للأجيال.. أوقفوا شمس التاريخ عندما توجهوا إليه ﷺ بقلوب كالسحاب، فأمطروه بقولهم: (اقسم بيننا وبينهم النخل)[5] لكن النبي ﷺ لم يكن بالانتهازي، ولا يحب لصحابته أن يكونوا كذلك.. كان ﷺ يربي الأمة ويلهم الأجيال.. كان يريد أمة حية تنبض بالحركة والمسير إلى لا حدود. أدرك الأنصار ذلك فـ (قالوا: يكفوننا المئونة ويشركوننا في الثمر. قالوا: سمعنا وأطعنا)[6].

وبدأ المهاجرون بالعمل، وهوت سواعدهم كالحديد تشق الأرض.. تحرثها وتقطف، وبدأ المهاجرون والأنصار صفاً واحداً.. صفاً يشكل ملامح الدولة الجديدة.. دولة تنهض نحو السماء والأرض، بعد أن تشعبت جذورها في القلوب وفي المدينة.. الجميع يبتهجون بذلك.. الجميع إلا قلوباً يحرقها ما يحدث حولها فهي حانقة دائماً.

---

(١) الذي قال: حسبت ليس أنس ولكنه أحد الرواة عنه.

(٢) أي مكلفاً نفسه... وجاء في رواية (ممتناً).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٧٩، لكن الذي في البخاري: ثلاث مرار.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٣٩٢٩ بلفظ: قرعت.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ٧٧٤.

(٦)حديث صحيح. رواه البخاري (٧٧٤).

الفهرس

• • •



هذه سيرة محمد ﷺ

الذي «كان أحسن الناس وجهاً.. وأحسنهم خلقاً.. أبيض مشرباً بحمـرة.. أسود الحدقة أهدب الأشفـار.. بعيد ما بين المنكبين.. أسيـل الخدين.. شديد سواد الشعـر.. له شعر يبلغ شحمة أذنيه.. أكحل العينين.. إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس لـه أخمص.. إذا وضـع رداءه عن منكبيه فكأنها سبيكة فضــة.. كان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة مذهبة.

شعره دون الجمة وفوق الوفرة.. شيبه نحو عشرين شعرة.. إذا مشـى.. كأنــه يتوكأ.. يمشي مشيـاً يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسـلان.. إذا مشى مشى أصحابه أمامه وتركوا ظهره للملائكة.

يمر بالنساء فيسلم عليهن.. يمر بالصبيان فيسلم عليهم. كان أرحم الناس بالصبيان والعيال.. كان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم.. وإذا قدم من سفر تُلقي بصبيان أهل بيته»

كان عطـراً مـن التواضـع.. كان عبقاً فـي الطرقات «لا يأنـف ولا يستكبر أن يمشـي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي لـه حاجته.. وكان مما يقوله للخادم: ألك حاجة؟

كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

إذا لقيه أحد من الصحابة فتناول يده.. ناوله إياها.. فلم ينزع حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يـده منــه.. وإذا لقي أحداً من الصحابة فتناول أذنه.. ناوله إياها.. ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هــو الذي ينزعها عنــه.. إذا لقيه أحد من الصحابة فقام معه.. قام معه حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه.. كان أكثر الناس تبسماً.

كان يعرف بريح الطيب إذا أقبل.. يعجبه الريح الطيبة.. ولا يرد الطيب.

كان أكثـر النـاس تبسمـاً.. لا يُدفع عنه النـاس ولا يُضربوا عنه.. إذا لقيه الرجـل من أصحابه مسحه ودعا له.

كان يحلب شاته ويخدم نفسه.. كان يخيط ثوبه.. ويخصف نعله.. ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم».

هــذه بعض صفاته الجميلة.. أما سيرته.. وحياته فهي سطور هذا الكتاب الذي يعرضها قصة.. لكن موثقة بالأحاديث الصحيحة المخرَّجة.


"ISBN"G:978-603-503-571-2
9 786035 03571 2



موضوع الكتاب: السيرة النبوية





السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة
(قراءة جديدة)

محمد الصوياني



المجلد الأول
(١ - ٢)

العبيكان
Obeikan

السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

محمد الصوياني

الجزء الثاني



ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني.-

ط٥.- الرياض، ١٤٣٤هـ

٤مج.

٢٦٨ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٢-٥٧١-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٦-٥٧٣-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١- السيرة النبوية ٢- الحديث الصحيح أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٣٤ / ٩٥١٦

الطبعة الخامسة

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥



يحرقهم ما يحدث حولهم، ويموتون كل يوم بغيظهم.. إنهم يشرَقون بهذا النبي وبمن معه.. مع أنه كان يتقرّب إليهم.. كان يحبُ هدايتهم، فهم كغيرهم يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم إلى الحق، بل كان ﷺ يشعرهم بأنهم أقرب من غيرهم إلى الإسلام - ومع أن القرب لا يكفي أبداً - فقد كان ﷺ يشعرهم بذلك..

وكان (يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء)[1] فـ (كان أهل الكتاب يسدلون شعورهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، فسدل النبي ﷺ ناصيته)[2].

لكن اليهود لا يريدون استيعاب أي شيء من محمد ﷺ.. إنهم يفضلون البقاء في معسكرهم، ولن يغادروه إلا إذا أرسل الله نبياً يهودياً يلتزم بأوراق هذه التوراة الممزقة، وكان لليهود تعاليم سلمت من التمزيق أقرها الإسلام ولم ينكرها.. من هذه البقايا:

قصة صيام يوم عاشوراء

وهو العاشر من شهر محرم (يوم عاشوراء كان يصام في الجاهلية)[3] و(أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء)[4] ومنهم (قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه. فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه)[5].

وتقول عائشة: (كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان وكان يوما تستر فيه الكعبة)[6] فـ (ذكر عند رسول الله ﷺ يوم عاشوراء فقال رسول الله ﷺ: «كان يوماً يصومه أهل الجاهلية، فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه، ومن كره فليدع»)[7] وليس

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام، صيام عاشوراء (١٢٠).
(٤) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٣).
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥) ومسلم واللفظ له، الصيام (١١٨).
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٢-٥٧٨.
(٧) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٤).

أهـل الجاهلية فقط هم من يحتفي بذلك اليوم (إنـه يوم تعظمه اليهود والنصارى)[1] وكان يهود خيبر أكثر احتفاءً من غيرهم فـ(هم يصومون يوم عاشـوراء، يتخذونه عيداً ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم)[2].

لكـن ما علاقة ذلك كله باليهود، وهل كان رسـول الله ﷺ مقلداً لأهل الجاهلية وأهل الكتاب.؟

دونمـا تردد الإجابة: لا، فمحمد ﷺ جاء وحيـاً.. لا ينطق عن الهوى، ولا يملك أن يشـرع من عند نفسه، وإذا كان سياق الحدث فيه موافقة للجاهلية ولليهود، فهؤلاء القـوم كالغريق بين الأمواج.. مرةً يتنفس هواءً كالحياة، ومـرةً يتنفس ماءً، أما الثالثة فيتنفس فيها موتاً.

ومحمد ﷺ كان يتنفس هواءً نقياً، ويتفوه وحياً وعطراً.

اسـتغرب رسـول الله ﷺ صيام اليهود لذلك اليوم، فكانت هذه القصة التي سـجلت كـم كان ﷺ ودوداً.. كم كان محباً لإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام، وكم كان محباً لنبي اليهود موسـى عليه الصلاة والسـلام، فلقد (قدم ﷺ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه.

فقال رسـول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ وأمـر بصيامه)[3] لأن الله أمر بصيامه.. لا لأن يهوداً صاموه، فالمسـألة هنا مختلفة، وليست كالحالة الأولى -حالة فرق الشعر وتسريحه - فالصوم عبادة، وأي عبادة كانت فهـي محرمة في الإسـلام، إلا إذا جـاء دليل من كلام الله أو كلام رسـوله ﷺ يأمر بها أو يحث عليها، وهكذا يبقي الإسـلام العبادة جديدةً صافيةً تسـتقى من النبع، لا

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٩).
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٦).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (الصوم ١٢٤).

من ترسبات التاريخ والأهواء والفلسفات، وهذا ما أغاظ اليهود، وجعلهم من ثقوب حصونهم يترقبون، ويتطلعون إلى أي خطأ قد يحدث منه ﷺ، أو من أحد الصحابة، وها هو أحدهم يجد ما يريد:

يهودي ينتقد المسلمين

فقد سمع هذا الرجل بعض الصحابة يقولون: ما شاء الله وشئت. وبعضهم يقول إذا حلف: والكعبة.

فرح اليهودي بما سمع فأطلق قدميه ولسانه تجاه رسول الله ﷺ منتقداً هذا النوع من الشرك، و(أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون[١] وإنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة)[٢].

سمع رسول الله ﷺ هذه الكلمات من اليهودي وتأثر بها، لكنه لم ينفجر في وجهه.. لم يقل له: من أنت حتى تعلمنا ديننا!

لم يقل له: لماذا لا تنصحون أنفسكم أيها اليهود، وأنتم تقولون (عزير ابن الله)

لم يقل: أنت لست من أهل العلم حتى نستمع إليك.

لم يقل هذا شأن داخلي فيما بيننا، ولا نقبل النقد سوى من جماعتنا الذين هم على ديننا.

لم يتفوه ﷺ بشيء من ذلك، بل ضرب لأتباعه المثل الأعلى في قبول الحق، وأن الحق يقبل من أي شخص كان حتى لو كان عدواً حاقداً، ويضرب المثل الأعلى لتقبل الآخر ونقد الآخر.

استمع ﷺ لهذا النقد اللاذع وقبله، ثم توجه نحو أصحابه بهدوء ودون انفعال مصححاً ذلك الانحراف الخطير و(أمرهم النبي ﷺ إذا أردوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة)[٣].

---

(١) تجعلون لله نداً ومثيلاً وشبيهاً.

(٢) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

(٣) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

وكررها ﷺ قائلاً لهم: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[1] مهما كان فلان هذا. وقال أيضاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت»[2].. «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد. ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون»[3].

وبيّن خطورة ذلك فقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[4]

امتثل المسلمون فذهبوا بالأجر، وذهب رسول الله ﷺ بالصحابة والأجر ينسابون كالنـور.. كالنهر.. يغسـلون تلك الزوايا التي تخثرت فيها بقايا الشـرك. وذهب ذلك اليهـودي بغيظه يجره، ويجر قدميه الثقيلتين ورأسـه المتحجر، فلقد انتفع المسـلمون بالحق والنقد، ولم ينتفع هو بشـيء، بل أضاف إلى رصيد اليهود عناداً آخر.. أضاف مساحةً بينهم وبين المسلمين.

اتضحت تلك المسافة، وبانت تلك المفارقة عندما كان رسول الله ﷺ مهموماً يفكر ويفكر، ويبحث عن وسيلة ينبه بها المسلمين إلى دخول وقت الصلاة فـ:

كيف ينادي إلى الصلاة

لقـد (اهتم النبي ﷺ للصلاة، كيف يجمـع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً، فلم يعجبه ذلك. فذُكر له: القنع - يعني الشَّبُّور (شبور[5] اليهود) فلم يعجبه ذلك وقال: هو من أمر اليهود.

فذكر له الناقوس، فقال: هو من أمر النصارى)[6].

---

(١) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني).
(٢) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير).
(٣) حديث صحيح. (المصدر السابق).
(٤) حديث صحيح. (المصدر السابق).
(٥) الشبور: هو البوق الذي ينفخ فيه.
(٦) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨).

لم ينزل وحي بهذا الشـأن، والحيرة تملأ الجميع.. اجتهد الرسـول ﷺ اجتهاد البشر (ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب للمسلمين)[1] في وقت الصلاة. أمر ﷺ بذلك وهو كاره له.

عرف ذلك في وجهه أحد الأنصار الذين حضروا ذلك الحوار واسـمه: (عبد الله بـن زيـد بن عبد ربه) (فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لهمّ رسـول الله ﷺ)[2]، وكان بـين حرات المدينة من يحمل الحل.. إنـه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكنه بالتأكيـد لـم يكن حاضراً ذلك النقاش، لذلك لم يقل ما عنده، ولم يقص على أحد ما رآه في منامه.

انصرف الجميع وخيم الليل على المدينة، وانتثرت نجومه فوق نخيلها، ونام رسول الله ﷺ ونام الجميع، ونام عبد الله بن زيد، وبينما هو منسـرب في أعماق النوم وجد في تلك الأعماق رجلاً يطوف به:

رجلٌ من حلم وأذان من وحي

يقص عبد الله رؤياه فيقول: (لما أمر رسـول الله ﷺ بالناقوس يعمل، ليضرب به للنـاس لجمع الصلاة، طاف بي وأنا نائم رجلٌ يحمل ناقوسـاً في يده، فقلت: يا عبد الله.. أتبيع الناقوس؟

قال: وما تصنع به..؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة.

قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟

فقلت له: بلى.

قال: تقول:

الله أكبر.. الله أكبر..

---

(١) حديـث صحيح. رواه ابن إسـحاق.. وهو من الطريـق الصحيحة التي عند أبي داود... وابن إسـحاق لم يدلس.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨)...

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة... حي على الصلاة

حي على الفلاح... حي على الفلاح

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول إذا أقمت الصلاة:

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة.. حي على الفلاح

قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله..

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته بما رأيت.

فقال ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن، فإنه أندى صوتاً منك»)[1].

وبذلك يجعل السنة لأمته في اختيار المؤذن هو حسن الصوت.

ونظراً لأن عذوبة الصوت تزيد القرآن والأذان جاذبية وجمالاً.. كان ﷺ يقول: «زينوا القرآن بأصواتكم»[2] ويقول: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»[3] ولعذوبة صوت بلال فقد جعل الأذان من نصيبه رضي الله عنه.

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨/٩٩).

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

وهــا هو صوت بلال الذي ملأ شــوارع مكــة: أحدٌ.. أحدٌ.. هاهــو عذباً كأنهار الحبشــة.. حراً كطيورها.. ينساب في ســماء المدينة يوقظ فجرها.. يوقظ شمسها، وينادي المهاجرين والأنصار، ويسحرهم بصوته.

يقول عبد الله بن زيد: (فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه، ويؤذن به، فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجر رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رســول الله، لقد رأيت مثل ما رأى. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد»)[1].

لا بد أن ابن الخطاب رضي الله عنه لم يحضر تلك الآراء والاقتراحات وإلا لتكلم بمــا رآه، فقد (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رآه قبل ذلك فكتمه عشــرين يومــاً، ثــم أخبر النبي ﷺ فقال له: ما منعك أن تخبرني. فقال: ســبقني عبد الله بن زيد فاستحييت)[2].

إذاً لا بــوق.. لا رايــة.. لا أجراس. لكنه التوحيد.. حمله طيفٌ جميل (عليه ثوبان أخضران)[3].

فرحــة جديدة للمؤمنين، وتميز جديــد. فرحة لعبد الله بن زيــد، فرحة لعمر.. وصوت بلال يتدفق منعشاً في شوارع المدينة وسمائها، ولم يكن هناك مئذنة للمسجد، ولا منارة، ولكن:

فرحة لامرأة من الأنصار

وشــرف تتغنى به، وتتنافس بــه تلك الأنصارية التي بنت المنبر لرســول الله ﷺ. امرأة من بني النجار جعلت من بيتها نبعاً للنداء الجديد.. جعلت من كل بيتها موضعاً لقدمي بلال وصوته.

تقــول تلــك المرأة الكريمــة: (كان بيتي من أطول بيت حول المســجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتي بسَــحَر، فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه

---

(١) هذا الحديث بقية حديث أبي داود (٩٩).
(٢) حديث صحيح. صحيح سنن أبي داود (٩٨).
(٣) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

تمطى[1]. ثم قال: اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك، ثم يؤذن. والله ما علمته كان تركها ليلة واحدة. يعني هذه الكلمات)[2].

وتصحو المدينة.. المدينـة كلها على ذلك الصوت الندي، وتتعش وتتوضأ. المدينة كلها .. إلا بيوتاً ترتج مفزوعة الجدران والقلوب.. شاخصة الأعين، فصوت بلال رصاص يخترق بيوت يهود، وجدران عبد الله بن سلول وأمثاله.

أما قريش فقد أدركت أن اليهود وأصحابهم من المشركين قد تورموا حقداً وترقباً، وقـد حان الوقـت لتفجير ذلك الورم في وجه محمد ﷺ ووجـوه أصحابه. لقد حان تحويـل حرات المدينة إلى أودية من الدماء والحروب، والثارات التي لا تنتهي. فجاءت شرارة تلك الحروب مغلفة برسالة مستفزة من قريش.. جاءت لتجعل من:

المدينة حريقاً ومذابح

كانت تلك الشرارة حروفاً مشتعلةً، رسالةً تتقد تهديداً ووعيداً. رسالةً تبشر بالمقابر. ف(كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان، من الأوس والخزرج - ورسول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر -: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم، ونستبيح نساءكم.

فلمـا بلغ ذلك عبد الله بن أبي[3] ومن كان معه مـن عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبـي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: لقـد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ. مـا كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسـكم! تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟!! فلما سـمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)[4] فتفرق الشر وهدأت الأنفاس،

---

(١) أي تمطى الفجر وامتد نوره في الأفق.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود (٥١٩): حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير عن امرأة من بني النجار: ابن إسحاق سمع شيخه الثقة الذي مرمعنا، وعروة غني عن التعريف والمرأة صحابية من الأنصار رضي الله عنها.

(٣) هو عبد الله بن أبي بن سلول وهو ما يزال على شركه مجاهراً معانداً...

(٤) حديث صحيح رواه أبو داود ٢ - ١٧١ حدثنا محمد بن داود بن سفيان ثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: عن رجل من أصحاب النبي وقد رواه عبد الرزاق ٥-٣٥٨ وقد انقلب عنده اسـم التابعـي والصواب ما في أبي داود، فعبد الله بن عبد الرحمـن لم يرو عن الصحابة والزهري ليس من شيوخه، والصواب ما في أبي داود، رغم ضعف شيخه. صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود.

وسكنت الأنفس المشحونة بالشر، وسلمت المدينة من حرب أهلية، ومعركة كادت تطحن أهلها وجدرانها.

كلماتٌ قليلة وهادئة أعادت السيوف إلى أغمادها .. أعادت العقول إلى رشدها، وخذلت قريشاً، وخذلت اليهود المتربصين خلف شقوق الأبواب، وتم الحفاظ على كيان الدولة الإسلامية الوليدة من حركة عسكرية كادت تعصف بأحلامها وشبابها، فالمدينة بحاجة إلى تلك الأحلام وإلى ذلك الشباب، وإلى قائد عظيم وحكيم فكيف بهذا النبي العظيم الحكيم ﷺ. ولم تكن يوماً من الأيام عطشى إلى تلك الدماء.. التي أدمنت سفحها أياد تمسحت بالجاهلية والأصنام، ولن تسفك قريش مهما حاولت أكثر مما سيسفكه أهل المدينة بأيدي بعضهم البعض.. الأوس يدركون ذلك جيداً، والخزرج ليسوا بأقل وعيا منهم بذلك، وخطوات قليلة إلى المقابر الجماعية لضحايا (بُعاث) تذكرهم متى ما تسلل النسيان إليهم.

إذاً فقد هدأت الأنفس بعد يوم مشحون، ونامت المدينة كطفل على تلك العبارات الحانية كصدر أم حنون، وقدم النبي عليه السلام مفهومه للمواطنة في الدولة الإسلامية.

مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية

خطاب النبي ﷺ لهؤلاء الوثنيين وعباد الأصنام كان خطاباً تصالحياً راقياً مع الكفار، فقد احتواهم في دولته، ولم يفرح بفرصة تصفيتهم والقضاء عليهم وإقصائهم وهو قادر على ذلك، فزعماؤهم معه، ومعه أعداد غفيرة متوثبة من المهاجرين، لكنه لم يفعل ذلك، بل جعلهم ضمن النسيج الوطني في دولته، فهدَّأ ثورتهم، وطيب خواطرهم، وفرش لهم المدينة ورداً وربيعاً من الأمن والسلام والمصالحة، رغم أنهم على الشرك وعبادة الحطب والخشب والحجارة، ورغم أنه بعث لنشر التوحيد والدفاع عن نشره، ورغم أن زعماءهم أعطوه بيعتهم على الحرب والسلم، لكنه عليه السلام يقدم مثالا على التفريق بين أخوة الإسلام ومفهوم المواطنة، وأنه مع الفارق الشاسع بينهما، إلا أن لكل مفهوم حقوقه وحدوده، وأنه يحرم إضرام النار بين المفهومين.

حال عليه السلام بين أمن دولته وبين أعدائها، وقطع الطريق على من يريدون إثارة الفتنة، وإشعال الحرب الأهلية، فلا إكراه في الدين، ولكن هناك إكراه في المواطنة، فمن لم يرد الدين فله ذلك، ومن لم يرد الوطن فالأوطان كثيرة، لكنه سيشهر السيف في وجه كل من سيشهر سيفه في وجه الدين أو الوطن.

أشرقت الشمس من جديد على هذه المدينة الراقية، والدولة المتحضرة.. وأشرق الوعي يحمل تعليمات جادةً وأعيناً أكثر اتساعاً على المستقبل والآفاق، فالمدينة.. المدينة وأهلها في خطر، وتوقعات أبي بكر الصديق ورؤيته الثاقبة بدأت تتشكل على أرض الواقع، فـ:

ماذا توقع أبو بكر؟

منذ أكثر من عام.. عندما أخرج من مكة مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم المرير، وقريش ثائرة الأنفاس مغبرة الأقدام والجياد.. تبحث عن محمد ﷺ وصاحبه وبقية أصحابه، في تلك الساعات الخائفة (لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال)[1].

وصدق أبو بكر، فتلك الرسالة شرارة، والمدينة أمست في خطر، والهشيم يحيط بها من كل ناحية، وفي قلوب المشركين واليهود يتكوم هشيم أخطر، ولا بد من الاحتراز والاحتياط.. لا بد من السلاح في جو مكفهر بالسلاح والشرك، فهب الصحابة رضوان الله عليهم لـ:

حراسة رسول الله ﷺ

ذات ليلة كانت عائشة إلى جانبه ﷺ، وكان السهر إلى جانبهما أيضاً. قلقت عائشة رضي الله عنها، فما الذي حدث؟

---

(١) سنده صحيح. رواه الطبراني في تفسيره (٩/١٦٠) من طرق عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ومسلم البطين هو ابن عمران وهو ثقة من رجال الشيخين وشيخه إمام من أئمة التابعين ومجاهديهم... وهو على شرط الشيخين وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣/٧٩).

تقول رضي الله عنها: (إن رســول الله ﷺ ســهر ذات ليلة وهي إلى جنبه، فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟

قال ﷺ: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة».

فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح. فقال ﷺ: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك.

فقال ﷺ: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت عائشة: فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه)[1] بعد أن تطوع سعد بن أبي وقاص لحراسته ﷺ.

لم يكن الخطر ســهماً واحداً نحو رسول الله ﷺ، بل كان أسهماً ورماحاً منطلقة نحــو كل مؤمن.. نحو كل أنصاري ومهاجر، ولا بد أن يكون الحذر دائماً. وفي رســول الله ﷺ أسوة حسنة لأتباعه لذلك صار:

السلاح صباحاً.. السلاح مساءً

صحابي آخر اســمه (أبي بن كعب) يقول: (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟)[2].

سؤال يرتعش خوفاً من هذه الجموع التي اتجهت بخيلها ورجلها، ورماحها وأوثانها نحو مدينة التوحيد الوحيدة. ســؤال مُثقل بحمل الســلاح والخــوف؟ فنزلت الإجابة وحياً.. قرآناً وبشــرى.. نزل الوحي يحمــل الأرض... كل الأرض، والدنيا.. كل الدنيا مشرعة الأبواب لمحمد ﷺ وأصحابه.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم وأحمد واللفظ لأحمد ٦-١٤١.

(٢) ســنده حسن. رواه الطبراني (مجمع البحرين ٥٨/٦) والبيهقي ٣-٦ واللفظ له: أحمد بن سعيد الدارمي ثنــا علي بن الحســين بن واقد حدثني أبي عن الربيع بن أنس عــن أبي العالية عن أبي: أبو العالية تابعي ثقة وتلميذه حســن الحديث إذا لم يخالف التقريب٢١٠ و٢٠٥ والحســين ثقة من رجال مسلم وابنه حسن الحديث التقريب ١٦٩ وأحمد ثقة حافظ.

يقول أبي ابن كعب: (فنزلت: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾)(١).

آيات تتنزل بالأعياد والفتوح والبشرى.. أخذها الصحابة واستبشروا بها..

أخذوها كما يأخذون سلاحهم ليل نهار، فرسول الله ﷺ علمهم أن هناك فداءً، وأن هناك تضحيةً وهدفاً، والهدف لا يأتي لمترددٍ، أو جبان أو خائف. خاصةً في مثل هذه الظروف، فالمؤامرة تطل كالوحش فوق رؤوس الجبال على حصن الإسلام الجديد، فلا بد من التحرك.. لا بد من عمل شيء يحمي المدينة ويعيد المظالم إلى أهلها، ويزيح ليل الأصنام الهائل عن عقول وقلوب البشرية وأجيالها، ولن يكون ذلك بالصلاة والدعاء والمعجزات وحدها.. لا بد من:

نشاط عسكري

فلن يمكّن الله عباده ما لم يقوموا بتحويل دنياهم إلى حركة تلهج بـ(لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. محمد رسول الله وخاتم النبيين) بدءا من أنفسهم، حتى تتسق وتتناغم مع حركة الكون كله.. المسبح بحمد ربه ليل نهار.

حمل الصحابة تلك البشرى وحملوا شروطها، فحولت ضعفهم قوةً، وخوفهم أمناً وثقة. فهاهو سعد بن معاذ يتجه إلى مكة الطاهرة.. كالتحدي يتفجر بين أصنام قريش وسيوفها.. ثقةً يتحدى، وثقةً يهدد، فيتحول صناديد وطواغيت قريش حوله إلى خراف ترتجف خوفاً، وتتصبب عرقاً.

(انطلق سعد بن معاذ معتمراً، فنزل على أمية بن خلف - أبي صفوان- وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد. فقال أمية لسعد: ألا انتظر، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت.

---

(١) المصدر السابق.

فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟

فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم.

فتلاحيا بينهما.. فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام[1].

فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك - وجعل يمسكه- فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمد ﷺ يزعم أنه قاتلك. قال: إياي؟ قال: نعم. قال والله ما يكذب محمد إذا حدث)[2].

أصيب أمية بالرعب والهلع بعد أن بشره سعد بالقتل. يحدثنا سعد عن ذلك فيقول: أنه (قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصبأة[3]، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان[4] ما رجعت إلى أهلك سالماً.

فقال له سعد - ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا، لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم - سيد أهل الوادي. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قاله لي سعد؟

قالت: وما قال لك؟. قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري. فقال أمية والله لا أخرج من مكة)[5].

---

(١) طريق تجارة قريش إلى الشام وهو يمر بالمدينة أو قربها.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦٣٢).

(٣) يقصد المهاجرين الذين تركوا دين آبائهم وأجدادهم.

(٤) أبو صفوان هو أمية بن خلف.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠) (ص٨١٢).

لقد شلت كلمات سعد الواثقة بالله وبرسوله ﷺ.. شلت هذا الطاغية، فأمسى لا يرى سوى الموت يتربص له في منافذ مكة.. لقد جعل خوفه الأرض.. كل الأرض قبراً يحاصره، ويحاصر مكة معه. أما ذلك الشاب المهاب سعد بن معاذ، فعاد إلى حبيبه ﷺ وهو أكثر قوة ويقيناً.. عاد ليجد المدينة غير المدينة.. عاد لينقل ما رآه وما سمعه من خوف يملأ طغاة مكة، عندما هددهم بقطع طرق قوافلهم إلى الشام، وهي شرايينهم وأوردتهم. عاد لينفذ تهديده، فقد منعه أبو جهل، وعلى أبي جهل أن يتحمل ثمن تهوره وجاهليته الحمقاء. أما رسول الله ﷺ فكان أسبق من سعد إلى هذا التفكير، لقد قرر ﷺ أن يجعل للمدينة قوتها التي تُشعر الآخرين بمنعتها، وتشعر قريشاً خاصة.. أن هذا الدين الجديد صار خطراً يهدد صلف وتسلط شركها، ودروب قوافلها، بل ومكانتها بين العرب، عندما قصدها:

غزوة العُشَيرة

وهي أول غزوة بدأها ﷺ وقادها[1]، وليس لدينا تفاصيل صحيحة عن أحداثها، والعُشيرة قرب ينبع.. على طريق قوافل قريش، وهي أول تهديد عملي لقريش وقوافلها التي سلبت المهاجرين كل أموالهم، ووصف الله معاناتهم بأنهم المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم. كما غزا ﷺ:

غزوة الأبواء

ليس لدينا تفاصيل موثقة عنها، ولكن وقوعها ثابت في مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة، ذلك المكان الذي وقفت فيه المطايا بمحمد ﷺ وهو طفل صغير، وقفت

---

(١) ورد أن الأبواء هي أول غزوة لرسول الله ﷺ لكن هذا غير صحيح، فالرواية في ذلك ضعيفة رواها كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده.. وكثير هذا ضعيف. وهناك رواية أخرى عن عروة وقد وصلها ابن عائذ لكنها من طريق ابن لهيعة.. وليس فيها أن الأبواء أول غزوة بل إن سعداً، أول من رمى سهماً في سبيل الله، وهذا صحيح ولكنه ليس دليلاً على أن الأبواء أول الغزوات لأن العشيرة -عند المؤرخين - لم يحدث فيها قتال ولم يرم بها بالسهام. أما كون سعد أول من رمى بسهم فقد جاء على لسانه هو ولم يذكر رضي الله عنه متى كان ذلك والرواية عند الشيخين وستمر معنا.

فيـه المطايـا تودع أمه التي فقدهـا هناك وغابت عن عينيه وعـن الدنيا حيث دفنت هناك. ذلك المكان الذي أبكاه ﷺ كان موعداً لغزوةٍ لا نعرف أحداثها الصحيحة بعد، لكنها موجهة لقريش التي بدأت التهديد، وهي نوعٌ من الاسـتطلاع العسكري بالقوة، لرصد تحركات العدو وخطره، أكسـبت الصحابة خبرة جديدة في الكشف عن طبيعة الأرض والأعداء المحيطين بدولة الإسلام الجديدة.

كانت تلميحاً لمن تسول له نفسه غزو المدينة والغدر بأهلها، فأزعجت تلك التحركات قريشاً، لكن رسول الله ﷺ كان يعد لهم مفاجأة.. سرية بقيادة صحابي عظيم هو أبو عبيدة، والذي حاز لقباً عظيماً فيما بعد هو: أمين الأمة. فما قصة تلك السرية:

سرية نخلة

(بعث ﷺ رهطاً، فبعث عليهم أبا عبيدة، فلما أخذ لينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فبعث رجلاً مكانه يقال له: عبد الله ابن جحش)(١).

حرارة الشـوق أبكت أبا عبيدة، وحبه لملازمة رسول الله ﷺ جعلت رسول الله ﷺ يشـفق عليه ويبقيه جواره، ليعين قائداً عظيماً. فـ (بعث رسـول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب، [مقفلة من بدر الأولى] وبعث معه بثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهـم من الأنصـار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسـير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحداً. وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين:

من بني عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

ومن بني أمية بن عبد شمس ثم من حلفائهم: عبد الله بن جحش بن رئاب - وهو أمير القوم- [وعكاشة بن محصن بن حرثان أحد بني أسد بن خزيمة].

---

(١) سـنده قوي.. رواه الطبري ٤-٣٠٧ وابن أبي حاتم ٢٠٦٤: وغيرهما من طرق عن معتمر بن سـليمان عن أبيه، حدثني الحضرمي عن أبي السـوار عن جندب بن عبد الله. أبو السـوار العدوي تابعي ثقة واسـمه حسان بن حريث التقريب ٦٤٦. وتلميذه الحضرمي حق لا باس به التقريب ١٧١ أما معتمر ووالده فثقتان معروفان.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان، حليف لهم.

ومن بني زهرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص.

ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة -حليف لهم- وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة [وخالد ابن البكير - أحد بني سعد بن ليث، حليف لهم].

ومن بني الحارث بن فهر: سهل بن بيضاء.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب ونظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصَّد بها قريشاً وتعلَّم لنا من أخبارهم.

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب: قال سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة فأرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع.؟ فأما أنا، فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ. (فرجع رجلان ومضى بقيتهم)[1].

فمضى ومضى معه أصحابه، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: (بُحران) أضل سعد ابن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا عليه يعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارةً، من تجارة قريش فيها منهم:

عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم وقدنزلوا قريباً منهم.

---

(١) هذه العبارة ليست في السياق بل هي جزء من الحديث الصحيح السابق. وفي السياق سبب رجوع هذين الصحابيين.. وهو أنهما فقدا بعيرهما.

فأشرف لهم عكاشة بن محصن - وقد كان حلق رأسه - فلما رأوه أمنوه، وقالوا: عُمّار، فلا بأس علينا منهم.

وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من جمادى، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام.

فتردد القوم فهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، [وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم] وقدم عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة.

[وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ ما غنمتم الخمس، وذلك قبل أن يفرض الخمس من الغنائم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرها على أصحابه]، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: [«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك سُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم المسلمون فيما صنعوا وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر الحرام، ولم تؤمروا بقتال].

وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في جمادى.

[وقالت يهود تتفاءل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، واقد بن عبد الله وقدت الحرب. فجعل الله عليهم ذلك وبهم] فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله عز وجل على

رسوله ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين)[1]. وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي طعن أبو جهل أمه واغتال أباه ضمن تلك السرية.

يحدثنا عن ذلك ابن مسعود وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم فيقولون في قوله تعالى: (﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم: عبد الله بن جحش وفيهم: عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، وسهل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب.

وكتب لابن جحش كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى ينزل (بطن ملل)، فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه:

أنْ سِرْ حتى تنزل بطن نخلة. فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإني موصٍ وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فسار، وتخلف عنه سعد وعتبة أضلا راحلة لهما، فأقاما يطلبانها، وسار هو وأصحابه حتى نزل بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان، والمغيرة بن عثمان، وعبد الله بن المغيرة.

---

(١) حديث صحيح عدا ما بين المعقوفين.. رواه الطبري تفسير (٢/٣٦٠) واللفظ له والبيهقي في الدلائل (٣/١٧-١٨) عن عروة مرسلاً وهو صحيح إلى عروة لكن لم يذكر شيخه من الصحابة.. والحديث له شاهد عند الطبراني (٢/١٧٤) وابن أبي حاتم (سيرة ابن كثير ٢/٣٧٠) من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه: حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله: عن النبي ﷺ أنه بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح.. كما رواه الطبري في التفسير (٢/٣٦٢) وأبهم الحضرمي فقال: إنه حدثه رجل عن أبي السوار وقال الهيثمي في المجمع (٦/١٩٨)/ رجاله ثقات.. وله شواهد كثيرة عند الطبري (٢/٣٦٣) عن ابن عباس.. وأبي مالك الغفاري.. وعن الزهري وعثمان الجزري ومقسم مولى ابن عباس.. أما ما بين معقوفين مثل تصرف ابن جحش في الغنائم وقول يهود فهو مرسل.. والحديث يشهد له ما بعده.

فذكــر قتل واقد لعمرو بن الحضرمي، ورجعوا بالغنيمة والأســيرين، فكانت أول غنيمة غنمها المسلمون، وقال المشركون: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من اســتحل الشــهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. وقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى)[1].

وسواء قتل ذلك المشرك في جمادى، أو في رجب، فرسول الله ﷺ لم يأمر بذلك. إنما هي حماســة المهاجرين المقهورين، المطرودين مــن ديارهم وأموالهم، ولا ذنب لهم سوى أن يقولوا: لا إله إلا الله. لم يتمالكوا أنفسهم - وهم بشر - عندما رأوا أموالهم التي غصبتها قريش واغتصبتها.. تســيل أمامهم تجارةً تنمو بين أيدي المشركين، وهم الحفاة الذين تشققت أقدامهم من العوز والفقر، وأضناهم الجوع والتعب.. إنك تبحث بين هؤلاء الرفقة.. تســألهم أين سعد بن أبي وقاص؟ أين عتبة بن غزوان؟ ألم ينطلقا معكم من المدينة..؟

فتأتيك الإجابة حســرةً: لقد انطلق سعد وعتبة وسارا مع السرية، لكن على جملٍ واحد جاءا.. يركب أحدهما، وينزل الآخر. ويركب الآخر فترة ليمشي صاحبه. أما الآن فلا جمل لهما، لقد ند وهرب وهما يركضان على أقدامهما المتشققة خلفه.

يذرعان بطون الأودية والشعاب، ولا أحد غير الله يعلم ما سيحدث لهما.

ما موقف الإنسان.. أي إنسان يرى أموال سارقه وقاتل أمه وأبيه أمام عينيه بينما هو يأكل ورق الشجر من الفقر.؟

ما موقف الإنســان.. أي إنســان حافي القدمين يبحث عن جمل، ثم يرى جماله المسلوبة منه تتقاطر بالمال، بينما تتقاطر قدماه بالدماء؟ ما شعور سعد المشرد الفقير الذي يصف الأجواء التي عاشها في مثل تلك المهمات الصعبة فيقول: (إني لأول العرب

---

(١) ســنده قوي. رواه السدي (تفسيره ابن كثير ٢/ ٢٧٠) عن أبي صالح عن ابن عباس وهذا ضعيف من أجل أبي صالح وهو (باذام) لكن الســدي رواه من طريق أصح عن مرة عن ابن مســعود وجماعة من الصحابة، ومُرَّة بن شراحيل تابعي كبير ثقة. وهو صحيح بما قبله.

رمى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشّجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خلط)[1].

إن رجلاً لا يجد سوى ورق الشجر لمعذور أن ينهب ما يسد به رمقه، ويدفع به الموت عن نفسه، فكيف إذا كانت تلك الأموال أمواله وأموال أصحابه المسلوبة.

وبعد هذا كله لا يعذرهم عليه السلام، وينتظر حكم الوحي فيهم، فيتنزل العذر من فوق سبع سماوات انتصاراً من الله لعباده، وتبرئة لساحتهم البيضاء من تُهم أهل الشرك، الذين ارتكبوا الفظائع والشنائع بحق الله أولاً، ثم بحق رسوله ﷺ وصحابته الكرام. عاد الصحابة نصراً وبراءةً.. عادوا ليجدوا في المدينة خبراً.. ليجدوا في وجه رسول الله ﷺ فرحاً، وفي وجوه يهود كدراً وظلمةً. لقد فقدت يهود شيئاً عظيماً، وانقطع آخر الحبال بينهما.

اليهودُ حداد.. اليهود سواد، بعد أن طرق ذلك الخبر أبواب حصونهم المنيعة وآذانهم المسدودة.

فما هذا الخبر؟

هذا الخبر هدية قادمة من السماء.. كان في الماضي شوقاً، وكان أمنية تتردد في صدره ﷺ مذ كان في مكة.. مذ كان يخر ساجداً لله في بيته المحرم.. متجهاً بقلبه نحو الله.. مستقبلاً الشام.. حيث المسجد الأقصى، لكنه كان يقوم بحركة تعبر عن ذلك الحلم الذي لا يستطيع الإفضاء به. كان ﷺ يجعل الكعبة أمام وجهه، بحيث تكون بينه وبين المسجد الأقصى. لكن ماذا عنه الآن؟

إنه ما زال ينفذ أمر ربه، فيستقبل المسجد الأقصى، أما الكعبة.. أما حبيبته الحزينة التي نشأ بالقرب منها، وأحبها ووضع حجرها، فالجاهلية بينهما.. حبيبته بعيدة.. لا يستطيع رؤيتها، ولا الحديث إليها، ولا تحسس ثيابها، ولا حتى استقبالها.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٢٨).

إنها هناك أسيرة.. وهو هاهنا مشتاق.. يتقلب وجهه في السماء، ويطوف طرفه في أرجائها (كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ﴾)[1].

إذاً فالقبلة تحولت من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة المكرمة، لكن متى كان ذلك..؟ وما علاقة اليهود بالقبلة واتجاه المسلمين في صلاتهم؟ وماذا حدث عند سماع الخبر؟

أما متى؟ فخبر ذلك عند طفل عذب اسمه (البراء بن عازب) حيث يقول: (إن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها: صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه ﷺ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة.

فداروا كما هم قبل البيت)[2] أي اتجهوا نحو الكعبة، منفذين.. ممتثلين دون تردد، فالأمر وحي.

لكن إذا كان هناك تساؤل فهل هو اعتراض أو احتجاج كاحتجاج يهود؟

المؤمنون أرقى من ذلك، إن لهم قلوباً رقيقة ومشاعر طيبة، وأدباً جماً. كان تساؤلهم رحمة وشفقة بإخوانٍ لهم ماتوا ولم يصلوا تجاه المسجد الحرام.

البراء ينقل تلك المشاعر فيقول: (فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟)[3].

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير، البقرة ١٤٣): حدثني إسماعيل ابن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء. وشيخ ابن إسحاق وشيخ شيخه تابعيان ثقتان ثبتان.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).

(٣) حديث صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

بل إن البراء رضي الله عنه كان أحد المتسائلين. هو نفسه يقول: (وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا، لم ندر ما نقول فيهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾)[1] وهو أرحم من أن يخذل من قصده، وأناخ رحله وقلبه ببابه. ولعل تلك التساؤلات بدأت بُعيد الصلاة، حيث بدت المدينة مشغولة بهذا الحدث الكبير، فتأخر وصول الخبر إلى أهل قباء ومسجد قباء، فـ (بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليهم الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة. فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة)[2]. كما استدار أصحابهم في المدينة.. كما امتثل إخوانهم هناك خلف رسول الله ﷺ. أما اليهود فقد استدارت قلوبهم ودروبهم عن الله، وعن رسوله ﷺ، وعن قبلته الجديدة، وتطايرت من حصونهم وألسنتهم ألفاظ الاستهجان والاحتجاج.

ها هم يجوبون شوارع المدينة، في سفاهة وسماجة يقولون: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟! فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[3].

لله المشرق والمغرب ولا شيء لليهود، والأمر وحي، واليهود حاربوا الوحي، وقتلوا حملة الوحي من الأنبياء، فكيف لا يحاربون وحياً نزل على غيرهم؟ ونبياً ليس من بينهم؟ واكتملت الآيات، فتلاها رسول الله ﷺ وتلاها أصحابه، ومن بعدهم سيتلونها.. سيتلونها هكذا: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ[4] مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٣) ومسلم من حديث ابن عمر (المساجد ١٣).
(٣) سنده صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.
(٤) أي اليهود.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ(1) ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ(2) لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾[3].. يهتـدون إلى ما أعرضت عنه اليهود، وضل عنه النصارى. كانت تلك الأحداث بعد منتصف شـهر رجب من السـنة الثانية من الهجرة، وبعد عودة سَـرِيَّة عبد الله بن جحش، حدثنا بذلك سـعد بن أبي وقاص.. ربما بعد أن وجد بعيره.

يقول رضي الله عنه: (صلى رسـول الله ﷺ سـت عشر شهراً، ثم حول بعد ذلك قبل المسجد الحرام قبل بدر بشهرين)[4].

إذاً فالنخل الذي كان في قبلة المسجد أصبح في خلفية المسجد، وبما أن المسجد كان (مبنياً باللبن، وسـقفه الجريد، وعمده خشب النخل) فبالتأكيد تكون خلفيته كلها

---

(1) أي باتجاه المسجد الحرام.

(2) أي اليهود.

(3) سورة البقرة: الآيات ١٤٢-١٥٠.

(4) سـنده صحيح رواه البيهقي ٢-٥٧٣: حدثنا أبو العبـاس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا ابن فضيل، عن يحيى بن سـعيد عن سـعيد بن المسيب: سمعت سعد. سعيد إمام التابعين وتلميذه تابعي ثقة التهذيب ١١-٢٢١ ومحمد بن فضيل بن غزوان ثقة ثبت ٥٠٢ وسـماع تلميذه للسـيرة صحيح، وأبو العباس الأصم ثقة ثبت.

مسقوفةً، وبناء جدار في قبلته السابقة أو أحد زواياها، قد يفي بحاجةٍ ماسةٍ.. فهناك أمر يحطم القلب، وتدمع له العين.. هناك حاجة ملحة تطل من منافذ المدينة كل يوم، حيث يتهادى إلى المدينة مهاجر أو مهاجرون. بعضهم ضاق بقومه، و البعض ضاق به قومه وضيقوا عليه، وسلبوا كل شيء لديه، أو دفع كل شيء ثمناً لهروب جميل أو هجرة أجمل. دون مال يأتون.. البعض حفاة، وبعضهم أشباه عراة، وأحضان المدينة والأنصار مفتوحة لهم، وهذه الدولة الصغيرة تستقبلهم وتحميهم، لكن بيوت الأنصار قد امتلأت، والهاربون والمطاردون قد كثروا.

نظر ﷺ إليهم.. تأملهم.. تأمل أبيات الأنصار الممتلئة، وتأمل فقره وفقرهم.. نظر ﷺ إلى مسجده، فجعله دار من ليس له دار، ومأوى من ليس له مأوى، فبنى ذلك الجدار في آخر المسجد[1]، فأصبحت حجرة (صفة) متواضعة.

تدافع القادمون إليها، وعاش في تلك الصفة رجال يمسي الفقر معهم حيث أمسوا.. يبيت معهم، ويصبح كظلهم، يأكل ولا يأكلون، ويشرب ولا يشربون.. عاشوا فيها أياماً ليست كالأيام، وميزهم الفقر بلقب كالفقر هو:

أهل الصفة

رجال فضلوا جوار رسول الله ﷺ رغم العوز على أن يعيشوا عيشةً أيسر بجوار طاغية أو صنم.. يصفهم أحد الصحابة فيقول: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال)[2].

ويقول أحد الذين شاهدوهم: (كان أصحاب الصفة الفقراء)[3] لا يملكون شيئاً.. غرباء لا يعرفون أحداً. هذا هو أحد الفقراء.. أحد الذين عاشوا تلك المعاناة، ودلفوا إلى تلك الصفة الجميلة.. غريب اسمه (طلحة بن عمرو) رضي الله عنه يقول: (كان

---

(١) لا أعرف تحديداً صحيحاً لموقع الصفة وإلا لذكرته وذكرت إسناده.

(٢) متفق عليه.. انظر البخاري (٦٤٥٢) وهو حديث طويل وما ذكرته جزء منه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٠).

الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة. وكنت فيمن نزل الصفة)[1].

لكن ماذا عن شعور رسول الله ﷺ نحو هؤلاء الضعفاء بعد أن بنى لهم تلك الصفة؟ هل تخلى عنهم؟

يواصل طلحة حديثه فيقول: (وكنت فيمن نزل الصفة، فوافقت رجلاً، وكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد من تمر بين رجلين)[2] لأن رسول الله ﷺ لا يجد لهم أكثر من مدٍ للاثنين معاً.. نصف مدٍ يملأ الكف الواحدة.. هو طعام الرجل الواحد من أهل الصفة.. من الليل إلى الليل.. ليومه وليلته، وقد يأكل الرجل منهم، وقد يأكلون جميعاً بينما رسول الله ﷺ لا يجد ما يأكله، وقد لا يجدون ولا يجد رسول الله ﷺ ما يأكله.

يقول أحد الصحابة: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال. إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها)[3].

إذاً فنصف المد لم يكن متوفراً يومياً، بل ربما مر يوم أو يومان والانتظار يحرق أهل الصفة.. ينظر بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى باب الصفة.. إلى باب المسجد.. إلى باب رسول الله ﷺ يبحثون عن لقمة.. عن نصف لقمة.. عن أي شيء يسد جوعهم، فلا يجدون سوى الجوع طعاماً وشراباً، ويخرج رسول الله ﷺ من بيته، فتتعلق أعينهم به، ويحدقون بيديه فيجدونها خالية كبطونهم. فيدركون أنه ما من طعام.

يقول أحدهم: (الله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع)[4] مثل هذا الجائع.. كيف سيصلي وقد حان وقت الصلاة؟!

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٨٧ وأبو نعيم ١-٣٣٩ واللفظ له من طريق: داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو. داود ثقة متقن وشيخه تابعي ثقة قيل اسمه محجن أو عطاء التقريب ٢٠٠ و٦٣٢ وطلحة صحابي رضي الله عنه.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (٣/٢٨٧) وهو الحديث السابق.

(٣) متفق عليه قال أبو نعيم (١/٣٣٩).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٦٤٥٢).

ها هو ﷺ يدخل المسجد فتقام الصلاة، ويقوم أهل الصفة خلف رسول الله ﷺ للصلاة، وبعضهم يترنح من الهزال والجوع، فيصطفون بين إخوانهم المصلين، ويكبر ﷺ، فيكبرون. وفي لحظات الخشوع الهادئة مع الله.. يسمع المصلون دوياً وارتطاماً بين الصفوف، ويسمع رسول الله ﷺ خلفه حركةً وأنيناً، وتخفق القلوب القريبة من الحدث، ويتألم الجميع بعد انقضاء الصلاة، وينهض عليه السلام بنفسه، فمالذي حدث؟

هذا هو فضالة بن عبيد الأنصاري.. أحد الصحابة.. كان يصلي خلف رسول الله ﷺ.. سألناه:

ماذا حدث يا فضالة

فيجيب فضالة وهو عالم من الشعور والألم فيقول: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم لما بهم من الخصاصية[1] وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين. فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته انصرف إليهم فيقول: لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة[2].

قال فضالة: فأنا مع رسول الله ﷺ يومئذٍ)[3] حيث كان يواسيهم، ويدفع عنهم ما يؤلمهم بشيء يهون معه الجوع، وتحلو معه المعاناة.. يعزيهم بشيء يحول الموت وما بعده إلى أمنية وحلم لا حدود له. ومع هذا العزاء وهذه المواساة كان ﷺ يتألم لتألمهم، ويتألم مثل ألمهم.

تقول حبيبته عائشة رضي الله عنها: (كان ﷺ إذا دخل قال: هل عندكم طعام؟ فإذا قيل: لا. قال: إني صائم)[4].

---

(١) الجوع.

(٢) الفقر والحاجة.

(٣) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٧) من طريق حيوة وابن وهب عن ابن هانئ أن أبا علي الجنبي حدثه أنه سمع فضالة بن عبيد. أبو هانئ: حميد بن هانئ الخولاني ثقة التهذيب ٣-٥١) وشيخه عمرو بن مالك الهمداني تابعي ثقة أيضاً التهذيب ٨-٩٥.

(٤) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ١-٨٦٠.

لقد تحول الجوع إلى عبادة، وتحول الأكل عبادة..

قـال ﷺ مبشـراً إخوانـه الموسـرين: (الطاعم الشـاكر له مثل أجـر الصائم الصابر)[1].

ويقول ﷺ مندهشـاً ومبشـراً: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سـراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[2] (عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له)[3].

يقـول ﷺ ذلـك، وهو يتمنى لو يدفع عنهم هذا الفقر وهذا الهزال، لكنه لا يجد، فقد كانت تمر به أوقات لا يملك فيها سوى المواساة.. يستمع إلى الشكوى تلو الشكوى، فـي أجواء من الحرية والفاقة. هـا هو (طلحة بن عمرو) أحد أهل الصفة.. يروي لنا حواراً جرى بعد إحدى الصلوات بين رسـول الله ﷺ وبين أحد الفقراء، فيقول: (كان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مدٍ من تمر بين رجلين، فسلم ﷺ ذات يوم من الصلاة، فناداه رجلٌ منا فقال: يا رسـول الله، قد أحـرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف.

فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما لقي هو وأبو بكر الصديق عليه السلام من قومهما، فقال: مكثت أنا وصاحبي بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلا البرير، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظم طعامهم التمر، فواسونا فيـه. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن تدركون زماناً - أو من أدركهم منكم - تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى[4] عليكم ويراح[5] بالجفان)[6].

---

(١) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ١-٧٣١.
(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٩٥ .
(٣) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢-٨٣٨.
(٤) يقدم لكم في الصباح.
(٥) يقدم لكم في المساء.
(٦) سـنده صحيح. رواه أبو نعيم (٣٧٤/١) من طريقين: عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب ابن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو ورواه أحمد من الطريق نفسه وقد مر معنا.

فرح أهل الصفة بهذا الوعد الصادق، وتأثروا لما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق من أذى ومعاناة، حيث يمر معظم الشهر ليس عندهما ما يأكلانه سوى ثمر الأراك، فما تعرض له أهل الصفة شديد، ولكن ما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه كان أقسى وأشد.

ينصرف أهل الصفة إلى صفتهم، وقد طواهم الجوع والرضى والاحتساب، وانتظار الفرج. ولم يكن ﷺ يواسيهم بالماضي أو بالمستقبل فقط، بل كان إذا اشتدت حاجتهم يتحرك، ويحرك المدينة كلها من حولهم.

يقول أحد أبناء أبي بكر الصديق: (إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وإن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس »، وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة)[1].

مأساة هم أهل الصفة وارتحال وقصص باكية.. تنصت لها الأجيال بإجلال، فهذا أحدهم: (قرة بن إياس) يقص لابنه ما جرى لهم مع رسول الله ﷺ، وكان اسم ابنه معاوية. معاوية ينصت لأبيه وهو يقول: (لقد عمرنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان. ثم هل تدري ما الأسودان؟ قال معاوية: لا. قال: التمر والماء)[2] هذا هو الطعام وهذا هو الشراب فما هي:

ملابسكم يا أهل الصفة

لو شاهدتهم لبكيت، ولاستحيوا منك وأنت تنظر إليهم، وتنظر إلى تلك الأشياء التي ألقوها على أجسادهم.. يسمونها ملابس! وما هي بملابس. إنها أسمال مهلهلة بالية.. باكية.

---

(١) متفق عليه قاله أبو نعيم ورواه في الحلية (٣٣٨/١).

(٢) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية ٢-٢٢-٢٣ من طريق روح بن عبادة. ورواه جعفر بن سليمان، قالا: حدثنا بسطام بن مسلم عن معاوية بن مرة قال: قال أبي. وروح وجعفر ثقتان، وشيخهما ثقة من رجال التقريب، وشيخه تابعي ثقة التقريب ٥٣٨.

لو استمعت إليهم وهم يستغيثون: (يا رسول الله قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف)[1] الكتانية الغليظة الرديئة.

من يصــدق أنه (كان من أهل الصفة ســبعون رجلاً ليس لواحــدٍ منهم رداء)[2]. والرداء كالعباءة.

لقد كان ذلك.. رآهم رســول الله ﷺ، ورآهم أحد الصحابة، فنقل للجميع ما رآه وقال: (رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته)[3] فهو لا يملك غيره، ولا يملك ثمن سراويل أو ملابس داخلية تستر عورته.

وفي تفصيل آخر يقول: (رأيت ســبعين من أصحــاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء: إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)[4].

إن من يطلع على تلك المآســي التي تلوَّى منها أولئك الفقراء العظماء، ليظن أنهم مجرد فقراء مساكين.. جاءوا يبحثون عن الطعام والشراب والمأوى، وهم - والله - ما قدمــوا من أجل لقمة أو رغيف، ولم يتســللوا من أجل صُفــة متواضعة.. إذا ضربها المطر ســاعة أمطرت عليهم ساعات، وابتلت ثيابهم وجنوبهم وظهورهم، والأرض التي يتوســدونها. إن هؤلاء العظمــاء قد فروا من العيش الرغيــد، وتركوا الأهل والأموال والعشيرة، وربما الخدم.. تركوا الدنيا بكل زخارفها، لأنها كانت تركن إلى صنم.. لأنها كانت تلوذ بغير الله. قرأوا القرآن فاكتشفوا التوحيد، فأعاد خلق تصوراتهم وأفكارهم ورؤيتهم للكون والحياة من جديد، فاتجهوا بكليتهم.. بعواطفهم ومهجهم وعقولهم إلى

---

(١) مر معنا وهو صحيح.

(٢) سنده قوي. رواه أبو نعيم. الحلية ١-٣٣٩ حدثنا محمد بن محمد بن إسحاق حدثنا زكريا الساجي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عمي عبد الله بن وهب، عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة. وشــيخ أبي نعيم هو أبو أحمد الحاكم حافظ عصره (طبقات الحفاظ ٣٣٨) وشــيخه ابن يحيى ثقة فقيه من رجال التقريب وأحمد صدوق من رجال مسلم، وعمه ثقة معروف، وابن غزوان ثقة التهذيب ٨-٢٩٧ وأبو حازم الأشجعي تابعي ثقة التقريب ٢٤٦.

(٣) رواه أبو نعيم (٣٤١/١) من طريق الإمام أحمد بسند قوي وانظر ما بعده فهو هو...

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٢).

الله سـبحانه وتعالى، وتسـللوا والناس نيام إلى صفة لا تقي من البرد، ولا من الجوع. لكنها بالتأكيد صفة تستدفئ بمسجد رسول الله ﷺ، وبقرب رسول الله ﷺ.. يعمرها القرآن، ويزينها الإيمان.

تمر بها عائشة رضي الله عنها ذات ليلة وهي في طريقها إلى بيتها، فتقف خلف جدارها مأسورةً مأخوذةً. فتبطئ الخطا، وتبطئ على زوجها رسول الله ﷺ. ثم تعود، وعندما تصل يسألها رسول الله ﷺ: (أين كنت.؟ قلت: يا رسول الله سمعت قراءة رجل في المسجد، ما سمعت مثله قط.

فقام رسول الله ﷺ وتبعته. فقال لي: ما تدرين من هذا؟

قلت: لا. قال: هذا سالم مولى أبي حذيفة.

ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا)[1].

سـالم هذا عبد فقير صغير السـن.. لكن النبي ﷺ يفخر به.. يبتهج به، ويشكر الله سبحانه أن وهب هذه الأمة مثله.

إن أمة تفخر بالموالي والعبيد كما تفخر بالأشراف، لأمة عظيمة. وإن ديناً يتساوى فيه البشر، ليستحق الخلافة في الأرض.. كل الأرض، ويستحق أن تتقطع الأعناق في الصحاري والقفار بحثاً عنه.

فـي يوم من الأيام يقرر أحد المؤمنين أن يترك أهله ودياره.. يقرر أن يلتحق بتلك الصفـة المتواضعة خوفاً على دينه. أيام تمر وليالي تمضي، وهو يسـير مع غلامه في طريـق الهجرة، وذات يوم وعندمـا خيَّم الليل.. يقرر ذلك الغـلام الفرار والهرب من سـيده، فيفعل، ويتركه وحيداً مع الليل الخوف، فيواصل سيده المسير دون تردد، وتلك الليلة المشحونة بالهموم والوحدة والإرهاق تملأ صدره.. فيتنهد شعراً ويقول:

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن المبارك وأبو نعيم في الحلية (١/٣٧١) من طريق: حنظلة بن أبي سفيان عن عبد الرحمن بن سابط عن عائشة رضي الله عنها.ح. حنظلة شيخ ابن المبارك وشيخ الوليد عند أبي نعيم ثقة حجة (التهذيب ٣/٦٠) والتقريب (١/٢٠٦) وشيخه عبد الرحمن بن سابط تابعي ثقة (التقريب (١/٤٨٠) والتهذيب (٦/١٨٠).

يــا ليلــة مــن طولهــا وعنائهــا على أنهــا مــن دارة الكفــر نجَّت

مســافر بلا رفيق، وليل طويل مخيف، وطريق غير آمنة. كل ذلك يهون، لأنه يؤدي إلى المدينة.. إلى الحبيب محمد عليه السلام.

سكن ذلك المسافر في الصفة، وتخرج منها ليكون أعظم علماء الإسلام في الحديث.. تخــرج هو وغيره من تلك الصفة علماء، لأنها لم تكن ملجأ فقط. لقد تحولت إلى كتاب مفتوح منذ ذلك اليوم الذي خرج فيه ﷺ على أهل الصفة فنثر الكنوز بين أيديهم.

عقبة بن عامر كان أحد الحاضرين. سألناه ماذا قال لكم رسول الله ﷺ يا عقبة؟ فقال: (خرج رســول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين، في غير إثم ولا قطيعة رحم؟».

فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك. قال ﷺ: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، و ثلاث خير له من ثلاث، وأربع خيــر له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»)[1] الإبل التي هي أنفس ما يملكه العربي.. حولها الإسلام إلى أشياء رخيصة أمام أحرف العلم.

وحدث رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم عن العلم والمال، فأمرهم أن يحفظوا هذا الحديث فقال: (وأحدثكم حديثاً فاحفظوه إنما الدنيا لأربعة نفرٍ:

«عبــدٍ رزقه الله مالاً وعلمــاً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعمل لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

وعبدٍ رزقه الله تعالى علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية» يقول: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء.

وعبــدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، و لا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقاً. فهذا بأخبث المنازل.

---

(١) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، صلاة المسافرين.

.. وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان. فهو بنيته، فوزرهما سواء»)[1].

حتى النوايا والأمنيات حولها الإسلام إلى كنوز، لتتحول حياة المسلم إلى أحلام وآفاق تهون نحوها المعاناة. لذا فقد انطلق أهل الصفة نحو العلم، وانطلق أغنياء الصحابة نحو العلم، ونحو أهل الصفة وغيرهم من الفقراء، وانطلق الأنصار، وتفجر كرمهم من جديد، وفاح عبيرهم، وتوهجت شمسهم نحو أهل الصفة والفقراء.

هاهم يقومون بأعمال أشبه بالمعجزات.. أشبه بالخيال، لأنهم الأنصار، ولأنهم ينجزونها كلها في اليوم والليلة، وفي كل يوم وليلة.

يحدثنا عنهم أنس بن مالك فيقول: إنهم رجال (من الأنصار يقال لهم «القراء» فيهم خالي «حرام» يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل، يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء)[2].

ألم أقل إنه عمل أشبه بالمعجزات. قبل شروق الشمس ينهضون.. يصلون، ثم يستسقون لأهل المدينة.. يضعون لهم الماء في المسجد مسبلاً للعطشان، وابن السبيل، ولمن يمر أو يقيم في المسجد. ثم يتوجهون كالحياة إلى خارج المدينة.. تهوي فؤوسهم وسواعدهم.. يحتطبون، ويكدحون، ثم يذهبون به إلى بيوتهم؟

لا، بل إلى السوق حيث يمارسون البيع والشراء.. يبيعون الحطب، ويشترون بثمنه طعاماً لأهل الصفة وللفقراء الآخرين.

هذا هو نهارهم سقاية.. وكدح، وبيع وشراء، ثم صدقة طيبة يدخلون بها البسمة إلى قلوب إخوانهم المساكين. فإذا جن الليل عليهم توجهوا إلى مدرسة الإسلام، ومنبع ثقافته.. إلى المسجد.. يقرأون القرآن، ويتدارسون العلم ويصلون.

لا تدري أهم علماء، أم عمال، أم عباد، أم تجار؟

---

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع وصحيحي الترمذي وابن ماجه.

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، الإمارة، ٣ - ١٥١١.

إنهم الحياة إذا رسمها القرآن، ونفثت فيها السنة.. إنهم العطاء بكل أبعاده وأعماقه وآفاقه.. إنهم الأنصار، ولا تعرف الدنيا للأنصار مثيلاً. أما رسول الله ﷺ فقد انطلق من جديد.. يكثف الشعور بالمساكين والفقراء. انطلق رسول الله ﷺ نحو الجميع بوحي جميلٍ وجديد.. وحي يجعل من الإحساس بالفقر والفقراء عبادةً جديدةً.

الإسـلام من جديد يقدم للفقراء الهدايا والهبات والمشـاعر، فبعد أن مر شـهر رجب من السـنة الثانية، وحل بعده شهر شعبان أصبح المؤمنون ينتظرون هذا الجديد الجميل، الذي سـيطل مع إطلالة هلال شـهر رمضان القادم. فرمضان هذه السـنة سيختلف عن أي رمضان مضى. لقد أمر الله سبحانه بـ:

صيام شهر رمضان

وأنزل على نبيه ﷺ آيـات بينات يقول فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾[1].

إذاً فالصيام كان مفروضاً على الأنبياء السابقين.. كان مفروضاً على اليهود، وكان مفروضـاً على النصارى، لكنهم حرفوا فيه كمـا حرفوا الكتب التي جاء بها أنبياؤهم، وزادوا ونقصوا كما فعلوا في التوراة والإنجيل. فصار لكل طائفة صيام، وتشكل الصيام وتنوع حسب أمزجة الأحبار والرهبان.

أمـا الآن فقد جاء محمد ﷺ، وجـاء رمضان، وكتب الصيام من جديد. فما هذا الصيام الذي ضيعه أهل الكتاب وأعاده الله طرياً بمحمد ﷺ؟

ما هو الصيام

بدأ الصيام بـ: ترك الطعام والشـراب والجماع من بعد صلاة العشـاء إلى غروب الشـمس، فكان المسلم يأكل ويشرب من بعد الغروب إلى أن يصلي العشاء فقط، فإذا

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٨٣، ١٨٤.

صلى العشـــاء حرم عليه الطعام والشـــراب. كما أن من نام في الليل، ثم اســتيقظ في الليلة نفسها فلا يحل له أن يأكل أو يشرب شيئاً حتى غروب شمس الغد.

هذا إن كان المســلم ســليم الجسم، ولا يشكو من أي مرضٍ، وكان مقيماً في بلدته غير مســافر. فإن كان مريضاً أو مســافراً فيجوز له أن يفطر، لكن يجب عليه صيام الأيــام التـــي أفطرها فيما بعد. وقبل ذلك كله كان بإمكان أي مســلم ســليماً كان أو مريضاً.. مقيماً كان أو مســافراً. كان بإمكان أي مســلم أن يفطر، ولا يقضي أي يومٍ أفطره، لكن بشرط.

هذا الشــرط هو أن يقوم المفطر بتقديم وجبة تشبع مســكيناً واحداً عن كل يوم أفطره. لكن هذه الأحكام لم تدم. لقد تغيرت ونسخت، وجاءت بعدها:

أحكام جديدة في الصيام

وكان لهذه الأحكام الجديدة أســباب وقصص.. بعضها طريف، وبعضها يتلوى من الجوع. لكن الصيام لم يتغير. ما زال: ترك الطعام والشراب و... فما هذه القصص؟

البراء بن عازب رضي الله عنه يقص علينا إحداها، ويحدثنا عن أهل بيت صاموا وصــام معهم بيتهم، الذي كان خالياً كبطون أهله. ذلك البيت الذي لم يكن فيه ما يبل الريق، أو يسد الجوع. إنه باختصار صفة أخرى..

يقول البراء: (إن أحدهم كان إذا نام قبل أن يتعشى لم يحل له أن يأكل شيئاً، ولا يشرب ليلته ويومه من الغد حتى تغرب الشمس، حتى نزلت: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

ونزلــت في أبي قيس بن عمرو، أتى أهله وهـــو صائم بعد المغرب، فقال: هل من شيء؟ فقالت امرأته: ما عندنا شيء، ولكن أخرج ألتمس لك عشاء.

فخرجت ووضع رأسه فنام، فرجعت إليه فوجدته نائماً، وأيقظته فلم يطعم شيئاً، وبات وأصبح صائماً حتى انتصف النهار، فغشـــي عليه، وذلك قبل أن تنزل هذه الآية فأنزل اللــه فيــه)[1]. ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾.

---

(١) صحيح النسائي ٢-٤٦٧ للإمام الألباني وهو في للبخاري (١٩١٥) بلفظ آخر.

فقـط ولم ينزل الله كلمـة: (من الفجر) بعد قوله تعالـى: ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾. في بداية الأمر مما جعل بعض الصحابة يخطئ في معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود فكانـت هذه القصة الطريفة التي رواها صحابي اسـمه سـهل بن سـعد رضي الله عنـه فقال: (أنزلـت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾. ولـم ينزل: (من الفجر)، وكان رجـال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسـود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: (من الفجر) فعلموا أنما يعني الليل والنهار)[1].

أما القصة الأخرى فهي تتحدث عن قِصر وقت الفطر، وأنه مرهون بأداء صلاة العشاء.

يقـول أحد الصحابة رضي الله عنهم وهو يتحدث عن قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: فكان الناس على عهد النبي ﷺ إذا صلوا العتمة[2] حرم عليهم الطعام والشراب والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاختان رجل نفسه فجامع امرأته وقد صلى العشاء ولم يفطر، فأراد الله أن يجعل ذلك يسـراً لمن بقي ورخصة ومنفعة، فقال سبحانه: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. وكان هذا مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر)[3] فجعل الفطر مباحاً حتى طلوع الفجر، فيصوم المسلم حتى يغيب قرص الشمس حيث قال ﷺ لأصحابـه: «إذا أقبـل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشـمس فقد أفطر الصائم»[4].

أما عن الصوم الاختياري في أول الأمر، فقد تغير أيضاً وألغي كما قال االصحابي سـلمة بن الأكوع رضي الله عنه: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان مـن أراد منا أن يفطر ويفتـدي فعل، حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسختها)[5].

---

(١) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري (٤٥١١).
(٢) العشاء.
(٣) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٤٤٠).
(٤) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصفير (١/١٢٧).
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (صحيح أبي داود ٢/٤٤١).

فما هي الآية التي بعدها والتي نسـخـتها وغيرت كل الأحكام السـابقة التي مرت معنـا؟ هذه الآية هي فـي قوله سـبحانه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[1]..

هذا هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، والذي قال فيه ﷺ: (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شـهر رمضان، وأنزلت التوراة لسـت مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)[2].

شـهر الكتب المنزلة التي ضاع بعضها، وحرف بعضها، ولم يبق منها سوى القرآن شـاهداً لها.. شـاهداً على أممها، التي ضيعتها وحرفتها، ورغم الصوم.. رغم الجوع والعطش، لم يتحول هذا الشـهر إلى شهرٍ للخمول، ولم تتحول المدينة فيه إلى جدران يغط تحتها الصائمون، ويستندون كالكسل إليها وأعينهم إلى الشمس ينتظرون غروبها. فالمدينـة تعج بالحركة نهاراً، وبالقيام والتهجـد ليلاً. بيوت المؤمنين في ليالي رمضان تشتعل بنور القرآن.. بالسجود والركوع والدموع.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٨٥-١٨٧.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (١/٣١٣).

في تلك الليالي كانت إحدى الحجرات وجعاً وأنيناً.. أنين قادم من الحبشة.. قادم من المعاناة، وما كادت تستقر به الأقدام بين حرات المدينة حتى كان موعده المحتوم مع المرض والآلام.

فلذة كبد رسول الله ﷺ وقرة عينه هي تلك الأنين.. رقية بنت محمد ﷺ أقعدها المرض، وأسهر زوجها عثمان بن عفان، وآلمه.

رقية مريضة

هاجرت من مكة.. خاضت البحر فألقاها في الحبشة، وخاضته مرةً ثانية، فتهادى بهـا حتى وضعها بين يـدي والدها العطوف الحنون. ومـا كادت تتنفس هواء الحرية والأمن، حتى أطاح بها المرض، فهي طريحة الفراش والوجع في ذلك الشهر الكريم.

رسـول الله ﷺ يزورها ويطمئن عليها، ويوصـي زوجها الحزين بملازمتها. رقية بضعة من رسول الله ﷺ، والأمة أمانة، والرسالة أمانة. هموم تتداعى إلى قلبه ﷺ.. تتكتل أمام عينيه، ولا بد لها من حلول. رقية مريضة، وأهل الصفة جائعون، والمهاجرون قد سُـلبوا أموالهم وبيوتهم لينجوا بأنفسهم وإيمانهم من سياط الشرك وأهله، وهناك فرصة تلوح في الأفق لاسترجاع شيء مما سلبه الطواغيت منهم.

ترى هل يبقى ﷺ قرب ابنته الحبيبة؟ أم سـيركب إلى تلك الفرصة؟ هكذا كانت ليالي رمضان الأولى في المدينة، لكن كيف كانت ليالي رمضان في مكة. سـندع رسول الله ﷺ حتى يقرر ولنتسلل إلى مكة لنرى:

كيف كان ليل رمضان في مكة

إذا كانت أنسام الليل تحمل أنين رقية ودموعها، فإن أنسام مكة تحترق بزفرات نساء ورجال مسـتضعفين.. يمنعهم الضعف من البـوح بتوحيدهم ودينهم، وحبهم لنبيهم ﷺ. أسرارهم كالجمر في صدورهم.. يرعبهم ليل مكة، ويؤرقهم العيش بين الأصنام والشرك والمشركين الذي كان ليلهم خليطاً من الخمر والغطيط.

أنسام مكة تحترق بزفرات أخت رقية المريضة.. أختها الكبرى زينب، التي تتحرق شوقاً إلى أبيها.. إلى أخواتها الحبيبات.. رقية وأم كلثوم وفاطمة. إنها لا تعلم شيئاً عنهم، ولا تدري هل ستلتقي بهم يوماً من الأيام أم لا؟ ونبي الله ﷺ يشتاق إليها ويحبها ويثني عليها، ويتمنى قربها وقدومها.

إنها أكبر بناته، وقد عانت وعانت الكثير في سبيل الله. إنها ابنة نبي، لكنها زوجة رجل لا يزال على شركه.. رجل صادق ووفي اسمه: أبو العاص بن الربيع، وهو شغوف بها ويحبها، لكن شركه يخنق ليلها وأنفاسها. فتاة مستضعفة مبتلاة، وهموم تزدحم في صدر والدها عليها وعلى أختها، وعلى كل مستضعف ومستضعفة. هذا هو ليل زينب الحزينة. وهذا هو ليل مكة المخيف الذي كان يحمل الفزع إلى إحدى البيوت.. إلى إحدى النساء التي كانت غارقة في نومها، حتى انتشلها الفزع، وانتشلها فارس الأحلام.

فارس الأحلام أتاها، لا ليحملها بين ذراعيه، بل ليدك بيوت قومها. فارس الأحلام هذا مخيف ومرعب.. يقفز في الهواء.. فوق الكعبة والجبال.. يحرك الصخور.. يصيح بأهلها.. صوته مخيف.. يتوعد بالموت والشظايا.

تلك المرأة المفزوعة لم تكن بعيدة من زينب بنت نبي الله ﷺ.. بل من أقرب الناس إليها، وتعيش بالقرب منها. امرأة من صلب قريش.. إنها ابنة عبد المطلب، وعمة رسول الله ﷺ واسمها: (عاتكة). فهل يا ترى ستكون رؤياها كرؤيا والدها، الذي غاص في الأعماق وحفر زمزم؟ أم أن فارس القمم الذي رأته في منامها سيدمدم ما تبقى لقريشٍ من آبار تتضح بالشرك؟

تلك الرؤيا حولت مكة إلى غبار وضجيج، ونزاع وتشاتم. سنخيم على بيت عاتكة لننظر ما يحدث في منامها:

رؤيا
عاتكة بنت عبد المطلب

(كانت عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ساكنة مع أخيها العباس بن عبد المطلب، فرأت رؤيا قبيل بدر ففزعت، فأرسلت إلى أخيها عباس من ليلتها حين

فزعت، واستيقظت من نومها وقالت: رأيت رؤيا وقد خشيت منها على قومك الهلكة؟ قال: وما رأيت؟ قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أن لا تذكرها، فإنهم إن سمعوها آذونا، فأسمعونا ما لا نحب.

فعاهدها عباس، فقالت: رأيت راكباً أقبل على راحلته من أعلى مكة يصيح بأعلى صوته: يا آل غدر، ويا آل فجر، اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث.

ثم دخل المسجد على راحلته، فصرخ في المسجد ثلاث صرخات، ومال إليه من الرجال والنساء والصبيان، وفزع الناس له أشد الفزع، ثم أراه مَثُلَ على ظهر الكعبة على راحلته[١]، فصاح ثلاث صرخات: يا آل غدر، ويا آل فجر، اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث. حتى أسمعَ من بين الأخشبين[٢] من أهل مكة.

[ثم إن بعيره مَثُلَ به على رأس أبي قبيس[٣] فقال: انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث].

ثم عمد لصخرة عظيمة فنزعها من أصلها، ثم أرسلها على أهل مكة، فأقبلت الصخرة لها دوي، حتى إذا كانت عند أصل الجبل أرفضت[٤]، فلا أعلم بمكة بيتاً ولا داراً إلا قد دخلها فلقة من تلك الصخرة. فقد خشيت على قومك أن ينزل بهم شر.

ففزع منها عباس وخرج من عندها، فلقي من آخر ليلته الوليد بن عتبة بن ربيعة - وكان خليلاً للعباس- فقص عليه رؤيا عاتكة، وأمره أن لا يذكرها لأحد.

فذكرها الوليد لأبيه، وذكرها عتبة لأخيه شيبة، وارتفع حديثها حتى بلغ أبا جهل ابن هشام، واستفاضت. فلما أصبحوا غدا عباس يطوف بالبيت حين أصبح، فوجد أبا جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود وأبا البختري في نفر يتحدثون. فلما نظروا إلى العباس يطوف بالبيت ناداه أبو جهل: يا أبا الفضل إذا قضيت طوافك فآتنا.

---

(١) قفز بعيره الذي يركبه على ظهر الكعبة.
(٢) جبلان يحيطان بمكة. أى سمعه الناس الذين يسكنون بين هذين الجبلين.
(٣) اسم جبل. أى قفز به بعيره على رأس ذلك الجبل.
(٤) تفرقت: أي تطايرت متحولة إلى حجارة صغيرة وشظايا عند أسفل الجبل.

فلما قضى طوافه أتى فجلس، فقال أبو جهل: يا أبا الفضل، ما رؤيا رأتها عاتكة؟

قال: ما رأت من شيء. قال: بلى. أما رضيتم يا بني هاشم بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء، إنا كنا وأنتم كفرسي رهان[1]، فاستبقنا المجد منذ حين، فلما تحاذت الركب قلتم: منا نبي[2]. فما بقي إلا تقولوا: منا نبية!! لا أعلم في قريش أهل بيت أكذب رجلاً، ولا أكذب امرأة منكم.

فآذوه يومئذٍ أشد الأذى، وقال أبو جهل: زعمت عاتكة أن الراكب قال: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فلو قد مضت هذه الثلاث تبينت لقريش كذبكم، وكتبنا سجلاً ثم علقنا بالكعبة: أنكم أكذب بيت في العرب رجلاً وامرأة)[3].

يقول العباس: [فوالله ما كان إليه مني من كبير إلا أني أنكرت ما قالت، فقلت: ما رأت شيئاً ولا سمعت بهذا.

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقلن: أصبرتم لهذا الفاسق[4] الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم تناول النساء وأنت تسمع، فلم يكن عندك في ذلك غيرة؟!!

فقلت: قد والله صدقتن وما كان عندي في ذلك من غيرة، إلا أني قد أنكرت ما قال، فإن عاد[5] لأكفينه.

فقعدت في اليوم الثالث أتعرضه ليقول شيئاً فأشاتمه، فوالله إني لمقبل نحوه، وكان رجلاً حديد الوجه، حديد النظر، حديد اللسان، إذ ولى نحو باب المسجد يشتد. فقلت - في نفسي-: اللهم العنه كلَّ هذا فرقاً[6] أن أشاتمه، وإذا هو قد سمع ما لم

---

(١) أي كالمتسابقين إلى هدف.

(٢) يقول هذا الطاغوت: إنكم يا بني هاشم ادعيتم النبوة كذباً عندما تساوينا وإياكم في الشرف والمجد حتى تتغلبوا علينا.

(٣) انظر تخريجه في نهاية القصة.

(٤) المقصود هو أبو جهل.

(٥) المقصود هو أبو جهل.

(٦) خوفاً.

أســمع: صوت ضمضم بن عمرو، وهو واقف على بعيره بالأبطح، قد حول رحله، وشق قميصــه، وجدع بعيره[1] يقول: يا معشــر قريش، اللطيمة، اللطيمــة. أموالكم مع أبي ســفيان، وتجارتكم قد عرض لها محمد وأصحابه، فالغوث، الغوث. فشغله ذلك عني وشغلني عنه، فلم يكن إلا الجهاز حتى خرجنا][2].

لقد ثارت قريش وهاج الكفر كله، فما الذي أصاب القوم حتى صاروا كالمجانين؟

هــل تحققت رؤيا عاتكة وصدقت، وكذب أبو جهل وطــار عقله، فطار عقل أمية وصوابه؟ ما الذي حدث، وماذا فعل رسول الله ﷺ بأبي سفيان وقافلته هذه؟

لقــد كنا فــي المدينة عند رقية حيث كان بيتها ســاكناً إلا من أنينها.. حيث كانت المدينة ساكنة بالإيمان، فما الذي كان يخطط له رسول الله ﷺ والناس نائمون؟

ســنعود إلى المدينة حيث ترقد رقية. ها هي طريحة الفراش والألم، وها هو عثمان بقربها ينظر إلى حبيبته وردة تذبل يوماً بعد يوم.. تذبل ألماً بعد ألم. لقد عادها أبوها ﷺ قبــل أيــام، ورأى ما بها فأوصى عثمان الحزين بالمكوث عندهــا، ثم ودعهما بعد أن ألقى عليها نظرة الوالد المحب الحاني، وودعته بعينين حزينتين.

كأني بعينيها تغرقان بالدموع.. تتعلقان بهذا الوالد الذي لا يستطيع البقاء عندها، ولا يملك لها سوى الدعاء.

اســتودعها الله وتركها، ومرارة الوداع في حلقها وقلبها، ومرارة الوداع في كلماته لعثمان. وعثمان صابر محتسب.. يفوته الخروج مع حبيبه ﷺ فيصبر، وقد تفوته رقية وترتحل عنه. أي ليلٍ سيخيم على عثمان؟

---

(١) أي قطع انفه تعبيراً عن هول الكارثة التي حلت بقريش.

(٢) هذا الخبر حسن بطرقه... وهو عند الطبراني (٣٤٦/٢٤): ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير. وهذا مرســل وابن لهيعة فيه ضعف، لكن الرواية ثابتة عن عروة عند ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، ويزيد ثقة كما رواها ابن إسحاق بسند متصل: حدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس، وقد صرح ابن إسحاق باسم شيخه الذي وثقه فقال: حدثنا حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.. ورغــم أن رواة الســند كلهم من بيت العباس بن عبد المطلب إلا أن حســيناً هــذا ضعيف، وروايته تتقوى بمرسل عروة.. انظر البيهقي ٣-٢٩ وهي عند الطبراني من طريق عبد العزيز بن عمران. حدثنا محمد بــن عبد العزيز بن عمر بن عبــد الرحمن بن عوف عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط عن عاتكة وعبد العزيز قد توبع عند ابن منده لكن شــيخه ضعيف وبقية الرواة ثقات، والقصة حسنة بهذه الطرق.

رســول الله ﷺ أكثر صبراً واحتســاباً.. ابنة في مكة لا يستطيع رؤيتها.. حبيسة الشــرك. وابنة حبيســة المرض، وأصحاب معدمون يتزاحمون في صفة مليئة بالجوع، وقريش تســرح وتمــرح وتتاجر بأموال أصحابــه، وأمة تحتاج إلى قائــد يحملها إلى المستقبل، وإلى تلك الفرصة من التعويض وانتزاع الحقوق المغتصبة.

قدم ﷺ حاجة أمته على حاجته، ومصلحتها على هموم أســرته، فخرج، لكن إلى أين..؟ هاهو أنس بن مالك يســير مع رسول الله ﷺ سنعرف منه ما حدث. إنه يتكلم فلننصت إليه:

الخروج وأسبابه

يقول أنس رضي الله عنه: (بعث رســول الله ﷺ (بسيســة) عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان. فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ [(١)])[(٢)].

ذهب الصحابي المدعو «بسيســة» فــي مهمة حددها ﷺ، وهي تحســس أخبار القافلة القرشــية القادمة من الشام نحو مكة، والتي يقودها أبو سفيان بن حرب، وتم رصد وتحديد طريق ســيرها ومكانها. أتم بسيسة مهمته كما هو مطلوب منه، ثم عاد إلى رســول الله ﷺ (فحدثه الحديث، فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبة، فمــن كان ظهــره حاضراً فليركب معنا، فجعل رجال يســتأذنونه في ظهورهم في علو المدينة؟ قال: لا، إلا من كان ظهره حاضراً)[(٣)].

جاء أبو بكر، وجاء عمر، وجاء علي، أما عثمان فاستبقاه رسول الله ﷺ بالمدينة، وأمــره بالمكوث، وجاء بقية الصحابة مــن المهاجرين والأنصار، وجاء عمر بن الخطاب بابنه الصغير عبد الله فتأمله ﷺ، فوجده طفلاً، فأعاده مكســور الخاطر بعد أن كان يحلم بخطوات يسيرها في دروب البطولة والشهادة.

وجاء طفل آخر اسمه البراء بن عازب، فأعاده ﷺ أيضاً، فراح فيما بعد يتحدث إلى من حوله عن تلك الرفقة العظيمة، ويصفها بالإيمان ويتمنى لو ســار معها فيقول:

---

(١) قال بعد هذه الكلمة: لا أدري ما استثنى بعض نسائه، أي أن بعضهن كانت عنده ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

(اســتصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكنا -أصحاب محمد- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، كعدة أصحاب (طالوت) الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[1].

وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومعه فتى صغير اسمه (عمير) إنه أخوه، وهو شــجاع مثله، لكنه كان خائفاً مضطرباً، بل لقد بكى. فكيف يكون شجاعاً، وكيف يرغب في الشهادة وقد انتابه الخوف والبكاء؟!

تلــك قصة عجيبة رويت عن أخيه ســعد حيث يقول: (رأيــت أخي عمير بن أبي وقــاص قبل أن يعرضنا رســول الله ﷺ بدر يتوارى، فقلــت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رســول الله ﷺ فيســتصغرني، فيردني وأنا أحــب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة.

[فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: ارجع.

فبكى عمير فأجازه رسول الله ﷺ] فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره)[2].

كأني بســعد يعقد ســيور سيفه لأخيه ويبتسم، فيبتســم عمير لمن حوله وللجنة. قصة مؤثرة تســيل دموعاً وشوقاً للشهادة، وشــاب ملأت الجنة روحه وجوانحه. إنها حال الشــباب في أي زمان ومكان تحل فيهما قيادة إســلامية صافية ومخلصة. لقد اجتــاز عمير بن أبي وقاص آخر العقبات في حياته، وها هو أمام بوابة مشــرعة على الخلود. عمير من ثمار الرسول ﷺ.. عمير وغيره.

انظروا إلى هذين.. إنهما صديقان يكبران عميراً بقليل.. أســدان اسم أحدهما: (معاذ بن عمرو بن الجموح) واســم الآخر (معــاذ بن عفراء) وعلى أحد الأبواب، وفي

---

(١) حديث صحيح. رواه البيهقي (٣/٣٦) وهو عند البخاري بلفظ آخر.. انظر البخاري (٣٩٥٥، ٣٩٥٦، ٣٩٥٧، ٣٩٥٨، ٣٩٥٩).

(٢) ما أريده من هذه القصة هو ما بين المعقوفين اما ما كان خارجهما فسنده ضعيف لأنه من طريق الواقدي كما في الإصابة -ترجمة عمير- وعند ابن ســعد (٣/١٤٩) وما بــين المعقوفين عند الحاكم (٣/٤٧) من طريق يعقوب الزهري أخبرنا إسحاق بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن جعفر عن إسماعيل بن محمد بن سعد عن عامر بن سعد عن أبيه.. وهذا السند صحيح ورجاله ثقات لولا أوهام يعقوب بن محمد الزهري وهو صدوق لكنه لم ينفرد فقد تابعه شــيخ البزار في روايته (كشــف الأســتار ٢/٣٥١) واسمه محمد بن قيس. ولعله توبع أيضاً عند البغوي فقد روى الحديث كما قال الحافظ في الإصابة.

بيت من أبيات المدينة كانت الدموع، وكان الوداع والعناق بين شاب وأمه، ولك أن تتخيل ما تشعر به أم تفارق ابنها.. تودعه وهي لا تدري هل سيعود إليها أم أنها بعثت به إلى الموت، وبعثت بنفسها إلى الحزن والحداد. أم الربيع بنت النضر - عمة أنس بن مالك، وأخت الأسد الهصور: أنس بن النضر- تودع ابنها الذي يرتع في قلبها.. تودع ابنها (الحارث[1] بن سراقة) وداعاً حاراً باكياً، لكنها الجنة فليذهب الحارث إلى الجنة من أي طريق شاء.

فارس آخر.. ربما كان يشتري بعض التمر.. ربما كان قبل قليل بين النخيل يخترف منها، وربما غير ذلك، لكنه كان يضع بعض التمرات في جيبه، ولما سمع النداء هب مسرعاً لنداء الله ورسوله ﷺ.. إنه (عمير بن الحمام)[2].

اجتمع هؤلاء وغيرهم حول نبي الله ﷺ، فكانت المشورة وحرية الرأي قبل الانطلاق.

المشورة قبل الانطلاق

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه. فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد، لفعلنا.

فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا)[3].

ولئن كانت المشورة قبل الانطلاق فقد كان هناك:

---

(١) سيأتي الحديث عن هذا الفتى رضي الله عنه فيما بعد إن شاء الله.

(٢) سيأتي الحديث عن هذا الصحابي رضي الله عنه فيما بعد إن شاء الله.

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٤) وروى مسلم نحوه.. وسند أحمد صحيح متصل رجاله أئمة ثقات هم.. عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس.

تقول عائشة رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر)[1].

دون ضوضاء.. دون أجراس وضجيج انطلق ﷺ وصحابته، وسمح ﷺ بالانطلاق معه لمن ليس معه راحلة، وأمر ﷺ بالاشتراك والتناوب بين الاثنين والثلاثة على الراحلة الواحدة. فامتثل الجميع وتحركوا نحو تلك القافلة مسرعين.. يطوون الأرض طياً، وفي طريقهم يرون راكباً يسابق الريح إليهم، فيلحق بهم.

ما الذي حدث؟ هل هو عثمان بن عفان جاء ليخبر رسول الله ﷺ أن ابنته زينب اشتد بها المرض؟ أم هو رجل لم يعلم إلا متأخراً فلحق بهم بعد أن علم بالأمر؟

ليس هذا ولا ذاك.. إنه رجل مشرك، لكن فيه من الشهامة والرجولة الشيء الكثير.. إنه يمتطي راحلته وشهامته، ويتجه بهما نحو رسول الله ﷺ يكلمه، ثم يرد عليه ويسير ﷺ، فيلحق به ثم يكلمه مرة أخرى، فيرده ثم يسير ﷺ ويتركه. فمن هذا الرجل، ولماذا تركه ﷺ في مكان يقال له (حرة الوبِرة)؟

تقول عائشة رضي الله عنها: (خرج رسول الله ﷺ قِبل بدر، فلما كان بحرة «الوبرة» أدركه رجل يذكر منه جراة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: «جئت لأتبعك وأصيب معك».

قال له رسول الله ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا.

قال ﷺ: «فارجع فلن أستعين بمشرك».

ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة. فقال له النبي ﷺ كما قال له أول مرة، قال: فارجع فلن أستعين بمشرك.

ثم رجع فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم.

---

(١) سنده صحيح. رواه أحمد (٦/١٥٠) والنسائي وغيرهما (سيرة ابن كثير ٢/٣٨٩):... سعيد بن أبي عروبة وسعيد بن بشر والصواب: سعيد بن بشير عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة وقد خالفهما هشام فرواه عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة ومع احتمال التعدد إلا أن سعيداً رغم كونه مدلساً فإنه أثبت الناس في قتادة وشيوخه ثقات. التقريب (١/٢٥٩) و (١/٢٨٩).

فقال له رسـول الله ﷺ: فانطلق)[1] فانطلق الرجل مع النبي ﷺ وأصحابه مسـلماً، بعد أن دفن الشـرك والأصنام بالبيداء، ورفرف مع شـجاعته ونجدته في أجواء التوحيد الطاهرة الفسيحة، وواصل المسلمون سيرهم نحو القافلة، لكن مشكلة وقعت، وأمراً خطيراً لم يحسب له المسلمون حساباً؟ لقد علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ. لكن كيف؟

كيف علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشـام ندب المسلمين وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

فانتـدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسـول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك. فحذر عن ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه.

فخرج ضمضم بن عمرو سـريعاً إلى مكة)[2] ووصل إليها، فسمعت قريش (صوت ضمضم بـن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره، وحول رحله، وشـق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث.. الغوث)[3].

وتجمعـت قريش حول هذا المشـهد الفاجعة، وصرخـت بوجه ضمضم بن عمرو تسأله عن تفاصيل أكثر، وثارت مكة وارتجت، وتعالى الضجيج، وسلت السيوف، ونسى

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١٨١٧).

(٢) رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٦-١٨٢ من طريقين: مرسل صحيح إلى عروة، والثاني عن ابن عباس وابن إسحاق لم يذكر أسماء شيوخه وهم جمع، ويشهد له ما بعده.

(٣) حديث حسن. مر معنا عند الحديث عن رؤيا عاتكة وهو جزء من حديث الرؤيا.

العباس شـجاره مـع أبي جهل، واحتقن الطواغيت.. طواغيـت قريش كلهم.. كلهم إلا واحداً أذهله الخبر، فأصيب بالهلع.

إنه لا يدري ما يفعل، ولا كيف يتصرف؟ إنه يرتجف ويرتجف.. يهرول مسرعاً إلى منزله، وعندما يصل لا يبحث عن سـلاح، ولا يفتش عن درع ورمح.. إنه خائف جداً، ويكاد يموت من الخوف.

لم يكن سـبب ذلك الخوف تجارة له مع أبي سـفيان يخشى أن يفقدها، ولم يكن خائفاً على سـمعة قريش. الأمر أشـد وأخطر.. إنه يحس بدنو أجله.. ويرى في كل شـبر خارج مكة قبراً مشـرعاً ينتظره. إنه أمية بن خلف، وهو لا يستطيع التفريق بين من يقول: الغوث.. الغوث، أومن يقول: الموت.. الموت..

كأني به وهو يستمع إلى صراخ ضمضم يتذكر صراخ سعد بن معاذ في ذلك اليوم المشـئوم، عندما كان سـعد بن معاذ في نزاع مع أبي جهل، بعد أن رفض أبو جهل أن يطوف سـعد بالكعبة وهو من أنصار محمد ﷺ، وعندما حاول أمية إسكات سعد بن معاذ رضي الله عنه.. بشـره سعد بنهاية تصطك لها الركب.. بشره سعد بكارثة فقال له: (دعنا منك يا أمية فوالله لقد سـمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك. قال أمية: بمكة؟. قال سعد: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شـديداً، فلما رجـع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تـري إلى ما قال لي سـعد..؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعـم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلي، فقلت له: بمكة؟ فقال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة)[1].

واليوم هاهي قريش غاضبة وسـتخرج كلها، ولن يتخلف منها أحد، فهل سيتخلف سيد من سـاداتها، وما عذره؟ هل سيقول: إني خائف؟ هل سيقول: إن محمداً صادق في قوله ووعده؟ حائر أمية .. حائر.. يلتفت إلى امرأته يحدثها أنه قد (جاء الصريخ. قالت له امرأته: أما علمت ما قال لك أخوك اليثربي؟

قال أمية: فإني لا أخرج)[2].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠) والبيهقي (٣-٢٧).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٢٦).

إذا فقـد قرر أمية البقاء في مكة وعدم الخـروج، فلتذهب القافلة إلى الجحيم، ففي خروجه سفر إلى الموت على يد محمد وأصحابه. لكن هل سيتركه أبو جهل ينعم بالبقاء؟ لا أظن ذلك، فأبو جهل الآن كالمجنون.. يجول في شـوارع مكة، كالثور الهائج يثيـر الغبار فـي أزقتها.. يطرق أبوابها. لـن يتركه أبو جهل ينعم بالطعام والشـراب والرقاد ليواجه الموت نيابة عنه، لقد (اسـتنفر أبو جهـل الناس فقال: أدركوا عيركم. فكـره أمية أن يخرجه، فأتاه أبـو جهل، فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك.

فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فوالله لأشـترين أجود بعيرٍ بمكة. ثـم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني. فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسـيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

فلمـا خرج أمية أخذ لا يترك منـزلاً إلا عقل بعيره فلم يـزل بذلك)[1] كلما نزل منزلاً ربط بعيره السريع تأهباً للهرب والفرار.. لم يزل كذلك خائفاً، يرى الموت خلف الصخور وبين الشـجر.. يرى الموت يسـيل في الوادي.. يراه مقبلاً مع قطع السحاب الصيفية، وفي المساء يرى الظلام عباءة يرتديها الموت، والنجوم عيون تحدق به.

مضوا خلف أبي جهل مصطحبين المغنيات والخمر والموت، حتى وصلوا إلى أرض بين مكة والمدينة يقال إنها كانت (موسـماً من مواسـم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام)[2] واسم هذه الأرض:

بدر

وقد قرر أبو جهل ومن معه تحويل أرضها إلى ساحةٍ لاحتفالٍ صاخب، سيجعلون أرض بـدر خمراً ونسـاءً، ورقصاً ومقابر لمحمد وأصحاب محمدٍ، سـيجعل أبو جهل مـن تلك الأرض احتفـالاً غير عادي.. احتفالاً لقريش وحدهـا.. في موعد هو الذي يحـدده، وقد وصـف الله عز وجل ذلك الخروج وتلك الغطرسـة بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠).
(٢) تفسير الطبري (تفسير سورة الأنفال).

﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[١].

زحفت الجموع، وزحف معهم أمية، وخيم شبح الموت على كل شبرٍ يسير إليه.. إنه الآن يتوقع خروج رسول الله ﷺ أو بعض صحابته في أية لحظة، ومن أي مكان ليقتلوه.. إنه ليتساءل.. ترى:

أين محمد

أجل أين رسول الله ﷺ؟

لقد (خرج رسول الله ﷺ في أصحابه [حتى بلغ وادياً يقال له: «ذفران» فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه نزل] وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش)[٢].

لكن كيف علم ﷺ بخروج قريش.. كيف عرف عددهم، ولماذا يستشير أصحابه مرة أخرى، وهم قد وافقوا على الخروج معه عندما كانوا في المدينة؟ لنبدأ بالأمر الأول.

كيف علم ﷺ بخروج قريش

يقول أحد الصحابة المشاركين بتلك الأحداث وهو أنس بن مالك: (إن رسول الله ﷺ ندب أصحابه، فانطلقوا إلى بدر، فإذا هم بروايا قريش فيها عبد أسود لبني الحجاج، فأخذه أصحاب رسول الله ﷺ فجعلوا يسألونه: أين أبو سفيان؟ فيقول: والله ما لي بشيء من أمره علم، ولكن هذه قريش قد جاءت فيهم: أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف.

فإذا قال لهم ذلك ضربوه. فيقول: دعوني، دعوني أخبركم. فإذا تركوه قال: والله ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذه قريش قد أقبلت، فيهم أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف قد أقبلوا. والنبي ﷺ يصلي -وهو يسمع ذلك- فلما انصرف[٣]

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٧.

(٢) حديث حسن. دون ما بين المعقوفين. رواه ابن إسحاق وهو جزء من حديثه الطويل.

(٣) انصرف من صلاته: انتهى والانصراف يعني أيضاً: التسليم.

قال: «والذي نفسي بيده إنكم لتضربونه إذا صدقكم، وتدعونه إذا كذبكم، هذه قريش قد أقبلت لتمنع أبا سفيان»[1].

هكذا علم رسول الله ﷺ بمقدم قريش وطواغيتها .. كان الأمر خطيراً وعصيباً جداً، ولا بد لنبي الله ﷺ من أن يعيد حساباته من جديد .. لا بد من معرفة حجم الخطر القادم، وهل في الإمكان مواجهته؟ أم أن في مواجهته تهوراً، ولا بد من الانسحاب للحفاظ على صفوة الأمة ونواتها ..؟ ما غاب ذلك عن رسول الله ﷺ ولم يغب. فقط وبحوار قصير بين رسول الله ﷺ وبين ذلك الغلام المشرك، ودون ضرب، أو تعنيف، أو إكراه.. دون سياط أو حبال.. انتهى كل شيء.

كيف عرف ﷺ عدد قريش

يتحدث عن ذلك بطل آخر من شباب الإسلام. علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول: (كان النبي ﷺ يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا، سار الرسول ﷺ إلى بدر - وبدر بئر- فسبقنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم، رجلاً من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط.

فأما القرشي فانفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم -والله- كثير عددهم، شديد بأسهم. فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتى انتهوا به إلى النبي ﷺ، فقال له: كم القوم؟ فقال: هم -والله- كثير عددهم، شديد بأسهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم، فأبى. ثم إن النبي ﷺ سأله كم ينحرون من الجزور؟[2] فقال: عشراً كل يوم.

فقال رسول الله ﷺ: القوم ألف، كل جزور لمائة)[3]. بفطنته وذكائه ﷺ توصل إلى عدد قريش، لكن كم كان:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وأبو داود واللفظ له صحيح أبي داود ٢٣٣٢.

(٢) الإبل.

(٣) سنده صحيح. رواه البيهقي ٣-٤٢ وأحمد ١-١١٦: إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حارثة عن علي: إسرائيل ثقة وسماعه من شيخه (جده) قبل الاختلاط، وجده تابعي ثقة التقريب ٤٢٣ أما حارثة بن مضرب فتابعي كبير ثقة التقريب ١٤٩.

إذا كانت قريش ألفاً، فإن ذلك الطفل الذي منعه الرسول ﷺ من الخروج لصغر سنه يحدثنا عن عدد المسلمين (البراء بن عازب) رضي الله عنه يقول: (استصغرت أنا وابن عمر يوم بدرٍ، وكنا -أصحاب محمدٍ- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، كعدة أصحاب (طالوت) الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[1] لقد كان امتحاناً صعباً لطالوت ومن معه أمام جيش الروم، وهاهو امتحان آخر لأصحاب رسول الله ﷺ.. إنهم ثلاثمائة وبضعة عشر فقط، وهؤلاء الثلاثمائة إذا نظرت إليهم باحثاً عن خيل يركبونها لم تجد سوى فرسين. يقول علي: (ما كان معنا إلا فرسان، فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود)[2].

ثلاثمائة ليس معهم إلا فَرَسَان، فماذا عن البقية..؟

إنك لو نظرت مرة أخرى إليهم، لنظرت إلى مشهدٍ خلاب، رغم الفقر والحفاء والعوز.. لن تجد أحداً يسير على قدميه كل الطريق، ولن تجد أحداً يركب كل الطريق.. كانت قافلةً من القلوب والمشاعر قادها ﷺ إلى بدر. عبد الله بن مسعود أحد تلك القلوب التي تخفق بالإيمان والإيثار والنظام يقول رضي الله عنه وعنهم: (كنا يوم بدرٍ كل ثلاثةٍ على بعير، كان أبو لبابة وعليّ زميلي رسول الله ﷺ، فكانت إذا حانت[3] عقبة رسول الله ﷺ يقولان له: نحن نمشي عنك.

فقال: ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)[4].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له ٣-٣٦.

(٢) سنده حسن رواه البيهقي ٣-٣٩: أخبرنا أبو عبد الله، أخبرنا عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا ابن وهب، وأخبرني أبو صخر عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن علي: أبو معاوية صدوق من رجال مسلم واسمه: عمار بن معاوية الدهني، وأبو صخر: حميد بن زياد التهذيب ٣-٣٦ من رجال مسلم حسن الحديث، وتلميذه إمام معروف، والبغوي مسند بغداد التذكرة ٨٨٩.

(٣) إذا جاء دور الرسول ﷺ في المشي.

(٤) إسناده حسن رواه أحمد ١-٤١١ و٤١٨ و٤٢٢ من طريق حماد بن سلمة حدثنا عاصم بن بهدلة عن زر عن ابن مسعود. عاصم حسن الحديث وزر ثقة التقريب ٢٨٥٢١٥.

رسول الله ﷺ ونبيه وخير خلقه يقطع المسافات مشياً، رغم وجود من يبذل روحه فداءً لتلك الخطوات الشريفة. لكنه كان يشارك أصحابه.. يعلمهم.. يتماهى بهم.. يشفق عليهم، ويرأف بهم، ويحنو عليهم، ويطمع مثلهم بالأجر من عند الله.

لقد رق ﷺ لمنظرهم وهم يتعاقبون، ورق لحالهم وهم يتساقطون من التعب والجوع وطول السفر، فاتجه إلى أرحم الراحمين يستمطره رحمة لهؤلاء المساكين. ابتهل.. لهج بقلبه ولسانه وقال: (اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم)[1].

دعاء يفيض رحمةً وشفقة، وحالة أصحابٍ يرثى لها، وظرف صعب يفاجئ القافلة المؤمنة، وعدو كشر عن أنيابه وسيوفه وحقده. ومع ذلك كله.. لم تخف القلة المؤمنة، ولم ترتجف، لكن هناك من كره لقاء قريش بهذا الاستعداد الضعيف، فما للقتال خرجوا، وما لهذه الجموع احتسبوا. لقد خرجوا يريدون مالاً لهم في قافلة، فصاروا أمام جيش متأهب لأخذهم.

لقد كرهوا ذلك خوفاً على دولتهم الفتية.. على رسولهم أن تناله أيدي المشركين ورماحهم. لقد وصف الله سبحانه تلك المشاعر فقال: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾[2].

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: (تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب الله أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد)[3].

لقد رأى ﷺ في وجوه الصحابة العزم والشجاعة، ورأى في وجوه البعض الشجاعة والكراهية معاً، وذلك لعدم الاستعداد، وقلة العدد والعدة.

رأى خوفهم عليه وعلى دينهم ودولتهم فتوقف ﷺ لـ:

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي ٣-٣٨ وأبو داود ٢٧٤٧ من طريق ابن وهب حدثنا حيي عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو. ابن وهب ثقة مر معنا، وحيي حسن الحديث، قوي إذا روى عنه ثقة، والحبلي ثقة من رجال مسلم اسمه: عبد الله بن يزيد.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٥، ٦.

(٣) حديث صحيح طويل. رواه البخاري (٤٤١٨).

(خرج رسـول الله ﷺ في أصحابه [حتى بلـغ وادياً يقال له «ذفران»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل]، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضوان الله عليه فقال وأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسـن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله، امض إلى حيث أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسـرائيل لموسـى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ٢٤﴾ ولكـن اذهـب أنـت وربك فقاتـلا، إنـا معكما مقاتلون، [فوالذي بعثك بالحق لئن سـرت بنا إلى برك الغماد[1]، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه])[2] (لا نقول كما قال قوم موسـى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ٢٤﴾ولكن نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك. قال ابن مسعود: فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره)[3].

لقد تأثر ابن مسعود بما قاله المقداد، وتمنى في تلك اللحظات لو كان هو صاحب تلك الكلمات، ولم يسـتطع ابن مسـعود أن يكتم ذلك في نفسه، لقد صرح به فيما بعد فقال: (شـهدت من المقداد بن الأسـود مشـهداً، لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به)[4] أما رسول الله ﷺ فبعد أن رأى تلك العواطف الجياشة تموج أمامه، وعن يمينه، وعن شماله، وتحميه من خلفه.. بعد أن رأى الفداء يظلله كالحب.. كالغمام. صاح مرة أخرى بالفئة المؤمنة؟ فتنبه أحد الأنصار لهذا النداء المتكرر، وفهم مراد رسول الله ﷺ. لقد تحدث أبو بكر وعمر وتحدث المقداد، ومع ذلك كله ينتظر رسول الله ﷺ رأياً آخر، له في نفسه وزن لا يقل عن تلك الآراء السابقة.

---

(١) قال الراوي: مدينة الحبشة.

(٢) حسن. رواه ابن إسحاق وقد مر معنا، حيث صرح بالسماع من شيوخه الثقات: الزهري، وعاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان.. وهؤلاء أخذوه عن شـيخهم الإمام عروة بن الزبير ورواه شـيوخ غيرهم عن ابن عباس، لكن هؤلاء الشيوخ غير معروفين والحديث يشهد له ما قبله من الأحاديث وما بعده عدا ما بين المعقوفين فلم أجد له شاهداً. والحديث جزء من حديث بدر الطويل.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

كان ﷺ (يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك[1] حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه[2] بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: أجل.

قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك)[3].

وجاءت البشرى من الله..

وأنزل الله كلامه وعداً صادقاً لا يتأخر، وأمناً يملأ الأجواء والصدور، فأزال بقايا الخوف، وطهر به القلوب المؤمنة.

نزل جبريل بقوله الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾. والشوكة هي جيش قريش، وغير ذات الشوكة هي القافلة.

---

(١) الذمام: الحرمة أي نحن غير مسئولين عنك حتى تسكن في مدينتنا.

(٢) هاجم المدينة.

(٣) هو جزء من حديث ابن إسحاق الطويل وله شاهد عند ابن مردوديه (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٥). من طريق محمد بن عمرو ابن علقمة عن أبيه عن جده وجده ولد في عهد رسول الله ﷺ وروايته عن الصحابة أما عمرو فهو حسن الحديث في الشواهد والمتابعات.

أخــذ ﷺ تلك الآيات ونادى رفقة الدرب والإيمان، وقال لهم: (ســيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين.. والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غداً)[1].

قال أحد الأنصار وهو أبو أيوب الأنصاري: (فلما وعدنا إحدى الطائفتين، إما القوم وإما العير، طابت أنفســنا)[2]وطاب المســير إلى بدر (فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشــركين إلى بدر)[3] ونزل المسلمون بالعدوة الدنيا، أي بحافة الوادي من جهة المدينة (وجاء المشــركون فقال رســول الله ﷺ: لا يتقدمن أحد منكم إلى شــيء حتى أكون أنا دونه)[4] وأقبل المشــركون من هناك.. من الجهة الأخرى المســماة بالعدوة القصوى، أي حافة الوادي البعيدة.. البعيدة عن المدينة جهة مكة وكان ذلك في:

١٦/٩/٢هـ

في الســادس عشــر من شهر رمضان بنى الصحابة لرســول الله ﷺ قبة.. هي أشبه بغرفة عمليات المعركة، كان ﷺ يصلي فيها ويدعو، ويوجه ويبشر، وكان أبو بكر معه فيها.

يقــول أحد الصحابــة: (إن النبي ﷺ قال وهو في «قبة له» يــوم بدر: اللهم إني أنشــدك عهدك ووعدك، اللهم «إن شــئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك -وهو في الدرع-.

فخرج وهو يقول: ســيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الســاعة موعدهم والســاعة أدهى وأمر)[5]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ســنده قوي. رواه الطبراني ٤-٢٠٩ من طريق ابن لهيعة ورواه من الطريق نفسه الطبري ٦-١٨٦ والراوي عند الطبري هو ابن المبارك فصح بذلك هذا الجزء من الســند: وشــيخ ابــن لهيعة، يزيد بن أبي حبيب ثقة التقريب ٦٠٠ وقد رواه عن التابعي الثقة: أســلم بن يزيد التجيبي (التقريب ١٠٤ وأسلم رواه عن أبي أيوب رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٧٥-٤٨٧٧).

خـــرج ﷺ مـــن القبة، وخرج وراءه أبـــو بكر، وخرجت معهما البشـــرى العظيمة: ســـيهزم الجمع ويولون الدبر، وصار ﷺ يتمشـــى ويشير، ثم يمشي ويشير، وإذا أشار إلى موضع من الأرض تكلم، ولهج بالبشرى للجميع.. لقد كان يشير بيده ويتحدث إلى من معه وحياً، فإلى أي شيء كان يشير، وعن أي شيء كان يتحدث؟

مصارع القوم

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ ليخبرنا عن مصارع القوم بالأمس: هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً، هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً)[١].

ويتحدث أنس بن مالك عن تلك المواقع فيقول: (قال رســـول الله ﷺ: هذا مصرع فلان غداً. ووضع يده على الأرض. وهذا مصرع فلان. ووضع يده على الأرض. وهذا مصـــرع فلان. ووضع يده علـــى الأرض)[٢] وكأنه يضه يده علـــى مواضع الحماس في القلوب المؤمنة ليفجرها.

لقد ملأت هذه البشـــرى المؤمنين حماساً ونشاطاً، وأيقنوا بنصر يشرق عليهم مع صباح الغد إن شـــاء الله، فقضوا يومهم ذلك همةً وحركةً.. يســـتعدون وينفذون أوامر قائدهـــم ﷺ، ويدعـــون ربهم نصراً طـــال انتظاره، ويرجونه الظفـــر في هذه الحرب التي قبعت في طريقهم دون موعد، حتى تتكســـر شوكة الباطل، وترتفع راية التوحيد، وتتطاير فلول الشرك مع الرياح.

كان ذلك اليوم مليئاً بالدعاء والعمل والأحلام، وكان يوماً مرهقاً، وكانت ليلة مقمرة.. ليلة فرش فيها القمر بســـاطاً للجميع، لكن القمر افتقد أحبابه إلا رسول الله ﷺ، فلقد خلدوا إلى نوم عميق بعد يوم شاق، كان العمل فيه مرهقاً.

يقول علي بن أبي طالب عن تلك الليلة: (لقد رأيتنا ليلة بدر وما من أحد إلا وهو نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح)[٣] أما الصحابة فنام

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الجنة) والبيهقي (٣/٤٨) واللفظ له.

(٢) سنده صحيح. رواه أبو داود ومن طريقه البيهقي ٣-٤٦: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن ثابت عن أنس. موسى ثقة ثبت من رجالهما والبقية أئمة ثقات.

(٣) سنده صحيح مر معنا. رواه أحمد ١-١٢٥ وغيره عن شعبة أخبرنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي، وهؤلاء رجالهما عدا حارثة وهو تابعي ثقة التقريب ١٤٩.

بعضهم بعد أدائهم صلاة العشاء، ثم ناموا جميعاً، وعندما استيقظ علي رآهم نائمين جميعاً، وهاهم الواحد تلو الآخر يهبون من نومهم العميق بعد علي بن أبي طالب، فما الـذي أيقظ علي وأيقظهم..؟ هل هو القمـر..؟ هل هي الليل القمراء التي يحلو معها الحديث والسمر..؟ لا، فالقمر قد اختفى، والتعب أشد من أن يقاوم لكنه:

المطر.. المطر

تآلف السـحاب وحجب القمر، وتسـاقط المطر قطرات.. قطـرات، ثم ازدادت القطرات شـيئاً قليـلاً حتى تنبه الصحابـة.. فإذا المطر زخات.. زخات.. يغسـلهم، ويخاطبهم القرآن كالمطر: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[1].

تحـرك الصحابـة يسـتظلون مـن المطر، أما رسـول اللـه ﷺ فلم يكـن نائماً ليستيقظ..

كان كمـا يصف علي رضي الله عنه: (أصابنـا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشـجر والحجف[2] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه عز وجل ويقول: اللهم إن تهلك هذه الفئة لا تعبد

فلما أن طلع الفجر نادى: الصلاة عباد الله

- الصلاة جامعة -

فجاء الناس من تحت الشـجر والحجف فصلى بنا رسـول الله ﷺ وحرض على القتال)[3] ثم احتضنت رسول الله ﷺ إغفاءة قصيرة رأى فيها:

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٢) الحجفة ترس من جلد.

(٣) سنده حسن. رواه الطبري التفسير ٦-١٩٣: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. وقد مر معنا، لكن الذي جعل السند حسناً هو أنه من رواية مصعب، وهو حسن الحديث من رجال مسلم. التقريب ٢-٢٥٢ وهارون الهمداني صدوق التقريب ٥٦٨.

ربنا سبحانه يتحدث عن ذلك المنام القصير فيقول: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[1]..

أشـرقت في وجوه الصحابة شـمس جديدة، ويوم جديد، فتنفسوا هواءً منعشاً، وصباحـاً طرياً بالصلاة والمطر.. الأرض أمامهم سـاكنة ملبدة لا غبار فيها، والأجواء تملأ صدور المؤمنين حماساً وثقة بالله ووعده، ورسول الله ﷺ يحرضهم على القتال.. يشـرع لهم أبواب الشـهادة والجنة، ويجعل من أصحابه أحبابـاً لله فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2].. والرسول ﷺ يحب أن يكونوا كذلك، لذلك نظمهم وجعلهم صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وصار يمشـي بينهم يصفهـم ويعدل صفهم، ثم قال لهـم: (إن جمع قريش عند هـذا الضلع الحمراء من الجبل)[3].

جمع المشركين عند الجبل

بدأوا بالنهوض مثقلين، وصداع الخمر يرن في رؤوسهم.. بدأوا بالنهوض وقلوبهم شتى، وأفكارهم شـاردة، والنظام عنهم شارد.. بعضهم كان لا يريد الخروج، والبعض يـرى أن من الخطأ قتال أبنـاء عمومتهم وإخوانهم وأبنائهم، وهناك من خرج أشـراً وبطراً، وقد أغراه قلة عدد المؤمنين فضمن النصر واطمأن للنتيجة، و(لما اطمأن القوم بعثوا عمر بن وهب الجمحي فقالوا: أحرز لنا القوم من أصحاب محمد.

فاسـتجال حول العسـكر ثم رجع إليهـم فقال: ثلاثمائة رجل يزيـدون قليلاً، أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد.

فضرب في الوادي حتى أبعد فلم يرَ شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشـر قريش البلايا تحمـل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٣.

(٢) سورة الصف.

(٣) رواه أحمد بسند صحيح وهو جزء من حديث علي الطويل الذي مر معنا.

ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم)[1].

سكت الجميع وهم يستمعون إلى هذا الوصف المرعب، وتسلل من بين هذا الحشد الصامت رجلٌ حكيم، واسمه أيضاً: حكيم.. (حكيم بن حزام) تأثر بكلام عمرو بن وهب الجمحي، وأحس بشيء خطير تحمله نواضح يثرب، (فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد.. إنك كبير قريش الليلة، وسيدها والمطاع فيها، [هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت][2]؟ هل لك ألا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر؟

قال: وماذا يا حكيم؟

قال: [إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي][3] ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي.

قال عتبة: قد فعلت، [أنا أتحمل بديته][4] أنت علي بذلك إنما هو حليفي، فعلي عقله وما أصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية [يعني أبا جهل فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك][5] فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره؟

ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون)[6].

---

(١) أثرٌ رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري (٤٢/٢): حدثني إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار وهذا السند صحيح فوالده ثقة وقد سمع من بعض الصحابة (التقريب ٦٢/١) وهؤلاء الأشياخ ربما كانوا من الصحابة فإن كانوا كذلك فالسند متصل وللأثر شاهد يقويه أيضاً انظر ما بعده.

(٢) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٣) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٤) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٥) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٦) هذا الأثر هو بقية الأثر السابق (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢ - السيرة) وشاهده عند الطبري عن حكيم بن حزام، وفيه ضعف ليس بالشديد. (٤٤٣/٢).

كان عتبة بعيد النظر.. خائفاً من مصير قومه الأسود الذي يقودهم إليه رجل طائش حاقد هو أبو جهل.. كان عتبة على جمله الأحمر يدور بين المشركين.. يحاول ثنيهم عن عزمهم، فهو يرى الموت سهاماً في نظرات أصحاب محمد ﷺ، ويرى العار في قتل أبناء العم وقتالهم.. كان عتبة على تلك الحال يناشد، ويمشي ويناشد، ويحاول حقن دماءٍ توشك أن تُسفح على جنبات بدر.. يحاول ردم مقابر ومآسٍ كالهاوية. لا بد أن أمية بن خلف كان في تلك اللحظات يستمع إليه، ويستبشر به، ويحتفي بكلماته وقلبه يرقص طرباً بما يقول، ولسان حاله يقول: لله درك يا أبا الوليد.. كم أنت رائع، فأنت تنقذني من موت ينتظرني.. موت وعدني به محمد.

لم يكن من حول عتبة فقط هم الذين يثنون على رأيه.. رسول الله ﷺ كان يراقبه من بعيد.. من الجهة الأخرى كان ينظر إليه، ولم يعرف من هو حتى الآن، لكنه أدرك من حركاته أنها حركات رجلٍ نصوح مشفق على قومه. (نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة وهو على جمل أحمر فقال: إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا - وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لم يزل ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه، وقاتل أبيه، فاجعلوا جبنها برأسي وارجعوا)(1). كان عتبة يريد أن يتحمل عارها وشنارها، ويجنب قومه جحيم الحرب ونارها.

أراد ﷺ أن يعرف من هو صاحب الجمل الأحمر (فقال النبي ﷺ للزبير: ناد بعض أصحابك، فسله من صاحب الجمل الأحمر؟ قالوا: عتبة ابن ربيعة، وهو ينهى عن القتال وهو يقول: يا قوم إني أرى قوماً مستميتين، والله ما أظن أن تصلوا إليهم حتى تهلكوا)(2).

---

(1) سنده جيد وهو صحيح بالشواهد. رواه البزار ٢-٣١٢ - زوائد. يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم، عن أخيه يزيد بن حازم، عن عكرمة عن ابن عباس: يزيد ثقة متقن وشيخه ثقة إلا عن قتادة وهذا ليس منها فشيخه هنا هو أخوه يزيد وهو ثقة (التقريب ٦٠٦ و١٢٨ و٦٠٠ وعكرمة غني عن التعريف. وللحديث شواهد.

(2) سنده صحيح. رواه البزار (٢/٣١١) بالسند الذي مر معنا كثيراً وهو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة عن علي. وتلميذ إسرائيل هو عثمان بن عمر العبدي: ثقة. (التقريب ٢/١٣) وتلميذه الثقة الثبت: محمد ابن المثنى المعروف بـ (الزمن) (التهذيب ٩/٤٢٥).

والتفت ﷺ فرأى عمه حمزة في موقع قريب من المشـــركين فأراد أن يتحقق من قول أصحاب الزبير ويتأكد: (فقال رسول الله ﷺ: يا علي، ناد لي حمزة -وكان أقربهم من المشركين- منْ صاحب الجمل الأحمر؟ وماذا يقول لهم؟

فجـاء حمـزة فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عـن القتال ويقول لهم: يا قوم إني أرى قوماً مســتميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم، اعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم)[1].

كان عتبة يثير الحســرات والزفرات، فابنته هند زوجة أبي سفيان تحبه وتخشى عليه، أما ابنه الوليد وأخوه شيبة فكانا رهن إشارته، لكن أين ابنه الآخر؟

حسرة على عتبة

كان عتبة فوق جمله الأحمر يثير إعجاب النبي ﷺ برأيه الســديد، لكنه كان يثير حســرة لدى أحد الشباب المؤمنين خلف رســول الله ﷺ.. كأني بهذا الشاب يتطاول، ويتطاول ليحظى بنظرة أخيرة لصاحب هذا الجمل الأحمر.. كأني به يرفع رأسه ليراه، فيتحرك قلبه نحوه بالأسى والحزن، والذكريات الحلوة المريرة. فعندما كان هذا الشاب طفــلاً كان صاحب الجمل الأحمر يحمله ويداعبه.. كان يســير معه في طرقات مكة وكان يكسوه أحسن الثياب، ويطعمه أطيب الطعام.. كم مرة قبله، وكم مرة عانقه، وكم مرة تعثر فحمله، وبكى فأســكته بما يرضيه، ومرض فبحث له عمن يداويه.. ذكريات حلوة ومريرة، فمن يكون هذا الشاب، وما صلته بهذا الشيخ الكبير؟

إنــه: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهذا الشــيخ هو أبــوه الذي رباه ورعاه وحنا عليــه، وهو اليوم عدوه.. والده اليوم أعقل وأحكم من في معســكر قريش، فأين تلك الحكمــة، وأين هــذا العقل قبل اليــوم؟! أين الحكمة في الخروج مــن أجل أصنام لا تســتطيع الحراك من أماكنها؟ أين الحكمة في عبادة حجر أو خشبة تفتقر إلى أبسط صفات السيادة، ألا وهي إصدار الأمر أو النهي..؟!!

---

(١) حديث صحيح مر معنا. رواه أحمد بالسند السابق.

كان هذا الشاب يتحسر على أبيه، مثلما تحسر علي بن أبي طالب على أبيه، وهو يشـاهد رجاءات النبي ﷺ تتحطم على صخرة العناد في قلب أبي طالب، ليموت أبو طالب وهو كتلة من العناد، وهاهي الصورة تتكرر على أرض بدر.

كان عتبة خائفاً أشـد الخوف على مجد قريش أن يدفن في هذا الصباح الممطر الجميل.. عتبة يرى الموت يطل عليهم من فوق الجبال.. يرى الموت في السحاب، وفوق نواضح يثرب، لذلك أرسـل حكيم بن حزام إلى أبي جهل لعله يتراجع عن غيه. أرسـل حكيم بن حزام إلى أبي جهل ليعرف رأيه فهو صاحب شر مستطير، وعقل صغير. أبو جهل سـفيه متهور.. قد يثير الفتنة والمشاكل بين جيش قريش نفسه، فيكونون غنيمةً سـهلةً لمحمد وأصحابه.. غنيمة أسـهل من قافلة أبي سفيان، فلا بد من كلمة واحدة، ورأي واحد ولو كان مراً.

توجه حكيم كما طلب منه عتبة، ليروي ما حدث فيقول: (فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعاً فهو يهنئها[1] فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا؟ فقال: انتفخ والله سـحره حين رأى محمـداً وأصحابه، فلا والله لا نرجع حتـى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه)[2]. كان أبو جهل يسـتخدم العواطف.. يثيرها.. يفجرها فتنةً.. يفجرها ثارات وسـيوفاً، وهاهـو يقلب الحقائق.. يجعل من رأي عتبة العاقل جبناً، وخوفاً على ابنه أبي حذيفة الذي بين صفوف المؤمنين. ويبرر هذا الرأي الساقط بأن عتبة يرى أن محمداً ﷺ وأصحابه.. لا يأخذون من المشركين جهداً أكثر من جهدهم في تناول وجبة من الطعام قد طبخ فيها جمل من الجمال.

إنه يرى المسـلمين جزوراً شهياً قد قدم على مائدة بدر، وقد حان موعد التهامه، وابن عتبة لقمة في هذه الوجبة الشـهية، وقد خشـي عتبة على ابنه من أفواه قريش وسيوفهم المتلمظة المتعطشة.

---

(١) أي يصلحها ويهيئها ويطليها بعكر الزيت.

(٢) أثر حسـن. رواه ابن إسـحاق ومن طريقه الطبري (٤٤٤/٢) وهو حديث طويل ضعيف عدا ما كان له من الشواهد ما يقويه كهذا الجزء الذي يشهد له ما عند البزار التالي.

أبــو جهل يقول: (انتفخ والله ســحره حــين رأى محمداً وأصحابــه، إنما محمد وأصحابــه كأكلة جــزور لو قد التقينا)[1] ويفقد أمية بن خلــف آخر آماله في الحياة، فلقد تحرك ابن الحنظلية البغيض مفتشاً عن إثارة أكثر لهذه القلوب السوداء، ومفتشاً عن جمر يلقيه في تلك النفوس كي تتحرق للثأر. أرسل إلى عامر بن الحضرمي الذي يتحرق للأخذ بثأر عمر بن الحضرمي الذي قتلته سرية (نخلة) السابقة.

أرســل أبو جهل المزيد من الجمر ليلقيه في صدر عامر المتلهف للثأر.. (بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع الناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ:

واعمراه..

واعمراه..

فحميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد علــى النــاس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، فلما بلغ عتبــة قول أبي جهل: انتفخ والله سحره. قال: سيعلم مصفر أسته من انتفخ سحره أنا أم هو)[2].

لــم يكتف أبو جهل ببلوغ صراخه إلى عتبــة.. لقد تحرك الطاغوت نحو عتبة بن ربيعة لاســتفزازه، ليوظفه باتجاهٍ شــقهُ أبو جهلٍ، ليحوله من نقطة ضعف وســكينة، إلــى بــركان تتفجر منه المعركة حالاً.. توجه أبو جهل إلــى عتبة صارخاً بوجهه: (أنت تقــول ذلك! والله لو غيرك يقولــه لأعضضته، قد ملأت رئتك جوفــك رعباً)[3] فثار عتبة وانفجر في وجه أبي جهل قائلاً: (إياي تعير يا مصفر أســته؟ ســتعلم اليوم أينا الجبــان)[4] (ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأســه، فما وجد في الجيش بيضة[5] تسعه من عظم رأسه، فلما رأى ذلك اعتجر[6] على رأسه ببردٍ له)[7].

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث البزار السابق (٢/٣١٣ - الزوائد).
(٢) جزء من حديث ابن إسحاق السابق القوي. ومصفر أسته: الذي يُخرج الريح من الجبن.
(٣) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.
(٤) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.
(٥) الخوذة التي توضع على الرأس في الحروب.
(٦) لف البرد على رأسه كالعمامة... والبرد قماش يلتحف به.
(٧) جزء من أثر ابن إسحاق السابق وهو حسن.

نجح أبو جهل بتحريضه لغضب عتبة، فأوصله إلى حالة شديدة من التوتر والتهور، وأفلح الطاغوت في إثارة حمية أخيه وابنه (فبرز عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية)[1] يريدون الحرب.

سمع المسلمون ذلك الضجيج فتزينوا للجنة، وتوجه النبي ﷺ إلى جبار السموات والأرض يناشده ويناشده، ويستمطره رحمةً ونصراً. فنظر إليه أبو بكر الصديق فرق لحاله، وأشفق عليه، ثم تحرك نحوه بكل رفق، والتف حوله وضمه ضمةً لا يجرؤ عليها إلا أبو بكر، فمشاعر أبي بكر لا يعبر عنها إلا أبو بكر.

فكم أبكى ذلك المشهد من الصحابة عندما (نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال:

اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً.

فما زال يستغيث بربه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرده -ألقاه على منكبيه[2]- ثم التزمه من ورائه، ثم قال: كفاك يا نبي الله بأبي وأمي[3]مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[4].

لقد فعل ﷺ كلما يمكنه فعله.. فعل الأسباب كلها، ثم توجه إلى الله يناشده ويدعوه. هذا هو التوكل الصحيح الذي رسمه لأتباعه:

فعل السبب، ولكن جعل النتائج على الله

فعل ﷺ ذلك كله وما زال يفعل:

شاور المهاجرين والأنصار قبل الانطلاق.

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.
(٢) لفظ مسلم.
(٣) لفظ ابن جرير.
(٤) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٣٨٣ وغيره.

ثم قطع الأجراس من أعناق الإبل إمعاناً في السرية.

رفض أن ينتظر أي شخص لم يكن جاهزاً.

أبقى هدف المسير سراً عند انطلاقه.

رفض أن يصحبه أي مشرك حتى ولو كان صادقاً ذا حمية وشهامة.

سمح للقادرين على القتال فقط بمصاحبته.

أمرهم بالتعاقب على الرواحل حتى يهون عليهم المسير قليلاً وهو ليس بهين.

استطاع أن يعرف عدد الخارجين للقتال من قريش.

استشار أصحابه في المضي أو العودة فوافقوا على المضي.

سبق ﷺ المشركين إلى العدوة الدنيا حيث الماء الآبار.

بنى المسلمون لهم حوضاً يشربون منه أثناء المعركة.

وبعد ذلك وقبله توجه إلى الله يناشده ويدعوه.

يقول علي رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ لما أصبح ببدر من الغد أحيى تلك الليلة كلها وهو مسافر)[1]، والسفر إرهاق ومشقة، ومع ذلك يقول علي: (لقد رأيتنا ليلة بدر وما منا أحد إلا وهو نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه يصلي إلى شجرة، ويدعو حتى أصبح)[2].

عمل ودعاء.. هذا هو منهج نبي الله ﷺ، وهذا هو توكله على الله، وبعد الدعاء بدأ العمل من جديد، فالصحابة قليلون، ولا بد من خطة محكمة، وتطبيق صارم كالسيف، فالخطأ يكلف كثيراً، وعدم تنفيذ الأوامر كارثة، فالمعركة تحتاج إلى كل الجهود.. تحتاج

---

(١) سنده حسن مر معنا كثيراً. رواه أبو يعلى ومن طريقه ابن حبان (موارد ٤٠٩): حدثنا الأزرق ابن علي أبو الجهم، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يوسف بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. الأزرق صدوق وشيخه حسن الحديث من رجال الشيخين التقريب ٩٧ و١٥٧ ويوسف حفيد أبي إسحاق ثقة من رجال الشيخين.

(٢) حديث صحيح مر معنا.

للجميـع دون اسـتثناء، وفـي أمسّ الحاجة تلـك، وفي أحرج الظـروف وأصعبها يصل صحابي ووالده للمشاركة مع نبيهم ﷺ، ومع ذلك يرفض ﷺ مشاركتهما.. رغم صدقهما وإخلاصهما، وتحملهما المشاق في السير نحوه. ذلك الصحابي هو حذيفة بن اليمان.

لماذا يرفض ﷺ مشاركة حذيفة ووالده؟

سـؤال بحجم المعركة، والإجابة بحجم محمد ﷺ. ليس هناك أزمة ثقة بحذيفة، بل إن حذيفة فوق الشبهات، كيف لا وقد سلمه الرسول ﷺ يوماً قائمة سرية بالأسماء والأحداث التي سيفصح عنها التاريخ..؟ سلمها ﷺ لأمانة حذيفة وأعماقه.

الأمر هنا لا يتعلق بالثقة.. الأمر يتعلق بالرسول ﷺ وبالقادة الإسلاميين والدعاة مـن بعده. حذيفة مر من هناك.. هناك حيث صادفه المشـركون هو ووالده حسـيل. سـألنا حذيفة عن أمر يسـتطيع إخبارنا به.. إنه ليس سراً: ما الذي منعك يا حذيفة من المشاركة في غزوة بدر؟

فيجيب حذيفة رضي الله عنه قائلاً: (ما منعني أن أشـهد بدراً، إلا أنني خرجت أنا وأبي (حسـيل) فأخذنا كفار قريش، فقالـوا: إنكم تريدون محمداً. فقلنا: ما نريد إلا المدينة.

فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرف إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسـول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)[١].

إنهـا إجابة بحجـم محمد ﷺ، والتزام أعيـى من يهتبلون ثمـاراً ناضجة وغير ناضجـة.. أعيى زعمـاء ودعاة ذوي نظرة آنيـة.. لا يرون إلا ما أمامهـم: (نفي لهم بعهدهم)[٢] وهم المشـركون الذين يعبدون الأصنام، ويحاربون الله ورسوله، وما خرجوا إلا لطمس التوحيد وسفك دماء الموحدين.. خرجوا لذبح نبي الإسلام، وتدمير دولته، ومع ذلك (نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)[٣].

---

(١) سنده حسن رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٦٣: حدثنا أبو أسامة، عن الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل، حدثنا حذيفة بن اليمان. الوليد تابعي حسـن الحديث ومن رجال مسـلم التقريب ٥٨٢ وتلميذه حماد بن أسامة ثقة ثبت التهذيب ٣-٢ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) حديث صحيح وهو الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح وهو الحديث السابق.

ما أعظم هذا الدين وأنقاه وأرقاه.. ياله من تحضر وسمو غير مسبوق. إذا كان هذا هو حجم الاحترام للعلاقة - العهد مع الأعداء، فكم هو حجمه بين المسلم وأخيه؟!!

سؤال عرف الإجابة عليه حذيفة ووالده ووعياه، فودع النبي ﷺ صاحبيه وانصرفا وهما ثقيلان لا يطيقان ذلك الوداع.

تَوَجَّهَا والحزن إلى المدينة، وتوجه ﷺ إلى صحابته بعد هذا الدرس الذي تغلغل في أعماقهم، وسرى في دمائهم، وعاد ﷺ إلى العمل من جديد، فجعل ﷺ لجيشه رايةً ولواءً، والراية هي (علم الجيش) واللواء أصغر منها و(كانت رايته ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض)[1] .. رايته (كانت سوداء مربعة من نمرة[2][3]. وتحت هذه الراية نظم ﷺ أصحابه صفوفاً أو صفاً، لأن الله يحب ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[4] بنيان متماسك وقوي، ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما رأى خللاً في الصف سارع إلى تقويمه.

يحدثنا أبو أيوب الأنصاري عن ذلك فيقول: (صففنا يوم بدر فندرت منا نادرة أمام الصف، فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال: معي، معي)[5] وجعل جزءاً منهم خلف الصفوف، وفي أماكن مناسبة تمكنهم من مراقبة تحركات الأعداء، وتقديم المعلومات لرسول الله ﷺ، وكان من بين هؤلاء ذلك الغلام الذي يدعى: (حارثة بن سراقة) وهو أنصاري من بني النجار، وقد أدرك ﷺ أن هذه القلة المؤمنة تحتاج إلى شعار يعرف بعضهم بعضاً به إذا حمي الوطيس، والتحمت السيوف بالأعناق والرؤوس فكان:

---

(١) حديث حسن. صحيح ابن ماجة (١٣٣/٢).

(٢) بردة من صوف.

(٣) حديث صحيح. صحيح أبي داود (٤٩١/٢) عدا قوله: مربعة.

(٤) سورة الصف.

(٥) سنده قوي. رواه أحمد (٤٢٠/٥) من طريق موسى بن داود وعبد الله بن المبارك حدثنا.. وأخبرنا ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أسلم أبا عمران التجيبي حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول:... وهذا السند قد خلا من علة اختلاط ابن لهيعة لأن أحد تلميذيه هو ابن المبارك.. وشيخه يزيد بن أبي حبيب المصري ثقة فقيه من رجال الشيخين (التقريب ٣٦٣/٢) وقد سمع من التابعي المصري الثقة أسلم ابن يزيد التجيبي (التقريب ٦٤/١).

الصوف الأبيض شعاراً للمسلمين

قال علي بن أبي طالب: (كان سِيمَا أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: الصوف الأبيض)[١].

وقد كان لبعض الصحابة علامات يعرفون بها، فحمزة مثلاً (معلم بريشة نعامة في صدره)[٢] كان أسداً عليه ريش النعام.

أما الزبير فعلامته يحدثنا بنفسه عنها فيقول: (كان على الزبير يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها)[٣] ولهذه العمامة الصفراء أصداء في السماء تنتظر النزول سنعرفها بعد قليل، وسنعرف معها علامتين لا يراهما أحد.. علامة لأبي بكر، وعلامة لعلي رضي الله عنهم أجمعين، ولكن قبل ذلك كان هناك علامة للجميع.. علامة في العيون والنفوس.. علامة غشيت المؤمنين كلهم إنها:

النعاس وشيء آخر

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[٤] لقد ألقى الله النعاس على المؤمنين أمناً منه وسلاماً، وثقة بنصر الله، كما بث في نفوسهم شيئاً جعلهم يتحفزون للقتال (لقد شجع الله المسلمين على لقاء عدوهم، وقللهم في أعينهم حتى طمعوا فيهم)[٥].

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٥٤ بالسند الصحيح الذي مر معنا كثيراً: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة عن علي.. وشيخه وكيع بن الجراح إمام ثقة.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند وغيره عنه: حدثني عبد الواحد بن أبي عوف، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف. عبد الواحد ثقة وليس كما قال الحافظ صدوق يخطئ. راجع تعليقي على التقريب، وسعد ووالده تابعيان ثقتان من رجالهما.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٦١ من طريقين أحدهما: حدثنا عبدة، عن هشام، عن عباد بن حمزة عن الزبير، وعبدة بن سليمان ثقة ثبت التقريب ٣٦٩ وهشام ثقة مر معنا كثيراً، وشيخه تابعي ثقة وروايته عن أسماء وعائشة وجابر ووالده وللحديث شواهد.

(٤) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٥) رواه ابن إسحاق بسند صحيح ومن طريقه الأموي (سيرة ابن كثير ٢/٤٣٤) حدثني الزهري عن عبد الله ابن ثعلبة بن صعير. الزهري تابعي ثقة معروف وشيخه صحابي.

كان الصحابة مزيجاً من التحفز والنعاس الغريب، وكان الوحي يتنزل على الملائكة أن يهبطوا إلى أرض المعركة لتثبيت المؤمنين، حيث يقول سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1]. لكن أين الملائكة؟ بل أين رسول الله ﷺ في هذه اللحظات الحرجة، التي بدأت فيها أصوات المشركين بالارتفاع والشجار من أجل المعركة؟ أين رسول الله فهو ليس بين الصفوف، وليس مع النظار وليس عند الحوض؟

أين رسول الله وأين الملائكة

لقد ذهب قبل قليل إلى العريش، وتبعه أبو بكر.. إنه الآن داخل العريش، وهو يعاني حالة من النعاس، ورأسه يخفق..

هاهو لقد أفاق من نعاسه، وخرج والبشرى تحمله ويحملها.. إنه يبشر صاحبه أبا بكر بشيء مفرح فما هو؟!

يقول أحد الصحابة: (خفق[2] رسول الله ﷺ خفقة في العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعدته)[3] (هذا جبريل آخذ رأس فرسه عليه أداة الحرب)[4] هبط جبريل مُعْتَمّاً.. ما لون عمامته، وهل هبط لوحده؟

سنعرف بعد قليل، فرسول الله ﷺ يتجه مبشراً أصحابه بما حدث، ومحرضاً شجاعتهم للتضحية بأرواحهم في سبيل الله. إنه يحدثهم.. يوقظ فرحهم بالجنة والشهادة، لقد (خرج ﷺ إلى الناس فحرضهم)[5] وعندما يحرض رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقاً، وإذا قال.. تحرك الجميع من حوله.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٢) حرك رأسه وهو ناعس.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقة الأموي (سيرة ابن كثير ٢-٤٢٤): حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير.. وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه التابعي الثقة، وعبد الله بن ثعلبة صحابي.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٥) رواه ابن إسحاق وهو جزء من حديثه الطويل وهو ضعيف إلا ما كان له ما يقويه. كهذه العبارة عند أحمد وسندها صحيح وقد مر معنا (سيرة ابن كثير ٢-٤٢٢).

يقول ﷺ وهو يتحدث عن الصفوف: (قيام ساعةٍ في الصف للقتال في سبيل الله خير من قيام ستين سنة)[1] و(الشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله في الصف الأول، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يقتلوا، فأولئك يلقون في الغرف العلا من الجنة، يضحك إليهم ربك، إن الله تعالى إذا ضحك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه)[2].

ويقول ﷺ: (موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)[3] وإن (للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين من أهل بيته)[4].

إذا فهي الرحلة للنصر في الدنيا والتمكين لدين خالق هذه الدنيا، أو السفر العاجل إلى الجنة.. لا العودة إلى تلك الصفة أو بيوت الحجر والطين، بل السفر إلى قصور بحجم الأحياء والمدن.. قصور ليست من الحجارة أو الطين أو القش، بل من الذهب أو الفضة أو المرجان، أو اللؤلؤ أو الياقوت، أو الألماس، ليس فيها دورات للمياه، فأهل الجنة و(أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك)[5].

إذا كانوا بهذا الجمال، وأجسادهم بهذه النضارة، ولا إفرازات مؤذية لتلك الأجساد، ولا روائح منتنة أو كريهة تنبعث منهم، وإذا كان عرقهم ورائحة آباطهم أرقى من كل أنواع العطور الدنيوية، فلك أن تحلق في الخيال حتى تتعب، كي تصف حبيباتهم المؤمنات، وفتنتهن التي لو بدى شيئا منها لذهل رجال الأرض صالحهم وفاسدهم.. إنها الجنة، حيث السيارات والطائرات واليخوت في منتهى الروعة وجمال التصميم والرفاهية.. ليست حكراً على أحد، وليست لأناس دون ناس.

---

(١) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢-٨١٥).
(٢) حديث صحيح. المصدر السابق (١-٦٩٥).
(٣) حديث صحيح. المصدر السابق (٢-١١٢٧).
(٤) حديث صحيح. السابق (٢-٩٢٠).
(٥) صحيح البخاري ٣-١٢١٠.

إنها الجنة حيث لا أمراض ولا قبح ولا ترهل ولا شيخوخة ولا ملل، ولا حسد ولا كراهية، ولا شرك ولا جهل ولا تخلف ولا حروب ولا دمار ولا خوف من القادم المجهول، بل اقتحام لا ينقطع ولا يتوقف للجديد والجميل والرائع والمثير، واكتشاف متواصل، وأجمل ما فيها رؤية الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى.

إن من يسمع كلمات النبي عليه السلام، ليهون أمامه الموت والفناء، بل إن الموت يهون ويسهل للشهيد حقاً، فالموت يداعب الشهداء مداعبةً.. بشر بذلك رسول الله ﷺ فقال: (الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)[1].

إن من يستمع إلى هذه الأحاديث وهو على سريره سيبحث عن أي معركة يكون فيها شهيداً، فكيف لو سمعها رجل يحمل سلاحه وسط الصفوف. بل كيف إذا سمعها من يرى زخات المدد من السماء.. يبشر بها رسول الله ﷺ أصحابه، ويبشر بها الله فيقول سبحانه: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾[2] وكانوا خير مدد، وكانوا خير الملائكة.

هذا كبيرهم: جبريل عليه الصلاة والسلام يصفهم بنفسه، فقد (سأل جبريل النبي ﷺ: كيف أهل بدر فيكم؟ قال ﷺ: خيارنا.

قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم خيار الملائكة)[3].

أما كبار الملائكة: ميكائيل وإسرافيل، فقد كان في نزولهم تكريماً لأبي بكر الصديق، ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فلقد (قيل لأبي بكر الصديق وعلي يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم، يشهد القتال، أو يقف في الصف [ولا يقاتل][4].

---

(١) حديث صحيح. السابق (١-٦٩٦).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٤.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٩٣) والبيهقي (١٥١/٣) واللفظ له.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة واللفظ له عدا ما بين المعقوفين ٧-٣٥٣ والبيهقي ٣-٥٥ وأحمد والبزار (الزوائد ٢-٣١٤) من طرق عن مسعر بن كدام الهلالي وهو ثقة ثبت فاضل (التقريب ١٨٧/٢) عن شيخه أبي عون الثقفي وهو ثقة من رجال الشيخين (التقريب ١٨٧/٢) عن شيخه التابعي الثقة أبي صالح عبد الرحمن بن قيس الحنفي (التقريب ٤٩٥/١).

لقد ثارت المعارك في نفوس الصحابة، واستعر لهيبها في دمائهم، فقال ﷺ لهم قولاً ينظم حماسهم وتوثبهم، ويسدد رميهم وسيوفهم.. قولاً يفتك بأعدائهم.

ها هو أحدهم أبو أسيد الساعدي ممتلئاً بالحماس والتوثب، سألناه: ماذا قال لكم نبينا يا أبا أسيد الساعدي فقد كنت بين الصفوف؟

فقال رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ حين اصطففنا يوم بدرٍ: إذا أكثبوكم - يعني إذا غشوكم - فارموهم بالنبل، واستبقوا نبلكم)[1].

يكاد الصبر يفتك بالصف المؤمن.. ذلك الصف المرصوص كالبنيان، إلا لبنة قويةً كانت تتململ.. تشعر بالحرج.

إنه عبد الرحمن بن عوف، فما الذي جرى له؟ ولماذا يشعر بالإحراج وكأنه يريد أن يغير مكانه؟

عبد الرحمن بن عوف يتمنى مكاناً آخر

أيتمنى ابن عوف أنه كان في بيته، حتى لا يقاتل عشيرته وأبناء عمومته؟ أم هو خائف؟

الأمر ليس كذلك، فليست هذه طباع عبد الرحمن بن عوف، لكن القدر ساقه ليكون بين غلامين صغيرين في الصف.. كان ينظر يميناً فيرى غلاماً، وينظر عن يساره فيرى مثل ذلك. ماذا سيفعل ابن عوف؟ لم يمهله الغلامان، لقد بادراه بالهمس. كان همساً غريباً.. كان كل واحد منهما لا يريد أن يُسمع صاحبه ما يقول. ما قصة هذين الغلامين؟

سألنا عبد الرحمن بن عوف عما جرى له مع هذين الغلامين فقال: ([إني لواقف] يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما [سراً من صاحبه] فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣-٧٠) وغيرهم.

أنه يسب رسول الله ﷺ، [عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه] والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك.

فغمزنـــي الآخر فقال لي أيضاً [ســـراً من صاحبه] مثلها، [فما ســـرني أنني بين رجلين مكانهما]، فلم أنشــب أن نظرت إلى أبي جهــل يجول في الناس، فقلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني)[1]

ســـلَّ كل فتىً سيفه ليســبق صاحبه إليه، لكننا سنسبق الفتيان إلى أبي جهل. ها هـــو.. إنه يحرض الناس على القتال، بل إنه يفعل أمراً عظيماً طالما كفر به، إنه يدعو الله وحده.. إنه لا يدعو الأصنام.. لماذا؟

هل أسلم أبو جهل

هل أســلم في اللحظات الأخيرة؟ يقول أحد الصحابة رضـــي الله عنهم: (إن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم [أينا كان] أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فاحنه الغداة، فكان المستفتح)[2].

لم يسلم أبو جهل.. كان يريد استدراج سذاجة قومه أكثر فأكثر للقتال..

كان لا يريد أن تقع كارثة، فزعامته لقريش مرهونة بهذه المعركة، وببقاء رسول الله ﷺ حياً.. كأني بأمية بن خلف يستمع إلى دعائه فيقول: لعنة الله عليك من أفاك..

وقد أنزل الله على نبيه آيات تبشر أبا جهل بما أراد فقال سبحانه: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] وأبـــو جهل ليس منهم.. إنه يحاول أن يكرس وهماً في نفوس أتباعه بأنهم على حق. لم يكتف أبو جهل بالاستفتاح والاستنصار من الله، لقد هرع إلى عتبة بن ربيعة ليســخر منه أمام الجميع، وليجعله أضحوكة وعبرة لمن يفكر بالتراجع عن الحرب مجرد تفكير.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤ والزوائد له أيضاً لكن في رواية أخرى.

(٢) رواه ابن إســحاق بســند صحيح ومن طريقه الإمام أحمد ٥-٤٣١: حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة ابن صعير. والزهري ثقة وشيخه صحابي والسند مر معنا من قبل.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٩.

وقف أبو جهل أمام عتبة (فقال: أنت تقول ذلك! والله لو غيرك يقول لأعضضته، قد ملأت رئتك جوفك رعباً)[1]، فغضب عتبة من تلك الكلمات الجارحة، ونجح أبو جهل في إثارته، فأخذته العزة بالإثم، فالتفت إلى أبي جهل وقد احتقن من الغضب فقال له شيئاً يمرغ رجولته وزعامته.. قال عتبة لأبي جهل: (إياي تعني يا مصفر أسته، ستعلم اليوم أينا الجبان)[2](ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون؟ كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجوههم السيوف)[3].

تجمد الدم في عروق أمية، وأدرك أبو جهل أن حمزة في الطريق، وتهاوت معنويات الوثنيين، لكن عتبة أصر على الخروج ليغسل عار الجبن الذي سكبه عليه أبو جهل، ثم صاح بعد أن لف قطعة قماش على رأسه: يا شيبة بن ربيعة.. يا وليد بن عتبة، لقد (دعا أخاه وابنه فخرج يمشي بينهما)[4] (فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار مشببة)[5] (ثلاثة نفر: عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، ورجل آخر يقال له عبد الله بن رواحة. فقال: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقالوا: ما لنا بكم حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد أَخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا)[6] و(قال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن نبارز من بني عمنا من بني عبد المطلب. فقال رسول الله ﷺ:

(قم يا حمزة.. وقم يا علي.. وقم يا عبيدة)[7]

ثلاثة من بني عبد المطلب كأن وجوههم السيوف.. ثلاثة أقبلوا كأنهم الموت، فكان عتبة الضحية لحمزة هذا اليوم، فهوت حكمته وشجاعته، وشركه وعناده على أرض

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو جزء من حديث الإمام أحمد ١ - ١١٧.

(٢) هو جزء من الحديث الصحيح السابق ١ - ١١٧.

(٣) سنده صحيح. رواه البزار زوائد ٢-٣١٢. يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس. جرير ثقة إذا روى عن غير قتادة، ويزيد ثقة وتلميذه شيخ البزار إبراهيم بن سعيد الجوهري ثقة التقريب ٦٠٦ و٨٩ وللحديث شواهد.

(٤) جزء من حديث البزار السابق وهو صحيح زوائد ٢-٣١٢.

(٥) جزء من حديث أحمد الصحيح وقد مر معنا ١ - ١١٧.

(٦) جزء من حديث ابن إسحاق وهو حسن بحديث أحمد السابق.

(٧) جزء من حديث أحمد الصحيح وقد مر معنا ١ - ١١٧.

بدر، وهوى أخوه شيبة جثة هامدة تحت قدمي علي. لم يستغرقا وقتاً طويلاً أمام هذين الفارسين من بني عبد المطلب، لكن ماذا حدث لعبيدة بن الحارث رضي الله عنه.

علـيٌّ يقـص علينا ما حدث فيقـول: (أقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شـيبة، واختلـف بين عبيدة والوليـد ضربتان، فأثخن كل واحدٍ منهمـا صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة)[1]

ابتهج ﷺ بفرسـانه، وفـرح بانتصارهم، وتحمس المؤمنون جميعـاً لعناق الموت، فرائحة الشـهادة تعطـر أجواء بدر.. تأجج حماسـهم، وأيقنوا كمـا أيقن نبيهم ﷺ بالنصر، فصاح بأصحابه: (قوموا إلى جنة عرضها السموات الأرض)[2].

سمع أحد الصحابة -وهو الذي كان يحمل تمراً في جيبه- سمع ذكر الجنة فطار قلبه، وتوجه نحو رسـول الله ﷺ كالفرح، ولما وقف أمامه قال: (يا رسـول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال ﷺ: نعم.

قال: بخٍ.. بخٍ. فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قول بخٍ.. بخٍ؟ قال: لا والله يا رسـول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال ﷺ: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن)[3].

ما هذا الرجل، ومن هو..؟ يبشـره ﷺ بالجنة فيأكل تمراً..!! سنعرف بعد قليل، فلنعد إلى رسول الله ﷺ حيث لا تمر في كفيه، لكن كفه كانت مليئة بشيء غير التمر.. شيء لا يؤكل. فما هذا الشيء وماذا يريد أن يفعل به؟

لقد (أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصى بيده، ثم خرج فاستقبل القوم، فقال:

شاهت الوجوه

ثم نفحهم بها، ثم قال لأصحابه: احملوا)[4] فانطلق الصحابة كالسـهام.. كالموت، ونظـر صاحب التمـرات إلى تمراته، ثم قال: (لئن حييت حتـى آكل تمراتي هذه إنها

---

(١) سنده صحيح. رواه أبو داود ٢-٥٩ وغيره بسند إسرائيل عن أبي إسحاق... السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣- ١٥٠٩.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٥٠٩.

(٤) سنده قوي مر معنا رواه الأموي (ابن كثير ٢/٤٣٤) حدثنا أبي حدثنا ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير. الزهري ثقة وشيخه صحابي والأموي وولداه ثقتان.

لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل)[1] قتل شـهيداً رضي الله عنه وأرضاه.. هذا الشهيد أنصاريٌّ يدعى: عمير بن الحمام.

أما حمزة فقد شـق صفوف الوثنيين بسيفه.. يتسـاقطون أمامه واحداً واحداً. أحد الجبناء: أمية بن خلف كان ينظر إليه وينتفض، وينتفض السيف في يده، وتنتفض الريشـة التي زين بها حمزة صدره.. أميـة بن خلف كان يرتعد خوفاً ويقول لمن حوله: (ذاك الـذي فعل بنـا الأفاعيل) وهو لم يحدد من ذلك الشـخص بعد.. لم يعرف أنه حمزة بعد، وكان أحد ضحايا حمزة رجل من مشاهير قريش اسمه: (طعيمة بن عدي) وهو أخو الرجل الشهم (المطعم بن عدي).

ومن مـكان آخر انطلق عبد الرحمـن بن عوف، وانطلق الشـابان كقذيفتين من حوله.. يتسـابقان نحو رأس أبي جهل، لكن كيف والمشـركون كالشـجر الملتف حوله.. يحمونه من سـيوف المهاجرين والأنصار؟ أي سيف سيشق طريقاً نحو أبي جهل..؟ أي سيف سيجز ذلك الشجر الوثني الملتف حول أبي جهل..؟

الذين صنعـوا الأحداث يتحدثون. عبد الرحمن بن عوف يقول للغلامين وسـط الموت والسـيوف: (نظرت إلى أبي جهل وهو يجـول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه [فأشـرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين] فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه فقال: أيكما قتله؟

قال كل منهما: أنا قتلته. قال ﷺ: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا.

فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: كلاهما قتله. وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر معاذ بن عفراء)[2]

هذا ما حـدث باختصار، أما التفاصيل فعند من خاض سـيفه في تفاصيل أبي جهل.. التفاصيل عند معاذ بن عمرو بن الجموح، فبعد أن أشار عبد الرحمن بن عوف بيده إلى أبي جهل قال معاذ: (سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة[3] وهم يقولون:

---

(١) هو باقي حديث مسلم السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٣٧٣ وما بين المعقوفين عند البخاري.

(٣) الشجر الملتف.

أبو الحكم لا يخلص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربةً أطنت[1] قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنــواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها، وضربني ابنه عكرمة على عاتقــي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضنــي[2] القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأســحبها من خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليهــا حتى طرحتها، ثم مــر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق)[3] فتركه يشقى بآخر أنفاسه.. تدوسه الأقدام وتدوس زعامته، ويكسوه التــراب الذي طالما نثره في وجوه الضعفاء والمســاكين. هوى الطاغية الشــرس الذي قضى أكثر من عشر سنين في محاربة الله ورسوله ﷺ.. قضاها في اضطهاد الفقراء، وقتل العجائز والمسنين من المؤمنين.. هوى هذا الكافر على يد شابين صغيرين اقتحما ثأراً لله ولرسوله وللمؤمنين، وخيم الموت على أبي جهل، والتهمت الصحراء ساقه.

خيمــة من الموت ضربها الشــابان الأنصاريــان عليه، فلم يبق منه ســوى عينين زائغتين.. تضعفان كلما سقط طاغوت آخر...

ها هو الطاغوت الآخر: عقبة بن أبي معيط يهوي إلى الأرض.. سقط سيفه، وسقط شــركه، لكنه لم يمت ما زال حياً.. إنه يرسف في قيوده، وأحد فرسان الإسلام يقتاده كذلٍ وديع.. يمر به على جثث رفاقه في اضطهاد محمد عليه السلام فيرتجف.

وهنا طاغوت ثالث يرتطم بالأرض.. يرتج عند ارتطامه.. إنه أمية بن خلف، وشحمه الذي يلف جسداً يتموج من الرعب، وبالقرب منه يسقط علي ويرتجف من الخوف.

أجل عليٌّ خائف جداً فســيفه ليس بيده، وهو يخشــى طعنة من هنا أو هناك، أو أن تدوسه الأقدام والحوافر، فما الذي أصاب علياً؟ ومن الذي أسقطه وكيف يرتجف من الخوف؟

---

(١) اطارت.

(٢) أي حال بينيه وبينه.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق والبيهقي (٣/٨٤) حدثني ثور بن يزيد عن عكرمة عن ابن عباس. عكرمة تابعي ثقة وثور بن يزيد الحمصي ثقة ثبت. التقريب ١٣٥.

علي خائف من الموت

أما كيف.. فلا بد أن أحد فرسـان الإسـلام قد أسـقطه عن ظهـر دابته، وأما لماذا.. لماذا أسـقط ذلك الفارس علياً عن ظهر دابته. فالسـبب بسيط.. لقد أسقطه، لأنـه علي بن أمية بن خلف وليس علي بن أبـي طالب، فابن أبي طالب يصول ويجول كالأسد بين عجول الشرك.. يلتقي بمن شاء، ويُسقط ما شاء منهم.. أما علي بن أمية فهـو كالذبيحة قرب أبيه الجبان.. قرب أبيه الذي شـاهد الموت عدة مرات. لم ينفعه أبو جهل، ولا هبل، ولا بعيره الذي اشـتراه بأغلى الأثمان. فأبو جهل يتلبط في دمائه، وهبـل حجر تركه في مكة، وبعيره وبعير ابنه بـين غنائم المؤمنين، والموت قادم.. قادم يا أمية..

لكن أمية -فجأة- يشـعر أن الحياة قادمة.. إنه يـرى من خلال الموت فرجة إلى الحيـاة.. يحملها أحد المهاجرين.. يحملها عبد الرحمن بن عوف وهو شـاهر سـيفه يجندل به جنود الشرك، لكن أي أمل يحمله عبد الرحمن وسيفه يقطر دماً؟!

يبدو أن أمية بن خلف يحمل سـراً، فلقد تطلق وجهه واستبشـر عندما رأى عبد الرحمـن بن عوف، ويبـدو أن ابن عوف يحمل في ذاكرته المزيد عن تفاصيل ما حدث في بدر.

دعونا نسـتمع إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يحكي سـر أمية، وآخر آمال أمية، فهو إن لم ينج الآن على يد صديقه ابن عوف فسوف ينتن على أرض بدر.

قصة أمية وعبد الرحمن بن عوف

كان أميـة وعبد الرحمن صديقين في الجاهليـة، وكان بينهما تعامل تجاري بعد الإسـلام، بل وبعـد الهجرة.. هذه العلاقـة تخللتها قصة مثيرة، بـدأت في مكة قبل الإسلام فمتى ستنتهي..؟

يحدثنا عن بدايتها وعن نهايتها عبد الرحمن بن عوف فيقول: (كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسـمي عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت: عبد الرحمن، فكان

يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ فأقول: نعم هداني الله للإسلام، فتسميت عبد الرحمن. قال: إني لا أعرف الرحمن)[1].

ومضت الأيام والأحداث بالاثنين.. بقي أمية في مكة على شركه وأصنامه، وهاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة، ومارس التجارة بعد أن دلوه على سوق المدينة، فصار أحد رجال الأعمال والتجار الناجحين. ويمضي ابن عوف متحدثاً عن قصته مع أمية وهو في المدينة فيقول: (كاتبت أمية بن خلف كتاباً: بأن يحفظني في صاغيتي بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة)[2] (كان بيني وبين أمية بن خلف كتابٌ، بأن يحفظني في ضياعي بمكة، وأحفظه في ضياعه بالمدينة، فلما ذكرت: الرحمن، قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبد عمرو.

فلما كان يوم بدر)[3] (مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده، ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال: عبد عمرو. فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك في، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك؟ قلت: نعم، ها الله.

فطرحت الأدراع من يدي وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن، ثم خرجت أمشي بينهما)[4](خرجت به إلى شعب لأحرزه حتى يأمن الناس)[5]، وتوجه الثلاثة إلى ذلك الشعب، ثم توجهوا (إلى جبل)[6]، فارتاحت نفس أمية بن خلف.. يا لها من أيام عصيبة تلك التي كانت تحمل في دقائقها الموت والحياة معاً لأمية.

---

(١) حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٩١: حدثني يحيى بن عباد عن أبيه وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن قالا: وهناك انقطاع بين صالح وجده، لكن عباد تابعي كبير والحديث حسن بما بعده وحديث صالح موصول عند البخاري وهو التالي.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٣٠١) والصاغية: الحاشية والأتباع.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣-٩٠).

(٤) حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣-٩١): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قالا: وفي الطريق الثانية انقطاع بين صالح وجده لكن عباد بن عبد الله ابن الزبير تابعي كبير والحديث بعد هذا حسن بما بعده وحديث صالح موصول عند البخاري وهو ما بعده.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣-٩٠).

(٦) جزء من حديث البخاري (٢٣٠١).

اطمأن أمية فتحدث عن اللبن الذي سيشـربه ابن عوف وأصحابه من نياق أمية، التي سـيفتدي نفسه وابنه بها، واسترخت أعصابه، فاسترسل في الحديث وقال لعبد الرحمن بن عوف وهو يمشـي (بينه وبين ابنه آخذاً بأيديهما: يا عبد الإله: من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟

قلت: حمزة. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل)[1]

وواصلوا المشـي والمسير، وفجأة دوت صرخة مرعبة من بعيد.. اتسعت لها عيون أميـة وابنـه.. صرخة قلبت أرض بدرٍ على رأس أمية مـن جديد.. صرخة من أعماق مضطهـد لا تزال جراحه تلتهب. يقول عبـد الرحمن بن عوف: (فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي -وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على الإسـلام- فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قلت: أي بلال، أسيري.

قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلـف لا نجوت إن نجا)[2] (فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية بن خلف.

فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشـيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: أبرك.

فبرك، فألقيت عليه نفسـي لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي)[3](فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة[4]، فأنا أذب عنه، فأخلف رجل بالسيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، قلت: انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً، فهبروهما بأسيافهما حتى فرغوا منهما)[5]..

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه البزار (٣-٢٢٧)وغيره: حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف. إبراهيم له رؤية وابنه تابعي ثقة وشيخ ابن إسحاق ثقة وجرح ابن حبان لا يضره.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وهو الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٣٠١).

(٤) التفوا حولنا وكأنهم داخل بئر صلبة لا تحتاج إلى طي.

(٥) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه)[1]..

يتذكر عبد الرحمن رضي الله عنه ذلك مبتسماً ويقول: (يرحم الله بلالاً، فجعني بأدراعي وبأسيري)[2].

وهكــذا انتهت قصة أمية الطويلة، كما تنتهي قصص كثير من أمثاله الذين قضوا حياتهم في التعذيب، والتنكيل بمن يقع بين أيديهم من المؤمنين والضعفاء والمســاكين.. انتهت حياته على يد من كان يتفنن في تعذيبه، ويسلقه تحت شمس مكة المحرقة. لقد (اشــترى أبو بكر بلالاً، وهو مدفون بالحجــارة)[3] الحامية في حرارة الصيف.. دفنه أمية، فهل سيدفن أمية بالحجارة؟

لم تنته المعركة بعد، والســاحة حبلى بالمشاهد المثيرة.. المثيرة، فهذا سعد بن أبي وقاص، وقد سقط أخوه الصغير عمير شهيداً.. يقاتل بضراوة، وكأنه يقاتل عن اثنين.. كأنه يقاتل عن أخيه الصغير. يشــاهده عبد الله ابن مســعود فيتعجب من شــجاعته ويقول: (كان سعد يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر قتال الفارس والراجل)[4]

وفي مكان آخر كان الزبير بن العوام فارساً يقتحم قلعة من الحديد، فتتهاوى بين يديه.

يقــول رضي الله عنه: (لقيت يوم بدر عبيد بن ســعيد بن العاص، وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش. فحملت عليه بالعترة فطعنته في عينه فمات)[5].

وســقط مع من ســقط من الكفار، الذين ملأت جثثهم أرض بدر، ورأى المشركون ما يحدث لقادتهم وأبطالهم، فجمعوا شــظايا عزم لديهم، فشــدوا على المسلمين في محاولة يائســة.. محاولة كالانتحار، وهي في حركتها تشــبه كتلة من اللهب تهوي على

---

(١) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٢) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٣) حديث صحيح مر معنا في المجلد الأول.

(٤) سنده قوي رواه البزار ٢-٣١٥ حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود. وهناك انقطاع بين إبراهيم وابن مسعود، ورواه متصلاً عن إبراهيم بن يوسف حدثنا أبو معاوية. فجعل علقمة بين إبراهيم وابن مســعود، وإبراهيم في التقريــب صدوق به لين والصواب أنه: ثقة فجرح النسائي غير مفسر التهذيب ١-١٨٥.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٩٨).

الأرض، فتنطفئ لكنها تؤذي من يتصدى لها. ومع ذلك كان أشجع الناس يتقدم كالموج يطفئها.. كالموت يخمدها، وخلفه كان سعد الذي يقاتل كرجلين، والزبير الذي يهزم الحديد، وعلي بن أبي طالب بشجاعته المعروفة، وعمه حمزة الذي فعل بهم الأفاعيل، وعمر بن الخطاب الذي تهابه كل قريش، وأبو بكر الصديق درع رسول الله ﷺ...

هؤلاء الذين صنعوا الأحداث والتاريخ.. هؤلاء وغيرهم قاتلوا في ساعة من ساعات بدر خلف ذلك الشجاع فمن هو:

أشجع رجلٍ في بدر؟

إنه رسول الله ﷺ، وأحد الذين كانوا يلوذون بشجاعة رسول الله ﷺ.. أحد الذين كانوا يلوذون بسيف رسول الله ﷺ يحدثنا بنفسه فيقول: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)[1] و (لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأساً)[2]

وأمام هذا البأس تساقط المشركون من اليأس، وتفتت آخر حلم وثني على أرض بدر، وعلى سماء بدر أيضاً؛ فجيش محمد ﷺ ليس على الأرض فقط، بل وفي السماء له جيش.

أحد الذين كانوا يقاتلون المؤمنين.. أحد الذين أصابهم اليأس والإحباط.. رأى بين السماء والأرض شيئاً كالبساط.. شيئاً قادماً لمحمدٍ، ولأصحاب محمد ﷺ. فماذا رأى جبير بن مطعم، وما أثره على قومه.

يقول جبير: (رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود، أقبل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم)[3] الكافرين الذين تطايروا من جديد كالشظايا.. هرباً من الحتف القاسي الذي يمتطي

---

(١) حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة (٧/٣٥٤) وانظر ما بعده.

(٢) سنده صحيح. رواه أحمد ١-١٢٦ والبيهقي ٣-٦٩ واللفظ. وسنده وسند ما قبله هو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي وقد مر معنا كثيراً.

(٣) سنده قوي. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٦١): حدثني أبي عن جبير بن مطعم. والد ابن إسحاق ثقة روى عن معاوية ومعاوية توفي بعد جبير رضي الله عنهما.

نواضح يثرب بعد أن أطلقه ﷺ.. أطلق شباب الإسلام حماساً يفتك بأوصال الوثنية.. حماساً أوقده ﷺ عندما قال: (من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فسارع في ذلك شبان الرجال وبقي الشيوخ تحت الرايات)[١]

وبين بريق الانتصار، وبرق التسابق نحو رقاب الطغاة كان هناك من يسابق الشباب نحو تلك الرقاب. هذا أحد شباب الإسلام، واسمه الحارث ويكنونه بأبي واقد الليثي.. يشتد مسرعاً نحو أحد الطغاة فيشاهد العجب.. العجب.

يقول رضي الله عنه: (إني لأتبع رجلاً من المشـــركين لأضربه، فوقع رأسه قبل أن يصل سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله)[٢]

كان أحـــد الملائكة لا شـــك.. الملائكة التي تحز الرقاب، وتلطـــم الأنوف والوجوه المشركة؛ فبين السماء والأرض كان هناك صراخ.. كان هناك حيزوم. ولا أدري ما هذا المخلـــوق الذي تردد اســـمه في الفضاء؟ هل هو جواد ذو أجنحـــة، أم أن حيزوماً ملك من الملائكة؟ لكنه كان مســـرعاً لا شـــك.. يسابق أحد الفرســـان نحو أحد المشركين.. فـ (بينما رجل من المســـلمين يشـــتد في أثر رجل من المشـــركين أمامه، إذ سمع ضربة بالســـوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشـــرك أمامه، فخر مســـتلقياً، فنظرنا إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشـــق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رســـول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك من مدد الســـماء الثالثة)[٣] ومدد الســـماء لم يقتصر على حز الرقـــاب ولطم الأنوف والوجوه، وتمريغها في الذل.. مدد السماء كان يفعل شيئاً آخر.

عـــم رســـول الله ﷺ (العباس بن عبد المطلب) كان قـــد خرج مع قريش فوقع في الأســـر، وها هو الأنصاري الذي أسره يقتاده نحو رســـول الله ﷺ، لكن العباس يصر على أن هذا الأنصاري القصير القامة لم يأسره، والأنصاري يصر على أنه أسره!

---

(١) حديث صحيح؛ وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢/٥٢٢).

(٢) سنده حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٥٦ حدثني والدي إسحاق بن يسار حدثني رجال من بني مازن عن أبي واقد الليثي. شـــيوخ والده جمع وهو يروي عن الصحابة، فإن كانوا صحابة صح السند وإن كانوا من كبار التابعين فيقوي بعضهم بعضاً.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي واللفظ له ٣-٥٢.

لم يكذب الأنصاري، ولم يكذب العباس؟ والحقيقة عند رسول الله ﷺ، لقد (جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله، والله إن هذا ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق ما أراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله.

فقال ﷺ: اسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم)[1]، لا بشيطان رجيم. لكن يا ترى أين الشيطان الرجيم من هذه الأحداث.. لا شك أنه بين صفوف المشركين يتلقى نصيبه من الهزيمة والذل. أخبرنا عن ذلك ربنا وهو يقول: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[2]

لما تهاوت الأجساد من حوله، وشخبت الدماء منها خاف أن يلقى المصير الذي لقيته تلك الجثث ففر، وفر المشركون قبله.. تطايروا كالشظايا في الشعاب والجبال، وانقشعوا عن أرض بدر، فانقشع الغبار، وهدأت الأنفاس.. تأمل ﷺ ذلك المشهد، وتأمل فرسانه من حوله، فإذا الساحة صمت حزين ورهيب.. منظر لا يسر.. سبعون جثة من قريش بلا حراك.. سبعون جثة لأبناء العمومة والعشيرة.. بلا أرواح.

ما الذي أوصلهم إلى هذه المأساة؟ من وما الذي قادهم إلى هذه النهاية المخيفة.. إلى الهزيمة وإلى جهنم؟

أبو جهل قادهم، والشيطان أجج الشرك في نفوسهم. أما يكفيهم ثلاثة عشر عاماً من حديث رسول الله ﷺ.. من حب رسول الله ﷺ، ورحمته وحرصه عليهم؟!!

نهاية مخيفة تلك التي انتهى إليها أولئك السبعون.. لقد فر أصحابهم وتركوهم للشمس والغبار، وتركوا مثل هذا العدد بين القيود والحبال.. سبعون أسيراً يغشاهم الذل، وتجللهم الهزيمة.

---

(١) هو جزء من حديث أحمد ١-١١٧ المشهور عن علي وقد مر معنا.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٤٧، ٤٨.

ها هو الشـــرير: عقبة بن أبي معيط بين الأسرى، وها هو أبو يزيد واسمه:سهيل بن عمرو أسير أيضاً، وها هم الصحابة يستجيبون لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فيكتفون بأسر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وأسر ابن عمه عقيل بن أبي طالب، لأنهم خرجوا كارهين لقتال رســول الله ﷺ كما قال نبي الله ﷺ: «من اســتطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فإنهم خرجوا كارهين»(١)

لكــن لماذا لــم ينه ﷺ عن قتل أمية بن خلف وقد خرج كارهاً أيضاً..؟ السـبب لا يحتاج إلى كثير من التفكير، فأمية بن خلف كان من أشرس الناس على الإسلام وأتباعه خاصة بلال بن رباح بعكس بني عبد المطلب، ثم إن أمية لم يكن كارهاً لقتال المسلمين.. إنه يتمنى ســحقهم وســحق نبيهم ﷺ، لكنه كان خائفاً على نفسه لأنه يدرك أن رسول اللــه ﷺ لم، ولا، ولن يكذب. وقد توعــده بالموت وهو يدرك خطورة وعيده ﷺ. لذلك اشترى تلك الراحلة ليهرب عندما يلوح الخطر، لكن الذي لاح لأميه لم يكن الخطر.. إنه شيء أكثر خطورة.. إنه بلال وقد (كان هو الذي يعذب بلالاً في مكة على الإسلام)(٢)

ثم إن بني عبد المطلب دافعوا عن رســول الله ﷺ، وشــاركوه في المعاناة والسجن في الشّعب.. لم يشذ عن هؤلاء الكرام إلا شرير يُسمى (أبو لهب)، وهو لم يحضر إلى أرض المعركــة، ربما كان مريضاً، وقد أســر بالإضافة إلــى العباس وعقيل زوج حبيبة رســول الله ﷺ.. زوج ابنته زينب، التي كانت كارهة لخروج زوجها، وخائفة على دينها ونبيها وأبيها ﷺ، وقد كان من السهل أسر هؤلاء الثلاثة، فهم لا يشعرون في أعماقهم بأي دافع لهذه المعركة سوى عنجهية أبي جهل وغطرسته. أبو جهل!!

أين أبو جهل يا ترى؟ إنه ليس بين القتلى ولا بين الأسرى والحبال؟

---

(١) رواه أحمد (٨٩/١) بسـند حسـن من أجل أبي سـعيد شـيخه وهو حسـن الحديث من رجال البخاري (التقريـب ٤٨٧/١) قال الحافظ: صدوق ربما أخطأ، ولعل الصـواب أنه ثقة ربما أخطأ. انظر التهذيب وقد قال أبو سعيد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي... وهذا السند صحيح وقد مر معنا.

(٢) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن قتل أمية بن خلف.

أين أبو جهل

ذلك المجرم، الذي رفض الإسلام حسداً لأن النبوة لم تكن في بيته. أين الطاغوت الـــذي أخرج قريشـــاً وهي كارهة لترقص حوله وهو يشـــرب الخمـــر..؟ إنه ليس بين القتلى، ولا بين الأسرى؟

لذلك (أمر رســـول الله ﷺ أن يلتمس في القتلـــى)[1] وقال لأصحابه: (من ينظر مـــا صنع أبو جهل)[2] (من يعلم ما فعل أبو جهل)[3] فتقدم رجل نحيل الجســـم.. دقيق الســـاقين.. كان يرعى الغنم في مكة، وكان أبو جهل قد اســـتضعفه ذات يوم في مكة فـــآذاه. تقدم هذا الرجل النحيل الصالح وقال لرســـول الله ﷺ: (أنـــا يا نبي الله)[4] فانطلقت تلك الســـاقان تنفيذاً لإرادة رســـول الله ﷺ، وبعد قليل هدأتا وتهادتا نحو جريح ينزف.. قد طارت ســـاقه، وطار صوابه. حدق به ابن مسعود، فإذا هو أبو جهل (فوجـــده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو قتله قومه)[5] فقال ابن مسعود: (قد أخزاك الله. فقال: هل أعمد مـــن رجل قتلتموه)[6] أي حقد ينضح من جثـــة هذا الطاغية، وأي روح خبيثة تلك التي بين جنبيه.

لقد كان أبو جهل جثّة.. كتلةً متورمة من العناد، فهل ســـيتركه ابن مســـعود ليخبر رسول الله ﷺ.. أم ماذا؟

ماذا فعل ابن مسعود بأبي جهل

قـــال رضي الله عنه: (أدركـــت أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً فقلـــت: أي عدو الله قد أخزاك الله. قال: وبم أخزاني من رجل قتلتموه؟!

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن انقضاض معاذ بن عمرو بن الجموح على أبي جهل.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦ - ٨٧).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦ - ٨٧).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٧).

ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحيك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده، فوقع السيف من يده، فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته.

فقال: الله الذي لا إله إلا هو؟ قلت: الله الذي لا إله إلا هو -حتى حلفني ثلاثاً- [قال: انطلق فاستثبت، فانطلقت فأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته].

فقال رسول الله ﷺ: فانطلق فأرني. فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: هذا فرعون هذه الأمة)[1] رأسه هنا، ورجله هناك، وباقيه في مكان آخر.

أبو جهل الذي جمع الشرك كله، ورفض الحكمة كلها. أبو جهل الذي وصف رسول الله ﷺ وأصحابه بأنهم مجرد لقمة.. مجرد أكلة جزور.. أبو جهل الذي اتهم عقلاء قومه بالجبن.. يسقط على أرض بدر دون أن يمس أحداً من المؤمنين بأذى.. دون أن يشفي غليله ولو بضربة واحدة، أما سيف أبي جهل الثمين، فلم تصدر منه سوى ضربة واحدة متجهة نحو رقبة صاحبها.. نحو أبي جهل. هلاك أبي جهل مروع، والتاريخ يكتب للطغاة بحبر المضطهدين. لكنهم لا يقرأون، ولا يفيد من التاريخ سوى العقلاء. هلك أبو جهل بسيفه، والذين مزقوه شباب صغار انتقاما ونصرة لحبيبهم عليه السلام، والذي أجهز عليه وحز رأسه أحد الضعفاء، الذين أخافهم كثيراً، وأذلهم كثيراً في شوارع مكة وأزقتها، بل وفي بيت الله الحرام.

ترى هل يتذكر ابن مسعود وهو يجهز على أبي جهل ذلك اليوم الذي كان فيه خائفاً بجوار الكعبة الآمنة.. ينظر إلى حبيبه ويتمزق حرقة، لكنه لا يستطيع فعل شيء؟ فـ (بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور (بني فلان) فيأخذه فيضعه على كتفَي محمد إذا سجد؟

---

(١) سنده قوي. رواه الطبراني ٩-٨٣ حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا أبو المعافى محمد بن وهب بن أبي كرِيمة حدثنا محمد بن أبي تملة عن أبي عبد الرحيم عن زيد ابن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود.. ابن أبي تملة لم أجد له من ترجمة والصواب محمد بن سلمة الحراني ابن أخت عبد الرحيم الحراني من تلاميذ خاله ومن شيوخ ابن وهب. التهذيب ٩-٥٠٦ و٩-١٩٣-١٩٤ وهؤلاء ثقات كلهم، وابن ميمون مخضرم ثقة، التقريب ٤٢٧ وشيخ الطبراني حافظ جليل. أعلام النبلاء ١٤-٥٧ وللحديث شواهد منها الطبراني ٩-٨١-٨٢-٨٣ ومنها حديث سنده قوي عند البزار.

فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحت عنه ثم أقبلت عليهم تسبهم.

فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا، دعا ثلاثاً، وإذا سأل، سأل ثلاثاً، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش.

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل ابن هشام، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط»[1].

واليوم سقط هؤلاء كلهم.. كلهم إلا عقبة بن أبي معيط، فأين هو..؟ هذا المجرم لا يزال حياً.. إنه بين الأسرى، ولا أدري ما سيفعل به رسول الله ﷺ، لكنه يتعذب الآن بمنظر شركائه في الإجرام وقد بدأوا ينتنون وينتن شركهم، وقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ عندما: (استقبل رسول الله ﷺ البيت، فدعا على نفر من قريش فيهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط.

قال ابن مسعود: فأقسم بالله لقد رأيتهم صرعى على بدر، قد غيرتهم الشمس، وكان يوماً حاراً)[2] وفي اليوم الحار تنتن الجثث سريعاً. إذاً فلا بد من دفن تلك الجثث، ولو كانت جثث كفار، هذه هي تعاليم الإسلام، والإسلام دين صحة ونظافة، ودين يحترم الإنسان لآدميته، ورسول الله ﷺ يقول لأمته: (أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها عليه، وإن تكن غير ذلك فشر تضعونه على رقابكم)[3] لذلك أمر ﷺ أن تقذف تلك الجنائز في بئر كان موجوداً على أرض بدر، فـ (نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث)[4] بئر يعج برائحة الموت وعفن الشرك، و (لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه

(١) حديث صحيح. رواه مسلم الجهاد والزوائد له ، والبيهقي ٢-٢٨٠ واللفظ له.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٣٣٥.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ١ - ٤٤٢ ومسلم ٢-٦٥١.
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٤٦١.

فملأها، فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه، فأقروه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة)[1]... هلك أمية ين خلف.. لم يحفر له قبر كبقية الناس، فقد تفسخ لحمه فتركوه، ودفنوه بالحجارة بعد أن قتله بلال. يال انتقام الجبار لبلال المؤمن المسكين!

أيتذكر بلال وهو يرى عدوه مدفوناً بالحجارة.. أيتذكر تلك الأيام العصيبة، عندما كان أمية يدفنه بالحجارة في مثل هذه الأيام الحارة، وتحت هذه الشمس المحرقة؟ لقد كان بلال حتى آخر لحظات الرق مدفوناً بالحجارة.

يقول أحد الذين أدركوا تلك الأحداث: (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون بالحجارة) [2] وها هو أمية: الطاغوت الذي دفن بلالاً.. هاهو يدفن بالحجارة أمام عيني بلال المسكين. سبحانك ما أعظمك.. إنها دعوة المضطهدين والمظلومين.

وقبل أن يتخلص النبي ﷺ من تلك الجثث تهادى إلى شهداء الإسلام.. شهداء بدر فكم كان عددهم:

ثمانية عشر شهيداً

دفنهم النبي ﷺ، وتحدث عنهم ابن مسعود رضي الله عنه بحديث كالماء البارد فقال: (إن الثمانية عشر الذين قتلوا من أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر، جعل الله أرواحهم في الجنة في طير خضر تسرح في الجنة، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: يا عبادي، ماذا تشتهون؟

قالوا: يا ربنا ما فوق هذا شيء. فيقول: عبادي ماذا تشتهون؟ فيقولون في الرابعة: ترد أرواحنا في أجسادنا فنقتل كما قتلنا)[3] إنهم يبحثون عن الموت من

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢/٤٤٩) حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت:... وهذا السند صحيح. يزيد بن رومان تابعي صغير ثقة، وهو أحد موالي آل الزبير (التقريب ٦٠١) وشيخه لا يسأل عنه.

(٢) حديث صحيح مر معنا في الجزء الأول.

(٣) سنده صحيح. رواه الطبراني (١٠/٢٤٩): حدثنا سليمان بن الحسن العطار أبو أيوب حدثنا محمد بن علي ابن الحسن بن شفيق، سمعت أبي: أخبرني الحسين بن واقد عن الأعمش عن شقيق أن ابن مسعود: شقيق بن سلمة أدرك الجاهلية والإسلام التهذيب ٤ - ٣١٧) وسمع منه التابعي الثقة: قال لي أبو وائل: يا سليمان لو رأيتني ونحن هراب من خالد بن الوليد. وقال الأعمش عن إبراهيم: عليك بشقيق، فلا تضر عنعنة الأعمش، لا سيما وهما كوفيان، وتلميذه الحسن ثقة، وعلي بن الحسن وولده ثقتان، وشيخ الطبراني ثقة. سؤالات السهمي كما عزاه الشيخ عبد القدوس في مجمع البحرين ٦-١٤٧.

جديد.. يريدون فعل شيء يجعلهم يستحقون كل ما حولهم، ويستحقون ما هم فيه من الرفاهية والدهشة التي لا يمكن وصفها، وماذا يساوي ألم الموت أمام عوالم السعادة والابتهاج والخلود، ماذا يساوي الموت و(الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)[1]؟

ماذا يساوي ألم الموت أمام تلك القصور الفاتنة، والشوارع الفسيحة الساحرة، والملابس الراقية الأنيقة، والأجساد الشابة الغضة الفاتنة التي سينعمون بها والتي لا تعرف المرض ولا الهرم، ولا الترهل ولا الشحوم ولا الشحوب ولا القبح. لن تهم الطعنات إن كانت كل طعنة بوابة للخلود الذي لا يعرف الموت، والغنى الذي لا يعرف الفقر، والأمن الذي لا يعرف الخوف.. إنها الجنة حيث لا عين رأت مثل جمالها، ولا أذن سمعت بروعة كروعتها، ولا خطر على بال بشر مستواها ومستوى البهجة داخلها.

دفن ﷺ شهداء بدر بثيابهم ودمائهم، وبشرهم وبشر أمثالهم فيما بعد فقال: (أنا شهيد على هؤلاء، لفوهم في دمائهم، فإنه ليس جريح يجرح في الله، إلا جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك)[2] ويقول ﷺ: (للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته)[3].

هذا ما سيفرح به الشهداء من المهاجرين والأنصار، وما في الجنة أجمل وأبقى. أما ما سيلقاه قتلى قريش فشيء مخيف ومرعب.. بشرهم به ﷺ.. خاطبهم وهم أكوام محشورون في تلك البئر المنتن، ولكن بعد ثلاثة أيام من انقضاء المعركة، وقد

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (١-٦٩٦).

(٢) سنده حسن رواه البيهقي في الكبرى ٤-١١ وابن سعد ٣-١٣ عن خالد بن مخلد، حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز حدثني الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، عبد الرحمن حسن الحديث من رجال مسلم وخالد صدوق وعند البخاري وغيره.

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد ٤-١٣١ عن شيخيه قالا: حدثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام. إسماعيل عن شيخه حمصيان ثقتان التقريب ١٠٩ و١٢٠ وابن معدان تابعي ثقة، التقريب ١٩٠.

كانت سنته ﷺ إذا انتصر في معركة أن يقيم ثلاثة أيام[1] على أرض المعركة بعد انقضائها، ثم يعود إلى المدينة.. ربما كان ذلك لتأكيد الانتصار، والمحافظة عليه من أية محاولة -ربما- تقوم بها الفلول الخاسرة لتعويض خسارتها، وفي تلك الأيام الثلاثة كان النبي ﷺ مشغولاً بتركة هذا الانتصار.. مشغولاً بقضايا وهموم تحتاج إلى أكثر من التفكير، ومن هذه القضايا والهموم.

قضية الغنائم

فالغنائم بالنسبة للذين حضروا بدراً لا تعني رصيداً مادياً أبداً.. إنها أكبر من ذلك، والصحابة مهاجرون وأنصار أكبر من هذا التفكير، فالمهاجرون تركوا أموالهم لله، والأنصار شاطروا إخوانهم وأموالهم ودورهم، لكنها غنائم أول معركة مع رسول الله ﷺ، وأول معركة ضد كفار قريش الذين أخرجوا رسول الله ﷺ، وأول معركة في الإسلام، والمشاركة فيها والحصول على شيء من غنائمها له في النفوس أثر ينام ويصحو مع الإنسان، ويظله في كل مكان يسير ويخطو عليه.. أثر يتطهر معه أهل بدر من كل ذنوبهم. لست أبالغ فقد قال رسول الله ﷺ: (لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة)[2] ثم إن الصحابة بشر.. يصيبون ويخطئون، فيقوم ﷺ بتصحيح أخطائهم، لتصحح الأمة أخطاءها، وتأخذ أحكامها من هذه الأحداث، وليس هناك أخصب من المعارك للانفعال والتأثر والخطأ.

فماذا حدث من الصحابة ومارأي بعضهم حول الغنائم؟

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه وعنهم: (إن النبي ﷺ قال: من أتى مكان كذا وكذا، فله كذا وكذا. أو فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا. فتسارع إليه الشبان، وبقي الشيوخ عند الرايات، فلما فتح الله عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، فأنزل الله عليه هذه الآية: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[3] والآية التي نزلت هي قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ

---

(١) (كان ﷺ إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال) رواه البخاري وسيمر معنا.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٨٣).

(٣) سنده صحيح رواه ابن جرير ٦-١٧١-١٧٢ عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. داود تابعي ثقة متقن التقريب ٢٠٠ وشيخه تابعي ثقة ثبت مر معنا كثيراً.

ﵟٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﵞ[1].

ولكـي تتضح الرؤية جيداً دعونا نمشـي خلف هذا الشـاب الـذي يحمل بيديه سـيفين.. سيفه وسيف رجل من المشـركين. إنه يتوجه نحو رسول الله ﷺ.. يستأذنه، ويرجوه أن يمنحه هذا السـيف؟ (فأتى به رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله نفلنيه. فقال ﷺ: ضعه. ثم قام فقال: يا رسول الله: نفلنيه. فقال ﷺ: ضعه.

ثم قام فقال: يا رسول الله نفلنيه، أُجعل كمن لا غَنَاء له؟

فقال النبي ﷺ: ضعه من حيث أخذته)[2].

هذا الشاب هو سعد بن أبي وقاص وهو يحدثنا بنفسه فيقول: (جئت إلى النبي ﷺ يوم بدر بسيف، فقلت: يا رسول الله، إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو، فهب لي هذا السيف. فقال ﷺ: إن هذا السيف ليس لي ولا لك.

فذهبت وأنا أقول: يعطاه اليوم من لم يبل بلائي، فبينا أنا إذ جاءني الرسول فقال: أجب. فظننت أنه قد نزل فيَّ شيء من كلامي، فجئت، فقال لي النبي ﷺ: إنك سألتني هذا السـيف وليس هو لي ولا لك، وإن الله قد جعله لي، فهو لك. ثم قرأ: ﵟيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﵞ)[3] إذاً فالسـيف ليس لرسـول الله ﷺ ولا لسعد بن أبي وقـاص وكذلك الغنائم، فلمن كانت الغنائم في الحروب التي خاضها الأنبياء من قبل؟ لقد كانت الغنائم تحرق.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١.

(٢) سنده قوي. رواه ابن جرير ١-١٧٣ من طرق عن: سماك بن حرب، سمعت مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه. سـماك صدوق روايته قوية إلا عن عكرمة، وهذه ليسـت منها، بل عن التابعي الثقة مصعب بن سعد وهو من رجال الشيخين.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي واللفظ له (٦/٢٩١ من السنن).

شـــيء غريب، ولماذا تحـــرق؟ يقول أحد الصحابة: (لما كان يـــوم بدر تعجل الناس إلى الغنائم، فأصابوها فقال رســـول الله ﷺ: إن الغنيمة لا تحل لأحد ســـود الرؤوس غيركـــم، وكان النبي[1] ﷺ وأصحابـــه إذا غنموا الغنيمة جمعوهـــا، ونزلت نار فأكلتها فأنـــزل الله هذه الآية: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾[2].

نزلـــت هذه الآيات فترك المجاهدون اجتهاداتهم لوحي الســـماء، فليس مع الوحي الصريح اجتهاد، وســـلموا الأمر لله ولرســـوله ﷺ، وســـلمت الغنائم لرسول الله ﷺ، فوزعهـــا على المهاجرين والأنصار ففرحوا بها، كانـــت أول هدايا الله للنبي وأصحابه علـــى أرض معركة، وكانوا أول أمة تباح لها الغنائـــم، لكنهم تعلموا أيضاً أن المال العام (مال الدولة) محرم على أي فرد من أفراد الشـــعب حتى ولو كان مجاهداً، إلا إذا كان بصورة نظامية مستحقة.

فرح ســـعد بن أبي وقاص بسيفه، وبشـــيء آخر مع سيفه. أما علي بن أبي طالب فـــكان نصيبه من الإبل، حيث يقول رضي الله عنه: (كانت لي شـــارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ)[3].

إذاً فعلي رضي الله عنه حصل على بعيرين بعير من نصيبه من الغنائم، وبعير من الخمس، فما هو الخمس الذي تحدث عنه علي بن أبي طالب هنا..؟ الإجابة بسيطة. فقد أمر الله سبحانه بتقسيم غنائم الحرب إلى خمسة أجزاء:

أربعة أجزاء للمجاهدين المشاركين في المعركة.

---

(١) أي من الأنبياء السابقين. وهذا من كلام أبي هريرة وليس من كلام النبي عليه السلام.

(٢) سنده صحيح مشهور رواه الطيالسي ٢-١٩ وغيره عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة.. والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي ٣-٥٣.

(٣) رواه البخاري ٤-١٤٧٠.

أما الجزء الخامس فيقسم أيضاً إلى خمسة أجزاء:

١- جزء لله وللرسول ﷺ.

٢- جزء لقرابة الرسول ﷺ.

٣- جزء ليتامى المسلمين الذين فقدوا آباءهم.

٤- جزء للمساكين المحتاجين من المسلمين.

٥- جزء للمسافرين الذين فقدوا أموالهم، أو نفذت أموالهم وليس لديهم ما يسد حاجتهم للمواصلة، أو الرجوع إلى ديارهم.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[1] ويوم الفرقان هو يوم بدر.

انتهى المسلمون من قضية الغنائم وتقسيمها، وبقيت قضية أخرى لا تقل عنها.. إنها:

قضية الأسرى

أما الأسرى فقد نظر إليهم النبي ﷺ نظرة أسف، ثم نطق بالوفاء كله لأحد رجالات قريش الكرام، الذين كانوا مثالاً في احترام النفس، واحترام الآخرين.. رجل شهم كأبي طالب. إنه المطعم بن عدي، ذلك الرجل الذي حمى رسول الله ﷺ في مكة يوماً من الأيام. تذكر ﷺ موقف المطعم بن عدي فانطلقت مشاعر الوفاء منه لكل صاحب معروف ولو كان مشركاً، فباح بوفائه وقال: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتن لأطلقتهم له)[2] لكن المطعم بن عدي تحت الثرى، ولم ينزل على رسول الله ﷺ وحي في أمرهم حتى الآن، فكانت المشورة الملزمة عند عدم وجود نص.

توجه ﷺ نحو أبي بكر وعمر وعلي يستشيرهم: ماذا يفعل بهؤلاء الأسرى؟ فرسول الله ﷺ إذا لم ينزل عليه الوحي لا يستبد برأيه، ولا يفرضه على من حوله،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٤).

وقد قال ﷺ في أول المعركة: (أشيروا علي أيها الناس) وها هو يتجه بالمشورة في آخر المعركة نحو أبي بكر وعمر وعلي، فكانت الإجابة:

رأياً لأبي بكر ورأياً لعمر

فبأيهما سـيأخذ؟ يقول عمر رضي الله عنه: (لما أسـروا الأسارى، يعني يوم بدر، قال رسـول الله ﷺ: أين أبو بكر وعمر وعلي؟)[1] فجاء أبو بكر وجاء عمر وجاء علي رضي الله عنهم، ولما وقفوا أمامه ﷺ قال لهم: (ما ترون في الأسارى؟ فقال أبو بكر: يـا رسـول الله هم بنو العم والعشـيرة، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكـون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسـول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذي لا إله إلا هو، ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله، ولكن أرى أن تمكننا منهم: فتمكن علياً من (عقيل) فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من (العباس) فيضرب عنقه، وتمكنني من (فلان) -نسيب لعمر- فأضرب عنقه. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت.

قال عمر: فلما كان من الغد، جئت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان، فقلت: يا رسـول الله، أخبرني من أي شـيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت.

فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض لأصحابي من أخذهم الفداء، ولقد عُرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة -لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ-.

فأنـزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ... ﴾[2])[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وابن جرير في التفسـير ٦-٢٨٧ واللفظ له من طريق عكرمة بن عمار حدثنا أبو زميل، حدثني ابن عباس وسند ابن جرير صحيح.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٦٧-٦٩.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم وابن جرير في التفسير بالسند السابق.

بكى ﷺ، وبكى صاحبه من خشية الله، وتلا على أصحابه عتاب الله له..لم يخفه عنهم، ولم يضمر هذه الآيات في نفسه، بل أعلنها للجميع. أعلنها لأنها وحي، وأعلنها لأنه مطالب بإعلانها، وأعلنها لأنه صادق، ولو لم يكن صادقاً لما كان نبياً.

كانت تلك الآيات تحمل كرامة لعمر، وتصويباً لرأيه، فهؤلاء الرجال خرجوا لحرب الله ورسوله. صحيح أن بعضهم كان كارهاً، وأن البعض الآخر قد استدرج واستفز من قبل أبي جهل، لكن ألا يستطيع هؤلاء وهؤلاء أن يقولوا: لا؟!

تألم ﷺ لما حدث، لكن الله رحيم بنبيه.. لم يتركه لآلامه ودموعه. بعث له جبريل مرة أخرى يحمل بشرى بالفداء والجنة.

ها هو (جبريل نزل على النبي ﷺ في أسارى بدر فقال: إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء، واستشهد قابل منكم سبعون. فنادى النبي ﷺ في أصحابه، فجاءوا، أو من جاء منهم، فقال ﷺ: هذا جبريل يخيركم بين أن تقدموهم فتقتلوهم، وبين أن تفادوهم واستشهد قابل منكم بعدتهم؟ فقالوا: بل نفاديهم فنتقوى به عليهم، ويدخل منا الجنة سبعون، ففادوهم)[1] أي يستشهد منا سبعون في السنة القادمة. وهكذا (فادى النبي ﷺ بأسارى بدر، فكان فداء كل واحد منهم أربعة آلاف)[2] أربعة آلاف درهم.

وبعد الأمر بأخذ الفداء استثنى عليه السلام منهم طاغوتاً:

إعدام طاغوت

فقبل أن يطلبوا من أسراهم الفداء أمر ﷺ بإخراج أحد المجرمين من بين الأسرى، واسم هذا المجرم: (عقبة بن أبي معيط).. أمر ﷺ بإخراج عقبة هذا، فهو لن يقبل

---

(١) سنده صحيح. ورواه ابن سعد (٢/٢٢) عن ابن سيرين عن عبيدة مرسلاً ورواه البزار ٣-١٧٦ والنسائي الكبرى ٥-٢٠٠ وغيرهم عن سفيان الثوري عن هشام ابن حسان، عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي وهذا السند كالذهب: عبيدة مخضرم ثقة ثبت، وهشام ثقة وأثبت الناس عن شيخه يقول: حدثني أصدق من أدركته من البشر التهذيب ٩-٢١٥.

(٢) رواه عبد الرزاق (٥/٢٠٦) عن معمر بن قتادة قال: وأخبرني عثمان الجزري عن مقسم عن ابن عباس: وفي الأول إرسال قتادة لكن معمر رواه من طريق أخرى فيها ضعف من أجل عثمان. وللحديث شاهد سيمر معنا عند الحديث عن فداء مشرك يدعى (وداعة).

منه فداءً ولا مالاً، لأنه لا يقل شراسـة وإجراماً عن أبي جهل. عقبة كان فرعوناً آخر لهذه الأمة.. إنه مجرم، حتى لقد عزم يوماً على قتل رسول الله ﷺ. ليس في الطريق، وليس في بيته، ولا في الصحراء، بل وهو آمن مع ربه في بيته الحرام، الذي يلقى فيه الرجل قاتل أبيه فلا يتعرض له. لكن عقبة كان كتلة من الحقد والكفر والإجرام.

سأل رجل أحد الصحابة: (حدثني بأشر شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟

قـال: أقبل عقبة بن أبي معيط ورسـول الله ﷺ يصلي عنـد الكعبة، فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شـديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذه بمنكبيه فدفعه عن رسـول الله ﷺ، ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[1].

فشـلت محاولة عقبة.. أفشلها أسد من أسـود الإسلام.. أحبطها أبو بكر رضي الله عنه، فانسـحب عقبة وهو يضمر شـراً، فلما خرجت قريش إلى بدر أشراً وبطراً خرج عقبة معها، لينفس عن أحقاده وشـروره، لعله يحظى برأس محمد وصاحبه أبي بكر معاً، لكنه فشل من جديد. وها هو علي بن أبي طالب يجتره من بين الأسرى، وهو يرتعد خوفاً من الموت، فيحاول أن يدفع الموت عنه بكلمة يستدر بها رحمةً.. أي رحمة؟ لكن رسول الله ﷺ يقتله بكلمة قبل أن يقول السيف كلمته.

حدث ذلك عندما (قام علي بن أبي طالب فقتله صبراً قال: من للصبية يا محمد؟ قال ﷺ: النار)[2].

عقبة يذكر الصبية، لكنه لا يذكر الله، ولا الإسـلام، وكأن سـبب هذه المعركة ثأر قـديم، أو خلاف في وجهات النظر بين أفراد قبيلة واحدة. ومع ذلك فيمكن لعقبة أن ينجو من الموت، وأن ينجو من النار، لو أنه اختار الله ورسـوله. لكنه وهو على شـفير الموت يرفض ذلك. لو تشهد لنجا من سيف علي، لكنه يرفض أن يكون عبداً لله وحده، ويرضـى بأن يكون عبداً لحجر مقذوف على ظهر الكعبة.. هو صنعه بيديه، بل حاول قتل رسول الله ﷺ من أجل ذلك الحجر، فكان لعقبة ما اختار من لهيب السيف ولهب

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي من الطريق نفسه (٢٧٤/٢).
(٢) هو آخر حديث عبد الرزاق السابق ٥-٢٠٦.

النار، وقذف عقبة مع أصحابه في تلك القليب النتنة المحشوة عفناً وكفراً وجحيماً.. قذف عقبة باختياره. أما رسول الله ﷺ فلم يكن يكره أن يسلم عقبة والأسرى جميعاً. لقد نفذ أمر ربه الذي يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾[1] ورسول الله ﷺ كان رحيماً فلم يكره أن يسلم عقبة ابن أبي معيط.. لم يكره أن ينجو من سيف علي، فدخول عقبة في دار الإيمان يكفل حمايته من السيف، ومن سيوف المؤمنين جميعاً.

ها هو أحد فرسان بدر.. المقداد بن عمرو يبعث برسالة إلى العالم.. من أقصاه إلى أقصاه.. من خلال حوار متحضر جداً مع رسول الله ﷺ.

قال المقداد لنبيه ﷺ: (يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله. أقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله. فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها؟!

فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال)[2].

هذا هو الإسلام، وهذا هو خطابه الحضاري لأتباعه والعالم: لا شأن لكم بالنوايا.. لا شأن لكم، ولا يعرف ما في القلوب إلا من خلقها. لا انتقام ولا مقابر جماعية ولا تشف ولا تشويه للجثث ولا جهاد دون انضباط.

وقد رفض عقبة هذا الخطاب الجميل، فغادر إلى الجحيم غير مأسوف عليه.

بقية الأسرى في نعيم

بقية الأسرى لم يسحبوا إلى قليب، ولم يُقتادوا إلى معسكرات تجويع وتعذيب، ولم يؤمروا بالقيام بأعمال شاقة. فمنذ أغمد الصحابة سيوفهم تحولت الساحة من

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠١٩).

أنهار دم إلى شـلالات كرم وواحات سلام.. شرب فيها الأسرى وأكلوا وناموا أكثر من الصحابة، وأكثر من نبيهم عليه الصلاة والسـلام.. شيء لا يصدق! لأنه لم يحدث من قبل.. شيء لا يصدق. أيعقل أن يعامل المسلمون هؤلاء المشركين الذين حملوا السيوف، وطردوا الرسول ﷺ، واغتصبوا المال والدار.. أيعقل أن يعاملوا معاملة المسكين، والطفل اليتيـم..؟! أجل، يعقـل إذا كان القائد هو محمد ﷺ، وكان الجيش من الصحابة.. ها هم يقدمون طعاماً للأسرى أفضل من طعامهم، رغم جوعهم ورغبتهم الملحة فيه. ليس لأنهم أبناء العمومة والعشـيرة، ولا لطمعهم بفدية أكثر، فإن من المشركين من لا يملك إلا سيفه. السـبب ببساطة هو وعد نزل كالمطر من السماء، فأنبت في قلوب المؤمنين تلـك الرياض، وتلـك الرعاية، وذلك الفيض من العطاء.. وحي مـن الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾[(١)].

هذه هي معسـكرات الأسر في الإسلام مهما كان الأسـير مجرماً، أو مشركاً أو حتى ملحداً. هذا هو مفهوم الحبس في الإسـلام إن كان في الإسـلام حبس. أسـير مشرك خرج لسفك الدماء يخجل من كرم آسره، وآسر يستحي أن يقدم لأسيره طعاماً أقل من طعامه، أو مسـاوياً له. يكتفي الصحابة بالتمر والماء، ويقدمون الخبز واللحم -إن وجد- لأسراهم.

أخـلاق زرعها ﷺ في أعماق أصحابه.. أخـلاق تعادل درجاتٍ من الصلاة والصيام لا يطيقها الإنسـان.. بشـرهم ﷺ بذلك عندما قال لهم: (إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار)[(٢)] ومن الذي يصلي ليله كله دون توقف، ويصوم كل يوم ولا يفطر؟ قال لهم ﷺ: (إن أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً في الدنيا)[(٣)] (إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً)[(٤)] و(من كان سهلاً هيناً ليناً حرمه الله على النار)[(٥)].

---

(١) سورة الإنسان: الآيات ٥-٩.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٣٣٤).

(٣) حديث حسن. صحيح الجامع (١-٣٢٧).

(٤) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٤٣٨).

(٥) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢-١١٠٥).

غـرس ﷺ تلك الأخلاق عندما قال لهم: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)[1] و(أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[2].

سحابة عطر كان محمد ﷺ وأصحابه، بعد أن كانوا قبل قليل عاصفة من السلاح والموت.. سحابةٌ شعر الأسرى تحتها بالارتياح.. شعروا بنسيم الإسلام البارد يغمرهم، ويلطـف لفح الصحراء من حولهم، فانتشـى الأنصار من جديد، وتوهج كرمهم وحبهم لرسول الله ﷺ بالإيثار من جديد.

يقول أحد أبنائهم: (إن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ قالوا: إيذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه.

فقال: لا والله، لا تذرون منه درهماً)[3] وطالب رسول الله عمه العباس بالفداء، بل كان فداء العباس أكثر من فداء غيره.

مكث ﷺ على أرض المعركة ثلاثة أيام كان فيها مشغولاً بأصحابه، يعالج قضاياهم وجرحاهم، ويتلقى الوحي من الله سبحانه في علاجه ذلك.. لم يكن ﷺ مشغولاً بمن معه فقط، بل كان يعيش بقلبه وشـعوره مع أحباب لا يراهم حوله. كان بقلبه وشـعوره بـين حرات المدينة.. يتذكر أصحابـه وأهله، وحبيبته التي لا يدري ما فعل المرض بها، ولا يدري أي حالة تعيشها ابنته رقية.

ترى هل تعافت من مرضها، أم أن الأوجاع تداعت على شبابها؟ تذكر ﷺ المدينة ومن فيها فأرسـل ابنه زيد -زيد بن حارثة[4]- ليبشر المدينة بنصر الله، والقضاء على طواغيت قريش.. يبشـر بأسر أشـرافهم في يوم الإسلام العظيم.. يوم الفرقان، وقد كان ابنه أسـامة ابن زيد ملازماً لعثمان ورقية في مرضها، وكان مع أول من اسـتقبل والده وأخباره.

---

(١) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٣١٠).
(٢) حديث حسن. صحيح الجامع (١-٣٠٦).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠١٨).
(٤) كان يسمى في ذلك الوقت زيد بن محمد.

أسامة يحدثنا عن ذلك فيقول: (إن النبي ﷺ خلف عثمان بن عفان، وأسامة بن زيد على رقية بنت رسول الله ﷺ أيام بدر، فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ بالبشارة، فسمعت الهيعة، فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة، فوالله ما صدقت حتى رأيت الأسارى، فضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه)[1].

وهذا يعني أن عثمان كان يريد الخروج مع رسول الله ﷺ، لكن رسول الله ﷺ أمره بالبقاء لتمريض زوجته رقية.

قال الشاب عبد الله بن عمر بن الخطاب إن عثمان بن عفان (كانت تحته ابنة رسول الله ﷺ، وإنها مرضت، فقال له رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه)[2].

لكن أين رقية..؟ أين حبيبتك يا عثمان.. أين حبيبة رسول الله ﷺ وريحانته؟ الإجابة حزن على وجه عثمان، وعلى وجه أسامة.

ماتت رقية رضي الله عنها ووالدها بعيد عنها.. ماتت قبل أن ترى والدها، وتطمئن على سلامته.. دون أن ترى أختها الحزينة زينب. ها هو الحزن من جديد يخيم على بيت النبي ﷺ.. فاطمة تبكي، وأم كلثوم تبكي حزناً على رقية.. كم لعبوا سوياً.. كم ضحكوا وتراكضوا وتسابقوا إلى حضن خديجة، وكم تواثبوا وتزاحموا ليركبوا على ظهر محمد.. ما أحوج فاطمة وأم كلثوم إلى أبيهما، وما أحوجهما إلى خديجة.. ما أحوجهما إلى أختهما الكبيرة زينب.. ينثران على صدرها شيئاً من الدموع، فزينب بعيدة هناك.. حزينة هناك.. في مكة لا يعلمان عنها شيئاً، ولا تعلم عنهم شيئاً.

ماتت رقية قبل أن يصل زيد بالخبر، فقد (وافق زيد بن الحارثة ابنه أسامة حين

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي (٣/ ١٣٠) أخبرنا أبو الحسن المقرئ وهو إمام حافظ ناقد. انظر السير للذهبي (٣٠٥/١٧) وشيخه الحسن الدقاق صحيح السماع من أهل القرآن والصلاح. المصدر السابق (٥٣٥/١٥) وتاريخ بغداد (٤٢٢/٧) وشيخه هو الثقة يوسف ابن يعقوب القاضي. تاريخ بغداد (١٤/ ٣١٠) وشيخه أحد رجال الشيخين: الثقة محمد ابن أبي بكر المقدمي. التقريب (١٤٨/٢) وشيخه حسن الحديث فهو صدوق في حفظه شيء. التهذيب (٥٨/٨) والتقريب (٧٢/٢) وهو من رجال الستة واسمه عمرو بن عاصم الكلابي وشيخه ومن فوقه أئمة ثقات: حماد عن هشام عن عروة عن أسامة بن زيد. وللحديث شاهد يأتي.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٦٦).

سوى التراب على رقية بنت رسول الله، فقيل له: ذاك أبوك، حين قدم.

قال أسـامة: فجئت وهو واقف للناس يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، ونبيه، ومنبه، وأمية بن خلف.

فقلت: يا أبت أحق هذا؟ قال: نعم والله يا بني)[1]

ويختلط الحزن في أجواء المدينة بالفرح، ويبتهج بقية المهاجرين والأنصار بالخبر الذي لا يصدقه إلا مؤمن، ويخفف النصر من الحزن والدموع المنثورة على رحيل رقية، ويخيـم الليل والوجـد على عثمان.. إنه يعود إلى منزله، فـلا يجد فيه رقية.. كم هو مشـتاق إليها.. كم هو وحيد دون رقية، وكم هو وحيد وقد انقطع نسبه مع النبي ﷺ. يا له من ليل حزين لا تبدده إلا الصلاة.

هذا ما يحدث في المدينة، أما على أرض المعركة فتتسـلل خيوط الفجر إلى سـماء بدر، ويشرق بلالٌ بالأذان، ويستيقظ من كان نائماً، ويصلي الجميع خلف رسول الله ﷺ. إنه فجر اليوم الثالث بعد انقضاء المعركة، حيث يأمر ﷺ بالاسـتعداد للعودة إلى المدينة، ويطلب تهيئة راحلته، ويفرغ الجميع مما أمروا به، فينطلق ﷺ إلى غير ما توقع الصحابة، فهذا ليس بطريق المدينة.. إنه يتوقف ويتحدث إلى أقوام بشـيء مفزع ومخيف جعل أحد الصحابة يستفسره عن ذلك؟

أنس بن مالك يحدثنا عن ذلك المسير، وعن ذلك التساؤل فيقول: (فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشـدت عليها رحلها، ثم مشـى واتبعـه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شـفى الركى[2] فجعل يناديهم بأسـمائهم وأسماء آبائهم: [يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعـة... أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقـاً؟] يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسـركم أنكم أطعتم الله ورسـوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟

---

(١) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٢١٧/٣): حدثني عبد الله بن أبي بكر، وصالح بن أبي أمة عن أبيه.. وهذان طريقان يقوي بعضهما بعضاً لأن صالحاً لم يوثقه إلا ابن حبان. ويشـهد للحديث حديث أسامة السابق.

(٢) حافة البئر.

فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم [ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا[1]][2] ولا يقدرون على أن يعودوا فيتوبوا. مصير أسود رسموه لأنفسهم، وجحيم مرعب تسابقوا إليه، وهم يحملون أصنامهم. أما رسول الله ﷺ فقد تركهم وما تسابقوا إليه، وانعطف براحلته نحو عواطف جياشةٍ تنتظره في طيبة الطيبة، فليت شعري كيف استقبله أحبابه هناك؟ أيهنئون أنفسهم به ويهنئونه بنصر الله؟ أم يعزونه في رقية..؟

كيف استقبله عثمان هناك؟ كيف كانت حالته ﷺ عندما زاحم الحزن فرحاً يزين صدره؟ كيف كانت حالته عندما التقت عيناه بعيني فاطمة وعيني أم كلثوم؟ وكيف شكتا له الوجد على أختهما الحبيبة..؟

لم تصفُ الحياة لمحمد ﷺ.. لم تصفُ لحبيب الله، فالحزن والمعاناة جزء من حياته.. يفقد ابنته الشابة، ويصبر ويحتسب ويتوهج بوعد الله، فيخفف عن غيره مصيبته ولوعته رغم ما هو فيه، ويقول لعثمان: (لك أجر رجل شهد بدراً وسهمه)[3]

وفي مكان آخر من المدينة تركض أم حارثة.. ذلك الشاب المكلف بالمراقبة والرصد، والذي استشهد هناك في بدر. أمه اليوم مذهولة تتلقى الركب.. تمسك بأزمة المطايا.. تسأل عن حبيبها وفلذة كبدها، فيقع الخبر عليها كالموت، فيحملها الحزن إلى نبيها ﷺ.

لقد (أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال ﷺ: ويحك، أَوَهبلت؟ أَوَجنةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس)[4] و(الفردوس ربوة الجنة وأعلاها وأوسطها، ومنها تفجر أنهار الجنة)[5].

---

(١) أي أنهم يستمعون لقوله ﷺ حقاً أثناء خطابه لهم.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري عن أنس (٣٩٧٦) وما بين المعقوفين عند مسلم عن أنس.
(٣) حديث صحيح مر معنا وهو عند البخاري (٤٠٦٦).
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري -٤-١٤٦٢.
(٥) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير ٢-٧٨٩).

سـافر حارثة إلى الفردوس، إلى مدنها السـاحرة، وبحيراتها وأنهارها ويخوتها ومركباتها المبحرة والطائرة والسـيارة.. سـافر إلى أحلامـه وأمانيه ليجدها فوق ما يتصور ويتخيل ويحلم، فيتمنى العودة ليقتل مرات ومرات حتى يرى أنه استحقها. أما أمه الثكلى فعادت إلى بيتها صابرة محتسـبة، فلقد حول الإسـلام حزنها إلى مبعث لسـعادتها، فاختلطت دموع الحزن بالفرح عند المؤمنين فـ (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سـراء شـكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[1]. وعجباً لهذا النبي ما أرحمه. إنه يتجاوز أحزانه إلى الآخرين، ليخفف عنهم، ليحثهم على الإبحار مع شـهدائهم في أنهار الجنة، وأهل بيته كانوا مثله.. يواسون تلك البيوت الحزينة، كهذا البيت الذي تنوح فيه عفراء رضي الله عنها:

عفراء حزينة تنوح

عفـراء حزينة على صغيريها. عاد الرجال من القتال.. عاد المحاربون بالأسـرى والجمـال، ولم يعودوا بالصغار.. لم يعودوا بعـوف، ولا بمعوذ، ولن تراهما عفراء بعد الآن، ولن تناديهما لقضاء حوائجها بعد اليوم.. لن تبحث عن عروس لعوف، أو لأخيه، ولن تسعد مع نساء المدينة بزفاف بهيج لهما. ولن تفرح بأحفادها منهم.

عفراء مشـتاقة إلى صغيريها.. يحتـرق جوفها من الحـزن، وتحمر عيناها من البـكاء، ولا يدرك وجـد الأم إلا الأم.. خيمـة حزن بيت عفراء، أمـا بيت النبي ﷺ فكان غيمةً من المشـاعر.. تمتد إلى الجميع. ها هي سـودة وقد سـمعت بما حدث لعـوف وأخيه.. تتوجه إلى بيت أمهما.. تواسـيها، وتعزيها، وتخفف أحزانها ببشـرى الشـهادة، فصغيراها قد اجتثا فرعون الأمة، وعدو الله ورسـوله، وهو أمر يسر أهل السـماوات والأرض، ويُخلد ذكرهما، وذكر أمهما. مكثت سـودة رضي الله عنها وقتاً عنـد عفراء، لكن مفاجـأةً أخرجتها فعادت إلى بيت زوجها ﷺ متأثرةً بحال تلك الأم الوالهة الجريحة، وتأثرت كذلك بوقع تلك المفاجأة، فتحولت مشاعر سودة إلى كلمات عاتبها الرسول ﷺ عليها فـ:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-٢٢٩٥.

ماذا قالت سودة حتى عاتبها زوجها

هذه هي القصة كما يرويها لنا الأنصاري عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنهما فيقول : (قُدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب الحجاب. قالت سودة: فوالله إني لعندهم، إذ أُتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتي بهم، فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد (سهيل بن عمرو) في ناحية الحجرة، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم! ألا متم كراماً.؟

فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين؟!

فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل، أن قلت ما قلت)[1].

لقد غمرت سودة أجواءٌ مشحونة بالأحزان، والأحداث والمفاجآت.. تتدافع نحوها.. تتهاوى عليها، وكأن العالم يتقوض فوق رأسها. فتنفلت منها تلك الكلمات دون أن تشعر.. موت رقية، ومناحة عفراء، وأسير من سادات قريش وكرمائها في حجرتها.. خطيب قريش وحكيمها مجموعة يداه إلى عنقه.. متكوم كالذل في زاوية الحجرة.. منظر يثير الشفقة والرأفة، وامرأة رقيقة المشاعر زادها الإيمان شفافية تشهد ذلك كله، لكن رسول الله ﷺ لم يعنفها.. لم يكفرها بتلك الحروف الشاردة. كان ﷺ مربياً. أشعرها دون أن يخدش مشاعرها، وأعادها دون أن يجرحها. سألها سؤالاً.. سأل إيماناً متجذراً في أعماقها، فأفاقت واعتذرت لله ولرسوله ﷺ، وأفاقت المدينة كلها على وقع الحوافر والخفاف، الجمال والخيل والأحمال تملأ شوارع المدينة، والحقد والغيظ يملأ قلوب اليهود والمنافقين، فقد استجاب الله لرسوله (حين خرج

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٢٢/٣): حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن جده.. وشيخ ابن إسحاق ثقة (التقريب ٢٩٧) ويحيى تابعي ثقة (التقريب ٥٩٣) وجده صحابي.

فقال: اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم، ففتح الله لهم يوم بدر، فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا)[1]

فرح وعناق في الشوارع، وعلى الأبواب وخلف الأبواب، ورغم هذا الفرح المتدفق في الشوارع والقلوب.. كان ﷺ مأخوذاً بهموم وهموم.. الدعوة والقيادة والأسرى، وبيته الحزين على رقية، وزينب البعيدة بين جبال مكة.

يا له من شوق حمله ﷺ إلى المشي حيث يؤسر زوجها وابن خالتها (أبي العاص بن الربيع) إنه الآن بين الأسرى، ولا أدري في أي حجرة هو. لكن شوق النبي ﷺ إلى ريحانته زينب يأخذه إلى حيث يقبع أبو العاص، ليحدثه في شأن زينب، فلا يتركه حتى (أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه)[2] ولكن هذا لا يعني أن يعفى زوج ابنة رسول الله ﷺ من الفداء. فهو أحد الأسرى، ولا فرق بينه وبينهم، وما طلبه الرسول ﷺ منه كان طلباً شخصياً لا علاقة له بالحرب، فزينب هي ابنة خديجة بنت خويلد، وأبو العاص هو ابن خالتها هالة بنت خويلد.. هالة التي كان تحلق برسول الله ﷺ في أجواء من الذكريات الحبيبة، فتثير الغيرة في قلب الشابة عائشة رضي الله عنها.

تحدثنا أم المؤمنين عن غيرتها فتقول: (استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع فقال: اللهم هالة! فغرت)[3].

وسوف ينفذ أبو العاص ويفي بوعده، فهو رجل كريم حسن الخلق وإلا لما زوجه رسول الله ﷺ أكبر بناته.

غادر ﷺ أبا العاص بن الربيع إلى أسير آخر يتململ من أسره، وتخجله ثيابه الممزقة.. إنه عمه (العباس) الذي أحزن منظر ثيابه رسول ﷺ، لكن أحد مشركي المدينة شعر بالشفقة على مشركي قريش، فقام بعمل يكسب به معروفاً على النبي عليه السلام، ومعروفاً على مشركي قريش.

---

(١) حديث حسن مر معنا وقد حسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢/٥٢٥).

(٢) حديث حسن. رواه أبو داود وحسنه الإمام الألباني (٢/٥١٢).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٨٩ ومسلم ١-٤١٠ .

(عبد الله بن أبي بن سلول) الوثني الحاقد على هذه الدولة التي تحميه، المحتقن مـن هذا الانتصار العظيم يقدم هدية للعباس. جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: «لما كان يـوم بدر، أتى بأسـارى، وأتـى بالعباس، ولم يكن عليه ثـوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ»[1]

شكر النبي ﷺ ابن سلول صنيعه وحفظه له، وترك عمه العباس في أسره، وتوجه نحو أصحابه، وتحدث معهم عن الأسـرى، فجرى الحديث على ذكر أحد شيوخ قريش في الأسر، فكانت:

المعجزة

لقد قيل إن (في الأسرى (أبو وداعة بن صبرة السهمي)، فقال رسول الله ﷺ: إن له بمكة ابناً تاجراً كيساً ذا مال، كأنكم به قد جاءكم في فداء أبيه)[2] وابنه هذا اسمه: المطلب بن أبي وداعة. معجزة ينطق بها ﷺ، وهو لا ينطق عن الهوى، لكن ما السـبب الذي جعل المطلب ينهض مسرعاً نحو المدينة؟

دعونـا ننتقل إلـى أجواء مكة الكئيبة.. بين منازلهـا وجبالها. حيث أصاب حجر فـارس الأحـلام، الذي رأته عاتكة بنـت عبد المطلب في منامهـا كل منزل من منازل قريش، وشـظايا ذلـك الحجر الآن نزيف في كل قلب يسـكن مكـة. امتلأت البيوت والأخبية بالبكاء والعويل، وشقت الثياب، وارتفع النواح، ونثر التراب على الرؤوس. فأبو سفيان الذي نجا بالقافلة لم ينج من جراح بدر، فقد أثخنته في أعماقه.. ها هي هند بنـت عتبة زوجته تنوح وتنـوح، وقد أصيبت بما لم يصب به غيرها. التهمت الصحراء والدها عتبة، وعمها شـيبة، وأخاها الوليد، وهم شـجعان العرب وسادة قريش. ترى ماذا فعلت هند بثيابها؟ وإلى أي مدى ارتفع نشيجها ونواحها؟ وهناك (أم جميل) أخت أبي سفيان.. حمالة الحطب المجرمة. لا بد أنها احترقت بما سمعت، وهناك زوجة أبي جهل.. ماذا فعلت عندما أخبرها عكرمة بقصة هلاك والده؟ وزوجة أمية بن خلف.. لا بد أنه قد جن جنونها عندما علمت بموت زوجها الشنيع مع ابنها علي.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٩٥.

(٢) تخريجه في الحديث التالي فهو جزء منه.

أبو لهب طار صوابه لدوي انتصار ابن أخيه.. يطرق المدى والآفاق.. أجواء بائسة بائسة، ومكة تكاد تحترق بأنفاس أهلها وغيظهم.. الذهول تجده في كل زاوية، وعلى كل وجه.

لكن هناك من اختلطت في نفسه مشاعر البهجة بالأسى.. عاتكة بنت عبد المطلب تفرح بتحقق رؤياها، وهلاك طواغيتها، لكن العباس وعقيلاً قد وقعوا في الأسر. وفي بيت عقبة بن أبي معيط كانت ابنته المحبوسة (أم كلثوم) لا بد أنها حزنت كثيراً لموت أبيها مشركاً. فإذا تخطينا عدة أبيات، ثم توقفنا ودلفنا.. وجدنا زينب ابنة النبي ﷺ والوجوم يلفها.. زوجها أسير، ووالدها وأخواتها بعيدون عنها، وبعض أهل مكة يقتلونها بنظراتهم، لكنها تصبر وتحتسب المرارة والحزن عند الله، وتسمع عن الفداء، فترفع يديها خلف رقبتها، وتحل رباط قلادة لها، وتبحث عن أمين يبعث بهذه القلادة إلى والدها، عل هذه القلادة تحرر أسيرها وحبيبها.

أما المطلب بن أبي وداعة، والذي تنبأ الرسول ﷺ بقدومه إلى المدينة ليفك أسر أبيه، فيسير نحو مجلس لبعض رجالات قريش، الذين ندموا على كثرة النواح والعويل على من التهمتهم الصحراء في بدر. فماذا قال المطلب في ذلك المجلس؟

لقد (كانت قريش ناحت على قتلاها، ثم ندمت، وقالوا: لا تنوحوا عليهم، فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم،...

فلما قالت قريش في الفداء ما قالت، قال المطلب: صدقتم والله لئن فعلتم ليثأرن عليكم. ثم انسل في الليل، فقدم المدينة، ففدى أباه بأربعة آلاف درهم)[1] واصطحبه معه إلى مكة، ورأى الصحابة معجزة نبوية أخرى، وتتابع المشركون بعده يفدون أسراهم بأموالهم، لكن هناك من يحلم بـ:

إطلاق الأسرى دون مقابل

أحدهم كان يحمل طموحاً أكبر، فهو يطمح إلى إطلاق جميع الأسرى. إنه الذي رأى الملائكة على أرض بدر، وهو أحد وجهاء قريش: (جبير بن مطعم بن عدي) ابن

---

(١) سنده حسن رواه الطبراني (الجزء المفقود رقم ١١) من طريقين:.. وهب بن جرير و... عبيد بن عقيل قالا: حدثنا جرير بن حازم، حدثنا ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير. صرح ابن اسحاق بالسماع من التابعي الثقة يحيى بن عباد التقريب ٥٩٢ وأبوه تابعي ثقة وجرير ثقة إلا عن قتادة وهذا ليس منه ووالده أوثق منه.

ذلك الشـــهم الكريم «المطعـم بن عدي».. يمتطي راحلته متجهــاً نحو المدينة، ليجتمع برسول الله ﷺ في محاولة منه لإطلاق سراح الأسارى من قومه، لكنه يقع في الأسر. لم يأسره أحد من الصحابة، ولا حتى من قطاع الطرق! أسره القرآن وهو يمشي بهدوء بمحاذاة جدار مسجد النبي ﷺ.. في سويعات هادئة بعد الغروب.

يقــول جبير: إنه (جاء في فداء أســارى أهل بدر، فوافقت رســول الله ﷺ يقرأ فــي صلاة المغرب: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾ فأخذني من قراءته فكان ذلك أول ما سمعت من أمر الإسلام)[1] (فسمعته وهو يقرأ وقد خرج صوته مــن المســجد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ فكأنما صدع قلبي)[2]، (وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي)[3]، فاســتجاب جبيــر بن مطعم لقلبه الذي تعلق بهذا الصوت المنساب من المسجد، فتوقف يستمع إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

---

(١) حديث حســن من أجل أســامة بن زيد الليثي وهو حســن الحديث إذا لم يخالف ويشهد له ما بعده عند البخاري.. والحديث رواه الطبراني (٢-١١٧).

(٢) حســن. رواه الطبراني (٢-١١٧-١١٨) من طريقين عن هشيم وعزاه لأبي يعلى وهشيم رواه من طريقين: حدثنا سفيان بن حسين عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه. وأخبرنا إبراهيم بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده. وقد صرح هشيم، وسفيان ثقة في غير الزهري، فهذه الطريق ضعيفة وأما الطريق الثانية فهشــيم ســمعه من الزهري ومع ذلك فهو معلول لأنه كتب عنه فطيرت الريح أوراقه بعد خروجه فأصبح معلول الحديث إذا روى عنه. وهذان الطريقان يقوي بعضهما البعض بالإضافة إلى حديث البخاري.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٣).

بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

يقــول جبير: (فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾. كاد قلبي أن يطير)[2].

كان جبير خلف الجدار يشقى بقلبه، بينما كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة ينعمون بالقرآن والصلاة حتى أتموا صلاتهم، ثم سلم النبي ﷺ وسلم الصحابة من خلفه، وبعد قليل انصرفوا، وانصرف النبي ﷺ، فتوجه إليه جبير ابن مطعم، فاســتقبله النبي ﷺ بكل الوفاء والعرفان مذكراً إياه بكرم أبيه «المطعم بن عدي». قدَّم جبير للنبي ﷺ التماســاً يطلب فيه إطلاق الأسرى من قريش، لكن إجابة الرسول ﷺ كانت مخرسة.

لقد قال له: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم لـه)[3] فهِمَ جبير بن مطعم إجابة النبي ﷺ، فانصرف بغير القلب الذي جاء به.. يحمل إيماناً يصارع كفراً.. يحمل همَّ عمه الذي قتله حمزة، ويحمل تقديراً للنبي ﷺ وإجلالاً، بعد أن سمع ما يسر من ثناء على أبيه واحتفاظ بالجميل.

عاد جبير إلى مكة ولم يعد الأســرى، وما زال أبو العاص بن الربيع بينهم، وذات يوم يصل إلى المدينة رجل يحمل مالاً، ويحمل قلادة إلى رســول الله ﷺ، فيأخذ عليه

---

(١) سورة الطور: الآيات ٧-٣٧.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٣).

السلام تلك القلادة، وتهتز نياط قلبه وهو يقلبها، وتتعلق عيناه بها فتحمله بعيداً.. بعيداً حيث خديجة.. حيث زينب وحيث مكة الحبيبة، فينضح قلبه بالحزن، ولسانه بالرجاء لأصحابه أن يخففوا أحزانه وأحزان حبيبته.

فيتأثر من حوله بمشهد الحرمان والشوق والغربة الذي يحيط بهذا النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم جميعاً.

تقول عائشة رضي الله عنها: (لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة، أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا. فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليها الذي لها)[1] وقبل أن ينطلق أبو العاص إلى زينب أكد لرسول الله ﷺ أنه سيبعث بزينب، وذلك بتحديد مكان تلاقي فيه من سيرسله رسول الله ﷺ لمرافقتها في طريق هجرتها. هذا المكان هو أحد بطون الأودية واسمه (بطن يأجج)، وهو قريب من مكة. ثم انطلق أبو العاص إلى مكة، ولما وصل إلى زينب فرحت به، وفرح بها وسلمها قلادتها وحريتها، فاختارت الله ورسوله، وتوجهت إلى (بطن يأجج) بصحبة ابنتها الصغيرة أمامة.

أما في المدينة فقد (بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: (كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب، فتصحبانها حتى تأتياني بها، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت جهرة)[2] بعد أن سلمها أبو العاص قلادتها وحريتها، وأبقى لنفسه الهواجس والحرمان. وفي بطن (يأجج) رافقها أخوها زيد وصاحبه إلى أبيها.. إلى المدينة المنورة بالإسلام. فرح بها رسول الله ﷺ.. فرحت بها فاطمة، وفرحت بها أم كلثوم، لكن وصولها لامس

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وأحمد ٦-٢٧٦ وغيره من طريقه: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة. وهو سند مر معنا فيحيى ثقة ووالده أوثق منه.

(٢) هذه الزيادة هي آخر الحديث السابق وبالسند نفسه عند الطبراني ٢٢-٢٨ وأبي داود ٢٦٩٢ وهي زيادة قوية وتلميذ ابن إسحاق هو محمد بن سلمة الباهلي ثقة من رجال مسلم التهذيب ٩-١٩٤ وتلميذ ابن سلمة شيخ أبي داود ثقة حافظ عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل وتلميذ النفيلي - شيخ الطبراني هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب وهو ثقة كما قال الدار قطني (بلغة القاصي ٨٨).

جرحاً في أعماقهن على رقية الراحلة.. الراقدة تحت أطباق الثرى.. ذكرى رقية، وما أصابها في سبيل الله من غربة وآلام.. آذاها المشركون في مكة، فهاجرت مع عثمان إلى الحبشة، ثم عادت إلى مكة، ثم هاجرت إلى المدينة، ولم يطل بقاؤها في المدينة حتى اجتاحتها أوجاع خطفتها، وخطفت شبابها.

كان ذلك كله في سبيل الله، وهذا ما يهون من الحرقة عليها، فهي راحلة إلى النعيم الخالد. تلك هي قصة زينب وأسيرها فـ:

ماذا عن بقية الأسرى

غادر الأسرى إلى مكة بعد أن دفعوا الفدية، ولكن بقي أناس منهم لا يملكون فداءً ولا مالاً.. استخفهم أبو جهل فأطاعوه، وقد ذهب أبو جهل إلى النار وتركهم بين القيود، وهناك آخرون رفض أهلهم دفع الفداء، فماذا سيفعل بهم الرسول ﷺ؟

هل سيقتلهم، أم سيكون الأسر وأعمال السخرة والتعذيب مصيرهم حتى تجمع لهم قريش مالاً؟

لا هذا ولا ذاك. إن رسول الله ﷺ أكبر من أن يكلفهم ما لا يطيقون، والإسلام ما جاء ليصادر الحريات، بل ليدعمها ويطلقها في طرقات البناء والإسلام.

نزل القرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾[1].

كلمات تسقي بذور الخير في قلوب هؤلاء الأسرى، وتجعلهم أصحاب أفق أبعد، وتفكير أرقى.. كلمات تقدم المغفرة والجنة، فمن أراد الإسلام فلا حاجة لأسره، فليعش بين أهل المدينة على الرحب والإيمان والسعة. أما من يأبى ذلك، فلا حاجة للمسلمين في حبس حريته.. أبواب الحرية أمامه مشرعة، لكن عليه قبل ذلك أن يؤدي.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

وبذلك يستفاد منه ومن بقائه بين أظهر المسلمين، بدلاً من إرهاق ميزانية الدولة المسلمة الفقيرة بالإنفاق عليهم.. رغم أن هذا الإنفاق فيه أجر عظيم، وعظيم جداً. كما قال تعالى في وصف الصحابة أنهم: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[1] لذلك أمروا بالخدمة الاجتماعية. فما هي الخدمة التي أداها هؤلاء مقابل حريتهم؟

يقول أحد الصحابة: (كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)[2] وقد حدثت قصة طريفة بين أحد هؤلاء الأسارى وبين والد أحد أولئك الأطفال، عندما (جاء غلام من أولاد الأنصار إلى أبيه فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي.

قال: الخبيث يطلب بذحل بدر؟ والله لا تأتيه أبداً) أي يأخذ ثأره مما حدث له في غزوة بدر بضرب ذلك الطفل.

وبذلك يؤكد النبي ﷺ مبدأ العلم، وأنه (فريضة على كل مسلم)[3] كما يفتح ﷺ باب خدمة المجتمع كبديل للحبس. فتعلم جزء كبير من أبناء الأنصار القراءة والكتابة، وتفوق المسلمون على عدوهم حرباً وعلماً، وعاد بقية الأسرى إلى مكة، بعد أن أدوا تلك الوظيفة الاجتماعية.

أصابت الدهشة جزيرة العرب لهذا الانتصار، وتفاقم الحقد في نفوس اليهود، وضاقوا بما جرى، ولا أدري لم كل هذا الحقد اليهودي والحسد والأمر كوجه الشمس؟

إنه النبي الذي جاء ليحررهم من الاضطهاد والطغيان، ويخفف عنهم بعض الأحكام التي عوقبوا بها لتمردهم. لا أدري لم كل هذا التبرم والعناد وهم يعرفون أنه ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٢) سنده قوي. رواه أحمد ١-٢٤٧ وغيره عن علي بن عاصم حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.. وهو صحيح لولا أخطاء ابن عاصم فهو صدوق يخطئ التقريب ٤٠٣ وهو هنا لم يخطئ فقد تابعه خالد بن عبد الله الطحان ثقة ثبت من رجال الشيخين.

(٣) حديث صحيح. (صحيح الجامع ٢-٧٢٧).

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(١)، وقد تمكن الأحبار والرهبان فيما بعد أن يحذفوا اسم محمد ﷺ من التوراة والإنجيل، لكنهم لم يتمتعوا بقدر من الذكاء يمكنهم من طمس كل شيء يتعلق بمحمد في التوراة والإنجيل. لقد كانوا من الغباء بحيث أبقوا على وصف أحداث وأماكن لا يمكن أن تنطبق إلا على محمد ﷺ، فمثلاً غفلوا عن هذه الكلمات في التوراة، والتي تقول: (هذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من جبل ساعير وتجلى من جبل فاران)(٢) حذفوا اسم محمدٍ ونسوا كلمة (فاران) فجبال فاران هي جبال مكة، وموسى وعيسى، وكل أنبياء بني إسرائيل ليس لهم علاقة بجبال فاران، أي جبال مكة حسب التوراة والإنجيل. فمن هو النبي الذي أوحي إليه وهو فوق جبال فاران، كما أوحي إلى موسى بين جبال سيناء، هل هناك غير محمد ﷺ؟!

شيء آخر.. إنه حادث الهجرة، وحتى غزوة بدر أيضاً كان لهما إشارة في التوراة، وقد حذف الأحبار اسم محمد ﷺ، لكنهم نسوا أن الاسم وحده ليس كل شيء، فالأحداث مفصلة على محمد ﷺ وحده. هكذا تقول توراتهم: (وحي على بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، بيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدّدانيين، هاتوا ماءً للعطشان، يا سكان تيماء استقبلوا الهارب الجائع بالخبز(٣). هم هاربون من أمام السيوف، ومن أمام القوس المشدودة، وويلات الحرب، وهذا ما قاله لي الرب. بعد سنة يفنى كل مجد قيدار (عدنان)، ولا يبقى من أصحاب الأقواس من جبابرة بني (عدنان) قيدار غير القليل)(٤).

هذه هي النبوءة التي غفل عنها الأحبار، وتعسف في تأويلها الشراح اليوم، هل تنطبق على نبي غير محمد ﷺ؟ من هو الذي جاء بالوحي من جهة بلاد العرب؟ من هو الذي هرب وأصحابه من شدة العذاب ولظى السيوف؟ من هو النبي الذي هرب

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٢) الكتاب المقدس ٨٧٥ وانظر محمد...

(٣) أي رسول الله ﷺ ومن معه... وتيماء واحة عربية والدّدانيين شعب عربي.

(٤) الكتاب المقدس، إصحاح إشعيا، ٢١، ص٨٧٥.

مـن قومـه (بني عدنان) ثم حاربهم بعد عام؟ من هو الذي أفنى جبابرتهم ولم يبق من جبابرتهم سوى القليل..؟

مـن هـو النبي الذي أفنـى هيبة قريش، وهـم بنو عدنان بعد سـنة من هجرته وهروبه، ثم إن هناك حقيقة كالشمس تزداد سطوعاً كلما حاول اليهود إخفاءها.. هذه الحقيقة هي أن التوراة تخاطب اليهود.. اليهود وحدهم، وهي تطلب منهم أن يستقبلوا حامـل الوحي القادم مـن بلاد العرب، ومن فاران بالتحديـد، بالترحاب والخبز، وأن ينصروه فهو هارب من السـيوف المسلولة والأقواس المشدودة، فلماذا انتقل اليهود من أرض الشام إلى المدينة (يثرب) لماذا تركوا الديار المقدسة الباردة إلى يثرب ذات المناخ الحار، والحمى القاتلة؟

السـبب واضح: هو أن التوراة كانت فيها تفاصيل أكثر عن هذا النبي، وعن مكان هجرته، وعن وقت خروجه. وإلا فما الذي حشـر اليهود وجعلهم يزاحمون العرب في (يثرب) ذات الحمى والجبال الوعرة؟ مالذي جعلهم يتحملون كل هذه المعاناة، إلا لأنهم كانوا يريدون أن يوافوا الهارب بالخبز، ويحطموا به العرب والعالم. لكن ويا لأسفهم.. هـذا الهارب عربي من بني عدنان (قيدار). إنها بالنسـبة لهـم كارثة. كيف ينقاد بنو إسـرائيل لنبي عربي بعد ذلـك التاريخ الطويل والحافل بالكتـب والوحي.. بعد تلك السلسلة الطويلة من الأنبياء العظام من اليهود؟

كيـف ينقـاد اليهود المثقفون إلى نبي من هؤلاء العـرب الذين تغلب عليهم الأمية وتتغلغل في نفوسـهم الوثنية؟ العرب الذين لم يبنوا مدرسـة، ولـم يؤلفوا كتاباً؟ كيف يرضى اليهود بنبي عربي من بني إسـماعيل..؟ إنه ليس من بني إسـرائيل (يعقوب)، لا ولا حتى من بني إسـحاق. أمر صعب، وحقيقة مـرة يرفضها اليهود. إنها تعني في نظرهـم أن يبقى اليهود وكتبهم وتاريخهم على الأرفف، وفي الخزائن لإفسـاح المجال لهذا الجديد الذي يحمله محمد ﷺ.

هذه قصة عجيبة تبين لنا سـبب قدوم يهود إلى يثرب، وهي تتفق مع ما ورد قبل قليل في التوراة الموجودة اليوم. دعونا نسـتمع إلى رجال تأثروا بالتوراة أكثر مما تأثر بها اليهود أنفسهم.

يقول هؤلاء الرجال: (إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا، أن كنا نسمع من رجل من اليهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾)[1].

إذاً فهم في الحقيقة لا ينتظرون نبياً يهديهم إلى الحق، وينقلهم من الظلمات والشرك إلى التوحيد والنور. لقد كانوا ينتظرون ملكاً يبيدون به الجيوش، ويتحكمون به في العالم وثروات العالم، يريدونه من نسل يعقوب وإسحاق، لا من أبناء العمومة - أبناء إسماعيل. وهذا أحد اليهود يتلفظ قبل وفاته بهذه الأمنية، ويبين لمن حول فراشه وهو يموت سبب قدومه إلى يثرب، التي يسميها أرض البؤس والجوع، تاركاً وراءه أرض الخضرة والخمر والأنهار.

يروي لنا هذه القصة رجل من يهود بني قريظة هداه الله للإسلام، ويحدث من نقل لنا هذه الرواية فيقول: (هل تدري عمَّ كان إسلام (ثعلبة بن سعيد) و(أسيد بن سعية) و(أسد ابن عبيد) وهم نفر من بني هذل إخوة بني قريظة. كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قلت: لا.

قال: فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له (ابن الهيِّبان) قدم علينا قبل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه. فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيِّبان فاستسق لنا.

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ابن هشام٢-٣٧: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن رجال من قومه قالوا: عاصم تابعي ثقة عالم سمع من هؤلاء الصحابة التقريب ٢٦٨.

فيقـــول: لا والله، حتى تقدمـــوا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مدين من شعير.

فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستســقي لنا، فوالله ما يبرح مجلســه حتى يمر الســحاب ويســقي. قد فعل ذلك غير مرة، ولا مرتين ولا ثلاثاً. ثم حضرته الوفــاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشــر يهــود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قلنا: أنت أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلــدة أتوكف خروج نبي قــد أظل زمانه، هذه البلدة مُهاجــره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه وقد أظلكم زمانه، فلا تُســبقن إليه يا معشــر يهود، فإنه يبعث بســفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه)[1].

لكن ماذا فعل بنو قريظة بعد بعثة النبي ﷺ؟ هل نفذوا وصية هذا الرجل المشتاق؟ أبداً، لقد ظلوا على يهوديتهم المحرفة، ولم يســلم إلا القليل.. القليل منهم، لكن بعض اليهود لم يكتفوا بالكفر بمحمد ﷺ، بل تفاقم حقدهم فحاولوا نقض المصالحة، وهدم الجسر الذي شيده ﷺ بعد وصوله للمدينة بين أهلها جميعاً.. كفاراً ويهوداً ومسلمين، وكان أحد هؤلاء وأبرزهم يهودي حاقد.. يهودي شــرير أطلق لسانه بالشتم والسباب، ووظف موهبته الشــعرية في الهجاء والسخرية السافلة من الله ورسوله، وكتابه ودينه، ومن دولة الإســلام وأهلها. ومع ذلك كله يأمر الله نبيه ﷺ بالعفو والصفح والتحمل، وعــدم فتــح جبهة مع هذا الخائــن أو ذاك.. صالحهم ﷺ، وأمرهم بأن يعيشــوا في دولة واحدة.. متعاونين على أعدائها متناسين ما بينهم من خلاف، لكنهم خانوا العهد والميثاق، وتنكروا لحسن الجوار والأخلاق، وكان رأس الفتنة هذا يسمى:

كعب بن الأشرف

يحدثنا عنه وعن شــعره أعلم الناس بشــعره.. شــاعر الأنصار (كعب بن مالك) يتحدث عن كعب بن الأشرف فيقول: (إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو رســول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شــعره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينــة وأهلها أخلاطاً: منهم المســلمون الذين تجمعهم دعوة رســول الله ﷺ، ومنهم

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وهو الحديث السابق.

المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج.

فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ المدينة يؤذونه أشد الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر والعفو، فقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فأمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوا كعباً، فبعث إليه سعد (محمد بن مسلمة) و(أبا عبس) و(الحارث ابن أخي سعد بن معاذ) في خمسة رهط)[1].

فقال ﷺ: (من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: فأذن لي رسول الله أن أقول شيئاً.

قال ﷺ: قل)[2] أي سمح له ببعض الكلمات التي يمس فيها رسول الله ﷺ، لكي يخدع بها كعب بن الأشرف، ويتمكن من استدراجه حتى يجهز عليه ويتخلص منه ومن خيانته.

وجاءت ساعة التنفيذ فـ (مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم)[3].

---

(١) سنده صحيح. أرسله البيهقي (٣-١٩٧) ووصله أبو داود (٣٠٠٠) ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد ابن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه. والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٠٠) فالزهري وعبد الرحمن تابعيان ثقتان وشعيب ثقة ثبت من أثبت الناس في الزهري التهذيب ٤-٣٥١: وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين التقريب ١٧٦ وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور (الذهلي).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣-١٩٥).

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٠٠): حدثني ثور بن زيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس. ثور الديلي وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب ١٣٥ وشيخه زيد إمام ثقة تلميذ ابن عباس رحمه الله.

إذاً فقد (بعث إليه سعدٌ؛ محمدَ بن مسلمة وأبا عبس والحارث ابن أخي سعد بن معاذ في خمسة رهط أتوه عشية، وهو في مجلسهم بالعوالي، فلما رآهم كعب أنكرهم وكاد يذعـر منهم، فقـال لهم: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءت بنا إليك الحاجة. قال: فليدن إلي بعضكم فليحدثني بها.

فدنا إليه بعضهم، فقال: جئناك لنبيعك أدراعاً لنا لنستنفق أثمانها. فقال: والله لئن فعلتم ذلك لقد جهدتم، قد نزل بكم هذا الرجل. فواعدهم أن يأتوه عشاءً حين يهدأ عنهم الناس.

فجاءوا، فناداه رجل منهم، فقام ليخرج فقالت امرأته: ما طرقوك ساعتهم هذه لشيء مما تحب. فقال: بلى، إنهم قد حدثوني حديثهم.

فاعتنقه أبو عبس وضربه محمد بن مسلمة بالسيف، وطعنه بعضهم بالسيف في خاصرته)[1] ففرق الحاقد بدمائه، وكان لهذا الغرق تفاصيل أخرى يرويها أحد الأنصار، وهو جابر بن عبد الله فيقول: (قام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فَأْذَنْ لي يا رسول الله أن أقول شيئاً. قال: قل.

فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتك أستسلفك. قال كعب: وأيضاً والله لتملنه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين.

فقال كعب: نعم أرهنوني. قالوا: أي شيء تريد؟ قال: أرهنوني نساءكم. قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: أرهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللامة[2].

فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة -وهو أخو كعب من الرضاعة- فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال:

---

(١) جزء من حديث أبي داود والبيهقي السابق.
(٢) أي الدروع أو السلاح.

إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة. قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب.

فقال محمد: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليه متوشحاً وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت اليوم ريحاً أطيب.

قال كعب: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب.

فقال محمد: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمه، ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم.

فلما استمكن منه قال: دونكم، فقتلوه. ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه)[1] وبشروه بالقضاء على اليهودي مثير الفتن هذا، وكان أحد سادات يهود بني النضير.

هذا الحدث لم يكن سهلاً.. كان أثره عميقاً في نفوس يهود بني النضير، بل إنه قد هز أعماق المشركين من عبدة الأوثان أتباع الوثني المسمى بـ (عبد الله بن أُبي بن سلول) فعندما (قتلوه فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا فقتل. فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره، وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم، وبين المسلمين عامة صحيفة كتاباً ينتهون إلى ما فيه.

فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة، كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي كان في دار ابنة الحارث)[2] إذاً فقد تحول العهد والميثاق الشفهي إلى:

وثيقة وطنية مكتوبة بين النبي والمسلمين واليهود

ها هو أحد الصحابة يحدثنا بتفاصيل أدق للعملية السابقة فيقول: (مشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣/١٩٥-١٩٦).

(٢) جزء من حديث أبي داود والبيهقي. السابق وهو صحيح.

ثـم رجع رسـول الله ﷺ إلى بيتـه وهو في ليلة مقمـرة، فانطلقوا حتـى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتهـا وقالت: أنت امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه السـاعة. قال لها كعب: لو دعي الفتى لطعنة أجاب.

فنزل، فتحدث معهم سـاعة وتحدثوا معه، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشـرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم.

فخرجوا، فمشـوا ساعة، ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شم يده فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط. ثم مشـى سـاعةً ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله.

فاختلفت عليه أسيافهم، فلم تغن شيئاً،

قال محمد بن مسـلمة: فذكرت مغولاً في سـيفي، فأخذته وقـد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، فوضعته في ثنته، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسـه، أصابه بعض سـيوفنا، فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بعاث، حتى أسندنا في حرة العريض، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم، فوقفنا له سـاعة، ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسول ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي، فسـلمنا عليه فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسـه)[1] بعد أن رأوا مصير هذا المتآمر، لا سيما وهو أحد زعماء يهود بني النضير وساداتهم.

ملأ الخوف نفوس مشركي المدينة أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وغيره، واهتزت حصون اليهود وأوثان المشـركين، فعقدوا اجتماعاً خائفاً وقصيراً، فيدُ الموت أصبحت

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق (سـيرة ابن كثير) وروى البيهقي أوله (٣/٢٠٠) من طريق ابن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس.. وقد صرح ابن إسـحاق بالسـماع من شـيخه... وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب (١٣٥) وعكرمة تابعي وإمام معروف.

طويلة تمتد نحو كل خائن، حتى لو كان زعيماً ككعب بن الأشرف، فما الذي حدث بعد ذلك الاجتماع؟

(فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا، فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا فقتل، فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة، كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي كان في دار ابنة الحارث)[1].

وثيقة وطنية مكتوبة تلقي على جميع سكان المدينة ومواطني الدولة الإسلامية.. مهما كانت ديانتهم، أقلية أو أكثرية.. مسئولية الأمن في هذه الدولة، وعدم ارتكاب أي شيء يزعزع أمنها، وتجنب أي تعاط مع خارج الدولة قد يسبب ضررا لها.

حدت هذه الوثيقة الوطنية من خيانة هؤلاء اليهود ومن يتعاون معهم من المشركين، أمثال عبد الله بن أُبي بن سلول، وغيره من عباد الأوثان. لقد أفحم رسول الله ﷺ قوم كعب بن الأشرف وأتباعه من يهود بني النضير، وأذنابهم من المشركين حينما هرولوا يحتجون على اغتيال ذلك الخائن.

لقد قدم لهم الوثائق التي تدينه.. أسمعهم ﷺ قصائده التي تنخر في عظام المدينة كلها، وكانت تلك القصائد تحرض على انفجار حرب أهلية تلون جدران المدينة بالموت والدماء.. تلك القصائد كانت تحرض قريشاً على التحالف مع اليهود ضد هذه الدولة الفتية، ولا أعرف سبباً واحداً يجعل كعباً وغيره يقدمون على إثارة الفتن والدماء. لقد عاملهم ﷺ بكل لطف واحترام، وجاء من أجل إنقاذهم.. كان ﷺ حليماً حكيماً في التصرف معهم، رغم إساءاتهم المتكررة له، ولدينه ولأصحابه. لقد سكت اليهود عندما سمعوا تلك القصائد، وكان في سكوتهم إدانة لهم. لكن النبي ﷺ لم يشملهم بالعقاب، إنما دعاهم إلى كتابة وثيقة عهد بينهم يأمن بعضهم شر بعض على أساسها، ويُلزم كل طرف بعدم التعاون مع أطراف خارجية ضد أحد أطراف تلك الوثيقة، ولو بالشعر فالشعر آنذاك هو الإعلام.

(١) حديث صحيح مر معنا وقد رواه أبو داود والبيهقي (٣-١٩٨).

وافــق بنــو النضير على ذلك، لكن دماء الحقد المتجمــدة الآن في عروق كعب بن الأشرف.. لا تزال حارةً متدفقة في شرايين بني النضير وغيرهم، فلم يمر سوى زمن يسير حتى:

أعلن يهود النضير وقريظة الحرب

يقول الشاب عبد الله بن عمر بن الخطاب: (إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رســول الله ﷺ، فأجلى رســول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[1] لكن ما هي:

قصة إجلاء بني النضير

وكيف خانوا وحاربوا، وكيف تصرف رســول ﷺ معهم ومــع خيانة بني قريظة عندما نقضــوا تلك الصحيفة، التي أجمع عليها يهود المدينة كلهم؟ يحدثنا أحد أصحاب النبي ﷺ فيقول: (إن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبي بن سلول، ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج -ورســول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة- قبل وقعة «بــدر» يقولون: إنكم آويتم صاحبنا، وإنكــم أكثر أهــل المدينة عدداً، وإنا نقســم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنســتعن عليكم العرب، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

فلما بلغ ذلك (ابن أبي) ومن معه من عبدة الأوثان تراســلوا فاجتمعوا، وأرســلوا وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فلقيهم في جماعة فقال: لقــد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكــم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم.

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، وكانت وقعة «بدر» فكتبــت كفــار قريش بعد وقعة بدر إلــى اليهود: إنكم أهل الحلقــة والحصون، وإنكم لتقاتلــن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نســاءكم شــيء (وهو الخلاخل).

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (١٨٣/٣).

فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلت إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز[1] من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك.

فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه. واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها -وهو رجل مسلم من الأنصار-، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً، حتى أدرك النبي ﷺ فسارَّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ.

فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحاصرهم وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه.

فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة، والحلقة (السلاح).

فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام، وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاء، فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ، فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء لعذبهم في الدنيا كما عذبت بنو قريظة،

---

(١) في مكان مرتفع.

فأنزل الله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾ وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة فأعطاه الله إياها وخصه بها فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يقول: بغير قتال.

فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم، ولرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما)[1].

هذه هي قصة يهود بني النضير.. قدموا إلى المدينة بحثاً عن النبي المنتظر، فلما بعث هذا النبي وجدوه عربياً وليس من بني إسرائيل، فكرهوه، وعاهدوه على مضض، ولما حانت لهم الفرصة خانوه ونقضوا كل عهودهم ومواثيقهم معه، فعاقبهم الله بالشتات، فاستأنفوا رحلة الضياع من جديد بعد أن حاصرهم المسلمون، فصاروا يخربون بيوتهم غيظاً وحسداً حتى لا يستفيد منها المسلمون. لكن الغيظ القاتل جلل اليهود، ورافقهم عندما وجدوا المسلمين أنفسهم يخربون تلك البيوت ولا يكترثون. فالمسلمون لم يحاصروا بني النضير من أجل بيوتهم وأموالهم ونخيلهم، بل لأنهم خونة، وإذا كان اليهود يرون في تلك البيوت ثروة للمسلمين، فالمسلمون لا يريدون تلك الثروة، ولا يقبلون بقاء الخونة بينهم أو في جوارهم، بل لقد أقدم المسلمون على تصرف يحرقون به آثار اليهود.

(١) صحح إسناده الإمام الألباني في كتابه «صحيح سنن أبي داود ٢-٥٨٢ حديث (٣٠٠٤) فقد قال: صحيح الإسناد. ولمزيد من التفصيل راجع موسوعة السيرة.

يخبرنا عن ذلك أحد الصحابة رضي الله عنه في قوله: (﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً، تركنا بعضاً، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾)[1]أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله.

هذا هو الإسلام، وهؤلاء هم المسلمون، وهذه هي التربية الإسلامية التي لا تنحصر بين أروقة المساجد، وجدران البيوت.. تربية تنتشر في كل اتجاه، وتصاحب المؤمن في كل مكان، وتحت أي ظرف.. في أوج الحروب. بين بريق السيوف والدماء وتفجر الحماس والغضب لله يتوقف المسلمون ليسألوا رسول الله ﷺ عن صحة تصرفهم مع فسيلة نخل؟ الإسلام يشكل تعاملاتهم مع كل شيء، حتى مع جذوع النخل، بعد أن أرشدهم إلى التعامل مع جذوع الخيانة وجذورها اليهودية.

غادر اليهود من بني النضير إلى الشام، وإلى غير رجعة. غادروا يبحثون عن نبي غير عربي يأتيهم حسب رغباتهم، ويأتيهم بما يشتهون، وبقي منهم في المدينة من اختار الله ورسوله، ودخل في الإسلام مكرماً بين حفاوة المؤمنين. غادر (النضير) فهدأت المدينة، وعاد إليها المؤمنون بنصر جديد، وفرح جديد، وعاد عثمان إلى بيته، فعاد الحنين إلى رقية. شعر ﷺ بشوق عثمان وحزنه.. لا بد أنه شعر. ونبي الله ﷺ لا يكتفي بحمل المشاعر لمواساة المحتاجين إلى المواساة.. إنه يشع كالحب في المكان والإنسان.

ها هو يواسي عثمان، وها هو يواسي عمر وعلياً أيضاً.. يجعل منهم نسيجاً وأوشاجاً بارعة الجمال. تعالوا معي إلى البداية.. إلى بيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم، فقد كان لابن الخطاب ابنة سماها (حفصة) زوَّجها من صحابي اسمه: (خنيس بن حذافة السهمي) وكان خنيس أحد المهاجرين إلى الله ورسوله. لم

---

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٦- ٤٨٣: أخبرنا الحسن بن محمد بن عفان، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا حبيب بن أبي عمر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.. سعيد تابعي مجاهد ثقة وحبيب وحفص ثقتان من رجال الشيخين، والحسن الزعفراني ثقة من شيوخ النسائي. انظر التهذيب (٧-٢٣٠، ٢-٣١٨ و٤١٥) وشيخه أوثق منه.

يعــش خنيس مع حفصة طويلاً، فلقــد توفي في المدينة رضي الله عنه، وبعد فترة من الزمــن حدثت هذه القصة، التي يرويها عبد الله بن عمر فيقول (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تأيمت حفصة[1] بنت عمر، من خنيس بن حذافة الســهمي، وكان من أصحاب رســول الله ﷺ، فتوفي بالمدينــة، فقال عمر: أتيت عثمان فعرضت عليه حفصة بنت عمر، فقلت: إن شئت أنكحتك؟ فقال: سأنظر في أمري. فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قــال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شــئت زوجتــك حفصة بنت عمر؟ فصمت أبو بكر، فلم يرجع إلي شيئاً، فكنت عليه أوجد مني على عثمان.

فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: نعم. قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي، إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها)[2].

فرح عمر بمصاهرة رسول الله ﷺ، وفازت حفصة بنبي الأمة عليه السلام، وقبل عمر اعتذار أبي بكر، أما عثمان بن عفان فعذره لا يحتاج إلى بيان، وحزنه يملأ حياته، لكن الله ورســوله أرحم بقلب عثمان من أن تذهب به الهموم أبعد من هذا. لقد زوجه رسول الله ﷺ من ابنته أم كلثوم رضي الله عنها، فعاد النبض والحياة إلى النسب بين عثمان وبيت النبوة الكريم.

ابتهــج عثمان، وابتهجــت أم كلثوم، وابتهجت المدينة بهذا العرس الجميل، فشــع فــي صدر أبي بكر طمع مباح، وطموح كالأماني. رغب أبو بكر بقرب أكثر من رســول اللــه ﷺ، وكانت عيناه وقلبه باتجاه آخر أمل في ذلك.. باتجاه فاطمة بنت محمد ﷺ (ســيدة نســاء العالمين)[3] وآخر ريحانة من رياحينه الأربع ﷺ وأصغر بناته، ولم يكن أبو بكر وحيداً في حلمه.. كان هناك من ينافســه، فمن ســيفوز بفاطمة من بين هؤلاء الأفذاذ.

---

(١) يعني مات زوجها.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٥١٢٢) والبيهقي (١٥٨/٣) واللفظ له.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٩٠٤.

تقــدم أبو بكر إلــى النبي ﷺ خاطباً فاطمة، فلم يرده النبي ﷺ، لكنه اعتذر منه بأسلوب نبوي مدهش، وكذلك فعل عمر، فاعتذر ﷺ بالأسلوب نفسه، فماذا قال ﷺ لصاحبيه وصهريه؟

الإجابة عند أحد الصحابة رضي الله عنه واســمه: (بريدة) حيث يقول: (خطب أبو بكــر وعمر رضي الله عنهما فاطمة، فقال رســول الله ﷺ: إنها صغيــرة)[1] إنه اعتذار مؤدب. لم يكذب ﷺ عندما قال: إنها صغيرة، ففاطمة صغيرة حقاً لكن ليس على الزواج، فعائشــة بنت أبي بكر أصغر منها بســنوات، وهي الآن زوجة لرســول الله ﷺ، والعرب يزوجون في أقل من سنها، فهي قد كانت مخطوبة في سن السادسة لرجل قبل النبي ﷺ، كما أن رسول الله أكبر وأسن من أبي بكر، ومن عمر أيضاً. إذاً فالأمر غير ذلك.

أمر آخر هو أن أبا بكر وعمر هما أفضل الأمة، وهما أفضل من عثمان رضي الله عنهم ومع ذلك اعتذر لهما وزوج عثمان ابنتيه: رقية وأم كلثوم، بل إن ابنته الكبرى زينب لا تزال متزوجة من رجل مشــرك حتى الآن[2]، وهــو أبو العاص بن الربيع. إذاً فالأمر لله من قبل ومن بعد، والزواج من الأمور الدنيوية التي تراعى فيها أشياء أخرى خارج الأفضلية والتقوى والكبر والصغر.

انصــرف أبــو بكر وانصرف عمر رضــي الله عنهما، وقد رضيــا بما رضيه الله ورســوله ﷺ، وتسربت أخبارهما إلى مســامع امرأة يهمها أمر زواج فاطمة، فأقلقها ما ســمعت، فهبت مسرعة إلى سيدها تحرضه، وتحرضه على الزواج من سيدة نساء العالم. فماذا فعل هذا السيد، وماذا قال عندما سمع الخبر؟

ها هو يحدثنا بنفسه عن ذلك فيقول: (خُطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ، فقالت لي مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قالت: فقد

---

(١) سنده صحيح. رواه النسائي (٦٢/٦) حدثنا الحسين بن حريث، حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه: وعبد الله تابعي وثقة معروف وتلميذه الحســين ثقة من رجال مسلم (التقريب ١/ ١٨٠) والفضل ثقة ثبت من رجال البخاري ومسلم (التقريب ٢/ ١١١) وشيخ النسائي ثقة من رجال الشيخين (التقريب ١٧٥/١).

(٢) أقصد وقت خطبة أبي بكر وعمر لفاطمة رضي الله عنها وعنهم.

خطبت. فما يمنعك أن تأتي رسـول الله ﷺ فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك.

فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ)[1].

لكن لماذا كل هذا التردد في خطبة فاطمة، والقلب ميال إليها؟

أسـباب كثيرة جعلـت علي بن أبي طالب يتردد في خطبـة فاطمة، وهي بنت ابن عمه. لعل أحدها كونه معدماً.. لا يملك ما يقدمه مهراً لهذه الوردة الطاهرة، وهي التي تستحق الكثير الكثير. لكن كيف أصبح علي معدماً وهو يملك شارفين من غنائم بدر؟

لقد ذهب كل شيء، واختفت الناقتان.. ذهبتا مع الريح والخمر، وبقي علي وحيداً يملؤه الهم، وتفيض عيناه من الحزن. فقبل أيام رأى شيئاً مكدراً.. رأى ناقتيه قد سال دمهما، وبقرت بطونهما، واقتطعت أسـنمتهما، وهو لم يرتكب خطأ في حق أحد، أما مـا زاد في حزن علي وكدره، فهو أن الذي فعل ذلك به وبمهر فاطمة كان عمه وعمها حمزة بن عبد المطلب!! ذلك الأسد الهصور، والفاتك الجسور. لقد شق بطني الناقتين، وقطع سناميها وانتزع كبديهما، فـ:

هل وقع شجار بين حمزة وعلي

هذا ما سـنعرفه من علي نفسـه حيث يقول: (كانت لي شـارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسـول الله ﷺ أعطاني شارفاً من الخمس يومئذٍ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ وأعدت رجلاً صواغاً من بني «قينقاع» يرتحل معي، فنأتي بإذخر أردت أن أبيعه من الصواغين[2] فأسـتعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي متاعاً من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، وجمعت حين جمعت ما جمعت، فإذا شارفاي قد اجتبت أسنمتهما، وبقـرت خواصرهما، وأخـذت من أكبادهما، فلم أملك عينيَّ حـين رأيت ذلك المنظر

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣-١٦٠): حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن علي. ابن نجيح ثقة التقريب ٣٢٦ وهذا ليس من التفسـير فهو لم يسـمعه من مجاهد أما ما عداه فقد قال ابن أبي حاتم: قلت لأبي: ابن أبي نجيح عن مجاهد أو خصيف؟ قال: ابن أبي نجيح. التهذيب (٦-٥٤).

(٢) الذين يعملون في صياغة الذهب والفضة.

منهمـــا، قلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت في شَرْب[1] من الأنصار، غنته قينةٌ وأصحابه، فقالت في غنائها:

ألا يا حمزة للشرف النواء

فقام حمزة بالسيف، فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما، فأخذ من أكبادهما.

قال علي: فانطلقت حتى أدخل على رســول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة، فعرف رسول الله ﷺ في وجهي الذي لقيت، فقال رسول الله ﷺ: ما لك؟ قلت: يا رسول الله، والله ما رأيت كاليوم قط، عدا حمزة على ناقتي، فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيتٍ معه شَرْب.

فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتداه، ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء الباب الذي فيه حمزة، فاستأذن، فأذنوا له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة محمرةٌ عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ، ثم صعد النظر إلى ركبتيه، ثم صعد النظر فنظر إلى سرته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، فقال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى، وخرج وخرجنا معه)[2].

فلا فائدة من العتاب واللوم إن لم تذهب الخمرة من رأس شـــاربها، فالانســحاب هو أفضل قرار في مثل هذا الظرف.

انسحب رســول الله ﷺ وزيد بن حارثة، وانسحب علي وسحب معه حزناً أفاض عينيــه. إنها الخمر، وهي مـــا زالت حتى اليوم مباحة، ولعلي مع الخمر قصة أخرى لا تقل فداحة عن هذه.

يحدثنــا عنها فيقول: (صنــع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا، وســقانا مــن الخمر، فأخذت الخمر منـــا، وحضرت الصلاة، فقدمونـــي، فقرأت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ ونحن نعبد ما تعبدون.

---

(١) الشرب: هم الجماعة الذين اجتمعوا على شرب الخمر.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٠٠٣ ومسلم ٣-١٥٦٨.

فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[1] فالصلاة حضور كامل، والخمرة غياب كامل، لذلك بدأ الإسلام يفتح القلوب والعيون على قوائم الفواجع التي يحدثها ذلك الغياب، وترتكبها الخمرة باسم النشوة، لكن هذه الآية لم تشر إلى تحريم الخمر، إنما تنهى عن الصلاة في حالة السكر، مما جعل عمر بن الخطاب يبتهل إلى الله قائلاً: (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً)[2].

فأمسى بعض الصحابة من يشربها في الأوقات الطويلة، التي لا صلاة فيها، كالوقت بين العشاء والفجر، أو بين الفجر والظهر، لكن أثر الخمرة لم يقتصر على إفساد الصلاة.. إنها تنتهك العقل.. تغيبه، فينطلق الإنسان متحرراً من كل قيد.. من كل شيء.. تمحي أمامه الفواصل، وتنهار في طريقه الأخلاق والآداب. يذوب الخطأ بالصواب، والجريمة بالفضيلة. الخمرة تنطلق بالإنسان من الإنسان.. تمسخه حيواناً لا يفكر بشيء، ولا يعبأ بشيء.. جسداً.. كتلة من اللحم والدم تدوس كل شيء، حتى ولو كان هذا الشيء أباً، وينتهك كل شيء، حتى وإن كان هذا الشيء أماً.

عمر بن الخطاب يبحث عن بيان شاف، وعلي بن أبي طالب يبحث عن مهرٍ كاف لفاطمة، فهذا المهر قد ضاع.. يبحث عليٌّ فلا يجد سوى ما يسد به رمقه، ويواصل بحثه فلا يجد شيئاً، لكنه يجد مولاةً له تشعر بتجوال فاطمة بين أضلاعه، فتقول له: (هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به! فقالت: إنك إذا جئت رسول الله ﷺ زوجك. قال: فوالله ما زالت ترجيني، حتى دخلت على رسول الله ﷺ، وكان لرسول الله ﷺ جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم، فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك، ألك حاجة؟ فسكت. فقال: ما جاء بك، ألك حاجة؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ فقلت: نعم. فقال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا، والله يا رسول الله. فقال: ما فعلت درع سلحتكها؟

---

(١) حديث صحيح. صححه الألباني (صحيح الترمذي ٣/٣٩).
(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود وصححه الإمام الألباني (٢/٦٩٩).

-فوالذي نفس عليٍّ بيده إنها لحطمية ما ثمنها أربعة دراهم-

فقلت: عندي. فقال ﷺ: قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها به. فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ)[١] وريحانة حبيب الله وزعيم الأمة.

وتغادر الفتاة بيت أبيها، إلى بيت ليس فيه شيء سوى الحب، وأحلام الشباب.. بيت لو تجولت فيه عيناك لفاضت بدموع كما فاضت عينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رأى بيتاً شبيهاً ببيت فاطمة وعلي.

يقول عمر رضي الله عنه: (دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست، فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ[٢] في ناحيةٍ في الغرفة، وإذا إهاب[٣] معلق، فابتدرت عيناي[٤]، فقال ﷺ: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزانتك، قال ﷺ: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى)[٥].

الدنيا عند رسول الله ﷺ (سجن المؤمن وجنة الكافر)[٦] سجن المؤمن عن الجنة.. الدنيا معاناة نحو الجنة، سيشعر بأنها سجن عند دخوله الجنة ورؤيته لأنهارها، وساحاتها وميادينها وقصورها، وشوارعها ومركباتها وسفنها الفارهة، ومدنها وسمائها وأرضها وأجساد أهلها، وعقولهم وقلوبهم، والحب والود والسلام الذي بينهم، والأمن والسعادة والاكتشاف لكل جميل ومثير دون توقف[٧].

---

(١) سند قوي رواه ابن إسحاق بالسند السابق حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد عن علي.
(٢) القرظ: شيء يدبغ به الجلد.
(٣) الإهاب: هو الجلد قبل دبغه، قال ﷺ: «إذا دبغ الإهاب فقد طهر» رواه مسلم.
(٤) سالت الدموع.
(٥) حديث حسن. حسنه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٢-٤٠١).
(٦) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-٢٢٧٣.
(٧) انظر كتاب (الجنة حين أتمنى) لمعرفة عمق هذا الحديث.

والدنيـا جنة عند الكافر إذا حشـر إلى النار يوم القيامـة يتمنى الرجوع إليها.. الدنيا سـجن المؤمن وإلا لما (كان فراش رسـول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً[1] حشوه ليف)[2].

الدنيا سـجن المؤمن وإلا لما عاشت فاطمة في ذلك البيت المتواضع، ومهرها درع بأربعـة دراهم، وبنات كسـرى وقيصر بين الوصيفات والخادمـات في مروج وقصور مبحرة عبر الأنغام والأوتار.

أما أثاث بيت فاطمة، فكان يثير الشفقة.. قدمه ﷺ هدية إلى حبيبه. لقد (جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة أدم حشوها إذخر)[3] أثاثها رضي الله عنها: كسـاء من الصوف، وقربة للماء، ووسـادة من الجلد محشوة بحشيشة الإذخر. فقر تصعب معه الحياة، إلا إذا كان الحب والإيمان عميقاً وفسـيحاً، كما هو في قلبي فاطمة وعلي رضي الله عنهما.

فرح علي بفاطمة، وفرحت المدينة بعلي وفاطمة، وفي مثل هذا الفرح الغامر يقول ﷺ: (أعلنـوا النكاح)[4] فإعلان الزواج ابتهاج بالجميل، وابتهاج بالاجتماع والمصاهرة والحلال، ولذلك يقول ﷺ لأمته: (فصل ما بين الحلال والحرام الدف، والصوت في النكاح)[5].

ها هو ﷺ يسـتمع إلى الدف والصوت، أي الغناء في مناسبة كهذه، فيعلن الحب لهؤلاء الذين يضربون الدف، ويحلف بالله على حبه لهؤلاء الذين يغنون.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوار يضربن بالدفوف يقلن:

---

(١) جلد.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٦٥٠.

(٣) سنده قوي. رواه ابن ماجة ٤١٥٢ بسند فيه عطاء بن السائب رحمه الله وقد اختلط، والراوي عنه محمد بن فضيل، قال أبو حاتم، وما روى عنه ابن فضيل ففيه غلط واضطراب، التهذيب ٧-٢٠٥ وقد توبع عند البيهقـي (٣-١٦١) تابعـة زائدة وقد قال الطبراني رحمه الله: مـا رواه عنه المتقدمون فهو صحيح مثل: سفيان وشعبة وزهير وزائدة (التهذيب ٧-٢٠٧).

(٤) حديث حسن. (صحيح الجامع ١-٢٤٣).

(٥) حديث حسنه الإمام الألباني. (صحيح سنن النسائي ٢-٧٠٩).

نحـن جَـوار مـن بنـي النجـار | يـا حبـذا محمـد مـن جـار
فقال رسول الله ﷺ: يعلم الله أن قلبي يحبكم)[1].

وذات يوم (أبصر النبي ﷺ نسـاءً وصبياناً مقبلين مـن عرس فقام ممتناً فقال: اللهم أنتم من أحب الناس إلي)[2].

ويحرض عليه السـلام أمته على الانشـراح في مناسباتها الاحتفالية.. في قصة شاركت عائشة في زفتها، وحفظتها لنا فقالت: (أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ: يا عائشة ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو)[3].

وها هو عامر بن سعد بن أبي وقاص وهو ليس بصحابي يستنكر جلوس اثنين من الصحابة من أبطال بدر عند الدف والغناء وهما من أهل بدر فماذا قالا له؟

يقـول عامر رحمه الله: (دخلت على قريظة بن كعب وأبي مسـعود الأنصاري في عرس، وإذا جوار يغنين، فقلت: أنتما صاحبا رسول الله ﷺ، ومن أهل بدر، يفعل هذا عندكم؟ فقال: اجلس إن شئت، فاسمع معنا، وإن شئت اذهب، قد رخص لنا في اللهو عند العرس)[4].

غمرت المدينة فرحة، وغمرت بيـت النبوة التهاني من المهاجرين والأنصار، وقدم المحبون للمشـاركة في أفراح الزهراء، وتسلسل بين القادمين رجال يبتسمون في وجه النبـي ﷺ ووجوه أصحابه، بينما كانت قلوبهم مكشـرة جامحـة مولية.. تكاد تميز.. تتقطع حقداً وغيظاً كلما تهادى سرور إلى قلبه، أو بيته ﷺ.

كانت قلوب هؤلاء تتلمـظ كالحيات. أحد هؤلاء المزعجين المخيفين.. رجل يدعى (عبد الله بن أبي بن سلول).

---

(١) سنده قوي رواه البيهقي ٢-٥٠٨ والطبراني في الصغير ١- ٦٥ من طرق عن أبي خيثمة مصعب بن سعيد المصيصي، حدثنا سعيد بن يونس ، عن عوف الأعرابي، عن ثمامة بن عبد الله بن أنس ، عن أنس. وليس له علة سوى تدليس أبي خيثمة، وهو هنا لم يدلس بل صرح بالسماع من شيخه والبقية ثقات. وابن ماجة (الصحيح للألباني ١/٣٢٠).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٥١٨٠).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٦٧).

(٤) حديث حسن. (سنن النسائي ٢/٧١٢).

تحت عباءة هذا الرجل يختبئ عشرات المشركين، الذين يرون المدينة سجناً لا يطاق بمحمد وصحبه.. يرون المدينة غريبة دون أصنام.. دون شـرك.. دون سـحر وشعوذة، وبعد تفكير فرضه عليهم انتصار بدر قرر عبد الله بن أبي بن سـلول أن يحمل أقدامه إلى حيث محمد، ليبايعه، وخلفه تثاقل عشـرات الحاقدين، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، ومدوا أيديهم المسمومة إلى يده الطاهرة.. مصافحين معلنين الولاء، فقد أدرك ابـن أبي ومن معه أنـه لا مكان لهم في قلوب الناس، ولا بين حـرات المدينة، وهم على شـركهم. أدركوا ذلك بالتحديد، بعد انتصار المسلمين في بدر، فقد كبر محمد وصحبه في نظرهم وتعاظم في قلوبهم، وهو يطيح برؤوس زعماء أشهر قبيلة عربية، لذلك كونوا صفاً من الخفافيش.. تشرك في الظلام، وتتظاهر بالإيمان تحت الشمس.. كونوا صفاً خطيراً عرف فيما بعد باسم المنافقين:

مولد النفاق

يقول الطفل أسـامة بن زيد: (لما غزا رسـول الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه. فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا)(١) بألسنتهم وخوفاً ممن حولهم من المؤمنين الذين شـكلوا أغلبية سـاحقة على المشركين، وإلا فهو ما زال على كفره.. هو ومـن معه. يتمنون القضاء على هذا النبي ومن معـه، وينتظرون يوماً تثأر فيه قريش لصرعاهـا في بدر، أو تنفجر يهـود، أو تثور هذه الجبال المحيطة بالمدينة، فتدك هذا الإسـلام وأهله. ومرت الأيام والمنافقون ينتظرون شـيئاً من هذا أو ذاك، وفي يوم من الأيـام لاح أمـل للمنافقين، وفركوا أيديهم فرحاً بخبر قـادم من مكة.. فرح المنافقون بخطر قادم من قريش، لعله يجسد أحلامهم.

سننتقل إلى مكة لنعرف ذلك الخبر. ها هو أبو سفيان بن حرب، وقد حصل على زعامة مكة بعد أبي جهل وأمية. ها هو وبعد مشاورات، وندوات واجتماعات يقرر الثأر لطواغيت قريش، ولأصنام قريش. إنه يحشـد الرجال والجمـال والأموال والنفوس، وبعد أن توافر لـه جيش ضخم يفوق جيش الشرك في بدر.. عزم على التحرك به نحو المدينة، للإجهاز على دولة الإسلام هناك، فتحركت قلوب المنافقين واليهود فرحاً.

أما في المدينة، فالوحي يهمي على العالم مزيداً من النظافة:

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم.

يأمر ببيعها بعد تلك الأحداث التي تسببت فيها الخمرة، وبعد ذلك النكد الذي أحدثته. قام ﷺ على منبره يخاطب أصحابه، وهو يتوجس أمراً سيحدث في المستقبل. فسمعه أحد شباب الأنصار هو (أبو سعيد الخدريّ) وقال: (سمعت رسول الله ﷺ يخطب بالمدينة، قال: يا أيها الناس، إن الله تعالى يعرض بالخمر، ولعل الله سينزل فيها أمراً، فمن كان عنده منها شيء فليبعه، ولينتفع به)[1].

كان للخمر تأثير على مهر فاطمة، وكان للخمر تأثير أشد على بيت الطفل (أنس بن مالك)، فلقد فرق بين أمه وأبيه، بل لقد فرق بين أبيه والمدينة، فبعد نزول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[2]، وبعد خطبة النبي ﷺ تلك.. أحس (مالك بن النضر) والد أنس بضيق الإسلام ورسوله ﷺ من الخمر، وهو مدمن خمر لا يصبر عنها، ورغم أن الخمر لم تحرم حتى الآن، إلا أن مالكاً لا يشعر بالتفاؤل تجاه هذا الموضوع، ولذلك استدعى زوجته الرائعة «أم سليم بنت ملحان» وهي أم أنس، وصارحها بما في نفسه، وأنه يرفض تحريم الخمر إن حرم، وأن حبّه للمسكر أكثر من حبه لزوجته، بل وابنه الوحيد الصغير أنس، لكن الله لم يترك أم سليم ولا ابنها. فالله أرحم بالمؤمنين من أنفسهم.

فُجعت أم سليم بزوجها، ثم بابنها، في قصة من قصص عظماء النساء اللواتي تفاخر بهن أممهن.. قصة أم سليم مع الخمر ومع زوجها وابنها.. يقصّها ابنها أنس فيقول أن والده مالك قال لوالدته أم سليم: (إن هذا الرجل، يعني النبي ﷺ يحرم الخمر.

فانطلق حتى أتى الشام، فهلك هناك)[3] وبقيت أم سليم وابنها في المدينة صابرين مؤمنين، حتى علم رجل مشرك من أهل المدينة بما حدث، فمال قلبه إلى أم سليم، ورغب في الزواج منها، وكان هذا الرجل يدعى «أبو طلحة»، فهل لديه قدرة على تقديم أغلى مهر تطلبه امرأة؟

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٥٧٨) تحريم بيع الخمر.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود الطيالسي (٢-١٥٩): من طرق قوية عن ثابت، عن أنس، وثابت البناني تابعي ثقة سمع أنس وللحديث بقية تأتي فيما بعده. وبعضه عند الشيخين.

أبو طلحة ومهر أم سليم الغالي

يقـول أنس رضي اللـه عنه: (جاء أبو طلحة فخطب أم سـليم، فكلمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة.. ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسـلمة لا يصلح لي أن أتزوجك. فقال: ما ذاك مهرك! قالت: وما مهري؟ قال: الصفراء والبيضاء.

قالت: فإني لا أريد صفراء، ولا بيضاء.. أريد منك الإسلام، [أتزوجك وأنت تعبد خشبة نجرها عبدي فلان؟] «فإن تسلم فذاك مهري، ولا أسألك غيره». قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ.

فانطلق أبو طلحة يريد النبي ﷺ -ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه- فلمّا رآه قال: جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه.

فأخبر رسـول الله ﷺ بما قالت أم سـليم، فتزوجها على ذلـك[1]، وكانت امرأة مليحـة العينـين، فيها صغر، فكانت معه حتى ولد لـه بنـي، وكان يحبه أبو طلحة حباً شـديداً، ومرض الصبي «مرضاً شـديداً» وتواضع أبو طلحـة لمرضه أو تضعضع له، «فـكان أبو طلحة يقوم صلاة الغداة يتوضأ، ويأتي النبي ﷺ فيصلي معه، ويكون معه إلـى قريب من نصف النهار، ويجيء ويقيل ويـأكل، فإذا صلى الظهر تهيّأ وذهب، فلم يجئ إلى صلاة العتمة».

فانطلق أبو طلحة عشـية إلى النبي ﷺ، ومات الصبي، فقالت أم سليم: لا ينعينّ إلى أبي طلحة أحد ابنه حتى أكون أنا الذي أنعاه لـه. فهيأت الصبي «فسـجت عليه»، ووضعته «في جانب البيت»، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ حتى دخل عليها، «ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه»[2]. فقال: كيف ابني؟ فقالت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة، «وأرجو أن يكون قد استراح».

فأتته بعشـائه «فقربته إليهم فتعشـوا، وخرج القوم»، «فقام إلى فراشـه فوضع رأسـه»، ثم قامت فتطيبت «وتصنعت لـه أحسـن ما كانت تصنع قبل ذلك»، «ثم جاءت

---

(١) بعد هذه الكلمة قال ثابت البناني - مرت ترجمته في الحديث السـابق - : (فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت الإسلام مهراً، فتزوجها) وقد فصلت هذه العبارة لأنها من كلامه لا من كلام أنس.

(٢) هم أهل الصفة وهم أهل المسجد.. جاء بهم ليطعمهم.

حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب كان منه ما يكون من الرجل مع أهله»، «فلما كان آخر الليل» قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا قوماً عارية لهم، فسألوهم إياها، أكان لهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا. قالت: فإن الله عزّ وجلّ كان أعارك ابنك عارية، ثم قبضه إليه، فاحتسب واصبر.

فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا وقعت بما وقعت به نعيت إليَّ ابني، «فاسترجع وحمد الله»، «فلما أصبح اغتسل»، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ «فصلى معه» فأخبره.

فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما»، فثقلت من ذلك الحمل، وكانت أم سليم تسافر مع النبي ﷺ، تخرج إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل، وقال رسول الله ﷺ: إذا ولدت فأتوني بالصبي، فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه)[1].

أم سليم الآن بصحبة رسول الله ﷺ، ومعها زوجها، ومعهم رجال كثيرون ونساء أيضاً، ولكن إلى أين..؟

المكان الذي يقصدونه ليس ببعيد، لكنه خطير جداً، وسبب السفر أخطر، وله قصة مثيرة. فهل لديكم وقت للسفر مع رسول الله ﷺ وأم سليم وأبي طلحة وأصحابهم رضي الله عنهم؟

هيا بنا، ولكن قبل ذلك أستأذنكم للّحاق بهذا الرجل المهموم بالإيمان والكفر، وأشياء ثقيلة تملأ رأسه وقلبه.. إنه

جبير بن مطعم والهموم

عاد جبير بن مطعم منكسراً إلى مكة.. يحمل الحسرة والهزيمة.. تاركاً طواغيت قريش في تلك البئر المنتنة، وتاركاً عمه «طعيمة» مجندلاً على أرض بدر تحرقه السوافع، بعد أن أحرقه حمزة بسيفه الملتهب، ثم عاد جبير إلى المدينة مرة أخرى يطلب إطلاق الأسرى دون مقابل، لكن النبي ﷺ أجابه تلك الإجابة العظيمة التي

---

(١) هو حديث أبي داود الطيالسي السابق وما بين المعقوفين عند البزار بسند صحيح (زوائد - ٣/٢٤٦)، والزيادة الأولى للنسائي والزيادة الرابعة لابن سعد (٨/٤٣٢) والسادسة والثامنة والثالثة عشر للبخاري ولتفصيل أكثر انظر كتاب الجنائز للشيخ الألباني حفظه الله (٢٤).

يعتـرف بها ﷺ بمعروف والـده (المطعم ابن عدي)، فقال له: (لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[1]

فانكسر جبير بن المطعم بن عدي مرة أخرى، ومضى إلى مكة كالحيرة بين الاحترام لوالـده، والاحتـراق لعمه.. عاد يحمل إيمانـاً يرزح تحت أطنان من العـادات والتقاليد والأصنام، وكان أشدّ هذه الموروثات على نفسه شيطان كالجحيم.. شيطان اسمه: الثأر.

حوصر جبير بن مطعم بعد وصوله إلى مكة بالنواح على عمه.. بشقِّ الجيوب، ولطم الخـدود.. حوصـر بالاسـتفزاز الجاهلي، حتى غلى الثأر في رأسه وعروقه بعدما جمع أبو سـفيان الكفر وأهله متجهاً بهم نحـو المدينة، فأحسّ جبير بوخز الثأر، فنادى عبداً مملوكاً له اسمه «وحشي»، وكان أمهر الناس برمي الحربة، فهو نادراً ما يخطئ هدفه.

نادى جبير «وحشـياً» ليفتح له باباً للعتق من الذل.. ناداه ليخلصه من هذا الرق، والحصار الكريه.. ناداه وأغراه بأحلام كل العبيد.. أغراه بـ:

حمزة باباً للحرية

يقول وحشـي: (كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أُحُد قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق.

فخرجـت مع الناس، وكنت رجلاً «حبشـياً» أقذف بالحربة قذف الحبشـة، قلَّما أخطئ بها شيئاً)[2].

خرج وحشـي لا يبحث عن شـيء سوى الحرية.. لا يبحث سوى عن حمزة، فليس لديـه ثأر مع أحد.. كان يبحث عن ثأر من قيود العبودية والرقّ الذليل التي طوّقته بها قريش. كان وحشي مشركاً.. لا يفرّق بين الوسائل نحو الحرية، ولا يهمّه سواها، حتى ولو خاض في دماء طاهرة كدماء حمزة.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٣).

(٢) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ابن هشـام٤-١٧: حدثني عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة. عن سـليمان بن يسـار، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن وحشي. عبد الله تابعي ثقة التقريب ٣١٧ وشيخه وشيخ شيخه تابعيان ثقتان التقريب ٢٥٥ و١٤٠.

كان جيش الثأر المشـــرك يسير في اتجاه، وكان وحشي معهم لكنه يسير في اتجاه آخــر.. اتجاه من الأحلام، والوعود المخضبة بالدماء، حتى وصلوا إلى مكان قريب من جبل أُحد حول المدينة، التي أفاقت على هول الخبر ومفاجأته، وأفاق رســول الله ﷺ من نومه ورؤياه.

رؤيا النبي ﷺ

كان نائمــاً، والنبي ﷺ يقول: (تنام عيناي ولا ينـــام قلبي)[١]، وفي نومه ذلك رأى رؤيــا قال عنها: (إني رأيت أني في درع حصينة. فأوّلتها: المدينة، وأني مردف كبشــاً. فأوّلتــه كبش الكتيبة، ورأيت أن ســيفي ذا الفقار فُلَّ. فأوّلتــه: فلا فيكم، ورأيت بقراً تذبح. فبقرٌ والله خير، فبقرٌ والله خير)[٢].

نهض ﷺ من نومه، وهبّ لجمع أصحابه.. لا ليقرّر، ولا ليأمر بل:

دعاهم ليستشيرهم

وبعدما اجتمعوا شاورهم جميعاً دون استثناء، وكان رأيه ﷺ ورأي بعض الصحابة أن يقاتلــوا داخل المدينة، وقص عليهم ﷺ رؤياه، لكن أناســاً منهم لم يحضروا غزوة بدر.. غمرهم الحماس وأصرّوا على الخروج، لتأديب أولئك الوثنيّين، لعل أحدهم عمّ أنس بن مالك واسمه (أنس بن النضر).

يتحدث أنس عن عمّه أنس رضي الله عنهما فيقول: (عمي الذي ســميت به[٣] لم يشــهد مع رســول الله ﷺ بدرا، فشق عليه. قال: أول مشــهد شهده[٤] رسول الله ﷺ

---

(١) ســنده صحيح رواه عبد الرزاق ٢ - ٤٠٥ عن مالك عن ســعيد بن أبي ســعيد عن أبي سلمة عن عائشة. ورجاله أئمة ثقات وله طرق أخرى عن غير عائشة.

(٢) سنده قوي رواه أحمد ١-٢٧١ وغيره عن ابن وهب أخبرنا ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس. ابن أبي الزناد صدوق ووالده ثقة التقريب ٤٣٣ و٣٠٢ وعبيد الله تابعي ثقة ثبت - التقريب ٣٧٢.

(٣) أي سماني أبي أنساً على اسم عمي أنس.

(٤) يقصد رضي الله عنه غزوة بدر.

غيبت عنه، وإن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع)[1] قال أنس إن عمه (هاب أن يقول غيرها)[2].

إن رجالاً بهذه المعنويات لا يمكن أن يقنعوا بقتال الشوارع والمدن.. إنهم يريدون ساحات ومساحات يعانقون فيها الخلود، وينتشون فيها ببريق الشهادة والسيوف. لكن الحماس لا يعني الانتصار، والمعنويات لا تكفي، فخارج هذه المدينة يربض عدو استعدّ وأعدّ وكثّر.. عدو حمل كل ما يمكن حمله للانتقام والثأر، فالبقاء في المدينة أحكم، وأسلم عسكرياً في ظلّ عدم الاستعداد والمفاجأة التي لم تكن في الحسبان، لدرجة أن رسول الله ﷺ كان يحدّث أصحابه وهو في ثيابه العادية حتى الآن، قال رسول الله ﷺ قوله، وأبدى رأيه، وترك الاختيار لأصحابه رضي الله عنهم. (فقال له ناسٌ لم يكونوا شهدوا بدراً: يخرج بنا رسول الله ﷺ إليهم نقاتلهم - ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته[3]، ثم ندموا وقالوا: يا رسول الله، أقم فالرأي رأيك. فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه)[4].

وقبل أن ينطلق ﷺ إلى أرض المعركة أحب أن يستعرض جيشه، الذي تداعى من كل مكان في المدينة متلهفاً، فأجاز من يستطيع القتال، وردّ صغار السن.

هذا أحدهم: طفل اسمه (البراء بن عازب) رضي الله عنه يقول: (عرضت أنا وابن عمر يوم بدر فاستصغرنا وشهدنا أُحداً)[5].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥١٢.

(٢) هو جزء السابق.

(٣) أي أداة الحرب.

(٤) سنده قوي رواه الحاكم ٢ - ١٤١ وغيره بسند أحمد السابق عن ابن وهب عن ابن أبي الزناد عن أبيه وقد مر تخريجه.

(٥) سنده حسن، رواه الطبراني ٢-٨ حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثني عمي أبو بكر، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن مطرف، عن أبي إسحاق عن البراء. شيخ الطبراني ثقة من أوعية العلم قال عنه الإمام الألباني: فيه كلام، لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن (الصحيحة - (٤-١٥٦)) وشيخه إمام معروف، وابن إدريس ثقة فقيه، التقريب ٢٩٥ ومطرف بن طريف ثقة فاضل، التقريب ٥٣٤ وأبو إسحاق تابعي ثقة علم مر معنا كثيراً ٤٢٣.

لكن ابن عمر أرجع أيضاً لأنه لم يتجاوز الخامسة عشر.. إنه يقول: (إن النبي ﷺ عرضه يوم أُحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه)[1] للخروج مع الجيش.

عاد ابن عمر مكسور الخاطر بعد أن ودّع والده الحبيب، لكنه لم يكن أكثر انكساراً ولا حماساً من ذلك الشيخ الكبير، الذي يحاصره أبناؤه الأربعة، وتحاصره الإعاقة.. إنه: (عمرو بن الجموح.. شيخ أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنون «مثل الأُسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد»، يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى أُحد «أرادوا حبسه»، قال له بنوه: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد؟

فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال له: إن بني هؤلاء «يريدون أن يحبسوني» يمنعوني أن أخرج معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد معك، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة.

فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد. وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه، لعلّ الله عزّ وجلّ يرزقه الشهادة)[2].

كان رضي الله عنه يحلم بشوارع الجنّة تلامسها تلك العرجة وتتدلّى من شرفاتها وتخوض في مياهها العذبة.. لذلك توجّه بسؤال ينبض بالشوق إلى رسول الله ﷺ.. لقد (أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ -وكانت رجله عرجاء- فقال رسول الله ﷺ: نعم)[3].

إجابة ملأت صدر عمرو بن الجموح بالنهار.. إجابة ألجمت الأسود الأربعة، فخرجوا كالأشبال حول هذا الشيخ الجسور.. خرجوا دون أن يودعوا أمّهم فاطمة،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

(٢) رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٢٤٦ والزوائد عند ابن كثير: حدثني والدي عن أشياخ من بني سلمة: ووالد ابن إسحاق تابعي ثقة يروي عن الصحابة ولعل هؤلاء منهم - وهو الأرجح - لأنه يروي بهذه الصيغة عن الصحابة، وهؤلاء جمع ومن بني سلمة - وهم قوم جابر وعمرو بن الجموح، وإلا فالسند مرسل.

(٣) سنده حسن رواه أحمد ٥-٢٩٩ وغيره حدثنا أبو صخر ابن زياد حدثه يحيى بن النضر عن أبي قتادة. أبو صخر حسن الحديث التهذيب ٣-٤١ وشيخه تابعي ثقة التقريب ٥٧٩.

لأنها تسـير مع رفيق دربها وحبيبها.. أخرجها الشـوق إلى الجنّة مثلما أخرجه، وكان لفاطمة العظيمة هذه أخ اسـمه: (عبد الله بن عمرو بـن حرام الأنصاري) وعبد الله هذا صديـق حميم لزوجها عمرو بن الجموح، لكن أحوال عبد الله بن عمرو بن حرام مختلفة عن أحوال صديقه ونسـيبه، فقد كان لعمـرو بن الجموح أربعة أبناء يحاولون إبقاءه في بيته. أما عبد الله فله ولد وحيد اسمه (جابر) وهو يمنعه الآن من الخروج.. إنـه يأمره بالبقاء في المدينة، فظروف بيت عبد الله تسـتدعي أن يبقى أحد الاثنين، ولابد للابن من أن يطيع والده.

لكن لماذا لا يخرج الاثنان إلى المعركة، كما خرج عمرو وأبناؤه وأمّهم جميعاً..؟

دعونـا نتوجّـه إلى بيت جابر بن عبد الله.. إنه ليـس ببعيد. ها هو البيت.. بيت جميل بالإيمان والأحلام والفتيات.. بيت يغرق بالمشـاعر والدموع والرجاء.. في عالم يحار بين:

البنات والمعركة

ومناشـدة وحديـث حزين يدور بين جابـر بن عبد الله ووالـده، الذي يصرّ على الخـروج، فيخاطـب رجولة ابنه وبرّه وإيمانه فيقول: (يا جابـر، لا عليك أن تكون في نظـاري المدينة، حتى تعلم إِلاَمَ يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي، لأحببت أن تقتل بين يدي)[1] أجل تقتل بين يدي!!

جابر ووالده لهف على الموت في سـبيل الله، لكن الدموع التي تفيض من العيون البريئة، وتلك النظرات الخائفة التي تعصف بقلب هذا الشيخ الكبير.. تتعلّق به، وتريد الاحتفاظ به.. تتغلغل في قلبه كالجروح.. تسـع فتيات حزينات.. يتساءلن: هل سيعود والدنا من المعركة، أم أنه الوداع الأخير لهذا الشيخ الحبيب.

عناق ونظرات ودموع تحاصر هذا الشيخ، فيتفطر قلبه ويحسّ بدبيب الموت يسري في عروقه، ويشعر بخطوات اليتم المخيفة تتجه نحو حبيباته الصغيرات، اللواتي طالما انتظرنه فـي البيت وعلى عتبة الباب، فإذا ما رأينه مقبلاً تراكضن نحوه كالزهرات..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

أيهنّ تحظى بقبلة قبل أخواتها.. يتزاحمن على ما يحمله بيديه.. كلهنّ يردن التخفيف عنه، ورؤية ما أحضر لهنّ.. كلهنّ يردن خدمته.. طالما أعددن شرابه وطعامه، وغسلن ثيابه، وغطّينه وهو نائم، ولطالما مرّضنه من حمى المدينة القاسية.

تسع زهرات.. كم حملهن على ظهره، ولاعبهن وضاحكهن، وقصّ عليهن.. كم ألححن عليه ليشتري لهن الملابس والحلي، فيستجيب مهزوماً بالحب..

ذكريات وهموم تثقل الشيخ العطوف وتملأ قلبه، فتخرج الكلمات منه بصوت متهدّج بالحزن، ويقول لابنه جابر: (ما أراني إلاّ مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليّ ديناً فاقضِ، واستوصِ بأخواتك خيراً)[1]. لكن الكلمات لا تطفئ هذه النار المستعرّة بين أضلاع هذا الشيخ.. لا تكفي لمقاومة ألم الفراق واليتم القادم، فيتّجه به الحزن إلى شيء لا يزال حلالاً حتى الآن.. يتجه به الحزن إلى شيء قد ينسيه بعض الحزن.. قد ينسيه ذلك الشوق المنبعث من تلك العيون البريئة التي لا تُنسى.

والد جابر يشرب خمراً قبل المعركة

يتجه رضي الله عنه إلى الخمر، فيحتسي شيئاً منها علّها تخرجه مما هو فيه.. علّها تسليه حتى تحين ساعة العراك، حيث تذوب الخمر ويشتدّ الأمر، ويذهل عبد الله عن كل شيء سوى الشهادة.

يقول جابر رضي الله عنه: (اصطبح -والله- أبي يوم أحد الخمر ثم غدا فقاتل)[2]، ولم يكن والد جابر هو الوحيد الذي شرب خمراً ذلك الصباح، فلقد (صبح أناس غداة أحد الخمر)[3]، فهل كانت أحزانهم كأحزان عبد الله، الذي يغادر بيته وبناته، ويترك لابنه جابر من الهموم والمسؤوليات الشيء الكثير. لكن جابراً أهلٌ لتحمّلها، لأن الإسلام جعل من جابر بن عبد الله إحساساً مرهفاً.. غيمة تهمي حناناً وربيعاً على أخواته المسكينات.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٥١).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٢٠٢: حدثني وهب بن كيسان عن جابر، ووهب تابعي ثقة سمع من جابر انظر: التهذيب ١١-١٦٦.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٨).

يقول جابر رضي الله عنه: إن والده (ترك عليه ديناً)[1] و(ترك تسـع بنات كن لي تسـع أخوات)[2] مسـؤولية جسـيمة لا تتقضي لولا قول النبي ﷺ: (من عالَ جاريتين حتى تبلغا جاء أنا وهو يوم القيامة، وضم أصابعه)[3]. هذا إذا عال المرء فتاتين، فكيف إذا كان تحت رعايته تسع بنات..؟!

كم يحب الإسـلام البنات ويعتني بهن، ويطالب بحبهنّ والعناية بهنّ. هنيئاً لجابر، وهنيئاً له موقعه بين نظاري المدينة الذين يحرسـون ثغورها، ويسـهرون حمايةً لها.. بشّـرهم ﷺ، وبشّر غيرهم عندما قال: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[4].

بقـي جابر على ثغور المدينـة، وغادر والده عبد الله بصحبة أخته فاطمة وزوجها ورفيقه عمرو بن الجموح وأبنائه.. غادروا المدينة صاخبة.. مزدحمة بالعناق والدموع. ها هو حذيفة بن اليمان ووالده «حسيل»، اللذان أرغمهما المشركون على أن يقسما ألا يشـاركا رسـول الله ﷺ في غزوة بدر.. ها هما اليوم على أُهبة الاستعداد والإعداد للفتك بالشـرك، لكن الأمر جاء على غير مـا يحبّان. إن حذيفة يودع والده الآن، لكن الذي سـيبقى هذه المرة هو الوالد، والذي سـيغادر هو حذيفة. فلقد أمر ﷺ حسيلاً بالبقاء لحراسة المدينة، كما أمر شيخاً آخر بالبقاء مع حسيل، واسم هذا الشيخ الآخر «ثابت بن وقش»، فبقيا كارهين أن تفوتهما الشهادة.

انظروا إلى هذا المنزل العظيم، ففيه تستعرّ نار الفراق والوجد.. إنه منزل الكريم.. الكريم سـعد بن الربيع، الذي عرض نصف ماله وإحدى زوجاته على عبد الرحمن بن عـوف.. تناثـرت الدموع.. دموع ابنتيه الوحيدتين، ودمـوع زوجته التي بقيت معه. إن حاله كحال والد جابر. لقد خرج سعد، وخرجنا بعده إلى ناحية أخرى.. ناحية انزوى فيها صحابيان عن الناس.. ماذا يفعلان؟ إنهما يدعوان.. يبوحان، فيبحر الدعاء بهما. دعونا نبحر معهما إلى جزيرة هذا، وجزيرة ذاك، ولكن قبل ذلك نودّ التعرف إليهما.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٣).

(٣) صحيح مسلم ٤-٢٠٢٧.

(٤) حديث حسن رواه الترمذي وغيره ٤-١٧٥ وفيه عطاء الخرساني مدلس، وله طريق آخر رجاله ثقات عند عبد بن حميد ٤٢٢ وغيره عن صالح بن كيسان قال قال أبو عبد الرحمن سمعت أبا هريرة مرفوعاً.

أمّا الأول، فأوّل من رمى بسهم في سبيل الله، وهو سعد بن أبي وقاص، أمهر من رمى السهام. وأمّا الآخر، فأوّل من قاد سرية لرسول الله ﷺ ولدولة الإسلام الجديدة. إنه عبد الله بن جحش رضي الله عنهما. ها هو سعد يحدّثنا عما جرى في تلك الناحية، فيقول: (إن عبد الله بن جحش، قال له يوم أُحد: ألا تأتي ندعوا الله؟

فخلوا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا ربّ إذا لقيت العدو، فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه.

فأمَّن عبد الله بن جحش ثم قال: اللّهمّ ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبد الله فِيمَ جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت)[1].

يا لهذه الجزر الحالمة الساحرة.. يا لهذه الأنفس ما أعظمها.. ترى هل سيجيب الله هذه الابتهالات؟ ستبوح بالإجابة أرض المعركة، وجبل عينين وجبل أُحد سيشهدان على ذلك.

لم كل هذه الحرقة على الموت؟ لم كل هذا الاحتفاء والعشق الذي يحرق الأكباد؟

إنها الجنّة، وهؤلاء الرجال يحتقرون أعمارهم وأعمالهم وفداءهم إذا ما قارنوها بثوابها عند الله.. إنهم مسافرون إلى الخلود، فلو ضرب المؤمن سنين عمره في عدد حبات الرمال المنثورة على وجه الأرض، لما حصل على عدد يقارب سنين عمره في الجنّة، فكيف يلام شيوخ كعمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وحسيل.. كيف يلام هؤلاء الشيب، إذا ما نافسوا الشباب على ظهور الخيل والموت، وهم يسمعون رسول الله ﷺ يقول: (يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جرداً، مرداً، كأنّهم مكحلون، أبناء ثلاثٍ وثلاثين)[2] (لا يسقمون ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون)[3].

---

(١) سنده قوي: رواه الحاكم (٨٦/٢) وأبو نعيم في الحلية (١٠٨/١) من طرق عن ابن وهب حدثني أبو صخر عن يزيد بن قسيط الليثي عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه. أبو صخر هو حميد بن زياد حسن الحديث التهذيب ٣-٤١ وشيخه تابعي ثقة التقريب ٦٠٢ وإسحاق بن سعد وثقة العجلي لفظيا ٦٠ وابن حبان وللحديث شاهد عند ابن سعد ٣-٩٠ و٩١ ضعيف مرسلاً عن ابن المسيب، وابن حنطب.

(٢) حديث صحيح انظر: صحيح الجامع (٣٤١/٢).

(٣) حديث صحيح متفق عليه - المشكاة (١٥٦٤/٣).

قـــال بعض الصحابة للنبي ﷺ: (فما بال الطعام؟ قال: جشـــاء ورشـــح كرشـــح المســـك)[1]، (ينـــادي منادي: إن لكم أن تصحوا فلا تســـقموا أبـــداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشـــبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأســـوا أبداً)[2].

إذا فهو الشـــباب الدائـــم، والصحة الخالدة، والأمن الـــذي لا يعرف الخوف.. لا أمراض في الجنة ولا أوبئة ولا مستشـــفيات، ولا لصوص ولا قطاع طرق ولا طغاة ولا قمع ولا سجون ولا معتقلات، ولا فقر ولا عوز ولا تسول، ولا شيء سوى الثراء والجمال والفتنة والحب والبذخ والنعيم والاكتشاف والسفر عبر الجديد والمثير والسعادة الغامرة التـــي لا تعـــرف التوقف أو الملل أو الكآابة. فـ (إذا دخـــل أهل الجنة الجنّة، وأهل النارِ النـــارَ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنّة والنار، فيقال: يا أهل الجنّة هل تعرفون هذا؟

فيشرئبون، فينظرون، ويقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه.

ثـــم ينادي: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشـــرئبون، فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلّهم قد رآه.

فيؤمـــر به فيذبح، ويقـــال: يا أهل الجنّة خلود ولا موت، ويـــا أهل النار خلود ولا موت)[3].

وقـــد خطف ﷺ أرواحهم وعقولهم وقلوبهم عندما تحدّث عن الجهاد في ســـبيل اللـــه، فقال: (غدوة في ســـبيل الله أو روحـــة خير من الدنيا وما فيهـــا، ولو أن امرأة من نســـاء أهل الجنّة اطلعت إلى الأرض لأضاءت مـــا بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها على رأســـها خير من الدنيا وما فيها)[4] المؤمنة في الجنة أبهى وأكثر سحراً وفتنة من الحورية.. لا حمل ولا ولادة ولا أمراض للنساء ولا حيض ولا نفاس ولا ترهل ولا شيخوخة..

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - المشكاة (١٥٦٤/٣).
(٢) حديث صحيح رواه مسلم - المشكاة (١٥٦٤/٣).
(٣) حديث صحيح، صحيح الجامع (١٥٢/١).
(٤) حديث صحيح: رواه البخاري (المشكاة - ١٥٦٢/٣).

كل هذا السحر.. كل هذا الجمال.. كل هذه الفتنة لنساء الجنّة المؤمنات، فلا عجب أن نرى ضمن الجيش نساءً خرجن للمشاركة في المعركة.. يداوين الجرحى، ويسقين العطشى. في مقدمتهن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وزوجته عائشة بنت أبي بكر الصديق، وصفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وأخت حمزة رضي الله عنهم، وأم سليم بنت ملحان المشهورة بـ (الرميصاء) وهي أم أنس بن مالك عليهما السلام، وهي من الأنصار، كما شاركت أنصاريات أُخر منهنّ: أم سليط رضي الله عنها، وفاطمة[1] بنت عمرو بن حرام أخت عبد الله، وعمّة جابر وزوجة عمرو بن الجموح، ونساء أخريات من المهاجرين والأنصار.

ولئن استطاع بعض النساء أن يخرجن مع رسول الله ﷺ في حروبه، فإن هناك من الرجال من لا يقدر على الخروج، والحرج يحاصرهم بعد نزول هذه الآيات:

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾

يقول أحد الصحابة: (﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر)[2].

وكانت الآيات قد نزلت كما يحدثنا أول من سمعها وأوّل من كتبها: زيد بن ثابت رضي الله عنه فيقول: (إن النبي ﷺ أملى عليه ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علي، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت -وكان أعمى- فأنزل الله على رسوله ﷺ -وفخذه على فخذي- فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله: ﴿ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾)[3]، فصارت الآية تقرأ هكذا: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ

---

(١) سيأتي ذكرهن أثناء المعركة وبعدها في أحاديث صحيحة إن شاء الله.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٩٥).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٩٢).

﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾[١].

لكن ماذا عن أجر القاعدين المعذورين؟

يقول ﷺ: (لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه.

قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبسهم العذر)[٢] فلم يحبس عنهم الأجر، فالمسلم ليس بأعماله فقط، بل بنواياه أيضاً. وإذا كان ابن أم مكتوم قد حبسه العمى، فإن هناك رجالاً حبسهم عن الجهاد رسول الله ﷺ، رغم أنهم لا يشكون من شيء في أجسادهم، ولا يشكّ ﷺ في إيمانهم، وإنما حبسهم عليه الصّلاة والسّلام ليكلفهم بمهمة جهادية داخل المدينة.. هي الرباط، والدفاع عن المدينة.. سواءً من غدر يهودي أو منافق.

المرابطون

على الآطام[٣] والحصون.. هم رجال شجعان أوكل إليهم ﷺ حراسة المدينة والرباط فيها، وبشّر المرابطين بأجر عظيم، فقال ﷺ: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان)[٤].

وكان من بين الذين حظوا بهذا الأجر والأمر والد حذيفة بن اليمان.. ذلك الرجل الذي منعه العهد والوعد من مشاركة النبي ﷺ في معركة بدر، وصحابي آخر اسمه (ثابت بن وقش بن زعوراء) رضي الله عنهما، فـ (لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد وقع اليمان ابن جابر -أبو حذيفة-، وثابت بن وقش بن زعوراء في الآطام مع النساء والصبيان)[٥].

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤- ١٦١٠ وأحمد ٣-١٦٠.

(٣) الحصون.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٢٠.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٣-٢٠٢): حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيد، عاصم تابعي ثقة مر معنا ومحمود بن لبيد صحابي.

استعدّ الجميع، وتأهبوا للخروج إلاّ رجلين.. الأول لا حاجة به إلى الاستعداد، فهو لا يملك من هذه الدنيا شيئاً يحتاج إلى وداع أو وصية، فأملاكه كلّها في صدره.. إنه (مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف) ابن الأم الثرية.. الشاب المنعم أيام شركه.. لا يملك الآن إلاّ سيفه، وقرآناً يملأ صدره، ويملأ بيوت المدينة بعد أن سافر في قلوب الأنصار، وزرع فيها العلم، وثقفها بالإيمان.. هذا هو مصعب بن عمير الذي لقبه الأنصار بـ«المعلم».

أمّا الآخر فشاب يتمتّع بأحلى أيام عرسه.. إنه الآن مع عروسه.. يتبادلان عذب الكلام والأحلام.. صفو المشاعر والغرام، وفجأة يدوي في المدينة داعي الجهاد، فينسل (حنظلة بن أبي عامر) من قرب حبيبته، ويتحول العاشق إلى محارب يودع عروسه بحرارة المحبِّ الذي لن يعود، فتهمي دموعها وتستودعه الله الذي لا تضيع ودائعه، فهو أغلى ما تملكه. ويغيب حنظلة عن عينيها، فتغيب في همومها وأحزانها التي لا تدري متى تنتهي.. أحزانها التي لا يخفّفها سوى الإيمان.

خرج ﷺ من المدينة متوجهاً نحو أُحد.. حاملاً سيفه «ذا الفقار» الذي غنمه من غزوة بدر، ولم يكتف ﷺ بلبس درعه، بل لبس عليه درعاً آخر حيث يقول أحد الصحابة: (إن رسول الله ﷺ ظاهر يوم أُحد بين درعين -أو لبس درعين-)(١).

وإذا كان النبي ﷺ الذي يحفظه الله من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحته يحتاط كل هذا الاحتياط، فصحابته أولى. يقول الزبير رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ قد ظاهر بين درعين يومئذٍ)(٢). ثم انطلق ﷺ لملاقاة حشود الشرك المحتقنة.. كانت رايته ترفرف في الهواء (كانت سوداء من نمرة)(٣) صوف، أما لواؤه ﷺ فكان لواؤه (أبيض)(٤).

---

(١) سنده صحيح رواه أبو داود ٢-٣٧ وغيره عن يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد عن أحد الصحابة، ويزيد ثقة والسائب صحابي أيضاً.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٣٨) حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، عن الزبير . يحيى ثقة ووالده تابعي ثقة.

(٣) صحيح أبي داود ٢-٤٩١ وقد حذفت لفظاً ضعيفاً من الحديث هو «مربعة».

(٤) المصدر السابق ٢-٤٩١.

وكان كل شيء في هذا الجيش يرفرف للجنّة وعوالمها الساحرة.. كان الرجال يتجمّلون للشهادة، إلاّ أشباه رجال خرجوا بأجساد نخرة، ومعنويات يجرّونها خلفهم كالذلّ.. رجال يرتجفون من كل شيء حولهم، ويحسبون كل صيحة عليهم.. خوفاً خرجوا.. خوفاً صحبوه ﷺ، لكن هلعهم تفاقم عندما اقتربوا من الحقيقة -المعركة.. عندها تحركت الخيانة في دمائهم، ونهضت كالشيطان تشير بأصبعها إلى الوراء.. تأمرهم بالعودة إلى المدينة، وترك محمد ﷺ وأصحابه، فاستجابوا ورجعوا.

صدم الصحابة بما حدث، ولم يصدم ﷺ، لأنه يعرفهم. صعق الصحابة بما يجري.. هل هؤلاء مسلمون؟ هب أنهم غير مسلمين، هل هذا التصرّف- العار من شيم العرب، وأخلاق العروبة؟

أين الرجولة.. أين النخوة؟ هباء.. كل شيء داخل هؤلاء الخونة هباء، إلاّ الكفر والحقد. لكن الصحابة لم يسكتوا، ولم يتحمّلوا هذا الموقف المخزي. قرّر بعضهم أن يبدأوا بقتال هؤلاء الأنذال الجبناء قبل أن يقاتلوا جيش مكّة المشرك، لكن البعض فضّل عدم إهدار طاقتهم وتدنيس أيديهم بدمائهم القذرة، وهذا ما مال إليه ﷺ، فلا بدّ من التركيز على الخطر الداهم - العاجل.

يقول زيد بن ثابت ملخصاً ما حدث من خيانة: (إن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا. فأنزل الله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾.

فقال رسول الله ﷺ: إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة)[1].

تلألأت الفضّة ولمعت بعد أن تعرضت لنار الشدائد، فانسلخ خبث النفاق عنها، ورجع الخونة دون أخلاق إلى جحورهم في المدينة كالحيات.. كالعقارب، وأصبح جيش محمد ﷺ قليلاً.. ضعيفاً إلاّ بالإيمان، لكن قلّة العدد والخيانة واستعداد العدو خيّم للحظات على بعض الأنصار وهم (بنو حارثة، وبنو سلمة) فقد كاد الإحباط والفشل أن يستولي عليهم، لكن القرآن يفعل المعجزات.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٨٩)، وأحمد (١٨٤/٥) واللفظ له وأكملتها للفائدة.

نزل يغسل ما بهم من هموم وإحباط، فثبتوا مع رسول الله ﷺ كالجبال، بل لقد صار ذلك الموقف مبعث فخر لهم إلى يوم القيامة. لقد فرحوا بما نزل من آيات تصف حالهم، وتثني عليهم.

هذا أحد أبنائهم يفرح بنزول كلام الله على نبيه فيهم فيقول: (فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾،

قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب -وما يسرّني- أنها لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾)[1].

إذاً فهم أولياء الله، وهم بشر يتعرّضون لما يتعرض له البشر، لكن القرآن زاحم ذلك الفشل حتى نفاه، وذكرهم بنصر لم يتوقعوه، فدبّ الحماس في عروقهم وأرواحهم. يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

صفت النفوس من الضعف، وتخلّص الجيش من معظم الخونة، وتوجّه الجميع إلى منطقة:

بين عينين وأُحد

وعينين جبل، وأُحد جبل آخر وبينهما وادٍ[3] حيث وصل الجيش المؤمن، فتوقف النبي ﷺ، وتوقف أصحابه، وعندما لامست أقدامهم تلك الأرض.. تأمّلها ﷺ جيداً، وتأمل أصحابه فوجدهم قلّة، فأدار المعركة في مخيلته قبل أن تدور على الأرض، فرأى جبل أُحد، (طلع له أُحد فقال: هذا جبل يحبّنا ونحبه)[4].

تأمل ﷺ أُحداً فوجده حبيباً للمؤمنين يتمنى خدمتهم في مثل هذه الظروف القاسية، فوظفه ﷺ توظيفاً يرجح به كفة جيش صغير، على جيش كبير كجيش

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٥٨).

(٢) سورة البقرة: الآيتان ١٢١ - ١٢٣.

(٣) هذا ما جاء في البخاري في حديث طويل (٤٠٧٢).

(٤) حديث صحيح رواه الإمام البخاري (٤٠٨٤).

قريش. لقد قرر ﷺ أن يستخدم هذا الجبل كدرع خلفي للجيش، ليس هذا فحسب، بل جعل من هذا الجبل قاعدة جوية تنتشر من أعلاه مظلّة تساند الجيش أثناء المعركة، وتحميه من أي التفاف قد يقوم به المشركون من خلف الجبل.. لا سيما وأنّهم قد سبقوا المسلمين إلى موقع المعركة، وهذا ما أوجب دقّة التخطيط، وضرورة الدقّة في التنفيذ، وأهمية الانضباط في العمل.

أخرج ﷺ من الجيش مجموعة من الرماة، وحدّد لهم موقعاً على الجبل، وأمرهم بالبقاء فيه مهما كانت الظروف.. مهما كانت النتيجة.. و(جعل النبي ﷺ على الرماة يوم أُحد عبد الله بن جبير)[1] قائداً لا يجوز لهم أن يعصوه.

لقد كان ﷺ يدرك خطورة الموقف وشدّته.. كان واضحاً وصارماً في تعاليمه للرماة، لقد (أقامهم في موضع ثم قال: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا)[2]. لا مكان للتوقعات والظنون، ولا للحماس الزائد، ولا للاجتهادات الفردية.. البقاء على الجبل حتى تصدر الأوامر بعكس ذلك.. كان ﷺ يريد عزلهم عن كل هذه الأمور، كي يتفرغوا ويركزوا ويكرّسوا كل طاقاتهم واهتمامهم لوظيفتهم التي حدّدها ﷺ، وهي واضحة جداً.. جداً. وهل هناك أشدّ صرامة من قوله ﷺ للرماة (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[3].

سمع الرماة وأطاعوا، وصعدوا خلف قائدهم عبد الله بن جبير، وأخذ كل منهم موقعه على الجبل، أمّا على الأرض، فقد كان هذا النبي والقائد العبقري ﷺ ينظم صفوفه. سندعه يكمل تنظيم جيشه بينما نلقي نظرة على ذلك الجيش الوثني المحتقن

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام البخاري (٣٩٨٦).

(٢) ظاهر إسناده الضعف لكنه صحيح رواه أحمد ١-٨٧ و٢-٢٨١٨ حدثنا سليمان ابن داود، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله عن ابن عباس. عبيد الله تابعي ثقة ثبت وأبو الزناد تابعي ثقة مر معنا أيضاً، وابنه عبد الرحمن ثقة تغير حفظه عندما قدم بغداد. وسليمان بن داود سكن بغداد وهو ثقة فقيه جليل، لكن الناقد علي بن المديني رحمه الله له رأي في رواية سليمان عن عبد الرحمن يقول: (ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة وجعل علي يستحسنها، سمع ذلك من علي يعقوب ابن شيبة وذكره الإمام الترمذي في علله (٢-٦٠٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

بالثـأر وبهزيمـة بدر.. إنـه يقبع قرب جبل «عينـين» وهذا ما جعلهم يسـمونه «عام عينين»[1]، بينما كان المسلمون يسمّونه «عام أُحُد».

كان جيش قريش يفتقد إلى أشياء كثيرة.. أهمّها الهدف الموحد والبعيد للمعركة.. كانت المعركة بالنسبة لهم ذات أهداف شخصية بالدرجة الأولى، فعكرمة بن أبي جهل خرج للثأر لأبيه، وأبي بن خلف جاء ليقتل رسـول اللـه ﷺ ثأراً لمصرع أخيه أمية بن خلف، وجبير بن مطعم لا أدري هل كان ضمن الجيش أم لا، لكنه يحلم بالثأر لعمّه من حمـزة. وبما أنه لا أحـد يقدر على مواجهة حمزة، فقد فضّل أن يقدم إغراءً لمن يقوم بهذه المهمة، فعرض على عبده «وحشي» القيام بذلك مقابل حريّته، ووحشي لن يواجه حمزة، ولا يسـتطيع، لكنه يجيد الرماية بالحربة، وهو أمر ممكن لأن حمزة سـيكون بعيداً عندها، ولا تحتاج هذه المهمة سوى إلى الانتظار والترقّب.

قدم المطعم عرضه، فقبل وحشـي القيام بهذه المهمـة من أجل الحرية، والحرية فقط، فوحشـي ليس بينه وبين المسـلمين أي عداء.. عدوّه الوحيـد هو الرق، أمّا أبو سفيان فربما أخرجته للمعركة زعامته الجديدة لقريش، بعد هلاك الطواغيت السبعة ومصرعهم على سـاحة بدر، وربما حرضته على ذلك زوجته (هند) التي كانت تتحرق للثأر، بعد هـلاك أبيها وعمّها وأخيها، على يد حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم. ومن الأشياء التي يفتقدها الجيش الوثني: حب الموت، والاحتفاء بالشهادة، فهم يحرصون على الحياة كحرص المؤمنين على الشـهادة، وهذا الشيء هو سرّ تحطّم أعتى الجيوش على أيدي المؤمنين.

ومن الأشـياء التي يفتقدها جيش قريش: النظام، فمن الصعب جداً أن تسـيطر علـى جيش يبحث كل فـرد فيه عن فرد ضمن جيش آخر. هناك تشـتّت في الاتجاه والهدف، وهذا ما حرص ﷺ على إبعاده عندما قال للرماة:

(إن رأيتمونـا تخطفنـا الطير، فـلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسـل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[2].

واقتربت المعركة بين جيشين: جيش قوي، وجيش ذكي، فكانت:

---

(١) دليلي على ذلك تسـمية وحشـي لغزوة بـ«عام عينين» كما جاء ذلك عند البخاري (٤٠٧٢) وكان وحشـي ضمن جيش المشركين.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

البداية دعاء

بدأ ﷺ كعادته بالدعاء.. لقد (قال يوم أُحد: اللّهمّ إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض)[1]، فمن أجل عبادة الله وحده لا شريك خرج ﷺ وأصحابه.. لا يريدون مالاً، ولا جاهاً.. خرجوا من ديارهم ينشرون دين الله، وخرجوا للقتال دفاعاً عن نشره، ومن أجل الأصنام خرج أولئك الوثنيون.

كان لهذا الدعاء بشائر بالإجابة و:

بشائر النصر

ها هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يشخص ببصره إلى رسول الله ﷺ، ليرى منظراً أبيض لا يدري من هو، ولا ما هو؟ فيقول: (رأيت بشمال النبي ﷺ ويمينه رجلين عليهما ثياب بيض يوم أُحد، وما رأيتهما قبل ولا بعد)[2].

لا شكّ أنها الملائكة. لكن هل ستشارك كما شاركت في غزوة بدر؟ سنعرف الإجابة بعد قليل، فهل بقي من بشائر بالنصر على أرض أُحد؟

أجل.. كان ذلك بعدما صف النبي ﷺ المؤمنين صفاً خلف صف.. عندها غشيت البشارة بعض الصحابة، وكان صحابي يسمى (أبو طلق) أحدهم.. حيث يقول: (غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد)[3] و(كنت فيمن تَغَشَّاه النعاس يوم أُحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه)[4].

رفع طلحة بن عبيد الله رأسه فرأى منظراً غريباً يترنح تحت الدروع والتروس، فقال رضي الله عنه: (رفعت رأسي يوم أُحد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته[5] من النعاس)[6]، وكان بين صفوف المؤمنين بعض المنافقين الذين لم

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٤٣)

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٥٨٢٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٦٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٨).

(٥) اي تحت ترسه.

(٦) سنده صحيح رواه الترمذي (٣٠٠٧) والحاكم (٢/٣٢٥) والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٩) وأبو يعلى (٣/١٤) من طرق عن الثقة المعروف حماد بن سلمة عن التابعي الثقة ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه.. وثابت سمع من أنس.

يجرؤوا على الفرار.. إنهم الآن يرتجفون، وهم يرون هذا الجيش القليل العدد والعدّة، ويزيد من ارتجافهم وغيظهم هذا النعاس الذي يحرق الأعصاب.. كأني بالمنافقين ولسان حالهم يقول: انهضوا أيها... من نومكم.. أما ترون الموت يملأ المكان؟

لقد كان النعاس أمناً للمؤمنين، وخوفاً ورعباً للمنافقين، وفي ذروة الخوف والأمن، وخلال ذلك الصمت المخيم يشقّ الساحة صوت ينطلق من معسكر الأصنام بالتحدي.. فارس جاهلي شجاع اسمه (سباع بن عبد العزى) يصرخ ويقول:

هل من مبارز

من سيبارز هذا الشجاع؟ دعونا نطرح هذا السؤال على رجل يهمّه جداً ما حدث، وشاهد -جيداً- ما حدث.. إنه وحشي الذي جاء من أجل مهمة واحدة هي طعن حمزة فقط.

يقول وحشي: (خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحادّ الله ورسوله ﷺ؟ ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب)[1].. لفظ غاية في تصوير الحدث وسهولة حدوثه (كأمس الذاهب) يعبّر عن سهولة هلاك الشجعان على يد حمزة.. سقط ذلك الفارس، وارتفع سيف حمزة يطلب المزيد، وارتفعت معنويات المؤمنين، وزاد حماسهم كما زاد حماسهم بعد مبارزة بدر، فأراد رسول الله ﷺ أن يؤجج ذلك الحماس ويوظفه فصرخ بجموع المؤمنين رافعاً سيفاً: (من يأخذ مني هذا السيف بحقه؟

فبسطوا أيديهم، كل إنسان فيهم يقول: أنا.. أنا...

فقال ﷺ: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم، فقال له سماك «أبو دجانة»: أنا آخذه بحقه. فأخذه ففلق به هام المشركين)[2] الذين أذهلتهم هذه المعنويات. لقد أفنى حمزة مبادرتهم، ومزّق أبو دجانة من أمامه منهم، والتحم الجيشان، فبان الفرق بين جيش همجي غاشم، وبين جيش متحضر له هدف وتخطيط وأسلوب رفيع في التنفيذ.. جاء

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٢).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم فضائل الصحابة (٢٤٧٠) وابن أبي شيبة بسند صحيح.

أحد الصحابة يبحث عن سـبق، بعد أن تفوّق حمزة وأبو دجانة فقال لرسول الله ﷺ: (أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنّة، فألقى تمرات في يده ثم قاتل)[1].

وبـدأ الرماة بنشـر مظلتهم الجوية، ففوجئ المشـركون بجيـش يحصدهم على الأرض، ويمطرهـم من السـماء، فالرماة يؤدّون مهمّتهم بإتقان، وسـهامهم زخات من المـوت.. زخات من القبور.. فرّقت جمـوع الوثنيين، فصاروا يهربون في كل اتّجاه، ولم تكن السـهام تنطلق من قمة أحدٍ فقط. كان بقرب رسول الله ﷺ أمهر راميَيْن (سعد بن أبي وقاص) كان الأمهر. شـاهد علي بن أبي طالـب رضي الله عنه ما يحدث بين رسول الله ﷺ وبين سعد، وسمعه ورواه فقال: (ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلاّ لسعد بن مالك، فإني سمعته يقول يوم أُحد: «يا سعد ارم فداك أبي وأمي»)[2].

ويقول سـعد: (جمع لي رسـول الله ﷺ يوم أُحد أبويه كلاهما)[3]، لقد (نثل لي النبي ﷺ كنانته يوم أُحد، فقال: ارم فداك أبي وأمي)[4].

كان سـعد يمتع ناظري رسول الله ﷺ، بل ويضحكه فيقول رضي الله عنه: (كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال له النبي ﷺ: ارم فداك أبي وأمي.

فنزعت له بسهم ليس فيه نصل، فأصبت جنبه، فسقط فانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه)[5].

ولم يكتف سعد بالرماية بين يدي رسول الله ﷺ.. لقد كان فارساً يفتك بمن أمامه، لقد اسـتجاب الله له فلقي كما تمنى: (رجلاً شديداً حرده أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه)[6] لكن ماذا عن رفيقه عبد الله بن جحش؟

هل اسـتجاب الله لدعائه؟ ليس بعد، فهو مازال يجالد بسيفه، ويجتثّ من يواجه من المشركين..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٦).
(٢) حديث صحيح.رواه البخاري (٤٠٥٩).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٧).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٥).
(٥) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٨١١).

لم ننس راميَ النبي ﷺ الآخر.. إنه أبو طلحة (كان رامياً شديد النزع، كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمرّ معه الجعبة من النبل، فيقول رسول الله ﷺ: انثرها لأبي طلحة.

ثم يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تشرف، ألا يصيبك سهم، نحري دون نحرك)[1].

ماهت الأرواح بالأرواح في جلاد يزهق الأرواح.. نبي قائد يفدي جنوده بأمّه وأبيه، وجنود يفدون نبيّهم بأمّهاتهم وآبائهم وأرواحهم.. كانت الصدور درعاً دونه ﷺ.. حتى الملائكة كانت درعاً دونه ﷺ.

يقول سعد بن أبي وقاص: (رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه -عليهما ثياب بيض- كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد)[2].

كان ﷺ مسروراً بما يرى من تنفيذ لتعليماته.. سعيداً بانتصار وحماس فرسانه.. مصعب بن عمير الذي لا يملك سوى سيفه وقرآناً يملأ صدره وأجواءه.. يلقن المشركين دروساً كما يلقن الأنصار الآيات والسور، وذلك الشيخ الأعرج عمرو بن الجموح، ورفيق دربه عبد الله بن عمرو بن حرام يقاتلان كالشباب، لكن للسنّ أحكام قاسية.. سقط عبد الله والد جابر شهيداً على أرض المعركة.. أوّل شهيد في سجلات أُحد، وها هي الملائكة من فوقه ومن حوله (الملائكة تظلّله بأجنحتها)[3] يا لها من شهادة.. يا لها من كرامة، وبعده بزمن يسقط رفيق دربه عمرو بن الجموح، ليطأ بعرجته أرض الجنّة، ويدليها على أنهارها ومياهها ومن شرفات قصوره الفارهة..

وبينما كانت المعركة تتأجج بركاناً يقذف حمماً.. يقذف جثثاً ودماءً وصل:

ضيفان على المعركة

إنهما: حسيل والد حذيفة، وصحابي آخر هو (ثابت بن وقش) رضي الله عنهما.. لقد ضاقت بطموحهما أسوار المدينة وحصونها.. تلفتا فأحسا أن هذا المكان لا يليق

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢٤١٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٤).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

بشجاعين مثلهما، ففرّا إلى حيث الوغى.. إلى حيث السيوف والشهادة، وعندما وصلا إلى أُحُد.. وجدا أن المعركة قد حمي وطيسها، فتسلّلا بين المؤمنين دون أن يعلموا بهم، فماذا كانت العاقبة؟

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد وقع اليمان ابن جابر أبو حذيفة، وثابت بن وقش بن زعوراء في الآطام[1] مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه -وهما شيخان كبيران-: لا أبا لك ما ننتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منّا من عمره إلا ظمأ حمار، إنما نحن هامة القوم. ألا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ؟ فدخلا في المسلمين -ولا يعلمون بهما-)[2]، وقاتلا المشركين، ولكنهما شيخان كبيران، وفي الشيخوخة ضعف (فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما أبو حذيفة)[3]، فله قصة عجيبة سنعرفها بعد قليل.

ضيف ثالث على المعركة

اسمه (عمرو بن أقيش) أراد أن يسلم في يوم من أيام السلام والسكون، لكنه كان يتعامل بالربا مع بعض المشركين، ولم يكن في عجلةٍ من أمره لكي يسلم، ففضل أن يذهب ليأخذ رباه بصفته مشركاً، ثم يعود لكي يعلن إسلامه.

سافر ابن أقيش إلى المكان المقصود قبل غزوة أحد، ثم عاد ليجد المدينة لا تضحى بأموالها فقط، بل بأرواحها طاعة لله ولرسوله ﷺ، فهانت أموال عمرو أمام عينيه، وهان رِبَاه، وهان كل شيء في نظره، وكشفت الشدائد عن معدنه، وكشف لنا أحد الصحابة عن خبره فقال: (إن عمرو بن أقيش كان له رِباً في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أُحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحُد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد.

فلبس لأمته، وركب فرسه ثم توّجه قِبَلهم، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحاً.

---

(١) الحصون أو البيوت المرتفعة.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٢٠٢: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد. عاصم تابعي ثقة التقريب ٢٨٦ وشيخه صحابي وقد مر معنا .

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٢٠٢ بالسند السابق.

فجاء ســعد بن معاذ، فقال لأخته: سـليه حمية لقومك، أو غضباً لهم، أم غضباً لله عزّ وجلّ؟ قال: بل غضباً لله عزّ وجلّ ورسـوله، فمات، فدخل الجنّة وما صلّى لله صـلاة)[1]. دخـل الجنّة كما دخلها عمرو بن الجموح، وعبـد الله بن عمرو بن حرام.. دخل الجنّة وما صام لله يوماً.

يا لكرم الله.. الجنّة - خلودها وسـحرها وعوالمها لهذا الفارس من أجل لحظات، لكنهـا لحظـات من التوحيد.. لحظات شـارك فيها عمرو بن أقيـش في الدفاع عن التوحيد وأهله، شارك فيها أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً.. شارك فيها طلحة وأبا عبيدة وسعيد بن زيد وسعد وعبد الرحمن بن عوف والزبير، وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأبـا دجانة، وأنس بن النضر.. أنس بن النضر الذي بهر من يراه بشـجاعته، لقد برّ بقسمه.. ها هو كالأسد بين الصفوف لا تزيده الجراح الكثيرة إلاّ شراسة وإقداماً في الفتـك بأعداء الله، ولا يتفوّق عليه إلاّ حمزة الذي كان يقاتل بطريقة جديدة، ويصرخ بمعنويات شهيد. شاهده سعد بن أبي وقاص ونقل ما شاهد فقال: (كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل يوم أُحُد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله)[2].

كان حمزة يحزّ الرقاب، ويذل الطغاة، فهم يتساقطون أمامه.. لا شيء يصمد في وجهه.. لم يترك فرصة لأحد كي ينال من رسول الله ﷺ، ولم يترك فرصة لأحد لينال منه.. حتى ذلك البعيد عنه الذي لم يشـترك في القتال، ولم يحمل سيفاً للدفاع حتى عن نفسه.. ذلك الأسمر الذي يراقب حمزة وحربته بيده.. لم يجد -حتى الآن- فرصة

---

(١) سـنده لا بـأس به رواه أبـو داود ٢-٤٨٢ والبيهقي في الكبرى ٩-١٦٧ وغيرهم من طرق عن موسـى بن إسـماعيل، حدثنا حماد بن سـلمة، انبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة. موسى ثقة ثبت وشيخه مثله التقريب ٥٤٩ و١٧٨ ومحمد بن عمرو حسن الحديث إذا لم يخالف التهذيب ٩-٣٦٧ وشيخه تابعي ثقة وهو ابن عبد الرحمن بن عوف.

(٢) سنده صحيح رواه: البيهقي، حدثنا أبو عبد الله، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه، حدثنا محمد بن شـاذان الجوهـري، حدثنا معاوية بن عمرو، عن أبي إسـحاق الفزاري، عن ابـن عون، عن عمير بن إسحاق، عن سعد. أبو عبد الله هو الحاكم، وشيخه محمد بن بالويه هو أبو علي كما جاء في ترجمته في تاريخ بغداد ١-٢٨٢ والصواب أبو بكر، وقال فيه البرقاني: ثقة، وشـيخه ثقة التقريب ٤٨٣ وشـيخه ابن المهلب.. ثقة من شـيوخ البخاري التهذيـب ١٠-٢١٥ وإبراهيم بن محمد الفزاري ثقة حافظ التقريب ٩٢ وعمير بن إسـحاق تابعي قال الحافظ: مقبول.. والصواب أنه: ثقة وقول ابن معين: ليس شـيء يعني أنه قليل الحديث، وابن معين قال عنه: ثقة (قواعد في علوم الجرح للتهانوي - ٢٦٣) وقال النسائي: ليس به بأس، ولم يورده العقيلي إلا أنه لم يرو عنه إلا واحد.

للإجهاز عليه، وهو لا يجسر على اقتحام أهوال حمزة وجحيمه. إنه يقول: إنني (أنظر حمـــزة وأتبصّره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق، يهدّ الناس بســيفه هدّاً ما يقوم له شـــيء)[1]، وما يجرؤ أحـــد من قريش على التصدّي لهذا الحتف الذي يصرخ: أنا أسد الله.

لقد فرّق حمزة والأسود معه جمع قريش ومزّقوهم.. إنهم يهربون.. ينهزمون خلف الصخور، ووراء الجبال.

هـــا هو الزبير يلاحـــق فلولهم المنهزمة المهرولة من هنا وهناك، تاركين نســـاءهم خلفهـــم، حتى أن بإمكانه أخذ ماشـــاء منهن.. الزبير يقول: (واللـــه لقد رأيتني أنظر إلـــى خدم[2] هند بنت عتبة وصواحباتها مشـــمّرات هـــوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير)[3].

ورأى منظر الهزيمة شاب صغير هو البراء بن عازب الذي يقول: (فأنا والله رأيت النساء يشددن، قد بدت خلاخلهنّ وأسوقهن رافعات ثيابهن)[4].

ويقول رضي الله عنه عن هزيمة المشـــركين: (فهزموهم، فأنا والله رأيت النســـاء يشتددن على الخيل، قد بدت خلاخيلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن)[5].

الساحة الآن للرسول ﷺ وأصحابه.. هرب الوثنيون تاركين نساءهم في متناول الزبير وأصحابه، أما نساء المسلمين فكنّ كرجالهم يمارسن التمريض والإسعاف بالماء والدواء.

يقول أنس بن مالك: (لقد رأيت عائشـــة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمّرتان، أرى خدم ســـوقهما تُنْقِزان القرب على متونهما، فتفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم)[6].

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (ابن كثير - ٣/٣٥) وقد مر معنا عند الكلام على وحشي.
(٢) الخدم: هي الخلاخيل.
(٣) سنده صحيح: رواه إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد، عن عبد الله بن الزبير عن أبيه.. وشيخ ابن إسحاق ثقة - التقريب (٢/٣٥١) ووالده تابعي ثقة - التقريب (١/٣٩٢).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٣).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٣) والبيهقي (٣/٢٢٩) واللفظ له.
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٣).

عائشــة رضي الله عنها وهي في أوج نشاطها وحماسها.. تصف ما حدث بعبارة مختصرة، فتقول: (هزم المشركون يوم أُحد هزيمة بيّنة تعرف فيهم)[1].

وروى أحــد الصحابــة ما حدث لحملة الراية من المشــركين شــيئاً مذهلاً، لقد استبدلتهم سيوف حمزة ورفاقه سبع مرات أو أكثر.

يقول رضي الله عنه: (وقد كان لرسول الله ﷺ أوّل النهار، حتى قتل من أصحاب لواء المشــركين سبعة أو تســعة)[2] يتســاقطون كجدران الطين القديمة وقد داهمتها الرياح والأمطار، لتخلو الساحة من ثأر المشركين وأصنامهم.

خلت الســاحة إلاّ من ركضهــم بحثاً عن بقايا حياة، بعد أن خبا ثأرهم، وســافر بعضهم إلى الجحيم.. كانت الســاحة مليئــة بجثث الطواغيت المنتنة.. المتناثرة في كل مكان، وكان عدد الجثث حتى الآن قريباً من السبعين جثة.. أحد هذه الجثث كان حياً مصاباً.. يتظاهر بالموت خشــية أن يجهز عليه أحد فرسان محمد ﷺ. لقد سقط هو وحلمــه الذي حمله معه من مكة، فقد خرج ليقتل رســول اللــه ﷺ، لكن رفاق حمزة أسقطوهما معاً.. هذا الرجل يدعى (وهب بن عمير) ومازال لديه أمل بالحياة.

يقــول أنس بن مالك: (كان وهب بن عمير شــهد أُحداً كافــراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار فعرفه، فوضع ســيفه في بطنه حتى خرج من ظهره ثم تركه)[3].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٦٨) والبيهقي (٣/٢٣٠) واللفظ له.

(٢) ظاهر سنده الضعف لكنه صحيح رواه أحمد ١-٨٧ و ٢-٢٨٨: حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عبيد الله تابعي ثقة فقيه - أحد الفقهاء الســبعة، وأبو الزناد تابعي ثقة مر معنا، وأما ابنه فمن أجله قلت ما قلت.. فهو ثقة لكنه تغير عندما قدم بغداد، فالنقاد يضعفون ما رواه في بغداد، وســليمان ابن داود ثقة فقيه جليل ممن سكن بغداد، لكن الناقد الكبير علي بن المديني رحمه الله قال - مستثنياً رواية هذه الثقة عن شيخه عبد الرحمن: (ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة، وجعل علي يستحسنها) ذكر ذلك الإمام الترمذي في علله: (٢/٦٠٦).

(٣) ســنده قوي: رواه الطبراني (٦٢/١٧): حدثنا أحمد بن زهير التســتري حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا جعفر بن ســليمان عن أبــي عمران الجوني لا أعلمه إلا عن أنس. أبو عمران اســمه عبد الملك بن حبيب تابعي ثقة التقريب ٣٦٢ وقد صح ســماعه من أنس التهذيب ٦-٣٨٩ وتلميذ صدوق من رجال مسل التقريب ١٤٠ وعبد الرزاق معروف. وابن سهل ثقة من رجال مسلم التقريب ٤٨٢ وشيخ الطبراني هو تاج المحدثين من أحفظ أهل عصره. انظر البلغة للعلامة حماد الأنصاري (٨٩).

ماذا حدث لوهب بعد ذلك هل مات.. أم مازال حياً؟ سـنعرف الإجابة بعد نهاية المعركـة، والتـي انتهت حتى الآن إلى هزيمة كالجحيم.. سـقط فيها أكثر من سـتين مشـركاً، أما الأسرى فقد بلغ عددهم سبعين أسـيراً. إن الساحة الآن تذكر بانتصار بدر.. سـبعون للأسر وسـبعون للقبر، ومحمد ﷺ يكحل ناظريه بمشهد يسرّ النفس ويشرح الصدر.

لكـن هذا المهرجان لم يدم طويلاً، لقد كانت السـاحة جميلـة.. مكتنزة بالغنائم والانتصار.. كأن كل شيء قد انتهى.. المشركون انتهوا، والمؤمنون انتهوا إلى القمة. لكن بعـض الصحابة الذين كانوا على القمة ارتكبوا كارثـة، لقد حوّلوا تلك القمة إلى قاع دموي.. خاض فيه المشركون وشربوا وانتشوا.

ماذا فعل الرماة

كان بعض الرماة يشـاهدون الانتصـار الهائل والغنائم، فتيقنوا أن كل شـيء قد حسم، وفي لحظة من لحظات الضعف الإنساني أغرتهم الغنائم، فقرّروا النزول، عندما أنسـاهم الحماس قول نبيهـم ﷺ: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فـلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسـل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسـل إليكم..)[1].

تأخر الأمر عليهم.. لم يرسـل النبي ﷺ أحداً، فظنّوا أن كل شيء قد تمّ على ما يرام.. حكّموا رأيهم واجتهدوا، مع أن كلام رسـول الله ﷺ لا يزال مدوياً في آذانهم، فخالفـوا أمـره وأمر أميرهم عبد الله بـن جبير، وهتفوا ببعضهـم (الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنظرون؟

فقال عبد الله بن جبير: أنسـيتم ما قال لكم رسـول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين النـاس فلنصيبن من الغنيمـة)[2] وانحدر الرماة وانحدرت الكارثة معهم.. شـاهدهم المشركون المنهزمون، فلاح لهم بريق الانتصار، واستجمعوا قواهم من جديد في محاولة للانقضاض ما دام خطر الأسهم المريك والشائك قد زال عن سماء المعركة.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

عاد أبو سفيان والمشركون وهم يرون هذا الفراغ في السماء، والارتباك على الأرض.. الارتباك الذي أحدثه الرماة عندما زاحموا إخوانهم المكلفين بجمع الغنائم، وكأن أمر الغنائم لم تنزل به الآيات.. كان الرماة النازلون من الجبال يحسبون أن من سبق فهو أحق. حدثت فوضى عارمة داخل الصف المؤمن، وانفلت الزمام، وضاع النظام. وتحوّل الجيش الإسلامي إلى شبكة لا يعرف لها أوّل ولا آخر.

تلك الصفوف المنظمة التي تقاتل كبنيان مرصوص.. حولها الرماة -رضي الله عنهم- بمخالفتهم إلى شيء كالفوضى.. وصفه أحد الصحابة أدقّ الوصف، فقال: (لما غنم النبي ﷺ وأناخوا عسكر المشركين، أكبّ الرماة جميعاً فدخلوا في العسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب النبي ﷺ، فهم: كذا -وشبك أصابع يديه- والتبسوا، فلما أخلّ الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير)[1] بسبب واحدٍ فقط.. هو عدم الالتزام بتعليمات القيادة الصادرة منه ﷺ، وقد كلّف هذا الخطأ الكثير، والكثير. فالمعركة الآن...

المعركة بأيدي المشركين

والمبادرة بأيديهم، فالجيش المؤمن يقتل بعضهم بعضاً من الفوضى، والمشركون يعينوهم على ذلك، وفي قلب الظلمة والفوضى تعالى الصياح والضجيج، وصار المسلمون يصدقون كل شيء، ويستجيبون لكل صارخ، فقد دوت على أرض أُحد صرختان: حوّلت كل واحدة منها جيش الإسلام إلى زوبعة من الفوضى.

صرخة تقتل حسيلاً

فبينما كان حسيل والد حذيفة يتمتع بالنصر مع رسول الله ﷺ، بعد أن حرم منه هو وابنه حذيفة في غزوة بدر، إذ بصارخ يصيح بالمؤمنين ليتشفّى بمرأى الدماء.. كانت عائشة هناك.. تصبّ الماء للجرحى، وتداوي وتصغي لما حدث وتقول: (هزم المشركون يوم أُحُد هزيمة تعرف فيهم، فصرخ إبليس: أي عباد الله.. أخراكم.

---

(١) سنده قوي وهو حديث ابن عباس السابق عند أحمد (١/٨٧ - ٢/٢٨٨).

فرجعت أولاهم فاجتلدت هـي وأخراهم، فنظر حذيفة بن اليمان فإذا هو بأبيه، فقال: أبي، أبي.

قالت: فوالله ما انحجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: غفر الله لكم.

قال عروة بن الزبير بن العوام: فوالله مازالت في حذيفة منها بقية حتى لقي الله)[1].

يـا لإيمان حذيفة.. يا لعتاب حذيفة. والده المؤمن المجاهد تقطعه السـيوف، فلا يتلفظ بكلمة نابية، ولا حتى بعتاب مجروح.. تنهد قائلاً: غفر الله لكم.. ذرفها كالدموع وهو يرى حبيب قلبه، وصديقه ووالده الحنون يهوي بسيوف أحبابه خطأ.

إن لحذيفـة إيمانـاً صافياً كأنهار الجنّة.. رحم الله حسـيلاً ورحـم الله الرماة، ورضي الله عنهم جميعاً.

وفي غمار المعركة الثانية.. كانت سيوف المشركين تنهش لحوم الفرسان ودماءهم، بينما كان وحشـي ينتظـر دور الحرية والحرية، ليجهز على حمزة وليبشّـر جبير بن مطعم بـ:

استشهاد حمزة

كان حمزة يشـاهد مـا يحدث ويصمد لـه، حتى لاح فراغ كبير وسـط المعمعة، فانكشف حمزة لوحشي..

سأترك الكلام لوحشي ليحدثنا عما فعله بأسد الله ورسوله حيث سأترك الحديث لوحشي الذي يسـتتر من حمزة.. يلبس الأحجار والأشجار.. يتقنّع بها خشية أن يراه هذا الموت الهائل الذي يهدّ الناس بسيفين أحمرين.. يهدّ الناس بصوته.. رعداً يدوي: أنا أسـد الله ورسـوله.. كان حمزة فارساً يجوب الشـجاعة إلى أقصاها، بينما كان وحشي ينتظره كي يردفه إلى عالم الحرية.

كان حمـزة يجوب السـاحة بحثاً عن مُنازل، حتى كان آخـر ضحاياه قرب مخبأ وحشـي.. سقط آخر ضحايا حمزة فنهض وحشـي الذي يقول: (خرجت أنظر حمزة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٦٨).

وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق يهدّ الناس بسـيفه هدّاً، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيّأ له، أريده، وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني)[1] (وهــززت حربتي حتى رضيت منها دفعتها إليه «رميته بحربتي»، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه)[2].

انفجــرت دماء حمزة.. تسـاقطت على الأرض ولم يسـقط.. التفت إلى طاعنه ولاحقه، وطاعنه خائف يقول: (وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسـكر، وقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق)[3].

ودّع حمزة الدنيا، وقدم وحشـي لسيده أغلى مبلغ في الدنيا يُدفع ثمناً لعبد. كان المسـلمون في تراجع وانكسار.. كانوا في غفلة عن جسـد حمزة الطاهر، الذي تقدم إليه شخص مجهول، فأخرج أداةً حادةً فجدع بها أنف حمزة، وشقّ بطنه وشوّه جسده الطاهر، ومثّل به، وهكذا يفعل الجبناء، وماذا لديهم سوى ذلك..؟

شـاهد أحد الصحابة ما فعل بأسـد الله - بحمزة عمّ رسول الله ﷺ، فانطلق إلى رسول الله ﷺ ليخبره بالفاجعة. لكن أين رسول الله ﷺ وسط هذا الغبار والفوضى..؟

إنه ليس على جبل أُحُد، فالرماة نزلوا، ولم يبقَ إلاّ قائدهم عبد الله بن جبير وقلّة معه من الصابرين، لكن المشركين باغتوهم بأعداد كثيرة، فاستشهدوا جميعاً على قمة الامتثال والجبل، أمّا على الأرض، فالأمر غامض جداً، بل هو مفجع.

ها هو أحد المشركين يدوي بالجموع المشتبكة.. صرخ كالشيطان وقال:

إن محمداً قد قتل

سـمعه الزبير وأذهله ما سـمع. يقول رضي الله عنه: (مالت الرماة إلى العسكر حين كشـفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا، وانكفأ علينا القوم)[4].

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.
(٢) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.
(٣) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.
(٤) سنده صحيح وقد مر معنا وهو بقية حديث الزبير عند ابن إسحاق.

لكــن أنس بن النضــر عم أنس بن مالك لم ينكفــئ.. كان يقاتل عن رجلين.. عن معركتين.. عن بدر، وعن أُحُد. يقول ابن أخيه أنس رضي الله عنه: إن عمّه (غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ. لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرينّ الله «ما أصنــع»، ما أجد، فلقي يوم أُحد.. فهُزم الناس فقال: اللّهمّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المســلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشــركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ)[1]، (فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهاً لريح الجنّة «إني» أجده دون أحد..)[2]. (فقال سعد: أنا معك -

قال سعد: فلم أستطع أصنع ما صنع)[3].

وقال أنس بن مالك أنه عمه (قاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية)[4].. كان وجه أنس بن النضر مشــوّهاً لا يعرف.. كان جسده ميدانــاً لمعركة أخرى انتصر فيها الوفاء، وخرج منها أنس مزيناً بالطعنات والشــهادة والوعد الصادق، فلئن مات رسول الله ﷺ شهيداً، فليلحق به أنس بن النضر.

أما بعض الصحابة فقد أذهلهم الخبر وأســقط في أيديهــم، وانهارت معنوياتهم فولّوا عن أرض المعركة لا يلوون على شيء بعد أن رأوا هذه الكارثة، وسمعوا بمقتله ﷺ، وكان أحد هؤلاء (عثمان بن عفان وسعد بن عثمان -رجل من الأنصار- حتى بلغوا الجلعب -جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص)[5]، وكأنّهم يقولون لأنفسهم: وماذا نحن بعد رسول الله ﷺ؟

أمّا البقية ففضلوا الموت على ما مات عليه رسول الله ﷺ.. أحدهم هذا الفارس المجهول، الذي يقول عنه سهل بن سعد: (ما رأينا مثل ما أتى فلان، لقد فرّ الناس وما فرّ، وما ترك للمشــركين سادة ولا قادة إلا أتبعها يضربها بسيفه)[6]، وما زال يضربهم

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٨).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (الإمارة - ثبوت الجنة..) والزيادة عند البخاري.

(٣) حديث صحيح رواه أحمد.. وهو ثلاثي على شرط الشيخين كما قال ابن كثير.. حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس.. وشيخ أحمد ثقة وهو ابن هارون.. وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس وهو حميد الطويل.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (الإمارة - ثبوت الجنة..) والزيادة عند البخاري.

(٥) سـنده صحيح رواه ابن إســحاق ومن طريقه الأموي (ابن كثير - ٣-٥٥) حدثني يحيى بن عباد، عن أبيه عن جده.. وهذا الإسناد مر معنا. يحيى ثقة، وعباد تابعي ثقة.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٢) وأبو يعلى - زوائد (١-٤٢٨) واللفظ له.

حتى الآن.. في الوقت الذي استشـهد فيه صاحب التمرات، فقد (قاتل حتى قتل)[1]، كما سقط على أرض المعركة رجل فقير لكنه كان بحجم الدنيا.

استشهد مصعب

مصعـب بن عمير، الذي خرج من ثروته وزينته ليلحق برسـول الله ﷺ.. مصعب الذي خـرج من مكة وحيداً، ليثقف جيلاً من أجيـال المدينة.. مصعب الذي خرج من المدينة نحو أُحُد.. لا يملك من الدنيا إلاّ سيفه ورداءه، وقرآناً يملأ صدره، ويغنيه عمّا يراه من حطام الدنيا.. سقط مصعب على أرض أُحُد.. تبكيه المدينة ومكّة، ويبكيه أحد الصحابـة الصائمين عندما قدم له طعام إفطار شـهي، فتذكر مصعباً وجوع مصعب فقال: (قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في برده، إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا -أعطينا من الدنيا ما أعطينا- وقد خشـينا أن تكون حسـناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى تـرك الطعام)[2]، وتذكره أيضـاً رفيق دربه وعذابه خباب بن الأرتّ فقال: (هاجرنا مع رسـول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنّا من مضى بسـبيله ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير.. قتل يوم أُحد، ولم يترك إلاّ نمرة، كنّا إذا غطّينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطّينا رجليه بدا رأسه)[3] رضي الله عن مصعب ما أعظمه.. سـافر والدموع من حوله، بعد أن ملأ الصدور والنفوس علماً وحباً ونظافة وثقافة.. نالت منه سـيوف الشـرك وهو يدافـع عن دينه وعن نبيـه ﷺ، ولم تكتف السـيوف من جسده.. السكاكين والمشـارط حملها الحقد فتفننت في جسده الطاهر تقطيعا وتشويها، بقر بطنه، وجدع أنفه، وقطعت أذناه.. هنيئاً لك مصعب.

كما نالت السـيوف من ذلك الشـاب العروس، الذي ترك فتاته ليموت دون دينه ونبيّه ﷺ، ليكمل احتفالاته في الجنّة، وكان قبيل سقوطه في صراع مع رجل شجاع من صفوف المشركين هو (أبو سفيان) وهو ليس أبو سفيان زعيم قريش. لا، ولكنه (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب)

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري وقد مر معنا.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١-١٢٧٥).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٧٦) وقد حذفت كلمات بين عمير... وقتل. وهو قوله رضي الله عنه: ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهد بها.

ابن عمّ رســول الله ﷺ الذي آذاه في مكة، وهو ما يزال حتى الآن مشــركاً، وقد تغلب عليه حنظلة وعلاه بسيفه وكاد أن يطيح برأسه ولكن ما الذي حدث؟

حنظلة بن أبي عامر وأبو سفيان بن الحارث

حنظلة (التقى هو وأبو سفيان بن الحارث، فلما استعلى حنظلة رآه شداد بن شعوب، فعلاه بالســيف حتى قتله، وقد كاد يقتل أبا ســفيان)[1]، لكنه نجا، وليس لحنظلة أكثر من ذراعين.. باغته شــداد وأرسله إلى الموت شهيداً. تتحدث عنه الدنيا، وعن شهادته.. سافر حنظلة وسافر معه شاب يحتفل بالشهادة على طريقته المحبّبة إلى نفسه.

شهادة هو اختارها

وانتقــى من المولى كيفيّتها.. إنه عبد الله بن جحــش، الذي دعا الله قبل المعركة فقال: (اللّهمّ ارزقني رجلاً شــديداً حرده، شــديداً بأسه، أقاتله ويقاتلني، ثم يأخذني فيجــدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلت: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رســولك ﷺ، فتقول: صدقت)[2]، فاستجاب الله لعبد الله بن جحش، فالتقى بمحارب عنيف وشديد فقتله، ولما هوى عبد الله على الأرض أخذه ذلك المشرك ومثّل به، فشقّ أنفه وأذنه، وعلّق أنفه وأذنه بخيط..

كل هؤلاء ســافروا.. كل هؤلاء الشــهداء كانوا في طريقنا ونحن نبحث عن رسول الله ﷺ.. تعالوا خلف هذا الفاتك المغوار، الذي يجول ويصول دون أن يصدق أن رسول الله ﷺ قد قتل، لكنه في الوقت نفســه لا يعتقد أن رســول الله ﷺ على ساحة أُحد، ولا خلف جبالها، ولا حتى على ساحة بدر أو في المدينة.

لقد عاد هذا الشجاع من جولة كالفجيعة.. كان يقلّب الجثث، فتؤلمه وجوه أصحابه وأحبابــه من الشــهداء وهو يبحث بمرارة عن حبيبه محمــد ﷺ، لكنه لم يجده فأين ذهب؟ وأين ذهبت الظنون بهذا الشاب المكسور الحزين؟

---

(١) سنده صحيح مر معنا كثيراً رواه ابن إسحاق، ومن طريقه السراج (الإصابة ١٣-٢٩٩) رواه الحاكم ٣-٢٠٤ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده.

(٢) سنده جيد وقد مر معنا.

تعالـوا نتعرف عليه وعلى حيرتـه.. إنه زوج فاطمة الزهـراء.. إنه علي ابن أبي طالب، وهو يظن أن:

رسول الله ﷺ في السماء

يقـول رضي الله عنه: (لما انجلى الناس عن رسـول الله ﷺ يوم أُحد، نظرت في القتلى فلم أرَ رسـول الله ﷺ، فقلت: والله ما كان ليفرّ، ولا أراه في القتلى، ولكن أرى اللـه غضب علينا بما صنعنـا، فرفع نبيّه ﷺ، فما لي خير مـن أن أقاتل حتى أُقتل، فكسـرت جفن سـيفي ثم حملت على القـوم فأفرجوا لي، فإذا أنا برسـول الله ﷺ بينهم)(1).

كان ﷺ غارقـاً في أحزانه ودمائه، حيث (جرح وجه رسـول الله ﷺ، وكسـرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه)(2) هشمت البيضة التي كان يغطي بها رأسه فشجّ رأسه، (وذلق من العطش حتى جعل يقع على ركبتيه)(3).

رأى عليّ بن أبي طالب رسـول الله ﷺ وتألم لما حدث، لكنه كان في أشدّ حالات الارتيـاح لأنه لم يـزل حياً على الأرض.. فكيف علم الآخرون بمكانه؟ وكيف أحاط كل هذا الجمع به؟ فقد كان حوله أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وسعد والحارث بن الصمة وأبو طلحة وابن مسـعود وأكثر من اثني عشـر رجلاً من الأنصار؟ لن يحدّثنا أيّاً من هؤلاء فالكلمة لـ:

أول من عرفه ﷺ

الكلمة للشاعر المجاهد (كعب بن مالك) حيث: (كان كعب أوّل من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة، وقول الناس: قتل رسـول الله ﷺ. قال كعب: عرفت عينيه تزهران من تحت

---

(1) سنده حسن رواه أبو يعلى زوائد ٢-٤٣٠ حدثنا أبو موسى، ثقة ثبت حافظ التهذيب ٩-٤٢٥ حدثنا محمد بن مروان العقيلي، حسـن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ: صدوق له أوهام ٥٠٦، عن عمارة بن أبي حفصة ثقة من رجالهما التقريب ٤٠٨.

(2) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

(3) سنده صحيح رواه أبي شيبة ٧-٣٧١: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير. عفان ثقة ثبت إذا شـك في حرف من الحديث تركه، وشـيخه ثقة معروف وبقية السند لا يسأل عنها وقد مر معنا كثيراً.

المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليّ أن انصت «اسكت»)[1]. ربما لكي لا يعلم المشركون بمكانه.

سمع هذا الصرخة سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وسبعة من الأنصار، فهبوا نحو صاحبها، وسمع الصرخة جمع من المشركين فلحقوا بهم، فماذا حدث يا أنس؟ أجب بالله عليك. يقول أنس رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ أفرد يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه[2] قال ﷺ: من يردهم عنّا وله الجنّة، أو هو رفيقي في الجنّة؟

فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه، فقال: من يردّهم عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنّة.

فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا)[3] يعني الأنصار. لكن الأنصار كانوا حضوراً غامراً.. مفعماً بالحب والفداء.. يصنعون الأحداث، فيتحدث التاريخ وفاءً.

لقد التحق بالأنصار الشهداء شهداءٌ آخرون، فزاد مجد الأنصار وفخرهم على أرض أُحُد.

يقول أحدهم وكأنه يكمل حديث أنس السابق: (لما كان يوم أُحد وولّى الناس، كان رسول الله ﷺ في ناحية «في اثني عشر رجلاً. منهم طلحة»، فأدركهم المشركون، فقال النبي ﷺ: من للقوم؟ «قال طلحة: أنا. قال ﷺ: كما أنت»، فقال رجل: أنا، قال ﷺ: أنت.

فقاتل حتى قتل. ثم التفت فإذا المشركون، فقال ﷺ: من لهم؟ «قال طلحة: أنا، قال ﷺ: كما أنت». فقال رجل من الأنصار: أنا، قال ﷺ: أنت.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني في الأوسط، مجمع البحرين، ٥-١٠٥ والبيهقي في الدلائل ٢-٤٨٢: حدثني الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك. الزهري إمام معروف وشيخه له رؤية وتابعي ثقة له رؤية رواه عن والده.

(٢) أي اقتربوا منه.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (الجهاد - غزوة أحد).

فقاتــل حتى قتل. فلــم يزل كذلك حتى بقي مع نبي اللــه طلحة، «فقال ﷺ: من للقوم؟ قال طلحة: أنا» فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى قطعت أصابعه، فقال حسّ، فقال رســول الله ﷺ: لو قلت: باسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون، ثم ردّ الله المشــركين)[١] الذين ســمعوا بمكانه ﷺ ولم يبق معه ﷺ في هذا الوقت ســوى اثنين مــن الصحابــة.. يقول أحد الصحابة: (إنه لم يبق مع النبــي ﷺ في تلك الأيام الذي يقاتل فيهن غير طلحة وســعد)[٢]، وقد قاتل طلحة حتى قطعت أصابعه وشــلّت يده.. رآها أحد الذين أدركوا الجاهلية والإسلام واسمه: قيس بن أبي حازم فقال: (رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ قد شلّت)[٣].

أثناء هذه الظروف العصيبة والجراح الدامية، دوت صرخة كبيرة نحو رسول الله، وذلك بعد أن انتشر الخبر أن رسول الله ﷺ لا يزال على قيد الحياة، فتداعى الصحابة من كل مكان (فلما عرفوا رســول الله ﷺ نهضوا به معهم نحو الشــعب، ومعه أبو بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير والحارث بن الصمة في رهط من المسلمين، ولما أسند رسول الله ﷺ في الشعب، أدركه أُبيّ بن خلف وهو يقول: يا محمد.. لا نجوت إن نجوت.

فقال القوم: أيعطف عليه يا رسول الله رجلٌ منّا؟

فقال: دعوه.

فلمــا دنا تناول رســول الله ﷺ الحربة من الحارث بــن الصمة)[٤] أخذ النبي ﷺ الحربة وهو في أشــدّ حالات الإعياء والعطش، لدرجة أنه كان يمشــي ويسقط، ولكنه استجمع قواه ليبعث بها مع حربة الحارث بن الصمة نحو جسد هذا الطاغوت النزق.

---

(١) حديث حسن بما قبله عدا ما بين الأقواس الصغيرة وسنده فيه ضعف، لأنه من رواية أبي الزبير عن جابر وهو مدلس ولم يصرح بالسماع من جابر هنا والرواية عند النسائي - ٦-٣٠ والطبراني ٨-٣٠٤ والحاكم ٤-٥٧٠ ولآخر الحديث شواهد تقويه عند المقدسي في المختارة ٣-٤٢ والطبراني في الشاميين بسند فيه تابعي مجهول عن أنس ٢-١٢٨.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري عن أبي عثمان النهدي (٤٠٦٠ - ٤٠٦١).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٤).

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو نعيم (٤٨٢) وقد مر معنا وللحديث شواهد.. ولم أذكر بقية الحديث لأنه من بلاغات ابن إسحاق دون سند وهو قوله: يقول بعض القوم -فيما ذكر لي- : فلما أخذها رســول الله ﷺ -أي الحربة- انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشُّعْر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله فطعنه بها طعنة تدأد منها عن ظهر فرسه مراراً. والشُّعْر: ذباب أزرق يؤذي الإبل.

الرسول يستسقي دماءً

لا يستسـقى مطراً، بل الساحة والصحابة بأشدّ الحاجة إلى دماء هذا الطاغوت الجرىء، الذي سفك هو وأخوه من الدماء ما يكفي.

سـأترك الحديث للزبير ليكمل لنا القصة: يقول رضي الله عنه: (شـجَّ النبي ﷺ يـوم أُحُد في وجهه، وكسـرت رباعيته، وذلق من العطش حتـى جعل يقع على ركبتيه، وتركـه أصحابه. فجاء أبي بن خلف يطلبه بدم أخيـه: أمية بن خلف، فقال: أين هذا الذي يزعم أنه نبيّ فليبرز لي، فإنه إن كان نبياً قتلني.

فقال رسول الله ﷺ: أعطوني الحربة. فقالوا: يا رسول الله، وبك حراك؟ فقال: إني قد استسقيت الله دمه.

فأخذ الحربة ثم مشى إليه، فطعنه، فصرعه عن دابّته، وحمله أصحابه فاستنقذوه، فقالوا له: ما نرى بك بأساً.

قـال: إنه قد استسـقى الله دمي، إنـي لأجد لها ما لو كانت علـى ربيعة ومضر لوسـعتهم)[1]، ثـم هلك مع من هلك من الطواغيت قبلـه، ولحق بأخيه إلى الجحيم - أعاذنا الله منها، وهرب أتباعه بعد أن رأوا تلك الضربة النبوية المميتة، وتراكضوا نحو أصحابهم يخبرونهم عن رمح رسـول الله ﷺ، وعن قوّة رسـول الله ﷺ ليكدر عليهم بقية نصرهم.

أمّا رسـول الله ﷺ، فبعد أن زرع الرمح في جسد أبي بن خلف.. رجع إلى مكانه متعباً يشير إلى سنّه المكسورة، وجثّة ذلك الطاغوت فقال ﷺ: (اشتدّ غضب الله على قوم فعلوا بنبيّه -يشـير إلى رباعيته- اشتدّ غضب الله على رجلٍ يقتله رسول الله في سبيل الله)[2] (اشتدّ غضب الله على قوم دموا وجه نبيّ الله)[3].

(اشتدّ غضب الله على من دمى وجه رسول الله ﷺ)[4].

---

(١) سنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه ابن أبي شيبة ٢-٢٧١: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٣).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٤).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

رجع ﷺ بينما كان أبو طلحة وغيره كالقلعة حوله ﷺ.

يقول أنس رضي الله عنه: (لما كان يوم أُحد انهزم ناس عن رسـول الله ﷺ، وأبو طلحة بين يديه مجوباً عليه بحجفة، وكان رامياً شـديد النزع، كسـر يومئذٍ قوسـين، أو ثلاثـة، وكان الرجل يمرّ معه الجعبة من النبل، فيقول رسـول الله ﷺ: انثرها لأبي طلحة، ثم يشرف على القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تشرف، يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك)[1].

كان أبو طلحة قائمة من الخيارات الجميلة بين يديه عليه السلام، (وكان أبو طلحة يدفع صدر رسـول الله ﷺ بيده ويقول: يا رسول الله هكذا لا يصيبك سهم، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، يقول: يا رسول الله إني قوي جلد، فوجهني في حوائجك وابعثني حيث شئت)[2].

لم تصب السـهام رسـول الله ﷺ، لكنها نقشت الشـهادة على صدر أحد شباب الصحابة.. كانت شهادة غريبة. غريبة لأن صاحبها لم يمت في أُحد، ولا بعد أُحد، ولا حتى في حياة النبي ﷺ. فما قصة هذا:

الشهيد الذي يمشي على الأرض

شـاب اسمه (رافع بن خديج) شهيد، لكنه يعيش بين الناس.. يأكل معهم ويشرب ويصلّي ويصوم، بل ويجاهد في معارك أخرى في هذه الدنيا، مع أنه من شهداء أُحد! كيف ذلك..؟

تقول زوجته رضي الله عنها: (إن رافعاً رمى مع رسـول الله ﷺ يوم أُحد بسـهم، في ثندوته، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنزع السهم؟

قال ﷺ: يا رافع.. إن شئت نزعت السهم والقطبة جميعاً، وإن شئت نزعت السهم وتركت القطبة، وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد. فنزع رسول الله ﷺ السهم، وترك

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٤).

(٢) سـنده كالذهب رواه عبد بن حميد (٢٩٩) حدثنا سـليمان بن حرب حدثنا حماد بن سـلمة عن ثابت عن أنس.. وسليمان ثقة إمام حافظ وبقية السند مر معنا.

القطبة فعاش بها)[1] حتى مات حاملاً شـهادته على ثندوته.. على صدره، بينما كانت ذقون المؤمنين على صدورهم، فأمن الصحابة من جديد بعد أن أنزل الله:

النعاس من جديد

يقول الزبير بن العوام رضي الله عنه: (لقد رأيتني مع رسـول الله ﷺ حين اشتدّ الخوف علينا، أرسـل الله علينا النوم، فما منّا من رجل إلاّ ذقنه في صدره، فوالله إني لأسـمع قول معتب بن قشـير -ما أسمعه إلاّ كالحلم- يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنـا،، لقول معتب)[2] والآيات التي نزلت في هذا المنافق المدعو: (معتب بن قشـير) وبقايا المنافقين الذين أبقاهـم الخوف، وأفصح عن نفاقهم الخوف.. هذه الآيات هي قولـه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾[3].

أمـا أولئك الذين لاذوا بالفرار بعـد نزول الرماة وحدوث الانتكاسـة، فقد تاب الله عليهم وعفـى عنهم وأنزل فيهم قوله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾[4].

---

(١) سـنده صحيح رواه الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن المنهال (ح) وحدثنا محمد بن محمد التمار، حدثنا أبو الوليد ومحمد بن كثير.. قالوا: حدثنا عمرو بن مرزوق الواشـحي، حدثنا يحيى بـن عبد الحميد بـن رافع بن خديج عن جدته وهي امرأة رافع رضي الله عنه.. ويحيى تابعي ثقة الجرح والتعديـل ٩-١٦٨ وتلميذه صدوق التهذيب ٨-١٠١ وتلاميذ عمرو كلهم ثقات وأبو الوليد هو الطيالسـي وشيخ الطبراني وتلميذ الحجاج هو الثقة علي بن عبد العزيز بن المرزبان البغوي (البلغة - ٢٢٨).

(٢) سنده صحيح مر معنا كثيراً رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير - ٢/١٢٦): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

أمّا على أرض المعركة الآن فيقول أنس: (لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشـمِّرتان، أرى خدم سـوقهما تنقزان القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم)[1].

أمّا عمر بن الخطاب فيحدّثنا عن امرأة عظيمة أخرى هي «أم سـليط»، فيقول: (إنها كانت تزفر لنا القرب يوم أُحد)[2].

شـرب النبي ﷺ وشـرب العطشـى، وانحاز كل جيش إلى معسـكره إلاّ مسلماً مشغولاً بمطاردة فلول المشـركين، فيطارده الإعجاب في كل مكان يصول فيه ويجول. لقد كان هذا الفارس المتغلغل في جموع المشـركين وأجسادهم ملء السمع والبصر من الصحابـة.. كانوا يمدحونه.. يرون أنه أكثر من صـارع الكفار وصرعهم، وأنه لا أحد ممن بقي حياً من المسلمين قاتل مثل قتاله، فسمع الرسول ﷺ بأمره، فسأل عن اسمه ونسبه؟ فأخبروه. فلم يعرفه، ووصفوا له وجهه وجسده ولباسه فلم يعرفه، وبينما كان يطارد إحدى ضحاياه مرت ضحيته، ومرّ كالسـهم وراءها بين عيني رسـول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ كلمة آلمت الصحابة جداً:

هذا الفارس من أهل النار

الصحابي سـهل بن سعد رضي الله عنه كان حاضراً يسمع ويرى، ويروي فيقول: (إنـه قال: يا رسـول الله -يوم أُحد- ما رأينا مثل مـا أتى فلان - أتاه رجل - لقد فرّ الناس وما فرّ، وما ترك للمشركين شَاَّذة ولا فَاذَّةً إلا اتبعها يضربها بالسيف.

قال ﷺ: ومن هو؟ فنسـب لرسـول الله ﷺ نسبه فلم يعرفه، ثم وصف له بصفة فلم يعرفه، حتى طلع الرجل بعينه، فقال: ذا يا رسول الله الذي أخبرناك عنه.

فقال: هذا؟ فقالوا: نعم. فقال ﷺ: إنه من أهل النار.

فاشتدّ ذلك على المسلمين، قالوا: أيّنا من أهل الجنّة إذا كان فلان من أهل النار؟ فقـال رجـل من القوم: يا قوم، أنظروني فوالذي نفسـي بيده لا يموت على مثل الذي

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٨١١).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧١).

أصبح عليه، ولأكونن صاحبه من بينكم. ثم راح على جده في العدو، فجعل الرجل يشدّ معه إذا شدّ، ويرجع معه إذا رجع، فينظر ما يصير إليه أمره، حتى أصابه جرح أذلقه[1]، فاستعجل الموت، فوضع قائم سيفه بالأرض، ثم وضع ذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه حتى خرج من ظهره.

وخرج الرجل يعدو ويقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنك رسول الله. حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: وذاك ماذا؟ فقال: يا رسول الله، الرجل الذي ذكر لك فقلت: من أهل النار، فاشتدّ ذلك على المسلمين وقالوا: أيّنا من أهل الجنّة إذا كان فلان من أهل النار؟ فقلت: يا قوم أنظروني، فوالذي نفسي بيده لا يموت على مثل الذي أصبح عليه، ولأكونن صاحبه من بينكم، فجعلت أشدّ معه إذا شد، وأرجع معه إذا رجع، أنظر إلى ما يصير أمره، حتى أصابه جرح أذلقه، فاستعجل الموت، فوضع قائم سيفه بالأرض، ووضع ذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه حتى خرج من بين ظهره، فهو ذاك يا رسول الله يضطرب بين أضغاثه.

فقال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنّة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل الجنّة)[2] كما في قصة عمرو بن أقيش الذي لم يسلم إلاّ وسط المعركة، واستشهد فدخل الجنّة وهو لم يصلّ لله ركعة واحدة.

أمّا هذا البطل المجاهد فهو من أهل النار، ليس لأنه غير مسلم. بل هو مسلم، لكن هناك فرق بين الاستشهاد والانتحار، وهذا البطل المجاهد قد انتحر، فلم يصبر لتقتله جروحه، أو يشفى منها. لم يقتله أحد، بل هو الذي قتل نفسه، ولو أدرك ما للجراح والآلام من منافع لطلب المزيد، فقد قال ﷺ: (ما أحد من الناس يصاب ببلاء في جسده الا أمر الله عز وجل الملائكة الذين يحفظونه فقال اكتبوا لعبدي كل يوم وليلة ما كان يعمل من خير ما كان في وثاقي)[3] ليبدأ من جديد مطهراً من كل ذنب.

---

(١) بلغ به الألم أشده.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٢) وأبو يعلى (زوائد - ٤٢٨/١) واللفظ له وسنده عنده، حسن: حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا سعيد بن عبد الرحمن القاص عن أبي حازم، عن سهل بن سعد.. وهذا السند حسن من أجل سعيد...

ملاحظة: ورد في الزوائد أنه: سعيد القاص والصواب: القاضي، قاضي بغداد وليس في ترجمته ما يدل على انه قاص، وأبو حازم لم يسمع إلا من سهل جامع التحصيل ٢٢٧.

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٢-١٥٩ وغيره من طريق علقمة بن مرثد عن القاسم بن مخيمرة عن عبد الله ابن عمرو. وعلقمة والقاسم ثقات من رجال مسلم.

ويقــول ﷺ عن الذين يكثر ابتلاؤهــم وامتحانهم في الدنيا: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وأن الله تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط)[1].

أمّا عن مثل هذا المسلم الشجاع، فقد قال ﷺ: (من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم)[2].

مــات ذلك الفــارس ومضى إلى حيث مضى، ونهض ﷺ إلــى مكان عند صخرة ليستريح، وحوله من حوله من الصحابة. لكن النبي ﷺ وقبل أن يستريح أراد الإطلاع إلى ما آلت إليه المعركة، فحاول الصعود على الصخرة فلم يســتطع، لأنه كان مرهقاً، ولأنّه كان يلبس درعين، فتأمّله طلحة رضي الله عنه، وتأمّل يده تشــخب دماً، فهانت عليه آلامه ومتاعبه ويده، فنثرها جميعاً تحت قدميه ﷺ.. حقاً لقد:

أوجب طلحة

يقول الزبير رضي الله عنه: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في أُحد «وكان على النبي ﷺ يوم أُحد درعان»، فذهب رسول الله ﷺ لينهض على صخرة، فلم يستطع، فبرك طلحة بن عبيد الله تحته، فصعد رسول الله ﷺ على ظهره حتى جلس على الصخرة.

قال الزبير: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: أوجب طلحة)[3].

أي فعل ما يوجب دخوله الجنّة.

نظــر ﷺ إلى ما أراد أن ينظر إليه (ثم أمر رســول اللــه ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأتى بالمهراس[4]، فأتاه بماء في درقته، فأراد أن يشرب منه، فوجد له ريحاً فعافه، فغسل به الدم الذي في وجهه وهو يقول: اشتدّ غضب الله على من دمى وجه رسول الله ﷺ)[5].

---

(١) ســنده قوي رواه الترمذي ٤ - ٦٠١ وغيره عن يزيد بن أبي حبيب عن ســعد بن ســنان عن أنس. وسعد تابعي صدوق ويزيد ثقة من رجال الشيخين.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-١٠٣.

(٣) سنده صحيح مر معنا رواه ابن إسحاق ومن طريقه - ابن حبان (زوائد - ٥٤٦) واللفظ له والحاكم ٣-٣٧٤ وأحمــد ١-١٦٥: حدثنــي يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عــن عبد الله بن الزبير عن أبيه: ويحيى تابعي ثقة.. والزيادة للحاكم.

(٤) إناء صغير مصنوع من الحجارة.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق من الطريق السابق.

لكن الله سبحانه وفي هذه الساعة المريرة يرسل جبريل عليه السلام إلى نبيه مصحصاً.. شارحاً صدره، ليتسع لأكثر من هذه المعركة ومآسيها.. ليكون صدراً من تسامح وهداية لكل الأرض، فبعد أن (شج في وجهه، وكسرت رباعيته، ورمي رمية على كتفه، فجعل يسيل الدم على وجهه، وهو: يمسحه ويقول: كيف تفلح أمة فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1]).

امتثل ﷺ، فمسح قوله ودمه بدعاء كالمطر: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[2]، وجاءت ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها لتغسل الدم عن وجه أبيها، كما غسلته أيام مكة المضنية.

يقول أحد الصحابة عليهم السلام: (أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دووي.

كانت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعليّ بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلاّ كثرة، أخذت قطعة من حصير وأحرقتها، وألصقتها فاستمسك الدم)[3].

وبعد أن استمسك الدم، وهدأت الساحة، أُخبر ﷺ باستشهاد حمزة ورفاقه فتكدّر، وحزن حزناً شديداً، ثم قال: (من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل أعزل: أنا رأيت مقتله، قال ﷺ: فانطلق أرناه.

فخرج ﷺ)[4] في الوقت الذي يتحدث البعض عن مقتل النبي ﷺ لأنهم لم يروه حتى الآن، فهم هناك مهمومون في البحث عنه. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٩١) والترمذي (٣٠٠٢) واللفظ له وسنده صحيح.

(٢) سنده حسن رواه ابن حبان ٣-٢٥٤ والضحاك ٤-١٢٣ من طريق محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن الزهري عن أنس. ومحمد حسن الحديث من رجال البخاري، التقريب ٥٠٢ وموسى والزهري إمامان ثقتان ثبتان.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

(٤) سنده حسن ورواه ابن أبي شيبة ٧-٢٧٢: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز، حدثنا الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه - وهذا السند رجاله ثقات إلا أن في عبد الرحمن بن عبد العزيز كلاماً لا ينزل به عن رتبة الحسن، فهو ثقة كما قال يعقوب بن شيبة، وهو كثير الحديث عالم بالسيرة كما قال ابن سعد ووثقه ابن حبان وهو من رجال مسلم. أما جرحه فهو غير مفسر. قال الأزدي: ليس بالقوي عندهم.. وقال ابن أبي حاتم شيخ مضطرب الحديث (التهذيب ٦/٢٢٠) وقال الحافظ ملخصاً أقوال العلماء في التقريب (٤٨٩/١) صدوق يخطئ. وليس هناك من لا يخطئ.

(فما زلنا كذلك ما نشكّ أنه قتل، حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين، نعرفه بتكفئه إذا مشى، ففرحنا كأنه لم يصبنا ما أصابنا.

فرقـي نحونا وهو يقول: اشـتدّ غضب الله على قوم دموا وجه رسـول الله ﷺ. ويقول مرة أخرى: اللّهم إنه ليس لهم أن يعلونا. حتى انتهى إلينا فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: أعل هبل، أعل هبل -يعني آلهته-)[1].

أطلق أبو سـفيان هذه الكلمات المنحطّة منتشـياً بنصر غير مؤكّد، فقد هزم هو وجيشه في أوّل المعركة، وكاد الزبير أن يسبي زوجته هند ورفيقاتها، وجُندل من جيشه سـبعون، ومازال المسـلمون يحتفظون بسبعين آخرين في الأسـر. أما المسلمون، فقد استشهد منهم سبعون، ولم يؤسر منهم أحد.

لو كان نصر أبي سـفيان وجيش الشـرك من خلفه حقيقياً لخلصوا رفاقهم من الأسـر، وطاردوا المؤمنين إلى المدينة، وهي قريبة من أُحد، لكن المشـركين لم يصدقوا أنهـم قتلوا حمزة.. لم يصدقوا أنهم نجوا مما حدث أوّل النهار، وكان أعلى ما حصلوا عليه هو إطلاق إشاعة موت الرسول ﷺ.. هم أطلقوها، وهم صدّقوها.

أمّا المسلمون، فيعتبرونها خسارة إذا ما قارنوها ببدر، أو قارنوا أوّل النهار بآخره، لكن المعركة في الميزان العسـكري نصر للمؤمنين، وهم الأعلون الآن فوق الجبل، وأبو سفيان في أسفل الجبل يزعج الجبال والفضاء ويقول: أعل هبل.

ولما لم يجد إجابة لهذا الاسـتفزاز.. ألحق به اسـتفزازاً آخر فقال: (أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟)[2].

فلم يجبه أحد، فأصبح أكثر تعقّلاً وتأدّباً، فقال: (أفي القوم محمد..؟ أفي القوم محمد..؟ أفي القوم محمد..؟

---

(١) حديث صحيح عند أحمد وقد مر تخريجه من طريق سليمان ابن داود أخبرنا بن أبي الزناد.
(٢) حديث صحيح وهو حديث ابن عباس السابق عند أحمد.

فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة..؟ أفي القوم ابن أبي قحافة..؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟

ثـم قال: أفي القوم ابن الخطـاب..؟ أفي القوم ابن الخطـاب..؟ أفي القوم ابن الخطاب..؟

ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمّا هؤلاء فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك)[1] (هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. فقال أبو سـفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دول، وإن الحرب سـجال. فقال عمر: لا سـواء، قتلانا في الجنّة، وقتلاكم في النار. قال: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذاً وخسـرنا. ثم قال أبو سفيان: أما إنكم ستجدون في قتلاكم مثلاً[2]، ولم يكن ذلك عن رأي سـراتنا، ثـم أدركته حمية الجاهلية، فقال: أما إنه قد كان ذلك فلم نكره) (سـتجدون في القوم مثلة[3] لم آمر بها ولم تسؤني ثم أخذ يرتجز: أعل هبل.. أعل هبل،

قال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟

قال: قولوا: الله أعلى وأجلّ

قال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزّى لكم.

فقال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟

قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم)[4].

عندها خسئت ألفاظ الشرك، وتهاوى تمجيد الخرافة والأصنام أمام هذا التوحيد النقيّ، الذي لا تشـوبه شـائبة، لكن أحد المشـركين أراد التطاول على هذا الإخلاص المتوهّج في صدر محمد وصحبه عليهم الصّلاة والسّلام.. أراد أن يحمل أصنامه إلى رحاب الله، فكيف كانت العاقبة..؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٤١) دون تكرار إنما قال الراوي: ثلاث مرات.
(٢) أي ستجدون تشويهاً بجثث أصحابكم وتقطيعاً.
(٣) أي ستجدون تشويهاً بجثث أصحابكم وتقطيعاً.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٤١).

يقول بريدة رضي الله عنه: (إن رجلاً قال يوم أُحد: اللّهمّ إن كان محمد على الحق فاخسف به. فخسف به)[1].

رأى المشـركون المعجزة بأعينهـم، فالتهمت بقية معنوياتهم كمـا التهمت الأرض ذلك المتطاول، فولّوا مدبرين إلى مكّة على عجل خشـية أن يهبّ المؤمنون مرة أخرى، فيخطفـوا بقايا الفرح التي التقطوها من أرض أُحد. وقد يتسـاءل بعض المشـركين وهـو في طريق عودته: إذا كان الله قد أعطى محمـداً المعجزات كقتل أبي بن خلف، والخسف بهذا الرجل، فلم لم ينصره علينا، وعلى الدنيا نصراً مؤزراً حتى الآن..؟!

وقد غاب عن ذهن هذا المتسـائل المسـطح أن الإسـلام لا ينتشر بالمعجزات، ولا بالخوارق، لأنها تأتي مع الأنبياء وتغادر معهم، أمّا الإسلام فقد جاء للبشر، وبجهدهم -بعد الله- ينتشـر وينـداح وينتصر، وبانحطاطهم وتخلّفهم وسـطحية فهمهم يتحوّل الإسلام إلى ضحية.. إلى خزانةٍ ضخمةٍ مليئة بالتهم.. يلقي فيها الناس عيوبهم.

هـا هم أفضل الناس.. أصحاب محمد ﷺ، عندمـا عصوه -مجتهدين- انقلبت المعركة على رؤوسـهم، ورؤوس أصحابهم الملتزمين بأوامره، ولم تسعفهم المعجزات ولا الدعوات لـ(إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[2].

أمّا رسـول اللـه ﷺ، فقد هبّ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد إدبار المشـركين، فبدأ بالدعاء لجبر ما انكسـر من الداخل.. دعاء الواثـق، لا دعاء ذلك الغارق بين طبقات الأرض، وذلك: (لما كان يوم أُحد وانكفأ المشـركون، قال رسـول الله ﷺ: استووا حتى أثني على ربّي، فصاروا خلفه صفوفاً.

فقـال: اللّهمّ لك الحمد كلّه، اللّهمّ لا قابض لما بسـطت، ولا باسـط لما قبضت، ولا هـادي لما أضللت، ولا مضلّ لمن هديـت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقـرّب لما باعدت، ولا مبعد لما قرّبت، اللّهمّ ابسـط علينـا من بركاتك، ورحمتك،

---

(١) سنده حسن رواه البزار (زوائد - ٢/٣٢٩) حدثنا عبدة بن عبد الله أنبأنا زيد بن الحباب، أنبأنا الحسين ابن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال الهيثمي رحمه الله: رجاله رجال الصحيح.. وهو كما قال إلا أن زيداً من رجال مسـلم فقط وحديثه حسـن إذا لم يخالف - التقريب (١/٢٧٣) وشيخ البزار من رجال البخاري فقط وهو الصفار - ثقة: التقريب (١/٥٣٠) والحسـين بن واقد ثقة من رجال مسـلم (السـابق - ١/١٨٠) وعبد الله تابعي ثقة من رجال الشيخين.

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع الصغير.

وفضلك، ورزقك، اللّهمّ إنّي أســألك النعيــم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، «اللّهمّ إني أســألك النعيم المقيم يوم القيامة»، اللّهمّ إني أســألك النعيم يــوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللّهمّ إني عائذ بك من شــرٍّ ما أعطيتنا، وشــرٍّ ما منعت منّا، اللّهمّ حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفســوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللّهمّ توفّنا مســلمين، وأحينا مســلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللّهمّ قاتل الكفرة الذين يكذّبون رسلك، اللّهمّ اجعل عليهم رجزك وعذابك، اللّهمّ قاتل «كفرة أهل الكتاب» إله الحق)[1].

هــدأت الأنفس مع الله، واطمأنت الأرواح بهــذا الدعاء، فالأمر لله من قبل ومن بعد، ولا رادّ لقضائه.. لله خرجوا، وله قاتلوا، والحمد لله على كل حال.

تهادى ﷺ وأصحابه خلف ذلك الرجل الأعزل، الذي مشــى أمامهم ليدلّهم على مقتل حمزة.. مشــى الرجل (حتى وقف على حمزة، فــرآه قد بقر بطنه، وقد مُثّل به، فقال: يا رســول الله، مثّل به والله. فكره رســول الله ﷺ أن ينظر إليه)[2] (وقد جدع ومُثّل به، فقال: لولا أن تجد صفية في نفســها تركته حتى تأكله العافية، فيحشــر من بطونها)[3] أي من بطون الوحوش.

وصفية هذه التي خاف عليها ﷺ هي عمّته.. صفية بنت عبد المطلب، وهي شــقيقة حمــزة، وأم الزبيــر بن العوام، وهــي المقصودة بقوله ﷺ: (لولا جزع النســاء لتركته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع)[4] (ثم دعا بنمرة، فكانت إذا مدت على رأسه بدت رجلاه، وإذا مدت على رجليه بدا رأســه، فقال رســول الله ﷺ: مدوها على رأسه واجعلوا علــى رجليه الحرمل)[5] وهو نبات صحراوي يســتعمل في الطب.. اســتعمله ﷺ لتكفين الراقد الذي كان قبل ســاعات يزرع الرعب في قلــوب المجرمين قبل، وينشر الاطمئنان

(١) ســنده قوي رواه البزار زوائد ٢-١٣٠ والحاكم ١-٦٨٦ والبخاري في الأدب ٦٩٩ وغيرهم من طريق عبد الواحــد بــن أيمن المكي. حدثني عبيــد بن رفاعة بن رافع عن أبيه. عبيد تابعــي ثقة ولد على عهده عليه السلام وثقه العجلي، وعبد الواحد تابعي صغير من رجال مسلم قال في التقريب: لا بأس به، وقد روي عنه هذا الحديث ثقتان هما خلاد بن يحيى وهو من كبار شيوخ البخاري ومروان بن معاوية وهو ثقة حافظ.

(٢) سنده جيد رواه ابن أبي شيبة (٣٧٢/٧) لكن يشهد لأوله ما بعده.

(٣) ســنده حســن رواه الحاكم ١-٥١٩ وأبو داود (٣١٣٦) وغيرهم من طرق عن أســامة بــن زيد الليثي عن الزهري عن أنس. أسامة حسن الحديث من رجال مسلم التقريب ٩٨.

(٤) سنده ضعيف لكنه حسن بما قبله.. رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٧٢ والبيهقي سنن -٤-١٢ وغيرهم طريق يزيد ابن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس. ويزيد ضعيف.

(٥) سنده حسن وهو حديث أسامة بن زيد عن الزهري عن أنس.السابق وحسنه الألباني.

على صدور المؤمنين.. هذا الراقد الذي قال عنه ﷺ: (سـيد الشـهداء حمزة بن عبد المطلـب)[1] ثم توجه ﷺ إلى راقد آخر.. راقـد وقف عند قبره طويلاً، وتأمّله طويلاً.. مسـافر جمع المجد من أطرافه.. جمع العلم والفروسـية.. علـى يديه تعلمت المدينة كتاب الله، وأصغت إليه طرباً من فمه الطاهر.. إنه شـاب ترك مال أمه وأبيه.. ترك الجاه والثراء، لا لأنه حرام، ولكنه كان مرهوناً بالشـرك، فرفض الشـرك ورفض كل شيء يقدمه الشرك وأهله ثمناً للتخلي عن الحق.. التحق بالنبي ﷺ وتعلّم منه، وتعلم القرآن وكتبه، ثم أرسـله ﷺ وحيداً إلى المدينة شمسـاً يشع ويشرق في دورها وقلوب أهلها، ويفوح عبيره في أبياتها، وها هي قصة حياته وشـقائه ومعاناته تمرّ في مخيلة النبي ﷺ وأصحابه.. ها هو مصعب راقد بسلام، والحزن من حوله أثقل من جبل أُحد.. هـا هو أحد الذين كانوا يعانون الأمرّين مثـل مصعب.. خباب بن الأرت رضي الله عنه يقول عن رفيق دربه مصعب: (هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، منهم: مصعب بن عمير قتل يوم أحد، فلم يوجد لـه شيء يكفن فيه إلاّ نمرة، كانوا إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسه، قال رسول الله ﷺ: اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر)[2] وهو نبات طيّب الرائحة، لكن مصعباً أطيب منه.

ويقـول أبو ذر رضي الله عنه: (لما فرغ رسـول الله ﷺ يوم أُحُد مرّ على مصعب مقتولاً على طريقه فقرأ: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾)[3] ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[4].

هذه الآية التي نزلت قبل قليل، فتلاها ﷺ وهو يمر بجسد مصعب الطاهر، وكان

---

(١) انظر صحيح الجامع للشيخ ناصر.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٧٦) وابن أبي شيبة (٣٦٧/٧) واللفظ له.

(٣) إسـناده حسـن رواه الحاكم (٢٠٠/٣) حدثني محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى الشهيد، حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب الحجبي، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن عبد الأعلى بن عبد الله بـن أبـي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير عن أبـي ذر.. وعبيد: وعمير ولد على عهد النبي، وذكر البخاري أنه رأى النبي عليه السـلام وقد أجمع على توثيقه، التهذيب ٧-٧١ وجامع التحصيل ٢٨٥ وتلميذه صدوق أظن الحافظ قد أخطأ بجعله من السادسـة، والأولى أن يكون من الخامسـة أو الرابعة لأن ابن عمر توفي قبل عبيد.. وعبد الأعلى ثقة فقيه، التقريب ٣٣١ وحاتم حسن الحديث قال الحافظ: صحيح الكتاب صدوق يهم وهو من رجال الشيخين، والحجبي ثقة من رجال البخاري ويحيى هو الذهلي الثقـة الحافـظ، وتلميذه ثقة حافظ قال ابن الجوزي: كان لـه فهم وحفظ وكان من الثقات لا يأكل إلا من كسب يده. وقال عنه ابن يعقوب: صحبت محمد بن صالح ما رأيته أتى شيئاً لا يرضاه الله ولا سمعت منه شيئاً يسأل عنه (المنتظم - ٣٧٠/٦) وقد رواه البيهقي ٣-٢٨٤ من طريق الحاكم ٢-٢٤ بسند صحيح.

(٤) أكملت الآية للفائدة.

فـي نزولها تكريم لهؤلاء الرجال الذين صدقوا مع الله في عهودهم، فمنهم من قضى نحبه، ووفى بعهده كمصعب وحمزة، وهناك من قضى نحبه وهو لا يزال حياً مثل طلحة ابن عبيد الله، الذي شلت يده، وارتقى ﷺ على ظهره ثم قال له: أوجب طلحة وأنجز عملاً أوجب له الجنّة.

وهنـاك من ليس بين الأحياء ولا يتبين بين الأموات.. إنه أنس بن النضر عم أنس ابن مالك الذي يقول: (نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾)[1].

لكن أين ابن النضر..؟

لا أحـد يدري. كما أن المشـركين لـم يأخذوا معهم أسـرى، وإلاّ لقلنا إنه معهم. سـنترك بعض الصحابة ليبحثوا عن أنس، بينما نتعقب هذه المرأة لنرى ما تفعل على أرض أُحُد.. إنها فاطمة بنت عمرو بن حرام أخت عبد الله بن عمرو بن حرام، وزوجة عمرو بـن الجموح، وعمّة جابر بن عبد الله، وهي تحمـل حزناً كالجبال، فقد فقدت أخاهـا وزوجها، فأذهلها الوجد عمّا يجري حولهـا، فاتّجهت إلى زوجها فحملته على بعير، واتجهت إلى أخيها فحملته أيضاً، وعادلتها على ذلك البعير، ثم أمسكت بخطام البعيـر والهموم ومضت ثقيلة نحو المدينة.. مهمومة، لكنها متماسـكة بالإيمان بقضاء الله وقدره.

لقد مضـى عبد الله، ومضى عمرو، وربما استشـهد أبناؤها الأربعة أو بعضهم، فأي حزن تحمله هذه المرأة المسكينة..؟ وماذا ستقول لجابر وأخواته..؟

تابعت هذه المسكينة سيرها وحزنها وصبرها نحو المدينة، بينما كان جابر لا يزال مرابطاً مع النظارين على مشـارف المدينة، فإذا به يشـاهدها ويشاهد فجيعتها على ظهر البعير. فيقول رضي الله عنه: (فبينا أنا في النظارين، إذ جاءت عمتي بأبي وخالي عادلتهما على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي: ألا إن النبـي ﷺ يأمركم أن ترجعـوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت، فرجعنا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٨٣).

بهما)[1] إلى أُحد حيث كان ﷺ يشرف على تكفين الشهداء استعداداً لدفنهم.

عاد من حَمَل قتيله بقتيله من المدينة، وأعيد الشهداء إلى ساح الوغى، ووصل جابر وعمتّه، وربما بعض أخواته المسكينات، وترجّل الفارسان عن البعير، فانهمرت دموع جابر على وجه والده الحنون، وتعالى نشيجه وحرقته عليه، فرآه الصحابة، فنهوه عن ذلك فلم يبال حزنه بقولهم، ولم تتوقف دموعه لرجاءاتهم.

كان ذلك يحدث والنبي ﷺ شاخص إلى هذا الكرب.. كان عليه السلام متألماً ومبشراً بشيء أفرح جابر الحزين وخفف من وجعه.

يقول رضي الله عنه: (لما قتل أبي يوم أُحُد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي فاطمة تبكيه، فقال النبي ﷺ: تبكيه، أو لا تبكيه، مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه)[2].

هذه هي البشرى الأولى، أما الثانية فهي في طريقها من السماء إلى هذا الراقد بسلام.. حيث كانت البشائر كالمطر على أجساد وأرواح الشهداء. ها هو النبي ﷺ يشاهد إحداها.. تحلّق فوق جثمان حنظلة بن أبي عامر، الذي انسلّ من فراش حبيبته ليسلّ سيفه وروحه دون رسول الله ﷺ، حتى فقدهما على أرض أُحد.. إنه منظر مهيب.. الملائكة تقوم بتغسيله، فيتساءل النبي ﷺ عن سرّ هذه الكرامة؟ سمع الزبير ذلك التساؤل فقال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول عند قتل حنظلة بن أبي عامر، بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث «فلما استعلى حنظلة رآه شداد بن شعوب، فعلاه بالسيف حتى قتله، وقد كاد يقتل أبا سفيان».

فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم تغسله الملائكة، «فاسألوا صاحبته». فسألوا

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٩٧ ورواه غيره مختصراً من طرق عن: الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر. الأسود تابعي ثقة من رجال الشيخين، وشيخه ثقة وقد أخطأ الحافظ رحمه الله في التقريب بقوله: (مقبول) فهو ثقة وإن لم يعرفه ابن المديني رحمه الله فقد عرفه أبو زرعة والعجلي فقالا: ثقة. وصحح حديثه ابن خزيمة، والترمذي، وابن حبان، والحاكم الجرح والتعديل ٨-٥٠٨ والتهذيب ١٠-٤١٧.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

صاحبته فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسلته الملائكة[1]، ومنذ ذلك اليوم صاروا يسمونه «غسيل الملائكة».

عُرف الشهداء كلّهم إلاّ واحداً.. الجميع يبحث عنه، والجميع يتحدّث عن بسالته، فأين هو..؟ أين أنس بن النضر..؟ أين عمّك يا أنس بن مالك..؟ إنه ليس بين الأحياء، ولم يتعرف إليه أحد بين الشهداء، وتأتي إجابة أنس ممزوجة بالحزن والإعجاب.. بالوفاء والبطولة النادرة.

لم يتعرف أحد على جثته حتى قدمت أخته (الربيع بنت النضر) كالوله من المدينة.. قدمت لهفة عليه.. طاف بها الحزن بين أجساد الشهداء العطرة، وبين قتلى المشركين، فلم ترَ وجه أخيها أنس، وبينما هي تطوف توقفت طويلا أمام جسد أثار انتباهها، ثم جلست وأخذت إحدى يديه تقلّبها ثم بكت.. هذه أنامل أخيها وحبيبها ورفيق طفولتها أنس.

يتحدث أنس بن مالك عن عمّه فيقول: (قاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربةٍ، وطعنة، ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلاّ ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾، فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه)[2].

وهكذا مضى أنس بن النضر بعد أن برّ بيمينه، وتلقّى السيوف والرماح والسهام بكل جسده، حتى تزيّن كله بها.. كان جسد أنس لوحة رائعة.. أرضاً ثانية للمعركة حتى أن وجهه لم يعرف من الجروح والشقوق، وتشويه المشركين له، فنزلت هذه الآيات العظيمة فيه وفي رفاقه، فقرأها ﷺ وبشّرهم وبشّر من بعدهم.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه السراج (الإصابة - ١٣-٢٩٩) ومن طريقهما الحاكم ٣-٢٠٤: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده.. وهذا السند مر معنا كثيراً وهو صحيح.. فيحيى ووالده تابعيان ثقتان.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣) واللفظ له.

فرسول الله ﷺ (مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلاّ ردوا عليه)[1].

وقف ﷺ أمام هؤلاء الأبرار وبشّرهم.. هؤلاء العظماء الذين سافروا إلى جناتهم التي لا تعرف مللاً ولا شقاءً ولا رتابة.. جناتهم التي علت كل طموح وفاقت كل تصوّر، سافروا إلى مدنهم ومنتجعاتهم وأنهارهم وقصورهم ومراكبهم الفارهة، أمّا رسول الله ﷺ فمشغول بهم.. حزين عليهم، وسيبدأ بعد قليل بدفنهم، لكنه يشاهد امرأة مذهولة تركض كالفجيعة نحو الشهداء.. يحملها الحزن والوجد، وتحمل في يديها شيئاً. أشفق ﷺ عليها، وخاف على عقلها ومشاعرها، فأمر الصحابة أن يحولوا بينها وبين فضائع التشويه التي فعلها الوثنيون الهمج بأجساد الشهداء.

يقول الزبير رضي الله عنه: (إنه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى، حتى كادت أن تشرف على القتلى، فكره النبي ﷺ أن تراهم، فقال: المرأة.. المرأة.

قال الزبير: فتوسمت أنها صفية، فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، فلدمت في صدري -وكانت امرأة جلدة- قالت: إليك عني لا أرض لك. فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك.

فوقفت، وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما.

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم (٢٤/٣) ومن طريقه البيهقي (٢٨٤/٣): أخبرنا أبو الحسين: عبيد الله بن محمد القطيعي ببغداد من أصل كتابه، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسي، حدثنا سليمان بن بلال، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير، عن أبي هريرة. عبيد مجمع على ثقته، ولد على عهد النبي، وتلميذه صدوق التقريب ٤٥٦ وعبد الأعلى: ثقة فقيه (السابق - ٤٦٤) وسليمان التيمي ثقة من رجال الشيخين (السابق ٣٣١ والأويسي ثقة أيضاً السابق ٣٥٧ وتلميذه ثقة حافظ التهذيب ٩-٦٢.

قال الزبير: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل، فعل به كما فعل بحمزة، فوجدنا غضاضة وخنى أن يكفن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصاري ثوب، فقدرناهما، فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفنّا كل واحد منهما في الثوب الذي طار له)[1].

وحصل حمزة على كفن بعد أن كان ثوبه هو كفنه، واقتسم المهاجرون والأنصار الأشجان والأكفان، وفي مكان غير بعيد يتلألأ أمير الاقتسام والكرام (سعد بن الربيع) مضرجاً بدمائه.. ينظر إليه عبد الرحمن بن عوف مودعاً أخاً لم تلده أمه، ومحتفظاً بجميله.. محتفظاً بجماله الأنصاري في ذلك اليوم الذي قدم فيه عبد الرحمن بن عوف من مكة معدماً لا يملك شيئاً.. في ذلك اليوم أشرق سعد بن الربيع بدراً في ليل ابن عوف وأحزانه، حين قدم المهاجرون من مكة و(لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمّها لي أطلقها فإذا انقضت عدّتها فتزوّجها)[2].

ها هو الكريم راقد رقدة الموت وقد ترك خلفه زوجة واحدة وابنتين[3] يبكينه بحرقة، وها هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أمام جسد والده الطاهر يبكي، وفي مكان آخر يذرف هشام بن عامر بن أمية الأنصاري.. يذرف دموعاً على والده الحبيب.

كانت الساحة تغصّ بالأحزان والدموع.. كثر البكاء، (وكثر القتلى، وقلّت الثياب)[4].

يقول هشام بن عامر رضي الله عنه: (شكي إلى رسول الله ﷺ شدّة الجراح يوم أُحد، فقال ﷺ: احفروا، وأوسعوا، وأحسنوا، وادفنوا في القبر الاثنين والثلاثة، وقدموا

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ١-١٦٥ والبزار ٣-١٩٥ والحارث زوائد ٢-٧٠١ وأبو يعلى ٢-٤٥ من طريق سليمان بن داود الهاشمي أخبرني ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن عروة أخبرني أبي (الزبير) علته هو عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو صدوق لكنه تغير عند قدومه بغداد وكون سليمان بغدادي يعكر صفوه (لكن الناقد علي بن المديني يقول: ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة وجعل علي يستحسنها علل الترمذي ٢-٦٠٦. كما أنه لم ينفرد فقد تابعه في سنن ٣-٤٠١ يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وهو ثقة متقن والراوي عنه ثقة إلا إذا روى عن علي بن مسهر، وهذه ليست منها وقد وثقه أبو حاتم وابن قانع ومدحه ابن معين التهذيب ١-١٦٩.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٨٠).

(٣) سيمر معنا الدليل لاحقاً.

(٤) سنده حسن وقد مر معنا وهو حديث أنس السابق وقد حسنه الشيخ ناصر حفظه الله.

أكثرهم قرآناً، فقدموا أبي بين يدي رجلين)[1] (وكان يكفن الرجل أو يكفن الرجلين والثلاثة في الثوب الواحد، وكان رسول الله ﷺ يسأل عن أكثرهم قرآناً، فيقدمه إلى القبلة، فدفنهم رسول الله ﷺ)[2] دون أن يغسلهم.. دفنهم بجراحهم الطاهرة، ودمائهم العبقة (أمر بدفنهم في دمائهم ولم يغسلوا)[3].

وقال ﷺ: (أنا شهيد على هؤلاء، لفّوهم في دمائهم فإنه ليس جريح يجرح في الله إلاّ جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك)[4].

هذا ما جرى حول الدفن والكفن، لكن ماذا عن:

الصلاة على الشهداء

هل صلّى النبي ﷺ على شهداء أُحد، أم أنه لم يفعل كما حدث لشهداء بدر رضي الله عنهم جميعاً؟

يحدّثنا عن ذلك أحد الذين لم يحضروا المعركة، لكنه حضر إلى أرضها بعد انتهائها، وشاهد عمليات التكفين والدفن.. يحدثنا ذلك الشاب الذي كانت دموعه تتساقط كالمطر على وجه أبيه - الشهيد، إنه جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما، وهو يقول: (لما قتل أبي يوم أُحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمّتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: تبكيه أو لا تبكيه مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه)[5]، ثم (إن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثم يقول: أيّهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحد قدّمه في اللحد، وقال ﷺ: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٤-١٩ وأصحاب السنن وغيرهم من طرق عن حميد بن هلال عن هشام بن عامر. حميد تابعي ثقة سمع الحديث من التابعي الثقة: سعد بن هشام ومن أبي الدهماء وهو ثقة أيضاً واللفظ لابن شيبة ٣-٣٧٢ وانظر الجنائز للإمام الألباني ١٤٢.

(٢) هو الحديث قبل السابق.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤٣).

(٤) حديث حسن مر معنا من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك وله شواهد قوية.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصلّ عليهم ولم يغسلهم)[1].

هكذا أمر الله سـبحانه وهكذا فعل ﷺ وامتثل، فسـينهض هؤلاء الفرسان يوماً من مراقدهم مزينين بالشهادة والطعنات، ولون الدم ورائحة العطر تفوح من جراحهم، وتعطـر المكان من حولهم. كان الجو مشـحوناً بالحزن، فليس هناك أقسـى، ولا أكثر دموعاً وانتحاباً من لحظات الدفـن، ومغادرة القبر بعد وضع الأحباب تحت التراب.. لحظات كان فيها جابر حزناً ودموعاً، لكن الله أنزل ما يخفف حزنه.

التفـت ﷺ إلـى جابر المجروح وقال له: (يا جابر، ما لي أراك منكسـراً؟ قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً وديناً.

قال ﷺ: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى يا رسول الله. قال ﷺ: [ما كلـم الله أحداً قطّ إلاّ من رواء حجاب، وكلّم أباك كفاحاً]، «يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك» فقال: يا عبدي، تمنّ علي أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية.

فقال الرب سـبحانه: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون [قال: يا رب، فأبلغ من ورائي، فأنـزل الله تعالـى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤٧). ملاحظة:

ورد أنـه ﷺ صلـى على حمزة وحده، وورد أنه صلى على حمزة وعلى بقية الشـهداء كمجموعات معه رضي الله عنهم، والذي جعلني لا أذكر هذا في المتن هو إشكال في أسانيد ومتون تلك الروايات وهذا الإشكال يتلخص في النقاط التالية:

١- حديث ابن إسحاق عن ابن الزبير وهو جيد الإسناد وابن إسحاق قوي الحديث إذا لم يخالف من هو أوثق منه وقد خالف هنا وابن الزبير كان عمره عامان.

٢- حديـث أنس بن مالك اضطرب فيه أسـامة الليثي -وهو صدوق يهـم- فمرة قال: لم يصل عليهم، ومرة قال: لم يصل على أحد من الشهداء غير حمزة.. والصواب القول الأول ثم وجدت ما يؤيد قولي هذا: وهو نقد للإمام البخاري رحمه الله حيث قال إن القول الثاني غير محفوظ غلط فيه أسامة فالحمد لله.

٣- حديـث ابن عباس جيد السـند لكنه مخالف لحديث أنس ولحديث جابـر أيضاً لأنه ذكر أنه صلى على جميع الشهداء.

٤- إن ممـا يرجح حديث جابر هو حضوره ومشـاهدته للأحداث في الوقت الـذي كان فيه ابن الزبير يبلغ الثانية من عمره.. بينما كان ابن عباس في الثانية أيضا ومع والده في مكة. ولتفصيل أكثر راجع صحيح موسوعة السيرة.

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾])[1] ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

فرح جابر بهذه البشــرى، فرح بحفاوة الرب الكريم بأبيه، فخفّفت البشرى كثيراً من أحزانه، لكن:

ما سر حفاوة الله بوالد جابر؟

ما ســرّ هذا الشــيخ المحلّق في النعيم.. إنه لم يقاتل كما قاتل حمزة، ولم تمزقه الطعنات كما مزقت أنس بن النضر.. لقد شرب الخمر، ثم انصرف إلى المعركة، فكان أول من سقط من الشهداء، ومع ذلك يلقى كل هذا الفيض الغامر من النعيم..؟!

ليــس هكذا يُنْظَر إلى والد جابر رضي الله عنه.. دعونا نتأمل عالم هذا الشــيخ من كل زواياه.. دعونا نجعل أنفسنا مكانه.

إن هذا الشــيخ الكبيــر لم يحارب عن اثنين كما فعل ســعد في بدر، ولم يحارب بسيفين كحمزة، لكنه كان يحارب في معركتين شرستين.. أحدهما على أرض أُحُد، أمّا الثانية فكانت ســاحتها داخل أعماقه وبين حناياه، وهي معركة أشــد ضراوة وقسوة.. إنها معركة مع الذات.. مع الدنيا، ومع عواطف الأبوة الجياشة التي تتغلغل في أعماقها تســع بنات مســكينات، والدنيا.. كل الدنيا تعلم أن الشيخ أكثر حناناً وعطفاً على بنيه منه وهو شاب، والدنيا.. كل الدنيا تعرف للبنات رحمة لا تعادل في قلوب الآباء، فكيف إذا كنّ تســع بنات يترصّــد لهن اليتم والفقر؟! إن عبد الله بــن عمرو بن حرام ينتزع

---

(١) حســنه الإمام الألباني في ابن ماجه ١٩٠ ويبدو لي أن الحديث ليس حســناً كله، لذلك وضعت المعقوفين حول الألفاظ التي لم أجد لها شــاهداً، فقد تفرد بها حســب علمي موسى بن إبراهيم ابن كثير وهو وإن روى عنــه جمع من الثقات إلا أنه لــم يوثق، بل جرحه ابن حبان في ثقاته وقال: كان ممن يخطئ ٧-٤٤٩ ولعــل هذه الزيادة من أوهامه، قال الحافظ: صدوق يخطئ وســكت عنه ابــن أبي حاتم ٨-١٣٣. ولبقية الحديث شــاهد حسن عند أحمد ٣-٣٦٠ عن جابر والزيادة له. حدثني ابن المديني عن سفيان بن عيينة عــن محمــد بن علي بن ربيعة عن ابن عقيل عن جابر، ومحمد بن علي ثقة (ذيل الكاشــف - ٢٥٤) وابن عقيل حسن الحديث.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ - ١٧١.

نفســه من بين بناته.. من بين أبوّته وأحزانه، ليتّجه بها نحو الجنّة.. نحو الله.. فحب الله متشعب في كل خلاياه ومشاعره، وهو بحاجة إلى الله أكثر من حاجة بناته إليه.. هكذا نتأمل هذا الشيخ، وبهذه الطريقة نتحسّس بعض سرّه وسر حفاوة الله به.

والد جابر ورفاقه الآن أحياء عند ربّهم يرزقون، فقد قال خالقهم سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1].

ســأل الصحابة رســول الله ﷺ عن معنى هذه الآية.. عن تلك الحياة الفسيحة التي ينعم بها الشــهداء، وعن ذلك الكرم الإلهي المدهش، فقال عبد الله بن مســعود رضي الله عنه ســألنا عن ذلك فقال ﷺ: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تســرح من الجنّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا؟

ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهــم حاجة تركــوا)[2]، وقال أحد الصحابة رضي الله عنهم: (قال رســول الله ﷺ: لما أصيــب إخوانكم بأُحُد، جعل الله أرواحهم في أجواف طيــر خضر، ترد أنهار الجنّة، وتــأكل مــن ثمارها، وتأوي إلــى قناديل من ذهب في ظل العــرش. فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحســن منقلبهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب.

فقــال الله عزّ وجلّ: أنا أبلّغهم عنكم، فأنــزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ومــا بعدهــا)[3]..

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٠٢ باب: بيان أرواح الشهداء في الجنة.

(٣) سنده صحيح بما قبله: رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ١-٢٦٥ و٢٦٦ وغيره: حدثنا إسماعيل بن أبي أمية عن أبي الزبير عن ابن عباس لولا عنعنة أبي الزبير، وقد دلس اسم شيخه الذي صرح به في رواية ابن إســحاق عند أبي داود ٢٥٢٠ والحاكم ٢-٨٨ وهو الإمام المجاهد ســعيد ابن جبير. وللحديث شاهد سنده حسن عند ابن جرير ٣-٥١٣.

زخّات من النعيـم أمطرتها تلك الكلمات على قلوب أصحاب النبي ﷺ، فحفرت فيها الأخاديد والشـقوق.. حسـرة على ما فاتهم في هذا اليوم من لذّة الحديث إلى أحبّ حبيب.. لذّة الاستماع إلى الله.

إن الإنسـان ليعرف من حال العاشـق حالةً من الذهول عن كل ما يحيط به عند لقاء المحبوب، فليت شـعري من يصف مشـاعر من يتحدث إلـى أحب حبيب وأعظم محبوب..؟

تمنى فرسـان أُحد الأحياء وهم يغادرون تلك المقابر الطيبة.. تمنوا لو كانوا فيها بين أولئك المسافرين في النعيم، وتمنى ﷺ لو كان مجندلاً على أرض أُحد لينعم بلقاء اليوم..

تحدث ﷺ بذلك وباح به لأصحابه، فازداد شـوقهم وحنينهم إلى الله وإلى الجنّة بكلمات هذا الحبيب الذي يبوح بمشـاعره ويقول: (أمـا والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحضن الجبل، يعني سـفح الجبل)[1]، ويقول جابر رضي الله عنه أنه قصد: ليتني (قتلت معهم)[2].

تلك هي مشـاعر النبي ﷺ ومشاعر من حوله من المؤمنين، لكن ماذا عن مشاعر جيش المشركين الذي يرجع الآن إلى مكة..؟ إنهم الآن في أرض تسمّى: (الروحاء) وأبو سفيان يتحدّث إليهم.

أبو سفيان وجيشه نادمون

ليـس على قتالهم للمؤمنين، بل على أشـياء فاتتهم في المعركة.. أشـياء عجزوا عن تحقيقها فـ (لما انصرف أبو سـفيان والمشـركون عن أُحد وبلغوا الروحاء، قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شـرّ مـا صنعتم)[3]. ماذا تعني هذه الكلمات وهي

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه: أحمد ٣-٢٧٥ وغيره حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه. عاصم ثقة وعبد الرحمن تابعي ثقة.

(٢) هو الحديث السابق.

(٣) سـنده صحيـح رواه الطبرانـي ١١-٢٤٧: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمـد بن منصور الجواز، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس وهذا السند صحيح، عكرمة وعمرو وسـفيان أئمة ثقات ومحمد بن منصور ثقة من رجال التقريب ٥٠٨ وشـيخ الطبراني ثقة مأمون انظر: البلغة (٢٢٨).

تتحسّر على بقاء محمد ﷺ في سجلات الأحياء، وتتحسّر على عدم التمكن من سبي فتيات المسلمين..؟ ربما كانت تعني أن هناك نية للعودة إلى أرض المعركة من جديد، ومحاولة أخرى للإجهاز على ما تبقى من المؤمنين وهم يدفنون شهداءهم، وربما كانت مجرد زفرات وأماني. لكن كل ذلك لم يكن خارج نطاق تفكير النبي ﷺ العسكري.. كان ﷺ يقرأ أفكار القوم، ويتصفح أحلامهم، لذلك قرّر أن يقوم بحركة عسكرية لتغطية أسوأ الاحتمالات.

تحدّثنا عن ذلك فتاة شاركت في المعركة.. عائشة رضي الله عنها تتحدّث إلى أحد أبناء أختها - أحد أبناء الزبير بن العوام وتخبره عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾..

فتقول: (يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أُحُد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا. قال ﷺ: من يذهب في إثرهم؟ فانتدب سبعون رجلاً - كان فيهم أبو بكر والزبير)[1].

وامتثل أبو بكر والزبير وامتثل معهم ثمان وستون فارساً.. نهضوا تحملهم جراحهم، وتحملهم تلك الأحاديث المعطرة عن أولئك الشهداء الذين سبقوهم قبل قليل.. نهض سبعون محارباً نحو باب من أبواب الجنّة مازال مشرعا في الأفق، لكن يبدو أنهم ظفروا ببعض المعلومات الخطيرة عن أبي سفيان وجيشه، وتوصّلوا إلى معرفة ما جرى من حوار دار بين المشركين حول التحسّر على عدم قتل محمد ﷺ وسبي المؤمنات، فعادوا ليخبروا النبي ﷺ حتى يتّخذ إجراءً مناسباً.. إنه الآن يأمر الجيش كلّه بالنهوض والتحرك نحو جيش الوثنين، وبسرعة. فكانت غزوة على هامش أُحد، وسميت فيما بعد بـ:

غزوة حمراء الأسد

فعندما (انصرف أبو سفيان والمشركون عن أُحد، وبلغوا الروحاء قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٧).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد، أو بئر أبي عيينة، فأنزل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1] مــن بعد ما أصابهم مــا أصابهم من فقد الأحباب والأصحاب، لكن قريشــاً لاذت بالفرار خشــية أن يصيبها ما أصابها في أوّل المعركة، أو يحدث لها ما حدث في غزوة بدر، فجيش محمد ﷺ كالأســود الجريحة.. الرماة يريــدون التكفير عــن معصيتهم لأوامر قائدهم ﷺ، وبقيــة الصحابة يريدون اللحاق بحمزة وعبد الله بن حرام وأصحابهم، لعل الله أن يخاطبهم هذا المســاء، لكن قريشــاً لاذت بالفــرار، فمكث ﷺ وأصحابه رضي الله عنه بعض الوقت، ثم عادوا مثقلين إلى المدينة الحزينة.. المشتاقة إلى نبيّها وفرسانها.

سأستأذنكم قليلاً لأسبق رسول الله ﷺ وصحابته، لا إلى المدينة، بل سأعود إلى أرض أُحد، فقد خيّم اللّيل على جبالها وشــعابها، وهناك حركة غريبة تحدث بين تلك الشعاب.. هناك شبح ينهض ثقيلا من بين الأموات.

شبح على أرض أُحد

دعونا نقترب منه فهو يقف على قدميه.. يترنّح من الألم والبرد يزيد من آلامه.. هــا هو.. إنه ليس من الجنّ.. إنه أحد أفراد جيش أبي ســفيان، وقد كان طوال اليوم يتظاهر بالموت والدم ينزف منه.

يقــول أنس بن مالك: (كان وهب بن عمير شــهد أُحداً كافــراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار، فعرفه فوضع سيفه في بطنه حتى خرج من ظهره، ثــم تركه، فلما دخل الليل وأصابه البرد لحق بمكة، فبرأ، فاجتمع هو وصفوان بن أمية في الحجر، فقال وهب: لولا عيالي ودين عليّ لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمداً؟ فقال له صفوان: كيف تصنع؟

فقــال: أنا رجل جواد لا ألحق، آتيه فأغترّه، ثم أضربه بالســيف، فألحق بالخيل ولا يلحقني أحد.

---

(١) سنده صحيح وهو جزء من حديث الطبراني قبل السابق.

فقال له صفوان: فعيالك مع عيالي، ودينك علي)[1].

لن أكمل هذا الحوار.. سأترك الرجلين وما يكيدان لألحق بحبيبي ﷺ.. ها هو يسير نحو المدينة الحزينة.. دون حمزة.. دون مصعب.. دون سبعين من الشهداء الأبرار، والبيوت تضجّ بالحزن والنواح.. يدخل ﷺ المدينة، ويمشي بين جدرانها الحزينة وأبياتها المفجوعة، فيحاصره النواح والبكاء في كل الطرقات والدروب.

لم يتوقف النواح في المدينة، ولم تتوقف الدموع ولا الأحزان.. إنها تتقاطر من قلوب المؤمنين، كما يتقاطر سيف هذا المحارب المخيف، الذي يسلم لحبيبته سيفاً أحمر يتقاطر موتاً.. سيفاً حنته المعركة لكنها لم تَحْنِ حامله..

إنه عليّ بن أبي طالب، وهو الآن برفقة رسول الله ﷺ، ولا أعلم هل هما في بيت النبي ﷺ، أم في بيت فاطمة..؟

يبدو أنهما في بيت فاطمة رضي الله عنها، فقد (جاء علي رضي الله عنه بسيفه يوم أُحد قد انحنى، فقال لفاطمة رضي الله عنها: هاكي السيف حميداً، فإنها قد شفتني.

فقال رسول الله ﷺ: لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت الأقلح، والحارث بن الصمة)[2].

---

(١) سنده قوي رواه الطبراني (٦٢/١٧) وابن منده - ذكره في الإصابة.. وسند الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري، حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرواق، أخبرنا جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني - لا أعلمه إلا عن أنس بن مالك: ... وقد توبع ابن عسكر عند ابن منده تابعه أبو الأزهر.. وأبو الأزهر حسن الحديث إذا لم يخالف، ومحمد بن سهل ثقة، انظر التقريب ٤٨٢ وعبد الرزاق معروف، وجعفر بن سليمان صدوق من رجال مسلم - التقريب ١٤٠ وأبو عمران الجوني اسمه: عبد الملك بن حبيب الأزدي تابعي ثقة من رجال الشيخين، تقريب التهذيب ٣٦٢. وابن منده من شيوخ الطبراني.

(٢) سنده صحيح رواه الحاكم ٣-٢٤ واللفظ له والطبراني ٧-١٢٢ ١١-٢٥١ وسند الحاكم هو حدثنا محمد ابن عبد الله الصفار، حدثنا أبو الحسن علي بن محمد الثقفي حدثنا منجاب بن الحارث التميمي قال: وزعم سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس. سفيان وعمرو وعكرمة أئمة ثقات ومنجاب ثقة التقريب ٥٤٥ فقول الحاكم رحمه الله إن الحديث على شرط البخاري فيه نظر، بل العكس فمنجاب من رجال مسلم فقط فالحديث على شرط مسلم، وأبو الحسن ثقة انظر: تاريخ بغداد ١٢-٦٣ وشيخ الحاكم عالم ثقة قال عنه تلميذه الحاكم: أنه محدث عصره، سير أعلام النبلاء ١٥-٤٣٧ وقد توبع الثقفي عند الطبراني وفيه تصريح بسماع سفيان من عمرو.

توجّه ﷺ إلى بيته خلال النواح والبكاء.. إنه يستمع إلى النائحات والوجد يحرق أكبادهن، فيتذكر عمّه حمزة رضي الله عنه، فتعاوده الأحزان من جديد، فيستجيب لها بكلمات تفيض وجداً ووفاءً لذلك الفقيد الحميم، فقد (مرّ ﷺ بنساء عبد الأشهل)[1] عندما (رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهنّ، فقال: لكن حمزة لا بواكي له!

فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، ورقد ﷺ، فاستيقظ وهن يبكين، فقال: ويلهنّ، إنهن لهاهنا حتى الآن)[2] (ويحهن ما انقلبن بعد)[3] ولا انصرفن إلى بيوتهن حتى الآن..؟

إنها بعض عادات الجاهلية التي لازال التمسك بها مباحاً حتى الآن، لكنها عادة لا تعبّر عن الحزن العميق فقط.. إنها تتجاوز الحزن إلى شيء خطير جداً.. شيء جاء الإسلام ليمحوه من أعماق كل مؤمن ومؤمنة، وهذا الشيء هو الجزع من أقدار الله، والاحتجاج على قضائه، وهو ما قد يؤدي إلى هدم أحد أركان الإيمان الستّة التي جاء بها الإسلام.. أي الركن السادس، فأركان الإيمان هي:

١) الإيمان بالله.

٢) وملائكته.

٣) وكتبه.

٤) ورسله صلّى الله وسلم عليهم جميعاً.

٥) والإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور.

٦) الإيمان بقضاء الله وقدره.

ولهذا نزل الأمر من الله بـ:

---

(١) سنده حسن رواه ابن ماجه ١-٥٠٧ والحاكم ٣-١٩٥. عن ابن وهب وعبيد الله ابن موسى أخبرنا أسامة ابن زيد عن نافع عن ابن عمر. أسامة حسن الحديث التقريب ٩٨ وصحح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه ١-٢٦٥ وبقية السند كالذهب.

(٢) هو الحديث السابق.

(٣) هو الحديث السابق.

تحريم النياحة على الميت

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: (رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له.

فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، ورقد ﷺ فاستيقظ وهنّ يبكين، فقال: ويلهن إنهن لهاهنا حتى الآن؟! مروهن فليرجعن، ولا يبكين على هالك بعد اليوم)[1].

ولم يقف الأمر عند النهي الخفيف فقط، فبعد فترة من الزمن نزل الوحي يشدّد تحريم النياحة على الميت، وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين والمؤمنات.. يتتبّع آثار الجاهلية، يمحوها ويغرس مزيداً من الإيمان مكانها.

يقول ﷺ: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب)[2]، وسربال القطران يعني ثوباً والقطران دهان يدهن به البعير الأجرب..

النياحة من أمر الجاهلية، وهي ليست -أبداً- مقياساً لمدى الشعور بالحزن وفقدان الحبيب.. إنها نوع من التطرّف والغلوّ في إظهار المشاعر، ولذلك نزل الوحي مرّة أخرى مذكراً، وواصفاً تلك الممارسات بشيء خطير جداً يؤثر على عقيدة المسلم، فقد قال ﷺ: (اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)[3] لأن في الأمرين احتجاج على الله.

توقف النواح، ولم تتوقف الدموع، وكذلك الحياة لم تتوقف، ففي المدينة كانت الرسالة هي الحياة، وعلى الأحياء أن يؤدّوها كما أدّاها أولئك الشهداء.

---

(١) سنده حسن ورواه ابن ماجه (الصحيح ١/٢٦٥) والحاكم (٣/١٩٥) ابن وهب وعبيد الله بن موسى أخبرنا أسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر وأسامة بن زيد حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب ٩٨) وصحح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (١/٢٦٥) وبقية السند كالذهب.

(٢) صحيح مسلم ٢- ٦٤٤.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ١-٨٢.

وتمـرّ الأيام ويتبقى لأُحدٍ وشـهدائها ذكريـات، وعطر يفوح في أجـواء المدينة وأحاديث أهلها، وتمرّ الأيام فيولد لأحد الأنصار غلام، فيحتار في تسميته، فتتجه به الحيرة إلى أحب الناس إليه.. إلى رسـول الله ﷺ، فيبحر به ﷺ إلى أبهج الذكريات وأقساها.. يبحر به إلى

أحب الأسماء إلى رسول الله ﷺ

يقول جابر بن عبد الله: (ولد لرجل منّا غلام، فقالوا: ما نسمّيه؟ فقال النبي ﷺ: سـمّوه بأحب الأسـماء إليّ (حمزة))[1]، فحمزة مازال عالقاً في الذاكرة.. متجذراً في القلب النبوي الكريم، لكن الله سبحانه ينزل على نبيه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه، فيقولها ﷺ لمن حوله: (إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن)[2].

ولما رزق أحد الأنصار بغلام.. سـماه محمداً، فاحتجّ الأنصار على هذا الاسـم، وبخلوا به عليه إكراماً لرسـول الله ﷺ..؟ فكان جواب رسول الله ﷺ على ما حدث، ما نقله جابر بن عبد الله الأنصاري عندما قال: (ولد لرجل منّا غلام، فسماه محمداً، فقال له قومه: لا ندعك باسم رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي)[3].

إذاً فاسم محمد اسم محبّب إلى رسول الله ﷺ، ومحبب إلى الله سبحانه، ولذلك قال ﷺ لرجل: (من الأنصار ولد له غلام، فأراد أن يسمّيه محمداً، فأتى به النبي ﷺ، فقال: أحسنت الأنصار.

سمّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي)[4]، فما هي هذه الكنية التي نهاهم ﷺ عن التكنّي بها..؟

---

(١) سنده قوي رواه الحاكم ٣-٢١٦ حدثنا أبو علي الحسين بن علي الحافظ، أنا عبد الله بن صالح البخاري، حدثنا يعقوب بن حميد بن كاسـب، حدثنا سـفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن جابر. شيخ الحاكم واحـد عصره في الحفظ والإتقان والورع والمذاكره، والتصنيف التذكرة - ٩٠٢) وشـيخه ثقة ثبت انظر: المنتظم (١٤٥/٦) وسـفيان وعمرو بن دينار ثقتان ثبتان معروفان وعمرو سـمع من جابر، فيتبقى يعقوب وهو حسن الحديث فهو كما لخص الحافظ أقوال العلماء: صدوق ربما وهم فحديثه حسن ٦٠٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - الأدب (٢١٣٢).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم كتاب الأدب (٢١٣٣).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣٣) .

جابـر بن عبد الله أيضـاً.. يحدّثنا أيضاً فيقول: (ولد لرجل منّا غلام، فسـمّاه القاسـم، فقلنا: لا نكنيك أبا القاسـم ولا ننعمك عيناً. فأتى النبي ﷺ فذكر له فقال: اسم ابنك عبد الرحمن)[1].

وعندمـا (نادى رجلٌ رجلاً بالبقيع: يا أبا القاسـم، فالتفت إليه رسـول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني لم أعنك، إنما دعوت فلاناً.

فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا باسمي ولا تكنوا بكنيتي)[2].

حدثنـا جابر رضي الله عنه عن أشـياء كثيرة حدثت بعد غـزوة أُحد، فماذا عن جابر نفسـه..؟ ومـاذا عن أخواته الصغيرات.. ماذا عن ديـن والده الذي رحل وتركه أمانةً يثقل كاهله..؟

الدَّيْن لصاحبه همٌّ بالليل وذلٌّ في النهار، فإلى أي شيء تحولت أحوال جابر، الذي وجد نفسـه وحيداً.. مسؤولاً عن تسع بنات.. مسؤولاً عن دين ضخم لا يستطيع أداءه وهو شـاب صغير لم يتعرض من قبل لمثل هذه المسـؤوليات..؟ إنه شاب صغير أعزب أفاق على أمانة كالجبال تحاصره.. فإلى أين يتجه و:

إلى أين تتجه الهموم بجابر

ليـس هناك أرحب من رحمـة الله لجابر، والنبي ﷺ مسـاحة من هذه الرحابة والرحمـة فهو (رحمة مهداة)[3] من الله لهذه الأمة، ولكل فرد منها.. لم يكن بينه وبين أصحابه حواجز ولا حرس (كان ﷺ لا يدفع عنه الناس، ولا يضربوا عنه)[4].

جـاءه رجل فشـعر ذلك الرجل بخوف ورعدة من لقائـه ﷺ، فقال له النبي ﷺ: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)[5].. القديد،

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣٣) .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣١).

(٣) حديـث صحيـح صحيح الجامع. وقد رواه بسـند جيد كل مـن الحاكـم (٩١/١) الطبراني في الصغير (١٦٨/١).

(٤) حديث صحيح صحيح الجامع (٨٧٦/٢).

(٥) حديث صحيح صحيح الجامع (١١٨٥/٢).

ذلـك اللحم المملح المجفّف في الهواء والشـمس. إذاً فلا داعـي للخوف، ولا للرعدة والانتفـاض، وعلى عكـس هذا الرجل.. كان هناك من الناس من يملك جرأة أكثر مما هو مطلوب مع هذا النبي المتواضع عليه السّـلام، فقد (كان لرجل على النبي ﷺ سن مـن الإبل فجاء يتقاضاه)[1] (فأغلظ[2]، فهمَّ به أصحابه، فقال رسـول الله ﷺ: دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً. ثم قال ﷺ: أعطوه سناً مثل سنه)[3] (فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سناً فوقها[4]، فقال: أعطوه.

فقال: أوفيتني أوفى الله بك. قال النبي ﷺ: إن خياركم أحسنكم قضاءً)[5] رضي الرجل وذهب مسـروراً بما حصل عليه، وتعلّم الصحابة منه ﷺ حسن الوفاء، وحسن الأخـلاق، لكن جابـر بن عبد الله لا يملك ما يقضي به كل دينـه، فاتّجه إلى الرحمة المهـداة يسـأله العون وتفريج هذا الكرب الشـديد، فكان ﷺ له فـي المكان المطلوب والزمان المناسب، و

على باب رسول الله ﷺ كان جابر يتعلم أدباً

يقول جابر رضي الله عنه: (إن أبي قتل يوم أُحُد وترك تسـع بنات كنّ لي تسـع أخـوات)[6] (وتـرك عليه ثلاثين وسـقاً[7] لرجل من اليهود فاسـتنظره جابر فأبى أن ينظره)[8].

لـم يكن هذا اليهودي الوحيد الذي له حق على جابـر، فوالده ترك عليه ديناً غير هـذا. حيـث يقول (إن أبي ترك عليه ديناً، وليس عندي إلاّ مـا يخرج نخلهُ، ولا يبلغ ما يُخرج سنين ما عليه)[9] من دين (فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضاً؟ فأبَوْا)[10]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٥) يعنى أن النبي استلف بعيراً.
(٢) تكلم مع النبي ﷺ بأسلوب غليظ.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٦).
(٤) أي أكبر منها في السن وأغلى في الثمن.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٥).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٢).
(٧) الوسق يساوي ستين صاعاً.
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٩٦) أي لم يمهله ويؤجل سداده.
(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٥).

ورفضوا التنازل عن أي شـيء (فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه؟ فأبوا، ولـم يروا أن فيه وفاءً، فأتيـت النبي ﷺ)[1] (فدققت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا. فقال ﷺ: أنا! أنا!، كأنّه كرهها)[2] لأن كلمة: (أنا) ليسـت إجابة، ولا تعريفاً بالطارق، بل هي اسـتدعاء لمزيد من الاستفسار والتساؤل، ولو قال جابر: (أنا جابر) لما كره ﷺ ذلك، ولكان أفضل.

تعلّم جابر أدباً رفيعاً من نبيه ﷺ، ثم بثّ للنبي ﷺ شكواه وديونه، وتعنّت الدائنين، فوجده رحيماً معيناً على النوائب والشدائد.

قال جابر للنبي ﷺ: (قد علمت أن والدي قد استشـهد يوم أُحُد وترك ديناً كثيراً، وإنـي أحب أن يراك الغرماء)[3] (فانطلق معي لكي لا يفحـش عليّ الغرماء)[4] ثم يقول: (فاستشـفعت به عليهم فأبوا)[5]و(اسـتعنت النبي ﷺ على غرمائه أن يضعوا من دينه، فطلب النبي ﷺ إليهم فلم يفعلوا)[6] (فاشتد الغرماء في حقوقهم، فأتيت رسول الله ﷺ فكلّمته فسـألهم أن يقبلوا ثمر حائطي ويحللوا أبي..؟ فأبوا. فلم يعطهم رسول الله ﷺ، ولم يكسره لهم، ولكن قال: سأغدو عليك إن شاء الله تعالى.

فغدا علينا حين أصبح، فطاف في النخل، فدعا في ثمره بالبركة فجددته)[7] فقال ﷺ: (إذا جددتـه فوضعته في المربد)[8] (فبيدر كل تمر علـى ناحية)[9] (فصنّف تمرك أصنافاً: العجوة على حدة، وعذق ابن زيد على حدة، ثم أرسل إليّ. ففعلت، ثم أرسلت إلى النبي ﷺ فجاء)[10]، و

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٢٥٠).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٣).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٥).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٠١).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧) والمربد هو مكان يجفف فيه الثمر.
(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧).

(ثم قال: ادع غرماءك)[1] (فلما نظروا إليه أغروا بي[2] تلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات، ثم جلس عليه)[3] (ثم دعا)[4] (ثم قال: ادع أصحابك.

فما زال يكيل لهم حتى أدّى الله أمانة والدي، وأنا والله راض أن يؤدي الله أمانة والدي ولا أرجع إلى أخوتي تمرة، فسلّم والله البيادر كلّها، حتى أني أنظر إلى البيدر الذي عليه رسول الله ﷺ كأنه لم ينقص تمرة واحدة)[5] (فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ما أعطاهم)[6] (فما تركت أحداً له على أبي دين إلاّ قضيته، وفضّل ثلاثة عشر وسقاً، وسبعةٌ عجوة وستةٌ لون، أو ستةٌ عجوةٌ وسبعةٌ لون، فوافيت رسول الله ﷺ المغرب فذكرت له ذلك، فضحك، فقال: ائت أبا بكر وعمر فأخبرهما. فقالا: لقد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع أن سيكون ذلك)[7] (ثم جئت رسول الله ﷺ وهو جالس فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ لعمر: اسمع -وهو جالس- يا عمر: فقال عمر: ألا يكون قد علمنا أنه رسول الله، والله إنك لرسول الله)[8].

وانصرف جابر إلى أخواته مبشّراً بكرامة الله لوالدهن في حياته وبعد مماته، فقضاء الدين بهذه الطريقة لا يمكن إلاّ أن يكون إكراماً من الله لذاك الشيخ الراحل.. ذلك الشيخ الذي عانى الكثير.. الكثير من أجل لقاء الله، وهو إكرام لهذا الشاب الذي رضي بقضاء الله وقدره، وحمل وهو صغير أمانة ضخمة وثقيلة، وهل هناك أثقل من إعالة أسرة كبيرة كهذه! وهل هناك أثقل من دين يطالبك به يهودي..؟!

أجل هناك، وفي بيت سعد بن الربيع الشهيد الكريم، الذي ناصف عبد الرحمن ابن عوف ماله وأهله.. في بيت هذا الربيع الممتد كالبصر حلّ الجفاف والفقر، لقد

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).
(٢) هيجوا بي.. أي أثاروا.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٠١).

ذهب مال سعد بن الربيع وثروته مع الريح والجشع.. سعد بن الربيع رضي الله عنه لم يترك ســوى زوجته وابنتيه وثروته، ولا أدري هل طلّق زوجته الثانية أم توفّيت..؟ لكن الذي أعرفه أن ماله قد ذهب، فـ:

من أخذ مال سعد بن الربيع؟

ها هي أم الفتاتين.. زوجة ســعد بن الربيع، وبعد مرور أيام وشهور تخرج حزينة على زوجها وبناتها.. تتجه نحو النبي ﷺ تسأله حلاً.. تسأل الله فرجاً، فلا سعد ولا بناته يستحقون كل هذه المعاناة. تقف تلك الحزينة أمام الرحمة المهداة.. (جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أُحد «معك» شهيداً وإن عمّهما أخذ مالهما، فاستفاءه[1]، فلم يعد لهما مالاً، والله لا تنكحان إلاّ ولهما مال[2].

فقال رسول الله ﷺ: يقضي الله في ذلك.

فأنزل الله عليــه آية الميراث)[3]، وهي ضمن قوله ســبحانه وتعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾[4].

---

(١) اخذه غنيمة له مثل المال الذي يؤخذ دون حرب ولا جهد.

(٢) أي انه لن يرغب أحد فيهما وهما معدمتان.

(٣) حديث حسن انظر: ما بعده فهو جزء منه.

(٤) سورة النساء: الآيات ٩ - ١١.

(فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمّهما، فقال: أعطِ ابنتي سعد الثلثين، وأمّهما الثمن، وما بقي فهو لك)[1].

إنها قسمة الله، لا قسـمة الجاهلية والعادات والتقاليد.. آية تغسل قلب سامعها من الجشـع.. تغسله بأنهار العطف والرأفة.. تجعله في مكان المفجوع بنفسه.. تجعله يشـعر بمرارة اليتـم.. بليل اليتم يخيّم علـى أبنائه، فإذا لم يكـن صاحب قلب رقيق ومرهف، فالآية التي بعدها تصدع قلبه المتحجر، وتملأ بطنه الجشـع بالجمر والنار، وتقذف به في الجحيم والسعير الذي لا ينطفئ، أما الآية الثالثة، فرحمة الله بالأولاد أكثر من رحمة آبائهم بهم. إن الله يوصي الآباء بأبنائهم، والموصي أرحم من الموصى.

وقـد جعل الله نصيب الذكر أكثر من نصيـب الأنثى في الميراث مرتين، لأن على الذكـر مسـؤوليات تجاه الأنثى عديـدة، فالرجل يجب عليه الإنفـاق على أمه وأخته وزوجته وابنته، وهو الذي يدفع المهر لزوجته، بل يجب عليه أن يكسو زوجته، وأن يقدم لهـا الطعـام جاهزاً للأكل، كما قال ﷺ: (حق المرأة على الـزوج أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسـى)[2] إنها فريضة من الله، وهو الذي خلق هذا الإنسان، وهو أعلم به وأحكم، وأدرى بما يجعل حياته سعيدة مشرقةً دائماً.

وقد بيَّن ﷺ أن الفتاتين لهما حكم ما فوق الاثنتين عندما خاطب شقيق سعد بن الربيع. أخبرنا بذلك جابر بن عبد الله الذي تراكمت عليه المسؤوليات، وربما كانت هي سـبب مرضه الآن.. إنه يعاني من وعكةٍ ألزمته الفراش بين أخواته يمرضنه، ويخشين أن يغادرهن كما غادر والدهن.. لقد اشـتدّ به المرض فلم يعد يعقل شيئاً، وانتقل خبر مرضه إلى رسـول الله ﷺ، فاتجه هو وصاحبه أبـو بكر رضي الله عنه إلى حي بني سلمة لزيارة جابر ذلك الشاب الصغير الذي احتفى به عليه السلام كثيراً.

---

(١) سنده حسن رواه ابن سعد ٣-٥٢٤ واللفظ له عدا «معك» وأحمد ٣-٣٥٢ من طرق عن عبد الله بن محمد بـن عقيل وهو تابعي حسـن الحديث عن جابر. والراوي عن ابن عقيل هو عبيـد الله بن عمرو الرقي: ثقة. التقريب ٣٧٣.

(٢) حديث صحيح -صحيح الجامع (١/٦٠٢).

يقــول رضي الله عنه: (مرضت فجاءني رســول اللــه ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان)[1] (في بني سلمة)[2] (فأتاني وقد أغمي علي)[3] (فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعــا بماءٍ، فتوضأ منه ثم رشّ علي، فأفقت. فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟)[4] (يا رسول الله إنما لي أخوات)[5] (يا رسول الله لا يرثني إلاّ كلالة فكيف الميراث)[6] (كيف أقضي في مالي، كيف أصنع في مالي؟ فما أجابني بشيء حتى نزلت آية الميراث)[7]، وهي الآية التي بعد الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[8].

فهو أعلم بخلقه، وأدرى بما يجعلهم سعداء في الدنيا والآخرة.. إنه يكرمهم بآيات الميراث، ويحفظ حقوق الأيتام والورثة، وفي ذلك تكريم للكريم سعد بن الربيع، وتكريم لعبد الله بن حرام.

وتمــرّ أيام فينهض جابر من مرضه الذي ألمّ به، ولئن كان المرض قد غادر جابر، فإن هناك من تغلغل المرض في جســده ولم يغادره حتى الآن.. في المدينة رجل هاجر إلــى النبي ﷺ وحيداً بعد أن أرغم علــى مفارقة زوجته وهو في الطريق، فقد أرغمه

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٧٧).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٧٧).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٦٧٤٣).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥٦٧٦).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).
(٨) سورة النساء: الآية ١٢.

أهلها على تركها والرحيل دونها ودون ابنها .. إنه الصحابي الجليل أبو سلمة الذي يهاجمه المرض بضراوة الآن، وتنقض على جسده جراحات أُحُد، وحوله أبنه وزوجته المجاهدة الصابرة، ذات الهجرة العسيرة والذكريات المريرة .. إنها تبكي الآن، وهي تعاني وداع زوجها الحبيب .. إنه لن يرى هذا الجنين الذي يسكن أحشاءها .. لن يداعبه، ولن يتمتع بطفولته.

مات أبو سلمة رضي الله عنه، فبكت أم سلمة وبكى أحبابه، لكن مرارة الحزن لم تنس هذه المؤمنة الصابرة نفسها .. لقد صبرت في السابق، وها هي الآن تتحامل على جراحها .. تنهض من بين آلامها .. تتوجه نحو النبي ﷺ تسأله ماذا تقول في مصابها الأليم هذا .. تسأله حتى لا تقع في ذنب النواح والاعتراض على قضاء الله وقدره.

تقول رضي الله عنها: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا حضرتم الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون. فلما مات أبو سلمة قلت: يا رسول الله، كيف أقول؟

قال ﷺ: قولي: اللّهمّ اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى حسنة)[1].

فدعت أم سلمة بتلك الدعوة، وارتفعت دعوتها إلى الباري فاستجاب لها. ف

ما هي عقبى أم سلمة

سنعرف ذلك لاحقاً، أما الآن فسنترك «هند» أم سلمة وأحزانها ودعاءها إلى أحزان أخرى .. أحزان تراكمت على صدر صحابي كريم، وملأت بيته حتى ضاق به .. عثمان بن عفان الذي فقد حبيبته رقية بعد غزوة بدر، وفقد قوته في غزوة أحد، فهرب من المعركة بعد هزيمة المسلمين ونزول الرماة من الجبال .. عثمان يعيش حالة من الحزن والأسف لا يحسد عليها. لا أدري ما مبرّرات هروبه من المعركة، وهو الذي شارك في صناعة الانتصار وإلحاق الهزيمة بالمشركين في أوّل النهار؟ مهما كانت المبرّرات، لقد حدث ما حدث لهذا الصحابي العظيم، وهو بشر غير معصوم، والله أرحم من أن يدعه للأحزان تفتك به وتغتاله. لقد ضاقت به الدنيا ففرجها الله مرتين:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٣٣.

أما الأولى فقد أنزل الله فيه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة.. أنزل الله عفوه ورحمته به، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[1].

وفـي ذلك يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب عـن عثمان: (أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له)[2]..

فرح عثمان بهذه الآية، وانزاح همّه الثقيل.

وأما الثانية: فقد أقبل عليه النبي ﷺ يبشـره بهذه الآيات، ويبشّـره بعودة الصهر بينهما، فقد وافق ﷺ على تزويجه من ابنته أم كلثوم، فأي سعادة يعيشها عثمان الآن؟ لقد عرف الناس بعد هذا من هو عثمان، وما منزلته عند الله وعند رسوله، فلقبوه بلقب يشع من بيت النبوة.. لقبوه بـ: (ذي النورين) وهو أسعد الناس بعرسه ونسبه وحبّ الله ورسـوله، وأم كلثوم تشـاطره كل ذلك وتتعطّر به، أما أختها فاطمة فسعيدة بأختها أم كلثوم، وسعيدة بهدية جميلة تقدمها لأبيها ولزوجها عليّ رضي الله عنهم جميعاً.

وبينمـا كان الجميع يترقّبون الهدية بفـرح.. كانت هناك امرأة مهمومة.. يتملكها الفزع مما قد يحدث للنبي ﷺ أو لفاطمة.

الرؤيا من جديد تخيم كالخوف على عالم امرأة صالحة تدعى (أم الفضل) وهي زوجة عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب، التي تركت مكة والعباس إلى الله ورسوله ﷺ، فما هي:

رؤيا أم الفضل

تقـول رضي الله عنهـا: (رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضاء رسـول الله ﷺ، فجزعت من ذلك، فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك لـه؟

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

فقال ﷺ: خيراً، تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم.

فولدت)[1] فاطمة.. ولدت حباً جديداً للنبي ﷺ ملك عليه قلبه.

فاطمة تلد حرباً

سـماه والده: (حرباً).. إنه يملأ بيت النبوة برائحة الأحفاد االبريئة المنعشة.. (حرب) يزاحم أمه وأباه في قلب جده ﷺ، وقد بُشّر بمولد هذا الطفل الجميل، فجاء ﷺ والسعادة تملأ صدره، فوجد الابتسام والفرح يغمران المكان، عليٌّ سعيدٌ، وفاطمة أكثر سعادة.

يقول عليّ رضي الله عنه: (لما ولد الحسـن سـميته حرباً، فجاء رسـول الله ﷺ فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلت: حرباً.

قال ﷺ: بل هو حسن)[2].

غيّر ﷺ ذلك الاسـم الحاد باسـم جميل.. يدخل البهجة علـى النفوس، فحمل المولود الطاهر اسـمه الجميل، وحمله ﷺ بين يديه وقبّله، وفعل شيئاً رآه أحد موالي النبي ﷺ الذي كان يشـارك بيت النبي ﷺ فرحتهم بهذا القادم الحسـن، فسـألناه: أخبرنا يا أبا رافع.. ماذا رأيت..؟

أبو رافع رضي الله عنه يصف ذلك المشـهد المفرح الذي لم يدخل السـرور على بيـت النبي ﷺ فقط، بل امتدت بهجته وبركتـه إلى أحوج الناس إلى البهجة، فيقول: (لما ولدت فاطمة حسناً قالت: ألا أعقّ عن ابني بدم «بكبشين»؟.

---

(١) سـنده حسـن رواه أحمد (٦/٣٣٩) واللفظ له، والطبراني (٣/٥-٩) وروى آخره من الطريق نفسـها ابن خزيمة (١/١٤٣) وحسـنه أستاذنا الشـيخ محمد مصطفى الأعظمي حفظه الله، ووافقه الإمام الألباني فلم يعلق عليه، وحسـنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/٨٥) وصحيح أبي داود (١/٧٥).. وسند أحمد هو: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا إسـرائيل عن سـماك عن قابوس بن المخارق عن أم الفضل. وقابوس تابعـي لا بـأس به - التقريب (٤٤٩) ولا يضره أن يكون قد جاء - عند الطبراني أنه رواه عن أبيه عن أم الفضل فأبوه صحابي. وسماك بن حرب تابعي صدوق وروايته هذه ليست عن عكرمة - التقريب (٢٥٥) وإسرائيل ثقة معروف مر معنا كثيراً - التقريب (١٠٤) وقد توبع.. وتلميذه ثقة من رجال البخاري ومسلم (السابق -٥٩٢).

(٢) سـنده قـوي رواه أحمد ١-٩٨ و١١٨ واللفظ له والبخاري فـي الأدب (٢٨٦) وغيرهم من طرق عن أبي إسـحاق السبيعي عن هاني بن هاني عن علي. أبو هاني تابعي وثقه االعجلي والنسائي. التهذيب ١١-٢٢ وله شاهد عند الطبراني بسند منقطع.

قال ﷺ: لا، ولكن احلقي رأســه وتصدّقي بوزن شــعره من فضّة على المســاكين والأوفاض (وكان الأوفاض ناســاً من أصحاب رسول الله ﷺ محتاجين في المسجد أو الصفة) ففعلت ذلك)[1] وتصدّقت على الفقراء والمحتاجين، لكن ماذا عن:

عقيقة الحسن

ماذا عنها والنبي ﷺ يقول: (كل غلام رهينة بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويحلق رأسه، ويسمى)[2]..؟

لقد أحب ﷺ أن يقدم بنفســه عقيقة الحســن، حيث يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن رســول الله ﷺ عقّ عن الحسن)[3] (كبشين)[4]، ووقت العقيقة الأفضل هو قوله ﷺ: (العقيقة تذبح لسبع، أو لأربع عشرة، أو لإحدى وعشرين)[5].

وفي يوم جميل بالحَسَــن أكل الفقراء وأهل الصفة من العقيقة، وشــاركوا النبي وأهل بيته الاحتفاء بالحسن، أما هذا الطفل الحسن رضي الله عنه فقد أرضعته أمّه فاطمــة، ثم بعث به ﷺ إلــى تلك المرأة الصالحة، التي رأت في منامها بشــرى ولادة الحسن.. بعث ﷺ بالحسن إلى أم الفضل، وها هي تحدّثنا عن رضاعته، وعن ضربه وعن حبه.

أم الفضل تضرب الحسن

تقــول رضي الله عنهــا: (رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضاء رســول الله ﷺ، فجزعت من ذلك فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك. فقال ﷺ: خيراً، تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم.

---

(١) سـنده حسـن رواه الطبراني ٣-٣٠ وابن الجعد ٣٢٤ وأحمد ٦-٣٩٠ من طريق شـريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن علي بن الحسـين عن أبي رافع. وروى أحمد متابعة أبي النضر لشـريك، وهو حسن من أجل ابن عقيل. التقريب ٣٢١.

(٢) صحيح الجامع (٢-٨٣٥).

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود ١-٢٨ عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس، وهذا سند صحيح والنسائي ٧-١٦٤ عن حسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه والحاكم ٤ -٢٦٥ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأبو يعلى ٥-٣٢٣ عن أبي الزبير عن جابر وعن جرير عن قتادة عن أنس ٣-٤٤١ وغيرهم.

(٤) حديث صحيح عند الحاكم وأبي يعلى كما مر في التخريج السابق.

(٥) صحيح الجامع (٢/٧٥٩).

قالت رضي الله عنها: فولدت حسناً فأعطيته، فأرضعته حتى تحرك أو فطمته، ثم جئت به إلى الرسول ﷺ، فأجلسته في حجره فبال، فضربت بين كتفيه. فقال ﷺ: ارفقي بابني رحمك الله (أو أصلحك الله) أوجعت ابني. قلت: يا رسول الله اخلع إزارك والبس ثوباً غيره حتى أغسله.

قال ﷺ: إنما يغسل بول الجارية، وينضح بول الغلام)[1] أي يرشّ بول الصبي إلاّ إذا صار يأكل الطعام، فعند ذلك يغسل بوله، والحسن ما زال رضيعاً.. ينعم بقلب جده ﷺ وقبلاته وأحضانه.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ يمصّ لسانه أو شفته (يعني الحسن بن علي صلوات لله عليه) وإنه لن يعذب لسان أو شفتان مصّهما رسول الله ﷺ)[2].

ذلك الطفل البريء.. ذلك البرد الطهور.. الحسن بن علي رضي الله عنه يملأ قلب النبي ﷺ ويملكه، وتمرّ الأيام فيكبر، ويزداد شبهه بالنبي ﷺ، فيقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي)[3].

يكبر الحسن ويكبر حبّه بين حناياه ﷺ، فيقول البراء رضي الله عنه: (رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه يقول: اللّهمّ إني أحبه فأحبه)[4]، ويبدأ الحسن يلثغ بالكلمات.. يتعثّر في نطقها.. يقلّبها.. يعبث لسانه الصغير بأحرفها، فيزداد حسناً وبهاءً، ويبدأ الخطو واللعب، ويخرج إلى الطريق ليلعب مع الأطفال، فيراه والده وأبو بكر رضي الله عنهما وهما يمشيان، فيسرع إليه أبو بكر ويأخذه من فوق الأرض ليجعله فوق عنقه، ويدلي قدميه الناعمتين على كتفيه، ويفديه بأبيه ويردّد كلمات تضحك والده علياً.

---

(١) سنده حسن وهو حديث أم الفضل السابق. وقد ثبت علميا أن هناك فرقا بين بول الغلام والبنت الرضيعين، راجع لمعرفة ذلك موقع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٩٣ حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا حريز عن عبد الرحمن ابن أبي عوف الجرشي عن معاوية: هاشم ثقة ثبت، التقريب ٥٧٠ وحريز أوثق منه التهذيب ٢-٢٣٧ وعبد الرحمن تابعي كبير ثقة، التقريب ٣٤٨. ولك أن تتصور مدى الأمانة العلمية لدى رجال هذا السند رغم سلوكيات بعضهم تجاه علي رضي الله عنه. فمعاوية حاربه، وحريز ناصبي ومع ذلك يأبى عليهم إيمانهم وصدقهم أن يخفوا مثل هذا الخبر، وهي شهادة لعلم الجرح والتعديل ونقاده رحمهم الله، ومدى دقتهم في ذلك.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٥٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٤٩).

يقول أحد الصحابة الذين شاهدوا حب أبي بكر للحسن: (صلّى بنا أبو بكر العصر، ثم قام وعلي يمشيان، فرأى الحسن يلعب مع الغلمان، فأخذه أبو بكر، فحمله على عنقه، وقال:

بأبي شبيه النبي ليس شبيهاً بعلي

وعليّ يبتسم)[1] (ويضحك)[2].

ولا يلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك.. إنه ابن حبيبه وصاحبه ونبيّه، وحبّه من الإيمان، وأبو بكر متضلع بالإيمان وحب آل بيته وحب هذا الطفل الجميل. أبو بكر يفعل ما كان ﷺ يفعله بالحسن، حين يقول البراء بن عازب: (رأيت النبي ﷺ واضعاً الحسن على عاتقه «وهو يقول: اللهم إني أحبه فأحبه»، وقال: من أحبني فليحبه)[3] لم يكن الحسن فوق عاتق النبي ﷺ فقط.. كان يتمشى في قلبه ويتجول في غرفاته وممراته.. كان يحتل قلبه وجسده ومشاعره.. ها هو رجل من الأزد يبلغ الدنيا وصية نبيّه ﷺ وهو يحتضن الحسن داخل حبوته، فيقول: (أشهد لقد رأيت رسول الله ﷺ واضعه في حبوته وهو يقول: من أحبّني فليحبه، وليبلغ الشاهد الغائب)[4].

ولم يكتف هذا الطفل البريء باقتحام قلبه ﷺ، بل تجاوزت براءته كل الحدود، فصار يقتحم على جده ﷺ صلاته.

ها هو الحسن يدخل على جدّه وهو يصلّي بأبي بكر وعمر وعثمان ووالده علي وبقية الصحابة رضي الله عنهم.. يركض الحسن.. يلهو داخل المسجد، ويتّجه نحو جده ﷺ، فيقفز على ظهره الشريف، ويمتطيه كفارس مغوار.. فماذا فعل ﷺ؟ وما موقف والده وبقية الصحابة من فرح ذلك الطفل واقتحامه عالم النبي ﷺ وهو خاشع مع ربه..؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٤٩/٣) بسند البخاري وهو عند البخاري (٣٥٤٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٤٢).

(٣) سنده صحيح رواه أبو الطياسي ٧٣٢ واللفظ له والترمذي ٣٧٨٣ والزيادة له عن شعبة عن عدي بن ثابت سمعت البراء.. وعدي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٣٨٨.

(٤) سنده صحيح رواه البخاري خلق أفعال العباد (٩١) والحاكم ٣-١٩٠ وأحمد ٥-٦٦ من طريق شعبة عن عمرو بن مرة سمعت عبد الله بن الحارث يحدث عن زهير ابن الأقمر عن الرجل الأزدي. زهير تابعي ثقة وليس كما قال الحافظ: مقبول ٦٦٨ وتلميذه ثقة التهذيب ٥-١٨٢ وعمرو بن مرة أوثق من الاثنين ويشهد للحديث ما قبله.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن رسول الله ﷺ كان يصلّي، فإذا سجد وثب الحسن على ظهره وعلى عنقه، فيرفع رسول الله ﷺ رفعاً رفيقاً لئلا يصرع (فعل ذلك غير مرة) فلما قضّى صلاته، قالوا: يا رسول الله رأيناك صنعت بالحسن شيئاً ما رأيناك صنعته. قال ﷺ: إنه ريحانتي من الدنيا)[1].

نبي لا يقاوم عطر الطفولة المنعش.. وبراءتها التي تهزم القلوب.. طفولة منحها الإسلام مساحة من الحب والرحمة والتسامح.. مساحة فسيحة.. فسيحة تمتّع بها الحسن، ونعم فيها بطفولته وعفويّته، وتمتع بها أطفال المسلمين من بعده و..

تتمادى البراءة فيتمادى الحب

وتتّسع الرحمة، فرسول الله ﷺ هذه المرة لا يذهب إلى المسجد وحده، بل يحمل حفيده وريحانته الفواحة معه، وهو يعلم ما قد يفعل الطفل أثناء الصلاة.. أحد الذين رأوا ورووا تلك القصة المفعمة بالطفولة والعبادة يتحدّث إلينا.

صحابي اسمه شداد يقول: (خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً[2]، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبّر للصلاة، فسجد بين ظهراني صلاته سجدةً أطالها، فرفعت رأسي، وإذا بالصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدةً أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك..؟!

قال ﷺ: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته)[3].

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٥١ وابن حبان ١٥-٤١٨ والطبراني ٣-٣٤ من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن أخبرني أبو بكرة. وفي هذا السند مدلسان الحسن ومبارك رحمهما الله، أما الأول فصرح بالسماع من شيخه، وأما مبارك فقد توبع عند الطبراني ٣-٣٤ تابعه إسماعيل بن مسلم، فإن كان العبدي فهو ثقة، وإن كان المكي فهو ضعيف.

(٢) أو حسيناً كما جاء في النص وفعلت ذلك من أجل السياق.

(٣) حديث صحيح رواه أحمد ٣-٤٩٣ والنسائي صحيح الألباني - ١-٢٤٦.

إنها رحمة يشعر بها ﷺ ويحرض أصحابه على الشعور بها.. تقول عائشة رضي الله عنها: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: تقبّلون الصبيان؟ فما نقبلهم.!

فقال النبي ﷺ: أَوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[1].

و(قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يُرحم)[2].

ورسول الله ﷺ يقول عن نفسه: (إنما أنا رحمة مُهداة)[3]، فهل هناك ألذ من الرحمة وأجمل من الهدية.. لقد كان بين أضلاعه قلب كالنسيم البارد خلال القيظ والهجير.. كان سلوكه مطراً لذيذاً على شفتي صحراء تتلمظ عطشاً.

ذات يوم وبينما كان ﷺ يخطب أصحابه على منبره، إذ به يذهل عن خطبته وعن الناس من حوله، بل وعن نفسه.

الرحمة تذهله ﷺ

عبد الله بن عمر بن الخطاب رأى وسمع ما حدث، وأدهشته تلك الرحمة فقال رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس، فخرج الحسن بن علي رضي الله عنه في عنقه خرقة يجرّها، فعثر فيها، فسقط على وجهه فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر يريده، فلما رآه الناس أخذوا الصبي فأتوه به، فحمله فقال: قاتل الله الشيطان، إن الولد فتنة، والله ما علمت أني نزلت عن المنبر حتى أوتيت به)[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٩٨).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٩٩٧).

(٣) حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير (٤٦٣/١).

(٤) سنده قوي، رواه الطبراني ٣-٣٥ حدثنا عبد الله بن علي الجارودي، حدثنا أحمد بن حفص، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عباد بن إسحاق، عن زيد بن أبي العتاب، عن عبيد بن جريج عن ابن عمر.. وعبيد وزيد تابعيان ثقتان من رجال التقريب، وعباد بن إسحاق صدوق واسمه عبد الرحمن. التهذيب ٦-١٣٧ وإبراهيم ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٩٠ وأحمد ووالده صدوقان من رجال البخاري وشيخ الطبراني حافظ من أئمة الأثر أثنى عليه الحاكم والناس انظر: البلغة لحماد الأنصاري حفظه الله (١٩٤).

لم تكن الرحمة للحســن وحده.. فهناك طفلة تنافسه.. وردة اسمها «أمامة» بنت زينب رضي الله عنها.. كانت أمامة ملء ســمعه وبصــره.. تتعلق به عيناها البريئتان، وتمد يداها الصغيرتان وهو يهم بالخروج للمسجد، فيستسلم قلبه لتلك البراءة العذبة، فيحملها ويضمها ويقبلها، ويأخذها معه إلى المسجد وهو يريد الصلاة بصحابته رضي اللــه عنهم. فيراه أحدهم وهو «أبو قتــادة» فيقول: (خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلّى، فإذا ركع وضع، وإذا رفع رأســه رفعها)[1]، (فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها)[2].. يفعل ذلك أثناء صلاته بالمؤمنين.

ولــم تكن تلك الرحمــة والملاطفة منــه ﷺ لأولاده فقط، بل كان يشــمل بها أبناء المسلمين.. ها هو يزور دار أحد الأنصار.. دار (الربيع بن سراقة الخزرجي)، فيجد طفلاً صغيراً اسمه محمود، فيبدأ بملاطفته وملاعبته، ثم يتناول ﷺ دلواً على حافة البئر، ثم يملأ فمه الطاهر بالماء، ثم يقترب من الصغير ويلاحقه فيطشّ الماء في وجهه.

حركة تثير الضحك والركض والاختباء البريء لدى الأطفال.. حركة تجلب السعادة.. مازال محمود يذكرها، ويذكر الناس بها، وهو يقول: (عقلت من النبي ﷺ مجّة مجّها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين)[3] (مجها رسول الله ﷺ من دلو في دارنا)[4].

قد يفعل الرجل هذا مع أبنائه وبناته، فهل يفعلها حاكم أو عالم أو وجيه مع أطفال غيره.. ماذا سيقول الناس عن ذلك..؟ ماذا سيقول الجهل عن ذلك..؟ لكن محمداً ﷺ فعل ذلك مع ذلك الطفل (من بئر في دارهم)[5]، بل لقد بلغ به التواضع والرحمة أعماقاً وآفاقــاً بعيدةً.. بعيدة.. تعال معي إلى هذا المشــهد المضحك المبكي في طرقات مدينة النبي ﷺ.. مشهد لـ:

النبي ﷺ والإماء والمعاقين

حيث نرى النبي ﷺ يمشــي في الطرقات تقوده أمةٌ أو امرأة في عقلها شــيء.. دون أن ينهرها، أو يطالبها بالتوقف، أو يطالب أهلها بردعها عن مجلســه.. كان يجعل

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٩٦).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٦).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٧).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٦٤٢٢) .
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١١٨٥). حديث صحيح رواه البخاري (مشكاة المصابيح - ١٦١٧/٣).

لهـا من قلبه ووقته نصيباً كالآخرين.. يقوم مـن مجلس قد يجلس فيه أبو بكر وعمر وعثمـان وعلـي إلى امرأة في عقلها اضطراب.. يسـتمع إليهـا، وينصت حتى تنتهي وتقضي حاجتها..

يقول أنس رضي الله عنه: (كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت)[1]، ويقول: (إن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة؟ فقال: يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك.

فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها)[2].

كان ﷺ جنّة من المشاعر.. ينعم بها الجميع، حتى ضعاف العقول.. حتى العصافير والطيور.. كان ﷺ جدول حب يشرب منه الجميع فيرتوون.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجتـه، فرأينا حمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولده؟ ردوا ولدها إليها.

ورأى قريـة نمل قد أحرقناهـا، فقال ﷺ: إنه لا ينبغي أن يعـذب بالنار إلاّ رب النار)[3].

كان ﷺ يتغيّـر وجهـه ويتألم لمنظر الفقراء، فلا يقرّ له قرار حتى يذهب ما بهم، فإذا لم يجد سوى الكلمات بذلها يريح بها نفوسهم ويقوّيهم بها.

يقـول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (كنّا عند رسـول الله ﷺ في صدر النهار، فجاء قوم عراة، حفاة، متقلّدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلّهم من مضر، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلّى ثـم خطب فقـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾)[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢٣٢٦).

(٣) حديث صحيح: انظر: صحيح سنن أبي داود (١٦١٨/٣).

(٤) سورة النساء: الآية ١.

و﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[1].

تصـــدّق رجل من دينـــاره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقّ تمرة.

فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفّه تعجز عنها، بل لقد عجزت، ثم تتابع الناس حتـــى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رســول الله ﷺ يتهلّل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شــيئاً)[2]، أي من أحيى ســـنة من سنن الإسلام، ودلّ عليها فله ذلك الأجر، ومن ابتدع في الإسلام سنة لم يأت بها النبي ﷺ فعليه ذلك الـــوزر المخيف، ويقول ﷺ: (مـــن دلّ على خير فله مثل أجره فاعله)[3]، و(من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)[4]. كانت تلك الصدقات ســـنة حســـنة.. تهلّل وجه النبي ﷺ عندما رآها، لأنه رأى الجوع والعري ينزاح عن أولئك المســـاكين، الذين أحسّـــوا بالحياة تســـري في عروقهم من جديد، لكن الرحمة أحياناً تســـتغل.. يســـتغلها الأوغاد واللئام، وذلـــك لا يعني أن يتوقـــف تدفقها للتوقعات والظنون.. رحمتـــه وكرمه ﷺ متدفق دون توقف، حتى مع الخونة إلى أن يظهروا الخيانة ويمارسوها جهاراً كما في هذه القصة:

قصة أولها رحمة وآخرها جحيم

مجموعة من اللصوص من عكل وعرينة.. مجموعة من الأوغاد ســـمعوا برحمته ﷺ، وبشفقته على أصحابه وعلى الناس جميعاً، فظنّوا أن بإمكانهم استدرار رحمته، واستدراج طيبتـــه، ثم الضحك عليه بعد نـــوال عطائه. جاء هؤلاء إلى المدينة وتظاهروا بالإســـلام (وبايعوه ﷺ)[5] لكن حمى المدينة أصابتهم، فأشفق عليهم ﷺ عندما قالوا: (يا نبي الله،

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٨.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٠١٧) الزكاة والنسائي (الصحيح ٢-٥٣٩).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٩٣).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٩٧).
(٥) حديث صحيح - رواه مسلم - القسامة.

إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة)[١] (فقال لهم رسول الله ﷺ: إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة، فتشربوا من ألبانها وأبوالها)[٢] (فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ[٣]، وراعٍ، أمرهم فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها)[٤].

أجل أمرهم بشرب أبوال الإبل، وهي معجزة طبية ثبتت علمياً في ألفيتنا الثالثة كدليل على نبوته[٥] (فانطلقوا، فشربوا من أبوالها وألبانها حتى صحوا وسمنوا)[٦] (فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا النعم)[٧] و(سملوا أعين الرعاء)[٨] أي فقأوا عينيه بالحديد. (فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم)[٩] (فجاء الخبر في أوّل النهار، فبعث ﷺ في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم، فأمر بقطع أيديهم، وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وألقوا في الحرّة، يستسقون فلا يسقون)[١٠] (ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا)[١١].

ما ذنب ذلك الراعي المسكين الذي اعتنى بهم وبصحتهم..؟ سقاهم ومرّضهم وأطعمهم، فكان جزاؤه أن فقأوا عينيه ثم قتلوه!! إن فقأهم لعيني الراعي قبل قتله دليل على توغّل الإجرام والحقد في نفوس هؤلاء الأنذال، الذين جمعوا كل صفات الخسّة والدناءة.. كفروا، وقتلوا، ومثّلوا، وخانوا، وسرقوا، فكان عقابهم شديداً بحجم جريمتهم. إن أمثال هؤلاء الرعاع والجهلة وقطاع الطرق يشكلون خطراً على كل أرض يطأونها، ولا يمكن أن يوقف نزيف الخوف والدم الذي يسفكونه سوى السيف البتّار. أمثال هؤلاء يغريهم ضعف الضعيف، وحلم الحليم وتسامح الكريم، فينشرون من خلال ذلك الرعب في قلوب الحجاج والتجار والمسافرين.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢) ومعنى استوخموا أي لم يوافق مناخها أجسادهم.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٦٧١) القسامة.

(٣) الذود هو القطيع من الإبل.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢).

(٥) للدكتورة فاتن خورشيد براءة اختراع حول هذا الموضوع وللدكتورة أحلام العوضي وزميلاتها أبحاث أخرى مبهرة حول بول الإبل كما نشرت جريدة الرياض الجمعة ٢٤ - شوال خبراً عن براءة اختراع أخرى.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠١٨).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٣).

(٨) حديث صحيح رواه مسلم -القسامة (١٦٧١).

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢).

(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠١٨).

(١١) حديث صحيح رواه مسلم -القسامة (١٦٧١).

ربما أغرى هؤلاء الأجلاف ذلك الإنكسار الذي حدث للمؤمنين في غزوة أحد، وربما كانوا طلائع خيانة واستكشاف لمجرم قابع في عرنه.. يجمع جيشاً لاقتحام المدينة ونهبها.. مجرم يثير القشعريرة.. اسمه (خالد بن سفيان بن نبيح) يقود بني لحيان.

علم ﷺ بذلك المخطط، لكنه فكّر بطريقة آمنة يتخلّص فيها من حرب ضروس بطعنة واحدة.. يحقن فيها دماء جيوش تحتاج إلى دمائها ورجالها. فكّر ﷺ بـ:

اغتيال خالد بن سفيان

وقع اختيار رسول الله ﷺ على فارس مغوار يختصر المسافات والأحداث.. يجمع الجيوش والآلام والنواح بطعنة واحدة.

وقع اختياره ﷺ على فارس يدعى (عبد الله بن أنيس) فتعالوا إلى الأحداث والحديث، وفارسنا الذي يقول: (دعاني رسول الله ﷺ فقال: إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة، فأته فاقتله. قلت: يا رسول الله، انعته[1] لي حتى أعرفه. قال ﷺ: إذا رأيته وجدت له قشعريرة [قلت: والذي أكرمك ما هبت شيئاً قط].

فخرجت متوشحاً سيفي، حتى وقعت عليه بعرنة «مع ظعن[2] يرتاد لهن منزلاً»، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت له ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصلّيت وأنا أمشي نحوه، أومئ برأسي الركوع والسجود.

فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا. قال: أجل، أنا في ذلك [قلت: باغي حاجة فهل من مبيت؟ قال: نعم فالحق بي] فمشيت معه شيئاً، حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركته ظعائنه مكبّات عليه، [ثم غشيت الجبال ولجمته حتى إذا ذهب الناس خرجت حتى] قدمت على رسول الله ﷺ، فرآني، فقال: أفلح الوجه. قلت: قتلته يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «صدقت».

---

(١) أي صفه لي.
(٢) نساء.

ثم قام معي رسـول الله ﷺ، فدخل في بيته فأعطاني عصا، فقال: أمسك هذه عنـدك يا عبد الله بن أنيس. فخرجت بهـا على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسـول الله ﷺ وأمرني أن امسكها. قالوا: أوّلا ترجع إلى رسـول الله ﷺ فتسـأله عن ذلك؟ فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقلّ الناس المتخصرون يومئذٍ يوم القيامة، فقرنها عبد الله بسيفه)(1) الذي حطم صنماً وخطراً في دروب المؤمنين.. إن هذا النوع من الاغتيال لم يكن باجتهاد فردي.. لم يقم به أحد من أصحابه حماساً وتطوعاً، وهم قـادرون علـى أكثر من ذلك.. إنها دماء لا يجوز الخـوض فيها دون الرجوع إلى النبي الإمام- النص، وإلا فإنها ضرب من التهور غير المبرر.

لـم يكن عبد الله بن أنيـس وحده الذي يبعث في سـرية مكوّنة من فرد واحد.. كان هناك من ينافسه.. رجل شديد البأس قويّ البنية.. جسور لا يهاب الموت.. يعشق الشهادة.. كان ﷺ يبعثه إلى أعماق قريش.. يتغلغل فيها، لا ليقتل، بل لينقذ، ليخلص بعض أولئك المستضعفين في مكة الذي أبقاهم ذووهم في مكة، وقهروهم ومنعوهم من الهجرة، فكانت تلك المهمات:

---

(1) حديث صحيح عدا ما بين الأقواس الصغيرة، وقد حسن الحافظان ابن حجر وابن كثير سند أحمد وأبي داود وهو سند ضعيف، وبقية الحديث هو: فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها، فضمت معه في كفنه، ثم دفنا جميعاً، والحديث عند أحمد ٣-٤٩٦ والطبراني (مسند العبادله - ٧٦) وأبي داود (١٢٤٩) مختصراً. وقد ضعفه الإمام الألباني في ضعيف أبي داود (١٢٣) وسـنده عند أحمد وأبي داود محمد بن إسـحاق عن محمد بن جعفر عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه. لكن ابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه الثقة عند أحمد ٣-٤٩٦ فتبقى مشـكلة ابن عبد الله بن أنيس، وعنـد الرجوع للتقريب نجد أن الحافظ قال: إن اسمه: ضمرة أو عمرو، أو دون اسم.. ولكن عندما نرجع إلى سنن البيهقي ٣-٢٥٦ نجد أنه قد سماه بـ عبيد الله، وهو الأصوب والأصح للتصريح من تلميذه باسـمه.. لكن معرفتنا باسـمه لا تفي بالفرض، فالرجل تابعي لم يوثق فيحتاج إلى شـاهد أو متابعة، وقد وجدت هذه المتابعة والشـاهد عند الطبراني. حدثـنا مصعب بـن إبراهيم، حدثني أبي، حدثنا عبد العزيز الدراوردي، عـن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن كعب القرظي، قال، قال عبد الله بن أنيس.. وفي هذا السند خطأ فالصواب يزيد بن عبد الملك بن الهاد وهوتابعي ثقة وكذلك محمد بن كعب القرظي وسائر رجال السند ثقات وهو متصل انظر: التقريـب (١/٣٤ - ٥١٢) (٢/٢٠٣-٣٦٧) وشـيخ الطبراني ثقة انظر: مجمـع البحرين (١٥٥/٣) ورواية الدراوردي ليست عن عبيد الله العمري.
فالسند حسن والحديث صحيح بالسندين والزيادات بين المعقوفين من رواية الطبراني.

وكان لمرثد رضي الله عنه صديقة في مكة.. ينزل عليها سـرّاً، وكان يحبها وتحبه وتحفظ سـره وعلاقته بها.. اسـمها: (عناق)، لكن أمراً حدث في المدينة أثار غضب تلك الحسـناء، فخانت مرثد ونادت قريشاً لكي يحاصروه ويقبضوا عليه، فماذا حدث لمرثد بن أبي مرثد..؟

يقول أحد الصحابة: إن (مرثد بن أبي مرثد، كان رجلاً «شـديداً» يحمل الأسرى من مكة، حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغيٌّ بمكة يقال لها (عناق)، وكانت صديقة له، وأنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحتمله،

قـال مرثد: فجئت حتى انتهيـت إلى ظل حائط، من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق، فأبصرت سـواد ظلي بجنب الحائـط، فلما انتهت إليّ عرفتني فقالت: «مـن هذا» مرثد؟ فقلـت: مرثد. قالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبِـتْ عندنا الليلة «انطلق الليلة فبت عندنا في الرحل».

قلت: يا عناق..

حرم الله الزنا

«إن رسـول الله ﷺ حرم الزنا». قالت: يا أهـل الخيام، «هذا الدلدل، هذا الذي يحمل أسراءكم من مكة إلى المدينة».

فتبعني ثمانية، وسـلكت الخندمة[1]، فانتهيـت إلى غارٍ أو كهفٍ، فدخلت، فجاءوا حتى قاموا على رأسـي، فبالوا «فطار بولهم علي»، فظلّ بولهم على رأسـي، وعمَّاهم الله عني. ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي، فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذخر، «فلما انتهيت به إلـى الأراك» ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟

«فسـكت عني»، فأمسك رسول الله ﷺ ولم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾.

---

(١) جبل عند أحد مداخل مكة.

فقال رسـول الله ﷺ: يا مرثـد الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشـركة، والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك، فلا تنكحها)[1].

لأنهـا تحتـرف الزّنا وتصرّ عليه، أما إذا تابت الزانيـة، وتاب الزاني وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة، فيجوز عند ذلك، أمّا إذا لم يتوبوا فهم أمراض متنقلة.. تنخر الأجساد والمجتمعات.

إذاً فهناك رجال يمكن الاعتماد عليهم للقيام بمهام خطيرة ودقيقة، والنبي ﷺ لم يتـردّد في بثّهم هنا وهنـاك، فالمدينة في خطر، والدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى دولة قوية وذكية لنشـرها، فكان لمرثد دور، وكان لعبد الله بن أنيس دور آخر، وللذين داخل المدينة أدوار يؤدّونها تحت قيادة هذا النبي الحكيم.

في إحدى هذه المهمات أراح النبي ﷺ دولته وأصحابه من فتنة عمياء، ومن حرب قـد تكون فادحة الخسـائر، وأراح بني لحيان من كارثة قـد تحلّ بهم على يد قائدهم المتهور خالد بن نبيح، لكن النبي ﷺ لم يكتف بهذه السرية ذات الفارس الفذ، فقريش وبنو لحيان وبعض القبائل أغراهم ذلك الانكسار الذي حدث للمسلمين في أُحُد، لذلك لابدّ من الحذر واليقظة.. لابدّ من دراسـة المنطقة والتعامل معها بحرص، فقد يكون فيها أكثر من خالد بن نبيح.

هنـاك مناطق توتّر مخيفة بين مكة والمدينة.. أشـدّها تلك التي تسـكنها هذيل قبيلة الصحابي الجليل عبد الله بن مسـعود، تلـك القبيلة التي ينتمي لها بنو لحيان، ويسكنها بجوارهم بنو سليم، وإليها ينتمي بطون (رعل وذكوان وعصية) وهؤلاء جميعاً يسكنون قريباً من مكّة، وقد تمّ القضاء على إحدى بؤر التوتّر وهو خالد بن نبيح، لكن بقي من هو أشدّ خطورة منه.. بقي طاغوت من غطفان اسمه (عامر بن الطفيل) هذا الطاغوت كان وقحاً لدرجة أنه جاء إلى المدينة يهدد النبي ﷺ إذا لم يرض بمطالبه.

---

(١) سنده حسن رواه النسائي (الصحيح - ٣٠٢٧) والترمذي (الصحيح - ٣٥٣٨) واللفظ له والزوائد للنسائي، من طريق عبيد الله بن الأخنس أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعبيد الله، ثقة التقريب ٣٦٩ وبقية السند حسن مشهور.

عامر بن الطفيل يهدد النبي ﷺ

يقول أنس بن مالك: (كان رئيس المشركين (عامر بن الطفيل، وكان أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين ثلاث خصال:

أن يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر.

أو: أن أكون خليفتك من بعدك.

أو: أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء)[1].

رفض ﷺ تلك المطالب الطاغوتية، فقد بعثه الله للناس كافةً.. لنشر التوحيد وإزالة الشرك عن هذه الأرض كلها، وإزالة الطواغيت أمثال عامر بن الطفيل، وتحكيم شرعه لا لمقاسمة الأصنام والعادات والتقاليد، ولذلك أخذ ﷺ حذره من ذلك الأهوج، ومن بني لحيان وبني سليم، فقام بعقد عهدٍ بينه وبين جيرانهم بني عامر حتى يأمن اتفاقهم عليه أو مساندتهم لقريش إذا ما قامت قريش بعمل عسكري في المستقبل. لكن ذلك كلّه لا يكفي، فعامر بن الطفيل يحتاج إلى رصد ومراقبة أكثر، فالظروف الحالية دقيقة وخطيرة، وقريش مازالت تحتفظ بقائمة من الأسماء.. لها معها ثأر منذ غزوة بدر، ولم تتمكن منهم في غزوة أُحُد، وكان على رأس تلك القائمة الصحابي الشجاع (عاصم بن ثابت) الذي شهد له ﷺ بإجادة القتال في غزوة أُحد.. هذا الأسد كان قد فتك بعظيم من طواغيت قريش، ورأسه مطلوب بأي ثمن، والفارس الآخر اسمه (خبيب بن عدي) وقد اجتثّ خبيب رضي الله عنه طاغوتاً آخر يدعى (الحارث بن عامر بن نوفل) وهناك آخرون مطلوبون، لكنني ذكرت هذين الفارسين لأن الرسول ﷺ استدعاهما، واستدعى معهما ثمانية من الشجعان.. هؤلاء العشرة كوّنوا سرية استطلاع للمنطقة الواقعة بين مكة والمدينة، ومهمتهم تغطي أراضي يسكنها بنو لحيان وسليم وبنو عامر، وأطلق فيما بعد على هذه السرية:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١) والبيهقي (٣/٣٤٥) واللفظ له.

لكن ما علاقة بني لحيان بمن هلك من طواغيت قريش على أرض بدر؟..

أحـد الصحابة يجيب ويسـرد علينا قصة عاصم قائد هذه السـرية وأصحابه، فيقـول: (بعث النبي ﷺ «عشـرة رهط» عينـاً، وأمَّر عليهم (عاصم بـن ثابت)...[1] فانطلقوا حتى كانوا «بالهدأة» بين عسـفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيـان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيـه نوى تمر تزوّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب. فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما «رآهم» عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد[2]، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً.

فقال عاصم «أمير السرية»: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللّهمّ أخبر عنا نبيّك. فقاتلوهـم حتى قتل عاصماً في سـبعة نفر بالنبل[3]، وبقي خبيـب وزيد ورجل آخر، فأعطوهـم العهد والميثـاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما اسـتمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث الذي معهما رضي الله عنه: هذا أول الغدر.

فأبى أن يصحبهم، فجرّوه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد، حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيـب هو قتل الحارث بن عامر يـوم بدر، فمكث «خبيب» عندهم أسـيراً، حتى إذا أجمعوا قتله[4] استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها[5]، فأعارته.

قالـت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه[6] حتى أتاه فوضعه في فخذه. فلما رأيته فزعت فزعةً عرف ذلك مني وفي يده الموسى. فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) مكان النقاط جملة اعتراضية هي (وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب).

(٢) الرابية المرْتفعة.

(٣) أي قتلوا سبعة من الصحابة أحدهم عاصم رضي الله عنهم جميعاً.

(٤) قرروا قتله ثأراً لقتله والدهم الحارث.

(٥) طلب موسى ليحلق بعض شعره.

(٦) مشى الطفل حتى دخل على خبيب والموسى بيده.

وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف[1] عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله «خبيباً».

فخرجوا به من الحرم[2] ليقتلوه «في الحل»، فقال رضي الله عنه: دعوني أصلي ركعتين «ذروني أركع ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين» ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن «تظنوا» أن ما بي جزع من الموت لزدت «لطوّلتها»، فكان أوّل من سن الركعتين عند القتل هو.

ثم قال: اللّهمّ أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً. ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً — على أي شقّ كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ — يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله[3].

لكن عقبة بن الحارث ينكر ذلك ويقول لمن حوله: (والله ما أنا قتلت خبيباً، لأنا كنت أصغر من ذلك، ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله)[4].

ويكمل الصحابي حديثه فيقول: (وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلّة من الدبر[5]، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا «على أن يقطعوا من لحمه شيئاً»)[6] فكانت كرامة من الله لعاصم رضي الله عنه، حيث حمى الله جسده الطاهر بسحابة من الزنابير أو ذكور النحل.

---

(١) القطف هو العنقود ساعة قطفه.

(٢) كان المشركون يحترمون منطقة الحرم لذلك خرجوا به إلى منطقة الحل.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٨٦) والزيادات عنده أيضاً.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير - ٣/١٣١) حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير، عن أبيه عباد، عن عقبة بن الحارث. عباد تابعي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٢٩٠ وابنه يحيى ثقة وهو تابعي صغير ٥٩٢.

(٥) أي سحابة من الزنابير أو ذكور النحل.

(٦) هو بقية حديث البخاري السابق.

هكذا ســافر خبيب وعاصم وزيد ورفاقهم شهداءً إلى ربهم، لكنها بالنسبة للنبي ﷺ وأصحابه الأحياء مصيبة أخرى بعد أُحُد.. خيانة قام بها هؤلاء المشــركون فكلفت المؤمنين الكثير.. خيانة ليست من طباع العرب الكريمة.. تأثر منها المؤمنون، واستفادت منها قريش، وحزّت في أنفس الشرفاء من العرب.. خاصة أولئك الذين كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد، وهم بنو عامر، لذلك جاءت مجموعة منهم بقيادة رجل اسمه: (عامر بن مالك، أبو البراء) ويلقب بـ«ملاعب الأسنة»..

قــدم ملاعب الأســنة من أجل تلطيف الأجواء.. حاملاً معه هدية للرســول ﷺ، لكن النبي ﷺ كان في حالة حزن على أصحابه، فعرض الإسلام على ملاعب الأسنة، ودعاه إلى الدخول في دين الله، فرفض ﷺ هديته لأنه مشرك، فحاول ملاعب الأسنة أن يخفّــف عــن النبي ﷺ بعض ما في صدره من حزن على أصحابه، فعرض عليه أن يرســل بعض الصحابة لنشر الإســلام في نجد، وتعهّد بحمايتهم والدفاع عنهم، حتى يطمئن النبي ﷺ أنه لن يصيبهم ما أصاب خبيباً وأصحابه.. ومما دفع النبي ﷺ إلى الموافقة أن رجالاً من أحياء: رعل وذكوان وعصية كانوا قد قدموا مع «ملاعب الأسنة» وتظاهروا بالإســلام أيضاً، وادّعــوا أنهم بحاجة إلى مجموعة مــن الصحابة تعلّمهم القرآن والتوحيد، بل وتعينهم على أعدائهم.

اســتجاب ﷺ واثقاً بعهد ملاعب الأســنة، ومصدّقاً أولئك الذين أظهروا الإسلام، وبعث معهم شــباباً من الأنصار، ها هو أحدهم يودع أخته (أم ســليم) إنه خال أنس بن مالك واسمه (حرام) وهؤلاء الشباب الذين مع (حرام) هم صفوة من تلاميذ محمد ﷺ.. شباب لا تعرف كيف تصفهم! هل هم عباد، أم تجار، أم علماء، أم عمّال..؟ إنهم الإسلام في صورة شباب.

يقول كعب وأنس رضــي الله عنهما: (جاء ملاعب الأســنة إلى النبي ﷺ بهدية، فعرض عليه الإســلام، فأبى أن يســلم، فقال النبي ﷺ: فإني لا أقبل هدية مشــرك. قال: فابعث إلى أهل نجد من شــئت فأنا لهم جارٍ، فبعث إليهم)[1] شباباً (كنّا ندعوهم على عهد رسول الله ﷺ: القرّاء، فذكر أنس سبعين رجلاً من الأنصار، كانوا إذا أجنّهم

---

(١) ســنده قوي رواه الطبراني ١٩-٧٠ و٧١ و٨١) عن يونس ومعمر والأوزاعي عن الزهري عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن كعب. وهذا السند صحيح وقد مر معنا.

الليل آووا إلى معلم بالمدينة، فيبيتون يدرسون، فإذا أصبحوا فمن كان عنده قوّة أصاب من الحطب، واستعذب من العذب[1]، ومن كانت عنده سعة أصابوا الشاة فأصلحوها، فكان معلقاً بحجر رسول الله ﷺ، فلما أصيب خبيب)[2] (جاء ناس إلى النبي ﷺ «رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان» فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلّمونا القرآن والسنّة، فبعث «إلى ناس من المشركين بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد» سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم (القرّاء) فيهم خالي حرام:

يقرأون القرآن،

ويتدارسون بالليل يتعلّمون،

وكانوا بالنهار يجيؤون بالماء فيضعونه في المسجد،

ويحتطبون فيبيعونه،

ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء،

فبعثهم النبي ﷺ إليهم «حتى كانوا ببئر معونة»)[3] (فأتوا على حي من بني سليم فقال حرام لأميرهم: دعني فلأخبر هؤلاء أنّا ليس إياهم نريد، فيخلون وجوهنا)[4] (وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل)[5] (فاستجاش عامر بن الطفيل بني عامر، فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا ملاعب الأسنة، فاستجاش عليهم بني سليم، فأطاعوه)[6] (فانطلق حرام أخو أم سليم ورجلان معه: رجل أعرج، ورجل من بني فلان. قال:كونا قريباً مني حتى آتيهم، فإن أمنوني كنتم كذا، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم.

فأتاهم حرام فقال: أتؤمنوني أبلغكم رسالة رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم. فجعل يحدّثهم، وأمأوا إلى رجل فأتاه من خلفه، فطعنه، فأنفذه بالرمح «فلما وجد حرام مسّ

---

(١) أي الماء العذب.

(٢) حديث صحيح رواه الشيخان والطبراني (٣٢٣/١) والبيهقي (٣٤٩/٣) واللفظ له.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧ - وبين ١٩٠٢ - ١٩٠٣).

(٤) هو حديث البيهقي السابق وهو صحيح.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١).

(٦) حديث صحيح وهو حديث الطبراني السابق.

الرمح في جوفه قال: الله أكبر، فزت وربِّ الكعبة»[1] ولما سال دمه من جرحه اغترفه بيديه ثم (نضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة)[2] (فانطووا عليهم فما بقي منهم مخبرٌ «فلحق الرجل، فقتلوا كلهم إلاّ الأعرج كان في رأس الجبل»)[3] (فقتلوهم وغدروا بهم)[4] (قبل أن يبلغوا المكان. فقالوا رضي الله عنهم: اللّهمّ بلّغ نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا)[5].

فأنزل الله قرآناً يتلى في هؤلاء الشباب الأطهار الأبرار، فقال تعالى: ﴿ إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ﴾[6].

نزلت هذه الآية على النبي ﷺ، فحزن حزناً لم يحزن مثله أبداً، وخيّم الوجوم على المدينة.. على أصحاب النبي ﷺ، وأحرق الدمع والحزن أجواف الأمّهات والآباء والأبناء، وبكى أهل الصفة أرحم الناس بحالهم.. بكى أهل الصفة أحبابهم الذين طالما كدحوا وشقوا ليخفّفوا مما بهم، ليمنحوهم بعض السعادة.. هذا قد منحوه ثوباً، وهذا اشتروا له طعاماً، وذاك أعطوه فراشاً، ورابع قدّموا له غطاءً، وخامس قدموا له حذاءً. فلك أن تتصوّر حجم الفراغ الذي يتركه سبعون بمثل هذا الجمال والحب والسخاء.

أهل المدينة يتذكرونهم عندما يرون تلك القرب التي كانوا يملأونها بالماء لهم على باب المسجد، فكم من عطشان فقد تلك السحابة. أمّا النبي ﷺ فتوجّه والحزن في عينيه وقلبه إلى أصحابه، فقال: (إن إخوانكم قد قتلوا، وإنهم قالوا: اللّهمّ بلّغ عنّا نبينا أن قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا)[7].

لقد بلغ به الهمّ والحزن مسافات فعل معها شيئاً لم يكن قد فعله من قبل. كيف لا، وهو قد فجع بخبيب وعاصم ومن معهما، ثم فجع بسبعين من خيرة الشباب الذين سافروا من أجل نشر دين ربهم ورسالة نبيّهم، ولا ذنب لهم سوى ذلك.. لقد دعا ﷺ على أولئك المشركين الأنذال شهراً كاملاً في صلواته كلّها.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١ - ٤٠٩٢) والبيهقي (٣٤٥/٣) واللفظ له.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٢).
(٣) حديث صحيح وهو حديث الطبراني السابق والزيادة للبخاري (٤٠٩١).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٠).
(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧).
(٦) هذه الآية منسوخة وهي في البخاري (٤٠٩١).
(٧) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧).

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الصبح في دبر كل صلاة إذا قال: سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على أحياء من بني سليم: على رعل، وذكوان، وعصية «وبني لحيان» ويؤمِّن من خلفه)[1]، ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (وذلك بدء القنوت وما كنّا نقنت)[2].

واستجاب الله لنبيّه ﷺ، فأصيب الطاغية عامر بن الطفيل.. أصيب بمرض عضال وصفه ﷺ بقوله: (غدة كغدة البعير[3]، وسماه ﷺ بـ«الطاعون»، وهو وصف دقيق للطاعون الدبلي الذي يتميز (بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط، وكذا تضخم الطحال)[4]، وهو ما أصيب به عامر بن الطفيل، حتى أصبح حبيساً في بيت امرأة من قومه.

أصيب عامر بالطاعون، وتلاشت أحلامه بالتملّك على أهل المدن في الجزيرة العربية، أو خلافة النبي ﷺ، أما تلك الجيوش التي هدّد النبي ﷺ بها، فقد تحوّلت إلى آلام تحبسه في بيت امرأة.. قد ولّى عنه الناس ونفروا منه خشية العدوى، ففقد صوابه وصرخ بمن بقي حوله قائلاً: (غُدة كغد البكر في بيت امرأة من بني فلان، ائتوني بفرسي، فركبه فمات على ظهر فرسه)[5].

هلك ذلك الطاغية كالمجنون، بعد أن تطاير الناس من حوله متقزّزين، أما النبي ﷺ فبعد أن مكث شهراً يدعو على عامر والخَوَنَة الذين غدروا بالمؤمنين.. قرّر ﷺ أن يغزو بني لحيان وبني سليم: رعل وذكوان وعصية، فأعدّ جيشاً ليتحرك نحوهم، وكان أحد

---

(١) سنده جيد رواه أحمد ١-٣٠١ وأبو داود (١٤٤٣) من طريق عبد الله بن معاوية وعبد الصمد وعفان، حدثنا ثابت بن يزيد عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس وثابت وشيخه ثقة تغير ولعله وهم في ذكره لصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء والذي عند البخاري من رواية أنس وهو الذي روى القصة وعاصرها وصلى مع النبي عليه السلام تلك الصلوات لم يذكر سوى الفجر، و«بني لحيان» عند البخاري.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٨٨).

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٤٥ من طرق أخبرنا جعفر بن كيسان حدثتنا معاذة بنت عبد الله دخلت على عائشة .معاذة تابعة ثقة، التقريب وجعفر ثقة. ذيل الكاشف (٦٢).

(٤) انظر تعليق فضيلة الدكتور: قلعجي على الدلائل (٣/٣٤٦).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٠٩١) والبيهقي واللفظ له (٣/٣٤٦).

الصحابة يريد صحبته، لكنه في حيرة من أمره، فامرأته ثقيلة، وهو يريد البقاء معها، ويريد مصاحبة النبي ﷺ، وهي كذلك.. كانت تصاحب النبي ﷺ في كل غزوة، لكن حالتها هذه المرة لا تساعدها على المسير، فـ:

ما الذي حدث لأم سليم رضي الله عنها

يقول ابنها البار أنس بن مالك رضي الله عنه: (كانت أم سليم تسافر مع النبي ﷺ، تخرج معه إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل)[1] (فضربها المخاض واحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق النبي ﷺ، فقال أبو طلحة: يا رب، إنك لتعلم أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى. تقول أم سليم: يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنت أجد، فانطلقا)[2].

انطلق النبي وأصحابه إلى تلك الأرض التي غُدِرَ فيها بأولئك الشباب الأطهار.. انطلق ﷺ بجيشه جنوباً إلى تلك الأرض التي تقع بين عسفان ومكّة، فما الذي حدث في:

غزوة بني لحيان

يبدو أن بني سليم (رعل وذكوان وعصية) وكذلك لحيان قد علموا بقدوم النبي ﷺ، وأدركوا فداحة جرمهم وشناعة خيانتهم للعهد، وانتهاكهم لحقوق جارهم ملاعب الأسنة، ورأوا بأعينهم ما حدث لذلك الشيطان الذي عبث بعقولهم من عقاب إلهي، وأدركوا بركان الغضب الإسلامي الزاحف نحوهم، فهربوا، وهم يحتاجون إلى من يجرّهم من جحورهم فرداً فرداً، والنبي ﷺ وجيشه ليس لديهم وقت لهذا، فالعودة إلى المدينة أنسب في الوقت الحاضر، لكن لابدّ من التخطيط للقضاء على مصادر الشرّ والجريمة المحيطة بالمدينة.. لابدّ من تأديب من يتآمرون على الإسلام والمسلمين، فالنبي ﷺ جاء للأرض كلّها.. جاء بالسلام والعلم للعالم أجمع، ولا يجوز حرمان العالم من هذه الرسالة الإلهية بسبب مجرم أو مجرمين من المشركين أو من اليهود.

عاد ﷺ إلى المدينة، وبعد عودته كان بانتظاره وانتظار صاحبه أبي طلحة خبر سعيد:

---

(١) سنده صحيح رواه الطيالسي ٢-١٦٠ وقد مر معنا عند الحديث عن الانتفاع بالخمر.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢١٤٤) وأحمد ٣-١٩٦.

أم سليم تلد طفلاً

(أخذهـا الطلق ليلة قربهم مـن المدينة، فقالت: اللّهمّ إننـي كنت أدخل إذا دخل نبيّك، وأخرج إذا خرج، وقد حضر هذا الأمر فولدت غلاماً)[1]. وكان النبي ﷺ قد قال لأبي طلحة وأنس بن مالك قبل سفره: (إذا ولدت فائتوني بالصبي)[2].

يقـول أنـس: (فقالت لي أمي: يا أنـس «انطلق بالصبي إلى رسـول الله ﷺ» لا يرضعنه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلمـا أصبحت احتملته وانطلقت به إلى رسـول الله ﷺ، فصادفته ومعه ميسـم «وهو يسم إبلاً وغنماً»، فلما رآني قال: لعل أم سليم ولدت؟ قلت: نعم. فوضع الميسم[3]، فجئته به فوضعته في حجر النبي ﷺ، ودعا رسـول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فلاكهـا في فيه حتى ذابت، «فجعل يحنك الصبي، وجعل الصبي يتلمظ[4]، فقال ﷺ: انظروا إلى حب الأنصار التمر.

فحنكه رسـول الله ﷺ» فمسـح وجهه، وسـمّاه عبد الله)[5] (وكان يعدّ من خيار المسلمين)[6].

عاد الصغير إلى أمه واسـتجاب الله دعوة نبيّه ﷺ لأم سليم وزوجها عندما مات ابنها الأكبر ففعلت أم سليم ما فعلت تلك الليلة.

سـعيدة هي أم سليم، وسعادتها لا توصف.. سـعيدة بزوجها وابنها، ولا أحد في مثـل فرحها إلاّ امرأة تلد مثلها، وتفرح أكثر منها.. امرأة رزقت بنتاً يتيمة مات والدها قبل ولادتها، ومع ذلك فهي أسعد من أم سليم.. إنها:

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن زواج أم سليم. رواه الطيالسي ٢-١٦٠.

(٢) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن زواج أم سليم. رواه الطيالسي ٢-١٦٠.

(٣) آلة أو حديدة يكوى بها الحيوان لتمييزه.

(٤) يذوقه بلسانه.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٢١٤٤) وأحمد ٣-١٩٦ والزوائد للطيالسي ٢-١٦٠.

(٦) ليس من كلام أنس بل من كلام التابعي ثابت البناني.

أم سلمة تلد بنتاً

كانت رضي الله عنها في فترة حداد وهي حامل، ولما وضعت ابنتها سمّتها (برة) لكن سعادتها لم تكن في ولادتها فقط، بل بشيء يحملها من عالم إلى عالم آخر يضفي عليها جلالة ومهابة وكرامة وألقاباً.. عالم تكون فيه حبيبة رجل هو حلم كل امرأة، فقد استجاب الله لها كما استجاب لأم سليم، فعند وفاة زوجها أبي سلمة دعت بتلك الدعوات: (اللّهمّ اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى حسنة)[1].

أخبرينا يا أم سلمة ما هي العقبى الحسنة التي وهبك الله وأكرمك بها بعد أن كبرت ابنتك؟

تقول رضي الله عنها: (لما وضعت زينب، جاءني رسول الله ﷺ، فخطبني، فقلت: ما مثلي ينكح؟ أما أنا فلا ولد فيَّ، وأنا غيور ذات عيال!! فقال ﷺ: أنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأمّا العيال فإلى الله جلّ ثناؤه ورسوله.

فتزوّجها ﷺ فجعل يأتيها، فيقول: أين زناب)[2] أين زينب؟ سؤال يفيض حياءً وأدباً.. سؤال ينضح بالأحاسيس النبوية المرهفة، لكن من هي زينب؟ وهل هي (برة) هذا ما سنعرفه بعد قليل. فلنعد لرسول الله ﷺ وأم سلمه.

تزوّج ﷺ من أم سلمة، ومع ذلك فهو لا يصل إليها.. لأنه صاحب أسلوب راقٍ ومهذب في التعامل مع الآخرين.. كان ﷺ يستحي أن يفرق بين تلك اليتيمة المسكينة وأمّها ولو لدقائق.. كان ﷺ يحول لحظات الكبت المزعومة إلى أجواء فرح ودعابة يضفيها على تلك اليتيمة «زينب»، وعلى أمّها التي كان يدهشها ويسرّها أن ترى حباً يتسع لها ولأيتامها، وهم أحوج الناس إلى مثل هذا النبي الإنسان المحب.

ومرّت أيام والرسول ﷺ لم يتذمّر ولم يتغيّر في تعامله مع ربيبته وزوجته، لكن الخبر وصل إلى عمار بن ياسر رضي الله عنه، وهو أخٌ لأم سلمة من أمها «سمية» الشهيدة التي قتلها الطاغية الهالك أبو جهل، فلما علم عمار بحال النبي ﷺ أطلق قدميه نحو بيت أخته أم سلمة، فأخذ ابنة أخته ليسترضعها في بيته، أو عند أحد

---

(١) حديث صحيح مر معنا انظر: صحيح النسائي (١٧٢١) وصحيح ابن ماجه (١٤٤٧).

(٢) انظر: تخريجه في الحديث التالي فهو هو.

النساء.. أخذها عمار و(اختلجها[1])، وقال: هذه تمنع رسول الله ﷺ! وكانت ترضعها، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أين زناب؟ فقالت قريبة ابن أبي أمية - ووافقها عندها[2] - أخذها عمار بن ياسر. فقال رسول الله ﷺ: إني آتيكم الليلة.

قالت: «فقمت» فوضعت ثفالي[3]، وأخرجت حبات من شعير كانت في جرتي، وأخرجت شحماً فعصدته له، ثم بات، ثم أصبح، وقال حين أصبح: إن بك على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعت[4] لك، وإن أسبع لك أسبع لنسائي)[5] (وإن شئت ثلثت ثم درت؟ قالت: ثلّث)[6] فأقام ﷺ ثلاثة أيام عند أم سلمة.. ثلاثة أيام هي أسعد أيامها، ثم قال: (للبكر سبع، وللثيب ثلاث)[7] مدة إقامة المتزوج عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام ﷺ عند أم سلمة ثلاثة أيام سعيدة، ثم رتّب لها يوماً كبقية زوجاته، وفي تلك الأيام الثلاثة كان يفيض على أم سلمة وعلى يتيمتها الصغيرة حباً ورحمة.. كان اسم زينب الصغيرة «برة»، فغيره ﷺ إلى اسم آخر هو زينب وذلك حالما سمعه:

تغيير اسم برة بنت أبي سلمة

تقول تلك الطفلة اليتيمة رضي الله عنها إن النبي ﷺ: (دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي (برة)، فسمعها تدعوني برة، فقال: لا تزكوا أنفسكم، فإن الله هو أعلم بالبرة منكن والفاجرة، سميّها (زينب). فقالت أم سلمة: فهي زينب، فقلت لها: اسمي؟

---

(١) أخذها.

(٢) أي: توافق مجيء النبي ﷺ مع زيارة تلك المرأة لأم سلمة.

(٣) هو ما يبسط تحت الرحى عند الطحن.

(٤) أي أقمت عندك سبعة أيام.

(٥) حديث حسن رواه ابن سعد ٨-٩٣ وأحمد ٣-٣٠٧ من طريق: روح بن عبادة وعبد الرزاق حدثنا ابن جريج، أخبرني حبيب بن أبي ثابت، أن عبد الحميد بن عبد الله والقاسم ابن محمد سمعا أبا بكر بن عبد الرحمن أن أم سلمة أخبرته. أبو بكر تابعي ثقة فقيه عابد التقريب ٦٢٣ وعبد الحميد يحتاج إلى توثيق لكن تابعه القاسم وهو مثله في الدرجة انظر: التقريب ٤٥٢ والتهذيب ٦-١١٨ وحبيب ثقة فقيه جليل، وابن جريج لم يدلس. وللحديث شاهد بسند ضعيف عند ابن سعد ٨-٩٠ وأحمد ٦-٣١٣ والحاكم ٤-١٧.

(٦) حديث صحيح رواه مسلم: ما تستحقه البكر والثيب من إقامة الزوج.

(٧) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢/٩١٩).

فقالت: غيّر إلى ما غيّر إليه رسول الله ﷺ)[1].

كان ﷺ يحب الأسماء الجميلة.. ذات يوم علم ﷺ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمّى ابنته «عاصية»، فماذا فعل..؟

يقول أخوها عبد الله: (إن رسول الله ﷺ غيّر اسم عاصية، وقال: أنت جميلة)[2]، فأصبح اسمها جميلة بنت عمر بن الخطاب.. هي جميلة حقاً، وأبوها أجمل منها.

لم يكن ﷺ يغيّر أسماء الأطفال فقط، بل كان للرجال والنساء والعجائز نصيب من ذلك الجمال، فقد (ذكر عند رسول الله ﷺ رجل يقال له: شهاب، فقال رسول الله ﷺ: بل أنت هشام)[3]، و(كان ﷺ إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه حوّله)[4] إلى اسم أجمل وألطف.

في هذه الأجواء.. أجواء الجمال واللطف والأعراس والأسماء المحبوبة.. تشرق علينا قصة من بيت عائشة الحبيبة، حيث كان النبي ﷺ عندها، والنبي ﷺ إذا كان عند عائشة أو غيرها من زوجاته كان غاية في اللطف والرقّة والتواضع.

بينما كان ﷺ هناك.. جاءت عجوز لا تعرفها عائشة رضي الله عنها، لكنها تحدثنا عنها فتقول: (جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟

قالت: أنا جثامة المزنية.

---

(١) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في الأدب المفرد (٨٢١) : حدثني محمد بن عمرو بن عطاء أنه دخل على زينب بنت أبي سلمة، فسألته عن اسم أخت له عنده، قال: فقلت: اسمها برة قالت: غير اسمها، ثم ذكرت كلاماً وبقية الحديث..

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

(٣) سنده حسن رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥).

(٤) حديث حسن رواه الطبراني ١٧-١١٩ حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطي وأبو زيد الحوطي، قالا: حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد قال: قال عتبة بن عبد السلمي: «رضي الله عنه» وقد صحح الإمام الألباني سنده في السلسلة (٢٠٩) وهذا الحكم صحيح لولا إشكالية سماع شريح من عتبة فهو كثير الإرسال، حتى لقد قيل لمحمد بن عوف: هل سمع من أبي الدرداء؟ فقال: لا . فقيل: فسمع من أحد من أصحاب النبي؟ قال: ما أظن ذلك، وذلك أنه لا يقول في شيء من ذلك: سمعت. التهذيب (٣٢٨/٤) لكن الحديث حسن بالروايات الأخرى.

فقال: بل أنت حسانة المزنية. كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

«فقرب إليه لحم، فجعل يناولها، فقلت: يا رسول الله لا تغمر يدك». فلما خرجت قلت: يا رسول الله.. تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان)[1].

ما أجمل هذا النبي الوفي.. تطلق وجهه لما رأى تلك العجوز التي كانت تزورهم أيام خديجة، وأضاف إلى جمال وفائه جمالاً آخر عندما غيّر اسمها.. نزع عنها ذلك الاسم الثقيل، الذي جمع في معناه أشياء كثيرة وكريهة، فهو يعني الكابوس والبليد الذي لا ينهض للمكارم، والكسلان الذي يتبرّم بالحركة! غيّره.. استبدله بـ«حسانة» اسم كالابتسامة

كانت في بيت النبوة أفراح وأعراس.. يهفو لمثلها شاب حزين.. يرنو إلى غسل ما بداخله من هموم.. شاب مثقل بالمسؤوليات، لكن الحيرة في اختيار زوجة تشغله، فهو جديد على مثل هذه التجربة، ولديه من الأيتام الكثير.

هل يتزوج فتاة صغيرة في مثل سنّ أخواته.. يقضي معها أيام مرح وسعادة..؟ أم يضحي بسعادته من أجل أخواته المسكينات، ويتزوج امرأة سبق لها أن تزوجت.. سبق لها أن كانت ربّة بيت لتعتني بأخواته الصغيرات وبه أيضاً..؟

سنترك هذا الصحابي ليقرّر، فنحن على عجلة من أمرنا، فالرسول ﷺ قرّر أن يتوجّه إلى أرض نجد.. حيث تعدّ له قبيلة غطفان جيشاً لحربه.

---

(١) سنده قوي رواه الحاكم ١-٦٢ والبيهقي في الشعب ٦-٥١٧ من طريق: الضحاك بن مخلد حدثنا صالح ابن رستم حدثنا ابن أبي مليكة.. وابن أبي مليكة تابعي أدرك ثلاثين صحابياً وهو عبد الله بن عبيد الله ثقة فقيه - التقريب ٣١٢ والضحاك ثقة ثبت التقريب ٢٨٠ أما صالح فحسن الحديث، إذا لم يخالف.. توثيقه قوي وجرحه غير مفسر، قال أبو داود: ثقة، وقال الطيالسي وهو تلميذه: ثقة، وقال البزار: ثقة، وقال ابن وضاح: ثقة وقال ابن عدي: عزيز الحديث روى عنه يحيى القطان مع شدة استقصائه وهو عندي لا بأس به ولم أر له حديثاً منكراً، وقال العجلي جائز الحديث.. أما جرحه فقد قال الدارقطني: ليس بالقوي. وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي عندهم أما ابن معين فقال مرة: ضعيف وقال مرة: لا شيء.. وهو يعني بهذه من ليس له من الحديث إلا القليل، وهذا الجرح لا ينهض أمام ذلك التوثيق المعتبر - التهذيب ٤-٣٩١.

تزوّج ذلك الشاب، ولما دعا داعي الجهاد ودّع زوجته وأخواته، ولحق برسول الله ﷺ نحو أرض نجد، فهو لن يتخلّف عن أي غزوة يغزوها رسـول الله ﷺ بعد اليوم، فوالده رحمه الله ورضي عنه قد توفي، وهو السـبب الوحيد في منعه من حضور غزوتي: بدر وأُحُد.. إنه جابر بن عبد الله وهو الآن في مكان يقال له:

ذات الرقاع

مع رسـول الله ﷺ حيث تقف أمامهم حشـود بني محـارب وغطفان، ويبدو من المشـهد أن حرباً لم تقع بين الطرفين، لكن الوضع متوتّر للغاية، والأعصاب مشدودة.. خاصة أعصاب المشـركين. أمّا المؤمنون، فبعضهم كان في حالة حراسة، والبعض في حالة استرخاء أو نعاس، أما نبيّ الله ﷺ فقد علق سيفه بشجرة ثم نام.

يقول جابر: (أقبلنا مع رسـول الله ﷺ، حتـى إذا كنّا بذات الرقاع، وكنّا إذا أتينا على شـجرة ظليلة تركناها لرسـول الله ﷺ)[1] (فلما قفل رسـول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرّق الناس في العضاة يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه. «ثم نام».

قـال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسـول الله ﷺ يدعونـا، فجئنا، فإذا عنده أعرابي جالس)[2] من بني محارب!

ماذا يفعل هذا الأعرابي، هل جاء ليعلن إسلامه، أم جاء ليفاوض؟ ما قصته، ولماذا يمسك بسيف رسول الله ﷺ..؟!

أعرابي يحاول قتل النبي ﷺ بسيفه

يقول جابر: (قاتل رسـول الله ﷺ محارب خصفة بنخـل، «فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فتفرق الناس في العضاه يسـتظلون بالشـجر، فنزل النبي ﷺ تحت شـجرة، فعلق بها سـيفه ثم نام»، فرأوا من المسـلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٣٦) ومسلم (٨٤٣)، واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٣٥) والزوائد عنده (٢٩١٣).

(غورث بن الحارث) «فاستيقظ ﷺ وعنده رجل لا يشعر به» حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟

قال ﷺ: الله عزّ وجلّ.

فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ.

قال ﷺ: أتشهد أن لا إله إلاّ الله، قال: لا. ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلّى سبيله، فذهب إلى أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس)[١].

إذاً فقد (خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل، فلقي جمعاً من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضهم بعضاً، فصلّى النبي ﷺ ركعتي الخوف)[٢]، فما هي:

صلاة الخوف؟

يقول جابر رضي الله عنه: (نودي بالصلاة، فصلّى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا وصلّى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتين)[٣].

أَمَّهم ﷺ جميعاً ولم يقصر، لكنه صلّى بهم مرة أخرى في هذه الغزوة وقصر معهم.

صفة ثانية لصلاة الخوف

يقول أحد الصحابة (صلّى مع رسول الله ﷺ في يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: إن طائفة صفت صلت معه، وطائفة وجاه العدو، فصلّى بالذين معه ركعة، ثم ثبت قائماً

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٦٥ والبيهقي ٣-٣٧٦ من طريق: عفان، وعاصم بن علي، وأبو بكر الإسماعيلي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر عن سليمان بن قيس عن جابر. سليمان تابعي ثقة، وتلميذه أبو بشر اسمه جعفر بن إياس تابعي ثقة، التهذيب ٤-٢١٤ وأبو عوانة ثقة ثبت اسمه: الوضاح بن عبد الله اليشكري. وزوائد الحديث عند البخاري (٢٩١٣).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وعلقه البخاري فقال: قال ابن إسحاق سمعت وهب بن كيسان، سمعت جابراً (٤١٢٦). وهب ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٥٨٥.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم عن جابر (٨٤٣).

وأتمّوا لأنفســهم، ثم انصرفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً وأتمّوا لأنفسهم، ثم سلّم بهم)[1].

فصلّى النبي ﷺ ركعتين، وصلّت كل طائفة ركعتين أيضاً.

كانت غزوة ذات الرقاع حافلةً بالمشاعر لا بالدماء.. حافلةً بالمعجزات والكرامات.. لم يكن فيها قتال، لكن ذلك المكان المسمى بـ: «ذات الرقاع» كان ساحة للخوف والتوتّر.. أخاف الناس بعضهم بعضاً، ثم تفرّقوا دون دماء[2].. أخاف النبي أعداءه وكسـب ثناء بعضهم، وحقّق ﷺ بجيشــه نصراً معنوياً لـه رصيده في النفوس، ثم عادوا إلى المدينة والشوق يحملهم، وكان أشدّهم شوقاً ذلك الشاب «جابر» الذي رقص قلبه طرباً عندما اقترب الجيش من المدينة، لكن شـيئاً كان يعيقه عنها.. يعيقه حتى عن أصحابه، حتى كان آخر من يسير في الجيش. لقد كانت في طريق العودة قصة لـ:

جابر وجمله الهزيل

فبينمــا كان جابر بأحرّ الشـوق إلى عروســه.. كان ذلك الجمــل لا يبالي بتلك المشــاعر.. يبدو أنه كان يســتمتع بالراحة ومشــاهدة ما حوله من مناظر، فهو يسير بطريقــة مملّة ومزعجة. شــاهد ﷺ ما يحدث فتحرك قلبه نحــو جابر، فكانت هذه القصة المنسوجة بالمشاعر والأشواق والمعجزات:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم «صلاة الخوف» (٨٤٣).

(١) أقول ذلك لأنه قد روي بســند ضعيف عند الأئمة: من طريق ابن إســحاق حدثنا عمي صدقة عن عقيل عن جابر، أحمد (٣/٣٤٤-٣٥٩) وأبي داود (١٩٨) والبيهقي (٣/٣٧٩) وابن خزيمة (٣٦) وحســنه شيخنا الفاضل محمد مصطفى الأعظمي حفظه الله ووافقه الإمام الألباني. وحســنه كذلك في صحيح ســنن أبي داود: إن امرأة أصيبت من المشــركين.. ثم ذكر قصة الصحابيين اللذين أصيب أحدهما بثلاثة أسهم بينما كان الآخر نائماً.. وهذه القصة ضعيفة الســند رغم ما ســبق لأنها من طريق عقيل بن جابر.. وهو لم يوثق إنما ذكره ابن حبان في ثقاته وسكت وهذا ليس بتوثيق ولذلك قال الحافظ في التقريب (٢/٢٩) إنــه «مقبــول» أي عند المتابعة.. ولم أجد له متابعاً.. ومما يوحــي بضعفه عند الإمام البخاري رحمه الله أنه قال في الفتح - كتاب الوضوء - ٣٤ - : ويذكر عن جابر.. وعلق الحافظ بقوله: عقيل بفتح العين، لا أعرف راوياً عنه غير صدقة، ولهذا لم يجزم به المنصف، أو لكونه اختصره، أو للخلاف في ابن إسحاق. والذي يبدو لي أن السبب الأول هو الصحيح لأن البخاري ذكر ابن إسحاق وسنده الصحيح في غزوة ذات الرقاع بصيغة الجزم فقال: قال ابن إسحاق. والسبب الثاني بعيد. فبقي السبب الأول نظراً لجهالة حال عقيل رحمه الله.

يقول جابر رضي الله عنه: (خرجت مع رسـول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسـول اللـه ﷺ جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلّف «على بعير قطوف»[1] «جمل ثفال إنما هو في آخر القوم»[2] «قد أعيى فلا يكاد يسـير»[3] حتى أدركني النبي ﷺ، «فمرّ بي النبـي ﷺ فقال: من هذا؟ قلت: جابر»[4] فقال: ما لك يا جابر؟ قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا. قال ﷺ: أنخه.

فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ «قال ﷺ: أمعك قضيب؟ قلت: نعم، قال: أعطنيه»[5] أعطنـي هذه العصا التي فـي يدك، فأعطيته إياها أو قطعت له عصية من شـجرة، فأعطيته إياها، فنخسه بها نخسات، «فدعا لـه»[6]، ثم قال: اركب يا جابر.

فركبت «فسـار سيراً ليس يسـير مثله»[7]، فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقـة، «فـكان من ذلك المكان من أوّل القوم»[8]، فتحدث مع رسـول الله ﷺ فقال: «كيـف ترى بعيـرك»[9]، أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قلت: بل أهبه لك. قال: لا، ولكن بعنيه. قلت: فسُـمْنيه. قال ﷺ: قد أخذته بدرهم. قلت: لا، إذاً تغبنني يا رسـول الله. قال: فبدرهمين، قلت: لا، فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ حتى بلغ الأوقية. قال ﷺ: «بعنيه بأوقية. قلت: لا، ثم قال: بعنيه بأوقية. فبعته، فاستثنيت حملانه إلى أهلي»[10]، فقال ﷺ: «ولك ظهره إلى المدينة»[11]. فقلت: أفقد رضيت؟. قال ﷺ: نعم. قلت: فهو لـك. قال ﷺ: قد أخذته. «فانطلق بعيـري كأجود ما أنت راءٍ من الإبل»[12]، «فلحقني راكب من خلفي فالتفت فإذا أنا برسـول اللـه ﷺ، قال: ما يعجلك؟ قلت: إني حديث

---

(١) البخاري (٥٢٤٥). والقطوف هو البطئ.
(٢) البخاري (٢٣٠٩). الثفال هو الثقيل.
(٣) البخاري (٢٩٦٧). يعني أنه يعاني من الهزال والتعب.
(٤) البخاري (٢٣٠٩).
(٥) البخاري (٥٢٤٥).
(٦) البخاري (٢٧١٨).
(٧) البخاري (٢٧١٨).
(٨) البخاري (٢٣٠٩).
(٩) البخاري (٢٣٨٥).
(١٠) البخاري (٢٧١٨). أي اشترط جابر أن يسلمه في المدينة.
(١١) البخاري (٢٧١٨).
(١٢) البخاري (٥٠٧٩).

عهد بعرس»[١] «فقال لي رســول الله ﷺ: تزوجت يا جابر؟ فقلت: نعم. فقال: بكراً أم ثيبــاً؟ قلت: بل ثيباً. قال: فهلاّ جارية تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك»[٢]«ما لك وللعذارى ولعابها»[٣]؟

«قلت: يا رســول الله، إن أبي قتل يوم أُحد وترك تســع بنات، كنّ لي تسع أخوات، فكرهــت أن أجمــع إليهــن جارية خرقــاء مثلهــن»[٤]، «فتزوجت امرأة تقــوم عليهن وتصلحهن»[٥] «تعلّمهن وتؤدّبهن»[٦]، «امرأة تمشطهن وتقوم عليهن.

قال ﷺ: أصبت»[٧] إن شاء الله «بارك الله عليك»[٨]، «بارك الله لك»[٩]، قال ﷺ: أما إنا لو جئنا صراراً[١٠] أمرنا بجزور، فنحرت، فأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها. فقلت: والله يا رســول الله ما لنا نمارق. قال ﷺ: إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيسّاً «الكيس الكيس»[١١].

فلمــا جئنا صراراً أمر رســول الله ﷺ بجزور «أو بقــرة فذبحت فأكلوا منها»[١٢] وأقمنــا عليها ذلك اليوم، «فلمــا ذهبنا لندخل قال ﷺ: أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً - أي عشــاءً - لكي تمتشط الشعثة، وتســتحد المغيبة»[١٣]. فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنــا، فحدثت المرأة الحديث، وما قال لي رســول الله ﷺ، قالت: فدونك، فســمع وطاعة)[١٤].

---

(١) البخاري (٥٠٧٩).
(٢) البخاري (٥٣٦٧).
(٣) البخاري (٥٠٨٠).
(٤) البخاري (٤٠٥٢).
(٥) البخاري (٥٠٨٠).
(٦) البخاري (٢٤٠٦).
(٧) البخاري (٤٠٥٢).
(٨) البخاري (٦٣٨٧).
(٩) البخاري (٥٠٨٠).
(١٠) مكان قريب من المدينة.
(١١) البخاري (٢٠٩٧) (٥٢٤٥).
(١٢) البخاري (٣٠٨٩).
(١٣) البخاري (٥٠٧٩).
(١٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: حدثني وهب بن كيسان عن جابر.. ووهب تابعي ثقة من رجال الشيخين - التقريب (٥٨٥).

تأثرت تلك المرأة الصالحة بذوق رسـول الله ﷺ الرفيع، وأسلوبه الرائع في منح الأنوثـة وهجهـا وعطرها الذي لا يقـاوم، حتى ينهار ذلك الحبيب القـادم أمام هذا السحر الحلال، ويستسلم ذلك المحارب مهزوماً بالحب الطاهر، وهو الذي لا يستسلم إذا هاجت الحرب والحراب.

لم يكن ﷺ وحده في رقي الذوق وجمال الأسـلوب.. زوجاته رضي الله عنهن كن كذلك.. كن نسيجاً من الرقّة والإحساس.

ذات يـوم (دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نسـاء النبي ﷺ، فرأينها سـيّئة الهيئة، فقلن لها: ما لك؟ فما في قريش أغنى من بعلك. قالت: ما لنا منه شـيء، أما ليلـه فقائم، وأما نهاره فصائـم، فدخل النبي ﷺ، فذكرن ذلك لـه، فلقيه، فقال: يا عثمان بن مظعون، أما لك بي أسوة؟ فقال: يا بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: إني لأفعل. قال ﷺ: لا تفعل، إن لعينيك عليك حقاً، وإن لجسـدك حقاً، وإن لأهلك حقاً، فصلّ ونم، وصم وأفطر «يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا، أما لك فيّ أسوة؟ أما والله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده لأنا».

فأتتهن بعد ذلك عطرة كأنها عروس. فقلن: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس)[1] من ودٍّ ووصال في أجواء يمطر الإسلام فيها حباً وقلوباً، فما بين

المرأة والرجل

أكثر من الجسـد.. إنها أشـياء حميمة تجعل للدنيا مذاقاً أجمل.. المرأة بالنسبة للرجل -إذا تحضّر بالإسلام- عبق لا ينقطع.. ربيع في كل الفصول.. مطر صيفي.

هـل هنـاك أرقّ مـن قوله ﷺ لحـادي العيـس ذي الصوت الجميـل: (رويدك بالقوارير)[2]؟

(١) رجال ثقات لكنه مرسل، رواه ابن سعد (٣/٣٩٤) أخبرنا الفضل بن دكين، أخبرنا إسرائيل وأخبرنا الحسن ابن موسى، أخبرنا زهير، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي بردة.. وهذا مرسل إلا إن كان أبو بردة هو الصحابي – وللحديث شـاهد بسـند صحيح رواه عبد الرزاق (٦/١٦٧) عن معمر عن الزهري عن عروة وعمرة عن عائشة.. وما بين الأقواس الصغيرة هو ما جاء فيه من حديث النبي ﷺ..

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦١٦١).

هل هناك أبهى من قوله: (حبّب إلى من الدنيا النساء والطّيب)[1]؟

إن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أراد أن ينقطع للعبادة صياماً وقياماً، حتى لقد باح للنبي ﷺ بنيّته أن يجري عملية تنقطع بها صلته بالمرأة تماماً، لكن النبي ﷺ نهاه، وقال له: (إن الرهبانية لم تكتب علينا)[2].

إذاً فلا رهبانية في الإسلام، فالرهبانية هناك عند النصارى، وخلف حصون بني المصطلق وقريظة وغيرهم من يهود.

تعالوا -وقبل أن ننتهي من قصة جابر وجمله- نزور حصون اليهود، لنرى مدى علاقتهم بالمرأة في تلك الأيام، تعالوا نزور:

زريبة للنساء

هذا هو أقل وصف أصف به أماكن تواجد المرأة اليهودية، أمّا المرأة نفسها عند أولئك القوم فهي أقل رتبة من الحيوان.. أقل رتبة من الخنازير القذرة.

يقول أنس بن مالك: (إن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾.

فقال رسول الله ﷺ: جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء غير النكاح، فقالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً من أمرنا إلاّ خالفنا فيه)[3].

ها هو ﷺ مع زوجته أم سلمة رضي الله عنها نائمان فأصابها الدم، فهل طردها ﷺ من بيته أو من فراشه..؟

---

(١) صحيح رواه وأحمد ٣-١٢٨ وغيره من طرق عن ثابت عن أنس وثابت تابعي ثقة

(٢) مر معنا.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -الحيض وأبو داود (٢٣١).

لن أجيب.. أم سلمة ستجيب.

تقــول رضي الله عنهــا: (بينا أنا مع النبي ﷺ مضطجعة في خميصة إذ حضت، فانسللت، فأخذت ثياب حيضتي، فقال ﷺ: أنفست؟ قلت: نعم. فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة)[1].

أما عائشــة فتروي لنا أشــياء تغيض اليهود حتى الموت، فتقول رضي الله عنها: (كان النبي ﷺ يقرأ القرآن ورأسه في حجري، وأنا حائض)[2].

وتقول أيضاً: (إنها كانت ترجل رسول الله ﷺ وهي حائض ورسول الله ﷺ حينئذٍ مجاور في المسجد، يدني لها رأسه وهي في حجرتها فترجله وهي حائض)[3] أي تسرّح شعره.

وناداها ذات يوم لتعطيه الســجادة ليصلّي عليها وهو في المســجد وهي حائض، فتقول: (قال لي رسول الله ﷺ: ناوليني الخمرة من المسجد. فقلت: إني حائض. فقال رسول الله ﷺ: ليست حيضتك في يدك)[4].

إذاً فالطمث مجرد أذى يتخلّص منه جسم المرأة كما يتخلص الجسد من إفرازاته، لكن قد يقول قائل: إن اليهود كانوا يعتقدون ذلك ومعهم النصارى، لكنهم اليوم يدعون إلى تحرير المرأة، وإلى إعطائها حقوقها كاملة..؟

فأقول: لننسَ لدقائق كلام أنس بن مالك السابق، ولننسَ ما كان يفعله اليهود والنصارى في السابق، ولنقل إنهم يمثلون أنفسهم فقط، ولا يمثلون الدين اليهودي والنصراني. لننس ذلك ولنتوجه إلى يهود اليوم ونصارى اليوم، الذين أزعجونا وأزعجوا نســاءنا حول تحرير المــرأة، والمناداة بحقوقها، ماذا يقــول دينهم الآن..؟ ماذا يقول كتابهم المقدّس اليوم؟ وبعد ألفي عام من المراجعة والتمحيص والدراسة..؟ ربما نجد سرّ هذا الضجيج.

أمامي الآن كتابهم المقدس وهو يتحدّث عن المرأة، فيقول:

(وإذا كان بامرأة سيلان دم من جسدها كعادة النساء:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٨). ومعنى انفست: أي هل حضت.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٥٤٩).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦).
(٤) حديث صحيح رواه مسلم (الحيض) والنسائي - (٣٧١).

فسبعة أيام تكون في طمثها.

وكل من لمسها يكون نجساً إلى المغيب.

وجميع ما ترقد عليه أو تجلس عليه يكون نجساً.

وكل من لمس فراشها يغسل ثيابه، ويستحم بالماء ويكون نجساً إلى المغيب.

ومن لمس شيئاً مما تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بالماء، ويكون نجساً إلى المغيب.

إن كان فراشها أو ما هي جالسة عليه شيء: فمن لمسه يكون نجساً إلى المغيب.

إن ضاجعها رجل فأصابه شيء من دم الحيض - فكم تتوقعون مدة نجاسته؟ إلى المغيب؟ لا.

الكتاب المقدس يقول: يكون نجساً سبعة أيام.

وكل فراش يستلقي عليه يكون نجساً)[1].

إن معنى هذا أن الرجل يحيض أيضاً.

أين هذا الهراء من قول عائشة رضي الله عنها: (كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد[2]، وأنا طامث حائض، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه، لم يعدُهُ[3]، وصلّى فيه، ثم يعود، فإن أصابه منه فعل مثل ذلك غسل مكانه لم يعدُهُ، وصلّى فيه)[4].

بل إن رسول الله ﷺ يصرّ على أن تأكل عائشة وتشرب قبله وهي حائض، بل يقسم عليها، ثم يقوم بحركة تتوهج منها الرقة والحب.. حركة تدخل السرور إلى قلبها ونفسها.

سئلت عائشة رضي الله عنها: (هل تأكل المرأة مع زوجها وهي طامث؟ قالت: نعم، كان رسول الله ﷺ يدعوني فآكل معه وأنا عارك، كان يأخذ العَرْقَ[5]، فيقسم عليّ فيه، فأعترق منه[6]، ثم أضعه، فيأخذه، فيتعرق منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من

---

(١) الكتاب المقدس - اللاويين - شريعة ما يفرزه الجسد - ١٤.

(٢) أي الثوب الذي يلاصق الجسم مباشرة.

(٣) أي يغسل مكان الدم فقط ولا يغسل ما حوله.

(٤) حديث صحيح - انظر صحيح أبي داود (١/٥١) والنسائي (١/١٢٥).

(٥) عظم في لحم.

(٦) آكل منه.

العرق، ويدعو بالشراب، فيقسم عليّ فيه من قبل أن يشرب منه، فآخذه فأشرب منه، ثم أضعه، فيأخذه فيشرب منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من القدح)[١].

أيـن هذا من ديـن اليهود والنصارى الـذي يعاملون المرأة كمخلـوق من الدرجة العاشـرة.. مخلوق نجس.. أنجس من النجاسة نفسها.. كل شيء تلمسه يتنجس.. كل شـيء يلمسـها يتنجس.. كل من لمس شيئاً لمسته ينجس. أي أن المرأة لا يمكن أن تبقى في المنزل وإلاّ أصبح المنزل نجساً ملوّثاً تجوبه الآثام والشياطين. لابدّ من وضع النساء اليهوديات والنصرانيات في زرائب خاصة نجسة، حتى ينقطع دم الحيض عنهن.

لا، وحتـى لو انقطع الطمث، فانقطاعه لا يكفـي للخروج من الزريبة، لأن كتابهم المقدس يقول: (وإذا طهرت من سيلانها فلتنتظر سبعة أيام ثم تطهر)[٢].

هل يكفي هذا أيّها الكتاب المقدس؟

لا. فالحيض ليس نجاسة فقط، بل هو ذنب ترتكبه المرأة، ولابدّ من تكفيره. كيف؟

يقول كتابهم المقدس: (وفي اليوم الثامن تأخذ لها يمامتين أو فرخي حمام، وتجيء بهما إلى الكاهن «العالم المسؤول عن دار العبادة» فيذبح واحدة ويحرق الأخرى ويكفّر عنها الكاهن بعد ذلك أمام الرب سيلان نجاستها)[٣].

ترى كم بقي للمرأة من أيام شبابها لتعامل فيها كإنسان؟

يبدو من كلامهم السابق أن المرأة قذفت من كوكب مليء بالشياطين والنفايات.

دعونـا من اليهود والنصارى الآن.. سـنعود لهم فيما بعـد، فالأيام حبلى بالمثير والجديد. سنعود إلى جابر رضي الله عنه: الذي يخرج الآن من بيته قاصداً النبي ﷺ ليسلمه جمله الذي باعه عليه، لكنه يمرّ على خاله ليسلّم عليه، ويخبره ببيعه الجمل.

يقول جابر: (فقدمت فأخبرت خالي ببيع الجمل، فلامني، فأخبرته بإعياء الجمل، وبالذي كان من النبي ﷺ ووكزه إياه)[٤] ثم توجه جابر نحو بيت رسـول الله ﷺ وهو

---

(١) حديث صحيح.. صحيح سنن النسائي (١/ ٨٠) ورواه مسلم مختصراً.
(٢) الكتاب المقدس -سفر اللاويين- شريعة ما يفرزه الجسد.
(٣) المصدر السابق.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٦).

ملاصق للمسجد، فوصل جابر في وقت (دخل النبي ﷺ المسجد في طوائف أصحابه، فدخلت عليه، وعلقت الجمل في ناحية البلاط، فقلت له: هذا جملك)[1] (فقال ﷺ: صلّ ركعتين)[2].

وبعد أن صلّى جابر ركعتين (خرج ﷺ فجعل يطيف بالجمل، ويقول: الجمل جملنا، فبعث النبي ﷺ أوقية من الذهب، فقال: أعطوها جابراً)[3] (فوزن لي بلالاً فأرجح في الميزان)[4] (قال ﷺ: يا بلال، اقضه وزده. فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطاً.

قال جابر: لا تفارقني زيادة رسول الله ﷺ. فلم يكن القيراط يفارق قراب جابر بن عبد الله)[5]، ثم قال ﷺ: (استوفيت الثمن؟ قلت: نعم)[6] (فانطلقت حتى وليت فقال: ادعوا لي جابراً. قلت: الآن يردّ عليّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليّ منه. قال ﷺ: خذ جملك ولك ثمنه)[7] (الثمن والجمل لك)[8]، فانطلق جابر بالمال والجمل وحبّ النبي ﷺ، وبشّر أخواته وزوجته بهذا اللطف والعطف الأبويّ عندما قال له النبي ﷺ: (يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك)[9].

وكما كان هذا الشاب في أوج فرحه اليوم، فقد جاء إلى النبي ﷺ شاب يوشك أن يخسر زوجته.. اسمه زيد بن محمد

زيد بن محمد ليس زيد بن محمد

كان اسمه زيد بن حارثة.. اشتراه النبي ﷺ في مكة، فأعتقه، وأحبه وعاملة بغاية اللطف، وكان قد أخذ من قومه، فلما علموا بمكانه جاء أخوه «جبلة» إلى النبي ﷺ مطالباً بتسليم أخيه إليه ليردّه إلى أمّه وأبيه وقومه.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٤٣).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٠٩٧).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٩).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦٢).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٠٩٧).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).
(٩) هو حديث ابن إسحاق الصحيح السابق.

يقول جبلة: (قدمت على رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، ابعث معي أخي زيداً؟

قال ﷺ: هوذا، فإن انطلق معك لم أمنعه.

قال زيد: يا رسول الله، والله لا أختار عليك)[1].

قال جبلة بعد أن سمع كلمات أخيه الشاب: (فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي)[2].

فبادل ﷺ حب زيد بحب يسير معه أينما سار، ويُعرَّف به إذا ما رؤي. لقد وهبه ﷺ اسمه، وتبنّاه، وسمّاه (زيد بن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب).

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: (ما كنّا ندعو زيد بن الحارثة إلاّ: زيد بن محمد)[3] ثم زوّجه ﷺ امرأة حبشية صالحة تدعى: «أم أيمن» فولدت له حبيباً آخر لرسول الله ﷺ.. ولدت له (أسامة بن زيد بن محمد)، ذلك الطفل الأسمر العذب، الذي دخل على النبي ﷺ ذات يوم وهو في بيت عائشة وهو السابعة فـ (أراد النبي ﷺ أن ينحي مخاط أسامة. قالت عائشة: دعني حتى أكون أنا الذي أفعل. قال ﷺ: يا عائشة أحبيه فإني أحبه)[4].

ولا يكتفي ﷺ بمطالبة عائشة رضي الله عنها بأن تحبه، بل إنه ﷺ يدعو ربّه أن يحبه.

يحدّثنا أسامة عن أحضانه ﷺ، وعن قبلاته ودعواته له وهو طفل فيقول: (كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن ابن علي على فخذه الآخر، ثم يضمّهما، ثم يقول: اللّهمّ ارحمهما فإني أرحمهما)[5] (اللّهمّ أحبّهما فإني أحبهما)[6].

---

(١) سنده قوي رواه الترمذي (٣١٨٥) والحاكم ٣-٢٣٧ وغيرهم من طريق علي بن مسهر عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي عمرو الشيباني حدثني جبلة. ابو عمرو ثقة مخضرم اسمه سعد بن إياس، التقريب ٢٣٣ وإسماعيل تابعي ثقة ١٠٧ وعلي بن مسهر ثقة ٤٠٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٨٢) والترمذي واللفظ له.

(٤) سنده حسن، صحيح الترمذي للألباني (٤٠٩٨) وابن حبان (١٥/٥٣٤).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٦٠٠٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٣٥).

كان ذلك الطفل الأسـمر عنبراً في ثياب النبي ﷺ، أما ما فعله ﷺ بأسامة بعد أن رأى الدم ينبع من جبهته السمراء الطاهرة، وما فعله لعينيه البريئتين وهما تفيضان بالدمع، فشيء مذهل.

ماذا كان يفعل ﷺ بأسامة لو كان فتاة

عائشـة تجيب عن ذلك كلّه بقصة تأخذ بنياط القلب، ذات يوم اشتاق أسامة إلى جـدّه محمد ﷺ، فتهادى إليه في بيت عائشـة رضي اللـه عنها، وعندما همت قدمه الصغيرة بالدخول (عثر أسامة بعتبة الباب، فشجّ وجهه. فقال رسول الله ﷺ: أميطي عنـه الأذى. فتقذرتـه. فجعل ﷺ يمصّ عنه الدم، ويمجه عـن وجهه ثم قال: لو كان أسامة جارية لحليته وكسوته حتى أنفقه)[1].

تعلمت عائشة الصغيرة الكثير من هذا المشهد، وتشربت حب هذا الطفل البرىء، أمّا والده زيد بن محمد، فقد حلاه والده ﷺ بشـيء أنفس.. لقد زوّجه النبي ﷺ من ابنة عمّته (أميمة بنت عبد المطلب) واسـمها (زينب بنـت جحش) فكان الزواج دليلاً على حبّ ﷺ لزيد، وعلى تحطيمه ﷺ لقيود الجاهلية التي كانت تعيق وتشـوّه تناغم المجتمع الإسـلامي ومساواته وتآخيه، فزيد في نظر المشركين لا يزال عبداً، لكنه عند المسـلمين ابن محمد ﷺ، وهو في نظر الوثنيين لا يستحق الزواج بزينب.. لا يستحق الزواج إلاّ بأمة. لكنه عند المؤمنين: حب رسـول الله ﷺ، وهو في عين النبي ﷺ أمير من أمراء الإسلام، وإن طعن من طعن في إمارته.

قال ﷺ ذات يوم وهو يتحدث عن أسامة بن زيد: (كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبـل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده)[2].

هذا هو زيد في عالم الإسلام وميزانه، أمّا أولئك الذين يرفضون ميزان الإسلام، ويصرّون على التطاول بأنسابهم فقد بشّرهم ﷺ باحتقار شنيع لا يطيقونه. قال ﷺ:

---

(١) حديث حسن انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للإمام الألباني (٢٠١٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٤٦٩).

(لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننّ أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو: مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس كلّهم بنو آدم، وآدم خلق من التراب)[1].

ولئن كان التراب أصلاً للجميع، ولئن جعل الإسلام زيداً ابناً لمحمد ﷺ، فقد توهج الإسلام حتى امحت فيه الفوارق.. كل الفوارق، فكانت هذه القصة التي امحى فيها كل شيء بين النبي ﷺ وأحد الشباب الفقراء، الذين لا يملكون مالاً ولا نسباً.. ذاب كل شيء بين النبي ﷺ وهذا الشاب، حتى تحدث ﷺ عنه، فظن الناس أنه يتحدث عن نفسه.

شاب ليس له سرير سوى سواعد محمد ﷺ وقلبه

شاب اسمه جليبيب

يتحدث عنه أنس بن مالك فيقول: (كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: جليبيب، في وجهه دمامة، فعرض عليه رسول الله ﷺ التزويج، فقال: إذا تجدني كاسداً، فقال: غير أنك عند الله لست بكاسد)[2].

كان جليبيب ظريفاً يهوى المزاح والدعابة إنما لا يملك المال ولا الجاه ولا النسب، لكن ذلك كله لا يهم ما دام النبي ﷺ يعتبره جزءاً منه، ويتحدّث نيابة عنه.. ما دام يملك مساحة في قلبه ﷺ.

تحدّث عنها الصحابي الجليل أبو برزة الأسلمي فقال: (إن جليبيباً كان امرأً يدخل على النساء يمرّ بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا يدخلن عليكم جليبيب، فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم[3] لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا.

---

(١) حديث صحيح انظر: صحيح الترمذي (٣/٢٥٤).

(٢) سنده قوي رواه أبو يعلى ٦-٨٩ وغيره من طرق عن ثابت عن أنس. ثابت تابعي ثقة سمع من أنس التقريب ١٣٢.

(٣) فتاة عزباء.

فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: زوجني ابنتك. فقال: نعم وكرامة يا رسول الله، ونعم عيني. فقال ﷺ: إني لست أريدها لنفسي، قال: فلمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: لجليبيب. فقال: يا رسول الله أشاور أمّها.

فأتى أمّها، فقال رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. فقالت: نعم ونعم عيني. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب. فقالت: أجليبيب ابنه؟ أجليبيب ابنه؟ أجليبيب ابنه؟ لا، لعمر الله لا تزوّجه «ما وجد رسول الله ﷺ إلاّ جليبيباً، وقد منعناها من فلان وفلان - والفتاة في سترها تسمع».

فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ ليخبره بما قالت أمّها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمّها، فقالت: أتردّون على رسول الله ﷺ أمره؟ «إن كان رضيه لكم فأنكحوه»، ادفعوني إليه فإنه لن يضيّعني «فكأنها جلت عن أبويها، وقالا: صدقت.

فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال ﷺ: فإني قد رضيته»، قال: شأنك بها، فزوّجها جليبيباً)[1].

زوّجها ﷺ من ذلك الشاب الفقير، الذي اختارته هي واختاره لها النبي ﷺ، وهي تعلم أنه لن يختار لها إلاّ ما يحبه الله ورسوله ﷺ، ولن يختار لها إلاّ ما يسعدها، لذا احتجت تلك الفتاة على شروط أمّها وتحكماتها التي لا تمتّ للإسلام.

اقتنع الجميع رضي الله عنهم بخيار النبي ﷺ، فأبحر الشابان في أيام بيضاء سعيدة، حتى جاء ذلك اليوم الذي فزع فيه أهل المدينة واستعدّوا لمواجهة عدوّ.. عندها انسحب جليبيب من ذراعي حبيبته إلى ذراعي المعركة، وأخذ سيفه وانطلق خلف حبيبه ﷺ في معركة أحب أن أسميها:

معركة جليبيب

معركة انتصر فيها النبي ﷺ وأصحابه، وحاز فيها جليبيب على أشياء ثمينة.. غبطه كل من حوله، وهو يحملها في سفره ذلك.. غبطه كل من حوله، وهو بين ذراعي النبي ﷺ.. ليت شعري ما الذي أوصل جليبيباً إلى هذا الحب النبوي الجارف.

---

(١) حديث صحيح انظر: ما بعده فهو باقيه.

دعونا نتمشى بقلوبنا بين غنائم جليبيب في تلك المعركة.. يرينا إياها أبو برزة ويصفها فيقول: («فزع أهل المدينة فركب جليبيب» فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له، فلما أفاء الله عليه، قال لأصحابه: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نفقد فلاناً.. ونفقد فلاناً.

قال ﷺ: انظروا هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا.

قال ﷺ: لكني أفقد جليبيباً؟ فاطلبوه في القتلى.

فطلبوه، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله، هاهوذا إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه.

فأتاه النبي ﷺ فقام عليه، فقال: قتل سبعة وقتلوه!

هذا مني وأنا منه. هذا مني وأنا منه[1].

ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه، وحفر له.. ما له سرير إلاّ ساعدا رسول الله ﷺ، ثم وضعه في قبره)[2] أمام أعين الصحابة ودموعهم.. السواعد نعش لجليبيب، والكلمات أكفان كالغمام: لكني أفقد جليبيباً.. هذا مني وأنا منه..

ما أسما هذا النبي وأعظمه.. ما أرقّ مشاعره.. يخطب باسم هذا الفقير الذي يموت في المعركة بعد أن فتك بسبعة، ومع ذلك لا يأبه له أحد.. لا يذكر إذا ذكر الشهداء، ولا يفقد إذا فقد الأبطال، لكن أحضان النبي ﷺ وتجاويف قلبه تفتقده، لأنه مسلم مهما كان نسبه.. مهما كان لونه، حتى لو ارتحل عن هذه الدنيا دون أن يترك جاهاً أو مالاً.

هل يضر جليبيباً ذلك..؟ هل يضرّه أن لا يفتقده أحد إذا افتقده محمد ﷺ..؟ وحمله محمد ﷺ..؟ وجعل ساعديه له نعشاً وسريراً..؟ وتوجه بكنز تمنّاه كل من حوله عندما قال: هذا مني وأنا منه.. هذا مني وأنا منه.

---

(١) قال الراوي: مرتين أو ثلاثاً.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٤/٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٥): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن كنانة بن نعيم عن أبي برزة وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.. وعفان وثابت من رجال الشيخين. وكنانة تابعي ثقة من رجال مسلم (التقريب - ٢/١٣٧): وحماد إمام معروف وثقة مشهور. من رجال مسلم.

أما فتاته التي أحبّته لأن الله ورسوله ﷺ يحبّانه.. لأن رسول الله ﷺ اختاره لها، فقد بلغها الخبر والحزن، وبلغ المدينة كلّها ما حدث لجليبيب فأصابها الحزن، وافتقد بعض البيوت تلك الملاحة والظرف والضحكات التي يثيرها رحمه الله بدعاباته.

ذهب رضي الله عنه وترك لزوجته مجداً لا يبارى، وجعلها ملء السمع والبصر وحديث الناس وإعجابهم في المدينة، حتى قال أنس بن مالك بعد أن انتهت فترة حدادها على زوجها: (فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة)[1]، أي أن خطابها كثروا بعد جليبيب، حتى صار بيت أهلها من أوائل البيوت التي يتهافت إليه الخطاب.

هذا ما جرى لجليبيب رضي الله عنه، لكن ماذا عن زيد بن محمد..؟

فلنعد إلى زيد الذي تزوّج بذات النسب الرفيع (زينب بنت جحش) رضي الله عنها.. ها هو بيت زيد وزينب.. دخلناه فوجدنا الوجوم يخيّم عليه بعد فترة من الزمن.. القلوب في هذا المنزل الكريم على غير ما يحب رسول الله ﷺ.

لم يكن هناك توافق بين زيد وزينب، وسبحان مقلّب القلوب والأبصار. لا أدري أيّهما الذي كان مباعداً للآخر بشعوره.. هل هو زيد، أم زينب، أم هما جميعاً..؟

لم يتحمل زيد ما يحدث في صدره وصدر زوجته، فحمله إلى النبي ﷺ و(جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك)[2].

قال النبي ﷺ تلك الكلمات والألم يسافر به، والحرج يحاصره.. قال ﷺ تلك الكلمات بعد أن نزل عليه الوحي بشيء يخص زيداً وزينب، ويخصّه هو بالدرجة الأولى، فقد أخبره الوحي أن زينب زوجة ابنه زيد سوف تصبح زوجته وإحدى أمّهات المؤمنين، فأخفى ﷺ ذلك الأمر على زيد خشية أن يتأثر ابنه.. خشية أن يلوك المنافقون وضعاف النفوس ذلك الحدث، ثم يلفظونه قيحاً في طرقات المدينة، وفتنةً في بيوتها.

أخفى ﷺ ذلك لأنه سيحدث لا محالة، وانصرف زيد إلى زوجته وبيته، لكن القلوب تسافر دون أن تستأذن أصحابها.. بقي الزوجان على غير وفاق حتى تفاقم

---

(١) هو جزء من الحديث الصحيح السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).

الصـــدع، فأصبح أكبر منهما ومن منزلهما، فكان الطــلاق هو الحل الوحيد، والمخرج الآمن لحياتهما ومعاناتهما.

أطلقها زيد زينب وطلّقها بعد أن شــعر أن البقاء معها شــبه مستحيل، فالإسلام جعل الطلاق بيد الرجل لأنه المكلف بالمهر والنفقة والحماية والرعاية، والرجل السويّ لا يقدم على الطلاق إلاّ بعد أن يســتهلك كل وسائل البقاء الممكنة، لكن ماذا عن المرأة المســكينة..؟ هل اضطهدها الإســلام لأنها لا تنفق ولا تدفع مهراً..؟ هل يرغمها على البقاء في بيت رجل لا تطيقه لهذا السبب فقط..؟

الجواب في قصة هذه المرأة التي تطرق باب النبي ﷺ.. تبحث عن مخرج كمخرج زيد وزينب.. تطلب ذلك وهي زوجة ســيد من ســادات الأنصــار، وخطيب من أعظم خطبائهم وبلغائهم.. صاحب خلق ودين.. ليس بالبخيل ولا بالذليل.. اســمه (ثابت بن قيس بن شــماس) لكن زوجته فتّشــت داخل قلبها عن مكان لـه فلم تجد، لذلك ذهبت إلى النبي ﷺ تشكو ذلك الفراغ الذي يؤرقها مع ثابت، فهل تستطيع تلك المرأة أن:

تطلق زوجها لأنها لا تحبه

ففي الظلام، وعندما بدأ الفجر يمزق خيمة ليل ثقيل على امرأة اســمها: (حبيبة بنت ســهل) وعندما صدع بلال أسوار الليل بالأذان نهضت تلك المرأة من ليلها الطويل الشــاحب.. توجّهت نحــو الباب وفتحته، ثم خرجت مثقلة بالهموم والشــكوى.. تاركة البيــت وصاحبــه، وبعد خطوات ثقيلــة وحزينة توقفت أمام باب كالفــرج.. أمام باب كالفجر.. أمام باب محمد ﷺ.

لــم تطرق الباب، بــل مكثت تنتظره كي يبدّد ليلها الطويل، ثم (إن رســول الله ﷺ خرج إلى الصبح[1]، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس[2]، فقال رسول الله ﷺ: من هذه؟

فقالت: أنا حبيبة بنت سهل. قال: ما شأنك؟

---

(١) أي صلاة الصبح.

(٢) أي الظلام.

قالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس «يا رسول الله، إني لا أعتب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أطيقه.

فقال رسول الله ﷺ: فتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم».

فلما جاء ثابت بن قيس، قال له ﷺ: هذه حبيبة بنت سهل -وذكرت ما شاء الله أن تذكر - وقالت حبيبة: يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي.

فقال رسول الله ﷺ لثابت: خذ منها. فأخذ منها، وجلست هي في أهلها «وأمره ﷺ يطلقها»[1]، فطلقها ثابت رضي الله عنهما، ولم يستطع إرغامها على العيش معه، وبذلك انتزعت حبيبة حقها وحق غيرها من النساء من بعدها في الانفصال والخلع، فالزواج ليس سجناً ولا إكراهاً.. إنه حب ومشاركة.. ألفة وود وتكامل، فإن لم يكن الأمر كذلك فباب الطلاق وباب الخلع مفتوحان كالرحمة إلى يوم القيامة.

هذا ما لا يعرفه النصارى حتى اليوم، فالقسّ في الكنيسة يربط الزوجين برباط يسمّيه رباط الله المقدس، ثم يقول: إن ما يربطه الله لا يفكّه ابن آدم. أي أن الطلاق محرم، والزواج حتى ولو كان فاشلاً لابدّ أن يكون مؤبداً، وفي ذلك يقول كتابهم المقدس: (أما أنا فأقول لكم: من طلّق امرأته - إلاّ في حالة الزّنا - يجعلها تزني، ومن تزوّج مطلقة زنى)[2]. أي أن المطلقة تعتبر زانية عند النصارى، ومن تزوّج امرأة مطلقة فهو أيضاً زان، فلا غرابة أن نرى انتشار الخنا عند النصارى بشكل مخيف ومقزز، وما دامت المطلقة المسكينة قد حكم عليها الزنا المؤبدّ، فلن يغير من الأمر شيء أن تمارسه فعلاً.

أمّا محمد ﷺ فقد أحب المطلقة وتزوجها، وزوَّجها، وأفضل زوجاته خديجة تزوجت قبله أكثر من رجل، وها هو الوحي يخبره بأنه سيتزوج مطلقة زيد.

فرق كبير جداً بين سماحة الإسلام وتطرّف المسيحية والمسيحيون الذين يرون الزواج بالمطلقة زنا، بل يعتبرون الزواج بالبكر لا يليق بالنصراني المستقيم، وفي ذلك

---

(١) صحيح رواه البخاري (٥٢٧٥ - ٥٢٧٤) والزوائد له وأبو داود (٢٢٢٧) واللفظ له.

(٢) الكتاب المقدس - متى - الطلاق.

كتابهم المقدس: (أبناء هذه الدنيا يتزاوجون، أما الذين هم للحياة الأبدية والقيامة من بين الأموات فلا يتزاوجون، هم مثل الملائكة لا يموتون، وهم أبناء الله)[1].

لا أدري مـا مصير البشـر لو أخذوا بهذه المقولة المتطرّفـة. حقاً إن الدين ليثير السـخرية متى ما عبث بكتبه ونصوصه العلماء والعبـاد، فحرّفوا وبدّلوا وغيّروا ظناً منهم أنهم يخدمونه، وهذا ما حدث للتوراة والإنجيل. لقد أصبحا مثار سخرية اليهود والنصارى أنفسـهم. الإسلام شرّع الزواج وأشرع أبوابه ونوافذه، وجعله فسحة للمرأة والرجل، ومسـؤولية وتلبية لحاجة بشرية ملحة، ولم يجعله قيداً وسجناً لا يستطيعان الفـكاك منه والهـرب، ولكي يبقى الزواج سـليماً مـن النكد والأمراض الجسـدية والاجتماعية أنزل الله على نبيّه ﷺ تحريم الزنا، حتى تبقى ساحة الزواج نقيّة طاهرة بهذه الأحكام النقية، وبهذا القرآن العذب والسنّة المطهّرة.

أعاد الإسـلام للإنسـان توازنه الذي اختلّ على أيدي اليهود والنصارى، فاليهود حرّفوا التوراة.. فتحوا بين سطورها بيوتاً للدعارة، والنصارى حاولوا إقفال تلك البيوت بأحكام تحرم الطلاق، وتنهى عن الزواج أصلاً، فبقي الإنسان محتاراً بين قريتين: قرية للرهبان، وقرية للشيطان. قد تتساءل فتقول:

كيف فتحت توراتهم بيوت الخنا؟

افتح التوراة.. تجد الاتهامات القبيحة لأنقى من مشـى على الأرض، وهل هناك أطهر من نبي..؟

التوراة المحرّفة تقول لليهود.. تقول لشـعب الله المختـار: إن إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام زنى بزواجه من أخته من أبيه سارة[2]!

إن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه وأنجب منهما[3]!

---

(١) الكتاب المقدس – لوقا – قيامة الأموات.
(٢) سفر التكوين – (٢٠-١٢).
(٣) سفر التكوين (١٩ – ٣١).

إن أحد الأسباط وأكبرهم -ابن يعقوب- واسمه رابين زنى بزوجة أبيه وأم أخوته، ويطير صوابك عندما تقــول التوراة إن يعقوب لما علم دعا لابنه رابين وباركه، ومدحه وسماه بالفاضل في العزّ والرفعة[1]!

إن يهوذا وهو أخٌ لرابين زنى بزوجة ابنه «لعير» واسمها «شامار»[2]!

إن داود عليه السلام رأى زوجة جاره الجميلة فناداها وزنى بها[3] ثم قتل زوجها!

إن ابن داود زنى بأخته[4].. وغيرهم.. وغيرهم.

أمّا كتابهم التلمود، فيبيح لليهودي كل شــيء خاصة مع المرأة غير اليهودية، لأنها عبارة عــن حيوان، بل وحثّ الزوجة اليهودية على عدم الغيرة من المرأة غير اليهودية، لأن الأخرى حيوان لا كرامة له، فماذا يُتوقع من شعب هكذا يُصوَّر له أنبياؤه في كتابهم المقدس، أما النصارى فرأوا اليهود في حالة تثير الاشــمئزاز، فابتدعوا الرهبانية كرد فعــل على إباحية اليهود، فكرهوا الزواج ونهوا عنــه، وحرّموا الطلاق وجعلوا المطلّقة زانية والمتزوج منها أيضاً زان.

وبهذا أصبح اليهود والنصارى بين جحيمين، فجاء الإسلام راحة ورحمة للإنسان يتقلّب فيها.. عامله لا كملاك ولا كشــيطان، بل إنســان يسعى نحو الأفضل، لكنه في ســعيه ذلك يتعرّض للعثرات والســقوط، لأنه بشر. لكن الإســلام يدفعه لمقاومة ذلك السقوط والنهوض من جديد، ولذلك قال ﷺ: (والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[5].

جاء أحد الصحابة واســمه (حنظلة) يستفسر عن حالة التغيّر عند المسلم عندما يغادر المســجد، وقد تأثّر بكلمة أو موعظة أو محاضــرة، فإذا ذهب إلى بيته أو دكانه خــفّ تأثره ذلك؟ فأجاب ﷺ عن هذا التســاؤل الذي يطرأ على المســلم بقوله ﷺ:

---

(١) سفر التكوين (٣٥ - ٥٥) (٤٩ - ٣).
(٢) سفر التكوين (١٩).
(٣) الكتاب المقدس - صموئيل الثاني - ١١.
(٤) الكتاب المقدس - صموئيل الثاني - ١٣.
(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٤٩).

(والذي نفسي بيده، لو كنتم تكونون في بيوتكم على الحالة التي تكونون عليها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولأظلّتكم بأجنحتها، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة)[١].

وعندما حاول ذلك الصحابي العظيم عثمان بن مظعون أن يمحو الساعة الثانية، ليبقى في ساعة عبادة ممتدة من النوم إلى النوم أوقفه ﷺ، وأعاده إلى سنّته.. إلى بشريّته، فلا رهبانية في الإسلام ولا تطرّف.

تقول عائشة رضي الله عنها: (دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة، فقلن لها: ما لك؟ فما في قريش أغنى من بعلك. قالت: ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم، فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه، فقال: يا عثمان بن مظعون، أما لك بي أسوة؟ فقال: بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال ﷺ: تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: إني لأفعل.

قال ﷺ: «يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا.. أما لك فيّ أسوة؟ أما والله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده لأنا» فأتتهن بعد ذلك وهي عطرة كأنها عروس، فقلن: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس)[٢].

لم تشتك تلك المرأة الفاضلة من بخل ولا قلّة مال.. لم تشتك حتى من زوجها، لكنها بثّت ما بصدرها لنساء النبي ﷺ.. عبرت عن حاجة المرأة إلى وصال الزوج وحبّه، وإلاّ فإنها ستذبل، وذبول المرأة يعرف بعدم اهتمامها بنفسها وأناقتها وأنوثتها.

أعاد النبي ﷺ ذلك الرجل النقي التقي إلى أجواء الإسلام البيضاء الرحبة.. يحلّق فيها طائراً أبيض بالحب والإيمان، ثم يعود إلى عشّ حبيبته الجميل، كما يعود النبي ﷺ إلى بيته محملاً بالشوق والحب، وإذا كانت الحياة الزوجية تقتضي ذلك، فإن الحياة بكرامة إسلامية تقتضي أن يعود عثمان بن مظعون ورفاقه مع رسول الله ﷺ إلى أرض بدر مرة أخرى، بعد أن فرض الشرك ذلك عليهم متحدياً في معركة حددها أبو سفيان.. حدد موعدها، ومكانها. أما الموعد فهو بعد عام من غزوة أُحُد، أي الآن. وأمّا المكان، فعلى أرض بدر، وفي موسم بدر المشهور بالشعر والفخر والتجارة.

---

(١) حديث صحيح - صحيح الجامع (٢/١١٩٠) وهما عند مسلم.

(٢) حديث صحيح مر معنا. ورواه عبد الرزاق بسند صحيح (٦/١٦٧) عن معمر عن الزهري عن عروة وعمرة عن عائشة.

الفهرس

صدر للمؤلف

- (الفقه السهل) نشر مكتبة العبيكان.
- (التوارة والقرآن والإنجيل) نشر مكتبة العبيكان.
- (الجنة حين أتمنى) توزيع مكتبة العبيكان.
- (العقل العربي اللامفكر فيه والمسكوت عنه في مقاربات العقل العربي) توزيع مكتبة العبيكان.



هذه سيرة محمد ﷺ

الذي «كان أحسن الناس وجهاً.. وأحسنهم خلقاً.. أبيض مشرباً بحمـرة.. أسود الحدقة أهدب الأشفـار.. بعيد ما بين المنكبين.. أسيـل الخدين.. شديد سواد الشعـر.. له شعر يبلغ شحمة أذنيه.. أكحل العينين.. إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس لـه أخمص.. إذا وضـع رداءه عن منكبيه فكأنها سبيكة فضــة.. كان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة مذهبة.

شعره دون الجمة وفوق الوفرة.. شيبه نحو عشرين شعرة.. إذا مشــى.. كأنــه يتوكأ.. يمشي مشيــاً يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كســلان.. إذا مشى مشى أصحابه أمامه وتركوا ظهره للملائكة.

يمر بالنساء فيسلم عليهن.. يمر بالصبيان فيسلم عليهم. كان أرحم الناس بالصبيان والعيال.. كان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم.. وإذا قدم من سفر تُلقي بصبيان أهل بيته»

كان عطـراً مـن التواضـع.. كان عبقاً فـي الطرقات» لا يأنـف ولا يستكبر أن يمشـي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي لـه حاجته.. وكان مما يقوله للخادم: ألك حاجة؟

كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

إذا لقيه أحد من الصحابة فتناول يده.. ناوله إياها.. فلم ينزع حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يـده منــه.. وإذا لقي أحداً من الصحابة فتناول أذنه.. ناوله إياها.. ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هــو الذي ينزعها عنــه.. إذا لقيه أحد من الصحابة فقام معه.. قام معه حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه.. كان أكثر الناس تبسماً.

كان يعرف بريح الطيب إذا أقبل.. يعجبه الريح الطيبة.. ولا يرد الطيب.

كان أكثـر النـاسـ تبسمــاً.. لا يُدفع عنه النـاسـ ولا يُضربوا عنه.. إذا لقيه الرجـل من أصحابه مسحه ودعا له.

كان يحلب شاته ويخدم نفسه.. كان يخيط ثوبه.. ويخصف نعله.. ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم».

هــذه بعض صفاته الجميلة.. أما سيرته.. وحياته فهي سطور هذا الكتاب الذي يعرضها قصة.. لكن موثقة بالأحاديث الصحيحة المخرَّجة.

"ISBN"G:978-603-503-571-2



موضوع الكتاب: السيرة النبوية





السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة
(قراءة جديدة)

محمد الصوياني



المجلد الثاني
(٣-٤)

العبيكان
Obeikan

السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

محمد الصوياني

الجزء الثالث



ح) مكتبة العبيكان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني.-

ط٥.- الرياض، ١٤٣٤هـ

٤مج.

٢٩٤ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٢-٥٧١-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٣-٥٧٤-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج٣)

١- السيرة النبوية ٢- الحديث الصحيح أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٣٤ / ٩٥١٦

الطبعة الخامسة

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥



معركة ثانية على أرض بدر

بعد غزوة أحد اغترّ أبو سفيان (قائد قريش) بما حدث، فصاح بالنبي ﷺ متحدياً: (موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا)[1]

كان أبو سفيان ومن معه يريدون أن يملأوا آبار بدر بأجساد المؤمنين، مثلما حشر المؤمنون جثث طواغيت قريش في تلك البئر المنتنة على أرض بدر. حلم لقريش، فهل يتحقّق..؟

كان أبو سفيان يريد استغلال مناسبة إقامة موسم بدر، وهو موسم للعرب يجتمعون فيه تجارةً وأدباً وشعراً، لكن أبا سفيان أراد أن يجعل للحرب نصيباً في هذا الموسم.. حرب تستعيد بها قريش بعض ما تناثر من هيبتها.. حرب يشهدها العرب جميعاً.

فليكن لأبي سفيان ما يريد.. ها هو ﷺ عندما اقترب موعد إقامة سوق بدر يستعدّ للسفر، لا للحرب فقط، بل للحرب والتجارة.. متجاهلاً كل صيحات المخذلين والجبناء في المدينة، الذين يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم). فقد ردّ ﷺ على أولئك المخذلين والجبناء بعزم شاركه به أصحابه رضي الله عنهم فقالوا: (حسبنا الله ونعم الوكيل). فامتدح الله هذا الإيمان المتجذّر وهذه الثقة الراسخة بالله، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2]

فـ (قد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ: موعدك موسم بدر، حيث قتلتم أصحابنا.

فأمّا الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أُهبة القتال والتجارة فأتوه)[3].

وصل الشجعان إلى أرض بدرٍ، فرحبت بهم وذكرتهم بنصرهم.. كانت أرض بدرٍ أرضاً للانتصار.. هكذا هي في عقول وقلوب المؤمنين، أمّا بالنسبة لقريش فهي تذكرهم بالهزيمة. لذا لم يستطع أبو سفيان وجيشه مغادرة مكّة، ولا الحركة منها،

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٧٣).

(٣) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد وهذا هو آخر ذلك الحديث.

فالتشـــاؤم يعيقهم عن الحركة.. يشـــلّهم عن الوفاء بالوعد والتحدّي. أبو سفيان وكبار القوم خائفون.. يخشون أن تحشر جثثهم في بئر أخرى فلم يحضروا.

وهكذا انتهت غزوة بدر الثانية قبل أن تبدأ، فليس على الســاحة سوى المؤمنين.. إنهم يتلفتون فلا يرون أحداً.. يذرعون أرض بدر.. يمشطونها بحثاً عن جيش الوثنيين، فـــلا يرون أحداً. وهكذا انهزمت قريش في معركة هـــي التي طلبتها، وحدّدت مكانها وزمانها، أما رســـول الله ﷺ وجنده، فقد مالوا بمطاياهم نحو موســـم بدر (فأتوه فلم يجدوا به أحداً، وتســـوقوا فأنزل الله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾)[1]، فطلـــب ﷺ من أصحابه أن يكتبوا هذه الآية وأن يجعلوها بعد الآية الســابقة، لتقرأ هكذا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُوا۟ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[2].

فتفضّـــل ســـبحانه على نبيّه ﷺ وصحابته رضي الله عنهـــم بانتصار لم ترق فيه قطرة دم، فباعوا واشـــتروا وكســـبوا ودعوا إلى التوحيد، وربما كسبوا أتباعاً ومؤمنين جدداً ينشرون التوحيد في قومهم، أو يهاجرون، ثم عادوا شوقاً إلى أهلهم.. شوقاً إلى المدينة. المدينة التـــي أصبحت غادة مكتنزة بالجميل والجديد، وأصبح هواؤها صافياً نقياً بعد أن تطهّر من ذلك الوباء الذي لوّث الصحة والعقول، وأنزف الدماء والأموال. المدينة الآن نقية لأنه قد نزل:

تحريم الخمر

الخمـــر التي تؤرق بعض الصحابة ويحيّرهـــم أمرها.. كانت تصنع في المدينة من خمســـة أطعمة هي (التمر والعسل والبر والشعير والعنب) حيث يقول ابن عمر رضي الله عنه: (نزل تحريم الخمر، وإن في المدينة يومئذٍ لخمســـة أشـــربة)[3] (نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير)[4].

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد وهذا هو آخر ذلك الحديث.

(٢) سورة آل عمران: (١٧٣ - ١٧٤).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٦).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٩).

وكان نزول تحريمها لأسـباب مازالت ممتدة حتى الآن.. ما زالت شنيعة وخطيرة حتى الآن، وما جاء الإسلام إلاّ لتطهير المجتمع من مثل هذه الأسباب التي تهدّد أخوّة الإيمان وودّه ووصاله.

من هذه الأسـباب قـول أحد الصحابة: (إنما نزل الخمر فـي قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه، ورأسه، ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان - وكانوا أخوة ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي.

حتـى وقعت الضغائـن في قلوبهم، فأنزل الله عزّ وجـلّ هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾)[١]

ويقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا، فشـربنا الخمر قبل أن تحرم، حتى انتشـينا، فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل. وقالت قريش: نحن أفضل.

فأخـذ رجل من الأنصـار لحى جزور، فضرب به أنف سـعد، ففـزره، وكان أنف سـعد مفزراً، فنزلت آيـة الخمـر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[٢] عـن هذه الخمر.

هل أنتم منتهون عن هذه الخمر التي تعبث بالعقل، وتمحو اللياقة الأدبية. إن في الخمر لذّة لاشكّ في ذلك، ولولا ما فيها من نشوة ما شربها أحد، لكنها تسبّب الصداع والغثيان بعد تلك النشوة، وهي تحيل شاربها إلى إنسان مريض.. وقح يتفوّه بكل بذيئة، ويفشـي كل ما ينبغي إخفاؤه مـن رغبات ونزوات تكدّر النـديم والجليس والصاحب

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٤ - ١٨٧٦ والبيهقي في السنن (٨/٢٨٥).

والقريب.. الخمر يدمر ذلك التحكم المهذب، الذي يحفظ للإنسان شخصيّته ووقاره واحترامه.. وإنسانيته وكرامته.

بالخمر يتحوّل السكران إلى حيوان يهذر بكل قبيح، وينزو على كل محرم. بالخمر يختلط الخطأ بالصواب، والحلال بالحرام، والأدب باللاأدب، أما

تحريم الميسر

فالميسر وهو (القمار) مرض آخر من أمراض التخلّف واللامسؤولية، فالإنسان الذي يكدّ ويكدح من أجل تحصيل مال، وبعد أن يجمعه يقف على شرفة جبل تطل على بحر، فيرمي كل ما جمعه في سنين في ذلك البحر. الإنسان الذي يفعل ذلك أبسط ما يقال عنه إنه: مجنون. والمجنون لا يُترك ولا يُسمح له أن يؤذي نفسه ولا غيره.

الميسر يدمر الأسر والدول والأخلاق.. الخمر والميسر نوعان من أنواع الجنون، ورسالة الإسلام جاءت لإيقاظ العقول.. توقدها تحضّراً ورقياً وتمدّناً، فكيف تلقى الصحابة هذا الخبر..؟ كيف استقبلته قلوبهم ونفوسهم..؟ كيف استقبله أولئك الذين كانوا لا يصبرون عنها..؟

تعالوا إلى بيت أم سليم وأبي طلحة حيث كان: أبو دجانة، وأبو عبيدة، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي بن كعب في ضيافة أبي طلحة رضي الله عنهم. كانوا ندامى يحتسون أقداحاً من الخمرة، وكان ساقي أولئك الندامى الأخيار ابن أم سليم.. أنس بن مالك الذي يقول: (بينما أنا أدير الكاس على أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي دجانة، «وأبي بن كعب» حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، «فإذا مناد ينادي، قال: أخرج فانظر»

فسمعنا منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت.

«فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس، اكف ما بقي في إنائك. فوالله ما عادوا فيها»

«فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها. فهرقتها» «يا أنس، قم إلى هذا الجرار فاكسرها. فقمت إلى مهراس لنا فضربته بأسفله حتى تكسرت». فما دخل علينا داخل

ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، وإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾)(١)، فانتهى الصحابة بعد سماعهم لهذه الآية في مسجد النبي ﷺ.. رغم إدمان بعضهم لها، والمدمن يحبس في مصح أحياناً كي يتخلّص ويعالج من إدمانه، لكن إيمان الصحابة وتربية النبي ﷺ لهم كانت من العمق والسموّ والامتداد بحيث يتلاشى أمامها أي إدمان.

تخلّصت المدينة من أمّ الخبائث، وأم الأمراض والمشاكل، لكن ماذا لو استفاد البعض من الخمرة في غير الشرب.. في البيع والشراء مع غير المسلمين.. في العلاج مثلاً..؟

أما العلاج فلا تصلح الخمر أبداً لأنها مرض، فالنبي ﷺ يقول: (إنها ليست بدواء، ولكنها داء)(٢) والطب الحديث يؤيّد ذلك ويحذر منها(٣).

أمّا عن التجارة بالخمر، فقد جاء تاجر خمر من الصحابة رضي الله عنهم يقال له (كيسان) (كان يتجر في الخمر زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق -يريد بها التجارة- فأتى بها رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني جئتك بشراب طيّب. فقال رسول الله ﷺ: يا كيسان، إنها قد حرمت بعدك، قال: فأبيعها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إنها قد حرمت، وحرّم ثمنها، فانطلق كيسان إلى الزقاق، فأخذ بأرجلها ثم هرقها)(٤). ثم قال ﷺ: (إن الله تعالى حرّم الخمر، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء، فلا يشرب، ولا يبع)(٥).

---

(١) البخاري ٢٤٦٤ ومسلم١٩٨٠ ولمالك١٥٤٤ والزوائد لهم واللفظ للبيهقي ٨-٢٨٦.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (٤٧٨/١).

(٣) شاهدت مقابلة مع الطبيب الشهير oz وقد سألته مريضة عن وضع مادة الكحول على الجرح فقال لها: المادة التي لاتضعينها على عينك احذري من وضعها على جرحك، ثم بين أن الكحول يقتل الجراثيم، لكنه يقتل عشرة أضعافها من المضادات الجسدية.

(٤) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٢٣٧حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره. نافع صحابي، وسليمان البصري تابعي ثقة التقريب ٢٥٣ وحديث ابن لهيعة صحيح، لأن تلميذه قتيبة ثقة ثبت التقريب ٤٥٤.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم ٣ - ١٢٠٥ (باب تحريم بيع الخمر).

وهذا رجل آخر (أهدى لرسـول الله ﷺ راوية خمر، فقال له رسول الله ﷺ: هل علمت أن الله قد حرمها؟ قال: لا. فسـارَّ[1] إنسـاناً، فقال له رسول الله ﷺ: هل علم أن الله قد حرمها؟ قال: لا. فقال له رسـول الله ﷺ: بم ساررته؟ فقال: أمرته ببيعها، فقـال: إن الذي حرّم شـربها حرّم بيعها، قال: ففتح المـزادة حتى ذهب ما فيها)[2] ثم (سئل ﷺ عن الخمر تتخذ خلاً؟ فقال: لا)[3].

لا، بهـذه الكلمة انتهت علاقة الإسـلام بالخمر.. قطيعة وحـرب لا هوادة فيها ضدها، ليبدأ أولئك المؤمنون بالاستفادة من أوقاتهم التي كانت تسفكها الخمر. انتهت علاقة الإسلام بالخمر، و

انتهت عدة زينب بنت جحش

مرّ على طلاقها من زيد بن ثابت ثلاثة أشـهر، أي ثلاث حيضات، والمرأة لابدّ أن تنتظر ثلاث حيضات حتى تتأكّد من خلوّ رحمها من أي علاقة من زوجها الأوّل، وتتأكّد من عدم وجود حمل حتى لا تختلط الأنساب، وتتفشّى الأمراض.

يقول سبحانه: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[4].

وبعد أن مرت تلك الأشـهر أمر الله النبـي ﷺ بالزواج من زينب رضي الله عنها لسبب واحد ذكره الله في القرآن، ونزل به جبريل عليه الصلاة والسّلام، فما

سبب زواج النبي ﷺ من زينب

كان النـاس في ذلك الوقـت يعتبرون الابن بالتبنّي كالابـن الحقيقي، أي أن الابن بالتبني إذا طلّق زوجته فهي حرام على أبيه والعكس، فأنزل الله نسخ ذلك الشيء وأبطله بتزويج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، التي كانت زوجة لابنه بالتبني (زيد بن حارثة)

---

(١) أي كلم رجلاً سراً بينه وبينه دون أن يسمع النبي ﷺ. والراوية هي القربة.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (باب تحريم الخمر).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (باب تحريم تخليل الخمر).

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

أنـــزل الله ذلـــك الأمر بعد أن كان النبي ﷺ يخشـــى كلام الناس حول ذلك، لكن النبي ﷺ لا يســتطيع أن يخفي شـــيئاً من الوحي ولا القرآن، فإذا نزل الأمر فما عليه ســوى السمع والطاعة لربّه ســبحانه وتعالى، ولذلك يقول أنس: (جاء زيد بن حارثة، فجعل النبي ﷺ يقول: اتّق الله وأمسك عليك زوجك.

قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه)[1].

زيد يخطب زينب للنبي ﷺ

يقـــول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما انقضت عدة زينب قال رســـول الله ﷺ لزيد: فاذكرها عليّ.

فانطلق زيد حتى أتاها -وهي تخمر عجينها- قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أســـتطيع أن أنظر إليها -أن رســـول الله ﷺ ذكرها- فولّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك؟

قالت: ما أنا بصانعة شـــيئاً حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن)[2] أي نزل قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾. (وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن)[3] لأنه لا يحتاج إلى ذلك، فقد زوّجها الله إياه من فوق سبع سماوات، فكان ذلك تكريماً لها.. فرحاً لها.. حباً لها.

كانـــت رضي الله عنها تبتهـــج بذلك (كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكـــنّ أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق ســـبع ســـماوات)[4] وكان في ذلك الزواج تكريم لزيد رضي الله عنه، فقد خصّه الله بذكر اسمه من بين جميع أصحاب النبي ﷺ في القرآن. حقاً لقد كان:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).
(٢) حديث صحيح رواه مسلم (زواج زينب).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم (زواج زينب).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).

زواج زينب فرحاً وتحولاً

فـي حياة الصحابة والأمّـة.. أحداث كثيرة في ذلك الزواج.. آداب وتشـريعات، ومظاهر سرور صاحبت ذلك الزواج الكريم.

تعالوا نتجوّل في تقاسيم ذلك الفرح المليح.. سنبدأ أولاً بـ:

الوليمة والهدايا والمعجزات

يقول أحد الذين حضروا وشاركوا في تلك الوليمة: (ما رأيت رسول الله ﷺ أولم على امرأة من نسـائه ما أولم على زينب، فإنه ذبح شـاةً)[1]، (ما أولم رسـول الله ﷺ على امرأة من نسائه أكثر أو أفضل مما أولم على زينب)[2] (أطعمهم خبزاً ولحماً حتى تركوه)[3] شبعاً.

لم يشـارك أنس بن مالك في الأكل فقط، بل سـاهم مع أمّه أم سـليم رضي الله عنها في زيادة مساحات الفرح.

يقول رضي الله عنه: (أن رسـول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتّبعته، فجعل يتتبع حُجُرَ نسـائه يسلّم عليهن، ويقلن: يا رسـول الله، كيف وجدت أهلك)[4]. ويحدّثنا أنس عن هدية أمّه فيقول: (فصنعت أمي -أم سليم- حيساً، فجعلته في تور[5] «مـن حجارة» فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رسـول الله ﷺ، فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله.

فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن أمي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسـول الله. فقال: ضعه. ثم قال: اذهـب، فادع لي فلاناً، وفلاناً، وفلاناً، ومن لقيت «من المسلمين» وسمّى رجالاً، قال: فدعوت من سمّى ومن لقيت.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.
(٣) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.
(٥) إناء. والحيس تمر وسمن واقط.

قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسـول الله ﷺ: يا أنس، هـات التور «وضع النبي ﷺ يده على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شـاء الله أن يقول» فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسـول الله ﷺ: ليتحلّق عشـرة عشرة، وليأكل كل إنسـان مما يليه. فأكلوا حتى شـبعوا، فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلّهم، فقال لي: يا أنس ارفع.

فرفعـت فما أدري حين وضعـت كان أكثر أم حين رفعت؟ وجلـس طوائف منهم يتحدّثون في بيت رسـول الله ﷺ، ورسـول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسـول الله ﷺ «فأطالوا عليه الحديث»، فجعل النبي يسـتحي منهـم أن يقول لهم شـيئاً «فأخذ كأنه يتهيـأ للقيام، فلم يقوموا فلمـا رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام من القوم، فقعد ثلاثة» فخرج رسـول الله ﷺ فسلم على نسائه، «فمشـى، فمشيت معه حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظنّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع، فرجعت الثانية، حتى بلغ حجرة عائشة» ثم رجع «فرجعت»، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، فابتدروا الباب، فخرجوا كلّهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر، ودخل وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى خرج عليّ، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ، وقرأهن علـى النـاس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ[(١)] إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[(٢)] (قـال أنـس: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات، وحجبن نسـاء النبي ﷺ)[(٣)] بعد هذا الموقف المحرج أمرت نساء النبي ﷺ بالحجاب وكان:

---

(١) أي لا تتطفلوا تترقبون نضج الطعام ثم تعرضون أنفسكم للدخول دون دعوة.

(٢) حديث صحيح رواه مسـلم والزوائد له أيضاً، باب زواج زينب. وأكملت الآية لأن الحديث يقول: إلى آخر الآية بعد كلمة: يؤذي النبي.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم وهو جزء من الحديث السابق.

لنزول الحجاب قصة

فقد كان عمر بن الخطاب قبل نزول الحجاب يقترح على النبي ﷺ أن يحجب نساءه. (قال عمر بن الخطاب: قلت لرسول الله ﷺ: لو حجبت عن أمّهات المؤمنين، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب)[1]

وتقول عائشة رضي الله عنها: (أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفلح فكان عمر يقول للنبي ﷺ احجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله آية الحجاب)[2]

وفي حادثة أخرى كرّر عمر بن الخطاب تلك الأمنية، حيث كان رضي الله عنه أجرأ من غيره في البوح بما يضمره ويضمره غيره من إجلال لبيت النبوّة.تقول عائشة: (كنت آكل مع النبي ﷺ حيساً في قعب، فمر عمر، فدعاه، فأكل، فأصابت أصبعه إصبعي، فقال: حس، أو: أوه، لو أطاع فيكن ما رأتكن عين. فنزل الحجاب)[3] ولكن فيما بعد، فالحجاب لم ينزل بعد هذه الأحداث مباشرة. تعالوا نسأل أنس بن مالك: من أعلم الناس بنزول الحجاب؟ قال رضي الله عنه: (أنا أعلم الناس بالحجاب، لقد كان أُبيُّ بن كعب يسألني عنه، قال أنس: أصبح رسول الله ﷺ عروساً بزينب بنت جحش، وكان تزوجها بالمدينة، فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار، فجلس رسول الله ﷺ، وجلس معه رجال بعدما قام القوم، حتى قام رسول الله ﷺ، فمشى، فمشيت معه، حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع فرجعت الثانية حتى بلغ حجرة عائشة، فرجع فرجعت، فإذا هم قد قاموا،

---

(١) سنده صحيح رواه ابن جرير ١٠-٣٢٤ حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد عن أنس. حميد تابعي ثقة سمع من أنس، وابن أبي عدي: محمد بن إبراهيم ثقة - التقريب ٤٦٥ وابن بشار هو الثقة محمد بن بشار، التقريب ٤٦٩.

(٢) صحيح البخاري ١-٦٧.

(٣) سنده قوي رواه ابن أبي حاتم ١١-٤٩٠ حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن مسعر عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عن عائشة..

فضرب بيني وبينه بالستر، وأنزل الله آية الحجاب)[1]، وكانت هذه الآية تتحدّث عن زوجات النبي ﷺ فقط، ثم أنزل الله سبحانه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2].

ففرض الحجاب على المؤمنات جميعاً.

وبينما كانت المدينة تعيش فرحاً وتشريعاً يمنح سلاماً في كل زاوية.. كان هناك خطر ينذر بفاجعة.. كان هناك خطر قادم من مكّة.. يطفح بالغلّ والثأر. أتذكرون ذلك الشبح الذي نهض من بين جثث أحد، ثم توجه نحو مكة نازفاً؟ ها هو يعود، ولكن لوحده هذه المرة، فقد آلمه ما حدث في بدر، وما أصابه في أُحُد.

الشبح يتسلّل لاغتيال النبي ﷺ

أنس بن مالك كما حدّثنا عن الحجاب من قبل يحدّثنا الآن عن قصة هذا القادم، الذي حمله حقده وثأره نحو النبي ﷺ، ليسجل له التاريخ حادثة تهزّ الجزيرة من البحر إلى البحر.

يقول أنس: (كان وهب بن عمير شهد أُحُداً كافراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار، فعرفه، فوضع سيفه في بطنه حتى خرج من ظهره، ثم تركه، فلما دخل الليل وأصابه البرد لحق بمكة، فبرأ، فاجتمع هو وصفوان بن أمية في الحجر، فقال وهب: لولا عيالي ودين عليّ، لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمداً، فقال له صفوان: فكيف تصنع؟

فقال: أنا رجل جواد لا ألحق، آتيه فأغترّه، ثم أضربه بالسيف، فألحق بالخيل، ولا يلحقني أحد.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٩٢) ومسلم (١٤٢٨) واللفظ له.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٩.

فقال له صفوان: فعيالك مع عيالي، ودينك عليّ، فخرج يشحذ سيفه وسمه، ثم خرج إلى المدينة، لا يريد إلاّ قتل النبي ﷺ، فلما قدم المدينة رآه عمر بن الخطاب، فهاله ذلك، وشقّ عليه، فقال لأصحاب النبي ﷺ: إني رأيت وهباً، فرابني قدومه، وهو رجل غادر، فأطيفوا نبيكم[1].

فأطاف المسلمون بالنبي ﷺ، فجاء وهب، فوقف على النبي ﷺ، فقال: أنعم صباحاً يا محمد. قال ﷺ: قد أبدلنا الله خيراً منها[2]. قال: عهدي بك تتحدّث بها وأنت معجب.

فقال له النبي ﷺ: ما أقدمك؟ قال: جئت أفدي أساراكم.

قال ﷺ: ما بال السيف؟ قال: أما إنّا قد حملناها يوم بدر فلم نفلح ولم ننجح.

قال ﷺ: فما شيء قلت لصفوان في الحجر: لولا عيالي ودين عليّ لكنت أنا الذي أقتل محمّداً بنفسي. فأخبره النبي ﷺ خبره. فقال وهب: هاه.. كيف قلت؟ فأعاد عليه.

قال وهب: قد كنت تخبرنا خبر أهل الأرض، فنكذّبك، فأراك تخبر خبر أهل السماء «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله». قال: يا رسول الله، أعطني عمامتك، فأعطاه النبي ﷺ عمامته، ثم خرج إلى مكة.

فقال عمر رضي الله عنه: لقد قدم وإنه لأبغض إليّ من الخنزير، ثم رجع وهو أحبّ إليّ من بعض ولدي)[3]

قال عمر ذلك لأنه لا يملك قلبه.. لقد أهداه إلى أحب الخلق إليه، بعد أن أهداه إلى خالقه. قلب عمر ليس ملكاً لعمر، ولذلك أحب وهباً بعد أن كان كالخنزير أمامه.

متى أهدى عمر قلبه

أهدى عمر قلبه عندما كان يمشي مع حبيبه ﷺ يحمله الشوق.. يحمله الحب، فالتفت نحو ذلك الحبيب فباح له بحب عظيم. يحدثنا الصحابي عبد الله بن هشام

---

(١) أي كونوا حوله.

(٢) يعني تحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٣) سنده قوي وقد مر معنا تحت عنوان: شبح على أرض أحد.

عـن ذلك فيقول: (كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي.

فقال النبي ﷺ: لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن. والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر)[1].

تنازل عمر عن قلبه وعن نفسـه، فتماهى هواه وقلبه بحب الله ورسـوله، فعاش عمر مأخوذاً بمراد الله ورسوله ﷺ.

دعوني أحدّثكم عن الحب

دعوني أحدثكم عن رجل كان يدخل البهجة على رسـول الله ﷺ.. كان يضحكه. أُتي به إلى النبي ﷺ وهو سـكران، حيث شـرب الخمرة التي لعن شاربها، وعاصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها، ومعتصرها، وساقيها، ولعنت هي قبل ذلك.

افتـتن هذا الرجل بحب الخمر قبل تحريمها، فلمـا نزل حكمها حاول تركها فلم يستطع، ونزلت عقوبتها فشرب وسكر فخرج وعوقب، ثم سكر ثانية فعوقب. ورغم أن للخمر ذنبا من الوزن الثقيل والكبير، إلا أن للقلوب والمشـاعر تجاه الله ورسـوله عليه السـلام أوزانا أثقل، فقد نال جزاءه ونفذ عليه السـلام حكم الله فيه، لكنه لم يبعده، ولم يهجره، ولم يعبس في وجهه، أو يسـبه، ولم يطرده من قلبه، بل أحبه.. أجل أحبه، وحرض على حبه!

ذات يوم أتي به سـكراناً، فطبق الحد عليه، فرآه أحد الصحابة رضي الله عنهم، فغضب من تكراره وقال: (اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به)[2] فالتفت عليه السلام لذلك اللاعن وأنكر عليه، وقال له كلمات تكشف عوالم الحب داخل ذلك الرجل المدمن.

قال عليه السـلام: (لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسـوله)[3] لكن هواه غلبه فهوى، والإسـلام لا يلغي نقاط الضعف لدى الإنسان ولا يتجاهلها، لكنه لا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٣٢).
(٢) صحيح البخاري (٦٧٨٠).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٦٧٨٠).

يبالغ في وصفها ووصف المعاناة منها. الإسلام يقف أمامها ريثما يرفع ذلك المنحدر عنها.. ريثما يضمد جراحه وعواطفه من سنانها، ثم ينفث فيه من جديد حب الانطلاق والتجديد والتشييد.

ذات مرة شرب (فقال بعض القوم: أخزاك الله. قال رسول الله ﷺ: لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا رحمك الله)[1] كان عليه السلام وفياً.. كان حانياً يعرف أن صحابته ليسوا ملائكة، لذا فهو ينظر إلى المناطق الخصبة فيهم.. يمطرها بالحب فتهتز ربيعاً أخاذاً.

لكن ماذا لدى شارب الخمر الفقير المعدم هذا من مساحات خصبة حتى يحتفي به عليه السلام؟

كان لديه الحب لله ولرسوله.. حب يشرق في قلبه وينسرب في أعماقه، لذا بادله عليه السلام بحب أجمل، فتحول ذلك الصحابي المحب إلى راسم للبسمات على ثغر محمد الجميل، حتى أغرته ابتسامات نبيه وضحكاته إلى حد تدبير المقالب له، فكان عليه السلام يشرب مقالبه كالماء البارد.

أتحبون أن تعرفوا إحدى مقالبه؟

كان يذهب لدكاكين المدينة، فيستلف منهم الطعام، ثم يأخذه إلى بيت أحب الناس إليه.. إلى بيت محمد الذي لم يعنفه يوماً، ولم يكشر في وجهه، أو يعيره بذنبه، أو يسخر منه، فيهديه تلك الهدية، فيقبلها عليه السلام منه، وتمر الأيام، فيراه التاجر فيمسك بتلابيبه، ويطلب منه سداد ديونه التي كثرت، فيهون من الأمر، ويأخذه ليسدد له، فيأتي المقلب كما يرويه عمر بن الخطاب الذي يقول أن الرجل: (كان يهدي لرسول الله ﷺ العكة من السمن، والعكة من العسل، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه جاء به إلى رسول الله ﷺ فيقول: يا رسول الله أعط هذا ثمن متاعه. فما يزيد رسول الله ﷺ أن يبتسم، ويأمر به فيعطى)[2]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٤٨٨ وأحمد ٢-٢٩٩ واللفظ له.

(٢) سنده حسن رواه أبو يعلى ١-١٦١ حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبي حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر. أسلم مخضرم وابنه ثقة وعبد الله وابنه ثقات أما هشام فصدوق له أوهام وهو من رجال مسلم التقريب ٥٧٢.

هذا هو نبينا لمن أرادأن يتأمله ويتأمل جماله وسـعة صدره ورفقه وأفقه، فلسـنا أحرص على دينه ولا على أمته منه، ولسـنا أكثـر تأثيراً منه، وليس لدينا مدن ملائكة، وليست مفاتيح الجنة والنار بأيدينا. ما أجمل أن نحب الله ورسوله أكثر من أي شيء وإن كنا مقصرين.. ما أروع أن نرفض الإساءة لهما. ما أجمل أن نكون مثل ذلك الرجل الذي أخرجـه قلبه من بيته.. أخرجه حب لم يقو على كتمانه، فحلق به حبه أبعد مما يأمل.. أبعد مما يحلم عندما باح به وقال لنبيه: (متى الساعة؟ قال عليه السلام: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شـيء إلا أني أحب الله ورسـوله. فقال: أنت مع من أحببت. قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم)[١]

هذا هو الحب في الله، وهذا هو الحب في الإسلام، وهذه هي الرحمة عند المؤمن الذي يحب الله ورسوله.. هذه هي العلاقة الحقّة بين المؤمنين، فـ:

تعالوا أحدثكم عن الحب والرحمة

في قصة أشد تأثيراً على النفوس.. قصة قال فيها النبي ﷺ:

يا هزال لو سترته بثوبك

ها هو ابن هزال.. حدثنا يا نعيم ما ذلك الشـيء الذي تمنى ﷺ لو ستره والدك بثوبه، أو من هو؟

قال نعيـم رضي الله عنه: (كان ماعز بن مالك في حجر أبي، فأصاب جارية من الحي، فقال له أبي: ائت رسـول الله ﷺ فأخبره بما صنعت لعله يسـتغفر لك - وإنما يريـد بذلك رجاء أن يكون لـه مخرج، فأتاه، فقال: يا رسـول الله إني زنيت فأقم عليّ كتاب الله «يا رسول الله طهّرني.

فقال: ويحك ارجع، فاستغفر الله وتب إليه.

فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول طهّرني.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٤٩.

فقال رسول الله ﷺ: ويحك ارجع، فاستغفر الله وتب إليه.

فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهّرني.

فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ»: إنك قد قلتها أربع مرات، فيمن؟ قال: بفلانة. «فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: أشرب خمراً؟ فقام رجل فاستنكهه[1]، فلم يجد منه ريح خمر».

قال ﷺ: هل ضاجعتها؟ قال: نعم، قال: هل باشرتها؟ قال: نعم. قال: هل جامعتها؟ قال: نعم [قال ﷺ: فهل أحصنت؟[2] قال: نعم] فأمر به أن يرجم، فلما رجم، فوجد مسّ الحجارة جزع، فخرج يشتدّ[3] «واشتددنا خلفه» فلقيه عبد الله بن أنيس وقد أعجز أصحابه، فنزع له بوظيف بعير[4] فرماه به، فقتله، ثم أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له.

فقال: هلاّ تركتموه، لعله يتوب، فيتوب الله عليه. «فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته.

وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي ﷺ، فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة.

فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلّم، ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز بن مالك، فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»)[5].

لله حدود يجب تنفيذها دون مجاملة أو مداهنة، وللنبي ﷺ حدود لا يستطيع تجاوزها. فتح ﷺ لماعز أكثر من عشرة أبواب.. أشرعها ليهرب منها، لكنه أصرّ على تنفيذ حدّ الله فيه.

---

(١) أي شمه.

(٢) بالزواج.

(٣) أي أصيب بالفزع واحس بالألم ركض هارباً.

(٤) عظم الساق أو الذراع.

(٥) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٢١٧ وأبو داود ٤٤١٩ من طريق: وكيع حدثنا هشام بن سعد أخبرني يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه. وما بين الأقواس لمسلم، وما بين المعقوفين للبخاري. نعيم صحابي وابنه مقبول والصواب أنه صدوق من رجال مسلم وثقه العجلي. ولا أدري لماذا ضعف الإمام الألباني كلمة لعله أن يتوب، وهي من هذا السند.

فعل ﷺ ما يمكنه أن يفعله لماعز، ثم نفذ حكم الله فيه، لكن مازال في صدر النبي ﷺ لماعز الكثير الكثير.

توجّه ﷺ بحديثه نحو الرجل الذي أشـــار على ماعز بالاعتراف، فهل شكره على فعله ذلك..؟

الإجابــة رحمةً كالعادة، فما محمد ﷺ إلاّ رحمـــة مهداة. التفت ﷺ بحديثه إلى هـــزال معاتبـــاً، وقال له كلمة كالحزن: (يا هزال لو كنت ســترته بثوبك كان خيراً مما صنعت به)[1] (لو كنت سترته بثوبك كان خيراً لك)[2]

لم يقل ﷺ: لو ســترته بثوبك لكان خيراً لماعز رضي الله عنه، بل قال: خيراً لك أنــت يا هــزال.. أنت أيها المبلغ، ولك أنت أيضاً أيها المتلذّذ بفضح المســتترين بدعوى الغضب لله ورسوله.

أمـــا من أراد أن يمنح لنفســه حق اختــراق جدران الآخرين وحريتهم المســتورة، فإن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما يقدمان له درســاً في التحضر بالإسلام.

يقول (عبد الرحمن بن عوف: أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب، فبينما هم يمشون، شب لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمونه، حتى إذا دنوا منه، إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر - وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا قال: «هذا بيت» ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟

قـــال عبد الرحمن بن عـــوف: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله «عنه قال الله تعالى»: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. فقد تجسسنا.

فانصرف عنهم عمر وتركهم)[3]

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٢١٧/٥) وأبو داود (٤٤١٩) وهو الحديث السابق.

(٢) صحيح الجامع الصغير (١٣٢٣/٢).

(٣) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ١٠-٢٣١ والبيهقي ٨-٣٣٣ وابن حبان في الثقات ٤-٢٦٧ والحاكم ٤-٤١٩ عن الزهري حدثنا زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف عن المسور بن مخرمة أخبره عبد الرحمن. وزرارة تابعي ثقة، والمسور صحابي.

لكن كم هو حجم ذلك الخير الذي يحصل عليه من ستر على مسلم وحافظ على نقاء صورته أمام المجتمع..؟

قال عليه السلام: (من ستر أخاه المسلم ستره الله في الدنيا والآخرة)[1] ولما (أتي ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمراً. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسّس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به)[2] لـ (أن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم)[3] والإسلام لا يريد إفسادهم، ولا أذيّتهم.

هذه بعض حقوق الإنسان - أي إنسان - في الإسلام.. دمه، وماله، وعرضه مكفولة الحماية، بل إن الدهشة لتسافر بالمرء عندما يعلم فداحة الجرم الذي يرتكبه أولئك السابحون في أعراض إخوانهم.. المنقّبون عن عيوب الناس لينشروها. إليك هذه:

المقارنة بين العرض وغيره

قال ﷺ في قليل الربا: (درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشدّ عند الله من ستة وثلاثين زنية)[4].

وقال في أقلّ الربا: (أهون الربا كالذي ينكح أمّه)[5].

ترى ما الذنب الذي يعادل أشدّ الربا إذا كان أهونه يعادل ذلك الفعل الشنيع والجريمة القذرة..؟

الإجابة التي تذهل المسلم هي في قول النبي ﷺ: (أربى الربا شتم الأعراض)[6] (أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه)[7].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وابن حبان (٥٣٤) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه أبو داود (٤٨٩٠) وغيره من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال: قيل لابن مسعود. زيد ثقة مخضرم، والحديث صححه الإمام الألباني ١-٢٧٧.

(٣) حديث حسن رواه أبو داود ٤٨٨٩ وغيره عن إسماعيل بن عياش وهو صحيح الرواية عن أهل بلده عن ضمضم بن زرعة وهو حمصي حسن الحديث، عن شريح بن عبيد وهو حمصي تابعي ثقة عن صحابيين وهو لم يسمع منهما وعن مخضرمين وتابعي كبير. لكن له شاهد عند البخاري في الأدب (٢٤٨).

(٤) صحيح الجامع (٦٣٦).

(٥) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٤٩٦).

(٦) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٢١٢).

(٧) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٤٩٦).

فلنعد إلى أقدس الأعراض والدماء.. عرض محمد ﷺ ودمه، الذي كان وهب بن عمير قبل قليل يريد نثره على طرقات المدينة، لكنه عاد إلى مكّة بغير القلب الذي جاء به.. عاد إلى مكة يحمل الحب والإيمان وعمامة النبي ﷺ.

عاد وهب مسلماً، لكن فعله قبل أن يسلم أثار لدى النبي ﷺ وأصحابه حالة اليقظة والحذر، فقد يكون هناك أكثر من مشروع لتصفية النبي ﷺ جسدياً. وقد صدق التوقع، وأفاد الحذر، حيث تسرّبت الأخبار إلى النبي ﷺ عن خطر قادم من جهة مكة، لكنه ليس من قريش،

خطر قادم من قبيلة بني المصطلق

وبنو المصطلق قبيلة عربية تسكن قرب مكة، في المنطقة الواقعة ما بين مكة والمدينة، وقد أراد ﷺ استغلال واستثمار الوقت بمفاجأة تلك القبيلة قبل أن تتحرّك ويتكامل استعدادها.. أراد ﷺ أن يباغتها بضربة سريعة تشلّها، لأن أي تأخير قد يضاعف من خطرها، وذلك لقربها من عدو النبي ﷺ الأول «قبيلة قريش».

أي تأخير يعني مزيداً من الأعوان والعتاد والخطر، فمباغتة ذلك الجيش الوثني وهو مسترخٍ على أرضه.. هو أسرع الطرق وأيسرها للقضاء عليه وإراحة المدينة من خطره. فاستعد ﷺ بجيش قوي لـ:

غزو بني المصطلق

وقد انضمّ إلى هذا الجيش مجموعة من المنافقين.. على رأسهم كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول -ربما- لشعوره بقوة جيش النبي ﷺ، وتأكده من هزيمة بني المصطلق.

وقبل أن ينطلق النبي ﷺ بجيشه ذلك أقرع بين سودة وعائشة وأم سلمة، وزينب، لتصحبه إحداهن في رحلته تلك، فالنبي ﷺ (كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه)[1].

---

(١) حديث صحيح رواه الشيخان رحمهما الله وسيأتي بقيته.

وبعد إجراء القرعة خرج سهم عائشة الحبيبة، لتصحب حبيبها ﷺ في سفره ذلك.

تقول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهنّ، فخرج بي رسول الله ﷺ معه، وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق[1]، لم يهيجهن اللحم فيثقلن[2]، وكنت إذ رحل بعيري[3] جلست في هودجي[4]، ثم يأتي القوم الذين يرحلون بي بعيري، ويحملوني، فيأخذون بأسفل الهودج، يرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فينطلقون به)[5] (وذلك بعدما أنزل الحجاب، وأنا أُحمل في هودجي، وأنزل فيه، فسرنا)[6] وانطلق الجيش، وانطلقت الهوادج تتمايل عبر الصحاري والقفار، وخلال الأودية والشعاب.. تتمايل بعائشة ورفيقاتها رضي الله عنهن، كما تتمايل القلوب بصوت حادي العيس أنجشة.. ذلك الصوت العذب، الذي يأخذ الأسماع، وربما أخذ الإبل أيضاً.

سمع ﷺ ذلك الصوت الشجي في بعض أسفاره، فخاف على أجساد النساء وقلوبهن.

يقول أنس رضي الله عنه: (كان لرسول الله ﷺ حادٍ حسن الصوت «غلام أسود يقال له (أنجشة) يحدو، فقال له رسول الله ﷺ: يا أنجشة، رويدك سوقاً بالقوارير» رويداً يا أنجشة لا تكسر القوارير)[7]

كان ﷺ من الرقّة والذوق.. بحيث لا يلهيه هدفه العسكري والخطر الذي يكمن له عن تفقد رفاقه والعناية بهم، لدرجة أنه (كان يتخلّف في المسير، فيزجي الضعيف،

---

(١) الطعام اليسير.
(٢) التهييج هو الورم من الشحم.
(٣) أي جهز للرحيل.
(٤) الهودج هو ما تجلس داخله النساء مثبتاً فوق ظهر البعير.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وابن إسحاق وهذا لفظ ابن إسحاق.
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) وأحمد (٦/١٩٤) واللفظ له.
(٧) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم (٢٣٢٣) واللفظ له.

ويردف، ويدعو لهم)[1]. ويدعو أنجشة أن يخفّف من سيره حتى لا تتعب أجساد النساء الرقيقة، وكان وصف النبي ﷺ للنســاء بـ (القوارير) منتهى الذوق والدلال، فالقوارير ناعمة وجميلة، وتحتاج إلى عناية فائقة، وأماكن تليق بها وبرقّتها وجمالها، والمرأة هي الرقّة والجمال والفتنة.. تحتاج إلى مستوى رفيع من التعامل والملاطفة بالقول والفعل، وهو ما فعله ﷺ عندما قال ﷺ لأنجشة: (ويحك يا أنجشة، رويداً بالقوارير)[2].

ها هو ﷺ يحاول طرد الملل والســأم عن نفس حبيبته عائشــة في ذلك السـفر، حيث أمر ﷺ فرســانه الشــجعان بالتقدّم، ثم نادى حبيبته وطلب منها أن تتأخر معه، فالسفر طويل وشاق، ولا بأس ببعض اللهو يدخل البهجة ويجدّد النشاط. فماذا طلب منك الحبيب يا ابنة الصديق؟

تقول رضي الله عنها: (إنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر -وهي جارية- فقال لأصحابه: تقدموا. فتقدّموا، ثم قال: تعالي أسابقك.

فسابقته، فسبقته على رجلي)[3].

لابدّ أن هذا الفوز أسعد عائشة وأضحكها، أما النبي ﷺ فقد تقبّل الخسارة بروح طيبة، لكنه يضمر لعائشة ثأراً وسباقاً آخر قد ينتصر عليها فيه.

وصل الجيش إلى أراضي بني المصطلق.. فكانت:

إغارة كالبرق

فوجـئ بها القوم وصعقوا، وحــدث قتال غير متكافئ لهول المفاجأة، لأن (النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقي الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم)[4]

---

(1) سنده رواه أحمد ٢-١٢٦ حدثني إسماعيل ابن علية حدثنا الحجاج بن أبي عثمان عن أبي الزبير أن جابر حدثهم. أبو الزبير وتلميذه وإسماعيل ثقات، وأبو الزبير لم يدلس.

(2) حديث صحيح رواه مسلم (٢٣٢٣).

(3) حديث صحيح رواه النسائي في الكبرى (٣٠٤/٥) عن هشــام عن رجل عن أبي ســلمة عن عائشة وهذا السـند فيه جهالة، لكن هشــام رواه عن أبيه عن عائشــة عند أحمد (٢٦٤/٦) وعند النسائي أيضاً في الكبرى (٣٠٤/٥).

(4) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٤١).

فكســرت شوكة بني المصطلق، وبدأت جذوة قريش والشــرك تخبو في نفوسهم بعد أن رأوا (مائة أهل بيت)[1] وأكثر يساقون سبايا نحو المدينة، وكان من هؤلاء السبايا شابة هي ابنة زعيم بني المصطلق واسمها (جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه)[2] (وكانت امرأة حلوة، ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه)[3].

ســارت جويرية والألم يعتصر قلبها، وهي تســاق جارية بعد أن كانت ســيدة نســاء قومها. أحسّــت بفداحة الجرم الذي ارتكبه زعماء قبيلتهــا في حقّها، بل وحق مائة بيت اقتيدوا نحو المدينة، ورغم حسن المعاملة ولطف العناية التي حظي بها هؤلاء من النبي ﷺ وأصحابه، إلاّ أن للوطن والأهل حباً زرعه الله في قلب الإنسان، وقد أثار هذا الذلّ الذي أصاب جويرية وقومها ذلك الشوق والحنين إلى تلك المرابع.. رغم أن النبي ﷺ وأصحابه أكثر البشــر تحضراً في التعامل مع الأســرى، وأرقى من يكرمون الأسير، فهم (يطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً)

ورغم أن النبي ﷺ وأصحابه يؤثرون الأسرى بالطعام الجيد على أنفسهم، إلاّ أن قطرات الذلّ تفســد أشهى الأطباق، وهو ذلّ جلبه صلف الشرك لبني المصطلق، فلولا استعدادهم وإعدادهم للهجوم على المدينة وأهلها، لما أصابهم ما أصابهم..

كانوا يحلمون بســبايا المدينــة يقتادونها نحو مرابعهم.. يحلمــون بدم النبي ﷺ وأصحابــه وإخماد دعوته، لكن الله ردّ كيدهم في نحورهم، وها هي بيوتهم وأحلامهم قــد خلت منهم، وها هو جيش محمد ﷺ يعود إلــى المدينة بهم، وفي الطريق يتوقف النبي ﷺ ويتوقف جيشــه للاســتراحة قرب المدينة، فتتبث الجموع هنا وهناك، ومع حلول الليل تتلاشــى تلك الحركة، وبعد أداء صلاة العشاء يأوي كل إلى فراشه، ويقوم من يقوم منهم في سياحة روحية، وكان أحد أفراد الجيش واسمه (صفوان بن معطل) متأخــراً عن الجيش -ربما بأمر النبي ﷺ- ليكون عيناً خلفية للجيش ونذيراً لهم إذا ما لحق بهم أحد أو هاجمهم من الخلف، وبعد منتصف الليل أمر ﷺ جيشــه بالحركة نحو المدينة..

---

(١) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.
(٢) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.
(٣) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

النبي ﷺ يسبق عائشة

لكن دون سباق.. دون ركض.. دون ابتسامات وضحكات.. سبق النبي ﷺ عائشة في قصة تفيض بالأحزان والدموع والبراءة.

تحرك الجيش ولم تتحرك عائشة، وأشرقت الشمس والأحزان على ذلك الموقع، فلم تجد فيه سوى فتاة صغيرة منكسرة أضاعت عقدها وهودجها، ورحل عنها حبيبها ووالدها وصويحباتها.

أشرقت الشمس والأحزان على عائشة، ووصل صفوان بن معطل ليجد ذلك الحزن في طريقه، ليبحر به خلال بحر أسود من الأحزان والهموم.. بحرٌ تقول عنه عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.. فأقرع بيننا في غزوة غزاها «غزوة بني المصطلق»، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، مسيرنا «وكنت إذا رحل بعيري، جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون هودجي في بعيري، ويحملوني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدّونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به»، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل، ودنونا من المدينة، «نزل منزلاً، فبات فيه بعض الليل، ثم» آذن[1] ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقدي من جزع ظفار[2] قد انقطع «انسلّ من عنقي ولا أدري» فرجعت، «عودي على بدئي إلى المكان الذي ذهبت إليه» فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط[3] القوم الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكانت النساء إذا ذاك خفافاً، لم يهبلهن[4] ولم يغشهن اللحم «لم يهيجهن[5] اللحم فيثقلن»، إنما يأكلن العلقة[6] من

---

(١) أعلنوا الاستعداد للرحيل.

(٢) خرز من مدينة ظفار.

(٣) هم الرجال اقل من عشرة.

(٤) يمتلئن بالشحم واللحم.

(٥) التهييج هو الورم من الشحم او المرض.

(٦) الطعام اليسير.

الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن[1] الجمل وساروا، «ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به»، ووجدت عقدي بعدما استمرّ الجيش، «ورجعت إلى العسكر»، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيمّمت[2] منزلي الذي كنت فيه «فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني الذي ذهبت إليه» وظننت أن القوم سيفقدوني، فيرجعون إليّ.

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، «فوالله إني لمضطجعة، إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السلمي» وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرّس من وراء الجيش «قد كان تخلّف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس في العسكر» فأدلج[3]، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني، فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، «فلما رآني، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أظعينة رسول الله! وأنا متلفّفة في ثيابي».

فاستيقظت باسترجاعه[4] حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه[5]، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها «واستأخر عني، فركبت وجاء فأخذ برأس البعير»، فانطلق يقود بي الراحلة «سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني» حتى أتينا الجيش. بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة[6] «فقال أهل الإفك فيَّ ما قالوا، فارتجّ العسكر»

فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولّى كبره[7] عبد الله بن أبي بن سلول، «ووالله ما أعلم بشيء من ذلك» فقدمنا المدينة..)[8].

---

(١) وكان عمرها رضي الله عنها آنذاك بين الثالثة عشر والرابعة عشر.

(٢) قصدته وذهبت إليه.

(٣) سار آخر الليل.

(٤) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٥) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) شدة حر الظهيرة.

(٧) أي صاحب النصيب الأكبر في إشاعة الإفك ونشره.

(٨) حديث صحيح رواه مسلم والزوائد لابن إسحاق.

ما هو الإفك، ومن هم أهله..؟ وما هي الفرصة التي غرز فيها هذا المنافق الحقير أنيابه ونفث فيها سمومه..؟

عندما رأى المنافقون عائشـــة الصغيرة.. عائشـــة الطاهرة المســـكينة على راحلة صفـــوان بن المعطل رضي الله عنـــه.. رقصت الفتنة في قلوبهم، وتراقص الشـــيطان بينهم، وطالت أنيابهم تنهش أطهر الأعراض.. عرض النبي ﷺ.

انطلقت ألســـنتهم في جرأة وقحة.. في حقد متربّص تتهم عائشة النقية بالخنا، وتتّهم صفوان البرىء بعائشة رضي الله عنها.

عاصفة من الحقد والتشفّي أطلقها المنافقون، وعاصفة رملية أخرى للنفاق علاقة معها.. عاصفة كادت تدفن الجيش وهو يقترب من المدينة.

عاصفتان ونفاق

العاصفة الأخرى يحدّثنا عنها جابر رضي الله عنه، فيقول: (إن رســـول الله ﷺ قدم من ســـفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله ﷺ قال: بعثت هذه الريح لموت منافق.

فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات)[1].

فـــرح النبي ﷺ وأصحابه بهلاك ذلك الطاغوت.. ذلك الكهف الذي تتســـلّل إليه الأفاعـــي والعقارب الآدمية التي تعيش بين المؤمنين، وتتكلّم بألســـنتهم، وتتظاهر أنها منهم، وفرح ﷺ بقدوم عائشة، وفرحت عائشة بحبيبها وهي لا تعلم، وهو أيضاً لا يعلم ما تتلقّفه ألسنة المنافقين من جريمة، وبعد الوصول قام ﷺ بـ:

توزيع الغنائم.. توزيع الرحمة

عائشـــة المســـكينة البريئة.. التي تلوك عرضها ألسنة المنافقين وهي لا تعلم شيئاً عن ذلك حتى الآن.. عائشـــة التي أتعبها الســـفر، فانهار جسمها الضعيف على فراش

(١) حديث صحيح رواه مسلم -صفات المنافقين (٢٧٨٢).

المرض.. تحدّثنا عن معاناة لها مع توزيع الغنائم والسبايا، فتقول: (لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عمة له، فكاتبته على نفسها[1]، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت، فدخلت عليه)[2].

دخلت جويرية فدخلت الرحمة على قومها

تقول عائشة رضي الله عنها في حديثها عن جويرية: (فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عمٍ له، فكاتبته على نفسي[3]، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال ﷺ: فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال ﷺ: أقضي عنك كتابتك وأتزوّجك.

قالت: نعم.. يا رسول الله، قد فعلت.

قالت عائشة: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم[4].

قالت عائشة: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها)[5]

---

(١) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.

(٢) سنده صحيح انظر: تخريجه في نهاية القصة.

(٣) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.

(٤) حرروهم واطلقوهم.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وغيره من طريقه: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة، محمد ثقة من رجال التقريب (٤٧١) وعروة مر معنا كثيراً.

وما أعلم أحداً أعظم بركة عليها وعلى قومها وعلى الناس جميعاً من محمد ﷺ.. لقد وجدت في رحمته وسماحته مكاناً لمطالبها الصعبة، فهي أسيرة عنده، ومع ذلك تطلب منه أن يعينها للفكاك بماله، فيأخذ بيديها، ويشرع لها باباً يطل على كنوز الدنيا والآخرة، وهل هناك كنز في الدنيا أعظم من أن تكون شريكة حياته ﷺ.

لم تقتصر بركته ﷺ على تلك الكريمة الجميلة.. لقد كانت بركة كالشمس ينساب شعاعها على أكثر من مائة بيت من بني المصطلق، فانطلقوا معززين مكرمين في دفئها وشعاعها يحملون الحرية والعرفان للنبي ﷺ وأصحابه الكرام.

وفي وسط تلك الأجواء الاحتفالية.. كانت عائشة تحسّ بآلام السفر والإعياء الشديدين.. سقطت بعد أيام قليلة في فراشها، وطال رقادها على فراشها وأنينها، لكن ألمها ازداد عندما أحست بجفوة غريبة من النبي ﷺ.. أحسّت بتغيّر معاملته لها، وهي التي تعوّدت منه الرقّة واللطف.. خاصة عندما تكون مريضة، حيث يتدفق حبه عليها ﷺ.. يغمرها بكلماته ولمساته الحانية المحبة.

تقول رضي الله عنها: (فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى، «أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك في شكواي تلك، فأنكرت منه» إنما يدخل رسول الله ﷺ «عليَّ وأمي تمرّضني» فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ «لا يزيد في ذلك» ولا أشعر بالشر)[1].

شهر من المعاناة

وعائشة لا تدري عما يدور حولها.. لقد تطاول المنافقون على حصنها المنيع.. حاولوا تشويهه.. قذفوا عائشة وأرجفوا في البلاد، فارتّجت المدينة، ووصل الخبر إلى النبي ﷺ، فتكدّر لإلقاء التهم جزافاً على مسلمة طاهرة.. هي زوجته وأحب الناس إليه، وتأثر بتلك الشائعة أناس مؤمنون، وضعفوا أمام لغط المنافقين، وهم بشر كبقية البشر، ولكل إنسان هفوات وأخطاء..

---

(١) رواه مسلم (٢٧٧٠) واللفظ له والبخاري (٤١٤١) والزوائد لابن إسحاق وقد مر معنا.

تلقف ثلاثة من المؤمنين الإفك، فاتهموا عائشة الطاهرة، وهم: رجلان وامرأة.. ثلاثة أشخاص لا تحوم حولهم شبه النفاق، لكنهم يظلّون بشراً ناقصين.. معرّضين للإثم والخطأ في كل لحظة وثانية، أما الرجل الأشهر منهم فهو شاعر النبي ﷺ، الذي يؤيّده روح القدس في أشعاره التي دافع بها عن النبي ﷺ (حسان بن ثابت) والآخر رجل من أهل بدر وقد (اطّلع الله على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[1] واسمه (مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب) وقد كان أبو بكر الصديق ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، ومع ذلك حدث منه ما حدث.

أما المرأة فهي أخت أم المؤمنين (زينب بنت جحش) واسمها (حمنة) ولا أدري ما هو دافع الرجلين، أما حمنة فكان دافعها الحمية لأختها زينب، التي كانت تنافس عائشة في المنزلة عند رسول الله ﷺ.

أما رأس الحية وسمّها، ومنبع قيح الإفك فهو زعيم المنافقين (عبد الله بن أبي بن سلول) الذي ذهب يزرع المدينة.. شوارعها ومجالسها.. بلسانه المتعفّن. حوله الحقد إلى رجل تافه بلا قيم.. بلا أخلاق.. رجل لا يحترم مكانته بين قومه.. رجل أفقده الحسد عقله ورزانته، فأصبح كالأبله لا همّ له، ولا شأن سوى عائشة الصغيرة.. يتشفّى بذكرها واتّهامها، بعد أن فقد الأمل في الحصول على زعامة، أو حتى مكانة محترمة في المدينة.. بعد أن أحرقته عيون أهلها باحتقار سلوكياته، والتقزّز منه ومن مجالسه وجلسائه، الذين هم خليط من عفن الشرك واليهود والخونة.

هذا هو ابن سلول وهذه هي عقيلته الصغيرة، فهو الذي تولّى كبر الإثم ومعظمه، لكن:

متى علمت عائشة بالإفك

تقول رضي الله عنها: (كان الذي تولّى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً، «اشتكيت شكوى شديدة، لا يبلغني شيء من ذلك، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي، ولا يذكران لي من ذلك قليلاً ولا كثيراً» والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

يريبنـــي في وجعي أني لا أعرف من رســـول الله ﷺ اللطـــف الذي كنت أرى منه حين اشـــتكي، إنما يدخل رســـول الله ﷺ فيســـلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذاك يريبني، ولا أشـــعر بالشـــر «كنت إذا اشـــتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك في شكواي تلك، فأنكـــرت منه، وكان إذا دخل عليّ وأمـــي تمرضني قال: كيف تيكم؟ لا يزيد على ذلك، حتى وجدت نفســـي مما رأيت من جفائه عني، فقلت له: يا رســـول الله، لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ قال: لا عليك.

فانتقلت إلى أمي ولا أعلم بشيء مما كان»، حتى خرجت بعدما نقهت[1]، وخرجت معي أم مســـطح قبل المناصع[2] وهو متبرزنا، ولا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف[3] قريباً من بيوتنا، وأمرنا العرب الأول في التنزّه[4]، وكنّا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مســـطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مســـطح ابن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها[5]، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبّين رجلاً قد شهد بدراً [أي أم، تسبين ابنك؟

وسكتت، ثم عثرت الثانية، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: تسبين ابنك؟ ثم عثرت الثالثة، فقالت: تعس مسطح.

فانتهرتها. فقالت: والله ما أسبّه إلاّ فيك.

فقلت: في أي شأني؟]

قالـــت: أي هنتاه! أوَلم تســـمعي ما قال؟ قلت: وماذا قـــال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك [فبقرت لي الحديث[6].

فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله].

(١) فترة النقاهة هي الأيام الأولى للشفاء من المرض حيث عادت إلى بيتها.
(٢) مكان خارج المدينة.
(٣) المكان الساتر.
(٤) الخروج للنزهة في الصحراء.
(٥) ثوبها وهو كساء من الصوف.
(٦) أي فصلت الحديث وسردته.

فـــازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، «فمازلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع قلبي»، فدخل عليّ رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟

قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي، وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما . فأذن لي رسول الله ﷺ.

فجئت أبوي [فأرســـل معي الغلام، فدخلت الدار فوجدت أم رومان[1] في الأسفل وأبــا بكر فــوق البيت يقرأ . فقالت أمـــي: ما جاء بك يا بنيـــة؟ فأخبرتها، وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني]

فقلــت لأمي: يا أمتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: يــا بنية هونّي عليك [خفضني عليك الشـــأن]، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة [حســناء] عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلاّ كثرن[2] عليها، [إلاّ حسدنها وقيل فيها، وإذا لم يبلغ منها ما بلغ مني.

قلت: وقد علم به أبي؟

قالت: نعم.

قلت: ورسول الله ﷺ؟

قالت: نعم، ورسول الله ﷺ.

قلت: سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا؟ «تحدث الناس بما تحدّثوا به، وبلغك ما بلغك، ولا تذكرين لي من ذلك شــيئاً» [واســـتعبرت وبكيت، فســـمع أبو بكر صوتي -وهو فوق البيت يقرأ- فنزل، فقال لأمي: ما شأنها؟

قالت: بلغها الذي ذكر من شـــأنها، ففاضت عيناه، قال: أقسمت عليك أي بنية إلاّ رجعت إلى بيتك، فرجعت].

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع[3]، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي)[4].

---

(١) هي أم عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي أكثرن من ذكرها بما يعيبها.

(٣) أي أن دمعها لم يتوقف تلك الليلة ولم يغش النوم عينها.

(٤) مسلم ٢٧٧٠ ومابين الأقواس الصغييرة لابن إسحاق وما بين المعقوفين للبخاري ٤١٤١.

أفاقت عائشة من مرض السفر على مرض أشدّ.. أفاقت رضي الله عنها والعالم ينهار على رأسها.. بكت بكاءً مراً حتى أحرق البكاء كبدها، أما والداها فكالحزن حولها.. ليس بأيديهما ما يخفف وجع هذه الشابة المكلومة المبتلاة ولا ما يسليها.

أما النبي الحزين الحائر ﷺ فالوحي لم ينزل عليه حتى الآن، والإشاعات تحاصره وتخنق أنفاس حبيبته، فاجتهد ﷺ اجتهاد البشر، واستدعى علياً وابنه أسامة بن زيد بن محمد، فقد ضاق به الحال، وتأذى كثيراً وهو يسمع المنافقين يلوكون عرضه الطاهر ليل نهار، فهل من نهاية لهذا الأمر..؟ إلى أين يأخذه الحزن..؟ إلى أين تأخذه قدماه الشريفتان..؟

توجّه النبي ﷺ إلى أحد أبياته.. إلى بيت زينب بنت جحش رضي الله عنها بالتحديد، ليسألها عن عائشة فهي التي تنافسها من بين زوجات النبي ﷺ، فلعلّها تقول شيئاً يزيل حيرته ﷺ.. لعله يعرف مصادر الفرية التي تلوكها أختها «حمنة».

النبي ﷺ يسأل زينب

وزينب كالمطر.. ستقول الحقيقة، ولن تأبه بحمية أختها لها وغيرتها من عائشة.

تقول عائشة: أن (رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش -زوج النبي ﷺ- عن أمري: ما علمت أو ما رأيت؟ فقالت: يارسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك)[2] (وكان الذي يتكلم به فيه: «مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، والمنافق عبد الله بن أبي بن سلول» وهو الذي كان يستوشيه[3]، ويجمعه، وهو الذي تولّى كبره[4] منهم هو وحمنة)[5] التي لم تكن تعرف

(١) تنافسني.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم -التوبة.
(٣) ينشره ويحث غيره على نشره وإشاعته.
(٤) معظمه.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٤ - ١٧٨٠ والزيادة للطبراني ٢٣-١١٠.

النفاق، لكنها الغيرة التي تورد من يرعاها بين أضلاعه موارد الضياع والهلاك، والهوى يعمي ويصم، والصحابة ومنهم حمنة وحسان ومسطح بشر غير معصومين.

أما نبي الله ﷺ فقد توجهت به الهموم إلى مزيد من التساؤل والاستشارة، فقد آذاه ابن سلول في أهله وصاحبه، وقد تجاوز أذاه كل الحدود.

النبي ﷺ يستشير ويسأل عن حل

تقول عائشة رضي الله عنها: (ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي[1]، يستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود. فقال: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً «وهذا الكذب والباطل».

وأمّا علي بن أبي طالب فقال: «يا رسول الله» لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، «وإنك لقادر على أن تستخلف» وإن تسأل الجارية تصدقك)[2].

فأخذ ﷺ برأي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في سؤال جارية عائشة واسمها «بريرة»، ولم يأخذ رأيه بتطليقها الذي يلوح بين كلماته، ليريحه من همّ التفكير والحيرة التي طالت عليه ﷺ.

استدعاء بريرة

تقول عائشة الطاهرة: (فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟

قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه[3] عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن[4] فتأكله)[5]

---

(١) تأخر عن النبي ﷺ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٦-٢٦٨٣ واللفظ له والبخاري ٢-٩٤٢ والزوائد لابن إسحاق.

(٣) أعيبها به.

(٤) الشاة التي تالف البيت ولا تخرج للمرعى.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم ٤-٢١٢٩.

(وانتهرها بعض أصحابه[1]، فقال: اصدقي رسـول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به[2])[3] (فقال رسول الله ﷺ: لست عن هذا أسألك.

قالت: فمه..؟ فلما فطنت قالت: سبحان الله!! «والله» ما أعلم من عائشة إلاّ كما يعلم الصائغ من التبر[4] الأحمر)[5]

وماذا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر النقي قبل صياغته واختلاطه بغيره سـوى النقاء..؟

كانت بريرة تتحدّث عن الصفاء.. عن الطهارة.. عن عائشـة، أمّا المنافقون فكانوا يتحدّثون قيحاً وصديداً ينزّ من نفوسهم السوداء، لكن ماذا عن البريء الآخر.. (صفوان بن معطل) ذلك الشاب الذي قُذف هو الآخر، ولوّثه المنافقون بأنفاسهم الموبوءة،

تنامى إلى سـمعه ما يقال عنه وعن أمّه عائشة، فما زاد على كلمات تحدثنا عنها عائشة، فتقول: (وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل له: فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط!!)[6]

لكن عبد الله بن أبي بن سلول يصرّ على تشويهه والافتراء عليه، ويتشهى بذكره وذكر أمّه عائشة في مجالسه، حتى طفح الكيل، فأغضب صنيعه رسول الله ﷺ فماذا فعل؟

رسول الله ﷺ يخطب حزناً

فبعد أن سـمع ﷺ رأي أقرب الناس من عائشـة، وأعلمهم بحالها.. خاصة أسامة وزينب وبريرة.. تحرك نحو منبره، وجمع أصحابه يطلب منهم أن يعذروه.. أن ينصروه على ذلك المنافق الذي يخرج من أعماقه وسخه ليلطخ به رسول الله ﷺ وأهله وأصحابه.

---

(١) هو علي بن أبي طالب، وقد ورد أنه ضربها ضرباً شـديداً، لكنني لا أسـتطيع الجزم بصحة سـند هذه العبارة، فربما كانت من المراسيل التي عند ابن إسحاق.

(٢) أي: صرحوا لها بالتهمة.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧).

(٤) الذهب النقي الخالص.

(٥) سـنده صحيح رواه الطبراني ٢٣-١٠٦ وأبو يعلى ٨-٣٣٥ من طريق حماد بن سـلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

(٦) هو بقية حديث البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) واللفظ له.

تقول عائشة المكلومة: «فخرج النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه»، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر[1] من عبد الله بن أبي سلول. فقال: رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا[2] أهلي، ما علمت عليهم من سوء قط، وابنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا تغيب قط إلاّ وهو معي، ولا دخل بيتي قط إلاّ وأنا شاهد». يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري[3]، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله[4]، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجتهلته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله «أما والله أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم».

فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان: الأوس والخزرج «حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد»، حتى همّوا أن يقتتلوا)[5].

تأزم الموقف، ورقص الشيطان طرباً لما يحدث، وتمايل قلب عبد الله ابن أبي بن سلول وفرك الحقد يديه فرحاً.. ابتهج المنافق بالمسافة التي وصلت إليها الأمور.

يا الله.. كلمة واحدة.. لا دليل عليها ولا برهان سوى الكذب.. أوصلت الأمور إلى حد كادت السيوف أن تُسلّ، والدماء أن تغرق المسجد ومن فيه، وتلك العبارات التي تفوّه بها سعد بن عبادة رضي الله عنه في دفاعه عندما اجتهلته الحمية.. تلك

(١) من يقوم بعذري ولا يلومني إن جازيته على فعله القبيح.

(٢) رموهم بخلق قبيح وقذفوهم بالزنا.

(٣) وهو سيد الأوس.

(٤) أي أنا أنصرك.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٧٠) والزوائد للبخاري (٤٧٥٧).

العبارات التي قيلت دفاعاً عن رأس المنافقين وخبيثهم في ساعة غضب وحمية.. كانت كلمات خطيرة جداً.. كانت مليئة بالدماء.. قالها أحد عظماء الإسلام ورجاله السابقين، ولا تقل عنها في الخطورة تلك الكلمات التي أطلقها أسيد بن حضير رضي الله عنه غضباً لله ورسوله، وهو من عظماء الإسلام ورجاله السابقين كسعد بن عبادة، لكنه غضب لله ورسوله غضباً جعله يصف ابن عبادة الكريم بالنفاق.

تلك الألفاظ التي انطلقت كالرصاص الطائش داخل المسجد كانت أمام سمع النبي ﷺ وبصره.. أمام سمع نبي مجروح في عرضه وشرفه ومكانته، وهو قائد هذه الأمة، وفي بقعة هي من خير البقاع على وجه الأرض.. داخل المسجد النبوي الكريم.

موقفان خطيران.. حدثا أمام النبي ﷺ، ومازالت مشاهدهما تتكرّر في كل زمان.. موقفان يتجسدان أكثر ما يتجسدان بين الدعاة وبين العلماء.. بين من يحملون الإسلام خطاً ومنهاجاً وإن تحوّرت القبيلة إلى جماعة في بعض المشاهد.. موقفان لا يمكن وصفهما إلاّ بالتطرف.

موقف من تجتهله الحمية وتقوده فينسى نفسه وحدوده، وموقف من يغضب لله ومحارمه غضباً ينسيه نفسه وحدوده، فإذا غضبه يقتحم النوايا والقلوب والضمائر.

لا هذا الموقف يهم، ولا ذاك.. لا موقف سعد بن عبادة رضي الله عنه، ولا موقف أسيد بن حضير رضي الله عنه، لأنها تسر وتفرح ابن سلول ومن معه من أعداء المسلمين جميعاً، والمتضررون منها هم المسلمون ودولتهم الفتية، أما نحن فأمامنا موقف هذا الحزين الواقف فوق منبره..

هذا النبي الذي لا ينطق عن الهوى..

صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.. ما أجمله وأحلمه وأحكمه.. هو الحكم والحكمة.. محمد ﷺ والبقية تبع لمحمد..

ماذا فعل بأبي هو وأمي، وهو يحس بالمنايا تموج تنتظر السيوف والدماء..؟

لقد قتل الفتنة في مهدها، وأعاد الطرفان إلى الصواب والحكمة، فسعد بن عبادة ملء السمع والبصر، وأسيد بن حضير ملء السمع والبصر، لكنهما غاضبان، والأمر لا يستحق أن تسفك من أجله الدماء، وما سفكت الدماء في مثل هذه المواقف إلاّ لغياب تلك الحكمة التي تتلألأ فوق منبره ﷺ.

تقول عائشـــة وهي تشعر بأن تلك السيوف تســـافر في قلبها أن الأوس والخزرج (همّوا أن يقتتلوا، ورســـول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت.

قالت عائشة: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي)[1].

كاد الحـــزن أن يهلكهـــا ويفنيها.. إنهـــا تصف الحزن الذي أحرق كبدها شـــهرا، والمأساة التي وصلت إليها فتقول: (لما بلغني ما تكلّموا به، هممت أن آتي قليباً فأطرح نفسي فيه)[2] لكنها لم تفعل لخوفها من الله وثقتها به، وأنه لن يتركها وحيدة في هذا العالم الحائر في أمر شابة طهور كالمطر.

تواصل حزنها وحديثها عن النبي ﷺ وما جرى في مسجده فتقول: (وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنـــوم، «فأصبح أبـــواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً»، وأبـــواي يظنّان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي «معي».

فبينا نحن على ذلك دخل علينا رســـول الله ﷺ «وقد صلّى العصر»، فســـلم. ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شـــهراً لا يُوحى إليه في شـــأني بشـــيء «وقد اكتنفني أبواي عن يميني وشمالي» فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا.. وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب، فاســـتغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب «إلى الله» تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته[3]، قلص دمعي[4] حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عنّي رسول الله فيما قال.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم (٢٧٧٠) واللفظ له.

(٢) سنده حسن من أجل ابن خداش وقد وثقه أئمة النقد وجرحه غير مفسر، التهذيب ٣-٧٤. رواه الطبراني ٢٣-١٢١. حدثنـــا أحمد بن القاســـم حدثنا خالد بن خداش حدثنا حماد بـــن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشـــة. ابن أبي مليكة تابعي ثقة التقريب ٣١٢ وتلميذه الســـختياني ثقة ثبت حجة وحماد ثقة ثبت فقيه وشيخ الطبراني ثقة، البلغة (٦١).

(٣) حديثه.

(٤) توقف دمعها.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ)[1].

سكت الجميع.. خرست الكلمات وفاضت الدمعات والزفرات، فتحررت من صدر عائشة الطاهرة المظلومة كلمات كالجمر.. زفرات لا تضل طريقها أبداً:

دعوة مكروب

انفجرت داخل صدرها كالبركان.. دعوة نبيّ الله يعقوب عندما فقد أحبَّ أبنائه إليه يوسف وبنيامين عليهما السّلام.. دعوة أطلقها يعقوب بعدما أصابه العمى، وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم، لكن حزن عائشة أنساها اسم ذلك النبيّ المكروب.

حاولت تذكره فلم تستطع، لكنها عاشت معاناته ودعاءه، فتوجهت عائشة الصغيرة نحو أبيها الذي لا يدري ما يقول.. نحو أمها التي تمسح دمعها، ونحو حبيبها الذي آذاه الناس وتأخّر عنه الوحي، فقالت كلمات كالجمر.. قالت رضي الله عنها: (فقلت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن، «تشهدت، فحمدت الله تعالى وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت: أما بعد»: إني والله، لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقرّ في نفوسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، «والله عزّ وجلّ يشهد إني لصادقة، ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم»، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أني بريئة، لتصدقونني «إن قلت إني فعلت، والله يعلم أني لم أفعل، لتقولن قد باءت به على نفسها». وإني والله، ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ «والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه»)[1]

حاولت عائشة تذكر اسم يعقوب فلم تستطع، فألقت بجسدها وقلبها المتعبين على فراش كالمرض، وألقت بكمدها وبثها إلى الله وسكتت.

---

(١) هو حديث البخاري ومسلم السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧).

فقد بلغ بها المرض والكرب مسافات أتعبتها وضعضعت جسدها النحيل الذي كان قبل أيام يســابق رسول الله ﷺ ويسبقه على طريق بني المصطلق، أما اليوم فهي جلد على عظم، وحزن على حزن، ولكن الله أرحم بهذه المسكينة التي أنحفها الضَّيْم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

هبطت رحمة الله ونزل عدله سـبحانه، فسـمعت عائشة في تلك الحجرة حركة غريبة وهمهمة ليســت غريبــة، فاعتدلت بهدوء ونظرت فإذا النبي ﷺ يغشـــى عليه ويوحى إليه، والعرق يتحدّر من جبينه الشريف، وهو يعاني ثقلاً وشدّة من نزول الوحي عليه.. كان ثقلاً يزيح عن عائشة جبالاً من الهموم.. نزل الوحي بـ:

براءة عائشة رضي الله عنها

تقول رضي الله عنها بعد أن لهجت بدعائها: (فصبر جميل، والله المسـتعان على ما تصفون. ثم تحولت، فاضطجعت على فراشــي، وأنا والله يعلم أني بريئة، وأن الله مبرّئي ببراءتي. ولكن، والله، ما كنت أظن أن ينزل في شــأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفســي من أن يتكلّم الله عزّ وجلّ فيّ بأمــر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

فوالله ما رام[1] رســول الله ﷺ مجلســه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ، فأخذه[2] ما كان يأخذه من البرحاء[3] عند الوحي، حتى إنه كان ليتحدّر منه مثل الجمان[4] من العرق في اليوم الشات[5]، من ثقل القول الذي أنزله عليه، «وأنزل على رســول الله ﷺ من ساعته، فسكتنا، فرفع عنه وإني لأتبيّن السرور في وجهه وهو يمسح جبينه» فلما سرّي[6] عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أوّل كلمة تكلّم بها أن قال: أبشري يا عائشة، أما الله فقد برّأك «أنزل الله براءتك». فقالت لي أمي: قومي إليه.

---

(١) أي: ما فارق.
(٢) جاءه أصابه.
(٣) الحمى الشديدة التي تسيل العرق.
(٤) مثل حبات اللؤلؤ.
(٥) أي أن ذلك يسيل منه حتى في أيام الشتاء الباردة.
(٦) انتهى ما به من معاناة نزول الوحي.

فقلت: والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلاّ الله، هو الذي أنزل براءتي، «وكنت أشد ما كنت غضباً.

فقال لي أبواي: قومي [فقبلي رأس رسول الله]، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمده، ولا أحمدكما، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيّرتموه».

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ(1) مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ(2) وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ(3) ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ(4) فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ(5) بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ(6) فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾(7)، عشر آيات، فأنزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات براءتي)(8).

---

(١) جماعة.

(٢) المقصود حسان وحمنة ومسطح وهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

(٣) المقصود رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

(٤) خضتم فيه.

(٥) تتلقونه ويرويه بعضكم عن بعض وهو كذب.

(٦) تنتشر.

(٧) أكملت الآيات العشر للفائدة.

(٨) هو حديث البخاري مسلم السابق.

وتصف عائشة رضي الله عنها حالها وثقتها بربها وطهارتها، وتصف حالة والديها والخوف يكاد يقتلهما، خشيت أن تثبت التهمة على ابنتهما..

أثناء نزول هذه الآيات الكريمات، والنبي ﷺ مغشى عليه من شدّة الوحي كانت حجرة عائشة عوالم من المشاعر والانتظار والتقرب، تشعر بها عائشة البريئة فتقول: (فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه، ووُضعت وسادة من أدم[1] تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا[2] من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس[3].

ثم سرّي عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدّر من وجهه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: أبشري يا عائشة، قد أنزل الله براءتك. قلت: الحمد لله)

ثم قام ﷺ وخرج من البيت متجهاً نحو الناس.. نحو المدينة.. نحو العالم، ليخبرهم ببراءة حبيبته إلى يوم القيامة.. ليكشف للمدينة كذب ابن سلول ومن معه، وليضع أمام الدنيا.. كل الدنيا حقيقة طاهرة، وحكماً لا يزول: أن من سيقذف عائشة بعد اليوم فقد كذب الله وكفر بكتابه.. خرج ﷺ لـ:

إعلان البراءة واستدعاء الجناة

تقول عائشة: (ثم خرج ﷺ إلى الناس، وتلا عليهم ما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن في ذلك و«لما تلا رسول الله ﷺ القصة التي نزل بها عذري على الناس، نزل فأمر برجلين وامرأة، ممن تكلم بالفاحشة في عائشة فجلدوا حدهم»: أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدّهم)[4]

---

(١) جلد. (٢) خوفاً.

(٣) أي خوفاً من أن تصدق تلك التهمة الكاذبة.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق من رواية الإفك الصحيحة: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن عمرة، عن عائشة. عبد الله تابعي ثقة التقريب ٢٩٧ وعمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ثقة تتلمذت على عائشة وأكثرت الرواية عنها التقريب ٧٥٠.

أي جلد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثمانين جلدة، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ[1] ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] وقد تاب الثلاثة رضي الله عنهم بعد أن نزلت الآيات، وتأكدوا من تهوّرهم واستخفاف ابن أبي بن سلول بعقولهم، وكان لأبي بكر موقف من مسطح تبيّن من خلاله مدى الجرح الذي كان يئن منه أبو بكر ويعاني، لكن إيمان أبي بكر كان أعظم من أي موقف.. أسما من أي قرار يتّخذه ساعة غضب، لأنه أبو بكر، ولأنه الصدّيق.

موقف أبي بكر الغاضب

تقول عائشة رضي الله عنها: (فقال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة «فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فقال أبو بكر: «بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا»، والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت ينفق عليه، «وعاد له بما كان يصنع»، وقال: لا أنزعها منه أبداً)[3]. فأفاق مسطح بن أثاثة على نسمات أبي بكر الباردة، وأدرك عظمة الصديق وكرمه، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في حقه وحق ابنته الطهور، فأبو بكر الذي تغلغل في سويداء النبي ﷺ واحتلّ ما لم يحتله غيره.. لا يستحق كل هذا العقوق، ولكي يعرف العالم مساحة أبي بكر في عالم النبي ﷺ أسوق هذه القصة التي حصلت فيها:

---

(١) يتهمونهن بالزنا.

(٢) سورة النور: الآيتان ٤، ٥.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧) ومسلم -التوبة-.

مشادة بين أبي بكر وعمر

سوء خلاف بين أعظم رجلين في أمة محمد ﷺ.. سوء الخلاف ذلك أثار غباراً انقشع، فلم تر الدنيا بعد انقشاعه إلاّ أبا بكر، ثم عمر والباقين رضي الله عنهم جميعاً.

صحابي جميل اسـمه أبو الدرداء شـاهد ما حدث ورواه، فقال: (كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسـأله أن يسـتغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر[1].

وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سـلّم، وجلس إلى النبي ﷺ، وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر.

قـال أبو الدرداء: وغضب رسـول الله ﷺ «فجعل وجه النبـي ﷺ يتمعر[2] حتى أشـفق[3] أبو بكر، فجثا على ركبتيه»[4]، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسـول الله، لأنا كنت أظلم «يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم».

فقال رسول الله ﷺ: هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت «وواساني بنفسه وماله»

«فما أوذي بعدها»)[5]

إذا كانـت هـذه الغضبة من أجل أبي بكر وفي أمر يسـير، ومع من؟ مع عمر وما أدراك ما هذا العظيم المسـمّى عمر، فمـاذا يقال عن إيذاء مَنْ هم دون عمر، وافتراء من هم أقل من عمر على أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.

---

(١) أي خاصم.
(٢) يتغير لونه.
(٣) خاف.
(٤) جلس على ركبتيه.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦٤٠) والزوائد عنده (٣٦٦١).

هذه المرة لم ينتصر النبي ﷺ لأبي بكر.. لقد انتصر له الله، وآزره الله، وأنزل فيه وفي ابنته آيات تتلى إلى يوم القيامة، أما عدوّه وعدّو الله وعدوّ رسول الله ﷺ (عبد الله بن أبي بن سلول) جرثومة النفاق، فقد وجدت له سببين لكل هذه الحملة القذرة التي شنّها ليلوّث بها عرض رسول الله ﷺ وعرض صاحبه الصديق:

السبب الأول هو كفره وحقده وحسده للنبي ﷺ على زعامته وإقامته دولة مسلمة في عقر داره ودار قومه.

أما السبب الثاني، فهو سؤال حول:

عبد الله بن أبيّ بن سلول هل كان قواداً

والقواد هو الشخص الوضيع الذي يقوم بتنظيم حفلات البغاء وتأجير البغايا، مقابل مبالغ قذرة مثله، وكان عبد الله بن أبيّ يقوم بذلك، بل كان يرغم جاريته على ذلك إرغاماً، ويبدو أنه تضايق كثيراً عندما نزل تحريم الزنا، فهو وأمثاله يريدون نشر مهنتهم في هذا المجال وإشاعتها، وعندما لم يجد بدّاً من التخلص من قذارته رماها على عتبة دار عائشة النظيفة النقيّة.

يقول أحد الصحابة: (في قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾: نزلت في عبد الله بن أبي، كانت عنده جارية «يقال لها مسيكة»، وكان يكرهها على الزنا، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾)[1]، بهنّ.

إذاً فهذا هو عالم ابن سلول المليء باليهود والعفن والبغايا والنفاق، وهو عالم ما زال يتناسل حتى اليوم.. تناسل الحشرات التي لا تجد نفسها إلاّ عند العفن، وهو لم يكن

---

(١) سنده صحيح رواه البزار ٣-٦١ ، زوائد والطبراني (٢٨٤/١١) والطبري في تفسيره والزيادة له: حدثني الحسن بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر. الحجاج والحسن صدوقان وابن جريج وأبو الزبير صرحا بالسماع ورواه البزار عن ابن السائب عن ابن جبير عن ابن عباس، وعن ابن إسحاق عن الزهري عن أنس واللفظ له والزيادة للطبري.

كذلك في جاهليته، لكنه الحسد.. يطيح بالقامات ويجتث من النفوس المكرمات، ويسفل بالهمة والاهتمامات، أمّا من حاول الدفاع عنه في لحظة من لحظات الضعف البشري حين تمسّها العصبية، فله قصة أخرى جعلته يفيق من لحظة السهو القصيرة تلك.

أقصد سعد بن عبادة رضي الله عنه، الذي تحدّى سعد بن معاذ أن يقتل عبد الله ابن أبي بن سلول.

قصة ابن عبادة مع القذف

ابن عبادة الكريم.. الصحابي العظيم الجليل.. يحب قبيلته، ويتمزّق قلبه لأفعال ابن سلول المشينة.. يؤلمه ما يقوله عبد الله بن أبي، ويتمنى هدايته لكن ابن أبي كان حجراً.

نزلت الآية تبيِّن أن من قذف يجلد، فتحركت الغيرة في دم سعد بن عبادة وغلت، فتكلم بكلام لم يعجب النبي ﷺ، فابتلاه الله بمصيبة وقعت في قومه، فكانت عاراً على قوم ابن أبي بعد أن كان يتمنى تعليق العار على باب النبي ﷺ.

فعندما (نزلت هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾، قال سعد بن عبادة: لهكذا أنزلت يا رسول الله؟! لو أتيت لكاع[1] قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه، حتى آتي بأربعة شهداء؟ فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء، حتى يفرغ من حاجته! «إن أنا رأيت لكاع متفخذها رجل، فقلت بما رأيت، إن في ظهري لثمانين»، فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار، أما تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟

قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، ما تزوج فينا قط إلاّ عذراء، ولا طلّق امرأة له، فاجترأ رجل منّا أن يتزوجها «فقال رسول الله ﷺ: فإن الله يأبى إلاّ ذاك»[2].

قال سعد: «صدق الله ورسوله» يا رسول الله بأبي وأمي، والله إني لأعرف أنها من الله، وأنها حق، ولكن عجبت لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه، حتى آتي بأربعة شهداء، والله لا آتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته.

---

(١) وصف يطلقه سعد هنا على الزوجة التي يراها زوجها وهي تزني.

(٢) أي أن الله لا يقبل إلا حكمه سبحانه.

فوالله ما لبثوا إلاّ يسيراً حتى جاء هلال بن أميّة «ابن عم له» من حديقة له، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فأمسك حتى أصبح، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاء، فوجدت رجلاً مع أهلي، رأيت بعيني وسمعت بأذني.

فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه جداً، حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله، إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم أني صادق، وما قلت إلاّ حقاً، فإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً.

واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال سعد، أيجلد هلال بن أمية، وتبطل شهادته في المسلمين؟ «فشق ذلك على المسلمين، فقال: لا والله لا يجعل في ظهري ثمانين أبداً، لقد نظرت حتى أيقنت، ولقد استسمعت حتى استشفيت».

فهمّ رسول الله ﷺ بضربه، فإنه لكذلك يريد أن يأمر بضربه، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، إذ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل، حتى فرغ، فأنزل الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ[1] وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ[2] عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

فقال رسول الله ﷺ:أبشر يا هلال، فإن الله قد جعل لك فرجاً. فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله. فقال رسول الله ﷺ: أرسلوا إليها. فجاءت، فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ، قيل لها: فكذَّبت. فقال رسول الله ﷺ: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ فقال هلال: يا رسول الله بأبي وأمي لقد صدقت، وما قلت إلاّ حقاً. فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما)[3].

(١) يقذفون زوجاتهم.

(٢) يمنع ويدفع عنها الحد.

(٣) حديث صحيح انظر: تخريجه عند نهاية القصة.

ماهي الملاعنة

الملاعنـة تكون بين الزوجين فقـط، وذلك في حالة اتّهام الـزوج لزوجته بالزنا، فيحلـف قائلاً أربع مرات: أشـهد بالله أنني صادق في اتهامي، وفي المرة الخامسـة يقول: أن لعنة الله عليَّ إن كنت كاذباً عليها. بعد ذلك يقام على زوجته الحد والعقوبة إلا في حالة أن تدافع عن نفسها، وذلك أن تشهد هي بالله أربع مرات أنه لمن الكاذبين في اتّهامه لها. أي تكرر أربع مرات شـهادته كالتالي: أشـهد بالله أن زوجي كاذب. ثم تقول في المرة الخامسة: أن غضب الله عليَّ إن كان من الصادقين.

(فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما.

قيل لهلال: يا هلال، اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. فقيل له عند الخامسة: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس، وإنها الموجبة التي توجب عليك العذاب.

فقـال هلال: واللـه لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها رسـول الله ﷺ، فشهد الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قيل لها: اشـهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. فقيل لها عند الخامسـة: اتقي الله، فإن عذاب الله أشـدّ من عذاب النـاس، وإن هذه الموجبة التي توجب عليها العذاب، فتلكأت[1] ساعة، ثم قالت: والله لا أفضح قومي.

فشهدت الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرّق بينهما رسول اللـه ﷺ، وقضى أن الولد لها، ولا يدعـى لأب ولا يرمى ولدها)[2]. أي لا يقال لابنها: يا ابن الزنا أو الحرام.

وكان اسم الرجل المتهم بالمرأة «شريك بن سمحاء».

---

(١) ترددت وأحجمت.

(٢) سنده قوي رواه الطبري في تفسيره ٩-٢٧٠ حدثنا خلاد بن أسلم أخبرنا النضر بن شميل، أخبرنا عباد، وسمعت عكرمة عن ابن عباس: عباد بن منصور الناجي صدوق صرح بالسماع من عكرمة التقريب ٢٩١ وخلاد والنضر: ثقتان التقريب ١٩٦ و٥٦٢.

يقول أحد الصحابة وهو يروي القصة: (قامت فشـهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، فتلكأت ونكصت حتى ظننّا أنها ترجع ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت.

فقـال النبي ﷺ: أبصروها، فإن جـاءت به أكحل العينين[1]، سـابغ الإليتين[2]، خدلج السـاقين[3]، فهو لشريك بن سـمحاء. فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شـأن)[4] فقد صدق هلال وكذبت، ولكن أحكام الإسـلام لا تبنى إلا على البينات والأدلة، لا الرجم بالغيب والحدس والظنون.. لا يطبق الحدّ بعد نزول هذه الآية إلاّ بالاعتراف أو البيِّنة، حيث قال ﷺ: (لو كنت راجماً أحداً بغير بيّنة رجمت هذه)[5].

كان حـادث الإفك افتراءً.. ظلماً وتجنّياً على عائشـة، لكـن رحمة الله وانتصاره للمظلوم وعدالته.. أحالته إلى دروس وأحكام وبراءة.

ها هي عائشـة بريئة كيوم ولدتهـا أمّها.. ها هي وقد غمرهـا ﷺ بأمواج حبّه وفـؤاده.. هـا هي وقد رفعها الله بآيات كريمات، وتكلّم في شـأنها، ودافع عنها جبار السموات والأرض، فما أسعدها بهذا النعيم الخالد.

كان الفرح بحجم الدنيا في صدر عائشـة، لكنها غاضبة غضباً شـديداً، وعاتبة عتاباً أشـد على من يسكنون قلبها.. زوجها ﷺ، ووالديها رضي الله عنهما، فلم تقدم لهم أي نوع من أنواع الامتنان والشـكر، ومع ذلك لم يلمها أحد منهم، فالذي مرّ على هذه الفتاة المسـكينة ثقيل جداً، ومرير جداً، فسـمعة المرأة وشرفها عند العرب تعادل حياتها، وهم لم يدفنوا بناتهم وهنّ صغار إلاّ خشـية أن يتّهمن بما اتّهمت به عائشـة، ومن يستطيع أن ينفي تهمة في ذلك المجتمع.

الهدم أسـهل من البناء في كل المجتمعات خاصة المحافظة، فهل تُلام عائشـة إذا غضبت على من أحبّتهم..؟

---

(١) وورد في الصحيح أدعج وأسحم.

(٢) أي عظيم كما جاء في بعض الألفاظ.

(٣) ممتلئ.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٣١٠).

لم يلمها ﷺ، بل استرضاها وأرضاها بلطفه ورقته وحبّه، كان ﷺ يقول لها: (إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبى. فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال ﷺ: أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين، لا، وربِّ محمد. وإذا كنت غضبى، قلت: لا، وربِّ إبراهيم.

قلت: أجل يا رسول الله، ما أهجر إلاّ اسمك)[1].

نهضت عائشة من الموت، وتهادت كالنهر.. كالبدر نحو:

بساتين الحب

بساتين الحب التي زرعها ﷺ ونسق شجيراتها وأزهارها.. تدلّلت فيها عائشة، ورفرفت كالفراشة فيها.. كالعبير.. حتى (كان الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة «يبتغون مرضاة رسول الله ﷺ». قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة[2]، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان، أو حيثما دار.

فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليَّ، ذكرت له ذلك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها)[3].

وانقسم نساء النبي ﷺ إلى:

حزبين في بيت النبوة

تقول عائشة رضي الله عنها: (إن نساء رسول الله ﷺ كنّ حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية[4] وسودة.

والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم – فضائل عائشة.

(٢) أي يهدون للنبي ﷺ في اليوم الذي يكون فيه عند عائشة رضي الله عنها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٧٥).

(٤) زوجة قادمة للنبي ﷺ سوف تأتي قصتها فيما بعد.

وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ، أخّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلّم حزب أم سلمة فقلن لها: كلّمي رسول الله ﷺ يكلّم الناس)[1]

فذهبت أم سـلمة وكلّمته وحدث ما حدث كما في القصة السـابقة، لكن حزب أم سلمة لم يستسلم.. واصل المطالبة، وهذه المرة قرّر الحزب أن يضغط على النبي ﷺ، مستخدماً جانب العاطفة الأبوية.. مدركاً مدى رقّته ﷺ ورحمته ببناته وأولاده، خاصة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

قرّر حزب أم سـلمة ذلك عن طريـق حبيبته فاطمة، مع أن النبي ﷺ كان يقضي عند كل واحدة يوماً.

تقول عائشـة رضي الله عنها: (أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مرطي، فأذن لها، فقالت: يا رسـول الله، إن أزواجك أرسـلنني إليك يسـألنك العدل في ابنة أبي قحافة، وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ: أي بنية، ألست تحبين ما أحب؟

فقالت: بلى.

قال: فأحبّي هذه.

فقالت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ: فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ. فقلن لها: ما نراك أغنيت عنّا من شـيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلّمه فيها أبداً.

قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ، وهي التي تسـاميني منهن في المنزلة عند رسـول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٨١).

في العمل الذي تصدق به، وتقربا إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة[1] كانت فيها، تسرع منها الفيئة.

فاستأذنت على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها. فأذن لها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، ثم وقعت بي، فاستطالت عليّ «فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبّتها».

وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه، وهل يأذن لي فيها.

فلم تبرح زينب «حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة: هل تكلم؟». حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر.

«فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها»، قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها حين أنحيت عليها [أن أثخنتها غلبة] «فنظر النبي ﷺ إلى عائشة». فقال رسول الله ﷺ وتبسّم: إنها ابنة أبي بكر)[2]

وقد انتصرت وانتصر حزبها، لأنها لم تفعل ما يجرح شعورهن رضي الله عنهن، لكنهن يطالبن النبي ﷺ بالعدل، وهو عادل إلاّ في شيء واحد لا يستطيع التحكّم فيه، وهو قلبه، فهو بشر كبقية البشر.. لديه ما لديهم من الأحاسيس والمشاعر والميول، ولم يكن ﷺ يتدخّل في كل ما يحدث بين زوجاته من أمور طبيعية تحدث عادة بين النساء عند زوج واحد، إلاّ إذا تجاوزت إحداهن الحد.. عندها يحكم ﷺ بالعدل ويقوم بفضّ الاشتباك.

رضي حزب أم سلمة بمكانة عائشة، بل قدم تنازلات أكثر ليحظى بحب الله ورسوله، فبدلاً من أن يطالب حزب أم سلمة مرة أخرى بأن تكون هدايا الناس في أوقات وأبيات مختلفة، قام هذا الحزب الطيّب بتقديم الهدايا للنبي ﷺ، لكن متى وأين..؟

---

(١) سرعة غضب لكنها سرعان ما تنطفئ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم وما بين المعقوفين له.. والزوائد للبخاري (٢٥٨١).

هكذا انقلب الحال، ومن كان له حيلة فليحتال، وما دام الهدف هو الوصول إلى قلب الحبيب محمد ﷺ والمنافسة عليه، فلا بأس بالتضحية، ولا بأس بكتم الغيرة مؤقتاً..

فعلت ذلك أم سلمة رضي الله عنها وحزبها المعارض، لكن عائشة أدركت أهداف أم سلمة وأدركتها الغيرة، وخافت أن تزحزحها أم سلمة عن عرش الحب الذي تنعم به، فقامت للتصدي لأم سلمة ولمحاولاتها، ولكن بطريقة أكثر انفعالاً مما فعله حزب أم سلمة، وأشدّ قسوة مما قالته زينب، فما الذي جرى بين أم سلمة وعائشة رضي الله عنها..؟

تحدثنا أم سلمة نفسها عن محاولتها وهديتها فتقول: (إنها أتت بطعام في صحفة[1] لها، إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء، ومعها فهر[2]، ففلقت[3] به الصحفة.

فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة.. ويقول: كلوا، غارت أمكم.... كلوا، غارت أمكم.

ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة، فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة لعائشة)[4] فانتصرت أم سلمة رضي الله عنها هذه المرة، وانتصر حزبها.

ليست الغيرة فقط تحدث بين حزب وحزب، بل أحياناً داخل الحزب الواحد تغلي الغيرة، وليست هذه المرة الوحيدة التي تندفع فيها عائشة نحو تصرّف تندم عليه.. مأخوذة بالغيرة وحبّها الشديد للنبي ﷺ.

ففي أحد الأيام تصرّفت تصرفاً ندمت عليه فتمنّت أن تلاقي حتفها، رغم أن الأمر لا يستدعي الموت، لكنها الغيرة.

---

(١) إناء.
(٢) حجر.
(٣) كسرت.
(٤) سنده صحيح رواه النسائي (٧/٧٠): أخبرنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أبي المتوكل عن أم سلمة.. وأبو المتوكل تابعي ثقة اسمه علي بن داود الناجي (التقريب - ٢/٣٦) وتلميذه تابعي ثقة عابد وهو البناني - التقريب (١/١١٥) وحماد ثقة من رجال مسلم وهو أثبت الناس في ثابت البناني (السابق - ١/١٩٧) وأسد صدوق (التقريب - ١/٦٣) ويلقب بـ (أسد السنة) وشيخ النسائي ثقة انظر (التقريب - ١/٤٢٥) فالسند بذلك صحيح وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٥/٣٦٠).

عائشة تدعو على نفسها بالموت

تقـول رضي الله عنها: (كان رسـول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسـائه، فطارت القرعة على عائشة وحفصة، فخرجتا معه جميعاً، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سـار مع عائشة، يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر؟ قالت: بلى.

فركبت عائشـة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشـة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشـة وعليه حفصة، فسـلّم، ثم سـار معها حتى نزلوا. فافتقدته عائشة، فغارت، فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر[1]، وتقول: يا رب سلط عليَّ عقرباً، أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً)[2] ولا تستطيع أن تقول لحفصة شيئاً، فهي التي جنت على نفسها.

أي غيرة تسـكن عائشة، وأي حب ذلك الذي يأكل معها ويشرب، ويحلّ ويرتحل.. كان حب عائشة للنبي ﷺ سماءها وأرضها وبحارها التي لا شاطئ لها.

لكن ماذا عن حب النبي ﷺ لعائشة.. ماذا عن حب محمد لهذه البراءة.. إلى أي مدى هو، وما المسافات التي قطعتها عائشة في قلبه وبين حناياه..؟

النبي ﷺ نفسـه.. في سـاعة حب وصفاء لعائشة.. في ساعة لم يكن فيها سوى محمد وعائشة والحب.. تحدّث ﷺ بحديث يتقاطر شهداً وحباً.. حديث لم تسمع مثله حبيبة قط.. حديث جعل عائشة تشعر أن الشمس والقمر والدنيا كلّها بين يديها.

حب النبي ﷺ لعائشة إلى أي درجة؟

تقول رضي الله عنها: (جلسـت إحدى عشـرة امرأة، فتعاهـدن، وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالـت الأولى: زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سـهل فيرتقى، ولا سمين فينقل[3].

---

(١) نبات طيبت الرائحة توجد به الهوام غالباً في البرية.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - الفضائل.

(٣) تصفه بأنه كلحم الجمل الهزيل ويصعب الوصول إليه أيضاً، فالوصول إليه شاق، ليس فيه مصلحة حتى تنقله الناس إلى بيوتها وتستفيد منه.

قالت الثانية: زوجي لا أبثّ خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره، أذكر عُجره وبجره[1].

قالت الثالثة: زوجي العشنق: إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق[2].

قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة: لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة[3].

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد[4].

قالت السادسة: زوجي إن أكل لفّ، وإن شرب اشتفّ، وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البثّ[5].

قالت السابعة: زوجي غيأياء، أو عيأياء، طباقاء، كل داء له داء، ثجك، أو فلك، أو جمع كُلاً لك[6].

قالت الثامنة: زوجي الريح ريح زرنب، والمس مس أرنب[7].

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد[8].

قالت العاشرة: زوجي مالك، وما مالك؟ مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهنّ هوالك[9].

---

(١) تقول إنها لا تشيع خبر زوجها ولا تذكره.. لأنها لن تنتهي من إكماله لكثرة عيوبه.. والعجر تعقد العروق والعصب ونتؤها.. والبجر هو نتؤ في البطن.

(٢) العشنق هو الطويل أي ليس فيه إلا طول دون نفع.. فإن ذكرت عيوبه طلقها.. وإن سكتت عن عيوبه علقها لا مطلقة ومتزوجة أي أهملها مع بقائها في ذمته.

(٣) تمدحه كليل تهامة ليس فيه أذى، بل لذيذ كريم الأخلاق لا تخشاه، لا يسأم منها ويملها.

(٤) شبهته بالفهد لكثرة نومه كما يقال، أنوم من فهد، غافل عن تعاهد منزله وما ذهب منه وما بقي، وهو بين الناس شجُاع كالأسد.

(٥) أي أنه يلف الطعام لفاً ويكثر منه، ويشرب كل ما في الإناء، وعند نومه يلتف بغطائه عنها دون اهتمام بها، ولا يلمسها بكفه ولا يتحسسها ليعلم إن كانت تشتكي من شيء.

(٦) أي أنه خائب لا يقترب منها.. وأموره مطبقة عليه لحمقه، وكل داء ومرض يجتمع فيه.. وهي معه غير آمنة فإما أن يشج رأسها أو يكسر بعضها أو يجمع لها الأمرين.

(٧) أي ريحه طيبة كرائحة الزرنب وهو نوع من أنواع الطيب.. وأما مسه فلين لكرمه ورقته ولطفه.

(٨) رفيع العماد هو الشريف المذكور في قومه، طويل حمائل السيف لطول قامته.. كريم كثير الرماد لكثرة ما يوقد نار لأضيافه.. وبيته قريب من النادي وهو مجتمع القوم ومنتداهم.

(٩) إبله كثيرات.. لا يرسلهن للسرح إلا قليلاً.. إذا سمعن العزف على العود لوجود الضيفان أدركن أنهن منحورات لهم.

قالت الحادية عشر: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع: أناس من حلي أذني[١]، وملأ من شحم عضدي[٢]، وبجحني فبجحت إلى نفسي[٣]، وجدني في أهل غُنيمة بشق[٤]، فجعلني في أهل صهيل وأطيط[٥]، ودائس ومنق[٦]، فعنه أقول فلا أقبح[٧]، وأرقد فأتصبح[٨]، وأشرب فأتقنح[٩].

أم أبي زرع، فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح[١٠].

ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمسل شطبة[١١]، ويشبعه ذراع الجفرة[١٢].

بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها[١٣]، وغيظ جارتها[١٤].

جارية أبي زرع، فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثاً[١٥]، ولا تنقث ميرتنا تنقيثاً[١٦]، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً[١٧].

قالت: خرج أبو زرع، والأوطاب تمخض[١٨]، فلقى امرأة معها والدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين[١٩]، فطلّقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً، ركب

---

(١) أي حلاني أقراطاً فهن تنوس أي تتحرك لكثرتها.
(٢) أي أسمنني وملأ بدني شحماً.
(٣) أي فرحني ففرحت.. وعظمني فعظمت عند نفسي.. والتبجح هو التعاظم والتفاخر.
(٤) أي أنه وجدها عند أهل غنم قليلة وحياتهم فيها مشقة وفقر.
(٥) نقلها إلى أرضه حيث صهيل الخيل وأطيط الإبل.
(٦) أي أنه صاحب زرع يدوسه وينقيه.
(٧) لا أحد يرد قولها ويقبحه.
(٨) أي أنها تأخذ كفايتها من النوم لأن هناك من يخدمها.
(٩) لا تترك الشراب حتى تقضي حاجتها.
(١٠) واسع. والعكوم هي الأوعية التي توضع فيها الأغراض ورداح كبيرة.
(١١) أي خفيف اللحم كالسيف سل من غمده.
(١٢) الجفرة الأنثى من ولد الماعز أو الضأن إذا تجاوزت أربعة أشهر.
(١٣) ممتلئة الجسم.
(١٤) لديها من العفاف والجمال والأدب ما يغيظ ضرتها.
(١٥) لا تفشي أسرارنا.
(١٦) لا تفسد الطعام ولا تفرقه لأمانتها.
(١٧) لا تترك القمامة متفرقة تشوه المنزل كعش الطير.
(١٨) أي أنه خرج في وقت الربيع.
(١٩) كفلها عظيم لو استلقت رفعها عن الأرض حتى تصير تحتها فجوة يجري تحته الرمان.

شـــرياً[1]، وأخذ خطياً[2]، وأراح عليَّ نعماً ثرياً[3]، وأعطاني من كل رائحة زوجاً[4]، قال: كلي أم زرع وميري أهلك[5].

فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: كنت لك كأبي زرع لأم زرع)[6].

هذه هي منزلة عائشة في قلبه ﷺ.. هي منزلة أم زرع عند أبي زرع، غير أن النبي ﷺ أحبّها أكثر من حب أبي زرع لزوجته، لأن ذاك طلق، والنبي ﷺ لم يطلق.

هذا الحب لا شـكّ أغــاظ المنافقين في المدينة.. أغاظ ابن سـلول ومن معه من الخفافيــش، كمــا أغاظهم من قبل انتصــار النبي ﷺ في غزوة بنـــي المصطلق، التي تشعبت آثارها حتى زلزلت قريش..

آثار غزوة بني المصطلق

انتهت غزوة بني المصطلق بانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتصار عائشة رضي الله عنها على المنافقين، لكن تلك المعركة تركت لدى قريش وحلفائها شـعوراً أسـوداً، ورعباً ترتعد منه أوصالها.. كأن الجبال تنزلزل من حولها.. كأن الكواكب تتهاوى على رؤوســها، فقد امتدّت يد محمد ﷺ حتى طالت جيرانهم بني المصطلق، الذين عادوا بعد المعركة أحراراً بعد مصاهرتهم للنبي ﷺ، وقريش الآن تخشـــى أن تمتد إليهم يد محمد ﷺ فتأخذهم إلى غير رجعة.

ويبدو أن تلك الضربات التي تلقاها المسلمون من قريش وغيرهم من الوثنين في أحد والرجيع وبئر معونة وغيرها.. لم تزدهم إلاّ صلابة وعزماً واتّقاداً.. كأنها النار التي تذيب صـدأ الحديد.. كانت لقاحاً عاد بعده الجســم صحيحاً منيعاً، فها هو النبي ﷺ يرســل جيشاً لرصد قوافل قريش، التي تمر بمحاذاة الساحل.. في غزوة يحلو للبعض تسميتها:

---

(١) السري هو الشريف والشري هو الفرس الذي لا يفتر في سيره.

(٢) الرمح.

(٣) كثيرة والمقصود الثروة.

(٤) أي من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم.

(٥) أعطيهم.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨).

غزوة سيف البحر

كان قائد هذا الجيش هو أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، وكان ضمن ذلك الجيش كبار الصحابة.. منهم سـعد بن عبادة، وجابر بـن عبد الله الذي يقص علينا بعض أحداث تلك الغزوة فيقول: (بعث رسـول الله ﷺ بعثا قبل الساحل، وأمر عليهم أبـا عبيدة بن الجراح، وهـم ثلاثمائة فخرجنا وكنا ببعض الطريـق فني الزاد، فأمر أبـو عبيدة بأزواد الجيش، فجمع فكان مزودي تمـر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت: ما تغني عنكم تمرة)[1] تمرة في اليوم الواحد مما اضطر ذلك الجيـش إلى أكل نبات الخبط، وهو علف للحيوانات، ولذلك سمي ذلك الجيش فيما بعد: (جيش الخبط).

يقول جابر رضي الله عنه لمن سـأله عن تلك السرية: (بعثنا رسول الله ﷺ وأمَّر علينـا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة.. تمرة، فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟

قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله[2].

كان سـعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما يأكلان من أشجار الخبط وهي علف للإبل.. كانا يعانيان ماتعانيه تلك السـرية، ويشـعران بما تشعر به، فكان لسيد الأنصار وابنه موقف عظيم.

الكرم الأنصاري يتدفق كأمواج هذا البحر.. قام سـعد بن عبادة بشراء مجموعة مـن النياق من أصحابها، ثم سـلمها لابنـه قيس وأمره بنحرها للسـرية، التي أحرق أجوافها شجر الخبط.

يقول قيس رضي الله عنه: (كنت في الجيش فجاعوا قال: انحر. قلت: نحرت. ثم جاعوا، قال: انحر. قلت: نحرت. ثم جاعوا، قال: انحر. قال: نحرت. ثم جاعوا. قال: انحر. قال: نهيت)[3]

---

(١) صحيح البخاري ٤ - ١٥٨٥.
(٢) صحيح مسلم ٣ - ١٥٣٥.
(٣) صحيح البخاري ٤ - ١٥٨٥.

ترى كم نحر من ناقة جزور..؟

يقـول جابر أن سـعد بن عبادة رضي الله عنه (نحـر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه)[1] لأن هذا الكرم الأنصاري يتخطى الحدود، وإن لم يتم إيقافه فسـيقضي على مطايا السـرية، وقد تعودُ إلى المدينة على الأقدام إن لم يتم إيقاف تدفقه.

كانت أياماً عصيبة ومريرة.. كان فارسـها سـعد بن عبادة الكريم، وكانت رحمة اللـه فوق ما يتصورون، فقد رأى بعضهم صخرة كبيرة جداً.. كانت سـوداء وملسـاء تتمدد على الساحل.. اقترب الجميع منها فإذا هي ليست بصخرة.. إنها حوت عملاق يسـمونه العنبر. كان ميتا لكنه ينبض بالحياة لهذه السـرية، وقـد فرح الجميع بهذه المفاجأة السارة، وشكروا الله عليها، لكن أبا عبيدة تذكر أن الميتة لا تجوز، ثم تذكر كم يفتح الإسلام من أبواب الفرج في سويعات الضيق.. تذكر أن هناك ضرورة الإبقاء على هذه الأرواح والأجساد المنهكة الهزيلة، فسموا الله وأكلوا واستخرجوا من زيت الحوت، وشربوا ودهنوا أجسادهم المتعبة، وشعورهم الشعثة لمدة تتجاوز نصف الشهر.

هالهـم حجم الحوت فقاموا بقياس ارتفاع أحد أضلاعه، فغرزوا الضلع، ثم نادوا أطول رجل في تلك السـرية وأمروه بأن يركب أرفـع جمل أيضا، ثم أمر بالمرور، فمر تحت ذلك الضلع العملاق.

يقول جابر وهو يتحدث عن تلك المشاهدات العجيبة: (انطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر.

قال أبو عبيدة: ميتة. ثم قال: بل نحن رسـل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلوا)[2] (فأكلنا نصف شهر وادهنا بودكه حتى صلحت أجسامنا)[3] (حتى سـمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو كقدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها)[4]

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨٥.
(٢) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢٠٩٣.
(٤) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

وبعد مرور نصف شـــهر من عثورهم على هذا الحوت الهائل أمر أبو عبيدة جنده بالعودة للمدينة، فقد أدوا المهمة التي أرســلوا من أجلها، وعادوا أحسن أجساداً وأكثر قــوة، ثم اقتطعوا ما قــدروا على حمله من لحم الحوت، ولما وصلوا إلى المدينة أخبروا نبيهــم ﷺ بذلــك، ففرح بفضل الله عز وجل على جنـــده، وطلب منهم أن يطعموه من ذلك اللحم الطيب.

يقــول جابر رضي الله عنه: (وتزودنا من لحمه وشــائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رســول الله ﷺ فذكرنا ذلك له؟ فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا..؟

فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكله)[١].

أما قريش فقد شعرت بخطورة الوضع بعد تلك السرايا، وبعد غزوة بني المصطلق، فقررت التحرك، لأنه لابدّ من حســم الأمر قبل أن يستشري خطر المسلمين.. قبل أن تفاجأ قريش بمحمد ﷺ وجيشه يطوفون حول الكعبة، ويحطّمون الأصنام.

هذا هو الكابوس الذي يقضّ مضجع أبي ســفيان ومن معه من الوثنين.. هذا هو الخوف الذي تعيشه مكة، لكن ماذا عن المدينة..؟

هناك شــعور لا يختلف عن هذا الشــعور، فداخل دول الإسلام لم يكن الأمر كما يحبّ رســول الله ﷺ وصحابتــه تماماً.. كان هناك المنافقون الذيــن خرجوا للتوّ من هزيمــة الإفك، وهنــاك أيضاً اليهود الذيــن أغاظهم نصر النبــي ﷺ في غزوة بني المصطلق، وزاد غيظهم نصر الله لعائشــة، فتحوّلــت حصون اليهود إلى قدور ضخمة لطبخ الخيانة والمؤامرات.

اليهود يجمعون الأحزاب

لتنفيــذ مؤامرة كالانتحار، فالذي يقومون به الآن ضرب من الانتحار. لأن فشــل مؤامرتهــم هذه يعني نهايتهم.. اليهود اليوم خناجر تســافر في الظلام، ولا تدري من

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

تصيب.. إن بينهم وبين قائد الدولة المسلمة عهداً بألاّ يخونوا، ولا يعتدوا، ولا يتآمروا، وإلاّ فإن مصيرهم سيكون مصير بني النضير. لقد سامحهم ﷺ بعد خيانتهم الأولى، وهم الآن طامعون في تسـامح آخر إن فشلوا في مؤامرتهم، يقول أحد الصحابة: (إن يهود النضير وقريظة حاربوا رسـول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير وأقرّ قريظة)[1]

كان ذلك بعد غزوة بدر عندما (كتبت كفار قريش بعد واقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهـل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلـن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسـائكم شـيء -وهي الخلاخيل- فلما بلغ كتابهـم النبي ﷺ، أجمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخـرج منـا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المنصف، فيسـمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك، آمنّا بك.

فقـصّ خبرهم، فلما كان الغد، غدا عليهم رسـول الله ﷺ بالكتائب، فحصرهم، فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلاّ بعهد تعاهدوني عليه. فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهـم يومهم ذلك، ثم غدا على بني قريظـة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم.

وغـدا على بني النضير بالكتائـب، فقاتلهم حتى نزلوا علـى الجلاء، فجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم وخشبها)[2]

منظر حزين يتكرّر على اليهود، ويتباكى عليه اليهود، ويطالبون العالم أن يبكي من أجلهم.. وهم يجيدون التمثيل والتباكي، لكن أكثر ما يجيدونه هو سبب التباكي..

أكثر مـا يجيده اليهود هو المؤامـرات والخيانات، والطعن مـن الخلف، والطعن في الظلام، وعندما يتلقون العقاب الرادع.. تسـيل أنهار الدموع والبكاء والشعر على مصيرهم البائس، وكأنهم لم يفعلوا شـيئاً! وبنو قريظة يستحقون مصير بني النضير،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨) وأبو داود (٣٠٠٥) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح مر معنا رواه أبو داود (٣٠٠٤) وقد صححه الإمام الألباني وانظر تعليقي على قوله رحمه الله هناك غزوة بني النضير.

لكـن النبي ﷺ منحهم فرصة، فإن فشـلت مؤامرتهم الجديدة فإن عقابهم سـيكون مضاعفاً.

دعونا نراقب هذا الوفد اليهودي الذي سـافر سراً إلى مكة، ليجتمع بأبي سفيان وقيادات المشركين هناك، وليعرضوا عليهم مشروعاً عسكرياً يسحقون به دولة الإسلام والتوحيد، بعد أن فشل مشروع كعب بن الأشرف اليهودي مع قريش، فتم الإجهاز على كعب على يد محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وها هو:

المشروع اليهودي من جديد

يحملـه يهود من بني النضير فشـلت خيانتهم، فتورموا مـن الحقد، ومعهم يهود آخرون تثيرهم هذه التجربة وهذا المشروع.

لم تنطلق الرصاصة من مكّة، بل من حصون اليهود فـ(إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم: سـلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري «وكنانـة بن أبي الحقيق النضري» وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسـول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكّة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ[1]، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله؟

فقالت لهم قريش: يا معشـر يهود، إنكم أهل الكتـاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه.

فهـم الذين أنزل اللـه فيهـم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا

---

(١) سبق أن خرج كعب بن الأشرف لكنه قتل قبل إكمال مشروعه.

لَا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾[1].

لم يكتفِ اليهود بالتآمر عليه ﷺ، بل أضافوا إلى خيانتهم ونقض عهدهم والوثيقة المكتوبة بينهم وبين النبي ﷺ.. أضافوا إلى قائمة جرائمهم جريمة هي الأشنع والأحقر. جريمة تنزّ بالخسّة والوقاحة. زوّر اليهود وأباحوا لنفسهم القفز على كل مبدأ وعقل وحقيقة، فمنحوا للوثنيين المشركين صكّاً بالبراءة من كل إثم في كل ما يرتكبونه من جاهلية، وسلبوا النبي ﷺ كل حق وحقيقة يملكها.. جعلوا التوحيد هو الباطل، وطلبوا من عَبَدة الأخشاب والأحجار الاستمرار في طقوسهم المنحطة.. فعلوا ذلك كلّه وهم أهل كتاب، وقد قرأوا الكثير.. الكثير عن محمد ﷺ ونبوّته وصفاته، فما العقاب الذي يستحقه هؤلاء..؟

مسلسل الوحل اليهودي لم ينتهِ بعد، فبعد أن وضعوا قريشاً في إحدى جيوبهم.. توجّهوا نحو قبيلة غطفان القوية، فأغروها بالنبي ﷺ والمدينة، وأغروها بتمر المدينة ونخيلها ونسائها، فاستجابت، ورفعت المؤامرة رأسها، وتدلّت ثمارها أمام اليهود والوثنيين، لكن الخبر وصل إلى النبي ﷺ عن طريق رجل متهور من غطفان، يدعى «الحارث الغطفاني».

غطفان تطلب ثمن انسحابها من الأحزاب

وقد أرسلت من أجل هذه المهمة أحد وجهائها، رجل اسمه: الحارث الغطفاني.. ركب راحلته، وعندما استقرت به على أرض المدينة.. بحث عن النبي ﷺ، ولما وقف أمامه.. أملى على النبي ﷺ شرطه للانسحاب من التحالف اليهودي الوثني، وكان

---

(١) حديث حسن رواه ابن إسحاق بأسانيد عدة منها: حدثني يزيد بن رومان عن عروة ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك.. ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة.. وهذه الأسانيد كلها مرسلة وإن كان عبد الله بن كعب له رؤية.. وهي لا تقوي بعضها البعض لأنه ربما كان مصدرها واحداً وهو مجهول.. لكن لها شاهد يرفعها إلى درجة الحسن وهو عند ابن إسحاق أيضاً (تفسير ابن كثير - الأحزاب): حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس.. وهو سند حسن بالشواهد من أجل محمد بن أبي محمد.. وابن إسحاق لا يتهمه.. انظر التقريب (٥٠٥) حيث قال عنه مجهول.

شرطاً يفوح صفاقة وتغطرساً، لكن إجابة الأنصار كانت كالسيف على رأسه، فقد رفض الأسدان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ كل أنواع الابتزاز.. مهما كان مصدرها وقوّتها:

(جـاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، ناصفنا تمر المدينة «وإلا ملأناها عليك خيلاً ورجالاً»؟

فقال ﷺ: حتى أستأمر السعود: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ يشاورهما «فقال: إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وأن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا حتى تنظروا في أمركم بعد..؟

قالوا: يا رسول الله أوحي من السماء؟ فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع لهواك ورأيك؟

فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منّا تمرة إلا بِشرى أو قرى»[1] فقالا[2]: ما أعطينا الدنية[3] من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام..!! فرجع إليه الحارث، فأخبره. فقال: غدرت يا محمد.

فقال حسان بن ثابت:

يا حارِ من يغدر بذمة جاره	منكم فإن محمداً لا يغدر
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم	واللؤم ينبت في أصول السخبر
وأمانة النهدي حيث لقيتها	مثل الزجاجة صدعها لا يجبر

فقال الحارث: كفّ عنا يا محمد لسان حسان، فلو مزج به ماء البحر لمزجه)[4] ولم يكن لسان حسان أشدّ من لساني السعدين.. لم يعرض ﷺ ذلك الأمر على أبي بكر،

---

(١) أي كانوا لا يستطيعون الحصول على تمرنا إلا بالشراء أو الضيافة.

(٢) قال السعدان: ابن عبادة وابن معاذ.

(٣) أي لم نعط الصفة والخصلة المذمومة في الجاهلية فكيف وقد أسلمنا.

(٤) سنده حسن رواه البزار زوائد ٢-٣٣١ واللفظ له، والزوائد للطبراني ٦-٣٤ : حدثنا عقبة بن سنان، حدثنا عثمان بن عثمان الغطفاني، حدثنا محمد ابن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة. أبو سلمة بن عبد الرحمن تابعي ثقة مكثر. التقريب ٦٤٥ ومحمد بن عمرو بن علقمة حديثه حسن من رجال الشيخين، التقريب ٤٤٩ وعثمان صدوق من رجال مسلم السابق ٣٨٥ وعقبة بن سنان، البصري صدوق من شيوخ أبي حاتم، الجرح والتعديل ٦-٣١١.

ولا على عمر، بل على أهل دار الهجرة والكرم، وأصحاب الشأن الأوّل فهو لا يتخلى عن عهوده ومواثيقه. فذهب ذلك الوثني إلى قومه خائباً حيث كان الأنصار له كالموت.. بالسيوف بالشعر. عندها أدرك ﷺ خطورة الموقف والأحزاب.

تأمّل ﷺ وضع المدينة، فوجد المعركة هذه المرة مختلفة، فقريش اليوم ليست وحدها.. معها غطفان، ومعها بقايا بني النضير الذين استطاعوا زحزحة يهود بني قريظة عن عهدهم وميثاقهم مع النبي ﷺ، وقد يلحق بقريش غيرهم من حلفائهم، والوقت قصير لا يحتمل التأخير، والجيش المسلم لا يستطيع التصدّي لهذه الجموع خارج المدينة؟ فالأفضل البقاء في المدينة.. حيث يشارك الجميع في تلك المعركة دون استثناء، وحتى لا يتكرر ما حدث في أحد، لكن خيانة اليهود تثير المخاوف، وليس هناك وقت لبناء أسوار كأسوارهم، فليكن الحفر بدلاً من البناء.

حفر الخندق

قرّر ﷺ أن يحفر خندقاً يحصن به الجهة الشمالية للمدينة من هجمات قريش ومن معها، لأن بقية الجهات صعبة الاقتحام لكثرة النخيل والصخور والجبال، وفنّ القتال لا يعني المهارة في استخدام السلاح فقط، بل المهارة في استخدام وتسخير كل شيء يحيط بالمحارب. وقد تفنّن ﷺ في تسخير تضاريس المدينة وطبيعتها في هذه الحرب القادمة.. غير المتكافئة عدداً واستعداداً.

وجد عليه السلام أن جهة الشمال مفتوحة لاحتمالات مخيفة، فقرّر ﷺ إغلاقها، فبدأ حفر الخندق.. بدأ بحفره بيديه، فهو الذي ضرب أوّل معول في ذلك الخندق، الذي سيشكّل مفاجأة للوثنيين واليهود ومن معهم.

(ضرب رسول الله ﷺ في الخندق بيديه، ثم قال:

بسم الله وبه بدينا ولو بدنا غيره شقينا

حبذا ربنا وحبذا دينا)[1]

---

(1) سنده صحيح رواه الحارث. المطالب ٤-٤٠٤ حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان. معاوية الأزدي ثقة، التهذيب ١٠-٢١٥ وشيخه ثقة حافظ التقريب ١١٠. وأبو عثمان النهدي أدرك الجاهلية وأسلم في عهد النبي عليه السلام وقد ذكره الذهبي في التجريد ١٨٦ ضمن الصحابة وليس ضمن شيوخه تابعي.. وقد روي موصولاً عن سلمان عند البيهقي لكن سنده ضعيف.

فتهاوت المعاول بعده تعزف خندقاً، والحناجر تتغنى شـعراً وحماسـاً. وسط هذا الحمـاس والتفاني.. كنت لا تدري هل كان النبي ﷺ معهم، أم هم الذين كانوا معه..؟ وسـط ذلك الجو الشـتوي البارد.. خلال ذلك الغبار المنبعث من الخندق.. لا تستطيع تمييز القائد من الأتباع..؟

أحد الصحابة اسمه سهل بن سعد يقول: (كنّا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا)[1] أما البراء بن عازب فيقول: (كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى التراب «شعر» بطنه «وكان رجلاً كثير الشعر»)[2] (كان ﷺ ينقل التراب حتى وارى شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله «بن رواحة»:

اللّهمّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته «أبينا.. أبينا» «يمد صوته بآخرها»)[3].

كان ﷺ يحمـس من حوله بأبيات الصحابي الشـاعر عبد اللـه بن رواحة رافعاً وماداً بها صوته، وكان لا بد من فعل ذلك، فالجو مشـحون بالجوع والبرد والحذر فلا بد من إشعال جذوة الحماس.

لم يكتف ﷺ بذلك.. كان يذرع المنطقة.. يتفقّد كل شـيء.. يحتاط لكل شيء، ثم يعود لمحاربيه.. يشـجّعهم.. يحفر معهم.. يدعو لهـم.. يحتضن فداءهم وإخلاصهم، وهم في حالة جوع شديد، وبرد قارس.

(خرج رسـول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجـرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال:

اللّهمّ إن العيش عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٨).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٢٣٦) والزوائد له (٣٠٣٤).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٤) والزوائد له (٤١٠٤ - ٤١٠٦).

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً[1]

البيعة تتجدّد.. والحماس يتجدّد، لكن الجوع والتعب يتجدّد أيضاً. فما هو طعام كل مجموعة من هؤلاء المحاربين الأشدّاء، الذين يحتاجون إلى كل ثانية وطاقة.

طعام رجال الخندق

يقول الفتى الأنصاري أنس بن مالك: (جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبدا

ويقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللّهمّ إنه لا خير إلاّ خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة

قال: ويؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن)[2]

هؤلاء العظماء ليس لهم طعام سوى شعير مطبوخ بسمن عتيق بشع الطعم والرائحة، بينما يتمتع الوثنيون بأطايب الطعام، أمّا اليهود، فلديهم مخزون أكثر من كاف لمثل هذه المؤامرة، ولهم منافذ مفتوحة على حلفائهم، بينما يعيش محمد ﷺ وجنوده طقساً من الحصار والبرد والجوع والطعام الخشن والقليل، وتمضي أيام على هؤلاء الأخيار من المهاجرين والأنصار.

ثلاثة أيام من الجوع والحفر

نقلوا فيها الحجارة من عمق الخندق إلى عمق جوعهم وبطونهم.. قدّو الحجارة من الخندق، وألصقوها ببطونهم من شدّة الجوع، ثم ربطوها، في الوقت الذي تسلّل فيه المنافقون كالحيات إلى بيوتهم.. إلى شوائهم ونسائهم وشرابهم.. كأن الأمر لا يعنيهم.. كأن المدينة ليست وطناً لهم..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٠).

كان ذلك الجوع امتحاناً لإيمان هؤلاء المؤمنين الذين صبروا واحتسبوا.

يقول جابر: (لما حفر النبي ﷺ وأصحابه الخندق، أصاب النبي ﷺ والمسلمين جهد شديد، فمكثوا ثلاثاً لا يجدون طعاماً، حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع)[1].

لكن ماذا بعد ثلاثة أيام من الجوع والطعام القليل..؟

إن رحمة الله قريب من المؤمنين.. جاءت المعجزة في بيت جابر، فزال عن المؤمنين شيئاً ممّا بهم.

طعام جابر والمعجزة

جابر بن عبد الله.. الصحابي العظيم.. ابن الصحابي العظيم،الذي يعول تسع أخوات وزوجته.. يستأذن النبي ﷺ لكنه ليس كاستئذان المنافقين. لم يذهب لبيته كما يذهب ذلك المنافق طلباً للراحة بين أهله والطعام والشراب، لكنه رأى منظراً أحزنه وآلمه أشدّ الألم، فلم يطق البقاء في مكانه.. انطلق عله يجد في بيته ما يخفف تلك الآلام.. إنها على أقلّ الأحوال محاولة.

يقول رضي الله عنه: (كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق نحفر فيه، فلبثنا ثلاثة أيام لا نطعم شيئاً، ولا نقدر عليه، فعرضت في الخندق كدية[2]، فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذه كدية قد عرضت في الخندق. «فقال رسول الله ﷺ: أنا نازل»

فرششنا عليها الماء، فقام رسول الله ﷺ وبطنه معصوبة بحجر، فأخذ المعول، أو المسحاة، ثم سمى ثلاثاً، ثم ضرب، فعادت كثيباً أهيل[3].

فلما رأيت ذلك من رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، ائذن لي. فأذن لي. فجئت امرأتي فقلت: ثكلتك أمك، إني قد رأيت من رسول الله ﷺ شيئاً لا صبر عليه «رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً»[4] فما عندك؟

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٠١ والبيهقي ٣-٤٢٢ حدثنا وكيع، حدثنا عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه عن جابر. وأيمن وابنه ثقتان التقريب ٣٦٦ ووكيع إمام معروف.

(٢) أرض صلبة.. صخرية.

(٣) رملاً متناثراً.

(٤) جوعاً شديداً.

قالت: عندي صاع من شعير، وعناق[١].

فطحنّا الشعير، وذبحنا العناق، وأصلحناها، وجعلناها في البرمة[٢]، وعجنت الشعير، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فلبثت ساعة، ثم استأذنته الثانية، فأذن لي، فجئت، فإذا العجين قد أمكن، فأمرتها بالخبز، وجعلت القدر على الأثافي[٣]، «ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه»

ثم جئت رسول الله ﷺ، فساررته، فقلت: إن عندنا طعيماً[٤] لنا، فإن رأيت أن تقوم معي أنت ورجل أو رجلان معك فعلت.

فقال ﷺ: ما هو، وكم هو؟ قلت: صاع من شعير وعناق.

قال: ارجع إلى أهلك فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا تخرج الخبز من التنور حتى آتي. ثم قال للناس: قوموا إلى بيت جابر، «فقام المهاجرون والأنصار».

قال جابر: فاستحييت حياءً حتى لا يعلمه إلاّ الله. فقلت لامرأتي: «قد افتضحت ثكلتك أمك، وقد جاءك رسول الله ﷺ وأصحابه أجمعون».

«فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قُلت».

فقالت: أكان رسول الله ﷺ سألك عن الطعام؟ قلت: نعم.

قالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرته بما كان عندك.

فذهب عني بعض ما كنت أجد. قلت: لقد صدقتِ.

فجاء رسول الله ﷺ، فدخل، ثم قال لأصحابه: لا تضاغطوا، ثم برَّك على التنور وعلى البرمة[٥]. فجعلنا نأخذ من التنور الخبز، ونأخذ اللحم من البرمة، فنثرد[٦]، ونغرف، ونقرّب إليهم.

---

(١) أنثى الماعز لم تبلغ الحول.
(٢) القدر.
(٣) الأحجار التي يوضع عليها القدر عند الطبخ.
(٤) طعام قليل.
(٥) أي دعا بالبركة على التنور والبرمة أي القدر.
(٦) فته ثم بله بمرق.

وقال رسول الله ﷺ: ليجلس على الصحفة[1] سبعة أو ثمانية.

فلمّا أكلوا كشفنا التنور والبرمة، فإذا هما قد عادا إلى أملأ ما كانا، فنثرد، ونغرف، ونقرّب إليهم، فلم نزل نفعل ذلك كلّما فتحنا التنور، وكشفنا عن البرمة، وجدناها أملأ ما كانا، حتى شبع المسلمون منها «وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو» وبقيت طائفة من الطعام، فقال لنا رسول الله ﷺ: إن الناس قد أصابتهم مخمصة، فكلوا، وأطعموا، فلم نزل يومنا نأكل ونطعم)[2].

معجزة أخرى

تتحدّث عنها طفلة أنصارية.. نادتها أمها، ولما لبّت نداءها وضعت في طرف ثوبها تمرات، ثم أمرتها بالتوجه نحو أبيها وخالها وهما يحفران مع رفاقهما الخندق.

طوت تلك الطفلة البريئة تمراتها بطرف ثوبها، ثم طوت الأرض، لكن رجلاً صادفها في طريقها فأخذ منها التمر، فأخذنا منها هذه القصة المعجزة..

إنها(ابنة بشير بن سعد، قالت: بعثتني أمي بتمر في طرف ثوبي إلى أبي وخالي وهم يحفرون الخندق، فمررت على رسول الله ﷺ، فناداني، فأتيته، فأخذ التمر مني في كفّيه، وبسط ثوباً فنثره عليه، فتساقط في جوانبه، ثم أمر بأهل الخندق فاجتمعوا، وأكلوا منه، حتى صدروا عنه)[3] وقد شبعوا من التمر وهم أكثر من ألف رجل.. شبعوا من ملء الكفّين من التمر.

معجزة تزيد الطاقة والإيمان.. قدّمها ﷺ لمن يحفرون الخندق. تلك المعجزات تفتح أبواباً جديدة من الفرح والفرج للمؤمنين، وكأن ذلك الخندق ممر إلى الدنيا

---

(١) الإناء أو الطبق الذي يوضع فيه الطعام.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٢).

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق والبيهقي ٣-٤٢٧ من طرق عنه: حدثنا سعيد بن ميناء، عن ابنة بشير بن سعد: وسعيد بن ميناء الحجازي مولى البختري. أبو الوليد تابعي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٣٤١ وابنة بشير صحابية صغيرة.

بأسرها، وكأن المعاناة في حفره معاناة ولادة النور وانتشاره، أما بالنسبة للمنافقين، فكان لبعضهم هداية، وللعنيد المكابر طوقاً يخنقهم.. هم كالكلاب ينتظرون من يمسك بطرف السلسلة ليتبعوه وهم يهزون أذيالهم.. منقادين أذلاّء.. كانت المعجزات تغيظهم، وتدفعهم إلى مزيد من العناد والمكابرة، لكن أشدّ ما أغاظهم عند حفر الخندق.. هو تلك المعجزة التـي لهج بها ﷺ، ليس لمن يحفرون الخندق فقط، بـل لأبنائهم ولمن بعد أبنائهم. ففي الوقت الذي يرتجف فيه المنافقون من الهلع.. كان ﷺ يستبشر ويبشّر بـ:

فتح فارس والروم واليمن

يعـد أصحابه بذلك وهو يضع الحجر على بطنه من الجوع.. يقول ذلك لأصحابه وهـو يحفر خندقاً يدافع به عن دولته الصغيرة، التـي لا تتجاوز حدودها حدود هذا الخندق.. يبشّـرهم وهـم جياع بكنوز فارس والروم، وقصـور اليمن، لأنه نبي، ولأنها حقيقة قادمة كشمس الغد.

يقول أحد المشاركين في الخندق: (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول. فشكونا ذلك إلى النبي ﷺ..؟

فلما رآها أخذ المعول وقال: بسـم الله. وضرب ضربة، فكسـر ثلثها، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله.

ثـم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخـر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض.

ثم ضرب الثالثة، فقال: بسـم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة)[1].

---

(١) حديث حسـن وسنده ضعيف رواه أحمد ٤-٣٠٣ والبيهقي ٣-٤٢١ وسبب ضعفه هو ميمون الزاهري لكن الحديث حسن بما بعده وبأحاديث أخرى.

وصحابي آخر لم يحضر الحادثة، لكنه سمع من صحابي آخر فيقول: (إذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها، فقال نبيّ الله ﷺ: دعوني فأكون أول من ضربها، فقال: بسم اللـه، فضربها، فوقعت فلقة ثلثها، فقال: الله أكبر قصور الروم وربّ الكعبة. ثم ضرب أخرى بأخرى، فوقعت فلقة، فقال: الله أكبر قصور فارس، وربّ الكعبة. فقال عندها المنافقون: نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم!!)[1].

هؤلاء المنافقون هم الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2]

أمر هـؤلاء المنافقين محير ومزعج..!! لا تدري ما الذي يريدونه، ولا ما مبدؤهم ولا هدفهم، ولا تستطيع تمييزهم بسهولة..؟

الكفر مرض والنفاق أشـد منه، وجسـد الدولة الإسـلامية يسـتطيع الاحتياط والوقاية من مرض الكفر، لكن عندما يتسـلّل فيـروس النفاق إليه.. تبدأ رحلة طويلة ومريرة من العلاج، وتناول الأدوية والعقاقير للقضاء عليه.

وفي غزوة الخندق.. كانت الدولة الإسـلامية تحتاط بالخندق من الوثنيين، لكن مـن الصعب حفر خندق يحول دون المنافقين المتظاهرين بالإيمان، لا سـيما في هذا الوقـت الذي انتهى ﷺ وأصحابه مـن حفر الخندق، ووصل فيه أحزاب الأصنام إلى مشـارف المدينة، فعسـكروا أمام الخندق، وبدأ حصار قاسٍ وشـديد على المدينة.. عندها بدأ المنافقون يظهرون كالبثور الكريهة المتقيّحة على جسـد المدينة.. في هذه الظروف الحرجة ظهر نفاقهم وكفرهم وحقدهم على النبي ﷺ والصحابة، ومع ذلك كلّه تمتّع ﷺ وأصحابه بأكبر قدر من ضبط النفس وعدم التهوّر بإيقاع أي عقوبة على أولئك المنافقين، الذين فاحـت خيانتهم من خلال كلماتهم ونظراتهم، وحركاتهم التي كانت تفتقد إلى أقلّ معاني الرجولة والنخوة. ازداد الوضع حرجاً، فقرّر ﷺ

---

(١) حسـن بما قبلـه رواه الطبراني رجاله ثقـات لكنني لم أعثر على ترجمة لنعيم بن سـعيد فيما لدي من مراجع. ثم وجدت أن هناك خطأ في اسمه حيث قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ - ١٩٠: رجاله رجال الصحيـح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبـري وهما ثقتان. وهو كما قال، لكني لم أتأكد من توثيق نعيم.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٢.

وضع النساء والأطفال داخل أحد الحصون

وهو حصن لبني حارثة.. دخلته عائشة أثناء غزوة الخندق وتحدّثت عنه، فقالت: (إنها كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز[1] حصون المدينة، وكانت أم سـعد بن معاذ معهـا في الحصن)[2]، وعندما بدأت المناوشـات بين جيش المؤمنين وجيوش الوثنيين كان هناك طفلان يقومان بحركات كلّها فضول وبراءة.

أسـماء بنت أبي بكر وأمّ سـلمة رضي الله عنهما كانتا داخل الحصن، وكان معهما طفلان كالورد: عبد الله بن الزبير ابن أسماء، وعمر ابن أبي سلمة ابن هند «أم سلمة».

وفي غفلة من أميهما صعدا إلى أحد الأسطح لمشاهدة ما يحدث خارج الحصن.. كانا قصيرين، لكن قصر قامتيهما لم يمنعهما من الإصرار على المشـاهدة، فقرّرا أن يتناوبا المشـاهدة.. ينحني أحدهما فيصعد الآخر على ظهره، ثم تكون نوبة الآخر في الانحناء، وهكذا..

حركات مفعمة بالبـراءة والإثارة والفضول الجميل.. ها هو عبد الله بن الزبير.. سنسأله عمّا جرى..؟

إنـه يقول: (جعلت يوم الخندق مع النسـاء والصبيان فـي الأطم[3]، يعني حصناً، ومعي عمر بن أبي سلمة، فجعل يطأطئ[4] لي، فأصعد على ظهره، فأنظر إليهم كيف يقتتلون وأطأطئ له، فيصعد فوق ظهري، فينظر)[5].

لأنه لا يسـتطيع سـوى النظر فقط، ولا يسمح له بالمشاركة رغم حماس الأطفال وحبّهم لتقليد الكبار. بقي الأطفال كلّهم مع النساء، إلاّ من بلغ الخامسة عشر مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي كان يتحرّق للقتال يوم أُحُد، لكن النبي ﷺ ردّه، وها هو اليوم خارج حصن بني حارثة.

---

(١) أمنع.

(٢) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٠) حدثنا عبد الله بن سـهل عن عائشة أنها كانـت.. وعبد الله بن سـهل تابعي ثقة من رجال الشـيخين –التقريب (٦٦٩) واسـمه عبد الله بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري. قال البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة انظر: التهذيب (١٢/٢١٥) ويكنى بـ أبي ليلى.

(٣) الحصن.

(٤) ينحني.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) والبيهقي (٣/٤٣٩) واللفظ له.

ماذا قال لك النبي ﷺ يا ابن عمر..؟

يقول رضي الله عنه: (إن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه)[1]، وسمح له بالقتال والمشاركة بالمعركة، أمّا من كان دون هذه السن فقد اكتفى بالمشاهدة، حيث كانت الساحة تموج بالترقّب والتوتّر.. كان المؤمنون فيها خلف سواترهم يرقبون أي اقتحام لهذا الخندق ليضربوا ضربتهم، أمّا جيوش الأصنام فقد جنّ جنونها مما ترى أمامها من ذكاء عسكري نادر.. وقيادة لا مثيل لها.

حيّرها هذا الخندق.. هذا الإبداع العسكري الذي لم تعرفه العرب من قبل، ولم تستخدمه!!

إن اقتحامه ضرب من الجنون أو الانتحار، أما الغزو عن طريق الجهات الأخرى، فيعني التمزق والهزيمة، فهل ستكتفي قريش ومن معها من الوثنيين بالحصار والقتال عن بعد.. عن طريق التراشق بالنبل والرماية بالأسهم..؟ ربما، فلن يقدر على اقتحام هذا الخندق إلاّ شجاع أو منتحر.

ها هو الشجاع الذي سيقتحم الخندق.. ها هو وقد استطاع عبوره باحثاً عن مبارز.. إنه عمرو بن عبد ودّ:

فارس يبحث عن مبارز

وقف أمام جيش المؤمنين متحدّياً.. يفيض شجاعة وحماساً، فانبرى له حتف مخيف كحمزة.. خرج له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فبارزه فجعله تاريخاً، وسقط عمرو بن عبد ود وسقط تحدّيه.

يقول أحد الصحابة: (قتل من بني عامر بن لؤي: عمرو بن عبد ود، قتله عليّ بن أبي طالب مبارزة)[2].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

(٢) هذا الجزء من الحديث حسن وهو ما صح من قصة علي مع عمرو بن عبد ود.. رواه الحاكم ٣-٣٢ وسنده ضعيف لأن الحكم لم يسمع هذا الحديث من مقسم لكن هذا الجزء من الحديث له شاهدان مرسلان.. عند البيهقي (٣/٤٣٥) عن عروة، وعن محمد ابن كعب القرظي فقتل علي لعمرو ثابت بهذه الأسانيد، أما تفاصيل المبارزة وما جرى من حديث فلم أجد سوى مراسيل وهي لا تتقوى ببعضها لاحتمال توحد المصدر.

انتظر الوثنيون خروجه من الخندق وسيفه يقطر بأرواح المؤمنين، لكنه لم يخرج.. لم يغادر مكانه، فليس هناك مشرك يصمد أمام سيف عليّ.

أحسّ المشـــركون بأنه لا طريق تؤدي إلى رقــاب المؤمنين، ولا دروب إلى المدينة إلاّ طريقين لا ثالث لهما: إمّا المبارزة، وهذا الأمر بعيد جداً، وإمّا الرماية بالســهام، وهذا هو الأمـــر الوحيد الذي يقدرون عليه، لكنه لن يجدي نفعاً إلاّ إذا تحركت قوات اليهود الخونة وخرجت من حصن بني قريظة، وبقدر ما كان الخندق يبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين.. كان حصن بني قريظة يثير الخوف والقلق في أوساط المؤمنين، لذلك قام ﷺ بتغطية كافة الاحتمالات لأن المعركة والخيانة قد تشتعلان ليلاً، فماذا فعل ﷺ؟

كلمة السر

كلمة يعرف بها المؤمنون بعضهم بعضاً متى ما دهموا ليلاً من قبل الوثنيين أو اليهود.

قال ﷺ لأصحابه: (إن بيّتكم العدو، فقولوا: «حم، لا ينصرون»)[1]

كان ﷺ يقرأ ما حوله تماماً.. يقرأ تفكير الخيانة جيداً، ولذلك طلب فارساً من أصحابه.. يتطوّع للذهاب حيث حصن بني قريظة، كي يقدم تقريراً عن آخر تحرّكاتهم، وهل بدأوا تنفيذ مؤامرتهم مع قريش وغطفان..؟ هل بدأوا التحرك العسكري للضرب من الخلف..؟

هبّ الزبير ملبياً نداء النبي ﷺ.. حمل روحه وســيفه وانطلق كالســهم نحو بني قريظة، وفي طريقه مرّ من تحت ســور حصن بني حارثة، فشــاهده ابنه الصغير عبد الله الذي كان يطل من الحصن، بالتناوب مع صديقه الصغير عمر بن أبي سلمة.

يقول عبد الله بن الزبير: (كنت أنا وعمر بن أبي سلمة في الأطم الذي فيه نساء رسول الله ﷺ، أطم حسان، فكان يرفعني وأرفعه، فإذا رفعني عرفت أبي حين يمر إلى بني قريظة «على فرسه»، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق)[2].

---

(١) ســنده صحيح رواه أحمد ٤-٦٥ و٢٨٩ الترمذي (١٦٨٢) وغيرهما من طرق عديدة عن أبي إســحاق عن المهلب بن أبي صفرة عن أحد الصحابة. والمهلب من ثقات الأمراء وقد ســمع منه أبو إســحاق وقال عنه: ما رأيت أميراً افضل منه -التقريب ٥٤٩.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (١/١٦٤) واللفظ له والزوائد للبخاري.

أما والده الزبير فيقول: (كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه، فقال: فداك أبي وأمي)[1] فقد أدّى عملاً بطولياً، وأخبر النبي ﷺ بأن بني قريظة قد نقضوا العهد وما زالوا على خيانتهم.. تأزّم الوضع، وبدأ المنافقون بالتململ، فقد ضاقوا بمجريات الحرب، وبدأت الأزمات تكشف عن حقيقتهم، وتحرق تلك القشرة التي يختبئ كفرهم تحتها. فضحتهم الحرب، وفضحهم الله بآيات كالسيوف على رقابهم.. بدأوا يقدمون التماساتهم وأعذارهم بعدم القدرة على الصمود، نظراً للخطر الذي قد يحدث لأهلهم وبيوتهم، بعد أن رأوا السهام تمطر على جيش المؤمنين.

انسحب المنافقون الواحد تلو الآخر.. هرباً من المعركة.. كان منظرهم يجلب الإحباط والغضب لدى المؤمنين، لولا ثقتهم بنصر الله ووعده، واشتدّ الأمر على المؤمنين، وضاقت بهم السُّبل في أيام تعصف بالجوع والبرد والموت.. أعداء في الخارج أعلى المدينة، ويهود أسفلها، ومنافقون ينسحبون كالجرذان بين بيوتها، ويطالبون المؤمنين بالاستسلام والتسليم للوثنيين.

يقول سبحانه عن تلك الأيام العصيبة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟[2] وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا[3] ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا[4] ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠).
(٢) مازالوا يسمون المدينة يثرب، ويطالبون المؤمنين بالرجوع لمنازلهم لأنهم مهزومون لا محالة.
(٣) عذرهم في الانسحاب من المعركة أنهم يخافون على بيوتهم من السرقة والأعداء.
(٤) أي لو دخل الأعداء المدينة ثم طلبوا من المنافقين إعلان الكفر لأعلنوه حالاً.

يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ[1] وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ[2] ﴾[3].

أولئك هم المنافقون، وتلك هي سفالتهم وانحطاطهم.. مات فيهم كل شيء.. حتى بقايا صفات الخير التي كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بها.. حتى تلك.. ماتت داخل نفوسهم.. خنقها عفن النفاق وأجهز عليها، وها هو العفن يتطاير في أجواء المدينة.. يحاول التسلّل إلى عزائم المؤمنين ليخنقها، ليبعثر في جنباتها الإحباط. إنهم الآن بين نسائهم يأكلون ويشربون، ويبخلون بطعامهم على أولئك الصامدين أمام الخندق، وليتهم اكتفوا بذلك. إنهم يطالبون أولئك الفرسان بالانسحاب والاستسلام، لأن المعركة في نظرهم محسومة، وأبو سفيان سيحتل المدينة غداً إن لم يقم بذلك اليوم..

أولئك المنافقون نسوا كل شيء.. نسوا أن المدينة مدينتهم.. نسوا عهدهم مع الله ورسوله.. نسوا بيعتهم لله ورسوله.. نسوا وعدهم بالصمود معه ﷺ، وأن لا يفرّوا من المعركة مهما كانت النتائج.

هذا ما بدا للجميع من هؤلاء الأنذال، أمّا ما خفي فإن الله كشفه بهذه الآيات التي غرفت ما بداخلهم، وأخرجته وكشفته للجميع.. لقد شرَّحتهم الآيات، وبيَّنت للناس أيّ سرطان يتمدّد في المدينة.. فضحهم الله وبيَّن أنهم جاهزون لإعلان الكفر حالما يرون جيوشه تقتحم الخندق والمدينة، لكنهم لا يستطيعون ذلك الآن، فالنبي ﷺ لا يزال هو القائد، وخوفهم منه، وخوفهم من الموت واضح في أعينهم التي تدور كما تدور أعين الذي يعاني سكرات الموت وشدّة النزع، ويشتد دوران أعينهم أكثر ما يشتد الآن، فالخوف في كل مكان، والجوع في كل مكان، والبرد في كل مكان.. و:

(١) الذين يعيقون غيرهم من الجهاد والدفاع عن المدينة.. ويطالبونهم بالبقاء معهم.

(٢) يشحون على المؤمنين بالمساعدة والجهاد وحتى بالدعم المعنوي بالسنة لا خير فيهم.

(٣) سورة الأحزاب: الآيات ١٠-١٩.

القتال يشتد

و(اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر بني قريظة، فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم)[1] وغدرهم الذي لم يتزحزح حتى الآن.

كان ﷺ يخشى على المدينة منهم، فلديهم من العتاد والعدّة والحقد الشيء المخيف، ولذلك بعث الزبير مرّة ثانية حتى لا يفاجأ بجيشهم فتكون القاضية، واستأنف الوثنيون رشقهم بالنبال.. كانت نبالاً طائشة وغير طائشة، وهذا ما أثار خوف عائشة..

عائشة تخاف على سعد بن معاذ

وتقول: (كان رسـول الله ﷺ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق، رفعوا الذراري والنساء في الحصون مخافة العدو عليهم. قالت عائشة: فمرّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة[2]، وقد خرجت منها ذراعه، في يده حربته توقد، وهو يقول:

لا بـأس بالمـوت إذا حـان الأجـل   لبـث قليلاً فيشـهد الهيجـا حمل

فقالت أم سعد: الحق يا بني، فقد والله أخّرت.

فقالت عائشـة: يا أم سـعد، لوددت أن درع سعد كانت أسـبغ مما هي، فخافت عليه)[3].

كان خوف عائشة في محله، وكان جميل سعد وتفانيه في الدفاع عن براءة عائشة مثمناً عندها، ولن تتساه له. فـ:

هل أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه

أجل.. لقد أصابه سهم في ذراعه.. رماه مشرك يدعى (حبان بن العرقة) أصابه وهو يرتجز بهذه الأبيات المليئة بالحماس والموت، والتي ربما قالها رجل سابق اسمه: حمل.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (٣/٣١٤) واللفظ له.

(٢) ربما يعني أنها كانت تضم صدره.

(٣) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق، ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٠) حدثنا عبد الله بن سـهل، عن عائشـة: أنها كانت.. وعبد الله بن سهل هو أبو ليلى المدني، تابعي ثقة من رجال البخاري ومسلم، وقد قال الإمام البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة - التهذيب (١٢/٢١٥) والتقريب (٦٦٩).

سعد بن معاذ.. هذا الفارس العظيم، والمؤمن النقي، الذي لا يخشى في الله أحداً، والذي دافع عن عرض النبي ﷺ أثناء إشاعة الإفك.. هذا الصحابي الجليل أصيب بسهم في ذراعه، وقد نزف دماً كثيراً وحالته خطيرة، والوضع أخطر.

اعتنى النبي ﷺ بهذا الرجل الكريم، فأمر بحمله وعلاجه، وصنع قبّة له داخل المسجد النبوي كي يزوره أهله وأصحابه، وليكون تحت سمع النبي ﷺ وبصره. لكن سعداً كان جمالاً.. كان فداءً حتى وهو ينزف.. كان محملاً بالأحلام والانتصارات والأماني.

أمنية سعد بن معاذ قبل أن يموت

تقول عائشة: (أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة - وهو حبان بن قيس من بني معيص ابن عامر بن لؤي، رماه في الأكحل[1]، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب)[2].

وتقول رضي الله عنها: (خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي -يعني حس الأرض- فالتفتّ فإذا سعد بن معاذ ومع ابن أخيه الحارث بن أوس، يحمل مجنة، فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد، قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوّف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم وهو يرتجز ويقول:

ما أحسن الموت إذا حان الأجل   ليت قليلاً يدرك الهيجا حمل

«قالت: فقمت، فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سبغة له، يعني مغفراً، فقال عمر: ما جاء بك.. لعمري والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء، أو يكون تحوز..؟

قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقتّ لي ساعتئذٍ فدخلت فيها، فرفع الرجل السبغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيد الله، فقال: يا عمر.. ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوّز أو الفرار إلاّ إلى الله عزّ وجلّ».

---

(١) عرق في الذراع.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢).

قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله، فقطعه فدعا الله عزّ وجلّ سعد، فقال: اللّهـمّ لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، فرقى كلمه)[1]

كان سعد يعاني من جرحه، ومازال يعاني حتى بعد توقف النزيف، لكن جرحه الآخر الذي لا يندمل ولا يبرأ هو ذلك الجرح الذي فتحه يهود بني قريظة بخيانتهم لله ورسوله، ونقضهم العهد وهم الذين يعيشون في ظل دولة الإسلام آمنين مطمئنين.

هذه هي الحرب الثانية، والخيانة الثانية التي يطعنون بها رسول الله ﷺ وأصحابه، لكنها الأشدّ، لدرجة أنهم جعلوا النبي ﷺ في حالة من القلق جعلته يبحث عن رجل يتوجّه نحو حصن بني قريظة ليرصد آخر تحرّكاتهم. وهذه هي المرة الثالثة التي يفعلها ﷺ، ومرة ثالثة يُشرق الزبير، فيكسوه النبي ﷺ لقباً بعد عودته.. لقباً يتميّز به بين أصحابه ﷺ.

لقب الزبير

يذكره جابر، فيقول: (اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة؟ فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم، ثم اشتدّ الأمر أيضاً «ثم ندب الناس، فانتدب الزبير.

ثم ندب الناس، فانتدب الزبير»، فذكر ثلاث مرات، قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي حوارياً، وإن الزبير حواريي)[2]

أي صاحبي النقي أو وزيري، والزبير يستحق ذلك بعد جهده وجهاده.. بعد أن فدى النبي ﷺ وأصحابه بروحه، ففداه ﷺ بأمّه وأبيه، وتجدّد التماهي بين القائد وجنده في أشدّ لحظات كتابة التاريخ والبطولات، وقدم الزبير للمرّة الثالثة تقريراً

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة فسندها ضعيف لأنها من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عند أحمد ٦-١٤٢ وعمرو يحتاج إلى متابعة لقول الحافظ: مقبول أي عند المتابعة، ويشهد لبقية الحديث ما عند البخاري وابن إسحاق وغيرهما.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٤٧) وأحمد (٣/٣١٤) واللفظ له.

يؤكد تورط يهود بني قريظة في المعركة والحصار، لكنهم أجبن من أن ينزلوا إلى ساحة العراك، لذلك فضّلوا الانتظار، فقد تنجح عملية اقتحام المدينة. عندها يسهل الانقضاض على محمد ﷺ وعلى من مع محمد. لكن الحصار طال، والانتظار طال، واليهود تعلم أن هذا المحاصر نبي، وهناك داخل السور رجال يؤكّدون لمن حولهم من اليهود أن هذا هو النبي المنتظر.

كان هناك أكثر من ثلاثة رجال يحاولون إقناع من حولهم أن محمداً ﷺ نبيّ، لكن يهود تعاند، واليهود لها تاريخ دموي مع أنبياء سابقين من اليهود أنفسهم، حيث قاموا باغتيال عددٍ منهم، فما المانع أن يكون محمد ﷺ ضمن قائمة من حكم عليهم بالإعدام لدى أحبارهم..؟ ولم يقتصر خبثهم على هذا التفكير، فاحتمال انتصار المسلمين وارد، والمعجزات قد تأتي في أي وقت، وفي أي مكان، لذلك قامت اليهود بمبادرة تستدرج فيها النبي ﷺ.

قامت بدور العميل المزدوج، حتى تأمن جانب المسلمين في حالة انتصارهم، وإن كان انتصارهم بعيداً.. بعيداً في ظل هذا الحصار والجوع القاتلين، لكن اليهود تخطّط لأسوأ الاحتمالات، فماذا فعلت؟

خيانة ثالثة لليهود

والخيانة تشكل نسبة لا بأس بها من دمائهم وعروقهم. فاجتمع أحبارهم وزعماؤهم، وقرّروا بعث رسول إلى النبي ﷺ.. يظهرون فيه أنهم معه في هذه المعركة، وأنهم جاهزون لأي إجراء يتّخذ ضدّ قريش وغطفان، وقدّموا الدليل على ما يدّعون.

تقول عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ قال: (إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجلاً رهناً من قريش وغطفان من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم)[1]

قالوا ذلك وكأن النبي ﷺ متعطّش للدماء.. أيّ دماء.. وكأنه يستبيح أي شيء من أجل الوصول إلى هدفه.. كانوا يريدون إشراك النبي ﷺ والمؤمنين في خستهم تلك.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٤٤٧: حدثنا يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. يزيد مولى آل الزبير تابعي ثقة، التقريب ٦٠١، وشيخه، إمام ثقة.

هل هذا الفعـل الحقير، وهذه النفوس المنحطة يمكن أن تكون لقوم يدينون بدين سـماوي، ويزعمون أن لديهم كتاباً منزلاً من عند اللـه بذلك..؟ إن الخيانة هي أهون شيء في قائمة ألقاب اليهود وصفاتهم.

أدرك ﷺ أن هؤلاء القوم لن يتورعوا عن فعل أي شيء، وهدم أي مبدأ، وتجاوز أي مقدس، وانتهاك أي محرم من أجل أحقادهم، لذلك قرر أن يسقيهم من الكأس الذي سـقوه منه.. قرر ﷺ إطلاع قريش وغطفان على غـدر قريظة بهم، وذلك عن طريق رجل يشدك ويثيرك عندما يتكلم، ويؤثر في سامعيه.

تقول عائشة رضي الله عنها: (كان نعيم رجلاً نموماً، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجالاً رهناً من قريش وغطفان، من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم؟ فخرج من عند رسول الله ﷺ فأتاهم، فأخبرهم بذلك. فلما ولى نعيم، قال رسول الله ﷺ: إنما الحرب خدعة)[1]

وقريش تعلم أن النبي ﷺ لا يكذب، وتحقق للنبي ﷺ ما أراد فتم عزل بني قريظة عـن قريش وغطفان، وانكسـر أحد أضلاع مثلث الأحـزاب، فتزعزعت ثقة الأحزاب بأحلامهم وجيشهم، وأصبحت الهزيمة عندهم قابلة للاحتمال، وبدأت بوادر استجابة الله لدعاء سعد بن معاذ الذي حاول ﷺ علاجه.

يقـول جابر بن عبـد الله: (رمي يوم الأحزاب سـعد بن معـاذ، فقطعوا أكحله، فحسـمه رسـول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده، فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فنزفه، فلما رأى ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفسـي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)[2].

استجاب الله لسعد بن معاذ، فأي مصير ينتظر بني قريظة..؟ استجاب الله دعاء سيد الأنصار، فهل يستجيب الله لـ:

---

(١) سند صحيح وهو الحديث السابق.

(٢) سـنده صحيح رواه أحمـد ٣-٣٥٠ حدثنا حجين ويونس قالا: حدثنا الليث بن سـعد عن أبي الزبير عن جابر. ظاهر هذا السـند الضعف لأن أبا الزبير مدلس وقد عنعن، لكن ذلك لا يضر في هذه الحالة لأن الراوي عن أبي الزبير هو الليث بن سـعد وقد أعلم له أبو الزبير ما سـمعه من جابر فرواه عنه. التهذيب ٩-٤٤٢ وحجين ثقة. التقريب - ١٥٤.

الذي حاصره الكفر من كل مكان، وطال عليه الحصار، وسيطر الخوف على كل شبر في المدينة، وصار الطفل والمرأة والرجل يخشون على أنفسهم إذا خرجوا لقضاء حاجة..اشتد البرد والشتاء والجوع، وبلغت الحال كما وصف الله في القرآن: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾[1]

هـذا هو الوضع الآن، وهذه هـي المدينة كالطفل الخائف.. طيبة خائفة، والرعب يطل عليها من رؤوس الجبال، وشقوق الأبواب، ومن بين النخيل.. طيبة قد احتل معظمها والمشركون يستعدون الآن لشن هجوم شرس على باقيها، للقضاء على هذا الملل والانتظار.. للقضاء على محمد ﷺ وأصحابه. وبدأ الهجوم في ظهيرة أحد الأيام الباردة، فتصدى له المسلمون، وكان ﷺ يمثل جيشاً على إحدى مداخل الخندق.. يحميه ويذود عنه، ويفتك بمن يقتحمه، حتى صدهم عن ذلك الثغر، وقد بقي ﷺ على ذلك المدخل من بعد صلاة الظهر إلى أن توارت الشمس وغابت.

يقول علي رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ كان يوم الأحزاب قاعداً على فرضة من فرض الخندق، فقال: شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً)[2].

وها هو أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة مشغولون عن الصلاة بقريش ومن معها. لقد ذهب وقت صلاة العصر، ودخل المغرب وهم يحاربون..

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ١٠ - ١٤.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (الدليل لمن قال.. كتاب المساجد) والبيهقي (٤٤٣/٣) واللفظ له.

ها هو عمر قد استشـــاط غضباً على أولئك الوثنيين (عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشـــمس، فجعل يســـب كفار قريش، قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب.

قال النبي ﷺ: والله ما صليتها.

فقمنـــا إلـــى بطحان، فتوضأ للصـــلاة وتوضأنا لها، فصلى العصـــر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب)[1] في ذلك الوادي المسمى (بطحان) وحول الخندق كان الليل إذا أقبل.. أقبل مع الليل برد شديد، وعندما تشرق الشمس تشرق معها المنايا.

في أحد الأيام أشـــرقت الشـــمس والمعركة، وحميت المعركة وتأجـــج لهيبها، ولم يستطع النبي ﷺ والصحابة الصلاة من شدة القتال، فخرج وقت صلاة الظهر والعصر والمغرب، ولم تهدأ المعركة إلا بعد دخول صلاة العشاء.

يقول أبو ســـعيد الخدري: (حبســـنا يوم الخندق عن الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، حتى كفينا ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ فقام رســـول اللـــه ﷺ، فأمر بلالاً فأقام، ثم صلى الظهر، كمـــا كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام فصلـــى العصر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام المغرب، فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام العشاء، فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك)[2]

هكـــذا بلغ الحصار بالنبـــي ﷺ وأصحابه.. لـــم يجدوا حتى دقائـــق قليلة لأداء الصلوات في أوقاتها.

ماذا يفعل ﷺ وسط هذا الخوف والجوع..؟ وسط هذا الزلزال..؟ لم يجد وسيلة مباحة إلا استخدمها، ولم يبق أمامه وأمام أصحابه سوى الدعاء.. (دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٦) ومسلم -كتاب المساجد.

(٢) ســـنده صحيح رواه أحمد ٣ – ٢٥ وغيرهم من طرق عن ابن أبي ذئب ثنا ســـعيد بن أبي ســـعيد عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه. فسعيد المقبري تابعي ثقة من رجال الشيخين ٢٣٦ وشيخه ثقة ٣٤١ وابن أبي ذئب واسمه محمد بن عبد الرحمن ثقة ثبت فاضل.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣- ١٣٦٢.

دعا دعاء المكروب.. المحتاج، وما كان الله ليذر نبيه وعباده الصالحين في همومهم، وقد بذلوا كل جهدهم وطاقتهم له، ومن أجل رضاه سبحانه.

استجاب الله دعاء نبيه

ها هي طلائع الهزيمة تقترب نحو الأحزاب دون أن يشعروا.. بعث الله جيشاً لا يقهر نحو أعدائه.. بعث الله الريح والبرد وجنوداً لا يرونها.. وكان بالنسبة للمؤمنين امتحاناً وتمحيصاً وتكفيراً، وقد أخرج البرد بقايا المنافقين من صمتهم، فعادوا يعتذرون من النبي ﷺ للعودة إلى منازلهم.

فأذن لهم، وبقي هو وأصحابه متجمدين من شدة البرد لا يقوون على الحركة ولا القتال، وهاجت الريح في معسكر الوثنيين فأطفأت نارهم وأنوارهم، واقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وملأت أنوفهم وعيونهم وأفواههم بالتراب والهزيمة. أما البرد فقد أعجزهم عن الحركة، وتحول معسكرهم إلى ساحة كبيرة من النفايات والفوضى والرعب.. البرد والجوع والخوف ينتقل من المدينة.. يعبر الخندق كوحش لا يطاق، ليتحول الأحزاب إلى أكوام.. إلى ركام من الفشل، فيتفرق شملهم، وتنهار أحلامهم أمام أعينهم.. تتطاير مع الريح والغبار.. فماذا سيفعلون..؟ وماذا فعل ﷺ مع أصحابه الذين مستهم الريح ومسهم البرد والجوع..؟

قرر النبي ﷺ السماح لأصحابه بالعودة إلى بيوتهم، فقد جاء نصر الله بريح وجنود لا يراها البشر، فعاد من أحب العودة منهم، وبقي من بقي، فقد كفى الله المؤمنين القتال.

وفي أشد ساعات الريح والبرد.. كان ﷺ يستدفئ بمناجاة حبيبه سبحانه.. كان يتمتع بصلاته، ويريح نفسه بها.

قيل لذلك الشاب الذي يشارك لأول مرة.. قيل لعبد الله بن عمر بن الخطاب: (أين كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الأحزاب؟ قال: كان يصلي في بطن الشعب، عند خربة هناك، ولقد أذن رسول الله ﷺ في الانصراف للناس، ثم أمرني أن أدعوهم،

فدعوتهم)[1] لكنهم لم يعودوا، ولم يستطيعوا العودة من شدة البرد، وكان لعدم عودتهم قصة يحكيها ذلك الشاب أيضاً، فقد أرسله خاله الصوام القوام عثمان بن مظعون، ليحضر بعض الطعام ولحاف، عله يذهب ما به وبأصحابه من ريح وجوع وبرد.

يقول: (أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة فقال: ائتنا بطعام ولحاف. فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال: من لقيت من أصحابي فمرهم يرجعوا. فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ، فما يلوي أحد منهم عنقه. وكان معي ترس لي فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأنفذها إلى الأرض)[2]

وسط هذه العاصفة الباردة كانت الريح معركة أخرى.. أشغلت كل إنسان بنفسه، فصار لا يدري ما حوله ولا من حوله، وخلال هذا الأجواء المرعبة المخيفة كان ﷺ يناجي ربه، الذي أنزل نصره وأرسل ريحه.. كان الجميع مشغولين بأنفسهم، ونبي الله ﷺ مشغول بأمته.. يناجي الجبار ويدعوه لنصرتها، لكن ماذا عن الجهة الأخرى من الخندق..؟ ماذا عن الوثنيين وماذا فعلت بهم الريح..؟

الريح في معسكر الوثنيين

النبي ﷺ يتساءل أيضاً عن أحوالهم، فقد هتف ﷺ بالقلة المحيطين به، ونادى بالتطوع لاكتشاف ما حل بالمشركين، لكنه لم يجد مجيباً. ثم هتف فلم يجبه أحد،

---

(١) رجاله ثقات رواه الطبراني ١٢-٣٦٩: حدثنا محمد بن الحسين الأنماطي حدثنا مصعب ابن عبد الله الزبيري حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عبيد الله بن عمر عن نافع قال قيل لعبد الله..: عبيد الله ثقة ثبت والدراوردي: صدوق، ومصعب صدوق، وهم من رجال التقريب، وشيخ الطبراني سكت عنه الشيخ حماد الأنصاري في البلغة ٢٨٠ ووجدت توثيقه في تاريخ بغداد ٢-٢٢٧ لكن يعكر على صفو هذه السلسلة قول الإمام أحمد: أن الدراوردي ربما قلب حديث عبد الله بن عمر يرويها عن عبيد الله، لكن الراجح أنه لم يقلب، لأنه روى نحو هذا الحديث وهو التالي وقد تابعه إمام ثقة هو ابن وهب.

(٢) سنده قوي رواه ابن جرير ١٠-٢٦٢ حدثنا يونس ابن وهب، حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر. نافع تابعي ثقة معروف، وعبيد الله ثقة ثبت مر معنا في الحديث السابق، والراوي عنه ثقة ثبت حافظ، وتلميذه ثقة واسمه يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة التقريب ٦١٣ والحديث عند الطبراني في الكبير ١٢-٣٦٨ والأوسط (مجمع البحرين - ٥-١٠٨) من طريق الدراوردي عن عبيد الله والحديث شاهد لبعض ما قبله.

وكرر ثالثة، فكانت الريح والبرد هي الإجابة، ولما رأى ﷺ أن التطوع في هذه الساعة صعب.. أصدر أمره لأحد الصحابة، فامتثل على الفور لما أمره به.

هذا الصحابي هو الشاب حذيفة بن اليمان الذي يحدث من حوله عن مهمته تلك الليلة عندما قال له أحد أصحابه: (لو أدركت رسول الله ﷺ، قاتلت معه وأبليت.

فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريحٌ شديدة وقرٌّ[1]، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يُجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد. فقال: قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم. فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب، فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي[2].

فلما وليت من عنده، جعلت كأنما أمشي في حمام[3]، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي[4] ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: ولا تذعرهم علي[5]، ولو رميته لأصبته. «فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً [فحس أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم] فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش: لينظر امرؤ من جليسه.

قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان.

---

(١) أي البرد.

(٢) لا تثيرهم ولا تحركهم، ولا تثر انتباههم.

(٣) أي كأنه يسير في حمام دافئ معجزة من عند الله رغم شدة البرد.

(٤) أي يدفئ.

(٥) لا تثيرهم ولا تحركهم.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، والخف[1]، وأخلفتنا بنو قريظة[2]، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتحل. فرجعت إلى رسول الله ﷺ» فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته، فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت[3]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت. فلما أصبحت قال: قم يا نومان[4])[5] فقد أصبحت المدينة وأصبح الملك لله، وأصبح النصر لله ورسوله وللمؤمنين، وخلت الساحة من الأوثان والوثنيين الذين ولوا مدبرين.. تكنس الريح آثارهم ونفاياتهم.

نظر ﷺ إلى ساحة القتال، فحمد الله هو وأصحابه، وذكرهم بنعمة الله عليهم، ومعجزته التي لوت أعناق المشركين وأذلتهم، كما أذلت أعناق مشركين آخرين في زمن غابر جداً.. إنهم قوم النبي الكريم: هود وهم قوم (عاد) فقد نصر الله نبيه هود بريح عاتية آتية من الغرب، ونصر الله محمداً ﷺ بريح عاتية آتية من الشرق، ولذلك يقول ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[6] وقال ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[7] وقد حول ساحة المؤمنين إلى نصر وربيع، فالحمد والشكر لمن هزم الأحزاب وحده، فقد كانت معركة غير متكافئة عدداً واستعداداً، لكن المؤمن عندما يفعل الأسباب، ثم يتوجه بها نحو الله تتحول النتائج إلى أعياد...

ها هو ﷺ يبشر أصحابه بعد انتهاء المعركة بنهاية عصر وبداية آخر.. يبشرهم ﷺ بانهيار هيبة قريش، وانكسار حربتها.. يبشرهم بأن:

---

(١) الكراع يعني الخيل والخف الإبل.

(٢) أي أن بني قريظة خانت قريشاً وورطتهم بعد أن دعتهم للحرب ووعدتهم بالمشاركة.

(٣) أي بردت.

(٤) يا كثير النوم.. يمازحه ﷺ.

(٥) صحيح رواه مسلم (الجهاد - غزوة الخندق) واما بين الأقواس الصغيرة ليست لمسلم إنما هي حسنة رواها ابن إسحاق بسند يحتمل الانقطاع بين حذيفة ومحمد بن كعب القرظي وهو تابعي كبير أدرك علياً وروى عنه ابن هشام - ٣-١٣٩ ويقويه ما عند البيهقي ٣-٤٥٠ وفي سنده موسى بن أبي المختار وهو يحتاج إلى توثيق الجرح والتعديل ٨-١٦٤.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (الاستسقاء).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٤) ومسلم (الذكر - الدعاء).

فليس هناك بعد اليوم هجوم أو حصار من قريش.. سمع ذلك أحد الصحابة الذين شاركوا في الخندق، واسمه سليمان بن صرد رضي الله عنه فقال: (سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)[1].

كان ﷺ في الفترة السابقة حريصاً على وحدة المدينة، وتماسكها، وتجذير الإيمان والتوحيد والحب فيها، والتأسيس أهم متطلبات الدولة، فالتهور لاطائل من ورائه، والمغامرات الطائشة ليست من أعمال من يريدون بناء أمة عظيمة. أما قريش فكانت حريصة على تقويض ذلك كله.. حاولت في معركة بدر بقيادة الطاغوت أبي جهل وفشلت، وقادها للثأر أبو سفيان في معركة أحد، فلم تنل ما حملت به، وارتعدت فرائصها عن المواجهة في بدر الثانية، لذا تآمرت مع يهود وبقية الوثنيين، لكنها فشلت فشلا ذريعاً، وها هي تعود محطمة بعد معركة الخندق.. هي ومن ساندها من الأحزاب.. تعود إلى مكة وقد تفتتت هيبتها، وانكسرت شوكتها، ويعود ﷺ وأصحابه إلى بيوتهم بعد أن انتصروا.. رجعوا ليغتسلوا من عناء أيام قاسية، ومن غبار ريح عاتية.

النبي ﷺ يضع سلاحه

يضع سلاحه ويغتسل، ولكن شيئاً حدث جعله يلبس أداة الحرب مرة أخرى، ففي بيت عائشة رضي الله عنها كان ﷺ يغتسل من المعركة ويتطيب، ولكن أمراً من السماء نزل، وأمره بحمل السلاح..

أمرٌ تقول عنه عائشة: (لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل «وهو ينفض رأسه من الغبار» فقال: قد وضعت السلاح! والله ما وضعناه، فأخرج إليهم. قال: إلى أين؟)[2].

إلى أين سيحمل ﷺ سلاحه

سأل النبي ﷺ جبريل فـ (قال: إلى أين؟ قال: ها هنا. وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم)[3] وقبل أن يتحرك جيش النبي ﷺ.. تحرك موكب جبريل في

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٠).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٧) والزيادة لمسلم.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٧).

طرقـات المدينة، ومر بطريق يقال له «زقاق بني غنم» لم يرهم أحد، لكن أنسـاً رضي الله عنه رأى غباراً في ذلك الزقاق.. غباراً أثاره موكب جبريل.

يقول أنس: (كأني أنظر إلى الغبار سـاطعاً في زقاق بني غنم، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة)[1].

النبي ﷺ ينطلق إلى بني قريظة

ولكن قبل ذلك أرسل مجموعة من أصحابه نحوهم، وكان أحد هؤلاء ذلك الشاب عبـد الله بن عمر بن الخطـاب رضي الله عنه الذي يقول: (قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة.

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، وقال بعضهم: «لا نصلي إلا حيث أمرنا رسـول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت» لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكـر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم)[2] ثم لحق بهم ﷺ حتى وصل إلى حصنهم، ولـم يكـن ذلك الحصار مهماً إلى هذه الدرجة عنده وعنـد أصحابه.. لم يكن ﷺ على عجلـة من أمره في حصارهم، فقد ذهب إلى بيته يريد الاغتسـال والتطيب، ولكن الله سـبحانه أخرجه من بيته إليهم، فالأمر خطير جـداً، ويبدو أن عقاب الله لخيانات بني إسرائيل لم ينته، وخياناتهم لم تنته. فما فعله بنو قريظة أخبث مما فعله الأحزاب.

لـم يكن بين النبي ﷺ وبين قريش وغطفان معاهـدة عدم اعتداء، بل كان هناك عداوة، أما قريظة فبينهم وبين النبي ﷺ عهد مكتوب، ووثيقة موقع عليها، وجوار يجب حفظه، ودولة مشـتركة، ومواطنة لها حقوق وعليها واجبات، وقد تمتعت يهود بحمايته عليه السـلام. لكن قريظة نسفت ذلك كله، وخانت للمرة الثانية وتآمرت، وطعنت من الخلـف، وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة أن يخرج الله نبيه إليهم بهذه السـرعة، وأن يأمر ﷺ بعدم الصلاة إلا عند حصونهم.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٩٤٦) والزيادة لمسلم.

إن ما فعله اليهود سيتكرر لأن محمداً ﷺ ليس من بني إسرائيل، وما داموا قد قتلوا أنبياء من بني إسرائيل، فلا مانع من تكرار التجربة مع نبي ليس منهم.. ستتلمظ الخيانة أفعى داخل كل حصن تسكنه يهود، ولن يعرف النبي ﷺ والمسلمون طعم الراحة والأمن ما داموا فيها.

وصل جيش الإسلام إلى هناك، فتزلزلت الحصون، وارتعدت الأوصال، وبدأ الخوف والضجيج والتلاوم بين اليهود، وشرب بنو قريظة من الكأس الذي سقوه للمؤمنين.. شاركوا في حصار المدينة، وها هم يعيشون المأساة نفسها.

النبي ﷺ يحاصرهم بالسيوف والشعر

طوق جيش الإسلام حصن بني قريظة، ووصل في معية النبي ﷺ شاعره الكبير حسان بن ثابت، فهتف به ﷺ، وهتف بشعره فقد (قال النبي ﷺ لحسان يوم قريظة: أهجم أو هاجهم وجبريل معك)[1] فهجاهم حسان، ورماهم بأبيات كالرماح.. لابد أنه وصفهم بالخيانة والتآمر والغدر، وكفى بتلك الصفات أن تهزم صاحبها. لمع شعر حسان ولمعت السيوف، فصاحت قريظة تسأل النبي ﷺ عن مخرج لهذه الورطة وهذا الحصار..؟

قريظة تبحث عن مخرج

عرض ﷺ عليهم أمرين بدلا من اقتحام حصونهم:

الأمر الأول: أن يسلموا، فإن أبوا ذلك فعليهم بـ:

الأمر الثاني: وهو النزول تحت حكمه ﷺ، وأن يرضوا بعقوبة الخيانة التي سينزلها بهم، وهو لم يحددها ﷺ حتى الآن، وهي عقوبة يتوقع اليهود أن تكون شديدة تناسب حجم نذالتهم وغدرهم، فليست هذه هي الأولى في سجل خياناتهم، فقد (حاربت قريظة والنضير فأجلى ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[2] وأعطاهم الأمان، وعفا عنهم وسامحهم، ولكنه أخذ عليهم عهداً مكتوباً.. وثيقةً بعدم الخيانة والتآمر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٣).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨).

والغـــدر. كتب بينه وبينهم وثيقة وقعوا عليها بإرادتهـــم ودون إكراه لكنهم يهود، لكنهم عـــادوا فنقضـــوا كل ما كتبوا، وها هم أمام حصار خانق.. أمـــام خيارين لا ثالث لهما إلا المـــوت، وفجأة دوت صرخة زعيم مـــن زعماء يهود.. صرخة تصيح بأحد الصحابة واسمه «أبو لبابة» رضي الله عنه:

أبو لبابة يثير الرعب في نفوس يهود

بعدما (قذف الله في قلوبهم الرعب، واشتد عليهم الحصار، فصرخوا بأبي لبابة بـــن عبـــد المنذر، وكانوا حلفاء الأنصار «فقال أبو لبابة: لا آتيهم حتى يأذن لي رســـول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: قد أذنت لك» فأتاهم أبو لبابة فبكوا إليه، وقالوا: يا أبا لبابة، ماذا ترى، وماذا تأمرنا فإنه لا طاقة لنا بالقتال..؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه. وأمرَّ عليه أصابعه، يريهم أنما يراد بهم القتل)[1]

فـــازدادوا رعباً إلى رعبهـــم، وزلزلهم الهلع والخوف، وأدركـــوا فداحة جرائمهم، فالمجرم الموغل في الإجرام لا يدرك شناعة جرائمه إلا إذا نزل به العقاب.

مصير شنيع يفتح أذرعه القاسية لليهود، ويستشير اليهود بعضهم بعضاً، فيلمحون في الأفق ســـراباً عله يكون ماءً، فينطلق الصراخ والمناشـــدة الخائنة من الحصن مرة أخرى.. فما الذي تريده يهود هذه المرة؟

قريظة تطلب خياراً ثالثاً

اقترح اليهود الخائفون حلاً أخيراً لورطتهم التي رســـموها بأنفســـهم.. اقترحوا على النبي ﷺ حلاً ثالثاً، فهم لا يطيقون الحرب، ولا النزول على حكم النبي ﷺ بعدما مرر أبو لبابة أصابعه على حلقه، وهم أيضاً مازالوا يعاندون ويرفضون الإســـلام رغم اقتناعهم بأن محمداً ﷺ نبي مرسل.

---

(١) حديث حســـن عدا ما بين الأقواس الصغيرة، رواه ابن إســـحاق وهو في مغازي موسى عن الزهري وعن عروة مرسلاً، سيرة ابن كثير ٢-٢٢٩ وله شاهد عند أحمد من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده قال ابن كثير: إســـناده جيد. والأصوب أن فيه عمرو بن علقمة الوقاصي وهو يحتاج إلى توثيق لذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول، أي عند المتابعة والشواهد. انظر سيرة ابن كثير ٣-٢٣٧.

لقد طلبوا منه أن يجعل حكمهم بيد حليفهم السابق.. الصحابي الجريح وسيد وأسد الأنصار (سعد بن معاذ) مهما كان هذا الحكم.

قبل ﷺ هذا الاقتراح، فأرسل في طلب سعد بن معاذ وإحضاره من خيمته داخل المسجد النبوي حيث يتم تمريضه هناك. وصل رسول رسول الله ﷺ إلى سعد، وأخبره الخبر، فأدرك سعد أن دعوته قد استجيبت، عندما ناشد ربه والدماء تشخب من عروقه فقال: (اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)[1]

وبقي سعد صابراً في خيمته.. محتسباً ألم جرحه عند الله، حتى أتاه الخبر، وأتاه مبعوث رسول الله ﷺ يطلبه للحكم في قضية خيانة بني قريظة.

حُمل سعد على حمار وتوجه به المبعوث إلى بني قريظة، وقبل أن يصل سعد.. كان هناك اضطراب وضجيج وحركة داخل الحصن، كان هناك لغط بين اليهود، هل تشاجروا..؟

ربما.. لا أحد يعلم، وفجأة فتح باب الحصن.. فخرج منه رجال ونساء.. إنهم يتوجهون الآن نحو النبي ﷺ.

من الذين خرجوا من حصن بني قريظة

إنهم رجال ونساء يريدون الإسلام والنجاة في الدنيا والآخرة.. هؤلاء (بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ، فآمنهم وأسلموا)[2]

وكان من بين هؤلاء ثلاثة شباب ليسوا من بني قريظة، لكنهم دخلوا حصونهم ودينهم منذ زمن هرباً من الشرك، لعل الله أن يهديهم على يد ذلك النبي المنتظر الذي تنتظره اليهود.

يروي لنا قصة هؤلاء الثلاثة رجل شاهدهم وسمعهم وعاش معهم، ثم خرج معهم من الحصن وهو يحدث من حوله.. (شيخ من بني قريظة قال: هل تدري عما كان

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣ -٣٥٠ وقد مر معنا تخريجه تحت عنوان خيانة ثالثة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨).

إسلام (أسيد، وثعلبة ابني سعية، وأسد بن عبيد) نفر من هذل، لم يكونوا من بني قريظة ولا النضير، كانوا فوق ذاك؟

فقلت: لا. قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام، من اليهود، يقال له: «ابن الهيبان» فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلاً قط يصلي الخمس خيراً منه، فقدم علينا قبل مبعث رسول الله ﷺ بسنتين، فكنا إذا قحطنا، وقل علينا المطر نقول: يا ابن الهيبان، اخرج فاستسق لنا. فيقول: لا والله، حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة. فنقول: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر أو مدين من شعير.

فنخرجه، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا، ونحن معه، فيستسقي، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمر الشعاب. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين، ولا ثلاثة. فحضرته الوفاة، واجتمعنا إليه. فقال: يا معشر اليهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير[1]، إلى أرض البؤس والجوع[2]؟ قالوا: أنت أعلم.

قال: إنما أخرجني أتوقع[3] خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلاد مهاجره، فأتبعه، فلا تسبقن إليه إذا خرج يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن يخالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

ثم مات. فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة، قال أولئك الفتية، وكانوا شباباً أحداثاً: يا معشر يهود، والله إنه للذي ذكر لكم ابن الهيبان. فقالوا: ما هو به. قالوا: بلى والله، إنه لصفته. ثم نزلوا فأسلموا، وأحرزوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم)[4] وانتهى كل شيء بالنسبة لهم.. لم يعودوا أعداءً، ولم يجدوا من يعاتبهم أو يلومهم، أو حتى يذكرهم بمواقفهم اللئيمة.. انتهى كل شيء فالإسلام يمحو ما قبله.

---

(١) أي أرض الشام حيث الأنهار والأشجار والخمر.

(٢) أي المدينة قبل أن يدعو لها النبي عليه السلام بالبركة.

(٣) أي انتظر واتربص وآمل.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٢-٨٠: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة. عاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي مر معنا كثيرا، وشيخه صحابي أدرك ذلك الحدث وأسلم وقد يكون عطية القرظي رضي الله عنه.

أدرك هــؤلاء أن دين الله أرحب من أن يحبس في حصن من حصون يهود، وأعظم من أن تســتقل به وتحتكره قبيلة بني إســرائيل.. خرج هؤلاء، فوجدوا أذرعاً مفتوحة وقلوباً بيضاء فسيحة، ووجدوا رسول الله والإسلام، وأما من أغلقوا على أنفسهم أبواب الحصن والعناد والتعصب، فقد وصل إليهم سعد بن معاذ كما طلبوا .. وصل سعد على حماره.. قطع تلك المسافة ليرضي الله ورسوله، ولتقر عينه من بني قريظة الخونة.

وصول سعد إلى حصن بني قريظة

كان وصــول ابن معاذ إلــى ذلك المكان يحبس الأنفاس.. شــاهده النبي ﷺ وهو قادم، وكان ﷺ في مسجده المؤقت قرب الحصن، فسر لمرآه، وهتف بأصحابه: (قوموا لسيدكم)[1]

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرســل رســول الله ﷺ إلى ســعد، فأتى على حمار، فلما دنا قريباً من المسجد، قال رسول الله ﷺ: قوموا لسيدكم، أو لخيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك)[2]

كل هذا يحدث ومازال أمام اليهود فرصة للحياة بالإســلام، لكنه الحســد. كيف يخضع بنو إســرائيل لعربي..!؟ وكأن الإســلام والتوحيد جاءا من أجل العرب، لا من أجل الدنيا كلها، لذا اكتفت يهود بمناشــدة ســعد والتوسل إليه، لا مناشدة الله، فماذا قال سعد يا عائشة..؟

تقول رضي الله عنها إن اليهود: (قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه، وحف به قومه «فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك، ومواليك، وأهل النكاية، ومن قد علمت -ولا يرجع إليهم شيئاً ولا يلتفت إليهم- حتى دنا من دورهم، التفت إلى قومه فقال: قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم».

قال أبو ســعيد: فلما طلع قال رســول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم «فأنزلوه. قال عمر: سيدنا الله. قال: أنزلوه» قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢١).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢١).

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم.

فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله [من فوق سبع سماوات])[1]

لقد حكم سيدنا سعد بـ(حكم الله فيهم وكانوا أربعمائة)[2] مقاتل.. خانوا وتربصوا بالمؤمنين الدوائر، وتعاونوا مع الأعداء لاجتثاث دولة الإسلام ونبي الإسلام.

أخذ هؤلاء على حدة، وأخذ الأطفال والنساء على حدة، أما من أسلم فقد عاد إلى الحصن.. إلى أهله وأولاده، وإلى ماله الذي لم يمس، ثم توجه بهم المسلمون نحو سوق المدينة، وأدخل النساء والأطفال بيوت النبي ﷺ وبيوت أصحابه، وكانت إحدى نساء اليهود قد ارتكبت جريمة لم يعرف حتى الآن من الذي فعلها، والمرأة الآن موجودة عند عائشة.. تتظاهر بالمرح والسرور، وتضحك ضحكاً أثار استغراب عائشة رضي الله عنها ودهشتها في مثل هذا الظرف الذي تكون فيه المرأة مثقلة بالحزن والنواح.. غارقة بدموعها على قومها.

جمع الرجال بعيداً عن أطفالهم ونسائهم، وتم تنفيذ حكم سعد فيهم، وقرت عينه من بني قريظة، وشفى غليله من غدرهم وخيانتهم، وفجأة، وأثناء تنفيذ الحكم.. صاح صائح ينادي باسم تلك المرأة الضحوك. لقد اكتشف سرها، فماذا ستفعل، وهي:

المرأة الوحيدة التي ستقتل من بني قريظة

تقول عائشة عن تلك المرأة الغريبة: (لم يقتل من نسائهم «تعني بني قريظة» إلا امرأة واحدة، والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله.

قلت لها: ويلك، مالك؟ قالت: أُقْتَلُ.

---

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة وله شواهد صحيحة، وهو حديث عائشة الذي حسنه ابن كثير من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عنها. وأبوه يحتاج إلى توثيق، والحديث حسن بما عند البخاري وأحمد وغيرهما والزيادة بين المعقوفين حسنة عند ابن سعد ٣-٤٢٦ من طريق التمار وهو حسن الحديث ولها شاهد مرسل عند ابن إسحاق من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده.

(٢) سنده صحيح مر معنا تحت عنوان (خيانة ثالثة) من رواية الليث عند أحمد (٣/٣٥٠).

قلت: ولِمَ؟ قالت: لحدث أحدثته.

فانطُلِقَ بها، فضرب عنقها، فكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل)[1]

هذا هو حكم الله في هؤلاء اليهود الذين كادوا ينشرون الموت والرعب في كل شبر في المدينة لو انتصر الأحزاب.. حكم عاجل وحازم وحاسـم.. من أجله أخرج الله نبيه من بيته.. من استراحته، وأمره على الفور بالخروج لتنفيذ هذا الحكم العادل.

قـد يتعاطف أحد مع يهود بني قريظة ويقول: لمـاذا هذا الحزم مع اليهود.. لماذا كل هذه الشدة..؟

ولا أجـد جواباً أعظم من أنه حكم الله وحده لا شـريك لـه، لكن هناك إضافة يسيرة وجدتها في توراة القوم.. تخول اليهود أن يفعلوا ما يشاءون بأعدائهم متى بدرت منهم إساءة لليهود، فكيف إذا كانوا في نظرهم كفاراً كالمسلمين.. هذه الإضافة تحكم بها توراتهم في:

قصة دينة بنت يعقوب

تقول القصة إن يعقوب عليه السلام وأبناءه سكنوا مدينة «شكيم» واشتروا أراضي لهم، فخرجت دينة ذات يوم تتمشى، فرآها ابن الملك «حمور» واسمه «شكيم» فاغتصبها، ثم طلب من أبيه أن يخطبها، فتكدر يعقوب عليه السـلام لما حدث لابنته وسكت حتى جـاء أبناؤه، وقال لهم: إن الملـك عرض عليه الإقامة الدائمة والمصاهرة بين العائلتين، فتظاهـر الأبناء، وهم أعظم أنبياء اليهود، بالموافقة، لكن اشـترطوا أن يختتن كل من أراد الزواج منهم، ولما اختتن الملك وابنه ورجال شعبه، وأثناء فترة آلام الختان هجم بنو يعقوب وغدروا بالملك رغم العهود والمواثيق، وقتلوا كل ذكر، ثم نهبوا حميرهم وبقرهم وغنمهم وجميع ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في بيوتهم[2]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ابن هشام ٣-١٤٧ وأبو داود (٢٦٧١) وغيره من طريق ابن إسحاق.. واللفظ لابن هشام والزيادة عند أبي داود: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة.. ومحمد ثقة، وشيخه تابعي ثقة معروف.

(٢) انظر تفاصيل القصة في (التوراة - التكوين - ٣٤).

إذا كانت الخيانة شريعتهم، وإذا كان هذا ما ينسبونه لأعظم أنبياء بني إسرائيل، والذين إليهم ينسب كل اليهود.. إذا كان الغدر هو مبدؤهم، كما يقول كاتب التوراة، فكيف بالرعاع والحاقدين من بني قريظة..؟! ما حجم الكارثة التي سيرتكبها اليهود في المدينة..؟

لا أحد يعلم إلا الله شناعة ما سيحدث، لكن الواقع يحدثنا، ومجازر اليهود اليومية كفيلة بالإجابة، ولا شيء يردع تهور اليهود ودسائسهم سوى السيف والقوة، وها هو السيف يبطش بهم في سوق المدينة، وها هي المرأة الخائنة تقتل في سوق المدينة، ويقتل رجال بني قريظة ومحاربوها، وقد كان هناك حدٌّ للقادر على الحرب.. يعرف به ويميز.. يذكره لنا أحد الذين نجوا من ذلك الحكم، لأنه لم يبلغ ذلك الحد.. إنه فتى صغير يدعى عطية القرظي، وقد أسلم فيما بعد وأصبح من صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم.

يقول عطية: (كنت في سبي بني قريظة، فأمر رسول الله ﷺ بمن أنبت أن يقتل، فكنت فيمن لم ينبت فتركت)[1]

وهكذا أهال الإسلام التراب على جسد الخيانة القرظية المتعفن، وأراح العالم منه، وبقي من بني قريظة من اختار الحياة والإسلام والهواء النقي من كل خبث ودسيسة، فعاشوا أحراراً بالإسلام، إلا من أبى.

رأى المنافقون السيوف تجتث رقاب أصدقائهم اليهود.. الذين طالما اتخذوهم كهفاً لأصنامهم ونفاقهم، فلم يطق أحد شعرائهم مشهد انهيار رفاق التآمر والخيانة فقال أبياتاً تعبر عن:

موقف المنافقين مما حدث لقريظة

أبيات من الشعر تلقي باللوم على سعد بن معاذ، الذي كان شديداً في حكمه عليهم، وما علم هؤلاء أن الله سبحانه هو الذي أمر نبيه ببني قريظة، في الوقت

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق والبيهقي ٤-٢٥ من طريق: شعبة بن الحجاج، عن عبد الملك بن عمير عن عطية. شعبة لا يسأل عنه وشيخه تابعي ثقة فقيه التقريب ٣٦٤.

الذي كان فيه ﷺ يضع سلاحه ويغتسل، ويتهيأ لأخذ بعض الراحة من عناء حرب شاقة وقاسية، وتجاهل أولئك المنافقون أن مصيرهم سيكون أسود من ليلهم لو انتصر الأحزاب واحتلوا المدينة، لكن العملاء دائما ضحاياً للغباء.

ولم ينس ذلك الشاعر المنافق مدح زعيمه عبد الله بن أبي بن سلول، الذي كان مستعدا للتحالف مع كل من على وجه الأرض إلا محمداً ﷺ وأصحابه، وفي مدحه لابن سلول سب لسعد بن معاذ، لأن ابن معاذ لم تأخذه في الله لومة لائم أو بيت شاعر.

أما عبد الله بن أبي بن سلول فقد دافع عن يهود بني قينقاع عندما غدروا بالمسلمين، ووقف معهم، وكلم النبي ﷺ فيهم ورجاه العفو عنهم، فأبقاهم ﷺ وعفا عنهم من أجله، وأمهلهم، وعن هذين الموقفين المتناقضين يقول ذلك الشاعر:

(ألا يا سعد سعد بني معاذ — فما فعلت قريظة والنضير
لعمرك إن سعد بني معاذ — غداة تحملوا لهو الصبور
تركتم قدركم لا شيء فيها — وقدر القوم حامية تفور
وقد قال الكريم أبو حباب — أقيموا قينقاع ولا تسيروا
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا — كما ثقلت بميطان الصخور[1]

وسواءً كانوا ثقالاً كالجبال على أرض ميطان، أو كانوا أثقل من ذلك، فقد اجتثوا من جذورهم المتعفنة، وطهر الموحدون تلك الأرض منهم ومن لؤمهم وغدرهم، وإذا كان لهم من لوم، فليلوموا أنفسهم.. هم من اختار حكم سعد، فكان لهم ما أرادوا.

أما سعد بن معاذ فقد توجه إلى المسجد.. إلى خيمته المنصوبة فيه، ولما استقر فيها توجه بدعاء كله شوق إلى الله.. دعاء يفيض بسر المؤمن إذا تألق بالإيمان، فسعد حكم على مقاتلي قريظة بالموت لا ليعيش ويتمتع بنسائهم وأموالهم، بل ليخلص مدينته منهم، أما هو فقد عشق الجنة، وتمنى على الله الجنة بجرحه ذلك.

ما هذا..؟ إنه لم يسأل الله ولا رسوله شيئاً من أرض قريظة، ولا أموالهم ولا نخيلهم ولا نسائهم، إنه يسأل الله أن يقبض روحه بجرحه حتى يكون شهيداً من شهداء الخندق، أما ما عدا ذاك فحطام، وسعد أكبر من الحطام.

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه مسلم -المبادرة بالغزو.

أراد الشهادة لأنه ما أسلم وترك الأوثان إلا من أجل تلك العوالم الساحرة المرفرفة في الجنة.. فما هو

دعاء سعد بعد قريظة

تقول عائشة، وقد احتفظت رضي الله عنها في ذاكرتها لسعد بالكثير الجميل، فهو الذي شهر سيفه دفاعاً عنها وعن عرضها في قصة الإفك الآثمة.

تقول رضي الله عنها: (إن سعداً كان قد تحجر كلمه[1] للبرء، فدعا سعد فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان من حرب قريش شيء، فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا وبينهم، فافجرها واجعل موتتي فيها.

ففجر من ليلته فلم يرعهم[2] ومعهم في المسجد أهل خيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم.

فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الدم الذي يأتينا من قبلكم؟

فإذا سعد جرحه يغذو[3] دماً)[4]

ولما (ثقل حولوه عند امرأة يقال لها «رفيدة»، وكانت تداوي الجرحى، فكان النبي ﷺ إذا مر به يقول: كيف أمسيت؟

وإذا أصبح قال: كيف أصبحت؟ فيخبره.

حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها، فثقل، فاحتملوه، إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ كما كان يسأل عنه، وقالوا: قد انطلقوا به.

---

(١) جرحه.

(٢) يفزعهم.

(٣) يسيل بشكل متواصل.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢) وتابع شيخه ابن سعد (٣/٨٤٩) واللفظ له.

فخرج رسول الله ﷺ، وخرجنا معه، فأسرع المشي حتى تقطعت شسوع[1] نعالنا، وسقطت أرديتنا عن أعناقنا، فشكا ذلك إليه أصحابه: يا رسول الله، أتعبتنا في المشي؟

فقال ﷺ: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله كما غسلت حنظلة. فانتهى رسول الله ﷺ إلى البيت وهو يغسل، وأمه تبكيه وهي تقول:

ويل أم سعد سعداً حزامة وجدّا

فقال رسول الله ﷺ: كل نائحة تكذب إلا أم سعد.

ثم خرج به. يقول له القوم أو من شاء منهم: يا رسول الله، ما حملنا ميتاً أخف علينا من سعد. فقال ﷺ: ما يمنعكم من أن يخف عليكم، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، وقد سمى عدة كثيرة لم أحفظها، ولم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم)[2]

توجه ﷺ بصاحبه نحو البقع، فسبقه أبو سعيد الخدري وبعض الصحابة نحو البقيع لحفر القبر، وإعداد اللبنات والماء طمعاً في ذلك الأجر العظيم الذي قال عنه ﷺ: «من حفر له[3] فأجنه، أجري عليه كأجر مسكن أسكنه إياه إلى يوم القيامة»[4].

وصل النبي ﷺ وأصحابه إلى البقيع، كما قال أبو سعيد: (طلع علينا رسول الله ﷺ وقد فرغنا من حفرته، ووضعنا اللبن والماء عند القبر، وحفرنا له عند دار عقيل اليوم، وطلع رسول الله ﷺ فوضعه عند قبره، ثم صلى عليه، فلقد رأيت من الناس ما ملأ البقيع)[5].

---

(١) سيور النعال التي تمسك النعال بالأصابع.

(٢) سنده حسن رواه ابن سعد ٣-٤٢٧ أخبرنا الفضل بن دكين، أخبرنا عبد الرحمن بن سليمان بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد. محمود صحابي وتلميذه ثقة عالم بالمغازي، التقريب ٢٨٦ وعبد الرحمن ثقة من رجال الشيخين، وجرحه غير مفسر، اضطرب فيه النسائي فقال: ليس بالقوي، ومرة: لا بأس به، ومرة: ثقة.. أما توثيقه فمعتبر، قال ابن معين وأبو زرعة والدارقطني ثقة، التهذيب ٦-١٩٠.

(٣) أي حفر لأخيه المسلم قبراً.

(٤) سنده قوي رواه البيهقي في الشعب والسنن ٣ - ٣٩٥ من ثلاث طرق أحدها قوي عن عبد الله بن يزيد المقرئ ثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني شرحبيل بن شريك عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت أبا رافع وهؤلاء كلهم ثقات، عدا شرحبيل فهو صدوق من رجال مسلم ٢٦٥ وصححه الإمام الألباني في الجنائز (٥١).

(٥) سنده صحيح رواه ابن سعد ٣-٤٢٤ أخبرنا عفان ويحيى وأبو الوليد الطيالسي، أخبرنا شعبة أنبأني سعد بن إبراهيم: سمعت أبا أمامة بن سهل بن حنيف يحدث عن أبي سعيد.. شعبة إمام وسعد تابعي ثقة من رجال الشيخين (التقريب - ٢٣٠) وأبو أمامة صحابي.

ولئن امتــلأ البقيع بالناس، فلقد زاحمهم فيه آخرون ليســوا من الناس.. جاؤوا كرامة لهذا المسافر الحبيب.. يشهدون توديعه والصلاة عليه ودفنه.. هبط من السماء سبعون ألف ملك فكانت الدنيا عرشاً يهتز، وسماء مفتوحة، وملائكة كالمطر.

كل ذلك حدث من أجل الفارس الجســور، والحازم الــذي لا تأخذه في الله لومة لائم، والمؤمن الطهور المسافر بالقلوب

(سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري)

ها هو جابر الأنصاري يرى ويشــاهد ويروي فيقول: (قال رسول الله ﷺ وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم: اهتز لها عرش الرحمن)[١] (اهتز عرش الرحمن لموت سعد ابن معاذ)[٢].

أمــا بعد دفنه رضي اللــه عنه، فقد وقف ﷺ يحدث أصحابــه عن هذا الراقد، الذي نحت الحب في قلوب المؤمنين، ونحت العدل على جدران قريظة، وقبل ذلك نحت الخوف في ضلوع أبي جهل وأمية.. وقف النبي عليه الســلام على قبره يحدث الدنيا وصحابته ويقول:

(هذا العبد «الصالح» الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السموات، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لم ينزلوا الأرض قبل ذلك، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه)[٣] وهي ليست ضمة عذاب و(لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منها سعد)[٤]

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل سعد بن معاذ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل سعد بن معاذ.

(٣) سنده صحيح كالذهب رواه ابن سعد ٣-٣٤٠ والنسائي ٤-١٠٠ من طريق عبد الله بن أدريس، حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر. نافع ثقة ثبت فقيه وعبيد الله ثقة ثبت قدمه أحمد على مالك في نافع، وابن إدريس ثقة فقيه عابد من رجالهما ٢٩٥.

(٤) سنده صحيح رواه عقبة بن مكرم (سير أعلام النبلاء ١-٢٩١) حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سعد ابن إبراهيم عن نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن عائشة. صفية تابعية ثقة (التقريب - ٧٤٩) ونافع مر معنــا وســعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ثقة فاضــل، التقريب ٢٣٠ وابن أبي عدي: محمد بن إبراهيم ثقة، التقريب ٤٦٥ .

وهي من الآلام التي تمر بالمؤمن وغيره مثل ألم خروج الروح، وألم القيام من القبر، وألــم الموقف والورود على النار، لكنها تخفف على المؤمن النقي، وتشـــدد أحياناً حتى يتطهر من بقية ذنوبه، فينجو برحمة الله من النار أعاذنا الله منها.

ودع ﷺ ســعداً وبشر أحبابه بأنه من أهل الجنة، ثم انصرف وهو مثقل بالحزن، وانصرف الصحابة بقلوب حزينة وعيون تذرف الدموع على سعد، وذكريات سعد.

بكى المهاجرون والأنصار، وغمر الأوس حزن أســود على ســيدهم، ومرت الأيام طويلة وثقيلة على أم سعد، وعلى أهل بيت سعد.. كان رضي الله عنه سيفاً لا يفل على الباطل.. في كل وقت، وفي كل مكان، ومن مثل سعد..؟

هو الذي ســافر إلــى مكة معتمراً، وهنــاك وحول الكعبة كاد يفتــك بأبي جهل، ولمــا حاول منعه أمية هدده بالموت.. يهــدد قادة مكة في عقر دارهم!! ويهددهم بقطع تجارتهم إن لم يتعقلوا ويدعوه وشأنه.

أما في بلده.. في المدينة فكان يهدد زعيم المنافقين بالموت دفاعاً عن عرض النبي ﷺ.. كان مســتعداً للاجهاز على رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.. رضي من رضي وسخط من سخط.

هذا هو ســعد في مواجهته لجبهتي الشــرك والنفاق، أما فــي مواجهته لليهود، فقــد قال في قريظة كلمته.. كان رضي الله عنه يفعل ذلك لله وحده، ودفاعاً عن دينه ورسوله ﷺ، ودعوته التي يحاول المشركون والمنافقون واليهود القضاء عليها.

ســتة أعوام فقط من إنجازات سعد وولائه وبرائه لله.. ستة أعوام فقط اهتز لها العرش، فرحم الله سعداً ما أعظمه، ورضي عنه وأرضاه وحشرنا وإياه مع نبينا ﷺ.

ســافر ســعد إلى الجنة، لكنه ترك لليهود وغيرهم درســاً، ولحق بسعد بن معاذ فــارس آخر، وعظيــم آخر.. لحق به المجاهــد العابد، الذي كاد ينســى زوجته وماله والدنيا بأســرها ليتفرغ للعبادة.. العبادة فقط.. مات الذي أعاده النبي ﷺ إلى سنته وزوجته، والذي كان في حياته دروس، وفي مماته دروس.

فبكته حبيبته، وبكته نساء، وبكاه الرجال، وسال دمع النبي ﷺ على خدي عثمان وهــو يقبّله بحزن يملأ صــدره.. مات ذلك العابد فكان مشــهد جنازته والأحباب من حولها مشهداً يذيب الصخر والقلوب، ويذيب النواح.

ها هو ﷺ وقد (دخل على عثمان بن مظعون يوم مات فأحنى عليه[١] كأنه يوصيه، ثم رفع رأســه، فرأوا فــي عينيه أثر البكاء، ثم أحنى عليه ثانية، ثم رفع رأســه فرأوه يبكي، ثم أحنى عليه الثالثة، ثم رفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنه قد مات، فبكى القوم. فقال النبي ﷺ: مه، إنما هذا من الشيطان، فاستغفروا الله[٢].

ثم قال: اذهب عنها أبا السائب، فلقد خرجت ولم تلتبس منها بشيء)[٣]

كانت عائشــة هنــاك.. حزينة مثل بقية الحاضرين.. شــاهدت دموعه ﷺ وهي تسيل على خدي عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فقالت: (رأيت رسول الله ﷺ يقبّل عثمــان بن مظعون وهو ميــت «وهو يبكي، وعيناه تهرقان» فرأيت دموعه تســيل على خدّيــه)[٤] أي على خدي عثمان.. حزناً على ذلك الصاحــب الزاهد.. القائم الصائم، الذي سافر عن الدنيا نقياً دون أن تلوثه.

شهد النبي ﷺ لعثمان بالنقاء والصفاء من الدنيا، فهل يعني ذلك أن نقول عن كل من كان مثله: إنك من أهل الجنّة.

---

(١) أي انحنى عليه وأكب.

(٢) طالبهم عليه الســلام بالاســتغفار لا من أجل البكاء، لأنه بكى قبلهم وهو لم يحرم البكاء على الميت لكنه نهــى عــن رفع الصوت نواحاً على الميت ويطلق عليه بكاء أيضاً، لكنــه بكاء محرم كما مر في البكاء على حمزة رضي الله عنه.

(٣) ســنده قوي وقد ضعفه الشــيخ شعيب حفظه الله في السير (١/١٥٦) بل جعله واهياً ومتنه منكراً، ولعله اعتمد على قول الإمام الهيثمي: ولم أعرفهما، يقصد شــيخ الطبراني راوي الحديث ووالد شــيخه، لكن نظرة سريعة على التقريب والتهذيب تغني عن ذلك، فشيخه عبد العزيز بن عمر بن مقلاص ثقة فاضل، مــلازم لحلقــة أبيه الثقة، ووالده كان يدارس العلماء ومن تلاميذه: أبو حاتم وأبو زرعة والعقيلي. قال أبو حاتم: صدوق ٥-٢٩١.

(٤) صححه الترمذي ٢-١٣٠ والبيهقي وله شاهد بإسناد حسن في «مجمع الزوائد» ٣-٢٠.

النبي ﷺ يبكي.. يشـهد لعثمان بالزهد، وزوجته تشـهد له بالصيام والقيام. ألا يكفي ذلك للجزم بدخوله الجنة؟.. لا

لا يحكم لأحد - حتى عثمان - بالجنة

كيـف..؟ أمر مفزع، ومخيـف..!! إذا لم يحكم لعثمان فلمـن يحكم..؟ العواطف مرة أخرى تثور وتسـتنكر وتحتج؟ لكن الإسلام والتوحيد لا ينطلقان من العواطف ولا الأهواء، وإلاّ لأصبح لكل فرد دين، لأن كل فرد عالم من العواطف والأهواء..

الإسلام يعتني بالعاطفة.. يهذّبها.. ينقّيها من الشوائب، ثم يطلقها أطيافاً جميلةً في الأجواء، وحبنا لشخص لا يعني أن الحق معه أينما اتّجه.

الكل يشـهد لعثمان بن مظعون بالصلاح فـي دنياه، لكن النبي ﷺ غضب عندما حكم له بالجنة، لأن في ذلك تجاوزاً لمسؤوليات الإنسان.. فيه تزييف وادّعاء

عندمـا قدم عثمـان بن مظعون إلى المدينة مع المهاجريـن.. أقبل عليهم الأنصار بالأيـدي والقلـوب والبيوت.. تنازع الأنصار.. كلٌّ يريد أن يفـوز بأخ له من المهاجرين يسـكن معه فـي بيته، ولم ينته ذلك النـزاع الحبيب إلاّ بالقرعـة، وعندما وصل دور القرعة إلى عثمان بن مظعون.. جعلته القرعة من نصيب بيت زوج أم العلاء، وهو رجل من الأنصار رضي الله عنهم، ولما أصابه المرض.. مرّضته أم العلاء، وشـهدت له عند رسول الله ﷺ بالصلاح، لكنها شهدت له بشيء أغضب النبي ﷺ.

يا أم العلاء ماذا قلت عن عثمان رضي الله عنه..؟

تقـول رضي الله عنها: (إن عثمان طار لهم في السـكنى حين قرعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك قد أكرمك الله.

فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ قلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟

قال: أما هو فقد جاءه والله اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري -والله- وأنا رسول الله ما يفعل بي.

قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً. قالت: فأحزنني ذلك، فنمت، فأريت لعثمان بن مظعون عيناً تجري، فجئت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: ذلك عمله)[1] الصالح.. تقبّله الله منه وجزاه الجنّة بما عمل، فأوحى بهذه البشرى إلى نبيه ﷺ، لكن قبل ذلك لا أحد يدري عن مصيره، وهل هناك فوق قول النبي ﷺ: وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي.

إذاً فلا شأن لأحد بما بعد الموت، ولا بالنوايا، ولا يكفي ظاهر العمل للحكم على الإنسان بأنه من أهل الجنّة أو النار، حتى في مدح الإنسان لأخيه وهو حي.. يأمر ﷺ بعدم الاندفاع، ففي أحد الأيام (أثنى رجل على رجلٍ عند النبي ﷺ فقال: ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك.. مراراً،

ثم قال ﷺ: من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه)[2]

هاهو عثمان بن مظعون رضي الله عنه.. ها هم يحملونه نحو البقيع، ومعهم رسول الله ﷺ بعد أن صلّوا عليه، وقد بيّن ﷺ لأصحابه الطريقة الأفضل للمشي مع الجنازة، فقال: (الراكب يسير خلف الجنازة، والماشي يمشي خلفها وأمامها، وعن يمينها، وعن يسارها، قريباً منها)[3]

وكان ﷺ يقول: (إذا رأى أحدكم الجنازة، فإن لم يكن ماشياً معهم فليقم «حين يراها»)[4]، وقال جابر رضي الله عنه: (قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)[5]، (فقلنا: يا رسول الله، إنها يهودية، فقال: إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا)[6] (فقيل: إنه يهودي، فقال: أليست نفساً)[7]. ثم إن الأمر بالقيام لم يدم، فقد أمر الله نبيّه بالقعود.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٨٧).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٦٢).
(٣) سنده صحيح رواه أهل السنن عن زياد بن جبير حدثني أبي عن المغيرة جبير ووالده ثقتان.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم (٩٥٨) والزيادة له.
(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).
(٦) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (١٣١٢).

قال عليّ رضي الله عنه: (رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا وقعد، فقعدنا)[1]

وفي جنازة عثمان رضي الله عنه لم يكن رسول الله ﷺ قائماً ولا جالساً.. كان ﷺ يشارك في دفن صاحبه بيديه، ويفعل شيئاً يدلّ على مكانة عثمان في نفسه ﷺ، فبعد أن قال: (بسم الله وعلى سنّة رسول الله)[2] يقول أحد الصحابة: (لما مات عثمان بن مظعون أخرج بجنازته فدفن، أمر النبي ﷺ رجلاً أن يأتيه بحجر، فلم يستطع حمله، فقام إليه رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه[3]، كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ حين حسر عنها، ثم حملها، فوضعها عند رأسه وقال: أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي)[4].

كل هذا الحب لعثمان بن مظعون.. كل ذلك البكاء وتلك الدموع، ومع ذلك فلم يزد ﷺ على وضع حجر كبير ليعرف به قبر أخيه عثمان عندما يزور مقبرة البقيع، فقط ليعرف قبره.

أما من تغريه عواطفه ونفسه بتزيين قبر حبيبه أو حبيبته بالرخام أو الجص أو البناء أو القباب، فقد قال ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا تدع تمثالاً إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سويته)[5]، ولأن (رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها)[6] فقد (نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)[7] لأن فتح باب البدعة لا يعني أبداً مرونة في العقيدة.. هو تمييع للعقيدة.. تمزيق لها.. يعني التواءً نحو بدايات الشرك، والإسلام هروب.. كله هروب من الشرك وانحرافاته.

نهى ﷺ (أن يكتب على القبر شيء)[8]، والكتابة قد تكون الكتابة في نظر البعض شيئا يسيراً، لكنه ستفضي لا محالة إلى كتابة المدائح، والأشعار، والآيات، والمبالغات، وأشياء تجعل من القبور تحفاً أو متاحف أو معارض، أو مزارات لذاتها.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - (نسخ القيام للجنازة).

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٣٢١٣) حدثنا محمد بن كثير ومسلم بن إبراهيم، حدثنا همام، عن قتادة عن أبي الصديق عن ابن عمر. أبو الصديق تابعي ثقة اسمه: بكر بن عمرو التقريب ١٢٦ وهمام بن يحيى ثقة التقريب ٥٧٤ وقد توبع قتادة عند الترمذي وابن ماجه.

(٣) في الحديث بعد هذه الكلمة: قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك عن رسول الله ﷺ.

(٤) سنده حسن رواه أبو داود من طريق: كثير بن زيد المدني، عن المطلب عن أحد الصحابة (٣٢٠٦) المطلب صحابي وكثير ثقة وجرحه لا ينهض أمام توثيقه، التهذيب ٨-٤١٤.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (الأمر بتسوية القبور).

(٦) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٨).

(٧) حديث صحيح رواه مسلم (٩٧٠).

(٨) صححه الإمام الألباني في أحكام الجنائز (٢٠٤) لكنه لم يجب عن عنعنة أبي الزبير.

ولما ذكرت أم سلمة رضي الله عنها للنبي ﷺ ما رأته في الحبشة من نقوش جميلة وصور عجيبة، داخل كنيسة هناك يسمونها «مارية»؟ قال ﷺ: (أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، ثم صوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)[1]، وقال ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[2] لعنهم الله رغم أن بعضهم كان يريد تكريم نبيّه بإقامة ذلك المسجد، أو المعبد أو الكنيسة..

لعنهم الله لأنهم استمدّوا العقيدة من العواطف.. من التخاريف.. من غلوّهم وتطرّفهم في أنبيائهم، والعقيدة وحي متى ما خالطها غير الوحي فسدت، وحب النبي وتكريمه لا يكون بالغلوّ والتطرّف، بل بتنفيذ ما جاء به ذلك النبي.. بحفظه ونقله بأمانة دون زيادة أو نقصان، لأن الزيادة دين بشري، والنقصان تشويه للوحي، والزيادة والنقصان أورام خبيثة محتقنة بالكفر والشرك والبدع، وما جاء ﷺ إلاّ لاستئصال تلك الأورام واجتثاث الشرك وجذوره، والإسلام جاء ليبتدع الإنسان ويبدع في شؤون الدنيا زراعةً وصناعة وتجارةً.. مستمداً ذلك الإبداع وموجهاً بالوحي النقي، فإذا ابتدع الإنسان في الدين والدنيا تمزق بين اتجاهين، فإما أن يكون متطرفاً دينياً، أو يكون رقماً في آله لا ضمير لها ولا قيم، واليهود ممزقون، فما هي حالهم الآن بعد موت سعد بن معاذ.

اليهود بعد موت سعد بن معاذ

أشد رعباً وخوفاً من قبل، إلا من آمن منهم وامتلأ قلبه برحابة الإيمان وراحته، فالسيف الذي تركه سعد لا يزال محمولاً بكف فارس آخر، وهو على أتم الاستعداد لأي خيانة جديدة مهما كان حجمها.

لكن ماذا عن رؤوس الفتنة، ومحرضي الأحزاب (سلام بن أبي الحقيق) و(حيي بن أخطب) الذي أخذ على نفسه عهداً بمعاداة النبي ﷺ ومحاربته وعناده ما تردد الهواء في صدره.. رغم معرفته وتأكده من نبوته..؟

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤١).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٣٠).

يبدو أن حيي بن أخطب قد قتل مع من قتل من بني قريظة، أما سلام بن أبي الحقيق فقد ورط الأحزاب، ثم خانهم جميعاً وهرب، بل خان يهود قريظة ثم انسل كالحية إلى (حصن له بأرض الحجاز)[1] في خيبر بالتحديد، فهل سيفلت من العقاب الذي حل ببني قريظة..؟

إنه يستحق أكثر من عقاب، فهو الذي خطط وتآمر وحرض ونقض العهد، ولما اشتبك أعداؤه وحلفاؤه ترك الجميع وهرب، وهو في حصنه الآن.. بين نسائه وأصدقائه.. يشرب ويتنعم ويحلم بدماء محمد ﷺ وأصحابه.. يحلم بانهيار دولتهم في أقرب فرصة.

لكن النبي ﷺ لن يترك هذا المجرم وأحلامه.. إنه فيروس خطير يسري في العقول، وينتشر في الهواء، ويلوث الحياة، لذلك فقد أصدر النبي ﷺ أمراً بالقضاء على تلك الآفة.. أصدر أمراً بـ:

قتل سلام بن أبي الحقيق

وكان أكثر المتحمسين لذلك فرسان الخزرج، الذين أرادوا منافسة إخوانهم الأوس في نصرة الله ورسوله، وفي مقدمتهم الشاب عبد الله بن عتيك.

يقول البراء بن عازب: (بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، «عبد الله بن عتبة في ناس معهم»، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل. فأقبل حتى دنا من الباب، «فانطلق رجل منهم فدخل حصنهم.

قال: فدخلت في مريط دواب لهم، وأغلقوا باب الحصن، ثم إنهم فقدوا حماراً لهم فخرجوا «بقبس» يطلبونه، فخرجت فيمن خرج، أريهم أنني أطلبه معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا»«فخشيت أن أعرف، فغطيت رأسي ورجلي كأني أقضي حاجةً، ثم نادى صاحب الباب: من أراد أن يدخل فليدخل، قبل أن أغلقه».

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩).

ثـم تقنع بثوب كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب. فدخلت، فكمنت «في مربط حمـار عند باب الحصن» فلما دخل الناس أغلـق الباب، ثم علق الأغاليق[1] على وتد، «ورأيـت صاحب الباب حيث وضع مفاتيح الحصن في كـوة، فأخذته ففتحت به باب الحصـن» فقمت إلى الأقاليد[2] فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسـمر عنده، وكان في علالي[3] له، «فتعشـوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت سـاعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم» فلما ذهب عنه أهل سـمره «هدأت الأصوات، ولا أسـمع حركة؛ خرجت» صعدت إليه «في سـلم» فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي[4] لم يخلصوا إلي حتى أقتله. فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم «قد طفئ سـراجه» وسـط عياله لا أدري أين هو من البيت، فقلت: يا أبا رافع. فقال: من هذا؟

فأهويت نحو الصوت[5] فأضربه ضربة بالسـيف وأنا دهش، فما أغنيت شـيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، «كأني أغيثه».

فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ «مالك يا أبا رافع.. وغيرت صوتي. فقال: ألا أعجبك لأمك الويل».

«قلت: ما شأنك». فقال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف.

«فعمدت لـه» فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، «فصاح، وقام أهله، ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره» ثم وضعت ضبيب[6] السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره «ثم تحاملت عليه حتى قرع العظم» «ثم أنكفئ عليه حتى سـمعت صـوت العظـم» فعرفت أني قتلته، فجعلـت أفتح الأبواب باباً بابـاً، حتى انتهيت إلى

---

(١) أي المفاتيح وهي ما يغلق بها الباب.
(٢) أي المفاتيح أيضاً.
(٣) غرفة.
(٤) أي إن علموا بي وأنذر بعضهم بعضاً.
(٥) توجهت نحو مصدر الصوت.
(٦) ربما يعني حرف حد السيف.

درجةٍ له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي «فانخلعت رجلي» فعصبتها بعمامة، «ثم أتيت أصحابي أحجل[1]، فقلت لهم: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية»

ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك، قام الناعي على السور. فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز.

«فقمت أمشي ما بي قلبة[2]، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ» فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء[3] فقد قتل الله أبا رافع.

فانتهيت إلى النبي ﷺ، فحدثته، «فبشرته». فقال لي: ابسط رجلك. فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط)[4].

أكرم الله عبدالله بن عتيك بتلك المسحة، بعد أن مسح عن وجه الأرض ذلك العفن المسمى «سلام بن أبي الحقيق».. كان عبد الله بن عتيك قلباً من حديد، وأعصاباً من فولاذ.. نشر الرعب في ذلك الحصن، وفي قلب كل يهودي.

لقد اهتز كل شيء حول المدينة وتزلزل، أما المدينة فهي الحضن الدافئ، والأمن الحاني الذي يقصده من استبد بهم الخوف، ويأوي إليها من تطارده وحوش الهموم والقلق من سوء المصير.

أحد الهائمين على وجوههم.. الموغلين في الشرك والدماء.. أحد الذين قدسوا صنم اللات وعبدوها وسدنوها، وحاربوا الإسلام ونبيه ﷺ والمسلمين من أجلها.. داهية تتضاءل أمامه الصعاب، وتتفرج لحيلته المضايق.. وقع في ورطة أدهى منه، فلم يجد سوى الإسلام ومحمد ﷺ مخرجاً منها.. هذا الداهية الثقفي المنحدر من جبال الطائف التي تضيق باللات.. يدعى (المغيرة بن شعبة) جمع الشجاعة والدهاء، عمه زعيم الطائف واسمه (عروة بن مسعود الثقفي) وقد كلفه دهاء المغيرة وحيلته الشيء الكثير، وأوقعه في ورطة كان المخرج منها:

---

(١) يرفع رجلاً ويقف على الأخرى من العرج.

(٢) أي أنه لم يشعر بالألم لشدة ما هو فيه من الأمر.

(٣) أي أسرعوا.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩) والزوائد له في (٤٠٤٠) و(٣٠٢٢).

إسلام المغيرة بن شعبة

فقد سافر المغيرة وهو مشرك مع قوم مشركين، ويبدو أنه قد صدر من هذه المجموعة ما أهان المغيرة وأغضبه، ففلا الانتقام والغضب والدهاء في رأسه، فأخذ أموالهم وتركهم نهباً لذئاب الصحـراء وطيورها الجارحة، وترك ديتهم لعمه عروة، وعندما أحس بضيق الدنيا في وجهه.. أبصر طريق الفرج مفتوحا على بساتين محمد ﷺ وأنهاره العذبة.

يقول أحد الصحابة: (كان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)[1] فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، والغدر والخيانة ليست من صفات المؤمنين.

لم يقره النبي ﷺ على قتله وسلبه لأولئك القوم رغم أنهم كانوا مشركين، والفرق بين ما فعله المغيرة وما فعله عبد الله بن عتيك بسلام بن أبي الحقيق هو أن سلاماً كان رأس فتنة يحرض على حرب المدينة ويخطط للغدر بأهلها، ثم خان المسلمين والمشركين معاً، وهرب إلى حصنه في أرض خيبر وكأنه لم يفعل شيئاً.

إن خطـر أمثال ابن أبي الحقيق أشـد من خطر جيـش بأكمله، وخيانته لا يمكن أن تتوقـف مادام يعتبرها هو وأتباعه ديناً يتعبد الله بفعله، وإذا كان الطائف قد ضاق بالمغيرة، فمكة تضيق الآن بداهية آخر، وبشجاع آخر وهو الآن يهرب منها. إنه:

عمرو بن العاص يهرب من مكة

كَلَّ دهاؤه وتلاشى كالسراب.. تأمل المكان الذي أوصله إليه شركه ودهاؤه فوجده بعيداً جداً عن المنطق، وأدرك أن بسـاطة هـذا النبي وروعة دينه أعظم من أي دهاء، وأقوى من أي كيد.

توجه عمرو بن العاص وهو الرأس في قومه إلى حيث يلتجئ الضعفاء والمساكين.. توجه محمولاً بالعناد والحيرة إلى الحبشة حيث يلتجئ جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضـي الله عنهم بعيداً عن أيـدي قريش.. ركب عمرو بن العاص سـفينة قذفته في

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

أرض الحبشة، وأقام هناك إقامة متواضعة مقارنة بإقامة المؤمنين الذين يحظون بحب وحماية النجاشـي ملك الحبشـة رضي الله عنه، وفي أحد تلك الليالي الحبشـية لمح عمـرو بن العاص جعفراً رضي الله عنه فلحق به، وحدثه حديثا يقصه بنفسـه علينا فيقـول: (لما انصرفنا من الأحزاب عن الخنـدق.. جمعت رجالا من قريش كانوا يرون مكاني ويسـمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله اني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا كبيرا منكرا، وأني قد رأيت رأيا فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟

قال: رأيت ان نلحق بالنجاشـي فنكون عنده، فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف، فلن ياتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هذا الرأي.

فقلـت لهـم: فاجمعوا له ما نهدي له، وكان أحب ما يهـدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدما كثيرا، فخرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، فدخل عليه ثم خرج من عنده.

فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إيـاه، فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلـت ذلك رأت قريش اني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسـجدت له كما كنت اصنع. فقال: مرحبا بصديقي أهديت لي من بلادك شيئا؟ قلت: نعم، أيها الملك قد أهديت لك أدما كثيرا.

ثم قدمته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

فغضب ثم مد يده فضرب بها انفه ضربة ظننت انه قد كسـره، فلو انشـقت لي الأرض لدخلـت فيها فرقـا منه، ثم قلت: أيها الملك والله لـو ظننت انك تكره هذا ما سألتكه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله..؟!قلت: أيها الملك أكذاك هو؟

فقـــال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلـــي الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم.

فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي ثم خرجت)[1].

كتم عمرو إسلامه، وأشـــار للنجاشي بعدم إفشائه، لكن هذا الدين ملأه حماساً، وعندما رأى جعفر لم يصبر عن إعلان أخوته وإسلامه.

يقول عمرو: (فلما كان ذا عشـية لقيته في السـكة، فنظرت خلفه، فلم أر خلفه أحداً، فأخذت بيده، فقلت: تعلم أني أشـهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فغمزني، وقال: أنت على هذا.

وتفرقنا، فما هو إلا أن أتيت أصحابي، كأنما شهدوني وإياه، فما سألوني عن شيء حتـى أخذوني فصرعونـي، فجعلوا على وجهي قطيفة، وجعلـوا يغمونني بها، وجعلت أخرج رأسي أحياناً حتى انفلت عرياناً، ما علي قشرة، ولم يدعوا لي شيئاً إلا ذهبوا به، فأخذت قناع امرأة عن رأسها فوضعته على فرجي، فقالت لي: كذا. وقلت: كذا -كأنها تعجبت مني-، وأتيت جعفراً فدخلت عليه بيته، فلما رآني قال: ما شأنك؟

قلت: ما هو إلا أن أتيت أصحابي، فكأنما شهدوني وإياك، فما سألوني عن شيء حتـى طرحوا على وجهي قطيفة، غموني بها، أو غمزوني بها، وذهبوا بكل شـيء من الدنيا حولي، وما ترى علي إلا قناع حبشية، أخذته من رأسها. فقال جعفر: انطلق.

فلما انتهينا إلى باب النجاشي، نادى: ائذنوا لحزب الله. وجاء آذنه، فقال: إنه مع أهله. فقال: استأذن لي عليه. فاستأذن له عليه، فأذن له، فلما دخل قال: إن عمراً قد ترك دينه واتبع ديني. قال: كلا!!

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه أحمد ٤-١٩٨ والحارث، زوائد ٢-٩٣٣ حدثني يزيد بن أبي حبيـب عن راشـد مولى حبيب بن أبي أوس عن أبي حبيب بن أبـي أوس حدثني عمرو. يزيد تابعي ثقة، وراشد قال عنه ابن معين: ثقة يروى عنه المصريون، الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، أما حبيب فقال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها فيكون هذا صحابياً وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

قال: بلى. فدعا آذنه فقال: اذهب إلى عمرو، فقال: إن هذا يزعم أنك تركت دينك واتبعت دينه. فقلت: نعم.

فجاء إلى أصحابي حتى قمنا على باب البيت، وكتبت كل شيء حتى كتبت المنديل، فلم أدع شيئاً ذهب إلا أخذته، ولو أشاء أن آخذ من أموالهم لفعلت. ثم كنت بعد من الذين أقبلوا في السفينة مسلمين)[1].

ها هي سفينة أخرى محملة بالإيمان.. قادمة من اليمن تحمل رجالاً يقصدون المدينة، لكن ربانها لم يكن بالمهارة المطلوبة، وبدلاً من أن تسلمهم المياه إلى ساحل على قارة آسيا.. قذفتهم على إحدى شواطئ أفريقيا، لكن لا بأس، فإن في الحبشة نسيماً عطراً يدعى النجاشي رضي الله عنه، وفيها أيضاً أحبة لرسول الله ﷺ لعل أشهرهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب وزوجته الشابة المجاهدة الصابرة (أسماء بنت عميس) رضي الله عنها.. ها قد نزل أهل اليمن من السفينة.. تعالوا لنقترب منها ومنهم.. نتعرف على هذه الوجوه التي أرهقها البحر والسفر، وأبحر بها الحب والإيمان.. كان من بين هؤلاء المسافرين الذين زادوا على الخمسين ثلاثة أخوة من اليمن الطيب:

أبو رهم وأبو بردة وأبو موسى في الحبشة

يقول أصغرهم سناً وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي، أنا أصغرهم أحدهما: أبو بردة، والآخر أبو رهم إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه)[2] على أرض الحبشة الرحبة.. في ضيافة ملكهم الكريم العادل (أصحمة) النجاشي، وعلى تلك الأرض الطيبة.

---

(١) سنده حسن رواه البزار. زوائد - ٢-٢٩٧: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون، عن عمير بن إسحاق، حدثني عمرو بن العاص. وقد مر معنا الحديث في المجلد الأول. عمير حسن الحديث.. قال ابن معين ثقة، وقال مرة: ليس بشيء أي قليل الحديث، وقال: النسائي: لا بأس به. وعبد الله بن عون ثقة ثبت فاضل، ومعاذ ثقة متقن من رجال الشيخين وشيخ البزار ثقة ثبت يعرف ب(الزمن).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٣٦).

لم تصفُ الحياة للمؤمنين، لكنها كانت بعيدة عن مخالب قريش على كل حال، كان من بين المهاجرين فتاة مؤمنة.. تمرد إيمانها على زعامة أبيها وسلطته، فأخذت بيد زوجها إلى أول مركب وأبحرت إلى الحبشة.. هذه الفتاة هي بنت زعيم قريش ومكة.. بنت أبي سفيان، واسمها «رملة» وتكنى بـ (أم حبيبة).

أم حبيبة تبكي في الحبشة

حزينة على أرض الحبشة.. بعيدة عن مكة والمدينة.. لم يكن البعد وحده الذي يعصف بقلب أم حبيبة، فزوجها الآن طريح الفراش مريض، وقد اشتد به المرض، وعندما أحس بأنامل الموت تدنو منه وتدب في أوصاله.. همس بمن حوله برسالة إلى النبي ﷺ.

رسالة قبل الموت

بعث بها عبيد الله بن جحش الذي هاجر مؤمناً[1] إلى أرض الحبشة.. إلى النبي ﷺ يوصيه بأحب الناس إلى قلبه.. يوصيه بالحبيبة أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان».

تقول عائشة رضي الله عنها: (هاجر عبيد الله بن جحش بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة مرض، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى رسول الله ﷺ)[2] فوصلت الوصية، فبعث ﷺ الرد مع أحد المؤمنين القادمين على هذا القارب الذي يتهادى فوق مياه البحر نحو سواحل الحبشة.. إنه يرسو الآن حاملاً لأم حبيبة البشرى والعزاء، فقد انقضت أيام حدادها وأحزانها، وجاء صاحب رسول الله ﷺ يخطبها.

---

(١) روي أن عبيد الله مات نصرانياً على أرض الحبشة مرتداً عن الإسلام، لكنني لم أجد حديثاً صحيحاً يثبت ذلك، إنما وجدت العكس وهو الحديث التالي والله أعلم.

(٢) سنده صحيح رواه ابن حبان (الزوائد - ٣١٢) أخبرنا ابن خزيمة، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، حدثنا سعيد بن كثير بن عفير، حدثنا الليث عن ابن مسافر عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة. عروة وابن شهاب الزهري مرا معنا كثيراً. أما ابن مسافر فاسمه: عبد الرحمن بن خالد بن مسافر - أمير مصر - قال ابن يونس وتلميذه الذهلي: ثبت. وقال العجلي والدارقطني: ثقة التهذيب ٦/١٦٢ والبقية أئمة ثقات.

استبشـــرت أم حبيبة بهذا الخبر، وفرح النجاشي، فقد وجدها فرصة ولا أنسب ليقدم هدية للنبي ﷺ:

النجاشي يهدي للنبي ﷺ مهر أم حبيبة

مهرها كله.. هدية من النجاشـــي للنبي ﷺ، ثم أرســـلها مع صحابي كريم اسمه (شرحبيل بن حسنة)

عـــن ذلك تقول أم حبيبة رضي الله عنهـــا: (أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش «وكان أتى النجاشـــي» فمات بأرض الحبشـــة «وأن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة وإنها بأرض الحبشـــة» فزوجها النجاشـــي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف «ثم جهزها من عنده» وبعث بها إلى رســـول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة «وجهازها كله من عند النجاشي»)[1]

عبـــرت أم حبيبة الحزن والغربة والبحر تحمل مهرها والفرح، فقد جعلها الله من أمهات المؤمنين.. من ســـيدات نساء العالم والجنة.. من حبيبات محمد ﷺ، وصار لها بدل الهجرة هجرتان، وأزاح ذلك العرس ما بها من شقاء وغربة وأحزان.

وصلت رملة ففرح بها النبي ﷺ.. تشاركه حياته ومعاناته وأفراحه، أما والدها أبو سفيان فيبدو أن الخبر أفرحه، لذلك لم يصدر منه ما ينبئ عن استنكاره لذلك الزواج، فهو يعتبر النبي ﷺ زعيماً لا مثيل له، وإنه لشرف أن يكون صهراً لهذا الزعيم.

ولئن كان زواج النبي ﷺ من رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها قد أبهج والدها، إلا أن النبي ﷺ قد عزم على ما يكدر صفوه، ويضيف إلى هزيمته عند الخندق هزيمة أخرى، فـ:

---

(١) ســـنده صحيـــح رواه أبو داود (٢١٠٧) واللفظ له وأحمد ٦-٤٢٧ والزوائـــد له: حدثنا ابن المبارك، حدثنا معمـــر، عن الزهري عن عروة عن أم حبيبة. عروة والزهري ثقتان مرا معنا كثيراً، ومعمر ثقة ثبت فاضل - التقريـــب (٥٤١) ولخص الحافظ القول في ابن المبارك: ثقة، ثبت، فقيه، عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير - التقريب (٣٢٠).

النبي ﷺ يريد أداء العمرة

وهذا من حقه، ومن حق أي عربي، بل من حق أي إنسان أن يزور بيت الله ويطوف به، لكن قريشاً تفكر بطريقة مختلفة، فهي لا تنظر إليه حقاً من حقوق خصمها، الذي يجب عليها أن تؤمن له الحماية ما دام على أرضها، وهذه من صفات قريش الكريمة العتيدة المحسوبة لها، لكنها تنظر إلى هذه العمرة على أنها هزيمة يلحقها محمد ﷺ وأصحابه بها كسابقاتها.

كيف يطوف هو وأصحابه وقد طردوهم بالأمس من مكة..؟ كيف يأتون مكة دون إذن قريش.. أين مكانة قريش وأصنامها..؟

سؤال ضاقت به مكة، أما رسول الله ﷺ فلم يبال برأي قريش.. لقد أراه الله في منامه رؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي، وقد قص النبي ﷺ على أصحابه تلك الرؤيا، وبشرهم بأنهم سيطوفون ببيت الله بعد طول غياب عنه.. بعد خمس سنوات من الحرمان.

يقول عمر بن الخطاب: إن النبي ﷺ (كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به)[1] فتهللت وجوه الصحابة، وأفرحهم الخبر، وأعدوا للسفر عدته، وأطلق اسم (الحديبية) على تلك العمرة فيما بعد. فـ:

متى كانت عمرة الحديبية

وماذا جرى على أرض الحديبية البعيدة عن المدينة، والتي تقترب من مكة بمسافة ٢٢ كيلاً؟

يقول ابن عمر: (إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً)[2] و(كانت الحديبية سنة ست بعد مقدم النبي ﷺ المدينة في ذي القعدة)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) وهو حديث طويل.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠١).

(٣) حديث حسن رواه البيهقي ٤-٩١ لكنه مرسل أرسله نافع ويقويه ما ذكره الحافظ في الفتح: وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند حسن عن ابن عمر قال: كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع) وقد ثبت أن عمرة القضاء بعد عمرة الحديبية بعام.

ويؤكـد أنـس أن (عمرة الحديبية في ذي القعدة)[1] ولـم تقتصر دعوته ﷺ على أصحابـه، بل دعـا الأعراب المتناثرين حـول المدينة لمصاحبته، علَّ العمرة تذيب ما ببعضهم من جلافة وجفاء، لكن بعض تلك الجلافة كان صدأً لا يذيبه سوى اللهب.

موقف بعض الأعراب من الخروج للعمرة

موقف كالعار، فبعض الأعراب تصحر من رأسـه حتى قدميه، فهم يتلهفون للنهب والسـلب والغنيمة الباردة، وحسـاباتهم لا تعدو ذلك، وبعضهم وإن ادعوا الإسلام، إلا أن أرقام قريش ما زالت تخيفهم، وحشـود الأحـزاب مازالت في نظرهم تكمن خلف الأكمات والهضاب، أما نصر الله ووعده، والثقة برسوله ﷺ ووحي الله لـه، فلا رصيد لها في تلك النفوس المتكلسة.

إنه كسـراب الصحراء الممتد داخلهم. لقد ظنوا أن قريشـاً سـتفني محمداً ﷺ وأصحابـه، فـلا داعي للمجازفة في معركـة معروفة النتائج سـلفاً، ولذا فقد ادعوا أنهم مشـغولون بأموالهم وأهلهم وشؤون دنياهم، وطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم ويسـامحهم ويعفيهم من المسير معه نحو مكة. لكن الوحي نزل يفضح سوء ظنهم بالله ورسوله، ويعري حقيقتهم، ويكشف عارهم..

يقول العليم الخبيـر: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾[2]

آيـات عظيمات.. آيات تختـرق أعذار بعض الأعراب الواهيـة، لتنزع منها جبنهم وأسـرار تخلفهم، ولابد أن المنافقين شـاركوهم الرأي والتخلف.. ولذا لم يلح النبي ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٧٧٨).

(٢) سورة الفتح: الآيات ١١-١٤.

عليهم، فلا خير فيهم ولا في صحبتهم.. إنه ليس بحاجتهم عند جلاد السيوف والعراك، فكيف يكون اليوم بحاجتهم وهو لا يريد سوى السلام وزيارة بيت الله وأداء العمرة فيه، فقد (خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد القتال، وساق معه الهدي سبعين بدنة)[1] ساقها معه من المدينة لينحرها لله في مكة، فكما أن الصلاة لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له، فكذلك النحر.. لا يجوز لأحد كائناً من كان، إلا الله وحده لا شريك له. يقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[2]

ولم يأخذ ﷺ الهدي معه فقط، بل أخذ السلاح أيضاً.. لم يأخذه ليقاتل به بل احتياطاً، فالطريق طويلة وشاقة، وقد تباغت قريش أو أعوانها من هنا أو هناك.

خرج ﷺ من المدينة، وكان عدد الذين خرجوا مع النبي ﷺ يصل إلى ألف وأربعمائة.. توجه إليهم النبي ﷺ بقلبه وحديثه، وبشرهم ببشرى تتطامن أمامها كنوز الدنيا ومساحاتها وألقابها.

جابر بن عبد الله رضي الله عنه أحدهم.. أحد الذين شملتهم تلك البشرى.. يحدث الدنيا فيقول: (قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأربعمائة)[3].

ويقول أحد هؤلاء وهو البراء رضي الله عنه: (كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة)[4]

وقال كل من معقل بن يسار والمسيب بن حزن رضي الله عنهما: (ألفاً وأربعمائة)[5] وقد يكون العدد أكبر من ذلك، أي أن عدد الصحابة الذين خرجوا معه ﷺ قد يبلغ ألفاً وخمسمائة صحابي. قال أحد أبناء الصحابة الثقات واسمه: سعيد بن المسيب بن حزن عندما قال له أحد أصحابه: (بلغني أن جابر بن عبد الله يقول: كانوا أربع عشرة

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق سماعا ومن طريقه أحمد ٣-٣٢٣ حدثنا الزهري عن عروة، عن المسور ومروان.. وهذا سند البخاري في روايته لقصة الحديبية.

(٢) سورة الكوثر: الآيات ١-٣.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٤).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).

(٥) مسلم الإمارة وابن سعد (٩٩/٢) واللفظ له.

مائة؟ قال: نسي جابر كانوا ألفاً وخمسمائة)[1] (وهَمَ جابر رحمه الله وهو حدثني أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة)[2]

توجهوا بمطاياهم وقلوبهم خلف رسول الله ﷺ نحو بيت الله الكريم، وبعد أن قطعوا مسافة توقف بهم النبي ﷺ في مكان يدعى «ذو الحليفة» وكان:

التوقف بذي الحليفة

ضرورياً لأداء العمرة، فالعمرة باختصار: طواف حول الكعبة، ثم مشي بين جبلي: الصفا والمروة، وقبل ذلك إحرام من مكان يقال له الميقات. وقد حدد ﷺ لكل بلد ميقاتها، بل حدد لجهات الدنيا كلها أماكن تحرم منها، فميقات أهل المدينة هو «ذو الحليفة» يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن النبي ﷺ وَقَّتَ لأهل المدينة: ذا الحليفة، ولأهل الشام: الجحفة، ولأهل نجد: قرن المنازل، ولأهل اليمن: يلملم، هن لأهلهن، ولكل آت عليهن من غيرهن «من غير أهلهن» فمن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ[3] حتى أهل مكة من مكة)[4].

والإحرام هو أن ينوي المعتمر أو الحاج بدء ممارسة العمرة، أو الحج، أو العمرة والحج معاً، والأفضل أن يكون لباس المحرم عبارة عن قطعتين من القماش فقط، تسمى إحداهما إزاراً وتلف حول أسفل الجسم، وأما الأخرى فتسمى رداءاً وتلف حول أعلى الجسم، ولكن بطريقة خاصة حتى نهاية الطواف، وتسمى هذه الطريقة بـ (الاضطباع) والاضطباع هو: أن يلف الرداء حول أعلى الجسد مع تغطية الكتف الأيسر، وكشف الكتف الأيمن، أي إدارة الرداء من تحت الإبط الأيمن.

وهناك ملابس حرم النبي ﷺ لبسها على المعتمر والحاج منها: القميص والعمامة والسراويل والبرانس وهي مثل الملابس المغربية فيها غطاء للرأس والأحذية التي تغطي الكعبين. حيث قال: (لا يلبس المحرم القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البرنس

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) وخليفه (٨١) واللفظ له.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) والبيهقي واللفظ له (٤/٩٧).
(٣) أي من كانت بلده اقرب من جميع المواقيت إلى مكة فيحرم من مكانه.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٥٣٠).

ولا ثوبا مسه زعفران ولا ورس ولا الخفين إلا لمن لم يجد النعلين فإن لم يجدهما فليقطعهما أسفل من الكعبين)[1]

وصل ﷺ إلى الحديبية، فقلد ما معه من الهدي، أي علق على رقابها شيئاً لتعرف أنها هدي سيذبح في مكة لله، وأشعر الهدي وعلمه بعلامة يعرف بها أنه هدي لله، وأحرم بالعمرة.

يقول أحد الصحابة: (خرج النبي ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كان بذي الحليفة، قلد الهدي، وأشعره، وأحرم بالعمرة)[2] (وصلى بها)[3].

وأحرم معه بقية الصحابة رضي الله عنهم إلا صحابياً واحداً اسمه: (الحارث بن ربعي) ويعرف بـ «أبي قتادة» رضي الله عنه، في هذه الأثناء انطلق أحد الصحابة رضي الله عنهم مسرعاً نحو مكة لأداء العمرة ولشيء آخر، فقد صدر:

أمر النبي ﷺ برصد تحركات قريش

وقد اختار ﷺ لهذه المهمة رجلاً مناسباً اسمه: بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فخزاعة وكعب قبيلة واحدة.

يقول أحد الصحابة: (فلما أتي ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بالعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ)[4] وسار بشر يرصد تحركات قريش ويجمع أخبارها، أما أبو قتادة فلم يأمره ﷺ بالإحرام، لكنه أمره بمهمتين:

مهمتان لأبي قتادة

الأولى: جمع زكاة بعض المسلمين في الجوار.

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٥- ٢١٨٧

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٦٩٤) (١٦٩٥).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨) (٤١٧٩)

الثانية: التصدي لسرية معادية من المشركين في مكان بين المدينة ومكة، ويبدو أنه قريب من ساحل البحر الأحمر ويسمى: (غيقة).

انطلــق أبو قتادة ومــن معه ينفذون أوامــر نبيهم ﷺ، وفي الطريــق رأى هؤلاء الصحابة شــيئاً لا يقدر على نيله إلا أبــو قتادة، أما هم فلا يجوز لهم ذلك، بل اكتفوا بتبادل الابتسامات والضحكات. فماذا فعل أبو قتادة ولماذا يضحك أصحابه؟

أبــو قتادة رضي الله عنه يقــول: (انطلقنا مع النبي ﷺ عــام الحديبية، فأحرم أصحابه ولم أحرم)[1] وكان سبب عدم إحرام أبي قتادة هو ما يقوله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (بعث رســول الله ﷺ أبا قتادة الأنصاري على الصدقة، وخرج رسول الله ﷺ وأصحابه محرمين حتى نزلوا بعســفان)[2] لكن خبراً وصل إلى النبي لله ﷺ جعله يوجه أبا قتادة إلى مكان يقال لـه: (غيقة) حيث تتواجد هناك قوة من المشــركين تستعد للانقضاض على النبي ﷺ وأصحابه، وهي قريبة من ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة.

يقــول أبو قتادة: (انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم أحرم، فأُنبئنا بعدوٍ «بغيقة» فتوجهنا نحوهم)[3] (فقال ﷺ: خذوا ســاحل البحر حتى نلتقي. فأخذوا ســاحل البحــر، فلما انصرفوا أحرمــوا كلهم إلا أبا قتادة لــم يحرم)[4] وقد تركوا (النبي ﷺ بالقاحة)[5] وهو مكان بين مكة والمدينة، (فبينما هم يســيرون إذ رأوا حُمرُ وحش)[6] (فلما رأوه تركوه)[7] (فجعل بعضهم يضحك إلى بعض)[8] (وأنا مشغول أخصــف نعلي، فلم يؤذنوني به وأحبوا لو أني أبصرته فالتفت فأبصرته)[9] (وأنا رجل

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٢) رواه البــزار ٢-١٨زوائــد، وابن حبان ٩-٢٨٨ من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن عبيد الله بن عمر عن عياض بن عبد الله بن سعد عن أبي سعيد. عياض تابعي ثقة - التقريب ٤٧٣ وعبيد الله مثله وتلميذه ثقة كذلك.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤). ومسلم (١١٩٦).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤). ومسلم (١١٩٦).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).

حلٌّ على فرسي، وكنت رقاءً على الجبال، فبينا أنا على ذلك إذ رأيت الناس متشوقين لشيء، فذهبت أنظر، فإذا هو حمار وحش، فقلت لهم: ما هذا؟ قالوا: لا ندري. قلت: هو حمارٌ وحشيٌّ؟ فقالوا: هو ما رأيت)[1] (واستعنت بهم، فأبوا أن يعينوني)[2].

نهض أبو قتادة (فركب فرساً يقال له: الجرادة)[3] ويقول: (فقمت إلى الفرس فأسرجته، ثم ركبت، ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح. فقالوا: لا، والله لا نعينك عليه بشيء. فغضبت، فنزلت، فأخذتهما، ثم ركبت، فشددت على الحمار، فعقرته)[4] (فأتيت إليهم فقلت: قوموا فاحتملوه. قالوا: لا نمسه. فحملته حتى جئتهم به، فأبى بعضهم، وأكل بعضهم. فقلت: أنا أستوقف لكم النبي ﷺ)[5] (فطلبت النبي ﷺ، أرفع فرسي شأواً وأسير شأواً، فلقيت رجلاً من بني غفار في جوف الليل. قلت: أين تركت النبي ﷺ؟ قال: تركته بـ: تعهن[6] وهو قائل السقيا[7]. فقلت: يا رسول الله، إن أهلك «أصحابك» يقرؤون عليك السلام، ورحمة الله، إنهم قد خشوا أن يقتطعوا دونك فانتظرهم «ففعل»[8].

قلت: يا رسول الله، أصبت حماراً وحشياً وعندي منه فاضلة، فقال للقوم: كلوا، وهم محرمون)[9] لأنهم لم يشاركوا في صيده.

شارك ﷺ أصحابه في تلك الأكلة، حيث يقول أبو قتادة رضي الله عنه: (وخبأت العضد معي، فأدركنا النبي ﷺ، فسألناه عن ذلك، فقال: معكم منه شيء؟ فقلت: نعم.

فناولته العضد فأكلها حتى نفدها وهو محرم)[10] ثم مكث ﷺ وأصحابه بانتظار أصحاب أبي قتادة الذين كانوا يسيرون ويتساءلون (أنأكل لحم صيد ونحن محرمون)[11]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢١).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٦) مكان بين مكة والمدينة.
(٧) أي أنه سيقيل في مكان يقال له السقيا.
(٨) ما بين الأقواس الصغيرة عند البخاري (١٨٢٢).
(٩) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٢١).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٧٠).
(١١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

لقد (أكلوا، فندموا، فلما أدركوه)[1] ﷺ سـألوه فقال ﷺ: (أمنكم أحد أمره أن يحمل عليهـا أو أشـار إليها؟ قالوا: لا. قال: فكلـوا ما بقي من لحمهـا)[2]. (كلوا فهو طعم أطعمكموه الله)[3]

فأكل الصحابة واطمأنت قلوبهم بالحلال، ثم واصلوا مع رسـول الله ﷺ المسـير نحو مكة لأداء العمرة في بيت الله الحرام، حتى وصلوا إلى مكان يقال له (عسـفان) عندها قرر النبي ﷺ:

التوقف في عسفان ووصول الجاسوس

توقف ﷺ للاستراحة فالسفر شاق وطويل، والليل يخيم بهدوء على تلك الأرض، والصحابة ينسـابون في عالم النوم بعد أن فرغوا مـن مناجاة خالق الكون في صلاة خاشعة، وفجأة تطاير النوم عنهم من هنا وهناك، فقد تساقطت قطرات المطر عليهم فأيقظتهم، وأفرحتهم، فهم بحاجة إلى الماء كحاجتهم إلى النوم.

وفي الصباح المنعش أحب ﷺ بحاجة أصحابه إلى أن يتمتعوا بالمطر والتوحيد معاً، لذلك فقد تحدث إليهم بعد أن أدوا صلاة الفجر.. تحدث إليهم عن المطر بلغة كالمطر.

يقول زيد بن خالد الجهني وهو أحد الصحابة الذين أصابهم ذلك المطر: (خرجنا مع رسـول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رسـول الله ﷺ الصبـح، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: الله ورسـوله أعلم، فقال: قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي:

فأما من قال: مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بي.

وأما من قال: مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي)[4]

إن الكواكـب لا تضر ولا تنفع، والتعلق بها شـرك.. إنها خلـق من خلق الله، وقد سخر الله هذه النجوم ليستغلها الإنسان.. ليستفيد منها.. ليكتشفها ويطوعها ويتفكر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤٧). ومسلم (٧١).

فيها.. أما المشــركون المتخلفون، فقد أهانوا عقل الإنســان وانحطوا به إلى مســتوى يخضع فيه لجلاميد الصخور ورماد اللهب.

نزل القرآن ليحرر هذا العقل المكبل بالخرافة والخوف.. ليطلقه في الكون.. نزل القرآن يقدم النجوم والشــمس والقمر والبحار، وكل ما في الســموات والأرض هدايا للإنسان.. يستمتع بها.. ينعم بها.. يستغلها في رفاهية البشرية جميعاً.. القرآن يقدم الكون للإنسان في علبة هدايا.. يقدمه بصورته الحقيقية التي لا تعني سوى التوحيد.. ها هو القرآن يخاطب الإنسان ليحرره من الخوف والخرافة فيقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾[2].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾[3].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾[4].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾[5].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾[6].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[7].

القرآن يجعل من الإنسان سيداً في هذا الكون. فلماذا يتنازل عن سيادته ليصبح عبداً لحجر أو نهر أو شمس أو حطب متقد. هذا هو الفرق بين الإنسان موحداً سيداً في الكون، وبين الإنسان مغلولاً بالشرك والأوهام.

---

(١) سورة الحج: الآية ٦٥.
(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٢.
(٣) سورة النحل: الآية ١٤.
(٤) سورة النحل: الآية ١٤.
(٥) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.
(٦) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.
(٧) سورة الجاثية: الآية ١٣.

المطـر من عند الله، والنجوم من عند الله، ومتى ما اعتقد المسـلم أن نجماً ينزل المطر أو يمنعه، فقد اعتقد شركاً.

حفر الصحابة تلك الكلمات في صدورهم، وأشـرقت الشمس منتعشة بالتوحيد والمطر، وأقبل راكب من بعيد.. إنه معروف لدى الصحابة ولدى رسـول الله ﷺ، فهو الفارس الذي بعثـه النبي ﷺ ليرصد تحركات مكة، ويقدم تقريراً مفصلاً عن قريش وموقفها من عمرة النبي ﷺ.

قريش تتحرك لمواجهة النبي ﷺ

ترجل الفارس عن مطيته وسلم على رسول الله ﷺ وأصحابه فردوا عليه السلام، وكان ذلك في مكان يقال له (غدير الأشـطاط) قريب من عسفان نحو مكة، حيث كان النبي ﷺ (بعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه)[1] الذي أرسـله، وهو بشر بن سـفيان ولما (لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العوذ المطافيل[2]، قد لبسوا جلـود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلهـا عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم)[3] (إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت ومانعوك)[4] (قال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سـائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلـوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)[5]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٢) الأطفال والنساء.

(٣) حديث حسـن رواه ابن إسـحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢٢ وغيره: حدثني الزهري عن عروة عن المسـور ومروان وسند ابن إسحاق هو سند البخاري.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٥) حديث حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢٣ وهو الحديث السابق.

كلمات مملوءة حسـرة وألماً.. حلف بعدها ﷺ أن لا يترك الجهاد لنشر رسالة الله التي بعثه الله بها إلى جميع الناس، حتى ينتشـر في كل الأرض أو تنقطع سـالفته، أي يفارق رأسـه جسـده، أو تفارقه روحه.. عزم حديد وبأس شديد، لكن دون تهور.. دون انفراد بالرأي والقرار. لقد التفت ﷺ بحديثه إلى أصحابه الذين تجشموا معه الصعاب والألم، وخاطبهم كعادته، فرأيهم له وزنه، وقراراهم له قيمته.. شـاورهم وهو الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا حقاً، لتكون الشورى بعده واجبة على كل قائد وإمام:

مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في شن الحرب

استشـار ﷺ أصحابه كلهم دون اسـتثناء.. دون تعيين، ثم أصغى جيداً. بعد أن قال: («أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فإن يأتونا كان الله عزّ وجلّ قد قطع عيناً من المشـركين، وإلا تركناهم محروبين»..؟

قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه.

قال ﷺ: «امضوا على اسـم الله»)[1] بعد أن أخذ برأي صاحبه الحكيم رضي الله عنـه.. مضى النبي ﷺ وأصحابه، وكان هناك من يراقبهم من بعيد، ولما صار النبي ﷺ بين ضجنان وعسفان تسللت سرية خالد بن الوليد، وكان خالد من القادة الأفذاذ، الذين لا يتهورون بإلقاء جيوشهم في أتون محرق من الحماس والإيمان بقيادة النبي ﷺ، لذلك فكر بطريقة ينقض فيها على المسلمين وهم غافلون.

شـاهد خالد بن الوليد المؤمنين وهم يؤدون الصلاة.. لا يلتفتون.. لا يكلم بعضهم بعضاً.. ينسـابون في خشوع غامر مع ربهم.. لا يشتغلون بشيء أثناء قيامهم وركوعهم وسجودهم، إلا التوجه نحو الله. هذا التوجه الذي أفرح خالداً والمشركين معه.

لقد وجدوا في هذا الخشـوع ثغـرة ينقضون منها على جمـع المؤمنين ليفنوهم، ولذلـك اتخذ خالد بن الوليـد قراراً بالهجوم على جيش الإسـلام وهم يؤدون صلاة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨).

العصر، لكن شيئاً حدث، وغير من طريقة الصلاة في تلك الظروف، التي يحملق فيها الرعب من كل مكان على المؤمنين.

كيف صلى النبي ﷺ العصر

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (نزل ﷺ بين ضجنان وعسفان)[1] (فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم)[2].

ثم قالوا: (إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأبكارهم، وهي «العصر»، فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة)[3]. (فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح: فصففنا خلفه صفين، ثم ركع فركعنا جميعاً.

ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا.. جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم. ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء.

ثم ركع ﷺ فركعوا جميعاً، ثم رفع ﷺ فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه.. والآخرون قيام يحرسونهم.

فلما جلس ﷺ جلس الآخرون، فسجدوا فسلم بهم، ثم انصرفنا.

فصلاها ﷺ مرتين، مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم)[4] عندها أدرك المشركون أن لا سبيل إلى المؤمنين حتى في الصلاة، فالصلاة وإن كانت خشوعاً واتجاهاً إلى الله

---

(١) حديث صحيح رواه النسائي (٣/١٧٤) والترمذي (٣٠٣٥) (والطبري في التفسير - من طريق عبد الصمد، حدثنا سعيد بن عبيد الهنائي حدثنا عبد الله بن شقيق حدثنا أبو هريرة.. عبد الله بن شقيق تابعي ثقة وتلميذه سمع منه وهو صدوق.. وعبد الصمد بن عبد الوارث صدوق انظر التقريب (١/٣٠١ - ٤٢٢ - ٥٠٧).

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٤/٥٩) والطبراني (٥/٢١٣) (٥/٢١٦) وغيرهم من طريق منصور بن المعتمر عن مجاهد عن أبي عياش رضي الله عنه ومنصور ثقة ثبت لا يدلس - التقريب (٢/٢٧٧).

(٣) هو حديث أبي هريرة السابق.

(٤) هذا حديث أبي عياش الزرقي السابق.

بكل المشاعر، إلا أنها لا تعني التسمر. فالنبي ﷺ كان يفعل أشياء كثيرة أثناء صلاته، فهو يحمل الحسن رضي الله عنه في صلاته، وينزله إذا أراد الركوع، ثم يحمله ثانية إذا أراد القيام[1]

وتقول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يصلي والباب عليه مغلق، فجئت، فاستفتحت، فمشى ففتح لي ثم رجع إلى مصلاه)[2]

وكان ﷺ يرد السلام وهو يصلي، ولكن بالإشارة بالكف، أو بالإصبع.

يقول صهيب الرومي رضي الله عنه: (مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه، فرده إشارة بإصبعه)[3]

وها هو يتدخل في صلاته ليفك اشتباكاً بين طفلتين. يقول أحد الصحابة: (جاءت جاريتان من بني عبد المطلب اقتتلتا، فأخذهما، ففرغ بينهما فنزع إحداهما من الأخرى)[4] ويقول أنس: (إن النبي ﷺ كان يشير في الصلاة)[5]

وتقول عائشة: إنها كانت تنام وأرجلها أمام النبي ﷺ وتقول: (لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلي وأنا معترضة بين يديه، فإذا أراد أن يسجد غمز رجلي فضممتها إليّ ثم يسجد)[6].

إذا كان ﷺ يفعل ذلك وهو في ساعات السلام.. في داخل بيته، فساعات حمل السلاح في ساحات الحرب والخوف أدعى وأكثر ضرورة.

---

(١) مر معنا عند الحديث عن الحسن رضي الله عنه.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٢) وغيره من طريق بشر بن المفضل حدثنا برد بن سنان عن الزهري عن عروة عن عائشة. بشر ثقة ثبت وبرد صدوق انظر التقريب.

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٥) وغيره من طريق بكير عن ابن عمر عن صهيب والنسائي في الكبرى من طريق الليث عن أبي الزبير عن جابر وهذا السند صحيح.

(٤) سنده صحيح رواه أبو داود (٧١٦) وغيره من طريق منصور بن المعتمر عن الحكم عن يحيى بن الجزار عن أبي الصهباء عن ابن عباس. وأبو الصهباء ثقة وليس كما توحي ترجمته في التقريب فقد وثقه العجلي لفظياً وأبو زرعة وجرحه غير مفسر.

(٥) حديث صحيح -السابق (١٧٧/١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (٧١٢).

فهم المشـــركون أن الصلاة ليست تسـمراً وتحنيطا للأعضاء، بل خشوع لا ينافي الشعور بما يجري حول الإنسان.

أدرك المشـــركون ذلك، وكان ﷺ أذكى مما تصوروا، فقد بث عيونه ترصد الأرض المحيطة بالمؤمنين، أما خالد فقد انســحب إلى مكان يقـال له (كراع الغميم) وجاءت عيـون النبي ﷺ تخبره فقال لأصحابه: (إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين.

فوالله ما شـعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ)[1]، وسـارت من حوله عيونه، ثم جاءته أخبار خالد مرة أخرى، فأمر بتغيير طريق السـير.. كل ذلك لأنه لم يخرج للقتال، بل خرج لزيـارة بيت الله وأداء العمرة، لكن قريشـاً تبحث عن المتاعب، بينما كان ﷺ يتجنبها، حتى لقد سلك من أجل تجنب الحرب طريقاً وعراً شـاقاً كي يتفادى مواجهة قريش، وفي ذلك الطريق الوعر لاحت ثنية صعبة التجاوز. لكن النبي ﷺ بشر الصحابة أن:

من عبر الثنية غفر الله له

يقـول أبو سـعيد الخدري رضي الله عنـه: (خرجنا مع النبـي ﷺ حتى إذا كنا بعسـفان قال لنا رسـول الله ﷺ: «إن عيون المشركين الآن على ضنجان، فأيكم يعرف طريق ذات الحنظل»؟

فقال رسـول الله ﷺ حين أمسى: هل من رجل ينزل فيسعى بين يدي الركاب[2]؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله.

فنزل، فجعلت الحجارة تنكبه[3]، والشجر يتعلق بثيابه. فقال رسول الله ﷺ: «اركب. ثم نزل آخر، فجعلت الحجارة تنكبه، والشجر يتعلق بثيابه، فقال رسول الله ﷺ: اركب. ثم وقعنا على الطريق حتى سرنا في ثنية يقال لها (الحنظل) فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية إلا كمثل الباب الذي دخل فيه بنو إسرائيل» قيل لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٢) أي يمشي أمام الناس.
(٣) تضرب رجله وتصيبه.
(٤) سورة البقرة: الآية ٥٨.

لا يجوز[1] أحد الليلة هذه الثنية إلا غفر له. فجعل الناس يجوزون، وكان آخر من جاز قتادة بن النعمان في آخر القوم. فجعل الناس يركب بعضهم بعضاً، حتى تلاحقنا، فنزل رسول الله ﷺ ونزلنا)[2].

كان ﷺ يتابع هذا التسابق نحو المغفرة بفرح، وبعد أن عبر المؤمنون كلهم وتجاوزوا تلك الثنية الصعبة.. رأى ﷺ أعرابياً لا يبالي بالبشرى، ولا وزن للمغفرة عنده.. أكلت الدنيا قلبه، فخرج مع المؤمنين عله يحظى ببعض غنيمة من حطام الدنيا.. رأى ﷺ ذلك الحطام الأعرابي، فالتفت إلى أصحابه وبشرهم بالمغفرة ولم يبشر ذلك الحطام بشيء.

يقول جابر رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ: من يصعد الثنية «ثنية المرار» فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل.

فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج، ثم تتام الناس، فقال رسول الله ﷺ: وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر. فأتيناه، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله، لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم، وكان رجل ينشد ضالة له)[3] (وإذا هو أعرابي جاء ينشد ضالة له)[4] فضل معها، وكان أضل منها..

لا أدري ما فعلت به الدنيا، ولا ما فعلت ضالته..؟ فقد تركه الصحابة وشأنه، وتوجهوا خلف رسول الله ﷺ الذي انحدر من تلك الثنية على أرض يقال لها (الحديبية) وعندما لامست أخفاف ناقة النبي ﷺ «القصواء» أرض الحديبية توقفت فجأة وبركت.

القصواء تبرك في الحديبية

والصحابة يصيحون بها.. يحثونها على النهوض ويقولون: حل.. حل.. لكنها لم تنهض، ولم تتزحزح عن مكانها، فقد (سار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط

---

(١) يتجاوز ويعبر.

(٢) سنده صحيح رواه البزار (الزوائد - ٣٣٧٢) حدثنا إسحاق بن بهلول، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد. شيخ البزار ثقة تاريخ بغداد ٦-٣٦٦ وشيخه صدوق من رجال الشيخين وزيد وعطاء تابعيان ثقتان وهشام أثبت الناس عن زيد كما قال أبو داود التهذيب ١١-٣٩.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -صفات المنافقين.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - صفات المنافقين.

عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل.. حل. فألحت[1]، فقالوا: خلأت[2] القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»[3] حبسها الله الذي حبس الفيل عن دخول مكة لهدم الكعبة. ثم قال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)[4] (والله لا تدعوني قريش اليوم، إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)[5] (ثم زجرها، فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل يتبرضه الناس تبرضاً)[6] أي نزل في مكان اجتمع فيه ماء قليل يستسقي منه الناس تبرضاً، أي بأكفهم، وكان فيها بئر يقول عنه البراء: (الحديبية بئر، فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي ﷺ على شفير البئر فدعا بماء، فمضمض ومج في البئر)[7] بعد أن استنزفه (الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش)[8] لكن النبي ﷺ قال للناس: (انزلوا، فقالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله سهماً من كنانته)[9] (ثم أمرهم أن يجعلوه فيه)[10] (فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه فيه، فجاش الماء بالرواء، حتى ضرب الناس عنه بعطن)[11] أي بركت حوله رواحلهم، فارتوت عروقهم، واطمأنت نفوسهم، وشكروا خالقهم على هذه النعمة العظيمة، والمعجزة التي أجراها سبحانه على يد نبيه ﷺ، الذي توقف في هذه الأرض بوحي من الله، وهو الآن يستدعي أحد أصحابه واسمه (خراش بن أمية الخزاعي) ليكلفه بمهمة خطيرة، وقد اختاره ﷺ من قبيلة خزاعة (وكانت خزاعة في عيبة[12] رسول الله ﷺ مسلمها، ومشركها،

---

(١) بقيت في مكانها.

(٢) حرنت.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٤) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).

(٥) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٩) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).

(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(١١) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١). وأحمد ٣٢٣ واللفظ له.

(١٢) يثق بهم ويثقون به.

لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة)[1] (كانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة)[2] فهم موضع ثقة عند الطرفين، ولم يكتف ﷺ باختيار رسوله بدقة، بل اختار له راحلة مميزة.. لقد أركبه ﷺ على جمله، ثم أمره بالانطلاق، فانطلق ليخبر قريشاً أن:

النبي ﷺ يعرض هدنة وقريش تريد قتل رسوله

(بعث ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب. فلما دخل مكة عقرت به[3] قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعهم الأحابش حتى أتى رسول الله ﷺ)[4] ولولا الله ثم تدخل الأحابش لهلك خراش، لأن الأحابش وهم حلفاء لقريش فكروا بالعار الذي يجلبه قتل رسول. أما قريش فقد أعماهم الكفر والحقد في ساعة غضب، فضربوا بكل شيء عرض الحائط.

عاد خراش سليماً معافى، وجاءت كوكبة من الفرسان من قوم خراش.. هل كانوا يريدون نصر خراش، أم ماذا؟

من هؤلاء الفرسان وماذا يريدون

إنهم رجال من بني خزاعة، وقائدهم اسمه (بديل بن ورقاء الخزاعي) وكانوا من الرجال الذين يُظهرون النصح لرسول الله ﷺ، وهم وقومهم خزاعة محل ثقة النبي ﷺ (فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء في رجال خزاعة، فقال لهم كقوله لبشير ابن سفيان)[5] فقد (جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة[6] نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه[7] الحديبية ومعهم العوذ المطافيل[8]، وهم مقاتلوك، وصادوك عن

---

(١) حديث حسن وهو حديث أحمد الطويل وقد مر معنا (٤/٣٢٤).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٣) قطعت إحدى قوائمه.
(٤) حديث حسن وهو حديث أحمد السابق.
(٥) حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا (٤/٣٢٣).
(٦) أي أن النبي ﷺ يثق بهم وهم أهل ثقة ونصح له.
(٧) العد هو الماء الذي لا ينقطع.
(٨) أي معهم الإبل ذوات اللبن والأمهات بأطفالهن.

البيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة[1] ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[2] ولينفذن الله أمره. فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه شيئاً.

وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته. قال: (يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم)[3] أي اتهموا النبي بالتخطيط لحرب.

ثم إن النبي ﷺ أراد أن يبعث رجلاً مسلماً له مكانته ويستطيع بيان رسالته (فدعا ﷺ عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان؟

فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته، فخرج عثمان بن عفان حتى أتى مكة، ولقيه أبان بن سعيد ابن العاص، فنزل عن دابته، وحمله بين يديه، وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به. فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل)[4].

---

(١) جعلت بيني وبينهم مدة من الزمن لا حرب فيها. ومعنى جموا: استراحوا من الحرب.

(٢) أي حتى أقتل.

(٣) ما بين الأقواس الصغيرة عند أحمد وهو الحديث السابق وهو حسن.

(٤) حديث حسن وهو جزء من حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا ٤-٣٢٣.

قتل عثمان واستعد عمر

إشـــاعة حولت الحديبية إلى ســـاحة للموت والفداء، فكان عمر بن الخطاب أول الناس اســـتعداداً للموت، ربما لشعوره أنه ساق عثمان إلى حتفه.. ها هو يلبس لباس الحرب، ويستدعي ابنه عبد الله ليأمره بإحضار فرس له عند أحد الأنصار، وليستفسر عن سبب ذلك الزحام على بقعة من أرض الحديبية.

اســـتجاب الفتى البار لأبيه وتوجه نحو ذلك الأنصاري لأخذ فرس أبيه التي يريد القتال عليها، لكن ذلك الشاب الصغير أُخذ بمشهد الزحام الذي كان في طريقه.. كان هناك شجرة تحت ظلالها كان الزحام، وتحت ظلالها كان النبي ﷺ، أما سبب الزحام فهو دعوة النبي ﷺ إلى: البيعة.

متى كانت البيعة تحت الشجرة

يقول شاب حضر تلك البيعة: (كانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة)[1] فجمعهم ﷺ تحت الشجرة، حيث النبوة والرحمة والأرواح هدايا.

اقتـــرب عبد الله بن عمر فتى مأخوذاً بمشـــهد الفـــداء، فوجد الصحابة رضي الله عنهم يهدون أرواحهم، فيهديهم الله رضاه إلى يوم القيامة.. أحب أن ينافســـهم وإن كان من أصغرهم، وبدلاً من أن يحضر الفرس لأبيه رضي الله عنه أحضر مهجته لنبيه ﷺ.. زاحم الجميع، ثم مد يده الصغيرة وعيناه معلقتان بحبيبه فبايعه (على الصبر)[2] ثم انفتل نحو مهمته الأولى، فتوجه نحو أخيه الأنصاري فأخذ فرس أبيه وقادها نحوه، فوجد أباه لا يعلم بعد عما يحدث.. إنه مشغول بالاستعداد للحرب.

يقول ذلك الفتى: إن (عمر يوم الحديبية أرســـل عبد الله إلى فرس له عند رجل مـــن الأنصار يأتي به ليقاتل، ورســـول اللـــه ﷺ يبايع عند الشـــجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس، فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئمُ[3] للقتال

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٥٨).

(٣) يلبس لأمة الحرب.

فأخبره)[1] بعد أن استغرب عمر ذلك الزحام تحت تلك الشجرة بالذات بالرغم من وجود أشجار أخرى كثيرة، فـ (الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ. فقال: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ..؟

فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر، فخرج فبايع)[2] وقد تكون بيعة عمر على الموت، فالبيعة تحت الشجرة ذات ألفاظ عدة، لكن كل تلك الألفاظ تعني الجهاد مع النبي ﷺ حتى النصر أو الشهادة.

ها هو جابر يتقدم ويبايع، فيسأله رجل فيما بعد عن بيعته فيقول: (بايعناه على ألا نفر ولم نبايعه على الموت)[3] أما عبد الله بن عمر فبايعه على (الصبر)[4].

تسابق الصحابة وازدحموا يبايعون النبي ﷺ.. أكثر من ألف وأربعمائة صحابي يبايعونه على التوالي.. شاهد عمر ذلك الزحام، فأحب أن يعين نبيه ﷺ، فأخذ بيده.

يقول جابر: (كنا أربع عشرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة)[5] وإذا كان عمر قد أشفق على نبيه من الوقوف والتعب، فإن صحابياً آخر اسمه (معقل بن يسار) أشفق عليه من أغصان الشجرة لا تؤذيه، فقام برفعها عن رأسه.

يقول رضي الله عنه: (لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا أرفع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر)[6]

لكن بعض الصحابة بايعوا على الموت.. ها هو أحدهم اسمه: عبد الله بن زيد (وكان شهد معه الحديبية)[7] فبايع النبي ﷺ على الموت، ثم قال فيما بعد: (لا أبايع على ذلك أحداً بعد رسول الله ﷺ)[8].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٨٦).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٨٧).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.
(٤) البخاري (٢٩٥٨).
(٥) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.
(٦) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٦٧).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٥٩).

وهذا صحابي آخر: خصه ﷺ ببيعة على الموت، ودعاه لها فاستجاب فمد له (يداً ضخمة كأنها خف بعير)[1] اسمه (سلمة بن الأكوع) فارس لا يقهر، وصلب لا يكسر.

يقول رضي الله عنه: (بايعت النبي ﷺ، ثم عدلت إلى ظل شجرة، فلما خف الناس قال: يا ابن الأكوع ألا تبايع؟ قلت: قد بايعت يا رسول الله. قال: وأيضاً فبايعته الثانية)[2] (على الموت)[3].

هل اكتفى رسول الله ﷺ ببيعته الثانية، يبدو أن الأمر غير ذلك، فقد ميز النبي ﷺ صاحبه سلمة بن الأكوع ببيعة لم تكن لأحد غيره، وللنبي ﷺ أسلوبه الرائع في تكريم أصحابه وتفجير طاقاتهم، وإبراز نقاط القوة في كل فرد منهم، وقد أثمرت تلك البيعات، فحولت سلمة بن الأكوع إلى كتلة من الحماس، فـ:

ما هي بيعة سلمة المميزة

يقول سلمة رضي الله عنه: (قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جبا الركية[4]، فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت[5]، فسقينا، واستقينا، ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة في أصل الشجرة، فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط الناس، قال: بايع يا سلمة. قلت: قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس..؟ قال: وأيضاً.

ورآني رسول الله ﷺ عزلاً «يعني ليس معه سلاح»، فأعطاني رسول الله ﷺ حجفة أو درقة[6]، ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس قال: ألا تبايعني يا سلمة؟ قلت:

---

(١) رواه ابن سعد ٤-٣٠٦ وسعيد بن منصور: حدثنا عكاف بن خالد حدثني عبد الرحمن ابن زيد العراقي قال: أتينا سلمة بن الأكوع فأخرج لنا يداً. وهذا السند خطأ والصواب عطاف بن خالد وهو حسن الحديث التقريب ٣٩٣ حدثني عبد الرحمن بن رزين الغافقي وليس زيد العراقي. وعبد الرحمن قال عنه الحافظ: صدوق والأصوب أنه مقبول عند المتابعة لأنه لم يوثقه إلا ابن حبان فالسند حسن إليه.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦٠).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦٠).

(٤) حافة البئر.

(٥) فارت وفاضت وامتلأت.

(٦) ترس من جلد.

قد بايعتك يا رسـول الله في أول الناس، وفي أوسـط النـاس..؟ قال: أيضاً. فبايعته الثالثة.

ثم قال لي: يا سـلمة: أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟ قلت: يا رسول الله.. لقيني عمي عامرٌ أعزلاً، فأعطيته إياها.

فضحـك النبي ﷺ وقال: إنـك كالذي قال الأول: اللهم ابغني حبيباً هو أحب إليّ من نفسي)[1].

باع الصحابة أرواحهم، وتحت شـجرة السـمر تلك حل رضـوان الله على الذين بايعوا، فسميت بيعة الرضوان.. حيث بايع الجميع إلا رجلين:

رجل من أفضل الصحابة وأكرمهم هو: عثمان بن عفان رضي الله عنه فـ:

لماذا تخلف عثمان عن البيعة

باختصار، لأنه هو السبب الأول لتلك البيعة، بعد أن وصل خبر اغتياله على أرض مكة، لكن يبدو أن الخبر لم يتأكد لديه ﷺ، ولذلك قام بعمل هو تكريم لعثمان، وبيان لمنزلته لدى النبي ﷺ.

يقول الشاب المجاهد عبد الله بن عمر: (كانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان. فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان)[2].

هذه هي منزلة عثمان لدى النبي ﷺ، وهذا هو مدى ثقته به وبإيمانه، وهذه هي المسافات التي قطعها في قلب نبيه.

أما الرجل الثاني الذي لم يبايع فمن الأنصار واسمه (جد بن قيس بن الأنصاري) وهو خال جابر بن عبد الله.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

يقول جابر: (كنا أربع عشـرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشـجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره)[1] ولا أدري ما سبب اختبائه..؟ لكنه خسر خسارة عظيمة، وتخلف عن رضوان يظله طوال حياته!! ربما كان الخوف والجبن سبباً لتخاذله ذلك، وربما كان السبب أمراً أخطر، لكنه خسر لا شك.. لا سيما والخطر الداهم قد أطبق من كل اتجاه على المؤمنين، فقد خرجت قريش ومن معهـا نحو الحديبية لإيقاف النبي ﷺ، أو حربه إن اسـتدعى الأمر، وجد بن قيس قد خسر في الحالتين، فالصحابة لن يفروا مهما كان الثمن، وقد تأهبوا للأعداء.

قريش تحاصر الحديبية

بعد انتهاء المؤمنين من البيعة امتلأت جوانب الحديبية بجيش الشـرك، فاستعد المؤمنون لهم، واسـتعدوا للشـهادة، أما النبي ﷺ فكان بينهم يتجول.. يتفقد وينظم، ويصلح من أحوالهم.

ها هو يحذرهم، فيقول: «لا توقدوا ناراً بليل»[2].

ويواصـل ﷺ تفقده لأصحابه، فيمر على رجل يوقد النار نهاراً تحت قدر لأصحابه، لكن منظر شعره ولحيته لا يسر. اسمه (كعب بن عجرة) وهو يحدثنا فيقول أن (النبي ﷺ مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم، وهو يوقد تحت قدر، والقمل يتهافت على وجهه فقال: أيؤذيك هوامك هذه؟ قال: نعم)[3]

انصرف النبي ﷺ من عنده لا يدري ما يقول له، فنزل جبريل عليه السلام بقرآن يتلى، واشتد الوجع بكعب بن عجرة، فنزلت رحمة الله على كعب ومن يأتي بعد كعب.

يقول رضي الله عنه: (كنا مع النبي ﷺ ونحن محرمون، وقد حصرنا المشـركون، وكانت لي وفرة[4]، فجعلت الهوام تساقط على وجهي. فمر بي النبي ﷺ، فقال: أيؤذيك

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٢) سنده قوي رواه الأئمة أحمد ٣-٢٦ وغيره من طرق عن طريق محمد بن أبي يحيى الأسلمي عن أبيه عن أبي سعيد. ومحمد وأبوه صدوقان. التقريب ٥١٣ و٢٥٦.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -الحج.

(٤) الشعر إذا وصل شحمة الأذن، والجمة إذا تناثر على الكتفين.

هوام رأسك؟ قلت: نعم. وأنزلت هذه الآية: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾)[١] وهذه الآية (نزلت فيَّ خاصة وهي عامة لكم. حملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي «فوقع القمل في رأسي ولحيتي وحاجبي وشاربي»، فقال: ما كنت أرى الوجع بلغ بك ما أرى، أو ما كنت أرى الجهد بلغ بك ما أرى، تجد شاةً؟ فقلت: لا، قال: فصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع)[٢]. (فدعا ﷺ الحلاق فحلق رأسه)[٣] فارتاح من القمل والوجع، وشعر برحمة الله وفضله حيث جعل له بعد الضيق فرجاً وفرحاً، وحكماً جديداً يتيح للمحرم بالعمرة أو الحج أن يحلق شعر رأسه بعد أن يذبح فدية.

فرح كعب كفرح رسول الله ﷺ بعودة عثمان، الذي عاد دون أن يمس بأذى.. عاد عثمان لكن قريشاً لم تعد، بل انحدرت معها ثقيف من الطائف.. يقودهم (عروة بن مسعود الثقفي) عم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وقد شارك عروة قريشاً بكل ما يملك.. جاء بأهله وولده وبعض أهل عكاظ، ثم قال لقريش: (إني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا[٤] علي، جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني)[٥].

لم تأتِ الطائف فقط لنصرة قريش.. ها هم حلفاء آخرون لقريش يسمون (الأحابيش) يسيرون مع قريش لحصار النبي ﷺ وأصحابه تحت قيادة رجل اسمه: (الحليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذٍ سيد الأحابيش)[٦] وهو رجل عاقل وحكيم يحترم الهدي ومن يسوقه إلى بيت الله العتيق، وكان وجود أمثال الحليس سبباً في عدم هجوم قريش وإشعالها حرب جديدة مع النبي ﷺ.

كانت قريش أكثر تعقلاً هذه المرة لوجود أمثال الحليس، فقد (قام عروة بن مسعود فقال: أي قوم.. ألست بالولد؟ وألستِ بالوالدِ؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟

---

(١) حديث صحيح البخاري-٤١٩١ والنسك: الدم، فسره عليه السلام بالشاة كما سيأتي.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨١٦).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم - الحج.
(٤) رفضوا وأبوا.
(٥) سيأتي تخريجه.
(٦) هو جزء من حديث ابن إسحاق الطويل الصحيح.

قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا[1] علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أعطاني؟ قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها، ودعوني آته «يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد، وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئت حتى آسيتكم[2] بنفسي، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم» قالوا: ائته.

فأتاه «فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه» فجعل يكلم النبي ﷺ «فقال: يا محمد، جمعت أوباش[3] الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها[4]، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً» فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل بن ورقاء[5].

فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت[6] أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى[7]، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك «وأبو بكر رضي الله عنه خلف رسول الله ﷺ قاعد، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات[8]، أنحن نفر عنه وندعه؟!!

فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك «لكافأتك بها، ولكن هذه بها، ثم تناول لحية رسول الله ﷺ والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ من الحديد» وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة واقف على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف[9]، وقال

---

(١) أبوا ورفضوا.

(٢) واسيتكم وساويتكم.

(٣) أخلاط الناس وأقلهم منزلة.

(٤) حماك أو حما قومك لتفرقه وتمزقه.

(٥) أي كلاماً كالذي قاله لبديل.

(٦) أي قطعت وانهيت.

(٧) أي إن هزمت.

(٨) إهانة لمعبوده المدعو: اللات.

(٩) حديدة بأسفل جفن السيف.

له: أخر يدك عن لحية رسـول الله ﷺ «قبل والله لا تصل إليك. قال: ويحك ما أفظك وأغلظك.

فتبسم رسول الله ﷺ» فرفع عروة رأسه فقال: من هذا «يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك» المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ «هل غسلت سوأتك إلا بالأمـس»، وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهليـة، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل. وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، «فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، فأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه»)[1].

عروة منبهر بإجلال الصحابة للنبي ﷺ

يـكاد لا يصدق ما يرى، لكنها الحقيقة شـاخصة أمام عينيه.. أخذته الدهشـة إلـى قريش، فحدثهم عن إجلال لم يحض به أعظم ملكين على وجه الأرض (كسـرى وقيصـر).. (قام من عند رسـول اللـه ﷺ وقد رأى ما يصنع بـه أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه «كادوا يقتتلون على وضوئه» ولا يبسق بساقاً إلا ابتدروه «إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده» ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه «وإذا أمرهـم ابتدروا أمـره» «وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، ومـا يُحدون إليه النظر تعظيماً له» فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه.

«واللـه إن يتنخـم نخامة إلا وقعـت في كف رجل منهم فدلك بهـا وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمـره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشـد فاقبلوها». ولقد رأيت قوماً لا يسـلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم)[2] (فقال رجل من بني كنانة «الحليس بن علقمة الكناني وهو يومئذٍ سيد الأحابش»: دعوني آته. فقالوا: ائته،

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١) وأحمد (٣٢٤/٤) والزوائد له.
(٢) حديث صحيح رواه أحمد ٤-٣٢٤ والبخاري (٢٧٣١) والزوائد لفظ البخاري.

فلما أشــرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رســول الله ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن[1]، فابعثوها له «ابعثوا الهدي في وجهه».

فبعثت لـه، واســتقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك «الهدي يســيل عليه من عرض الوادي في قلائده، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى» قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت «يا معشــر قريش، قد رأيت مالا يحل صده: الهدي في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله.

فقالوا: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك»)[2].

فقدت طواغيت قريــش عقلها واحترامها لمبادئهــا.. وأفقدها حقدها احترامها لبيــت الله، ولمن يقصده للحج والعمرة بتلـك الكلمات التي قذفتها كالحجارة في وجه الحليس الكناني ســيد الأحابش وحليفها الدائم، لذلك لم تمانع أن تبعث رســولاً ثالثاً هابط المستوى مثلها. قريش تبعث رجلاً فاجراً:

قريش تبعث مكرز بن حفص

بعــد تلك الكلمات غير المهذبة التي أطلقتهــا قريش على حليفها (قام رجل منهم يقال لـه (مكرز بن حفص) فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته.

فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز وهو رجل فاجر «غادر فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه» فجعل يكلم النبي ﷺ)[3] لكن يبدو أن قريشاً ندمت على إرسال مكرز هذا، لهذا قررت قطع رسالته وحواره برجلٍ أحكم وأعقل، ويبدو أن نداء العقل والرحم قد تنبه أخيراً داخل أوساط قريش.

---

(١) ما يذبح لله في العمرة أو الحج من الإبل أو البقر.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) جزء من الحديث السابق.

قريش تقاطع محادثة مكرز

لقـد بعثوا رجلاً متزنـاً يعرف مكانته ومكانة خصمه، ويحترم شـرف الخصومة (بعثوا (سهيل بن عمرو) أحد بني عامر بن لؤي فقالوا: ائت محمداً، فصالحه ولا يكون فـي صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو)[١]

وصل سهيل بن عمرو في الوقت الذي كان النبي ﷺ يتحدث فيه إلى مكرز بن حفص (فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو)[٢] و(لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: قد سـهل لكم من أمركم)[٣] وقبل أن يصل سهيل حدثت حركة داخل معسكر قريش.. حركة تثير الشفقة والغضب جميعاً:

أرقاء يهربون من قريش

قبل أن يصل سـهيل وصلت مجموعة من الفارين من معسـكر الشـرك والرق.. مجموعـة صغيرة من الأرقاء يمموا نحو الحرية.. نحـو النبي ﷺ. رآهم علي بن أبي طالب: فقال: (خرج عِبدان إلى رسول الله ﷺ، يعني يوم الحديبية، قبل الصلح، فكتب إليـه مواليهـم فقالوا: يا محمد، والله ما خرجوا إليـك رغبة في دينك، وإنما خرجوا هرباً من الرق. فقال ناس: صدقوا يا رسول الله، ردهم إليهم.

فغضب رسـول اللـه ﷺ وقال: ما أراكم تنتهون يا معشـر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا. وأبى أن يردهم، وقال: هم عتقاء الله عزّ وجلّ)[٤] وهم أحرار بين أخوتهم المهاجرين والأنصار.. ينعمون برحمة الإيمان وأفياء المسـاواة والتآخي في الله.

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٩ - ٢٢١ حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن.. وهو سند البخاري

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٤) حديـث صحيـح دون قوله: هم. رواه أبو داود (٢٧٠٠) وله طريق أخرى عند أحمد ١-١٥٥ حيث توبع ابن إسـحاق وشـيخه، فالتقى الطريقان عند منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن علي رضي الله عنه: ومنصور ثقة لا يدلس وشيخه مخضرم ثقة عابد.

أما سـهيل بن عمرو فقد وصل إلى معسـكر المؤمنين (فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا، حتى جرى بينها الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب)[1] تحدث سهيل بن عمرو فقال: (هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب)[2]وكان (كاتـب الكتاب يوم الحديبية علي بن أبـي طالب رضي الله عنه)[3] (فقال النبي ﷺ: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سـهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب باسـمك اللهم. كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: اكتب: باسمك اللهم.

ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك. ولكن اكتب: [اسمك واسم أبيك] «هذا ما اصطلح عليه» محمد بن عبد الله.

فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله)[4] (ثم قال لعلي: امح: رسول الله.

قـال علي: لا. والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسـول الله ﷺ الكتاب وليس يحسـن يكتب)[5] (قال ﷺ: فأرنيه. فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ بيديه)[6] وبعد أن محا النبي ﷺ كلمة رسول الله.. رأى الجميع شيئاً لم يعرفوه من قبل عن النبي ﷺ ف.

هل حدثت معجزة ثانية على أرض الحديبية

فالنبـي ﷺ لا يعـرف القـراءة ولا الكتابة، ولذلك قال ﷺ لعلـي بن أبي طالب: (أرنيه)، ولو كان يعرف ذلك لما سـأله، لكن الذي حدث أن النبي ﷺ محا الكلمة التي

---

(١) حديث أحمد الطويل الصحيح.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) سـنده حسـن رواه أحمد ٢-٥٩٠ حدثنا عبد الرزاق حدثنا عكرمة بن عمار أخبرنا أبو زميل أنه سـمع ابن عباس. عكرمة هو حسـن الحديث من رجال مسـلم، التقريب ٣٩٦ وشيخه لا بأس به، التقريب ٢٥٦ والحديث عند أحمد في فضائل الصحابة.

(٤) صحيح رواه البخاري (٢٧٣١) والزوائد لأحمد وما بين المعقوفين لمسلم (١٧٨٣).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٨٤) وما بين الأقواس لمسلم (١٧٨٣).

أشـــار إليها علي بيديه، ثم (أخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن أن يكتب، فكتب «ابــن عبد الله»)[1]، أي أن النبي ﷺ كتب فقط: (ابن عبد الله) وما حدث منه ﷺ قد يكون معجزة من الله، وقد يكون رسمها، فهي مجرد كلمة واحدة يجيد رسم مثلها أغلب الأميين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك تجدهم يجيدون كتابة أسمائهم، وهي ليست كتابة بالمعنى الصحيح، بل هي مجرد رسم وتقليد.

ثم واصل علي رضي الله عنه كتابة شــروط الصلح التي أثارت غضب عمر، كما أثارت غضب علي من قبل، لكن شيئاً حدث أثار الجميع إلا النبي ﷺ..؟

إنه ليس ما أملاه سهيل من شروط، بل أخطر من ذلك وأفدح.. جريمة كادت تفسد كل شيء، ودناءة كادت تحول أرض الحديبية إلى ساحة حمراء.. تلك الجريمة كانت:

محاولة اغتيال النبي ﷺ

يقــول أحد الحضــور وهو الصحابي عبد الله بن مغفل: (كنا مع رســول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشــجرة على ظهر رســول الله ﷺ، وعلي ابن أبي طالب وســهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

فأخذ ســهيل بن عمرو بيده فقال: ما نعرف بسم الله الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، اكتب باسمك اللهم.

فكتب: هذا ما صالح عليه محمد رســول الله ﷺ أهل مكة. فأمســك ســهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رســوله. اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله، فكتب..

فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شــاباً عليهم الســلاح فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله عز وجل بأبصارهم، فقدمنا إليهم، فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد، أو: هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).

فخلى سبيلهم)[1] وعفا عنهم وتركهم لضمائرهم علها تستيقظ، ثم انصرف لإكمال ما بدأه من اتفاق وكتابة:

شروط صلح الحديبية

قال سـهيل بن عمرو: (اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، على:

- وضع الحرب عشر سنين.
- يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.
- على أنه من أتى رسـول الله ﷺ «رجل» من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم.
- ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليهم.
- وأن بيننا عيبة مكفوفة[2].
- وأنه لا إسلال[3].
- ولا إغلال[4].
- وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب أنه: من أحب[5] أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه.
- ومـن أحب[6] أن يدخـل في عقد قريش وعهدهم دخـل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسـول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.
- وانك ترجع عنا عامنا هذا، فلا تدخل علينا مكة.

---

(١) سـنده لا بأس به رواه أحمد ٤-٨٦ والحاكم ٢-٦١ من طريق زيد بن الحباب وعلي ابن الحسـن بن شقيق وهما ثقتان، قالا: أنبأنا وحدثني الحسين بن واقد، حدثني ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل.. والحسين ابن واقد ثقة وشـيخه تابعي ثقة عابد وقال الذهبي في تعليقه على سـماع ثابت من عبد الله: لا يبعد سـماع ثابت من ابن مغفل قد اتفقا -أي الشـيخان- على إخراج معاوية بن قرة، وحميد بن هلال عن ابن مغفل، وثابت أسن منهما.

(٢) أي لا غش فيها.

(٣) أي لا سرقة.

(٤) ولا خيانة.

(٥) أي من أحب من القبائل الأخرى أن يحالف محمداً.

(٦) أي من أحب من القبائل الأخرى أن يحالف قريشاً.

- وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك.
- فتدخلها بأصحابك وأقمت فيهم ثلاثاً معك السلاح الراكب.
- لا تدخلها بغير السيوف في القرب)[١].
- (وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه.
- وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها)[٢].

تعجب بعض الصحابة من تلك الشـروط الجائرة (فقالوا: يا رسـول الله: أنكتب هذا؟ قال: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم، سـيجعل الله له فرجاً ومخرجاً)[٣].

لم تنته المعاهدة حتى الآن، وعلي رضي الله عنه يواصل كتابة الشروط، والغضب يتطاير من عيني عمر بن الخطاب، والصحابة رضي الله عنهم في حالة ذهول..

في تلك الأثناء حدثت حركة أججت لهيب الغضب في معسـكر المسلمين.. مشهد كالفجيعة، وظلم لا طاقة للرجال به.

لقد وصـل الآن إلى مكان المباحثات رجل يرسـف في قيوده.. يزحف، ويمشـي ويسـقط، ويجـأر باحثاً عن ملجأ ومفـر له مما هو فيه.. إنه ابـن ذلك الرجل الذي يفاوض النبي ﷺ سهيل بن عمرو وابنه ذلك اسمه (أبو جندل)

مأساة أبي جندل

قيده أبوه عندما علم بإسـلامه، وغل يديـه وقدميه، ومنعه من مغادرة مكة، لكنه لم يسـتطع منعه من مغادرة الشـرك. ولما خرجت قريش لصـد النبي ﷺ عن دخول مكة وجد ثغرة فهرب من خلالها، وها هو الآن بين يدي رسـول الله ﷺ، ووالده سهيل يشاهده، ومداد المعاهدة لم يجف بعد، والشروط لم تنته حتى الآن، لكن النبي ﷺ قد وافق على ما مضى؟

---

(١) حديث صحيح رواه أحمد ٤-٣٢٥ والزوائد للبخاري (٢٧٣٢).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٨٣).

وصل أبو جندل بعد أن قال والده سهيل لرسول الله ﷺ: (وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ. فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد! قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً.

«فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا.

قال: صدقت.

فقام إليه فأخذ بتلبيبه[1]، وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك، فيفتنونني في ديني.

فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه، وإنا لن نغدر بهم».

قال النبي ﷺ [2]: فأجزه لي[3]. قال: ما أنا بمجيز ذلك لك.

قال: بلى، فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزنا لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله)[4].

كان هذا المنظر المؤلم خنجرا في خاصرة عمر.. يفقده صوابه وصبره (فوثب إليه عمر بن الخطاب مع أبي جندل، فجعل يمشي إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل،

---

(١) أي بثوبه من جهة الصدر.
(٢) قال لسهيل بن عمرو.
(٣) أي اتركه لي.
(٤) حديث البخاري الطويل السابق والزوائد لأحمد.

فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، ويقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن[1] الرجل بأبيه، ونفذت القضية)[2]

كان عمر يريد من أبي جندل أن يجهز على أبيه بالسيف، وينطلق من إساره بنفسه دون مساعدة المسلمين، ليكون بذلك قد حرر نفسه ولا لوم على النبي ﷺ، ولا على أصحابه، ولا على عهدهم وذمتهم. لكن أبا جندل لم يفعل فطار صواب عمر وتوجه نحو نبي الله ﷺ بعد أن رأى وسمع ما لم يستطع عليه صبراً.

قال عمر للنبي ﷺ: (ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ «ألسنا بالمسلمين أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذن؟ «فعلام نعطي الذلة في ديننا؟».

قال ﷺ: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، «أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني». قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟

قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ «أولسنا بالمسلمين، أو ليسوا بالمشركين»؟ قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ فعلام نعطي الذلة في ديننا؟». قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به)[3].

ندم عمر على ما كان منه من احتجاج على ذلك الظلم الوثني.. ندم عمر وتوجه بالتوبة إلى الله، وحاول تكفير ما كان منه بأعمال كثيرة يقول عنها: (مازلت أصوم

(١) أي بخل بأبيه على الموت.
(٢) حديث البخاري السابق.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري وهو الحديث الطويل السابق والزوائد لأحمد.

وأتصـــدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ، حتى رجوت أن يكون خيراً)[1]

بالنسبة للنبي ﷺ كل شيء قد انتهى، ولم يتبق سوى التحلل من الإحرام، والعودة إلى المدينة.

لكن الصحابة لم يمتثلوا لأوامره ﷺ

الأمـــر عندهم غيـــر قابل للتصديق!! أين تلك الأحلام بالطــواف بالبيت الحرام، والصلاة فيه..؟ أين أحلام المهاجرين بمعانقة أجواء مكة الحبيبة..؟ هل انهار كل ذلك على صخور الحديبية..؟

حاول ﷺ أن يزيل تلك الدهشة وذلك الذهول، لكنه لم يستطع، وما حدث أنه (لما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. فوالله ما قام رجل)[2]

فقـــال مرة ثانيـــة: فانحروا ثم احلقوا، فلم يقم منهم أحد مما بهم من الهم والغم، ثم قال الثالثة: قوموا فانحروا ثم احلقوا.

لكنه لم يلق إجابة فعليةً ولا حتى قولية، (حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة)[3] عله يجد لدى هذه المرأة العظيمة حلاً.

أم سلمة تشير على النبي ﷺ

نحـــو خبائهـــا الكريم تهادى النبـــي ﷺ فـ(دخل على أم ســـلمة، فذكر لها ما لقي من الناس. «فقال: يا أم ســـلمة ما شـــأن الناس؟» فقالت أم سلمة: «يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت»، يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك[4]، وتدعو حالقك فيحلقك. «فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك».

---

(١) حديث صحيح وهو حديث أحمد الطويل السابق.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٤/٣٢٦).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٤/٣٢٦).
(٤) البدن؛ هي: الإبل والبقر التي ينحرها الحاج أو المعتمر لله.

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنه[1]، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، فجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما)[2] مما رأوه من ظلم وغبن من المشركين، فهم بشر، وبنود المعاهدة مجحفة في حقهم، مما أصابهم بالذهول، مما أحوجهم إلى قدوة عملية تنتشلهم من ذلك الذهول.

كان النبي ﷺ قد بدأ بالنحر قبل الحلق. حيث (حلق بالحديبية في عمرته، وأمر أصحابه بذلك، ونحر بالحديبية قبل أن يحلق، وأمر أصحابه بذلك)[3]، وحتى يغيظ أولئك المشركين المتغطرسين.. ساق ﷺ معه جملاً كان لأبي جهل في غزوة بدر.. غنمه المسلمون، فنحره أمام أعين المشركين.

النبي ﷺ ينحر جمل أبي جهل

يقول أحد الصحابة: (أهدى رسول الله ﷺ جمل أبي جهل في هديه يوم الحديبية، وفي رأسه برة من فضة، كان أبو جهل أسلمه يوم بدر)[4] (ليغيظ المشركين بذلك)[5].

وإذا كان هذا الأمر قد أفزع المشركين، فإنه قد أيقظ المؤمنين من همومهم، فنهضوا لينحروا هديهم ويحلقوا رؤوسهم، وقد اشترك الصحابة بالهدي.. السبعة منهم يشتركون في الجمل أو البقرة، أما الشاة فلا تكفي إلا عن واحد.

يقول جابر رضي الله عنه: (نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة)[6] (نحرنا يومئذ سبعين بدنة، اشتركنا: كل سبعة في بدنة)[7].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٣٢٦/٤).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) والزوائد لأحمد (٣٢٦/٤).

(٣) حديث أحمد الصحيح السابق (٣٢٧/٤)

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ومن طريقه أحمد ١-٢٦١ وغيره. بن أبي نجيح تابعي ثقة التقريب ٣٢٦ ومجاهد ثقة إمام، االتقريب ٥٢٠ وله طريق آخر عن ابن عباس عند أحمد ١-٢٦٩ وطريق عند الطبراني (٢٣/٧) عن سلمة.

(٥) حديث صحيح وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٦) حديث صحيح رواه مسلم (١٣١٨) الحج.

(٧) حديث صحيح رواه مسلم (١٣١٨) الحج.

نحر الصحابة سبعين بدنة، ولا أدري هل نحروا من الغنم شيئاً، ثم قاموا (وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً غماً)[1] لكن بعض الصحابة، وهم قلة، لم يحلقوا بل اكتفوا بتقصير شعورهم، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: يرحم الله المحلقين.

يقول أحد الصحابة: (حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله المحلقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: يرحم الله المحلقين.قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: يرحم الله المحلقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: والمقصرين.

قالوا: فما بال المحلقين ظاهرت لهم الترحم؟ قال: لم يشكوا)[2]

وبعد الحلق هدأ عمر ومن معه من الصحابة، لكن الذهول مازال يطوف برؤوسهم، ومازالت صورة أبي جندل تلوح أمامهم.. لم يكن أبو جندل وحده مأسوراً.. هناك الكثير غيره، حتى حلفاء قريش كانوا قد أوثقوا من آمن منهم، وكان من هؤلاء المأسورين:

أسد يقال له: أبو بصير

قيده قومه ومنعوه من الالتحاق بمحمد ﷺ وأصحابه، واسمه (عتبة ابن أسيد بن جارية الثقفي) ولم يكن الرجال وحدهم يعانون هذه المأساة، ويتجرعون سموم الشرط الجائر.

النساء المستضعفات عانين الكثير.. تلك المؤمنة الطاهرة ابنة الطاغية الهالك (عقبة بن أبي معيط) واسمها (أم كلثوم) تخطط للهرب من مستنقع الشرك وأسلاكه الشائكة، فتنجح، وعندما تصل هي وغيرها إلى النبي ﷺ يطالب أهلها بإرجاعها حسب نصوص المعاهدة، لكن النبي ﷺ يرفض إرجاع النساء المهاجرات. ليس لأنه نقض عهده مع قريش.. إنه أكبر من ذلك، وتاريخه أبيض في هذا الشأن، فقد رد حذيفة ووالده يوم بدر، ورد أبا جندل قبل قليل، فلم لا يرد أم كلثوم ورفيقاتها من المؤمنات الهاربات من عالم الأصنام..؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس. عبد الله بن أبي نجيح يسار تابعي ثقة التقريب ٣٢٦ ومجاهد بن جبر ثقة إمام في االتقريب التهذيب ٥٢٠ .

الإجابة هي أن النبي ﷺ وجد للمؤمنات ثغرة خلال نصوص المعاهدة.. ثغرة تتيح للمؤمنات التسـلل من خلالها والهرب. فقد كان سـهيل كغيره من المشركين لا يأبهون لشأن المرأة إلا حين تناديهم غرائزهم، ولذلك قال سهيل للنبي ﷺ: (وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا)[1]

هـذا النص - الشـرط ينصب على الرجـال فقط، لذا فالنسـاء لا يدخلن تحت طائلته، فكان الفرج لأم كلثوم فقد (كان فيما اشـترط سـهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنـه لا يأتيك منا أحد «رجـل» وإن كان على دينك إلا رددته إلينـا وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سـهيل إلا ذلـك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فـرد يومئذٍ أبا جندل إلى أبيه سـهيل بن عمرو، ولم يأته أحـد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسـول الله ﷺ يومئذٍ وهي عاتق، فجاء أهلها يسـألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم..؟ فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ[2] فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ ﴾)[3]

تقـول عائشـة رضي اللـه عنها: (إن رسـول الله ﷺ كان يمتحنهـن بهذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧١١-٢٧١٢).

(٣) سورة الممتحنة: الآية ١٠، وأكملت الآية للفائدة.

﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك، كلاماً يكلمها به، والله ما مست يده امرأة قط في المبايعة، وما بايعهن إلا بقوله)[1].

سمع عمر بن الخطاب تلك الآيات، والقرآن يسري في عروق عمر لا يجد ما يعيق انسيابه، والقرآن يتوهج داخل زواياه وأعماقه، فاستجاب على الفور

تقول عائشة رضي الله عنها: (لما أنزل الله تعالى: أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلق امرأتين: «قريبة بنت أبي أمية» و«ابنة جرول الخزاعي».

فتزوج «قريبة»: معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم، أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ والعَقَبُ: ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يعطي من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات، ارتدت بعد إيمانها)[2] بالله ورسوله، أما من هاجرن فلن يردهن ﷺ للمشركين لأنه لا شرط بينهم في ذلك.

اقتنعت قريش ورضيت على مضض بذلك، فبين يديها يتلبط أبو جندل في قيوده.. لم يلن أبوه سهيل لمرآه، ولم يتذكر تلك القيود التي كان مكبلاً بها في حجرة سودة رضي الله عنها بعد أسره في غزوة بدر.. لقد أعماه الشرك عن الشعور بالقيود، بل أعماه عن الشعور بالأبوة تجاه ابنه أبي جندل.

سلم المسلمون والمشركون بالمعاهدة، فتحولت أرض الحديبية إلى ساحة للسلام.. اختلط فيها الجميع: المؤمنون والكافرون، ولا بد أن ذوي الأرحام والصداقات الماضية رأى بعضهم بعضاً، ووصل بعضهم بعضاً، لكن من المشركين من لا ينفع معه عهد ولا ميثاق، ولا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً.. هناك من تجثم بين أضلعه أحقاد ومخالب، فحاول إفساد كل شيء.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧١٣) سورة الممتحنة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٣).

بعض المشركين ينقضون المعاهدة

يقول سلمة بن الأكوع: (ثم إن المشركين راسلونا الصلح، حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا. وكنت تبيعاً لطلحة بن عبيد الله، أسقي فرسه، وأحسه[1]، وأخدمه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها[2]، فاضطجعت في أصلها، فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم، واضطجعوا، فبينما هم كذلك، إذ نادى مناد من أسفل الوادي: ياللمهاجرين، قتل ابن زنيم.

فاخترطت سيفي[3]، ثم شددت[4] على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، فجعلته ضغثاً[5] في يدي، ثم قلت: والذي كرم وجه محمد، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه. ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، وجاء عمي عامر برجل من العبلات[6] يقال له: مكرز، يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف[7] في سبعين من المشركين. فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: دعوهم، يكن لهم بدء الفجور وثناه. فعفا عنهم رسول الله ﷺ)[8] كما عفا عن أولئك الغادرين أثناء كتابة العقد، وكان عدد هؤلاء الغادرين أكثر من سبعين.

يقول أنس بن مالك: (إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً، فأنزل

---

(١) أحك ظهره بالمحسة.
(٢) كنست ما تحتها من الشوك.
(٣) سللته.(٤) هجمت.
(٥) حزمة.
(٦) من قريش نسبة لأمهم التميمية (عبلة).
(٧) مجلل بشيء يقيه الجراح في الحرب.
(٨) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[2].

كان للنبي ﷺ رأيٌ لا يخيب في صاحبه سلمة بن الأكوع.. كان يدرك ما لدى هذا الرجل من بأس وشـجاعة، ولذلك بايعه ثلاث مرات، ولذلك بايعه على الموت، ومازال لدى سـلمة الكثير.. الكثير لله ولرسـوله ﷺ، ومازال لدى سلمة الكثير ليقوله لنا عن الحديبية وما بعدها. ها هو سلمة يستعد للرحيل ف:

النبي ﷺ يعود بأصحابه إلى المدينة

نهـض جيش المؤمنين مع نبيـه ﷺ متوجهين نحو المدينة.. عـادوا والهموم طريق، ومرابع مكة وكعبتها آهات في قلوبهم.. عادوا منكسرين يلفهم الوجوم والحزن، حتى أقبل الليل عليهم، فصلى الجميع المغرب والعشاء وحان موعد النوم، فحدثت هذه القصة:

قصة النوم حتى طلوع الشمس

هل كان من أسباب ذلك النوم العميق الحزن الثقيل على بيت الله الحرام..؟

الله أعلم. لكن ابن مسعود يقول: (أقبلنا مع رسول الله ﷺ من الحديبية، فذكروا أنهم نزلوا دهساً من الأرض -يعني الدهاس: الرمل- فقال: من يكلؤنا؟ فقال بلال: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «إذاً ننام.

فناموا حتى طلعت الشـمس، فاسـتيقظ ناس، منهم: فلان، وفلان، وفيهم عمر». فقلنا: اهضبوا -يعني- تكلموا.

فاسـتيقظ النبي ﷺ، فقال: افعلوا كما كنتم تفعلون. ففعلنا. وقال: كذلك فافعلوا لمن نام أو نسي[3].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٨).

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٤.

(٣) يعنى صلوا بعد قيامكم من النوم.

وضلت ناقة رسول الله ﷺ فطلبها فوجدت حبلها قد تعلق بشجرة، فجئت بها إلى النبي ﷺ، فركب مسروراً)[1] وسار وسار معه أصحابه.. يتوقفون للصلاة حيناً، وللراحة حيناً، ولما جن عليهم الليل كان ﷺ يسير وعمر بن الخطاب إلى جانبه يحدثه و:

النبي ﷺ لا يرد على عمر

كان ﷺ يسـير (وعمر بن الخطاب يسـير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شـيء، فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب: ثكلتك أمك يا عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك.

قال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام المسـلمين وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما نشـبت أن سـمعت صارخاً يصرخ بي. فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. وجئت رسـول الله ﷺ فسـلمت، فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾)[2].

ربما كان ﷺ في لحظات أسئلة عمر مشغولاً، أو مهموماً، أو يوحي إليه، لكنه كان حساساً تجاه صحابته.. لم يترك عمر لأفكاره تذهب به بعيداً، لقد دعاه وبشره بـ:

نزول سور الفتح

وقرأ عليه ما نزل، فسأله عمر سؤالاً أعادت إجابته الطمأنينة إلى نفسه. لقد (نزل القرآن على رسول الله بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه «فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها». فقال «عمر»: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم.

---

(١) صحح إسناده الإمام الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٩٣) وقد رواه أحمد ١-٤٦٤ واللفظ له ورواه أبو داود (٤٤٧) والبـزار (زوائد - ٢٠٢/١) كلهم من طريق الثقة: جامع بن شـداد عن عبد الرحمن بن أبي علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود. ولي ملاحظة على هذا التصحيح للسند، نظراً لأن الشيخ رحمه الله اكتفى بقوله في الإرواء (٢٩٣) إسناده صحيح دون أن يتحدث عن سنده ومتنه، لا سيما وقد أورده شاهداً لحديث عنـد البخاري، وجعله موازياً لحديث عند مسـلم يحمل قصة مماثلة. لكن عند التدقيق في السـند والمتن يتبين عذري في إبداء ملاحظة على تصحيح الشيخ فحديث مسلم يتحدث عن خيبر، وهذا الحديث يتحدث عن الحديبية، أما السند، ففيه إشكال حول الراوي عن ابن مسعود، فالرجل مشكوك في صحبته وهو غير الصحابـي الـذي روى قصة وفد ثقيف، فقال الدارقطني: لا تصح له صحبة ولا نعرفه. وقال أبو حاتم: هو تابعي ليست له صحبة، فإذا تجاوزنا وقلنا إنه تابعي كبير روى عنه ثقتان، فلا يمكن قبول مخالفته لحديث مسلم وأن ذلك وقع بعد خيبر كما سيأتي، وهو ما مال إليه ابن عبد البر وابن القيم في الزاد.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٧).

فطابت نفسه ورجع)[1] من حيث أتى، ورجعت السكينة إلى قلبه، وهدأت ثائرته واستبشر خيراً وفتحاً مؤكداً.

أما الصحابي الجليل المدعو: (مجمع بن جارية الأنصاري، وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن، قال: شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها «إذ الناس يهزون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ.

فخرجنا مع الناس نوجف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع عليه الناس» قرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال رجل: يا رسول الله، أفتح هو؟

قال ﷺ: نعم «والذي نفسي بيده إنه لفتح»)[2]

ارتفعت المعنويات ونشط الجميع، فالنصر في الطريق، وليس النصر وحده في الطريق.. هناك أشياء وأشياء.. هناك الهبات والمعجزات، والدهشة التي لا تنقضي.. سار الجميع نحو المدينة الحبيبة وكلهم شوق وعطش، وفي الطريق نفد الماء، ولم يبق أحد معه ماء سوى النبي ﷺ، الذي احتفظ به بإناءٍ جلدي صغير يسمونه «الركوة». حمل الصحابة عطشهم وشكواهم إلى الله، ثم إلى رسوله، فـ:

تحولت الركوة إلى نهر عذب

شرب منها الجميع، وتوضأوا وتنظفوا.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ: ما لكم؟ قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ما نتوضأ به، ولا نشرب إلا ما في ركوتك.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٨٢) ومسلم الجهاد (١٧٨٥) واللفظ له والزوائد للبخاري.

(٢) حكم الإمام الألباني رحمه الله بضعف هذا الحديث في ضعيف أبي داود (٢٦٨) وهو عند التدقيق أقوى من حديث أحمد السابق الذي صححه رحمه الله.. أو قل مثله وذلك لعدة أسباب.. منها: أن علة سند هذا الحديث هو التابعي يعقوب بن مجمع.. وقد قال الذهبي في المستدرك بعد تصحيح الحاكم (٢/١٣١): لم يرو مسلم لمجمع شيئاً ولا لأبيه -يعني يعقوب- وهما ثقتان. وإذا تجاوزنا هذا لأن الذهبي متأخر فالرجل تابعي روى عنه أربعة اثنان منهم ثقات وهما: ابنه مجمع وسفيان الثوري وضعيفان ووثقه ابن حبان.. لكن كل ذلك لا يكفي إلا أن للحديث شاهداً قوياً وهو ما قبله وهو به حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة.

فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، «فأدخل يده فيه وفرج أصابعه، ثم قال: [خذوا بسم الله] حي على أهل الوضوء البركة من الله.

فلقـد رأيت المـاء يتفجر من بين أصابعه [كأنها عيون، فوسـعنا وكفانا]، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جلعت في بطني منه، فعلمت أنه بركة)[1] ومعجزة لهذا النبي العظيم.. أهداها الله له ولأصحابه.. لخير أهل الأرض.. لأهل الحديبية، وأهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم.

واصل النبي ﷺ وصحابته الكرام مسـيرهم، ثم توقفوا للراحة، وهذه المرة جاءوا يشكون جوعاً شديداً.. فهل ستحدث

معجزة في الطعام أيضاً

بل وفي الشراب مرة ثالثة، وذلك (لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كلمه بعض أصحابه، فقالوا: جهدنا وفي الناس ظهر[2]، فانحره لنا فنأكل من لحومه، ولندهن من شـحومه، ولنحتذي[3] من جلوده..؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تفعل يا رسول الله، فإن الناس إن يكن معهم بقية ظهر أمثل[4].

فقال رسول الله ﷺ: ابسطوا أنطاعكم[5] وعباءكم. ففعلوا. ثم قال: من كان عنده بقية من زاد وطعام فلينثره.

ودعا لهم ثم قال: قربوا أوعيتكم، [فأكلوا حتى تضلعوا[6] شـبعاً ثم لفغوا فضول مـا فضل[7] من أزوادهم في جربهم] فأخذوا ما شـاءوا)[8] وكان من بين الذين أخذوا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٢) والزوائد له (٥٦٣٩).

(٢) ما يركب من الإبل والخيل والبغال والحمير.

(٣) أي يتخذ جلده حذاءً.

(٤) أحسن وأفضل.

(٥) النطع هو البساط من الجلد أو السفرة الجلدية.

(٦) امتلأوا شبعاً.

(٧) ما زاد.

(٨) حديث حسـن رواه البيهقي ٤-١١٩ من طريقين الأولى من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال: قال ابن عباس. والأخرى: من طريق يحيى بن سـليم الطائفي عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الطفيل عن ابن عباس. الأولى رجالها ثقات لكن هناك احتمال انقطاع بين ابن عباس وابن شـهاب، لكن تشهد لها الطريق الأخرى وفيها ضعف يسير من أجل يحيى بن سليم وهو صدوق من رجال الشيخين إلا أنه سيء الحفظ، التقريب ٥٩١ ويشهد للحديث ما رواه مسلم وهو الحديث التالي.

(سلمة بن الأكوع) رضي الله عنه الذي يقول: (أصابنا جهد، حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا مزاودنا، فبسطنا له نطعاً، فاجتمع زاد القوم على النطع، فتطاولت لأحزر كم هو؟ فحزرته كربضة العنز[1]، ونحن أربع عشرة مائة، فأكلنا حتى شبعنا جميعاً، ثم حشونا جربنا، فقال نبي الله ﷺ: فهل من وضوء؟

فجاء رجل بإداوة له، فيها نطفة، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا: ندغفقه[2] دغفقة أربع عشرة مائة. ثم جاء بعد ذلك ثمانية، فقالوا: هل من طهور، فقال رسول الله ﷺ: فرغ الوضوء)[3].

كانت تلك المعجزات تسلية لتلك النفوس، وتثبيتاً لتلك القلوب التي أصابها ما أصابها بعد صد قريش ورفضها وشروطها الظالمة.. انتهت تلك المعجزات بالصحابة إلى شواطئ الأمن واليقين، وانتهو جميعاً إلى مكان بين مكة والمدينة.. قريب من بني لحيان، وفي ذلك الموقع الحرج.. أثار ﷺ حب الفداء والشهادة في أصحابه من جديد، وكان لسلمة بن الأكوع تميز آخر في هذا الموقع، وبالتحديد:

على جبل بين الحديبية والمدينة

يقول سلمة رضي الله عنه: (ثم خرجنا راجعين إلى المدينة، فنزلنا منزلاً، بيننا وبين بني لحيان جبل وهم مشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة، كأنه طليعة النبي ﷺ وأصحابه.

قال سلمة: فرقيت تلك الليلة مرتين أو ثلاثاً، ثم قدمنا المدينة)[4] ولم يحدث قتال بين النبي ﷺ وبين بني لحيان، لكن المدينة تعرضت لهجوم مباغت من عصابة من فزارة وغطفان.. بقيادة رجل يقال له (عبد الرحمن بن عيينة الفزاري) وقد نهب في ذلك الهجوم كل إبل النبي ﷺ، واستاقها غنيمة معه، فهاجت من أجل ذلك معركة، غزوة كان بطلها فارس الإسلام (سلمة بن الأكوع) حدثت تلك الغزوة في مكان يقال له ذو قرد وبه سميت:

---

(١) أي مبرك العنز.

(٢) نصبه صباً شديداً.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -اللقطة (١٧٢٩).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

غزوة ذي قرد

بطــل هــذه الغزوة، الذي نفثت فيــه بيعة نبيه له على الموت معنويات اســتثنائية يحدثنــا فيقول: (كانت لقاح[1] رســول الله ﷺ ترعى بـ: ذي قــرد، فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أُخذت لقاح رســول الله ﷺ. فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان «وفزارة». فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه.

فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم بذي قرد، وقد أخذوا يسقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي، وكنت رامياً، وأقول:

أنــــــا ابـــــن الأكـــــوع والــيــــوم يـــوم الـــرضـــع[2]

وذلــك بعد أن (قدمنــا المدينة، فبعث رســول الله ﷺ بظهره[3] مع رباح، غلام رســول اللــه ﷺ، وأنــا معه، وخرجت معه بفــرس طلحة أنديه مع الظهــر[4]، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رســول الله ﷺ، فاســتاقه أجمع، وقتل راعيه. فقلــت: يا رباح، خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رســول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه. ثم قمت على أكمة[5]، فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثاً: يا صباحاه.ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز، أقول:

أنــــــا ابـــــن الأكـــــوع والــيــــوم يـــوم الـــرضـــع

فألحق رجلاً منهم، فأصك سهماً في رحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه[6]، قلت:

خــذهــا وأنــــا ابـــن الأكـــوع والــيــــوم يـــوم الـــرضـــع

فوالله مازلت أرميهم وأعقر[7] بهم، فإذا رجع إلي فارس أتيت شــجرة فجلســت فــي أصلها، ثم رميته، فعقرت به، حتــى إذا تضايق الجبل، فدخلوا في تضايقه علوت

---

(١) ذات الدر من الإبل.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٦) والزوائد للبخاري (٣٠٤١).

(٣) الدابة التي تركب أو تحمل المتاع والأثقال.

(٤) أي يورده الماء ثم المرعى والعكس.

(٥) أي تل كما جاء في بعض الألفاظ.

(٦) أي وصلت حديدة السهم إلى كتفه.

(٧) يقصد انه يجرحهم او يصيبهم.

الجبل، فجعلت أرديهم[1] بالحجارة، فمازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه[2]، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحاً، يستخفون. ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً[3] من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى أتوا متضايقاً من ثنية فإذا هم قد أتاهم فلان «عيينة» ابن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون، يعني يتغدون، وجلست على رأس قرن.

قال «عيينة» الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح[4]، والله ما فارقنا منذ غلس، يرمينا حتى انتزع كل شيء من أيدينا. قال: فليقم إليه نفر منكم، أربعة.

فصعد إلي منهم أربعة في الجبل، فلما أمكنوني من الكلام، قلت: أتعرفونني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قلت: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرم وجه محمد ﷺ، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظن.

فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، فإذا أولهم: الأخرم الأسدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندي. فأخذت بعنان الأخرم. فولوا مدبرين. قلت: يا أخرم، إحذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه.

قال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة.

فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن، «فاختلفا طعنتين فعقر بأبي قتادة» فطعنه، فقتله «أبو قتادة وتحول أبو قتادة إلى فرس الأخرم، ثم إني خرجت أعدو في أثر القوم» فوالذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي، حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئاً، حتى يعدلوا قبل

---

(١) أرميهم.

(٢) تركوها لسلمة.

(٣) أعلام من الحجارة.

(٤) التعب والإجهاد الشديد.

غروب الشمس إلى شعب فيه ماء، يقال له ذو قرد، ليشربوا منه وهم عطاش. فنظروا إليَّ أعدو وراءهم، فخليتهم عنه -يعني أجليتهم عنه - فما ذاقوا منه قطرة، «فعطفوا عنه وأسـندوا في الثنية[1]، ثنية ذي شر وغربت الشـمس» ويخرجون فيشتدون[2] في ثنية، فأعدو فألحق رجلاً منهم، فأصكه بسهم في نغض[3] كتفه. قلت:

خـذهـا وأنـا ابـن الأكـوع والـيـوم يـوم الـرضـع

قال: يا ثكلته أمه.. أي أكوعة بكرة[4].

قلت: نعم يا عدو نفسـه، أكوعك بكرة «وكان الذي رميته بكرة[5]، فاتبعته بسـهم آخر، فعلق به سهمان» وأرادوا فرسين على ثنية، فجئت بها أسوقها إلى رسول الله ﷺ، ولحقني عامر بسـطيحة[6] فيها مذقة من لبن، وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسـول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلأتهم[7] عنه، فإذا رسـول الله ﷺ «في خمسمائة» قد أخذ تلك الإبل، وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسـنامها. قلت: يا رسول الله، خلني فأنتخب من القوم مائة رجل، فأتبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته.

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النهار، فقال: يا سلمة، أتراك كنت فاعلاً؟ قلت: نعم والذي أكرمك. فقال: إنهم الآن ليقرون في أرض غطفان.

فجـاء رجل من غطفـان فقال: «مروا على فـلان الغطفاني فـ» نحر لهم فلان جزوراً، «فلما أخذوا يكشـطون جلدها» فلما كشـفوا جلدها رأوا غباراً، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هاربين. فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سـلمة. ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس، وسهم

---

(١) الطريق في الجبل.
(٢) يركضون.
(٣) أعلى غضروف الكتف.
(٤) أي هو الذي جاءنا في الصباح الباكر مازال يلاحقنا.
(٥) مبكراً.
(٦) قربة جلد.
(٧) منعهم عنه.

الراجل، فجمعها لي جميعاً، ثم أردفني رسـول اللـه ﷺ وراءه على العضباء، راجعين إلى المدينة)[1].

كان سـلمة أسـطورة من الشجاعة والإقدام.. كان جسـداً مفتولاً لله.. يعرق في دروب الشـهادة وينزف.. كان قلباً ينبض بالفداء والجسـارة، فلا عجب أن بايعه ﷺ ثلاث مرات، ولا عجب أن بايعه على الموت.

تمتع سـلمة بمرادفة النبي ﷺ على العضباء.. وشـرف بلمس جسـده الكريم، وفي ساعات الجد تلك كان لسلمة رغبة في اللهو والتحدي.. في طريق المدينة وأمام عينيه ﷺ وبين يديه مارس سلمة ورجل من الأنصار لهواً وتحدياً ومرحاً.

سلمة يسابق رجلاً من الأنصار يتحدى الجميع

يواصل سلمة رضي الله عنه بقية حديثه فيقول: (ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، «فلما كان بيننا وبينها قريب من ضمرة» فبينما نحن نسـير، وكان رجل من الأنصار لا يسبق شداً، فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسـابق؟ فجعل يعيد ذلك، فلما سـمعت كلامه «وأنا وراء رسول الله ﷺ مردفي» قلت: أما تكرم كريماً، ولا تهاب شريفاً؟

قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ.

قلت: يا رسول الله، بأبي وأمي، ذرني فلأسابق الرجل. قال: إن شئت. قلت: أذهب إليك.

«فطفـر[2] عن راحلته» وثنيت رجلي، فطفرت فعدوت، فربطت[3] عليه شـرفاً أو شـرفين أستبقي نفسي، ثم عدوت في إثره، فربطت شرفاً أو شرفين، ثم إني رفعت[4] حتى ألحقه، فأصكه بين كتفيه. قلت: قد سبقت والله.

---

(١) صحيح رواه مسـلم - الجهاد (١٨٠٧) والزوائد للبيهقـي (١٨٢/٤) وهي صحيحة، وقد رواه البيهقي من طريقين عن هاشم بن القاسم وهو أحد رواة مسلم لهذا الحديث به.

(٢) قفز.

(٣) أي جريت جريا خفيفاً، والشرف المكان المرتفع، وفعل ذلك لكي يبقي طاقته للنهاية.

(٤) أسرعت في الجري.

«فضحك» وقال: أنا أظن. فسبقته إلى المدينة)[1]

مشـــهد بريء ومفرح، ومرح متاح يمارســـه هؤلاء الفرسان الأشداء العظماء بعيداً عن التنطع والتطرف، لأنهم بين يديه ﷺ، ويداه كانتا ربيعاً.. ينثال ذلك الربيع للجميع، والجميع الآن في المدينة.. يرتاحون من عناء الحديبية وذي قرد، ويغتسلون من غبار السفر.

كانت المدينة بانتظارهم، لكنها لم تكن بانتظار هذا الفارس الذي تعشـــقه مثلهم.. تعشقه لكنها لا تستطيع احتضانه.. فارس أضناه الشوق إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، ولم يتعبه الأسر ولا السفر، ولم تستطع أغلال قومه تحطيمه.. هو الذي حطمها وهب كالريح نحو مدينة الحرية والإيمان.

وصل هذا المشتاق إلى المدينة فإذا هو:

أبو بصير في المدينة

والمعاهـــدة بين النبي ﷺ وقريش لا تزال ســـارية المفعول والبنود، فماذا ســـيكون مصيره وهو الهارب من قومه.. المهاجر إلى الله ورســـوله ﷺ..؟ هل سيرده كما رد أبا جندل من قبل..؟

لقد (رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بصير -رجل من قريش- وهو مســـلم، فأرسلوا في طلبه رجلين. فقالوا: العهد الذي جعلت لنا..؟

فدفعه ﷺ إلـــى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد[2] وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً.

فلمـــا انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم.

(١) حديث صحيح وهو جزء من حديث مسلم السابق.
(٢) أي ضعف وفتر والمقصود انه مات.

قال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد.

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر)[1]

يا إلهي.. ألهذه الدرجة بلغ التزام نبينا عليه السلام بالمعاهدات والمواثيق والعهود..!! من يفعل ذلك..؟ يسلم صاحبه للمشركين، ثم يهم بتسليمه مرة أخرى..!!

رائع هذا الدين.. رائع من يلتزم به منكراً أهواءه وميوله وغرائزه.. صلح الحديبية دروس لو استوعبها مجاهدونا الأشاوس لما أصابهم ما أصابهم.

في هذه الأثناء التي لجأ فيها أبو بصير إلى جوار البحر.. فر أبو جندل من أسره، وانطلق يحمل حريته بيديه، فترامى إلى سـمعه أن أبا بصير هناك.. كالأسد الرابض على سـاحل البحر الأحمر، فانطلق إليه، واتحد معه في تشـكيل مساحة من الرعب والخوف ليس لها حدود سـوى الموت، فبعد أن (قال النبي ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر.

وينفلت منهم أبو جندل بن سـهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسـلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسـمعون بعير خرجت لقريش إلى الشـام، إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم)[2] وتركوا لقريش النواح على قتلاها، والندم على صدها لمحمد وأصحابه، والحسـرة على تلك الشـروط التي زرعت في طريقها أولئك الأسود.. أولئك الشباب الذين ضيقت عليهم طواغيت الشـرك كل طرق الحياة الطبيعية، أغلقتها وأشـرعت لهـم طريقاً واحداً.. طريق العنف المضاد، فحول أولئك الشباب ذلك الطريق إلى نهر تهدر فيه دماء قريش وكرامتهـا، حولـوا حياة قريش إلى جحيم ونواح.. حولـوا طرقاتها إلى رعب وتلفت.. وتجارتها إلى كساد حين قطعوا شريان التجارة الذي يصلهم بالشام.

لكن ماذا عن محمد ﷺ، أليس شريكا فيما يحدث لقريش من إرهاب..؟

لا.. أبداً على الإطلاق.. إنه في حل مما يحدث لمجرمي قريش، ولا مسؤولية عليه مـادام هذا العنف المضاد لا يمارس داخل حـدود دولته، فقد فعل ما لم يفعله غيره..

---

(١) هو حديث المسور ومروان الطويل الصحيح.

(٢) هو حديث المسور ومروان الطويل الصحيح.

رفض استقبال أولئك المظلومين بل سلمهم تنفيذاً لشروط قريش وإرادتها الظالمة، ورفض حمايتهم، أو إمدادهم، في الوقت الذي يتمتع فيه مواطنون يهود ووثنيون بالأمن تحت حماية دولته في المدينة.. إنها معركة بين قريش وبين فتية حارت بهم الدروب، وضاقت بهم السبل..

من مثل محمد ووفاء محمد ﷺ..؟

وإلى أن تأتي الإجابة على قريش أن تتحمل مسؤولية طغيانها، أما النبي ﷺ، فبعد أن رد صاحبه أبا بصير الذي جعلته المعاهدة طريداً شريداً.. لا يملك مساحة يعيش عليها سوى مساحة سيفه.. توجه ﷺ إلى أصحابه المتعبين من طول السفر، وأمرهم بالاستعداد من جديد، لسفر جديد. فقد أمن شر قريش، وأشغلها أبو بصير وأبو جندل ومن معهما بالرعب المشروع، والسيوف الملتهبة، وقد حان تأديب أحد أطراف معركة الخندق، وهم اليهود القابعون في حصون خيبر، فلا يكفي قتل قائدهم الخائن أبي رافع (سلاَّم بن أبي الحقيق) وهو داخل حصنه في خيبر، ففي داخل ذلك الحصن أكثر من سلاَّم، وأكثر من خيانة، لذلك قرر ﷺ

غزو خيبر

وذلك بعد ثلاثة أيام فقط من عودته من غزوة ذي قرد.

يقول سلمة ابن الأكوع في نهاية حديثه عن سباقه مع ذلك الأنصاري: (فسبقته إلى المدينة، فوالله، ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ)[1].

وقبل أن يخرج النبي ﷺ دعا صحابياً جليلاً يدعى (سباع بن عرفطة) فأمره بالبقاء في المدينة ثم توجه إلى (خيبر وقد استخلف سباع بن عرفطة على المدينة)[2] وجعله أميراً عليها ثم سار إلى خيبر، وفي الطريق خيم الليل وانتشرت نجومه، فأيقظت تلك الأجواء المخملية شجون أحد الصحابة، وحركت مشاعره، فالتفت إلى عم سلمة بنْ الأكوع واسمه: عامر، وكان داخل عامر رضي الله عنه من المشاعر ما

(١) حديث صحيح رواه مسلم وهو جزء من الحديث السابق عند مسلم (١٨٠٧).
(٢) سنده قوي وسيأتي بعد الحديث التالي.

يوازي تلك الأجواء، وما يشجي ذلك الصحابي ويطربه، فقد كان عامر شاعراً، وكان عذب الصوت أيضاً، فطلب منه أن يتغنى بأبيات ومشاعر يتحدث عنها سلمة رضي الله عنه فيقول:

(خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فتسيرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً. فنزل يحدو بالقوم «فجعل عمي عامر يرتجز» بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتفينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا	إنا إذا صيح بنا أتينا
«والمشركون قد بغوا علينا»	وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر. قال: يرحمه الله «غفر لك ربك.

قال سلمة: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد، فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل: يا نبي الله، لولا ما متعتنا بعامر»؟ فقال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله..؟ لولا أمتعتنا به)[1].

يا لها من ليلة.. تغنى فيها عامر، وحرك الصحابة والمشاعر، وشد حداؤه النبي ﷺ حتى سأل عنه، فدعا له بالمغفرة والرحمة، وبشره بالشهادة، فتمنى عمر بقاءه بينهم.

مشهد عذب يقدمه ﷺ للمتنطعين.. لم يكن الإنشاد والشعر حميماً في طريق خيبر فحسب، فالشعر في كل مكان تتحرك فيه المشاعر، ولئن تحركت مشاعر عامر وهو في طريقه إلى خيبر، فلقد تحركت مشاعر حافظة الإسلام وذاكرته، وهو في طريقه إلى المدينة.. إلى النبي ﷺ.

العلم يمان، وهذا اليماني العظيم المتعطش للنبي ﷺ.. المتعطش للعلم.. في طريقه للمدينة.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٢) والزوائد للبخاري.. والشطر الزائد لمسلم.

أبو هريرة في الطريق

قادم من دوس، من اليمن.. ذاكرة تحلم بأحاديث الحبيب ﷺ.. ليس بين سطورها مكان للدينار والدرهم.

أبو هريرة قادم لا يملك من الدنيا سوى غلام، وحتى هذا الغلام ضاع، فخيم الليل والفقر على أبي هريرة، وخيم الشعر كذلك.. لـ (أنه لما أقبل يريد الإسلام ومعه غلام ضل كل واحد منهما من صاحبه)[1] يقول رضي الله عنه عن تلك الليلة: (لما قدمت على النبي ﷺ قلت في الطريق:

يا ليلة من طولها وعنائها ... على أنها من دارة الكفر نجت

وأبق مني غلام في الطريق)[2]

واصل أبو هريرة معاناته ومسيره حتى وضعته أقدامه على أرض المدينة، وربما كانت أمه بصحبته، فقد كان من أعظم الناس براً.. رغم كفرها ورفضها للإسلام.

صادف رضي الله عنه آخرون يقصدون المدينة مثله، ووصل أبو هريرة ورفاقه ليلاً فلم يجد النبي ﷺ.

سأل عنه، فأخبروه أنه قد توجه إلى خيبر.. سأل عن نائبه في المدينة، فقيل له إنه يماني يدعى سباع بن عرفطة الغفاري رضي الله عنه، وبعد أن: (قدم المدينة في نفر من قومه وافدين، وقد خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، واستخلف على المدينة رجلاً من بني غفار يقال له: (سباع بن عرفطة)، فأتيناه وهو في صلاة الصبح، فقرأ في الركعة الأولى: كهيعص، وقرأ في الركعة الثانية: ويل للمطففين.

قال أبو هريرة: فأقول في الصلاة: ويل لأبي فلان له مكيالان، إذا اكتال بالوافي، وإذا كال.. كال بالناقص، فلما فرغنا من صلاتنا أتينا سباعاً، فزودنا شيئاً حتى قدمنا على رسول الله ﷺ)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣٠).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣١)

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٣٩٠ وأحمد ٢-٣٤٥ وابن سعد ٤-٣٢٧ من طرق عن خثيم بن عراك بن مالك. عراك ثقة فاضل وابنه صحيح الحديث التقريب ٣٨٨ و١٩٣.

لم يتحرك أبو هريرة ومن معه فقط نحو أرض خيبر.. كان هناك من يشق عباب البحر نحو خيبر.. سفينة تحمل المؤمنين.. تحمل الغرباء المعذبين.. جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء ومن معهما من المهاجرين الأولين، وأبو موسى الأشعري ومن معه من مهاجري اليمن.. اجتمعوا في الحبشة، ولما وصلهم خبر الحديبية واستقرار الأمر على الصلح.. ركبوا أمواج البحر والفرح حتى قذفتهم على سواحل البحر الشرقية.. رياح المشاعر كلها نحو خيبر.. الجميع نحو خيبر إلا:

علي بن أبي طالب يتخلف في المدينة

لم يأمره النبي ﷺ بالبقاء، ولم يعينه بديلاً لسباع بن عرفطة أو أميراً عليه، فما الذي يجعلك يا أبا الحسن بعيداً عن حبيبك؟

سلمة بن الأكوع يجيب عن علي فيقول: (كان علي رضي الله عنه تخلف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان رمداً فقال: أنا أتخلف عن النبي ﷺ، فلحق به)[1].

إذا فهو الرمد، وكيف يقاتل المرء وعينه مصابة بالرمد..؟

لكن علي رضي الله عنه قرر ذلك، فطار نحو حبيبه ﷺ متناسياً معاناته ومرضه وعينه، حتى وصل إلى النبي ﷺ.

الرجال على الخيل والإبل والأقدام من كل مكان يتجهون نحو مهوى الفؤاد وقرة العين محمد ﷺ.. ونحو خيبر، لكن هناك من سبقهم وتغلغل في حصن اليهود قبلهم.. شيء جميل ليس من المدينة ولا حتى من البشر سبق الجميع..!

القمر.. يهوي من السماء فيقع في حصن خيبر، فيصيب أحدهم الفزع.. ما قصة القمر الذي هوى في حضن خيبر..؟

القمر الذي هوى في حصن خيبر

في ذلك الحصن.. حيث الظلام في كل مكان.. حيث اليهود نيام.. كانت هناك فتاة من اليهود من بني النضير، هربت نحو خيبر قبل قتل أبيها بعد معركة الخندق..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٩).

أبوهـــا الذي خان لله ورســـوله ونقض العهد وتآمر على وطنـــه، وخان من تآمر معهم. وقد تزوجت هذه الفتاة من يهودي يقال لـه «كنانة بن أبي الحقيق» وهي الآن في ليالي زفافها الأولى.

وهي الآن تغط في نوم العرائس، لكنها ترى شيئاً عجيباً.. نهضت الفتاة من نومها، فأخبرت عريســـها.. ربما كانت تظن أن هذه الرؤيا ستسعده كما سعدت بها. لكن هذا العريس فسر هذه الرؤيا بطريقة يهودية فريدة من نوعها. لقد كان تفسيره لهذه الرؤيا لكمة بقبضته القاسية إلى ذلك الوجه الجميل.. لكمة اخضرت منها عيناها.

من هذه الفتاة؟ ومن هو زوجها الملاكم هذا؟ وما تفسير هذه الرؤيا؟

على أرض خيبر تلكم العروس

فـــي إحدى حصونها تزف الآن أميرة إلى أمير.. يحتفل اليهود بذلك الزفاف على طريقتهـــم الخاصة، ويتوجه العروســـان إلى مخدعهما بعد أن حـــل الظلام على تلك الأرض وتلك الحصون، وبعد أن نامت العروس ونام الأمير ونام الجميع ســـاد السكون والظلام على أرض خيبر وسمائها.

وفجأة ظهر البدر في الســـماء.. لم يشـــاهده أحد ســـوى الأميرة، وعندما رمته بطرفها هوى بين يديها، واستقر برفق في أحضانها.

انتبهت الأميرة فإذا هو حلم لكنها لا تعرف تفسيره، وعندما استيقظ أميرها توجهت إليه بود علها تجد لديه تفسيراً لذلك الحلم، لكن ذلك الأمير كان أرعناً عديم التهذيب.

كانت أميرته تنتظر كلماته بشغف، لكن قبضته القاسية انطلقت كالقذيفة نحو ذلك الوجه الجميل.. لكمة شديدة سددها لعينيها حتى اخضرت منها، ثم بصق بكلمات أشد مـــن تلك اللكمة على مشـــاعر تلك الفتاة. لقد اتهم هـــذا الجلف المدعو: (كنانة بن أبي الحقيق)[1] هذه الفتاة بأنها تحلم بالزواج من ملك المدينة.. يعني محمداً عليه السلام.

---

(١) هو ابن زعيم خيبر الذي قتله الصحابي عبد الله بن عتيك داخل حصنه في خيبر .. واسمه سلام بن أبي الحقيق وقد مرت معنا قصة اغتياله لأنه كان أحد المتآمرين في غزوة الخندق، وهو الذي آوى زعيم بني النضير حيي بن الأخطب والد هذه الفتاة. وقد قتل حيي في المدينة بعد قدومه من أرض خيبر لتأجيجه الخيانة والغدر بالمسلمين من خلال تحريضه بني قريظة.

بينما تقول تلك الأميرة واسمها صفية بن حيي بن أخطب: «كان رأسي في حجر ابن أبـي حقيق وأنا نائمة، فرأيت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك [قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم قمراً وقع في حجري] فلطمني وقال: تمني ملك يثرب»(١)

آلمتها تلك اللكمة، وأحزنتها تلك الكلمات وذلك التفسير، لأنها بريئة طاهرة تتساءل وتسأل زوجها: «وما كان أبغض إلي من رسول الله، قتل أبي» حيي بن أخطب.

إذاً فهذان العروسان يحملان بغضاً شديداً لهذا النبي القادم من ديار صفية.. من المدينة، وهما يشتركان في حمل ثأر ثقيل ومرير، أما النبي ﷺ فما زال في طريقه إلى خيبر، وقبل خروجه من المدينة توجه بحديثه إلى صاحبه الكريم أبي طلحة زوج أم سليم فـ «قال لأبي طلحة: التمس غلاماً من غلمانكم يخدمني حتى أخرج من خيبر»(٢).

لم يجد أبو طلحة أنسب من أنس بن مالك ابن زوجته أم سليم رضي الله عنهم جميعاً، فاستبشر أنس بهذه الوظيفة - الشرف، وحدث من حوله فقال: «فخرج بي أبو طلحة مردفي، وأنا غلام راهقت الحلم فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل»(٣).

كان ذلك المسير يهدف إلى تجفيف منابع الغدر المنحدر من أرض خيبر، أما تاريخ المسير فكان في شهر محرم، وفي الطريق كان النبي ﷺ يقرأ كل احتمالات الخطر. فعندما وصل ﷺ إلى وادٍ بين غطفان وخيبر يقال له الرجيع.. توقف لقطع أي إمداد عسكري قد تقوم به غطفان لأصدقائها اليهود.

يقول أحد الصحابة إن النبي ﷺ: «سار إلى خيبر في المحرم، فنزل رسول الله بالرجيع -واد بين خيبر وغطفان- فتخوف أن تمدهم غطفان، فبات به حتى أصبح فغدا إليهم» (٤).

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان واللفظ له ١١-٦٠٧ والطبراني والزيادة له ٢٤-٦٧ من طريق الإمام الثقة حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر. وعبيد الله ثقة ثبت، من أوثق الناس عن الإمام الثقة نافع. انظر التقريب ٢٧٣ ورواه غيرهم.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٩٣.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٩٣.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-١٩٧ حدثني الزهري عن عروة عن مروان بن الحكم والمسور. وهذا سند صلح الحديبية والسابق وهو صحيح.

كان مسير النبي ﷺ وجيشه حالة من التماهي والود تثير المشاعر والدهشة.. كان ﷺ في مسـيره ذلك يفتح لهم قلبه.. يفتح لهم الكنوز ليأخذوا منها ما شاءوا، فحينما «أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير:

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

فقال رسـول الله ﷺ: أربعوا على أنفسـكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»(١)

يقول ذلك الصحابي: «وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال لي: يا عبد الله بن قيس. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي.

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»(٢).

ورآه مولاه شـقران رضي الله عنه يسن فسـحة لهذه الأمة، وسياحة مع الله دون مشقة أو تعب.

يقول شـقران: «رأيته يعني النبي ﷺ متوجهـاً يوم خيبر على حمار، يصلي يومئ إيمـاء»(٣) دون الحاجة إلى مس ظهر الحمار، أو مس وجه الأرض، أو القيام عليها، بل دون التوجه إلى القبلة.. كان ﷺ لا يبالي أين اتجه به الحمار.

يقول ابن عمر رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي على حمار وهو موجه إلى خيبر»(٤) وخيبر في جهة الشـمال، والطريق متعرج، والنبي يحتاج إلى التعرج معه، ويقول ابن عمر «إن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته حيث توجهت به»(٥).

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

(٣) حديث حسن رواه أحمد ٣-٤٩٥ والطبراني في المعجم الأوسط ٣-١٤٩ من طريق مسلم ابن خالد الزنجي عن عمرو بن يحيى عن شقران. ومسلم صدوق له أوهام كثيرة لكن يشهد للحديث ما بعده.

(٤) صحيح مسلم ١-٤٨٧.

(٥) صحيح مسلم ١-٤٨٦.

كان ﷺ يتفقـد أصحابه في كل مواقعهم، فلم يكـن بمعزل عنهم مكتفياً بإصدار الأوامـر والنواهي.. كان يشـملهم برعايته، ويحتضنهم بقلبه.. «كان رسـول الله ﷺ يتخلف في المسـير فيزجي الضعيف ويـردف ويدعو لهم»[1]، وكانـوا كلهم يخدمونه، ويتسابقون لخدمته رغم أنه قد حدد من يخدمه.

هذا أحدهم أنس بن مالك يقول رضي الله عنه: «خرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم، فكنت أخدم رسـول الله ﷺ إذا نزل فكنت أسـمعه كثيراً يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال»[2]

سـمع أنس ذلك الدعاء، لكن غيره سـمع دعاء جديداً، وذلك بعد صلاة الفجر.. خلال تلك الأجواء السـاحرة، وليس هناك أجمل من فجر الصحاري، وليس هناك ألذ من النهوض فيها.

كان ﷺ «يحرك شـفتيه بشـيء بعد صلاة الفجر، فقيل له: يا رسـول الله، إنك تحرك شـفتيك بشـيء ما كنت تفعله، فما هذا الذي تقول؟ قال ﷺ: أقول: اللهم بك أحاول، وبك أقاتل، وبك أصاول»[3].

فجر جديد معطر بالنشـاط والتوحيد.. حمل الصحابة رضي الله عنهم مع نبيهم حتى وصلوا إلى مكان يقال له (الصهباء) وذلك قبل العصر.

الوصول إلى الصهباء

كان الوصول إليها يعني الاقتراب جداً من خيبر، فالصهباء هي أول منطقة خيبر. يقول أحد الصحابة واسمه (سويد بن نعمان): «إنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر، حتـى إذا كانوا بالصهباء -وهي أدنى خيبر- فصلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت

---

(١) سنده صحيح رواه أبو داود ٣-٤٤ وغيره من طريق إسماعيل بن علية، ثنا الحجاج بن أبي عثمان عن أبي الزبير أن جابر بن عبد الله حدثهم. أبو الزبير لم يدلس والحجاج ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١٥٣ وكذلك إسماعيل: ٦٥.

(٢) صحيح البخاري ٣ : ١٠٥٩.

(٣) سـنده صحيح رواه ابن حبان ٥-٣٧٤ من موسـى بن إسماعيل وهو ثقة ثبت عن حماد بن سلمة عن ثابت البنانـي عن عبد الرحمـن بن أبي ليلى عن صهيب. عبد الرحمن تابعي كبير وثقة من رجال الشـيخين. التقريـب ٤٩٦ وكذلك ثابت، أما حماد فإمام ثقة لكنه من رجال مسـلم فقـط. ولعل الأصح أن ذلك في حنين كما سيمر.

إلا بالسويق، فأمر به فثري، فأكل رسول الله وأكلنا، ثم قام إلى المغرب، فمضمض، ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ»[1]، ثم سار ﷺ حتى وصل إلى مشارف حصون خيبر.

هنا توقف ﷺ ليتأكد من أن يهود خيبر مازالوا على غدرهم وكفرهم وأن أرضهم خالية من الإسلام.. سينتظر حتى بزوغ الفجر، فإذا لم يرفع الأذان من داخل الحصون، فإنه سيشن غارته.

لا أذان في حصون خيبر

يقول أنس: «كنت ردف أبي طلحة يوم خيبر وقدمي تمس قدم رسول الله ﷺ، فأتيناهم حين بزغت الشمس وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم»[2] (وكان إذا غزا بنا قوماً، لم يغزُ بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم. فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلاً، فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب، وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ.

فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم [خرجوا بالمساحي على أعناقهم] فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله، محمد والخميس،

[فلجأوا إلى الحصن] فلما رآهم رسول الله ﷺ [رفع النبي يديه] قال: «الله أكبر، الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»)[3].

سمع اليهود التكبير، ورأوا خيل الله تزحف نحوهم، فلجأوا إلى حصونهم وتركوا الرعب والجيش يتجولان في أزقة خيبر وشوارعها. أما الحصون فقد اكتظت بالجبن واليهود، فاحتل جيش الإسلام ما أمامه من مساحات دون الحصون «فغلب على النخل والأرض» وأرجأ فتح الحصون إلى الغد لصعوبة اقتحامها، ولما جاء الغد نادى ﷺ صاحبه الصديق.

---

(١) صحيح البخاري ١-٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٢-١٠٤٥.

(٣) صحيح البخاري ١-٢٢١ والزوائد له ٣-١٠٩٠ و٣-١٣٣٢.

أبو بكر يقود أول حملة على حصون خيبر

ناداه النبي ﷺ وأعطاه الراية، فامتثل رضي الله عنه دون تردد

يقول بريدة: «حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر ولم يفتح له»[1] أي لم يتمكن من فتح حصن خيبر، وكانت تلك السرية تضم ثلة من شجعان الصحابة إلا واحداً .. هو علي بن أبي طالب، الذي كان يشكو من رمد في عينيه، وفي اليوم الثاني كرر النبي ﷺ المحاولة، لكنه أعطى اللواء هذه المرة لـ:

عمر بن الخطاب يقود الحملة الثانية

يقول بريدة وهو أحد الذين شاركوا في تلك الحملات: «وأخذ من الغد عمر فانصرف ولم يفتح له، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد» فقد حاولوا وحاولوا، ولكن شدة التحصين كانت حائلاً دون الفتح، لكن النبي ﷺ -رغم ذلك- يبشر بفتح خيبر، فبعد أن استعصت تلك الحصون على السرية الأولى والثانية «قال رسول الله ﷺ: إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له»[2] «يفتح الله على يديه ليس بفرّار»[3].

كانت المشاعر تحاصر حصون خيبر، وتدفع بالشمس نحو الشروق.. هبت أنسام الفجر، فنهض الصحابة للصلاة، وعندما أشرقت الشمس لاح في الأفق الفتح، فقد خرج أشجع رجل في اليهود.

---

(١) تخريجه في نهاية الحديث.

(٢) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٥-١٠٩ وأحمد ٥-٣٥٢ وغيرهما من طريق الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي: بريدة. وعبد الله تابعي ثقة والحسين بن واقد ثقة من رجال مسلم. التقريب ١٨٠.

(٣) حديث صحيح بطرقه رواه أحمد ١-١٣٣ عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان أبي يسمر مع علي ورواه ابن أبي شيبة ٧-٣٩٦ من طريق عبيد الله قال حدثنا نعيم بن حكيم عن أبي مريم عن علي والنسائي في الكبرى ٥-١٤٤ عمران بن بكار بن راشد قال حدثنا أحمد بن خالد قال حدثنا محمد عن عبد الله بن أبي نجيح عن أبيه أن معاوية ذكر علي بن أبي طالب فقال سعد.

ملك خيبر يبحث عن مبارز

رجل جمع الملك والفروسية، فمن سيتصدى له..؟

أتذكرون ذلك الشاعر الذي كان يطرب الصحابة في الطريق إلى خيبر..؟ إنه عم سلمة بن الأكوع، واسمه عامر بن الأكوع. عامر هذا جمع الفروسية والشعر والحداء والتحدي أيضاً.

يقول ابن أخيه سلمة: «خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

وبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسفل له، فرجع سيفه على نفسه، فقطع أكحله فكانت فيها نفسه. فخرجت فإذا أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه.

فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله بطل عمل عامر؟ قال رسول الله ﷺ: من قال ذلك؟ قلت: أناس من أصحابك. قال: كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين ثم أرسلني إلى»[1].. إلى من..؟

أرسله إلى فارس خيبر المنتظر، لكن تفاصيل حدثت قبل إرساله نحتاج إلى معرفتها، فالصحابة ينتظرون اسم الفارس الذي سيفتح خيبر.

يقول سهل بن سعد عن تشوق الصحابة وتجمعهم لذلك: «فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها»[2] كل الصحابة يرجونها.. كلهم مرشحون إلا واحداً.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٥٧.

عمر بن الخطاب يحدثنا عن مشـاعر ذلك الصبـاح فيقول: «فما أحببت الأمارة قبل يومئذ، فتطاولت لها، واستشرفت رجاء أن يدفعها إلي»[1]

بريدة رضي الله عنه يقول: «وأنا فيمن تطاول لها»[2].

أمـا النبي ﷺ فقد كرر بث الحماس في أصحابه، كما فعل في غزوة أحد فقال: من يأخذ الراية بحقها؟ (أخذ رسول الله ﷺ الراية فهزها ثم قال: من يأخذها بحقها؟ فجاء الزبير فقال: أنا

فقـال: أمط. ثم قـام رجل آخر فقال: أنا. فقال: أمط. ثم قـام آخر. فقال: أنا. فقال: أمط.

فقال رسول الله ﷺ: والذي أكرم محمد لأعطينها رجلاً لا يفر بها)[3].

صرح النبي ﷺ بفارس هذا اليوم ونطق باسمه.. كان اسماً غير مطروح ولا متوقع، نظراً لظروف هذا الفارس الصحية، والحالة التي يمر بها، فهو لم يشـارك في أي سرية من السرايا في الأيام السابقة، وما أخرجه من المدينة سوى الشوق لنبيه ﷺ، وإلا فهو في حالة عذر عن القيام بأعباء الجهاد، بل إنه عاجز تماماً عن الجهاد.. رغم ذلك كله:

النبي ﷺ ينادي علياً

غدا الصحابة «على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله.. فأرسلوا إليه فأتوني به»[4].

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه خارج قوائم الترشـيح عند الصحابة، حتى لقد قال سـلمة بن الأكوع: «فـإذا نحن بعلي وما نرجوه»[5]، وذلك لشـدة الرمد الذي

---

(١) مر تخريجه وهو صحيح.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد في فضائل الصحابة ٢-٦١٧ وغيره من طريق إسرائيل عن عبد الله بن عصمة سمعت أبا سعيد الخدري. ابن عصمة تابعي صدوق قال في الجرح والتعديل ٥-١٢٦ سألت أبا زرعة عن عبد الله بن عصمة أبي علوان فقال كوفي ليس به بأس.

(٣) سنده صحيح رواه ابن حنبل في فضائل الصحابة ٢-٦١٧ وهو الحديث السابق.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٥٧.

(٥) صحيح البخاري ٣ - ١٠٨٦.

أصاب عينيه، بل إن علياً نفسه لم يتوقع ذلك، وإلا لجاء مع الصحابة المتلهفين إلى الإمساك بالراية.. لقد كان علياً مشغولاً بعينيه، لكن قوة إيمانه وعزمه حملاه على المشاركة المعنوية، بعد أن تعذرت عليه المشاركة البدنية مع نبيه وأخوته.

إن كرامة الله لعلي رضي الله عنه تشابه كرامته لعمرو بن الجموح، وعبد الله بن حرام.. شيخان انتزعا نفسيهما من ظروف قاهرة وصعبة.. عمرو بن الجموح كان شديد العرج، وعبد الله بن حرام لديه تسع بنات، أما علي، فقد قال لنفسه بعد أن غادر النبي ﷺ أصحابه نحو خيبر «أنا أتخلف عن النبي ﷺ..؟ فلحق به»[1].

غداً موعد لفتح جديد، وغداً ستشرق الشمس على أرض جديدة بالإسلام، وأرض جديدة للإسلام، لكن ماذا عن فاتحها، وهل هذه الصفات لا تنطبق إلا على رجل واحد فقط..؟

الصفات والأحداث تقول: لا.

فالنبي ﷺ قال: يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، وهذا الجيش ينعم كله بهاتين الصفتين، لأنه جيش الحديبية الذي قال الله عنه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أما قول النبي ﷺ: ليس بفرار، فهذه الصفة يتزين بها أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، والزبير، وابن عوف، وابن عبادة، والمقداد، وأبو دجانة، وسعد وأسيد، وبلال، وغيرهم.. وغيرهم.

إذاً فهو تكريم من الله للفاتح غداً، كتكريمه لوالد جابر بن عبد الله في غزوة أحد، ولا شيء يؤكد هذا مثل الشعور الذي انتاب الصحابة وهم ينتظرون ذلك الغد على أحر من الشوق.

هذا بريدة يتحدث عن مشاعر الصحابة فيقول: «فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا هو يرجو أن يكون صاحب اللواء»[2] ثم يتحدث رضي الله عنه عن

---

(١) مر معنا في أول الغزوة وهو صحيح.

(٢) حديث الحسين بن واقد السابق.

مشاعره الخاصة فيقول: (وأنا فيمن تطاول لها)[1] ويقول سهل بن سعد: «فبات الناس يدكون ليلتهم أيهم يعطاها»[2]

أما عمر بن الخطاب فيصف شوقه قائلاً: «ما أحببت الأمارة إلا يومئذ، فتساورت لها رجاء أن أدعى لها»[3].

امتثل الصحابة، فبعثوا سلمة بن الأكوع إلى علي، فوجده على حال يرثى لها.. وصل «إلى علي وهو في الرحى يطحن»[4] لإخوانه المجاهدين.. اكتفى علي بأن يكون خادماً لنبيه وإخوانه. ويقول سلمة: «فبعثني إلى علي وهو أرمد، فجئت به أقوده»[5] «فجاء وهو أرمد لا يكاد أن يبصر»[6] «فقال: يا نبي الله ما أكاد أبصر؟ فنفث في عينه»[7] «ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع»[8] «وهز الراية ثلاثاً ثم دفعها إليه»[9] وبعد أن أعطاه الراية أمره بأمر ينضح بالانتصارات.. أمر كالسيف:

لا تلتفت

أخذ فارس خيبر راية الإسلام منطلقاً إلى حصون خيبر، لكنه تذكر رسالته التي يحملها في صدره.. رسالته التي أخرجته من داره بمكة، فهو لا يحتاج إلى دماء هؤلاء اليهود الخونة، فهل سيلتفت والنبي ﷺ قد قال: («امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

فسار علي شيئاً ثم وقف، ولم يلتفت [للعزمة] فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ [أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟].

---

(١) حديث الحسين بن واقد السابق.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٧٢.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٧١.

(٤) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ والحاكم ٣-١٤٣ والطبراني ١٢-٩٨ وغيرهم من طريق الوضاح وهو أبو عوانة حدثنا يحيى ابن أبي سليم أبو بلج حدثنا عمرو بن ميمون أن بن عباس. ابن ميمون ثقة مخضرم ويحيى صدوق ربما أخطأ التقريب: ٦٥٢.

(٥) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

(٦) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث قبل السابق.

(٧) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث السابق.

(٨) صحيح البخاري ٣-١٠٩٦.

(٩) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث قبل السابق.

قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، فإذا فعلوا فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»)[1].

كل هــذا التجاوز والصفــح، وكل هذه الأجــواء الرحبة مفتوحة لليهود.. ســيتم التغاضي عن خياناتهم وغدرهم يوم الأحزاب، وقبله مقابل ماذا؟

مقابــل الدخول في دين الله وعبادته وحده، فالهــدف ليس تطهير حصون خيبر وأرضها، بل تطهير قلوب ساكنيها من الكفر، الذي حول حياتهم وسلوكياتهم إلى خيوط وعقد من المؤامرات السوداء، التي تخنق الأمن والأنفاس.

لم يعرض النبي ﷺ عليهم دفع فدية..

هو الإســلام أو عقوبة الخيانة، وبالإسلام يحتفظون بأموالهم ودمائهم وديارهم، لكنهــم يهود. أما علي المتوجه كالموت نحوهم، فقــد قدم له النبي ﷺ ولأتباعه كلمات كالمطر. قال ﷺ لعلي: «انفذ على رســلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[2].

قــدَّم ﷺ تلك النصائح لأنه لا يأس مع الدعوة إلــى الله، ولو كنت تخاطب خائناً حاقداً متطوياً كالحية داخل حصون خيبر.

انطلــق علي حاملاً رايته، وحاملاً أملاً بدخول هؤلاء القوم في دين الله، ولما نزل بساحتهم.. دعاهم إلى الإسلام كما أمر.

لكنه جوبه برفض قاطع، وظن القوم أن هذا الجيش ســيعود كما عاد في اليومين السابقين، بل لقد فتح باب الحصن مرة أخرى فخرج منه ذلك الحتف العنيد، والفارس المرعب (مرحب) الذي يتحدى الجميع بعد أن استشهد عامر بن الأكوع على يديه.

(خرج مرحب مرة أخرى فقال:

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٧١ والزيادة صحيحة السند وهي في ابن حبان ١٥-٣٧٩ إبراهيم بن الحجاج السامي حدثنا حماد بن سلمة عن بقية سند مسلم وإبراهيم وحماد ثقتان.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٩٦.

قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السـلاح بطل مجرب
إذا الحـــروب أقبلت تلهب

فقال علي:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة
كَلَيثِ غابات كريــه المنظـرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحب فقتله)[1].

وقتل معه ما تبقى مــن معنويات اليهود الذين أغلقوا حصونهم بعد هلاك ملكهم فقام علي باقتحام حصنهم الأول ثم الذي يليه[2]، وأثناء ذلك سقط بعض الشهداء من المؤمنــين والتحقوا بعامر بن الأكوع رضي الله عنه. واشــتد القتال والاقتحام، وبدأت أرض خيبر تتحول إلى جديد يكتبه الصحابة بدمائهم.

سـلمة بن الأكوع.. فارس بحجم جيش، لكنه أصيب، فأنقذته معجزة سـاقها الله على يد رسول الله ﷺ.

معجزة لجراح سلمة

سـأل رجل سـلمة بعد أن: «رأى أثر ضربة في ساق سـلمة: يا أبا مسلم ما هذه الضربــة؟ فقال: هــذه ضربة أصابتني يوم خيبر. فقال الناس: أصيب سـلمة. فأتيت النبي ﷺ، فنفث ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة»[3].

عاد سلمة إلى بقية الفرسان.. عاد إلى ساحة تختنق فيها الخيانة واليهود، وانضم النبي ﷺ إلى جنوده يوجههم، ويؤازرهم، بل ويبتسم أحياناً في وجوههم.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

(٢) هناك روايات ضعيفة ومضطربة أن علياً خلع باب خيبر لوحده، فلم يسـتطع حمله إلا عشـرات الرجال وهي من الروايات التي يبدو عليها الوضع.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

حدث ذلك عندما بدأ اليهود يتخلصون من بعض الأشـياء التي قد يسـتفيد منها المسلمون القادمون لا محالة.

ابتسامة النبي ﷺ في وجه عبد الله بن مغفل

يقول رضي الله عنه: «كنا محاصرين قصر خيبر، فرمى إنسان بجراب فيه شحم، فنزوت لآخذه، فالتفت فإذا النبي ﷺ [متبسماً] فاستحييت»(١).

كان اليهود يحاربون دون مواجهة.. خلف الحصون، إلا من كان في مثل شـجاعة وبأس ملكهم الهالك (مرحب)، أما البقية فمن خلف تجاويف الأسـوار ينفثون سـهاماً كالموت، فبينما كان أحد فرسان المسلمين يطارد خلالها شجعان اليهود، وتطارده كلمات الإعجـاب من المحاربين.. تطـارده كل عبارات الثناء إلا عبارات تصدر أسـفاً عليه.. كلمات أسف من النبي ﷺ على:

بطل آخر إلى النار

فبعـد أن وصل أبو هريرة إلى أرض خيبر قال: «شـهدنا مع رسـول الله ﷺ خيبر فقال لرجل ممن يدعي الإسلام، هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شـديداً فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله الذي قلت إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً، وقد مات فقال النبي ﷺ: إلى النار. فكاد بعض الناس أن يرتاب»(٢).

أخذ هذا الرجل إلى مكان آخر لمداواته، لذلك سنتركه لنتابع أحداث المعركة على أن نعود إليه لاحقاً، فقصته مثيرة ومؤثرة، لكن السـاحة الآن تشـهد انحسار اليهود، وتساقط أسوارهم.. قتل منهم من قتل، ولاذ من بقي منهم بآخر حصونهم وأمنعها.

يقول الشـاب عبد الله بن عمر: «إن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلـى مقرهم، فغلب علـى الأرض والنخل والزرع»(٣) ولم يبق لليهود سـوى المقاومة أو الاستسلام، فحول هذا السور فرسان كالموت الأحمر أحدهم:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٩ والزيادة لمسلم ٣-١٣٩٣.

(٢) صحيح البخاري ٣-١١١٤.

(٣) سـنده صحيح رجاله أئمة ثقات رواه أبو داود ٣-١٥٧ وغيره من طريق حماد بن سـلمة عن عبيد الله بن عمر قال أحسبه عن نافع عن ابن عمر . وهو على شرط مسلم.

بريـدة رضي الله عنه توهج ذلك اليوم، لكنه يرى أن توهجه ذلك كان أعظم ذنب ارتكبه في حياته منذ أسلم، أما لماذا؟

فالسؤال لا يعرف الإجابة عليه سوى بريدة الذي يقول: «شهدت مع رسول الله ﷺ فتح خيبر، فكنت فيمن صعد الثلمة، فقاتلت حتى رئي مكاني، وأبليت وعلي ثوب أحمر، فمـا علمت أني ركبت في الإسـلام أعظم منه. قال: للشـهرة»[1] فمهما كانت إنجازات المسـلم عظيمة، ومشـاريعه عملاقة في تكريس هذا الديـن، إلا أنها تتوقف على بوابة القبـول حتى تحصـل على بطاقة يقال لها: (النقاء والإخلاص لله) كما أن هذا النقاء لا يكفي إلا إذا كان العمل المصاحب له سليماً من التحريف (بدعة أو نقصاً)

يقول سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ وهذا الأخير هو ما جعل بريدة قلقاً على جهاده يوم خيبر. لقد خشي أن يكون شيئاً من الرياء قد تسـرب إلى صفاء نيته، فأفسده وأحبط عمله؟ رقابة وضعها الإسلام داخل أعمـاق أتباعه المخلصين، توجه أعمالهم لتبقى نقية بالتوحيد، وكما خشـي بريدة من انهيار عمله بسبب شعوره بالتفوق على الآخرين، فإن رجلاً آخر لم تسعفه نيته عندما لوثها بتصرف لا يليق بمسلم.

إنه ذلك البطل الجريح الذي يعاني آلاماً شديدة من جراحه في المعركة، فعندما جن عليه الليل.. جن جنونه من جرحه وآلامه، فأراد أن يطلق رصاصة العذاب على تلك الآلام.. أراد أن يضع حداً لمعاناته، لكنه أساء العمل فحطم في الليل ما أنجزه في النهار.

يقول أبو هريرة: (شـهدنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر، فقال -يعني لرجل يدعي الإسلام-: هذا من أهل النار.

فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شـديداً، فأصابته جراحة فقيل: يا رسـول الله، الرجل الذي قلت له: إنه من أهل النار، فإنه قاتل اليوم قتالاً شـديداً وقد مات. فقال النبي ﷺ: إلى النار.

---

(١) سـنده قوي رواه الروياني ١-٧٩ وابن عدي في الكامل ٢-٣٤ من طريق محمد بن مزاحم حدثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه. مقاتل صدوق من رجال مسلم: التقريب ٥٤٤ وتلميذه بكيـر صدوق وجرحه غير مفسـر. انظر ترجمته في التهذيب. وابن مزاحـم أبو وهب صدوق من رجال التقريب ٥٠٦.

فـكاد بعـض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلـك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراح شـديدة. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالاً، فنادى في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله عز وجل يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1].

هذا الرجل قتل نفسه بسهم، وذلك قتل نفسه بسيفه على أرض المعركة يوم أحد، مع أن كلاً منهما أبلى وتألق وحاز كلمات الإعجاب، لكن النهاية واحدة.. النار.

لأن من خرج للقتال في سبيل الله.. عليه أن ينفذ تعاليم من أخرجه، وإلا فليبحث له عن تبرير آخر لجهاده سوى سبيل الله.

ومن قتل نفسـه، فهو كمن قتل بريئاً دون ذنب، فلا مكان في الإسـلام لرصاصة الرحمة المزعومة، لأن المعاناة جزء من الجهاد، وهي سبب للتطهير والتكفير والخلاص من الذنوب، وما خرج المجاهد في سبيل الله إلا لذلك، والخروج للجهادج ليس سياحة بين الفنادق والمنتجعات والشواطيء، وليس تجوالا بين القرى والمدن.

إنـه أقصر الطرق للجنة، لكنه شـاق ومتعب ولذته لا تقـاوم، لذا فهو يحتاج إلى عزيمة وانضباط، فقد تتخلله الجراح والأسر والتعذيب.

إذا فعلـى من يختار هذا الطريق المختصر.. أن يختاره بكليته.. بحلاوته ومرارته. عندها فقط سيشعر أن أرض الجنة على بعد خطوات منه.

لا بد أن شـعوراً بالمرارة خالـج من رأى بداية هذا الرجل ونهايته، لكنها ليسـت كالمرارة التي يشعر بها اليهود الآن والحصار يخنق أنفاسهم. قد يشعر اليهود بالمرارة، لكن من المستبعد أن يشعروا بالندم على خياناتهم، لأن الخيانة جزء من عقيدتهم التي كتبوها وأدرجوها ضمن كتابهم المقدس. حتى الاستسلام الذي يطل من حصونهم الآن، ما هو إلا استسلام يغلف خيانة جديدة.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١١٤.

الاستسلام والخيانة

قرر اليهود أن يستسلموا بعد أن فقدوا كل شيء، لـ (أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء ويخرجون منها، فاشترط عليهم أن:

لا يكتموا شيئاً.

لا يغيبوا شيئاً.

فإن فعلوا ذلك فلا ذمة لهم ولا عصمة.

فغيبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

فقال رسول الله ﷺ لعم حيي: ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب.

فقال ﷺ: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك. فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام فمسه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك قد دخل خربة، فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربة هاهنا.

فذهبوا، فطافوا، فوجدوا المسك في خربة. فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي حقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم للنكث الذي نكثوه، وأراد أن يجليهم منها فقالوا يا محمد: دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها؟ ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، فكانوا لا يتفرغون أن يقوموا فأعطاهم خيبر)[1] لكن:

كيف يعطي النبي ﷺ خيبر لليهود

لقد قدم اليهود التماساً للنبي ﷺ لم يستعجل برفضه، بل وجده يعود على دولته بالفائدة، لاسيما وأن هناك ما يبرر قبوله، فأرجأ عليه السلام قرار الإجلاء إلى مدة مفتوحة على مصالح الدولة المسلمة.

---

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان ١١-٦٠٧ وأبو داود (٣٠٠٦) وقد مر معنا قبل قليل.

قال عبد الله بن عمر: «كان رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها، وكانت الأرض لما ظهر عليها لليهود وللرسـول وللمسـلمين، فسأل اليهود رسول الله ﷺ أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر، فقال رسول الله ﷺ نقركم على ذلك ما شئنا»[1].

يصف ابن عمر إن ذلك حدث بعد أن نظر عليه السلام إلى رئيسهم المتحدث باسمهم نظرة تقرأ خارطة الخيانة في عالم اليهود، وألقى إليه بكلمات لا يصدق فيها إلا نبي.

قال له: «رسـول الله ﷺ: كيف بك إذا أخرجـت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعـد ليلة؟ فقال: كانت هذه هزيلة من أبي القاسـم. قال: كذبت يـا عدو الله»[2] تلك الكلمـات الوقحة التي تلفظ بها ذلك اليهودي مـا هي إلا بعض أنفاس اليهود متى ما أمنـوا العقوبة، أما المؤمنـون، فبعد أن تم لهم النصر.. ذهبوا يلقون عنهم عناء التعب، والبعـض أنهكه الجوع، فذهب ليبحث عن لقمـة لجوفه الخالي، لكن هؤلاء لم يجدوا سوى بعض الحمير التي وجدوها خارج المدينة، فقاموا بذبح بعضها، وألقوا لحمها في قدورهم. أحد هؤلاء اسمه: عبد الله يتحدث عن:

أكل لحوم الحمر الأهلية

يقول رضي الله عنه: «أصابتنا مجاعة يوم خيبر، ونحن مع رسـول الله ﷺ، وقد أصبنا للقـوم حمراً خارجة من المدينة، فنحرناها، فـإن قدورنا لتغلي إذ نادى منادي رسـول الله ﷺ»[3] بشـيء أبقى البطون خاوية، فقد جاء فقال: «يا رسـول الله أكلت الحمر. ثم جاء آخر فقال: يا رسول الله أفنيت الحمر.

فأمر رسـول الله ﷺ أبا طلحة فنادى: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس أو نجس. فأكفئت القدور بما فيها»[4].

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٩.
(٢) صحيح البخاري ٢-٩٧٣ والقلوص هي الناقة.
(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٣٨.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٤٠.

امتثل الصحابة لرسول الله ﷺ، فقلبوا قدورهم واتجهوا إلى الخيل والبغال - وهي قليلة- علها تسد ما بهم من مجاعة.

يقول جابر بن عبد الله: «ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل»[1] لم يقتصر النهي على هذين النوعين من الحيوانات. لقد نهى ﷺ عن لحوم حيوانات أخرى، ونهى عن ممارسات أخرى.

فبعد أن قال عليه السلام إثر غزوة الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» وبعد صلح الحديبية ونزول سورة الفتح، وبعد فتح خيبر.

بدأ عملياً توجه الإسلام نحو العالمية

بعد أن ولد في مكة، ونهض من مهد المدينة.. ها هو الإسلام يتهادى نحو العالم.. نحو جهات الدنيا الفسيحة كلها. لم يعد الإسلام مقتصراً على المهاجرين والأنصار، ولا على المدينة فقط، ولا حتى على القرن الهجري الأول.

إنه للعالم.. للدنيا بأسرها، ولكل القرون. وما دام الإسلام بهذه المقاييس، فلا بد أن يقدم مشروعاً يتضمن حلول الحاضر والمستقبل مهما بلغت البشرية من المدنية أو التحضر والرقي.

خيبر اليوم هي إحدى نقاط الانطلاق نحو العالم.. نحو مشاكل العالم والإنسانية.. في خيبر لم يعد الإسلام مأخوذاً بالتطهير الفكري والعقائدي فقط.. في خيبر أبحر الإسلام إلى جزر عذراء، وأراض جديدة.. يقدم للبشرية مشروعه الجميل، ليكون للحياة طعم جميل ونظيف، ليكون للإنسان غذاء نقي ونظيف.

في خيبر قدم ﷺ قائمة ببعض الممنوعات من الأطعمة والممارسات.. ممنوعات تجعل صحة المسلم وحياته أكثر إشراقاً ونظافة وتحضرا.

يقول جابر: «لما كان يوم خيبر أصاب الناس مجاعة، فأخذوا الحمر الإنسية فذبحوها وملؤوا منها القدور، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فأمرنا رسول الله ﷺ فكفأنا

---

(١) حديث حسن رواه أبو داود ٣-٣٥١ وغيره من طريق أبي الزبير عن جابر. أبو الزبير تابعي ثقة مدلس، لكنه لم ينفرد فقد توبع، تابعه التابعي الثقة أبو سلمة بن عبد الرحمن.

القدور فقال: إن الله عز وجل سيأتيكم برزق هو أحل لكم من ذا وأطيب من ذا، فكفأنا يومئذ القدور وهي تغلي، فحرم رسول الله ﷺ يومئذ الحمر الإنسية ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطيور، وحرم المجثمة والخلسة والنهبة»[1].

وقال الصحابي أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: «غزونا مع رسول الله ﷺ خيبر والناس جياع، فوجدنا منها حمراً من حمر الأنس، فذبح الناس منها، فحدث رسول الله ﷺ، فأمر عبد الرحمن بن عوف فأذن في الناس: إن لحوم الحمر الإنسية لا تحل لمن شهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله،

فكفأوا القدور بما فيها، ووجدوا في جوانبها بصلاً وثوماً، فقال رسول الله ﷺ: من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا، وقال رسول الله ﷺ: لا تحل النهبة ولا كل ذي ناب من السباع، ولا تحل المجثمة»[2].

من تأمل قائمة الممنوعات تلك يجدها بوابة لكثير من المتاعب الصحية، لا سيما مع تمدن البشرية القادم، وتكاثرها المتصاعد، مما يجعل التأكيد على جودة الطعام وسلامته أمراً لا يقبل التهاون، بل إن الطب ينصح بالاستغناء عن قائمة طويلة من الأطعمة الطيبة إرضاءً للصحة، فكيف إذا كانت هذه الأطعمة تشتمل على الحمار والبغل اللذين لا يباليان بما يدخل جوفيهما من المزابل وغيرها، أو الحيوانات المفترسة التي لا تفرق عندما تجوع بين الجيفة وغيرها، مما يجعلها جميعاً مستودعاً للأوبئة المجهولة والخطيرة، أما المجثمة ففي تحريم أكلها احترام لحقوق الحيوان.. في وقت كان العالم لا يرى للحيوان حقوقاً.. حرم الإسلام المجثمة التي يتسلى الجهلة بربطها، وجعلها هدفاً للتدريب على الرماية حتى الموت، ولو كانوا يدعون أنهم سيأكلونها في النهاية. ويدخل في المجثمة تلك الثيران التي يتسلى النصارى بتعذيبها ومصارعتها، وتمزيق أجسادها بالرماح والسيوف، فالغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام.

---

(١) حديث حسن ورجاله ثقات: رواه أحمد ٣-٣٢٢ حدثنا هاشم بن القاسم ثنا عكرمة يعني ابن عمار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وسنده ضعيف لاضطراب رواية عكرمة عن يحيى، التقريب ٣٩٦ وللحديث طرق عنده ٤-١٩٤ والطبراني في الكبير ٢٢-٢١٦ ومسند الشاميين ٢-١٨٣ وهو التالي: عن بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن أبي ثعلبة ولألفاظ الحديث شواهد صحيحة متفرقة.

(٢) انظر ما قبله.

أما النهب والسلب فمن الجرائم الكبيرة التي تنتهك خصوصيات الناس وأموالهم، وهي أشياء لا يجوز المساس بها مهما كانت الأسباب.

امتثل الصحابة لأن الذي يتحدث نبي مرسل، ولأنه لا ينطق عن هوى أو رؤية شخصية، ثم قاموا بالبحث عن أي شيء يطفئ لهب الجوع وسعيره، فلم يجدوا سوى الأرض.. سوى النبات.

قال أبو سعيد: « فتحت خيبر، فوقعنا أصحاب رسول الله ﷺ في تلك البقلة الثوم، والناس جياع فأكلنا منها أكلاً شديداً، ثم رحنا إلى المسجد، فوجد رسول الله ﷺ الريح فقال: من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا في المسجد.

فقال الناس: حرمت، حرمت.

فبلغ ذاك النبي ﷺ فقال: أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي، ولكنها شجرة أكره ريحها»[1] «فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[2] إذاً فالزينة في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[3] ليست مقتصرة على اللباس فقط، فالرائحة الزكية من أجمل الأشياء التي يفضل اصطحابها إلى المسجد، ومن أسرار عظمة الإسلام تسليطه الأضواء على الجمال مهما كانت الأجواء معتمة، والعقول مشغولة والنفوس مشحونة. فالإنسان في ظرف كظرف الحرب والاجتلاد أو الحماس تمنحه نفسه، ويمنحه حماسه مسوغات عديدة للقيام بممارسات قد تؤلم غيره، فيتجاوز أهداف خروجه.

هنا يتميز الإسلام عن غيره من الأديان، فلا مذابح جماعية.. لا انتقام.. لا تهور.. لا سلب، ولا نهب، بل انضباط والتزام وإلا فإنه ليس بجهاد. إنه في هذه الحالة اعتداء والموت فيه ليس شهادة.

هاهو الجوع مرة أخرى يرغم بعض الصحابة على البحث المرير بعد نفاذ الصلح، لكن النتيجة كانت أكثر مرارة.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١/٣٩٥ .
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١/٣٩٥.
(٣) الأعراف: ٣١.

صحابي اسمه: ثعلبة بن الحكم قال: «أصبنا يوم خيبر غنماً فانتهبها الناس، فجاء النبي ﷺ وقدورهم تغلي فقال: ما هذا..؟

فقالوا: نهبة يا رسـول الله. قال: اكفؤوها، فإن النهبة لا تحل. فكفؤوا ما بقي»[1] لأنها ليست لهم، والجوع ليس مبررا لنهب أموال الغير.

ترى لو كان هؤلاء القوم من غير المسلمين.. هل يمكن السيطرة عليهم..؟ هل يمكن ردعهم عن السـلب والنهب والاغتصاب.. اسـألوا التاريخ والحاضر عن المحاربين من غير المسلمين، فالإجابة فواجع.

كان اليهود غير بعيدين عن تلك المشـاهد، فتحركت النخوة داخل نفوسـهم. كان كرماً، لكنه:

كرم بنكهة يهودية

تحركت عواطفهم، ورشَّـحوا لإثبات تلك العواطف امرأة قامت بشـوي شـاة، ثم قدمتها للنبي ﷺ. الغريب في الأمر والمحير كذلك هو حرص المرأة على أن تلك الشاة هـي مجـرد هدية.. لا صدقة، حتى تتأكد من عدم رفـض النبي ﷺ لها، لأن الله قد حرم عليه الصدقة.

يقـول كعب ابن مالك: «إن امرأة يهودية أهدت إلى رسـول الله ﷺ شـاة مصلية بخيبـر، فقـال لها: ما هذه؟ قالت هديـة وحذرت أن تقول مـن الصدقة، فأكل وأكل أصحابه ثم قال لهم: أمسكوا»[2]

أما لماذا أمرهم بالتوقف عن الأكل..؟ فتلك معجزة إلهية، فبعد أن «أكل رسول الله ﷺ منها وأكل القوم فقال: ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»[3]

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ١٠-٢٠٥ وغيره من طريق سماك بن حرب عن ثعلبة بن الحكم قال: وسماك تابعي صدوق من رجال مسلم.

(٢) المعجم الكبير ١٩/٧٠-١٣٧ ومعمر بن راشد في الجامع ١١-٢٨ طريق الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه والزهري تابعي ثقة وإمام معروف.

(٣) سـنده صحيح رواه أبو داود٤-١٧٣ وغيره من طريق يونس وشـعيب ابن أبي حمزة وغيرهما عن الزهري كان جابر يحدث. الزهري ثقة وروايته عن جابر على شرط البخاري.

خيانتان لليهود في اليوم نفسه الذي عاهدوا فيه النبي ﷺ.. في الأيام نفسها التي ناشدوا فيها هذا النبي أن يبقي على أرواحهم، وأن يقبل شراكتهم الاقتصادية تلك، ويبدو من سلسلة الغدر اليهودي التي حدثت بعد وصول النبي عليه السلام إلى المدينة أنها تشكل نسبة مرتفعة من دمائهم، ومع هذا فقد حاول ﷺ استثمار حالة التوجس والخوف من انكشاف جريمتهم.. حاول استثمارها لصالحهم هم، فهم وإن صدئ معدنهم، إلا أنهم لا يزالون بشراً أحياء. وهاتان الصفتان تفتحان للمسلم فرصاً للدعوة.

حاول ﷺ من خلالها أن يثبت لعنادهم أنه نبي مرسل، وأنه لا عذر لهم في رفض الإسلام سوى العناد والمكابرة.

يقول أبو هريرة: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيه سم، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود.

فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا أبونا فلان.

فقال رسول الله ﷺ كذبتم بل أبوكم فلان. فقالوا: صدقت وبررت. فقال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ: مَنْ أهل النار؟

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً.

ثم قال لهم: فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم. فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ فقالوا: نعم. فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»[1].

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

ها قد تبين أنه نبي وأنه ليس بكذاب.. ثم ماذا؟

لا شـــيء.. لم يسلم أولئك اليهود.. لم يتركوا عنادهم وتكذيبهم، لكن النبي ﷺ لم يتركهم.. هناك جريمة، وهناك مجرمون، وهناك صحابة تغلغل السـم في أحشـائهم، وهم الآن على فراش المرض، وهناك تشريع جنائي عادل.

طلب ﷺ إحضار الجاني، فأحضرت المرأة المجرمة، وتمت مساءلتها علنياً من قبل النبي ﷺ، «فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك. قال: ما كان الله ليسلطك على ذاك أو قال عليَّ. قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا»[1].

لأنــه لم يمت أحد من الصحابــة حتى الآن من ذلك السـم، وإن كان له أثر على لهوات النبي ﷺ لدرجة أن أنس رضي الله عنه كان يقول: «فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ»[2].

لكن، وبعد أيام تمكن السم من أحد الصحابة واسمه (بشر) «فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري، فأرسل إلى اليهودية:

ما حملك على الذي صنعت؟ قالت: إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك.

فأمـر بها رسـول اللـه ﷺ فقتلت»[3] بعـد أن عفا عنها رغم شـروعها في قتل رأس الدولة الإسـلامية، لكن وبعد موت بشـر رضي الله عنه أصبحت قاتلة متعمدة، فاسـتحقت عقابها في القرآن، بل وفي كتاب التوراة التي تؤمن به، ولم يشمل العقاب أولئـك المتآمرين معها، علَّ العفو يجدي في محو ثقافة الحقد والكراهية لديهم، ومن أجل ذلك قام ﷺ بعمل حاول به جمع قلوب اليهود حوله.. حينما اسـتقر قمراً وعزاءً بين يدي إحدى فتياتهم الحزينات.

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٤-١٧٢١).

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود -٤٥١٢ وأحمد (٣-٢٤٢) والدارمي (١-٦٤) والطبراني (٢-٣٤) والبيهقي (٨-٤٦) من طريق حماد بن سـلمة وجعفر بن عون وغيرهما من الثقات عن محمد بن عمرو بن علقمة الليثي وهو حسـن الحديث من رجال الشيخين.. التقريب (٢-١٩٦) وشيخه هو التابعي الثقة.. أبو سلمة بن عبد الرحمن الزهري وهو إمام مكثر التقريب (٢-٤٣٠) وقد صحح الإمام الألباني رحمه الله هذا الحديث.

تلـك الفتاة التي رأت تلـك الرؤيا فلكمها زوجها الغبي بعدمـا أخبرته بما رأت.. هي اليوم حزينة جداً، فقد قتل زوجها قبل الصلح، لأنه عاهد النبي عليه السـلام على قول الحقيقة أو الموت والسـلب. كانت الفرصة أمامه لينجو بنفسه، لكن الخيانة داخله كانت أكبر من أن يخفيها.. كذب على رسـول الله ﷺ، فأطلعه الوحي على ذلك.. هذه الفتاة تشعر بحزن شديد وذل أشد، فهي الآن سبية وهبها النبي عليه السلام لصاحبه دحية الكلبي، وهي تشـعر ببغض شـديد لهذا النبي، فهو لم يقتل زوجها فقط، بل إنها تقول لمن يسـمعها: «كان رسـول الله ﷺ مـن أبغض الناس إلي، قتـل زوجي وأبي»[1] لعلكم تذكرون هذه الفتاة عندما كانت طفلة مدللة.. تلك التي كانت تحدثنا عن وصول النبي عليه السـلام إلى المدينة، وكيف خسـرت ذلك الدلال مـن أبيها وعمها في ذلك اليوم.. عندما شـاهدا النبي ﷺ، فعادا كسلانين ثقيلين من الهم على خروج النبوة من بني إسـرائيل، وانتقالها إلى بني إسماعيل، وهاهي اليوم تحصد أحقاد والدها وعمها وزوجهـا ومؤامراتهـم المتكررة. فقد (جـاء دحية فقال يا نبي اللـه أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير! لا تصلح إلا لك. قال: ادعوه بها. فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها)[2]

أراد ﷺ اعتاق هذه الأميرة، أو مصاهرة اليهود في آخر محاولة لاستمالتهم إلى الإسلام، لكن يبدو أن دحية يشـعر بأنها ليسـت كأي فتاة من السبي، فقد جمعت المجد من أطرافه. فهي سـيدة بني النضير، وهي سـيدة قريظة أيضاً، وهي قبل ذلك ابنة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، وقد حظيت إلى ذلك بجمال أخاذ، فأراد ﷺ إرضاء صاحبه دحية.

---

(١) سـنده صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤-٦٧) والبيهقي (٩-١٣٧) وابن حبان (١١-٦٠٧) من طريق أبي الزرقاء وابن غياث وعفان قالوا حدثنا حماد بن سـلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن بن عمر قال وهذا سند صحيح مر معنا في أول هذا الجزء..

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١-٤٥).

يقـول أنس بن مالك رضي الله عنه: «صارت صفية لدحية في مقسـمه، وجعلوا يمدحونها عند رسـول الله ﷺ ويقولون: ما رأينا في السـبي مثلها. فبعث إلى دحية فأعطاه بها ما أراد»[1] لقد «اشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس»[2].

فقد عرف عليه الصلاة والسلام لهذه المرأة الشريفة قدرها، وقدر حزنها وشعورها بالمرارة، فتوجه إليها كالمواسـاة.. يسـليها.. يقنعها بنبوته.. يعتذر إليها ويكشـف عن عقليتها ذلك الضباب اليهودي الأسـود، حتى تلاشـى وتلاشى معه حزنها وكراهيتها، فإذا الدنيا صباح بالإسـلام، وربيع بمحمد عليه السـلام، فباحت صفية بذلك النور الـذي انبجس في أعماقها وقالت: «وكان رسـول الله ﷺ مـن أبغض الناس إلي، قتل زوجـي وأبي وأخي، فما زال يعتذر إلي ويقـول: إن أباك ألَّبَ علي العرب، وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسـي»[3] «واصطفى رسـول الله ﷺ صفية بنت حيي، فاتخذها لنفسـه وخيَّرها أن يعتقها وتكون زوجته، أو تلحـق بأهلها. فاختارت أن يعتقها وتكون زوجتـه»[4] دون أن يكرههـا، أو يغصبها، بل لقد رفضت العودة إلى أهلها وديارها رغم حبها وشـوقها لهم، لأنها أفاقت في عالم هذا النبي على شيء أذهلها عنهم، فتوجهت معـه مأخوذة بهـذا الاعتذار النبوي الجميل، الذي لم يصادر مشـاعرها.. لم يصادر إحساسها نحو من أحبتهم وعاشت معهم، ولم يجبرها باسم النبوة على التنكر لآلامها، فهـو الحب الذي يذيب الحرقـة والآلام، لكن النبي ﷺ لم يـزف إليها، لأن لها زوجاً سـابقاً لا بد من احترام نسـبه، وعدة لا بد أن تمضيها حتى يتم التأكد من خلوها من حمل من زوجها السابق.. احتراماً لحق ذلك الزوج مهما كان دينه وحفظاً لنسب الطفل البـريء. لكن أحد الصحابة رضي الله عنهم لم يعبأ في علاقته بإحدى النسـاء بهذه العدة، فارتكب أمراً أغضب النبي ﷺ غضباً شديداً.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢-١٠٤٧).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

(٣) سـنده على شرط مسلم رواه أحمد ٣-١٣٨ وابن حبان ٦-١٩٤ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر قال سمعت ثابتاً يحدث عن أنس. عبد الرزاق ومعمر من الثقات المعروفين من رجال الشيخين التقريب ٣٥٤ و٥٠٤ وثابت البناني تابعي ثقة. التقريب ١٣٢.

(٤) سنده على شرط مسلم رواه الإمام أحمد (٣-١٣٨) وهو الحديث السابق.

احترام السبايا

يقول أحد الصحابة وهو أبو الدرداء «إن النبي ﷺ مر على امرأة مجح، وهي على باب خباء أو فسطاط فقال: لمن هذه..؟

فقالوا: لفلان. قال: أيلم بها؟ قالوا: نعم.

قال: لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه قبره، فكيف يستخدمه وهو يعدوه في بصره وسمعه؟ كيف يرثه وهو لا يحل له»(١).

أما عن العلاقة مع المرأة فقد حدث تطور في أحكامها، لتتناسب مع القادم والجديد من حياة البشر، مما يجعل من هذا التشريع منهجاً يضمن للأسرة استقراراً أفضل.

هـا هو علي بن أبي طالب.. فارس خيبر، يعود من قرية قريبة تدعى (فدك) بعد أن فتحها وصالح أهلها.. هاهو يخبرنا عن

حكم جديد لزواج المتعة

يقول علي رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر»(٢) وهو زواج مؤقت يختلف عن الزواج المعروف، لأنه زواج محدد بمدة يتفق عليها الزوج والزوجة، بعكس الزواج الطبيعي والذي لا يجوز فيه تحديد المدة، وقد نهى ﷺ عنه لأنه زواج لا يرصد حساباً للأولاد، ولا للتربية، وليس له أي هدف اجتماعي سوى إشباع الغريزة. مما قد يمسخ المرأة مستقبلاً إلى جهاز استمتاع رخيص للرجل.. يستعمله ثم يبحث عن أقرب سلة مهملات ليرميه فيها، والمرأة في الإسلام أَجَلُّ وأكرم من ذلك، لذلك جاء النهي عن المتعة، وقد نهى عليه السلام عنها على أرض خيبر بشكل غير حاسم، أي نهي كراهية لا تحريم، نظراً لحاجة الأنفس إلى التدرج.

مادام الأمر قد امتد إلى الحديث عن الزواج، فيبدو أن الأمور قد استقرت، والنفوس قد اطمأنت على أرض خيبر، وهذا ما يتضح في بعض الممارسات المالية التي يقوم بها بعض الصحابة الآن مع بعض اليهود، حيث يمارسون:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢-١٠٦٥) وابن أبي شيبة (٤-٢٩) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.

هاهــو الصحابي فضالة بن عبيد يشـــتري قلادة من خــرز وذهب، فيقوم بفصل الذهب عن الخرز، ليعلم مقدار الذهب فيها، وبعد فصلها توجه إلى النبي ﷺ فسأله وقال: «اشتريت يوم خيبر قلادة باثني عشر ديناراً فيها ذهب وخرز، ففصلتها فوجدت فيها أكثر من اثني عشر ديناراً؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: لا تباع حتى تفصل»[1]

فشــراء الذهب بالذهب لا يجوز إلا وزناً بوزن، ويداً بيد، وإلا تحول البيع إلى ربا يسحق الفقراء والاقتصاد، ويجر للفقر والرذيلة والاستغلال في المجتمع، وأرض خيبر قلعة من قلاع الربا، فاليهود زعماء الربا وعرابو الاستغلال للفقراء على وجه الأرض، وحتى لا يتلوث المتوضئون بأخلاق اليهود المرابين، وحتى يبقى للجهاد مشروعه النقي.. يكمــل فضالة بن عبيد ويقول: «كنا مع رســول الله ﷺ يوم خيبــر نبايع اليهود الوقية الذهب بالدينارين والثلاثة.

فقــال رســول الله ﷺ: لا تبيعوا الذهــب بالذهب إلا وزناً بــوزن»[2]. وأثناء فترة الاسترخاء تلك قسم ﷺ الغنائم على المجاهدين.

يقــول أحد الصحابة: «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهبــاً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبــل والمتاع والحوائط»[3]عدا ما أخرجه النبي ﷺ من كنز حيي بن أخطب المدفون، وأثناء توزيع الغنائم وصلت سرية من المجاهدين كانت تقوم بمهمة عسكرية على أرض نجد.. حددها ﷺ لأصحابه، وكان قائد تلك السرية يدعى (أبان بن سعيد بن العاص) وقد هدى الله أبان للإسلام بعد أن خاض معركة ضد المؤمنين، وقد استشهد في تلك المعركة صحابي كريم يدعى (ابن قوقل).

لكن ما علاقة ابن قوقل رضي الله عنه بغنائم خيبر..؟

أبو هريرة كان هناك.. يطلب من النبي ﷺ شـيئاً من الغنائم لحظة وصول أبان، وقد وصف وصول تلك السرية بقوله: «بعث رسول الله ﷺ أبان على سرية من المدينة

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٢١٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٢١٤.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٧.

قِبَلَ نجد، فقدم أبان وأصحابه على النبي ﷺ بخيبر بعد ما افتتحها، وإن حزم خيلهم لليـف»[١] وكان لأبي هريرة مع أبان حديث طغت فيه العاطفة على العقل قليلاً، لكن الأمر حسم، لأنه بحضرة النبي ﷺ.

يتحدث أبو هريرة فيقول: إنه «أتى النبي ﷺ فسـأله، قال له بعض بني سعيد بن العـاص: لا تعطه. فقال أبو هريرة: هذا قاتل بن قوقل؟ فقال: واعجباه لوبر تدلى من قدوم الضأن»[٢]

وكان لأبان رد يفيض بالاعتذار الجميل عن أخطاء الماضي المؤسف.

يقول أبان: إنه «أقبل إلى النبي ﷺ فسلم عليه فقال أبو هريرة: يا رسول الله هذا قاتل بن قوقل. فقال أبان لأبي هريرة: واعجباً لك وبر تدأدأ من قدوم ضأن، ينعى على امرئ أكرمه الله بيدي، ومنعه أن يهينني بيده!»[٣] «فقال النبي ﷺ: يا أبان اجلس. فلم يقسم لهم»[٤].

ثم بدأ ﷺ بتوزيع الغنائم بنسبة واحد إلى ثلاثة.. يعطى صاحب الفرس ثلاثة دراهم، والذي لا يملك فرساً درهماً واحداً، نظراً لما بذله صاحب الفرس من جهد ومال.

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «قسـم رسـول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين وللراجل سهماً»[٥].

أما الأرقاء، فهذا أحدهم واسـمه (عمير) يحدثنا حول رقة نبيه في تعامله معه، بعـد أن علم أنه رقيق فيقول: «شـهدت مع سـادتي خيبر، فأمر بي رسـول الله ﷺ فقلدت سـيفاً، فإذا أنا أجـره، فقيل له: إنه عبد مملوك. فأمر لي بشـيء من خرثى المتاع[٦]، وعرضت عليه رقية كنت أرقى بها المجانين في الجاهلية قال: اطرح منها كذا وكـذا وارق بما بقـي»[٧] فالرقية علاج، والعلاج لا يجوز إلا بأشـياء مباحة، وقد حرم

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٩.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨. ومسلم (١٧٦٢).
(٦) اي أثاث البيت.
(٧) سـنده صحيـح رواه أحمد ٥-٢٢٣ وغيره من طرق عن محمد بـن زيد بن المهاجر ومداره عليه عن عمير مولى أبي اللحم. وابن زيد ثقة من رجال مسلم ٤٧٩ وشيخه صحابي.

الإســلام أي علاج يؤدي إلى ضرر في العقيـدة أو في الصحة، وفي حالة كون الرقية أدعية وتعاويذ فقط.. يكون الأمر أخطر على العقيدة، التي من أجلها بعث كل الأنبياء والرسـل، لأن تأثير تلك الرقيـة غير منظور، ولا يخضع لتجـارب المعامل، ولا يتكون نتيجة تفاعل كيميائي مدروس.

فـي هذه الحالة يكون الشـفاء أشـبه بالمعجزة.. عندها يتعلـق المريض الجاهل بصاحب الرقية، مثل تعلق الغريق بأي شـيء مهمـا كان ضعيفاً، وعندما تصل الأمور إلـى هذه المسـافة.. تنفتح بوابات الجهل للخيال المريض، ويبدأ التعلق بالأسـباب، لا بخالق الأسـباب سـبحانه، ويجد الساحر والمشـعوذ ألف طريق للتعشيش في مخيلة السذج والبسطاء، فتنصب خيام الشرك من جديد باسم الرقية والعلاج.

ذلك الرقيق الجميل لم يمنعه رقه أن يحتاط لدينه، وأن يسأل عن كل درهم يدخل جيبه، وكل كلمة يتفوه بها.

رقيق آخر غفل عن هذا المنهج للحظات، فماذا كانت النتيجة..؟

حدث ذلك أثناء توزيع الغنائم، حيث امتدت يد خادم جديد لرسول الله ﷺ يدعى (مدعم) إلى قطعة قماش من الغنائم، فاسـتلها، ثم أخفاها مع أمتعته الشخصية. أي أنه غلها دون إذن من قائده النبي ﷺ... أما نتيجة هذا العمل اليسـير في نظر أناس فسنعرفها بعد قليل.

ماذا عن النساء..؟

النساء لم يكنَّ بعيدات عن الرجال تكريماً وتقديراً، فقد «قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر لسهلة بنت عاصم بن عدي، ولابنة لها ولدت»[1].

تم الانتهـاء قبل قليل من توزيع الغنائم، وبدأ التجهيـز لأمور عديدة منها: تعيين أمير يتولى إدارة شؤون خيبر.

---

(١) سـنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ٢-٨٢ حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا الحسـن ابن الربيع الكوفي ثنـا بـن المبارك عن ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن ثابت بن الحارث الأنصاري. وقد حدد النقـاد رجالاً احتفظوا بوثائق بن لهيعة الصحيحة قبـل اختلاطه منهم الإمام الثقة عبد الله بن المبارك. أما شـيخه الحارث فتابعي ثقة ثبت عابد. التقريب ١٤٥ وشـيخ الطبراني وشـيخ شيخه ثقتان التقريب ١٦٦ والبلغة ٢٢٨.

يقول أبو سعيد الخدري وأبو هريرة: «إن رسول الله ﷺ بعث أخا بني عدي الأنصاري واستعمله على خيبر»[1]

ومنها: التوجه نحو (وادي القرى) لكن وقبل أن يغادر ﷺ أرض خيبر نوى أحد الصحابة مفارقته والعودة إلى مكة، ولم يكتف بذلك بل قرر أن ينتقص من النبي ﷺ، ولم يكتف أيضاً بذلك، بل ذهب إلى النبي نفسه واستأذنه. فما رده ﷺ على ذلك؟

صحابي يعود إلى قريش

وشروط صلح الحديبية تمنحه هذا الحق، أما النبي ﷺ فيشجعه على ذلك ويؤيده. أنس بن مالك كان حاضراً.. يتحدث عن ذلك ويقول: «لما فتح رسول الله ﷺ خيبر قال (الحجاج بن علاط): يا رسول الله، إن لي بمكة مالاً، وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئاً..؟

فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فأتى امرأته حين قدم فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد ﷺ وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم.

ففشا ذلك في مكة، وانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، وبلغ الخبر العباس فعقر وجعل لا يستطيع أن يقوم»[2] «ثم أرسل غلاماً إلى الحجاج بن علاط: ويلك ما جئت به، وما تقول فما وعد الله خير مما جئت به..؟

قال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فليخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره.

فجاء غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً حتى قبل بين عينيه، فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه، ثم جاءه الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر وغنم أموالهم، وجرت سهام الله عز وجل في أموالهم،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٧٥.

(٢) وضعت القوس لوجود فاصل مرسل.

واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، فاتخذها لنفسه، وخيرها أن يعتقها وتكون زوجتـه، أو تلحق بأهلها..؟ فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته، ولكني جئت لمال كان لي ههنا أردت أن أجمعه فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ما شئت فأخف عني ثلاثاً، ثم اذكر ما بدا لك.

فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع، فجمعته فدفعته إليه ثم استمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك فأخبرته أنه قد ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك. قال: أجل لا يخزني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقاً. قال: فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك.

فذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل. قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ما له وما كان له من شيء ههنا ثم يذهب.

فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر فسر المسلمون، ورد الله ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين»[1] بعدما علموا بانتصارات جيش الإسلام على أرض خيبر وفدك. وهاهو ذلك الجيش المؤمن يستعد لـ:

---

(١) على شرط مسلم رواه عبد الرزاق ٥-٤٦٦ ومن طريقه أحمد ٣-١٣٨ وغيره من طريق معمر قال سمعت ثابتاً يحدث عن أنس. يقول ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ٤-٢١٧: هذا الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى النسائي. ولي ملاحظة على هذا القول: صحيح أن رجاله رجال الشيخين، لكن من خلال الاستقراء يبدو أنه على شرط مسلم فقط، ويبدو أن الإسناد ليس بصحيح وإن كان على شرط مسلم، لأن رواية معمر عن ثابت فيها شيء، وللتفصيل راجع صحيح الموسوعة.

الرحيل..وقصة النوم عن الصلاة

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة، حتى إذا أدركه الكرى عرس وقال لبلال: أكلأ لنا الليل. فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً، ففزع رسول الله ﷺ فقال: أي بلال. فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، بنفسك. قال: اقتادوا. فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله قال: أقم الصلاة لذكري»[1] وقد ذكر الفارس أبو قتادة تفاصيل أخرى ربما كانت أثناء تلك الرحلة في

قصة النوم والعطش والمعجزات

يقول أبو قتادة: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم، وتأتون الماء إن شاء الله غداً.

فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد.

قال أبو قتادة: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى إبهار الليل وأنا إلى جنبه، فنعس رسول الله ﷺ فمال على راحلته، فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى تهور الليل مال عن راحلته، فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأولين حتى كاد ينجفل، فأتيته فدعمته فرفع رأسه فقال: من هذا؟ قلت: أبو قتادة. قال: متى كان هذا مسيرك مني؟ قلت: مازال هذا مسيري منذ الليلة.

قال: حفظك الله بما حفظت به نبيه. ثم قال: هل ترانا نخفى على الناس؟ ثم قال: هل ترى من أحد؟ قلت: هذا راكب، ثم قلت: هذا راكب آخر، حتى اجتمعنا فكنا

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٧١.

سـبعة ركب، فمال رسـول الله ﷺ عن الطريق فوضع رأسـه، ثم قال: احفظوا علينا صلاتنا. فكان أول من اسـتيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره، فقمنا فزعين، ثم قال: اركبوا. فركبنا، فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل، ثم دعا بميضأة كانت معي، فيها شيء من ماء فتوضأ منها وضوءاً دون وضوء.

وبقي فيها شـيء من ماء، ثم قال لأبي قتادة: احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ. ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى رسـول الله ﷺ ركعتين، ثم صلى الغداة، فصنع كما كان يصنع كل يوم.

وركب رسـول الله ﷺ وركبنـا معه، فجعل بعضنا يهمس إلـى بعض ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ ثم قال: أما لكم فيَّ أسوة؟ ثم قال: أما إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها. فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها، ثم قال: ما ترون الناس صنعوا؟

ثـم قال ﷺ: أصبح الناس فقدوا نبيهم فقال أبو بكر وعمر: رسـول الله ﷺ بعدكم لم يكن ليخلفكم، وقال الناس: إن رسـول الله ﷺ بين أيديكم، فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا. فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا عطشنا..؟ فقال: لا هلك عليكم. ثم قال: أطلقوا لي غمري[1]. ودعا بالميضأة فجعل رسـول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسـقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة تكابوا عليها، فقال رسـول الله ﷺ: أحسنوا الملأ كلكم سـيروى. ففعلوا. فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، ثم صب رسول الله ﷺ فقال لي: اشـرب. فقلت: لا أشـرب حتى تشرب يا رسول الله. قال: إن ساقي القوم آخرهم شرباً. فشربت وشرب رسول الله ﷺ، فأتى الناس الماء جامين رواء»[2] ثم ارتحلوا متوجهين:

---

(١) أي اتركوا لي إنائي أو أعطوني إياه.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٧٣

وهو مكان قريب من مدائن صالح، وله اسم آخر هو (قرح)، ويبدو أن هذا الوادي مليء بالحدائق والنخيل واليهود.

وصل النبي ﷺ وأصحابه، ووصل معه صاحبه سـلمان الفارسي وذكرياته المريرة على أرض هذا الوادي، فقد وصل إليها منذ سنين مكبلاً بالرق والمرارة، بعد أن غدر به تجار من بني كلب.. سرقوا بقراته، وباعوه إلى أحد اليهود الذين يسكنون هذا الوادي المليء بالنخل.. انتظاراً لنبي تبشر به التوراة.

يقول سلمان رضي الله عنه وهو يتحدث عن مغادرته لأرض عمورية بعد موت كاهنها الصالـح: «لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر اللـه، فلمـا حضر[1] قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟

قال أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العـرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

ثم مات وغيب ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من (كلب) تجار فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم.

فأعطيتهموهـا، وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجـل يهودي، فكنت عنده عبـداً، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق في نفسي، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة»[2] حيث تتوافر النخل واليهود هناك أيضاً، فالنخل في جزيرة العرب، والنخل في التوراة.. تبشر اليهود بالنبي.

---

(١) حضره الموت.

(٢) السيرة النبوية ٢-٤٤ بسند صحيح وقد مر تخريجه عند الحديث عن إسلام سلمان.

وهاهو النبي، وهاهي النخيل، وتحت كل نخلة في جزيرة العرب تجد يهودياً.. كان ذلك في الماضي قبل أن يعرف اليهود أن هذا النبي من سلالة إسماعيل لا من سلالة إسحاق، أما اليوم فتحت كل نخلة خيانة، ووادي القرى ممتلئ باليهود.

توقف فيه النبي ﷺ فلم يجد مقاومة تذكر إلا سهماً طائشاً أصاب خادمه مدعم، فكان موت مدعم درساً لهذا الجيش المؤمن.. رغم أنه سهم طائش لا يُعرف من أرسله.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى، ومعه عبد له يقال له (مدعم) أهداه له أحد بني الضباب، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد. فقال الناس: هنيئاً له الشهادة. فقال رسول الله ﷺ: بل والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً.

فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته[1] فقال رسول الله ﷺ: شراك أو شراكان من نار»[2]

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد. حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد.

فقال رسول الله ﷺ: كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة. ثم قال رسول الله ﷺ: يابن الخطاب اذهب فناد في الناس: أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون،

فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[3]

هذا هو الغلول.. أخذ شيء من مال الدولة المسلمة، أو ميزانيتها دون إذن مهما كانت المبررات.. فحتى هذا الرجل الفقير المجاهد لم يسلم من نار الغلول، وهو المجاهد الذي خرج لبذل روحه لله، فكيف بمن يأخذ شيئاً وقت السلم..؟ وكيف بمن يأخذ شيئاً لا لحاجة، بل لمجرد زيادة ثروته..؟ سواء كان بالسرقة أو النهبة أو السلطة أو القوة،

---

(١) أي أخذته من الغنائم دون إذن.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٧.

(٣) صحيح مسلم ١-١٠٧.

أو حتى على شكل هدايا يتلقاها بصفته موظفاً في الدولة؟! فالنبي ﷺ يقول: «هدايا العمال غلول»[1]

الإسلام جاء لإنصاف الفقراء، لكنه لم يأت للمزايدة بقضاياهم وأزماتهم، فعلى الفقراء كغيرهم مسؤولية، وعليهم النهوض بها، فالجنة مفتوحة للجميع، وكذلك جهنم.. جهنم ترحب بمن يريدها.. وبهذا المنهج يتحول الفقير إلى طاقة فاعلة ومنضبطة.. لا طاقة هائجة ثائرة تحطم كل شيء، وتحرق اليابس والأخضر باسم الفقر والفقراء.

هذا هو جيش محمد ﷺ معظمه من الفقراء والمحتاجين وأهل الصفة، ومع ذلك فهو قمة في الانضباط وتحمل المسؤولية، ولا أدل على ذلك من قول إحدى أمهات المؤمنين وزوجة قائد هذه الأمة الطاهرة عائشة رضي الله عنها: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر»[2] يا الله!! إنها لم تقل: نشبع من اللحم أو الفاكهة ولا العسل.. قالت: التمر.

بل إنها تحدث ابن أختها عن موائد رئيس الدولة الإسلامية فتقول: يا «ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار.

فقلت يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا»[3].

وما دمنا نتحدث عن أمهات المؤمنين والموائد.. يتهادى سؤال لطيف: ماذا عن أم المؤمنين الجديدة.. ماذا عن عرسها ومائدة ذلك العرس..؟

زفاف صفية

لم يكن ذلك الزفاف على أرض خيبر، ولا على أرض واد القرى المفتوحة، والذي جرى عليه من الأحكام ما جرى على أرض خيبر دون سفك دماء.

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد ٥-٤٢٤.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٠.

(٣) صحيح البخاري ٢ - ٩٠٧.

صفية مازالت في عدتها، والنبي ﷺ يهم بمغادرة الوادي، وفي الطريق انتهت عدة صفية، وحلت للنبي عليه السلام، وكان عليه السلام قد أوصى أم أنس بن مالك بصفية للعناية بها وتسليتها، وعندما وصل الركب إلى مكان يقال له (سد الصهباء) زفت صفية للنبي ﷺ، وأقيمت مائدة بسيطة كبساطة الصحابة.. كسماحة الإسلام، حيث لم تغل القدور، ولم يتوافر فيها لحم ولا خبز.. حتى الماء فيها كان من بقايا المطر.

يقول أنس: «لقد رأيت لرسول الله ﷺ وليمة ما فيها خبز ولا لحم»[1] وحتى القدور لم تستخدم.. كانت وليمة متواضعة جداً، فقد حفر الصحابة حفراً في الأرض، ثم ألقوا عليها الجلود المدبوغة النظيفة، ثم سكب فيها السمن، ووضع الإقط والتمر.

هذا ما ذكره أنس ابن مالك في حديثه حيث يقول إن النبي ﷺ «دفعها إلى أم سليم تصنعها له وتهيئها وتعتد في بيتها، وهي صفية بنت حيي ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر حتى إذا جعلها في ظهره، نزل ثم ضرب عليها القبة، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: من كان عنده فضل زاد فليأتنا به.

فجعل الرجل يجيء بفضل التمر، وفضل السويق، حتى جعلوا من ذلك سواداً حيساً[2]، فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس، ويشربون من حياض إلى جنبهم من ماء السماء، فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن، فحصت الأرض أفاحيص، وجيء بالأنطاع، فوضعت فيها، وجيء بالأقط والسمن، فشبع الناس.

وقال الناس: لا ندري أتزوجها، أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد.

فلما أراد أن يركب حجبها، فقعدت على عجز البعير، فعرفوا أنه قد تزوجها»[3] وكانت طريقة إركاب رسول الله ﷺ لصفية على البعير تتم عن منتهى الذوق والرقة والمواساة.

---

(١) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ٣٨٣ وغيره من طرق عن عمر بن معدان وثابت عن أنس وثابت تابعي ثقة سمع أنس بن مالك وقد مر معنا.

(٢) الحيس هو خليط من التمر دون نوى والإقط المطحون.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٥ والزوائد له أيضاً ٢-١٠٤٧.

يقــول أنس: «.. ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت رســول اللــه ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»[1] شــعرت صفية بعاطفة غامرة.. شــعرت بعزاء يهطل مطراً على قيظ حزنها، فتحول البغــض إلى حب، وعاد الحزن مــن حيث أتى. أما النبي ﷺ فقــد تحول إلى غمامة تظللها، وقــدم اعتذارات أذابت كل كلس اليهود في فؤادها، حتى أصبح مرتعاً لمحمد، وملكاً لرب محمد.

تذكر صفية تلك الأيام وأمواجها الغريبة المتلاطمة.. تتذكر حبيبها ﷺ وهو:

يسأل عن الكدمة حول عين حبيبته

وذلــك عندما «رأى رســول الله ﷺ بعيني صفية خضرة فقــال يا صفية ما هذه الخضرة؟ فقالت كان رأسي في حجر ابن أبي حقيق وأنا نائمة، فرأيت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني وقال: تمنين ملك يثرب؟

قالت: وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إلي، قتل زوجي وأبي وأخي، فما زال يعتذر إلي ويقول: إن أباك ألب علي العرب وفعل وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي»[2]

تلك الاعتذارات والمشــاعر بينت لها مدى الفــارق بين هذا النبي الكريم وبين زوجها الســابق العنيف الذي كان يقودها إلى جهنم، بينت مدى الفارق بين والدها اللئيم الخائن، ونبيها الوفي.. تلك الكلمات أيقظتها على عالم النبوة والتوحيد لا المتاجرة بهما.

بعدهــا «أقام النبــي ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنــى عليه بصفية»[3]، ثم واصل ﷺ مســيره عائداً إلى المدينة.. محاطاً بجيش كالمشــاعر.. ســلمة ابن الأكوع يتذكــر في طريق العودة الشــهيد علــى أرض خيبر عامر بن الأكــوع، ويتذكر حداءه الجميل على هذا الطريق، فتهيج مشــاعره فلا يجد ألطف من النبي ﷺ كي يشاركه تلك المشاعر. فبم رد عليه وماذا فعل سلمة..؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٧٧٨.

(٢) حديث صحيح مر معنا في بداية الكتاب.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٣.

يقول رضي الله عنه «قفل رسول الله ﷺ من خيبر، فقلت: يا رسول الله ائذن لي أن أرجز لك. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال عمر ابن الخطاب: أعلم ما تقول. فقلت:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فقال رسول الله ﷺ: صدقت

وثبت الأقدام إن لاقينا وأنزلن سكينة علينا

والمشركون قد بغوا علينا

ثم يقول سلمة: يا رسول الله، إن ناساً ليهابون الصلاة عليه يقولون: رجل مات بسلاحه. فقال رسول الله ﷺ: مات جاهداً مجاهداً، فله أجره مرتين وأشار بإصبعيه»[1].

وفي طريق العودة أيضاً لم يكن التعبير عن المشاعر شعراً فقط، بل سلوكاً يفيض بالعطف والرحمة. يقول أبو أمامة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ أقبل من خيبر ومعه غلامان، فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله، أخدمنا. فقال: خذ أيهما شئت. فقال: خر لي. قال: خذ هذا ولا تضربه، فإني قد رأيته يصلي مقبلنا من خيبر، وإني قد نهيت عن ضرب أهل الصلاة، وأعطى أبا ذر الغلام الآخر، فقال: استوص به خيراً.» ويمر وقت فيشاهد عليه السلام أبا ذر فيقول له: «يا أبا ذر، ما فعل الغلام الذي أعطيتك؟ قال: أمرتني أن أستوصي به خيراً فأعتقته»[2]

واصل الركب مسيره، وعندما اقترب من المدينة تدفقت العواطف في كل اتجاه، ولاح للنبي ﷺ جبل أحد من جديد، فباح الجبل بحبه لمن حوله. أنس كان ممن حوله.. يحدثنا عن تلك اللحظات فيقول: «فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر إلى أحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه»[3].

باح الجبل بحبه، وتحركت القلوب والمطايا عندما أشرقت بيوتات المدينة كالعاشقات.. في تلك اللحظات أسرع كل شيء نحوها، وأسرع أنس وقال: «فلما دنوا

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٢٩.

(٢) سنده حسن رواه أحمد ٥-٢٥٨ حدثنا عبد الله حدثنا ابي ثنا عفان ثنا حماد بن سلمة انا ابو غالب عن أبي أمامة. أبو غالب حسن الحديث. التقريب٤٦٠ وبقية الرواة أئمة ثقات.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٥٩.

من المدينة دفع رسول الله ﷺ ودفعنا»[١] «فانطلقنا حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليها، فرفعنا مطينا ورفع رسول الله ﷺ مطيته، و(صفية) خلفه وقد أردفها رسول الله ﷺ»[٢] لكن يبدو أن بعض القلوب المؤمنة لم تكن مشتاقة جداً لمقدم صفية خلف رسول الله ﷺ...

أقصد قلوب حبيباته إمهات المؤمنين.. المشتاقات إلى كل شيء تحمله الناقة، إلا إلى هذه الجميلة التي تزاحمهن على بعيره وقلبه، لكن شيئاً حدث لصفية شفى بعض غليلهن وغليل خدمهن فـ:

ما الذي حدث لصفية على أبواب المدينة

يقول أنس رضي الله عنه: «أقبلنا من خيبر أنا وأبو طلحة ورسول الله ﷺ، وصفية رديفته... فعثرت ناقة رسول الله ﷺ [العضباء وندر رسول الله ﷺ وندرت، فقام فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية. قلت: يا أبا حمزة أوقع رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله لقد وقع]، فصرع رسول الله ﷺ وصرعت صفية، فاقتحم أبو طلحة فقال: يا رسول الله جعلني الله فداك أضررت؟ قال: لا عليك المرأة [إنها أمكم].

فألقى أبو طلحة على وجهه الثوب، فانطلق إليها فمد ثوبها عليها، ثم أصلح لها رحلها [فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها.

فأتيناه فقال: لم نضر]، فركبنا ثم اكتنفناه أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فلما أشرفنا على المدينة، أو كنا بظهر الحرة قال رسول الله ﷺ: آيبون عابدون تائبون، لربنا حامدون.. فلم يزل يقولهن حتى دخلنا المدينة»[٣]

«فدخلنا المدينة فخرج جواري نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها»[٤] «ثم نظر إلى المدينة فقال: اللهم إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم»[٥].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٥.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٧.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٥-٢٢٢٤ وأحمد ٣- ١٨٧ من طريق البخاري واللفظ لأحمد والزيادة الأولى لمسلم ٢-١٠٤٥ والثانية للبخاري والثالثة لمسلم ٢-١٠٤٧.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٧.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٥٩.

كان الجميع بانتظار هؤلاء الفرسان وفتوحاتهم المجيدة وكان ﷺ يبادلهم ويبادل مدينتهم الجميلة شوقاً وعاطفة، أما المدينة فـ:

المدينة تعد مفاجأة للنبي ﷺ

في المدينة فتح النبي ﷺ عينيه على فرحة كفرحة خيبر، فالذي يقف أمامه الآن حبيب طالما انتظر قدومه.. إنه ابن عمه جعفر بن أبي طالب، ومعه من تبقى من المهاجرين.. قدموا من الحبشة قبل أيام، ومعهم من هاجر من اليمن إلى الحبشة. أبو موسى الأشعري كان أحدهم.. كانت مفاجأة سارة جداً للنبي ﷺ عبر عنها بكلمات من مشاعر «جابر بن عبد الله قال: لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ: ما أدري بأيهما أنا أفرح، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»[(١)].

الصحابة كلهم فرحوا بمقدم إخوانهم من بلاد الغربة والمعاناة والكرم، وقد قدر عليه السلام تلك المعاناة، وأحب أن يرحب بهم بطريقة تخفف شيئاً من فقرهم وآلامهم، فميزهم عن غيرهم.

يقول أحدهم وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال بضعاً وإما قال ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي. فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا ههنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا.

فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا أو قال: أعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم، فكان ناس من الناس يقولون لنا، يعني لأهل السفينة: نحن سبقناكم بالهجرة»[(٢)] إلى المدينة.

---

(١) حديث حسن رواه الحاكم ٢-٦٨١ و٣-٢٣٣ من طريق أجلح عن الشعبي عن جابر وقد جاء من مرسل الشعبي عند غيره بسند صحيح إلى الشعبي وله شواهد لا تخلو من ضعف وعند الطبراني بسند لا بأس به ٢٢-١٠٠ عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه وروي بسند ضعيف عن عائشة في الإخوان ١٧٩ وقد فصلت تخريجه في صحيح الموسوعة.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٤-١٩٤٦.

وكأنهم يعنون أنهم أولى بالنبي ﷺ من هؤلاء المبحرين من أرض إفريقيا السخية، وكان أبـــرز من قال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قالها مُرحَّباً ومُمازحاً زوجة جعفر بن أبي طالب المهاجرة العظيمة الشابة (أسماء بنت عميس) التي تزور الآن ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، لكن تلك المداعبة حركت داخل أسماء آمالاً بتثمين مرارة الغربة ومعاناة التشـــرد في ســبيل الله، فليس هناك من تشــكو إليه عمر سوى النبي عليه السلام، وليس هناك من يشفي غليلاً داخلها سوى النبي ﷺ.

توجهت إليه فكانت هذه القصة المنسوجة بالشكوى والسفر

مهاجرة تشكو عمر

يقول أبو موســـى الأشعري: «دخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا، على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر. فدخل عمر على حفصة وأســـماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: آلحبشية هذه، آلبحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم.

قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم.

فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار، أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشـــة، وذلك في الله وفي رســـوله ﷺ. وأيم الله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلمـــا جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي اللـــه، إن عمر قال كذا وكذا قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا.

قال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان.

قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.

قالت أســـماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني»[1] والبشرى تملأ قلبه وروحه، فالإسلام لا يغفل دور مسلم مهما كان هذا المسلم ضعيفاً مغلوباً على

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٦.

أمره.. مادامت معاناته في الله. فقد «رأى ســعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال النبي ﷺ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[1]

أما عمر رضي الله عنه فلم يكن يتحدث عن نفســه فقط.. كان يتحدث عن أبي بكــر وعثمان وعلي وطلحة وبلال، وغيرهم مــن المهاجرين الذين كابدوا ما كابدوا في سبيل الله، وبذلوا ما بذلوا في بدر وأحد والخندق وخيبر.. كان عمر يتحدث عن أهل بيعة الرضوان، أما ســعد رضي الله عنه فقــد رأى في قتاله وهجرته تفوقاً على ذلك الصحابي الضعيف، فكان للإســلام ميزان أدق لا يغفل فيه أي شــيء، ولاســيما تلك الأشــياء التي يفضل البعض أن يحولها إلى أســرار حميمة فيما بينهم وبين الله فقط، ويرفضون أن يفسد أحد تمتعهم بتلك الأجواء الحميمة مع الله.

ذات يوم «مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع. ثم سكت، فمر رجل من فقراء المســلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع.

فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[2].

كان عليه الســلام يقدم درســاً مجانياً لمن كلف نفسه توجيه النقد للناس محاولاً التســلل بينهم وبــين الله.. جاعلاً من البغض في الله نوافذ يخرج من خلالها نشــازاً داخل نفسه.

أحد الصحابة يتحدث عن ذلك فيقول: «إن رجلاً مر على قوم فسلم عليهم فردوا عليه الســلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: والله إني لأبغض هذا في الله. فقال أهل المجلس: بئس والله ما قلت، أما والله لتنبئنه. قم يا فلان (رجلاً منهم) فخبره.

فأدركه رسولهم، فأخبره بما قال. فانصرف الرجل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رســول الله، مررت بمجلس من المسلمين فيهم فلان، فسلمت عليهم فردوا السلام، فلما جاوزتهم أدركني رجل منهم فأخبرني أن فلاناً قال: والله أني لأبغض هذا الرجل في الله. فادعه فسله على ما يبغضني.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٦١.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٥-١٩٥٨.

فدعاه رسول الله ﷺ فسأله عما أخبره الرجل، فاعترف بذلك وقال: قد قلت له ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: فلم تبغضه..؟ قال: أنا جاره، وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه الصلاة المكتوبة التي يصليها البر والفاجر.

قال الرجل: سله يا رسول الله هل رآني قط أخرتها عن وقتها، أو أسأت الوضوء لها، أو أسأت الركوع والسجود فيها..؟

فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا. ثم قال: والله ما رأيته يصوم قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه، أو انتقصت من حقه شيئاً؟ فسأله رسول الله ﷺ فقال: لا. ثم قال: والله ما رأيته يعطي سائلاً قط، ولا رأيته ينفق من ماله شيئاً في شيء من سبيل الله بخير إلا هذه الصدقة التي يؤديها البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله هل كتمت من تلك الزكاة شيئاً قط، أو ماكست فيها طالبها..؟

فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا. فقال له رسول الله ﷺ: قم إن أدري لعله خير منك»[1]

إن الشعور بالتفوق على الآخرين مهما كان رصيده من الظاهر والباطن.. لا يجيز لصاحبه التطاول على الآخرين، وانتقاصهم تحت أي مبرر، فالحكم على الآخرين من خلال ظواهرهم غير دقيق إلا في حالة فساد الظاهر فساداً ينم عن عفن الباطن، وهناك فرقٌ بين الحكم على الشخص، والحكم على سلوك صادر عنه، والشعور بالتفوق يدخل في الكبر، فالكبر (بطر الحق وغمط الناس)[2] أي رد الدليل والنظر بدونية للناس، والكبر شيء خطير، فذات يوم سـ(يحشر المتكبرون يوم القيمة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، يساقون إلى سجن في النار يقال له بولس، يعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال، عصارة أهل النار)[3] فأي ذلة سيجنيها المتكبر وهامته تداس بالأقدام، وأي كرامة له وشرابه من إفرازات أهل النار النتنة.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٥- ٤٥٥ عن مظفر بن مدرك ثنا إبراهيم ابن سعد ثنا بن شهاب عن أبي الطفيل مظفر وشيخه ثقات من رجال التقريب.

(٢) صحيح مسلم ١-٩٣.

(٣) سنده حسن مشهور رواه الحميدي ٢-٢٧٢ عن سفيان الثقة داود بن شابور والصدوق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

لو اكتفى هذا المتكبر بشكر الله على ما منحه الله من مال وجاه ونسب وجمال، لكان في مصاف الشاكرين الذين يحبهم الله، ويكرمهم الله فوق كرامتهم، فالشكر لله من أولويات ما يطلب من الأنبياء، فالله يخاطب نبيه موسى قائلا: (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

المتكبر جحد نعمة الله ونسبها لنفسه، كما فعل قارون الذي خسر الدنيا والآخرة.. قارون الذي شح على ربه بكلمة شكر.

كان النبي ﷺ يحاول المحافظة على ما أنجزه الإسلام من مساواة وتلاحم، وكان المهاجرون والأنصار هم النموذج البشري الصرف الذي قدمه النبي ﷺ للعالم.. لقد قدم الأنصار الكثير، فماذا فعل أخوتهم المهاجرون بعد غزوة خيبر؟

المهاجرون يردون الجميل بالوفاء

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما قدم المهاجرون من مكة المدينة؛ قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك وهي تدعى أم سليم أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته)[1] وهي أم أسامة بن زيد.

قال أنس ابن مالك (أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه)[2] وقد حسن فتح خيبر من مستوى التغذية لدى المسلمين، فأصبحوا كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[3]

أي ما شبعنا من التمر فقط، ومع هذه الحاجة والفقر كان الإسلام يقدم ثقافة متحضرة لأتباعه، حتى لا تزعزع المادة توازن الإنسان، فالفتوح قادمة، والوعود كشمس

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٩١.
(٢) صحيح مسلم ٣-١٣٩١.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

الغد مشــرقة لا محالة، وإذا لم يتهيأ المســلم بثقافة التوازن فسوف يجد نفسه مجرد رقم على سطح الأرض.

يقول أبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ: أكل تمر خيبر هكذا؟ فقال: لا، والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، بالثلاثة.

فقــال: لا تفعل، بع الجمع بالدراهــم، ثم ابتع بالدراهم جنيبــاً»[1] لأن التمر من الأمــوال التي يحدث فيها الربا، وقد «قال رســول اللــه ﷺ الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشــعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد. فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»[2] وإلا وقع المسلم بالربا.

الربا ممر يعبر من خلاله الاســتغلال والفقر، وانهيــار الأخلاق والاقتصاد، وهو جشــع قديم يتجدد كلما غفت الأخلاق ونهضت الغرائز العمياء داخل الإنسان، والنبي عليه السلام يريد ردم هذا الممر الخطير على دولته وشعبه، كما يريد ردم أي ممر يعبر منه خطر إلى دولته الجديدة بالتوحيد. لذلك عاد ﷺ إلى:

بث السرايا من جديد

فأمام النبي ﷺ قائمة طويلة بالمهمات الملحة، والمخاطر والأزمات التي يتحتم عليه علاجها أوالقضاء عليها، بعد كســر شــوكة التآمر اليهودي، وتحييد قريش وحلفائها. ففــي الجزيرة العربية بــؤر للإرهاب لا تخضع لدولة ولا لنظام قائم، ولا لمفاوضات أو شــروط، ولا حتى لعرف أو شــرف. هناك جماعات إرهابية تعيش خارج التاريخ الذي بدأ ﷺ يكتبه بالتوحيد والإســلام، وقد حان الوقت لتأديبها والقضاء عليها، وهي وإن كانــت صغيرة، إلا أنها مزعجــة ومؤلمة ومعيقة للمد الإســلامي، وهي تلوث الجزيرة والدنيا بالشرك وقطع الطريق، ووأد البنات والنهب والسلب، والقتل والفوضى وإرعاب القوافل والمدن. وهذا هو أنسب وقت للتخلص منها أو من معظمها.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢١١.

لذلك يتحتم عدم إهدار فرصة السلام مع قريش، لتأمين ممرات المسافرين التجار والحجاج، وتأمين حدود المدينة وفرض هيبتها ووجودها في ظل هذه الأوضاع المتدهورة في الجزيرة العربية، لذلك نظم النبي ﷺ سرايا للقيام بتلك المهمات، وقد لخص ﷺ مطالبه من أولئك الأعراب برسالة حملها أعرابي إلى من تسول له نفسه إعادة الجزيرة إلى همجية الجاهلية، وقد بقيت تلك الرسالة في خرج ذلك الأعرابي زمناً طويلاً.

رجل اسمه (يزيد بن الشخير) يتحدث عن تلك الرسالة فيقول: «كنا جلوساً بهذا المربد بالبصرة، فجاء أعرابي معه قطعة أديم أو قطعة من جراب، فقال: هذا كتاب كتبه لي النبي ﷺ.

فأخذته فقرأته على القوم فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله ﷺ لبني زهير بن أقيش، إنكم إن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم الخمس، وسهم النبي والصفي، فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله»[1].

ولعل من أهم تلك السرايا سرية مهمتها تأديب (فزارة) الذين أغاروا على المدينة وسرقوا ما سرقوا.. مستغلين تواجد النبي ﷺ على أرض الحديبية، لكن وصول سلمة بن الأكوع ساهم في إفشال ذلك السطو المسلح على المدينة، وقد أرجأ ﷺ تأديبهم إلى حين عودته من خيبر، ثم كلف صاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه بقيادة وتنفيذ:

غزوة فزارة

وقد شارك في هذه الغزوة سلمة بن الأكوع فارس تلك الغزوة السابقة المسماة (ذات قرد أو الغابة).. سلمة فارس بمقاييس جيش، وهو الآن يتحدث عن تأديب قطاع الطرق للمرة الثانية، بعد أن أدب طلائعهم في الغابة.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٤٩ وغيره من طريق عن قرة بن خالد عن يزيد. قرة ثقة ضابط - التقريب ٤٥٥ ويزيد تابعي ثقة ولد في عهد عمر رضي الله عنه.

يقول رضي الله عنه: «غزونا فزارة وعلينا أبو بكر، أَمَّرَهُ رسول الله ﷺ علينا، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا، ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل عليه وسبى، وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من آدم (القشع النطع) معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة.

فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً. ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك. فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفت لها ثوباً. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة»[1]

وهو لا يعني بكلمة أسروا، أن أسرهم كان عن طريق الحرب، إنما يقصد أولئك المسلمين المستضعفين، الذين منعوا قهراً من الهجرة إلى نبيهم ﷺ، وقد استحقت فزارة ما أصابها من جيش أبي بكر، فقد شاركوا قريشاً في معركة الخندق كجزء من غطفان، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بالإغارة على المدينة، وسرقوا وقتلوا، وهذا النوع من الإرهاب وقطع الطريق خارج عن نطاق العقل، ولا تجدي مع هذه الهمجية أساليب الحوار، ولا ينقاد صاحبها لحق إلا بعد كسر شوكته، أما من لم يتعرض لدولة الإسلام بشر فلن يتعرض له أحد، بل سيجد من دولة التوحيد وجيشها صدوراً مفتوحة وأخلاقاً رفيعة آسرة، كما حدث في هذه السرية التي قادها عليه السلام بنفسه وكانت:

سرية من أربعين رجلاً وامرأة تقود قومها إلى الإسلام

سرية مثيرة.. كلها دعوة ومعجزات.. أحد فرسانها صحابي جليل اسمه (عمران بن حصين) وهو يقول: «كنت مع نبي الله ﷺ في مسير له، فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان في وجه الصبح عرسنا، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس، فكان أول من استيقظ منا أبو بكر، وكنا لا نوقظ نبي الله ﷺ من منامه إذا نام حتى يستيقظ، ثم استيقظ

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٧٥.

عمر، فقام عند نبي الله ﷺ [فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس، وكان رجلاً جليداً، فكبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير] حتى استيقظ رسول الله ﷺ، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال: ارتحلوا. [فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، فاتتنا الصلاة. فقال: لم تفتكم.

ثم أمرهم رسول الله ﷺ فركبوا] فسار بنا حتى إذا ابيضت الشمس نزل [ونزلوا معه، وكأنه كره أن يصلي في المكان الذي نام فيه عن الصلاة، ثم قال رسول الله ﷺ: ائتوني بماء.

فأتوه بجريعة من ماء في مطهرة، فصبها رسول الله ﷺ في إناء، ثم وضع يده في الماء، ثم قال لأصحابه: توضؤوا] [ثم أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بالصلاة، فنودي بها ثم قام] فصلى بنا الغداة، فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلما انصرف قال له رسول الله ﷺ: يا فلان ما منعك أن تصلي معنا؟ قال: يا نبي الله أصابتني جنابة.

فأمره رسول الله ﷺ فتيمم بالصعيد فصلى، ثم عجلني في ركب بين يديه نطلب الماء، وقد عطشنا عطشاً شديداً [فأقبل رجلان من أصحابه، أحسبه علياً والزبير أو غيرهما، قال: إنكما ستجدان بمكان كذا وكذا امرأة معها بعير عليه مزادتان، فأتياني بها.] فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء..؟ قالت: أيهاه، أيهاه، لا ماء لكم.

قلنا: فكم بين أهلك وبين الماء..؟ قالت: مسيرة يوم وليلة. قلنا: انطلقي إلى رسول الله ﷺ قالت: وما رسول الله [ومن رسول الله؟ هذا الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين، وهو رسول الله ﷺ.]

فلم نملكها من أمرها شيئاً حتى انطلقنا بها، فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ، فسألها فأخبرته مثل الذي أخبرتنا، وأخبرته أنها موتمة لها صبيان أيتام. [فقال علي: يا رسول الله بأبي وأمي، إنا وجدنا هذه بمكان كذا وكذا، فسألتها عن الماء، فزعمت أن بينها وبين الماء مسيرة ليلة، أو زيادة، فظننا أن لم نبلغه حتى يهلك منا من هلك.

فقال رسول الله ﷺ: أنيخوا لها بعيرها.

فأناخوا لها بعيرها. فأقبلت عليهم، فقالت: استقيت لأيتام، وقد احتبست عليهم جداً. فقال رسول الله ﷺ: ائتوني بإناء.

فجاؤوا بإناء]، فأمر براويتها فأنيخت. [فقال: افتحوا عزلاء هذه، فخذوا منها ماءً يسيراً، ثم افتحوا عزلاء[1] هذه فخذوا منها ماءً يسيراً أيضاً. ففعلوا، ثم إن الرسول ﷺ دعا فيه وغمس يده فيه، فقال: افتحوا لي أفواه المزادتين.

ففتحوا، فحثا في هذه قليلاً، وفي هذه قليلاً]، فمج في العزلاوين العلياوين، ثم بعث براويتها فشربنا ونحن أربعون رجلاً عطاشاً حتى روينا، وملأنا كل قربة معنا وإداوة وغسلنا صاحبنا، غير أنا لم نسق بعيراً وهي تكاد تتضرج من الماء (يعني المزادتين) [ثم قال: أسقوا ظهركم.

فسقوا الظهر حتى روي، ثم قال رسول الله ﷺ: هاتوا ما كان لكم من قربة أو مطهرة فاملؤوها. فجاؤوا بقربهم ومطاهرهم فملؤوها، ثم قال رسول الله ﷺ: شدوا عزلاء هذه، وعزلاء هذه. ثم قال: ابعثوا البعير.

فبعثوها فنهضت وإن المزادتين لتكادان تفطان من ملئهما ثم اتخذ رسول الله ﷺ كساء المرأة] ثم قال: هاتوا ما كان عندكم.

فجمعنا لها من كسر وتمر وصر لها صرة، فقال لها: اذهبي فأطعمي هذا عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ من مائك، [خذي هذا لأيتامك، وهذا ماءك وافراً.

فجعلت تعجب مما رأت، ثم انطلقت حتى أتت أهلها فقالوا: قد احتبست علينا فما حبسك] فلما أتت أهلها قالت: لقد لقيت أسحر البشر أو إنه لنبي كما زعم، كان من أمره ذيت وذيت، [أرأيتم مزادتي هاتين.. فوالله لقد شرب منهما] [وأخذوا من القرب والمزاد والمطاهر ما لا أحصي، ثم إنهما الآن أوفر منهما يومئذ فلبثت شهراً أو نحواً من ذلك]، فهدى الله ذاك الصرم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا [ثم أقبلت في ثلاثين راكباً إلى رسول الله ﷺ]»[2] فاستقبلها بالقلب الذي يستقبل به كل حبيب

---

(١) فم الربة من أسفل.

(٢) مسلم ١-٤٧٤ والزيادة الأولى عند البخاري ١-١٣١ والثانية والثالثة والسادسة وما بعدها في دلائل البيهقي ٤-٢٧٩ وهي قوية الإسناد والرابعة والخامسة في سنن البيهقي ١-٣٢ وقد رواها من طريقين قويين عن عبد الرزاق حدثنا معمر عن عوف عن أبي رجاء عن عمران وعبد الرزاق عن معمر سند صحيح وباقي السند: سند الشيخين.

مهاجر إلى مدينة التوحيد، وقدم لأصحابه طرازاً نسوياً رفيع المستوى.. امرأة تتسلل إبداعاً في عقول قومها، وتمحو ذاكرة وثنية متخثرة موغلة في القدم، ثم تقنعهم بالمسير معها في رحلة ممتعة نحو مدينة الوعي الجديد، بعد شهر من نشر التوحيد في بيوتات قومها.

إنجاز غير مسبوق للمرأة.. في زمن قياسي مدهش لم ينجزه سوى النبي ﷺ، والمرأة قادرة على أكثر وأعظم، لكن ذلك مشروط بقدرتها على التخلص من عقد القصور والاضطهاد والأنوثة، التي تتذرع بها للتفلت من مسؤولياتها.. حيث يأتي الوعي والتحرر بالإسلام في مقدمة تلك المسؤليات.

في تلك الغزوة لم تؤخذ تلك المرأة سبية، ولم تجد من ذلك الجيش إلا ما يسرها ويفرح أيتامها، لأنها لم تمارس أي شيء ضد الدولة الإسلامية.. حتى ذلك الماء الذي كانت تحمله.. لم يؤخذ منه قطرة واحدة، بل لقد كان النبي ﷺ نهر كرم عندما أمر صحابته بتزويدها بالطعام، وهم في أمس الحاجة إليه.. تعبيراً عن مواساته لها، وابتهاجا بما تنجزه تجاه أولئك الأيتام.

وإذا كانت تلك السرية تعود محملة بالمشاعر والعطايا والإيمان، فإن هناك سرايا عادت ببعض الكدر رغم تنفيذها لمهماتها المناطة بها، وتلك طبيعة البشر التي يفترض فيها الصواب والخطأ، لكن تلك الأخطاء قدمت دروساً في العقيدة والفكر.

درس في حدود طاعة الأمراء

سرية بعثها ﷺ وعيَّن أحد الأنصار أميراً عليها.

يقول «علي رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطباً. فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً. فأوقدوها. فقال: ادخلوها.

فهموا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار. فسكن غضبه. فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»[1].

وقد كرر هذه الأوامر أحد المهاجرين ممازحاً فرقته.. في:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٧.

سرية رأس عرانة

هذا المهاجر يدعى (عبد الله بن حذافة السـهمي) وهو الآن في سرية تحت إمرة صحابي اسمه (علقمة بن مجزز)

يقول أحد المشاركين فيها وهو «أبو سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ بعث علقمة بـن مجزز على بعث أنـا فيهم، فلما انتهى إلـى رأس عرانـة، أو كان ببعض الطريق اسـتأذنته طائفة من الجيش، فـأذن لهم، وأمر عليهم عبد اللـه ابن حذافة بن قيس السـهمي، فكنت فيمن غزا معه، فلما كان ببعض الطريق أوقد القوم ناراً ليصطلوا، أو ليصنعـوا عليها صنيعاً، وقال عبدالله (وكان من أهل بدر وكانت فيه دعابة): أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى. قال: فما أنا آمركم بشيء إلا صنعتموه؟ قالوا: نعم. قـال: فإني أعزم عليكم إلا تواثبتم في هذه النار. فقام ناس فتحجزوا، فلما ظن أنهم واثبون قال: أمسكوا على أنفسكم فإنما أمزح معكم.

فلمـا قدمنا ذكروا ذلك لرسـول اللـه ﷺ فقال: من أمركم منهـم بمعصية فلا تطيعوه»[1].

في الإسـلام.. الحاكم أو الأمير أو القائد ليس نائباً عن الله، ولا متحدثاً باسمه، وليـس له من صلاحيات التشـريع والتحليـل والتحريم ما يحلل بـه حراماً أو يحرم حـلالاً.. حتى في بيت المال المنثور بين يديه.. ليس من حقه وحق أهله أكثر من حقوق غيره من الأمة.

يقول ﷺ لعلي بن أبي طالب شـيئاً خطيراً.. ها هو علي يحدث به رجلاً يطالبه بشيء من الرفاهية في المائدة على الأقل.

اسـم هذا الرجل (عبد الله بن زرير) وهو يقول: «دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الأضحى، فقرب إلينا خزيزة[2]، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط يعني الوز، فإن الله عز وجل قد أكثر الخير..؟

---

(١) سنده حسن رواه ابن أبي شيبة ٦-٥٤٤ وغيره من طريق محمد بن عمرو عن عمر بن الحكم بن ثوبان عن أبي سـعيد الخدري وعمر بن الحكم تابعي صدوق. التقريب ٤١١ وتلميذه حسـن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال الشيخين. التقريب ٤٩٩.

(٢) الخزيز طعام متواضع كالعصيدة.

فقال: يا ابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس»[1]

إذا فالأمير أو الحاكم ليس إلها، ولا نصف إله.. إنه مجرد مفوض من قبل الأمة لإدارة شئونها.. لا أكثر، والله أنزل ضمن كلامه - القرآن - آية تطالب بطاعة الأمراء أمثال ابن حذافة وذاك الأنصاري، وكل الأمراء إلى يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾

وكم يحلوا لبعض خصوم الإسلام التوقف عند هذا القدر من الآية حتى يتهموا الإسلام بدعم الاستبداد، لأن بقيتها تزعجهم، فالله يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ومن كثرة ترديدهم لهذه الآية يخيل لمن لا يعرف القرآن أن الرعية ليس لها وظيفة سوى طاعة الراعي، وتقديسه والتسبيح بحمده.. متناسين أن القرآن يحتوي على آيات كثيرة تجعل العمود الفقري للحكم الإسلامي هو (العدل) فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾

العدل أحد أهم رسائل القرآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾

العدل هو رسالة محمد ﷺ التي ألقاها القرآن على عاتقه فقام بها خير قيام عندما خاطبه القرآن قائلا: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

ويقول لنبيه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ١-٧٨ من طريق ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن زرير عن علي. وكلهم ثقات إلا ابن لهيعة ولم ينفرد، فقد تابعه في مسند الشاميين ١-١٤٩ عبد الرحمن بن ثابت العنسي وهو صدوق يخطىء التقريب ٣٣٧ .

تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

العدل رسالة كل الأنبياء بعد التوحيد ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾

العدل كان محور رسالة نبي لقوم فشا بينهم الظلم والغش والفساد المالي، حيث يحكي القرآن قول ذلك النبي ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

العدل رسالة النخبة من مثقفي وعلماء الأمة.. لا تزيين الظلم للحاكم: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

العدل واجب على الحاكم حتى مع الخارجين عن القانون ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

العدل واجب حتى مع من يبغضهم الحاكم ويبغضونه أو من يعاديهم ويعادونه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

العدل واجب حتى مع من يكذبون ويسرقون ويلفقون للحاكم التهم ويشوهون دينه ممن هم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

العدل واجب في تعاملاتنا مع غير المسلمين ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

العدل شـــيء مقدس ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾

لدرجـــة أن جعل اللـــه لذنب الكفر، وذنـــب قاتل النبي، وذنب من يقتل شـــخصا يأمر بالعدل عقابا شـــنيعا واحـــدا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وآيات أخرى أكثر تحرم الظلم وتتوعد الظلمة.

كان عليه الســـلام يؤسس بكلام ربه وبسنته مفهوما طمسته الطواغيت.. مفهوما عظيماً يقول: الأمير لخدمة الأمة لا العكس، أما طاعة الأمير فليست خدمة له.. إنها باختصار طاعة للتشريع الذي أمر الحاكم بتنفيذه.

وإذا كانت تلك السرايا قد بينت حدود نفوذ القائد فإن هناك:

سرايا تحدد صلاحيات المجاهد المسلم

فالمجاهد لم يخرج من بيته وبلاده ليملأ بطنه أو جيبه، ولم يخرج ليرضي غروراً تراقص في رأسه.. هو محارب مميز بين كل المحاربين، لم يخرجه من بيته سوى شيء واحـــد: أن تكون كلمة الله هي العليا، ولكي يكـــون هذا الهدف نقياً بين جوانحه عليه، قبل أن يخرج، أن يدفن تحت بوابة مدينته أشياء كثيرة منها:

المال، والشهرة، والهوى، والرغبة في الانتقام، للنفس و.. و.. لكي يتفرغ لشيء واحد هو: إعلاء التوحيد لا فرضه بالقوة، فإذا لم يتمكن من دفن تلك الأشياء، فإنها ستنغص عليه جهده وجهاده.. إن لم تحوله إلى رماد لا قيمة له.

أخطاء كثيرة وقع فيها بعض الصحابة رضي الله عنهم، لكن فعلهم ذلك لا يحسب على الإسلام، إنما يحسب عليهم أنفسهم، لأن النبي ﷺ كان حياً آنذاك، وقد قام بتصحيح تلك الأخطاء حتى لا يبرر من بعدهم لنفسه ممارستها بحجة أن أحد الصحابة فعلها.. متجاهلا حكم الإسلام فيها.. متجاهلا تصحيح النبي ﷺ لتلك الأخطاء.

بعض هذه الأخطاء تبين بعد معجزة حدثت بعد إحدى السرايا.. معجزة مزلزلة.

الأرض تلفظ جسد أحد المجاهدين

قصة تعيد الصواب للمتهورين الوالغين بدماء الأبرياء.. قصة يرويها «جندب بن سفيان رجل من بجيلة قال: إني عند رسول الله ﷺ إذ جاءه بشير من سرية بعثها، فأخبره بنصر الله الذي نصر سريته، وبفتح الله الذي فتح لهم. قال: يا رسول الله، بينما نحن بطلب العدو وقد هزمهم الله، إذ لحقت رجلاً بالسيف، فلما أحس أن السيف قد واقعه التفت وهو يسعى، فقال: إني مسلم، إني مسلم..

فقتلته، وإنما كان يا نبي الله متعوذاً..؟

قال ﷺ: فهلاّ شققت عن قلبه، فنظرت صادق هو أو كاذب؟ قال: لو شققت عن قلبه ما كان يعلمني القلب، هل قلبه إلا مضغة من لحم؟ قال: فأنت قتلته، لا ما في قلبه علمت، ولا لسانه صدقت! قال: يا رسول الله، استغفر لي. قال: لا أستغفر لك.

فدفنوه، فأصبح على وجه الأرض ثلاث مرات، فلما رأى ذلك قومه استحيوا وخزوا مما لقي، فحملوه فألقوه في شعب من تلك الشعاب»[1].

---

(١) حديث صحيح رواه أبو يعلى ٣-١ حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي حدثني عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب حدثني جندب. شهر كثير الأوهام، لكن رواه عبد الرزاق ١٠-١٧٣ عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن موهب عن قبيصة. وعبد الله ثقة. التقريب ٤٥٥ وقبيصة وله رؤية وله شاهد يأتي بعده

لكن النبي ﷺ علم فيما بعد.. أخبره أحدهم بما حدث، فكان في تفسير النبي ﷺ وتوجيهه شيئاً يستعيد الأمل لذلك الفارس الذي رفضته أحضان الأرض.

صحابي شهد ما حدث اسمه (عمران بن حصين) يحدثنا فيقول: «بعث رسول الله ﷺ سرية فحمل رجل على رجل من المشركين، فلما غشيه بالرمح قال: إني مسلم. فقتله، ثم أتى النبي ﷺ فقال: إني أذنبت فاستغفر لي. قال: وما ذاك؟ قال: حملت على رجل من المشركين، فلما غشيته بالرمح قال: إني مسلم. فظننت أنه متعوذ، فقتلته. فقال: هلا شققت عن قلبه حتى يستبين لك؟ قال ويستبين لي يا رسول الله؟ قال: قد قال لك بلسانه فلم تصدقه على ما في قلبه.

فمات الرجل فدفناه، فأصبح على وجه الأرض، فأمرنا غلماننا فحرسوه فأصبح على وجه الأرض. فقلنا: غفلوا.

فحرسناه، فأصبح على وجه الأرض. فأتينا النبي ﷺ فأخبرناه، فقال: أما إنها تقبل من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعلمكم تعظيم الدم. ثم قال: اذهبوا به إلى سفح هذا الجبل، فانضدوا عليه من الحجارة ففعلنا»[1].

وهذه سرية أخرى يأذن ﷺ لحبه أسامة بن زيد بالانضمام إليها بعد بلوغه، لكن حماس أسامة والشباب المتقد تحت ثيابه جعله يتمادى في إعطاء فروسيته ما ليس لها، فكانت زلة عمره التي لم يستطع نسيانها طوال حياته، وندمه الذي لم يقو على الهروب منه.

في سرية (الحرقات) أسامة يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله

ولما عاد إلى المدينة أحس بتأنيب الضمير، وزاحم أنفاسه شعور بالذنب، فلم يكن له ملاذ سوى النبي ﷺ يفصح له بما في نفسه، ويصحح به سلوكه ذلك إن كان مخطئاً.

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ١٨-٢٢٦ حدثنا بشر بن موسى ثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ثنا حفص بن غياث عن عاصم الأحول عن السميط بن سمير عن عمران بن حصين. السميط صدوق من رجال مسلم وتلميذه تابعي ثقة وحفص ثقة فقيه وابن سعيد الملقب بـ (حمدان) ثقة ثبت: التقريب (٥٦ و١٧٣ و٤٨٠) أما شيخ الطبراني فثقة نبيل انظر البلغة (١١١) والحديث شاهد لما سبق.

يقــول رضي الله عنه: «بعثنا رســول الله ﷺ في ســرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله فطعنته.

فوقع في نفســي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رســول الله، إنما قالها خوفاً من الســلاح. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا..؟

فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[1] لهول ما ارتكبه.

أســامة هو حبيب النبي ﷺ الذي كان يحمله بين يديه إلى المســجد.. أسامة هو الذي كان ﷺ يطهر جرحه بفمه العطر، ويوصي به عائشــة رضي الله عنها قائلاً «يا عائشة أحبيه فإني أحبه»[2].. أسامة الذي يتحدث بنفسه عن مساحته داخل النبي ﷺ فيقول: «كان رســول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»[3]. كل هذا الحب لا يبرر لأســامة ذلك الخطأ، ولا يمنحه حق التحدث عن أســرار القلــوب والنوايا، فالفاضح الوحيــد للقلوب هو الوحي والوحي فقــط، فإذا لم يكن ثم وحي فالقلب هو ما أمامك من مشهد لا ما تسافر بك الظنون إليه.

هاهو أحد الصحابة واسمه عتبان بن مالك يعاني من أمرين:

الأول: مرض يكبل جسده عن الوصول إلى المسجد.

والآخــر: رجــل كثرت مضايقتــه للصحابــة لدرجة جــزم بها بعضهــم أنه من المنافقين.

فــكان لا بد من تســليم هذه الحيرة الغامضة إلى النبــي ﷺ، فماذا فعل عتبان، وماذا فعل أصحابه الذين يتمنون؟

---

(١) صحيح مسلم ١-٩٦.
(٢) حديث حسن، وقد سبق انظر صحيح الترمذي للإمام الألباني أسكنه الله فسيح جناته ٤٠٩٨.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٣٦.

يقول رضي الله عنه: (أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله ﷺ: أني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي فأتخذه مصلى، فأتى النبي ﷺ ومن شاء الله من أصحابه، فجعل يصلي في منزلي وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عظم ذلك وكبره إلى (مالك بن دخشم) قالوا: ودوا أنه دعا عليه فهلك، وودوا أنه أصابه شر. فقضى رسول الله الصلاة وقال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قلبه.

قال ﷺ: لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه)[1] وإذا كان هناك من الصحابة من ألجمه الحلم عن التهور، فاكتفى بطلب الدعاء على مالك بن دخشم، فإن الحماس حمل أحد الصحابة على امتشاق سيفه نحو النبي ﷺ كي يأذن له بالإجهاز على رجل يجزم بنفاقه.

شاهده صحابي اسمه (عبيد الله بن عدي) وتحدث عنه فقال: «إن رجلاً سارَّ رسول الله ﷺ فلم ندر ما ساره به، حتى جهر رسول الله ﷺ، فإذا هو يستأمر في قتل رجل من المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى. ولا شهادة له. قال: أليس يصلي؟ قال: بلى ولا صلاة له.

فقال النبي ﷺ: أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»[2]

وماذا بعد أولئك الذين تتفوه أعمالهم بأشياء فظيعة..؟

لا شيء سوى أن المسلم غير معني باقتفاء مواطئ القلوب ولا مراميها، فهي مسافات طويلة ومفاوز مهلكة، وهدر للجهود والطاقات.

المسلم معني بتجديد الحياة بالإسلام.. بالبحث عن الخصوبة وإثراء سهولها بالجديد، لا بالوقوف أمام العقم وإهدار العمر في التحسر عليه، أما النتائج فهو أكبر من أن يصر على أن تمثل بين عينيه قبل أن يمثل أجله. إن جاءت فيالها من نتائج، وإن تأخرت فقد سبقها إلى ما هو أبهى وأبقى، كما سبق هؤلاء الفرسان غيرهم من الأحياء.. فرسان:

---

(١) صحيح مسلم ١-٦١.

(٢) صحيح مسلم ١-٦١.

سرية الاثني عشر شهيداً

ففي المدينة، وبينما كانت إحدى النســاء مسافرة في منامها .. شاهدت في طريق الأحلام رحلة هؤلاء الشهداء إلى الجنة.

يقول أنس رضي الله عنه «كان رســول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة، فربما قال: هــل رأى أحد منكم رؤيا؟ فإذا رأى الرجل رؤيا ســأل عنه، فإن كان ليس به بأس كان أعجب لرؤياه إليه.

فجاءت امرأة فقالت: يا رســول الله، رأيت كأني دخلت الجنة، فسمعت بها وجبة ارتجت لها الجنة، فنظرت، فإذا قد جيء بفلان بن فلان، وفلان بن فلان، حتى عدَّتْ اثنى عشــر رجلاً -وقد بعث رسول الله ﷺ ســرية قبل ذلك- فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشــخب أوداجهم فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر الســدخ أو قــال: إلى نهر البيدج. فغمســوا فيــه فخرجوا منه وجوههــم كالقمر ليلة البدر، ثم أتوا بكراســي من ذهب، فقعدوا عليها، وأتى بصحفة أو كلمة نحوها فيها بسرة فأكلوا منها، فما يقلبونها لشق إلا أكلوا من فاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم.

فجاء البشير من تلك السرية فقال: يا رسول الله، كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان حتى عد الاثني عشر الذين عدتهم المرأة. قال رسول الله ﷺ: عليَّ بالمرأة. فجاءت.

قال: قُصِّي على هذا رؤياك. فقصت. قال: هو كما قالت لرسول الله ﷺ»[1].

هذا هو الهدف والنتيجة الأســمى، والأهم في حركــة المؤمن حتى الموت، أما في الحياة فمشروع أبيض قد يرى نتائجه وقد يموت دونها.

ســافر أولئك الشــهداء إلى النعيم، وبقي من بقي من رفاقهم ينتظرون الحصول على مقعد في تلك الرحلة الحلم، ولعل من أكثرهم شوقاً أولئك الذين عبروا الصحاري والبحار مهاجرين من الحبشة واليمن.. حيث كانت إحدى السرايا تنتظرهم.. في رحلة لا تقل عن معاناتهم السابقة.. سرية لدى أبي موسى سر تسميتها بـ:

---

(١) ســنده صحيح رواه أحمد ٣-١٢٥ ثنا بهز ثنا ســليمان بن المغيرة عن ثابت عن انس وحدثنا أبو النضر ثنا سليمان المعني. سليمان ثقة وشيخه البناني تابعي ثقة سمع من أنس.

غزوة ذات الرقاع الثانية

يقول رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه. فنقبت أقدامنا، فنقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة (ذات الرقاع) لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق»[1]

لكن أبا موسى ندم على ذكر معاناته خشية أن يعكر ذلك الحديث صفاء نيته، حيث يقول ابنه أبو بردة: «فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك. كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه»[2] وذات الرقاع هذه تختلف عن غزوة ذات الرقاع السابقة، لأن تلك الغزوة سميت هكذا لمرور الجيش بمكان يقال له ذات الرقاع، ومن سياق تلك الغزوة يتبين أن العدد كان أكثر من ستة بكثير، كما أن الجمال هناك كانت متوفرة، لأن جابراً كان طوال الرحلة يركب جمله الهزيل الذي اشتراه منه النبي ﷺ، كما أن جابراً رضي الله عنه كان قد تزوج حديثاً، أي بعيد وفاة والده رضي الله عنه، ولم يعلم النبي ﷺ بذلك إلا بعد أن أخبره جابر.

أما هذا الغزوة فسماها أبو موسى والستة الذين معه رضي الله عنهم بهذا الاسم لقلة الأحذية والخفاف، وهي سرية صغيرة ولم يحدد أبو موسى وجهتها، لكن أبا هريرة يحدد وجهة جيش شارك فيها، بل لقد سماها بـ:

غزوة نجد

وقد جرت في هذه الغزوة أحداثٌ أثارت تساؤل أحد الرجال الذين سألوا أبا هريرة فقالوا له: «هل صليت مع النبي ﷺ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة: نعم. قال: متى؟ قال: كان عام غزوة نجد: فقام رسول الله ﷺ لصلاة العصر، وقامت معه طائفة وطائفة أخرى مقابل العدو ظهورهم إلى القبلة.

فكبر رسول الله ﷺ وكبروا معه جميعاً، الذين معه والذين يقابلون العدو، ثم ركع رسول الله ﷺ ركعة واحدة، وركع معه الطائفة التي تليه. ثم سجد وسجدت الطائفة التي تليه، والآخرون قيام مما يلي العدو.

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٤٩ والبخاري ٤-١٥١٣.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٤٩ والبخاري ٤-١٥١٣.

ثــم قام رســول الله ﷺ وقامت الطائفــة التي تليه، فذهبوا إلــى العدو فقابلوهم، وأقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو.

ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى، فركعوا معه وسجدوا معه.

ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو، فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه، ثم كان الســلام، فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً. فكان لرسول الله ﷺ ركعتان، ولكل رجل من الطائفتين ركعتان ركعتان»[1]

كانــت تلك الغزوات تأديباً للمعتدين، وتأميناً لطرق التجار والحجاج وحدود دولة الإســلام، التي تريد فرض هيبتها على من لا يؤمنــون بأخلاقيات الجوار، ولا رصيد عندهم لمفهــوم العهود والمواثيق، فبدأ الجميع ينعمون بأمن الطرق بعد تلك الســرايا الناجحة إلا قوافل قريش؟ فهل كان عليه السلام يعترضها؟

أبداً، فهذه ليست أخلاقه وقد وقع صلح الحديبية.

إذا فمن أقلق أرواح وقوافل قريش؟ من حول طريق الشام إلى جحيم؟

أبو جندل وأبو بصير كانا هناك، ورفاقهما المشــردون في البراري الممنوعون من حــق العيش بأمان في دولتهم وبين أحبتهم في المدينة، والذين مارســت قريش أقصى حالات التوحش والتطرف في مصادرة حرياتهم.. كان هؤلاء يمارســون عنفاً مضاداً، لكنه كان منضبطاً وموجهاً بدقة نحو ســبب معاناتهم فقــط دون غيره.. هذا الهدف المحــدد هو قريش وقوافلها. فقد أغلقت قريش أبواب الأرض دونهم، حتى منعتهم من دخــول المدنية، وهذا العنف يبرأ منه النبي ﷺ، وتبــرأ منه دولته، لكنها لا تمنعه لأنه صــراع من أجل البقاء والكرامة.. هو دفاع عن النفس، وجزاء من جنس العمل لا أكثر ولا أقل، كما أنه يجري خارج حدودها.

---

(١) ســنده قوي رواه النســائي ٣-١٧٣ وابــن خزيمة ٢-٣٠١ من طريق عبد الله بــن يزيد المقري قال حدثنا حيوة وذكر آخر قالا حدثنا أبو الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة. عبد الله ثقة فاضل معروف وحيوة ثقة التقريب ١٥٨ وأبو الأســود هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ثقة التقريب ٤٩٣.

تجري هذه الأحداث وغيرها وتمر الأيام والشـهور فـإذا عام كامل يكاد ينصرم، وهــذا يعني اقتراب نهاية عــام على تاريخ عمرة الحديبية، التي لم يتمكن المؤمنون من أدائهــا بعد أن منعتهم قريــش، وطلبت منهم العودة بعد عــام، وهاهو الموعد يقترب، والنبي ﷺ يأمر أصحابه بالتهيؤ للتوجه لأداء:

عمرة القضاء

أي العمرة البديلة لعمرة الحديبية حسـب اتفاق الطرفين، ولها اسـتعد المسلمون وسـط ظروف معنوية مرتفعة بفتح خيبر وعودة المهاجرين من الحبشة، أما المشركون فيعانون من الإحباط الشـديد، فمحمد يسـتولي على خيبر، ودولته تتعاظم كل ثانية، وسـمعته سـحابة عطر تطوف الجزيرة، وأبو جندل ومن معه يقضون مضاجع قريش وقوافلهـا، وقوائـم ضحايا أبي بصير وأبـي جندل تصل إلى قريـش محملة بالنواح والعويل، والندم على ذلك الشـرط المكتوب بالغطرسـة الوثنية، وتسير قافلة المؤمنين ملتزمة بشـروط قريش التي تقول: «لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وأن لا يخـرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعـه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها»[1]

تسـير قافلة المؤمنين ملتزمة بالسكينة والهدوء حسب الشروط والاتفاقية الموقعة بين الطرفين، وتقترب من مكة الحبيبة، فتشرع نوافذ الأرواح وأبوابها للذكريات، وأيام الطفولة والمعاناة...

آه ما أجمل مكة وأطيب ريحها، ما أجمل ذكريات الصبا فيها، لكن أصدقاء الفشل وأعداء النجاح يمارسون دوماً السخرية من المتفوقين عليهم.. ردماً لهوة الإحباط التي يعانون منها، وهو ما تتلفظ به قريش الآن، بعد رؤيتها لمحمد وأصحابه في طرقات مكة ودروبها، لكن النبي ﷺ يجيد وأد السخرية في مهدها.. يحشو جوفها بجمر التفوق.

عبـد الله بـن العباس بن عبد المطلـب طفل يعيش في مكة مـع والده العباس.. كان هناك.. شـاهد ما حدث، وتحدث فقال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وهنتهـم حمى يثرب، قال المشـركون: إنـه يقدم عليكم غداً قوم قـد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر، وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا ما بين الركنين ليرى المشركون جلدهم.

فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم»[1] و«إنما سعى رسـول الله ﷺ ورمل بالبيت ليري المشركين قوته»[2] والرمل هو الإسراع في المشي، وهي حالة وسط بين الركض والمشي.

وإذا كان الرمل يغيض المشـركين، فإن الشعر كان يطوف حول الكعبة.. (عبد الله بن رواحة) أحد شـعراء العصر والإسلام.. كان لسـاناً من اللهب يطوف حول الكعبة، ويحرق ما تبقى من معنويات لقريش.

أغمدت السيوف، لكن عبد الله بن رواحة لم يغمد شعره، يقول «أنس: إن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل»[3]

وتحسباً لأي مكروه يقول أحد الصحابة وهو (ابن أبي أوفى): «لما اعتمر رسول ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم، أن يؤذوا رسول الله ﷺ»[4]

أتم ﷺ وأصحابـه عمرتهم، وعطروا أرواحهم بأجواء مكة الحلم، ومكثوا حسـب الاتفـاق المبرم ثلاثة أيام.. تمتعوا بقرب بيت الله الحرام، وخلال هذه الأيام طلب ﷺ يد امرأة اسمها ميمونة بنت الحارث.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٩٢٣.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٢٩٣.
(٣) سـنده صحيح رواه الترمذي ٥-١٣٩ وغيره من طريق عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سـليمان حدثنا ثابت عن أنس، وجعفر بن سـليمان صدوق زاهد من رجال مسـلم وثابت تابعي ثقة سـمع أنسا انظر النسائي ٥-٢٠٢ وفي الكبرى أيضاً ٢-٣٨٣.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٢.

الزواج بميمونة

وميمونة هذه، هي أخت زوجة العباس عم النبي ﷺ، وابن عباس رضي الله عنهما يتحدث عن زواج خالته فيقول: «تزوج النبي ﷺ ميمونة في عمرة القضاء»[1]

ويقـول «تزوج النبي ﷺ ميمونـة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال»[2] لكن يبدو أن ابـن عباس قد أخطأ لصغر سـنة، فقد كان طفلاً آنذاك، لذلـك توجهنا إلى ميمونة رضي الله عنها، وسـألناها فقالت: «رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ تزوجها حلالاً، وبنى بها حلالاً بنى بها بسرف»[3] وهو مكان قريب من مكة.

وقـال ابن أختها الآخر يزيد الأصم: «حدثتني ميمونة بنت الحارث: أن رسـول الله ﷺ تزوجها وهو حلال.

قال: وكانت خالتـي وخالة ابن عباس»[4] و«كان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، فأقام رسـول الله ﷺ بمكة»[5] ثلاثة أيام هو وأصحابه يسـتمتعون بأجوائها الطيبة.. بمراتع الطفولة وذكريات الشـباب.. بطرقاتها وبيوتاتها التي أرغمهم الكفر على مغادرتها، وبعد اليوم الثالث اضطروا إلى مغادرتها..

كان فراقـاً مؤلماً يتحدث عنه البراء بن عازب فيقول: «أقام رسـول الله ﷺ ثلاثة أيـام في عمـرة القضاء، فلما كان يوم الثالث قالوا لعلي: إن هذا آخر يوم من شـرط صاحبك، فمره فليخرج.

فحدثه بذلك قال: نعم، فلنخرج»[6]. فالنبي ﷺ خير من يفي بالعهود، لكن:

---

(١) صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٣.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٣.

(٣) سنده صحيح رواه الحاكم ٤-٣٣ حدثنا محمد بن يعقوب ثنا محمد بن إسحاق الصغاني ثنا وهب بن جرير ابن حازم ثنا أبي قال سمعت أبا فزارة يحدث عن يزيد بن الأصم عن ميمونة. يزيد تابعي ثقة - التقريب ٥٩٩ وتلميذه راشد بن كيسان تابعي ثقة التقريب ٢٠٤ ووهب ووالده ثقتان التقريب ٥٨٥.

(٤) صحيح رواه مسلم ٢-١٠٣٢.

(٥) سـنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ١١-١٧٣ والطبري. التاريخ ٢-١٤٣ ثنا أبان بن صالح وعبد الله بن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن مجاهد عن ابن عباس. عطاء ومجاهد تابعيان إمامان ثقتان وأبان وعبد الله ثقتان التقريب ٣٩١ و٥٢٠.

(٦) حديث حسـن رواه أبو عوانة ٤-٢٩٥ حدثنا الربيع بن سـليمان قال ثنا أسد بن موسى ثنا يحيى بن زكريا ابن أبي زائدة قال حدثني أبي عن أبي إسـحاق عن البراء.. أسـد السنة صدوق وشيخه ثقة متقن ووالده ثقة لكنه سمع من أبي إسحاق متأخراً ويشهد له ما بعده.

يلتمس منهم السماح له بتمديد فترة بقائه وأصحابه في مكة أياماً، كما طلب منهم مشاركته أفراح عرسه ووليمته.

عن هذا الالتماس، وعن رد قريش يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وأقام بمكة ثلاثاً فأتاه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا. قال: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا. فخرج بميمونة بنت الحارث رضي الله عنها حتى أعرس بها بسرف»[1] وعندما هم ﷺ بمغادرة أحب البلاد إلى قلبه لحقت به ابنة عمه وحبيبه سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، ورغبت في مصاحبته إلى تلك المدينة الطيبة، التي آوت والدها واحتضنته إلى يوم القيامة.. «خرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي، فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك احمليها.

فاختصم فيها علي وزيد وجعفر. قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي. فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم.

وقال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا»[2]

نسيج متناغم وخلاب من العلاقات والحب حوله ﷺ.. كل يرى أنه أحق برعاية يتيمة حمزة، وكلمات تواسي تلك القلوب المفعمة: أنت مني وأنا منك.. أشبهت خلقي

---

(١) سنده قوي وقد ضعفه الإمام الألباني في تعليقه على فقه السيرة للشيخ الغزالي رحمهما الله حيث قال رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند فقه السيرة (٣٦٤) لكني وجدت له سنداً في المستدرك ٤-٣٣ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني بن أبي نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس والسند من الحاكم إلى ابن إسحاق سند صحيح موثق في السيرة خاصة دون غيرها و بقية السند قوي مر معنا وهو الحديث قبل السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وخلقي.. أنت أخونا ومولانا.. وقافلة رضي الله عنها تحت الشـجرة، والمطايا والقلوب تتفطر بين مكة وطيبة..

وصل ﷺ إلى المدينة، لكن حياة من نذروا أنفسهم لإزالة تجاعيد الأرض وأحزان القلـوب بالإيمان والتوحيد لا تعرف الهدوء ما دام هناك شـبر يئن من وخز الأصنام والأوثان والظلم، فالقضية ليسـت بحثا عن الغنائم، أو سـعياً وراء دفع حدود الدولة الجديد إلى الأقصى الممكن.. هي النبوة والتوحيد، ومن حق كل البشر الحصول عليها، وليس من حق من يحملونها الاسـتئثار بها وحرمان الآخرين من التمتع بها، وليس من حق أحد مهما كان منع صوت التوحيد من الوصول إلى القلوب.

بعـد عودة النبي ﷺ من مكة قرر القيـام بالتخاطب مع الدول العظمى المجاورة، لكـن قبل ذلك وصلت أخبار، ووصلت شـخصيات، وحدثت أحـداث اهتزت لها مكة والمدينة.. حتى الحبشة هزها ما هز مكة والمدينة، ولم لا تهتز المدينتان وآخر داهيتين من قريش ينتزعان قلبيهما وروحيهما من مخلفات العادات والوثنية الموروثة، ويتجهان بها نحو مدينة الفجر والتوحيد:

خالد بن الوليد وعمرو بن العاص يهاجران

وإسـلام أمثالهما يفقد قريشـاً توازنها، ويصيبها في ما تبقى لها من عزم، فأين لقريش بقائد ميداني في مثل دهاء خالد، الذي يقرأ جيش خصمه كما يقرأ اسمه..؟

وأين لها بمثل عمرو بن العاص داهية يزحزح دهاؤه الجبال..؟

كان لهذيـن العظيمين عنـاد العظماء وثقتهم بقدراتهم علـى حل معضلة محمد عاجلاً أو آجلاً، وهذا ما يغري أمثالهما ممن حباهم الله بعقول وقدرات ذات مواصفات قياسية.. تجد لديهم الفرح بما عندهم، وحب الاستقلال والترفع عما يؤمن به ويسلكه البسطاء، لكن الميزة في الإسلام هو أنه بسيط ومدهش ومعجز في الوقت نفسه، وتلك حقيقـة لا مفر منها، وقدرته على تطويع الجبابرة والمفكرين تماماً هي كنعومته ورقته في الإمساك بأيدي البسطاء والمساكين، وأخذهم إلى حيث ينعمون. لكن عنصر العناد والاعتداد بالنفس والحسد أحياناً لدى العظماء يحرمهم من البوح بالحقيقة الصارخة داخل أعماقهم، وقد كان إسلام خالد وعمرو هو الخلاص من معاناة العناد، والاعتداد

بالذات، وفي قصة إسلامهما تفاصيل تلك التعرجات التي سلكتها الروح والعقل بعيداً عن الصراط المستقيم، حتى وجدا نفسيهما يوماً في صحاري أبي جهل، حيث لا مكان لغير الضياع والعطش والموت.

يقــول عمرو رضي الله عنه: «إني قد كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحد أشــد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما»[1] فلما.. لما ماذا يابن العاص..؟

«لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويســمعون منــي فقلت لهم: تعلمون والله إني لأرى أمر محمــد يعلو الأمور علواً كبيراً منكــراً، وأنــي قد رأيت رأيــاً فما ترون فيه؟ قالــوا: وما رأيت؟ قــال: رأيت أن نلحق بالنجاشــي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحــت يديه أحــب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهــر قومنا فنحن من قد عرف، فلن يأتينا منهم إلا خير.

فقالوا: إن هذا الرأي. فقلت لهم: فاجمعوا له ما نهدي له.

وكان أحــب ما يهدى إليه من أرضنــا الأدم، فجمعنا له أدماً كثيراً، فخرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لنعده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رســول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده

فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إيــاه، فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش إني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فســجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شــيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قدمت إليه فأعجبه واشــتهاه ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رســول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-١١٢.

فغضب، ثم مد يده فضرب بها انفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟

فقــال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنــه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم.

فبســط يده، وبايعته على الإســلام ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إســلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة. فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى..؟

قلت: والله ما جئت إلا لأسلم.

فقدمنا على رســول الله ﷺ، فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله»[1] «ابسط يمينك لأبايعك فبسط يمينه.

فقبضت يدي. قال: ما لك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط. قال: تشترط..؟ بماذا؟

قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله.

وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو ســئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة»[2]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-١٩٨ والحارث (زوائد الهيثمي) ٢-٩٢٣ حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي عن أبي حبيب بن أبي أوس حدثني عمرو. شيخ ابن إســحاق تابعي ثقة فقيه، وراشــد قال عنه يحيى بن معين ثقة يروى عنه المصريون - الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، وحبيب قال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شــهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها فيكون هذا صحابياً.

(٢) صحيح مسلم ١-١١٢.

تلك العبارات التي تئن من أعماق عمرو بن العاص تكشف ما يتقد داخله.. كم كان اتخاذ القرار الشجاع في اعتناق الحقيقة مؤلم حقاً، لكن ذلك الألم لم يدم أمام سعادة العيش في واحة الإيمان وراحته، وأمام العيش بين تلك المشـاعر الفياضة، التي تتدفق من كلمات وأحضان إخوته الجدد، الذين يبتهجون به وبخالد الآن.

شمس جديدة تطلع على خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وحياة جديدة بالتوحيد تشـرق عليهما.. تغمرهما نشاطاً وحيوية، وأهدافاً أسمى، وآفاقاً كانت الوثنية تعصب عينيهما وروحيهما عنها، وإذا كانت كلمات النجاشـي العظيم هي الشعلة التي تغلغلت في ضمير عمرو لتنيره، فإن هذا النجاشـي لا يكف عن تحريك الحب والمشاعر، لكنه اليوم يمارس اسـتمطار الدمـوع والذكريات، ويضفي على أجواء المدينة سـحاباً من الحزن والوجوم. ما الذي فعله النجاشي بقلوب المؤمنين..؟.

مات النجاشي رحمه الله ورضي عنه

خبر تكدرت له الحبشـة، وتكدر له جعفر وأصحاب السفينة والنبي ﷺ والمؤمنون جميعاً.. خبر يجعل اليوم ثقيلاً تحسب ساعاته بالدموع. لم يأت الخبر فوق سفينة أو بعير.. جاء الخبر من السـماء، فتكدر له أهل الأرض، ولا أدري كم من الدموع سفحت على ذلك الملك الإنسان.. العادل الصالح، الذي كان خير معين عندما عز المعين، وكان خير مجير عندما ضاقت الديار والأهل بمن يقول: لا إله إلا الله.

أصحمة النجاشي تحت الثرى، لتنزل من السماء سنة جديدة مع خبر وفاته. سنة يقول عنها أبو هريرة رضي الله عنه: «نعى لنا رسول الله ﷺ صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، فقال استغفروا لأخيكم»(١) وقال: «مات اليوم رجل صالح»(٢) «مات اليوم عبد لله صالح»(٣). ثم قال: «صلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أصحمة النجاشي»(٤) ثم دعا النبي ﷺ أصحابه «فخرج بهم إلى المصلى»(٥).

(١) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٧.
(٣) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.
(٤) سـنده على شرط الشـيخين رواه أحمد ٤-٧ من طرق عن قتادة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ. أبو الطفيل وحذيفة صحابيان.
(٥) صحيح مسلم ٢-٦٥٦.

والمصلى غير المســجد، فالمصلى في الصحراء وليس له جدران. ثم «إن رسول الله ﷺ صف بهم بالمصلى فصلى فكبر عليه أربع تكبيرات»(١) ليس فيها ركوع أو سجود.

يقول جابر: «إن رســول الله ﷺ صلى على النجاشــي فكنت في الصف الثاني أو الثالث»(٢) استغرب بعض المصلين تلك الصلاة، وذلك الاستغفار لرجل لم ير النبي ﷺ، ولم يره النبي ولم يهاجر إليه، ولم يبايعه، بل ظنوه مازال علجاً نصرانياً.

يقول أنس: «لما توفي النجاشي قال النبي ﷺ: استغفروا لأخيكم. فقال بعض القوم: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة..؟ فنزلت ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾»(٣)

علم أولئك المتسائلون مكانة النجاشي عند ربه، وشهادته له التي أنزلها من فوق سبع ســماوات.. الحبشي الكريم الذي كان ذات يوم يلتقط عوداً من الأرض ويرفعه، ليخاطب من حوله من النصارى والوثنيين، ويخاطب المؤمنين الذين لاذوا بعدله وطمعوا في حمايته مــن بطــش طواغيت قريش.. تحدث حينها فاضحاً شــوقه الجــارف للنبي ﷺ: «تناول النجاشــي عوداً من الأرض فقال: يا معشــر القسيسين والرهبان ما يزيد ما يقول هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رســول الله. والذي بشــر به عيسى ابن مريم ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه.. امكثوا في أرضي ما شــئتم، وأمر لنا بطعام وكسوة»(٤) ما أجمل هذا الأسمر وما أجمل صفاته، وما أفسح صدره وأرضه عندما ضاقت صدور الأهل والأقارب.

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٤٣. (٢) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٣) حديث صحيح رواه ابن أبي حاتم في التفسير ٣-٣١٨ وابن مردويه - تفسير ابن كثير ١-٤٤٤ من حديث حماد بن سلمة عــن ثابت عن أنس ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم مــن طريق أخرى عن حماد عن ثابت عن الحســن عن النبي ﷺ وابن مردويه من طرق عن حميد عن أنس نحوه وهذه أســانيد صحيحة إلا مرسل الحسن لكنه قوي بها.

(٤) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٥٠ حدثنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى وقد ضعفه الإمام الألباني رحمه الله هذا السند في ضعيف أبي داود (٣٢٥) ولا أدري على أي شــيء اســتند غفر الله له، فلا يوجد تفصيل في صحيح ســنن أبي داود والصواب أنه صحيح لأن إســرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة ســند صحيح وهو من أسانيد البخاري، وأبو إسحاق عن أبي بردة من أســانيد مســلم أما تلميذ إســرائيل فثقة ثبت - التقريب ١-٦٨ وهو لم ينفرد بل تابعه عند ابن أبي شــيبة ٧-٣٥٠ شــيخه: عبيد الله بن موسى وهو ثقة واثبت في إسرائيل من أبي نعيم انظر التقريب، فالســند صحيح، وللحديث شاهد حسن عند أحمد ١-٤٦١ حدثنا حسن بن موسى قال سمعت حديجاً أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود. وحديج حسن الحديث إذا لم يخالف الثقات.

يتذكر جعفر ورفاقه الهاربين من البطش لذة طعام النجاشي وجمال تلك الكسوة، وعطف الملك الحبيب الذي جاءت الأخبار من أهل الحبشة بعد دفنه بـ:

كرامة على قبر النجاشي

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور»[1].

ودع الصحابة أخاهم بالدعاء وطلب الرحمة له من الله، وتولى بعده ملك آخر، ونجاشي آخر على الحبشة، وكان هذا الملك كغيره من البشر له عقل وروح، وهما بحاجة إلى من يأخذهما إلى حيث أجواء الإسلام الرحبة، لأن في إطلاقهما إطلاقاً للشعوب والأتباع. لقد قرر ﷺ مكاتبته ودعوته للإسلام هو وغيره من الملوك والأكاسرة، فالإسلام لا يعرف الطبقات في نظرته للبشر، ولا يعرف الألوان ولا الأحساب ولا الأنساب.. هو رسالة توحيد من الخالق إلى المخلوق، ويجب على من يحملون هموم الرسالة تسليمها إلى أهلها.. إلى كل البشر دون استثناء أو تمييز، وإذا كان الإسلام يمنح الضعفاء والمستضعفين أهمية قصوى، فإنه يوظف الأقوياء لنشر الحق والعدل على وجه الأرض، ويسير معهم في ذلك إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه، وليس هناك أنسب من هذه الأيام التي أعقبت فتح خيبر، فهي أيام سلام غل فيها النبي ﷺ قريشاً عن الاعتداء والحرب، وتمكن من السيطرة على اليهود واحتواء خياناتهم داخل دوائر ضيقة يمكن مراقبتها، وهؤلاء في نظر الإسلام عصابات مزعجة، وحفر في طريق دعوة تنظر إلى أبعد من قريش وإلى أبعد اليهود..

دعوة الإسلام عالمية.. تنظر إلى الأرض دون حدود، وإلى ما هو أبعد من الأرض، أما الأقوياء الذين يسعى ﷺ لاستثمار سطوتهم وسلطتهم، فهم قادة الدول الكبرى المحيطة بالجزيرة العربية، والذين تتوزعهم ديانات واتجاهات مختلفة، لذلك قرر:

---

(١) هو ليس بحديث وسنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٣-١٦ وغيره حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. يزيد وعروة تابعيان ثقتان مرا معنا كثيرا.

ومــن المؤكد أن ردود الفعل تجاه تلك الرســائل ســتكون متباينة، كما أن من غير المستســاغ لــدى هؤلاء الجبابرة أن يــروا عربياً كان يرعى الغنم فــي الصحاري وبين الجبال يقتحم عليهم ما هم فيه من أبهة وعظمة.. مطالباً إياهم باتباعه وترك ما ألفوه وورثوه هم وشعوبهم.. الأمر صعب ويحتاج إلى نفوس تتفوق على نفسها.

يقول أنس بن مالك: «إن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ»[١]. لكن وقبل أن يبعث ﷺ بتلك الرسائل اضطر إلى أن يأمر بصنع خاتم له.

النبي عليه السلام يأمر بصنع خاتم

يقول «أنس إن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي، فقيل: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم. فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقة فضة، ونقش فيها محمد رسول الله»[٢] «كأني أنظر إلى بياضه في يده»[٣] «وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر:

محمد سطر

ورسول سطر

والله سطر»[٤].

ختم ﷺ رســائله، وســلمها لمن ســيقوم بحملها إلى أصحابها، وقد جاءت أقسى ردود الفعل على تلك الرســالة من عباد النار في بــلاد المجوس - فارس، ومن ملكهم المتعجرف (كســرى) وقد حمل هذه الرسالة الصحابي الجليل صاحب الدعابات (عبد الله بن حذافة السهمي) الذي أمر أصحابه يوما بأن يقذفوا أنفسهم في النار (ممازحاً) وكانت مهمة عبد الله مقتصرة على تســليم الرسالة إلى عظيم البحرين، والذي طلب منه النبي ﷺ تسليم الرسالة بدوره إلى كسرى، فما هو:

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٤) صحيح البخاري ج:٣ ص: ١١٣١.

ملــك معتوه لم يكــن يتمتع بلياقة أدبية، ولا حتى دبلوماســية تؤهلــه لقيادة أمة عظيمة كأمة فارس.. كان كسرى كتلة من الغرور.. لم يُجد خطاب النبي ﷺ في تذكيره ببشــريته، وقدرة الله عليه. قرأ كتاب رسول الله ﷺ فاستشاط غضباً وغروراً.. كيف يبعث عربي إليه رسالة يقدم فيها مطالب، بدلاً من أن يبعث له بفروض الطاعة والولاء مقرونة بالهدايا والضرائب..!!؟

هــذا مــا لا يحتمله رجل وثني يعبــد حطبا محترقاً.. رجل عــديم الاحترام مثل كســرى. يقول أحد الصحابة: « إن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة الســهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه»[1] و«خرقه»[2] غير آبه به ولا بمن كتبه.

أمــا النبي ﷺ فواصل كتابة الرســائل مبشــراً الدنيا بعــودة التوحيد النقي إلى الأرض من جديد فكتب:

رسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية

وهو أمير القبط، أو الأقباط، وهم سكان مصر، وقد تحول بعضهم من الوثنية إلى المســيحية، وكان ملكهم أكثر تهذيباً وأكرم خلقاً من ذلك المجوســي الأرعن.. المقوقس «أمير القبط أهدى إلى رســول اللــه ﷺ جاريتين وبغلة، وكان يركــب البغلة بالمدينة، وأخذ إحدى الجاريتين لنفسه»[3] فأسلمت وتسراها النبي ﷺ، وقد تردد في المدينة أن قبطياً له قرابة منها رضي الله عنها يزورها ويتردد عليها، فدخل الشك إلى النبي ﷺ «فقال رســول الله ﷺ لعلي: اذهب فاضرب عنقــه. فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

(٣) حديث حســن رواه الحارث - زوائد١-٥١١ حدثنا خالد بن خداش نا حاتم بن إســماعيل عن بشــير بن مهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ورواه في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧ والطبراني في الأوسط ٤-٣٧ من طريقين عن حاتم.. به وهو سند قوي لولا لين في بشير وهو صدوق من رجال مسلم، وله شاهد ضعيف من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن رجل مجهول.. في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧.

فيهــا. فقال له علي: اخرج. فناوله يده، فأخرجه فإذا هو مجبوب»[1] «فكف علي عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب»[2].

حملــت تلك الفتاة القبطية، فكانت أول امرأة تحمــل منه ﷺ بعد زوجته خديجة رضي الله عنها.. تلك هي هدية المقوقس الذي رفض الإسلام، لكنه كان مهذباً في رده. أما أكثر الرسائل إثارة فكانت تلك التي حملها الصحابي دحية الكلبي إلى ملك الروم.

انطلق دحية الكلبي إلى عظيم بصرى في الشــام، والذي ســيقوم بدوره بإيصال الرســالة إلى ملك الروم هرقل، وكان قد ســبقه إلى أرض الروم - الشــام زعيم مكة وقريش أبو سفيان، لا لشيء سوى التجارة فقط.

تصادف وجود أبي ســفيان مع وصول الرســالة النبوية الكريمة، لن يقص دحية ما حدث.. زعيم قريش أبو ســفيان الذي كان حاضراً في بلاط الروم هو من سيروي لنا القصة، حيث اســتدعاه هرقل لطرح بعض الأسئلة عليه حول شخصية النبي ﷺ، بصفته رجلاً من قومه ومن أعرف الناس به.

لكن ســؤلا ملحاً يتجول على طريق الشــام هو: كيف يســافر أبو سفيان وتجارته بأمان..؟ صحيح أنه لن يخرج أحد من المدينة لاعتراضهم، لكن في الطريق أمر مرعب ومخيف.. أسدان جريحان يتلمظان لانتزاع حريتهما وما سلبته قريش منهما، وهما في حــل من ذلك كله، والنبي ﷺ في حل ممــا يفعلانه، ومن الظلم إلصاق صفة الإرهاب وقطع الطريق بهما.

هما طريدا الفكرة والعقيدة.. صودرت أموالهما وأولادهما وأوطانهما، وحريتهما، ومنازلهما، وليس لهما على هذه الأرض سوى مساحة بالكاد تتسع لأنفاسهما وسيفيهما، لكنهما ليســا في أزمة كأزمة قريش، لأنهما يحتســبان معاناتهما عند الله، أما قريش فتعيش أزمة لا حل لها سوى العار.

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩ والركي هو البئر، والمجبوب هو من لا يستطيع الزواج.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩.

تكمن في انهيار اقتصادها، وتعذر تسيير تجارتها، وعزلتها عن العالم. ولا مخرج لها من ذلك كله إلا خلال بوابة العار المخزية، وهي التنازل عن شرطها في منع المؤمنين من اللحاق بدولتهم ونبيهم ﷺ، وهذه هي القصة بالضبط:

انفلت (أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت)[1]. وهاهم اليوم يمحون باطلهم بأيديهم، ويتنازلون عن جورهم الذي ارتد طعنات من أبي جندل وأبي بصير في صدورهم.

لحق أبو جندل وأبو بصير ومن معهما بالمدينة، ليمارسوا حرية الحركة والمعتقد في أجواء نقية.. بعيدة عن الخرافة والظلم والجاهلية، وانطلق الكثير من الممنوعين نحو مهوى الفؤاد محمد ﷺ ومدينته المنورة بالحب والأنصار، وعادت لقريش حرية التنقل نحو الشام واليمن، بعد أن أمنت فتك أبي جندل ورفاقه.

هذا هو سبب انطلاق أبي سفيان في رحلة صيفية نحو الشام ليتزامن وصوله مع وصول:

رسالة النبي ﷺ إلى هرقل الروم

كان ﷺ يريد استثمار فترة التواضع لله التي يمر بها هرقل ملك الروم، بعد انتصار جيشه على جيش فارس، حيث عاد ذلك الملك من مدينة حمص إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام شكراً لله.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٩٧٧.

يقول أحد الصحابة: « إن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحداً من قومه لأسألهم»[1].

وهنا يكمل أبو سفيان القصة فيقول: «انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ... فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل، وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم.

فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا.

فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه.

قال أبو سفيان: وايم الله لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبت. ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: يزيدون أو ينقصون؟

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

قلت: لا بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟

قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال أبو سفيان: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه[1].

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟

قلت: لا.

ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم؟ فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم. وسألتك هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت أن لا. وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟

(١) أي أنه لم يستطع أن يقدح فيه ﷺ إلا في قوله: أنه لا يدري هل سيغدر في المستقبل أم لا.

فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال أحد هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم[1] بقول قيل قبله.

ثم قال: بم يأمركم؟

قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال: إن يك ما تقول فيه حقاً، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم:

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ إلى قوله ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط وأمر بنا فأخرجنا.

فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر أمرُ بن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر»[2]. «والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر»[3]

لكن أبا سفيان مخمور بالزعامة والسلطة التي تخول صاحبها تشويه الحقيقة وتبرير رفضها.

(١) يعني قلّد قول أناس قبله.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

لم ينتفع هرقل بتلك الرسالة، لكنه يشعر بوخزها المؤلم في ضميره، ولم يكن أبو سفيان أحسن حالاً منه. أما النبي ﷺ فلم يكن يعقد آمالاً على عناد كهذا.. كان يتطلع إلى مساحات خصبة يقف هذان العنيدان حراساً للقحط وتغييب الأخضر عنها. لكن لا يأس مع الدعوة، ولابد للحق أن ينتشر وينتصر ولو متأخراً، فالتأخير مجرد تمحيص للضمائر والأتباع، والتأخير في حقيقة الأمر هو اتجاه نحو الجذور، وسفر خلال الأعماق كي تتعالى شجرته في السماء، بعد أن تتمكن في الضمائر والعقول والوجدان. أما تلك النباتات التي تظهر فجأة وبسرعة، ودون رصيد جذري فما هي إلا ريح واحدة وتختفي.

لم يكن في رسائل النبي التهديد بقوة عسكرية، أو زحف أحمر لا يرحم.. كانت الرسائل موجهة نحو الضمير والعقل.. كانت رسائل تهز من الداخل، وتغزو من العمق، فليس هناك من يستطيع اليوم تهديد هرقل أو كسرى، لكنها رسالة الإسلام التي لا تعرف حدوداً. وقد أدرك هرقل أنه إن لم يستقبل الحق اليوم فسوف يستقيل له غداً، وأدرك أبو سفيان من قول هرقل ما كان يرفض إدراكه منذ سنين، فالقريب دائماً لا يقنع بإبداع القريب منه، إلا بعد أن يرى اعترافات الأبعد والأقوى تنهال على قريبه المبدع، والنبي ﷺ لم يكن ليضيع أوقاته في إقناع المعاند والحاسد، فالإسلام والزمن كفيلان بهما، وبعد أن وصلت تلك الردود إلى مسامع النبي ﷺ قال لأصحابه وحياً صادقاً، وبشرى لن تتخلف..

قال ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[1].

أما النجاشي فلا أدري ما رده على الرسالة التي وصلته، لكن يبدو أن الرسالة الموجهة إلى هرقل أحدثت تداعيات مزعجة ومقلقة للنبي ﷺ ولدولته، مما جعله يعد جيشاً لملاقاة طموحات الروم بإيقاف النبوة والإسلام وتداعيات الرسالة.. النبي ﷺ يعد الآن جيشاً للتوجه للشام، لكنه قبل ذلك يقوم بـ:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٣٥.

إرسال عبد الله بن رواحة إلى خيبر

أرسله عليه السلام لكي يقبض نصف المحصول السنوي من زراعة أرض خيبر.. حسب الاتفاق المبرم بين النبي ﷺ واليهود، والذي على أساسه أبقاهم هناك ولم يطردهم منها، وكان عبد الله يقوم بذلك عن طريق الخرص، نظراً لاستحالة الوزن والعد، والخرص هو تقدير الثمر وهو على رؤوس النخل.

وفي هذا العام حاول اليهود رشوة ابن رواحة، حيث «كان عبد الله ابن رواحة يأتيهم كل عام يخرصها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه. فقال: يا أعداء الله أتطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض»[1] وبهذا العدل قام الإسلام وانتشر، وبغيره تنهار دولته مهما تدين أصحابها وصاموا وصلوا وادعوا أنهم أهل الإسلام وحماته، وإلى العدل أرسل ﷺ أصحابه المعذبين ذات يوم.. إلى رجل في الحبشة يعلق الصليب على صدره، لأنه عادل لا يظلم عنده أحد.

عاد ابن رواحة إلى المدينة محملاً بنصيب دولة الإسلام من التمر، وعاد اليهود إلى بيوتهم بعد أن فشلت رشوتهم في بث الفساد المالي بين رجال دولة محمد.. هذه الدولة التي تزرع رقابة الله قبل أن تزرع الخوف من السلطة والحكومة.. عاد اليهود يخططون لجريمة جديدة ضد رأس الدولة، وأخيراً فكر اليهود بـ:

سحر النبي ﷺ

ولم يجدوا أنسب للقيام بهذه الجريمة من خادم للنبي يدعى «لبيد بن أعصم، رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً»[2] وقد كان يخدم النبي عليه السلام ويثق

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان ١١-٦٠٨ والطبراني ٢٤- ٦٧ والبيهقي ٩ - ١٣٧ وغيرهم من طرق عن الثقة حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، وعبيد الله ثقة ثبت من أوثق الناس رواية عن نافع - التقريب ٣٧٣.

(٢) صحيح البخاري ٥ - ٢١٧٥.

بــه رغم أنه يهودي، وقد خضع هذا الخادم لإلحاح اليهود، فأحضر لهم مشــطه عليه السـلام وبه شيء من مشاطه، أي الشــعر الذي يعلق بالمشط، ووضعه في وعاء للقاح النخل يســمونه (جف طلعة)، ثم قرأوا عليه تعاويذ السحر بمساعدة الجن، ثم أخذوه إلــى مكان لا يمكــن لأحد أن يعثر عليه.. مكان غائر كحقــد اليهود. لقد خبأوه تحت صخرة يســمونها (رعوف) وهــي الصخرة التي توضع في أســفل البئر، فبدأ مفعول السحر يسري في جسد النبي ﷺ فقط لا غير.

تقول «عائشــة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن»[1] أي أنه أثر على جسده فقط، أما الوحي والتبليغ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكن هذا السحر أثر على النبي ﷺ جسدياً، حيث إنه حرمه من الاتصال بنسائه أياماً، لكن الله لم يترك نبيه.

تقول عائشة: «كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، فقال: يا عائشــة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما اســتفتيته فيــه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟

قــال: مطبوب. قال: ومــن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل مــن بني زريق حليف ليهود كان منافقاً. قال: وفيم؟ قال في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان.

فأتى النبي ﷺ البئر حتى اســتخرجه، فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين، فاستخرج فقلت: أفلا - أي تتشرت[2]؟ فقال: أما والله فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[3].

ويــروي زيد بن أرقم تفاصيل إخراج الســحر فيقول: «ســحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى، فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء به، فأمره أن يحل العقد وتقرأ آية.

---

(١) صحيح البخاري ٥ - ٢١٧٥.

(٢) اي افلا استعملت رقية لحل السحر.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢١٧٥.

فجعل يقرأ ويحل، حتى قام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال[1]، فما ذكر رسول الله ﷺ لذلك اليهودي شيئاً مما صنع به، ولا أراه في وجهه»[2]. أي أن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل، ولم يشعره حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمر له شيئاً، فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفســه. فلم يعد لليهود من وزن، وقد تلاشت قواهم فأصبح همه عليه السلام موجهاً للقوى العظمى، التي سيطول الصراع معها في المستقبل، ومنها قوة الروم، لذلك أعد جيشاً لملاقاة الروم الزاحفين نحوه، في مكان شمال المدينة يقال له:

مؤتة

هيأ النبي ﷺ جيشــه، وعين له قائداً هو ابنه ســابقاً، ومولاه حالياً زيد بن ثابت رضــي الله عنه، فهــو لن يذهب معهم هذه المرة. لكنه عين بدلا منه أميراً أثار حفيظة بعض الصحابة رضي الله عنهم وتساؤلاتهم: كيف يعين زيد بن حارثة الرقيق أميراً!!

لكــن النبي ﷺ الذي قدم لأمته درســاً في هدم الجاهليــة بتزويج زيد من زينب الســليلة.. يقدم درســاً آخر.. هاهو يوليه الإمارة على صحابته، وعندما تحركت آثار الجاهلية في بعض النفوس أطفأها عليه السلام بكلمات كالمطر.. حلف بالله أنه أهل للإمارة وإن طعن فيه من طعن، ثم قال لهم: (وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي)[3]

زيد الذي ملأ ســمع النبي وبصــره وقلبه.. زيد حب النبــي ﷺ الذي تقول عنه عائشــة: «ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو كان حياً بعده لاستخلفه»[4]

---

(١) أي كأنه أطلق من حبل مربوط به.

(٢) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-١١٥ وغيره من طرق عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم. والأعمش معروف وشيخه تابعي ثقة سمع زيد. التقريب ٦٠٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٤٤٤.

(٤) ســنده قوي رواه ابن أبي شــيبة ٦-٣٩٢ وأحمد ٦-٢٨١ عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد عن وائل بن داود سمعت البهي يحدث أن عائشة. ووائل التيمي وشيخه البهي تابعي ثقة انظر التهذيب والبهي عن عائشة على شرط مسلم.

زيـد الذي يقول عنه أحد أفراد هذا الجيش: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزل في القرآن ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾»(١).

فمن مثل هذا الأمير وهو يتزين بهذه النياشين، ومن مثله وهو يسكن هذه القصور في قلبه ﷺ.

تلاشت الجاهلية وحضر الإسلام، وفرغ عليه السلام من إعداد الجيش، ثم خرج لتوديعهم مبكراً وهي سـنته ﷺ، وجعل زيد بن حارثة أميراً عليهم، ثم قال لهم «رسول الله ﷺ: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»(٢)

إذاً هذه أول غزوة يشارك فيها جعفر رضي الله عنه بعد قدومه من الحبشة، وهي كذلك أول غزوة يشارك فيها فارس الإسلام الجديد خالد بن الوليد.. يا لها من أسماء تهـز الأرض، ويا له من وداع يأخذ بنياط القلب. كيـف لا وهذا الجيش القليل ذاهب لملاقاة جيش الروم الذي هزم جيش فارس..؟ كيف لا والوداع كان لزيد وجعفر..؟

زيد يودع النبي ﷺ ويودع ابنه أسـامة، وينطلق نحو مؤته، أم نحو موته والجنة..؟ وجعفـر الذي عانى الآلام والغربة والبعد يـودع ابنه عبد الله ونبيه ﷺ، وعبد الله بن رواحة.. شـاعر الموت الذي ردد الخندق شـعره، وتغنى به شـهداء خيبر وفرسانها.. الشـاعر الذي قال أحد أفراد هذا الجيش إن النبي ﷺ قال عن شعره «إن أخا لكم لا يقول الرفث، يعني بذاك بن رواحة قال:

وفـيـنـا رسـول الـلـه يـتـلـو كـتـابـه ... إذا انـشـق مـعـروف مـن الـفـجـر سـاطـع
أرانـا الـهـدى بـعـد الـعـمـى فقلوبنا ... بـه مـوقـنـات أن مـا قـال واقـع
يـبـيـت يـجـافـي جـنـبـه عـن فـراشـه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع»(٣)

وقبـل انطلاق أمراء مؤتـة تقدم جعفر رضي الله عنه بأمنيـة أملتها عليه قرابته من رسـول الله ﷺ.. أبو قتادة كان هناك يرى ويسـمع «أبو قتادة فارس رسـول الله ﷺ قال: بعث رسـول الله ﷺ جيش الأمراء، وقال: عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفـر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد اللـه بن رواحة. فوثب جعفر فقال: يا

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٨٤.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٤.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٧٨.

رسول الله ما كنت أرهب أن تستعمل علي زيداً. فقال: امض فإنك لا تدري أي ذلك خير فانطلقوا»[1] حتى وصولوا إلى أرض (مؤتة) وهي قرية من قرى البلقاء بالشام، وهناك واجهوا أمواجاً بشرية تدفقت من أرض الروم، واستعدت وأعدت، ولا أدري بالضبط عددهم، لكن الذي أعرفه أن عدد المسلمين كان قليلاً جداً جداً بالنسبة لجيش الروم، أما من حيث الاستعداد فلا يمكن مقارنة جيش دولة الإسلام التي تبلغ الثامنة من عمرها، بجيش إمبراطورية الروم ذات القرون، والتي تسيح جيوشها بين قارتين. وهنا ترد الإشكاليات العسكرية والسياسية التي تداعت على دولة الإسلام أثناء أزمة الخندق.

ما القرار في مثل حال مؤتة

جيش رومي أوله في أوروبا وآخره في مؤتة.. أمام جيش مسلم لا أظن أن عدده يتجاوز الألفين، وهو العدد الذي حضر الحديبية وخيبر، بالإضافة إلى القادمين من الحبشة والمؤمنين الجدد. مع ملاحظة أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وكثيراً من كبار الصحابة رضي الله عنه لم يشاركوا.

إنها معركة أشبه بالأساطير، لكن القرآن نزل ليطبقه البشر، لا ليدهشهم فقط.. القرآن يتعامل مع مثل هذا الظرف بواقعية تناسب البشر وقدراتهم وعددهم، والأدوات المتاحة بين أيديهم.

نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[2].

و«لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مئتين، ومئة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٥-٢٩٩ وغيره من طريق الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير قال قدم علينا عبد الله بن رباح حدثنا أبو قتادة: عبد الله تابعي ثقة وتلميذه تابعي صدوق يهم قليلاً والأسود وسليمان ثقتان وكلهم من رجال التقريب.

(٢) الأنفال ٦٥.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [1] وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم، وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم أن يقاتلوا، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم»[2] أي ينسحبوا من مواجهة العدو ويلتحقوا بباقي المسلمين، وهو ليس كالفرار، فالفرار هروب إلى أي جهة، أما التحيز فانسحاب منظم هدفه الإبقاء على قوة الجيش المسلم عند تعذر المقاومة.

جيش المسلمين الآن معذور في التحوز والانسحاب، نظراً لأن عدد الروم يعادل أضعاف أضعاف عدد المسلمين وعدتهم، وهو ما ينبغي ملاحظته عند التحدث عن الجهاد، فالجهاد ليس مجرد حماس وشجاعة فقط، فعندما تأمل أحد الصحابة جيش الروم.. وجد أن الروم لم يكونوا وحدهم.. معهم أبناء جلدتهم وديانتهم الذين لا يتخلون عنهم.. معهم جيوبهم المتغلغلة في أراضي المسلمين في كل زمان ومكان.

نصارى العرب يقاتلون مع الروم

ظروف قاسية للغاية، فالحرب الآن ضد النصارى العرب والروم، ويبدو أن المعارك تقفز نوعياً إلى مرحلة المجابهة مع الدول الكبرى، التي غالباً ما يصيبها الهلع والغضب من انتشار أفكار تخالف أفكارها، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالدين.

كان الصحابة يأخذون قسطاً من الراحة، ويتناولون شيئاً من الطعام. أحد المجاهدين تبرع بذبح ناقته ليطعم بعض أفراد الجيش، وكان ضمن هؤلاء رجل من أهل اليمن لا يملك إلا سيفه وإيمانه.. قدم من بلاده للمساهمة في منازلة الروم.

نهض اليمني إلى صاحب الناقة ولما وقف أمامه تقدم بطلب غريب، وكان بالقرب منه عوف بن مالك الذي يحدثنا عن قصة:

---

(١) الأنفال ٦٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في تفسيره ١٠-٣٩: حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس وهذا السند على شرط البخاري في أكثر من خمسة مواضع وابن أبي نجيح ثقة من رجال الشيخين.

صنيع اليمني

يقـــول عوف: «كنـــت فيمن خرج مع زيد بن حارثة رضي اللـــه عنه في بعث مؤتة، فرافقني مددي من أهل اليمن ليس معه إلا ســيفه، فنحر رجل من الجيش جزوراً له، فاســتوهبه المددي من جلده، فوهب له فبسطه في الشــمس على أطرافه، فلما جف اتخذه كهيئة الدرقة وجعل له مقبضاً»(١) أي جعله مثل الترس.

بعد الاستراحة قرر زيد رضي الله عنه حمل الراية وبدء القتال، فكان له ما أراد.. قاتل زيد ومن معه قتالاً أشبه بالأساطير، وبدأ فارس اليمن بتنفيذ مخططه.

يقـــول عوف: «مضينا فلقينا جموع الروم وفيهم رجل على فرس له أشــقر، عليه ســـرج مذهب، وسلاح مذهب، فجعل الرومي يغري بالمســلمين، فقعد له المددي خلف صخرة، فمر به الرومي فعرقب فرسه فخر، وعلاه فقتله وحاز فرسه وسلاحه»(٢)

لكن مهما بلغت شجاعة هؤلاء الأبطال، فهم كقطرة وسط بحر من الروم والنصارى العرب.. قاتل زيد، وقاتل بحماس من يريد اقتحام باب الجنة، لكن حبيب النبي وأمير جيشـــه حوصر بالرماح والسيوف حتى خر شـــهيداً على أرض المعركة، فالتقط الراية جعفر بن أبي طالب ليقوم بما يشبه المعجزات، وكأنه يسابق زيداً ويزاحمه على دخول باب الجنة.

جعفر

هذا المبحر في المعاناة.. المليء بالأســـرار.. الذي يخبئ الكثير للإســـلام.. يتفجر علـــى أرض مؤتـــة، وكأنه يريد تعويـــض غيابه المرير عن بدر وأحـــد والخندق، وباقي المعارك المجيدة، وكأنه يبحث عن شـــهادة كشهادة عمه حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش، وكأن فرسه تعيقه عن اقتحام الجنة..

. قفز جعفر من على ظهرها بعد ســـقوط زيد وقـــام بعقرها، فهو لن يحتاجها بعد اليوم، فليس أمامه ســـوى جحافل الروم والنصارى العـــرب والموت، وهو لا يهاب هذه

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٧٤ مختصراً ورواه وأحمد ٦-٢٧ بالسند نفسه.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٧٤ مختصراً ورواه وأحمد ٦-٢٧ بالسند نفسه.

المصطلحات، وليس في ذاكرته حروف للهرب.. عقر فرسه الشقراء وامتطى صهوة الشعر والحماس.. كان موتا يصرخ بالموت.. وشعرا يملأ الأجواء لهيباً..

يقول أحد الصحابة: «وهو أحد بني مرة بن عوف وكان في الغزاة (غزاة مؤتة) قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها	طيبة وبارداً شرابها
والروم قد دنا عذابها	كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إذا لاقيتها ضرابها»[1]

كان يقتحم الشهادة بحرقة خلال دروب لا يعرفها سواه، وعلى طريقته الخاصة والخارقة نحت تفاصيل تلك الشهادة.. لقد عقر الفرس الشقراء، ثم استقبل الروم حاملاً راية رسول الله ﷺ بيده اليمنى.. متلقياً الطعنات والضربات بالرماح والسيوف حتى قطعت يده اليمنى، وانفجر شلال جعفر يروي عطش مؤتة وشوقها للفرسان، فأخذ الراية بيده اليسرى، فهجم عليه أحدهم يريد إسقاط تلك الراية وتمكن من قطع يد جعفر اليسرى، فواصلَ احتفاءه بالطعنات وسط التكبير والدماء حتى خر شهيداً مميزاً ومدهشاً ومذهلاً.. خر جعفر ولم تخر راية رسول الله ﷺ.

وأسدل الستار على حياة هذا الشهيد القصيرة، ليحلق بعدها نحو أحلامه والجنة، ثم أخذ الراية الأمير الثالث عبد الله بن رواحة الذي شاهد تلك المناظر المروعة لأصحابه، وتلك الجموع التي لا يمكن مجابهتها إلا بالموت.

أحس عبد الله بن رواحة بشيء من التردد، لكن الشعر قام بتذكيره، فالشعر في الإسلام يعيد بناء الحياة وضخ الطاقات فيها..

ابن رواحة والشعر والجنة

كان تردده لسان حال المعركة الشرسة، والأطراف المتطايرة، والدماء التي تلون أرض مؤتة، لكن ابن رواحة يقذف مرة أخرى بالخوف وبشعر كالحتف.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-٢٨ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده قال حدثني أبي الذي أرضعني وهو أحد بني.. يحيى ثقة ووالده تابعي ثقة كان خليفة والده. التقريب ١-٢٩٢.

كان الشعر على أرض مؤتة صهوة من الأهوال.. كان الشعر وقوداً يؤجج أرض مؤتة التي تحترق بأنفاس المحاربين وتكبيرهم وصياحهم وأنينهم.

يواصل ذلك الصحابي وصفه لما رآه من أمرائه الأشاوس فيقول: «لما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه — لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه — مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة — هل أنت إلا نطفة في شنه

وقال أيضاً:

يا نفس إلا تقتلي تموتي — هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت — إن تفعلي فعلهما هديت
هل أنت إلا نطفة في شنه — قد طال ما قد كنت مطمئنة

يريد صاحبيه زيداً وجعفراً»[1]

أخذ ابن رواحة الراية والإمارة ووضع قدميه على أبواب الجنة، وفجأة حدث له شيء يفصح عن تمتع المجاهدين بالسياحة عبر الموت.. ابن رواحة يتناول الطعام وكأن القتال والموت والحياة لدى هؤلاء العظماء سياحة جميلة.

يقول أحد الصحابة: «ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم، فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا.!! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل»[2] واستشهد مع صاحبيه وفعل فعلهما.

اختفى الأمراء الثلاثة، لكن راية الإسلام ما زالت ترفرف، فقد اختطفتها يد أحد الصحابة الذين يحبون الموت في سبيل الله لكنه لا يحب الإمارة «أخذ الراية ثابت بن أقرم، أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

(١) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق انظر ابن هشام ٥-٢٨ وتاريخ الطبري ٢-١٥١.
(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق انظر ابن هشام ٥-٢٨ وتاريخ الطبري ٢-١٥١.

أين خالد بن الوليد

في وسـط هذه المعمعـة كان ابن الوليد يفتـك بالروم فرداً فـرداً، ويفتك أيضاً بالسيوف.. سيفاً سيفاً.

يقول رضي الله عنه وقد أفنى مجموعة من السـيوف على رقاب النصارى العرب وأسـيادهم: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسـعة أسـياف، فمـا بقي في يدي إلا صفيحة يمانية»[1]

ثم توجه لأخذ الراية بعد الشهيد ابن رواحة. «فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس»[2] ووقى الله بحسن تصرف خالد جيش الإسلام من انتكاسـة، لأن اسـتمرار الحرب معناها الإبادة لا محالة، فقوة الروم ونصارى العرب لا يمكن هزيمتها بمثل هذا الجيش الصغير الذي يشرب أفراده الموت كما يشربون الماء.

لم ينتصروا على جيش الروم، لكنهم أيضاً لم يهزموا، وقد قنع كل فريق بما حدث له وعليه، لكن بعض المسـلمين تمكنوا من تحقيق أهدافهم الشـخصية التي من أجلها خرجوا، أما بقية الجيش فهم يشعرون بالهزيمة، لأنهم لم يكونوا ضمن موكب أمرائهم الذين تعطروا بجراحهم لدخول الجنة. فقد مال بهم أميرهم الجديد إلى مكان آمن.

خالد بن الوليد واستراحة المحارب

خالد بن الوليد الذي ولد في عالم الإسلام أميراً.. أخذ جيشه بعيداً، وقد أسعد الروم تصرفه ذلك، فلم يقوموا بملاحقته، لأنهم ليسـوا على اسـتعداد لتقديم المزيد من الضحايا على يد جيش لا تخيفه الأرقام ولا الأجسـام، ولو كان النصارى في حالة معنوية مرتفعة لطاردوهم حتى الإبادة، لكن ذلك لم يحدث فهم يحبون الحياة كما يحب المسـلمون الجنة.. في هذه الأثناء كانت المدينة تلهج بالدعاء بالنصر وعودة المحاربين ظافرين، لكن الوحي سبق الجيش بالأخبار والبشائر والأحزان.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-٥٥٥١.

(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق .ابن هشام ٥-٢٨ ومعنى خاشى أي تاركهم.

يقول أحد الصحابة « إن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً قبل أن يجيء خبرهم، نعاهم وعيناه تذرفان»[1] كان النعي مصحوباً بالحزن والدموع والمجد ولقب خالد لخالد ابن الوليد.

خالد بن الوليد سيف من سيوف الله

«نعى ﷺ زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها بن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان[2]، حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[3]

وهذا الفتح يعني ضمن ما يعني قراراً سليماً، أو نصراً على تلك الأرض المميتة.

انتشر الخبر فانتشر الحزن والبكاء واليتم.

أحد أيتام مؤتة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.. يتحدث عن مرارة ذلك اليوم، فيقول: «بعث رسول الله ﷺ جيشاً واستعمل عليهم زيد بن حارثة، فإن قتل واستشهد فأميركم جعفر بن أبي طالب، فإن قتل واستشهد فأميركم عبد الله بن رواحة.

فانطلقوا فلقوا العدو، فأخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ففتح الله عز وجل عليه.

فأتى خبرهم النبي ﷺ، فخرج فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم لقوا العدو فأخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل أو استشهد، ثم أخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل أو استشهد، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل أو استشهد، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه،

---

(١) حديث صحيح رواه النسائي في الكبرى ١-٦١٥ والطبراني ٢-١٠٥ والبخاري ويأتي لفظ البخاري بعده وطريق النسائي هو طريق البخاري.

(٢) الذي ذرفت عيناه هو النبي ﷺ.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٣٧٢.

ثم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم»[1] أي ترك زيارتهم ثلاثة أيام، لكنه حرض مشاعر المدينة على العناية والطواف بآلامهم، فقال لمن حوله: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم»[2] ثم توجه إلى بيته مثقلاً بالحزن الشديد على أحبابه، وكانت عائشة حزينة.. تطل على ذلك المشهد الحزين، لكن حزنها لم يمنعها من الغضب على تصرف أحد الصحابة الذي لم يراع حالة النبي ﷺ.

ما الذي أغضب عائشة في ذلك اليوم الحزين

وبماذا همهمت في نفسها..؟

تقول رضي الله عنها: «لما جاء النبي ﷺ قَتْلُ ابن حارثة وجعفر وابن رواحة جلس يعرف فيه الحزن، وأنا أنظر من صائر الباب (شق الباب)، فأتاه رجل فقال: إن نساء جعفر (وذكر بكاءهن) فأمره أن ينهاهن، فذهب ثم أتاه الثانية فقال: قد نهيتهن. وذكر أنهن لم يطعنه. فقال: انْهَهُنَّ. فأتاه الثالثة قال: والله غلبننا يا رسول الله. فزعمت أنه قال: فاحثُ في أفواههن التراب

فقلت: أرغم الله أنفك، لم تفعل ما أمرك رسول الله ﷺ ولم تترك رسول الله ﷺ من العناء»[3] «ثم أتاهم فقال: لا تبكوا عليه بعد اليوم. ثم قال: ادعوا بني أخي، فجيء بنا كأنا أفرخ فقال: ادعوا لي الحلاق فأمره فحلق رؤوسنا، ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عون فشبيه خلقي وخلقي، ثم أخذ بيدي فشالها، فقال: اللهم أخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، اللهم أخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، اللهم أخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ١-٢٠٤ ومن طريقه الطبراني ٢-١٠٥ حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد عن عبد الله بن جعفر. محمد والحسن الهاشمي ثقتان - التقريب ٤٩٠ و١٦١ ووهب ووالده ثقتان ورواية والده عن قتادة ضعيفة وهذه ليست منها التقريب ١٣٨ و٥٨٥.

(٢) سنده ضعيف رواه الحميدي ١-٢٤٧ وغيره عن سفيان ثنا جعفر بن خالد المخزومي أخبرني أبي أنه سمع عبد الله بن جعفر. وظاهر السند الصحة نظراً لقول الحافظ في التقريب عن خالد بن ساره: صدوق والأصح غير ذلك انظرصحيح الموسوعة لكن له ما يشهد له.

(٣) صحيح البخاري ١-٤٣٧.

قالها ثلاث مرات. فجاءت أمنا فذكرت يتمنا؟ فقال رسول الله ﷺ: العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟»[1] كلمات كالبرد على قلوب كالهجير.

لم تكن الحال بأحسن في بيت زيد بن حارثة، حيث زوجته أم أيمن ويتيمه أسامة، الـذي ملك قلـب النبي ﷺ وعيونه، والذي قال فيه وفي والـده الفقيد ذات يوم، وهو يتحـدث عـن انتقاص البعض لـ «إمارة أبيه من قبله، وايم الله إن كان لخليقاً لها، وأيم الله إن كان لأحب الناس إلي، وأيم الله إن هذا لها لخليق يريد أسامة بن زيد، وأيم الله إن كان لأحبهم إلي من بعده، فأوصيكم به فإنه من صالحيكم»[2]

أوصى النبي ﷺ صحابته بحبيبه الأسمر، ونظر إليه فلم يملك عينيه.. فقد ذرفتا رحمة به وحزناً على أبيه.. كان أسامة حزناً يتنقل بين عينيه ودموعه وداخل قلبه.. كان منظره يدمي القلب ويوقظ الجروح. فقد « قام أسامة بن زيد بن يدي النبي ﷺ بعد قتل أبيه، فدمعت عينا النبي ﷺ، ثم جاء من الغد فقام مقامه ذلك، فقال له رسول الله ﷺ ألاقي منك اليوم ما لقيت منك بالأمس»[3]

أما بيت عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فقد شهد حدثاً لعبد الله قبل الرحيل، مما هون من انفعال أخته وخفف فجيعتها، فقبل السفر إلى مؤتة «أغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلت أخته عمرة تبكي: واجبلاه.. واكذا.. واكذا.. تعدد عليه.

فقال حين أفاق: ما قلت شـيئاً إلا قيل لي: أنت كذلك؟»[4] فكيف هي حالها الآن، وقد بلغها أن عبد الله لن يعود بعد اليوم إلى المدينة..؟

---

(١) هو باقي حديث عبد الله بن جعفر السابق.

(٢) صحيح مسلم ٤ - ١٨٨٤.

(٣) سنده مرسل وصحيح رواه أحمد في الفضائل ٢-٨٣٦ وغيره عن عن أئمة ثقات أثبات، عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم، وإسماعيل ثقة ثبت التقريب ١٠٧، وشيخه ثقة من الثانية مخضرم وله رؤية وشـيوخه كلهم من الصحابة وهو أحد من روى عن العشـرة. التقريب ٤٥٦، وقد أخطأ الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ - ٤٤٧ عندما قال

رواه البزار عن شـيخه عمر بن إسـماعيل بن مجالد وهو كذاب، فالبزار رواه عن البحر ٧ - ٩٥ عن عبد الله بن محمد المنقري: أخبرنا أبو أسامة ، عن إسماعيل.

(٤) البخاري ٤-١٥٥٥.

يقـول أحـد الصحابة «أغمي على عبـد الله بن رواحة بهـذا، فلما مات لم تبك عليه»[1] بكاء النواح والعويل الذي حدث منها في السـابق، بل بكته بكاء المؤمنة بقضاء الله وقدره، التي تحتسب ما بها من حزن وأسى عند الرؤوف الرحيم بها وبأخيها.

هـذه هي أجـواء المدينة، وتلك هي همومها، أما علـى أرض مؤتة فاليتم له طعم آخر.. الأيتام هناك لم يعودوا صغاراً، وعندما يكون اليتيم رجلاً فصفات الفقيد أعظم من أن تحيط بها جدران المنازل والقلوب.

على أرض مؤتة شعر بعض المساكين بيتم مرير.. أبو هريرة أحدهم، ولعله أكثر من عانى ووصف وباح فقال: «ما احتذى النعال، ولا انتعل ولا ركب المطايا، ولا لبس الكور بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر»[2]

قال أبو هريرة ذلك مأخوذاً بسلوك جعفر وكرمه تجاهه، وتجاه غيره من المساكين، وهو سلوك يرتقي إلى مستوى الإسلام.

أبو هريرة المسـكين، الذي نحـت الجوع على وجهه لغـة لا يقرأها إلا النبي ﷺ وجعفـر.. أبو هريرة يبكي على جعفر الممدد أمامه.. يبكي على الجود المسـجى على أرض مؤتة.. يبكي على يديه اللتين طالما قدمتا له وأعطتاه وواسـتاه، وكأنهما انفصلتا عن جسـده لتقـديم المزيد من العطاء.. يتحدث أبو هريرة عـن تلك اللغة التي يعرف تفاصيلها حبيباه محمد وجعفر فيقول: «لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رسـول الله ﷺ إلى حجرة عائشـة مغشياً علي، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون، وما بي من جنون ما بي إلا الجوع»[3]

ويقـول رضي الله عنه: «آلله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشـد الحجر على بطني من الجوع، ولقـد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فسـألته عن آية من كتاب الله، ما سـألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل. ثم مر بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل.

---

(١) البخاري ٤-١٥٥٥.

(٢) سنده صحيح رواه ابن سعد ٤-٤١ وغيره من طريق خالد الحذاء عن عكرمة عن أبي هريرة وخالد تابعي صغير ثقة وعكرمة إمام ثقة وخالد عن عكرمة على شرط البخاري.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٧٠.

ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: يا أبا هر.

قلت: لبيك يا رسول الله. قال: اِلْحقْ.

ومضى فتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبناً في قدح، فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي (وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها)

فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة..؟!! كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم[1]، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بد.

فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، فاستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت. قال ﷺ: يا أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: خذ فأعطهم.

فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فأعطيه الرجل، فيشرب حتى يروي، ثم يرد علي القدح، فيشرب حتى يروي، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر لي فتبسم، فقال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. قلت: صدقت يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب.

فقعدت فشربت. فقال: اشرب. فشربت. فما زال يقول اشرب، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً.

قال: فأرني. فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة»[2]

أبو بكر الذي تصدق بكل ماله على المساكين، وعمر الذي تصدق بنصف ماله على أمثال أبي هريرة، لم يقرءا ما خلف سؤال أبي هريرة من أنين، لكن النبي ﷺ قرأه، أما جعفر فللحديث عنه عند أبي هريرة مذاق مميز..

---

(١) أي إذا جاء أهل الصفة سأسقيهم وسيشربون ولن يبقى لي شيء.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢٣٧٠.

إنه يدافع عن نفسه وعن كثرة رواياته لحديث النبي ﷺ، فيحمله الحديث إلى بيت جعفر حيث تتدفق الرحمة والكرم فيقول: «إن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة. وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني، حين لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب.

كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شئ، فنشقها فنلعق ما فيها»[(١)]

جعفر القادم من الغربة والفقر والحبشة ينجز في عام واحد فقط أضعاف ما ينجزه البعض في أعمارهم الطويلة والعريضة.. الإنسان موقف، وجعفر أكثر من موقف.. هاهو الشاب الصغير عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقلب جسد جعفر الطاهر بعينيه، ويعدد ويحدد تلك الطعنات اللذيذة النازفة، فيدهش لكثرتها، ويدهش لمواقعها، فليس فيها على كثرتها طعنة أو رمية من الخلف.

يقول ابن عمر «أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره»[(٢)] لأنه ليس بحاجة إلى الالتفات إلى الدنيا القابعة خلفه، فقد عقر فرسه وعقر الدنيا معها.. هو بحاجة شديدة إلى هذه الجنة التي يعشقها، ويحاول شق جموع الروم المحتشدة كي يرتمي بين أحضانها، وقد دخل الجنة بطريقة غير مسبوقة، فقد شاهده النبي ﷺ في منامه فقال «رأيت جعفراً ملكاً ذا جناحين»[(٣)] ولما عاد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إلى المدينة «كان إذا سلم على ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين»[(٤)]

لكن قبل عودة عبد الله بن عمر ومن معه.. حدث خلاف حول مسألة مادية هي: أحقية الفارس بمتاع ضحيته من الأعداء.. كان هناك خلاف:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٥٩.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٣.

(٣) هذا الجزء من الحديث حسن وتخريجه طويل لذلك راجعه في موسوعة السيرة وهو عند الطبراني وابن سعد والحاكم وغيرهم.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٦٠.

فبينما يطالب اليمني بكل سـلب الفارس الرومي الذي قتله.. من سرجه المذهب، وسـيفه إلى فرسه الشـقراء. يرى ابن الوليد (قائد المعركة الجديد) غير ذلك، فتدخل الصحابي المجاهد عوف بن مالك لحل الخلاف، فلم يغير من الأمر شـيئاً، فكانت هذه القصـة التي يرويها عوف نفسـه، وكان طرفاً فيها فيقـول: «مضينا حتى لقينا الروم، ومعهم من معهم من نصارى العرب، فقاتلونا قتالاً شـديداً، ومعهم رومي على فرس له أشـقر، عليه سيف مذهب وسلاحه مذهب، فيه الجوهر، وسرجه مذهب، فجعل يغري بالنـاس، فتلطـف المددي فجلس له جانب صخرة، فلما مر به ضرب عرقوبي فرسـه، فقعد على رجليه، وخر عنه الرومي، وعلاه المددي بالسيف حتى قتله، وأخذ سلبه، فأتى به خالد بن الوليد، فلما فتح الله علينا أعطاه خالد بن الوليد السلب، وأمسك منه.

فقلت يا خالد أما علمت أن النبي ﷺ قضى بالسـلب للقاتل؟ قال: بلى. فقلت: فلم لم تعطه السلب كله؟ قال: استكثرته. قلت: لتردنه إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ. فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسـول الله ﷺ، فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد، فقال رسـول الله ﷺ: يا خالد، ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسـول الله، استكثرته. فقال رسول الله: ﷺ يا خالد، أعطه السلب كله.

فولى خالد ليفعل. فقلت: كيف رأيت يا خالد، ألم أف لك بما قلت لك؟ قال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ فأخبرته.

قال: يا خالد، لا تعطه شيئاً، هل أنتم تاركوا لي أمرائي، لكم صفوته وعليهم كدره؟ قالها مرتين أو ثلاثاً»[1]

لأن من حق الفرد مهما كان أن يشـتكي أميـره عند إمامه، وأن يحتج ويبين وجهة نظره، وأن ينكر الظلم ويحاول إزالته، وهذا ما فعله عوف بن مالك رضي الله عنه، لأن الأمير ليس معصوماً ولا مقدسـاً ولا إطـلاق في صلاحياته، لكن ليس من حق المأمور التشفي والتحدي، ووضع الغرض الشخصي ضمن أهداف تلك الأعمال النبيلة الراقية،

---

(١) حديث صحيح مر معنا تخريجه وهو عند مسلم مختصر واللفظ لأبي عوانة ١-٤٢٤٠.

وهو ما أفسد جهود عوف رضي الله عنه، لأن الأمور اتخذت منحى آخر يرفضه الإسلام.. اتخذت منحى الانتصار للذات في عمل يهم الأمة كلها ويمس مصلحتها.

تعلم الجميع من النبي ﷺ حريتهم وحدودهم، وسعدوا ببشاشة النبي ﷺ بوجوههم، وبعد أيام رأى النبي ﷺ رؤيا تحمل الفزع والسرور معاً، ورأى فيها قادة مؤتة، فقال لأصحابه: «بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بضبعي فأتياني جبلاً وعراً فقالا لي: اصعد.

فقلت: إني لا أطيق. فقالا: إنا سنسهله لك.

فصعدت حتى كنت في سواء الجبل إذا أنا بأصوات شديدة، قلت: ما هذه الأصوات: قالوا: هذا هو عواء أهل النار.

ثم انطلق بي فإذا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم تسيل أشداقهم دماً. فقلت: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم.

ثم انطلقا بي فإذا بقوم أشد شيء انتفاخاً وأنتنه ريحاً، وأسوأه منظراً. فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني.

ثم انطلق فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات. فقلت: ما بال هؤلاء؟ فقال هؤلاء اللواتي يمنعن أولادهن ألبانهن.

ثم انطلق بي فإذا بغلمان يلعبون بين نهرين. فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذراري المؤمنين.

ثم شرف لي شرف فإذا أنا بثلاثة نفر يشربون من خمر لهم.

قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة.

ثم شرف لي شرف آخر فإذا أنا بثلاثة نفر. قلت: من هؤلاء؟ قال: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ينتظرونك»[1]

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم ٢-٢٢٨ واللفظ له وابن حبان ١٦-٥٣٦ والنسائي في الكبرى ٢-٢٤٦ وابن أبي شيبة ٧ - ٣٣١ من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليم بن عامر الكلاعي حدثني أبو أمامة الباهلي سمعت رسول الله ﷺ. عبد الرحمن ثقة من رجال الشيخين. التقريب ٣٥٢ وشيخه ثقة من رجال مسلم التقريب ٢٤٩.

هذه البشـــرى لم تمنع الصحابة من الحزن على أولئك الرجال الأفذاذ و«لما اشتد جــزع أصحاب رســول الله ﷺ على مــن قتل يوم مؤتة، قال رســول الله ﷺ: ليدركن الدجال قوماً مثلكم، أو خيراً منكم، ليدركن الدجال قوماً مثلكم، أو خيراً منكم، ليدركن الدجال قوماً مثلكم، أو خيراً منكم.. ثلاث مرات، ولن يخزي الله أمة أنا أولها، وعيسى بن مريم آخرها»[1]

فــي غزوة مؤتة شــهادة ومجد للأموات، ورضى النبي ﷺ عــن أداء الأحياء، أما خالد بن الوليد فتميز بحيازته على شــرف القيادة واللقب، لكن ماذا عن رفيق خالد.. ماذا عن عمرو بن العاص؟

لا بد أنه يتحرق لخدمة الإسلام كما خدمه رفيقه ولم يكن ﷺ بعيداً عن مشاعر عمرو الداهية، ولا عن توظيف دهائه في نشر دين الله.. استدعاه، وعرض عليه قيادة حملة سميت فيما بعد بـ

غزوة ذات السلاسل

فبعد مؤتة، وذات شتاء قارس.. اُستدعي عمرو بن العاص للمثول بين يدي النبي ﷺ، فمثل وتحدث بنفســه عن ذلك الحوار مع نبيه فقال: «بعث إلي رســول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني.

فأتيتــه وهــو يتوضأ، فصعَّد فيَّ النظر ثم طأطأ، فقــال: إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة. قلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ.

فقــال: يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالــح»[2] ونعم الجيش الصالح جيش عمرو هذا.

---

(١) ســنده صحيح رواه الحاكم ٣-٤٣ حدثنا أبو بكر بن إســحاق أنبأ محمد بن شاذان الجوهري ثنا زكريا بن عدي ثنا عيسى بن يونس عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير عن أبيه. عبد الرحمن تابعي ثقة التقريب ٣٣٨ وصفوان ثقة التقريب ٢٢٧ وكذلك عيسى التقريب ١-١٠٣ وزكريا بن عدي وابن شاذان ثقتان.

(٢) سنده حسن رواه أحمد ٤-١٩٧ والبخاري في الأدب ١-١١٢ وغيرهم من طرق عدة عن موسى بن علي بن رباح عن أبيه قال سمعت عمرو بن العاص يقول. وعلي تابعي ثقة التقريب ٣٦ وابنه موسى حسن الحديث من رجال مسلم التقريب ١٨٦.

سـمع عمرو تلك الكلمات الجميلة، وأطاع قائده وانطلق بجيشه الذي كان ضمنه رجال سبقوا عمراً بالفضل والإسلام.. أمثال أبي بكر وعمر.

يقول أحد الصحابة المشاركين في ذلك الجيش: «رأيت أبا بكر رضي الله عنه في غزوة ذات السلاسل، وكأن لحيته لهب العرفج على ناقة له أدماء، أبيض خفيفاً»[1]

إذا كان أبو بكر وعمر، والعظماء أمثالهما تحت قيادة رجل لم يسلم إلا منذ أشهر، فهناك تميز لهذا الرجل في مثل هذا الموقف. فهل ستشـير ذات السلاسـل إلى الأفق الذي كان ﷺ يرمي بتصرفاته إليه..؟

كانت المدينة سـاعتها في حالة طوارئ.. كان المسجد يموج بالمعنويات والحماس، والرايات السوداء والوداع، وبلال كان في حالة تأهب لحماية النبي ﷺ.

أحد الصحابة قدم لتوه إلى المدينة، وتسـاءل عما يجـري داخلها فقال: «قدمت المدينة فدخلت المسـجد، فإذا هـو غاص بالناس، وإذا رايات سـود تخفق، وإذا بلال متقلد السـيف بين يدي رسـول الله ﷺ، قلت: ما شـأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص»[2]

رفرف الصحابة، ورفرفت الرايات خلف عمرو بن العاص منطلقين شرقاً، حتى أتوا على مشـارف بلاد طي.. عندها طلب عمرو بن العاص رجلاً عارفاً بالدروب للاستفادة منه في الوصول إلى الهدف، فأخبره الصحابة أنهم لا يعرفون سوى لص محترف وشهير يدعى (رافع الطائي) وهو أعلم الناس بالصحاري والدروب خاصة في هذه المنطقة.

رافع نفسـه يروي قصة انضمامه إلى جيش ذات السلاسـل فيقول: «بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، وبعث معه في ذلك الجيش أبا بكر

---

(١) سـنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ١-٥٧ وابن سعد من طريق مسعركدام وهو ثقة ثقة ثبت وشيخه ثقة من رجال الشـيخين، وله شـاهد فـي الآحاد والمثاني ١-٨٧ حدثني محمد بـن عبد الله بن نمير أن عبدة بن سـليمان حدثهم عن إسـماعيل عن رجل من بني أسد ورجاله ثقات ابن نمير ثقة حافظ فاضل وشـيخه ثقة ثبت التقريب ٣٦٩ و٤٩٠ وشيخه إسماعيل ابن أبي خالد تابعي ثقة ثبت من رجال الشيخين التقريب ١٠٧.

(٢) سنده حسن رواه الترمذي ٥-٣٩٢ وغيره من طرق عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث بن يزيد البكري. وهو حسـن من أجل الإمام عاصم وإلا فبقية رجاله ثقات: أبو وائل اسـمه شقيق بن سلمة الأسدي وهو ثقة مخضرم - التقريب ١-٣٥٤ وشيخه صحابي واسمه الحارث بن حسان.

وعمر رضي الله عنهما وسـراة أصحابه، فانطلقوا حتى نزلوا جبل طي، فقال عمرو: انظروا إلى رجل دليل بالطريق. فقالوا: ما نعلمه إلا رافع بن عمرو، فإنه كان ربيلاً في الجاهلية. فسألت طارقاً ما الربيل قال: اللص الذي يغزو القوم وحده فيسرق»[1]

ويذكر أحد الصحابة بعض أساليب رافع الذكية في البقاء حياً في الصحاري بعد أن ينجح في سرقاته، فيقول إنه: «كان لصاً في الجاهلية، وكان يعمد إلى بيض النعام، فيجعل فيه الماء ويضعه في المفازة»[2] للاستفادة منه بعد فراره حيث يدرك العطش من يلاحقه، بينما يرتوي هو من ذلك البيض المفرغ المليء بالماء المفرق في الصحراء.

وافـق رافـع على مرافقة جيش عمرو بـن العاص، لكن الغريب فـي الأمر أن أحد الصحابة تمكن من سرقة هذا اللص الطائي الشهير، بل وأسره وإجباره على التعلم منه. لكن قبل أن نعرف ذلك دعونا نسير مع هذا الجيش المؤمن الذي أصابه الجوع ولم يستطع رافع أن يقدم له شـيئاً من بيض النعام، لكن عوف بن مالك الأشـجعي صاحب المجاهد اليماني، وخصم خالد بن الوليد يتبرع للقيام بشيء قد يخفف من جوع بعض رفاقه.

يقـول عوف بن مالـك رضي الله عنـه: «غزونا وعلينا عمرو بـن العاص، وفينا عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فأصابتنا مخمصة شـديدة فانطلقت ألتمس المعيشـة، فألفيت قومـاً يريدون ينحرون جزوراً لهم، فقلت: إن شـئتم كفيتكم نحرها وعملها وأعطوني منها؟

ففعلت، فأعطوني منها شـيئاً، فصنعته ثم أتيت عمر بن الخطاب فسـألني: من أين هو؟ فأخبرته. فقال: أسـمعك قد تعجلت أجرك وأبى أن يأكله، ثم أتيت أبا عبيد فأخبرته، فقال لي مثلها وأبى أن يأكله، فلما رأيت ذلك تركتها»[3]

---

(١) حديث حسـن سـيأتي كاملاً بعد قليل وقد رواه الطبراني في الكبير ٥-٢١ ثنا إسـرائيل عن إبراهيم بن المهاجـر عن طارق بن شـهاب عن رافع بن عمرو الطائي وفيـه ابن المهاجر صدوق لين الحفظ من رجال مسلم لكن رواه أوثق منه كما سيمر معنا في تتمة القصة.

(٢) سنده قوي رواه الإمام أحمد ٦-٢٤ والبيهقي في الكبرى ٦-١٢٠ والدلائل ٤-٤٠٤ والروياني ١-٣٩٦ وغيرهم من طرق عن سـعيد بن أبي أيوب وابن لهيعة جميعاً عن يزيد ابن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط أخبره عن مالك بن هدم يعني عن عوف بن مالك الأشـجعي.. ابن لهيعة تابعه سـعيد وهو ثقة ثبت: التقريب ١-٢٩٢ وشيخه يزيد تابعي ثقة فقيه وشيخه ربيعة وكذلك مالك تابعيان وثقهما الإمام توثيقاً لفظياً - ١٥٩ و٤١٩.

(٣) سنده قوي رواه الإمام أحمد ٦-٢٤ والبيهقي في الكبرى ٦-١٢٠ والدلائل ٤-٤٠٤ والروياني ١-٣٩٦ وغيرهم من طرق عن سـعيد بن أبي أيوب وابن لهيعة جميعاً عن يزيد ابن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط أخبره عن مالك بن هدم يعني عن عوف بن مالك الأشـجعي.. ابن لهيعة تابعه سـعيد وهو ثقة ثبت - التقريب ١-٢٩٢ وشيخه يزيد تابعي ثقة فقيه وشيخه ربيعة وكذلك مالك تابعيان وثقهما الإمام توثيقاً لفظياً - ١٥٩ و٤١٩.

لــم يبرر الجوع لأبــي بكر وعمر وأبي عبيدة وعوف رضي اللــه عنهم أن يتناولوا لقمة شــكوا في إباحة مصدرها، وكأن الصديق يجعــل من جهالة تحديد أجرة الذبح مبرراً لتركها، وكأنه يقول لعوف: أنه لا بد من تحديد الأجرة قبل القيام بالعمل المتفق عليه، وحكمة الإسلام هي في إقصاء أسباب النزاع بين العامل وصاحب العمل، لاسيما إذا كان الإثنان من المســلمين، فالاقتصاد الإســلامي اقتصاد أخلاقي قبل كل شــيء، وليس كاقتصاد اليهود والمشركين الذين يتسم بالمراباة والاستغلال واللا أخلاقية، لكن المدهش أن أبا بكر الصديق بعد هذا كله يقوم بسلب بعض أشياء رافع الطائي.

أبو بكر الصديق يتمكن من سرقة رافع

الســرقة هنا ليســت على طريقة رافع الطائي، بل على طريقة أبي بكر الصديق، وفي وضح النهار وعلى مرأى من الجميع.

فبين جبال طي، وفي تلك الليالي والأجواء الباردة جداً كان دفء أبي بكر وعطفه يغمران رافعاً، حتى أحس بقلبه ومشاعره بين يدي الصديق.. كان رافع مأخوذاً بصاحب رسول الله ﷺ ورفيق عمره، وكأنه قد هبط عليه من السماء، حيث يقول: «لما كان غزوة ذات السلاسل قلت: اللهم وفق لي رفيقاً صالحاً، فوفق الله عز وجل أبا بكر رضي الله عنه، فكان ينيمني على فراشــه، ويلبســني كساء له من أكسية فدك، فإذا أصبح لبسه ولا يلتقــي طرفه حتى يخله بخلال»[1] أي يجمع طرفي ثوبه بعود أو إبرة، ولذلك صار رافع ينادي أبا بكر باسم مزين بالذكريات.. كان يناديه: (يا ذا الخلال)

ويواصــل رافــع حديثه فيقول «رافقــت أبا بكر في غزوة ذات السلاســل، وعليه كســاء له فدكى يخله عليه إذا ركب، ونلبســه أنا وهو إذا نزلنا»[2] كانت مشــاعر أبي

---

(١) سنده صحيح رواه الضحاك في الآحاد والمثاني ٤-٤٤٢ حدثنا إبراهيم بن حجاج السامي ثنا عبد الوارث بن ســعيد نا محمد بن جحادة عن طلحة بن مصرف عن ســليمان الأحول عن طارق بن شــهاب عن رافع الطائي. سليمان بن أبي مسلم تابعي ثقة وتلميذه طلحة ثقة قارئ فاضل ومحمد بن جحادة ثقة من رجال الشيخين وعبد الوارث العنبري ثقة ثبت وشيخ الضحاك ثقة وكلهم من رجال التقريب..

(٢) سنده صحيح رواه ابن أبي عاصم في الزهد ١-١٠٨ حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا وكيع وأبو معاوية المعنى واحد قالا حدثنا الأعمش عن ســليمان بن ميســرة عن طارق بن شهاب عن رافع.. في هذا السند أرانــي لا أحتاج لترجمة هؤلاء الأئمة ســوى ســليمان وهو ثقة قاله ابن معين. الجــرح والتعديل ٤-١٤٣ وللحديث شواهد مضت أسانيده معنا.

بكـر الفياضة تعرف طريقها إلى أحوج الناس إليها، ولم يكن هناك أحوج إلى الرعاية والعطف من هذا الشقي الهائم في البراري والجريمة.

قدم لـه أبو بكر كرمـاً وعطفاً وأخلاقاً سـحرته فجعلته يتعلق بـه دون غيره.. مـارس أبو بكر دور الداعيـة الناضج الناضح بالتربية المحمدية السـخية. لم يحدثه عن الإسـلام.. جعل أخلاق الإسـلام تتحدث إليه.. تغطيه وتدفئه وتحنو عليه.. جعل أخلاق الإسـلام تقله وتظله، حتى ذهل عن كل شيء سوى الإسلام.. استحضر دفاتره وحسابات عمره، وأحصى ماله وما عليه، فرأى بقلبه الذي ولد اليوم على يد أبي بكر أشـياء جميلة ورائعة تمر بين يديه وهو غافل عنها.. رأى بذلك القلب كم هي المسافة بينه وبين هؤلاء القوم، الذي يتولى بنفسه إرشادهم إلى دربهم. كانت كالمسافة بين من يحلق في الأجواء وبين من ينحشـر في الجحور.. رايات سـوداء، لكن القلوب بيضاء ترفرف في سـعادة غامرة. لا خمر.. لا سـباب.. لا بغضاء ولا عداوة.. نظافة وطهارة وانتظام وصلاة، وحب لا مثيل له، أما هو فسـطو وقتل ونهب وغدر وخمر وفر، وحياة أذل من حياة حيوان تطارده كل وحوش الأرض.

تلـك هي حال رافع الطائي وهو يرافق جيش الإسـلام، حتـى اقتربوا من جيش المشـركين، عندها بدأت ملامح الدهشـة تحدق بعمرو بن العاص، الذي بدأ يتصرف بغرابـة أثارت الكثير من الجيش، مما حدا بعمر بن الخطاب إلى التوجه نحو عمرو بن العاص ليطالبه بتفسير مقنع، أو ليوقفه عند حد يراه عمر ومن معه رضي الله عنهم.

يقول أحد الصحابة: «بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، وفيهـم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا ينـوروا نـاراً، فغضب عمر وهم أن ينال منه [قال عمر لأبي بكـر: لِمَ لَمْ يَدَعْ عمرو النـاس أن يوقدوا ناراً؟ ألا ترى إلى هذا الذي منع الناس منافعهم؟ فقال أبو بكر دعه قائماً، ولاه رسول الله ﷺ علينا] فنهاه أبو بكر رضي الله عنه، وأخبره أنه لم يستعمله رسـول اللـه ﷺ عليك إلا لعلمه بالحرب. فهدأ عنه عمر رضـي الله عنه»[1] والتزموا

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٥ عن المنذر بن ثعلبة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه. والزيادة لابن أبي شـيبة ٦-٥٣٩ حيث توبع ابن إسـحاق تابعه الإمام الثقـة وكيع والمنذر ثقة انظر التقريب ٥٤٦ وشيخه تابعي ثقة التقريب ٢٧٩.

طاعة الأمير رغم فضل الكثير منهم عليه، وسبقهم إياه في الدخول إلى الإسلام، وكان أبو بكر رضي الله عنه أرفع الصحابة منزلة، وأعلم الناس برسول الله ﷺ، وأعلم الناس بمراده الذي خفي على كثير منهم. لذا لجأوا إليه ووسطوه بينهم وبين عمرو ابن العاص، عله يأذن لهم بإشعال النار وسط هذا الزمهرير الذي لا يخففه سوى أكوام من الحطب واللهب، فتوجه أبو بكر ليشفع لهم عند أميرهم، فكان رد الأمير أشد من ذلك الزمهرير وأقسى.

لقد «منع الناس أن يوقدوا بليل ناراً، فكلموا أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: كلمه لنا. فأتاه فقال: زملوك إلي، لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها»[1]

إلى هذه المسافة وصلت الصرامة بعمرو بن العاص رضي الله عنه.. لم يأبه لتلك الوساطة التي تقدم بها خير الأمة، رغم تقديره الشديد لصاحبها، لكن يبدو أن لدى عمرو من المبررات ما يدفع به إلى هذا المستوى من الشدة، وبالفعل فقد كان العدو على مقربة من جيش المسلمين الذي تأهب من الغد، وأخذ أوامره وخططه من أميره لينفذها كما صدرت. ودارت معركة كانت نهايتها للمؤمنين «فلقوا العدو فهزموهم»[2] وغنم المسلمون ذلك الجيش وهزموه ورأى عمرو ما بشره به رسول الله ﷺ منثوراً بين يديه، وولت فلول الأعداء منهزمة ذليلة «فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم»[3] ونهى جيشه أن يلاحق تلك الفلول المنهزمة رغم هشاشتها وسهولة أخذها، مما جعل الأمر أشد غرابة من منع إشعال النار.

لكن الصحابة لم يحتجوا هذه المرة، واكتفوا بموقف أبي بكر المتعقل والملتزم، كما اكتفى عمرو بهذا الانتصار، ثم أمر أتباعه بالعودة فأطاعوه، والجدير بالانتباه أن عمراً لم يكن أميراً حربياً يجب الالتفاف عليه والوقوف عند أوامره العسكرية فقط، بل هو إمام الجيش في الصلاة، رغم وجود من يحفظ من القرآن أكثر منه، ورغم وجود من

---

(١) سنده صحيح رواه في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي نا أبي ثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عمرو بن العاص وهذا السند صحيح مر معنا في هذه القصة وسعيد ثقة ووالده صدوق وهما من رجال الشيخين.

(٢) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣.

(٣) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣.

هــو أفضل منه، ومع ذلك التزم أبو بكر وعمر ومن معهما الصلاة خلفه، مما يؤكد أنه لا مــكان في القيادة الإســلامية للعلمانية النصرانية، فهي قيــادة لا تفرق بين الدين والدنيا.. هما مفهومان متناغمان، ومهمة القائد تكمن بتنقية الدنيا بالدين، وبإشعالها به، حيث لا مكان للرهبانية وتصوفها، ولا للمادية البحتة التي تجعل الإنســان رقماً أو كتلة تحتل حيزاً تافها من هذا الكون.

في ضوء هذا المبدأ كان عمرو بن العاص الأمير يؤم الناس في صلاتهم وجهادهم، وذات ليلــة من تلك الليالي القاتلة البرودة احتلم عمــرو بن العاص، ولما نهض لصلاة الفجــر وجد لزاماً عليه أن يســتحم، لكن الماء بارد والجو أبــرد، وحتى لو قام بعملية تسخين الماء، فالتسخين لن يزيل ضرر الاستحمام وسط هذا الجو الزمهريري القارس. في مثل هذه الأحوال تتداعى الحلول من كل جهات الأرض والسماء.

يقول عمرو: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح»[1] أما ســبب فعله ذلك فبسيط للغاية. إنه يقول: «إني سمعت الله يقول: ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما»[2] والله لا يكلف نفساً إلا ما قدر طاقتها.

يقول ﷺ: « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[3]

وجــد عمرو في القرآن فقهاً مخرجاً لما هو فيــه، أما رافع الطائي فقد وجد في صاحــب الخلال الرائعــة بوابة يهرب خلالهــا مما هو فيه من تشــرد وضياع وحياة وضيعــة، ففي طريق العودة توجه رافع بقلبه إلــى صاحب الخلال.. إلى رفيقه الرائع أبــي بكر الصديق، فكانت كلمات الصديق أجمــل ما تعلمه، وأغلى ما حصل عليه في حياته كلها.

---

(١) ســنده صحيح رواه أبو داود ١-٩٢ واللفظ له وأحمــد ٤-٢٠٣ والحاكم ١-٢٨٥ والبيهقي ١-٢٢ وغيرهم عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن جبير المصري عن عمرو بن العاص. يزيد تابعي ثقة: التقريب ٦٠٠ وشــيخه المصري ثقــة ٤٩٢ وعبد الرحمن تابعي كبير ثقة عالم بالفرائض التقريب ٣٨.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود ١-٩٢ واللفظ له وهو الحديث السابق

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٥٨.

كلمات أبي بكر لرافع الطائي

يقول رافع «انطلقت معهم، حتى إذا رجعوا من المكان الذي حاجتهم فيه أتيت أبا بكر رضي الله عنه فقلت: يا ذا الخلال توسمتك من بين أصحابك. قال: ولم؟ قال: لتعلمني.

قال: قد اجتهدت. فقلت: أردت أن تخبرني بشيء يسير إذا فعلت كنت معكم ومنكم..؟ قال: تحفظ أصابعك الخمس؟ قلت: نعم.

قال: فذكر شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة الخمس، وتخرج زكاة مالك إن كان عندك، وتحج البيت، وتصوم رمضان. قال: وخير لا تأمرن على اثنين.

فقلت: وهل تكون الإمرة إلا فيكم أهل المدر..؟ قال: لعلها تفشو فتبلغك ومن هو في دونك، إن الله لما بعث نبيه ﷺ دخل الناس في الإسلام، فهم عواذ الله وجيران الله وفي خفرة الله، إن الأمير إذا كان في قوم، فظلموا فلم ينتصر بعضهم من بعض انتقم الله منهم، ولعمر الله إن الرجل منكم يظل ناتياً عضله غضباً لجاره، والله من وراء جاره»[1]

اكتفى رافع بوصية الصديق العظيمة، المزدانة بالتوحيد والعبادة والعدل وإنصاف المظلوم، فاعتنقها وودع أصحابه مؤمناً، بعد أن صاحبهم مشركاً.. ودعهم بغير القلب الذي استقبلهم به، وبقي في أرضه ليبدأ حياة بيضاء بالتوحيد، وغاب الجيش عن ناظريه، لكنه لم يغب عن ذاكرته ووجدانه.

أما جيش ذات السلاسل فسافر كالشوق نحو المدينة، وقد تزامن وصوله مع وصول مسافر حمل معه عجوزاً من بني تميم.. تقيم في بادية يقال لها (الربذة) بين مكة والمدينة، وهي تبحث عن أحد يحملها إلى النبي ﷺ. هذا المسافر هو أحد الصحابة واسمه (الحارث بن حسان) وقد أثارت تساؤله تلك الرايات السوداء، وتلك الاحتفالية بعودة المحاربين منتصرين محملين بالغنائم وأحاديث السفر.

يقول الحارث «خرجت لأشكو (العلاء بن الحضرمي) إلى رسول الله، فمررت بالربذة فإذا عجوز منقطع بها من بني تميم، فقالت: يا عبد الله، إن لي إلى رسول

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو حديث رافع السابق.

الله حاجة، فهل أنت مبلغي إليه..؟ قال: فحملتها فقدمت المدينة»[1] فـ «دخلت المسجد فرأيت النبي ﷺ قائماً على المنبر يخطب، وفلان قائم متقلد السـيف فإذا رايات سود تخفق. قلت: ما هذا: قالوا: عمرو بن العاص قدم من جيش ذات السلاسـل»[2] «فلما نزل رسـول الله من على منبره أتيته فاستأذنت، فأذن لي، فقلت: يا رسـول الله، إن بالبـاب امرأة من بني تميم، وقد سـألتني أن أحملها إليك؟ قـال: يا بلال، ائذن لها. فدخلت، فلما جلست قال لي رسول الله: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدائرة عليهم، فإن رأيت أن تجعل الدهناء بيننا وبينهم حاجزاً فعلت.

تقول المرأة: فإلى أين يضطر مضطرك يا رسول الله؟

قلـت: إن مثلـي مثل ما قال الأول: معـزى حملت حتفها، وحملتـك تكونين على خصماً، أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد.

فقال رسـول الله: وما وافد عاد..؟ قلت: على الخبير سـقطت، إن عاداً قحطت فبعثت من يستسـقي لها، فبعثوا رجالاً فمروا على بكر ابن معاوية، فسـقاهم الخمر وتغنتهم الجرادتان شهراً [جاريتان يقال لهما الجرادتان، فخرج إلى جبال مهرة فنادى: إني لم أجئ لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت مسقيه.

فمرت به سـحابات سـود فنودي منها: خذها رماداً رمدداً لا تبق من عاد أحداً] ثم فصلوا من عنده، حتى أتوا جبال مهرة فدعوا فجاءت سحابات، وكلما جاءت سحابة قال: اذهبي إلى كذا حتى جاءت سحابة فنودي: خذها رماداً رمدداً، لا تدع من عاد أحداً.

فسمعه وكلمهم حتى جاءهم العذاب [فكانت المرأة تقول لا تكن كوافد عاد]»[3]

بعد ذلك نظر ﷺ في حاجة التميمية وحاجة حسان، ثم قابل الأمير المظفر عمرو ابن العاص بعد أن قام بعض أفراد جيشه بتقديم شكوى ضده لدى النبي ﷺ.

---

(١) حديث حسـن رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢-٢٦٠ والطبري في التفسـير: ٨-٢٢٠ و٢٢١ من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث. وهذا السـند حسـن من أجل الإمام عاصم وقد سـبق الحديث عن السند عند الحديث عن الرايات السود.

(٢) حديث حسـن رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢-٢٦٠ والطبري في التفسـير: ٨-٢٢٠ و٢٢١ من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث.. قال: وهذا السـند حسـن من أجل الإمام عاصم وقد سبق الحديث عن السند عند الحديث عن الرايات السود.

(٣) جزء من الحديث السابق.

شكوى ضد عمرو بن العاص

تقبلها ﷺ كما قبل تلك الشكوى ضد خالد بن الوليد بعد معركة مؤتة، لكن هذه الشكوى لا تحمل شيئاً من التشفي أو الانتصار للذات.. كانت شكوى ضد الأمير هدفها الصالح العام، وهي مشروعة ومبررة، ولم يشفع انتصار عمرو بن العاص له برفض الدعوى، فقد قام النبي ﷺ باستدعاء عمرو بن العاص للتحقيق معه والنظر في الشكوى، بل الشكاوى المقدمة ضده وتتلخص في ثلاثة أمور:

الأول: منعه للجيش من إيقاد النار والأجواء شديدة البرودة.

الثاني: حرمانه الجيش من غنائم مؤكدة برفضه ملاحقة فلول الأعداء الهاربة من المعركة.

الثالث: صلاته بالجيش وهو جنب دون اغتسال.

يقول عمرو رضي الله عنه: «لما رجعوا إلى رسول الله ﷺ أخبروه بالخبر وشكوا إليه. فقال عمرو: كانوا قليلاً فكرهت أن يوقدوا، فيستبين للعدو قلتهم.

وكرهت أن يتبعوا العدو، وخفت أن يكون لهم مادة فيعطفوا على الناس. فحمد رسول الله ﷺ أمره»[1] وتبين للجميع بعد نظر النبي ﷺ في اختياره لقادة جيشه، ودهاء عمرو العسكري مع مساحة الحرية الشاسعة في طرح المشاكل والشكاوى دون قمع أو مصادرة للرأي الآخر.

بعد ذلك طرح النبي ﷺ سؤالاً حول اجتهاده عندما صلى بأصحابه وهو جنب، واكتفائه بالتيمم فقط..؟

يقول عمرو: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ؟

فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً»[2]

---

(١) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.

(٢) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.

انتصارات لعمرو بن العاص في الحرب والسـلم.. خرج عمرو منها بأشياء كثيرة، لكن نفسه كانت تحدثه بنصر أكثر اتساعاً، وأعمق غوراً.

عمرو بن العاص يبحث عن مكانه في قلب النبي ﷺ

فقد قام بأعمال قياسـية في فترة قصيـرة، وهو أمر لم يكن يحلم به، بل هو من المستحيلات لو ظل عمرو قابعاً متخثراً بشركه تحت أخشابه وحجارته المطروحة فوق الكعبـة.. ولاه ﷺ على صاحبيه أبي بكر وعمر، وهو أمر لم يكن عمرو يتوقعه، ثم إنه انتصر في المعركة وأبدع في قراراته وأصاب في اجتهاده، فماذا بقي سـوى أن ينتصر على من حوله في احتلال الجزء الأكبر من قلب النبي ﷺ.

توجه عمرو بن العاص نحو النبي ﷺ بقلب يحلم بالكثير.. الكثير.

فبعد «بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر.

فعد رجالاً، فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم»[1]

عندها أدرك عمرو فضل السـابقين عليه، وأدرك أيضاً تثمين النبي ﷺ لقدراته، وأن عليه حسب عدالة هذا النبي وإنصافه أن يبذل الكثير للَّحاق بمن سبقوه بإنجازاتهم العظيمة، وذلك لأن عمْراً ليس رجلاً عادياً يقنع باعتناق الإسـلام فقط، دون أن يكون له دور في حياته الجديدة.

عمرو بن العاص ليس كهذا الرجل الذي جاء «إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام؟

فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة.

فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٨٤.

وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع، فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق»[1]

أما عمرو فيبحث عن دور يخدم به هذا الإسلام، ليعوض ذلك الفرق الذي قطعه أبـو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية المهاجرين والأنصار، وهو ممن ينطبق عليه مفهوم الخيريـة التي قدمها ﷺ لبعض الصحابة عندما قالـوا «للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أكرمهم أتقاهم. قالوا: يا نبي الله: ليس عن هذا نسألك.

قال: فأكرم الناس يوسـف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألونني؟

قالـوا: نعم. قال فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسـلام إذا فقهوا»[2] وعمرو وخالـد وأمثالهما أصحاب قرار وأدوار بـارزة في الجاهلية، فليس من المتوقع أن يخبو وهجهـم بعد إسـلامهم، ولا أن تذبل حياتهم، لأن الإسـلام مأخـوذ بتفجير الطاقات واسـتثمارها، ولكن نحو الأجمل والأسـمى. وهل هناك تفجير واسـتثمار كهذا الذي حصل عليه عمرو وخالد.. هل هناك من قطع بلمح البصر تلك المسافة التي قطعاها أو اعتلى قمة كالتي يقفان عليها، والمستقبل بالإسلام يعد لطاقات عمرو بن العاص الكثير والكثير مما لا يحلم به لو كان منبطحاً تحت أقدام هبل وبقية الأخشاب والأحجار.

هاهـو بعـد أن ترك تلك الأصنام التـي حجمته في دائرة مسـاحتها لا تتجاوز مسـاحة دائرة الطواف بصنم.. ها هو يتبختر على مشـارف أعظم دولتين في العالم فارس والروم بكل ثقة. هذا بالضبط ما كان الإسـلام يعده لأبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط لو أسلموا.

هذا ما تنبأ أبو سفيان بحدوثه وهو واقف على بلاط هرقل الروم ينصت إلى زعيم الروم، وهو يتأهب للرحيل عن بلاطه وأرضه وسـلطانه وملكه لمحمد البسـيط الذي «يخصف نعله ويخيط ثوبه ويرقع دلوه»[3] لمحمد الذي يقول عن نفسـه «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد فإنما أنا عبد»[4] لمحمد الذي يأمن عنده الخائف.

(١) حديث صحيح رواه البخاري ١-٢٥.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٥.

(٣) حديث صحيح مر معنا وهذا لفظ ابن حبان ١٢-٤٩٠.

(٤) صحيح الجامع للإمام الفقيد الألباني رحمه الله.

ذات يوم أُتي له «برجل ترعد فرائصه، فقال له: هون عليك فإنما أنا بن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحاء»[1]

ليس محمد ﷺ فقط، بل أي مسلم.. عندما يتقدم للعالم بمشروعه نبيه الحضاري.. عندما يضع نفسه خلف مشروعه لا أمامه.. عندها فقط تجد كل شيء يحبه ويخافه.. تجده يبدع يتوهج.. يعيد صياغة العالم بأحرف نقية وجديدة، أما إذا رأيت خللاً في مشروع إسلامي ففتش عمن وضع نفسه أمام ذلك المشروع لا خلفه.. عندها تتهاوى أمام عينيك القيم والمبادئ والثوابت، وينتهي بك المشهد إلى أكوام جميلة، لكن يستحيل معها الإبداع والإقناع.. لم يكن الصحابة يقدمون للعالم أنفسهم وأهواءهم.. كانوا يقدمون كتاب الله وسنة رسوله.. كانوا يضعون أخطاءهم ضمن أرصدتهم لا ضمن أرصدة الإسلام، وهو ما قفز بهم في فترة قياسية إلى حدود فارس والروم، أما قريش.. ذلك الخصم الذي كان يحتقرهم، ويطلق عليهم ألقاباً لا تليق إلا بالمجانين وقطاع الطرق.. قريش اليوم دون طرق.. دون معنويات، فالمعنويات والانتصارات والمساحات لمحمد وأتباع محمد ﷺ، ولم يبق لقريش سوى شرف الحج، وقد تحول إلى موسم يسخر من قريش وأصنامها وعنادها. قريش اليوم مكبلة بعهد مع خصمها محمد، ومحاطة بمناطق يملكها خصمها محمد، ومخنوقة بإنجازات يصنعها خصمها محمد.

فما الذي بقي لقريش سوى مكة الحزينة، والأصنام التي بدأت بالتآكل..؟ وهو في الحقيقة ليس خصماً لها، بل هي التي تصر على خصومته، وهاهو المجد الذي وعدها به يرف على أرض فارس والروم، ولكنه للمؤمنين به، أما هي فقد أعماها رمد التحديق بهبل وبقية الأخشاب والأحجار الجاثمة على أنفاسها وعقولها، كما أعمى سيد اليمامة الذي لم يكتف بالوثنية والشرك، بل أقدم على شيء خطير يؤكد به كرهه لهذا النبي ودينه:

---

(١) سنده صحيح ابن ماجه ٢ - ١١٠١ وغيره عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس ابن ابي حازم عن أبي مسعود. إسماعيل ثقة ثبت. التقريب ١٠٧ وشيخه مخضرم ثقة ٤٥٦.

الفهرس



هذه سيرة محمد ﷺ

الذي «كان أحسن الناس وجهاً.. وأحسنهم خلقاً.. أبيض مشرباً بحمـرة.. أسود الحدقة أهدب الأشفـار.. بعيد ما بين المنكبين.. أسيـل الخدين.. شديد سواد الشعـر.. له شعر يبلغ شحمة أذنيه.. أكحل العينين.. إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس لـه أخمص.. إذا وضـع رداءه عن منكبيه فكأنها سبيكة فضــة.. كان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة مذهبة.

شعره دون الجمة وفوق الوفرة.. شيبه نحو عشرين شعرة.. إذا مشــى.. كأنــه يتوكأ.. يمشي مشيــاً يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كســلان.. إذا مشى مشى أصحابه أمامه وتركوا ظهره للملائكة.

يمر بالنساء فيسلم عليهن.. يمر بالصبيان فيسلم عليهم. كان أرحم الناس بالصبيان والعيال.. كان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم.. وإذا قدم من سفر تُلقي بصبيان أهل بيته»

كان عطـراً مـن التواضـع.. كان عبقاً فـي الطرقات «لا يأنـف ولا يستكبر أن يمشـي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي لـه حاجته.. وكان مما يقوله للخادم: ألك حاجة؟

كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

إذا لقيه أحد من الصحابة فتناول يده.. ناوله إياها.. فلم ينزع حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يـده منــه.. وإذا لقي أحداً من الصحابة فتناول أذنه.. ناوله إياها.. ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هــو الذي ينزعها عنــه.. إذا لقيه أحد من الصحابة فقام معه.. قام معه حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه.. كان أكثر الناس تبسماً.

كان يعرف بريح الطيب إذا أقبل.. يعجبه الريح الطيبة.. ولا يرد الطيب.

كان أكثـر النـاس تبسمـاً.. لا يُدفع عنه النـاس ولا يُضربوا عنه.. إذا لقيه الرجـل من أصحابه مسحه ودعا له.

كان يحلب شاته ويخدم نفسه.. كان يخيط ثوبه.. ويخصف نعله.. ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم».

هــذه بعض صفاته الجميلة.. أما سيرته.. وحياته فهي سطور هذا الكتاب الذي يعرضها قصة.. لكن موثقة بالأحاديث الصحيحة المخرَّجة.


"ISBN"G:978-603-503-571-2
9 786035 035712



موضوع الكتاب: السيرة النبوية





السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة
(قراءة جديدة)

محمد الصوياني



المجلد الثاني
(٣-٤)

العبيكان
Obeikan

السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

محمد الصوياني

الجزء الرابع



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني.-

ط٥.- الرياض، ١٤٣٤هـ

٤مج.

٢٩٤ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٢-٥٧١-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٠-٥٧٥-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

١- السيرة النبوية ٢- الحديث الصحيح أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ٩٥١٦ / ١٤٣٤

الطبعة الخامسة

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/ ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥



اسمه (ثمامة بن أثال الحنفي) سيد اليمامة وبني حنيفة.. يعلنها صريحة للنبي ﷺ: «ما وجه أبغض إلي من وجهك، ولا دين أبغض إلي من دينك، ولا بلد أبغض إلي من بلدك»[1]

لم يقنع ثمامة بتلك المشـاعر فقط، بل حاول تجسيدها على أرض الواقع.. حاول أن يشـفي غليله وغليل قريش والأصنام بسـفح دماء النبي ﷺ، لكن محاولته فشلت، فدعا النبي ﷺ ربه أن يمكنه منه.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إن رسـول الله ﷺ دعا الله حين عرض لرسـول الله ﷺ بما عرض له، أن يمكنه الله منه، وكان عرض له وهو مشـرك، فأراد قتله»[2] لكنـه خاب، أما النبي ﷺ فكان كعادته لا يكتفـي بالدعاء فقط دون الأفعال، فالتوكل عنده هو القيام بالعمل بطريقة صحيحة، مع جعل النتائج كلها على الله لا على العمل، وهذا بالضبط ما قام به للإمسـاك بهذا المشـرك، الذي ملأ الحقد قلبه فأعماه عن رؤية شمس التوحيد ونهاره، ويبدو أنه كان مدفوعاً بمفكر اليمامة ومنظرها (مسيلمة الكذاب) الذي بدأ يستعد لإعلان نفسه نبياً، ونداً للنبي ﷺ، في الوقت الذي كان ﷺ يعد جيشاً ذكياً لـ:

غزو نجد

ويبدو أن هذه الغزوة مرت بمرحلتين:

الأولى: مواجهة جماعية غنم فيها المسـلمون الكثير، حيث يقول عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما «بعث النبي ﷺ سـرية وأنا فيهم قبل نجد، فغنموا إبلاً كثيرة، فكانت سهمانهم اثنا عشر بعيراً، أو أحد عشر بعيراً، ونفلوا بعيراً بعيراً»[3]

أما المرحلة الأخرى: فتتلخص في القبض على سـيد أهل اليمامة (ثمامة بن أثال الحنفي) الذي يستعد الآن للانطلاق من بلاده.. متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة، ليفاجأ بقوة عسكرية تأسره، وتأخذه معها إلى المدينة.

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٧٩: حدثني سـعيد المقبري عن أبي هريرة وسعيد بن أبي سعيد تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢٣٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وهو جزء من الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٣٦٨.

قصة مثيــرة تحمل حِكماً وأحكاماً عندما «بعث رســول الله ﷺ خيلاً قبل نجد، فجــاءت برجل من بني حنيفة يقال له (ثمامة بن أثال) ســيد أهــل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟

فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شــاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟

قال: ما قلت لك.. إن تنعم، تنعم على شاكر، وإن تقتل، تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط ما شئت.

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك.. إن تنعم، تنعم على شاكر، وإن تقتل، تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت»[١].

كان أبو هريرة ومن معه من المساكين يستمعون إلى هذا الحوار، ويتمنون لو ينتهي الأمر إلى شيء يفرحهم ويدخل السرور والفسحة على حياة الفاقة التي يمرون بها في صفتهم تلك.

يقول رضي الله عنه «فجعلنا -المســاكين- نقول -بيننــا-: ما يصنع بدم ثمامة؟! والله لأكلة من جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة»[٢]

أما النبي ﷺ، فيرى أن الدنيا بحذافيرها لا تســاوي شــيئاً أمام هداية رجل أو امرأة، فكيف بســيد اليمامة هذا. أقبل رسول الله ﷺ على أسيره فقال: «عفوت عنك يــا ثمامة»[٣] «أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المســجد، فاغتســل ثم دخل المسجد فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي.

---

(١) حديث صحيح سياتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح سياتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٣) حديث صحيح سياتي تخريجه بعد الحديث التالي.

والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إلي.

والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر»[1] «فيسره رسول الله ﷺ في عمرته، وعلمه، فخرج معتمراً»[2] بعد أن اعترف بذنبه واستحقاقه لعقوبة القتل.. أطلق النبي ﷺ ثمامة من أسره، ليقع في أسر آخر.. أسر الحب.. حب الله ورسوله ودينه وحتى أرضه وبلاده.

رافع الطائي وثمامة الحنفي وبنو المصطلق، وكثير من البشر.. قد لا يتأثرون بكثرة صلاة المسلم أو صيامه، ولا بشكل لحيته وطول ثوبه، بل قد يرونها - قبل أن يسلموا- نوعاً من تعذيب الذات من أجل الخلاص.. هذه النوعية من البشر لا تأبه بالعبادات قبل هدايتها.. هي منساقة خلف خلق جميل، وتعامل راق.. مأخوذة بالدين المعاملة، لا بالدين العبادة، وهي نوعية لا تجد أفضل من محمد ﷺ للتعامل معها.. لا تجد أفضل من محمد يتهادى خلف كلمات ربه التي تقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[3] ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[4]

تعامل ﷺ بهذا المستوى مع ثمامة فحقق قول الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[5] وقد حولت الأخلاق ثمامة إلى ولي حميم، بعد أن كان عدواً مبغضاً.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٨٠ حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وأخبرني سعيد عن أبي عن أبي هريرة وقد مر معنا.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٤) سورة النحل: ١٢٥.

(٥) سورة فصلت: ٣٤

ودع ثمامة نبيه ﷺ وأحبابه الجدد متجهاً إلى مكة بقلب آخر، وشـخصية أخرى، وأهداف أرقى وأسـمى، وكأنه اغتسـل بنهـر حياة جديدة، وتوجه نحـو مكة بعد أن «اغتسل وصلى ركعتين، فقال النبي ﷺ: « لقد حسن إسلام أخيكم»[١]

سار ثمامة نحو عمرته بقلب آخر «فلما قدم مكة قال له قائل:

أصبوت؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ»[٢]

عندها اسـتفزه بعض الحمقى من المشركين، واحتج على إسلامه، فانتفض سيد اليمامة على سـدنة الأصنام مهددا إياهم كما هددهم سـعد بن معاذ رحمه الله قبل غزوة بدر.. صرخ فيهم ثمامة وعزة الإيمان تملؤه: «ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ»[٣] قالها فكان:

أول من سن المقاطعة الاقتصادية

سـيد بني حنيفة يحاصر مكة اقتصاديا، غضباً لله ورسـوله، ودفاعاً عن الظلم الـذي لحق بأصحاب نبيه، فقال لقريـش: «وأيم الذي نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة -وكانت ريف مكة- ما بقيت حتى يأذن فيها محمد ﷺ، وانصرف إلى بلده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش»[٤]

علم النبي ﷺ بذلك فأقره ولم يعترض، فكانت سنة نبوية، وسلاحاً فعالا في وجه الظلمة والمتسلطين.. وافقه ولم يقل له: مهلا يا ثمامة فإن في مكة أناس ممن يخفون إسـلامهم.. لم يقل: ما ذنب عمـي العباس وعمتي عاتكة.أما ثمامـة العظيم فـ«رجع فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز»[٥] أي الدماء.

---

(١) سـنده قوي رواه عبد الرزاق ٦-٩ أخبرنا عبيد الله وعبد الله ابنا عمر عن سـعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة، سـعيد تابعي ثقة معروف التقريـب ١-٢٩٧ وتلميذاه أحدهما ضعيف وهو عبد الله لكن أخاه ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٥٣٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٥) سـنده قوي كما قال الحافظ رحمه الله في الإصابـة ١-٤١١ وعزاه لابن منده من طريق علباء بن أحمر ووجدته في دلائل البيهقي ٤-٨١ من طريق علباء عن التابعي الثقة عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما وعلباء صدوق من رجال مسلم: التقريب ٣٩٧

(ادفع بالتي هي أحسن) كلمات قليلة حولت أرض اليمامة إلى ربيع في قلب النبي ﷺ وسيف في يده، أما قريش فـ:

قريش تأكل الدم
بسبب حصار اليمامة الاقتصادي

بعد أن دعا النبي ﷺ عليها، فكان ثمامة استجابة الدعاء، وعندما أشرفت قريش على الهلاك انطلق زعيمها أبو سفيان كارهاً.. مستغيثاً بالمدينة.. باحثاً عن مخرج لأزماته المتسارعة والثقيلة مستغلاً قرابته ومصاهرته للنبي ﷺ علها تنقذه مما هو فيه.

أبو سفيان في المدينة

يطلب الرحمة من هذا الحصار ويستغيث وقد علم عبد الله بن مسعود بمجيئه فقال: «إن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف. فأخذتهم سِنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان. فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾»[1]

استمر الوضع على ما هو عليه «حتى جهدت قريش فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم، أن يكتب إلى ثمامة يخلي حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ»[2] وعفا عنهم.

لكن قريشاً لم تنتفع بذلك العفو ولم تتعظ.. لم تستوعب الدرس جيداً، فقد فقدت مبررات البقاء على جاهليتها ووثنيتها، ولم يبق لها سوى العناد.. العناد آخر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٧٩١.

(٢) حديث صحيح وهو آخر حديث ابن إسحاق السابق.

أســوار قريش التي بقيت لها، لكن العناد تحول إلى قشــرة خفيفة تســتر بها فضيحة الشرك وعيوبه.

كانت الجزيرة العربية وما حولها تترقب نهاية حاســمة وقريبة، فلم يبق في صف قريــش إلا حلفاء الأصنام.. الذين وقعوا معها حلفاً بعد صلح الحديبية وهم (بنو بكر) لكن يبدو أن الظروف لا تســاعد قريشاً كثيراً، فحتى هؤلاء الحلفاء لم تعد لهم أهمية تذكــر. فقــد تحولوا إلى فخ يدني قريشــاً كل يوم من حتفها. حتى جــاءت تلك الليلة المشؤومة على قريش، و على حليفتها بكر.. عندما قررتا الانتحار عند نبع الوتير.

ليلة المؤامرة على خزاعة عند نبع الوتير

في ساعة كالغدر اتفق الطرفان قريش وبنو بكر على استغلال الليل، للغدر بالقبيلة التي حالفها المسلمون عند توقيع صلح الحديبية، وهي قبيلة (خزاعة) ومباغتتها. وقد خطط طرفا المؤامرة لتتم العملية بسرية لا يعلمها النبي ﷺ ولا حتى خزاعة، وبسرعة خاطفة وكأنها من بقايا السلب والنهب الجاهلي.

يقول أحد الصحابة «كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش: أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل. فتواثبت خزاعة فقالــوا: نحن ندخل في عقد محمد وعهده. وتواثبت (بنو بكر) فقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم.

فمكثوا في تلك الهدنة نحو الســبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم.. وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً، بماء لهم يقال له (الوتير) قريب من مكة.

فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد. فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح، فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ»[1] والنيل منه ولو معنوياً.

---

(١) ســنده صحيح رواه ابن إســحاق ومــن طريقه البيهقي في الكبرى ٩-٢٢٣ حدثنــي الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمســور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً وهذا الســند هو ســند البخاري في روايته لأول القصة.

لكـن ذلك الليل لم يسـتطع طمس بعـض وجوه المجرمين الذيـن مزقوا معاهدة الحديبيـة.. تلـك المعاهدة التي تطرفـوا في شـروطها، وأملوا ما شـاءوا من ظلم، وتغطرسـوا، ومع كل هذا لم يلتزموا بها.. لم يستطع الظلام إخفاء تلك الجريمة، فقد تمكن بعض رجال خزاعة من التعرف على بعض المجرمين، فأمرت خزاعة أحد رجالها واسـمه: عمرو بن سالم كي ينطلق نحو المدينة لطلب النجدة من النبي ﷺ، ففعل. ولما وقف أمام النبي ﷺ انطلق الشعر من أعماقه جمراً ومراراة واستغاثة.

الشعر يستغيث النصر لخزاعة

يقول أحد الصحابة «أن عمرو بن سالم ركب إلى رسول الله، عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير، حتى قدم المدينة إلى رسـول الله ﷺ يخبره الخبر، وقد قال أبيات شعر، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشده إياها:

اللـهـم إنـي نـاشـد مـحـمـداً ... حـلـف أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلـدا
كـنـا والـــدا وكـنـت ولـدا ... ثـمـت أسـلـمـنـا ولـم نـنـزع يـدا
فـانـصـر رسـول الـلـه نـصـراً عتدا ... وادعــوا عـبـاد الـلـه يـأتـوا مـددا
فـيـهـم رسـول الـلـه قـد تجـردا ... إن سـيـم خـسـفـاً وجـهـه تـربـدا
فـي فـيـلـق كـالـبـحـر يـجـري مـزبـدا ... إن قـريـش أخـلـفـوك الـمـوعـدا
ونـقـضـوا مـيـثـاقـك الـمـؤكـدا ... وزعـمـوا أن لـسـت أدعـو أحـدا
فـهـم أذل وأقـل عـددا ... قـد جـعـلوا لـي بـكـداء مـرصـدا
هـم بـيـتـونـا بـالـوتـيـر هـجـدا ... فـقـتـلـونـا ركـعــاً وسـجـدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم.

فما برح حتى مرت عنانة في السـماء، فقال رسـول الله ﷺ: إن هذه السـحابة لتسـتهل بنصر بني كعب. وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي عليهم قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم»[1] فهذه الجريمة لن تمر دون

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٩-٢٣٣ حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسـور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً قالا.. وهذا السند صحيح مر الحديث عنه عند صلح الحديبية، وهو سند البخاري في روايته لصلح الحديبية. والزهري وعروة تابعيان إمامان ثقتان ثبتان من أشهر الأئمة.

عقـاب رادع يوقف قريش ومن معها عند حدهم، فلقد تمادت كثيراً، وكثيرا جداً، ولن يوقفهم عن تهورهم إلا إجراء بالغ الصرامة.. لن يوقف تآمرهم وكفرهم إلا:

فتح مكة

فهذا النوع من البشـر يسـتنفذ منك كل طاقات الإقناع والسلام، والعفو والحلم والحكمة، بل إنه ينظر إلى هذه الألوان السلوكية الإسلامية الرائعة على أنها ضرب من ضروب السذاجة، والسطحية والغباء تستحق الانتهازية والاستغلال والمماطلة ما أمكن، هذا النوع من البشـر لا يخضع للحق رغم سطوعه كالشمس في عينيه، لكنه يسرع إليه إذا رأى شعاع الشمس منعكساً على شفرة سيف حاد.

ولأهمية هذا الأمر لم يعلن النبي ﷺ لأصحابه كيف سيكون الرد، ولا متى.. حتى أهل بيته.. حتى أبو بكر وبقية الصحابة.

لا أحد يعلم هدف هذا الاستعداد ولا وجهته، فقد دخل أبو بكر الصديق على ابنته «عائشة وهي تغربل حنطة لها، فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ فقالت: نعم، فتجهز. فقال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئاً، غير أنه قد أمرنا بالجهاز»[(1)]

ثم صـدرت أوامر النبي ﷺ للمهاجرين والأنصار جميعاً بالتأهب، فامتثلوا، وبعث ﷺ إلـى قياداتـه من بني سـليم ومزينة، فتطوع من بني سـليم حوالي السـبعمائة، أما مزينة فتجـاوزوا هـذا العدد ليصلوا إلى ألف مقاتل، وتداعت القـوات من كل مكان في الجزيرة، حتـى توافر لدى النبي ﷺ قوة ضاربة قوامها عشـرة آلاف مقاتل.. كل ذلك وهم لا يدرون إلى أين سيتوجه بهم النبي ﷺ.

المدهش في الأمر أن شهر رمضان قد دخل على الأمة، فلم يتزحزح النبي ﷺ عن قراره بغزو مكة وتخليصها.

يقول أحد الصحابة عن عدد القوات المتوافرة: «مضى رسـول الله ﷺ وأصحابه عام الفتح حتى نزل مر الظهران في عشـرة آلاف من المسلمين، فسبعت سليم، وألفت

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٥-١٢ حدثنا محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة فجعفر ثقة وعروة إمام ثقة مر معنا كثيراً.

مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وقد عميت الأخبار على قريش، فلا يأتيهم خبر رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو صانع»[1] وهو مؤشـــر على مدى السرية التي أحاط بها النبي ﷺ هدف كل هذا الاســـتعداد الضخم.. الذي لم تشهد له الجزيرة العربية مثيلاً، ولا أستبعد أن يكون كبار الصحابة يرجحون أن مكة هي الهدف القادم، لكنهم لا يستطيعون البوح بذلك، لأن التلفظ به يعني مزيداً من البلبلة والإشـــاعات والإرجاف، وإعطاء العدو فرصة للتأهب، وهم يعلمون أن النبي ﷺ لا يريد ذلك كله.

لكــن أحد أفاضــل الصحابة من المهاجرين، وأحد رجال بــدر العظماء قام بعمل خطيــر جداً.. لا يقــوم به إلا منافق، أو عــدو لهذه الدولة. لقــد كان هذا الصحابي الجليــل لماحاً، ففهم من هذه الجموع والترتيبــات أن النبي ﷺ لا يمكن أن يقصد بها قبيلــة ضعيفة، أو غزوة عادية فــي الجزيرة، فقد انتصر على كل القبائل التي واجهها بســـرايا محدودة العدد.. محدودة التجهيز، لكن الأمر اليوم يحمل خلف صمت الهدف ضربة حاسمة.. ستغير وجه الجزيرة وأعماق من يسكنها، فلا يمكن أن تكون إلا أعظم قبيلة على أرض الجزيرة، ولا يمكن أن تكون إلا أقدس أرض على سطح الأرض، وهذا ما جعل انتقام قريش من ذوي المســـلمين الضعفــاء متوقعاً، وكان أهل حاطب في مكة معرضين لانتقام طواغيت قريش في حالة مداهمتهم، وربما يستغلونهم كرهائن في حالة الانكسار، وأشياء عديدة وثقيلة، كالهموم تغرز حرابها في رأس حاطب. لكن حاطباً يعلم من هذه الجموع، ومن معنويات قريش أن النصر محســـوم للإسلام وأهله، فلن يضرهم أن يتصرف بطريقة تحمي أهله، وهو يجزم أنها لن تعيق انتصار النبي ﷺ:

حاطب ينذر قريشاً معركة فاصلة

فقد كتب خطاباً «فيه من حاطب بن أبي بلتعة، إلى أناس من المشـــركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رســـول الله ﷺ»[2] ثم تســـلل رضي الله عنه إلى مكان إحدى

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٦ حدثني الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس.الزهري وشيخه ثقات أثبات التقريب ٢٧٣ و٥٠٦

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٩٥.

النساء المسافرات إلى مكة، أو أرسلها هو بذلك الخطاب، لكن ومن باب السرية أيضاً أمرها أن تخفي كتابه بضفائر شعرها، لكن جبريلاً عليه السلام نزل يخبر النبي ﷺ بصنيع حاطب، فاستدعى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم فجاءوا.

هاهو علي سوف يخبرنا بما حدث.. يقول رضي الله عنه: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة[1] معها كتاب فخذوه منها.

فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب.

فأخرجته من عقاصها[2] فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة.. يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ»[3]

أخذ الفرسان الكتاب، ثم عادوا إلى المدينة دون أن يمسوا المرأة بسوء، فهي لا تعلم عما بداخله شيئاً، ولما سلموه إلى النبي ﷺ أمر بقراءته، ثم استدعى حاطباً لمساءلته عن هذا الخطأ الشنيع.. الذي لا يفعله إلا أعداء هذا النبي ودولته وأعداء هذا الدين.

مساءلة حاطب

حاطب الآن بين يدي النبي ﷺ دون قيود.. دون ضرب، أو إهانة أو سجن على ذمة التحقيق، لكن عمر بن الخطاب كان متأهباً بالسيف لفصل رأس حاطب عن جسده، فهو في نظر عمر منافق مرتد، لكن للنبي ﷺ قولاً آخر وحلماً آخر.

خاطب صاحبه بكلمات قليلة.. «قال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ.. إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، كنت حليفاً ولم أكن من

---

(١) الظعينة هي المرأة، ويقال هي المرأة في الهودج.

(٢) شعرها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٥٥.

أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم.

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾»[1]

ما قام به حاطب رضي الله عنه خطأ شنيع للغاية، لكنه لم يكن مقروناً بنية فاسدة تحمله معها إلى حيث مراتع الردة وسيف عمر.. كان الدافع خوفاً على الأهل.. كان تصرفاً تمليه حالة ضعف بشرية يمر بها الجميع، ويتجاوزها القليل، ومع ذلك لم تفلح تلك النية السليمة في تمرير ذلك الخطأ، لكن في هذه القصة منهج للدولة الإسلامية والقضاء فيها، وردع لأي حكم بالردة والسيف، أو حتى السجن قبل المساءلة والتثبت واكتشاف الدوافع الحقيقية.

تلك الدوافع التي اكتشف حاطب أنه كان ضعيفاً جداً أمامها، واكتشف أيضاً كم هو مخطئ، وكم هي ثقيلة تلك المسؤولية التي يحملها تجاه أمته وأسرار دولته.

ندم حاطب ندماً شديداً، فوجد النبي ﷺ واحة تقول: «الندم توبة»[2] ووجد الإسلام يحتفظ له برصيد جميل أودعه أيام بدر، وما زال يتنامى، ولا يزال إلى يوم البعث، له ولبقية الصحابة الذين بذلوا كل شيء من أجل هذا الإسلام، ولا يمكن شطب

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٧.

(٢) حديث صحيح رواه ابن حبان ٢-٣٧٩ وغيره من طريق مالك بن مغول عن منصور عن خيثمة عن بن مسعود عن النبي ﷺ والحاكم ٤-٢٧٢ وغيره عن ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن حميد عن أنس مرفوعاً وأحمد ١-٣٧٦ وغيره عن عبد الكريم اخبرني زياد بن أبي مريم عن عبد الله بن معقل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ وهذه الأسانيد صحيحة.

ما بذلوه لخطأ، فهم بشر يصيبون ويخطئون، ولو كانوا غير ذلك لما بعث لهم نبي وأنزل عليهم قرآن، فرضي الله عنهم وأرضاهم ما أجملهم وأبهاهم.

أما النبي ﷺ فقد اطمأن إلى عدم وجود أي قناة تتسرب منها أخباره إلى أهل مكة، وزاد من طمأنينة الوضع دخول شهر رمضان بروحانيته وسكينته وجماله، ليضفي كل تلك الأشياء العذبة على أفراد جيشه.. ليغسلوا حماسهم بها، حتى لا يتحول الحماس إلى ثأر أو تهور، وللقوم ثارات لا يجتثها سوى تجذر الإسلام في أعماقهم، ولا يطفئ جحيمها سوى مطر الاحتساب.

ولما جاء اليوم العاشر من رمضان، وكمل احتشاد الجموع.. نادى ﷺ رجلاً من أصحابه اسمه (كلثوم بن عتبة بن خلف الغفاري) ويلقب بأبي رهم، ولما جاء عينه ﷺ أميراً على المدينة حتى يعود:

أبو رهم خليفة رسول الله ﷺ في المدينة

يقول أحد الصحابة «مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد (ماء بين عسفان وأمج) أفطر.

ثم مضى حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين»[١] و«الظهران واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها مر تنسب إلى هذا الوادي فيسمونها: مر الظهران»[٢]

ويحدد رضي الله عنه العام الذي خرج فيه النبي ﷺ فيقول إنه «خرج في شهر رمضان من المدينة معه عشرة آلاف من المسلمين، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة. فسار بمن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد وهو ماء بين عسفان وقديد، فأفطر وأفطر المسلمون معه، فلم يصوموا من بقية رمضان شيئاً»[٣] طوال مدة سفرهم.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الإمام أحمد ١-٢٦٦ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس وهذا السند صحيح مر معنا تحت عنوان فتح مكة.

(٢) انظر معجم البلدان ٤-٦٣.

(٣) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٣٧٣ عن معمر عن الزهري فأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس ومعمر ثقة ثبت التقريب ٥٤١ والبقية كالحديث السابق.

إذاً فقد «نزل مر الظهران في عشـرة آلاف من المسـلمين فسبعت سليم، وألفت مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسـلام، وأوعب مع رسـول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلـم يتخلف عنه منهـم أحد، وقد عميت الأخبار على قريش فلا يأتيهم خبر رسـول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو صانع»[1] لكن بعض فرسـان قريش يشـعرون بسكون يسبق إعصاراً مدمراً.. يشـعرون بسكون مخيف مقلق، وتحركات يجهلون هدفها بعد جريمة ارتكبها بعضهم.. تسـتحق انتقاماً فظيعاً مجهـول التاريخ. كان ليل مكة مخيفاً، وكأن الجـن تطل عليها مـن رؤوس جبالها، وكأن تلك النجوم بريـق عيون غيلان ووحوش. لـم يطق بعضهم هذا الجو الخانـق، فهرب يبحث عن محمد الذي لا ينضب عفوه ولا تتقطع أمطار تسامحه.

أبو سفيان يهرب من مكة المختنقة

إلـى أجـواء أكثر رحابة، لكنه ليس أبا سـفيان بن حرب والـد معاوية وزوج هند بنت عتبة وصهر رسـول الله. إنه (أبو سـفيان بن الحارث) وهو ابن ابن عم النبي ﷺ (الحـارث بن عبد المطلب) وقد أخذ معـه ابناً له صغير، كما خرج معه أيضاً ابن عمة للنبي ﷺ اسـمه (عبد الله بن أبي أمية بـن المغيرة) وخرج آخرون يبحثون في الأرض عن شيء يريح هذه الأنفس والأرواح المتعبة، وكأن حجارة ستهوي عليهم من السماء، أو بركاناً سينفجر من تحت أقدامهم، وذلك عندما «نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم عن رسـول الله ﷺ خبر ولا يدرون ما هو فاعل. خرج في تلك الليلة أبو سـفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون، وينتظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به. وقد كان العباس بن عبد المطلب أتى رسول الله ﷺ ببعض الطريق، وقد كان أبو سـفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رسـول الله ﷺ فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه. فكلمت أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك؟

قال: لا حاجة لي بهما.. أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٦ وهو السند السابق.

فلما أخرج إليهما بذلك ومع أبي سفيان ابن له، فقال: والله ليأذنن لي، أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فدخلا وأسلما»[1] وعفا عنهما ﷺ تلك القائمة الطويلة من الجرائم بحقه، فكان ذلك العفو جمراً قذفه ﷺ في مجمرة بين أضلع أبي سفيان بن الحارث، فتعالى الشعر من صدره ذكريات وزفرات ومشاعر حركت مشاعر النبي ﷺ فقام بحركة تنضح بالعتاب على ابن عمه وقسوته معه، وهو الذي لم يؤذه يوماً ولم يؤذ مشاعره.

«أنشده أبو سفيان قوله في إسلامه، واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك أني يوم أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليلة	فهذا أوان الحق أهدي واهتدي
فقل لثقيف لا أريد قتالكم	وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
هداني هاد غير نفسي ودلني	إلى الله من طردت كل مطرد»[2]

«فلما أنشد رسول الله ﷺ (إلى الله من طردت كل مطرد) ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: أنت طردتني كل مطرد»[3]

ضربة العتاب تلك جعلت صدره ينزف المزيد من المشاعر والشعر، ففاض أبو سفيان ندماً وحزناً وقال:

«أفر سريعاً جاهداً عن محمد	وأدعى ولو لم أنتسب لمحمد
هم عصبة من لم يقل بهواهم	وإن كان ذا رأي يلم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلافظ	مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فما كنت في الجيش الذي نال عامرا	ولا كل عن خير لساني ولا يدي

(١) سند صحيح وهو حديث ابن عباس السابق وهذا لفظ الطبراني ٨-١٠.
(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.
(٣) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

قبائل جاءت من بلاد بعيدة ... توابع جاءت من سهام وسردد
وإن الذي أخرجتم وشتمتم ... سيسعى لكم سعي امرئ غير قعدد» [١]

لم يكن الشعر وحده هناك..

الطفولة أيضاً في طريق النبي ﷺ

لئن كانت الطفولة أحد الأشياء التي يستسلم قلب النبي ﷺ لها، فإن الحديث عنها وعن براءتها يذهب عناء الطريق إلى مكة. فعلى ذلك الطريق كانت القبائل العربية تتوجس حدثاً يرفعها، أو يحطها.. كان التساؤل ممتداً على طول الطريق يرصفه حيناً، ويثير غباره أحياناً، وكان على الطريق طفل عذب كالمطر.. شغوف كعينيه البريئتين يبلغ السادسة من عمره اسمه (عمرو بن سلمة) يشده مرأى المسافرين ما بين مكة والمدينة، لكن توقد ذهنه وحافظته لا يقنع بالدهشة والتأمل كقومه.. كان يستدعي المزيد، ويحفظ الآيات بشكل ملفت، ويبدو أن ثوبه القصير جداً والوحيد يتيح له المزيد من خفة الحركة، والانطلاق لطرح الأسئلة البريئة على القوافل والمسافرين، أما والده فكان سفير قومه للمسير خلف جيش الإسلام المتوجه نحو مكان مجهول.

يقول هذا الطفل عن نفسه وعن قومه وعن عرب الجزيرة: «كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس.. ما للناس.. ما هذا الرجل؟فيقولون: يزعم أن الله أرسله أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا.

فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم[٢] بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم»[٣] أي ذهب قبل قومه للاستفسار عما يجري.

---

(١) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.
(٢) يعني ينتظرون.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٤.

لقد خرج رضي الله عنه، وقد أخرجه من مكة خوفه على تاريخ قريش ومستقبلها، ولعله بقي كل هذه المدة يخفي إيمانه للإبقاء على مكانة أهل بيت النبي ﷺ وسط قبيلة قريش، فهو آخر من تبقى من أبناء عبد المطلب العشرة، ولا يمكن أن يفرط بتلك المكانة لعبدة الأصنام من حوله فقط، فخرج العباس بن عبد المطلب خائفاً على مدينته وقبيلته من تهور تدفع ثمنه غالياً وغالياً جداً.

هاهو العباس يتحدث عن تلك اللحظات التي تحبس الأنفاس، وتزهق الأرواح وذلك «لما نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران، قال العباس: واصباح قريش.. والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال (العباس): فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت: لَعَلِّي ألقى بعض الحطابة أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كاليوم قط نيراناً ولا عسكراً!!

يقول بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب.

يقول أبو سفيان: خزاعة والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال (العباس): فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة. فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم. قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقلت: ويحك يا أبا سفيان.. هذا رسول الله ﷺ في الناس، وا صباح قريش والله.

قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك، فركب خلفي ورجع صاحباه»[1] إلى مكة.

أما العباس فكان خائفاً على صديقه أبي سفيان، وكان خوفه في موضعه، فقد رآه عمر بن الخطاب ففرح فرحاً شديداً بتمكنه منه، لكنه لا يستطيع أن يقدم على

---

(١) سنده صحيح وتخريجه في نهايته.

مس هذا التاريخ الطويل من الأذى والحرب على الله ونبيه إلا بإذن من رسول الله ﷺ. لذلك ركض نحوه طالباً الإذن بتصفية أبي سفيان فلن يجد فرصة كهذه.

عمر يريد قتل أبي سفيان بن حرب

والعبـاس يريد إنقـاذه، ويقول: «فحركت به كلما مررت بنار من نيران المسـلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟ وقام إليّ.

فلما رأى أبا سـفيان على عجز البغلة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشـتد نحو رسـول اللـه ﷺ، وركضت البغلة فسبقته بما تسـبق الدابة البطيء الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسـول الله ﷺ، ودخل عمر فقال: يا رسـول الله.. هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. قلت يا رسول الله: إني أجرته.

ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: لا والله لا يناجيه الليلة رجل دوني.

فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر.. أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف!

قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسـلامك يوم أسـلمت كان أحب إلي من إسـلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: اذهب به إلى رحلك يا عباس، فإذا أصبح فائتني به.

فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله.

قال: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً.

قال: ويحك يا أبا سـفيان.. ألم يأن لك أن تعلم أني رسـول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن»[1]

---

(١) تخريجه في نهايته.

كان العناد والزعامة والأوهام المتكلسة تغلق قلبه عن الحقيقة، لكن حد السيف جعله يتخلص منها، لأن السيف سيبيده معها كما أباد أبا جهل على أرض بدر، ثم نسي الناس من يكون أبو جهل، ونسوا زعامته وبقي محمد ومن معه، لذلك تم:

إسلام أبي سفيان

وذلك عندما «قال العباس: ويحك يا أبا سفيان أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد بشهادة الحق وأسلم.

قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً قال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[1]

لكن النبي ﷺ لم يكن يتمنى إيماناً كإيمان ابن سلول، فأبو سفيان زعيم، وإيمان هذا الصنف من الناس لا يمكن أن يتم إلا إذا واجهته بعاصفة من الحقائق يستحيل بقاؤه معها، وقد أحب ﷺ أن يقدم لأبي سفيان برهان ما قاله هرقل زعيم الروم أمواجاً تتلاطم على وجه الأرض، وتغرق الأصنام ومن يعبدها. لذا قام ﷺ بتقسيم جيشه إلى أربع كتائب أو أقسام:

كتيبة تمثل جناحاً أيمن يقودها الزبير رضي الله عنه

وكتيبة أخرى تمثل جناحاً أيسر ويقودها خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وقسم يقوده أبو عبيدة وهم الحسر الذين لا يملكون دروعاً ويبدوا أنهم في المؤخرة.

وقسم يقوده النبي ﷺ وهو قلب الجيش وأكثره، وهو عبارة عن معظم القبائل العربية.

وفرقة مدرعة ضخمة لقبت بالخضراء، لشدة سوادها من كثرة الدروع، وهي مكونة من المهاجرين والأنصار..

أما قريش فقد جمعت لها جيشاً من المرتزقة.. من بعض أفراد القبائل في محاولة كالمقامرة، بحيث إذا ما تمت المعجزة وانتصروا.. شاركوهم في الغنائم، وإن انهزموا فاوضوا المسلمين. لكن النبي ﷺ كان أكثر حزماً هذه المرة، فقد قرر حصد كل

---

(١) حديث صحيح تخريجه عند نهايته.

من يقاوم من تلك القوات المرتزقة أو من غيرهم، وخص الأنصار وحدهم دون غيرهم بتنفيذ هذه المهمة. هذا الحصد هو ما بقي من خيارات استنفذتها قريش كلها.

أبو هريرة رضي الله عنه كلف بمهمة تجميع الأنصار.. ها هو يقول: «أقبل رسول الله ﷺ فدخل مكة، فبعث الزبير على أحد الجنبتين، وبعث خالد بن الوليد على اليسرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر فأخذوا الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبته، وقد بعثت قريش أوباشاً لها وأتباعاً لها فقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا ما سألوا.

فنظر رسول الله ﷺ فرآني فقال: يا أبا هريرة.. اهتف بالأنصار، فلا يأتيني إلا أنصاري.

فهتف بهم: يا معشر الأنصار أجيبوا رسول الله ﷺ.

فجاؤوا كأنما كانوا على ميعاد، ثم قال: اسلكوا هذه الطريق، ولا يشرفن لكم أحد إلا أنمتموه[١]. فجاؤوا فأحاطوا برسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أما ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، وضرب بيده اليمنى مما يلي الخنصر وسط اليسرى وقال: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا. قال أبو هريرة: فانطلقنا، فما يشاء أحد منا أن يقتل من شاء منهم إلا قتله، وما يوجه أحد منهم إلينا شيئاً»[٢]

أما النبي ﷺ فقد أمر عمه العباس أن يأخذ زعيم قريش أبا سفيان إلى مكان، ليطل على ممر الجيش كله فيرى بعينيه قوات المسلمين، ويتأكد بنفسه من عدم جدوى المقاومة، والأهم.. حتى يتطاير ما تبقي لديه من شك في صدق محمد ونبوته.

يقول العباس مكملاً قصته: «قال رسول الله ﷺ: يا عباس احبسه بمضيق الوادي.. عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها.

فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، ومرت به القبائل على راياتها.. كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لي ولسليم.

---

(١) أي من قاومكم فاقضوا عليه.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٠٥ وابن حبان ١١-٧٤ والبيهقي ٩-١١٧ وابن أبي شيبة ٧-٣٩٧ وغيرهم واللفظ لابن حبان والزيادة للدارقطني والحاكم ٢-٦٢ من طريق سلام بن مسكين عن ثابت عن عبد الله ابن رباح عن أبي هريرة وهي زيادة صحيحة.

ثـم تمـر القبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقـول: مزينة. فيقول: ما لـي ولمزينة؟ حتى تعدت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان. فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى»[1]... حتى ماذا؟

كان أبو سـفيان ينتظر مرور النبي ﷺ محاطاً بالمهاجرين والأنصار، لأنه لا يزال يـرى أن تلـك القبائل ما هي إلا عبيد لمن غلب، وهـو يريد رؤية هذا الذي غلب، وهل بالإمكان مقاومته؟ بقي أبو سفيان متحرقاً حتى مر به سيل أسود كالموت.

النبي يمر أمام أبي سفيان

«مر رسول الله ﷺ في الخضراء، كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منها إلا الحدق، قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟

قلت: هذا رسـول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل.. لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن»[2]

إلى هذه اللحظات الحاسمة وأبو سفيان لا يزال يصر على أن الأمر زعامة وملك، وقـد أعمى العنـاد بصيرته كما هي حال الكثير من أمثال أبي سـفيان، ممن يحملون أفكاراً معادية الإسـلام.. إذا رأوا انتصار الإسلام ومده ينتشر كالطوفان، ويجرف ما تبنوه من أفكار متهالكة.. برروا انتشـاره وانتصاره بكل شـيء، إلا الاعتراف بأنه حق، ولا يمكن أن يسلم أمثال هؤلاء إلا إذا رأوا حكم الإسلام واقعاً مطبقاً، وقوة تحطم تلك الأكـداس والكثافة الغليظة من العناد، والتي لا يمكـن معها أن يصبح الفرد إلا معيقاً لكل إبداع، وفي الوقت الذي كان فيه أبو سفيان متحسراً على مجد وثني.. ينهار أمام عينيـه.. كان أول الناس إسـلاماً أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسـعد الناس بهذا النصر العظيم، الذي شـارك في كل لحظة مـن لحظاته، وفي كل خطوة من خطواته، وها هو اليوم يحوم على الخيل يرتبها، وينظمها، ويشرف على تحركاتها.

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس وقد مر معنا تحت عنوان فتح مكة.

(٢) سنده صحيح وهو الطريق السابق وقد تابع ابن إسحاق جعفر بن برقان.

لكن شيئاً ما يكدر صفو هذا النصر على أبي بكر.. ذلك هو والده الشيخ الطاعن في السن والعمى والشرك.. فأين هو الآن؟

أين والد الصديق

في الوقت الذي كلف النبي ﷺ أبا بكر بالإشـراف على الخيل.. كان والده يرقبه مـن بعيد رغم أنه أعمى، وبصحبته طفلة هي أصغـر أخوات أبي بكر الصديق وذلك «لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى قال أبو قحافة لأصغر بناته: أظهريني على الجبل. وكان يومئذ أعمى.

قالت: فأشرفت به عليه، فقال: ما ترين؟ فقالت: سواداً مجتمعاً. فقال: تلك والله الخيل. قالت: وأرى بين يدي ذلك السواد رجلاً يسعى مقبلاً ومدبراً. فقال: ذاك الوازع -يعنـي الذي يأمـر الخيل ويتقدم إليها- وكان الوازع يومئذ أبـو بكر ابن أبي قحافة. فقالت: وأرى أن ذلك السواد قد انتشر. فقال: قد والله دفعت الخيل فأسرعي.

فانحدرت به من الجبل وتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته، وكان في عنق الجارية طوقاً لها من ورق، فمر عليها رجل فاقتطعه منها»[1] وذهب العقد ولكن هناك ما هو أهم من العقد بالنسـبة للعباس ابن عبد المطلب.. هناك قريش وأهل مكة، لكن يبدو أن أبا سفيان لا يزال مشدوهاً.. مأخوذ العقل بما يجري على ساحة كانت قبل ساعات ساحة يظللهـا نفوذه، وتخضع لكلمته، وها هو اليوم لا يملك نفوذاً ولا كلمة. فأراد العباس أن يوقظه مما هو فيه من أوهام، فالخيل إلى مكة ومن عليها أكثر شوقاً ولهفة.

يقـول العباس رضـي الله عنه: «قلت النجاء إلى قومـك. فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشـر قريش.. هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمس فبئس من طليعة قوم.

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن راهويه ١-١٣٢ والطبرني ٢٤-٨٨ وأحمد ٦-٣٤٩ حدثني يحيى بن عباد عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر وقد مر معنا .

قال: ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

قالوا: ويلك وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن.. ومنْ دخل المسجد فهو آمن.

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد»[1] يطاردهم الموت في كل شبر طاردوا فيه النبي ﷺ وأصحابه..

ها هو الموت يحمله عشرة آلاف محارب تغص بهم مكة، وها هي طرقات مكة تخلو من أهلها الذين طالما نشروا الرعب والتعذيب والاضطهاد فيها.. هاهي طرقات مكة لا يسير فيها إلا مؤمن، وهاهي ساحاتها التي عذب فيها بلال وعمار وخباب تهتز فرحا وربيعاً بهم، وهاهو الشرك وأهله يفرون كالفئران إلى مساكنهم، وإلى المسجد الحرام، فقد عزلوا كالطاعون والأوبئة في تلك البيوت.

أحدهم يحمل متاعه، ويتسلل هارباً نحو آخر معاقل المشركين.. إنه وحشي قاتل حمزة عم النبي ﷺ وحبيبه.. لم يستطع أن ينعم بحريته التي حصل عليها، والتي دفع ثمنها غالياً جداً، ومع ذلك فهو يشعر بجبال مكة تتحول إلى حتف يكاد يطبق على صدره، ويشعر بفداحة جرمه، وكأن هؤلاء العشرة آلاف قد جاءوا للأخذ بثأر حمزة. لذلك فر وحشي إلى الطائف.

لنترك وحشي ولنتجه إلى الصحابة الذين يعودون إلى بيوتهم، ومراتع طفولتهم، وبيت ربهم دون قيد أو شرط، أو طعنة، أو ضربة سوط. أين أبو جهل وأبو لهب وأمية وعقبة ليشهدوا هذا المنظر، الذي عاشوا لاغتياله واغتيال من يتمناه؟

أما أبو سفيان فبعد أن لفته الفاجعة ذهب هذه المرة بنفسه خائفاً بعد أن قال ﷺ «احصدوهم حصداً .... فقال أبو سفيان: يا رسول الله أبيحت خضراء قريش.. لا قريش بعد اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فأغلقوا أبوابهم»[2] لكن:

---

(١) سنده صحيح مر معنا تخريجه تحت عنوان فتح مكة رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-٥-١٤٠٥ وغيره مر قبل قليل وهو حديث أبي هريرة.

ربما لرفعهم السلاح ومقاومتهم للمسلمين، وربما لجرائم شنيعة ارتكبوها، وقد استثناهم ﷺ وذلك «يوم فتح مكة.. أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة وامرأتين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح»[1].

ما مصير هؤلاء الأربعة الذين أهدر دمهم

خبر ورود هذه الأسماء ضمن لائحة المطلوبين أمواتاً ينتشر الآن في مكة، وكلما انتشر الخبر في مكان خسر هؤلاء مساحة من الأمن والأرض، حتى أصبحت مساكن مكة وطرقاتها، ووديانها وجبالها تضاريس للموت، والرعب الذي لا يطاق.

أما عكرمة بن أبي جهل وخليفة والده في حمل لواء العنف ضد الإسلام والمسلمين، فقد فر على وجهه من مكة حتى وجد نفسه أمام البحر«فركب البحر»[2]

وأما مقيس فيبدو أنه لم يأخذ وقتاً طويلاً حتى قضي عليه، فقد «أدركه الناس في السوق فقتلوه»[3]

أما ذلك المرتد المدعو عبد الله بن أبي سرح، والذي كان أحد كتبة الوحي الذين تم الاستغناء عنه وعن كتابته، فهو مختبئ نادم على ما صدر عنه من سخافات، فالنبي ﷺ مازال حياً، والوحي لم ينقطع ينزل كل يوم، وجبريل يراجع لمحمد عليهما السلام كل عام ما نزل من القرآن، وبالتحديد في هذا الشهر (رمضان) من كل عام.. أما ابن أبي سرح

---

(١) حديث حسن وسنده ضعيف رواه ابن أبي شيبة وغيره عن طريق أسباط بن نصر عن السدي عن مصعب ابن سعد عن أبيه. وأسباط له أخطاء وهو من رجال مسلم وهو صدوق التقريب ٩٨ وشيخه أوثق منه: صدوق يهم أي أن حديثه حسن إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم أيضاً ومصعب تابعي ثقة: التقريب ٥٣٣ لكن الحديث له شاهد وهو مرسل عكرمة ولم يذكر فيه عكرمة ويشهد لذكر عكرمة حديث ابن أبي شيبة ٧-٤٠٢ وللحديث شاهد عند الطبراني ٦-٦٦ وغيره من طريق عمرو بن عثمان المخزومي وهو مقبول عند المتابعة حسب التقريب ٤٢٤ ثم وجدت له شاهداً يرفعه إلى درجة الحسن عند البزار: زوائد ٢٣٤٤ من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس ومبارك والحسن ثقتان لكنهما مدلسان وقد عنعنا وحديثهما في هذه الحالة حسن بالشواهد.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فقد خسر شرف الكتابة، وشرف الأمانة، وشرف الفروسية والنصر، وهو الآن يفتش عن ثقب إبرة يهرب من خلاله.

أما الشقي الرابع ابن أخطل فقد أغلقت في وجهه أبواب الهروب، ففر إلى الكعبة كخيار أخير للنجاة من الموت، وهو الآن متعلق بأستار الكعبة، وسنتركه معلقاً لنعود إلى النبي ﷺ كي نعرف آخر تحركاته.

إنه الآن على أبواب مكة، وهو يهم بدخولها هذه المرة من مكان يقال له: (كداء)، وهو في أعلى مكة، ومعه الرجل الذي حدد مكان الدخول.. صاحبه وشاعره حسان رضي الله عنه، وذلك قبل سنة أو أقل من هذا اليوم.

الشعر يحدد مكان دخول النبي لفتح مكة

تقول عائشة رضي الله عنها «إن النبي ﷺ لما جاء إلى مكة دخل من أعلاها»[1] «من كداء، من الثنية العليا التي بالبطحاء»[2]

وركز رايته بجبل من جبال مكة يقال له (الحجون)، وأمر الزبير بن العوام رضي الله عنه بركزها هناك، كما أمر قوات خالد بن الوليد بالدخول من كداء أيضاً، لكن خالداً لقي مقاومة هناك، وقد خسرت قواته اثنين من الرجال رضي الله عنهما..

ها هو «العباس يقول للزبير بن العوام: يا أبا عبد الله هاهنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية. وأمر رسول الله ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء، ودخل النبي ﷺ من كداء، فقتل من خيل خالد بن الوليد رضي الله عنه يومئذ رجلان: حبيش ابن الأشعر، وكرز بن جابر الفهري»[3]

أما عن قصة ذلك التحديد فترويه لنا عائشة بنت الصديق رضي الله عنها فتقول: «إن رسول الله ﷺ قال: اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق بالنبل.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٩ والصواب من أسفل مكة بالنسبة لخالد.

فأرســـل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم فهجاهم. فلم يرض. فأرســـل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأســد الضارب بذنبه، ثم أدلع لســـانه[1] فجعل يحركــه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم.

فقال رســول الله ﷺ: لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنســابها، وإن لي فيهم نســباً حتى يخلص لك نسبي، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله.. قد خلص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله. وسمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسان فشفى واشتفى

قال حسان:

هجوت محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمد براً تقياً	رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي	لعرض محمد منكم وقاء
ثكلت بنيتي إن لم تروها	تثير النقع من كنفي كداء
يبارين الأعنة مصعدات	على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات	تلطمهن بالخمر النساء
فإن أعرضتموا عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لضراب يوم	يعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبداً	يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد يسرت جنداً	هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد	سباب أو قتال أو هجاء

(١) أخرجه من بين شفتيه.

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء»[1]

بهذا المستوى من الشعر يفتح الشاعر الإسلامي المستقبل على مصراعيه.. يرسم أشكالاً أرقى للحياة، ويعمق الشعور باللا مستحيل في حياة طاقتها يقين كالوحي. عندما قال حسان هذه الأبيات.. لبى شيئاً من طموح النبي ﷺ الذي لم يرتق إليه شعر ابن رواحة، ولا شعر كعب رضي الله عنهما، ومازال هذا الطموح حياً يطلق الشعر إلى تلك المستويات الغائبة المأمولة، ولئن كان للقرآن مسافات هائلة ومذهلة ومعجزة، إلا أنه لم يزح الشعر عن عرشه.. ترك له عرشه، لكنه قدم له تحدياً قاسياً أن يردم تلك المسافات الشاسعة بينهما. إذاً فالشعر في الإسلام إما أن يكون قطعاً لمسافات جديدة أو لا يكون.

القرآن اليوم يفتح مكة لينطلق منها إلى غيرها، فماذا سيقدم الشعر؟، وماذا سيفتح.؟ لا أدري لكنني اليوم أرى النبي ﷺ يفسح للشعر طرقاته.. هاهو يقول في طريقه لفتح مكة كلمات تحتفي بالشعر.. سمعها ابن عمر ورواها فقال: «لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح، رأى نساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم فقال: يا أبا بكر كيف قال حسان بن ثابت؟ فأنشد أبو بكر:

عدمت بنيتي إن لم تروها تثير النقع من كنفي كداء

ينازعن الأعنة مسرجات يلطمهن بالخمر النساء

فقال رسول الله ﷺ: ادخلوا من حيث. قال حسان»[2]

حسان الذي لم يكتف بجعل الشعر تعبيراً عن تجربة شعورية بصورة موحية، بل تجاوزها إلى جعله كشفاً وإضاءة للقادم، وتشكيلاً له. لا على طريقة المأخوذين

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٩٣٥.

(٢) سنده قوي الطحاوي في شرح المعاني ٤-٢٩٦ واللفظ له وآخره للحاكم ٣-٧٦ من ن قوله فقال رسول الله. من طريق إبراهيم بن المنذر بن الحزامي ثنا معن بن عيسى حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما نافع وعبيد الله ثقتان معروفان ومعن ثقة ثبت: التقريب ٥٤٢ وتلميذه صدوق من رجال البخاري: التقريب ٩٤ .

بالسياحة في الحلم، بل بأسلوب المأخوذين بإنجاز الحلم؛ كيف لا وهو يسير خلف هذا النبي العظيم، الذي ينحدر كالسيل نحو مكة العطشى، ولما وصلها لم يجد في طرقاتها سوى الهواء النقي، والذكريات الجميلة والمريرة. هنا ولد، وهنا كان يتهادى طفلاً نحو آمنة، وهنا كان يلعب مع أبي بكر وأصحابه، وهنا كانت أمه الحبيبة تناديه وتحمله وتلاعبه. هنا كان يسير مع جده وعمومته وأبناء عمومته.. هنا التقى بخديجة، وهنا تزوجا، وهنا ولدت زينب وفاطمة وأم كلثوم ورقية. من هنا جاء يركض.. يخبر خديجة عن جبريل، وهنا دعا الناس، وهنا كذبوه، وهنا صدقوه وناصروه، وهنا خذلوه وعذبوه.. هنا مكة.. ما أطيبها وأطيب ريحها.

ذكريات تطوف لا شك بروح أبي بكر وبلال وعمر وعمار وعلي وعثمان وخباب وصهيب، وبقية المهاجرين من مكة.. لا بد أن بعض الدموع والزفرات خالطت فرح السير في طرقاتها الجميلة، ومواكب الإيمان الجارفة ونشوة النصر العظيم لا تسكر الفرسان المؤمنين عن شكر الله وذكره..

يقول أحد الصحابة الذين كانوا يرقبون النبي ﷺ يوم الفتح وينصتون إليه: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع»[1] أي يردد القراءة.

كان لسانه وقلبه امتنان لله الذي أكرمه بنصره، وكانت طريقته وهو يتقدم ذلك الجيش الضخم.. الممتزج بعظماء الرجال تنضح بالتواضع في أرقى صوره وأعظمها.. لم يكن ﷺ وحده على ناقته.. لم يكن مردفاً أبا بكر سيد المهاجرين، ولا سعد بن عبادة سيد الأنصار، ولا حتى سيداً من سادات العرب.. كان ﷺ يردف أميراً من أمراء الإسلام وشبابهم.. شاباً أسوداً صغير السن اسمه (أسامة بن زيد بن حارثة) وبجانبه صاحبه الحبشي بلال بن رباح، وهم في طريقهم نحو تحطيم الأصنام وتطهير الكعبة، لكنه كان أثناء الطريق يحطم أصنام الجاهلية داخل النفوس.. يحطم الفخر بالآباء والأجداد، ليشيد التنافس على الإنجاز والإبداع.. كان ﷺ وفي لحظات النصر يؤكد تمسكه بمبدأ المساواة التي طالما اختبأ خلفه الأدعياء، فإذا ما انتصروا تنكروا له.. مشهد جميل ورائع للنفوس المؤمنة والمتحضرة، لكنه لا شك يؤذي نفوساً غارقة في دبق الجاهلية والتخلف.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٠.

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد ومعه بلال»[1]

كان ذلـك المنظر مفزعا لصناديد قريش وطغاتها، فشـعر بعضهم بالموت رغم كل التطمينات التي قدمت لهم، فما المخرج من هذا الرعب الذي

طواغيت قريش يلوذون بالكعبة

فقد تفاقم الرعب داخلهم حتى ملأ أجوافهم، بعد أن سـمعوا بقصة ابن أخطل، والتي يرويها لنا أنس فيقول: «إن رسـول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسـه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة. فقال: اقتلوه»[2]، فقتل، فالرجـل لم يعلن توبته عما بدر منه ولم يطلب الرحمة، ولم يقبل دين الإسـلام.. كان عناداً كأبي جهل، وقد اسـتجار بقماش مطروح علـى الكعبة، فلم يمنعه ذلك القماش من السيوف.

لكن صرخة دوت فطارت قلوب طواغيت قريش من الهلع.. صرخ صارخ من جيش المسلمين و(نادى مناد: لا قريش بعد اليوم.

فقال رسول الله ﷺ: من دخل دارا فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن.

وعمد صناديد قريش فدخلوا الكعبة فغص بهم)[3]وضاق برائحتهم وشركهم. لكن النبي عليه السـلام أراد طمأنة مكة وتهدئـة روع قريش، التي بدأت ترتعد من مصير ابن خطل، طمأنها مرة أخرى بحديث جميل.. سـمعه ورواه لنا أحد المعنيين، واسـمه العاصي بن الأسود، فيقول: «سمعت النبي ﷺ يقول يوم فتح مكة: لا يقتل قرشي صبراً بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»[4] «لا تغزى مكة بعد هذا اليوم»[5] وقد قبض ﷺ على

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٦٥٥ ومسلم ٢-٩٨٩.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي في الكبرى ٩-١١٨، والطحاوي في شرح المعاني وسيمر معنا.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٤٠٩ وكلمة أبي عند الحاكم.

(٥) سـنده صحيح رواه الحميدي ١-٢٦٠ ثنا سـفيان قال ثنا زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي عن الحارث بن مالك بن البرصاء قال سمعت رسول الله يوم فتح مكة.. وهو سند مسلم في الحديث السابق مع اختلاف تلميذ زكريا وهو أحد الأئمة الثقات وكذلك الصحابي.

العاصي فعفا عنه، وغير اسمه، حيث يقول ابنه عبدالله: «لم يكن أسلم أحد من عصاة قريش غير [أبي] مطيع، كان اسمه العاصي، فسماه رسول الله ﷺ مطيعاً»(١)

لكن إذا كانت مكة لن تغزى كدولة غير مسلمة بعد اليوم، فإن حلفاء الإسلام بني خزاعة.. يريدون الاحتفال بفتحها على طريقتهم المفضلة، فتقدموا للنبي ﷺ بطلب أخذ الثأر من سبب كل هذا الذي يحدث اليوم، أي من بني بكر:

ثأر خزاعة من بني بكر

أرادت خزاعة الثأر ممن غدروا بها ونقضوا العهد والميثاق دون سابق إنذار وهم بنو بكر، فتقدموا بطلب إلى النبي ﷺ أن يأذن لهم بغزو بني بكر على ما فعلوه، فأذن لهم، لكنه حدد لهم فترة زمنية قصيرة تبدأ من الآن وحتى وقت العصر فقط. وقد أعلن ﷺ ذلك على الملأ مطمئناً قريش على أموالها ودمائها وأعراضها فقال «يوم فتح مكة: كفوا السلاح إلا خزاعة من بني بكر، فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال لهم: كفوا السلاح»(٢)

ويقول أحد الصحابة من بني خزاعة واسمه أبو شريح: «أذن لنا رسول الله ﷺ يوم الفتح في قتال بني بكر، حتى أصبنا منهم ثأرنا وهو بمكة، ثم أمر رسول الله ﷺ برفع السيف»(٣) وذلك بعد أن تم التخلص من ابن أخطل، وتنفس المشركون حياة أخرى، وخرجوا من بيوتهم آمنين، فانطلقوا للتفرج على مكة وهي مدينة إسلامية.. أما النبي ﷺ فتوجه نحو الكعبة، ليخلصها من أغلالها التي خنقتها ودنست طهارتها مئات السنين، ولم يكن يعلم أنها تغص بالظلمة والمجرمين، وكان برفقته هذان الأسمران العظيمان بلال وأسامة ابن زيد. فكم هو حجم الغيظ في قلوب أهل الأصنام، وهم يرون الإسلام يحتفي ببلال

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠٩ وكلمة أبي عند الحاكم.

(٢) سنده قوي رواه ابن أبي شيبة ٧-٤٠٣ حدثنا يزيد بن هارون قال حدثنا حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي.. يزيد ثقة متقن التقريب ٦٠٦ وشيخه ابن ذكوان ثقة: التقريب ١٦٦ وعمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده سند قوي مشهور.

(٣) في سنده ضعف رواه أحمد ٤-٣١ ثنا وهب بن جرير حدثني أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن مسلم بن يزيد أنه سمع أبا شريح. وسبب الضعف هو التابعي ابن يزيد فلم يوثقه سوى ابن حبان، لكن حديثه مقبول عند الشواهد فيشهد له ما قبله.

وأسـامة كل هذا الاحتفاء، ويقدمهما في سـاعات النصر التي يتطاول لها زعماء العرب كلهم؟! وهم يرون الأحساب والأنساب لا تنفع مشركاً، ولا ترفع أنفه عن الوحل.

لكـن ذلك كله يهون أمـام تلك الخطوات التي كان ﷺ يمشـيها نحو «ثلاث مائة وسـتون صنماً»[1] حول الكعبة وفوقها .. كان يمشـي نحوهـا، والمؤمنون ينتظرون هذه اللحظات منذ سـنوات طويلة، لتفيق قريش ومن معها على حقيقة الوهم الذي عاشوه مئات السنين.

أما المشركون فينتظرون فاجعتهم بأصنامهم، ويطرقون السمع إلى صوت متوقع.. صوت:

تحطيم الأصنام

فقد «أقبل رسـول الله ﷺ عام الفتح على ناقة لأسـامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة»[2] ثم «أقبل رسـول الله ﷺ إلى الحجر فاسـتلمه، وطاف بالبيت في يده قوس أخذ بسية[3] القوس، فأتى في طوافه صنماً في جنبة البيت يعبدونه، فجعل يطعن بها في عينيه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل»[4]

ربما كان هذا هو هبل الذي تغنى باسـمه أبو سفيان على أرض أحد .. ربما، لكن هـذا الصنم ليس الوحيد الذي يزعج الكعبة والحرم ومكـة. لم يكن وحده يلوث نقاء الحياة فيها، فقد كان «حول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً، فجعل يطعنها بعود في يده، وجعل يقول: جاء الحق وزهق الباطل»[5]..

ولمـا انتهى ﷺ مـن الطواف، وتم كنس بقايا تلك الأخشـاب، ونثار تلك الحجارة التي كانت ملقاة على الكعبة وحولها .. اكتشـف الوثنيـون أنهم كانوا يعبدون نفايات..

---

(١) حديث صحيح رواه الشيخان وابن حبان ١٢-١٧٢ ولفظهما هو نصباً بدل صنماً.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

(٣) طرفها.

(٤) سـنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٢٣٠ ثنا عبد الله بن هاشـم ثنا بهز يعني بن أسد ثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال ثنا عبد الله بن رباح وقد سمعه من أبي هريرة ورواه أيضاً من طريق الربيع حدثنا سليمان.. به وسـليمان بن المغيرة ثقة من رجال الشـيخين وكذلك ثابت وعبد الله ثقة من رجال مسلم فقط وقد مر الحديث تحت عنوان إسلام أبي سفيان.

(٥) صحيح البخاري ٢-٨٧٦ ومسلم ٣-١٤٠٨.

أجل نفايات، واليوم هو يوم النظافة.. جمعها المسلمون وقذفوها خارج الحرم، وربما في إحدى المزابل.

هذا هو الشرك ببساطة.. غابة من الكلام والهشيم والعناد ليس لها جذور، ويكفي للقضاء عليها عود ثقاب صغير.

كان المشهد عظيماً، وكان المسجد يغص بالمؤمنين المزينين بنصر الله وفتح مكة، وبالمشركين اللائذين ببيت الله من الموت، وكان هؤلاء المشركون على أحر من الجمر ينتظرون

بيان النصر الأول

فقد تناثرت الأصنام، وسيطر الجيش المؤمن على كل شيء فما هي لغة هؤلاء المنتصرين الجديدة، وما مصير هؤلاء الخائفين داخل الحرم وخارجه..؟

أسئلة أجاب عنها النبي ﷺ بعد أن صلى لله وحمده وأثنى عليه، وهو يمسك بخشبتي باب الكعبة عن اليمين والشمال، وذلك بعد أن «فرغ وصلى جاء فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال: يا معشر قريش ما تقولون؟

قالوا: نقول ابن أخ، وابن عم رحيم كريم. ثم عاد عليهم القول..؟ قالوا مثل ذلك «يا معشر قريش ما تقولون؟ قالوا: نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم. ثم قال: يا معشر قريش.. ما تقولون؟ قالوا نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم»

قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم.. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[1]

سمع الطواغيت البيان رقم واحد، فكادت فرحتهم تفجر جدران الكعبة، فالأرض.. كل الأرض لا تتسع لهذا الفرح، ولا يجدون خجلا وحياءً، أو حتى أعذاراً تصمد أمام عفو محمد.

إذا كان لعظمة محمد عليه السلام مقاييس فتلك هي مقاييسها.. لا انتقام للذات، ولا للأهل والعشيرة.. لا انتقام لمن مزق أجساد حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله

---

(١) حديث صحيح مر معنا رواه النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢ والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق سلام بن مسكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة وسلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢ وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

ابـــن جحش، ولا نواح على تلك الطريقة الشـــنيعة التي شـوهوا بها ..لم يأخذ ســـبايا ولا أمـــوالاً، لكنـــه أخذ القلوب والعقول والأرواح.. ترك كل شـــيء لله، فمن أجله دعا، وفي ســـبيله حارب وحورب وانتصر، وهاهو يشـــرع أبواب الله لمن يريد الدخول فيها.. يشـــرعها بالعفو والصفح وطي الماضي بآلامه، والبدء من جديد لإعادة تشكيل الأرض ومن عليها.. هـرول المشـــركون الطلقاء إلى النبي ﷺ «فبايعوه على الإسلام»[1] بعد أن تناثرت الأصنـــام وطهرت الكعبة من الخارج، فأراد النبـــي ﷺ تطهيرها من الداخل، فطلب مفاتيح الكعبة من العائلة التي شرفها الله بحجابة بيته وخدمته وسدانته.

من هذه العائلة وما هي قصة السدانة

باختصار شديد: كان في قريش زعيم يقال له (قصي)، حيث يتم في بيته كل أمر يهم القبيلة ويؤثر في مســـارها، وكان له أربعة أولاد أكبرهم (عبد الدار) وأحدهم جد النبي ﷺ واسمه: (عبد مناف) فجعل قصي أمر الكعبة من اختصاص ابنه عبد الدار، الذي يقف حفيده بجانب النبي ﷺ واســـم حفيده هـــذا: «عثمان بن عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار».. وهو يلقب الآن «الحجبي»[2] وكانت المفاتيح عند أمه، وهي مشركة وترفض تسليمها، فاستأذن لإحضارها.

يقول أحد الشباب المتشوقين لدخول الكعبة أن نبي الله ﷺ «دعا عثمان بن طلحة فقال: ائتني بالمفتاح فذهب إلى أمه.. فأبت أن تعطيه فقال: والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي.. فأعطته إياه فجاء به إلى النبي ﷺ فدفعه إليه ففتح الباب»[3] وكانـــت المفاجـــأة عندما خرج صناديد قريـــش من الكعبة وكأنما خلقـــوا من جديد.. (فخرجوا [كأنما نشـــروا من القبور فدخلوا في الإسلام]»[4] فوجدوا رسول الله أرحم

(١) حديث صحيح مر معنا رواه النســـائي في الكبرى ٦-٣٨٢ والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق ســـلام بن مســـكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة وســـلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢ وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

(٤) حديث صحيح مر معنا رواه النســـائي في الكبرى ٦-٣٨٢ والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق ســـلام بن مســـكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة. ســـلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢ وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

بهم من أمهاتهم بعفوه وصفحه عنهم، ولم يكتف بذلك، بل دعا لهم بالمغفرة قائلا: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين..

وفتحت الكعبة له عليه السلام لكنه رفض دخولها.

لماذا رفض النبي دخول الكعبة

لقد شاهد مناظر كدرته.. شاهد الشرك متعفناً داخل الكعبة يلوثها، ويخنق براءتها.. شاهد صوراً وتماثيل هي بالنسبة لكثير ممن يعمرون القبور وينسون الإنسان تحفاً وآثاراً يجب الحفاظ عليها، لكن النبي ﷺ يقدم درساً علمياً لمن يجعلون من تلك الآثار وحياً لا يكذب.. درساً يقول إنها أعمال بشرية محضة تنبع من ميول الإنسان وخياله، وهواه وأساطيره وخرافاته، ولا تعدو إطلاقاً كونها عملاً فنياً يصدر عن ذات وميول من رسمها ونحتها.

رفض ﷺ دخولها حتى يتم تطهيرها تماماً و«أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت. فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، فقال النبي ﷺ: قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها»[1] هذا هو مصير التماثيل، أما الصور المرسومة على جدران الكعبة «فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم، فقال: أما لهم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة. هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم»[2] و«لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت»[3]

ثم دخل النبي ﷺ الكعبة.. لم يدخل معه أبو بكر ولا عمر ولا سعد بن عبادة، ولا غيرهم من كبار الصحابة.. دخل معه أسامة وبلال وسادن الكعبة « دخل النبي ﷺ وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة، وأمر بالباب فأغلق فلبثوا فيه ملياً»[4] «فكبر في نواحي البيت»[5]

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦١.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٢٣.
(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٢٣.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.
(٥) صحيح مسلم ٤-١٥٦١.

يقول الشاب عبد الله بن عمر: «فمكثوا فيه ملياً، ثم فتح الباب فخرج النبي ﷺ، ورقيت الدرجة فدخلت البيت»[١] «فكنت أول من دخل فلقيت بلالاً، فقلت: أين صلى رسول الله ﷺ؟ فقال: بين العمودين المقدمين.

فنسيت أن أسأله كم صلى رسول الله ﷺ»[٢].

استطاع الشاب ابن عمر أن يسبق غيره إلى الدخول إلى الكعبة، فقد كان نموذجاً حرفياً لسنة النبي ﷺ لا يحب الزيادة عليها ولا النقصان، فهي الكمال وهي النموذج، والناس تتأرجح صعوداً ونزولاً حولها. وبينما كان ابن عمر مأخوذاً بتطبيق سنة النبي ﷺ هرول من في المسجد نحو النبي ﷺ، أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد هرول خارجاً من المسجد.. يدفعه البر وتحمله الصلة. ثم عاد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، فوجده بعدما خرج من المسجد.. «أتاه أبو بكر بأبيه يعوده، فلما رآه الرسول ﷺ قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟

قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه.

فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره ثم قال له: أسلم.

فأسلم ودخل به أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ورأسه كأنه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: غيروا هذا من شعره.

ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد بالله وبالإسلام طوق أختي. فلم يجبه أحد. فقال: يا أخية احتسبي طوقك»[٣]

ثم أخذ أباه «فأمر به إلى نسائه قال: غيروا هذا بشيء»[٤]، أما عثمان بن عفان رضي الله عنه هذا الرجل المثال في صلته بأرحامه، فقد تهادى نحو النبي ﷺ، وبصحبته رجل يسحب خجله وعاره معه.. ذلك الرجل الذي خان الأمانة والثقة، ورضي بأكوام الحجارة، لكن السيف أعاد له رشده وما شرد من صوابه.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٦٧.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٧.

(٣) إسناده صحيح رواه ابن إسحاق حدثني يحيى بن عباد، عن أبيه عن جدته أسماء. وشيخه ووالده ثقتان، وقد مر السند في بدايات فتح مكة.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٦٦٣ أي غيروا لون الشيب الأبيض.

عثمان بن عفان يسحب عبد الله ابن أبي سرح للنبي ﷺ ذليلاً خائفاً تائباً معتذراً، ويلخص أحد الصحابة مصيبته وتوبته بكلمات فيقول «كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان، فلحق بالكفار فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره رسول الله ﷺ»[1].. وفي يوم آخر ولما انتهى ﷺ من مبايعة من بقي من الطلقاء الحاضرين، نهض نحو موعده مع الأنصار الكرام.. نهض نحو جبل الصفا ولما «أتى الصفا لميعاد الأنصار»[2] حسب اتفاقه مع أبي هريرة أن يجمع له الأنصار عند ذلك الجبل، وتحت ذلك الجبل أحس الأنصار بمرارة لا تطاق.. شعروا بلهف النبي ﷺ على مكة وبيت ربه، وأشعرهم عفو النبي ﷺ عن قريش وكأن المدينة والأنصار في حالة وداع لا يحتمل، فكانت هذه القصة التي ترتب:

حب الأنصار ثم باقي البشر

أبو هريرة كان هناك.. حول الصفا يروي ويرتوي من ينابيع الحب فيقول أن النبي ﷺ: «أتى الصفا فعلاها حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه وجعل يحمد الله ويذكره، ويدعو بما شاء أن يدعو، والأنصار تحته..

يقول الأنصار بعضها لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لم يخف علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي. فلما قضي الوحي قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار.. قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟ قالوا: قد قلنا ذلك يا رسول الله. قال فما أسمى إذاً!؟ كلا إني عبد الله ورسول الله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون يقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا للضن بالله ورسوله.

---

(١) سنده حسن رواه أبو داود ٤-١٢٨ حدثنا أحمد بن محمد (بن حنبل) ثنا علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس. يزيد ثقة عابد: التقريب ٦٠١ والحسين ثقة: التقريب ١٩٦ وابنه حسن الحديث إذا لم يخالف. التقريب ٤٠٠.

(٢) هو حديث أبي هريرة السابق عند النسائي وغيره.

قال: فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم»[1] «فوالله ما منهم أحد إلا بل نحره بالدموع»[2] «قال أبو هريرة: فرأيت الشيوخ يبكون حتى بل الدموع لحاهم»[3] في حضرة هذا الوفاء الذي تسيل فيه الدموع، بعد أن عجزت الكلمات عن التعبير.

بهذا الوفاء غسل ﷺ قلوب الأنصار من الحزن، بعد أن غسل المسجد الحرام والكعبة من الشرك والأصنام، وبتلك العبارات شعر الأنصار أنهم سادة الدنيا، وأن مدينتهم غدت عاصمة الإسلام، حتى مكة أفضل بقعة على وجه الأرض.. غدت مدينة تابعة للمدينة المنورة.

أدرك الأنصار كم هو وفي وعظيم هذا النبي، وأن مصطلحات تعامله لا تعرف شيئاً عن الجحود والنكران، وأدرك أبو سفيان ومن معه كم يرفع الإسلام أهله ويعلي قدرهم، فهو اليوم يرى نفسه ومن معه من صناديد قريش دون من سبقهم إلى الإسلام.. دون من تخلوا عن العناد والمكابرة وإغلاق العقول، وأدرك كذلك أن الإسلام وضع اليوم قدمه وقدم من أسلم معه على أول المضمار، وعليهم أن يبذلوا الكثير ليلحقوا بهؤلاء العظماء الذين اصطحبهم محمد ﷺ معه من المدينة وغيرها.

أما النبي ﷺ فقد أنهى كلماته تلك حيث كان الوقت ضحى، ثم توجه نحو بيت ابنة عمه أبي طالب وهي أخت علي وتدعى (أم هانئ) كي يرتاح ويغتسل، ويغسل غبار السفر والتعب عنه، وأخذ بصحبته ابنته فاطمة وزوجها علياً رضي الله عنهما، وقد جرت بعض الـ:

أحداث في بيت أم هانئ

تقول رضي الله عنها: «إنه يوم فتح مكة اغتسل في بيتها ثم صلى ثماني ركعات. قالت لم أره صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود»[4] وتقول رضي الله

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم وأحمد ٢-٥٣٨ وابن أبي شيبة ٧-٣٩٧ واللفظ له من طرق عن سليمان بن المغيرة عن ثابت قال هاشم قال حدثني ثابت البناني ثنا عبد الله بن رباح.

(٢) هذه اللفظة صحيحة عند الدارقطني والحاكم ٢-٦٢ من طريق محمد بن الفضل عارم وهدبة بن خالد قالا حدثنا سلام بن مسكين عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة وسندها صحيح. سلام ثقة: التقريب ٢٦١ وعارم ثقة ثبت التقريب ٥٠١.

(٣) هو جزء من حديث أبي هريرة السابق وهذه اللفظة عند النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

عنها عندما «كان نازلاً عليها: إن النبي ﷺ ستر عليه، فاغتسل في الضحى فصلى ثمان ركعات، لا يدري قيامها أطول أم ركوعها أم سجودها»[١]

وأثناء ذلك جاء رجل يرتجف من المشركين يقال له (ابن هبيرة) إلى أم هانئ، فاراً من الموت طالباً اللجوء والحماية، لكن كيف سينجو وعلي بن أبي طالب هو من يلاحقه!

تقول أم هانئ: «ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب، فسلمت. فقال: من هذه؟ قلت: أم هانئ بنت أبي طالب. قال: مرحباً بأم هانئ.

فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله.. زعم ابن أمي علي بن أبي طالب أنه قاتل رجلاً أجرته (فلان بن هبيرة)؟

فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ. قالت أم هانئ: وذلك ضحى»[٢] فالإسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة في هذا الشأن، وللمرأة أدوارها العظيمة في الحياة الإسلامية، بشرط أن تعيها وترتقي إلى مستوى الإسلام في تفكيرها واهتماماتها.

ولما جاء وقت العصر أمر ﷺ بني خزاعة بالتوقف عن القتال.

يقول أحد الصحابة: «لما فتح على رسول الله ﷺ مكة قال كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر، فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال كفوا السلاح»[٣] فكفوا السلاح.

انقضى العصر وانقضى القتال وجاء الليل فأين سينزل رسول الله ﷺ؟

طرح أسامة هذا السؤال على النبي عليه السلام فقال: «يا رسول الله أين تنزل غداً قال النبي ﷺ: وهل ترك لنا عقيل من منزل؟ ثم قال: لا يرث المؤمن الكافر، ولا يرث الكافر المؤمن»[٤]. أي أن النبي ﷺ لم يرث نصيب أبيه من تلك الدار، وكذلك علي رضي الله عنه لم يرث نصيب والده أبي طالب، فاستولى عقيل على نصيبيهما، لأنه لم يسلم.

---

(١) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٣٠ عن ابن جريج حدثنا ابن شهاب عن عبد الله ابن الحارث عن أم هانئ ابن جريج لم يدلس وابن الحارث قال على بن المديني عنه: ثقة سمع من عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ... ومن أم هانئ - الجرح والتعديل ٥-٣٠.

(٢) صحيح مسلم ١-٤٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٥٦٠.

بحث ﷺ عن مكان يبيت فيه.. لم يصادر بيت زعيم أو صنديد، ولم يغتصب أرضاً ولا بيتاً ولا حتى خيمة بحجة أنه رأس الدولة الإسلامية، أو بحاجة أنه فاتح منتصر.

فقط نام حيث يسر الله له، ولما جاء الغد حدث خرق لذلك الأمر الذي أصدره النبي ﷺ بوقف القتل والقتال، وقد قام بارتكاب تلك الحماقة رجل من خزاعة، ضد أحد رجال بني بكر، ولما وصل الأمر إلى النبي ﷺ غضب غضباً شديداً، وأنكر ذلك العمل وأصدر:

البيان رقم (٢) للدولة الإسلامية في مكة

يقول أحد الصحابة: «لما فتح على رسول الله ﷺ مكة قال: كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر. فأذن لهم حتى صلوا العصر ثم قال: كفوا السلاح. فلقى من الغد رجل من خزاعة رجلاً من بني بكر بالمزدلفة فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ.

فقام خطيباً فقال: «يا أيها الناس إن الله عز وجل كرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام الله تعالى إلى يوم القيامة..

لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد بها شجراً.. لم تحلل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها.

ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس.. ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل بها، فقولوا إن الله عز وجل قد أحلها لرسوله، ولم يحللها لكم.

يا معشر خزاعة.. ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر أن يقع. لئن قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين: إن شاؤوا فدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله»[1]

«إن أعدى الناس على الله من عدا في الحرم

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢: حدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعي. سعيد تابعي ثقة: التقريب ١-٢٩٧ وشيخه صحابي.

ومن قتل غير قاتله.

ومن قتل بذحول الجاهلية[1]

فقال رجل: يا رسول الله إن ابني فلاناً عاهرت بأمه في الجاهلية[2].

فقال: لا دعوة في الإسلام.. ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش[3]، وللعاهر الأثلب.

قيل: يا رسول الله.. وما الأثلب؟

قال: الحجر

وفي الأصابع عشر عشر[4]

وفي المواضح خمس خمس[5]

ولا صلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس.

ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها.

ولا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها[6]

وأوفوا بحلف الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدة.

ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام»[7]

وبعد أن انتهى من خطبته «ودى رسـول الله ﷺ الرجل الذي قتلته خزاعة»[8] أي دفع دية الرجل المقتول من بني بكر، ثم حدد ﷺ عقوبة جنائية للقتل خطأ.

---

(١) أي قتل أحداً ثاراً.

(٢) أنه أنجب هذا الولد عن طريق الزنا.

(٣) الولد للفراش أي أن ولد الزنا ينسب لأمه فيقال فلان بن فلانة أما العاهر أي الرجل فله الرجم بالحجر.

(٤) أي من قطع إصبع أحد فدية كل أصبع عشر من الإبل.

(٥) الجرح الذي يوضح العظم.

(٦) لا يجوز للمرأة أن تنفق من مال زوجها إلا بإذنه.

(٧) حديث حسـن رواه أحمد ٢-٢٠٧ وابن أبي شيبة ٧-٤٠٣ والحارث «زوائد» ٢-٧٠٩ وغيرهم من طرق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا السند قوي مشهور.

(٨) هو حديث ابن إسحاق وأحمد السابق وهو صحيح.

«فقـــال: لا إله إلا الله وحده نصر عبده وهـــزم الأحزاب وحده.. الحمد لله الذي صـــدق وعده، ونصر عبده. ألا إن كل مـأثرة كانت في الجاهلية تعد وتدعى، وكل دم أو دعوى موضوعة تحت قدمي[1] هـاتين، إلا ســـدانة البيت وســـقاية الحاج، ألا وإن قتيل خطـــأ العمد بالســـوط والعصا والحجر ديـــة مغلظة مائة من الإبـــل، منها أربعون في بطونها أولادها»[2]

توالت التوبة تلو التوبة، والبيعة تلو البيعة، وأعطي الطلقاء فرصة كبيرة للتفكير والتروي ومراجعة النفس، والتعود على حياة صافية دون أصنام أو أوثان أو خرافات، لذلك:

قرر النبي ﷺ البقاء في مكة

لمدة تكفي لإذابة ما بقي في نفوس الطلقاء من بقايا الجاهلية.

يقول أحد الصحابة «أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين»[3] الظهر ركعتين، والعصر والعشاء كذلك، أما المغرب والفجر فليس فيهما قصر، وكان من عادة النبي ﷺ أن يقصر الصلاة إذا خرج من المدينة مسافة تقارب الثلاثين كيلومتراً.

يقول أنس بن مالك «كان رســـول الله ﷺ إذا خرج مســـيرة ثلاثة أميال، أو ثلاثة فراســـخ صلى ركعتين»[4] والقصر هو أن يؤدي الصلاة ذات الأربع ركعات ركعتين بدلاً من أربع طوال أيام السفر، وهذا ما فعله النبي ﷺ مدة بقائه في مكة، حيث كانت تلك الأيـــام عبارة عن إعطاء الطلقاء فرصة لتغييـــر الزاوية التي كانوا ينظرون من خلالها

---

(١) أي باطلة لا قيمة لها.

(٢) بين كلمة: بالعمد والســـوط قال الراوي: «قال هشيم مرة». سنده قوي رواه أحمد ٣-٤١٠ من طريق خالد الحذاء عن القاسم بن ربيعة بن جوشن عن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: وعقبة تابعي صـــدوق التقريب ٢-٢٦ وتلميذه تابعي ثقة: التقريب ٢-١١٦ وخالد بن مهران تابعي صغير ثقة: التقريب وللحديث شواهد تقوية.

(٣) رواه البخاري ٤-١٥٦٤.

(٤) صحيح مسلم ١-٤٨١. وبعد كلمة فراسخ قال الراوي: «شعبة الشاك» أي الذي تردد في الجزم بأنها ميل أو فرسخ هو شعبة بن الحجاج وليس أنس فيؤخذ بالأكثر لأنه لا شك فيه والفرسخ مسافة تقارب ثمانية كيلومتـــرات. أمـــا الحديث الذي يرويه عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه وعطاء بن أبي رباح عن بن عباس أن رســـول الله ﷺ قال: يا أهل مكة لا تقصروا الصلاة في أدنى من أربعة برد من مكة إلى عســـفان، أي ثمانين كيلو متر، فهو حديث مكذوب، لأن عبد الوهاب كذاب

إلى النبي ﷺ.. زاوية الحسب والنسب والقبيلة، والعادات والتقاليد والتنافس والثأر، لينتقلوا إلى زاوية أخرى.. حيث الصفاء والعقل والاتزان، والتجرد من أثقال الموروثات البالية. تسعة عشر يوماً يفز فيها أكثر من عشرة آلاف مؤمن للصلاة يحيطون بالكعبة، ويملأون البيت الحرام خمس مرات في اليوم والليلة في سكون، وحركات خاشعة رائعة موحدة راكعة ساجدة، خلف رجل واحد هو محمد ﷺ.

مشهد مهيب وجليل اختفت فيه الأصنام والأزلام، وبقي فيه التوحيد نقياً دون شوائب.. مشهد مهيب أخذ عقول الطلقاء إلى المقارنة بين صلاة هؤلاء المؤمنين الخاشعين الراكعين الساجدين، وبين صلاتهم المليئة بالجهل والتخلف والهمجية ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ أي ما كانت صلاتهم إلا تصفيراً وتصفيقاً كما كانت تعرياً أيضاً، وقد تمكن ﷺ من استمالة كل مكة إلى الإسلام في تلك الفترة القصيرة، حتى هذه المرأة.. زوجة أبي سفيان التي كانت تحمل ضد النبي ﷺ وأصحابه ثارات وأحقاداً سوداء.. تتجه إليه مختارة طائعة، لتبايعه بعد أن أذهلتها أخلاق النبي ﷺ وسماحته وعدالته عن كل ما مضى.

تقول عائشة رضي الله عنها: «جاءت هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله.. ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك.

قال: وأيضاً، والذي نفسي بيده. قالت: يا رسول الله.. إن أبا سفيان رجل مسيك، فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: لا أراه إلا بالمعروف»[1] أي خذي من ماله قدر ما تعارف عليه الناس من مصروف.

إن إسلام هذا الكم من البشر دون إكراه.. دون تصفية حساب أو ثأر في هذه الفترة القصيرة التي لا تتجاوز الأسبوع.. يوحي بأن ثقافة هذا المنتصر مقنعة وجميلة ومعجزة، وأنها لا تحتاج إلى الكثير من العناء للقبول بها، فكل أدوات العناد الهزيلة لا تستطيع التماسك أمامها، أما إذا كان من يحملها دون سلطان أو دولة، فالثقافة المقنعة تحتاج إلى رجال كمحمد ﷺ وأصحابه المهاجرين والأنصار يحملونها بسلوكهم،

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٩٠. ومعنى مسيك: أي بخيل

وتعاملهم ورحمتهم، لا بالتزامهم في جانب العبادات فقط. فالعبادة بين الإنسـان وبين ربه، وقد تقنع فئة قليلة من أصحاب العقول وممتازي البشر، أما دهماء الناس فتنتظر وتنظر دائماً إلى من يقدم لها شـيئاً يروي غليلها، ويحقق أحلامها بسـلوكه وإنجازه.. عندها يجد التوحيد دروباً فسـيحة نحـو النفوس، وهذا ما يفعله محمد ﷺ وصحبه الكرام اليوم على أرض مكة وتحت سمائها.

هاهـو أحد الرجـال القادمين لرصد الأحداث يعود إلـى قومه محملاً بالإيمان، فيـروي ابنه الصغير بغبطة قصة عودة والـده، وقصة المجد الذي توجه به قومه رغم صغر سنه.. أتذكرونه، إنه عمرو بن سلمة ذلك الطفل قصير الثوب المشغول بملاحقة القوافل وحفظ هذا الكلام الجديد (القرآن). ها هو يحدثنا عن براءته وثوبه القصير فيقول: «كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسـألهم ما للناس؟ ما للناس؟ ما هـذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسـله.. أوحى إليه أو أوحـى الله بكذا. فكنت أحفـظ ذلك الـكلام وكأنما يقر في صـدري، وكانت العرب تلوم بإسـلامهم الفتح[1] فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق.

فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسـلامهم، وبدر أبي قومي بإسـلامهم، فلمـا قدم قال: جئتكم والله مـن عند النبي ﷺ حقاً. فقال: صلوا صلاة كذا في حين كـذا، وصلوا كذا في حين كذا، فـإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآناً. فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني، لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا بن سـت أو سبع سنين. وكانت علي بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني[2]. فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا أسـت[3] قارئكم؟ فاشتروا، فقطعوا لي قميصاً، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص»[4]

فـرح الطفل الإمام بثوبه الجديد كعـادة الأطفال، ولم يأنف قومه من إمامة طفل لهم في الصلاة، لأن الإسلام يريد ذلك ويستحبه، أما على أرض مكة فما زال المبايعون

---

(١) أي كانت القبائل تنتظر فتح مكة لتعلن إسلامها.
(٢) أي انكشفت عورته لأن ثوبه كان قصيرا جداً.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٤.
(٤) أي عورته.

والطلقـاء يتوافـدون على النبي ﷺ، أما المهاجرون والأنصـار فلم يكن همهم الاحتفال بانتصارهـم على أرض مكة، ولا اسـتعراض سـبقهم على طرقاتها .. كانت أنفاسـهم وابتسـاماتهم أطواق نجاة لمن حولهم، وكانت كلماتهم بسـاتين كرم للمتعبين.. ينطلقون في اتجاه كل عقل حائر، وكل قلب متعب بالشرك والضياع، فكما نجح أبو بكر مع والده أسرع البقية إلى من بقي من أرحامهم، بل إن من دخل منهم الإسلام يقوم بعرض قناعته على غيره، وهاهو أحدهم ويدعى مجاشـع بن مسـعود يبايع النبـي ﷺ ويقول: «أتيت النبـي ﷺ أبايعه على الهجرة، فقال: إن الهجرة قد مضت لأهلها، ولكن على الإسـلام والجهاد والخير»[1] ثم يتجه مجاشع إلى أخيه فيقنعه ويأخذ بقلبه إلى النبي ﷺ، ويقول: «جئـت بأخي أبي معبد إلى رسـول الله ﷺ بعد الفتح فقلت: يا رسـول الله بايعه على الهجـرة. قال: قد مضت الهجرة بأهلها . قلت فبأي شـيء تبايعه؟ قال على الإسـلام والجهاد والخير»[2] فقد «قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا اسـتنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السـماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة مـن نهار، فهو حـرام بحرمة الله إلى يوم القيامة.. لا يعضد شـوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها[3] ولا يختلى خلاها، قال العباس: يا رسـول الله.. إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم قال: قال: إلا الإذخر»[4] وهو (حشيش طيب الريح أطول من الثيل)[5]

وقد وافق ﷺ على استثناء الإذخر لحاجة أهل مكة له، أما ما عدا ذلك فلا يجوز لأحد داخل منطقة الحرم قطع شجر، أو مطاردة صيد، أو حتى التقاط شيء ضائع إلا لإيصاله إلى أهله، أو تسليمه لمن يتولى إمارة الحرم.. كان الصحابة يستمعون بإنصات إلى تلك التعليمات وفجأة قال النبي ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٨٧.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٨٧.

(٣) أي من وجد شيئا ضائعا في مكة فلا يجوز له أن يأخذه، إلا لكي يبحث عن صاحبه. ومعنى يختلى خلاها أي لا يقطع ولا يزال نباته الذي ينبت من نفسه.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦٥١.

(٥) لسان العرب ٤-٣٠٣.

اكتبوا لأبي شاه

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحل لأحد كان قبلي، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لن تحل لأحد بعدي، فلا ينفر صيدها ولا يختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين:

إما أن يفدى وإما أن يقتل.

فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا؟ فقال رسول الله ﷺ: إلا الإذخر. فقام أبو شاه "رجل من أهل اليمن" فقال: اكتبوا لي يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه»(١)

وهو إذن منه ﷺ لمشروع تدوين أقواله وأفعاله وتقريراته، حتى لقد تحدث راوية الإسلام أبو هريرة عن امتثال المأخوذين بالرواية فقال «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»(٢)

وبعد أيام بيضاء في مكة، هاجت الذكريات بالحبيب ﷺ، وهزه الشوق إلى مراتع الصبا وذكرياتها الجميله.. اهتز قلبه إلى ذكرى آمنة الحنون، فاتجه إلى قبرها، فكانت الدموع هي الكلمات، وكان الحزن يملأ الجميع.

أحد الصحابة حضر الحدث ورواه فقال: (لما فتح رسول الله ﷺ مكة أتى حرم قبر، فجلس إليه فجعل كهيئة المخاطب، وجلس الناس حوله فقام وهو يبكي. فتلقاه عمر وكان من أجرأ الناس عليه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ قال: هذا قبر أمي سألت ربي الزيارة فأذن لي، وسألته الاستغفار فلم يأذن لي، فذكرتها فذرفت نفسي فبكيت. فلم ير يوما كان أكثر باكيا منه يومئذ)(٣)

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٨٨.

(٢) صحيح البخاري ١-٥٤.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٣ - ٢٩ حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي عن سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن ابيه قال، وفي حديث الأسدي عن سفيان الثوري شيء رغم أنه ثقة ثبت، لكنه لم ينفرد، فقد توبع. والحديث مر معنا في وفاة آمنة

طوى عليه السـلام ذكرياته وأحزانه، واتجه إلى مكة ليجعل منها واحة للمتعبين.. ينشر فيها التوحيد والعدل والحب والنظافة، يعيد تكوينها بالإسلام، ويعيد لها طهرها، وفي سط هذا الاسترخاء الجميل على سواحل الإسلام، وتحت أشعة شمسه الساحرة كان التوتر يسود مناطق قريبة من مكة، وبالذات تلك المناطق التي تقطنها قبيلة هوازن الهادئة المسالمة.. والشجاعة أيضاً.

هوازن متوترة

فقد أربكتها الإشـاعات التي ترددت حول جمع النبي ﷺ لعشـرة آلاف مجاهد، وأثارت مخاوفها تلك الحشـود.. كانـت التخمينات قد ذهبت بهوازن بعيداً، فظنت أن النبي ﷺ يقصدها بذلك الجيش الكاسـح، فاسـتغدت لنزاله استعداداً انتحارياً، ولا أدري من الذي وسـوس لها وحرضها، وهي القبيلة التي لم يشهد تاريخها أي تصرف يحسـب ضدها. وقد شاركتها هذا الخوف قبيلة ثقيف، وهي أيضاً لم تقم بأي نشاط معاد للنبي ﷺ، سـوى ذلك الموقـف الذي صدر من بعض رجالهـا قبل الهجرة. لكن المبـادرة جاءت من هوازن فهي الآن «على بكرة أبيها، بظعنها ونعمها وشـائها هي في وادي حنين»[1] لم يبق منها ذكر ولا أنثى إلا توجه نحو وادي قريب من مكة يسمى وادي حنين، وقد اختبأوا «في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا»[2]

كل هـذا كان يجري في الوقت الـذي كان فيه النبي ﷺ وأصحابه ينعمون بأجواء مكة الهادئة الجميلة، ويقترب عيد الفطر فيخرج المسـلمون زكاة الفطر للفقراء والمسـاكين في مكة، ويواسونهم بطريقة لطيفة لم يتعودوا رقتها من قبل، ويأتي العيد فيصلي المسلمون ﷺ العيد، ويخطب النبي ﷺ بأكثر من عشـرين ألفاً من المسلمين والمسلمات، ثم يحتفلون بعيد

---

(١) سـنده صحيح رواه في الآحاد والمثاني ٤-١٠٦ والنسائي في الكبرى ٥-٢٧٣ وغيرهما من طريق: معاوية بن سـلام عن جده أبي سـلام عن أبي كبشة السلولي عن سـهل بن الحنظلية رضي الله عنه فأبو كبشة تابعي كبير ثقة: التقريب ٢-٤٦٥ وتلميذه تابعي ثقة أيضاً من رجال مسـلم: التقريب ٢-٢٧٢ ومعاوية ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢-٢٥٩.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابـر عن أبيه رضي الله عنه: عبد الرحمن تابعي ثقة التقريب ١-٤٧٥ وعاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي من رجال الشيخين: التقريب ١-٣٨٥.

الفطـر لأول مرة في مكة، فيرى الطلقاء كم هو جميل هذا العيد بالإسـلام، وكم هو جميل هذا الإسلام الذي ينشر النظافة والفرح والحب، كم هو جميل هذا الدين الذي طالما أغواهم العناد والشيطان بتشويهه، ويرى الطلقاء هذه الاحتفالية الإسلامية المدهشة، فمكة صاخبة بالحركة والحب والتراحم، أكثر من عشـرين ألفاً يفزون جميعاً خمس مرات يومياً للصلاة، ثم يرونهم بعد أداء الصلاة حول المسـجد يتحادثون بـود.. يتبايعون بأمانة، ويقرضون دون ربا، ويتصدقون، ويواسـي بعضهم بعضاً، ويقضون أوقاتاً ممتعة ومرحة تدخل البهجة على النفوس.. أهذه مكـة التي كانت قبل أيام بطيئة مملة كئيبة خائفة وملوثة الأجواء بالأصنام والطبقيـة والعنصرية والربا والأحقـاد؟!! لو لم يكن هذا الرجل نبيـاً لما تغيرت مكة بهذه الطريقة المعجزة، ولو بعد آلاف السنوات.

لكن هذه الأجواء الساحرة تظل بشرية بحتة، إنما موجهة بالوحي النقي والعادل، ومـا دامت بشـرية فلا بد من الزلـل والخطأ، وقد حدث ذلك عندمـا أقدمت امرأة مخزومية على السرقة، فكانت سرقتها رحمة للمسلمين، ودرساً جديداً للطلقاء.

الجريمة والواسطة

حددت المرأة السارقة، واعترفت بجريمتها.. كانت من قريش «كانت امرأة مخزومية تسـتعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها»[1] «فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم سـلمة زوج النبي ﷺ»[2] بعد أن عرفت أن عقوبة السـرقة هي قطع اليد، وانتشر خبر السرقة في مكة، فاهتز الطلقاء لقطع يد امرأة من أعرق قبائل العرب، لكن تلك النعرة تفتتت أمام العدالة كالجذع المتآكل.

عندها توجه أشـرف الطلقاء وأرفعهم نسـباً متنازلين إلى شاب يتيم أسود اللون يدعى (أسامة بن زيد) لكي يتوسط عند رسول الله ﷺ لإسقاط حد السرقة عن تلك المرأة، نظراً لمكانتها الاجتماعية، ولأن في تطبيق الحد عليها مساسـاً بتلك المكانة في نظرهم، توجه أولئك الصناديد إلى شـاب كانوا يرونه قبل أن يسلموا مجرد عبد وابن عبد. لكنه الإسلام يرفع الله به من اعتنقه.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

تقول «عائشـــة زوج النبي ﷺ: إن قريشـــاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسو الله ﷺ.

فأتي بها رســـول الله ﷺ فكلمه فيها أســـامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟

فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشـــي قام رســـول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد.. فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا ســـرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها»[1]

عندها تعلم الطلقاء درساً جديداً اسمه المساواة أمام الشريعة والنظام الإسلامي، بعد أن اســـتوعبوا المســـاواة في التعامل والمكافأة، وأيقنوا أنهم أمام وحي لا يزحزحه شيء، فليس بعد فاطمة من قرابة، والقضية لا تتعلق بشخصين أو ثلاثة يمكن التفاهم حول ما أخذ أحدهما من الآخر، بل يتعلق بأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وبالتالي فهو يتناول بشكل خطير أمن الدولة برمتها، فالدولة التي لا تجيد التعامل مع الجريمة لا تستحق أن تسمى دولة، والحياة فيها لا تعرف معنى للرفاه والاستقرار.

لكن تنفيذ العقوبة في الإسلام لا يعني سوى تنفيذ العقوبة فقط، ثم يعود المذنب بعدها بريئاً ليواصل مع غيره مســـيرته في الإبـــداع والإنجاز.. في موكب هذه الدولة العادلة المنطلقة لآفاق الأرض. هذه المرأة لم تُمسح من ذاكرة الأمة، ولم تصادر حقوقها في المواطنة، ولم يكتب في ســـجلها أنها صاحبت ســـوابق. هـــي امرأة أخطأت ونالت عقابها وانتهى الأمر، لقد تابت فـ: «قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ»[2]..

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

وقد كان بإمكان أهلها، ومن يهمه أمرها طلب الشفاعة من صاحب المال المسروق، قبل أن يصل الأمر إلى إمام المسلمين وقائدهم وقاضيهم ﷺ، لكن عند وصول الشكوى إلى الإمام تكون الشفاعة قد وصلت إلى طريق مسدود، عندها تتحول الشفاعة في هذه الحالة إلى كبيرة قال عنها النبي ﷺ: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله عز وجل فقد ضاد الله في أمره»[1]

كان تطبيق هذا الحد يعني أشياء كثيرة منها:

تسليم الجميع بوجود دولة عظيمة ذات نظام يرتب حياتها، وينطلق بها مادياً وروحياً، وكان من ضرورات النظام الجديد إزالة كل شوائب الجاهلية وآثارها، التي قد تسبب ارتكاسة للأمة في الحاضر أو المستقبل، ومن أجل ذلك لم يأمر ﷺ بقطع يد إحدى النساء بل أمر بقتلها.. فلماذا:

النبي ﷺ يأمر بقتل امرأة

هذه المرأة لم تسرق مالاً، ولم تقتل إنساناً.. فقط اكتفت بجر الأمة إلى هاوية الشرك. تلك هي العزى التي هتف أبو سفيان باسمها بعد انتهاء غزوة أحد، فما هي العزى، ومن بعث ﷺ من شجعانه للقضاء عليها؟

أحد الصحابة يحدثنا فيقول: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى، فأتاها خالد بن الوليد وكانت على تلال السمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع فإنك لم تصنع شيئاً. فرجع خالد فلما نظرت إليه السدنة، وهم حجابها، أمعنوا في الجبل وهم يقولون:

يا عزى خبليه..

يا عزى عوريه..

وإلا فموتي برغم..

(١) سند صحيح رواه أحمد ٢-٧٠ وغيره من طريق زهير بن معاوية ثنا عمارة بن غزية عن يحيى بن راشد عن ابن عمر سمعت رسول الله. وعبد الرزاق ١١-٤٢٥ وغيره من طريق معمر عن عطاء الخراساني عن ابن عمر.. زهير ثقة: التقريب ٢١٨ وعمارة لا بأس به من رجال مسلم: التقريب٢-٥١ ويحيى ثقة: التقريب ٥٩١.

فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشـرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره قال: تلك العزى»[1]

ولا أدري هـل هذه المرأة من السـحرة المشـعوذين، أو من مدعـي الألوهية، لكن القضاء عليها كان من حتميات العقيدة الإسـلامية، وإلا فلا معنى للرسالة والنبوة إذا تركت تنشر خزعبلاتها وضلالاتها دون عقاب، فكم سفك من الدماء باسمها.

لكـن في طريق الدولة الإسـلامية الجديدة ما هو أخطر مـن العزى، فالعزى لم تحتمل أكثر من ضربة بالسيف.

هذه الدولة تواجه الآن آخر خطر يقبع في طريقها، وهو ذلك الحشـد الهائل من هوازن، فقد علم النبي ﷺ بتلك التحركات فأرسل جاسوساً ذكياً من أصحابه.. يرصد تحركاتهم وأخبارهم، اسمه عبد الرحمن بن أبي حدرد السلمي رضي الله عنه.

عن ذلك يتحدث جابر بن عبد الله، الذي لم يتخلف عن أي غزوة منذ استشـهاد والده العظيم فيقول إن النبي ﷺ: «لما فرغ من فتح مكة، جمع مالك بن عوف النصري من بني نصر، وجشم ومن سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وناساً من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر، وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف وبنو مالك، ثم سـار بهم إلى رسول الله ﷺ مع الأموال والنساء والأبناء.

فلما سـمع بهم رسـول الله ﷺ بعث عبد الرحمن بن أبي حدرد الأسلمي فقال: اذهب فادخل بالقوم، حتى تعلم لنا من علمهم.

فدخـل فمكث فيهم يوماً أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر، فقال رسـول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟ فقال: عمر كذب ابن أبي حدرد.

فقال ابن أبي حدرد: إن كذبتني فربما كذبت من هو خير مني.

---

(١) سـنده حسـن رواه أبو يعلى ٢-١٩٦ والنسـائي في الكبرى ٦-٤٧٤ وغيرهما من طريق محمد بن فضيل حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال.. الوليد حسن الحديث من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٣٣ والوليد عن أبي الطفيل على شرط مسلم: (٣-١٤١٤ و٤٢١٤٤) وقد توبع في المختارة ٨-٢٢٠ من طريـق أبـي يعلى الموصلي ثنا عبد الله بن عمر بن أبان ثنا عبد الله بن المبارك أخبرني عبيد الله بن أبي زياد عن أبي الطفيل ولعل الضياء رحمه الله قد وهم في هذا السند (انظر صحيح الموسوعة).

فقال عمر: يا رسول الله.. ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟

فقال رسول الله ﷺ: قد كنت يا عمر ضالاً، فهداك الله عز وجل.

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية، فسأله أدراعاً مائة درع وما يصلحها من عدتها، فقال: أغصباً يا محمد؟

قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك، ثم خرج رسول الله ﷺ سائراً»[1] بعد أن عين أميراً على مكة.. صحابي اسمه: عتاب بن أسيد، ويبدو من لغة الحوار بين النبي ﷺ وصفوان بن معطل أن صفوان لا يزال على جاهليته، أو أنه أسلم مجاملة.

أخذ ﷺ الأدراع ثم خرج ﷺ إلى:

غزوة حنين بين مكة والطائف

بعد أن تجهز بجيش كبير مؤلف من عشرة آلاف مجاهد قدموا معه قبل الفتح، بالإضافة إلى أعداد غفيرة من الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة، وفي الطريق نطق بعض الصحابة المخلصين من الطلقاء ممن أسلم حديثاً، بكلام ينسف ما خرج النبي ﷺ من أجله، بل وما بعث من أجله..

بعض الصحابة يريد تقليد المشركين

يقول أحد المشاركين في تلك الغزوة واسمه الحارث بن مالك: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثوا عهد بالجاهلية، قال: فسرنا معه إلى (حنين) وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء، يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.

فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله.. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٥١: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سار إلى حنين. عاصم وشيخه تابعيان ثقتان التقريب ٢٨٦ و٢٣٧ لكن له شاهد عند ابن أبي شيبة ٧-٣٤٨ عن عبد الله بن أبي الهذيل مرسلاً.

قال رســول الله ﷺ: الله أكبر؛ قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم»[1] أي سوف تقلدون اليهود النصارى في بدعهم.

صحح النبي ﷺ تلك الزلة، ثم أخذ صحابته نحو حنين، «ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فأطنبوا السير حتى كانت عشية فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رســول الله.. إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم، بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين.

فتبســم رســول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله، ثم قال: من يحرســنا الليلة؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله. قال: فاركب. فركب فرســاً له فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ولا نغرن من قِبَلِكَ الليلة[2].

فلما أصبحنا خرج رســول اللــه ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين ثم قال: هل أحســستم فارسكم؟ قالوا: يا رسول الله.. ما أحسسناه. فثوب[3] بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب[4]، حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: أبشروا فقد جاءكم فارسكم.

فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ، فســلم، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشــعب.. حيث أمرني رســول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً. فقال له رســول الله ﷺ هل نزلت الليلة؟ قال: لا إلا مصلياً أو قاضياً حاجة. فقال له رســول الله ﷺ: قد أوجبت[5]، فلا عليك أن لا تعمل بعدها»[6]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (السيرة النبوية ٥-١١٠) حدثني ابن شهاب الزهري عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي أن الحارث ابن مالك.. الزهري إمام ثقة مر معنا كثيراً وشيخه تابعي ثقة من رجال الشيخين والبقية صحابة.

(٢) أي احذر أن تسهو فيفاجئنا العدو من الجهة التي تراقبها.

(٣) نادى للصلاة.

(٤) كان يلتفت لأنها صلاة خوف.

(٥) أي فعلت فعلا يوجب دخولك الجنة.

(٦) ســنده صحيح مر معنا تحت عنوان: هوازن متوترة وهذا لفظ أبي داود ٣-٩ والحديث من طريق معاوية ابن سلام عن زيد بن سلام سمع أبا سلام حدثني أبو كبشة حدثه سهل..

بشـــر النبي ﷺ صاحبه بثواب عظيم لا يضره معه -ربما- أن لا يقوم بشـــيء من النوافـل، كما بشـــر أصحابه بالنصر والغنائم الهائلة التي ســـاقتها هوازن معها بتهور وانتحارية غير معهودة، ولم تكن هوازن وحدها فقد انضمت إليها قبيلة أخرى.

غطفان وغيرهم ينضمون إلى هوازن

اســـتطاع زعيم هوازن مالك بن عوف أن يحرض من بقي من المشركين حوله على قتال النبي ﷺ والقضاء عليه بعد أن فشلت قريش في ذلك، فقد «جمع مالك بن عوف النصري:

من بني نصر

وجشم

ومن سعد بن بكر

وأوزاع من بني هلال

وناساً من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر

وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف

وبنو مالك.

ثم ســـار بهم إلى رســـول الله ﷺ وسار مع الأموال والنســـاء والأبناء»[1] ولم تكن غطفان وغيرها أقل انتحارية ولا أقل حماساً في الاستعداد للجيش المسلم فـ:

ماذا أحضر المشركون معهم

لا يصدق المرء ما قام به مالك بن عوف ومن معه من زعماء المشركين في حشدهم لقتال النبي ﷺ، فقد شل محمد ﷺ وأصحابه تفكيرهم، فأقدموا على إحضار النساء والأطفال وكل حيوان أليف تملكه هوازن وغطفان.

(١) سنده صحيح وهو حديث ابن إسحاق السابق عن جابر ومن طريقه رواه الحاكم ٣-٥١.

يقول أحد الصحابة المشاركين رضي الله عنهم: «لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم، ومع النبي ﷺ عشرة آلاف ومن الطلقاء»[1]

إن أشخاصاً فعلوا هذا لا يمكن وصفهم إلا بالتهور، فالحكيم يخوض الحرب وهو يحسب حسابات النصر والهزيمة معاً، فإن انتصر فقد حقق ما يريد، وإن خسر فلا بد من خاسر والأيام تمنح له أكثر من فرصة، لكن مالك زعيم هوازن الآن رجل المغامرة والمقامرة.. رجل الفرصة الواحدة.. ربما لثقته ببسالة جيشه. ولم يكن المسلمون أقل ثقة منهم، فقد أعجبتهم كثرتهم حتى خيل لبعضهم أن لا أحد يستطيع أن يهزمهم بعد اليوم.

أخبرنا الله سبحانه عن تلك المعنويات فقال: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ لدرجة أن «خرج شبان أصحابه وإخفاؤهم حسراً ليس عليهم سلاح، أو كثير سلاح»[2] هذه الكثرة قد ترفع المعنويات، لكنها قد تسحب خلفها غروراً يكبد الكثير من الضحايا والخسائر، فالنصر من عند الله، لكنه لا يتحقق إلا بمجهود بشري أمر الله بتنفيذه بدقة، ولن ينصر الله جيشاً مسلماً مفرطاً متهاوناً، أو مخالفاً للأوامر، أو غير مستعد. لذلك لا بد من تلافي الأخطاء التي تكلف أثماناً باهظة.. حتى لا يقع الجيش المسلم في فخ غزوة أحد مرة أخرى.

تعالوا نقرأ تفاصيل حنين، ففيها الكثير من المفاجآت.. تعالوا إلى:

وادي حنين وأرضها

فهي الآن تحت سيطرة جيش المشركين، ويبدو من شهود العيان أن المشركين قاموا بتنظيم ما معهم من قوات وغير قوات.. بمنتهى التهور والدهاء معاً، بل ربما قاموا باستنساخ خطة النبي ﷺ في غزوة أحد مع اختلاف التضاريس. فبينما كانت أرض أحد تحتوي جبالاً استغلها ﷺ أفضل استغلال.. نجد أرض حنين تحتوي على أودية استغلها قادة هوازن وغطفان بشكل سليم، أما تخطيط مشركي هوازن وغطفان ومن معهما لتسيير المعركة[3] فهو كالتالي:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٠٠.

(٣) هذا الاستنتاج بنيته على مجموع الأحاديث الصحيحة فقط لمجريات المعركة.

قسمت هوازن وغطفان جيشها إلى قسمين:

أولاً- قســم أمامي، ومكانه مقدمة بطن الوادي، أو لنقل مدخل الوادي، وهو خط المعركة الأول، وقد قسمه المشركون إلى أربعة صفوف، أو أربع مجموعات يقف بعضها خلف بعض وهي:

الصف الأول: الفرسان.

الصف الثاني: المقاتلون من الرجال والشباب.

الصف الثالث: الأقل قوة، وهم النساء والشيوخ والأطفال.

الصف الرابع: ومهمته معنوية، وهو مكون من الأغنام.

الصف الخامس: ومهمته معنوية أيضاً، وهو مكون من بقية الأنعام.

وقد عبر أحد جنود الإســلام عن إعجابه بتلك الصفوف، وهو أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: «افتتحنا مكة، ثم إنا غزونا حنيناً فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت؛

فصفت الخيل

ثم صفت المقاتلة

ثم صفت النساء ومن وراء ذلك

ثم صفت الغنم

ثم صفت النعم»[1]

ثانياً- قســم الرماة، وقد تترس هؤلاء بتجاويف الوادي وتعرجاته، ويبدو أنهم في مكان مرتفع، بحيث يســهل عليهم إصابة المســلمين من خلاله، وعن ذلك يقول جابر رضي الله عنه: «لما اســتقبلنا وادي حنين، انحدرنــا في وادي من أودية تهامة، أجوف حطــوط[2] إنمــا ننحدر فيه انحداراً، وفي عماية الصبح، وكان القوم قد ســبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا»[3]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٢) شديد الانحدار .

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه: عاصم وشيخه تابعيان ثقتان التقريب ٢٨٦ و٣٢٨ .

أما جيش المسلمين فكان كالعادة منظماً ومقسماً، يقول أنس: «وعلى مجنبة خيلنا خالد ابن الوليد»، وهذا يدل على أن هناك جناحاً أيمن وآخر أيسر، وقلباً يقوده النبي ﷺ، لكن النبي ﷺ كان يشعر ببعض الخوف ليس من الأعداء، فما خرج إلا وقد أعد لهم واستعد. لكن خوفه كان منصباً على جيشه العظيم الذي يحقق الانتصارات، كما لا ينسى أن الإنسان في أوج انتصاراته لا يزال إنساناً مخلوقاً، ولا بد لهذا المخلوق أن يظهر ويبطن الامتنان لخالقه.. تحت أي ظرف من الظروف.

ها هو ﷺ، وبعد كل صلاة فجر يحرك شفتيه، فيتساءل الصحابة عن تلك الأحرف التي لا يسمعونها، ويشعرون بالشوق إليها؟

يقول الصحابي المهاجر الصابر المجاهد صهيب الرومي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله، فقلنا: يا رسول الله إنا نراك تفعل شيئا لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء.

فأوحى الله إليه: أن خير أمتك بين إحدى ثلاث: أما ان نسلط عليهم عدوا من غيرهم، فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت. فشاورهم. فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت. فأرسل عليهم الموت فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفا.

قال رسول الله ﷺ: فأنا أقول الآن حيث رأى كثرتهم: اللهم بك أحاول وبك أصاول وبك أقاتل»[(١)] «اللهم إنك إن تشأ لا تعبد بعد هذا اليوم»[(٢)]

بالدعاء كان ﷺ يبدأ معاركه، أما هوازن ومن معها، فبدأت معركتها ببث جواسيسها لرصد تحركات وتجهيزات النبي ﷺ، وقد تمكن أحدهم من أن يندس بين

---

(١) سنده صحيح رواه الإمام أحمد ٤-٣٢٢: حدثنا عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. عبد الرحمن تابعي ثقة كبير وعفان إمام معروف وكذلك بقية السند. وهو أصح من لفظ خيبر كما بينت في صحيح الموسوعة.

(٢) سنده ثلاثي صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٦ حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس قال كان من دعاء النبي يوم حنين: يزيد وحماد ثقتان معروفان وحميد سمع من أنس.

جنـد النبي ﷺ، لكن نظراته وحركاته، وربما ألفاظـه أفصحت للنبي ﷺ عن هويته، فكانت هذه القصة التي تم فيها:

القبض على جاسوس هوازن

يقـول الفارس سـلمة بن الأكـوع، والذي كلـف بمهمة القبـض أو القضاء على الجاسوس: «غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن، فبينا نحن نتضحى[1] مع رسول الله ﷺ، إذ جـاء رجل على جمل أحمر فأناخه، ثـم انتزع طلقاً من حقبه[2] فقيد به الجمل، ثم تقدم يتغدى مع القوم، وجعل ينظر.. وفينا ضعفة ورقة في الظهر، وبعضنا مشـاة. إذ خرج يشـتد فأتى جمله فأطلق قيده، ثم أناخه وقعد عليه فأثاره، فاشـتد به الجمل، فاتبعه رجل على ناقة ورقاء.

قال سـلمة: وخرجت أشتد، فكنت عند ورك الناقة، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمـل، ثـم تقدمت حتى أخذت بخطـام الجمل فأنخته. فلما وضـع ركبته في الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر، ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه.

فاستقبلني رسـول الله ﷺ والناس معه فقال: من قتل الرجل؟ قالوا: ابن الأكوع، قال: له سلبه أجمع»[3]

حصل ابن الأكوع على سـلب الجاسـوس، وتخلص المسـلمون من شره واطمأنوا إلى عدم وصول معلومات لأعدائهم، وتهيأ النبي ﷺ ومن معه لقتال المشـركين وتواجه الجيشان فـ:

كيف سارت المعركة على أرض حنين

فـي البداية كانت المواجهة بين الجيشـين على أرض الـوادي.. دون تدخل رماة المشـركين، وعندما التحم الجيشـان هجم المسـلمون ببسـالتهم المعروفة، فاكتسحوا عدوهم وهزموهم، بل وطاردوهم. وكان فارس الإسلام (أبو قتادة) أحد هؤلاء.

---

(١) أي نتغدى.

(٢) أخرج حبلا من حقيبته.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٣٧٤.

يقــول رضي الله عنه «خرجنا مع رســول الله ﷺ عام حنــين، فلما التقينا كانت للمســلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشــركين علا رجلاً من المسلمين، فاستدرت حتى أتيتــه من ورائه، حتى ضربته بالســيف على حبل عاتقه، فأقبــل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرســلني»[1] وسقط ذلك المشرك جثة هامدة، وهرب المشركون من أرض المعركة، فلاحقهم المسلمون، لتتكرر المأساة والأخطاء.

يقول البراء: «لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم»[2] وبدأ الطلقاء يجمعون الغنائم الهائلة التي خلفتها هوازن ومن معها، ومرة أخرى تطل المأساة برأسها البشع.. مرة أخرى يرتكب بعض المؤمنين الخطأ نفســه، لكنهم معذورون فهم لم يحضروا، ولم يتجرعوا كأس أُحد المر.. مرة أخرى:

الغنائم والرماة يهزمون المسلمين

الغنائم هي الغنائم، لكن الرماة ليســوا هم الرماة.. إنهم رماة هوازن، وهم دقيقوا التصويب، وعندما وصل الجيش المسلم إلى مرمى تلك السهام وهو يطارد تلك الفلول الهاربة.. انهمر سيل الســهام من تلك التجاويف والمنحنيات، فقد كان الوادي مفخخاً بالرمــاة البارعــين، وقد أعان الرماة فــي مهمتهم ذلك الارتباك الــذي أحدثه تكالب الطلقاء على الغنائم، وهم لا يعلمون أنها ليســت للنهب ولا لمن ســبق. ولك أن تتصور جيشاً قوامه أكثر من عشرة آلاف مقاتل.. يتدفق مسرعاً مدمراً كالموج خلف عدوه، ثم تعتــرض طريقه مجموعة من أفراده بطريقة غير منظمة، لالتقاط غنائم في الطريق؟ لقــد تحــول الجيش مرة أخرى إلى كومــة من الفوضى.. زاد فــي بعثرتها ذلك الموت المنهمر من سهام المشركين.

يقول البراء نافياً تهمة الفرار عن الرسول عندما سئل: «أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رســول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام»[3] «والله ما ولى النبي ﷺ، ولكن ولى

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

ســرعان الناس، فلقيهم هوازن بالنبل، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول:

أنـــا الـــنـبـــي لا كـــذب   أنـــا بـــن عـــبـــد المـــطـــلـــب»[1]

وكان كثير ممن ولى لم يســتعد للحرب اســتعداداً يليق بها.. ظناً أن هذا الجيش الضخم ليس من الممكن هزيمته، فقد «خرج شــبان أصحابه وإخفاؤهم حسراً[2] ليس بســلاح فأتوا قوماً رماة (جمع هوازن وبني نصر) ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر ثم قال:

أنـــا الـــنـبـــي لا كـــذب   أنـــا بـــن عـــبـــد المـــطـــلـــب»[3]

كان صوتــا يتأجج حماســاً وثباتاً مثيراً، لكنه لا يجد حوله ســوى غبار الطلقاء، الذين ولوا تاركين غبارهم يخنق أرض حنين:

ثم هرب بعدهم الأعراب

يقول أنس: «فجعلت خيلنا تلوي خلف ظهورنا، فلم نلبث أن انكشفت خيلنا، وفرت الأعراب ومن نعلم من الناس»[4]

وقد ســاهمت منحدرات الوادي في هزيمة المؤمنين.. ســاهمت في وقوعهم في الفــخ المعد لهم، حيث يصف جابر ذلك الوادي وما حــدث فيه فيقول: «كان القوم قد ســبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شــعابه وأحنائه ومضايقه، وقــد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شــدوا علينا شدة رجل واحد، وانشــمر النــاس راجعين لا يلوي أحد على أحــد»[5] إلا النبي ﷺ فقد كان كما وصفه

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٥٤.

(٢) الحفيف هو غير المثقل بالعتاد، والحسر أي دون دروع.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٧١.

(٤) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٥) ســنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر ومعنى: انشمر الناس أي اسرعوا.

البــراء بن عازب وهــو يتحدث عن الفرار يوم حنين بقوله: «أشــهد على نبي الله ﷺ ما ولى»[1] «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشــجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ»[2]

لقد توجه ﷺ نحو الوثنيين بمفرده بعد أن «ولى المســلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار»[3]

كان مشهد الهروب محزناً لفارس الإسلام أبي قتادة الذي يقول عن تلك اللحظات: «لما التقينا كانت للمســلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشركين علا رجلاً من المسلمين، فاســتدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالســيف على حبــل عاتقه، فأقبل عليّ فضمنــي ضمــة وجدت منها ريح الموت، ثــم أدركه الموت فأرســلني. فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله»[4]

ففــرار جيش بهذا الحجم شــيء لا يصدقه عمر، «وانحاز رســول الله ﷺ ذات اليمن، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلموا إلي أنا رســول الله.. أنا محمد بن عبد الله.... فلا شيء.

حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رســول الله ﷺ نفــر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وفيمن ثبــت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومــن أهل بيتــه علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأبو ســفيان بن الحارث، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد - قتل يومئذ.

ورجــل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية ســوداء فــي رأس رمح له طويل أمــام هوازن، وهوازن خلفــه، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاتــه الناس رفع رمحه لمن وراءه، فاتبعوه، وأبو ســفيان بن حرب وبعض الناس يشمت بالمسلمين»[5]. ويتوقعون بل يتمنون هزيمة ساحقة للمؤمنين، لكن النبي ﷺ لم يترك مساحة أكبر من هذه لانشراح

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٩٨ والنسائي في السنن الكبرى ٥-١٩٧ واللفظ له.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٥) ســنده صحيح مر معنا رواه ابن إســحاق - ابن هشــام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه رضي الله عنه

قلوب هؤلاء الشـــامتين، فمثل هذه الحالات الشديدة والحرجة يصعب تجاوزها بأمثال الطلقاء.. الذين لم يقضوا فترة تربوية كافية على يد النبي ﷺ. ولهذا صاح النبي عليه السـلام يستدعي البنائين الأوائل للدولة الإسلامية.. الذين شيدوها بدمائهم وعرقهم وإيمانهم.. صاح بهم وناداهم «نادى رسول الله ﷺ: يال المهاجرين.. يال المهاجرين. ثم قال: يال الأنصار.. يال الأنصار...»[1] قال أنس «قلنا: لبيك يا رسول الله»[2]

وحتى يصل الصوت أقصى مدى.. استعان النبي ﷺ بعمه الثابت الشجاع العباس بن عبد المطلب، والذي يمسك الآن بلجام بغلة نبيه.. يواجه بها عاصفة هوازن ونبالها، ويقول «إني لمع رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، وكنت امرءاً جسـيماً شـديد الصوت، ورسـول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء...

فقال: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب السمرة.

فأجابـوا: لبيك.. لبيك. فيذهب الرجل ليثنـي بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سـيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ. حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا. وكانت الدعوى أول ما كانت: ياللأنصار.. ثم خلصت أخيراً: ياللخزرج. وكانوا صبراً عند الحرب.

فأشرف رسـول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال: الآن حمي الوطيس»[3] والجلاد والقتال واسـتعر كالبـركان، وقد كان الصحابة الذين حضـروا المعركة ورووا أحداثها قلة.. كانوا كالغصن وسـط تلـك الغابة التي تجاوزت العشرين ألف مقاتل من الطرفين، لذلك كان قرب معظمهم من النبي ﷺ أثناء المعركة نـادراً وللحظات، فكان كل صحابي يروي المشـهد الـذي رآه، والحالة التي كان عليها النبي ﷺ أثناء مروره فقط.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٧٣٦.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة: ٥-١١٠ حدثني الزهري عن كثير بن العباس عن أبيه العباس ابن عبد المطلب قال: وهذا السند صحيح الزهري تابعي إمام ثقة أشهر من أن يعرف وشيخه صحابي صغير.

أحــد هؤلاء الصحابة مر بالنبي ﷺ أثنـــاء الهزيمة، فرأى صحابياً يدعى زيد مع النبي ﷺ، فوصف ذلك المشـــهد بقوله: «إن رســـول الله ﷺ يوم حنين انكشـــف الناس عنه، فلم يبق معه إلا رجل يقال له زيد.. آخذ بعنان بغلته الشـــهباء، وهي التي أهداها له النجاشي، فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا زيد.. ادع الناس.

فنادى: أيها الناس هذا رسول الله يدعوكم. فلم يجب أحد عند ذلك. فقال: ويحك حض الأوس والخزرج فقال: يا معشـــر الأوس والخزرج. هذا رسول الله يدعوكم. فلم يجبه أحد عند ذلك. فقال: ويحك ادع المهاجرين، فإن لله في أعناقهم بيعة.

فحدثني بريدة أنه أقبل منهم ألف قد طرحوا الجفون[1] وكسروها، ثم أتوا رسول الله ﷺ حتى فتح عليهم»[2]

وأحد الصحابة يقول: «انطلق الناس، إلا أن مع رسول الله ﷺ رهطاً من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غير كثير، وفيمن ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد»[3]

هذا ما يحدث في المقدمة، أما في المؤخرة فقد كانت هناك امرأة ثابتة تفوقت على كثير من المحاربين الرجال.. إنها المرأة التي سجلت حضورها لمعظم معارك النبي ﷺ «أم أنس بن مالك» أو أم ســـليم، أو زوجة أبي طلحة المقدام.. كانت رضي الله عنها تتأهب بخنجر للمشركين، بل لمن يولي هارباً من الطلقاء!!

يقـــول ابنها «أنس: إن أم ســـليم اتخذت يوم حنين خنجـــراً، فكان معها فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر؟ فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشـــركين بقرت به بطنه. فجعل رســـول

---

(١) أي رموا الجفون وهي أغمدة السوف.

(٢) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٧ حدثنا الفضل بن دكين حدثنا يوسف بن صهيب عن عبد الله بن بريدة مرسلاً وآخره متصل وليس كما في المطالب حيث وهم الهيثمي رحمه الله، فوصله فالذي وصله هو الروياني ١-٧٣ حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا عبيد الله بن موسى أنا يوسف به موصولاً.

(٣) حديث صحيح مر معنا وهو عند ابن إسحاق.

الله ﷺ يضحك. قالت يا رسـول الله: اقتل من بعدنا من الطلقاء.. انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»[١]

فقد نظم ﷺ أصحابه من جديد، ثم هجم بهم على المشركين، وهب علي ابن أبي طالب وشجاع آخر من الأنصار نحو حامل الراية حتى استطاعوا:

إسقاط راية المشركين

فقد كان «رجل من هوازن على جمل له أحمر في يده راية سـوداء، في رأس رمح طويل له أمام الناس، وهوازن خلفه، فإذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفعه لمن وراءه. فاتبعوه.

قـال جابر بن عبد الله: بينـا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله ذلك يصنـع ما يصنع، إذا هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه، فيأتيه علي من خلفه فضرب عرقوبي الجمل، فوقع على عجزه. ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربـة أطن قدمه بنصف سـاقه، فانعجف عن رحله، واجتلـد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ»[٢]

فعاد النصر إلى أصحابه و:

نزلت المعجزة

يقول (سلمة بن الأكوع) أحد الذين رأوها: «تقدمت فأعلو ثنية، فاستقبلني رجل من العدو، فأرميه بسـهمه فتوارى عني فما دريت ما صنع؟ ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخـرى، فالتقوا هـم وصحابة النبي ﷺ فولى صحابة النبي ﷺ، وأرجـع منهزماً وعلي بردتان متـزراً بإحداهـما مرتدياً بالأخـرى، فاسـتطلق إزاري، فجمعتهما جميعاً ومررت على رسـول الله ﷺ منهزماً وهو على بغلته الشـهباء، فقال رسـول الله ﷺ: لقـد رأى ابن الأكوع فزعاً..؟

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٢.

(٢) سـنده صحيح مر معنا رواه ابن إسـحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن ابن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله: السيرة النبوية ومن طريقه الإمام أحمد ٣-٣٧٦.

فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال: شاهت الوجوه.

فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل»(١)

وقد اختصر سلمة أحداثاً رآها غيره قبل أن يقول النبي ﷺ:

شاهت الوجوه

فالعباس كان هناك.. يرى ويقاتل ويروي تفاصيلاً فاتت سلمة فيقول: «لزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان ابن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: أي عباس ناد أصحاب السمرة. فقال عباس وكان رجلاً صيتاً: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟

فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك.. يا لبيك. فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار.. يا معشر الأنصار.

ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج.. يا بني الحارث بن الخزرج.

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: هذا حين حمي الوطيس.

ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب محمد...

---

(١) صحيح مسلم ٣-٢-١٤٠٢.

فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى أحدهم كليلاً وأمرهم مدبراً»(١) حتى انقشع الغبار، فإذا ساحة الحرب أكوام من القتلى و«الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ»(٢)

أما الغنائم فهائلة لا تعد ولا تحصى.. إنها ثروة هوازن وما تملك كاملة، وثروة من جاء معها من المشركين.. تحولت إلى أيدي المسلمين، بعد أن كادت تضيع منهم ويضيع معها ما هو أثمن. ليس هناك ألفاظ تعبر عما جرى مثل كلمات الله ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾.

وبعد أن هدأ كل شيء «التفت رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله ﷺ، وكان حسن الإسلام حين أسلم، وهو آخذ بثفر بغلته.

فقال من هذا؟ قال: أنا ابن أمك يا رسول الله»(٣).

يقول أبو قتادة: ثم إن «الناس رجعوا وجلس النبي ﷺ فقال: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه. فقمت فقلت: من يشهد لي. ثم جلست، ثم قال: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه. فقمت فقلت: من يشهد لي. ثم جلست. ثم قال الثالثة مثله، فقمت، فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا قتادة؟ فاقتصصت عليه القصة.. فقال رجل: صدق يا رسول الله، وسلبه عندي فأرضه عني.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا ها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ يعطيك سلبه!!

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٨.
(٢) آخر حديث ابن إسحاق الصحيح الماضي.
(٣) آخر حديث ابن إسحاق الصحيح الماضي.

فقال النبي ﷺ: صدق فأعطه. فبعت الدرع، فابتعت به مخرفاً في بني سلمة، فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام»(١)

هذه هي سنة النبي ﷺ في سلب المقتول وهي غير الغنائم، فالغنائم تم توزيعها من قبل الله سبحانه الذي قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أما السلب فهو أسلحة وأمتعة المقاتل المشرك الشخصية، وهو من نصيب من يقتله من المؤمنين أثناء المعركة، وللسلب قيمة معنوية تحفيزية على الإقدام أثناء المعركة.. حيث يقول ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»(٢)

ولما سمع الصحابة هذا الكلام منه ﷺ جاء أبو طلحة لأخذ ما يستحق. يقول أنس بن مالك: «قال رسول الله ﷺ يومئذ: من قتل كافراً فله سلبه. فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً فأخذ أسلابهم»(٣)

أما الغنائم الهائلة فلم يقسمها النبي ﷺ حتى الآن، وتوزيعها ليس في قائمة اهتماماته الآنية، فهناك أخطار ملحة تحتاج إلى حل عاجل جداً.. هناك الطائف الذي شارك زعماؤه ورجاله في هذه المعركة، ثم لجأوا بعد الهزيمة إليه، وهم الآن في حصن منيع يحتاج إلى تفكير عسكري ناضج. وهناك الفلول المنهزمة من هوازن وغطفان ومن معهم، وهي تحتاج إلى معالجة جادة، فالظروف قد تغيرت، ومكة قد فتحت، ومعظم العرب الآن تحت لواء التوحيد، لذلك قرر ﷺ:

حبس الغنائم في الجعرانة

فنادى رسول الله ﷺ أحد الصحابة واسمه: بديل بن ورقاء فجعله أميراً على الغنائم، وأمره أن يأخذها إلى الجعرانة، وهو مكان قريب من مكة لكنه خارج الحرم مثل التنعيم.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣٧١.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٩ وغيره من طرق عن حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس. إسحاق تابعي ثقة حجة: التقريب ١٠١.

يقــول بديل عن مهمتــه: «إن النبي ﷺ أمــر بديلاً أن يحبس الســبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم عليه. فحبســه»[1] ثم تفقد النبي ﷺ جيشــه ودفن من استشهد منهــم، واطمأن على إصابات أفراده خاصة القــادة المصابين، وكان أحد القادة الذين أصيبوا خالد بن الوليد، وهو مســئول عن قســم من خيل جيش المســلمين، فجاء ﷺ بنفسه، وسأل واطمأن على إصابة خالد بن الوليد.

يقول أحد الصحابة: «إن خالد بن الوليد بن المغيرة جرح يومئذ، وكان على الخيل.. خيل رسول الله ﷺ، وقد رأيت رسول الله ﷺ بعد ما هزم الله الكفار، ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشي في المسلمين، ويقول: من يدل على رحل خالد بن الوليد؟

فمشــيت بين يديه وأنــا محتلم أقول: من يدل على رحــل خالد؟ حتى حللنا على رحله، فإذا خالد بن الوليد مســتند إلى مؤخرة رحله، فأتاه رسول الله ﷺ، فنظر إلى جرحه، ونفث فيه رسول الله ﷺ»[2].

وقــد أصيب من الصحابــة: عبد الله بن أبي أوفى، حيث يقــول أحد الذين رأوا إصابته: «رأيت بِيَدِ ابن أبي أوفى ضربة. قال ابن أبي أوفى: قد ضربتها مع النبي ﷺ يوم حنين»[3]

وهنــاك إصابات أخرى عديدة ألمــت ببعض الصحابة أثناء المعركــة، لكن هناك ما هو أكثر من تفقد الجرحى والصلاة على الشــهداء، فقد كان الإســلام على تلك الساحة حاضراً بكليته.. بسماحته وعدله. فعلى تلك الأرض وبعد انتهاء معركة حنين، وبينما كان النبي ﷺ يتفقد جرحاه.. أحضر بعض الصحابة رجلاً من المسلمين.. ابتلى بحب الخمر، فشربها، فسكر وهو في ظرف تتجول فيه المنايا بين الجنود. ولما مثل بين يديه ﷺ وتأكد من ارتكابه لجريمة الشرب أمر ب:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في التاريخ الكبير ٢-١٤١ والطبرني ٢-٣٠ حدثني بن أبي عبلة عن بن بديل بن ورقاء عن أبيه. وشيخه تابعي ثقة والبقية صحابة واسم ابن أبي عبلة: إبراهيم وهو من رجال الشيخين: التقريب ٩٢.

(٢) ســنده صحيح رواه أحمــد ٤-٨٨: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قــال وكان عبد الرحمن بن الأزهر يحدث وعبد الرزاق هو الإمام الثقة صاحب المصنف وشــيخه معمر ثقة ثبت فاضل التقريب ٥٤١ والزهــري رأس طبقته وشــيخه صحابي. وبعد كلمة جرحه «قال الزهري: وحســبت أنه قال» وجاء عند الحميدي بسند صحيح وعند غيره الجزم بها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٦٨.

إقامة الحد على شارب الخمر

يقول أحد الصحابة: «رأيت النبي ﷺ عام حنين سأل عن رحل خالد ابن الوليد، فجريت بين يديه أسأل عن رحل خالد بن الوليد حتى أتاه جريحاً، وأتي النبي ﷺ بشارب فقال: اضربوه.

فضربوه بالأيدي والنعال وأطراف الثياب، وحثوا عليه من التراب، ثم قال النبي ﷺ: بكتوه. فبكتوه ثم أرسله»[1]

وقد طهر من ذنبه الذي ارتكبه، لكي يعود من جديد لمشاركة إخوته في جهادهم ونشر دين ربهم، فالمسلم لا يدع للمعصية فرصة لإعاقته عن البذل في سبيل الله، والإبداع في مرضاته.. هي كبوة أو كبوات، لكنها ليست أغلالاً إلا عند من يجهل أعماق هذا الدين وآفاقه، أو عند من لا يرى في الآخرين سوى الزوايا المعتمة.. متغاضياً عن تلك الجوانب الجميلة والوضاءة، ومتغاضياً عن تلك العتمة القابعة في أعماقه هو.

نهض ذلك الصحابي مع إخوته خلف نبيهم ﷺ الذي أمر بالتوجه لـ:

حصار الطائف

توجه ﷺ إلى الطائف لحصاره.. في الوقت الذي بعث فيه أبا عامر الأشعري لملاحقة مجموعة من المقاتلين.. كانوا تحت توجيه الشاعر الجاهلي الكبير دريد بن الصمة في معركة سميت:

غزوة أوطاس وقتل دريد بن الصمة

حيث أوكل قيادة هذه السرية إلى أبي عامر الأشعري وذلك «لما فرغ النبي ﷺ من حنين، بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بن الصمة، فقتل دريد وهزم الله أصحابه

---

(١) سنده صحيح رواه الشافعي في مسنده ١-٢٨٥ وغيره. أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن أزهر قال: وهذا السند صحيح وهو السند الذي مر معنا قبل قليل.

قال أبو موســى: وبعثني مع أبي عامر، فرمي أبو عامر في ركبته، رماه جشـمي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟

فأشار، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني. فقصدت له فلحقته، فلما رآني ولى فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تســتحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالســيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم. فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي أقرئ النبي ﷺ الســلام، وقل له: اســتغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يســيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له: قال: قل له: استغفر لي.

فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر. ورأيت بياض إبطيــه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثيــر من خلقك من الناس. فقلت: ولي، فاستغفر.

فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»[(١)]

أثنــاء تلك القصص المؤثــرة، والدعوات الجميلة.. كان الطائــف محاطاً بالقوات الإســلامية المنتصرة المتوثبة، لكن الحصار قد طال مدة أحصاها أحد المقاتلين بقوله: «انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة»[(٢)] وهم في حصنهم المنيع، فلم يستطع المســلمون اقتحامه وفتحه، وقد اســتخدم النبي عليه الصلاة والسلام كافة المحفزات على الفتح لدى جنوده.. حسب الوسائل والإمكانات المتاحة. ولم يكن هناك أفضل من الرمي بالسهام بعد تحصن أهل الطائف داخل قلعتهم.

يقول أحد الصحابة الذين استجابوا: «حاصرنا مع رسول الله ﷺ حصن الطائف، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: من بلغ بسهم في سبيل الله، فهو له عدل محرر[(٣)]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٧١.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) أجر عتق رقبة

فبلغت يومئذ بستة عشر سهماً، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: من رمى بسهم في سبيل الله عز وجل، فهو له درجة في الجنة، ومن شاب شيبة في الإسلام، كانت به نوراً يوم القيامة، وأيما رجل مسلم أعتق رجلاً مسلماً، فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار، وأيما امرأة مسلمة أعتقت فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار»(١)

كان النبي ﷺ يجفف منابع الرق حول أسوار الطائف، بل داخل أسوار الطائف، فبعد أن فشلت الأسهم فلم تُجْدِ شيئاً، ورد أهل الطائف عليها، فاستشهد صحابيان جليلان، وسقطا دون أسوار الطائف المنيعة.. لجأ النبي ﷺ إلى استخدام أساليب جديدة في حربه مع مشركي الطائف.. من هذه الأساليب أسلوب نقل الحرب إلى داخل أسوار الطائف دون تكبد خسائر، أو حتى أدنى مشقة، بأسلوب جديد.. بالتحريض على التمرد والعصيان العام، وذلك بتقديم إغراءات لمن يقوم بـ:

التمرد والفرار من أسوار الطائف

هذا العرض يستفيد منه أناس لهم ثقلهم في حرب المدن، وهم الأرقاء، وهو عرض يواصل تجفيف الرق داخل الطائف نفسها، هذا العرض ينص على أن من هرب من ديار الشرك من العبيد، إلى معسكر المسلمين فهو حر، كما حدث قبل عامين في الحديبية.

وقد استجاب ثلاثة وعشرون من أرقاء الطائف، فهربوا وتدلوا كالفرح من تلك الأسوار.. أبرزهم رجل يدعى أبو بكرة الذي «نزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف»(٢) حصل المسلمون على بعض ما أرادوا، وانقذف الرعب في قلوب المشركين، وأدركوا أن الفتح إن لم يحدث اليوم فهو قادم لا محالة.

أما في معسكر المسلمين فالدولة الإسلامية كانت تمارس أنشطتها خلف أسوار الطائف، وكأن الدولة ليست في حالة حرب. كان ﷺ يمارس دوره التربوي

---

(١) سند صحيح رواه الطيالسي ١-١٥٧ وغيره من طريق هشام عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان ابن أبي طلحة اليعمري عن أبي نجيح السلمي. وهشام الدستوائي ثقة ثبت: وشيخه إمام ثقة وسالم وشيخه تابعيان ثقتان. التقريب ٥٣٦ و٢٢٦

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٣.

حتى في ظروف الحرب، فالقائد المسلم لا يتخلى عن مبادئه ومرتكزاته.. هي زاده وجراب زاده.

كان ﷺ يصحب زوجاته في تلك المعركة، وبينما هو متوجه نحو خباء زوجته أم سلمة سمع كلمة أزعجته، فبادر إلى إصلاحها وإصلاح قائلها وسامعها أيضاً. حيث كان ضمن جيش المسلمين شخص لم يتحدد جنسه حتى الآن: هل هو ذكر أم أنثى؟

وكانوا يطلقون على هذا النوع من الناس لقب: (المخنث) وكان هذا الشخص جالساً عند أم سلمة، ويتحدث إلى أحد الصحابة بلهجة الرجال الذين يميلون إلى النساء.. كان يتكلم بطريقة فيها من قلة الذوق أمام النساء ما أغضب النبي ﷺ.. حيث تقول «أم سلمة رضي الله عنها: دخل علي النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعه يقول لعبد الله ابن أمية: يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان»[1] إنه يصف امرأة بعينها، ويسميها، ويغري أحد المسلمين بجسدها الممتلئ حتى تثنى بطنها من الأمام فأصبح أربعة أحزمة دهنية، لدرجة أن بإمكانه رؤية أطراف تلك الأحزمة الدهنية من خلفها، لأنها تطل من جوانبها.. أربعة من الجانب الأيمن ومثلها من الجانب الأيسر، عندها «قال النبي ﷺ لا يدخلن هؤلاء عليكن»[2]. فهذا الشخص يبدو أنه خبير بالطائف أو من أهلها، وبدلاً من أن يكشف للمسلمين نقاط ضعف فيها.. تؤدي إلى فتحها. أشغل نفسه بكشف العورات وإثارة غرائز المجاهدين، ويبدو أنه يجهل أحكام الجهاد الصارمة، وحرمة أعراض الأعداء حتى في حالة السبي، وأن هناك أحكاماً للنصر يرجع فيها للنبي ﷺ، فليس في نظام الجهاد إباحية أو همجية، أو انتقام أو مقابر جماعية، أو اغتصاب في غمرة الانتشاء بالنصر.. هناك انضباط وخوف من الله، فالمسلم لم يخرج طلباً للنساء، ولا للمال والشهرة، بل خرج لتكون كلمة الله هي العليا، وللدفاع عن انتشار تلك الكلمة، أو الموت في سبيل الله. أما من يتهور في انتهاك الحرمات.. بدعوى أن أولئك النساء كافرات، فهو يرتكب حماقة وجريمة خلقية تستحق اللعن، ولما حاول أحد المسلمين فعل ذلك مع امرأة حامل.. غضب النبي ﷺ غضباً كاد الرجل أن يحترق به، وذلك لما «أتى بامرأة مجح على باب فسطاط فقال: لعله يريد أن يلم بها؟

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٢.

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٢.

فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: لقد هممت أن ألعنه لعناً يدخل معه قبره. كيف يورثه وهو لا يحل له! كيف يستخدمه وهو لا يحل له؟!»(1)

لم يفلح ذلك الشخص بنصيحته، بل خسر ثقة النبي ﷺ وأصحابه، وخسر توقعاته بفتح الطائف، حيث طالت مدة الحصار ولم تفلح جهود المسلمين في اقتحامها. لذلك قرر ﷺ العودة إلى الجعرانة حيث تقبع الغنائم والسبي، لكن بعض الصحابة تضايق من العودة دون دخول الطائف في الإسلام، مما جعلهم يعترضون على العودة ويصرون على القيام بـ

آخر محاولة لفتح الطائف

وذلك «لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف لم ينل منهم شيئاً قال: إنا قافلون إن شاء الله. فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟!

فقال: اغدوا على القتال. فغدوا، فأصابهم جراح.

فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله. فأعجبهم. فضحك النبي ﷺ»(2) ثم أمر أصحابه بـ

العودة إلى الجعرانة

حيث تحرك الجيش تاركاً مشركي الطائف في حيرة من أمرهم، فالشرك يذبل يوماً بعد يوم، ومحمد يملك الجزيرة شبراً فشبراً، وشمس التوحيد تشرق على الجميع إلا عليهم، وأعوانهم وعضدهم أسرى في أيدي المسلمين.. قد تكوموا في الجعرانة كالذل.. نساء وأطفال ورجال وشيوخ، وأموال وبهائم لا تعد ولا تحصى، ورغم عجز المسلمين عن فتح الطائف، إلا أنهم لم يعجزوا عن إيقاظ الإيمان المنطمر في أعماق أهل الطائف تحت أرتال العادات والتقاليد الجاهلية. أما هوازن فقد خسرت كل شيء إلا قلب النبي ﷺ.. كان أفسح من حنين لهم ولأبنائهم ونسائهم وأطفالهم. لقد كان ﷺ

---

(2) صحيح مسلم ٢-١٠٦٥.

(1) صحيح البخاري: ٤-١٥٧٢.

أرحم بهؤلاء من قادتهم الذين ســاقوهم وخاطروا بهم، بل كان أرحم بهم من أنفسهم، فعندما وصل ﷺ إلى الجعرانة لم يبادر إلى تقســيم شــيء من الغنائم أو السبي على أصحابه، فقد كان:

النبي يريد رد الغنائم على هوازن

ولذلك انتظر عودتهــم على أرض الجعرانة أياماً قال عنها أحد الصحابة: «وكان النبي ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة، حين قفل من الطائف»[1] ولما لم يعودوا قام عليه السلام بـ:

توزيع الغنائم

وقــد كانت طريقة النبي ﷺ فــي توزيع الغنائم على غير المعتــاد.. كانت طريقة تناسب هذه الظروف الجديدة تماماً، فقد دخل في الإسلام أعداد لا حصر لها ما بين يــوم وليلة، وهذه النوعية من الناس تحتاج إلى من يعمق جذور الإيمان الغضة الطرية فــي داخلها، لأنها عرضة للتلف في العراء. وقد تبين ذلك قبل أيام على أرض حنين.. عندما هرب الأعراب والطلقاء ومن أسلم حديثاً، وتركوا النبي ﷺ على أرض المعركة.. كانت كثرتهم غير مجدية، بل ضارة ومعيقة، ومن أجل هذا انسابت الغنائم بشكل أثار اســتغراب الكثيرين، لكنه بُعْد نظر النبي ﷺ وســعة أفقه. فرغم أن تلك الغنائم كانت هائلة جداً، وكثيرة جداً، إلا أن شيئاً منها لم يذهب إلى أحق الناس بها، وهم الأنصار.. كانت غنائم حنين تقييماً للإيمان والمؤمنين.. كان توزيعها نقلة نوعية في طريقة الدعوة عنــد ما تتهــاوى الدول أمام زحف الدولة الإســلامية، لأن الشــدة وحدها تفرز تلك النوعيات الفذة والممتازة من الرجال، أما الرخاء فحلفاء الرخاء والرفاه كثيرون.

بــدأ ﷺ بتوزيع الغنائم فهجم الأعــراب الذين هربوا من المعركة عليه بأســلوب فوضوي.. قال عنه أحد الذين كانوا برفقته ﷺ في تلك اللحظات: «إنه بينما يسير هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى

---

(١) صحيح البخاري ٢-٩٢٠.

سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[1] ثم حذرهم عليه السلام من الغلول، وهو الاختلاس من الغنائم دون إذن منه، فكانت هذه القصة الأنصارية:

قصة الأنصاري وخيوط الشعر

وذلـك بعد أن: «اتبعه الناس يقولون: يا رسـول الله اقسـم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى ألجؤوه [إلى سمرة]، فاختطفت الشجرة عنه رداءه فقال: ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شـجر تهامة نعماً، لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيها النـاس إنه والله ليس لي مـن فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة.

فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شـعر فقال: يا رسـول الله.. أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر.

قال: أما نصيبي منها فلك. فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لي بها ثم طرحها مـن يده»[2]. فلا حاجة لهذا المجاهد في إفسـاد جهده وجهـاده من أجل كنوز الدنيا، فكيف يفسده من أجل كومة من شعر تافه رخيص.

هذا هو مفهوم المال العام في الإسـلام.. إنه للأمة، فالصحابة قالوا: اقسم علينا فيئنـا. فلم ينكر عليهم عليه السـلام، بل أكد ذلك بقوله: (أيهـا الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم) كما أنه حذرهم من التعامل مع هذا المال وأخذه دون إذن الإمام.

هذا هو الجيش الإسـلامي المنطلق من الكتاب والسـنة، لا من ثكنات التشريعات العسـكرية البشـرية، التي عجزت عن ضبط جنودها عن النهب والسلب والاغتصاب

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٣٨.

(٢) سـنده حسـن رواه ابن إسـحاق ومن طريقه الطبري ٢-١٧٥ والبيهقي في الكبرى ٦-٣٣٦ وغيرهما قال حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال وهو سند حسن مشهور والزيادة لأحمد ٢-١٨٤.

و.. وقائمة شـنيعة من جرائم الحرب، بل عجزت عن ضبطهم حتى ضد أنفسهم. أما محمد عليه السلام فبكلمة واحدة ضبط كل شيء، لأنه لا يخاطب جنوده من الخارج، بل يشـيدهم من الداخل.. هو صوت دائم في أعماقهم يجذر خوف الله قبل كل شيء فيهم، وها هو صوته الذي لا يخبو ينادي من أجل ذلك رجالاً ليس لهم تاريخ ولا رصيد حتى الآن في الإسـلام، بل إن بعضهم سـخر كل ما يملك من أجل القضاء على هذا الديـن، ومع ذلك، وفي أصفى لحظات الانتقام يطل محمد ﷺ رحمة وعطاء أخجلهم طوال حياتهم، وعرفهم بربهم تعريفاً جديداً لا تحجبه الأحقاد.

اسـتدعى ﷺ أبا سـفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فحولهم إلى أثرياء.. في لحظات كان الجميع يترقب أن يكون الثراء من نصيب أبي بكر أو عمر أو علي أو سعد بن عبادة أو أسيد بن حضير، أو غيرهم من عمالقة الأنصار والمهاجرين.

استدعى ﷺ أولئك الرجال فـ «أعطى النبي ﷺ من غنائم حنين الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصين مائة من الإبل. فقال ناس من الأنصار: يعطي رسـول الله ﷺ غنائمنا ناساً تقطر سيوفهم من دمائنا، أو تقطر سيوفنا من دمائهم؟! فبلغه ذلك»[1]

بلغـه هذا الكلام الصادر من بعض فتيان الأنصار المتحمسـين، والذين يرون في الغنائم أوسـمة للمحاربين، ومكافأة لهم، وهم يرون أن هؤلاء لا يسـتحقون مثل هذا التكريم نظـراً لتاريخهم البعيد، وحتى القريب.. حيث فـروا من أرض المعركة.. هذه الكلمـات غير المتزنة، والتي ينقصها التروي وبعـد النظر.. وجدت خصوبة لدى أحد المتهوريـن من فتيـان الأنصار، فأطلـق كلمات غيرت وجه النبـي ﷺ، وعكرت صفو انتصاره بعد أن نقلها له أحد الصحابة.. الذي يروي ما حدث من:

الاحتجاج على توزيع الغنائم

فيقول: «لما قسـم النبي ﷺ قسمة حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله»[2] وذلك حين «آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة

---

(١) سـنده صحيح رواه الإمام أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس وهذا سند ثلاثي صحيح. يزيد ثقة مر معنا وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦ والزيادة له أيضاً.

من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ.

قال: فأتيته فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصرف[1]، فغضب من ذلك غضباً شديداً واحمر وجهه، حتى تمنيت أني لم أذكره له. ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله. ثم قال: يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر. قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً»[2]

لم يكن ذلك الشاب الأنصاري الطائش وحده الذي تطاول على النبي ﷺ، واتهمه بعدم العدل، فإن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه سمع ورأى متهوراً آخر يتهم النبي ﷺ ويعلن عن:

مولد أول الطوائف المتطرفة

طائفة غرتهم كثرة عبادتهم، فتوجهوا نحو عيوب الناس وتناسوا عيوبهم، فجرهم ذلك إلى قذف التهم يمنياً وشمالاً، وتطاولوا فتسوروا القلوب، واقتحموا النوايا، ورسموها لا كما هي، بل كما يريدون، وكما تشكلت في مخيلتهم المريضة.

النوايا حصون منيعة لم يجرؤ النبي ﷺ على اقتحامها يوماً، إلا بوحي يحمله جبريل.. فيقول لأمته: (إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم)[3] أما هؤلاء الخوارج فتهوروا باقتحام ما عجز عنه النبي ﷺ، بل تجرأ أحدهم اليوم على تصحيح الوحي ذاته ونقد النبوة. يقول أبو سعيد رضي الله عنه: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل.

فقال ﷺ: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه فإن له أصحاباً،

---

(١) الصرف شجر أحمر.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٩.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٨١.

يحقــر أحدكم صلاته مع صلاتهــم، وصيامه مع صيامهم، يقــرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شــيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شــيء، ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شــيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء. قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو سـعيد: فأشهد أني سـمعت هذا الحديث من رسـول الله ﷺ»[1] هكذا يصفهم عليه السـلام أنهم لم يأخذوا من الإسـلام.. تماما كمثل السهم السريع جداً الذي يصيب الفريسـة، فيخرج منها بالسـرعة نفسـها، دون أن يعلق فيه شـيء من جسـدها سوى لون الدم، فلاشيء على الحديدة التي تسمى النصل، ولا على رصافه، أي العصـب الذي يلف على مدخل النصل، ولا على الريشـة في آخره، والتي تسـمى القـذة. وقـد ذكر النبي ﷺ مزيداً من صفاتهم، حتى لا ينخـدع الناس بكثرة ركوعهم وسجودهم وصيامهم وقراءتهم للقرآن، ولا بكثرة حلقهم لرؤوسهم.

يقول عليه الصلاة والسـلام: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسـنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»[2] «قيل: ما سيماهم؟ قال: سيماهم التحليق»[3] أي حلق شعر الرأس.

حادثة هذا الخارجي الذي يعتبر شاذاً اليوم أمام الحضور الغامر والجميل لكتاب الله وسـنة رسول الله ﷺ، هذه الحادثة سلطت الضوء على مساحة الحرية الشاسعة في القول والتعبير عن الرأي والاحتجاج بالكلمة، كما كشف رحابة صدر القائد المسلم، والدولة المسلمة في الاستماع لمواطنيها مهما أغلظوا في القول أو احتدوا في التعبير. فهذا الرجل لم يضرب، ولم يسـجن، بل رفض عليه السـلام أن يمسه عمر بأذى، بل قال لعمر: (دعه). لماذ؟

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٧٤٨.

لأن في الحق والعدل ما يخرس ألســنة المتطرفــين، ويصرف وجوه الناس عنهم، لكن الخوارج إذا انتقلوا من اللسان إلى السيف، فلا بد من مواجهتهم بالأسلوب نفسه، وبالعدل أيضاً، وهذا ما شرعه النبي ﷺ لأمته في التعامل مع الخوارج.

أما غير الشــاذ على ســاحة الجعرانة، فهو إحســاس بعض شباب الأنصار ببعض الغضاضة.. من ذهاب الغنائم إلى رجال لم يعرفوا الإسلام إلا منذ أيام، عندما قام ﷺ «فقسم في المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئاً. فقالت الأنصار: إذا كانت الشدة فنحــن ندعى، وتعطى الغنائــم غيرنا»[1]... أحس ﷺ بعتاب الأنصــار وحبهم يتمددان في صدره، فأحب أن يقدم لهم كنوزاً لا يســتحقها ســواهم، ومجداً لا يطاوله غيرهم.. في الوقت الذي يفرح غيرهم بخشــاش الأرض. وذلك «لما قســم رسول الله ﷺ السبي بالجعرانة، أعطى عطايا قريشــاً وغيرها من العرب، [أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة ابن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

فما كان بدر ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال فتم له رسول الله ﷺ مائة][2] ولم يكن في الأنصار منها شيء، فكثرت القالة وفشت حتى قال قائلهم: أما رسول الله فقد لقي قومه.

فأرسل إلى سعد بن عبادة فقال: ما مقاله بلغني عن قومك أكثروا فيها؟ فقال له سعد: فقد كان ما بلغك.

قــال: فأين أنت مــن ذلك؟ قال: ما أنا إلا رجل من قومي. فاشــتد غضبه وقال: اجمع قومك ولا يكن معهم غيرهم.

فجمعهــم في حظيرة من حظائر النبي ﷺ، وقام على بابها وجعل لا يترك إلا من كان من قومه، وقد ترك رجالاً من المهاجرين وزاد أناســاً. ثم جاء النبي ﷺ يعرف في

---

(١) صحيح مسلم ٢-٧٣٥.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه ٢-٧٣٧.

وجهه الغضب، [فقال: هل فيكم من غيركم؟ قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا. فقال رسول الله ﷺ: ابن أخت القوم منهم][1]

[فجمعهم في قبة من آدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم][2] يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار، ألم أجدكم عالة فأغناكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار، ألم أجدكم أعداء فألف الله بين قلوبكم؟

فيقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

فقال: ألا تجيبون؟

قالوا: الله ورسوله آمن وأفضل.

فلما سري عنه قال: ولو شئتم لقلتم فصدقتم: ألم نجدك طريداً فآويناك، ومكذباً فصدقناك، وعائلاً فآسيناك، ومخذولاً فنصرناك؟

فجعلوا يبكون ويقولون الله ورسوله آمن وأفضل.

قال: أوجدتم من شيء من دنيا أعطيتها قوماً أتألفهم على الإسلام، وكلتكم إلى إسلامكم، لو سلك الناس وادياً أو شعباً، وسلكتم وادياً وشعباً لسلكت واديكم أو شعبكم، وأنتم شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار [الأنصار كرشي وعيبتي][3]، ثم رفع يديه حتى إني لأرى ما تحت منكبيه فقال: اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار.

---

(١) سنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٣.

(٣) سنده صحيح وهو حديث الإمام أحمد السابق.

أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم؟

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وانصرفوا وهم يقولون: رضينا بالله رباً، وبرسوله حظاً ونصيباً»[1] بعد أن أشار ﷺ إلى مواقعهم ومواقع غيرهم، وأراهم هول الكنوز والأمجاد الخالدة التي سيسافرون بها عبر التاريخ، فهم وحدهم الذين استدعاهم النبي عليه السلام في الشدة، بعد أن هرب الناس وتركوه، وهم وحدهم الذين لم يقبضوا شيئاً من تلك المعركة التي هي في الحقيقة معركتهم وحدهم، وهم وحدهم غنموا النبي عليه السلام وفازوا به، بينما فاز غيرهم بالبقر والماعز.

أفاق الأنصار من كبوة عابرة، وتجلى حب الله لهم.. قبل أن يحركوا رواحلهم من هذا المكان المزدحم بالعواطف الجياشة، فقد حدث شيء سار ومفرح للنبي ﷺ وأصحابه.. خاصة الأنصار وذلك عندما شاهدوا جميعاً:

هوازن كلها تدخل في الإسلام

هاهي خيل فرسانهم تنهب الأرض نحو الجعرانة.. تبحث عن رسول الله ﷺ، لا لتقاتله، بل لتسلم وترجوه أن يطلق أطفالها ونساءها وأموالها، ويحررها من الرق لتعود بها. لكن الوقت قد فات، فقد انتظرهم النبي ﷺ أكثر من عشرة أيام.

في هذا الوقت كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد سبق الجميع إلى مكة، وذلك لـ:

وفاء بنذر نذره عمر في الجاهلية

يقول ابنه عبد الله بن عمر «إن عمر بن الخطاب سأل رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة، بعد أن رجع من الطائف فقال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف يوماً في المسجد الحرام فكيف ترى؟ قال: اذهب فاعتكف يوماً»[2] فهو وإن كان

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبي شيبة ٧-٤١٨: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد. عاصم تابعي ثقة التقريب ٢٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢٧٧.

نذر طاعة، إلا أنه عبادة تحتاج إلى سـؤال النبي ﷺ لأخذ شرعيتها، لأن العبادات في الإسـلام محرمة، إلا إذا كان لها دليل من كلام اللـه، أو موافقة نبيه ﷺ، وهذا النذر كصـلاة بلال عندما «قال رسـول الله ﷺ لبلال عند صلاة الغـداة: يا بلال، حدثني بأرجي عمل عملته عندك في الإسـلام منفعة، فإني سـمعت الليلة خشف نعليك بين يـدي في الجنة؟ قال بلال: ما عملت عملاً في الإسـلام أرجى عندي منفعة، من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في سـاعة من ليل ولا نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي»[1]

فلـو لم يوافق النبي ﷺ فعـل بلال، لتحول ذلك العمل إلـى ابتداع مرفوض في الإسلام، فذات يوم و«بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم. فسأل عنه؟ فقالوا: أبو إسـرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»[2]

فقـد وافقـه النبي ﷺ على نذر الطاعة فقط، وهو الصـوم، واحتج على نذر المعصية وأبطله، ففي الإسـلام يجب أن تظل العبادة نقية من الزيـادة والنقصان والغلو، حتى يبقى هذا الدين نقياً كما أنزل، وحتى لا يتكئ المسلم على فعل عمر أو بلال، أو حتى أبي إسرائيل رضـي اللـه عنهم.. بدعوى أن الصحابة لا يمكن أن يخالفوا رسـول اللـه ﷺ، فالصحابة رضي الله عنهم غير معصومين، فهم يخطئون وينسون، بينما النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، وقد عصمه الله عن الخطأ في التبليغ والتشـريع، والمسـتند الوحيد المقبول هو فعله وقوله وموافقتـه ﷺ، لأنه هو وحـده الذي يوحى إليه، وهو وحده النبـي، بل خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام وآخرهم، والبقية تبع لمحمد ﷺ، وبذلك نضمن بقاء الإسلام جديداً طرياً.. نشربه من النبع لا من الفروع التي قد تلتاث عبر التاريخ بالأهواء والعواطف والنزوات.

إذاً فقـد أقـر النبي ﷺ عمر على نذر الطاعة فـي الجاهلية، وهو الآن في مكة ليفي بنذره، في الوقت نفسـه وصل مقاتلوا قبيلة هـوازن إلى أرض الجعرانة معلنين إسـلامهم، وانضوائهم تحت لواء الإسـلام.. راجين من النبـي ﷺ أن يحرر أطفالهم ونساءهم وأموالهم، فـ:

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٩١٠.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٤٦٥.

هل ستحصل هوازن على ما طلبته

أحد شهود العيان «عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أتى وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك.

فقام رجل من هوازن أحد بني سعد بن بكر - وكان بنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ - يقال له (زهير بن صرد) وكان يكنى بأبي صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين، ثم قال:

امنن علينا رسول الله في كرم — فإنك المرء نرجوه وندخر

امنن على بيضة قد عاقها قدر — ممزق شملها في دهرها غير

في أبيات قالها.

فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا، فهم أحب إلينا.

فقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به؛ فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله.

وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله.

قال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

قالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله. قال العباس لبني سليم: وهنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم، فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه. فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم»[1]

وعادت هوازن مبتهجة مجموعة الشمل بالإسلام والنساء والأطفال، ونهض الجيش المسلم متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة مع النبي ﷺ، وتمايلت مطايا الأنصار تحمل النبي ﷺ فهو غنيمتها من هذه المعركة العظيمة، وفي الطريق توقف النبي ﷺ ومن معه لأداء الصلاة، ولما بدأ المؤذن بالنداء للصلاة انطلقت صيحات غريبة من خارج المعسكر المسلم.. كانوا:

مجموعة من الشباب يسخرون من الأذان

ويقومون بترديد ما يقوله.. مقلدين صوته الجميل، وساخرين منه، وكان أشدهم تقليداً هو أكثرهم بغضاً للنبي ﷺ ولدينه.

وصلت صيحات الساخرين إلى مسامع النبي ﷺ، فتحرك نحو الصوت المستهزئ حاملاً في صدره حلم الداعية، ووعي المربي، وبأسلوب عذب وراق، ودون تجهم وجه أو تشنج أو ضجيج.. تهادى نحو أولئك الفتيان برفق، وقدم للتربويين في كل الدنيا درساً في استغلال الطاقات، وعدم إهدار القدرات، فحدثت هذه القصة التي يرويها أبو محذورة. وأبو محذورة هذا.. هو ذلك الشاب الذي كان شديد البغض والتقليد للأذان وأهله، حيث يقول «نعم خرجت في نفر، فكنا ببعض طريق حنين، فقفل رسول الله ﷺ من حنين فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق.. فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون، فصرخنا نحكيه

---

(١) سند صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في التاريخ ٢-١٧٢ وغيره: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا السند مشهور جداً وهو حسن لكن كلمة الأنصار وَهْمٌ من عمرو أو من ابن إسحاق لأن الأنصار لم يحصلوا على شيء من غنائم هوازن إلا إن كان المقصود كل ما حصلوا عليه من السلب فقد حصل بعض الأنصار على سلب من قتلوه أثناء المعركة.

ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ الصوت فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع.

فأشار القوم كلهم إلي، وصدقوا، فأرسل كلهم وحبسني فقال: قم فأذن بالصلاة. فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى إلي رسول الله ﷺ التأذين هو نفسه فقال قل:[1]

«الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

ثم يعود فيقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة مرتين

حي على الفلاح مرتين

الله أكبر الله أكبر... لا إله إلا الله»[2]

ثـم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شـيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمارها على وجهه مرتين، ثم مرتين على يديه، ثم على كبده، ثم بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: بارك الله فيك.

فقلت: يا رسول الله، مرني بالتأذين بمكة.

فقال: قد أمرتك به. وذهب كل شـيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية، وعاد ذلك محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة، فأذنت

---

(١) انظر تخريجه في الحديث بعد التالي.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٨٧.

معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ»[1] الذي لم يعنفه، ولم يأمر بقطع رأسه، بل اكتفى بالنظر داخل هذا الفتى، فوجد طيشاً يحتاج إلى من يترفق به، ووجد مواهب ليس من العدل إهدارها على الطريق. أما الفتى فوجد من يعتني به ويقدر ما لديه، فاحتضنه بقلبه وتحول إلى أحب الناس إليه، ولم يكتف بذلك، بل طلب من النبي ﷺ في الحال أن يوظف ما لديه من قدرات في الخير، له وللناس. فكان ما أراد. فمحمد ﷺ أفضل بيئة لتنمية الإبداع ورعاية المواهب، ولكن نحو خير البشرية ورفاهها، لذلك أطلق ذلك الفتى وانطلق بجيشه نحو مكة لـ:

أداء العمرة..

وصل النبي ﷺ إلى مكة، فأدى العمرة وهذه العمرة هي الثالثة بعد عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، ثم وفى بعهد الحب بينه وبين الأنصار، فانطلق نحو شعاب الأنصار، لكن قبل أن ينطلق قام ﷺ بـ:

إعادة أدراع صفوان بن أمية

فقد «استعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية سلاحاً، فقال صفوان: أعارية، أم غصب؟ فقال: بل عارية.

فأعاره ما بين الثلاثين إلى أربعين درعاً، فغزا رسول الله ﷺ حنيناً، فلما هزم الله المشركين قال رسول الله ﷺ: اجمعوا أدراع صفوان، ففقدوا من دروعه أدراعاً، فقال

---

(١) حديث حسن رواه الإمام أحمد ٣-٤٠٩ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد العزيز ابن عبد الملك بن أبي محذورة أن عبد الله بن محيريز أخبره وكان يتيماً في حجر أبي محذورة عن أبي محذورة... ثم قال ابن جريج: وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز وهذا السند فيه ضعف من أجل عبد العزيز فهو مقبول عند المتابعة.. ولذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول ٣٥٨ أما شيخه فتابعي ثقة: التقريب ٣٢٢ وعبد العزيز لم ينفرد فقد توبع تابعه من أدرك ابن جريج من أهله وللحديث شاهداً عند ابن خزيمة: ٢٠٠١ حدثني عثمان ابن السائب أخبرني أبي وأم عبد الملك بن أبي محذورة عن أبي محذورة. وقد توبع عثمان. وصححه الإمام الألباني في صحيح النسائي (٦١٢).

رسول الله ﷺ لصفوان: إن شئت غرمناها لك. فقال: يا رسول الله، إن في قلبي اليوم من الإيمان ما لم يكن يومئذ»[1].

لقد أخجله وغمره كرم هذا النبي ﷺ الغامر وتسامحه وسعة حلمه، فأصبح لا يرى في الدنيا غير محمد وأخلاق محمد ودين محمد، فبمثل هذا المستوى من الأخلاق تنتزع القلوب، وتتهاوى تلك الجدران الغليظة التي تحول بين صاحبها وبين استمراء الحقيقة والانفتاح عليها، والنبي ﷺ لم يؤثر على كثير من الناس بسبب كثرة صلاته وصيامه أو مظهره، فبالإضافة إلى حمله حقيقة كالنهار، فإنه يحمل معها أخلاقاً كالماء البارد للعطشى والمتعبين.. يعفو عن هذا ويعطي هذا، ويثني على ذاك ويمدح رابعاً ويتنازل لخامس و.. ويبتسم في وجه الجميع، ويصدق مع الجميع، ويفي بوعوده، ويلتزم بمواثيقه ولا ينتقم لنفسه.. وقائمة لا تنتهي من الأخلاق البيضاء.. التي أعيى الكثير من المتدينين وغير المتدينين حملها. فتلك الصفات أثقل من الجبل.. إذا لم يتخلَّ الإنسان عن أنانيته، وذاته الكثيفة المعتمة التي لا يرى معها سواها. أما أولئك الذين يضعون أنفسهم ضمن الجميع، ويحكمون عليها كما يحكمون على الجميع، ويحبون للجميع ما يحبونه لها، فهم تلك النوعية الممتازة من البشر التي تستمتع بممارسة الأخلاق وتبدع في إهدائها، وهذا ما يجيده النبي ﷺ، وبه تمكن من أخذ قلب صفوان بن أمية، رغم أن صفوان لا يزال حتى الآن في مكة. أما النبي ﷺ فحمله الأنصار نحو شعبهم عندما توجه الناس نحو شعابهم، ومعه المهاجرون الأبرار، ولم يمض من الوقت غير قليل حتى تمايلت المطايا نحو المدينة فإذا:

صفوان بن أمية في المدينة

حيث تحول الوطن عنده إلى مساحات يرسمها قلب النبي ﷺ، ففي مكة «قيل لصفوان: إنه من لم يهاجر هلك.

---

(1) حديث حسن رواه البيهقي في الكبرى ٦-٨٩ أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقري أنبأ الحسن بن محمد بن إسحاق ثنا يوسف بن يعقوب القاضي ثنا مسدد ثنا أبو الأحوص ثنا عبد العزيز بن رفيع عن عطاء بن أبي رباح عن ناس من آل صفوان بن أمية. وأخبرنا أبو علي الروذباري أنبأ أبو بكر بن داسة ثنا أبو داود ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا جرير عن عبد العزيز بن رفيع عن أناس من آل عبد الله بن صفوان أن رسول الله ﷺ. وله شاهد من طريق شريك بن عبد الله في مسند أحمد ٦-٤٦٥ عن عبد العزيز بن رفيع عن أمية.

فدعا براحلته فركبها، فأتى المدينة فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك يا أبا وهب؟ قال: بلغني أنه لا دين لمن لا هجرة له؟

قال: ارجع إلى أباطح مكة. فرجع»[1] لكنه كان متعباً «فدخل المسجد فتوسد رداءه فجاء رجل فسرقه، فأتي به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله سرق هذا ردائي. فأمر النبي ﷺ بقطعه.

فقلت: يا رسول الله لم يبلغ ردائي ما تقطع فيه يد رجل، قد جعلتها صدقة عليه.

فقال رسول الله ﷺ: فهلا قبل أن تأتيني به»[2]

فالشفاعة تجوز عندما تكون الشكوى في طريقها إلى الحاكم، أي عند الشرطة وأماكن الشكوى، أما إذا وصلت إليه، فإن الشفاعة تتحول إلى جرم خطير.. يهدد الأمن الداخلي للدولة، ويمكن للفساد من التسلل إلى جهاز القضاء والعدالة فيها، وفي التشريع الإسلامي حدود خمسة لا تجوز الشفاعة فيها هي:

حد السرقة، وحد شرب الخمر، وحد الزنا، وحد القذف، وحد الحرابة. وهي حدود ضرورية لحماية الدماء، والأموال، والأعراض، والعقول، والأنساب. فلا خير في حياة تمتهن تلك الأشياء التي تعادل الحياة نفسها، وتميز الإنسان وترفعه عن مرتبة الحيوان، فليس من المستغرب أن يرتكس الإنسان إلى درجة أسفل من درجة الحيوان، في تلك اللحظات التي ينتهك فيها تلك الأشياء، لأنه قد يفعل ذلك بوعي وإرادة وترتيب. أما الحيوان فهو يسفك ويفترس بدافع غريزي بحت، ودون وعي أو ترتيب مسبق.

تلك الأفعال التي يقوم بها الحيوان هي شرط الحياة الوحيد المتوفر لديه، وهو شرط مبرمج داخله من الخالق سبحانه. أي أنه لا يمكن له العيش دون ذلك. أما

---

(١) حديث حسن رواه مالك ومن طريقه الضياء في المختارة ٨-٢٠ أخبرنا سليمان الطبراني ثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عاصم عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن صفوان ابن عبد الله بن صفوان عن جده. وأحمد عن حسين بن محمد عن سليمان بن قوم عن سماك عن جعيد ابن أخت صفوان عن صفوان وعن عفان عن وهيب عن ابن طاوس عن أمية عن صفوان بنحوه.

(٢) حديث حسن رواه الإمام مالك وهو جزء من الحديث السابق.

الإنسان فله طرق كثيرة جداً للعيش.. دون الإضرار بالآخرين، لكنه يختار أحياناً طرقاً شديدة الضرر بمحض إرادته.. إرضاءً لغروره أو جشعه، أو نوازع الحقد في داخله، أو تحت تأثير العاطفة والشهوة، وهي أشياء لا تمت للضرورة أو للصراع من أجل البقاء بصلة، ومسؤولية الفرد الشخصية أمر جعله الإسلام من ثوابته، والنبي ﷺ يمارس تطبيقه الآن مع هذا السارق على أرض المدينة. فهو يسرق شيئاً ليس مضطراً للحصول عليه للبقاء حياً. كما أنه مارس ذلك داخل المسجد، وباعترافه هو.. مع ملاحظة أن النبي ﷺ لم يكن في مثل هذه الحالات يمارس الحبس على ذمة التحقيق، أو التعذيب لانتزاع الاعتراف بالقوة والقهر.

كان ﷺ يقرر قاعدة الوقوف مع المتهم حتى تثبت عليه التهمة، فعندما «أتي بسارق قد سرق شملة فقالوا: يا رسول الله. إن هذا سرق. فقال رسول الله ﷺ: ما أخاله سرق.

فقال السارق: بلى يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم إيتوني به. فقطع، ثم أتي به فقال: تب إلى الله. فقال: تبت إلى الله. فقال: تاب الله عليك»[1]

فتطبيق الحد لا يعني أن ينصرف المذنب وهو يحس أنه مراقب من قبل السلطة والمجتمع فقط، لأن تلك الرقابة تذوب متى ما أمن العقوبة، وتوفرت له سبل الفرار والخروج والتحايل على النظام. أما الإسلام فيجذر في أعماق الفرد رقابة الله، والخوف منه قبل كل شيء، فالله لا يغفو ولا ينام ولا تخفى عليه خافية، وبذلك يتوافر لدى الشريعة الإسلامية وحدها دون غيرها رقابتان: من الداخل.. حيث استشعار مراقبة الله. ومن الخارج.. حيث أحكام الشريعة ونظامها وتطبيق ذلك النظام على الجميع دون محاباة.

---

(١) صحيح وسنده حسن رواه الحاكم ٤-٤٢٢ والبيهقي في الكبرى ٨-٢٧١ وغيرهما من طرق عن عبد العزيز ابن محمد الدراوردي أخبرني يزيد بن خصيفة عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ابن ثوبان وتلميذه تابعيان ثقتان: التقريب ٤٩٢ و٢٠٦ والدراوردي حسن الحديث إلا عن عبيد الله العمري فمنكر وهذا ليس منها وله طريق أخرى عند الطبراني: ٧-١٥٧ عن السائب بن يزيد.

كان ﷺ يقــدم في المدينة لمن يأتي بعده.. دور الزعيــم والإمام، والقاضي والأب والمواطن الصالح لكل زمان ومكان.. لا يشــغله شيء عن شيء، ولا يعتذر عن مخالطة الناس وتحسس قضاياهم بكثرة مشاغله، واتساع دولته وكثرة غزواته.

هاهو في إحدى بيوته، وأحد أيامه الســعيدة يبتهج بهدية جميلة تقدمها له مارية القبطية:

مارية تلد ابناً للنبي ﷺ

سَعِدَ عليه السلام بولادة ابنه الجميل، وسماه باسم أبيه وأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ. وكان هذا الرضيع الجميل يملأ قلب النبي ﷺ ويحظى بعنايته.. حتى انتقى له بيتاً من عوالي المدينة.. يتولون رضاعه، وكان يترد على ذلك البيت كالشوق.

يصفه أنس بن مالك فيقول: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مســترضعاً له في عوالي المدينــة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ليدخل وكان ظئره قيناً، فيأخذه فيقبله ثم يرجع»[1]

كانــت تلك القبــلات الحانية موضع اســتهجان بعض الأعراب الذين أكســبتهم الصحــراء بعض ما فيها، فقد «قــدم ناس من الأعراب على رســول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا: لكن والله ما نُقَبِّل. فقال رسول الله ﷺ: وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[2].

وليس هناك شــيء أشــنع من نزع الرحمة من القلب.. ســوى توهم أن الرجولة تتطامن وتنقص بتقبيل الأطفال والانحناء لهم وكأنهم نسل بهائم مستقذرة.

وإذا كان إبراهيــم الصغير عليه الســلام قد أدخل البهجة على قلب والده، وكبده من الشــوق الكثير حتى تجشــم وهو رأس الدولة عناء البحث عنه لتقبيله وضمه، مع أن باســتطاعته أن يطلب إحضاره متى شــاء وأين شاء، فإنه حزن كثيراً على ابن ابنته -لعلها- زينب، فهو الآن يعاني من مرض شديد.

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

يقول «أسـامة بن زيد رضي الله عنهما: أرسـلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنا لي قبض فائتنا. فأرسـل يقرىء السلام: ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها.

فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع.... كأنها شن[1] ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسـول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

وما هذا النبي إلا رحمة مهداة..

كان لا يشـغله اهتمامه بشـؤون أسـرته عن الاهتمـام بقضايا أمتـه ومواصلة رسالته.

ها هو يسـتدعي أحد القادة الذين برزوا سـريعاً وبشكل ملفت (خالد بن الوليد) ويطلـب منه التوجه نحو منطقة يسـكنها بنو جذامة، وهـم حتى الآن في موقف يبدو غامضاً تجاه الإسلام ودولته، فتحرك خالد بن الوليد رضي الله عنه مأخوذاً بحماس المنتصر العائد من فتح مكة، وإخضاع أكبر قبائل الجزيرة (قريش) لدولة الإسلام، لكن أحداثاً غريبة ومؤسفة لا تحسب على الإسلام وقعت في:

غزوة بني جذيمة..ومأساة عاشق وحبيبته

لـم ينطلق ابـن الوليد وحده نحو بنـي جذيمة، فمن مـكان لا أعرفه لكنه مفعم بالعواطف القاتلة.. كان هناك شاب يعشق فتاة يقال لها (حبيش) وهي تبادله العواطف نفسـها.. كان حباً عذرياً لم يتدنس برذيلة، أو يتلوث بعهر. لكن ذلك العفاف لم يسلم من المنغصات، فقد قدم الجاه والمال مع أمير لينتزعا حبيشـاً من بين عيني عاشـقها ومضاربـه، لتنطلق العير، وتتمايل الهوادج بحبيش ووصيفاتها، فيتحطم قلب العاشـق ويرغم صاحبهُ على التحرك، فينطلق خلفها كالمجنون.. عابراً المفاوز والمغاور لا يعرف

---

(١) كان قعقة نفسه صوت قربة بالية عند تحريكها.

(٢) صحيح البخاري ٥-٤٢١. ومكان النقط: قال حسبته انه قال

وجهة غير وجهة هودجها، ولا عنواناً غير عنوان طويل تكتبه آثار راحلتها.. كان سفرها الطويل يلهب قلبه، ويلهم شعره حتى توقفت تلك المطايا في آخر المحطات، ونهاية الأسفار، حيث بلغ الجنون والوجد ذروته، ولم يبق في عقل العاشق وقلبه مكان لغير الحبيبة حبيش.. توقفت الرواحل عند ماء (بني جذيمة) وفي الوقت الذي وصلت فيه خيل خالد بن الوليد، وهنا أصبح العاشق أمام حتفين.. حتف حبيش وحتف جيش.

كان ذلك العاشق لا يبالي بأمر خالد، فهو لا يعرفه ولا يعرف رسالته، ولا يهمه أمر ما أرسل به، ولا ما يتحدث هو وجيشه عنه.. كان مأخوذ القلب والعقل، وهو في حالة ذهول تام عما حوله من جيش وسيوف وحتى منطق، أو حتى مجرد رغبة في الحياة.

توقف خالد بن الوليد وكان من بين جنده شاب تضلع بسنة النبي ﷺ وهديه وسمته.. هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقد كان جندياً مطيعاً لإمامه الذي عينه عليه النبي عليه السلام، غير أن ذلك الجندي المطيع لله ولرسوله وولي أمره.. سرعان ما أبدى احتجاجه على أميره وتبرمه من تصرفه. كل ذلك كان يحدث دون حقد، أو شحناء بين الشاب وقائده.. إنما هي الحرية التي منحها الإسلام لأتباعه في محاسبة القائمين عليهم، وإنكار المنكر حتى في حالات تفوق حالات الطوارئ خطورة كحالة الحرب التي يخوضها ابن الوليد اليوم.. تلك الحرية التي جعلت فتى الإسلام يقول: «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا.

فجعل خالد يقتل ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره. فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره»[1].

لكن خالداً رضي الله عنه أصر على حكمه، وأن هؤلاء يملكون وقاحة وتحدياً للإسلام في ساحة حرب لا يردعه سوى السيف، فقام بتوزيع الأسرى لتنفيذ حكم القتل فيهم، وكان بين هؤلاء الأسرى شاب في مثل سن آسره.. شاب مسكين لم يكن من أهل هذه الديار، ولا شأن له بما يحدث، فهو في واد والعالم كله في واد.. شاب قاده قلبه المسكين وضعف إرادته، وعدم معرفته بدين التوحيد إلى التيه في الصحاري..

---

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

خلف هذا الهودج الذي تتربع فيه معشـــوقته ومهوى فؤاده التي تدعى حبيشاً. لم يكن يريد من الدنيا ســـواها.. ســـوى التأمل في عينيها، لكن راحلته ســـاقته ليلتقي بسيف خالد بن الوليد، وهو الآن مأسور عند شاب اسمه ابن أبي حدرد. فما هي:

قصة عاشق حبيش

هي قصة ليســـت من خيال الأدباء والروائيين.. هي حقيقة مرة يرويها من شارك في أحداثها.. معترفاً بالمأســـاة التي ارتكبها، ويســـتغفر الله من ذلك.. يرويها شـــاب اسمه: ابن أبي حدرد.. كتب نهاياتها بيده، وأسدل ستائرها على أرض بني جذيمة.

بداياتها في مراتع الصبا، حيث شـــب فتى وشـــب معه عشق فتاة تدعى حبيشاً.. بادلتـــه الفتاة بحب أضناها وأرقها، لكـــن والد الفتاة كان يحول دونهما، وأخلاق الفتاة كانت حارسا دون تلوث ذلك العشق بما يكدره، وتمر الأيام فترتحل الفتاة عن عاشقها، فيفقد صوابه وينســـى كل شـــيء إلا مطيتها وهودجها، ربما كان والدها أميراً فارتحل عن دياره وجيرانه، وربما جاء أمير فأخذها إلى بيت أكثر ثراءً وجاهاً.

لكن يبدو أن الأمير لم يحمل في هودجه ســـوى جســـدها، أمـــا قلبها فقد أردفه ذلك الشـــاب معه على راحلته، يسير كلما سارت ويتوقف عندما تتوقف، وفي ديار بني جذيمة توقفت القافلة، وخلفها الشاب المتيم أمام جيش خالد، فحدث ما حدث، وأُخذ الشاب أسيراً غير آبه بالأسر، ولا بتلك السيوف، ولا بهذه الحبال، فالحبال التي تربطه بحبيش أقوى، وأسرها لقلبه أقسى.

يقول ابن أبي حدرد: «كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد، فقال لي فتى من بني جذيمة، وهو في ســـني، وقد جمعت يداه إلى عنقة برمة، ونســـوة مجتمعات غير بعيد منه: يا فتى..

فقلت: ما تشاء؟

قـــال: هل أنت آخـــذ بهذه الرمة فقائدي إلى هؤلاء النســـوة حتـــى أقضي إليهن حاجة، ثم تردني بعد فتصنعوا بي ما بدا لكم [إني لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم]. قلت: والله ليسير ما طلبت.

فأخذت برمته، فقدته بها حتى وقف عليهن (فإذا امرأة طويلة أدماء) فقال: اسلمي حبيش قبل نفاد العيش:

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم	بحلية أو ألفيتكم بالخوانق
ألم يك أهلاً أن ينول عاشق	تكلف إدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لي قد قلت إذ أهلنا معاً	أثيبي بود قبل إحدى الصفائق
أثيبي بود قبل أن تشحط النوى	وينأى الأمير بالحبيب المفارق
فإني لا ضيعت سر أمانة	ولا راق عيني عنك بعدك رائق

قالت: [نعم فديتك] وأنت فحييت عشراً، وسبعاً وتراً، وثمانياً تترى...

قال: ثم انصرفت به فضربت عنقه»[١].

كانت المرأة تشاهد عاشقها وهو يضرب بالسيف.. تشاهد رأسه يهوى عن جسده الحبيب، فلم تحتمل، ولما سقط على الأرض تخلت عن وقارها وأسرارها، وانحدرت من هودجها غير آبهة بما حولها، ولا بمن حولها.. انحدرت نحو ذلك الجسد الذي هوى على الأرض كالفجيعة، وانحنت بمشاعر تنبض بالموت للموت.. «جاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت»[٢] وجداً عليه وحزناً، كأنها أقسى العشاق وأضعفهم.

كان الصحابة ينظرون إلى ذلك المشهد الفاجعة منهم الرافض له والمتكدر كعبد الله بن عمر وأصحابه، ومنهم المندهش الذي فوجئ بما حدث، والصحابة بشر يخطئون ويصيبون، لكن ما تقييم الإسلام لهذه المصيبة؟ وما موقف النبي ﷺ من فعل خالد ومن أطاع خالداً؟

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: السيرة النبوية ٥-١٠٠: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس عن الزهري عن ابن أبي حدرد الأسلمي.. يعقوب ثقة: التقريب ٦٠٨ وشيخه تابعي ثقة وإمام معروف والزيادة سندها حسن رواها النسائي في الكبرى ٥-٢٠١ أنبأ محمد بن علي بن حرب قال أنبأ علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس وهذا سند حسن من أجل علي بن الحسين فحديثه حسن إذا لم يخالف قال الحافظ صدوق يهم التقريب٤٠٠، وللحديث شاهدان في كل منهما ضعف يسير عند البيهقي في الدلائل ٥-١١٦ وبقية رجال النسائي ثقات.

(٢) انظر ما قبله فهو جزء منه.

دفنت المعشوقة ودفن العاشق وبقية القتلى، وعاد الصحابة إلى المدينة مثقلين بالهموم والتساؤل، ولما وصلوا قال ابن عمر رضي الله عنهما «ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد مرتين»[1].

لم يكن الدافع لهذه الأحداث هو التعطش للدماء وشهوة السيطرة والتوسع، لكنها الغيرة على التوحيد، والحماس المفرط الذي يطغى على لغة المنتصر غالباً، وهو أمر لا يمكن تبريره تحت أي عذر، فهو خطأ من خالد دون جدال، وقد تولى النبي ﷺ تحمل مسؤولية ذلك الخطأ، ولم يتنصل من تبعاته، بل لام أصحابه.

والنبي ﷺ بهذه البراءة من ذلك العمل الفظيع.. الذي استبيحت فيه دماء بريئة.. يؤيد احتجاج الشاب عبد الله بن عمر على تلك الحادثة، وإنكاره على أميره في ساعة ليست من ساعات السلام والراحة، بل في ساحة حرب يحتاج فيها القائد إلى الطاعة والامتثال من جنده أكثر من أي شيء آخر، لكن الإنكار لا يعني الخروج على إمارة خالد والتمرد عليه أبداً، بل هو مجرد رد الأمير إلى الوحي والصواب الذي بعث به النبي ﷺ. فالأمير يظل بشراً مهما بلغت عظمته.

أما موقف النبي ﷺ الرحيم تجاه ذلك العاشق وما حدث له، فيحدثنا عنه ذلك الشاب الذي شارك في إيلام النبي ﷺ، وتألم هو أيضاً مما اقترف.

ابن أبي حدرد الذي أحزنه ما حدث منه تجاه ذلك المسكين يقول: «فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر. فقال رسول الله ﷺ: أما كان فيكم رجل رحيم؟!!»[2]. أما كان فيكم رجل رحيم، فالله غني عن تلك الدماء البريئة.. الإسلام غني عنها، ومحمد بريء مما حدث.. أما فيكم رجل رحيم يمنع حدوث ذلك المشهد المؤلم، الذي لم يكن من المفترض حدوثه، فالنبي ﷺ لم يبعث هذه السرية لإرغام الناس على الإسلام، والقائد المسلم يحتاج إلى إعادة النظر كثيراً، والتفكير أكثر قبل اتخاذ قرار بقسوة قرار خالد بن الوليد رضي الله عنه، فالرحمة هي التي جعلت النبي ﷺ يحجم عن قتل الأسرى في بدر.. رغم تاريخ بعضهم الأسود ضده وضد أصحابه، وأين هؤلاء

---

(١) هو حديث البخاري السابق.

(٢) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

من أسـرى بدر! والرحمة هي التي جعلت النبي عليه السلام يعفو عن صناديد قريش، فما بالك في أناس أبرياء أرادوا أن يقولوا: أسلمنا. فقالوا: صبأنا. أي صبأنا من دين قومنا، فما بالك برجل عاشق لا ناقة له ولا جمل فيما يجري على الكرة الأرضية.

كان الأمر شـديداً على النبي ﷺ، لكنه لم يكتف بالحزن فقط، أو البراءة فقط.. لقد مضى الأمر وأصبح تاريخاً، ولم يعد بالإمكان فعل شـيء تجاه ذلك سوى الحزن، ومحاولـة التعويض ولو مادياً، حيث اتخذ النبي ﷺ قراراً بدفع تعويضات للمتضررين عن ذلك الذي أحدثه تسـرع خالد وحماسه، فقد قال ﷺ «أما كان فيكم رجل رحيم.. فداء الإثنين بالواحد»[1].

ودفعت التعويضات من قائد الدولة الكبرى والوحيدة التي تكاد تسـيطر على كل الجزيرة العربية كلها.. دفعـت التعويضات لأهل المقتولين خطأ، فأدرك أولئك عظمة هذا الدين، وهذا القائد الذي يدفع تعويضات وهو في مركز القوي الذي لا يخاف إلا من ربه، ويدفع التعويضات وهو في حالة حرب، فالحرب الإسلامية لها قواعد لا يجوز اختراقها، وقد تم اختراقها خطأ، فلا بد من الالتزام تجاه العدو في هذه الحالة، أما المخطئون فقد استغفروا ربهم وواصلوا حياتهم مع نبيهم وإخوانهم.

وفي هذا العام مرت بالمدينة أوقات عصيبة وظروف صعبة.. رغم وجود النبي ﷺ بين أظهرهم، ولما اقترب وقت نضج ثمارهم أمرهم النبي ﷺ بالاستعداد للتوجه لمناجزة الـروم علـى أرض تبوك.. بجيش كان بحاجة إلى كل شـيء إلا العزيمة والإيمان، فقد كان يعاني من قلة المال والطعام والمراكب، وكانوا يتطلعون إلى هذه الأوقات ليستريحوا ويتمتعوا بظل المدينة وثمارها التي بدأت في النضج، لكن كيف سيتم:

تجهيز جيش تبوك في ساعة العسرة

فهو جيش كبير يتجاوز عدده عدد جيش الفتح، ولم تكن هناك ميزانية للتسـلح، فالكل كانوا جنوداً للإسلام.. الكل كانوا أصحاب مبادئ وأهداف، لا أصحاب وظائف ومرتبات..

الكل يساهم حسب طاقته وإمكاناته، فلا إكراه ولا ضرائب ولا مكوس، وهنا و:

---

(١) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

في مثل هذه الظروف يشرق عثمان بن عفان

يشرق الكرم العثماني، ليؤسس نموذجاً راقياً لرجل الأعمال المسلم الذي لا ينظر إلى الدنيا من خلال الأرقام، بل ينظر إلى الأرقام من خلال الدنيا والآخرة معاً، وليست هذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها عثمان بإنجاز، فقد قال النبي ﷺ «من يحفر بئر رومة فله الجنة؟ فحفرها عثمان.

وقال: من جهز جيش العسرة فله الجنة؟ فجهزه عثمان»(1).

عثمان يتحدث عن ذلك عندما أشرف على الناس من فوق داره ثم «قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن، فابتعتها، فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم... وأشياء عددها»(2). ومن المؤكد أن هناك من استجاب بسخاء لذلك النداء النبوي، لاسيما وأن هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها للتبرع للجيش، بينما كان في المعارك السابقة يدعو القادرين وأصحاب الرواحل للاستعداد، ولعل عمر بن الخطاب كان في سباق، لكن منافسه لم يكن يشعر به بقدر ما كان يشعر بنداء النبي ﷺ.

عمر يحاول منافسة أبي بكر

يقول رضي الله عنه: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً.

فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله.

---

(1) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٣٥١.

(2) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-٦٢٥ حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن أبي عبد الرحمن السلمي. السلمي صحابي وتلميذه تابعي ثقة مشهور وزيد ثقة التقريب ٢٢٢ وتلميذه الرقي ثقة التقريب ٣٧٣ (ملاحظة: ذكر الحافظ رحمه الله أنه من الثالثة وترجمته لا توحي بذلك والصواب أنه تابع تابعي لأنه يروي عن صغار التابعين كالأعمش وتلميذه ثقة أيضاً.

فأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً»[1].

ولعل هؤلاء الثلاثة يجدون منافسة من رجل الأعمال الناجح المجاهد الرائع (عبد الرحمن بن عوف) الذي يقول: «إن رسول الله ﷺ قال: تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً.

فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، إن عندي أربعة آلاف؛ ألفين أقرضهما الله وألفين لعيالي؟

فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت. فقال رجل من الأنصار: وإن عندي صاعين من تمر،صاعاً لربي، وصاعاً لعيالي»[2].

لكن يبدو أن المنافقين لم يعجبهم هذا التسارع الجميل بالنفس والمال نحو تبوك، فقاموا بتعويض قصورهم بإطلاق الألفاظ الساخرة من المؤمنين.. يشفون بها تشوهات نفوسهم، ويطفئون بها جمر الحقد في قلوبهم «فلمز المنافقون وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء. وقالوا: أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا.

فأنزل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾»[3].

المنافقون هم علمانيوا ذلك الزمان.. لا يريدون للدين أي تأثير على حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى العسكرية، وليس لديهم ما يقدمونه، فرسالتهم محصورة في محاربة النجاح والدهشة بما عند الأعداء، وحساباتهم للأمور تنطلق من الخواء الذي يملؤهم ويعيشون فيه، والاستهزاء بالآخرين، وإطلاق الكلمات الساخرة على الناجحين هو أسلوبهم، ولن يجدوا كغزوة تبوك أنسب لهذه السخرية..

---

(١) سنده حسن من أجل هشام رواه الدارمي ١-٤٨٠ أخبرنا ابو نعيم ثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه سمعت عمر والبقية ثقات، ورواه البزار ١-٢٦٣ حدثنا محمد بن عيسى نا إسحاق بن محمد الفروي نا عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر، وفيه ضعف يسير من أجل عبد الله.

(٢) سنده حسن رواه الطبري ١٠-١٩٥ والبزار من طريق أبي عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن ابيه. وهو حسن من أجل عمر حفيد ابن عوف وهو حسن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ في التقريب صدوق يخطئ ٤٣١، وللحديث شواهد في الصحيح وغيره.

(٣) هو آخر الحديث السابق تفسيره.

كيف لا، وهؤلاء المسلمون ونبيهم يريدون مواجهة جحافل أقوى دولة في الدنيا بجيش يجمع التبرعات، ويحتاج إلى نصف صاع وحبات تمر؟! هذه هي حسابات المنافقين، وهي حسابات تفتقد إلى الإيمان بالله، وتفتقد كذلك إلى الثقة بالنفس وقدراتها، لذلك بدأ:

بعض المنافقين يعتذر عن المشاركة في غزوة تبوك

رغم توافر المال والراحلة والصحة لديهم، لكنهم أحسوا بالموت يريض على أرض تبوك، ويحدق بالقادمين إليها، وقد ذكر الله اعتذارهم فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾(1).

وإذا كان المنافقون يبخلون بأموالهم وأنفسهم عن صحبة النبي ﷺ، فإن هناك رجالاً يتحرقون للخروج معه عليه السلام.. رغم أنهم لا يملكون شيئاً، ولا يملك ما يحملهم عليه، فكانت لحظات الوداع.. لحظات من الدموع فـ:

عند الوداع بكى الرجال

فبعد أن رجوا النبي ﷺ أن يحملهم.. اعتذر من لهفهم وقال لهم: لا أجد ما أحملكم عليه.

عندها لمعت أعينهم وفاضت بالدموع، وعادوا من حيث أتوا مكسوري القلوب، وألم الحرمان يملأ صدورهم.. دموع تفيض لأن الفقر يحول بينهم وبين معانقة الموت والشهادة.. دموع خلدت أصحابها، وتردد ذكرها على مر الأجيال.

أولم يكفهم فخراً أن يذكر ربهم دموعهم، ويتحدث لعباده عنهم. نزل جبريل بكلام الله الذي يقول: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

---

(1) التوبة: ٤٩.

رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾[1].

وهؤلاء الذين يستأذنونك هم المنافقون الذين يملكون من المال الوقاحة والأعذار أرصدة طائلة.. هذا أحدهم جاء يعتذر فقبل رسول الله ﷺ عذره، لكن لم يهنأ بالقعود حتى أنزل الله فضيحته آيات ترددها المدينة في الطرقات والمساجد والبيوت وترددها الدنيا.. نزل الوحي يفضح المنافقين، ويشد أزر المؤمنين الذين تثاقل بعضهم مفضلاً تأجيل الخروج إلى ما بعد الحصاد.

نزل الوحي يسلط الأضواء على زوايا المنافقين المعتمة، وأغوارهم المليئة بالأحقاد والكراهية فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا

---

(١) التوبة: ٩٣.

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟
ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ
مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ
﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن
يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ
هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ
مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ
نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ
وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ
وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا
لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ
يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا
ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ
وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ

﴿٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ٦٣ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ٦٤﴾[1].

ويبـدو أن هذه الآيات قـد خنقت المنافقين فلم يجدوا هـواءً يطيق صدورهم، ولا أرضاً تحتمل خطاهم.. لقد حول المنافقون غزوة تبوك إلى مسرح كبير.. يسخر ون فيه من جرأة المؤمنين على غزو الروم، ويتشفون فيه من قلة ما لهم ومتاعهم، وضعف حالهم. فقلب الله عليهم مسـرحهم ذلك، فتحطم فوق رؤوسهم، فأصبحوا خائفين.. خجلين من أنفسهم، ومن الشوارع والأطفال والرجال والنساء، وحتى من نخيل المدينة وجدرانها.

أما المؤمنون فيذكرهم إلههم بحال نبيهم عندما كان شريداً طريداً.. هو وأبو بكر فـي غار ثـور وكيف تحقق له نصر الله، وها هم الذين كانـوا يطاردونه يتأهبون لغزو الروم خلفه جنوداً مخلصين، وسـيأتي اليوم الذي يتأهب الروم خلفه عليه السـلام أو خلف من يخلفه، ولكن حسابات المنافقين لا تتغير أبداً..

نهـض الصحابة خلف نبيهم في معركة تمحيص النوايا وتميز الإيمان، ولإن كانت خيبـر تحمل بصمة لعلي رضـي الله عنه، فإن بصمة عثمان كانـت الأبرز على غزوة تبوك، لكن ما الذي حدث لعلي هذه المرة.. إنه ليس ضمن المسـافرين.. هل هو الرمد مرة أخرى؟

علي يتخلف عن تبوك

فقد سـار النبي ﷺ مغادراً المدينة «ولم يكن رسـول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسـول الله ﷺ في حر شـديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسـلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد الديوان)[2] فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سـيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله.

---

(١) سورة التوبة: [٣٨-٦٤].

(٢) أي ليس لهم دفاتر تدون فيها الأسماء.

وغزا رسـول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسـول الله ﷺ والمسـلمون معه»[1] ثم خرجوا، وقبل خروجهم توقف، وتوقف معه علي رضي الله عنه معاتباً، ومتوسلاً أن يصحبه في هذا السفر الذي يحتاج إلى علي وأمثاله، فـ «إن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واسـتخلف علياً، فقال: أتخلفني والنسـاء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»[2].

كان عليه السلام يثمن كل مجهود وكل مجتهد، وكان لا يغفل أي دور يقوم به أحد من أصحابه، فلئن كان بقاء علي في المدينة يعني في نظره الغياب عن سـاحة الوغى، فإنه في نظر النبي ﷺ يقوم بدور هارون.. عندما توجه موسـى نحو جبل الطور وهو، دور لا يقـل عن دور أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم. وقد كان عليه السـلام يعين في كل غـزوة رجلاً من أصحابه خليفة له على المدينـة - العاصمة، واليوم هو دور علي. لكن علياً هنا تميز عن سـابقيه بقرابته من النبي ﷺ، ولذلك استحق أن يكون بمنزلة هارون، لأن هارون عليه السلام كان خليفة وأخاً لموسى في الوقت نفسه.

يقوله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «لما خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى تبـوك خلَّف علي بن أبي طالب، فأتاه بالجرف يحمل سـلاحه، فقال: يا رسـول الله، أتخلفني بعدك ولم أتخلف عنك في غزاة قط؟ قال: يا علي.. ارجع. فقال: يا رسـول الله، إن المنافقين يزعمون أنك إنما خلفتني إلا استثقالاً بي.

قـال: يـا علي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسـى، إلا أنه لا نبي بعدي. ارجع فاخلفني في أهلي وأهلك»[3].

وهو تميز يضع لكل فرد من أفراد الأمة مسـاحة يطلق فيها إبداعاته، ويجسـد فيهـا إنجازاته. فالله أنزل آيات كريمات فـي منزلة أبي بكر، وحاز عثمان على الجنة بتلك التبرعات السخية، ومن قبل تميز غيرهم بإبداعات رضي الله عنهم جميعاً، فمن

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-٢-١٦٠٢.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-٢-١٦٠٢.

(٣) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الدورقي في مسند سعد ١-١٣٩: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد عن إبراهيم بن سـعد بن أبي وقاص انه سمع اباه سعد. وإبراهيم تابعي ثقة من رجال الشيخين التقريب ٨٩ وتلميذه ثقة أيضاً التقريب ٤٨٥.

أراد أن ينظر إلى الصحابة نظرة الإسلام لهم، فليسلط أضواء الشمس عليهم جميعاً، ليرى كيف حركوا الدنيا، وشغلوا العالم بتكاملهم، وتنافسهم، وتميز كل فرد بقدرات وإنجازات وظفها النبي ﷺ أجمل ما يكون التوظيف. أما أولئك الذين يزوِّرون حياة الصحابة باختزال الأضواء على حدث، أو فرد، أو يجعلون من بروز أحدهم انتقاصاً لغيره، فهم متعصبون يسيئون للأحداث، وللصحابة معاً، كما يسيء هؤلاء المنافقون الذين يزرعون المدينة بالإرجاف والتخذيل، والسخرية من ثقة المسلمين بأنفسهم، وجرأتهم على حدود أقوى دولة في الدنيا.

لم يكن علي وحده يلح في الخروج.. بعض المؤمنين المعدمين الذين تنوء ظروفهم بهممهم يتوجهون نحو:

النبي ﷺ وهو في حالة غضب

ربما من المنافقين.. أحد هؤلاء الفقراء رشحه أصحابه للتحدث، وهو أبو موسى الذي يقول: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله.. إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم. فقال: والله لا أحملكم على شيء [وما عندي ما أحملكم عليه] ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، فرجعت حزيناً من منع رسول الله ﷺ، ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد في نفسه علي، فرجعت إلى أصحابي، فأخبرتهم الذي قال رسول الله ﷺ، فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي: أي عبد الله بن قيس.. فأجبته.

فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك.

فلما أتيت رسول الله ﷺ قال: خذ هذين القرينين، وهذين القرينين، وهذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد - فانطلق بهن إلى أصحابك، فقل: إن الله -أو قال: إن رسول الله ﷺ- يحملكم على هؤلاء فاركبوهن.

قال أبو موسى: فانطلقت إلى أصحابي بهن فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم، ومنعه في أول مرة، ثم إعطاءه إياي بعد ذلك، لا تظنوا أني حدثتكم شيئاً لم يقله.

فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق، ولنفعلن ما أحببت.

فانطلق أبو موسى بنفر منهم، حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ ومنعه إياهم، ثم إعطاءهم بعد، فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء»[1].. ثم انطلق الجميع خلفه عليه السلام محملين بالمعاناة وشظف العيش، وقلة الزاد وكثير من الإيمان، وقد «خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»[2] ولم يبق في المدينة سوى علي، وأهل الأعذار و:

ثلاثة رجال من الأغنياء يتخلفون

عن مصاحبة النبي ﷺ رغم أنهم ليسوا من المنافقين، فأحدهم كان من أهل بيعة العقبة، وهو الصحابي الشاعر كعب بن مالك رضي الله عنه، الذي لم يتخلف عن غزوة أحد وما بعدها، بل إنهم كانوا من أهل الاستعداد والإعداد لهذه الغزوة. لكنه التسويف والثقة المفرطة بالنفس، والوقت الذي لا يعرف الانتظار.

يقول كعب عن ظروف تخلفه: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حيت تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٦٩ والزيادة له ١٢٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٣ - ١٠٧٨.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم. فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم. فغدوت - بعد أن فصلوا - لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً.

فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء»[١].

كان كعب يشعر بغصة وبغربة داخل مدينته، لأنه لم ير فيها إلا الضعفاء والمنافقين، وهو ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء..

هو من أولئك الذين يكابدون خلف النبي ﷺ لمجابهة الروم الذين تأهبوا للقضاء على هذه الدولة الجديدة، لكنه التسويف الذي يورث الندم، ويكدس الوظائف ويصيب الإنسان بالإحباط.

لم يكن كعب وحيداً في معاناته.. هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع يمران بالتجربة المريرة نفسها، ولما تحدث الناس عنهما أمام كعب قال: مثنياً عليهما «ذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما إسوة»[٢] ثلاثة من السابقين إلى الإسلام يبحثون عن مخرج مما هم فيه، ولا سبيل؟ فالنبي عليه السلام الآن في طريقه يشق السراب والعطش والقفار، في قيظ محرق ولهيب مشتعل. وإذا كان هؤلاء الثلاثة قد فقدوا الأمل باللحاق به عليه السلام، فإن رجلاً رابعاً لم يتسلل اليأس إلى نفسه..

إنه الرجل الذي تصدق بالصاع وسخر منه المنافقون:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣.
(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٢٤.

أبو خيثمة يلحق بالنبي

في قصة تفيض بحب الله ورسوله.. يتحدث عنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فيقول: «حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما، في حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وقد بردت له فيها ماء، وهيأت له طعاماً، فلما دخل قال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم! ما هذا بالنصف. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زاداً.

ففعلتا، ثم قدم ناضحة فارتحل، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال لعمير: إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى أقدم على رسول الله ﷺ فسار»[1] فتقدم أبو خيثمة قبله نحو النبي ﷺ.. الذي كان يعاني وأصحابه من لهيب القيظ، وشدة العطش إلى درجة لا يستطيع التعبير عنها إلا الذي عاناها وكابدها.. ومن بين هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يقول: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى أن الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده.

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا. فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع يده فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلمت، ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جازت العسكر»[2] أي أن السحابة أمطرت على معسكر المؤمنين فقط.

معاناة شديدة تكشف عن طبيعة هذا الدين، وأن الله قضى أن لا ينتشر ويحكم في الأرض إلا بجهد البشر وتضحياتهم، وبدون ذلك لن يتمكن أبداً. أما المعجزات

---

(١) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق، وله شاهد عند الطبراني ٦-٣١.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ١-٥٣ من طريق ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير عن ابن عباس. ابن وهب إمام وشيخه مثله، وسعيد صدوق، وعتبة وشيخه ثقتان. وكلهم من رجال التقريب.

الحسـية، فهي أدلة وبراهين تأتي مع الأنبياء، وتغادر معهم، لكن حتى المعجزات تقف طويـلاً على أبواب العناد الموصـدة بأقفال صدئة.. كأبواب المنافقـين التي أقفلوها، وأقفلوا عقولهم دونها قديماً وحديثاً.

المنافقون لا تنفع معهم حتى المعجزات

فـي الطريـق إلى تبوك آية كالشـمس.. معجزة إلهية في السـماء، وآثارها على الأرض.. لا تحتاج إلى بيان، لكن عقول المنافقين قد تعفنت مع الزمن والعناد.. سـأل رجـل أحد الصحابة عن النفـاق والمنافقين فقال له: «هـل كان الناس يعرفون النفاق فيهـم؟ قال: نعم، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيـه ومن أبيه، ومن بني عمه ومن عشـيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك. لقد أخبرني رجل من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسـير مع رسـول الله ﷺ حيث سـار، فلما كان من أمر الحجر[1] ما كان، ودعا رسـول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، أقبلنا عليه نقول: ويحك أبعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة.

ثم إن رسـول الله ﷺ سـار حتى كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحاب رسـول الله ﷺ في طلبها، وعند رسـول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له (عمارة بن حزم) وكان عقبياً بدرياً، وهو من بني عمرو بن مخزوم، وكان في رحله (يزيد بن نصيب القينقاعـي) وكان منافقـاً فقال يزيد - وهو في رحل عمـارة وعمارة عند النبي عليه السلام-: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، ولا يدري أين ناقته؟

فقال رسـول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلاً قـال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعـم أنه يخبركم بخبر السـماء وهو لا يدري أين ناقته، وإنـي والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها وهي في هذا الوادي من شـعب كذا وكذا، وقد حبسـتها شجرة بزمامها. فانطلقوا حتى تأتوني بها.

فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: والله لأعجب من شيء حدثناه رسـول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل أخبـره الله عنه كذا وكذا للذي قال يزيد ابن نصيب..

---

(١) الحجر ديار ثمود قوم صالح شمال المدينة.

فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: ابن نصيب والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبل عمارة على يزيد يجافي عنقه ويقول: يا آل عباد الله إن في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج أي عدو والله من رحلي فلا تصحبني»[1] ولا يلام عمارة بما فعله بيزيد المنافق هذا، فهؤلاء الذين أغلقوا ضمائرهم وعقولهم، وأكل الحسد والعناد قلوبهم، واستنفدوا كل طرق الإقناع.. لا يجدي معهم سوى الترك، لأنه لا فائدة ترجى ولا أمل يبقى، فلا داعي لإهدار وقت يستحقه غيرهم ممن يتلهفون للحقيقة والتوحيد.

لم يكن العطش وحده.. الخوف كذلك كان يخيم على بعض مراحل الطريق إلى تبوك..

يقول المتدلي من حصن الطائف نحو الإسلام (أبو بكرة) رضي الله عنه: «صلى النبي ﷺ في خوف الظهر، فصف بعضهم خلفه، وبعضهم بإزاء العدو، فصلى بهم ركعتين، ثم سلم، فانطلق الذين صلوا معه فوقفوا موقف أصحابهم، ثم جاء أولئك فصلوا خلفه فصلى بهم ركعتين ثم سلم، فكانت لرسول الله ﷺ أربعاً ولأصحابه ركعتين ركعتين»[2]

كما كان عليه الصلاة والسلام يجمع في طريقه ذلك بالطريقة التي يقول عنها «معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيغ الشمس أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر، فيصليهما جميعاً، وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم سار[3]. وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخر المغرب حتى يصليها مع

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حزم في المحلى ١١-٢٢٢ والطبري في التاريخ ٢-١٨٤: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الظفري قال: قلت لمحمود ابن لبيد: وعاصم تابعي مر معنا كثيراً ثقة عالم بالمغازي وشيخه صحابي.

(٢) سنده على شرط البخاري رواه أبو داود وغيره ٢-١٧ من طرق عن أبي حرة والأشعث وهما ثقتان عن الحسن عن أبي بكرة والحسن مدلس،والبخاري رحمه الله روى بهذا السند أربعة أحاديث وربما أكثر في: الركوع دون الصف، والكسوف، وتولية المرأة، وأن الحسن سيصلح به الله بين فئتين. وأبو بكرة لم يسلم إلا بعد حنين.

(٣) ملخص ما يفعله عليه السلام في الجمع، أنه إذا تحرك قبل دخول وقت الصلاة الأولى أخر الجمع، وإذا أذن المؤذن قبل أن يتحرك قدم الجمع ثم انطلق.

العشـــاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشـــاء فصلاها مع المغرب»[1] هذا عن الجمع والقصر، أما عن:

الصيام في السفر الشاق

الصيام في هذا السفر الشاق حدث من بعض الصحابة، «جابر بن عبد الله قال: خرجنا مع رســـول الله ﷺ في غزاة تبوك، وكانت تدعى غزوة (العســـرة) فبينما نسير بعدما أضحى النهار، فإذا هو بجماعة تحت ظل شـــجرة، فقالوا: يا رســـول الله رجل صام فجهده الصوم؟ فقال ﷺ: ليس البر أن تصوموا في السفر»[2]

كان النبي ﷺ وأصحابه قد وصلوا إلى مكان اســـمه حجر ثمود وهو ما يســـمى بـ (مدائـــن صالح) وهو المكان الذي كانت تعيش فيه قبيلـــة ثمود، وهم قوم النبي صالح عليه الصلاة والسلام الذي أهلكهم الله بعد كفرهم وقتلهم الناقة، التي جعلها الله آية ومعجزة لنبيه، وبعد:

الوصول إلى ديار ثمود

أسرع بعض الصحابة يروون عطشهم، ويستسقون الماء ويعدون الطعام مستخدمين المـــاء الموجود في هذا المكان، لكنهم فوجئوا بصوت مرتفـــع يناديهم: الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة...

وهي لفظة ينادي بها النبي ﷺ أصحابه للاجتماع داخل المســـجد أو خارجه. فما الذي حدث؟

---

(١) ســـنده صحيح رواه الترمذي ٢-٤٣٨ وابن حبان ٤-٢١٣ والبيهقي في الكبرى ٣-١٦٣ عن قتيبة بن سعيد الثقفـــي ثنا الليث بن ســـعد عن يزيد بـــن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بـــن جبل. يزيد تابعي ثقة فقيه وتابعه أبو الزبير وقد عنعن لكن ذلك لا يضر فهو من طريق الليث كما صرح بالسماع عند الدارمي ١-٤٢٦ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) سنده حسن رواه ابن حبان ٨-٣٢١ حدثنا عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة عن جابر وقد أخطأ عمارة، والصواب هو ما قاله ابن أبي حاتم في العلل ١-٢٣١ قال أبي: روى هذا الحديث شعبة عن محمد بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن الحســـن عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ومحمد ابن عمرو تابعي ثقة وكذلك تلميذه.

يقــول أحد الصحابة: «نزل رســول الله ﷺ بالناس عام تبــوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستســقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبــوا القدور باللحم»[١] و«لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشــربوا من بئرها، ولا يســتقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واســتقينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء»[٢]

و«قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم، ثــم تقنع بردائه وهو على الرحل»[٣] «ثم زجر فأســرع حتى خلفها»[٤] فنهض الصحابة «فأهراقــوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثــم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشــرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا. قال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»[٥] «وأمرهم أن يســتقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»[٦] فامتثلوا أمر نبيهم عليه الســلام، ثم قام النبي ﷺ في أصحابه خطيباً وحدثهم عن قوم صالح، وعن مصير الرجل الشهير أبي رغال. فما هي..

خطبة النبي ﷺ

يقول جابر رضي الله عنه: «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات، وقد ســألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر مــن هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوم، ويشربون لبنها يوما، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل.

قيــل: من هو يا رســول الله؟ قال: هو أبو رغال، فلما خــرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[٧]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري وأحمد واللفظ له وســند أحمــد صحيح ٢-١١٧ حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر يعني بن جويرية عن نافع عن بن عمر قال وصخر ثقة.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٦.
(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.
(٤) صحيح مسلمْ ٤-٢٢٨٦.
(٥) هو جزء من حديث أحمد السابق أحمد ٢-١١٧.
(٦) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.
(٧) سنده صحيح على شرط مسلم رواه أحمد ٣-٢٩٦ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس لكنه صرح بالسماع عند الفاكهي في أخبار مكة ٢-٢٥١.

ويبدو أن غزوة تبوك ستكون حافلة بالدروس، لكن هل ستكون حافلة بالدماء؟ غادر النبي ﷺ وجيشه أرض ثمود:

نحو وادي القرى

وهي مدينة بين تبوك والمدينة، وفيها مر النبي ﷺ بحديقة امرأة مسلمة، فكان هذا الحوار الذي يذكره أحد الصحابة فيقول «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله ﷺ: اخرصوها. فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عشرة (أوسق). وقال: أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله، وانطلقنا حتى قدمنا تبوك»[1]

والخرص هو تقدير ما على النخل من رطب.. تمهيداً لأخذ زكاته، وكان تقدير النبي ﷺ لرطب المرأة أنه يبلغ عشرة (أوسق) أي ستمائة صاع، لأن الوسق يساوي ستين صاعاً.

خرص النبي ﷺ الرطب ثم غادر وادي القرى متوجهاً نحو تبوك في:

طريق مفروش بالدروس والمعجزات

فقد كان عليه السلام يجمع في طريقه ذلك ويقصر كعادته في أسفاره: يقول أنس رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين»[2]

أما ما يضعه المصلي أمامه كي لا يقطع أحد صلاته فـ «سئل في غزوة تبوك عن سترة المصلي؟ فقال: كمؤخرة الرحل»[3] أي العود الموجود في آخر المقعد الموجود في رحل البعير.

ويقول معاذ رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً، حتى إذا كان

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

(٢) صحيح مسلم ١-٤٨١ وبعد كلمة أميال قال الراوي: شعبة الشاك أي أن الإمام شعبة شك.

(٣) صحيح مسلم ١-٣٥٩.

يومـاً أخر الصلاة، ثـم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل، ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعاً، ثم قال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي.

فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فسألهما رسول الله ﷺ: هل مسستما من مائها شيئاً؟

قالا: نعم. فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول.

ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استسقى الناس، ثم قال: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً»[1].

نبـي تقله المعجزات وتظله، ويلهج بهـا لأجيال لم تخلق أصلاب آبائها بعد، وحين انتهى عليه السلام إلى تبوك توقف الجيش فلم يجد أحداً..

أيـن الروم..؟ أين جيشـهم الـذي لا يقهر؟!! أين دولتهم التـي أولها في أقاصي أوروبا، وآخرها ليس في تبوك..؟

لا أحد على هذه الأرض سوى النبي وأصحابه والمعجزات!!

نزل النبي ﷺ وأقيم معسكر كبير جداً، وفي أحد مجالس النبي ﷺ بين أصحابه افتقد صاحبه كعب بن مالك، وسـأل عنه؟ فكانت الإجابة نقداً لاذعاً لكعب.. تفوه به أحد الجالسين.

يروي كعب مأسـاته وأحزانه فيقول: «ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سـلمة: يا رسـول الله حبسـه برداه ونظره في عطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ»[2]

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٤ وقد تحققت المعجزة الأخرى اليوم فتبوك اليوم من أكبر المناطق الزراعية.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٦٠٤.

سكت لأن كعباً كان من أهل العقبة وأحد والخندق، وباقي المشاهد والغزوات، أما ما فعله معاذ ابن جبل رضي الله عنه من دفاع عن عرض أخيه الغائب، فهو استيعاب معاذ لمعنى الأخوة، وامتثال لقوله عليه السلام: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[1] فالغائب له أعذاره ومبررات غيابه، ولا مجال للقذف والتكهنات في حياة المسلم النقي، فمن أجمل ما يزين به المرء حياته وقلبه حسن الظن، وسلامة الصدر، كما يزين النبي ﷺ وأصحابه اليوم أرض تبوك.

وبينما كان الصحابة حول نبيهم في مجلسهم الودي هذا.. لاح لهم بين السراب بياض يموج خلاله، بعد أن «رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة.

فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون»[2] «فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هذا أبو خيثمة. فلما أناخ، سلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أولى لك أبا خيثمة.

فقص عليه خبره، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً»[3]

وبعد أن مرت أيام على هذا المعسكر، وتبين أن الروم قد أصابهم الخوف والرعب من هذا الجيش المؤمن، الذي يعاني الآن من:

مجاعة على أرض تبوك

«لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة. قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا؟

فقال رسول الله ﷺ: افعلوا. فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فعلت قَلَّ الظَّهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك.

---

(١) سنن الترمذي ٤-٣٢٧ وهو صحيح انظر صحيح السنن للإمام الألباني رحمه الله.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٢٢.

(٣) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم ابن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه. وله شاهد عند الطبراني ٦-٣١.

فقال رسول الله ﷺ: نعم. فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم... فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم. فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه. فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة...

فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»[1]

معجزات كثيرة طمأنت قلوب المؤلفة قلوبهم، وقوت إيمان مسلمي الفتح ومسلمي حنين وغيرهم.. معجزات ليست غريبة على عمر الذي طلبها من رسول الله ﷺ أن يدعوا الله لتحدث.

وبعد فماذا سيفعل عليه السلام ولا حرب ولا روم هنا، ولا فائدة من البقاء في مكان لا يرون فيه سوى الجوع والعطش؟

لقد قرر النبي ﷺ أن يبقى أياماً.. جاعلاً أرض تبوك مركزاً لنشاطات عسكرية وسياسية مختلفة، وأول المستهدفين بتلك النشاطات هم من جاء من أجلهم: الروم.. لقد قرر ﷺ

إرسال رسالة إلى قيصر الروم

«قال رسول الله ﷺ: من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟ فقال رجل من القوم: وإن لم أقتل؟ قال: وإن لم تقتل.

فانطلق الرجل به فوافق قيصر وهو يأتي بيت المقدس، قد جعل له بساط لا يمشي عليه غيره، فرمى بالكتاب على البساط وتنحى، فلما انتهى قيصر إلى الكتاب أخذه، ثم دعا رأس الجاثليق[2] فأقرأه.

---

(١) صحيح مسلم ١-٥٦.

(٢) ربما تعني هذه الكلمة: الكاثوليك، وهي طائفة نصرانية دولتها الفاتيكان في وسط روما.

فقال: ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك.

فنادى قيصر: مَنْ صاحب الكتاب فهو آمن؟ فجاء الرجل. فقال (قيصر): إذا أنا قدمت فأتني.

فلما قدم أتاه، فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت، ثم أمر منادياً ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمداً ﷺ وترك النصرانية. فأقبل جنده وقد تسلحوا حتى أطافوا بقصره فقال لرسول رسول الله ﷺ: قد ترى، إني خائف على مملكتي، ثم أمر منادياً، فنادى: ألا إن قيصر قد رضي عنكم، وإنما خبركم لينظر كيف صبركم على دينكم فارجعوا. فانصرفوا، وكتب قيصر إلى رسول الله ﷺ: إني مسلم وبعث إليه بدنانير. فقال رسول الله ﷺ: حين قرأ الكتاب كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية، وقسم الدنانير»[1]

كانت هذه الإجابة المرتبكة تدل على أن الروم وعلى رأسهم قيصر.. بدأوا بمطالعة كتبهم المقدسة ومراجعة نبواتها، حيث ظهر خوفهم الشديد من هذا النبي التي تشير النبوات في الكتاب المقدس إلى صدقه وصدق ما جاء به. لكنها السلطة التي تكمم الأفواه، وتغلق القلوب، وتحرم صاحبها من اتباع الحق. ففي داخل بئر بدر يتعفن أحد الأدلة، وعلى أرض بني النضير وقينقاع وخيبر.. أدلة أخرى من الحسد والعناد لهذا النبي، وكأن كونه عربي النسب سبة على بني إسرائيل.. الذين أهانوا النبوة والأنبياء بشكل بشع.

كان ارتباك قيصر وخوفه دافعاً لملك مدينة تدعى (أيلة) على ساحل البحر الأحمر أن يأتي بنفسه.. يحمل هداياه، ويقدم الولاء للنبي ﷺ «جاءه ملك (أيلة) وأهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان ١٠-٣٥٧ أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الرحيم صاعقة حدثنا علي بن بحر حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا حميد عن أنس. حميد الطويل تابعي ثقة سمع أنس وتلميذه الفزاري ثقة حافظ. التقريب ٥٢٦ وتلميذه ثقة فاضل. التقريب ٢٩٨. وصاعقة ثقة حافظ التقريب ٤٩٣ وابن إسحاق قال عنه الخطيب في تاريخ بغداد ١-٢٤٨: كان من المكثرين الثقات الصادقين الأثبات عَنِيَ بالحديث وصنف كتباً كثيرة وهي معروفة مشهورة.

فكســـاه رسول الله ﷺ برداً، وكتب له رســـول الله ﷺ»[1] «كتب له ببحرهم»[2] أي أبقاه النبي ﷺ ملكاً على أيلة، ثم بعث بسرية إلى مكان آخر هو:

دومة الجندل

«بعث إلى أكيدر صاحب دومة بعثاً»[3] وأوكل قيادة هذه السرية إلى الفارس والقائد الــذي لا يهزم (خالد بــن الوليد) رضي الله عنه، وريثما يعود خالد من مهمته.. دعونا نتجول داخل هذا المعسكر، الذي حوله النبي ﷺ إلى مدرسة يتعلم منها الجميع.. حيث «أقام رســـول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً»[4]، وفي إحدى تلك الليالي وبعد أن فرغ من صلاته قام:

النبي ﷺ يبشر أصحابه بخمس

خمــس هبات من اللـــه لنبيه ولهذه الأمة.. تفيض رحمة ورأفـــة بهم، وعزاءً لهذا الجيش الذي عانى الكثير، ولم يسعد بلقاء العدو وقطف الشهادة.

يقــول أحد المشـــاركين في هذه الغزوة وهو (عبد الله بـــن عمرو بن العاص): «إن رســـول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرســـونه، حتـــى إذا صلى وانصرف إليهـــم فقال لهم: لقد أعطيت الليلة خمســـاً ما أعطيهن أحد قبلي:

أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه.

ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ منه رعباً.

وأحلت لي الغنائم آكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٣) ســـنده حســـن رواه النسائي ٨-١٩٩ وغيره عن محمد بن عمرو عن واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ سمع أنس. واقد ثقة وتلميذه حسن الحديث من رجالهما التقريب ٥٧٩ و٤٩٩

(٤) ســنده صحيح رواه أحمــد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بـــن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر. يحيى وشيخه ثقتان التقريب والبقية أئمة.

وجعلت لي الأرض مساجد وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم.

والخامسة هي ما هي قيل لي: سل فإن كل نبي قد سأل. فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»[1] ويقصد بها شفاعته لأمته يوم القيامة حيث يقول «ﷺ لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[2]

وقد أعطى الله للنبي ﷺ أربع شفاعات يوم القيامة:

الأولى: هي الكبرى، وهي التي يقبلها ﷺ تلبية لنداء البشر جميعاً، بعدما يعتذر الأنبياء للناس عن مخاطبة الجبار يوم القيامة. يقول ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم، فيقولون له: اشفع لذريتك فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيؤتى موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ

فأوتى فأقول: أنا لها»[3].

الثانية: شفاعته لأهل الكبائر من أمته بعدما يقول ﷺ: «أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله، ثم أَخِرُّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: رب أمتي.. أمتي..

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٢-٢٢٢ وغيره من طرق عن يزيد بن الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. يزيد ثقة مكثر: التقريب ٦٠٢ والباقي إسناد حسن معروف.

(٢) صحيح مسلم ١-١٨٢.

(٣) صحيح مسلم ١-١٨٩.

فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها.

فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: أمتي.. أمتي..

فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها.

فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً. فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي.. أمتي..

فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل»[1]

الثالثة: شفاعته لإخراج أناس من أهل النار، من الذين ارتكبوا ذنوباً كبيرة وكثيرة، لكنها لم تصل إلى حد الشرك الأكبر، وهي الشفاعة التي يخصه بها الله سبحانه وتعالى

يقول ﷺ: «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذاك لك، أو قال ليس ذاك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وكبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله»[2]

الرابعة: شفاعته لعمه أبي طالب، وذلك أن يخفف عنه من العذاب، فيوضع على جمرتين على شكل نعلين من النار.. يغلي منهما دماغه. فقد قال «أبو سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب؟ فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه»[3]

كان الصحابة ينصتون إلى تلك الهبات الإلهية ويرجون الله شفاعة نبيه ﷺ، وكان النبي ﷺ يواصل تعليمه وتثقيفه لأتباعه في أي مكان وأي زمان.. هاهو داخل خيمته

---

(١) صحيح مسلم ١-١٨٣.
(٢) صحيح مسلم ١-١٨٣.
(٣) صحيح مسلم ١-١٩٥.

الصغيــرة التي تقصدها خطوات الصحابي عوف بــن مالك، وبعدما وصل قال رضي الله عنه: «أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك [في آخر السحر وهو في فسطاطه فسلمت عليه وقلت: أأدخل يا رسول الله؟ فقال: ادخل.. فقلت: كلي؟ فقال: كلك]، وهو في قبة من أدم فقال: عدد ستاً بين يدي الساعة:

موتي.

ثم فتح بيت المقدس.

ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم.

ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً.

ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته.

ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»[1] وهذا الحديث من معجزاته عليه السلام، وأما دروسه لأمته في هذه الغزوة فلم تنته.. ها هو يواصل تعليم أصحابه أمراً يتعلق بالنظافة والصلاة يعلمهم:

دروسا في المسح على مقدمة الرأس والعمامة والخفين

وكان رفيقــه في تلك الليلة صاحبه المغيرة بن شــعبة رضي الله عنه الذي يقول: «أنــه غزا مع رســول الله ﷺ تبــوك»[2] «فقال: يا مغيرة خــذ الإداوة[3]، فأخذتها، ثم خرجت معه فانطلق رسول الله ﷺ حتى توارى عني، فقضى حاجته ثم جاء وعليه جبة شامية ضيقة الكمين، فذهب يخرج يده من كمها فضاقت عليه، فأخرج يده من أسفلها فصببت عليه فتوضأ وضوءه للصلاة»[4]

وكان ذلك «قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله ﷺ إليَّ أخذت أهريق على يديه من الإداوة، وغســل يديه ثلاث مرات، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه فضاق

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٥٩ والزيادة صحيحة وهي عند الحاكم ٣-٦٣٠ وغيره.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-٣١٧.

(٣) إناء يوضع فيه الماء.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ١-٢٢٩.

كما جبته، فأدخل يديه في الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة، وغسل ذراعيه إلى المرفقين»[١] «فمسح بناصيته[٢] وعلى العمامة»[٣] «مقدم رأسه وعلى عمامته»[٤]

عندها أراد المغيرة رضي الله عنه أن يخدم النبي ﷺ بنزع الخفين من قدميه الشريفتين، لكن ذلك لم يحدث. يقول المغيرة: «فأهويت لأنزع خفيه فقال دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين فمسح عليهما»[٥] أي أن النبي ﷺ لبس الخف وهو متوضئ وإلا لما مسح على الخف، كما بين عليه السلام لصحابته مدة المسح على الخفين التي تبدأ من أول مسحة. فيقول عوف بن مالك الذي دخل على نبيه في قبته قبل قليل: « إن رسول الله ﷺ أمر بالمسح على الخفين في غزوة تبوك ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر، ويوم وليلة للمقيم»[٦]

درس في جواز لبس الشعوب، حيث لبس جبة شامية يصنعها النصارى، وهي أشبه بالجاكيت، وليس في ملابس الشعوب تشبه بالكفار، بل التشبه يكون عندما يلبس المسلم ملابس القساوسة والحاخامات والرهبان والكهنة، أي ملابس رجال الدين.

ولما فرغ النبي ﷺ من وضوءه وطهارته توجه مع صاحبه المغيرة لأداء صلاة الفجر فكان في ذهابهما:

درس آخر في الصلاة

يقول «المغيرة: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف، فصلى لهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٣١٧.
(٢) مقدمة الرأس وبداية الشعر.
(٣) صحيح مسلم ١-٢٣١.
(٤) صحيح مسلم ١-٢٣١.
(٥) صحيح البخاري ١-٨٥.
(٦) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ١-١٦١ حدثنا هشيم بن بشير قال أخبرنا داود بن عمر عن بسر بن عبد الله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني قال حدثنا عوف بن مالك الأشجعي: هشيم لم يدلس والبقية ثقات وهو متصل.

فأفزع ذلك المسلمين. فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: أحسنتم. أو قال: قد أصبتم. يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها»[1].

لم يستفد الصحابة من دروس العبادة فقط كان هناك:

درس في الأحكام الجنائية

فقد حدث بين بعض الرجال ما يحدث بين البشر من نزاع وسوء تفاهم.. قد يصل إلى الاشتباك بالأيدي أحياناً، وقد وصلت الأمور هذه المرة إلى الاشتباك، فتضرر أحد الطرفين، فذهب مشتكياً للنبي ﷺ الذي كان يؤدي دور القائد والأخ والقاضي والمعلم، وقبل ذلك النبي.

يــروي لنا ما حدث صحابي كان هناك، وكان له علاقة بما حدث.. اســمه (يعلى بن منية) فيقول: «غزوت مع رســول الله ﷺ غــزوة تبوك، فحملت على بكر فهو أوثق أعمالي في نفســي، فاستأجرت أجيراً فقاتل رجلاً، فعض أحدهما الآخر، فانتزع يده مــن فيه ونزع ثنيته، فأتــى النبي ﷺ فأهدرها[2] فقال: أيدفع يده إليك فتقضمها كما يقضــم الفحل»[3] فتعلم الصحابة أن خســائر المعتدي لا تعوض، فهو الســبب فيها لا خصمه، وإذا كان أحد الصحابة قد خسر أحد أسنانه، فإن أحدهم كاد أن يفقد حياته عندما حذر عليه السلام أصحابه:

أمراً مرعباً سيحدث على أرض تبوك

ومعجزة أخرى ســتحدث على أرض المعجــزات - تبوك، معجزة خارقة لا تحدث ولا يعلمها إلا نبي.

يقول أحد الذين شاهدوا تلك الحادثة: «قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: ستهب عليكم الليلة ريح شــديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشــد عقاله، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء»[4]

(١) صحيح مسلم ١-٣١٧.

(٢) أي لم يعوضه.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٨٦.

(٤) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

أنها لم تكن ريحاً عادية، وإلا لم حذر عليه السـلام صحابته منها فطلب منهم أن يربطوا رواحلهم بشـدة. أما كيف عرف هذا الصحابي بمكان أخيه، فهذا ما سنعرفه بعد العودة للمدينة، وهي عودة يبدو أنها قريبة. فبعد أن «أقام رسـول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً»[١] قال أبو هريرة رضي الله عنه: « إن رسول الله ﷺ قام فينا يوم تبوك فحمـد اللـه تعالى وأثنى عليه، ثم قـال: إن الله أذن لكم بهذا المسـير، وقد أذن لكم بالرجـوع، [والذي نفـس محمد بيده لولا أنه ليس عندي سـعة فأعطيكم، ولا تطيب أنفسكم أن تقعدوا خلفي ما قعدت خلف سرية ولا بعث من المسلمين، فلوددت أني أقتل في سـبيل الله، ثم أحيى ثم أقتل، ثم أحيى بعدها مراراً، جرح الرجل جرحا في سبيل الله والله أعلم بمن يجرح في سبيله يأتي يوم القيامة كلون الدم وريح المسك]»[٢]

فتأهـب الجميع للعودة إلـى المدينة، ثم تحركوا، وبعـد أن انطلق الجيش وخلال الطريـق وجد الصحابي (معاذ بن جبل) نفسـه بقرب النبـي ﷺ، فوجدها فرصة لا يمكن تفويتها، لذلك قدم استفسـاراً يلح على مشاعره بشدة، فقال: «أقبلنا مع رسول اللـه ﷺ من غـزوة تبوك فلما رأيته»[٣] «وقد أصاب الحـر، فتفرق القوم حتى نظرت فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني فدنوت منه، فقلت: يا رسول الله أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار.

قال: لقد سـألت عن عظيم، وإنه ليسـير على من يسـره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: وإن شئت أنبأتك بأبواب الجنة. قلت: أجل يا رسول الله.

---

(١) سـنده صحيح رواه أحمـد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بـن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر. يحيى وشيخه ثقتان التقريب والبقية أئمة وقد مر معنا.

(٢) سنده حسن رواه ابن أبي عاصم في السنة ١-١٧٧ حدثنا ابن مصفى حدثنا بقية بن الوليد ثنا الأوزاعي عبـد الرحمن بن عمـرو عن يحيى بن أبي عمرو الشـيباني عن أبي مريم عن أبـي هريرة.. قال الإمام الألباني: إسـناده حسـن وفي ابن مصفى كلام يسـير وبقية من جهة تدليسه ولكنه صرح بالتحديث وأبو مـريم هو الأنصاري الشـامي وهو ثقـة. وهو كما قال رحمـه الله.. والزيادة عند الطبراني في مسـند الشـاميين ٢-٣٣ وهي صحيحة لأنها زيادة الثقة يزيد بن عبد ربه الجرجسي وقد تابع محمد بن مصفى في روايته.

(٣) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة ٦-١٥٨ أحمد ٥-٢٣٧ عن شعبة عن الحكم سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل وسنده فيه ضعف من أجل الراوي عن معاذ لكن يشهد له ما بعده ففيه متابعة قوية له.

قـال: الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئـة، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

قال: وإن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه. قلت: أجل يا رسول الله.

قال: أما رأس الأمر فالإسـلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد في سبيل الله. وإن شئت أنبأتك بملاك ذلك كله. فسكت، فإذا راكبان يوضعان[1] قبلنا، فخشيت أن يشغلاه عن حاجتي، فقلت: ما هو يا رسول الله؟

فأهوى بإصبعه إلى فيه. فقلت: يا رسول الله، وإنا لنؤاخذ بما نقول بألسنتنا؟

قـال: ثكلتك أمك ابن جبـل، هل يُكبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[2]

ما أروع الإسـلام فقد تحولت حياة هؤلاء العرب الأجـلاف بهذا النبي إلى حياة أخرى.. نظافة وعبادة نقية وعلم وثقافة، بل أصبح العلم والثقافة في مقدمة اهتماماتهم، وأصبـح رضى الله هو هدف الحصول على هذا العلم، لو وضعنا آلة تصوير لتسـجل لنا كيف كانت هذه الجزيرة قبل الإسـلام وبعده لما صدق أحد ما جرى.. إنها معجزة خارقـة، وكأن أمة جديدة متحضرة حلت مكان تلـك الأمة الوثنية.. أمة جديدة تعتبر العلم عبادة، والنظافة عبادة، والعدل والصدق والأمانة والإحسـان والمواسـاة وكفالة اليتيم والإيثار وسـائر الحركات الجميلة مهرجاناً من العبادات.. حتى حركة اللسـان وسكونه.. حوَّلَها الإسلام إلى عبادة.

كان ﷺ يحدث أصحابه عن اللسـان وخطورته، وكأنه يستشعر تلك الأفاعي التي يخفيها المنافقون داخل أفواههم، والتي تتلمظ لنهش أعراض الصحابة وتشويه صورتهم، وقد حدث ذلك في أحد مجالس تبوك التي شملت بعض المنافقين.. حيث قام هؤلاء:

---

(١) يسرعان نحونا.

(٢) سـنده قوي رواه الحاكم ٢-٤٤٧ من طريقين عن الأعمـش عن حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة عن ميمـون بن أبي شـبيب عن معاذ: وميمون تابعي صدوق: التقريـب ٢-٢٩١ والحكم وحبيب تابعيان ثقتان وله شـاهد حسن الإسناد عند أحمد ٥-٢٣١ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل.

فقد «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء.

فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمر: أنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾»[1]

فالسخرية من الله أو رسوله ﷺ، أو القرآن والسنة لا تعني سوى الازدراء والاحتقار، ولا يمكن تغليفها بأي غلاف آخر يخفي حقيقة الكره والتبرم. وهو أسلوب منحط وسافل.. لا ينتهجه سوى الفاشلين العاجزين عن المنافسة من وضعاء البشر.

والمنافقون في كل زمان ومكان عنوان للفشل، وهم بدلا من أن يسخروا من القرآن والسنة مباشرة.. يلجأون إلى السخرية ممن يحملونهما منهجا وعقيدة وسلوكاً، لأنهم سيفضحون أنفسهم ويكشفونها لو تجرأو على النيل المباشر للدين..

لكن كما يقال القافلة تسير والكلاب تنبح، ولكن ثمن النباح هنا كان مريرا بعد أن أنزل الله تلك الآيات التي فضحت هؤلاء المعادين للنجاح والحقيقة فأصبحوا أعداء لكل شيء حتى أنفسهم.

سارت القافلة عائدة إلى المدينة حتى وصلوا إلى وادي القرى، وهناك مروا على تلك المرأة صاحبة النخل «فلما أتى وادي القرى قال ﷺ للمرأة: كم جاءت حديقتك؟

قالت: عشرة أوسق خرص رسول الله ﷺ. فقال النبي ﷺ: إني متعجل إلى المدينة فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل»[2] لكن يبدو أن الظروف لم تكن تساعد على

---

(١) سنده صحيح رواه الطبري في ٢-٣٦٨ وابن كثير في تفسيره ٢-٣٦٨ حيث قال رحمه الله قال عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر فذكره إلى قوله تستهزئون وقد توبع ابن وهب تابعه الليث عن هشام بن سعد.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٣٩.

العجلة، فطريق العودة لـم يخل بعد من المنغصات.. التي يقذفها المنافقون الطافحون بالكراهية والحقد بعد تلك الفضيحة، وبعد هذه الغزوة التي تعتبر رصيداً من النجاح للدولة المسلمة، رغم عدم وجود قتال فيها، إلا أنها كشفت عن هيبة المسلمين عند إمبراطورية الروم، وعن حقد المنافقين على هذه النجاحات التي تم تحقيقها في فترة قياسية من أعمار الأمم، وقد حدث بين أحد المهاجرين والأنصار خلاف صغير، انتهزه المنافقون، وحاولوا استثماره لإشعال سعير الفتنة داخل هذا الجيش المسلح، عل هذه الأسلحة تجد أغماداً لها داخل أجساد المؤمنين وذلك بعدما تعالى:

صراخ الجاهلية داخل معسكر المؤمنين

وكانت بداية هذا النزاع مزاحاً ثقيلاً من أحد المهاجرين المرحين، حيث قام بضرب أخيه الأنصاري برجله أو بيده على مؤخرته، فلم يتحمل الأنصاري هذا المزاح الثقيل.

يقول جابر رضي الله عنه: «غزونا مع النبي ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصارياً، فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين»[1] ويضيف جابر أيضاً: «فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما هذا.. دعوى أهل الجاهلية؟!!

قالوا: لا يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر. قال: فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»[2].

بهذه العدالة والحكمة تقتل الفتنة مهما كانت كبيرة، انصر أخاك ظالماً بمنعه من الظلم، وانصره مظلوماً بالدفاع عنه، لكن عبد الله بن أبي ابن سلول لم تعجبه تلك الحكمة، ولا تلك العدالة، فقرر أن يثير مزابل النفاق التي تثقل صدره في وجوه المؤمنين، لعل وعسى أن تقوم حرب أهلية داخل المدينة.. يحقق من خلالها حلمه بطرد النبي ﷺ ومن معه من المهاجرين، لتعود الأصنام والجاهلية والخرافة، وتعود يثرب كما كانت فيتوج ابن سلول ملكاً عليها.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٩٦.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩٩٨.

يقول جابر رضي الله عنه: «سمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار.

فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فبلغ النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد»[1]

فأغاضت كثرتهم صدور المنافقين، وتبنى زعيمهم مشروعاً لطردهم من المدينة، وهو لا يستطيع ذلك مهما فعل، فالدولة الإسلامية أقوى من أن تتأثر بقول منافق، لكن تلك الكلمات تستدعي عصبية مقيتة قد تستشري في المستقبل، وتفسد قلوب كثير من الناس، وتنحرف بنواياهم وجهودهم نحو زوايا ضيقة وحفر صغيرة جربها العرب آلاف السنوات قبل محمد ﷺ، فما تقدموا شبراً واحداً إلا نحو الثارات والمقابر.

وقد وصل هذا التهديد لمسامع النبي ﷺ فقدم لأصحابه، ولخلفائه، وللزعماء المسلمين من بعده درساً في التعامل مع أقوال الخصوم من رعاياهم.. مهما كانوا، فحطم عليه السلام أي حجة تبرر فيها السلطة التنكيل بمن تشاء، لمجرد أنهم قالوا كلاماً يصادم سياستها، أو يحتج على ممارسة من ممارساتها.

فها هي السلطة ممثلة بالنبي ﷺ تكذب مؤمناً وهي تعلم أنه صدوق، لأنه لم يقدم أدلة أو شهوداً على ما يقول.

وها هي السلطة ممثلة بالنبي ﷺ تبرىء رأس المنافقين، وهي تجزم بكفره ونفاقه وكذبه، وهو صاحب سوابق كما في حادثة الإفك.. لماذا؟ لأن الأصل في أي إنسان يعيش في الدولة الإسلامية أنه بريء حتى تثبت التهمة عليه.. حدث ذلك رغم أن

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

ذلك القول يحمل أشـــد أنواع الخروج على الســلطة، بل يدعو صراحة إلى تغيير نظام الحكم بالقوة.

بل إن هذا المنافق لم يكتف بالتهديد فقط، بل قدم لأهل المدينة مشــروعاً خطيراً جداً يأمرهم فيه بـ:

حصار المهاجرين اقتصادياً

فقال لمن حوله: «لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله»[1] وكان الذي سمع هذه المقولة من فم ذلك المنافق مباشرة صحابي جليل اسمه (زيد بن أرقم) وهو من الأنصار أنفســهم، ومن المعنيين مباشــرة بكل حرف بصقه ابن ســلول، فنقــل ذلك للنبي ﷺ، لكن زيداً تأذى كثيراً بعد نقله لذلك القول، وذلك لأن النبي ﷺ لم يعره اهتماماً، فقد أراد قطع كل طرقات المنافقين في التســلل نحو وحدة المسلمين، بعد أن نجحوا في التسلل في صفوفهم.. تلك الوحدة التي بدأ المؤمنون بقطف ثمارها، وبدأت البشرية تتمتع بشمسها وهوائها.

يقول زيد رضي الله عنه وهو يتحدث عن معاناته: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في ســفر أصاب الناس في شدة [في غزوة تبوك]»[2] «كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن ســلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فذكرت ذلك لعمي، فذكر عمي لرسول الله ﷺ.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا. فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني. فأصابني هم لم يصبني مثله»[3] لأن المتحدث صادق والحالف

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٠.

(٢) صحيح مســلم ٤-٢١٤٠ وأما بين المعقوفين فعند الترمذي ٥-٤١٧ بســند صحيح حدثنا محمد بن بشار حدثنا بن أبي عدي أنبأنا شــعبة عن الحكم بن عتيبة ســمعت محمد بن كعب القرظي منذ أربعين ســنة يحدث عن زيد بن أرقم. وشيخ الترمذي ثقة من رجال الشيخين التقريب ٤٦٩ وشيخه محمد بن إبراهيم بن أبي عدي وقد ينسب لجده ثقة التقريب ٤٦٥ والبقية أئمة ثقات معروفون أما ما جاء عن علاقة هذا القول بغزوة بني المصطلق فهو ضعيف وإن كان في صحيح مسلم، لأنه من بلاغات سفيان رحمه الله.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩.

كاذب، والـكل يعرف الطرفين، وكان مما زاد حزن زيد ومعاناته ذلك العتاب القاسـي الـذي صدر من عمه وقومه، حيث يقول رضي الله عنه: «وقال عمي: ما أردت إلى أن كذبك النبي ﷺ ومقتك؟»[1]

انطوى زيد على آلامه وأحزانه، وأكمل مسيراً ثقيلاً إلى المدينة، فقد عكر المنافقون صفو غزوته وجهاده مع النبي ﷺ، وعكروا على المؤمنين ذلك أيضاً، وزاد همومه ابتهاج المنافقـين بتصديق النبي ﷺ لهم، فقد نجحوا فـي التملص من عواقب تلك الكلمات الخطيرة، لكن المنافقين لم يكتفوا بتلك النتيجة المفرحة، ولا بتلك البلبلة التي أثاروها، فقد خيل لهم أن هذا الجيش وقائده بلغوا من السذاجة درجة يمكن معها توجيه ضربة أخرى لهم، لكنها هذه المرة ستكون ضربة عسكرية. لقد قرر المنافقون:

محاولة اغتيال النبي ﷺ

«رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسـول الله ﷺ ناس من أصحابه، فتآمروا عليـه أن يطرحوه في عقبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسـلكوها معه، فلما غشيهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم، فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنه أوسع لكم.

وأخذ النبي ﷺ العقبة، وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر الذين مكروا برسـول الله ﷺ لما سمعوا بذلك، واستعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم، وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، فمشيا معه مشياً وأمر عمار أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها.

فبينا هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم من ورائهم قد غشوهم، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ، فرجع ومعه محجن، فاستقبل وجوه رواحلهـم فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثمـون، فرعبهم الله عز وجل حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس. وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه قال: اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

فأسرعوا حتى استوى بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان. وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتهم وهم متلثمون.

فقال ﷺ: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله. قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها.

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده على أصحابه، فسماهم لهم، وقال: اكتماهم»[1]

مرة أخرى يقدم النبي ﷺ درساً في السلوك السلطوي الإسلامي الرائع في تعامله مع الآخر، وتتضح سعة الأفق والحكمة التي يتميز بها في تعامله مع الأحداث الخطيرة.. التي يمكن السيطرة عليها وتحجيمها وتجاوزها بهدوء وتعقل، ودون تعريض المجتمع والأمة إلى هزة مؤثرة.. رغم قول حذيفة رضي الله عنه في الموضع نفسه: «قال النبي ﷺ: في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة»[2] وهي عبارة عن دمل كبيرة قاتلة.

تجاوز النبي ﷺ تلك الأزمة بنجاح، وقاد جيشه باقتدار، ولما أقبل الجيش على المدينة هش لها النبي ﷺ وطاب له الحديث عنها وعن أهلها، وهؤلاء الأوغاد أحقر من تشويه جمال طيبة الطيبة..

لهج عليه السلام بكلمات من القلب عندما اقترب منها فقال: «إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث. فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال: هذه طابة، وهذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه. ثم [قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير دور الأنصار قالوا: بلى يا رسول الله] قال: إن خير دور الأنصار دار بني النجار،

(١) حديث حسن رواه البيهقي في الدلائل ٥-٢٥٦ عن عروة مرسلاً ورواه من طريق ابن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة. وهو قوي لولا عنعنة ابن إسحاق وتابعه عند البزار ٧-٣٥٠ أبو بكر بن عياش عن الأعمش وله شاهد عند أحمد ٥-٤٥٣ من طريق يزيد انا الوليد يعني بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير.

فلحقنا سعد بن عبادة فقال أبو أسيد: ألم تر أن رسول الله ﷺ خير دور الأنصار فجعلنا آخراً، فأدرك سعد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، خيرت دور الأنصار فجعلتنا أخراً.

فقال: أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار، [ثم قال بيده فقبض أصابعه، ثم بسطهن كالرامي بيده، ثم قال: وفي كل دور الأنصار خير]»[1]

ثم بشر الفقراء والمعذورين داخل المدينة بحديث يرويه أنس بن مالك كالماء البارد في هذا الصيف الحار، فيقول: «إن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[2]

بشر عليه السلام أهل الأعذار من أصحابه، وكأنه يعبر عن شوقه لهم ولمدينته، وكان شوقه عليه السلام للمدينة يعرف بحركة تفيض بالمشاعر.. حركة يقول عنها «أنس رضي الله عنه: إن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها»[3] ومن يلومه عليه السلام على حبه للمدينة وأهلها..

هاقد تحرك قلبه قبله، وتحرك جيشه من خلفه حتى أقبلوا على مشارفها.. تحركت القلوب الحزينة من كلمات عبد الله بن أبي بن سلول الشنيعة، أما داخل المدينة فالمشاعر مختلفة كاختلاف الألوان.. هناك المشتاقون لرسول الله ﷺ، وهناك المنافقون الذين انتهوا من إعداد ملفات أسفهم وأعذارهم الملفقة، ليقدموها كالأفخاخ للنبي عليه السلام، وهناك عصافير المدينة وأطيارها..

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥ والزيادة للبخاري ٥-٢٠٣١.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.

(٣) صحيح البخاري ٢-٦٦٦.

انطلقوا كالعصافير.. نحو مدخل المدينة من جهة تبوك والتي يقال لها (ثنيات الوداع).. يتلقون النبي ﷺ.. هاهو أحدهم يقول: «خرجت مع الصبيان نتلقى النبي ﷺ مقدمه من تبوك إلى ثنية الوداع»[1]و«خرج الناس يتلقونه، فخرج النساء والصبيان، فكنت فيمن تلقاه مع الصبيان، حتى لقينا رسول الله ﷺ بثنية الوداع»[2].

أحد هؤلاء الأطفال ابن الشهيد جعفر الطائر قائد مؤتة يقول: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته، وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه، فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة»[3] وبعد أن حيا الأطفال والنساء.. توجه نحو المسجد لـ «أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر ضحى، دخل المسجد فصلى ركعتين قبل أن يجلس»[4] ثم جلس للناس، وأثناء جلوسه عليه السلام تهادى نحوه رجل يحاول جمع حطام قلبه.. رجل يظله الخجل ويقله.. ذو قصة مؤثرة جداً، وحزينة جداً سنعرفها بعد قليل، بعد أن نصاحبه عليه السلام إلى بيت فاطمة عليها السلام، حيث «كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر فآخر ما يكون عهده به من أهل بيته فاطمة رضي الله عنها وإذا قدم فأول ما يدخل عليه فاطمة رضي الله عنها»[5] ثم توجه إلى أحد أبياته، وبعد أن دخل في ذلك البيت بزمن سمع:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٢١ وابن حبان ١١-١١٣ والطبراني في الكبير ٧-١٥٨ وأحمد ٣-٤٤٩ وغيرهم واللفظ لابن حبان والطبراني على الترتيب.

(٢) صحيح، وهو الحديث السابق تماما.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٨٥.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٢٣.

(٥) حديث حسن رواه في الآحاد والمثاني ٥-٣٥٩ وغيره من طريق سليمان المنبهي عن ثوبان وسليمان تابعي مجهول لكن للحديث شاهد عنده أيضاً لكنه ضعيف لضعف إبراهيم بن قعيس عن نافع عن ابن عمر، وله شاهد في المستدرك ١-٦٦٤ من طريق أبي فروة الرهاوي عن عروة بن رويم اللخمي سمعت أبا ثعلبة الخشني. وأبو فروة ضعيف وشاهد رابع بسند جيد لولا أخطاء أحد الرواة الأسود بن حفص حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر قبَّل ابنته فاطمة.

بل وتحت سمعه وبصره ورضاه، وفي يوم ليس من أيام العيد، وذلك عندما «جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني نذرت إن ردك الله سالماً، أن أضرب على رأسك بالدف.

فقال رسول الله ﷺ: إن نذرت فافعلي، وإلا فلا.

قالت: إني كنت نذرت.

فقعد رسول الله ﷺ وضربت بالدف وقالت:

أشـــرق الـــبـــدر عـلـيـنـا   مـــن ثـــنـــيـــات الـــــوداع

وجـــب الـــشـــكـــر عـلـيـنـا   مـــا دعـــا لـــلـــه داع»[1]

كان ﷺ يقــر هذه الجارية على نذرها، ولو كان نــذر معصية لما وافقها عليه لأن النبــي ﷺ يقــول: «لا وفاء لنذر فــي معصية، ولا فيما لا يملك العبــد»[2] «لا نذر في معصيــة الله»[3]وقد حدث من الجارية ما يؤكد ذلك في اليوم نفســه فقد: «قالت: يا رسول الله، إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف. قال: أوفي بنذرك.

قالت: إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية.

قال: لصنم؟ قالت: لا. قال: لوثن؟ قالت: لا. قال: أوفي بنذرك»[4]وصدر منها بعد ذلك تصرف مضحك، لكنه في الوقت نفسه شهادة لأحد عظماء الصحابة من النبي ﷺ.

---

(١) ســنده صحيح رواه ابن حبان (موارد -١-٤٩٣) أخبرنا محمد بن إســحاق بن خزيمة حدثنا زياد بن أيوب حدثنا أبو تميلة يحيى بن واضح حدثني الحســين بن واقد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه. شــيخه هو الإمام ابن خزيمة وزياد ثقة حافظ: التقريب ٢١٨ وأبو تميلة ثقة ٥٩٨ وشــيخه وشــيخ شيخه ثقتان. ولم أجــد الأبيات في ابن حبــان ١٠-٢٣١ مما يعني أنها مدرجة، أو أن الهيثمي وجدها في بعض نســخ ابن حبــان لذلك وضعها في الهامش وقــد وضعت هذا الحديث هنا لمقدمه ﷺ من ثنيات الوداع وهي الغزوة الأنسب لهذا الحدث.

(٢) صحيح مسلم ٣ - ١٢٦٢.

(٣) صحيح مسلم ٣ - ١٢٦٢.

(٤) سنده حسن رواه أبو داود ٢-٢٣٧ حدثنا مسدد ثنا الحرث بن عبيد أبو قدامة عن عبيد الله بن الأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سند حسن معروف وعبيد الله ثقــة وليــس كما قال الحافظ رحمه الله أنه صدوق يخطئ - انظــر تعليقي على التقريب ١-٥٣٠ تلميذه الحارث حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم: التقريب ١-١٤٢.

حدث ذلك بعدما قال عليه السلام لها: «إن كنت نذرت فاضربي. فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر رضي الله عنه وهي تضرب، ثم دخل عمر رضي الله عنه، فألقت الدف تحتها، وقعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ إن الشيطان يخاف منك يا عمر»[1]

ويبدو أن شدة عمر رضي الله عنه قد تصاعدت بعد أقوال المنافقين وأعمالهم الخطيرة، ولسوف تكشف الأيام لنا عن مواقف هذا الرجل العظيم تجاههم، أما النبي ﷺ فقد كان سنة من السماحة واللين والرفق.. هاهو يرى:

صوراً مجسمة في بيت عائشة

تقول عليها السلام: «قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، وقد نصبت على باب حجرتي عباءة، وعلى عرض بيتي ستر أرمني، فدخل البيت، فلما رآه قال: ما لي يا عائشة والدنيا.

فهتك الستر حتى وقع بالأرض، وفي سهوتها[2] ستر، فهبت ريح فكشف ناحية الستر عن بنات لعائشة (لعب) فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي.

ورأى بين طوبها فرساً له جناحان من رقع قال: فما هذا الذي أرى في وسطهن؟ قالت: فرس.

قال: ما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان.

قال: فرس له جناحان؟ قالت: أوما سمعت أن لسليمان بن داود خيلاً له أجنحة؟ فضحك حتى بدت نواجذه»[3] من قول عائشة التي تتمتع بدلال هذا الزوج الرائع ورفقته

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٧٧ وغيره من الحسين بن واقد ثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه وهو سند صحيح مر تخريجه في الحديث قبل السابق.

(٢) رف داخل الجدار.

(٣) سنده حسن رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٢١٩ واللفظ له والنسائي في الكبرى ٥-٣٠٦ وأبو داود ٤-٢٨٣ عن يحيى بن أيوب حدثني عمارة بن غزية أن محمد ابن إبراهيم التيمي حدثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة يحيى الغافقي من رجال الشيخين وشيخه لا بأس به من رجال مسلم والبقية ثقات وقد جاء في أبي داود الشك بين خيبر وتبوك.

ورفقه.. كانت عائشة تتلقى منه الذوق الراقي، والمستوى الرفيع في التعامل حتى مع أعدائه. ذات مرة كان في بيتها، فدخل عليه بعض اليهود فألقوا عليه تحية كالسم.

تقول رضي الله عنها «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليكم.

ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة. فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله.

فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟

قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم»[1]

إذا كان هذا هو رفقه ﷺ بأعدائه، فكيف سيكون موقفه من رجال ثلاثة لا يدرون ما يقولون، بل ولا ما يفعلون وهم يرونه قد رجع ﷺ من تبوك. لنعد بالأحداث إلى حيث المسجد النبوي.. لحظة وصول النبي ﷺ وجلوسه فيه.. هناك بدأت المعاناة لـ:

الصحابة الثلاثة الذين غابوا عن تبوك

والذين ضاقت بهم الدنيا، واسودت بوجوههم حتى ضاقوا بأنفسهم.. ها هو: أحدهم الشاعر المؤمن كعب بن مالك، الذي بايع النبي ﷺ بيعة العقبة، والذي انشغل وتردد حتى فاتته الغزوة، وهو في المدينة الآن.. يصف شعوره طوال تلك الأيام التي أمضاها بين جدران يشعر بأنها تحاول خنقه، وهواء يشعر بأنه لا يطيق الدخول إلى رئتيه، وأرض تضيق به، وأعذار واهية لا قيمة لها..

كعب بن مالك يروي قصته الطويلة الدامية، في تلك الأيام السوداء فيقول: «غزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة، حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم.

(١) صحيح البخاري ٥-٢٢٤٢.

ففــدوت بعــد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شـيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك.

فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رســول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟

فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه ونظره في عطفيه.

فقــال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رســول الله مــا علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قــال كعب بن مالــك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرنــي همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من ســخطه غداً؟ واســتعنت علــى ذلك بكل ذي رأي من أهلــي، فلما قيل إن رســول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنــي الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه[1].

وأصبح رســول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من ســفر بدأ بالمســجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال.

فجئت أمشــي حتى جلســت بين يديــه، فقال لي: ما خلفك؟ ألــم تكن قد ابتعت ظهرك؟

فقلت: بلى، إني والله يا رســول الله لو جلســت عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن ســأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث

---

(١) قررت ان اصدق في أقوالي.

صـــدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو اللـــه. لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق. فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبـاً قبل هـــذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رســـول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفســـي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟

قالوا: نعم، رجلان.. قالا مثل ما قلت. فقيل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة.

فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رســـول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفســـي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاســـتكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشـــب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشـــهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟

ثـــم أصلي قريباً منه فأســـارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتـــي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام.

فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت.

فعدت له، فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناه.

وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك.

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.

فقلت: أطلقها، أم ماذا أفعل؟

قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك.

فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟

قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، كما أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه؟

فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر.

فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً[1] وساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سـمعت صوته يبشـرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه. والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنونني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، الله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله.

وكان رسـول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله.

قال رسـول الله ﷺ: أمسـك عليك بعض مالك فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

فقلت: يا رسـول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما لقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسـلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسـول الله ﷺ أحسـن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسـول الله ﷺ إلـى يومي هذا كذباً، وإنـي لأرجو أن يحفظني الله فيمـا بقيت، وأنزل الله علـى رسـوله ﷺ: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

---

(١) جاء على فرسه مبشراً.

ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا. فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾»[1].

هذه هي قصة كعب رضي الله عنه، ومعاناته التي لا تحتمل لأكثر من شهرين، لكنها تصفية المؤمنين وتربيتهم وامتحانهم، ولو كانوا من المنافقين لتم تجاهلهم.. كأن لم يكونوا ولم يكن تخلفهم. ولو مر مشرك بتلك الظروف التي مرت بكعب ورفاقه، لكان الانتحار أو الفرار أفضل خيار في نظره. لكنه الإيمان الذي يؤهل المسلم للتفوق على كل ما يمر به من أزمات.. الإيمان الذي يقول النبي ﷺ عن صاحبه، وعن قدرته على تجاوز الأزمات مهما بلغت شدتها، وعن الفرق بينه وبين المنافق: «مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز»[2] «الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد»[3]

وإذا كانت أحزان كعب وهمومه قد انزاحت، فماذا عن أحزان زيد بن أرقم، وهل سيحمله صدقه إلى عالم الهجران كما حمل كعب؟ سنتوجه إليه الآن، فهو في بيته لا يخرج منه خجلاً من صدقه، الذي حولته أيمان المنافقين ووقاحتهم إلى كذب..

هاهو غارق في همومه.. يحكي قصته فيقول: «أرسل رسول الله ﷺ إلى (عبد الله بن أبي) وأصحابه. فحلفوا: ما قالوا.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣ وقد أكملت الآية بين المعقوفين وليست في البخاري.
(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٦٣.
(٣) صحيح مسلم ٤-٢١٦٣.

فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت. فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: إذا جاءك المنافقون: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

فبعث إلي النبي ﷺ فقرأ، فقال: إن الله قد صدقك يا زيد»[1] ولم يعد لكذب النفاق من أرض تقله أو سماء تظله.. طاشت ضربة عبد الله بن أبي بن سلول الحقيرة والأخيرة.. لكن هذه المرة ليست في الهواء، بل في صدره، وبدأ حقده الأسود يفتك به كالسرطان، فقد عرته الآيات الأخيرات التي نزلت.. تصدق زيد بن أرقم، وتكذب أيمان (ابن أبي) وأيمان من معه من المنافقين.. فضحته تلك الآيات، ولم تبق له عيباً مستوراً بعد اليوم.. تحول إلى خرائب من الإحباط، ومما زاد في إحباطه مشاهد الجموع الهائلة والوفود العظيمة، التي بدأت تتدافع نحو المدينة لتعلن دخولها في

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩ وقد أكملت الآيات وهي ليست ضمن النص.

الإســلام، ومبايعتها للنبــي ﷺ.. كان كل زعيم قادم إلى المدينة خنجرا في صدر (ابن سلول).. كان يختنق كلما ابتســم المؤمنون، ويموت كلما تصافحوا وتعانقوا، وكان أشد مــا يراه منظر قادة كان بالأمس يتمنى منادمتهم، فغدوا تابعين لهذا النبي الذي يتمنى لو خنقه بيديه، وكان من بين الواصلين إلى المدينة القائد المظفر:

خالد بن الوليد يعود مصحوباً بأكيدر

«خرجت خيل لرسول الله ﷺ، وسمع بها أكيدر دومة الجندل[1] فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رســول الله، بلغني أن خيلك انطلقت، وإني خفت على أرضي ومالي، فاكتب لي كتاباً لا تعرض له ولا لشيء هو لي، فإني مقر بالحق الذي هو عليّ.

فكتب له رســول اللــه ﷺ كتاباً، وأخرج (أكيدر) قباء منســوجاً بالذهب مما كان كسرى يكسوهم، فقال: يا رسول الله اقبل عني هذا»[2].

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المســلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه. فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد ابن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[3].. تحدث أنس رضي الله عنه عن ســعد ابــن معاذ فانهمرت دموعه لذكراه وقال: «إن ســعداً كان أعظم الناس وأطولــه، ثم بكى فأكثر البكاء، ثم قال: إن رســول الله ﷺ بعث إلى (أكيدر) صاحب دومة بقباء، فأرســل إليه جبة ديباج منســوجة فيها الذهب، فلبســها رسول الله ﷺ ثم قام على المنبر وقعد فلم يتكلم، ونزل فجعل الناس يلمسونها بأيديهم.

---

(١) أكيدر ملك دومة الجندل.

(٢) سنده قوي رواه في معجم الصحابة ٢-٣٥١ حدثنا محمد بن بشر أخو خطاب نا جعفر بن حميد نا عبيد الله بن إياد عن أبيه عن قيس بن النعمان. محمد ثقة تاريخ بغداد ٢ - ٩٠، وشــيخه ثقة: التقريب ١٤٠ وعبيد الله صدوق من رجال مســلم ووالده ثقة انظر التقريب ٣٦٩ و١١٦ لكن هناك وهم في المتن بلفظ: فإني أهديته لك. فقال النبي ﷺ ارجع بقبائك فإنه ليس أحد يلبس هذا في الدنيا إلا حرمه في الآخرة فالصحيح أنه قبلها كما سيأتي في الصحيح وغيره.

(٣) ســنده صحيح رواه ابن إســحاق: السيرة النبوية ٥-٢٠٨ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أنس. وشيخ ابن إسحاق تابعي ثقة وإمام في المغازي مر معنا كثيراً.

فقال: أتعجبون من هذه! لمناديل سعد في الجنة أحسن مما ترون»[1] «ثم أوشك أن نزعه، فأرسل به إلى عمر فقيل له: قد أوشكت ما نزعته يا رسول الله؟ قال: نهاني عنه جبريل عليه السلام. فجاء عمر يبكي، فقال: يا رسول الله كرهت أمراً وأعطيتنيه؟ قال: إني لم أعطكه لتلبسه، إنما أعطيتكه تبيعه. فباعه عمر بألفي درهم»[2]

ثم إن أكيدر بعث هدية ثانية فيما بعد، فاستدعى النبي ﷺ علياً ثم أمره بأمر يحدثنا عنه علي رضي الله عنه فيقول: « إن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير، فأعطاه علياً، فقال: شققه خمراً بين الفواطم»[3] والفواطم: فاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بن أسد (أم علي) وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم جميعاً.. فرحت الفواطم بالحرير الفاخر.. كيف لا وهي هدية محمد عليه السلام، لكن مهلاً.. لماذا قال المصطفى: شققه بين الفواطم..؟

أين زينب.. أين أم كلثوم عليهما السلام؟

لماذا لم يذكرهما النبي ﷺ؟ لماذا لم ينلهما شيء من هذا الحرير الثمين والجميل؟

سألنا وسألنا، وتوجهنا نحو بابيهما وانتظرنا.. انتظرنا طويلاً، فلم تجب زينب، ولم تعد أم كلثوم، وأمامة الصغيرة تبحث عن أمها زينب مثلنا فلا تجدها ولا تجد خالتها في طرقات المدينة، ولا عند الجيران.. لقد رحلت زينب، ومعها أم كلثوم إلى الرفيق الأعلى، ولم يبق من بنات النبي ﷺ إلا فاطمة.

لم نجد من يحدثنا عنهما سوى إحدى نساء الأنصار العظيمات وتدعى (أم عطية).. أم عطية المجاهدة والممرضة التي تقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى»[4]

---

(١) سنده قوي وقد مر معنا تحت عنوان: دومة الجندل وانظر السنن الكبرى ٥- ٤٧٢: حدثنا يوسف بن سعيد المصيصي حدثنا حجاج بن محمد عن بن جريج اخبرني أبو الزبير سمع جابر . يوسف ثقة حافظ: التقريب ٢-٣٨١ وشيخه ثقة ثبت: التقريب ١٥٣

(٢) سنده قوي وقد مر معنا وهو الحديث السابق.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٤٥.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٤٤٧.

حدثتنا أم عطية عن زينب.. فقط عن غسلها، لأنها شاركت فيه، فتقول: «لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال لنا رسول الله ﷺ: اغسلنها وتراً»[1] «اغسلنها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور، فإذا فرغتن فآذنني»[2] وقال لهن: «ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها»[3]

فنفذت أم عطية ومن معها ما قاله ﷺ حيث تقول: «فضفرنا شعرها ثلاثة أثلاث، قرنيها وناصيتها»[4] «ومشطناها ثلاثة قرون»[5] «فلما فرغنا آذناه. فألقى إلينا حقوه فقال: أشعرنها إياه»[6] أي أعطاهن إزاره الذي يشد على الخصر، وأمرهن أن يجعلوه يلاصق جسدها الطاهر مباشرة، ثم حملوها على الأعناق أمام حزن ابنتها الصغيرة أمامة، ثم واروها في مثواها الأخير عليها السلام، وبعد فترة أو قبل ذلك فجع النبي ﷺ مرة ثالثة.. فجع بفقد ابنته الصغرى الطاهرة أم كلثوم عليها السلام.

سألنا أنساً رضي الله عنه عن قصة موت أم كلثوم؟ فأوحت روايته أنها ماتت دون مرض، فقد كانت تقضي مع زوجها يوماً ودوداً ثم ماتت. يقول أنس رضي الله عنه: «شهدنا بنت رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس على القبر، فرأيت عينيه تدمعان. فقال: هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة؟ فقال أبو طلحة: أنا.

قال: فانزل في قبرها. فنزل في قبرها فقبرها»[7] «فلم يدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه القبر»[8]..

في أقل من عشر سنوات كان الأحبة والأصحاب يرحلون أمام عينيه.. يختفون من بين يديه، وهو صابر محتسب.. تدمع عينه، ويحزن قلبه، ولا يقول إلا ما يرضي الرب سبحانه، فإن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٢) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.
(٣) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٤) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٥) صحيح مسلم ٢-٦٤٧.
(٦) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.
(٧) صحيح البخاري ١-٤٥٠.
(٨) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٢٩ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وهو سند صحيح متصل على شرط الشيخين.

أما أمامة بنت زينب فكانت تنافس الحسن والحسين في التسلل داخل مشاعره عليه السلام، وداخل المسجد، أما خارج المسجد فكانت أمامة دلالاً يتبختر عبر رياض جدها ﷺ.

تقول عائشة رضي الله عنها: «قدمت على النبي ﷺ حلية من عند النجاشي أهداها له، فيها خاتم من ذهب، فيه فص حبشي.

فأخذه رسول الله ﷺ بعود معرضاً عنه، أو ببعض أصابعه، ثم دعا أمامة ابنة أبي العاص ابنة ابنته زينب، فقال: تحلي بهذا يا بنية»[1] فتحلت به كما تحلت بعطف جدها ورعايته.. جدها الذي لم تصفُ له الحياة من الكدر والهموم والتعب، ومع ذلك يتجدد نشاطه كل يوم في نشر رسالة ربه والتبشير بها.

فكما كانت تلك الأيام مليئة بالفراق المرير، فهي كذلك تفيض بمشاهد العناق والمصافحة، واللقاءات التي تسر كل مسلم مخلص. فقد سالت الوفود في هذا العام من كل الجهات.. تبايع النبي ﷺ، وتدخل في دولة الإسلام طائعة مختارة.. لقد رحلت أم كلثوم ورحلت زينب.. رحلتا من (طيبة) في قافلة لا تمهل أحداً، ولا تمنحه وقتا كي ينهي أعماله، أو يودع الجميع.. قافلة لا يعرف جدول رحلاتها التأجيل أبداً، ولم تتأخر مواعيد وصولها أو مغادرتها يوماً من الأيام. لا أدري من غادرت قبل الأخرى. لكنهن رحلن، فلم يبق للنبي ﷺ من بناته سوى فاطمة الزهراء التي تحتل قلبه، والتي تصفها عائشة الوفية لخديجة وبناتها.. عائشة التي حفظت أخبارهن تصف مشاعر فاطمة ومشاعر أبيها بالكثير والجميل عندما تقول: «ما رأيت أحداً من الناس أشبه كلاماً برسول الله ﷺ، ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة، كان رسول الله ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء يجلسها في مكانه، وكانت إذا رأت النبي ﷺ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته»[2]

تعاظم هذا الحب لدرجة «أن رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»[3]، أما فاطمة عليها السلام فتريد أكثر من ذلك..

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٣١.

(٢) سنده قوي رواه إسحاق بن راهويه ١-٨ وغيره من طريق إسرائيل أنا ميسرة بن حبيب النهدي أخبرني المنهل بن عمرو قال حدثتني عائشة ابنة طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت.. وعائشة بنت طلحة تابعية ثقة مشهورة وتلميذها المنهال بن عمرو صدوق من رجال البخاري: التقريب ٢-٢٧٨ وتلميذه ميسرة صدوق من رجال التقريب ٢-٢٩١.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٣٦١.

فاطمة تريد أن تثبت ذلك لزوجها

فقد تقدم علي رضي الله عنه لخطبة صحابية هي ابنة أبي جهل، فوصل الخبر إلى فاطمة، فانطلقت إلى أبيها، فحدث ما يرويه أحد الصحابة: «إن علياً خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك؟ وهذا علي ناكح بنت أبي جهل.

فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهد يقول: أما بعد، أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوؤها، [أتخوف أن تفتن في دينها] [وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً ولكن] والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ، وبنت عدو الله عند رجل واحد.

فترك علي الخطبة»[1]

لم يبق لدى النبي ﷺ سواها، وهي على وشك الرحيل أيضاً،أما كلمة بنت عدو الله فليس فيها شتم لتلك الصحابية الجليلة بقدر ما هو توظيف للفظ من أجل إيصال هذه الفكرة بصوت أقوى. أما الحادثة كلها فتعني المزيد من الرحمة والمراعاة لمشاعر المرأة، وهي أن من حقها أن تطلب الطلاق أو الخلع.. إن كانت لا تحتمل زواج زوجها بأخرى، لكن عليها في الوقت نفسه أن تتحمل مسئولية قرارها، وأن لا تلوم إلا نفسها إن جاءت النتائج عكسية، فالحرية التي منحها الإسلام لها تعني أول ما تعني تحملها لمسئولية تلك الحرية الثقيلة.

هذا بعض ما كان يحدث في بيت النبوة، أما خارج ذلك البيت الكريم فقد قرر النبي ﷺ وضع نهاية لمشكلة النفاق التي أزفت على الزوال، وبدأت بالتلاشي بموت أصحابها، وتضاءل نشاطها بعد أن انسابت الجزيرة للنبي ﷺ ودولته، وسالت الوفود من كل فج تنضو عنها عباءة الشرك والظلام، وتدخل في دين الله أفواجاً.. أفواجاً..

ملفات النفاق وأهله

كلها اليوم مسجلة في ذاكرة أحد الصحابة، فقد استدعى النبي ﷺ حذيفة بن اليمان، وسلم لذاكرته قائمة بأسماء المنافقين حتى تحذر منهم الأمة.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٦٤ والزيادة لمسلم ٤-١٩٠٣.

وقال له: «في أصحابي اثنا عشــر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في ســم الخياط»[1] أي حتى يدخل الجمل في فتحة الإبرة، وهم أولئك الذين حاولــوا اغتيال النبي ﷺ عندما «خرجــوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم؟

قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون. فقال ﷺ: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله

قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها. قالوا: أفلا تأمر بهم يا رســول الله إذا جاء الناس فتضــرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمد قد وضع يده في أصحابه. فسماهم لهما وقال: اكتماهم»[2]

فامتثل حذيفة وعمار رضي الله عنهما، وكتما الســر ولــم يخبرا أحداً بهوية أي منافق إلا بعد موته، حتى لا يصلى عليه.

وكان مما جعل مشكلة النفاق تتلاشى ويتلاشى أثرها.. ما يحدث في هذا العام المبهج:

عام الوفد

ففي هذا العام توافد زعماء القبائل نحو النبي ﷺ، حتى تحولت المدينة إلى عاصمة مزدانة ومزدحمة بالمبايعة، والالتزام السياســي والديني بالإسلام.. كان كل يوم يمر يدني الجاهلية من نهاياتها، حيث يعود كل وفد إلى دياره محطماً داخل أعماقه كل رموز الجاهلية، وعندما تطأ أقدامه دياره.. تبدأ الأيادي التي تعلمت الطهارة في المدينة بتحطيم الأصنام والأوثان التي كانت تعبد من دون الله الواحد الأحد، ولعل من أول الوافدين

وفد الطائف (ثقيف)

الذين انحدروا من جبال العناد والطائف نحو المدينة مبايعين، وكان بصحبتهم رجل شــريد أعياه التعب والخوف من النبي ﷺ، وضاق به الطائف، بل ضاقت به الأرض..

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

(٢) حديث حسن مر معنا عند الحديث عن العودة من تبوك.

ضاقت الدنيا بوحشـي بن حرب قاتل حمزة، لكن رجلاً حكيماً نصحه بالانحدار معهم والتوجه نحو أبواب الحرية الحقيقة التي أشرعها النبي ﷺ.

يقول وحشـي أنه بعد غزوة أحد: «لما قدمت مكة أعتقت، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسـول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسـول الله ﷺ ليسـلموا تعيت علي المذاهب. فقلت ألحق بالشـام أو باليمن أو ببعض البلاد؟ فوالله إني لفي ذلك من همي، إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته. فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة»[1] مع وفد ثقيف، الذين فرضوا على النبي عليه السـلام شروطاً غريبة تمنحهم -كمـا يظنون- تميزاً بـين القبائل، لكن أفق النبي ﷺ كان كالمـدى، ونظرته كانت أبعد بكثير، فما هي قصة وفد ثقيف المملوءة بالكثير والجميل.

اقتربنا من المدينة، فإذا رواحل ثقيف تقف خارجها، حيث يقوم بحراسـتها شاب يقال له (عثمان بن العاص)

سـألناه: ما شـأنك يا عثمان، ولم لم تذهب مع أصحابك لمبايعة النبي ﷺ؟ فهم هناك منذ أيام وأنت هنا.. أولم تسلم بعد..؟

أجابنـا عثمان عن كل تسـاؤلاتنا فقال: «قدمت في وفـد ثقيف حين وفدوا على رسول الله ﷺ، فلبسنا حللنا بباب النبي ﷺ، فقالوا: من يمسك لنا رواحلنا؟ وكل القوم أحب الدخول على النبي ﷺ وكره التخلف عنه؟

قال عثمان: وكنت أصغر القوم، فقلت: إن شـئتم أمسكت لكم على أن عليكم عهد الله لتمسكن لي إذا خرجتم؟

قالوا: فذلك لك. فدخلوا عليه»[2]

---

(١) جزء من الحديث الصحيح الذي مر معنا حول شهادة حمزة وهذا لفظ ابن إسحاق.

(٢) سـنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ٩-٥٠ حدثنا يحيى بن أيوب العلاف ثنا سـعيد بن أبي مريم ثنا محمد بن جعفر عن سهيل بن أبي صالح عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن عثمان بن أبي العاص. حكيـم وتلميـذه صدوقان. التقريب ١٧٦ و٢٥٩ وابن جعفر ثقة وتلميذه ثقة ثبت فقيه وشـيخ الطبراني صدوق التقريب ٤٧١ و٢٣٤ و٥٥٨.

تركنا عثمان لفترة ولحقنا بالوفد الذي كان بينهم الآن رجل مصاب بمرض معد. فأحب النبي ﷺ أن يقدم لأمته وللدنيا درساً في الوقاية من الأمراض المعدية.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: «كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ إنا قد بايعناك فارجع»[1] فرجع.

حدث ذلك في الوقت الذي يقول فيه عليه السلام: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»[2] ففي هذا التطبيق العملي إسقاط لخرافة العقيدة الجاهلية.. حول العدوى والتشاؤم والبومة وشهر صفر، وأن هذه الأشياء موجودة حقيقة، لكنها لا تقدم ولا تؤخر، ولا تضر ولا تنفع ولا تؤثر بنفسها، وأن الأمر بيد الله وحده.. أما عن انتقال المرض فقد خلق الله له أسباباً وطرقاً.. حث النبي ﷺ على قطعها والسلامة منها، فالجذام قد ينتقل عن طريق اللمس أو استخدام أدوات المريض، ولذلك أمر ﷺ بالفرار من المجذوم، وأما الطاعون وهو مرض معدي وفتاك، فقد شدد ﷺ في أمره، حتى أوجب أن يكون هناك حجر صحي على المريض والمرض معاً، حتى في حالة عدم وجود دولة أو نظام أو أطباء فقال: «إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها»[3]

إذاً فقد رجع الثقفي المريض من حيث أتى، أما بقية وفد ثقيف فبايعوا واشترطوا شروطهم، ولما سألنا «جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت؟

قال: اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها، ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[4]

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٥٢.
(٢) صحيح البخاري ٥-٢١٥٨.
(٣) صحيح مسلم ٤-١٧٣٨.
(٤) حديث صحيح رواه أبو داود ٣-١٦٣ حدثنا الحسن بن الصباح ثنا إسماعيل يعني ابن عبد الكريم حدثني إبراهيم يعني ابن عقيل بن منبه عن أبيه عن وهب قال سألت.. وله طريق آخر عند أحمد ٣-٣٤١ وفي الآحاد والمثاني ٣-١٨٨ من طريق ابن لهيعة وموسى بن عقبة عن أبي الزبير سألت جابر وهما طريقان الأول قوي والثاني صحيح.

تلك هـي نظرة النبي الحكيم الذي يبحث عن القلـوب لا عن الجيوب.. كان ﷺ يدرك أن هؤلاء القوم الباحثين عن تميز إيجابي لن يرضوا بالنقيصة مسـتقبلاً، فهم وإن امتنعوا عن الجهاد ودفع الزكاة، فسيأتي اليوم الذي يشعرون فيه أن امتيازهم هذا تحول إلى نقص في الحقيقة وعيب لن يرضوه لأنفسهم.. عندما يرون الأمة كلها تدفع زكاة ربها، وتهب كلها للجهاد في سبيله.

ولم يكن النبي يسـتخدم هذا الأسـلوب مع الجماعة فقط، بل مع الأفراد أيضاً، فقد قدم إلى المدينة رجل يريد الإسـلام، ولكن بشـرط أغرب من شرط ثقيف: «أتى النبي ﷺ على أن يصلي صلاتين. فقبل منه»[1] لأن المشكلة هنا هي الشرك ووحشته، فإذا خرج من ضيق الشـرك إلى فضاءات الإسـلام الرحبة، فإنه سوف يرف مع غيره في تلك الأجواء الجميلة والرائعة، ولن يرضى لنفسـه البقاء في المؤخرة، لا سيما وأن من يشـترطون تلك الشـروط.. يرون لأنفسهم ما لا يرون لغيرهم قبل دخول الإسلام، فإذا دخلوه أدركوا أن غيرهم قد تجاوزهم بمسافات من الوعي والإنجاز.

لنعد إلى ثقيف التي دخلت الإسلام، فضرب لهم النبي ﷺ قبة، وأقام معهم فيها ترقيقـاً لقلوبهم، ولمنحهم مزيداً من الجرعات الإيمانية والعلمية، حتى بدأوا يسـألون عن فروع الإسلام، فتحت تلك القبة تلقت ثقيف دروساً واشترطت شروطاً.

يقول الأنصاري الكريم «جابر بن عبد الله: إن وفد ثقيف سألوا النبي ﷺ فقالوا: إن أرضنا أرض باردة فكيف بالغسل؟ فقال: أمَّا أنا فأفرغ على رأسي ثلاثاً»[2]

ويقول أحدهم واسمه أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه: «أتيت رسول الله ﷺ في وفد ثقيف فكنا في قبة، فقام من كان فيها غيري وغير رسول الله ﷺ، فجاء رجل فسـاره فقال: اذهب فاقتله. ثم قال: أليس يشـهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكنه يقولها تعوذاً.

---

(١) سـنده صحيح رواه أحمد ٥-٣٦٣ ثنا وكيع ثنا شـعبة عن قتادة عن نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم أتى.. ووكيع وشـعبة وقتادة أئمة معروفون ونصر تابعي ثقة من رجال مسـلم وقتادة عن نصر على شرط مسلم.. انظر صحيح مسلم ١-٢٩٣.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٥٩.

فقال: رده. ثم قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»[1]

درس في الوقاية من الأمراض، ودرس في النظافة، وثالث في وقاية النفس وحفظ الدماء يقدمها النبي ﷺ للمتهورين، الذين سمحوا لأنفسهم بالقفز فوق أسوار المظاهر لاقتحام النوايا والبواطن. وخلال تلك الدروس تسلل من تلك الخيمة رجل تلفع بالخجل والعار، والخوف والرجاء أيضاً.. تسلل وحشي فجأة رامياً بحرية الشرك وحريته ودماء حمزة، وكل ذنوبه بين يدي الله ورسوله.. راضياً بحكم الله في مصيره.

وحشـــي يكمل فصول قصته فيقول أنه: «لما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليســلموا تعيت علي المذاهب، فقلت: ألحق بالشــام أو باليمن أو ببعض البلاد؟ فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك، إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وتشــهد شــهادته. فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه.. أتشهد بشهادة الحق.

فلما رآني قال: أوحشي؟ قلت: نعم يا رسول الله.

قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة. قال: فحدثته كما حدثتكما. فلما فرغت من حديثي قال: ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك. قال: فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله ﷺ»[2] مع بقائه رضي الله عنه في المدينة وسكناه فيها، ومشــاركته للنبي ﷺ في غزواته، وحضوره لمجالســه وروايته لحديثه. لكن حجم حمزة رضي الله عنه وطريقة قتله في ميزان محمد الإنسان، لا النبي.. جعلته لا يطيق النظر إلى وجه قاتل حمزة.. ذلك الوجه الذي سيجدد أحزانه وينشط أوجاعه.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٨ والدارمي ٢-٢٨٧ والطبراني ١-٢١٧ والنسائي في الكبرى ٢-٢٨٣ من طرق عن شعبة عن النعمان قال سمعت أوساً.. وشعبة بن الحجاج إمام لقب بأمير المؤمنين في الحديث وشيخه تابعي ثقة من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٠٤.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - السيرة النبوية ٤ - ١٧.
حدثني عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث عن ســليمان بن يسار عن جعفر ابن عمرو بن أمية الضمري قال: خرجت أنا وعبيد الله بن عدي بن الخيار... وقد مر معنا تخريجه، فشيخ ابن اسحاق وشيخ شيخه ثقتان.

بعـد تلك الدروس وغيرهـا وبعد أيام ودعوا نبيهـم ﷺ متجهين ومبتهجين نحو الطائف، وكان قلبه عليه السـلام مبتهج بإسلام هؤلاء القوم.. هؤلاء الذين أبكوه يوما وأدمـوا قدميه.. كان سـعيداً بهم.. كيف لا، وهو يرى دعوته المريرة قد اسـتجيبت.. وهو يرى رحمته بهم وحنوه عليهم تجعلان من قلوب أهل الطائف بسـاتين للإسلام.. يالها من ذكريات قصها على عائشة عن هؤلاء القوم، عندما قال لها: «عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أسـتفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظـرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سـمع قول قومك لك، وما ردوا عليـك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شـئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد.... إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[1]

ها هم يعبدون الله لا شـريك له، ويبايعون، وينصرفون مصحوبين بالسلامة، ولما وصلوا إلى حيث رواحلهم التي يحرسـها الشـاب عثمان بن أبـي العاص.. طلبوا منه التحرك نحو الطائف وعدم الدخول إلى المدينة.

لكن ذلك الشاب كان عالما من الشوق لنبيه.. كان يحمل في قلبه أشياء لا يستطيع أحد أن يحملها أو يترجمها عنه.

يقول رضي الله عنه: إن قومه ثقيف «خرجوا فقالوا: انطلق بنا قلت: أين؟ فقالوا: إلى أهلك.

فقلت: ضربت من أهلي حتى إذا حللت بباب النبي ﷺ أرجع ولا أدخل عليه؟ وقد أعطيتمونـي من العهد ما قد علمتم! قالوا: فاعجل فإنا قد كفيناك المسـألة، لم ندع شيئاً إلا سألناه عنه.

فدخلت، فقلت: يا رسـول اللـه، ادع الله يفقهني في الديـن ويعلمني. قال: ماذا قلت؟

---

(١) صحيح ٣-١١٨٠.

فأعدت عليه القول. فقال: لقد سـألتني شيئاً ما سألني عنه أحد من أصحابك. اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من تقدم عليه من قومك، وأُمَّ الناس بأضعفهم»[1] أي إذا صليت بقومك، فاجعل طول صلاتك مناسبا لأضعفهم.

ثم أوصاه النبي ﷺ بوصية هامة:

النهي عن اتخاذ مؤذن يطلب أجراً على أذانه

قـال ﷺ لعثمان «أنت إمامهم، فاقتـد بأضعفهم واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً»[2] فالتطويل على الناس في الصلاة ليس دليل علم، بل دليل جهل وقلة فقه.. إذا كان فيهم الضعيف والمريض، واتخاذ الأجر على الأذان ينقل الأذان من قائمة العبادات، إلى قائمة الحرف والمهن والوظائف الدنيوية، وقد يفقد صاحب هذه النية ذلك الحلم الرائع، الذي بشر به النبي ﷺ المؤذنين عندما يكون «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[3]

وهذا مـا يبحث عنه عثمان، الذي يواصل حديثه الممتع فيقول: «فخرجت حتى قدمت عليه مرة، أخرى فقلت: يا رسـول الله اشتكيت بعدك»[4] حيث «شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسـده منذ أسـلم؟ فقال له رسـول الله ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسـدك وقل: باسـم الله ثلاثاً. وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[5]

وشـكا له أمراً آخر يجده في صلاته «فقال: يا رسـول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها علي؟

---

(١) حديث صحيح مر معنا أوله عند قدوم وفد ثقيف.

(٢) سنده صحيح أحمد ٤-٢١ وغيره من طريق سعيد الجريري عن أبي العلاء عن مطرف عن عثمان بن أبي العاص.. فسـعيد بن إياس ثقة التقريب ٢٣٣ وأبو العلاء كان ثقة فاضلاً كبير القدر سـير أعلام ٤-٤٩٤ ومطرف بن عبد الله تابعي كبير ثقة التقريب ٥٣٤.

(٣) صحيح مسلم ١-٢٩٠.

(٤) هو آخر حديث عثمان السابق.

(٥) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨.

فقال: رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً.

قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني»[1]

ومثل هذا الشيطان الذي عرض لعثمان في صلاته شياطين آخرون.. يعرضون لكل مسلم يصلي، وبطريقة غاية في الخبث، فهم يشغلون المصلي بالطريقة التي يحبها المصلي نفسه، فهو يأتي التاجر أثناء صلاته بقائمة من المشاريع الاقتصادية الناجحة، ويذكره بما له وما عليه، ويثير خوفه على ماله. ويقدم لمن تستهويه النساء ألبوماً بالصور والأساليب الجديدة للقنص، أما العلماء فهو يحاورهم في بحوثهم ومراجعهم، وآخر ما توصلوا إليه، بل يناقش بعضهم بأمور الصلاة نفسها، ويشغلهم بصلاة من حولهم، وكيف يرتكبون أخطاء فيها. أما العباد والزهاد الذين لا يحتمل أن الشيطان يستطيع التغلغل إلى صلاتهم، فهو يقدم لهم النصح والإرشاد والوعظ أيضاً أثناء صلاتهم، ويحثهم على القيام بأداء النوافل بعد الصلاة، والتصدق وبر الوالدين وصلة الرحم، بل ويذكرهم بعناوين الأقارب الذين لم يروهم منذ فترة، وفي النهاية يسلم المصلي وقد أدرك أنه كان في رحلة مثيرة مع الشيطان.

أما قصة عثمان مع الشيطان فيقول عنها: «قلت: يا رسول الله إني أجد في نفسي شيئاً قال: أدنه فجلسني بين يديه، ثم وضع كفه في صدري بين ثديي، ثم قال: تحول. فوضعها في ظهري بين كتفي. ثم قال: أم قومك فمن أم قوماً فليخفف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم وحده فليصل كيف شاء»[2] فكان «آخر ما فارقه رسول الله ﷺ قال: إذا صليت بقوم فخفف بهم، حتى وقت لي: اقرأ باسم ربك الذي خلق» «وأشباهها من القرآن»[3] وهي

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٤١.

(٣) سنده قوي رواه أحمد ٤-٢١٨ واللفظ له والآخر لـ ابن سعد ٥-٥٠٨ عن عبد الله بن عثمان بن خثيم حدثني داود بن أبي عاصم عن عثمان بن أبي العاص. داود تابعي ثقة: التقريب ١١٩ وتلميذه عبد الله صدوق من رجال مسلم: التقريب ٣١٣.

سـنة النبـي ﷺ التي يقول عنها أنس رضي الله عنه «مـا صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من رسول الله ﷺ»[1].

انطلق وفد ثقيـف، وجاءت وفود أخرى، وكان أفضلها وفـد قبائل: عبد القيس، وأسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وقدمت بعدها وفود أخرى

وفد جميل من المشرق

هذا الوفد القادم من المشرق.. قد تميز بأشياء جميلة عطر بها النبي ﷺ أجواءهم، وأشـجى بها أسماعهم، وكأنها مكافأة لهم على تجشـمهم الصعاب في الوصول إليه، حيث إنهم لا يسـتطيعون السـفر للمدينة إلا في الأشـهر الحرم، نظراً لأن أعداءهم يحولون بينهم وبين ذلك.. ذلك الوفد هو:

وفد البحرين

يقول أحد الصحابة: «إن وفد عبد القيس لما أتوا رسول الله ﷺ قال: مَنِ الوفدُ؟ قالوا ربيعة. قال: مرحباً بالوفد أو القوم غير خزايا ولا ندامى.

قالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك كفار مضر، فمرنا بأمر ندخل به الجنة، ونخبر به من وراءنا؟

فسـألوا عن الأشـربة؟ فنهاهم عن أربع، وأمرهم بأربع.. أمرهم بالإيمان بالله. قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم

قال: شـهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأظن فيه صيام رمضان، وتؤتوا من المغانم الخمس، ونهاهم عن الدباء، والحنتم، والمزفت، والنقير»[2] «احفظوهن وأبلغوهن من وراءكم»[3]

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٥٢.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٥٢.

«قالــوا: يا نبي الله ما علمك بالنقير؟ قال: بلــى جذع تنقرونه، فتقذفون فيه من القطيعاء، أو من التمر، ثم تصبون فيه من الماء حتى إذا ســكن غليانه شــربتموه، حتى إن أحدكم أو إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف.

وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك قال: وكنت أخبئها حياء من رسول الله ﷺ. فقلت: ففيمَ نشرب يا رسول الله؟

قال: في أسقية الأدم التي يلاث على أفواهها. قالوا: يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان، ولا تبقى بها أسقية الأدم؟

فقال نبي الله ﷺ: وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان»[1] أي وإن قلت تلك الجلود، وأصبحت نادرة لأكل الجرذان لها.

لكن هذا الحكم لم يدم، فقد أنزل الله على نبيه حكماً بالسماح بالشرب في الدباء، وهو وعاء مصنوع من القرع بعد تفريغه. والحنتم، وهي جرة الخمر الخضراء، والمزفت، وهو وعاء مطلي بالزفت. وكذلك النقير، وهو خشــبة منحوتة على شــكل إناء لشــرب الخمر. وكأن الحكم السابق نزل لنزع كل ما يذكر الإنسان بالخمر من أواني.. تفنن في صنعها لإضفاء أجواء معينة على مجالس الشرب، كما نزلت أحكام أخرى جديدة.

قال «بريدة: قال رســول الله ﷺ: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحــوم الأضاحي فوق ثلاث فأمســكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في ســقاء، فاشربوا في الأسقية كلها ولا تشربوا مسكراً»[2]

ثــم توجه ﷺ إلى أبرز رجل في هذا الوفد الكريم وأثنى على صفتين من صفاته، حيــث «قال نبي الله ﷺ لأشــج عبــد القيس: إن فيك لخصلتــين يحبهما الله: الحلم والأناة»[3]

وقــد طال مجلس عبد القيس مع النبــي ﷺ من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، ولمــا انصرفوا حدث من النبي ﷺ شــيء لم يكن يصنعه. فقــد كان ﷺ لا يصلي بعد

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٨.
(٢) صحيح مسلم ١-٤٨.
(٣) صحيح مسلم ٣-١٥٦٣.

العصر بل قد «نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس»[1]

«قالت أم سلمة سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنهما، ثم رأيته يصليهما. أما حين صلاهما فإنه صلى العصر، ثم دخل وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فصلاهما.

فأرسلت إليه الجارية فقلت: قومي بجنبه فقولي له: تقول أم سلمة يا رسول الله: إني أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين، وأراك تصليهما!! فإن أشار بيده فاستأخري عنه.

ففعلت الجارية، فأشار بيده فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: يا بنت أبي أمية سألت عن الركعتين بعد العصر، إنه أتاني ناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان»[2]

انصرف وفد عبد القيس ليبني مسجداً في البحرين، وليكون هذا الوفد قد حقق سبقاً قال عنه ابن عباس «إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس، بجواثي من البحرين»[3]

وجاءت وفود أخرى، ولم يكن متوقعاً من كل تلك الوفود أن تكون على مستوى واحد من حسن التعامل والثقافة، فهي وفود ضاربة الجذور في الجاهلية، كما أن تلك الوفود لم تكن تمثل قبائلها إلا رسمياً، لكنها لا تمثل أخلاقيات وسلوك كل فرد فيها، فعند:

قدوم وفد تميم ووفد من اليمن

كان هناك تنافس بين سيدي كهول أهل الجنة حول من يتكلم من بني تميم أولاً فقد «قدم ركب من بين تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلى أو إلا خلافي. فقال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) صحيح البخاري ١-٢١٢.
(٢) صحيح مسلم ١-٥٧١.
(٣) صحيح البخاري ١-٣٠٤.

ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ حتى انقضت الآية»[1]

وكان لخلاف الشيخين العظيمين ورفع أصواتهما عقوبة آنية،عندما خيب المحتفى بهما آمال الشيخين. أحد المحتفى بهما يقول عن نفسه « إنه أتى النبي ﷺ فناداه [فلم يجبه] فقال: يا محمد إن مدحي زين، وإن شتمي شين. فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ويلك ذلك الله فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ [أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾]»[2]

لكن هذا الرجل الذي غلبته أعرابيته تمادى ليفخر على من سبقه بالبيعة فقال: «إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة.. وجهينة بن أبي يعقوب»[3] فكان رد النبي ﷺ عليه قاسياً جداً. ثم التفت عليه السلام إلى من جاء معه من قومه مبشراً فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين.

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قد قبلنا يا رسول الله. قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر؟ قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض

يقول راوي القصة واسمه ابن الحصين: فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين. فانطلقت، فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها»[4]

وبعد أن عاد الأقرع ومن معه إلى ديارهم.. بشر النبي ﷺ أمته بخروج جيل من

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٣٤ وقد أكملت الآية للفائدة.

(٢) سنده صحيح روه الطبري في التفسير ٢٦-١٢٢ والزيادة لأحمد ٣-٤٨٨ من رواية عفان ثنا وهيب ثنا موسى بن عقبة عن أبي سلمة ثنا الأقرع بن حابس التميمي.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٩٤.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٦٦ وابن الحصين هو راوي الحدث وكان حاضراً.

أصلاب هؤلاء الأجلاف يعز الله بهم الإسـلام، كما تنبـأ لثقيف من قبل بذلك، فقال عليه السـلام: «هم أشـد أمتي على الدجال»[1] بل أحبهم، فأحبتهم عائشة وروت سر حبها لتميم عندما قالت: «لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: هم أشد أمتي على الدجال. وكانت منهم سبية عند عائشة فقال: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل. وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقات قوم، أو قومي»[2]

أما أهل اليمن الذين قبلوا البشـرى فالمدينة تسـتقبل كل فترة وافداً منهم.. فمن أرض اليمن انطلق رجل يقال له جرير بن عبد الله البجلي نحو المدينة، ولما وصلها غير ملابسـه ودخلها، وعندما دخلها وجد النبي ﷺ يخطـب في أصحابه، ولكن أصحابه كانوا لا ينظرون إلى نبيهم، بل ينظرون إلى جرير وهو يمشي نحوهم.

كل الصحابة كانوا يحدقون بوافد اليمن

لماذا..؟ أوليس من هدي الصحابة الإنصات للنبي عليه السـلام؟ بلى، ولكن لدى جرير ما يثير، ولديه ما يخبرنا عنه فيقول رضي الله عنه: «لما دنوت من المدينة أنخت راحلتـي، ثـم حللت عيبتي، ثم لبسـت حلتي، ثم دخلت فإذا رسـول الله ﷺ يخطب، فرماني الناس بالحدق فقلت لجليسي: يا عبد الله ذكرني رسول الله ﷺ؟

قال: نعم ذكرك آنفاً بأحسن ذكر، فبينا هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: يدخـل عليكـم من هذا الباب، أو مـن هذا الفج من خير ذي يمـن، ألا إن على وجهه مسحة ملك.

قال جرير: فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني»[3]

وبعـد أن التقى جرير بالنبي ﷺ وجده كالنسـمة الباردة لهجيـره.. كالماء البارد لعطشـه. يقول رضي الله عنه: «ما حجبني النبي ﷺ منذ أسـلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»[4]

---

(١) صحيح البخاري ٢-٨٩٨.

(٢) صحيح البخاري٤- ١٥٨٧.

(٣) سنده قوي رواه أحمد ٤-٣٥٩ وغيره من طريق يونس بن أبي إسحاق ثنا المغيرة بن شبل الأحمسي سمعت جرير... المغيرة ثقة: التقريب ٥٤٣ وتلميذه صدوق التقريب ٦١٣.

(٤) صحيح البخاري ٥-٢٢٦٠.

هذا هو سلوك النبي ﷺ مع الصحابة، فليبحث المتجهمون عن قدوة غيره ليبرروا تجهمهـم وضيقهم بالناس وبأنفسـهم. أما عبارات بيعة جريـر فتغير أعماق الأرض وأعماق البشر.

يقول رضي الله عنه: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[1] و«على السمع والطاعة فلقنني: فيما استطعت. والنصح لكل مسلم»[2]

وجاء وافد آخر من أهل اليمن، وزعيم من زعمائهم، بل ورجل سـبق الأنصار في دعوة النبي ﷺ للهجرة، لكنه لم يكن واثقاً من ردة فعل قومه إزاء قراره اسـتقبال هذا النبي المضطهد، وعند قدومه اصطحب معه رجلا كاد يفقد يديه.

«الطفيل بن عمرو الدوسـي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة - حصن كان لدوس في الجاهلية؟

قال ﷺ: [أمعك من وراءك؟ قال: لا أدري]

فأبـى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأنصـار، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه فاجتووا المدينة، فمرض فجزع فأخذ مشاقص له فقطع بها براجمه، فشخبت يداه حتى مات. فرآه الطفيل بن عمرو في منامه فرآه وهيئته حسنة، ورآه مغطياً يديه. فقال له: ما صنع بك ربك؟

فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ. فقال: ما لي أراك مغطياً يديك؟ قال: قيل لي لن نصلح منك ما أفسـدت. فقصها الطفيل على رسـول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: اللهم وليديه فاغفر»[3]

ثم شـكا الطفيل رضي الله عنه ومن معه تأخر إسلام قومهم وعصيانهم، فقالوا: «يا رسـول الله إن دوسـاً عصت وأبت فادع الله عليها. فقيل: هلكت دوس. قال: اللهم اهد دوسا وأت بهم»[4]

وعاد أبو موسى الأشعري إلى اليمن ليأتي بقومه فقال ﷺ: و

---

(١) صحيح مسلم ١-٧٥ والزيادة من صحيح ابن حبان ٧-٢٨٧ وهي صحيحة السند.

(٢) صحيح مسلم ١-٧٥ والزيادة من صحيح ابن حبان ٧-٢٨٧ وهي صحيحة السند.

(٣) صحيح مسلم ١-١٠٨.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٠٧٣.

الأشعريون في طريقهم إلى المدينة

«يقدم عليكم أقوام هم أرق منكم قلوباً . فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعري، فلما دنوا من المدينة كانوا يرتجزون يقولونً:

غـــــداً نـلـقـى الأحـبـة   مـحـمـداً وحـزبـه»[1]

النبي يثني على أهل اليمن

فيقول: «أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية، رأس الكفر قبل المشرق»[2] «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»[3] والذي يبدو من سياق الأحاديث، أن سر الوهج اليماني وعلو منزلتهم يكمن في تواضعهم، وابتعادهم عن مظاهر الفخر والسلوك الجاهلي القائم على الاعتداد بالنفس وازدراء الآخرين، فالنبي ﷺ يقول: «أهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره.. وأهل النار كل جواظ عتل مستكبر»[4]

وإذا كانت القلوب اليمنية بهذه الرقة والصفاء، فلا بد أن يوازيها صفاء على أرض اليمن نفسها، فهي مازالت تئن تحت أكوام من ركام الجاهلية وأوثانها وأصنامها، بل لقد بنى المشركون هناك كعبة لهم. فمن المرشح لـ:

هدم كعبة اليمانية

لم يجد النبي ﷺ أنسب من صاحب المسحة الملائكية (جرير بن عبد الله) لكن جريراً كان يفقد توازنه عند ركوبه الخيل، ويتمنى لو يثبت على ظهرها .. لاسيما وهو يقول: «رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه، وهو يقول: الخيل معقود

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-١٠٥ وابن حبان ١٦-١٦٤ من طريق ابن أبي عدي ويزيد ابن هارون عن حميد عن أنس.. فميد الطويل تابعي ثقة سمع من أنس: التقريب ١٨١.

(٢) صحيح مسلم ١-٧٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٩٤.

(٤) صحيح البخاري ٦-٢٤٥٢.

بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والغنيمة»[1] ثم يواصل جرير حديثه قائلا أن النبي ﷺ قال له: «يا جرير، ألا تريحني من ذي الخلصة؟ (بيت لخثعم) كان يدعى كعبة اليمانية.

فنفرت في خمسين ومائة فارس، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضرب يده في صدري فقال: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً. فانطلق فحرقها بالنار.

ثم بعث جرير إلى رسول الله ﷺ رجلاً يبشره، يكنى أبا أرطأة منا. فأتى رسول الله ﷺ فقال له: ما جئتك حتى تركناها كأنها جمل أجرب. فبرَّك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات»[2] أي دعا لهم بالبركة.

أما اليمن فقد أصبحت أكثر استعداداً لتقبل الدعاة والأمراء إلى هذا الدين الجديد.. بعد تلك الإرهاصات، وبعد انتشار التوحيد على أرضها. فمن سيبعث ﷺ إلى اليمن للتعليم؟ ومن سيعين أميراً عليها؟ لاسيما وأن هناك اثنين تقدما بطلب تلك الوظيفة

قصة الرجلين اللذين طلبا إمارة اليمن

هما رجلان من أهل اليمن.. قدما إلى المدينة بصحبة أبي موسى الأشعري دون أن يشعر أبو موسى بما يضمران في نفسيهما، ولما وقفا أمام النبي ﷺ قدما طلبيهما، فماذا كانت إجابة النبي ﷺ على من يطلب الإمارة؟

أبو موسى حضر تلك المحادثة وروى تلك القصة فقال: «أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان [من بني عمي] من الأشعريين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ﷺ يستاك. فقال: ما تقول يا أبا موسى، أو يا عبد الله بن قيس؟

فقلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت، فقال: لن، أو لا نستعمل

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩٢٦.

على عملنا من أراده [ولا أحداً حرص عليه]، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس. فبعثه على اليمن، ثم أتبعه معاذ بن جبل»[1] وكان في تعليماته عليه السلام لمعاذ منهجاً لمن بعده في التأني والتدرج في الدعوة، حتى وإن كان الداعية أميراً أو قائداً، فالعقول والقلوب لاتشرع أبوابها إلا للجميل والمقنع. لذا «قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[2]

تعاليم تحلق في في سماء التحضر.. تبدأ بنظافة العقول والقلوب من الخرافة والوثنية، وبإخضاع كل شيء لمن يستحق الخضوع والعبودية، ثم تمر ببيوت المعوزين لتملأها بالغنى والفرح، وأخيراً والأهم نظافة يد الأمير.. (إياك وكرائم أموالهم) فمتى ما كانت يد الأمير نظيفة من نهب أموال رعيته فإنها تمتلىء بقلوبهم، وأخيرا.. نظافة سجله من الظلم، وإلا فإن دعوة المظلوم بالمرصاد.

أنصت معاذ لتلك التعليمات النبوية، وبدأ التحليق نحو آفاقها و«لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم»[3]

وبعد أن «بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، وبعث كل واحد منهما على مخلاف -واليمن مخلافان- ثم قال: يَسِّرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا،

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٥٦ والزوائد له أيضاً.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.

[وتطاوعا. فقال أبو موسى: يا نبي الله إن أرضنا بها شراب من الشعير المزر، وشراب من العسل البتع؟ فقال: كل مسكر حرام.

فانطلقا فقال معاذ لأبي موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال قائماً وقاعداً وعلى راحلتي، وأتفوقه تفوقاً[1] قال: أما أنا فأنام وأقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[2]، وضرب فسطاطاً، فجعلا يتزاوران]، فانطلق كل واحد منهما إلى عمله، وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه، وكان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً، فسلم عليه، فسار معاذ في أرضه قريباً من صاحبه أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، وإذا هو جالس، وقد اجتمع إليه الناس، وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه، فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس أيم هذا[3]؟ قال: هذا رجل كفر بعد إسلامه. قال: لا أنزل حتى يقتل. قال: إنما جيء به لذلك، فانزل. قال: ما أنزل حتى يقتل. فأمر به فقتل، ثم نزل»[4].

لقد أمرهما بالتيسير، ولكن لا يعني قول النبي ﷺ: يسرا وبشرا أن يتخليا عن تنفيذ الحدود الموحى بها، لأن التيسير مساحة لا نهاية لها، أما تطبيق الحدود فهو وإن كان في مخالفات قليلة بعدد أصابع اليد الواحدة، إلا أن هذه الحدود تحفظ أساسات الحياة الخمس: العرض، والمال، والدم، والعقل، والدين.

فإذا تم العبث بهذه الأشياء، وانعدمت حمايتها.. تحول العالم إلى بقعة شرسة.. بقعة أشرس وأسوأ مما يحدث في الغابة الحيوانية، فما يجري في الغاب هو صراع من أجل البقاء لا أكثر، أما على الأرض فسيتحول الصراع إلى هدف لإفناء الآخر وسحقه، فإذا غابت الحدود يوماً عن الأرض، فستغيب أشياء كثيرة وجميلة.. أولها التسامح وآخرها الإنسان، وما وصل الإسلام إلى اليمن إلا من أجل الإنسان.

هكذا جرت الأحداث في اليمن، أما في المدينة فقد كانت ساحة احتفالات وحفاوة.. الوفود تسيل إليها ومنها في الوقت الذي قرر النبي ﷺ إرسال أكبر بعث لا

---

(١) أي أقراه ليلا ونهاراً، ولكن ليس دفعة واحدة.

(٢) أي أرجو من الله أن يثيبني على نومي، كما يثيبني وأنا مستيقظ.

(٣) إيش هذا أو ما هذا؟

(٤) صحيح البخاري ٤-١٥٧٨ والزيادة له ٤-١٥٧٩.

للغزو، بل إلى مكة.. لأداء الحج، وقد اختار لإمارة المسلمين والعرب جميعهم في هذا البعث صاحبه أبا بكر الصديق وقد سميت هذه الحجة:

حجة أبي بكر رضي الله عنه

وقبل أن ينطلق رضي الله عنه.. أمره النبي ﷺ بإعلان بيانين نبويين خلال مواسم الحج القادمة.. تحمل توحيداً نقياً يقطع آخر الطرق بين الشرك والأجيال الجديدة المفعمة بالفطرة:

الأول: منع أي مشرك يعلن شركه من الحج بعد هذا العام.

الثاني: منع التعري داخل البيت الحرام.. خاصة أثناء الطواف، وهي من عادات الشرك البالية المتخلفة.

يقول أبو هريرة: «بعثني أبو بكر الصديق، في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع، في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[1] وهذا يعني أن أبا بكر حج بالمسلمين وبالعرب كافة مسلمهم ومشركهم، أما في المدينة فقد نزلت سورة براءة على النبي ﷺ، وقد أمر جبريل النبي ﷺ بإعلانها بنفسه على الحجاج، أو أن يكلف رجلاً من أهل بيته بذلك، فأمر علياً رضي الله عنه أن يحملها إلى مكة، وأن يعلنها بنفسه على أولئك الحجاج، مما خلق تساؤلاً لدى أبي بكر الصديق بصفته أميراً على الحجاج كافة، وأميراً على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يكن يعلم وقتها أن علياً كان مكلفاً فقط بإعلان (براءة) مع بقائه تحت إمرة أبي بكر رضي الله عنهما.

يقول أبو هريرة:« فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[2]

أحد الصحابة يقص ما حدث بتفصيل أكثر فيقول: «بعث النبي ﷺ أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه علياً، فبينا أبو بكر في بعض الطريق، إذ سمع رغاء ناقة رسول الله ﷺ القصواء، فخرج أبو بكر فزعاً، فظن أنه رسول الله ﷺ، فإذا هو

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٨٢.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٧٠٩.

علي، فدفع إليه كتاب رسـول الله ﷺ، وأمر علياً أن ينـادي بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجا، فقام علي أيام التشريق فنادى: ذمة الله ورسوله بريئة من كل مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشـهر، ولا يحجن بعد العام مشـرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن. وكان علي ينادي، فإذا عيي قام أبو بكر فنادى بها»[1]

ولما سـئل علي: «بأي شيء بعثت؟ قال: بأربع، أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم ومشرك بعد عامهم هذا في الحج، ومن كان له عهد، فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأربعة أشـهر»[2] وبذلك تم تحرير مكة من كل علاقة بالشرك والمشركين، وقطعت كل صلة لها بالخرافة والوثنية.

أتم الجميع مناسك حجهم وعلمت الأمة مكانة أبي بكر الصديق.. الذي استخلفه رسول ﷺ وهو حي في قيادة الأمة وأمارتها لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام.. أدرك الجميع ذلك وهم يعودون إلى ديارهم، وتوجه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة، وعند وصوله سلم على النبي ﷺ، وسأله عن ذلك الأمر الذي أقلقه «فلما رجع أبو بكر قال: هل نزل في شيء؟ قال: لا ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي»[3]

ولم يكن في الأمر سـوى تكريم لعلي علـى بقية أهل البيت، وتكريم أبي بكر على الأمة كلها، فقد خصه بقيادة المسلمين كافة إلى الحج، ولو كان في الأمر مساس بأبي بكر، وإمارة أبي بكر لعزله النبي ﷺ من الأمارة، وسـلمها لأحد الصحابة، لكن الأمر غيـر ذلـك، فقد بقي علي وغيره رضي الله عنهم تحت إمـرة أبي بكر رضي الله عنه طوال مدة الحج.

---

(١) سنده قوي، رواه الترمذي ٥-٢٧٥ وغيره عن عباد بن العوام حدثنا سفيان بن حسين عن الحكم ابن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس، وله شاهد على شرط مسلم عند النسائي في الكبرى ٢-٤١٦ والدارمي ٢-٩٢ وغيرهما من طريق موسى بن طارق عن ابن جريج حدثني عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر.

(٢) سـنده صحيح رواه سـعيد ابن منصور ٥-٢٣٣ واللفظ له من طرق عن سفيان عن أبي إسحاق الهمداني عن زيد بن يثيع قال سألنا علياً.. انظر ما بعده.

(٣) سـنده صحيح تفسـير الطبري ١٠-٦٤ وأحمد ١-٣ من طريق يونس بن أبي إسـحاق وإسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال الدارقطني في العلل ١-٢٧٤ بعد أن ذكر طرق الحديث: وقال ابن عيينة عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال سألنا علي بن أبي طالب بأي شيء بعثني النبي ﷺ بأربع وقول بن عيينة أشبه بالصواب والله أعلم وكذلك قال أبو بكر بن عياش وأبو شيبة إبراهيم بن عثمان عن أبي إسحاق.

وخـلال تلك الأيام.. لم تنقطع الوفود عن القـدوم إلى المدينة لمبايعة النبي ﷺ.. كانوا يتدفقون موجات من الحب والشوق نحو المدينة، فهذا وفد لم يمنعه الفقر والعوز من الرحيل إلى المدينة:

وفد مزينة

يقـول أحدهم وهو النعمان بن مقرن رضي الله عنه «قدمنا على رسـول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة، فأمرنا رسـول الله ﷺ بأمره فقال بعض القوم: يا رسول الله ما لنا طعام نتزوده؟

فقال النبي ﷺ لعمر: زودهم. فقال ما عندي إلا فاضلة من تمر، وما أراها تغني عنهم شيئاً. فقال: انطلق فزودهم.

فانطلـق بنا إلى علية له، فإذا فيها تمر مثل البكر الأورق، فقال: خذوا. فأخذ القوم حاجتهم. وكنت أنا في آخر القوم، فالتفت وما أفقد موضع تمرة، وقد احتمل منه أربعمائة رجل»[1] ثم عادوا إلى بلادهم مزودين بالتمر والإيمان ومشاهدة المعجزات، وجاء:

وفد بني أسد

وتميز هذا الوفد بلغة بليغة، لكن بعضهم أفسـدها ببعض الفخر والمنة، في وقت لا مكان فيه للفخر ولا للمنة.. لاسـيما وهم قد قدموا لتقديم الولاء والبيعة والطاعة. «ابن عباس قال: قدم على النبي ﷺ وفد بني أسـد فتكلموا فأبانوا فقالوا: يا رسـول الله قاتلتك مضر كلها ولم نقاتلك، ولسنا بأقلهم عدداً، ولا أكلهم شوكة، وصلنا رحمك. فقال رسـول الله ﷺ لأبي بكر وعمر حيث سـمع كلامهم: (أفتقولان هكذا؟ قالا: لا) قال: إن فقههم لقليل وإن الشيطان لينطق على لسانهم»[2]

أما الوفد القادم فكانت تحملهم الذكريات وتنطق المشاعر على لسانهم إنهم:

---

(١) سـنده صحيح رواه أحمد ٥-٤٤٥ ثنا عبد الصمد ثنا حرب يعني بن شـداد ثنا حصين عن سـالم بن أبي الجعد عن النعمان بن مقرن وسـالم تابعي ثقة سـمع من النعمان هذا الحديث كما في التدوين في أخبار قزوين ١-٨٢ وحصين السـلمي تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين التقريب ١-١٨٢ وتلميذه حرب ثقة أيضاً وكذلك عبد الصم بن عبد الوارث.

(٢) سـنده صحيح رواه النسـائي في الكبرى ٦-٤٦٧ أبو يعلى ٤-٢٥٠ حدثنا سـعيد بن يحيى بن سعيد الأموي حدثنا أبي حدثنا محمد بن قيس الأسدي عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: محمد أبو عون تابعي ثقة وتلميذه ثقة: التقريب ٤٩٥ و٥٣٠ ويحيى صدوق وابنه ثقة وهما من رجالهما.

وأحدهم يحمل ذكريات أليمة عن مكة، وعن بدايات الدعوة في مكة المكرمة، واسمه طارق بن عبد الله المحاربي حيث يقول رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ مر بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي، فمر وعليه حلة حمراء فسمعته يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا فإنه كذاب.

فقلت: من هذا؟ فقيل: غلام من بني عبد المطلب. فلما أظهر الله الإسلام خرجنا من الربذة ومعنا ظعينة لنا، حتى نزلنا قريباً من المدينة، فبينا نحن قعوداً إذ أتانا رجل عليه ثوبان، فسلم علينا.

فقال: من أين القوم؟ فقلنا: من الربذة، ومعنا جمل أحمر فقال: تبيعوني هذا الجمل؟ فقلنا: نعم. فقال: بكم؟ فقلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمر. قال: أخذته وما استقصي.

فأخذ بخطام الجمل فذهب به حتى توارى في حيطان المدينة، فقال بعضنا لبعض: تعرفون الرجل؟ فلم يكن من أحد يعرفه، فلام القوم بعضهم بعضاً فقالوا: تعطون جملكم من لا تعرفون!! فقالت الظعينة: فلا تلاوموا، فلقد رأينا رجلاً لا يغدر بكم، ما رأيت شيئاً أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه.

فلما كان العشي أتانا رجل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أأنتم الذين جئتم من الربذة؟ قلنا: نعم.

قال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم، وهو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا.

فأكلنا من التمر حتى شبعنا، واكتلنا حتى استوفينا، ثم قدمنا المدينة من الغد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يخطب الناس على المنبر، فسمعته يقول: يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، وأدناك أدناك، وثَمَّ رجل من الأنصار

فقال: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلاناً في الجاهلية، فخذ لنا بثأرنا. فرفع رسول الله ﷺ يديه حتى رأيت بياض إبطيه فقال: لا تجني أمّ على ولد، لا تجني أمّ على ولد»[1]

إذا كان طارق المحاربي مسافر تحمله الذكريات إلى حيث النبي عليه السلام، فإن هذا المسافر يجعل الذكريات تحمل النبي ﷺ إلى عالم الطفولة.. حيث مضارب بني سعد وحيث الغنيمات وإخوته الصغار وأمه حليمة السعدية إنه:

أفضل وافد: ضمام بن ثعلبة من هوازن

أما لماذا صار هذا الأعرابي أفضل وافد على النبي ﷺ، فله قصة يرويها أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول: «بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد، ثم عقله ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم. فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟

فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك.

فقال: سل عما بدا لك.

فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم.

قال أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؛ قال: اللهم نعم.

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم.

قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا (ضمام بن ثعلبة) أخو بني سعد بن بكر»[2] «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله،

---

(١) سنده صحيح ابن حبان ١٤-٥١٨ وغيره من طرق عن يزيد بن زياد ابن أبي الجعد عن جامع بن شداد عن طارق : وجامع تابعي ثقة وتلميذه ثقة أيضاً : التقريب ١٣٧ و٦٠١.

(٢) صحيح البخاري ١-٣٥.

وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً.

فقال رسول الله ﷺ: إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة.

فأتى بعيره فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى. قالوا: مه يا ضمام، اتق البرص اتق الجنون. قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه....

فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

قال عبد الله بن عباس: فما سمعنا بوافد قدم كان أفضل من ضمام ابن ثعلبة»[1]

كانت الوفود تأتي وتذهب، وكانت الأمراء تذهبو وتأتي.. هاهو:

النبي ﷺ يرسل خالداً إلى اليمن

يرسله أميراً وداعية لأرض الإيمان والحكمة، وبعد فترة بعث إليه علي بن أبي طالب كي يخلفه، ويقبض منه خمس الغنائم التي كانت تحت إدارة سيف الله..

يقول أحد الصحابة وهو البراء: «بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه، فقال: مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب، ومن شاء فليقبل. فكنت فيمن عقب معه، فغنمت أواقي ذوات عدد»[2]

وقد حدثت خلال تلك الفترة الانتقالية بعض القصص، مثل هذه القصة التي أضافت لعلي رضي الله عنه الجديد من الفضائل.

---

(١) سنده قوي رواه ابن إسحاق السيرة ٥-٢٦٧ حدثني محمد بن الوليد بن نويفع عن كريب عن ابن عباس وابن الوليد قال عنه الدارقطني يعتبر به وتابعه سلمة بن كهيل عند أبي داود ١-١٣٢ وغيره وسلمة وكريب تابعيان ثقتان من رجالهما: التقريب ٤٦١.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.

يقول «بريدة رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ علياً إلى خالد ليقبض الخمس، وكنت أبغض علياً وقد اغتسل. فقلت لخالد: ألا ترى إلى هذا؟ فلما قدمنا على النبي ﷺ ذكرت ذلك له.

فقال: يا بريدة، أتبغض علياً؟ فقلت: نعم. قال: لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك»[1] ويقصد النبي ﷺ تلك الجارية التي اغتسل علي من أجلها بعد أن أخذها من الخمس، فغضب بريدة من صنعه واستكثرها عليه أما علي رضي الله عنه فقد استلم مهمته الجديدة وبدأ بإدارة الأمور بكفاءة، وحصل المسلمون على بعض الغنائم فأرسل علي منها للنبي ﷺ، فقسمها بين بعض أصحابه وحضر تلك القسمة متطرف من:

جذور الخوارج

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، فقسمها بين أربعة نفر بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل.

فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ألا تأمنونني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً.

فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة كث اللحية، محلوق الرأس مشمر الإزار فقال: يا رسول الله اتق الله.

قال: ويلك، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؛ ثم ولى الرجل. قال خالد ابن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟

قال: لا، لعله أن يكون يصلي.

فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨١.

قال رسول الله ﷺ: إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم.

ثم نظر إليه وهو مقف فقال: إنه يخرج من ضئضئ هذا، قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»[١]

فقتال هؤلاء الخوارج من واجبات إمام المسلمين حتى تتكسر شوكتهم، وينعدم تأثيرهم على أمن دولة الإسلام، فبعد كسر شوكتهم يتحولون إلى مجرد أفكار متطرفة.. تعرض على الكتاب والسنة، لكنها لا تعرض على السيف إلا في حالة تحولها إلى سرايا أو قوة تتحرك على وجه الأرض، لشق جماعة المسلمين وزعزعة أمنهم وأمن دولتهم. وهذا ما فعله النبي ﷺ وخطه لأمته، فهو لم يكفره، ولم يقتله، بل ولم يمسه بأذى، لأنه لا يمثل تهديداً في ظل توجه الدولة بكليتها بكتاب الله وسنة رسوله.. إنما بين انحرافه وانحراف أمثاله، وهذا الصنف من المسلمين قد لا ينقصهم الإخلاص وحسن النية، لكنهما لا يكفيان لتبرير أقوالهم وأفعالهم المتطرفة.

وإذا كان علي أرسل للنبي ﷺ بذهب (تبر) من اليمن، فإن أحد الصحابة الذين رافقوا علياً إلى اليمن لم يبعث هدية لزوجته بل بعث لها بطلقتها الثالثة قبل أن يستشهد رضي الله عنه هناك.

وأثناء تأيمها حدثت بعض المشاكل حول حقها في الحصول على مصروفها من دخل زوجها الذي طلقها، وهل للمطلقة ثلاث طلقات حق في الحصول على النفقة والسكن من مال زوجها المتوفى أم لا؟

«فاطمة بنت قيس تقول: أرسل إليَّ زوجي (أبو عمرو بن حفص بن المغيرة) عياش بن أبي ربيعة بطلاقي، وأرسل معه بخمسة آصع تمر وخمسة آصع شعير. فقلت: أما لي نفقة إلا هذا ولا أعتد في منزلكم؟ قال: لا.

فشددت عليّ ثيابي، وأتيت رسول الله ﷺ فقال: كم طلقك؟ قلت: ثلاثاً قال: صدق، ليس لك نفقة [فانطلق خالد بن الوليد في نفر فأتوا رسول الله ﷺ في بيت

---

(١) البخاري ٤-١٥٨١.

ميمونة فقالوا: إن أبا حفص طلق امرأته ثلاثاً فهل لها من نفقة؟ فقال رسول الله ﷺ: ليست لها نفقة وعليها العدة. وأرسل إليها أن لا تسبقيني بنفسك، وأمرها أن تنتقل إلى أم شريك.

ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون، فانطلقي إلى ابن أم مكتوم الأعمى فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك] .. اعتدي في بيت ابن عمك ابن أم مكتوم، فإنه ضرير البصر تلقي ثوبك عنده، فإذا انقضت عدتك فآذنيني»[1]

وبعد ان انتهت عدتها كثر حولها الخطاب، فكان في فترة الخطوبة درس للمؤمنين بهذا النبي وتعاليمه، وتحطيمه لأصنام العادات والتقاليد، حيث قال لها «رسول الله ﷺ: إذا حللت فآذنيني. فآذنته فخطبها معاوية، وأبو جهم، وأسامة بن زيد. فقال رسول الله ﷺ: أما معاوية فرجل ترب لا مال له، وأما أبو جهم فرجل ضراب للنساء. ولكن أسامة بن زيد.

فقالت بيدها هكذا: أسامة.. أسامة. فقال لها رسول الله ﷺ: طاعة الله وطاعة رسوله خير لك قالت: فتزوجته فاغتبطت»[2]

إن زواج هذه السليلة الجميلة بهذا الشاب الأسود العظيم يحمل من الرقي وانتفاء العنصرية والكبر والجاهلية ما يكفي لمن رضي بالله ربا وبمحمد عليه السلام نبيا، فقد وصف نبي هذه الأمة واجها بقوله: طاعة الله وطاعة رسوله خير لك.

أما الجميل والمدهش في هذا الدين النظيف من الجاهلية، فهو أن أسامة لم يكن ضمن قائمة الخطاب، وأن أسامة أيضاً لم يكن ضمن من تحلم بهم، أو حتى من ترضى بهم.

هي بنفسها تعترف بذلك.. فاطمة رضي الله عنها تقول:«لما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني.

فقال رسول الله ﷺ: أما جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال لهُ. انكحي أسامة بن زيد. قالت: فكرهته.

---

(١) صحيح مسلم ٢-١١١٩ والزيادة لمسلم ٢-١١١٥.

(٢) صحيح مسلم ٢-١١١٩.

ثم قال: انكحي أسامة بن زيد. فنكحته فجعل الله تعالى فيه خيراً كثيرا واغتبطت به»[1]

بإمكانهـا أن ترفض ولا تثريب عليها، فهي حرة في انتقاء شـريك حياتها، لكنها لم ترفض بداعي العصبية، فقبل أسامة تزوج والده من زينب بنت جحش، وقبله تزوج بـلال من أخت عبد الرحمن بن عوف وغيرهـم، وغيرهم.. في حياة النبي وبحضوره وبمباركته.. أما من يلبسون كبرهم عباءة الإسلام، فلا يكتفون بحقهم في الرفض، بل يتجاوزونه إلى تزوير الإسلام نفسه.

سـعد أسـامة بفاطمة، ولكن قبل حفل الزفاف وأثناء فترة العدة سمعت فاطمة أشياء خطيرة حملها وافد قدم على النبي ﷺ..

هـذا الوافد المحمل بالأخبار وغرائب الأسـفار التـي لا يصدقها أحد لولا إقرار النبي ﷺ له، وقد كان في قدوم هذا المسـافر نسـفاً لشـكوك تدور في أذهان بعض الصحابة حول رجل مخيف وغريب وغامض.. كان بعض الصحابة يعتقد أن هذا الرجل هو المسـيح الدجال الذي حذر النبي ﷺ أمته منه.. ذلك الدجال اليهودي الذي أخبر عنه الأنبياء وحذروا منه أممهم.. ذلك الدجال الذي سيعيث يوماً من الأيام فساداً في الأرض، وسـيخوض حروباً طاحنة ضد المؤمنين، وهو يقود يهود العالم للسيطرة على الأرض محـاولاً إقامة دولة لليهود.. الشـبهات اليوم تدور حول رجل من اليهود يعيش في المدينة، ويعتقد البعض أنه الدجال. أما النبي ﷺ فلم ينزل عليه شـيء حول هذا الرجل، لكنه كان حريصاً على اكتشاف أمره وكشف حقيقته.

دعونا نتجول في شوارع المدينة وبين نخيلها لنتعرف إلى هذا الرجل المخيف، الذي يشك بعض المؤمنين أنه المسيح الدجال تعالوا نتعرف على:

ابن صياد وهل هو المسيح الدجال

كان في المدينة رجل يهودي مخيف الشكل.. مريب الحركات والأصوات والتصرفات، وقد شـك الرسول ﷺ وبعض الصحابة أنه المسـيح الدجال وكان يدعى (ابن صياد).

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود ١-٦٩٥.

فعندمـــا كان ذلك اليهودي طفلاً يلعب مع الصبيـــان قرب حصن أناس يقال لهم (بني مغالة) حدث شيء غريب يرويه عبد الله بن عمر فيقول: « إن عمر بن الخطاب انطلق مع رســـول الله ﷺ في رهط قِبَلَ ابن صياد، حتـــى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم بن مغالة، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم. فلم يشـــعر حتى ضرب رســـول الله ﷺ ظهره بيده.

ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: أتشهد أني رسول الله؟

فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين. فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله.

فرفضه رسول الله ﷺ وقال: آمنت بالله وبرسله.

ثم قال له رسول الله ﷺ: ماذا ترى؟ قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب.

فقال له رســـول اللـــه ﷺ: خلط عليك الأمر، ثم قال له رســـول الله ﷺ: إني قد خبأت لك خبيئاً. قال ابن صياد: هو الدخ؟

فقال له رسول الله ﷺ: اخسأ، فلن تعدو قدرك.

فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله أضرب عنقه.

فقال له رسول الله ﷺ: إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»[1]

فـــي هذا الحوار بين النبـــي ﷺ وابن صياد.. اتضح تعاطي ابـــن صياد لنوع من السحر والكهانة، وذلك عندما قال: (الدخ) ويعني بذلك سورة الدخان التي نزلت على النبي ﷺ، لكنه قال الدخ فقط، لأن النبي عليه السلام قاطعه فوراً قبل أن يكمل اسم السورة وقال له: اخسأ.

أما عن تلك الأشـــياء التي يراها ابن صياد فيقول «جابر بن عبد الله: إن رســـول اللـــه ﷺ لقي ابن صياد ومعه أبو بكر وعمر أو قال رجلان، فقال له رســـول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٤.

فقال ابن صياد أتشهد أني رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ: آمنت بالله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى؟

فقال ابن صياد: أرى عرشاً على الماء.

فقال له رسول الله ﷺ: ترى عرش إبليس على البحر.

ما ترى؟ قال: أرى صادقين أو كاذبين.

فقال رسول الله ﷺ لبس عليه فدعوه»[1]

وقد وصل الشك ببعض الصحابة إلى درجة اليقين أنه الدجال، ومنهم جابر رضي الله عنه، حيث يقول أحد أصحاب جابر: «رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صائد الدجال.

فقلت: أتحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ، فلم ينكره النبي ﷺ»[2] وذلك للشبه الكبير بين الاثنين: الدجال وابن صياد، ولتصرفات ابن صياد المريبة، وما يصدر عنه من أفعال لا تصدر عن إنسان طبيعي أبداً.

كان يتعاطى السحر والشعوذة، ويتعامل مع شياطين الجن، ولا أدل على ذلك من هذه القصة التي حدثت أمام عيني ابن عمر في سكة ضيقة، وذلك عندما «لقي ابن عمر ابن صائد في بعض طرق المدينة، فقال له قولاً أغضبه: فانتفخ حتى ملأ السكة[3].. فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها ما رآه من فقالت له: رحمك الله ما أردت من ابن صائد أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: إنما يخرج من غضبة»[4]

ويقول «ابن عمر لقيته مرتين، فلقيته فقلت لبعضهم: هل تحدثون أنه هو؟ قال: لا والله.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤٩٥ حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر. أبو نضرة تابعي ثقة . وتلميذه سليمان بن طرخان تابعي مشهور وهو ثقة من رجال الشيخين، وتلميذه ثقة معروف مر معنا كثيراً.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٣ عن محمد بن المنكدر قال رأيت..

(٣) الطريق الضيقة جداً.

(٤) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٦.

قلت: كذبتني، والله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالاً وولداً، فكذلك هو زعموا اليوم.

فتحدثنا، ثم فارقته، فلقيته لقية أخرى وقد نفرت عينه، فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري.

قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه. فنخر كأشد نخير حمار سمعت.

فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأما أنا فوالله ما شعرت، وجاء حتى دخل على أم المؤمنين فحدثها، فقالت ما تريد إليه: ألم تعلم أنه قد قال: إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه؟»[1]

وقد حاول النبي ﷺ -بعد أن سمع كلامه وهو يلعب مع الصبيان- التسلل ليسمع زمزمته، والأصوات الغريبة الصادرة عنه.. عله يكتشف هويته، لكن ذلك لم يتم.

يقول ابن عمر: «انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد. فرآه النبي ﷺ وهو مضطجع يعني في قطيفة له فيها رمزة، أو زمرة، فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صياد: يا صاف -وهو اسم ابن صياد- هذا محمد.

فثار ابن صياد فقال النبي ﷺ: لو تركته بين»[2] واتضح أمره. كل تلك الأمور كانت قبل أن يأتي تميم الداري رضي الله عنه إلى المدينة ويسلم، ويقص على النبي ﷺ قصته العجيبة المخيفة:

قصة الدجال الحقيقي والجساسة

هذه القصة ترويها تلك الصحابية الجليلة التي اختار لها ﷺ أسامة بن زيد (فاطمة بنت قيس) وكانت من المهاجرات الأول فتقول: «خطبني رسول الله ﷺ على

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٦.

(٢) صحيح البخاري ١-٤٥٤.

مولاه أســامة بــن زيد، وكنت قد حدثت أن رســول الله ﷺ قال: مــن أحبني فليحب أسامة.

فلما كلمني رسول الله ﷺ قلت: أمري بيدك فأنكحني من شئت.

فقال: انتقلي إلى أم شريك، وأم شريك امرأة غنية من الأنصار، عظيمة النفقة في ســبيل الله، ينزل عليها الضيفان. فقلت: سأفعل. فقال: لا تفعلي، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان، فإني أكره أن يســقط عنك خمارك، أو ينكشــف الثوب عن ســاقيك، فيــرى القوم منك بعض مــا تكرهين، ولكن انتقلي إلى ابن عمك عبدالله ابن عمرو بن أم مكتوم.

فانتقلــت إليه فلما انقضت عدتي ســمعت نداء المنادي، منادي رســول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة!

فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله ﷺ فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رســول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك. فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه. ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟

قالــوا: الله ورســوله أعلم. قال: إنــي والله ما جمعتكم لرغبــة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مســيح الدجال. حدثني أنه ركب في ســفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقالوا: ويلك ما أنت؟

فقالت: أنا الجساســة. قالوا: وما الجساســة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق.

قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة، فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنســان رأيناه قط خلقاً وأشــده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه مــا بين ركبتيــه إلى كعبيه بالحديد. قلنا: ويلك ما أنت؟ قــال: قد قدرتم على خبري، فأخبرونــي ما أنتــم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في ســفينة بحرية، فصادفنا

البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها. فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة.

فقال: أخبروني عن نخل بيسان؟ قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر.

قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب.

قال: أخبروني عن عين زغر؟ قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها.

قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتَله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.

قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني: إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج، فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما. كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته[1] في المنبر: هذه طيبة، هذه طيبة. يعني المدينة. ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟

فقال الناس: نعم، فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه، وعن المدينة ومكة، ألا أنه في بحر الشام، أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو. وأومأ بيده إلى المشرق.

---

(١) بعصاه.

قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ»[1]

وقد حث النبي ﷺ أصحابه وأمته على الاستعاذة من هذا اليهودي الدجال، بل كان يستعيذ منه كل صلاة، حيث تقول عائشة زوج النبي ﷺ: « إن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم. فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم.

فقال: إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف»[2]

إذاً فالدجال مأسور في تلك الجزيرة، أما ابن صياد فهو شخص آخر يحاول استغلال الشبه بينه وبين الدجال، لإخافة من حوله وبث الرعب فيهم، محاولاً إشباع غروره، مع أنه من المحتمل أن يكون بينه وبين الدجال صلة ما، لكن ما هي؟ الله أعلم..

تبين ذلك في حوار جرى بين ابن صياد وأبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهما في سفر متجهين نحو مكة، حيث بث ابن صياد شكواه وبعض أسراره لأبي سعيد، وبث فيها مرارة كذبه وانتحاله لتلك الشخصية، ونتائج تلك الأشياء التي ارتكبها من أجل لفت الأنظار إليه.

قال أبو سعيد: «أقلنا في جيش من المدينة قبل هذا المشرق، فكان في الجيش عبد الله بن صياد، وكان لا يسايره أحد ولا يرافقه ولا يؤاكله ولا يشاربه، ويسمونه الدجال. فبينا أنا ذات يوم نازل في منزل لي إذ رآني عبد الله بن صياد جالساً، فجاء حتى جلس إلي، فقال: يا أبا سعيد.. ألا ترى إلى ما يصنع الناس.. لا يسايرني أحد، ولا يرافقني أحد، ولا يشاربني أحد، ولا يؤاكلني أحد، ويدعوني الدجال؟ وقد علمت أنت يا أبا سعيد أن رسول الله ﷺ قال: إن الدجال لا يدخل المدينة، وأني ولدت بالمدينة!

وقد سمعت رسول الله ﷺ: يقول إن الدجال لا يولد له. وقد ولد لي. فوالله لقد هممت مما يصنع بي هؤلاء الناس أن آخذ حبلاً، فأخلو فأجعله في عنقي، فأختنق

(١) صحيح مسلم ٤-٢٢٦٣.
(٢) صحيح البخاري ١-٢٨٦.

فأستريح من هؤلاء الناس، والله ما أنا بالدجال. ولكن والله لو شئت لأخبرتك باسمه، واسم أبيه، واسم أمه، واسم القرية التي يخرج منها»[١]

تلـك هي قصة ابن صيـاد الدجال. لكن ذلك الدجال المنتظـر، ليس هو الدجال الوحيد الذي سيظهر في أمة محمد عليه الصلاة والسلام. لقد حذر عليه السلام من ثلاثين دجالاً سيظهرون قبله، لكنه أشدهم خطراً على هذه الأمة، أما أسرعهم ظهوراً فكانا كذابين.. أحدهم وصل الآن ضمن:

وفد اليمامة

لبيعـة النبي ﷺ، وكان يدعى مسـيلمة. وقد رأى عليه السـلام رؤيا قصها على أصحابـه «قال رسـول الله ﷺ: بينا أنا نائـم أتيت خزائـن الأرض، فوضع في يدي إسوارين من ذهب، فكبرا علي وأهماني، فأوحى إلي: أن انفخهما.

فنفختهما فذهبـا، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»[٢]

ولما وصل وفد اليمامة «قدم مسـيلمة الكذاب على عهد رسـول الله ﷺ، فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته.

وقدمها في بشـر كثير من قومه، فأقبل إليه رسـول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه. فقال: لو سـألتني هذه القطعة مـا أعطيتكها، ولن تعدو أمر اللـه فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني.

ثم انصرف عنه.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: إنك أرى الذي أريت فيه ما رأيت، فأخبرني أبو هريرة أن رسـول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سـوارين من

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٧٩ ثنا محمد بن جعفر ثنا عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد أبو نضرة تابعي ثقة وعوف بن أبي جميلة وغندر ثقتان: التقريب٥٤٦ و٤٣٣ و٤٧٢

(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٨١.

ذهب، فأهمني شأنهما فأوحي إلي في المنام: أن انفخهما. فنفختهما فطارا. فأولتهما كذابين يخرجان بعدي. أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة»[1] الكذاب الذي يعود خائباً محتقناً من الغيظ إلى بلاده، بعد أن حوله النبي ﷺ إلى حاوية للسخرية بين الوفود، هذا الأفاك الذي لا يعي ما يخرج من رأسه.. يريد أن يكون نبياً!!

يريد كما يريد تلاميذه من بعده أن يستبدلوا شريعة الله بثرثرتهم وتخاريفهم.. إنهم لا يقدمون بدائل صناعية، أو زراعية، أو حتى عسكرية.. فيها من الإبداع ما يقد يشفع لهم، لكنهم أعجز من ذلك. إنهم لا يملكون سوى الوهم فقط.. لا أكثر.

لذلك رفض النبي ﷺ تقديم أي تنازل لأستاذهم مسيلمة، حتى ولو كان مجرد قطعة من جريد النخل، لا تنفع ولا تضر، ولا تقدم ولا تؤخر. أما:

كذاب اليمن الأسود العنسي

فقد كان يضمر في نفسه الخروج على النبي ﷺ في أقرب فرصة، أما الآن فهو لا يستطيع الجهر بما في نفسه.. خوفاً من علي بن أبي طالب الأسد الهصور.. القادم من المدينة إلى اليمن، ولم يكن الأسود وحده الذي سيدعي النبوة، فقد قال أحد الصحابة: «أكثر الناس في مسيلمة قبل أن يقول رسول الله ﷺ فيه شيئاً، فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: أما بعد ففي شأن هذا الدجال الذي قد أكثرتم فيه، وإنه كذاب من ثلاثين كذاباً يخرجون بين يدي المسيح»[2]

أولهم مسيلمة الذي عاد إلى دياره، ثم أفرز ما كان محتقناً به من أكاذيب، وأعلن أنه نبي جديد لهذه الأمة، ولم يكتف بذلك، بلغت به الوقاحة أن يبعث إلى النبي ﷺ برسولين يخبرانه بما فعل.

يقول الصحابي نعيم بن مسعود: «سمعت رسول الله ﷺ يقول حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه، ورسول الله ﷺ يقول لهما: وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩٠.

(٢) سنده صحيح رواه معمر بن راشد في الجامع ١١-٣٩٢ عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن طلحة بن عبيد الله بن عوف عن أبي بكرة قال وهذا السند صحيح. الزهري وشيخه طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري تابعيان ثقتان تهذيب التهذيب ٥-١٨.

قالا: نعم، فقال رسول الله ﷺ، لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»[1] فاحترام الرسل مبدأ إسلامي رفيع.. زاد من رصيد الاحترام للدولة الإسلامية وقائدها، إلا أن الجاهلية أعمت الكثيرين عن رؤية الحقيقة، هذا أحدهم يعترف بذلك:

أبو رجاء العطاردي يعترف

يقول رضي الله عنه: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه، ثم طفنا به، فإذا دخل شهر رجب قلنا: منصل الأسنة. فلا ندع رمحاً فيه حديدة، ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب....

كنت يوم بعث النبي ﷺ غلاماً أرعى الإبل على أهلي، فلما سمعنا بخروجه فررنا إلى النار، إلى مسيلمة الكذاب)[2]

وإذا كان مسيلمة قد تميز بالوقاحة والكذب، فإن الحقيقة التي جاء بها الإسلام كفيلة بإحراقه وإحراق من صدقه، واحداً واحداً.. الحقيقة التي لا يصمد أمامها أي منتحل، أو معاند لها.

وكان من بين الوفود القادمة رجل من النصارى.. يدعى (عدي بن حاتم الطائي) هذا الرجل الذي هرب من بلاده خوفاً من جيش الإسلام، وتوجه نحو الشام.. نحو الكنائس، لكن تلك الكنائس زادته غربةً، فعاد إلى رشده، وطرح على نفسه أسئلة.. تغنيه عن الهرب لو طرحها في وقت أبكر.

أسئلة محرجة أخجلته، خاصة وهو ابن رمز الكرم العربي في الجاهلية.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٥٤: حدثني سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه قال.. وسعد بن طارق تابعي ثقة من رجال مسلم (أبو مالك الأشجعي) تابعي ثقة، انظر التقريب ١-٢٨٧ وشيخه صحابي.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٩١.

قدوم عدي بن حاتم

دعونا نستمع إلى عدي وهو يقص حكايته، وحكاية هروبه وعودته للحق، فيقول: «بعث رسول الله ﷺ حيث بعث، فكرهته أشد ما كرهت شيئاً قط، فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض مما يلي الروم، فقلت: لو أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذباً لم يخف علي، وإن كان صادقاً اتبعته.

فأقبلت، فلما قدمت المدينة استشرف لي الناس، وقالوا: جاء عدي بن حاتم.. جاء عدي بن حاتم. فقال النبي ﷺ لي: يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم. قلت: إن لي ديناً. قال: أنا أعلم بدينك منك.. أنا أعلم بدينك منك... مرتين أو ثلاثاً. ألست ترأس قومك؟ قلت: بلى. قال: ألست تأكل المرباع[(١)]؟ قلت: بلى.

قال: فإن ذلك لا يحل لك في دينك.

قال عدي: فتضعضعتُ[(٢)] لذلك، ثم قال: يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم، فإني قد أظن أنه ما يمنعك أن تسلم خصاصة تراها من حولي، وتوشك الظعينة أن ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز، وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل منه ماله صدقة.[(٣)]

قال عدي بن حاتم: فقد رأيت الظعينة ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وكنتُ في أول خيل أغارت على المدائن، على كنوز كسرى بن هرمز، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة. إنه لقول رسول الله ﷺ لي»[(٤)]

هكذا حولت الحقيقة هذا الرجل النصراني المتشائم.. المغتصب حق غيره إلى ثقة بالله ورسوله، فبعد أن كان مزيجاً من الشكوك والتساؤل المحير.. أصبح يحلف ثقة،

---

(١) أي أنه كان يغتصب من قومه ربع أرباحهم وغنائمهم دون حق.

(٢) ضعفت.

(٣) أي إن الرجل لا يجد من يأخذ الصدقة منه.

(٤) سنده قوي رواه الحاكم ٤-٥٦٤ من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين وابن أبي شيبة ٧-٣٤٢ من جرير بن حازم عن محمد بن سيرين ابن حبان ١٥-٧١ من طريق أيوب عن محمد عن أبي عبيدة بن حذيفة سمعه من عدي. أبو حذيفة ثقة روى عنه محمد بن سيرين ويوسف بن ميمون وخالد بن أبي أمية الكوفي وحصين بن عبد الرحمن السلمي وغيرهم. تهذيب التهذيب ١٢-١٧٧ ووثقه العجلي توثيقاً لفظياً فقال في: معرفة الثقات ٢-٤١٣ أبو عبيدة بن حذيفة كوفي تابعي ثقة وابن سيرين غني عن التعريف.

ويتحــرك ثقــة، ويعد من حوله ثقة، فإذا لم يثق بالحقيقــة المحمدية فبم تكون ثقته؟! لاســيما وقد اعتنق النصرانية كخلاص مــن الوثنية، ولم يرثها عن والديه وراثة، فمن الصعوبــة التخلص من الموروث، حتى ولو كان غير مقنــع، ولعل في هذا الوفد القادم من نجران:

وفد نصارى نجران

دليل على صعوبــة التخلص من الموروث، حيث جاءوا من بلادهم بعد أن وصلتهم بعوث الإســلام، وأخبار انتصاراته. وكانوا في بلادهم يحاولون إحراج هؤلاء المسلمين بالتنقيــب عن أي خطأ في تعاليم هذا الدين الجديــد، وقد حدث هذا مع الصحابي الداهية المغيرة بن شــعبة، الذي كل دهاؤه عن إجابة تســاؤلهم، فقال رضي الله عنه: «لما قدمت نجران ســألوني فقالوا: إنكم تقرؤون (يا أخت هارون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟

فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[1]

ولعل تلك التساؤلات خلقت لدى هؤلاء شعوراً بالتفوق والجرأة، فبحثوا عن مزيد من الإحــراج، فأحبوا أن يفجروه علــى أرض المدينة معقل الإســلام وعاصمته، وقد تصــدى لهذا رجــلان من رجال الدين، حيــث إن الدين النصراني يقســم الناس إلى طبقتين لا وجود لهما في الدين الإسلامي إطلاقاً.. هاتان الطبقتان هما: طبقة رجال الدين، وطبقة أخرى لبقية الرجال.

أما النساء فلا دور لهن ولا طبقات.

وكان اســم رجلي الدين هذين: (العاقب) و(الســيد) وقد بلغــت بهما الجرأة أن يطالبا النبي ﷺ بالملاعنة على الحقيقة، والملاعنة هي (المباهلة) وهي أن يدعو كل من الخصمين على نفسه باللعنة إن كان كاذباً في دعواه.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٦٨٥.

كانت نتيجة المباهلة اكتشـاف هذه الأمـة لأمينها، في قصة يرويها لنا حذيفة بن اليمان أمين سر النبي ﷺ الذي يقول: «جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول اللـه ﷺ، يريدان أن يلاعنـاه. فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعـل، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معناً إلا أميناً.

فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشـرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة»[1] الذي فاز بلقب كما فاز غيره بألقاب، أما نصارى نجران فعادوا مثقلين بالشك والجزية والهزيمة.. الهزيمة التي لحقت بكل من أعمى قلبه عن رؤية الشمس التي يحملها ﷺ خارج المدينة وداخلها.

أما داخـل المدينة فأقدام الوفود تطحن في ذهابها وإيابها رجلاً كالحجارة عناداً وحسداً، وأيديهم المبايعة الممتدة تخنق أنفاسه.. عبد الله بن أبي بن سلول يتجرع اليوم سموماً كثيرة، ويتلقى طعنات لا تعد ولا تحصى.. لم يصنعها أحد له.. هو الذي صنعها بحقده وعناده، وهو من يطعن ويخنق نفسه بها.

عبد الله بن سلول مريض

ويبدو من تقاسيمه وهزاله أنه راحل عن هذه الدنيا، ورغم كل ما فعله وما خطط له، وما جرى منه ضد النبي ﷺ، وضد المسلمين ودولتهم.. رغم ذلك كله ينهض النبي ﷺ لزيارته، عله يجد في قلبه مكاناً لله ولرسـوله. عبد الله بن أبي بن سـلول تاريخ أسود من التآمر والخيانة والنفاق، ومع ذلك فلا يأس في حياة الداعية. اسـتأذن النبي ﷺ في الدخول عليه، ولما دخل عرف فيه الموت. «دخل رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي يعوده في مرضه الذي مات فيه، فلما عرف فيه الموت، قال رسول الله ﷺ: أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود.

فقال: أبغضهم أسعد بن زرارة فمه»[2] أي فماذا أفاد أسعد بن زرارة كرهه لليهود، حيث مات أسعد في أول أيام الهجرة.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩٢.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٣-١٨٤ حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد. الزهري تابعي ثقة رأس طبقته وعروة تابعي كبير وإمام ثقة معروف.

هذه الإجابة تكشــف عن ضيــق أفق هذا المنافق، ونظرتــه المحدودة بين جدران الدنيا فقط، فالنبي ﷺ لم يكن يعني أن حب اليهود هو الذي يجلب لك الموت، فاليهود قد غادروا غير مأســوف عليهم، بل كان يعني أننـــي كنت أنهاك عن موالاتهم، التي لا تفيدك في مثل هذه الســاعة التي تكون فيها أحوج ما تكون لله ولرســوله، وللحقيقة - الإسلام، لكنه الحسد والحقد الذي يتفنن في إحراق أصحابه.

كان ابن سلول مغروراً متكبراً حتى في أيام احتضاره.. لم يقل للنبي عليه السلام أي كلمــة تشــير إلى أســفه وندمه أو توبتــه، ولكن بعد أن خرج النبــي ﷺ من عنده استدعى ابنه، وطلب منه أمراً غريباً.

ابن سلول يطلب ثوب النبي ﷺ

فبعد خروجه عليه الســلام اســتدعى عبد الله بن سلول ابنه، وقال له: «أي بني، اطلب ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ، فكفني فيه ومره فليُصلّ عليّ»[1]

ويبدو أن الابن شــعر بالإحراج، أو نسي ذلك حتى وضع أبوه في قبره، فتوجه نحو النبي ﷺ: «فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه واستغفر له»[2]

يقــول جابر بن عبد الله: «أتى النبــي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما دفن، فأخرجه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه»[3]

وعندما أراد ﷺ الصلاة على ابن أبي سلول وقف عمر بن الخطاب في وجهه، بل جذبه من ثوبه معترضاً على الصلاة عليه.

شاهد عبد الله بن عمر ما حدث فقال: «إن عبد الله بن أبي لما توفي جاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه، واستغفر له.

---

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ١١-٤٣٨ والأوسط ٦-١٦ من طرق عن بشر بن السري قال نا رباح بن أبي معروف المكي عن سالم بن عجلان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن ابن عبد الله بن أبي قال له أبوه: سعيد بن جبير من أئمة التابعين الثقات وسالم بن عجلان الأفطس ثقة من رجال البخاري: التقريب ١-٢٨١ ورباح حسن الحديث من رجال مسلم ١-٢٤٢ وبشر بن السري ثقة متقن: التقريب ١-٩٩.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ١-٤٢٧.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ١-٤٢٧.

فأعطـاه النبي ﷺ قميصه، فقال: آذني أصلي عليـه فآذنه. فلما أراد أن يصلي عليـه جذبه عمر رضي الله عنه فقال: أليس نهاك أن تصلي على المنافقين. فقال: أنا بين خيرتين.. قال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. فصلى عليه.. فنزلت ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾»[1] والآية التي نهت عـن الصلاة المنافقين بعد اليوم هي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2].

شـاهد جابر ما حدث فقال مفسراً ما حدث حول قميص النبي ﷺ: «لما كان يوم بدر أتى بأسارى وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه»[3] مكافأة له.

هذه هي وجهة نظر جابر رضي الله عنه، فربما لم تبلغه قصة طلب ابن أبي سلول.

لكن هناك سـؤالاً يطرح نفسـه على الصحابة هو: أنهم سـيتمكنون من معرفة المنافقين بعدم صلاة النبي ﷺ عليهم عند وفاتهم، لكن كيف سـيعرفون المنافقين بعد وفاة النبي ﷺ؟

لم يغب ذلك عن النبي ﷺ، فقد قام ﷺ باستدعاء أحد الصحابة ليقدم له:

قائمة بأسماء المنافقين

يقـول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كنت آخذاً بخطام ناقة رسـول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة، أو أنا أسوقه وعمار يقوده، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا أنا باثني عشـر راكباً قد اعترضوه فيها، فانبهت رسـول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم، فولوا مدبرين. فقال لنا رسـول الله ﷺ: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسـول الله، قد كانوا متلثمين، ولكنا قد عرفنا الركاب.

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٢٧.

(٢) سورة التوبة: ٨٤.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٩٥.

قـــال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟ قلنا لا. قال: أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة، فيلقوه منها. قلنا: يا رسول الله، أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟

قـــال: لا، أكره أن تتحدث العرب بينها، أن محمداً قاتل بقوم، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم.

ثم قال: اللهم أرمهم بالدبيلة»[1]

ولما ســئل عمار حول قيام النبي ﷺ بتقديم توصية خاصة له قال: (ما عهد إلينا رســـول الله ﷺ شـــيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، ولكن حذيفة أخبرني عن النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة)[2] وهي دمل أو خراج يسبب الموت.

وبذلك التحديد لأســماء هؤلاء المنافقين تم عزلهــم وإقصاء رواياتهم وأخبارهم، بـــل لقد تحولوا إلى رمـــاد تذروه رياح التاريخ، بعد أن نجح الشــيطان في إنزالهم من مقاعدهـــم الرفيعـــة، التي منحهم إياها الإســـلام، فرضوا بالدرك الأســـفل من النار التي يقـــول الله تعالى عنهـــا: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا

---

(١) حديث صحيح رواه البيهقي في دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة: تفســير ابن كثير ٢-٣٧٣ ولم يصرح ابن إســحاق بالســماع وله شاهد عند أحمد ٥-٤٥٣ حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل وهو ســند ثلاثي حســن وشاهد عن عروة مرسلاً.

(٢) صحيح مسلم ٤- ٢١٤٣.

﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[1].

وهناك من تـاب من المنافقين قبل هؤلاء، بعد أن زالت عنهم العصبية، وتبين لهم خواء ابن سلول وخواء أفكاره. لكن تلك الأسماء التي تلقاها حذيفة ظلت على عنادها حتى انتزعها الموت كما انتزع ابن سلول، والذي برحيله انكسرت شوكة النفاق والخيانة والتآمر. أما النبي ﷺ وأصحابه فيتمنون لو آمن ابن سلول ومن معه، فرسالته في هذه الدنيـا موجهة إلى بقع الظلام وبؤره، لملئهـا بنور التوحيد.. طهرت المدينة من قيادات اليهـود والمنافقين المشـركين، ومرت الأيام فعاد الموت مـرة أخرى إلى بيت النبي ﷺ، وكأنه يزاحم كل خبر سار يبتهج به النبي عليه السلام..

ذات يوم ألم المرض بإبراهيم بن محمد ﷺ، ثم انتزعه الموت فكانت دموع النبي ﷺ وحزنه تسيل لـ:

موت إبراهيم عليه السلام

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه عن حياة إبراهيم وموته: «قال رسول الله ﷺ: ولد لي الليلة غلام، فسـميته باسـم أبي إبراهيم، ثم دفعه إلى (أم سـيف) امرأة قين يقال له (أبو سـيف) فانطلق يأتيه واتبعته، فانتهينا إلى أبي سـيف وهو ينفخ بكيره.. قد امتلأ البيت دخاناً، فأسـرعت المشي بين يدي رسـول الله ﷺ فقلت: يا أبا سيف أمسك، جاء رسول الله ﷺ.

فأمسك فدعا النبي ﷺ بالصبي، فضمه إليه وقال ما شاء الله أن يقول.

فقـال أنس: لقد رأيته وهو يكيد بنفسـه بين يدي رسـول الله ﷺ، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فقال: تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا

---

(١) النساء: ١٣٨-١٤٦.

إبراهيم إنا بك لمحزونون»[1] وقد أثارت تلك الدموع وذلك الحزن التساؤل لدى بعض الصحابة حيث «قال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟

فقال: يابن عوف، إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[2]

وفي هذا اليوم نفسه الذي توفي فيه إبراهيم عليه السلام نظر الناس إلى السماء فوجدوا أن:

الشمس قد كسفت يوم موت إبراهيم

وكان هناك اعتقاد سائد في الجاهلية، أن كسوف الشمس لا يكون إلا لموت إنسان عظيم، أو لمولد عظيم. فما موقف النبي ﷺ من هذا الاعتقاد الجاهلي.. لاسيما وقد صادف يوم رحيل ابنه الحبيب (إبراهيم)؟

يقول «المغيرة بن شعبة: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم.

فقال رسول الله ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله»[3] ثم أمر الناس بالاجتماع في المسجد حيث يقول «عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لما كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ نودي: إن الصلاة جامعة»[4] ويقول أبو بكر: «كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس، فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس، فقال ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم»[5]

كانت صلاة الكسوف ركعتين لكن كيف كانت:

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٧.

(٢) صحيح البخاري ١-٤٣٩.

(٣) صحيح البخاري ١-٣٥٤.

(٤) صحيح البخاري ١-٣٥٤.

(٥) صحيح البخاري ١-٣٥٣.

صفة صلاة الكسوف

هي ركعتان لكن باختلاف بسيط عن الركعات المعتادة، فالصلاة العادية المكونة من ركعتين كالفجر والجمعة.. تكون الركعة الواحدة فيها عبارة عن: قراءة الفاتحة وبعض القرآن، ثم الركوع، ثم الرفع من الركوع، ثم السجود، ثم الرفع من السجود، والجلوس، ثم السجود مرة ثانية.

هذا باختصار ما تتكون منه الركعة الواحدة: أي ركوع واحد وسجدتان.

أما في صلاة الكسوف فتتكون كل ركعة من ركوعين وسجودين، أي أن المصلي يقوم فيقرأ الفاتحة وبعض القرآن، ثم يركع، ثم يرفع من الركوع ثم يقرأ الفاتحة وما تيسر من القرآن، ثم يركع ثانية، ثم يرفع من الركوع، ثم يسجد، ثم يرفع من السجود ويجلس، ثم يسجد ثانية. ثم يقوم ليفعل مثل ذلك في الركعة الثانية.

أي أن عدد الركوعات يساوي عدد السجودات.

تقول عائشة رضي الله عنها: «خسفت الشمس في حياة النبي ﷺ، فخرج إلى المسجد فصف الناس وراءه، فكبر فاقترأ رسول الله ﷺ قراءة طويلة، ثم كبر فركع ركوعاً طويلاً، ثم قال سمع الله لمن حمده، فقام ولم يسجد، وقرأ قراءة طويلة هي أدنى من القراءة الأولى، ثم كبر وركع ركوعاً طويلاً، وهو أدنى من الركوع الأول، ثم قال: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد. ثم سجد. ثم قال في الركعة الأخيرة مثل ذلك. فاستكمل أربع ركعات في أربع سجدات، وانجلت الشمس قبل أن ينصرف، ثم قام فأثنى على الله بما هو أهله. ثم قال: هما آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة»[1]

فهذه الآية تذكر الإنسان الغافل في خضم الحياة، وسعير المادة والركض خلفها.. تذكره عندما يغفل، ويتبلد إحساسه تجاه موقعه من خالقه وفضله عليه. ففي تلك الصلاة إيقاظ لما نام من مشاعره. وفي تلك الصلاة أيضاً قام النبي ﷺ بحركة غريبة ليست من الصلاة، فسأله الصحابة عنها وذلك بعد أن «قال ﷺ: إن الشمس والقمر

---

(١) صحيح البخاري ١-٣٥٥.

آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله. قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك كعكعت؟

قال ﷺ: إني رأيت الجنة، فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء. قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن.

قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»[1]

ووصفه هذا لا يعني النساء جميعاً، بل يعني إن نسبتهن تفوق نسبة الرجال، نظراً لصفة الجحود التي تتميز بها هذه النسبة من النساء تجاه أفضال الغير عليها، حتى أن هذه النوعية من النساء وفي لحظة عتاب أو غضب يسيرة.. تنسف كل أفضال الآخرين خاصة الزوج، دون مبرر، بل دون أن يكون هناك داع لذكر تلك الأفضال والتطرق لها. وكأن النبي ﷺ يحذر من هذه الصفة التي تقترب من صفة المنافق، الذي إذا خاصم فجر.

في هذه الأثناء كانت أسماء ذات النطاقين في طريقها نحو بيت أختها عائشة، وتحكي ذلك فتقول رضي الله عنها: «أتيت عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يصلون، وإذا هي قائمة تصلي فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها إلى السماء وقالت: سبحان الله. فقلت: آية؟ فأشارت: أي نعم.

فقمت حتى تجلاني الغشي فجعلت أصب فوق رأسي الماء، فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار. ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور مثل أو قريباً من فتنة الدجال، يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن، أو الموقن فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا. فيقال له: نم صالحاً، فقد علمنا إن كنت لموقنا. وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[2] وتقول أسماء: «إن النبي ﷺ صلى صلاة الكسوف فقال:

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٥٧.

(٢) صحيح البخاري ١-٢٥٨.

دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم؟ فإذا امرأة تخدشها هرة قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعاً»[1] وكأن صلاة الكسوف هذه توقظ مشاعر المؤمنين على هذا الكون كله، حتى البهائم.. حتى البهائم تنعم بحياة طيبة إذا كانت في محيط يحكمه الإسلام، ويحكم أهله الإسلام. كان ذلك الكسوف آية ورحمة لعباد الله.

تقول ذات النطاقين: «أمر النبي ﷺ بالعتاقة في كسوف الشمس»[2] أي أمر أصحابه بإعتاق عبيدهم، وحثهم على ذلك فقال: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار»[3] وحتى ذلك الرقيق الذي يملكه أكثر من شخص دخل في ذلك. بل نظم النبي ﷺ عملية إعتاقه، فألزم الشركاء الآخرين بقبول العتق، مع حقهم في أخذ تعويض مالي من الشريك الذي أعتق نصيبه. يقول عليه السلام: «من أعتق عبداً بين اثنين، فإن كان موسراً قوم عليه ثم يعتق»[4]

دفن إبراهيم عليه السلام وانتهى الكسوف ومرت الأيام وجاء رمضان فكان:

رمضان العام العاشر مختلفاً

صام المسلمون شهر رمضان في أجواء نقية آمنة.. بسط الإسلام فيها سيطرته على كل جزيرة العرب، لكنه كان بالنسبة للنبي ﷺ مختلفاً فقد «كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام»[5] العاشر الذي نحن فيه الآن «اعتكف عشرين يوماً»[6]

ليس ذلك فحسب، بل كان جبريل عليه السلام يراجع معه كل ما نزل من القرآن «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي»[7] نحن فيه الآن.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٨٣٣.
(٢) صحيح البخاري ٢-٨٩٢.
(٣) صحيح البخاري ٦-٢٤٦٩.
(٤) صحيح البخاري ٢-٨٩٢.
(٥) صحيح البخاري ٢-٧١٩.
(٦) صحيح البخاري ٢-٧١٩.
(٧) صحيح البخاري ٤-١٩١١.

وانقضى رمضان، وجاء العيد فاحتفى به المسلمون واحتفلوا، وبعد أن احتفل المؤمنون بعيد الفطر، ودخل أول أشهر الحج (شوال) قرر النبي ﷺ القيام بأداء فريضة الحج.

قصة حجة النبي ﷺ

البداية كانت ترغيباً

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: « سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[١]

ويقول رضي الله عنه: «سمعت النبي ﷺ يقول: من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[٢]

ويقول أيضاً: « إن رسول الله ﷺ قال: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[٣]

ثم دعوة للحج

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا.

فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً.

فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[٤] لأن التشدد والتقعر ليس من

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٥٣.
(٢) صحيح البخاري ٢-٥٥٣.
(٣) صحيح البخاري ٢-٦٢٩.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٧٥.

الصفات التي تعود على صاحبها بخير، وكانت تلك الدعوة أمنية حملتها عائشة رضي الله عنها عندما قالت: «يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور. فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ»[1]

ونظراً لخطورة الوضع الأمني على المرأة، وتعرضها أكثر من الرجل للاستغلال الجسدي في الأسفار فقد «قال النبي ﷺ: لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم.

فقال رجل: يا رسول الله، إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا وامرأتي تريد الحج؟ فقال: اخرج معها»[2] وكأن هذا الحديث يعطي لمن يسافر مع زوجته لأداء الحج أجراً أكثر من أجره إذا سافر مع الجيش للجهاد. هذه العناية بالمرأة لا تعني كما يتصور البسطاء فرض حصار على المرأة، بقدر ما هو حمايتها في عالم يتسيد فيه الرجل من أقصاه إلى أقصاه.

لم تكن عائشة وحدها في شوق إلى الحج. هذه امرأة مؤمنة أرادت أن يحملها الحج إلى البر «امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت. أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها. أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء»[3]

وقد حدد النبي ﷺ لكل بلد من البلاد مكاناً يبدؤون منه حجهم، وسميت هذه الأماكن بـ

مواقيت الحج المكانية

فالحج لا يؤدى إلا في مواقيت زمانية هي: شهر شوال وشهر ذي القعدة، وشهر ذي الحجة.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٥٨.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦٥٨.
(٣) صحيح البخاري ٢-٦٥٦.

أمـا المواقيت المكانية فهي أماكن محددة.. يبدأ الحـاج والمعتمر منها، أو قبل أن يصلها حجـه وعمرته. وهي تحيط بمكة من جميع الجهـات، وتمثل نقاط مرور على الطرقات المؤدية إليها، فإذا وصلها الحاج أو المعتمر وجب عليه خلع ثياب معينة حددها النبي ﷺ:

ملابس لا تجوز في الإحرام

السـنة أن تكون مكونة من قطعتي قماش: إزار ورداء يلف إحداهما حول وسـطه لتغطي عورته وأسفل جسمه، فتكون له إزاراً.

وأما القطعة الأخرى فيديرها تحت إبطه الأيمن.. مغطياً بها كتفه الأيسر، وتسمى رداءً، وطريقة لف الرداء تحت الإبط الأيمن وفوق الكتف الأيسر تسمى (الاضطباع)

وليـس للإزار أوالـرداء ألوان، محددة لكـن النبي ﷺ قال: «البسـوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم»[1].

أما الملابس التي يحرم لبسها على الرجال فهي التي أخبر عنها النبي ﷺ عندما «قـام رجل فقال: يا رسـول الله، ماذا تأمرنا أن نلبس مـن الثياب في الإحرام؟ فقال النبي ﷺ: لا تلبسوا القميص ولا السراويلات، ولا العمائم، ولا البرانس[2]، إلا أن يكون أحد ليست له نعلان فليلبس الخفين، وليقطع أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا شيئاً مسه زعفران ولا الورس[3]»[4]

أمـا «من لم يكـن له إزار، فليلبس السـراويل، ومـن لم يكن له نعـلان فليلبس خفين»[5]

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٣-٤٢٩ وغيره من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وعبد الله بن خثيم صدوق من رجال مسـلم: التقريب ١-٤٣٢ وشـيخه من أئمة التابعين الثقات.

(٢) هي ثياب في أعلاها غطاء للرأس. كالثياب المغربية.

(٣) نبات أصفر ينبت في اليمن تزين المرأة به وجهها.

(٤) صحي البخاري ٢-٦٥٣.

(٥) صحيح البخاري ٥-٢١٩٩.

أما النســاء فليس لهــن ملابس معينة، لكــن لا يجوز للمرأة لبــس القفازين ولا النقاب إذا دخلت في الحج أو العمرة. فقد قال ﷺ: «لا تنقب المرأة المحرمة، ولا تلبس القفازين»[1]

وبعد أن يرتدي الحاج أو المعتمر ملابس الإحرام، ينوي البدء والدخول في العبادة التي ســافر من أجلها، ســواء كانت حجاً أو عمرة. والسنة أن يكون ذلك في المواقيت المكانية المحددة، فإذا دخل في الإحرام، وجب عليه الامتناع عن عدة أشياء كانت مباحة له قبل أن يحرم تسمى:

محظورات الإحرام

ومنهــا باختصار: الصيد في البر فقط لا في البحــر، لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2].

الخطبــة والــزواج والجمــاع، لقوله عليه الســلام «لا ينكح المحــرم ولا ينكح ولا يخطب»[3] وقوله تعالـــى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[4].

حلق الشعر، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[5]

أسماء المواقيت المكانية

«وقَّتَ رسول الله ﷺ: لأهل المدينة: ذا الحليفة[6]، ولأهل الشام: الجحفة[7]، ولأهل نجد: قرن المنازل[8] ولأهل اليمن: يلملم[9]» [10].

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٥٣.
(٢) المائدة: ٩٦.
(٣) صحيح مسلم ٢-١٠٣٠.
(٤) البقرة: ١٩٧.
(٥) البقرة: ١٩٦.
(٦) مكان يبعد ستة أميال أو أكثر من المدينة.
(٧) قرية قريبة من مدينة رابغ الآن.
(٨) مكان بين الطائف ومكة.
(٩) بينه وبين مكة ثلاثون ميلاً.
(١٠) صحيح مسلم ٢-٨٣٨.

إذاً لــكل جهة ميقات، لكن ماذا عن الحاج والمعتمر الذي يمر بميقات غير ميقات بلاده، وماذا عن الحاج والمعتمر الذي تكون بلاده أقرب إلى مكة من الميقات؟

يشير النبي ﷺ أن تلك المواقيت لمن مر عليهن كائناً من كان، فيقول: «هن لهن ولمن أتــى عليهن من غير أهلهن، ممن أراد الحج والعمرة، فمن كان دونهن فمن أهله وكذا، فكذلك حتى أهل مكة يهلون منها»[1]

أي أن مــن كان بيته أقرب إلى مكة من الميقات.. يحرم من بيته حتى أن أهل مكة يحرمون من بيوتهم. هذه بعض المعلومات التي تلقاها الصحابة قبل تحركهم إلى مكة، وأثناء فترة الاستعداد للحج انتشر الخبر في أرجاء الجزيرة، فعادت معظم تلك الوفود، وقدمت إلى المدينة حشود عظيمة كلها رغبة في الحج والاقتداء بسنة النبي ﷺ.

جابر يتحدث عن تلك الأيام البهيجة فيقول: «إن رســول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه»[2]

متى غادروا المدينة.

وماذا فعل النبي ﷺ قبل مغادرته؟

لقد لبد عليه الســلام شــعره بالصمغ أو غيره من مثبتات الشعر، حتى لا يتطاير ويدخله الغبار، وقد قامت عائشة رضي الله عنه بتطييبه حيث تقول: «كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه، ثم يصبح محرماً ينضخ طيبا»[3] ثم سار أميالا حتى:

توقف في واد يقال له وادي العقيق

حيــث جاءه الوحي في ذلك الوادي، وأمره بســنة يقول عنها عمر رضي الله عنه «ســمعت النبي ﷺ بوادي العقيق يقول: أتاني الليلــة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك. وقل: عمرة في حجة»[4]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٣٨.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٨٦.
(٣) صحيح البخاري ١-١٠٤.
(٤) صحيح البخاري ٢-٥٥٦.

ما معنى عمرة في حجة

قبل ذلك كان النبي ﷺ منطلقاً قاصداً الحج فقط.

تقول «عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ أفرد الحج»[1] أي نوى الحج فقط، لكن جبريل أتاه في واد العقيق، وأمره أن يقرن العمرة بالحج، ويجعلهما معاً في سفرته هذه.

ومعنى القران هو: أن يؤدي العمرة، فإذا انتهى منها بقي على إحرامه حتى ينتهي من الحج دون فاصل بينهما.

أما المفرد فهو: الذي ذهب لأداء الحج فقط دون عمرة.

إذاً لا يوجد حتى الآن إلا طريقتان، أو نسكان للحج هما: القِران و الإفراد.

سار عليه السلام قاصداً (ذا الحليفة) وهو ميقات المدينة

الوصول إلى الميقات

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «انطلق النبي ﷺ من المدينة بعد ما ترجل وادهن، ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه، فلم ينه عن شيء من الأردية والأزر تلبس إلا المزعفرة، التي تردع على الجلد، فأصبح بذي الحليفة [صلى الظهر بذي الحليفة، ثم دعا ببدنته، أو أتى ببدنته، فاشعر صفحة سنامها الأيمن، ثم سلت الدم عنها، وقلدها بنعلين ثم أتى راحلته، فلما قعد عليها واستوت به على البيداء أهل بالحج] ركب راحلته حتى استوى على البيداء أهل هو وأصحابه[2]، وقلد بدنته[3] وذلك لخمس بقين من ذي القعدة»[4] أي قبل نهاية شهر ذي القعدة بخمسة أيام.

---

(١) صحيح مسلم ٢ - ٨٧٥ .

(٢) أي لبى ومعنى اشعر أي جرح سنامها تمييزاً لها عن بقية الإبل.

(٣) أي علق على رقبتها شيئاً يميزها وقد علق نعلين عليها.

(٤) صحيح البخاري ٢-٥٦٠ والزيادة سندها صحيح رواها أحمد ١-٢٥٤ وغيره من طريق شعبة قال قتادة سمعت أبا حسان يحدث عن ابن عباس أن النبي ﷺ. فأبو حسان الأعرج ثقة وليس كما قال الحافظ في التقريب: صدوق. انظر التهذيب.

«فأهل بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وأهــل الناس بهذا الذي يهلون به [والناس يزيــدون: ذا المعارج ونحوه من الكلام، والنبي ﷺ يســمع فلا يقول لهم شــيئاً] فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه، ولزم رســول اللــه ﷺ تلبيته. قال جابر رضي الله عنه: لســنا ننوي إلا الحج لســنا نعرف العمرة»[1]

إذا فالصحابــة كانوا لأول مرة يســمعون بعمرة في وقت الحــج، وكانوا لأول مرة يسمعون بشيء اسمه:

الاشتراط

أي ماذا عن حاج تعرض لمشكلة ما وهو في طريقه للحج، وهذه المشكلة أعاقته عن الوصول إلى مكة، أو أعاقته أثناء أداء الحج فلم يتمكن من المواصلة؟

في هذه الحالة عليه أن يذبح هدياً من الغنم أو البقر أو الإبل: لأن الله ســبحانه يقول: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ لكن هنا يأتي الاشتراط مخرجــاً من هذه الأزمــة، وكان مبعث هذا الفرج ابنة عمــه (الزبير بن عبد المطلب) تتحدث عنها عائشــة رضي الله عنها فتقول: «دخل رســول الله ﷺ على ضباعة بنت الزبير فقال لها: لعلك أردت الحج؟ قالت والله لا أجدني إلا وجعة.

فقال لها: حجي واشــترطي، قولــي: اللهم محلي حيث حبســتني»[2] أي أنها إذا تعرضــت لمانع ما بعد تلك الكلمات، فإن إحرامها ينتهي مباشــرة، وتصبح في حل من إحرامها دون ذبح فدي.

امتثلت ضباعة ورددت كلمات الاشتراط، لكن هناك امرأة أخرى كانت فرحا آخر للنســاء رغم معاناتها الشديدة، إنها زوجة جعفر بن أبي طالب سابقاً، وزوجة أبي بكر الصديق حالياً، المؤمنة المهاجرة (أســماء بنت عميس) رضي الله عنها. وجابر بن عبد

---

(١) حديث جابر في صحيح مسلم والزيادة عند البيهقي ٥-٤٥ وغيره من الطريق نفسه.

(٢) صحيح البخاري ٥ - ١٩٥٧.

الله يقص علينا معاناتها، والتشريع الذي نزل في النساء بسببها فيقول: «أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس (محمدَ بن أبي بكر)، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: اغتسلي، واستثفري بثوب وأحرمي»[1] أي أن النفاس والولادة لا تمنعان الحج ولا العمرة، وكل ما عليها هو أن تنتبه لنظافتها والدم الخارج منها، عن طريق الاستثفار، أي القيام بما تقوم به المرأة من احتياطات، ثم تواصل رحلتها وحجها وعمرتها.

ثم يكمل جابر قائلا: «فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك. ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به»[2]

كان ما حوله عليه السلام سيلا بشريا جميلا وهادرا ومؤثراً، سال هذا الجمع حتى بلغ مكاناً يبعد من المدينة ستاً وثلاثين ميلاً يقال له:

الروحاء حيث الذكريات والوعود والتشريع

أما الذكريات، ففي ذلك الوادي زُفت أم المؤمنين صفية إلى النبي ﷺ بعد عودته من غزوة خيبر.

يقول أنس إن صفية: «اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سد الروحاء حلت، فبنى بها، ثم صنع حيساً في نطع صغير، ثم قال رسول الله ﷺ: آذن من حولك. فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ على صفية»[3].

أما الوعود، فيقول عليه السلام: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجاً أو معتمراً»[4]

وأما التشريع، فيقول ابن عباس إن النبي ﷺ «لقي ركباً بالروحاء فقال: مَنِ القومُ؟ قالوا: المسلمون. فقالوا: من أنت؟

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٨٧.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٨٧.
(٣) صحيح البخاري ٢-٧٧٨.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩١٥.

قال: رسول الله، فرفعت إليه امرأة صبياً.. فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر»[1]

لكن يلزم هذا الصبي أن يحج إذا بلغ لأنه الآن غير مكلف، فقد قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المعتوه حتى يعقل»[2]

وواصل عليه السلام سفره وهو يلبي مضطبعاً وتلبيته هي: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[3].

لكن ماذا عن مستوى الصوت أثناء التلبية؟

يقول ﷺ «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أو من معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية أو بالإهلال»[4]

كان سيلاً بشرياً متدفقاً هادراً كالرعد.. يغسل السماء والأرض من بقايا الخرافة والوثنية. يا الله.. رجل كان قبل عشر سنوات يفر مع رفيقه من مكة طريداً شريداً.. باحثاً عن مأوى! واليوم يعود إلى مكة بالمهاجرين والأنصار، وبالجزيرة العربية كلها. مشهد يتمنى المرء لو تمتع به ولو للحظات.. كان بعض الصحابة قد أحضر معه هدياً من الإبل، ليذبحه لله في الحج، فتحرج من ركوبها، واكتفى بالسير على قدميه، فرآه النبي ﷺ.. «فقال: اركبها. قال: إنها بدنة! قال: اركبها. قال: إنها بدنة.

قال: اركبها ويلك»[5] «اركبها بالمعروف حتى تجد ظهراً»[6].. ركب الصحابي دابته، وجاء صحابي آخر يسأل عن:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٧٤.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٠١ ثنا حسن بن موسى وعفان وروح قالوا ثنا حماد بن سلمة عن حماد عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة عن النبي ﷺ وله شواهد كثيرة.

(٣) صحيح البخاري ٢ - ٥٦١.

(٤) سنده صحيح رواه مالك ١-٣٣٤ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن عبد الملك بن أبي بكر بن الحارث بن هشام عن خلاد بن السائب الأنصاري مرفوعاً. خلاد وتلميذه وعبد الله تابعيون ثقات التقريب: ١٩٦ و٣٦٢ و٢٩٧.

(٥) صحيح البخاري ٥-٢٢٨٠.

(٦) صحيح مسلم ٢ - ٩٦١.

حكم الهدي إذا جرح أو أصيب

وذلك بعد تقليده وإشعاره.. الصحابي الذي قدم سؤاله هو (ناجية الخزاعي) وكان مسؤولاً عن شؤون الهدي الذي ساقه النبي ﷺ معه «ناجية الخزاعي صاحبُ بُدْنِ رسول الله ﷺ قال: قلت يا رسول الله كيف أصنع بما عطب من البدن؟

قال: انحرها، ثم اغمس نعلها في دمها، ثم خل بين الناس وبينها فيأكلوها»[1]

لكن لا يأكل منها هو أو أحد رفاقه. لأن ابن عباس يقول: «إن ذؤيباً (أبا قبيصة) حدثه أن رسول الله ﷺ كان يبعث معه بالبدن، ثم يقول: إن عطب منها شيء، فخشيت عليه موتاً، فانحرها ثم اغمس نعلها في دمها، ثم أضرب به صفحتها، ولا تطعمها أنت ولا أحد من أهل رفقتك»[2]

اقترب السيل البشري من مكة وكان:

تاريخ الوصول إلى مكة

بالتحديد هو ما ذكره ابن عباس أن النبي ﷺ: «قدم مكة لأربع ليال خلون من ذي الحجة» [3] أي في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة، فيكون قد بقي على وقوف الحجاج بعرفة خمسة أيام. وهنا نزل حكم جديد فيه رحمة بهذه الجموع الغفيرة.

تقول عائشة رضي الله عنها «فلما دنونا من مكة أمر رسول الله ﷺ من لم يكن معه هدي، إذا طاف وسعى بين الصفا والمروة أن يحل»[4] أي عليه بعد أن ينتهي من العمرة أن يخلع لباس الإحرام. مما يعني نزول الوحي بنسك ثالث من أنساك الحج هو:

التمتع

أي أن من لم يحضر معه هدياً من البقر أو الغنم أو الإبل، فله أن يكمل عمرته، ثم يتحلل من إحرامه، أي يتمتع بكل ما كان نهي عن فعله من الأشياء الجائزة قبل أن

---

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٣-٢٥٣ وغيره من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية الخزاعي وهو سند صحيح مشهور من أصح الأسانيد.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٦٠.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦١١.

يحرم. كالطيب ولبس القميص وغيرها، ويخلع لباس إحرامه حتى يأتي اليوم الثامن من ذي الحجة، وهو الذي سماه النبي ﷺ (يوم التروية).

وقد أثار هذا الأمر تساؤل بعض الصحابة، لأن النبي ﷺ أمر به ولم يفعله هو؟ فكانت الإجابة عند جابر الذي يروى عن النبي ﷺ قوله: «أحلوا من إحرامكم بطواف البيت وبين الصفا والمروة، وقصروا، ثم أقيموا حلالاً حتى إذا كان يوم التروية فأهلوا بالحج، واجعلوا التي قدمتم بها متعة.

فقالوا: كيف نجعلها متعة وقد سمينا الحج؟ فقال: افعلوا ما أمرتكم، فلولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم. ولكن لا يحل مني حرام حتى يبلغ الهدي محله. ففعلوا»[1] أي أن النبي أمرهم بذلك لأنهم لم يحضرو الهدي مثله، أما من أحضر هديه معه مثل النبي ﷺ، فعليه أن ينتهي من عمرته، ويتحلل من إحرامه، ويتمتع حتى يأتي اليوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)

ولعل في إدخال العمرة في أشهر الحج ضربة موجعة لبقايا الشرك، الذي تسلل إلى الحج قبل الإسلام، حيث كان العرب قبل الإسلام «يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض»[2] هذا عن الرجال فـ:

ماذا عن النساء في دورتهن

لم تغب النساء يوما عن الوحي والتشريع.. كن ملء السمع والبصر بالنسبة لمحمد عليه السلام. جاء موعد الدورة الشهرية لأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، فأصيبت بالخوف من فوات الحج والعمرة، فقالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فأهللنا بعمرة، ثم قال رسول الله ﷺ: من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً، فقدمت معه مكة وأنا حائض، ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشكوت إلى رسول الله ﷺ فقال: انقضي رأسك وامتشطي وأهلي بالحج، ودعي العمرة ففعلت»[3]

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٦٧ عن ابن عباس.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٩٦.

اتضحت الصورة تماماً ونحن على أبواب مكة، حيث توقف النبي ﷺ عن التلبية وبات في مكان يسمى بـ: ذي طوى، ودخل مكة صبحاً لكنه قام بـ:

الاغتسال قبل دخول مكة

حيث «كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا دخل أدنى الحرم أمسك عن التلبية، ثم يبيت بذي طوى، ثم يصلي به الصبح ويغتسل، ويحدث أن نبي الله ﷺ كان يفعله»[١]

من أي مكان دخل مكة وفي أي وقت

يقول «ابن عمر رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ دخل مكة من كداء، من الثنية العليا التي بالبطحاء، ويخرج من الثنية السفلى»[٢] وهو ما تؤكده عائشة رضي الله عنها بقولها: « إن النبي ﷺ لما جاء إلى مكة دخلها من أعلاها وخرج من أسفلها»[٣]

توجه عليه السلام نحو بيت الله الحرام، فـ:

ما هو أول شيء فعله

كان «أول شيء بدأ به حين قدم مكة أنه توضأ»[٤] أي أنه «توضأ ثم طاف»[٥] لأن «الطواف صلاة»[٦] ولذلك لم يجز لعائشة أن تطوف بالكعبة لأنها حائض.

تقول رضي الله عنها «دخل علي النبي ﷺ وأنا أبكي، فقال: ما يبكيك؟ قلت: لوددت والله أني لم أحج العام.

قال: لعلك نفست؟ قلت: نعم.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٠.
(٢) صحيح البخاري ٢-٥٧١.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩١٨.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٠٦.
(٥) صحيح البخاري ٢-٥٨٤.
(٦) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٤٩٥ عن ابن جريج أخبرني الحسن بن مسلم عن طاووس عن رجل قد أدرك النبي ﷺ أن النبي ﷺ: ابن جريج لم يدلس والحسن وطاووس من التابعين الثقات. التقريب ١٦٤ و٢٨١ وله شاهد عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً.

قال: فإن ذلك شيء كتبه الله على بنات آدم، فافعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري»[1] أي أنها تمارس كل مناسك الحج إلا الطواف حول الكعبة.

بعد ذلك توجه ﷺ نحو الكعبة، وبالتحديد نحو الحجر الأسود، حيث يقول جابر رضي الله عنه متحدثاً عن:

الطواف

« إن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى الحجر فاستلمه، ثم مشى على يمينه فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً »[2] أي جعل الكعبة والحجر عن يساره، ثم يبدأ بالطواف حول الكعبة سبعة أشواط.. يرمل في أول ثلاثة أشواط، أي يسير سيراً بين الركض والمشي، ثم يمشي مشياً عادياً في بقية الأشواط، وكان في طوافه لا يستلم من الكعبة إلا الحجر الأسود والركن اليماني.

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: « إن رسول الله ﷺ كان لا يستلم إلا الحجر والركن اليماني»[3] والاستلام يكون باليد، كما أن النبي ﷺ يقوم بتقبيل الحجر الأسود فقط، لكنه لا يقبل الركن اليماني. ولذلك توجه عمر نحو الحجر الأسود ممتلئاً بالتوحيد والإخلاص لله، وخاطبه بلغة المتبع للوحي لا المبتدع.. بلغه حفظها لنا الصحابي عبد الله بن سرجس رضي الله عنه فقال «رأيت الأصلع يعني عمر بن الخطاب يقبل الحجر ويقول: والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك»[4]

أما ابنه عبد الله بن عمر فكان «يستلم الحجر بيده، ثم قبل يده وقال: ما تركته منذ رأيت رسول الله ﷺ يفعله»[5]

إذاً فلدينا حتى الآن ثلاث سنن حول الحجر الأسود هي:

---

(١) صحيح البخاري ١-١١٧.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٤.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٢٥.
(٥) صحيح مسلم ٢-٩٢٤.

تقبيل الحجر مباشرة، الاستلام باليد ثم تقبيل اليد، الاستلام باليد فقط.

هذا هو الطواف.. لكن:

هل هناك أدعية مخصوصة أثناء الطواف

الطواف عبادة، والعبادة في الإسلام لا بد أن تكون وحياً نقياً فقط، وإلا فقدت كونها عبادة، لأنها لا تستند إلى دليل. والصحابة لم ينقلوا لنا عن النبي ﷺ حديثاً صحيحاً يجعل للطواف أذكاراً خاصة به، لذا فالأمر متسع لكل الأذكار، من قراءة القرآن، إلى الدعاء إلى التسبيح والتهليل، بل وحتى الصمت. أما الكلام في الطواف فجائز إذا كان قليلاً، لقوله عليه السلام: «إنما الطواف صلاة فإذا طفتم فأقلوا الكلام»[1]

طاف النبي ﷺ سبعة أشواط فماذا فعل:

بعد الطواف

بعد أن انتهى توجه عليه السلام مباشرة نحو مكان يقع أمام باب الكعبة والحجر بمسافة قصيرة، يسمى (مقام إبراهيم) ثم صلى خلفه ركعتين. رآه جابر يفعل ذلك فقال: «ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت»[2] و«كان يقرأ في الركعتين (قل هو الله أحد) و(قل يا أيها الكافرون) ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج»[3] نحو جبل الصفا، وبذلك انتهى من الطواف تماماً ليبدأ في

السعي بين الصفا والمروة

أي المشي بين جبلي الصفا والمروة. حيث قال عليه السلام بعدما «خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾: أبدأ بما بدأ

---

(١) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٤٩٥ وقد تم تخريجه قبل أربعة أحاديث ولم أجد سنداً صحيحاً لذكر معين بين الركنين.

(٢) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٣) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

اللــه به، فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت، فاســتقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شــريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم دعا بين ذلك.

قــال مثل هــذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتــى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى»[1] أي ركض ركضاً عندما نزل بطن الوادي، وقد رأته إحدى الصحابيات فقالت: «أبصرت النبي ﷺ وهو يســعى بين الصفا والمروة، يقول: لا يقطع الأبطح إلا شداً»[2]وقد أشير لبطن الوادي بعلامتين بعد ذلك.

وقد ســعى النبي ﷺ سبعة أشواط.. مقدار كل شوط هو مقدار ما بين الجبلين، من الصفا إلى المروة شــوط، ومن المروة إلى الصفا شــوط. وبذلك تكون نهاية الشوط السابع والأخير عند المروة، وتنتهي العمرة بعد إكمال الشوط السابع.

ولما أكمل النبي ﷺ وصحابته شوط السعي السابع.. ذكرهم بما قاله من قبل، وهو أن من لم يحضر معه غنماً أو إبلاً أو بقراً فعليه أن يقصر شعره، ويخلع لباس إحرامه، ويتمتع بكل المباحات حتى يأتي اليوم الثامن من هذا الشهر (ذي الحجة).

نحــن الآن في اليــوم الرابع وقد «كان آخر طوافه على المــروة، فقال ﷺ: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة[3]، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة. فقام ســراقة بن مالك بن جعشــم فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشــبك رســول الله ﷺ أصابعــه واحدة في الأخرى وقال: دخلت العمرة في الحج.. دخلت العمرة في الحج، لا بل لأبد أبد»[4]

---

(١) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٢) ســنده صحيح رواه أحمد ٦-٤٠٤ وغيره من طريق هشــام الدستوائي عن بديل بن ميسرة عن صفية بنت شــيبة عن أم ولد شــيبة وهشــام وبديل ثقتان وصفية صحابية وقال العجلي: تابعية ثقة. معرفة الثقات ٢-٤٥٤.

(٣) أي لو كنت أعرف المستقبل قبل حدوثه لما أحضرت الهدي معي، ولتمتعت بالعمرة.

(٤) حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٨.

قـال جابر: «لم يكن بيننا وبين عرفة إلا خمس»[1] «فقام النبي ﷺ فينا فقال: قد علمتم أني أتقاكم لله، وأصدقكم وأبركم، ولولا هديي لحللت كما تحلون، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، فحلوا.

فحللنا وسـمعنا وأطعنا»[2] فحلوا وخلعوا ثيـاب إحرامهم، وتطيبوا وفعلوا ما كان محظوراً عليهم أثناء الإحرام.

نفـذ الصحابة ما طلب منهم، وبقي النبـي ﷺ على إحرامه هو والصحابة الذين ساقوا الهدي معهم، ثم توجه ﷺ لـ:

السكن في الحجون

مـكان في أعلى مكـة، وهو ذلك المـكان الذي خاطب فيه النبـي ﷺ الجن قبل الهجـرة.. إذاً فهـو قد «نزل بأعلى مكـة عند الحجون، وهو مهـل بالحج، ولم يقرب الكعبـة بعد طوافه»[3] وكانت «فاطمة رضي الله عنها ممن حل، ولبسـت ثياباً صبيغاً واكتحلت»[4]

وقد استغربت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها تصرف النبي ﷺ وتصرف بعض صحابته.. يقول أخوها «ابن عمر عن حفصة رضي الله عنهم زوج النبي ﷺ إنها قالت: يا رسـول الله، ما شأن الناس حلوا بعمرة، ولم تحلل أنت من عمرتك؟ قال: إني لبدت رأسي، وقلدت هديي، فلا أحل حتى أنحر»[5]

أي حتى يذبح الهدي الذي أحضره معه.

أثناء ذلك وبينما كان النبي ﷺ في الحجون شاهد الصحابة:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٨٣.

(٢) صحيح مسلم ٢-٨٨٣.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٦٠.

(٤) حديث جابر عند مسلم.

(٥) صحيح البخاري ٢-٥٦٨.

حيث كانا قد علما بتحركه عليه السـلام لأداء الحـج فلحقا به، وكان لكل واحد منهمـا حالة تختلف عن الآخـر، فقد «قدم علي من اليمن ببـدن النبي ﷺ[١]، فوجد فاطمـة رضي الله عنها ممن حل ولبسـت ثياباً صبيغاً واكتحلـت، فأنكر ذلك عليها. فقالت: إن أبي أمرني بهذا.

فكان علي يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً[٢] على فاطمة للذي صنعت، مسـتفتياً لرسـول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها؟ فقـال: صدقت.. صدقت. ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت: اللهم إني أهلّ بما أهلّ به رسولك. قال: فإن معي الهدي، فلا تحل.

فكان جماعة الهدي[٣] الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة. فحـل الناس كلهم وقصروا، إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي»[٤] يقول جابر رضي الله عنـه: «لـم يكن مع أحد منا هدي غيـر النبي ﷺ وطلحة، وجاء علـي من اليمن معه الهدي، فقال أهللت بما أهل به رسول الله ﷺ»[٥]

أمـا أبو موسـى فيقول رضي الله عنه: «كان رسـول الله ﷺ بعثـي إلى اليمن، فوافقته في العام الذي حج فيه، فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا موسى كيف قلت حين أحرمت؟ قلت: لبيك إهلالاً كإهلال النبي ﷺ. فقال: هل سقت هدياً؟ فقلت: لا.

قال: فانطلق فطف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم أحل»[٦] «ففعلت حتى مشطت لي امرأة من نساء بني قيس»[٧]

وبذلـك بقي علي بن أبي طالب في إحرامه، لأنه سـاق الحيوانات (الهدي) معه، وخلع أبو موسى إحرامه بعد العمرة لأنه لم يحضر معه هدياً، أي أن علياً أصبح قارناً،

---

(١) البدن هي ما يهدى للحرم من الإبل والبقر.
(٢) أي يريد من النبي ﷺ أن يعاتبها.
(٣) أي مجموع الإبل والبقر التي أحضرها علي وأحضرها النبي عليه السلام.
(٤) حديث جابر الصحيح عند مسلم.
(٥) صحيح البخاري ٦-٢٦٤٢.
(٦) صحيح مسلم ٢-٨٩٦.
(٧) صحيح البخاري ٤-١٥٧٩.

أما أبو موسى فصار متمتعاً مثل جابر الذي يقول: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج معنا النساء والولدان فلما قدمنا مكة طفنا بالبيت وبالصفا والمروة فقال لنا رسول الله ﷺ: من لم يكن معه هدي فليحلل قلنا: أي الحل؟ قال: الحل كله. قال: فأتينا النساء ولبسنا الثياب ومسسنا الطيب»[1]

واستمر الوضع على هذه الحال حتى:

جاء اليوم الثامن من ذي الحجة

وهو المسمى بـ (يوم التروية) وهو بداية أيام الحج.

يقول جابر: إنه لما «كان يوم التروية أهلوا بالحج»[2] حيث غادر النبي ﷺ الحجون متجهاً بالجموع نحو (منى) لقضاء يوم التروية كاملاً فيها «فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى، فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر»[3]. كان يوماً جميلاً حافلاً بذكر الله، لكنه كان يوماً حزيناً بالنسبة لعائشة التي يتحدث جابر بن عبد الله عن بكائها ذلك اليوم فيقول: «أهللنا يوم التروية، ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها فوجدها تبكي. فقال: ما شأنك؟

قالت: شأني أني قد حضت، وقد حل الناس، ولم أحلل، ولم أطف بالبيت، والناس يذهبون إلى الحج الآن.

فقال: إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم، فاغتسلي ثم أهلي بالحج. ففعلت»[4] عائشة ما أمرت به، ودخلت في الحج يوم التروية، حيث يسن أن يقضي الحجاج ذلك اليوم في منى. وليس هناك أذكار مخصوصة أو أفعال مخصوصة في ذلك اليوم، سوى التزود بالطاعات، ومحاولة ضبط النفس عن الانفعال في تلك الأيام التي يشتد فيها الزحام، وأحياناً العطش والتعب. فالحج جهاد ومجاهدة للانفعالات وردود الأفعال البشرية غير المحمودة.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٨٢.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٦٢.

(٣) صحيح مسلم ٢-٨٨٩.

(٤) صحيح مسلم ٢-٨٨١.

وجاء اليوم التاسع (يوم عرفة)

فبعد أن صلى النبي ﷺ وأصحابه فجر ذلك اليوم في منى.. أمر بعض صحابته ببناء خيمة صغيرة في مكان في عرفة يسمى (نمرة)، ثم تحرك هو وأصحابه نحو عرفة وكان الصحابة بين:

التكبير والتلبية يوم عرفة

فقد سأل رجل أنس بن مالك: عن الذكر في الطريق «من منى إلى عرفة: كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ؟

فقال: كان يهل منا المهل، فلا ينكر عليه، ويكبر منا المكبر، فلا ينكر عليه»

توقف ﷺ عند تلك الخيمة، وبقي تحتها حتى مالت الشمس من فوق الرؤوس نحو الغروب، وهو وقت صلاة الظهر، أو ما يسمى بالزوال. يقول جابر: «إن النبي ﷺ صلى الفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز[1] رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها»[2] حيث خطب الناس هناك، وكانت:

الخطبة يوم عرفة

قصيرة ومختصرة، رغم أن الخطيب كان أبلغ الناس، وأعلم الناس، وأكثرهم تأثيراً، وأنه لا ينطق عن الهوى.. ورغم أن الناس لن يملوا حديثه، إلا أنه سن سنته لمن بعده أن يقصروا الخطبة.

يقول جابر «حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي، فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

---

(١) أي تحرك ولم يتوقف كما توقعوا.

(٢) حديث جابر عند مسلم ٢-٨٩٠.

ألا كل شـــيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع[1]، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا، دم بن ربيعة بن الحارث، كان مســترضعاً في بين ســعد فقتلته هذيل.

وربــا الجاهليـــة موضوع، وأول ربــاً أضع ربانا، ربا عباس بن عبــد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا الله في النســاء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني[2] فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت،

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس:

اللهم اشهد، اللهم اشهد. ثلاث مرات»[3]

صلاة الظهر والعصر في عرفة

«ثــم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شــيئاً»[4] ثم تحرك لـ:

الوقوف عند جبل عرفة

«ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص»[5]. وقبل أن نغادر عرفة نود أن نعرف:

---

(١) أي باطل ساقط لا قيمة له.

(٢) ستسألون عني يوم القيامة أو في القبر.

(٣) حديث جابر عند مسلم.

(٤) حديث جابر عند مسلم.

(٥) حديث جابر عند مسلم.

أي الأماكن من عرفة يجوز الوقوف بها

يقول عليه السلام: «وقفت ههنا وعرفة كلها موقف»[١] أما عن:

فضل يوم عرفة

فتقول عائشة: «إن رسول الله ﷺ قال: ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟»[٢]. وقد قدم أناس من أهل نجد يوم عرفة متوجهين بسؤال عن الحج.. ذلك السؤال الذي حملت إجابته:

أهمية الوقوف بعرفة بالنسبة للحجاج

يقول الصحابي: عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات، فأقبل أناس من أهل نجد فسألوه عن الحج؟ فقال: الحج يوم عرفة. من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج»[٣] أي أن من لم يقف بعرفة قبل طلوع الفجر من هذه الليلة، فقد فاته الحج، ومن وقف بعرفة ولو ساعة من نهار أو ليل، فقد أدرك الحج.

وبعد أن غابت الشمس ركب عليه السلام ناقته لـ:

مغادرة عرفة نحو مزدلفة

ولمزدلفة اسم آخر هو: (جمع) يقول جابر رضي الله عنه «وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة.. السكينة.

كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة»[٤] ولما سئل أسامة بن زيد رضي الله عنه عن طريقة سير النبي ﷺ نحو مزدلفة: «كيف كان

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٨٢.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٥-١٥٢ وغيره من طرق عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن ابن يعمر الديلي وبكير بن عطاء الليثي تابعي ثقة من رجال التقريب ١-١٠٨.

(٤) حديث جابر.

رسول الله ﷺ يسير في حجة الوداع حين دفع؟ قال: كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص»[1] أي كان يسير ببطء في المكان الضيق، حتى لا يتضايق من وراءه من الزحام، فإذا وجد طريقاً فسيحاً انطلق.

ويقول: «ابن عباس رضي الله عنهما: أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً، وضرباً، وصوتاً للإبل. فأشار بسوطه إليهم وقال: أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع»[2] أي ليس البر أن ترغموا الرواحل على السرعة.

استمر الحال على ذلك حتى توقف النبي ﷺ في الطريق، وعن ذلك التوقف يقول رديف النبي ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنه: «دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال، ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله.

فقال: الصلاة أمامك. فركب، فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت العشاء فصلى ولم يصل بينهما»[3]

في تلك الأثناء وصل رجل من جبل طي.. أنهكه التعب، وأنهك راحلته، حيث كان يقوم بعمل غريب ومرهق جداً، رغبة في إدراك الحج. كان لا يمر بجبل من جبال مكة إلا وقف عليه، حتى انتهى إلى النبي ﷺ وهو في مزدلفة.. عندها طرح أسئلته التي بينت:

أهمية الوقوف بمزدلفة

كان اسم ذلك الصحابي: «عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام الطائي، قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة، فقلت: يا رسول الله جئت من جبلي طيء، والله ما جئت حتى أتعبت نفسي، وأنضيت راحلتي، وما تركت جبلاً إلا وقفت عليه؟

فقال رسول الله ﷺ: من شهد معنا هذه الصلاة، وقد كان وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه، وقضى تفثه»[4]

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٠٠.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦٠١.
(٣) صحيح البخاري ١-٦٥.
(٤) سنده صحيح رواه الحميدي ٢-٤٠٠ وغيره من طرق عن الشعبي قال سمعت عروة بن مضرس والشعبي تابعي إمام ثقة معروف.

إذاً فالنبي عليه السلام «وقف بالمزدلفة وقال: وقفت هاهنا والمزدلفة كلها موقف»[1]

ثم نادى النبي ﷺ ابن عباس ومن معه من الصغار والنساء الضعفة، وأمرهم أن يتوجهوا من الليل نحو منى ليرموا الجمرات، وذلك لشدة الزحام المتوقعة غداً، ولكنه نبههم إلى عدم رمي الجمرات قبل طلوع الشمس.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا ممن قدم رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة في ضعفة أهله»[2] وقال أيضاً: «كان رسول الله ﷺ يقدم ضعفاء أهله بغلس ويأمرهم، يعني لا يرمون الجمرة حتى تطلع الشمس»[3]

في تلك الليلة لم يقم النبي ﷺ، ولم يتهجد حيث «اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة»[4] ثم نهض قبل أن يسفر الجو لـ:

التوجه نحو المشعر الحرام

والمشعر الحرام عبارة عن جبل في منطقة مزدلفة. يقول جابر: «ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً»[5] وعن موقفه في مزدلفة يقول عليه السلام: «وقفت ههنا وجمع كلها موقف»[6] وبعد أن أسفر الجو توجه عائداً:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٢٧١ وغيره من طرق عن جعفر ثنا أبي قال أتينا جابر ابن عبد الله وهذا هو سند مسلم.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود ٢-١٩٤ حدثنا أحمد بن حنبل ثنا سفيان أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد أنه سمع ابن عباس... وعبيد الله تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٥٤٠.

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود ٢-١٩٤ والنسائي في الكبرى ٢-٤٣٧ وغيرهما من طرق عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عباس لولا عنعنة حبيب وله شاهد عند ابن ماجه ٢-١٠٠٧ من طريق الحسن العرني عن ابن عباس وفيه إرسال وعند ابن أبي شيبة ٣-٢٣٤ وغيره من طريق المسعودي وهو ضعيف عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس.

(٤) حديث جابر عند مسلم.

(٥) حديث جابر عند مسلم.

(٦) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

إلى منى لرمي جمرة العقبة

يقول جابر رضي الله عنه: «فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل ابن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر حتى»[١]

مر بطريقه بوادي محسر

وهو الوادي الذي أهلك الله فيه أصحاب الفيل، ولذلك أسرع بالسير حتى تجاوز الوادي وهو مستمر في التلبية..

يقول جابر رضي الله عنه أنه عليه السلام «أتى بطن محسر فحرك قليلاً، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى»[٢] وصل إلى منى.

عندها توقف لالتقاط الحصى. لكن ما حجم الحصى، وهل يزيد الأجر كلما كبر حجم الحصاة؟ الإجابة بالعكس.. يرويها لنا ابن عباس الذي أوصاه النبي ﷺ بالتقاط الحصى وحدد له:

حجم الحصى

قال ابن عباس: «قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو واقف على راحلته: هات القط لي. فلقطت له حصيات، وهي حصا الخذف[٣] فلما وضعتهن في يده قال: نعم، بأمثال هؤلاء فارموا.. بأمثال هؤلاء فارموا.. بأمثال هؤلاء فارموا. وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[٤] ومن الغلو في الدين الرمي بأحجار كبيرة، أو بالأحذية، أو أي شيء غير حصى الخذف الصغير.

---

(١) حديث جابر عند مسلم.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع لسان العرب ٩-٤٠.

(٤) سنده صحيح رواه ابن حبان - موارد الظمآن ١-٢٤٩ وأبو يعلى ٤-٣١٦ وغيرهما من طرق عن عوف الأعرابي عن زياد بن حصين حدثني أبو العالية حدثني ابن عباس. أبو العالية رفيع بن مهران تابعي ثقة وتلميذه ثقة التقريب ٢١٠ و٢١٩وعوف ثقة التقريب ٤٣٣.

أخبر النبي ﷺ أصحابه بسنته ثم «أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادي»[1]

كان عليه السلام يكبر فقط، يعني يقول: الله أكبر لا يزيد ولا ينقص عليها شيء، وهذا معناه أنه:

توقف عن التلبية عند الرمي

كما يقول رديفه الفضل بن عباس رضي الله عنهما: «إن النبي ﷺ لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة»[2] وهذا معناه أنه ترك التلبية عند بدء الرمي مباشرة، لأنه انشغل بالتكبير أثناء الرمي، «فرمى الجمرة بسبع حصيات، وجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه»[3] وقد كان عليه السلام يرمي جمرة العقبة راكباً، ويقدم لأمته صورة من صور التلاحم، والتواضع، والسكينة، وضبط النفس، في شدة الزحام التي تحتاج إلى هذا المستوى الرفيع من التعامل والأخلاق والقيادة.

عظمة هذا النبي يوم الرمي

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم «رأيت رسول الله ﷺ يوم النحر على ناقته صهباء، لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك»[4] أي أن الناس لا يُضربون ولا يُدفعون أثناء مروره، بل لا يقال لهم: أفسحوا الطريق، أو ابتعدوا كي يمر.. كان جزءاً من أمته.. يسبح في مشاعرها، وتسبح في مشاعره.. يمتع ناظريه بهم ويمتعون أنظارهم به.

صحابية أخرى تدعى: أم الحصين «تقول حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيته حين رمى جمرة العقبة، وانصرف وهو على راحلته، ومعه بلال وأسامة أحدهما يقود به راحلته، والآخر رافع ثوبه على رأس رسول الله ﷺ من الشمس. فقال رسول

---

(١) حديث جابر عند مسلم.
(٢) صحيح مسلم ٢-٩٣١.
(٣) صحيح مسلم ٢ - ٩٤٣.
(٤) سنده قوي رواه ابن خزيمة ٤-٢٧٨ والترمذي ٣-٢٤٧ وغيرهم عن أيمن بن نابل أخبرني قدامة بن عبد الله. أيمن تابعي حسن الحديث من رجال البخاري. التقريب ١١٧.

الله ﷺ قولاً كثيراً ثم سـمعته يقول: إن أمر عليكم عبد مجدع أسـود، يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا»[1]

ويقـول جابر رضي الله عنه: «رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول لتأخذوا مناسـككم فإنـي لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هـذه»[2]. ثم تحرك عليه السلام متوجهاً

نحو المذبح

لينحر هديه بيده، ولذلك سـمي هذا اليوم بـ (يوم النحر)، ولما وصل عليه السلام قام بذبح ثلاث وسـتين منها، بيده ثم تـرك لعلي رضي الله عنه الباقي ليذبحه. يقول جابر رضي الله عنه: «ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده»[3] ثم بين لهم:

سنته في نحر الإبل

يقـول ابن عمر رضي الله عنه عن هدي النبي ﷺ في نحر هديه من الإبل: «كان هو ينحر هديه بيده، يصفهن قياماً، ويوجههن إلى القبلة، ثم يأكل، ويطعم»[4]

ولذلك لما شاهد ابن عمر رجلاً ينحر إبله وقد أناخها على الأرض، قال له: «ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ»[5] أما:

سنته في ذبح الغنم

فقـد بينها عليه السـلام قبل ذلـك في المدينة، حيث يقول أنـس رضي الله عنه «ضحى النبي ﷺ بكبشـين أملحين، فرأيته واضعاً قدمه على صفاحهما يسمي ويكبر فذبحهما بيده»[6] أي وضع قدمه على جنبها و«يقول باسم الله، والله أكبر»[7]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٤.
(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٣.
(٣) حديث جابر عند مسلم.
(٤) سنده صحيح رواه مالك ١-٣٧٩ عن نافع عن عبد الله بن عمر وهذا سند كالذهب.
(٥) صحيح البخاري ٢-٦١٢.
(٦) صحيح البخاري ٥-٢١١٣.
(٧) صحيح مسلم ٣-١٥٥٧.

وقال رجل لـ «ابن عباس رضي الله عنهما: قوله عز وجل: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ قال: إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها، ثم قل: الله أكبر الله أكبر، منك ولك، ثم سم، ثم انحرها.

قلت: وأقول ذلك في الأضحية؟ قال: والأضحية»[1] «ثم أمر ﷺ من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها»[2] ثم بين لأصحابه:

السماحة في مكان الذبح

فقال: «نحرت ههنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم»[3] أي اذبحوا في أماكن إقامتكم في منى، دون التكلف للذهاب إلى المذبح.

أما عن الاشتراك في البقر أو الإبل فيقول جابر: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر، كل سبعة منا في بدنة»[4] «فنحرنا البعير عن سبعة، والبقرة عن سبعة»[5]، ثم أرشدهم ﷺ إلى:

التيسير في أمر لحوم الهدي

فبعد أن كانوا لا يأكلون لحوم الهدي إلا لمدة ثلاثة أيام، هي أيام منى، سمح لهم بالأكل. بل بالتزود من ذلك اللحم، وأخذه معهم إلى ديارهم، وخلال أسفارهم.

يقول جابر: «كنا لا نمسك لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نتزود منها ونأكل منها، يعني فوق ثلاث»[6] ويجوز لمن شاء أن يأخذ من ذلك اللحم ما شاء إذا أذن صاحبه، فقد قال أحد الصحابة الذين حضروا النبي ﷺ وهو يذبح

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم ٢-٤٢٢ وغيره عن الأعمش ومنصور وغيرهما عن أبي ظبيان عن ابن عباس. وأبو ظبيان تابعي كبير وثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-١٨٢.

(٢) حديث جابر: عند مسلم.

(٣) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٥٥.

(٥) صحيح مسلم ٢-٩٥٥.

(٦) صحيح مسلم ٣-١٥٦٢.

واسـمه: «عبد الله بن قرط، قال: قال رسـول الله ﷺ: إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم (القر) وهو الذي يليه.

فقدمنا إلى رسـول الله ﷺ بدنات خمس، أو سـت فطفقن يزدلفن[1] إليه بأيتهن يبدأ، فلما وجبت جنوبهم تكلم بكلمة خفية لم أفهمها. فقلت للذي يليني: ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: من شـاء اقتطع»[2] وقد كان ذلك السـلوك الكريم من النبي ﷺ تأثراً بقولـه تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[3]

وأرسل النبي ﷺ إلى زوجاته بلحم بقر كان قد ذبحه عنهن.

تقول عائشـة رضي الله عنها: «دخل علينا يوم النحـر بلحم بقر فقلت: ما هذا؟ قال: نحر رسول الله ﷺ عن أزواجه»[4] لكن

ماذا عن الذي لا يستطيع النحر؟

لفقره مثلاً؟

الحجاج أربعة أنواع:

حاج من أهل مكة، فلا يجب الذبح عليه.

حاج مفرد نوى الحج فقط، فليس عليه أن يذبح.

وحاج قارن أحضر معه هديه وانتهى أمره.

---

(١) معجزة للنبي ﷺ وهي أن هذه الحيوانات يسرن نحوه.

(٢) سـنده صحيح رواه البيهقي ٧-٢٨٨ وغيره عن ثور بن يزيد عن راشـد بن سعد عن عبد الله بن لحي عن عبد الله بن قرط. وعبد الله مخضرم ثقة: التقريب ٣١٨ وتلميذه راشد بن سعد تابعي ثقة: التقريب ٢٠٤ وثور بن يزيد ثقة ثبت: التقريب ١٣٥.

(٣) الحج: ٣٧.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦١١.

والحاج الرابع: هو المتمتع وعليه ذبح هدي، فإذا عجز عن الذبح لظرف من الظروف فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده لأن الله سبحانه يقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾[1]. هذه الآيات التي تعلم بعض أحكام الحج توحي ببعض مكاسبه - ضبط النفس، والتحكم في الغرائز المتوثبة، والامتناع عن الانتصار لغرور الذات، والتفوق الواهم..

آيات تنثر على دروب الحج عطوراً، وتغمر أجواءه بنسيم بارد: حسن الخلق وحسن الجوار والإيثار. ومن الأشياء التي تقدم للحاج المساعدة في أداء ذلك السلوك الجميل.. التزود بالمال والمركب والأمتعة، التي تجعل الرحلة أكثر راحة، والرفقة أكثر متعة. فقد «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون. فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ﴾»[2]

إذاً فقد أرسل عليه السلام لنسائه اللحم ثم نادى حلاقه ليقوم بـ:

الحلق بعد النحر

فبعد أن «انصرف إلى البدن فنحرها، والحجام جالس وقال بيده عن رأسه، فحلق شقه الأيمن»[3] لقد «ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: احلق.

---

(١) البقرة: ١٩٦-١٩٧.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٥٤.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

فحلقه، فأعطاه أبا طلحة. فقال: أقسمه بين الناس» وقد كان بيت أنس بن مالك أسعد الناس بشعره ﷺ، فهو لم يعط أبا طلحة فقط، بل أعطى زوجته أم سليم، وهي أم أنس الذي يقول: «وزعه الشعرة، والشعرتين بين الناس»[١] «ثم أشار إلى الحلاق، وإلى الجانب الأيسر، فحلقه فأعطاه أم سليم»[٢]

ثم قال ﷺ: «اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟

قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟

قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟

قال: وللمقصرين»[٣]

أما النساء فقال ﷺ: «ليس على النساء حلق، إنما على النساء التقصير»[٤] ثم توجه ﷺ إلى عائشة لتطيبه، وهذا يعني أنه قد أبيح له الطيب وانتهى من الإحرام.

تقول رضي الله عنها: «طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أحرم، ولحله حين أحل، قبل أن يطوف وبسطت يديها»[٥] وتقول: «طيبت رسول الله ﷺ لحرمه حين أحرم، ولحله قبل أن يفيض بأطيب ما وجدت»[٦] ومعنى يفيض، أي يطوف بالبيت طوافاً آخر يسمى طواف الإفاضة. وبعد أن تطيب ﷺ:

خطب الناس يوم النحر

وخاطب فيهم إيمانهم بالله.. خاطب فيهم هذا الصفاء، وهذه الأخوة الرائعة.. آملاً أن تستمر دون منغصات. قال ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.
(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٦.
(٤) سنده صحيح رواه الدارمي ٢-٨٩ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد الحميد بن جبير عن صفية بنت شيبة أخبرتني أم عثمان بنت أبي سفيان عن بن عباس مرفوعاً.. وعبد الحميد تابعي ثقة: التقريب ٣٣٣ والبقية صحابة.
(٥) صحيح البخاري ٢-٦٢٤.
(٦) صحيح مسلم ٢-٨٤٧.

السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى.

قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى.

قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى.

قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه.

ثم قال: ألا هل بلغت.. ألا هل بلغت»[1]

وبعد أن انتهى عليه السلام من خطبته.. سأله بعض الصحابة عن أشياء كانت الإجابة عليها كلها واحدة هي:

لا حرج

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إنه شهد النبي ﷺ يخطب يوم النحر، فقام إليه رجل فقال: كنت أحسب أن كذا قبل كذا، ثم قام آخر فقال: كنت أحسب أن كذا قبل كذا»[2] لقد «وقف رسول الله ﷺ على راحلته، فطفق ناس يسألونه فيقول القائل منهم: يا رسول الله إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر، فنحرت قبل الرمي؟ قال رسول الله ﷺ: فارم ولا حرج. وطفق آخر يقول: إني لم أشعر أن النحر قبل الحلق، فحلقت قبل أن أنحر؟ فيقول: انحر ولا حرج.

---

(١) صحيح البخاري ٥-٢١١٠ وبعد كلمة وأموالكم «قال محمد وأحسبه قال».

(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٩.

فما سـمعته يسأل يومئذ عن أمر مما ينسى المرء، ويجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعض وأشـباهها، إلا قال رسـول الله ﷺ: افعلوا ذلك ولا حرج»[1] ثم: توجه عليه السلام لمكة لأداء

طواف الإفاضة

يقول جابر رضي الله عنه: «ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت»[2]. ومعنى أفاض، أي طاف طوافاً يسـمى طواف الإفاضة، وقد كان عليه السلام في طوافه ذلك راكباً لشدة الزحام، كما تقول عائشة رضي الله عنها: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره، يستلم الركن كراهية أن يضرب عنه الناس»[3]

أما جابر فيعتقد أن هناك سبباً آخر، هو تعليم الناس المناسك.

يقول رضي الله عنه: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة، ليراه الناس وليشرف وليسألوه فإن الناس غشوه»[4].

وهنا يتسـاءل المسـلم: كيف يسـتلم عليه السـلام الحجر وهو راكب على بعير؟ والإجابة عند ابن عباس رضي الله عنهما الذي يقول: «إن رسول الله ﷺ طاف بالبيت وهو على بعير، كلما أتى على الركن أشار إليه بشيء في يده وكبر»[5]

سألنا الصحابي أبا الطفيل رضي الله عنه: ما هذا الشيء الذي بيده فقال: «رأيت رسـول الله ﷺ يطوف بالبيت، ويستلم الركن بمحجن معه، ويقبل المحجن»[6] والمحجن هو العصا المعوجة الرأس، ويسمى الصولجان أيضاً. لكن ماذا عن الأشخاص ضعيفي البنية، الذين لا يطيقون الزحام وشدته؟

هـا هي أم المؤمنين أم سـلمة رضي اللـه عنها تتوجه للنبـي ﷺ وهو يصلي داخل المسـجد، لتسأله عن طوافها وضعفها وتقول: «شـكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٨.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٩.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.
(٥) صحيح البخاري ٢-٥٨٨.
(٦) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة. قالت: فطفت»[1] وطافت فاطمة بنت النبي ﷺ وصفية وبقية أمهات المؤمنين، حتى عائشة التي كانت سعيدة أكثر من غيرها بهذا اليوم، فقد طهرت فيه من حيضها، وأصبح بإمكانها الطواف بالبيت، بعد أن أدت مع الحجيج مناسك الحج كلها عدا الطواف.

وإذا كانت عائشة قد طهرت وطافت، فإن صفية قد طافت ثم أصابها الدم بعد طوافها، وعن ذلك تقول عائشة رضي الله عنها «حججنا مع النبي ﷺ فأفضنا يوم النحر، فحاضت صفية. فأراد النبي ﷺ منها ما يريد الرجل من أهله؟ فقلت: يا رسول الله، إنها حائض. قال: حابستنا هي؟ قالوا: يا رسول الله، أفاضت يوم النحر. قال: اخرجوا»[2]

ويعني بذلك أنها لو حاضت قبل طواف الإفاضة، لوجب عليها أن لا تسافر حتى تطوف طواف الإفاضة، لكنها إذا أدت طواف الإفاضة فعليها إكمال باقي مناسك حجها، ثم السفر دون حاجة إلى طواف الوداع قبل مغادرة مكة.

أكمل النبي ﷺ طوافه وصلى ركعتي الطواف ثم قام بـ:

التوجه نحو بئر زمزم للشرب منه

يقول جابر: «فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم.. فناولوه دلواً فشرب منه»[3] ثم توجه عليه السلام إلى منى.

العودة بعد الإفاضة إلى منى

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ أفاض يوم النحر، ثم رجع فصلى الظهر بمنى»[4]) «فكان ابن عمر يفيض يوم النحر، ثم يرجع فيصلي الظهر بمنى، ويذكر أن النبي ﷺ فعله»[5]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٨.

(٣) حديث جابر عند مسلم.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٥٠.

(٥) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.

عاد ﷺ إلى منى ليمضي بقية أيام الحج في منى وتسمى هذه الأيام الباقية: «أيام التشريق» وهي: اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة.

وخــلال تلك الأيام يجب على الحاج أن يبيت بمنــى، لكن يجوز له التحرك خارج منــى وزيارة الكعبة، لكن مبيته (أي قضاء الليــل) يجب أن يكون في منى، وخلال تلك الأيــام يجب علــى الحاج أن يرمي الجمرات الثلاث يومياً، كل جمرة بســبع حصيات. ووقت الرمي يختلف عن وقت الرمي يوم النحر.

يقول جابر رضي الله عنه: «رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى، وأما بعد فإذا زالت الشمس»[1] أي أن رمي أيام التشريق يكون بعد دخول وقت صلاة الظهر.

سنته عليه السلام وطريقته في الرمي:

هــي أنه يأتي للجمرة الأولى، وهي الصغرى، فيرميها بســبع حصيات، يقول بعد كل رميــة: الله أكبر. فإذا انتهى من الرمي تحرك عن يمينه، ثم اســتقبل القبلة، ورفع يديه ودعا طويلاً.

ثم يتحرك نحو الجمرة الوســطى، ثم يرميها بسبع حصيات، يكبر بعد كل حصاة، ثم يتحرك عن يساره ويستقبل القبلة، ويدعو دعاءً طويلاً رافعاً يديه.

ثم يتحرك نحو جمرة العقبة، فيرميها بسبع حصيات، ثم يغادرها دون أن يقف عندها.

فابن عمر رضي الله عنهما «كان يرمي الجمرة الدنيا بســبع حصيات، يكبر على إثر كل حصاة، ثم يتقدم حتى يسهل فيقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه، ثم يرمي الوســطى، ثم يأخذ ذات الشمال، فيسهل ويقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويــلاً ويدعو ويرفع يديه، ويقوم طويلاً، ثم يرمي جمرة ذات العقبة من بطن الوادي، ولا يقــف عندها ثم ينصرف، فيقول: هكــذا رأيت النبي ﷺ يفعله»[2] وذلك لمدة ثلاثة أيام هي أيام التشريق. لكن من الممكن:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.

(٢) صحيح البخاري ٢-٦٢٣.

بحيث يستطيع الحاج مغادرة منى في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة قبل غروب الشمس، لكن إذا غابت الشمس قبل مغادرته، فيجب عليه المبيت في منى، ليرمي اليوم الثالث عشر. لقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾[1] ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: «من غربت له الشمس من أوسط أيام التشريق وهو بمنى، فلا ينفرن حتى يرمي الجمار من الغد»[2] لكن:

المبيت في منى ليس واجباً على كل الحجيج

فالنبي ﷺ سمح للمضطرين، وأصحاب الأعذار بالمبيت خارج منى فقد «استأذن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يبيت بمكة ليالي منى، من أجل سقايته فأذن له»[3] والسقاية هي تقديم الشراب إكراماً لضيوف بيت الله.

يتحدث ابن عباس عن سقايتهم فيقول: «إن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها. فقال: اسقني. قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه. قال: اسقني، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح. ثم قال: لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه يعني عاتقه، وأشار إلى عاتقه»[4].

وكان العباس يقدم النبيذ المباح.. الذي لم يتحول إلى خمر، وقد انتقد أحد الأعراب بني العباس تقديمهم للنبيذ، حيث يروي أحد الجالسين أثناء ذلك الحوار واسمه: بكر بن عبد الله المزني فيقول: «كنت جالساً مع ابن عباس عند الكعبة، فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن، وأنتم تسقون النبيذ؟ أمن

---

(١) البقرة: ٢٠٣.

(٢) سنده صحيح رواه مالك ١-٤٠٧: عن نافع عن ابن عمر : وهذا أصح الأسانيد.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٨٩.

(٤) صحيح البخاري ٢- ٥٨٩.

حاجة بكم، أم من بخل؟ فقال ابن عباس: الحمد لله، ما بنا من حاجة ولا بخل. قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى، فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة، وقال: أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا. فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ»[1] ومن أجل ذلك توجه العباس نحو مكة للمبيت بها من أجل السقاية، كما أذن النبي ﷺ:

للرعاة أن يرموا بالليل

حيث «رخص للرعاء أن يرموا بالليل، وأن يجمعوا الرمي»[2] «وقد أوضح الصحابي الذي روى هذا الحديث معنى الجمع بقوله: «إن النبي ﷺ رخص للرعاة أن يرموا يوماً، ويدعوا يوماً»[3] أخبر عليه السلام أصحابه بذلك، وقضى أيام التشريق بمنى، ولما انتهت أيام التشريق الثلاثة، توجه ﷺ نحو مكة ليطوف بالكعبة سبعة أشواط تسمى: (طواف الوداع)، وبين لأصحابه أن:

طواف الوداع واجب

فقال لهم: «لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت»[4] ثم طاف النبي ﷺ طواف الوداع.. سبعة أشواط يفعل مثل ما كان يفعل في أي طواف. ويفعل الصحابة مثل ما فعل لكن:

ماذا عن المرأة الحائض وطواف الوداع

هل تحبس من معها فينتظرونها حتى تطهر، أم تغادر مكة معهم ولا شيء عليها؟ هذه المشكلة تعرضت لها أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٥٢.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ حدثنا سلم بن جنادة ثنا وكيع عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن أبي بداح عن أبيه أن رسول الله ﷺ. سلم ثقة التقريب ٢٤٥ وعبد الله تابعي ثقة مر معنا: التقريب لكنه سمع الحديث من والده الثقة أبي بكر كما في الحديث التالي وأبو البداح تابعي ثقة: التقريب ٢-٣٩٤ ووالده صحابي رضي الله عنه.

(٣) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ وهو الحديث السابق.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

مرة أخرى تروي عائشة العالمة قصتها فتقول: «إن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ حاضت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ.. فقال: أحابستنا هي؟ قالوا: إنها قد أفاضت.

قال: فلا، إذاً»[1] أي أنها لن تحبسكم عن الخروج، فليس عليها طواف وداع، ويكفيها طواف الإفاضة عن طواف الوداع، وذلك لما «قالوا: يا رسول الله، أفاضت يوم النحر. قال ﷺ: اخرجوا»[2] ويقول ابن عباس: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»[3] ولكن بشرط أن تكون قد طافت طواف الإفاضة.

وقبل أن يخرج النبي ﷺ حدد لأصحابه مكاناً للاجتماع قبل الانطلاق.. اسمه: (المحصب)، وهو ذلك المكان الذي يحمل ذكريات مريرة جداً للنبي عليه السلام وأهله وصحابته، عندما حاصرتهم قريش فيه وقاطعتهم، ومنعت الاتصال بهم والتعامل معهم. قال أسامة بن زيد: «قلت: يا رسول الله، أين تنزل غداً في حجته قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟ ثم قال: نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة المحصب»[4] فيقول عليه السلام: «حين أراد أن ينفر من منى: نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر، يعني بذلك المحصب، وذلك أن قريشاً وبني كنانة تقاسموا على بني هاشم وبني المطلب، أن لا يناكحوها، ولا يكون بينهم شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ»[5].

خرج النبي ﷺ وخرج الصحابة رضي الله عنهم، ولكن قبل خروجهم طلبت عائشة من النبي عليه السلام طلباً فيه قربة إلى الله.

عائشة تريد أداء العمرة

وهي تشتكي من أن الناس سوف يرجعون إلى ديارهم وقد أدوا عمرة وحجاً، أما هي فستعود وقد أدت حجة فقط.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٢٥.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٨.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.
(٤) صحيح البخاري ٣-١١١٣.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم والبيهقي في الكبرى ٥-١٦٠ واللفظ له.

تقــول رضي الله عنها: «قدمت مكة وأنــا حائض، لم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشــكوت ذلك إلى رســول الله ﷺ فقال: انقضي رأســك وامتشطي، وأهلي بالحج، ودعي العمرة.

قالــت: ففعلــت فلما قضينا الحج»[١] «قالت: يا رســول اللــه يرجع الناس بحجة وعمرة، وأرجع بحجة؟»[٢] «أيرجع الناس بأجرين، وأرجع بأجر؟

فأمــر عبد الرحمن ابن أبي بكر أن ينطلق بها إلى التنعيم. قالت: فأردفني خلفه على جمل له»[٣] لكي تحرم بالعمرة من ذلك المكان الذي يســمى (التنعيم)، وهو مكان خارج الحرم.

تقــول رضي الله عنها: إن النبي ﷺ قــال: «اذهبي مع أخيك إلى التنعيم، فأهلي بعمرة ثم موعدك كذا وكذا»[٤]

وتقدم عائشــة تفصيــلات أكثر عن ذلك المكان، الذي حدده النبي ﷺ ويســمى: المحصب، فتقول: «دعا عبد الرحمن ابن أبي بكر فقال: اخرج بأختك من الحرم، فلتهل بعمرة، ثم افرغا، ثم ائتيا هاهنا فإني أنظركما حتى تأتياني.

قالــت: فخرجنا حتى إذا فرغت وفرغت من الطواف ثم جئته بســحر فقال: هل فرغتــم؟ فقلت: نعــم فآذن بالرحيل فــي أصحابه، فارتحل الناس فمــر متوجهاً إلى المدينــة»[٥] فتقــول: «فلقيني النبي ﷺ وهــو مصعد من مكة، وأنــا منهبطة عليها»[٦] «فاعتمرت فقال ﷺ: هذه مكان عمرتك»[٧]

ثم لحقت هي وأخوها عبد الرحمن بالنبي ﷺ، ولما التحقت عائشة بالركب حدثت قصــص طريفة بين زوجات النبي ﷺ، وبينه وبينهن. لعبــت الغيرة دورها المعتاد رغم عودة الجميع من رحلة الحج الرائعة، وتألق النبي ﷺ كعادته بسلوكه الرائع.. في طريق الأشواق إلى المدينة كان النبي عليه السلام يشعر بمعاناة و:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٧٠.

(٢) صحيح مسلم ٢-٨٧٣.

(٣) صحيح مسلم ٢-٨٨٠.

(٤) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.

(٥) صحيح البخاري ٢-٥٦٥.

(٦) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.

(٧) صحيح البخاري ٢-٥٩٠.

شكوى زوجته صفية من جملها

وقد كانت صفية قاسـية على مشـاعره الفياضة، وقد اسـتغلت صفية كون ذلك اليوم يومها كي تنهل المزيد من الحنان والدلال، لكنها بالغت في الشـكوى حتى كلفتها مبالغتها تلك متعة يومها ذلك.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كانت صفية مع رسـول الله ﷺ في سـفر، وكان ذلك يومها فأبطأت في المسـير، فاستقبلها رسـول الله ﷺ وهي تبكي، وتقول: حملتني على بعير بطيء.

فجعل رسـول الله ﷺ يمسـح بيديه عينيها، فأبت إلا بكاء [وجعلت تزداد بكاء، وهو ينهاها فلما أكثرت زبرها وانتهرها، وأمر الناس بالنزول، فنزلوا ولم يكن يريد أن ينزل]. فغضب رسـول الله ﷺ وتركها، فقدمت، فأتت عائشـة فقالت: يومي هذا لك من رسول الله ﷺ إن أنت أرضيتيه عني.

فعمدت عائشة إلى خمارها، وكانت صبغته بورس وزعفران فنضحته بشيء من ماء، ثم جاءت حتى قعدت عند رأس رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: ما لك؟ فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فعرف رسول الله ﷺ الحديث فرضي عن صفية.

وانطلق إلى زينب فقال لها: إن صفية قد أعيا بها بعيرها، فما عليك أن تعطيها بعيرك؟

قالت زينب: أتعمد إلى بعيري فتعطيه اليهودية؟

فهجرها رسـول الله ﷺ ثلاثة أشهر فلم يقرب بيتها، وعطلت زينب نفسها، وعطلت بيتها، وعمدت إلى السرير فأسندته إلى مؤخر البيت، وأيست أن يأتيها رسول الله ﷺ.

فبينا هي ذات يوم إذا رسول الله ﷺ فدخل البيت، فوضع السرير موضعه، فقالت زينب: يا رسول الله، جاريتي فلانة قد طهرت من حيضتها اليوم، هي لك، فدخل عليها رسول الله ﷺ ورضي عنها»[1]

---

(١) سنده قوي رواه النسائي في الكبرى ٥-٣٦٩ أخبرنا محمد بن خلف قال ثنا آدم قال نا سليمان بن المغيرة قال ثنا ثابت البناني عن أنس.. ابن خلف العسـقلاني صدوق التقريب ٤٧٧ وشـيخه ابن أبي إياس ثقة عابد من رجال البخاري: التقريب ٨٦ وبقية السند صحيح على شرط مسلم. والزيادة عند أحمد ٦-٣٣٧ من طريق شميسة وهي لم توثق.

كان بيت النبوة بيتاً كبقية البيوت.. يجري فيه ما يجري في تلك البيوت من غيرة وخصومــة، لكن النبي ﷺ كان يقدم من خلال تلك الخلافات حلولاً لأمته، دون مثالية أو إسفاف.

حفصة تسب صفية

ربما وجدت حفصة بنت عمر في أصل صفية اليهودي مكاناً جيداً للوخز والإيلام، وإشباعاً لغيرتها منها، لكن صفية وجدت الإنصاف في كلمات زوجها العذبة الحانية.

يقول أنس: «بلغ صفية أن حفصة قالت: يا بنت يهودي. فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي.

فقال: ما يبكيك؟ فقالت: قالت حفصة إني ابنة يهودي.

قال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتقي الله يا حفصة»[(١)]

فأي نســب بعد هذا النسب، لكنها الغيرة البشرية التي تلم بالمرأة، والتي لا يجب أن تتحول إلى عداوة أو شحناء، أو إضرار بالآخر. والتعامل معها فن يجيده النبي ﷺ، ويتفنن في تشكيله لنساء الأمة ورجالها، وهن معذورات، فالرجل الذي يغرن عليه ليس كبقية الرجال. إنه محمد ﷺ، الذي كانت عائشــة من فرط حبا ووَلَهِهَا به تتحســس فراشه وهو نائم، خشية أن يغادره.

ذات ليلــة كان نائمــاً معها، فاســتيقظت فلم تجده، فانتابها شــعور تتحدث عنه فتقول: «افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نســائه. فتحسست، ثم رجعت فإذا هو راكع أو ساجد يقول: سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت.

فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر»[(٢)]

---

(١) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-٢٧٣ وغيره من طريق عبد الرزاق أنا معمر عن ثابت البناني عن أنس ابن مالك وهو سند مشهور على شرط الشيخين.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٥١.

إنه الحب الذي يذهل صاحبه، ويذهل عائشة حتى كررت فعلها مرة أخرى، ولكن بصورة أشد تأثراً.

تقول رضي الله عنها: «ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ؟ قلنا: بلى. قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع. فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً، وانتعل رويداً، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويداً، فجعلت درعي في رأسي واختمرت، وتقنعت إزاري.

ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف، فانحرفت، فأسرع، فأسرعت، فهرول، فهرولت، فأحضر، فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: مالك يا عائش حشياً رابية؟

قلت: لا شيء. قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير. قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي... فأخبرته.

قال: فأنت السواد الذي رأيت أمامي. قلت: نعم. فلهدني في صدري لهدة أوجعتني. ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟ قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم.

قال: فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي. فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم.

قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»[1] وتمر الأيام وينزل الله على نبيه ﷺ سورة النصر:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ وكان لنزول هذه السورة ظلالٌ مؤثرٌ ووقعٌ تتحدث عنها عائشة وابن عباس حديثاً مؤثراً فما هي:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٧٠.

تقول رضي الله عنه «ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) يصلي صلاة إلا دعا أو قال فيها: سبحانك ربي وبحمدك اللهم اغفر لي»[1]

لم تترك هذه المرأة العظيمة هذا الأمر يمر دون استفسار، فهي لا تحب رسول الله ﷺ فقط، بل تحب سنته وتعشق التتلمذ على يديه، فتقول «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه.

فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح (فتح مكة) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا»[2] وقد فسرها عمر وابن عباس بأنها:

نعي مبكر للنبي عليه السلام

في حوار جرى بين عمر رضي الله عنه وبين أشياخ بدر بحضور ابن عباس، سأل عمر أولئك الأشياخ: «ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري. أو لم يقل بعضهم شيئاً.

فقال لي: يابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله والفتح (فتح مكة) فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم»[3].

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٥١.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٥١.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٣.

إذاً، فهل اقترب أجله عليه السلام.. هل آن الأوان للرحيل؟ لماذا راجع معه جبريل القرآن مرتين هذا العام بدلا من مرة واحدة كما يفعل كل عام؟ هل هي علامة الوداع أيضاً؟

لـم تكن تلك المشـاعر لتأخذ النبي ﷺ بعيداً عن هموم أمتـه وأمر دعوته.. كان يغرس الحياة في النفوس.. كان يشعلها ويأخذها إلى الإنجاز بلا حدود.

ذات يـوم خاطب أصحابـه محرضاً إياهم على زرع الحياة فـي تلافيف الموت.. خاطبهم خطاباً لا يعرف حدوداً للإبداع ولا زمنا للتوقف فقال لهم: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها، فليفعل»[1] مالذي سـيجنيه غارس فسيلة نخل تحتاج إلى سنوات لتنمو وتثمر؟ ما الذي سيعود عليه من غرسها والقيامة ستقوم بين لحظة وأخرى؟

لا شيء سوى أن الإسلام جاء لتظل حياة المسلم إبحاراً نحو اللا نهايات، وإبداعا دون توقف.

كما كان ﷺ ينظر إلى ما بعد الموت، فالموت مرحلة لا أكثر في حياة المسـلم. لقد اسـتدعى ﷺ أسـامة بن زيد وأمَّره على جيش، وأمره بالتوجه نحو الشام. ولما أحس من بعض الرجال نوعاً من التبرم بإمارة أسامة الأسمر: «فقالوا فيه؟ فقال النبي ﷺ: قد بلغني أنكم قلتم في أسـامة، وإنه أحب الناس إلي»[2] «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله! وأيم الله إن كان لخليقاً للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»[3]

كانـت كلمات تواصل التذكير والغسـل لبقايا لوثات الجاهليـة التي لا تكف عن العـودة كلما سـنحت الفرصة، وكانت كلماته عليه السـلام كالوداع لأسـامة وللدنيا، واقتراب الوداع مرير، فهل سـتحتمله القلوب؟ هل سـيقوى عليه قلب فاطمة وعائشة وبقية أمهات المؤمنين؟

ذات يوم كانت عائشة تشتكي رأسها فقالت: «وارأساه.

---

(١) سـنده ثلاثي صحيح رواه الطيالسـي ١ - ٢٧٥ حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن زيد عن أنس مرفوعا وهشام ثقة من رجال الشيخين التقريب ٥٧٢.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

فقال رسـول اللـه ﷺ: ذاك لو كان وأنا حي، فأسـتغفر لك وأدعـو لك. فقالت عائشة: واثكلياه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذاك[1] لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك.

فقال النبي ﷺ: بل أنا وارأسـاه، لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهـد، أن يقول القائلـون، أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبـى الله ويدفع المؤمنون»[2] «ادعي لي أبا بكر وأخاك، حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[3]

كانت كلمات كالوداع، فقد ألم بالنبي ﷺ مرض بدأ يزداد شدة يوماً بعد يوم.. مرض أقعـده وأثقل حركتـه حتى عن التنقل بين أبيات زوجاته، وذلك بعد عودته من دفن بعض أصحابه رضي الله عنهم.. تقول عائشة رضي الله عنها: «رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسـي وأنا أقول: وارأسـاه. قال: بل أنا والله يا عائشة.. وارأساه. ثم قال: ما ضرك لو مت قبلي، فقمت عليك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك؟

فقلت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك، رجعت إلى بيتي فأعرست ببعض نسائك.

فتبسـم رسول الله ﷺ، وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعر به وهو في بيت ميمونة، فدعا نسـاءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي. فأذِنَّ له. فخرج رسول اللـه ﷺ بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العبـاس ورجل آخر[4] تخط قدماه الأرض، عاصباً رأسه حتى دخل بيتي»[5]

كان مشـهداً يدمي القلب لمن رآه.. نبي الله لا يسـتطيع السير على قدميه، وهو الذي كان يقود الجموع قبل أشهر إلى تبوك ومكة.

---

(١) أي لومت أنا.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٨.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٥٧.

(٤) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-٢٢٦-٢٢٩ واللفظ له والبيهقي في الدلائل ٧-١٦٩: حدثني يعقوب بن عتبة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشـة يعقوب ثقة التقريب ٦٠٨ والزهري ثقة ثبت- التقريب ٥٠٦.

ها هي قدمــاه تخطان على الأرض خطوطاً، وآثاراً كآثار المســافرين.. المغادرين بالقلوب والأرواح.

فنــزل عليه الوحي في تلــك الأيام يخبره أن الله يخيره بــين لقائه أو البقاء حياً، فكانت الإجابة كما تبوح آلام عائشة حيث تقول: «غمر رسول الله ﷺ واشتد به الوجع فقال: أهريقوا علي من سبع قرب، من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم.

قالــت: فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمــر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: حســبكم حســبكم»[1] لقد «قال بعد ما دخل بيته واشتد وجعه: هريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لَعَلِّي أعهد إلى الناس.

وأُجْلِسَ في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا: أن قد فعلتن. ثم خرج إلى الناس»[2] «فصلى بهم وخطبهم»[3] ليخبرهم بجوابه لوحي الله، ويبدو أن هذه الخطبة التي ارتجلها يوم الأربعاء قد تكون:

آخر خطبة للنبي ﷺ

يقول ابن عباس: «خرج رســول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأســه بخرقة، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفســه وماله مــن أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنــت متخذاً من الناس خليلاً لاتخــذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإســلام أفضل. ســدوا عنــي كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر»[4]

كان أبــو بكر محوراً من محــاور تلك الخطبة الوداعية.. وكان أبو بكر أكثر الناس استيعاباً لمعناها، وأشد الناس تأثراً بها، فقد سالت دموعه وسالت، ولم تتوقف إلا بعد أن رجاه الحبيب محمد ﷺ وناشده أن يتوقف عن البكاء، وكيف لا يبكي وهو يرى نبيه وصاحبه، وصديق طفولته وشبابه وشيخوخته يهم بالرحيل.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وهو جزء من الحديث السابق

(٢) صحيح البخاري ١-٨٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٤.

(٤) صحيح البخاري ١-١٧٨.

أبو سعيد الخدري كان هناك.. يصف مشاعره التي حيرتها دموع أبي بكر وأحزانه، ثم يبوح فيقول: «خطب النبي ﷺ فقال: إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله.

فبكى أبو بكر رضي الله عنه [وبكى، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا]. فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ! إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا.

قال ﷺ: يا أبا بكر، لا تبك. إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»[1]

ثم فاض بالوفاء.. وللوفاء عنوان هو الأنصار، خاطب عليه السلام أمته ليوصيها بأحب الأقوام إليه (الأنصار) وكان المرض قد أعيى جسده الشريف فلم يستطع القيام، فجلس على المنبر من شدة الألم، وكان «عليه ملحفة[2] متعطفاً بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء[3] حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً، أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم»[4]

كان ﷺ يخطب رأفة ورحمة بأمته، من أن تمزقها الخلافات بعد رحيله، بعد هذا الحب الغامر والأخوة الحانية.. بعد هذه الفتوحات وعلو التوحيد وأهله، ونظافة الجزيرة من الأصنام والأوثان والجاهلية. كان يخطب امتناناً لمن آزره وعاضده في مسيره الطويل المضني.. كان يخطب مؤكداً أن العواطف نحوه ستتأجج وتجمع بعد رحيله، ولا بد للعواطف من سياج وإلا جمحت بأهلها، وساقتهم بعيداً عن التوحيد الذي جاهد من أجله.

---

(١) صحيح البخاري ١-١٧٧ والزيادة عند مسلم ٤-١٨٥٤.

(٢) أي لحاف.

(٣) تميل للسواد، أو عليها أثر الزيت .

(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٨٣.

يقول أحد الصحابة «سـمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليــلاً. ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مســاجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[1]

ثم نهض ﷺ نحو بيت عائشــة الملاصق للمســجد، ليمكث فيه ما تبقى من أيامه التي يبدوا من شدة مرضه أنها قليلة. وكان الصحابة رضي الله عنهم يقومون بعيادته، والاطمئنان على حاله..

أحدهم عبد الله بن مسعود الذي يقول: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكاً شديداً؟ قال: أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم.

قلت: ذلك بأن لك أجرين. قال: أجل ذلك كذلك، ما من مســلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»[2]

خرج ابن مسعود وجاء غيره، بينما كان المرض ضيفا ثقيلا.. لا يريد مغادرة جسده الطاهر. اشتد مرضه ﷺ وألمه حتى أغمي عليه فنادوا عمه العباس، فتألم لمنظر حبيبه، فاقترح أن يقدم له علاجاً يســمونه: (اللد) واللد هو أن يســقى المريض دواءاً من أحد شقي الفم، فوافق من كان موجوداً على اقتراح العباس، ففتحوا فم النبي ﷺ ولدوه، فلما أفاق بعد مدة احتج عليهم، وأمر بمعاقبة كل من شارك في ذلك بعقاب ظريف.

تقول عائشــة: «ثم نزل رســول اللــه ﷺ فدخل بيته، وتتام بــه وجعه حتى غمر، واجتمع عنده نساء من نسائه: أم سلمة وميمونة، ونساء من نساء المؤمنين، منهم أسماء بنت عميس، وعنده عمه العباس بن عبد المطلب. وأجمعوا على أن يلدوه.

فقال العباس: لألدنه. فلد فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: من صنع بي هذا؟ قالوا: يا رسول الله، عمك العباس - قال: هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض وأشار نحو أرض الحبشة -.

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٧٧.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢١٣٩.

قال: ولم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشـينا يا رسـول الله أن يكون بك وجع ذات الجنـب. فقـال: إذن ذلك لداء، ما كان الله ليعذبني به. لا يبقى في البيت أحد إلا لد، إلا عمي.

تقول عائشة: فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة - لقسم رسول الله ﷺ، عقوبة لهم بما صنعوا»[1] وهو عقاب أشـبه بالمزاح، أما ما يعانيه عليه السلام، فكان أثرا من آثار أمر كاد يودي بحياته في سابق الأيام، وهو الآن يحدث عائشة عنه.. عن:

آلام سم اليهودية

يخاطبهـا وهي تمرضه فيقول: «يا عائشـة ما أزال أجد ألـم الطعام الذي أكلت بخيبـر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السـم»[2] أي انقطاع عرقي من أثر ذلك السم.

وجاء يوم الخميس

يقول ابن عباس «يوم الخميس، وما يوم الخميس؟

ثـم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: اشـتد برسـول اللـه ﷺ وجعه يوم الخميس، فقال: ائتوني بكتاب، أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع [فقال عمر: إن رسـول الله ﷺ قـد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت، فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتابـاً لن تضلوا بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: قوموا] فقالوا هجر[3] رسول الله ﷺ. قال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه، وأوصى عند موته بثلاث:

---

(١) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١١ معلقا ووصله الحاكم وله شاهد عند الدارمي١-٦٠

(٣) تعب وبدأ يهذي من شدة الألم.

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم. ونسيت الثالثة»[1]

كان ذلـــك الكتاب يحمل نوعاً من اجتهاد النبي ﷺ الذي لم ينزل به وحي، وإلا لو كان وحياً لوجب عليه تبليغه كبقية رسالته لأن الله يقول له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

إذاً فعـــدم تبليـــغ جزء من الوحي هو عند الله عدم تبليغ للرســـالة، وهو أمر لا يمكن التخلي عنه مهما كان السبب، أما هذا الكتاب الذي كان النبي ﷺ ينوي كتابته، فقد تراجع عنه، لأنه محض اجتهاد.. حرصاً منه على اجتماع أمته. فاكتفى ﷺ بتلك الوصايا الثلاث. ولـــم تكن هي الوصايا الوحيدة، فقد كان يوصي كل من يدخل عليه بوصية. كهذه الوصية التي تقرب الإنسان إلى ربه، وتقرب الإنسان إلى الإنسان أيضاً، والتي تفيض راحة ورحمة لمن يمتثل لها.. الصلاة والرفق بالمملوكين، ولعل أجمل الرفق بهم هو إعتاقهم.

تقول أم المؤمنين هند (أم ســـلمة) رضي الله عنها: «كان عامة وصية نبي الله ﷺ عند موته: الصلاة.. الصلاة. وما ملكت أيمانكم، حتى جعل نبي الله ﷺ يلجلجها في صدره، وما يفيض بها لسانه»[3] من حرصه على الأخذ بهما.

كان النبـــي ﷺ في يوم الخميس هذا يصلي بالناس وهو جالس، ولما حانت صلاة المغـــرب حمل عليه الســـلام ليصلـــي بالمؤمنين فصلى بهم وقـــرأ ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ...﴾

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١١١ والزيادة عند مسلم ٣-١٢٥٩.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٦-٣١٥ وغيره عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال حدث سفينة عن أم سلمة. رجاله أئمة ثقات وسعيد أثبت الناس في قتادة وله شاهد عن علي.

كان الرجال والنســاء ينصتون إلى ذلك الصوت الخاشع الذي أنهكه المرض. تقول إحدى النســاء اللواتي كن خلف تلك التلاوة وخلـف ذلك النبي الإمام وهي أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنهما: «ســمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً، ثــم مــا صلى لنا بعدها حتى قبضه الله»(١) فقد صلى ثم أُخذ إلى بيت عائشــة، حيث كان يتنفل جالساً، ولما حانت صلاة العشاء.. حاول عليه السلام النهوض فلم يستطع.. حــاول مرة، ومرتين، لكن جســده لم يســاعده، فقد أقعده الألم، وأمســى يعاني من الإغماء تلو الإغماء، بينما كان الشوق يفتك بالصحابة.. ينتظرون خروجه بلهفة وحزن عظيمين. لكنه لم يخرج، ولم يستطع النهوض من مكانه. كانت عائشة رضي الله عنها تعانــي معه، وتحكي معاناته فتقــول: «ثقل النبي ﷺ فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك. قال: ضعوا لي ماء في المخضب.

ففعلنا، فاغتســل، فذهب لينوء فأغمي عليه. ثم أفــاق فقال ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: ضعوا لي ماء في المخضب. فقعد، فاغتسل، ثــم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقــال: أصلى الناس؟ قلنا: لا. هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: ضعوا لي ماء في المخضب. فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليــه، ثم أفاق فقــال: أصلى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رســول الله، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه الصلاة والسلام لصلاة العشاء الآخرة.

فأرســل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس»(٢) وعندما سمعت عائشة اسم أبيها على لســان النبي ﷺ، وهو يجعله أحق الصحابة بالصلاة، وإمامة المؤمنين، بعد أن جعله إمامهم جميعا في الحج شعرت ببعض القلق..

عائشة التي تحب أباها خشيت عليه من التشاؤم الذي لا مبرر له، إلا في حزنها، فهي مشــفقة على أبيها حزينة على زوجها.. ترحل بها الهموم والمخاوف فتقول للنبي عليــه الســلام: «إن أبا بكر رجل رقيــق، إذا قرأ غلبه البكاء، [إنــه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطيع أن يصلي بالناس] فقال: مروه فيصلي، فعاودته.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١١.
(٢) صحيح البخاري ١ - ٢٤٣.

قال: مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف. [فقلت لحفصة قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسـمع الناس من البكاء، فَمُرْ عمر فليصل للناس. ففعلت حفصة. فقال رسـول الله ﷺ: مه، إنكن لأنتن صواحب يوسـف. مروا أبا بكر فليصل للناس. فقالت حفصة لعائشـة: ما كنت لأصيب منك خيراً]»[1] وكأن حفصة ترى أن عائشـة ورطتها حتى قال لها حبيبها ما قال.

ذهب المبعوث إلى أبي بكر «فقال: إن رسـول اللـه ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقـال أبـو بكر - وكان رجلاً رقيقاً -: يا عمر، صـل بالناس. فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر»[2]

كانت ليلة ثقيلة على سماء المدينة وأهلها.. ليلة تخنق صدورهم بالهموم والتفكير بنبيهم، لكن، لعل هذا الفجر يحمل فرجاً.

وجـاء الفجر فلم يسـتطع النبـي ﷺ النهوض أيضاً، فصلى أبـو بكر رضي الله عنه فجـر الجمعة بالمؤمنين، وحان وقت صلاة الجمعة، فجاء المؤمنون من كل أطراف المدينة، وعاد أسامة، فكانت:

عودة أسامة بن زيد

ومن معه من الجيش إلى المدينة تعني تأجيل السفر، فلعلهم يحظون بخطبة النبي ﷺ والصلاة خلفه، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد خرج أبو بكر رضي الله عنه وسلم على المصلين، وارتقى درجات المنبر وخطب الناس.. فلا أدري أي شـعور كان يخالجهم ويخالج أبا بكر وهم الذين اعتادوا على سـماع صوته العذب على هذا المنبر منذ عشـر سـنوات، وهم يشـعرون بأناته وآلامه خلف تلك السـتارة الصغيرة.. لا يستطيع الحراك مما به من الألم، بل لا يسـتطيع حتى الكلام.. لا بد أن دموعاً غزيرة سـالت، وشهقات علت، ونحيباً طال من الرجال والنساء جميعاً.

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٤١ والزيادة له ١-٢٤٠ و١-٢٤٠.
(٢) صحيح البخاري ١ - ٢٤٣.

تهادت خطوات الأمير الأسمر (أسامة) رضي الله عنه إلى بيت النبي ﷺ يعوده، فكانت هذه القصة التي أبكت قلب أسامة وهو يقول: «لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت، وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علي، فعرفت أنه يدعو لي»[١]

ومضى يوم الجمعة والنبي عليه السلام على فراشه لم يخرج، وجاء يوم السبت، فصلى أبو بكر الفجر، ثم جاء الظهر فصلى بهم أيضاً، فكانت المفاجأة عندما رأى المصلون

النبي ﷺ يخرج للصلاة

وذلك بعد أن أذن بلال رضي الله عنه وأقام الصلاة، فتقدم أبو بكر للصلاة وكبر وأمهم، وأثناء الصلاة خرج علي بن أبي طالب والعباس رضي الله عنهما.. يحملانه عليه السلام من غرفة عائشة التي تقول: «إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بني رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر.. فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر

قال: أجلساني إلى جنبه. فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ»[٢] فتحول المسجد إلى ساحة من البهجة والسعادة التي لم تدم طويلاً. فقد أدخل عليه الصلاة والسلام إلى بيت عائشة من جديد.

يقول أنس رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ صلى خلف أبي بكر في ثوب واحد، وبرد مخالفاً بين طرفيه. فلما أراد أن يقوم قال: ادع لي أسامة بن زيد فجاء فأسند ظهره إلى نحره»[٣] فأخذه إلى بيته.. حيث تفاقم المرض عليه.. وكانت فاطمة وأمهات

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٦٧ حدثني سعيد بن عبيد بن السباق عن محمد بن أسامة عن أبيه أسامة. سعيد ومحمد بن أسامة تابعيان ثقتان التقريب٢٣٩ و ٤٦٧.

(٢) صحيح البخاري ١-٢٤٣.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي في الدلائل ٧-١٩٢ من طرق عن سعيد بن أبي مريم أخبرنا يحيى ابن أيوب حدثنا حميد الطويل عن ثابت عن أنس وهذا السند على شرط البخاري وقد رواه كثيراً انظر مثلاً صحيح البخاري (١-١٥٧ و١-٢٠٩).

المؤمنين عليهن السلام لا يتوقفن عن زيارته، بينما كان الألم لا يتوقف عنه. وبعد أن خرج أسامة والعباس وعلي رضي الله عنهم رأى العباس بفراسته تقاسيم الموت في وجه النبي ﷺ.

خرجوا من عنده فـ«قال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت. اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا.

فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده. وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ»(١)

كان العباس وغيره لا يعلمون من خليفة النبي ﷺ، ولا كيفية انتخابه؟ فهم بل العرب كلهم لأول مرة يجتمعون تحت راية دولة واحدة. لذا كان العباس يريد معرفة من يخلف النبي ﷺ، لكن علياً كان أبعد نظراً، لأن الخلافة ليست منحة منه عليه الصلاة والسلام، وقد تحدث عليه الصلاة والسلام بكلام خطير ودقيق وهام عن الخلافة، وعن الصفات التي لا بد أن تتوافر في الخلفاء، وما يحل للخليفة، وما لا يحل له، وعن أنه لا يعطي الإمارة من سألها، وأشياء كثيرة قبل أن يأتي العباس إلى المدينة.

بينما لم يتحدث عليه السلام عن شخص بعينه يجب أن يتولى من بعده، مما يعني أنه سيترك للأمة أمر انتخاب الأصلح والأنسب. والصحابة رغم عدالتهم وجهادهم يظلون بشرا لهم وجهات نظر مختلفة، وآراء مختلفة، ومواهب مختلفة، ومزايا مختلفة، ولا يمكن أن يجمعوا على شخص بعينه. لكن هناك ميزات إذا جمعت برز صاحبها، كما برز أبو بكر الذي عينه عليه السلام للصلاة أكثر من مرة دون غيره، وعينه للحج بالأمة كلها.. ودون أن يسعى للإمامة، أو يقدم طلباً لها.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٥.

النبـــي ﷺ هو الذي اختــاره وعينه رغم رفضه لها في البدايـــة، وبعيداً عن ذلك وبينما كان عليه السلام تبرحه الآلام، وتزداد به الأوجاع ويزداد انشغالها بجسده.. كان مشغولاً بأمته.. مشفقاً عليها أن تضل كما ضلت اليهود والنصارى.

تقول عائشـــة ويقول ابن عباس رضي الله عنهما «لما نزل برســـول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه. قال -وهو كذلك-: لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا»(١)

فبعـــد وفاة أي نبي تزداد العاطفة، وتجيش المشـــاعر، فتطيـــش بدعاً وخرافات، وزخارف ومزارات.. حتى يتحول ضريحه من قبر إلى وثن يطاف به ويتمسح، ويستقبل، وتشد الرحال إليه، ويذبح عنده، وتحيط به السرج والشموع والمصابيح، ويطلى بالذهب ويرصـــع بالجواهر. وفي النهاية ينصرف الناس عن الخالق، ليتعلقوا بمخلوق لا يملك من أمره شـــيئاً إلا ما وهبه الخالق ســـبحانه وحباه به. عندها ينهدم ما بناه النبي ﷺ خلال أكثر من عشـــرين عاماً، ويتسرب الشرك من جديد، لكن بدلاً من عبادة الصنم الذي على شـــكل صورة، يصبح وثناً على شـــكل قبر، وبالتبرير نفسه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

كان عليه الســـلام يخشـــى ذلك ويحذر منه.. رغم ما هو فيه من المعاناة والحمى، التي يزداد اشتعالها داخل جسده الشريف، مما أعجزه عن الخروج للصلاة، حيث صلى أبو بكر في الناس العصر والمغرب والعشاء والفجر، والناس يترددون على المسجد، وفي الطرقات وفي الأسواق فلا يرون حبيبهم ونبيهم فيها، فيزداد شوقهم وحزنهم حتى:

جاء يوم الأحد

وتوالـــى الزائرون من أهل بيتـــه وغيرهم، وكانت ابنته فاطمة عليها الســـلام في طريقها إلى هناك.. تنظر إلى هذا الأب الحاني فتدمع عينها، وتبكي وتتأثر لما هو فيه من الكرب، فيناديها ليخفف ما بها من حزن، ويهمس في أذنها، فتبكي مرة أخرى، ثم يهمس مرة ثانية فتبتسم ابتسامة تسرها وتحزن أحبابها.

---

(١) صحيح البخاري ١-١٦٨.

كانت عائشة الوفية هناك.. مأخوذة بهذا المشهد الحزين المبتسم.. هذا المشهد الذي لم يفارق قلبها وذاكرتها وعجبها فتقول: «أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: مرحباً بابنتي. ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله. ثم أسر إليها حديثاً فبكت. فقلت لها: لم تبكين؟

ثم أسر إليها حديثاً فضحكت. فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن. فسألتها عما قال؟

فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ.

حتى قبض النبي ﷺ، فسألتها؟ فقالت: أسر إلي إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت.

فقال أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين؟ فضحكت لذلك»[1]

حفظت عائشة منزلة فاطمة عليها السلام، حين امتزجت مشاعر الحزن بالسرور في أعماق فاطمة، التي نهضت ثقيلة بعد ذلك إلى بيتها وطفليها.. ولا أدري كيف كانت نظرات طفليها وهما يشاهدان جدهما لا يستطيع اللعب معهما، أو حملهما كما كان يفعل بالأمس إلى المسجد.. ينظران إليه وينظر إليهما، لكنه لا يستطيع أكثر من التبسم في وجهيهما العذبين.. أي حزن يطوف بتلك الأعين البريئة.. وأي أسئلة أبكت أمهما وهي في طريقها إلى بيتها.. هل ستعود تلك الأيام الجميلة المفعمة بالمرح والفرح واللعب مع جدهما.. أم أنه سيرحل هذه المرة؟

تبكي فاطمة، ويقبل الليل ويخيم الحزن على المدينة، وتعاود الآلام حبيبها وناشر الحب بين جدرانها وبيوتها، وتعود فاطمة فتجده ثقيلا، و«لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرباه. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم»[2]

وينزاح ذلك الليل شيئاً فشيئاً، ويزداد الألم به شيئاً فشيئاً.

---

(١) صحيح البخاري ج: ٣ ص: ١٣٢٦.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

ويدخل فجر يوم الإثنين

ويصلى أبو بكر بالمؤمنين الفجر، فيحدث شـيء مفرح كاد معه المصلون أن يفتتوا في صلاتهم، فبينما كان أبو بكر خاشعاً في صلاته ارتفع الستر الذي على يساره، وهو ستر بيت ابنته عائشة، فأطل الحبيب منها وهو يبتسم.

يقـول أنس: «إن أبا بكـر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشـف النبي ﷺ سـتر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ.

فنكص أبو بكر علـى عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم.

[فقال: أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تـرى له. ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو سـاجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم].

وأرخى الستر»[1] وعاد إلى فراشه فصلى الفجر، ثم ضعف ضعف:

الموت

الذي لا ينتظر أحداً من البشـر.. حتى الأنبياء منهم، وفي لحظات الكرب وشدة سـكرات الموت.. كانت فاطمة تشاهد حركة أبيها من شدة الألم، وذلك «لما ثقل رسول الله ﷺ، جعل يبسط رجلاً ويقبض أخرى، ويبسط يداً ويقبض أخرى.

قالت فاطمة: يا كرباه لكربك يا أبتاه..

قال رسـول الله ﷺ: أي بنية، لا كرب على أبيـك بعد اليوم»[2] ثم رفع طرفه إلى السماء، وكأنه يرى منزله من الجنة.

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٤٠ والزيادة عند مسلم ١-٣٤٨.

(٢) سـنده صحيح رواه أبو يعلى ٦-١١١ حدثنا القواريري حدثنا حماد بن زيد حدثنا ثابت البناني عن أنس. عبيد الله بن عمر القواريري وشيخه ثقتان ثبتان التقريب ٣٧٣ و ١٧٨.

تقول عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير. فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى. فقلت: إذاً لا يختارنا. وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا»(1).

وتقول رضوان الله عليها: «كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه، ثم قال: أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً.

فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل، أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي، ثم قال: اللهم اغفر لي، واجعلني مع الرفيق الأعلى»(2) «وأخذته بحة وهو يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

قالت: فظننته خير حينئذ»(3)

وهنا دخل عبد الرحمن بن أبي بكر أخو عائشة، وفي يده سواك فكان النبي ﷺ ينظر إلى السواك في يده، فتقول عائشة: «دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله ﷺ [وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك فأشار برأسه.. أن نعم.

فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم](4) فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن. فأعطانيه فقضمته.

ثم مضغته»(5) «ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ، فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه، [وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل

---

(1) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.
(2) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.
(3) صحيح مسلم ٤-١٨٩٣. وكلمة (هو) ليست في النص.
(4) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.
(5) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه. يقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات][1]. فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه، ثم قال:

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

ثـم قضى»[2] «ومالت يده»[3] «فمـات في اليوم الذي كان يـدور علي فيه في بيتي، فقبضه الله، وإن رأسـه لبين نحري وسـحري، وخالط ريقه ريقـي»[4] «في آخر يوم من الدنيـا، وأول يوم من الآخرة»[5] «فلما خرجتْ نفسـه لم أجد ريحـاً قط أطيب منها»[6]. عندها بكت فاطمة والدها بحرقة.. بكته بقلبها ودمعها وقالت: «يا أبتاه أجاب رباً دعاه

يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»[7]

أما عائشـة الشابة المفجوعة، فقد أذهلها ما حدث، وتحدثت عن ذهولها فقالت: «مات رسـول الله ﷺ بين سـحري ونحري، وفي بيت لم أظلم فيه أحداً، فمن سفهي وحداثة سـني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألدم مع النسـاء وأضرب وجهي»[8].. بكت أمهات المؤمنين، وبكت النساء، وبكى الرجـال، ولم يبك عمر بن الخطاب. بل قام يخطـب غاضباً فيمن حوله، ومهدداً من يقول أن رسول الله ﷺ قد مات. فطلب بعض الصحابة من رجل من أهل الصفة اسمه

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٦.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٥) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٦) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٢١ ثنا عفان ثنا همام أنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عفان ثقة ثبت التقريب ٣٩٣ وشيخه بن دينار ثقة وبقية السند لا يسأل عنه وقد مر كثيراً.

(٧) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

(٨) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي الدلائل ٧-٢١٣ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه سمعت عائشة. يحيى ووالده ثقتان وقد مر معنا كثيراً.

(سالم بن عبيد) أن ينادي أبا بكر، فقد اشتد غضب عمر حتى لقد قال من شدة الصدمة: «لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا.

فسكتوا، وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبي قبله.

قالوا: يا سالم، اذهب إلى صاحب النبي ﷺ فادعه.

قال سالم: فخرجت فوجدت أبا بكر قائماً في المسجد[1].

قال أبو بكر: مات رسول الله ﷺ؟ قلت: إن عمر يقول: لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا.

فوضع يده على ساعدي، ثم أقبل يمشي حتى دخل، فوسعوا له حتى أتى النبي ﷺ فأكب عليه حتى كاد أن يمس وجهه وجه النبي ﷺ، حتى استبان له أنه قد مات.

فقال أبو بكر: إنك ميت وإنهم ميتون»[2].

وصل أبو بكر من بيته الذي يقع في مكان شرقي المدينة يقال له (السنح) «أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم[3] رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين. أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها»[4] ثم:

خرج أبو بكر في وقت أبي بكر

خرج إلى هذه الجموع المفجوعة بنبيها، فشاهد عمر يهدد من يقول أنه مات، ويهدد المنافقين بأن النبي ﷺ سوف يعود ليمزقهم، فرجع بعضهم عن النفاق. لكن

---

(١) مسجد خاص به في منطقة السنح.

(٢) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٤-٢٦٣ أنبأ قتيبة بن سعيد حدثنا حميد ابن عبد الرحمن عن سلمة بن نُبيط عن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد. ونبيط صحابي صغير ونعيم تابعي ثقة: التقريب ٥٦٥ وهو ابن أبي هند وتلميذه ثقة: التقريب ١-٣١٩ وحميد الرواسي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢٤٨ وقتيبة ثقة ثبت : التقريب ٤٥٤.

(٣) أي توجه نحوه.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

كلمات عمر كانت كلمات مفجوع مصدوم.. كان ظرفاً ليس له سوى أقرب الناس من النبي ﷺ، وأكثرهم صحبة له.

خرج أبو بكر بحزن ويقين كالجبال، ليزيل عن العقول كلمات عمر، وتخاريف الفاجعة. أخذ الأمة مما هي فيه إلى كتاب الله، فأفاقت العقول، ورضيت بقضاء الله. لم ينههم عن الحزن ولا عن البكاء، ولكن نهاهم عن الاستسلام للعواطف، والانجراف في تيارها، فيهلكون كما هلكت الأمم السابقة. فما هي:

خطبة عمر

تقول عائشة: «فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم.

فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ، فقبله. قال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً. والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً.

ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك. [وعمر رضي الله عنه يكلم الناس. فقال: اجلس. فأبى. فقال: اجلس. فأبى.

فتشهد أبو بكر رضي الله عنه. فمال إليه الناس وتركوا عمر][1] فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ، فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾

فنشج الناس يبكون»[2] بكاء المفجوع الذي أدرك الحقيقة، وأفاق مما هو فيه من صدمة.

---

(١) صحيح البخاري ١-٤١٩.

(٢) صحيح البخاري ٢-١٣٤١.

كان ابن عباس هناك، وقد وصف حال الصحابة بعد خطبة أبي بكر فقال: «والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها من الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها»[1]

كان أبو بكر رضي الله عنه رجل المهمات الصعبة.. أعاد الأمة إلى صوابها، وقال لها في غياب نبيها المفجع: إن هذا النبي الحبيب يظل بشراً وعبداً لله، وأن الغلو فيه ليس من صفات المؤمنين، وليس من هديه عليه السلام. فلم يبق سوى الصلاة عليه، واتباع رسالته والمشي على خطاه، وما عدا ذلك فهو من الغلو الذي قال عنه النبي ﷺ وهو حي: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله»[2]

أما عمر رضي الله عنه، فكان أكثر المستجيبين لتلك الآيات، وأكثر المتأثرين بخطبة أبي بكر، لدرجة أنه سقط على الأرض من شدة التأثر، يقول رضي الله عنه: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها. علمت أن النبي ﷺ قد مات»[3]

كانت تلك اللحظات شديدة الدقة والخطورة والحزن، فقد رحل النبي ﷺ عن الدنيا، وهي مصيبة ما بعدها مصيبة. كما كان هناك أيضاً الفراغ الهائل الذي تركه من بعده.. حيث إن الأمة اليوم دون قائد يرأسها. وهذا الفراغ يكون أكثر خطورة على الأمة إذا كان الراحل قائداً عظيماً، فكيف إذا كان الراحل اليوم ليس مجرد قائد عظيم فحسب، بل نبي يأتيه الوحي من السماء، وتحمله الأمة كلها في قلوبها.

شعر بعض رجالات الأنصار بهذا الفراغ، فرشحوا سعد بن عبادة لخلافة النبي ﷺ، بينما توجه علي بن أبي طالب والزبير بن العوام حزينين إلى بيت فاطمة، في الوقت الذي كان فيه أبو بكر مشغولاً بالأمة، والأمة مشغولة بفجيعتهاوبحزنها على نبيها. لكن أبا بكر يتجدد عظمة في مثل هذه الظروف الحرجة والعصيبة.

---

(١) صحيح البخاري ٤ - ١٦١٨.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٧١.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

انطلق رضي الله عنه إلى حيث أخوانه الأنصار، بعد أن سمع باجتماعهم ليرى ما يجري هناك.. خشية أن تفترق الأمة بعد توحيدها، أو تتمزق بعد تلاحمها، أو أن تقع فتنة بين الأنصار والمهاجرين الذين التفوا حول أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.

ولما وصل أبو بكر وجدهم قد التفوا حول رجل مريض، وقد غطوه. كان ذلك الرجل هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة، وهم يريدون مبايعته بالخلافة. لكن عمر بن الخطاب كان له رأي آخر، في ذلك المكان الذي اجتمع فيه الأنصار والمهاجرون والمسمى بـ:

سقيفة بني ساعدة

دعونا نتجه إلى سقيفة بني ساعدة، والذي سيأخذنا إلى هناك شاب من أهل بيت النبي ﷺ.. هو عبد الله بن عباس الذي يقول إن عمر بن الخطاب قال: «كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، [فاجتمع المهاجرون يتشاورون، فبينا هم كذلك يتشاورن إذ قالوا: فانطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار، فإن لهم في هذا الحق نصيباً] فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان. فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم.

فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة. فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك.

فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني، أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد. فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك.

فكرهـت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها، أو أفضل منها، حتى سكت.

فقال: ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم.

فأخـذ بيدي، وبيد أبـي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننـا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم، أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.

فقـال قائل من الأنصار: أنا جذيلهـا المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش.

فكثـر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقـت من الاختلاف. [فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال: [سـيفان في غمد واحد!! إذاً لا يصطلحا]، يا معشـر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسـول الله ﷺ قد أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟

فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر رضي الله عنه][1]. [قلت: يا معشـر الأنصار، يا معشـر المسـلمين، إن أولى الناس بأمر نبي الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، أبو بكر السباق المتين. [من هذا الذي له هذه الثلاث:

إذ هما في الغار، من هما؟

إذ يقول لصاحبه، من صاحبه؟

لا تحزن إن الله معنا، مع من هو؟

فبسط عمر يد أبي بكر رضي الله عنهما فقال: بايعوه.

---

(١) سـند الزيادة حسـن رواه أحمد ١-٢١ وغيره من طرق عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود وعاصم ابن أبي النجود إمام القراء حسـن الحديث من رجال الشـيخين التقريـب ١-٣٨٣ والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها] ثم أخذت بيده، وبدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده][1] فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة.

فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة.

فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما نخالفهم، فيكون فساد، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين، فلا يتابع هو ولا الذي بايعه»[2]

كل هذه الأحداث جرت بسرعة كبيرة، خلال يوم الاثنين الذي مر بحزن وسلام، فقد أصبح للدولة الإسلامية قائد جديد وللمسلمين إمام كفوء لقيادتها، وفي زمن قياسي، وباقتناع الأكثرية.. تقبل الأنصار قيادة أبي بكر المهاجر إلى أرضهم، لأنهم رجال تثقفوا بالكتاب، والسنة وآمنوا بالله ورسوله، ورضوا أن يؤمهم رجل ارتضاه لهم النبي ﷺ، وهو حي بين أظهرهم، فيكف لا يرضونه بعد مماته.

ارتضوه وهم الذين ما كانوا ليقبلوا رجلاً من غيرهم، لو لم يتشبعوا بالتربية الإسلامية العظيمة، بل ما كان الأوس ليقبلوا عليهم زعيماً من الخزرج، ولن يرضى الخزرج أن يتأمر عليهم زعيم من الأوس لو كانوا لا يزالون على ثقافتهم الخشبية الجاهلية.. ثقافة الأصنام التي أزاحها الإسلام عن قلوبهم وعقولهم إلى غير رجعة.

أما أبو بكر فلم يشغله حزنه على نبيه عن مسؤوليته الضخمة تجاه أمته، فهذا الرجل العظيم هو الذي أعاد للمفجوعين رشدهم، وهو الذي ساقته طول صحبته لنبيه

---

(١) سند الزيادة صحيح رواها ابن إسحاق ومن طريق الضياء في المختارة ١-٢٨٨ حدثني عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر قال وهو سند صحيح فعبد الله بن حزم الأنصاري تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين وبقية السند سند البخاري والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٥٠٦.

عليه السلام إلى النظر للأمور بمنظار أبعد وأكثر اتساعاً، فاستحق أن يواصل صلاته بالأمة الظهر والعصر وبقية الصلوات، بعد أن استقر الوضع السياسي، ليعود للنفوس كمدها وحزنها على نبيها ﷺ في يوم أسود، عاشه أنس بن مالك فقال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رســول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شــيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء»(١)

ومضى ذلك اليوم لترحل شمس الاثنين بالفتنة جثة هامدة.. مضى الإثنين الحزين

وجاء يوم الثلاثاء

وقبــل أن يصلــي أبو بكر في النــاس صلاة الصبح.. قام عمــر فتوجه إلى المنبر مخاطبــاً الصحابــة، ومعتذراً عما بدر منه بالأمس من أقــوال، وداعياً بقية الصحابة لمبايعة أبي بكر رضي الله عنه.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفي النبي ﷺ، فتشهد، وأبو بكر صامت لا يتكلم.

قــال: كنت أرجو أن يعيش رســول اللــه ﷺ حتى يدبرنا - يريــد بذلك أن يكون آخرهم - فإن يك محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به، بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولى المسلمين بأموركم، فقوموا فبايعوه. وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة على المنبر»(٢)

وبعــد أن انتهــى عمر من خطبته نزل عن المنبر، وطلــب من أبي بكر الصعود كي يبايعه المؤمنون، لكن أبا بكر رفض، فلم يزل عمر يلح عليه حتى صعد.

يقول أنس: «سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر.

---

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-٥٨٨ وغيره من طريق جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس، جعفر صدوق زاهد : التقريب ١-١٣١ وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة»[1] «فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، [فلما قعد أبو بكر رضي الله عنه على المنبر نظر في وجوه القوم، فلم ير علياً رضي الله عنه، فسأل عنه؟ فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ.

ثم لم ير الزبير بن العوام رضي الله عنه، فسأل عنه حتى جاءوا به، فقال: ابن عمة رسول الله ﷺ، وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله.. فبايعاه]

فتكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله رسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[2]

فنهض الجميع إلى الصلاة خلف أبي بكر وقد اطمأنوا، فالأمة قد اجتمع أمرها على خليفة لرسول الله، ليعود الحزن إليهم ورسول الله ﷺ مازال مسجى لم يدفن بعد، وقد فقدوا الأمل بعودته ليؤمهم في الصلاة مرة أخرى.. فخالطت صلاتهم الدموع والوجد على أرحم الناس بهم، وأحناهم وأكثرهم رفقاً، ونشج البعض وهم يرون مكانه ومنبره، وبكى الأطفال الحسن والحسين وأمامة، فجدهم لن يحملهم إلى المسجد بعد

---

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٨٢ حدثني الزهري حدثني انس. الزهري أوثق طبقته، والمقطع الذي بين المعقوفين سنده صحيح رواه الحاكم ٣-٨٠ والبيهقي في الكبرى ٨-١٤٣ من طرق عن وهيب ثنا داود بن أبي هند ثنا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري. أبو نضرة اسمه المنذر بن مالك بن قطعة تابعي ثقة: التقريب ٥٤٦ وداود تابعي صغير وثقة متقن: التقريب ٢٠٠ وتلميذه وهيب بن خالد بن عجلان ثقة ثبت، التقريب ٥٨٦.

اليوم، وازداد وجع أهل الصفة على الرحمة المهداة.. على من كان يقاسمهم شربة اللبن وكسرة الرغيف، ويواسيهم بابتساماته وكلماته عندما يجوع مثلهم، فلا يجد لبطنه الخالي سوى حجر يربطه عليه.

وبعد أداء الصلاة استيقظت بقية الأوجاع من جديد، وتعالى النشيج وعاد الذهول، فقد حانت لحظات الوداع الأخيرة.. حان موعد الوداع المرير الذي لا يطاق.. وبدأ الإعداد لـ:

تغسيله ﷺ وتكفينه

فقد قال أبو بكر رضي الله عنه لأبناء عمه ﷺ: «دونكم صاحبكم (لبني عم رسول الله ﷺ) يعني في غسله يكون أمره»[1]

وكان ذلك في آخر النهار، فكان الذي تولى تغسيله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا أدري بالتحديد من هم الصحابة الذين شاركوه في تغسيله من أبناء عمومته، لكنهم كانوا في حيرة من أمرهم قبل أن يبدأوا بتغسيله عليه السلام.. هل يخلعون ثيابه، أم يغسلونه في ثيابه التي مات بها..؟

وقد كانت هذه الثياب «إزار غليظ مما يصنع باليمن، وكساء من التي يسمونها الملبدة»[2] وعائشة رضي الله عنها «تقسم بالله إن رسول الله ﷺ قبض في هذين الثوبين»[3] وبينما هم في حيرتهم تلك نزلت

آخر المعجزات عند غسله

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري، أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟

فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلِّم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه.

---

(١) جزء من حديث سالم الصحيح وهذه رواية البيهقي ٨-١٤٥.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٦٤٩.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٤٩.

فقاموا إلى رسول الله فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم»[1] أي أنهم يدلكون القميص على جسـده الطاهر عليه الصلاة والسـلام بعد سـكب الماء على الثوب، وكان علي رضي الله عنه يتأمل رسول الله ﷺ وهو يغسـله، وكأنه يبحث عن شـيء فيقول: «غسلت رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر ما يكـون من الميت فلم أر شـيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً ﷺ»[2] وبعد أن انتهوا من غسـله ندمت عائشة قائلة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»[3] أي أنها تمنت لو غسـله نساؤه، فهن في نظرها أولى من الرجال، وكأنها تتذكر ابتسامته عليه السـلام لها قبل أسـبوع وحديثه العذب عندما «رجع إلي رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه.

قال: بل أنا يا عائشـة وا رأساه ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ثم دفنتك..؟

قلـت: لكأني بـك أن لو فعلت ذلك قـد رجعت إلى بيتي، فأعرسـت فيه ببعض نسـائك. فتبسـم رسـول الله ﷺ»[4] وكأنها فهمت من هذا الحديث أن تغسيل الزوج لزوجته والعكس هو الأولى، لكن ذلك لم يحدث، وشـرف الله علياً ومن معه بتغسـيل نبيه، وفي آخر غسلة قام بها:

مزج الماء بالكافور

في آخر غسـلة لجسـد النبي ﷺ وهي التي أرشد إليها عليه السلام من يغسلون الموتى وهي تسـاعد على نقاء جسد الميت ونظافته، وقد حضر الصحابي عبد الله بن

---

(١) سـنده صحيح مر معنا كثيرا رواه ابن إسـحاق السيرة النبوية ٦-٨٤ ومن طريقه الطبري ٢-٢٣٩ وغيره: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة.

(٢) سـنده صحيح رواه الحاكم ٣-٦١ والبيهقي في الدلائل ٧-٢٤٣ والكبرى ٣-٣٨٨ من طرق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن علي رضي الله عنه وسعيد إمام طبقته وكذلك تلميذه ومعمر بن راشد إمام ثقة ثبت فاضل انظر التقريب ٢-٢٦٦.

(٣) هو آخر حديث عائشة السابق عند ابن إسحاق.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حبان ١٤-٥٥١ وغيره وقد مر معنا عند الحديث عن بداية مرضه ﷺ.

مغفـل رضي الله عنه ذلك العمل فروى ذلك لمن حوله قائلا: «إذا أنا مت فاغسـلوني واجعلوا في آخر غسلة كافوراً»[1] ثم قال: «فإني رأيت رسول الله ﷺ فعل ذلك به»[2]

وبعد أن انتهى علي ومن معه من تغسيله ﷺ قام بـ

تطييبه عليه السلام

فقد طيبه بمسـك ثم احتفظ بباقيه، كي يحنط به عند موته. يقول أحد أصحاب علي: «كان عند علي مسـك فأوصى أن يحنط به، وقال علي: وهو فضل حنوط رسول الله ﷺ»[3] أي باقي المسك الذي طيب به النبي ﷺ، ولما انتهوا من تطييبه بدأوا بـ:

تكفينه ﷺ

فجاء عبد الله بن أبي بكر الصديق بحلة يمانية غالية.. اشتراها لكي يكفن فيها النبي ﷺ، فكفن فيها، ثم تشـاور الصحابة، فأحسـوا بأن الأمر فيه تكلف، فنزعوها عنه، ثم كفن عليه الصلاة والسـلام في ثلاث أثواب قطنية بسيطة.. ليس من ضمنها قميص أو عمامة.

تقول عائشة رضي الله عنها: «كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسـف، ليس فيها قميص ولا عمامة، أما الحلة فإنما شـبه على الناس فيها أنها اشـتريت له ليكفن فيها، فتركت الحلة، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، فأخذها عبد الله بن أبي بكر فقال: لأحبسنها حتى أكفن فيها نفسي.

---

(١) سـنده حسـن رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٤-٢٨ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله ابن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف: التقريب ٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

(٢) سـنده حسـن رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٤-٢٨ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله ابن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف: التقريب ١-٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

(٣) سـنده صحيح رواه الحاكم ١-٥١٥ وغيره من طريق: حميد بن عبد الرحمن الرواسـي ثنا الحسـن بن صالح عن هارون بن سعد عن أبي وائل قال وأبو وائل مخضرم ثقة وتلميذه العجلي صدوق رمى بالتشيع والرفض وقيل رجع عنه: التقريب: ٢-٣١١ والحسـن بن صالح ثقة فقيه عابد رمي التقريب ١٦١ وحميد ثقة من رجال الشيخين التقريب ١٨٢.

ثم قال: لو رضيها الله عز وجل لنبيه لكفنه فيها، فباعها وتصدق بثمنها»[1].

ولما فرغوا رضي الله عنهم من تكفينه أرادوا:

الصلاة عليه

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قد سألوا أبا بكر فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ، هل يصلى على النبي ﷺ..؟ قال: نعم»[2] وكان بيت النبي ﷺ ومسجده محاطاً بجموع الصحابة رجالاً ونساء وأطفالاً ينتظرون الصلاة عليه، لكن بيت عائشة لا يتسع لهم جميعاً، فقد قدم صحابة من أطراف المدينة وما حولها، ولا يمكن أن تحرم هذه الجموع المحبة المفجوعة من الصلاة على نبيها ووداعه والدعاء له، فسألوا أبا بكر رضي الله عنه عن كيفية الصلاة على النبي ﷺ..؟ فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ، هل يصلى على النبي ﷺ قال: نعم. قالوا: وكيف يصلى عليه؟ قال: يدخل قوم فيكبرون ويدعون ويجيء آخرون»[3]

فنظموهم مجموعات مجموعات، وحددوا أحد أبواب عائشة للدخول، وآخر للخروج بعد أداء الصلاة. يقول أحد الذين شاهد تدفق أمواج الحب تلك: «لما قبض رسول الله ﷺ قالوا: كيف نصلي عليه؟

قالوا: ادخلوا من ذا الباب أرسالاً أرسالاً، فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر»[4] فتحولت الحشود إلى مجموعات صغيرة ودخلت بترتيب وسكينة وخشوع مخضبة بالدموع والبكاء، فتحول المسجد وبيت عائشة إلى ساحة من النحيب والأنين، والرضا بقضاء الله والحمد للذي لا يحمد على مكروه سواه، ولا أدري ما حال المكان بعد دخول أمهات المؤمنين وبقية النساء.. لا أدري ما حال الفقراء والمساكين وأهل الصفة وهم يصلون على كافلهم والحاني عليهم..؟ وكيف هي حال المدينة كلها في ذلك اليوم الثقيل المؤلم..؟

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٤٩.

(٢) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٣) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٤) سنده صحيح رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢-٢٨٩ أخبرنا عفان بن مسلم والأسود بن عامر قالا أخبرنا حماد بن سلمة قال أخبرنا أبو عمران الجوني أخبرنا أبو عسيم شهد ذلك.. وأبو عمران الجوني هو عبد الملك بن حبيب تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٥١٨ وحماد إمام معروف وكذلك تلميذه عفان والأسود هو المعروف بـ: شاذان وهو ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٧٦.

انتهى الرجال والنساء والأطفال من الصلاة على النبي ﷺ، فإذا الدنيا مساء، وإذا الشمس قد غربت فلم يجدوا بداً من:

دفنه ليلاً

في غرفة عائشة، وذلك لأنه المكان الذي توفي فيه، وقد سألوا أبا بكر عن ذلك فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ هل يدفن النبي ﷺ؟ قال: نعم. قالوا: وأين يدفن؟ قال: في المكان الذي قبض الله فيها روحه، فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيبة»(١)

وتقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النبي ﷺ قالوا: أين يدفن فقال أبو بكر: في المكان الذي مات فيه»(٢) لكن الصحابة قد تحيروا من ذهولهم في كيفية شكل قبره.. هل يضرحون له أم يلحدونه..؟

تقول عائشة الحزينة.. عائشة التي فقدت دلال حبيبها وعنايته: «لما توفي رسول الله ﷺ كان رجل يلحد، وآخر يضرح فقالوا: نستخير ربنا، فبعث إليهما فأيهما سبق تركناه فأرسل إليهما، فسبق صاحب اللحد فألحدوا له»(٣)

والضريح شق مستطيل في الأرض، أما اللحد فشق مستطيل كذلك، ولكن في أسفله، وبالتحديد في جهة القبلة منه ميل في زاوية القبر، يوضع فيها الميت على جنبه الأيمن تجاه القبلة.

وصل الرجل الذي يلحد، فحفر لحداً للنبي ﷺ، وعاونه بعض الصحابة.. كانت المساحي تحفر قلب عائشة ومن معها، وتدمي قلوب المؤمنين والمؤمنات الساهرين حول بيت نبيهم ﷺ.

---

(١) جزء من حديث سالم بن عبيد الصحيح.

(٢) سنده صحيح رواه ابن سعد ٢-٢٩٢ أخبرنا أبو الوليد الطيالسي أخبرنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وأبو الوليد الطيالسي هو هشام بن عبد الملك ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب وبقية السند على شرط مسلم ١٨٣٦.

(٣) سنده قوي رواه أحمد ٣-١٣٩ وابن ماجه ١-٤٩٦ من طريق المبارك بن فضالة حدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك والمبارك صدوق وهو مدلس لكنه صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة حميد الطويل وله شاهد قوي صحيح السند رواه ابن سعد بالسند السابق.

تقول عائشة رضي الله عنها: «ما شعرنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من آخر الليل»[1]، وكان عدد الذين دخلوا القبر أربعة رجال أو أكثر.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه دخل قبر النبي ﷺ علي والفضل وأسامة»[2] وقال أحد الصحابة: «إنهم أدخلوا عبد الرحمن بن عوف، فكأني أنظر إليهم في القبر أربعة»[3] «كأني أنظر إليهم في قبر النبي ﷺ أربعة، علي والفضل وعبد الرحمن بن عوف وأسامة أو عباس»[4] وبعد أن أتموا حفر قبره الشريف ودخلوه.. فرشوا على أرض القبر كساء أحمر يسمى قطيفة.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «جعل في قبر رسول الله ﷺ قطيفة حمراء»[5].

وبعد أن فرشت تلك القطيفة قال علي رضي الله عنه: «إنما يلي الرجل أهله»[6] ويبدو أن عبد الرحمن خرج متأثراً من القبر، فنزل بدلاً منه قثم بن العباس رضي الله عنهم جميعاً، وحانت ساعة الوداع المريرة.. حان وضع الحبيب في قبره، فلن تراه العيون بعد اليوم إلا يوم القيامة.. حانت ساعة النحيب المر في ليلة كان السهر والحزن هو الجليس لأهل المدينة، حيث حمل النبي ﷺ فاستلمه علي ومن معه في القبر، فأدخلوه في اللحد على جنبه الأيمن باتجاه القبلة، ثم جعلوا اللَّبِنَ منصوباً على اللحد، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يشهد المنظر ويقول لمن حوله: «ألحدوا لي لحداً، وانصبوا علي اللبن نصباً كما صنع برسول الله ﷺ»[7]

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٣-٥٢٠ عن ابن جريج وغيره عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة عن عائشة.. عمرة تابعية ثقة أكثرت الرواية عن عائشة وأبو بكر بن محمد عمرو بن حزم وابنه ثقتان وابن جريج ثقة وقد توبع لأنه مدلس كما رواه ابن إسحاق عن فاطمة بنت المنذر وفاطمة بنت محمد عن عمرة عائشة.

(٢) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب. إسماعيل ثقة ثبت: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٣) سنده صحيح وهو الحديث السابق.

(٤) سنده صحيح وهو لفظ عبد الرزاق.

(٥) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

(٦) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب وهذا السند صحيح إسماعيل ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٧) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

وبعد أن فعل علي ومن معه ذلك خرجوا ليهيلوا التراب على القبر، وكان آخر من خرج من القبر قثم بن العباس.

يقول علي رضي الله عنه: «أحدث الناس عهداً برسـول الله ﷺ قثم بن عباس»[١]

لكن المغيرة بن شـعبة كان يرقب المشـهد بألم.. كان يفرك دهاءه كي يمس النبي عليه السـلام في قبره قبل أن يهال التراب عليه: «فلما وضع في لحده ﷺ قال المغيرة: قد بقـي من رجليه شـيء لم يصلحوه. قالوا: فادخل فأصلحـه، فدخل وأدخل يده فمس قدميه فقال: أهيلوا علي التراب.

فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف سـاقيه، ثـم خرج فكان يقول: أنا أحدثكم عهداً برسول الله ﷺ»[٢].

أهالوا التراب والدموع عليه، وبكاه من في بيت عائشة، ومن في المسجد، ومن في الطرقـات والمنازل.. بكوا ذلك النبي الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.. بكوا محمداً الذي كانت مصيبة موته تخفف كل المصائب التي تمر بهم.. محمداً الذي فارق الحياة جسـداً، لكنه بقي سـنة ومنهجاً.. نهض الصحابـة من عند قبره مثقلين بالكمد.. محملين بسـنته وقرآن ربه وربهم.. نهض الصحابة بعد دفنه ولم يعكفوا عند قبره، ولم يحولوا ذلك القبر إلى مزار مرصع بالجواهر مطلي بالذهب، بل إن عائشـة استمرت في السكن في بيتها ولم تفارقه، أما الصحابة فلم يضيعوا أوقاتهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات، بل ولا بقراءة القرآن.

لقد علمهم عليه الصلاة والسـلام كيف يصنعون الحياة.. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال.. نهضوا من عند قبره فحملوا رسالته إلى العالم لينقذوه بها كما أنقذهم هو قبل ذلك بها. فصلى الله عليه وسلم، وجزاه عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وجمعنا به في جناته في الفردوس.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٧ حدثني أبي؛ إسحاق بن يسار عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل عن مولاه عبد الله بن الحارث عن علي وهو سـند صحيح فوالد ابن إسحاق تابعي ثقة وكذلك مقسم وعبد الله بن الحارث مجمع على توثيقه انظر التقريب ١-٤٠٨.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٨١ وغيره من طريق عن حماد بن سلمة عن أبي عمران يعني الجوني عن أبي عسـيب أو أبي عسيم قال بهز إنه شهد الصلاة على رسـول الله ﷺ.. وأبو عسيب صحابي وأبو عمران الجوني اسمه عبد الملك بن حبيب وهو ثقة من كبار التابعين: التقريب ١-٥١٨ وحماد إمام ثقة معروف.

الفهرس



صدر للمؤلف

- (الفقه السهل) نشر مكتبة العبيكان.
- (التوارة والقرآن والإنجيل) نشر مكتبة العبيكان.
- (الجنة حين أتمنى) توزيع مكتبة العبيكان.
- (العقل العربي اللامفكر فيه والمسكوت عنه في مقاربات العقل العربي) توزيع مكتبة العبيكان.



هذه سيرة محمد ﷺ

الذي «كان أحسن الناس وجهاً.. وأحسنهم خلقاً.. أبيض مشرباً بحمـرة.. أسود الحدقة أهدب الأشفـار.. بعيد ما بين المنكبين.. أسيـل الخدين.. شديد سواد الشعـر.. له شعر يبلغ شحمة أذنيه.. أكحل العينين.. إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس لـه أخمص.. إذا وضـع رداءه عن منكبيه فكأنها سبيكة فضــة.. كان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة مذهبة.

شعره دون الجمة وفوق الوفرة.. شيبه نحو عشرين شعرة.. إذا مشــى.. كأنــه يتوكأ.. يمشي مشيـاً يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كســلان.. إذا مشى مشى أصحابه أمامه وتركوا ظهره للملائكة.

يمر بالنساء فيسلم عليهن.. يمر بالصبيان فيسلم عليهم. كان أرحم الناس بالصبيان والعيال.. كان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم.. وإذا قدم من سفر تُلقي بصبيان أهل بيته»

كان عطـراً مـن التواضـع.. كان عبقاً فـي الطرقات» لا يأنـف ولا يستكبر أن يمشـي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي لـه حاجته.. وكان مما يقوله للخادم: ألك حاجة؟

كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

إذا لقيه أحد من الصحابة فتناول يده.. ناوله إياها.. فلم ينزع حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يـده منــه.. وإذا لقي أحداً من الصحابة فتناول أذنه.. ناوله إياها.. ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هــو الذي ينزعها عنــه.. إذا لقيه أحد من الصحابة فقام معه.. قام معه حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه.. كان أكثر الناس تبسماً.

كان يعرف بريح الطيب إذا أقبل.. يعجبه الريح الطيبة.. ولا يرد الطيب.

كان أكثـر النـاس تبسمـاً.. لا يُدفع عنه النـاس ولا يُضربوا عنه.. إذا لقيه الرجـل من أصحابه مسحه ودعا له.

كان يحلب شاته ويخدم نفسه.. كان يخيط ثوبه.. ويخصف نعله.. ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم».

هــذه بعض صفاته الجميلة.. أما سيرته.. وحياته فهي سطور هذا الكتاب الذي يعرضها قصة.. لكن موثقة بالأحاديث الصحيحة المخرَّجة.


"ISBN"G:978-603-503-571-2
9 786035 03571 2



موضوع الكتاب: السيرة النبوية